شهادات سجناء سابقين

في سجون النظام النصيري البعثي

الطبعة الثالثة

إعداد : منبر المسلم

إعداد : منبر المسلم

الطبعة الثالثة
1428هـ - 2007م

مقدمة الكتاب :

الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ، وأصلى واسلم على النبي المبعوث رحمة للعالمين ، نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأتم التسليم ، وبعد :

لقد تجرع الكثيرون كؤس الآلم والتعذيب على أيدي جلادي النظام النصيري ، حيث سبب النظام النصيري للمسلمين وللشعب السوري مآسي كثيرة ، حيث أنشئ السجون والمعتقلات ، وزج في السجون الآلاف من أبناء الشعب السوري ، وبعد خروج بعض هؤلاء الذين وقعوا ضحية في سجون النظام النصيري ، قام بعضهم بكتابة شهادته ، على ما جرى لهم داخل السجون من تعذيب وظلم ، ولقد قمنا في هذا الكتاب ، بجمع بعض هذه الشهادات لسجناء سابقين ، لكي يعرف الناس مدى حقد وإجرام هذا النظام النصيري البعثي .

قال الله تبارك وتعالى : {وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ }إبراهيم : 42 .
قال الله عز وجل : {وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} (21) سورة يوسف .
قال تعالى : {وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ} (55) سورة الأنعام .
قال جل في علاه : {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} (65) سورة يــس .
قال الله عز وجل : {يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ} (41) سورة الرحمن .
اللهم أعز الإسلام والمسلمين ، وأذل الشرك والمشركين ، ودمر أعداء الدين ، وأنصر عبداك الموحدين .

الفهرس :

- مقدمة الكتاب 3
أولاً: شهادات السجناء في عهد الطاغية النصيري الهالك " حافظ الأسد " .
- [الشهادة الأولى] تدمر شاهد ومشهود / بقلم: محمد سليم حماد (قضى 11 عاماً في سجن تدمر) 6
- [الشهادة الثانية] خمس دقائق وحسب ! تسع سنوات في سجون سورية بقلم: هبة الدباغ 119

- [الشهادة الثالثة] شهادة المعتقل السابق عباس محمود عباس 219
- [الشهادة الرابعة] شهادة مهندس سوري يروي تجربة اعتقاله في تدمر 232
- [الشهادة الخامسة] الطريق إلـى تدمر ياسين الحاج صالح 239
- [الشهادة السادسة] شهادة - 11 عاما في السجن بجرم عدم الوشاية بالجار!! 247
- [الشهادة السابعة] المعتقل السابق أصلان عبد الكريم في حديث للعدالة عن تجربة اعتقاله 251
- [الشهادة الثامنة] شهادة العقيد توفيق الطيراوي عن العذاب الذي تعرض له في السجن 256
- [الشهادة التاسعة] شهادة خالد فاضل بعنوان "في القاع سنتان في سجن تدمر الصحراوي" 263
- [الشهادة العاشرة] شهادة بعنوان " حمامات الدم في سجن تدمر " 441
- [الشهادة الحادية عشر] بقلم السجين سابقاً / حسن الهويدي – بعنوان " تدمر في الذاكرة " 628
- [الشهادة الثانية عشر] هل سيأتون الليلة ؟ بقلم : د. جميل قدري 683
- [الشهادة الثالثة عشر] بعض الذكريات من منزل الموتى - بقلم : آرام كربيت 689

ثانياً: شهادات السجناء في عهد الطاغية النصيري " بشار الأسد " .

- [الشهادة الرابعة عشر] الرياضي العراقي هلال عبد الرزاق علي يروي قصة معاناته في أشهر سجون دمشق 696

- [الشهادة الخامسة عشر] واقعة أمنية سورية (المخابرات السورية تعتقل الشيخ حسين بن محفوظ (مواطن يمني) في عهد الطاغية بشار الأسد) 717
- [الشهادة السادسة عشر] شهادة شهادة سجين جزائري حاول العبور للعراق للجهاد في سبيل الله 720
- مصادر الكتاب 726

****

جديد الطبعة الثالثة :

- [الشهادة الحادية عشر] بقلم السجين سابقاً / حسن الهويدي – بعنوان " تدمر في الذاكرة " 628
- [الشهادة الثانية عشر] هل سيأتون الليلة ؟ بقلم : د. جميل قدري 683
- [الشهادة الثالثة عشر] بعض الذكريات من منزل الموتى - بقلم : آرام كربيت 689
- [الشهادة السادسة عشر] شهادة شهادة سجين جزائري حاول العبور للعراق للجهاد في سبيل الله 720

****

[الشهادة الأولى]
تدمر شاهد ومشهود
بقلم السجين السابق / محمد سليم حماد
(قضى 11 عاماً في سجن تدمر)
(هذه الشهادة عبارة عن كتاب كتبه محمد سليم حماد)

محمد سليم حماد، أردني، قضى 11 عاماً في سجن تدمر الصحراوي في سورية، وذاق ورأى خلالها صنوف العذاب والهوان، الذي تُمارسه أجهزة القمع السورية بحق أبناء شعبها، محمد سليم حماد لم يكتم شهادته، بل أصدرها في كتاب، لتكون شهادة على وحشية هذا النظام .

مقدمة

كانت الحياة ضحى ذلك اليوم البارد من آخر أيام سنة 1991 تمضي في مدينة تدمر الصحراوية على غير ما جديد . فالأطفال مضوا مبكرين إلى مدارسهم . والأمهات في المنازل يلُكن الأحاديث مع الجارات وقد أمنّ انصراف الرجال إلى أعمالهم وخلو البيت من المنغصات . والدكاكين في السوق الرئيسي للبلدة استقبلت روادها الذين اختلط النساء فيهم بالرجال ، والمدنيون بالشباب المجندين ، والمترجلون بالراكبين ، والدواب بالسيارات .. وكلٌ ينفث من صدره هماً أو يرسل زفرة التياع . فهذا جندي متأخر في إجازته يريد اللحاق بوحدته العسكرية ولكن سائق السيارة الذي لا يزال يأمل في اصطياد راكب إضافي يماطل ولا يتحرك . وصاحب الدكان ضاق ذرعاً بزبونته التي أطالت معه الجدال من أجل أن يخصم لها من سعر الحاجيات التي اشترتها بضع ليرات هي كل ربحه من هذه الصفقة التافهة ، وما عادت تكف عن الرجاء والاستعطاف .

وحتى الحمار الذي حمّله صاحبه من البرتقال أكثر من قدرته في هذا السن المتقدم صمم فجأة على تسجيل موقف مشرف .. فحرن وسط الطريق العام ، وأحدث أزمة سير سببت له ولصاحبه سيلاً من الشتائم بالألسنة أو الزمامير النزقة .. لكن الحمار وحده هو الذي لم يهتم !

وعلى هذا الطريق ومن حيث تدلف السيارات القادمة من جنوب المدينة فتعبرها باتجاه حمص ، كان أحد باصات "التويوتا" أحمر اللون يغذ بنا السير نحو الاتجاه نفسه ، من غير أن يلفت انتباه أحد من كل هؤلاء الناس أو يعني لهم أي شيء . لكننا نحن ركاب الحافلة الذين ارتدينا جميعاً ملابس عسكرية كاكية اللون تكاد تكون جديدة ، وقبعنا في مقاعدنا يلفنا صمت مطبق ، كنا اللحظة كالخارج من رحم أمه أول مرة ، أو كالقادم إلى الأرض من كوكب لم يكن فيه من البشر من قبل أحد .

وحينما أطلق السائق النزق شتيمة سافلة للحمار وصاحبه ، وتخطاهما يكاد يحرق محرك الباص من غير سبب حقيقي أو مبالاة .. كنت وبقية الركاب الآخرين لا نزال نحملق في الحمار صاحب الموقف .. وببقية عباد الله حوله . ونتابع بعيون نهمة قدر ما هي وجلة كل شاردة وواردة تخطر حولنا . ثم لا نلبث أن نخفض رؤوسنا بانكسار .. ونرد الطرف وهو حسير .. وننصت متوجسين خشية أن يكون أمر ما قد صدر ونحن في سرحاننا هذا فأوجب علينا تلكؤنا بالإجابة العقاب !

ويمضي الباص بنا في اتجاه دمشق .. وتمضي بي الهواجس تسري من جديد ، وتنفجر في داخلي العبارة التي لا تزال تعصف في أذني كالبركان منذ أيام ثلاثة مضت ولا تكف عن الترداد تقول :

"سيادة الرئيس أصدر قراراً بالعفو عنكم .. وإن هي إلا أيام حتى تكونوا بين أهاليكم" .

لكنني أراني كالملسوع ومن غير مقدمات يقفز من أعماق أعماقي صوت آخر كحشرجة المحتضر يقول :

بعد اثني عشرة سنة .. من يُصَدِّقْ ؟ ومن يثق بمن ؟ ثم ماذا إذا صَدَقُوا ؟ أي مستقبل لنا وأية حياة ؟ وأين سيكون موقعنا بين هؤلاء الذين فارقناهم في أعمارنا فصاروا الآن آباء ورجالاً لهم في الحياة مركز وموقع ؟

أو موقفنا من أولاء الذين خلفناهم وراءنا حتى من غير أن نقول لهم كلمة وداع !
وسرعان ما أنتبه من حواري الصامت هذا على أحد المرافقين يقهقه بصوت مجلجل من غير أن أفهم السبب .. أتأمله من طرف عيني فكأنه بشعره النابت وشاربيه المتدليين وسحنته السمراء نوع من المخلوقات انقرض من عهد بعيد واختفى ، ثم ها هو ذا يعود الساعة إلى الوجود !
كان من أغرب المشاهد حقاً علي وعلى قرابة خمسة وثلاثين أخاً يستقلون الباص معي أن نبصر رجلاً طبيعي الهيئة معافى البدن يقهقه ملأ شدقيه بلا خوف ولا وجل .. بعد أكثر من عشرة أعوام أمضيناها في سجن تدمر الصحراوي ، لا نبصر إلا وجوه المعتقلين صفراء ناحلة ، ورؤوس نزلاء الزنازين محلوقة كالبطيخة الملساء .. وهاماتهم مطأطئة من القهر على الدوام .. تتلقى كل أصناف العذاب ، ولا حق لها أن تنبس ولو ببنت شفة !
كانت تلك هي نهاية الكابوس المرعب أو مراحل نهايته الأخيرة . وكانت المشاعر والهواجس خليطاً من الفرح والوجوم .. والبشرى والتوجس .. والتشوف والتخوف . لكن البدايات كانت مذ كانت غير ذلك .. وفاتحة الرحلة ها هي كما ارتحلتُ بها من قديم الزمان .

سنوات الشباب

اسمي محمد سليم حماد . ولدت عام 1960 في العراق رغم أن أهلي من فلسطين . فوالدي رحمه الله سليم حماد المفتش في وزارة التربية والتعليم بالأردن وقتذاك كان في مهمة عمل في العراق حين وضعتني أمي . ثم لم تلبث الأسرة أن عادت إلى مدينة نابلس ، فجرش . قبل أن تحط بنا الرحال في مدينة الزرقاء بالأردن ، حيث نشأت وترعرعت وسط إخوتي الأربعة . وأمضيت عشر سنوات كاملات من سن التاسعة إلى التاسعة عشرة .
لم تكن أسرتي بالأسرة الملتزمة أو صاحبة الانتماء السياسي المحدد . الوالدان يصليان كعادة أهل البلد ، لكن الدين عندهما لا يزيد عن ذلك بكثير . وحين بدأت أتردد على المسجد وأبدي وأنا في المرحلة الإعدادية ما يمكن أن يسمى اهتماماً أكثر بالدين ، بدأت علامات

التململ تظهر في البيت . وحين تحول هذا الاهتمام إلى درجة أشد وأخذت أتفاعل مع الإسلام كقضية وبدأت أنشط في هذا الاتجاه ، انقلب التململ الخفي إلى معارضة وتحذير . لكننا تجاوزنا تلك المعارضة بالتدريج بفضل الله . ولم أكن واقع الأمر أحاول إلا أن أطبق الكلام الذي أسمعه في مسجد عثمان بن عفان الذي اعتدت المداومة على الصلاة فيه والالتقاء بالشباب في رحابه من غير رابطة محددة إلى ذلك الوقت . كانت القضية مجرد عاطفة تجيش وتستعر ، لكن التفاعل مع الدعوة إلى الله أخذ يغمرني بشكل متزايد ، وتبليغ الناس هذا النور الذي بلغته أخذ يلح علي كهاجس دائم . كنا مع مجموعة من الأصدقاء الأصفياء نتنافس في الخير . ولا أزال أذكر كيف كنت أستيقظ قبل أذان الفجر بساعة أو أكثر حتى في أشد أيام الشتاء برودة لأذهب إلى بيوت أولاء وأوقظهم للصلاة . وبعد صلاة الجماعة في المسجد كانت لنا جلسة لقراءة المأثورات .
وجلسات ولقاءات في المدرسة بين الصفوف ، وبعد المدرسة ، وفي الصلوات الأخرى . ولم تلبث الأفكار أن بدأت بالتبلور لدي وأنا أتدرج في مراحل الدراسة حتى ملكت علي كل كياني ، وصرت أنفق كل تفكيري في البحث عن مجال نطبق فيه هذه الأفكار إلى حيز الوجود ، ووصلت إلى قناعة تامة بأنه مهما بذلت في سبيل ذلك الهدف فسيرخص دونه . ولم ألبث أن وجدتني عضواً في جماعة الإخوان المسلمين التي تنشط في الأردن بشكل علني ، ويدخلها الناس وينتمون إليها بشكل طبيعي وعادي . وعندما بلغت المرحلة الثانوية كنت مسئولا عن الطلبة المنظمين في مدرستي ولم يكن ذلك بالأمر الذي أخفيه .

منهج ونظام

كانت الحركة الإسلامية في الأردن وقتذاك في بداية تشكيل جديد بعد محنة أيلول عام 1970 . وكان إخواننا وموجهونا يُعْنَوْنَ بتربيتنا ويَجْهَدون لنقل الإسلام المتكامل إلى أذهاننا وعقولنا . فتعلمنا أن هذا الدين هو الطريق الذي تسعد البشرية من خلاله وحده ، وأنه نظام متكامل للحياة .. فهو منهج سياسي وحل اقتصادي وخلق وعبادة ونظام . هو دين الله وسعادة البشرية فيه

، وعلينا نحن الذين تبنيناه أن ننشره بين الناس ونجهد لتطبيقه على شكل نظام سياسي كامل . ولكم كان يحلو لي أن أنشد وقتها بكل جارحة كم جوارحي أبياتاً من قصيدة "شباب الإسلام" للشهيد هاشم الرفاعي يقول فيها وكأنه يتحدث بلسان حالي :

ملكنا هذه الدنيا قرونا
وأخضعها جدود صالحونا
وسطرنا صحائف من ضياء
فما نسي الزمان ولا نسينا

ثم إذا نظر إلى واقعنا ونظرت معه أنشدت أبياته التاليات :

وما فتىء الزمان يدور حتى
مضى بالركب قوم آخرونا
ترى هل يرجع الماضي فإني
أذوب لذلك الماضي حنينا

وتراني من ثم أهتف بانفعال أريد أن أسمع العالم كله أقول :

دعوني من أمان كاذبات
فلم أجد المنى إلا ظنونا
وهاتوا لي من الإيمان نوراً
وقووا بين جنبي اليقينا
أمد يدي فأنتزع الرواسي
وأبني المجد مؤتلقاً مكينا

انه لصعب حقاً أن أصف مشاعري وقتذاك ، لكن الإنسان إذا تبنى فكرة بهذا العمق وهذا القدر من الجدية فإنه يجند كل سكنة وحركة من حركاته في سبيلها . ويشعر أنه على استعداد كامل لانتزاع الرواسي من أجلها .

مخيم النخبة
في عام 1977 عقدت "الندوة العالمية للشباب الإسلامي" مخيماً لها في منطقة "دبين" بالأردن قدر

لي أن أشارك فيه على الرغم من أنني كنت لا أزال في المرحلة الثانوية بعد والمخيم مخصص للجامعيين . وكانت العادة أن نشهد مخيماً أو اثنين في العام نتدرب فيهما على الحياة الخشنة واللياقة البدنية ، ونتلقى من خلالهما بعض المحاضرات والدروس التربوية . لكن الجديد في ذلك المخيم وقتذاك أنني التقيت وللمرة الأولى بنخبة من إخواننا السوريين ، وتعرفت عن كثب على قضيتهم ومعاناتهم وجملة هامة من أفكارهم . الأمر الذي كان له وقع مختلف على نفسي لم تظهر آثاره إلا بعد سنوات .

معاناة مرة

كان مسؤول الخيمة التي نزلت فيها أخاً سورياً اسمه صبري غنام وكنيته أبو عمار . ولا أزال أحس بالأثر العميق الذي تركه هذا الأخ المربي في نفسي ، وأتذكر تماماً صور الإخوة الآخرين والمحبة التي قامت بيننا منذ ذلك الوقت . وعندما دخلت سورية بعد ذلك بسنوات عرفت أن الذين التقيتهم كانوا طليعة الإخوة السوريين ونخبتهم : عصام وعبد الله قدسي . جمال عقيل . جلال جلال . عدنان شيخوني .

كذلك حضر المخيم وقتها الشيخ سعيد حوى وألقى فينا محاضرة مطولة وقتها . لكن المحاضرة التي ألقاها الأخ عدنان شيخوني كانت أول كلام أسمعه عن النظام السوري وتركيبته الطائفية وتسلطه وطغيانه ، وكانت بداية اطلاعي على معاناة إخواننا المرة في سورية . وأتذكر أن أطرافاً من أحاديث وصلتني في المخيم أيضاً عن عمليات الشيخ مروان حديد وقتها . فلما تفجرت الأحداث في سورية بعد عامين كنت أحس أنني قريب من هؤلاء الإخوة ومن قضيتهم ، ووجدتني عندما أتى من أتى وسألني أن أساعد في هذا الإتجاه أَقْبَلُ بلا تردد .. وأُقْبِلُ بكل امتنان وسعادة .

حادثة المدفعية

كانت أيام المرحلة الثانوية قد انقضت وحصلت على المجموع الذي أهلني لدخول كلية العلوم بالجامعة الأردنية . وفجأة ومن غير مقدمات بلغتنا أواخر شهر حزيران عام 1979 أنباء حادثة المدفعية بحلب ، والتي

اتهم الإعلام السوري بها جماعة الإخوان المسلمين وأعلن الحرب عليها من فوره . وسرعان ما انتقل صدى الحادثة إلى صفوف الإخوان الأردنيين ، وعاد الحديث عن طائفية النظام السوري ومظالمه وبطشه بالإسلاميين يسري بيننا ، في الوقت الذي أخذت الصحف المحلية والعربية تسلط الأضواء بطرق شتى على الحادثة ومنفذيها .. وعلى خلفيات الوضع السياسي والطائفي في سوريا بشكل عام .
في ذلك العام كانت مشاعرنا الإسلامية مشدودة مع الثورة الإيرانية أيضاً ، وكانت العواطف الثورية آخذة في التنامي بين أوساط الإخوان الأردنيين . وعلى الرغم من أن العمل المسلح لم يكن وارداً في تربيتنا الإخوانية ، وكانت الجماعة كما أفهمونا دائماً مجرد حركة دعوية وحسب ، إلا أن الفكرة كانت تتشكل وفق نفسية كل فرد منا . ولذلك نشأت مدارس متعددة داخل التنظيم ، التزم بعضها بتوجيهات القيادة وتعليماتها ، ورأى البعض نتيجة حماسته أن علينا أن نبادر ونتصرف بشيء عملي لخدمة هذا الدين ، وأنه لا منفذ لتحقيق ذلك وسط هذه الظروف إلا الاستعانة بالسلاح . وبعد تفجر الأحداث في سورية قوي هذا الاتجاه عموماً ، ولذلك وعندما بدأت أقدم المساعدة للإخوة السوريين كنت في غاية السعادة أحس أنني أقوم الآن بعمل حقيقي جهادي لتطبيق الإسلام الذي حملته كفكرة طوال السنوات الماضية .

إلى دمشق

كانت طبيعة المساعدات التي قدمناها للإخوة السوريين اللاجئين إلى الأردن مجرد خدمات اعتيادية لتسهيل تنقلاتهم واستئجارهم للبيوت داخل البلد . لكننا كنا من خلال ذلك نتعرف أكثر على خلفية الأحداث ونحس المأساة التي تجسدها عوائل كريمة نزحت عن بلادها خوف الملاحقة والاعتقال ، وشباب متفوقون تركوا جامعاتهم ومدارسهم ليعيشوا حياة الاغتراب والتشرد القسري . وكنا نسمع من هؤلاء روايات مثيرة عن البطولات التي تجري ، ونتفاعل مع قصص المواجهات التي يقوم بها حفنة من الشباب في مقابل نظام دكتاتوري كامل العدة والعتاد ، فكأنها ضرب من الخيال . ومن خلال ذلك تعرفت على الكثير من الشباب

السوريين وقياداتهم . ولم ألبث في خضم ذلك أن تلقيت رسالة من سوريا تتحدث عن قبولي في كلية الهندسة المدنية فيها ، والتي كنت قد تقدمت إليها خلال الفترة الماضية رغبة مني في دراسة هذا الفرع الذي أميل إليه . وبالفعل رتبت أموري وحزمت حقائبي ويممت مع بدايات عام 1980 شطر دمشق ، تحدوني الآمال بدخول الكلية التي تمنيتها ، والأمنيات بالإقتراب أكثر من تلك القضية الجهادية الساخنة هناك .

وواقع الأمر فإنني وبعد أن ازددت احتكاكاً بقيادة الإخوان السوريين من خلال تعاملي معهم في الأردن ، فقد تم وصلي بالإخوة السوريين في دمشق ، وحددت لي مهمة مبكرة بتوصيل تعليمات القيادة من الأردن إلى دمشق . وفي هذا السياق تم ربطي مع شخص آخر اسمه مازن كان سائق سيارة على الخط نفسه ، لنؤدي هذه المهمة بالتعاون والتنسيق . وفي عمان كان الأستاذ علي البيانوني "أبو أنس" والأستاذ أديب جاجة "أبو الطاهر" أكثر من كنت أتلقى منهم التعليمات والرسائل وأنقلها بمساعدة مازن ، لنسلمها هناك إلى الأخ سالم الحامد "أبو الفَرَج" أو خالد الشامي أو إخوة آخرين كانوا يأتون من مختلف المدن والمحافظات إلى مواعيد محددة لا نعرفهم إلا بأسمائهم الحركية .

بين الطليعة والإخوان

كان الوضع التنظيمي للإخوان في دمشق في بداية تأسيسه تلك الفترة . فالقيادة في الأردن قررت أن تُنْزِلَ مجموعات من شبابها لتأسيس قواعد جديدة . وتم اختيار أبي الفَرَج ليكون أمين سر مركز دمشق ، وفاروق أبو طوق مسؤولاً عسكرياً . وأما المسؤول العام لمركز دمشق فكان غالب الألوسي . ولم تكن طبيعة المرحلة تتعدى تأسيس القواعد وتأمين أماكن لمن ستختاره القيادة في الأردن للنزول . أما خارج هذا الإطار وبالنسبة للعمليات والأحداث الجارية والمتصاعدة على الساحة في دمشق أو في بقية المحافظات فلم تكن معلوماتي عنها كثيرة وقتها . كنا نسمع الأخبار كباقي الناس ، ولكننا لم نكن نعلم كثيراً عن وجود تنظيم آخر هو الذي ينفذ العمليات ، أو عن وجود خلاف تبين أنه لم

يكن طارئاً ولا سطحياً بين قيادة الإخوان في الخارج وتنظيم الطليعة في الداخل . لكن خلافاً آخر نشأ لاحقاً بين صفوف قيادة مركز دمشق الجديدة هذه حينما أراد فاروق أبو طوق أن ينفذ عملية تستهدف مبنى للخبراء الروس في دمشق ، فاعترض سالم والإخوة الآخرون في القيادة لأن مخطط التنفيذ وطبيعته كانا يقتضيان استخدام كمية من المتفجرات كفيلة بتدمير المبنى وما جاوره من مبان سكنية لمدنيين عاديين . واشتد الخلاف حول الأمر حتى طلب سالم من الشيخ سعيد حوّى استبدال فاروق فتم له ذلك .

مراسلات

مضت الأمور على هذه الشاكلة . أداوم في كلية الهندسة بشكل عادي ، وأساعد بين وقت وآخر في نقل المراسلات وتبليغ المهمات بين عمان ودمشق ، إلى أن قدر الله في يوم من أيام شهر آذار كنت مسافراً وقتها من دمشق إلى الأردن حينما أوقفوني في مركز الحدود السورية من غير مقدمات وأمروني بمغادرة السيارة والذهاب معهم . وكان من لطف الله أنني لم أكن أحمل معي أية رسالة أو أمر يثير الشك يومها . وبت ليلتها في سجن المخابرات بدرعا من غير أن توجه لي تهمة محددة . ولا أزال أذكر كيف اخترق البرد عظامي وجعلني أعاني الليل كله في الزنزانة وحدي تختلط الأفكار في ذهني وتتقلب علي الهواجس قبل أن تأتي دورية للمخابرات صباح اليوم التالي فتأخذني إلى قيادة الأركان بدمشق . ورغم أنني لم أشعر بالخوف مما حدث إلا أن الغموض بحد ذاته كان مخيفاً . وعلى الرغم من أنهم لم يعاملوني بشدة تذكر في الأركان وتبين لهم خلال يومين اثنين أنني لم أكن الشخص المطلوب ، إلا أن الفترة التي أمضيتها بين الزنازين وفي أقبية المخابرات حينذاك كانت كافية لأتبين فظاعة الوضع هناك ومقدار الرهبة والمعاناة التي يلاقيها السجناء : طريقة الأسئلة .. الكلمات البذيئة والمسبات .. الصفعات والإهانات .. وأصوات التعذيب واستغاثات المعذبين . وعندما خرجت وعدت إلى الأردن رأيت الأهل الذين علموا بالخبر مضطربين جداً ، وألحوا علي أن لا أعود . لكنني أصرت على العودة ، ورجعت بالفعل إلى كليتي ، وإلى تأدية

مهمتي مراسلاً مثلما كنت بين القيادة في عمان وأبي الفرج في دمشق .

أبو الفَرَج

كان أبو الفرج رحمه الله العنصر القيادي الأنشط في مجموعة قيادة دمشق . وسالم هو الإبن الأصغر للشيخ محمد الحامد رحمه الله أحد العلماء المشهورين في حماة . وربما كان ذلك أهم أسباب توليته المزيد من المسؤوليات . ولا أزال أذكر أنه طلب مني أواخر أيامه أن يستلم كل المراسلات القادمة من عمان ليوزعها على مراسلي المحافظات بنفسه . وعندما أبديت له خشيتي أن ترهقه المسؤولية أو أن تزداد نسبة انكشافه بازدياد الذين يلتقيهم أصر . وفي اللقاء التالي قال لي بأن الشيخ سعيد حوى يريد ذلك أيضاً ويأمر به . فلم يسعني إلا أن أجيب طلبه . وكان من مفارقات الأمور أن اعتقال سالم أتى بعد فترة وجيزة عن طريق اعتقال أحد هؤلاء المراسلين أنفسهم !

لم يكن سالم وهو أمين سر تنظيم دمشق يمشي مسلحاً ، وعندما سألناه عن ذلك مرة قال لنا : ان حدث شيء فلن يتمكنوا من اعتقالي ، فإما أن أموت أو أن أفلت منهم . لكن الظروف أتت على غير ما توقع سالم ، ففي شهر آب عام 1980 تم اعتقال مراسل حمص ، ولم يكن بين اعتقاله وموعده مع سالم أكثر من ساعة ، لكن الأخ اعترف من شدة التعذيب على الموعد المقرر على موقف باص الزبداني عند وكالة سانا للأخبار .

ولقد حدثني سالم بنفسه فيما بعد كيف وجد مجموعة من المخابرات الذين تنكروا بثوب البداوة وكمنوا في المكان ينقضون عليه فور حضوره ، فيمسكه اثنان منهم من يديه خشية أن يكون مسلحاً ، ويجتمع البقية عليه يوسعونه ضرباً حتى فقد الوعي ، فلما صحى وجد نفسه بين أيديهم في فرع المخابرات لا حيلة له ولا حول .

مفاتيح التنظيم

لم يعترف سالم في البداية إلا أنه مجرد مراسل عادي . لكن العذاب الذي انصب عليه طوال يوم كامل فاق قدرته على الإحتمال . وكانوا عندما اعتقل قد وجدوا مفتاح البيت الذ يتخذه قاعدة خاصة به في جيبه .

وسرعان ما طوقوا المكان وداهموا البيت قرب جامع المنصور بدمشق . وكان سالم يستضيف وقتها أخاً مجاهداً اسمه طريف جعمور ، انبرى وتصدى للمداهمة ، وحدثت مقاومة بطولية من الأخ طريف استمرت ثلاث ساعات ، ولم يتمكنوا منه إلا عندما صعدوا مئذنة الجامع وضربوه بقاذفات الآر. بي . جي . واستشهد الأخ . فلما تم لهم ذلك ودخلوا البيت وجدوا فيه بين أوراق سالم رسالة من الأستاذ عبد الله الطنطاوي من عمان يكلفه فيها أمانة مركز دمشق رسمياً ، فعرفوا وقتها من هو سالم بالظبط . وفي نفس المكان عثرت المخابرات على الهويات المزورة التي يستخدمها التنظيم الناشىء والختم الذي كان يختم به سالم فوق الصور ، فتأكدت لهم الفروقات التي سبق واكتشفوها في الهويات من قبل ، وصار كل شاب يستخدم هذا النوع من الهويات في حكم المكشوف ، وسرعان ما جرى اعتقال الكثير من أولئك في الكمائن داخل دمشق وبقية المحافظات أو على الحدود ، كان من ضمنهم عدد من الإخوة السبعة عشر الذين هربوا من سجن كفر سوسة قبل عدة شهور . فإذا أضفنا إلى ذلك اعترافات سالم تحت التعذيب تأكد لنا أن اعتقال أبي الفرج كان ضربة قاسية للتنظيم ، وانكشافاً للمفاتيح الكثيرة التي كانت بيده رحمه الله .

حياة الشهيد !

لكن الأمر الذي ضاعف المصاب وكبد الإخوة مزيداً من الخسائر كان حقيقة الأمر في قيام نشرة "النذير" الناطقة باسم تنظيم الإخوان بالمسارعة إلى نشر موضوع عن حياة الشهيد سالم الحامد ، ربما سعياً لاستثمار اسم الشيخ محمد الحامد في تحريك الناس ، أو لتحقيق مزيد من الإلتفاف حول مجموعات الإخوان وقياداتهم التي نزلت الميدان من قريب . ومضت "النذير" تتحدث عن أبي الفرج الذي قاوم السلطة ساعات عديدة في بيته بدمشق قبل أن يلقى ربه ، ورسمت له قصة بطولية لا أساس لها من الصحة ! وسادت هذه القناعة بين الإخوة في دمشق وباقي المحافظات ، وظن الناس أنهم في مأمن من اعترافات سالم . وعاد كل منا لمتابعة مهمته بلا أدنى قدر من حذر . وكذلك كان الحال معي ، وانتقلت صلتي من ثم إلى أخ

آخر اسمه يحيى عبد الكريم الشامي ، وكان طالباً من مدينة حماة يدرس الصيدلة في جامعة دمشق .

الاعتقال

اعتقل سالم يوم 23/8/1980 وشاع نبأ مقتله واطمأن أفراد التنظيم وقيادتهم . لكنني وفي بدايات شهر 10/1980 وفي لقاء لي مع مسؤولي الجديد يحيى فاجأني بأن سالم لم يستشهد واقع الأمر وإنما اعتقل . فلما سألته عن مصدر هذه المعلومة غير المتوقعة قال لي إن عبد المعز شقيق سالم استدعي إلى فرع المخابرات بالعدوي وكان وقتها مجنداً بالخدمة الإلزامية وتم التحقيق معه ثم أفرج عنه . وأنه أحس خلال تلك الفترة بوجود أخاه سالم هناك على قيد الحياة ونقل له ذلك . ورغم أن يحيى طلب مني أن آخذ حذري واحتياطاتي إلا أنني لم أفعل ذلك ، وكأنني بعد أن تكرست في ذهني قصة الشهيد ورواية المقاومة التي نسجتها "النذير" لم أقتنع بما قال ، وأكملت مهمتي وحياتي بشكل عادي ونسيت الموضوع !
وفي يوم الخميس الموافق للثامن من الشهر نفسه ذهبت عند الظهيرة إلى كلية الهندسة لحضور إحدى المحاضرات كالمعتاد . ولم تفاجئني في البداية مظاهر الحراسة المشددة وانتشار المسلحين على الأبواب لأن هذا الإجراء بات اعتيادياً هناك منذ شهور . لكن ما أن توقفت وقدمت بطاقتي لمسؤول الأمن حتى التف حولي عدد من المسلحين قاطعين علي أي تفكير بالهرب . وخلال دقائق لم أتمكن فيها من التقاط أنفاسي كانوا قد غطوا عينيّ وأوثقوا يديّ ودفعوني إلى سيارة انطلقت بي كالزوبعة لتقذفني في مكان لا أعرفه ، تبين لي بعدها أنه فرع قيادة مخابرات منطقة العدوي الذي يرأسه العقيد نزارالحلو .

وجهاً لوجه !

استقبلتني من فوري اللكمات والركلات من كل جهة وأنا في طريقي إلى قبو المبنى . وهناك ومع الإجراءات نفسها فتشوني وأخذوا في غرفة الأمانات كل ما كان في جيوبي علاوة على الساعة والحزام ،

ومنحوني رقم "13" ليكون اسمي الجديد من الآن فصاعداً .
ودفعوني وأنا لا أزال مطمش العينين مكلبش اليدين إلى مهجع جماعي استطعت أن ألمح فيه العديد من المساجين على مثل حالتي ، والسجان يجلد ظهورهم بكبل في يده . ولم تمض علي دقائق حتى جذبتني الأيدي وأصعدتني مع الركلات والصفعات الدَرَجَ ثانية وأوقفتني فجأة ونزعت الغطاء عن عيني ، لأجد سالم الحامد واقفاً أمامي وقد طالت لحيته وشعره لا ينبس بشفة . ومن غير مقدمات أتاه السؤال :
أهذا هو ؟
قال : نعم .
وفُتح الباب فدلف صالح الخوجة الطبيب الدمشقي الذي كان أحد من أوصلت لهم الرسائل مرة . فسألوه السؤال نفسه ، فأجاب بما أجاب سالم ، وغاب الرجلان عن عيني بعد ذاك .

في الزنزانة
أسقط في يدي ، وأذهلتني المفاجأة بحق ، ومن غير أن يمسني أحد هذه المرة اقتادني عنصر إلى القبو كما أحضرني . وفي الزنزانة الموحشة حيث ألقاني هجمت علي التساؤلات والمخاوف والهواجس دفعة واحدة بلا رحمة : أمي وأبي .. أهلي .. ماذا يفعلون الآن ؟ كيف تراهم يتعذبون من أجلي ؟ يا للمساكين .. سيحاولون البحث عني والتوسط لي بلا شك .. ولن يجدوا إلا الفشل وخيبة الأمل ! لقد انتهيت هذه المرة ..
والإعتراف الآن علي متحقق ودامغ . وماذا عن أولاء الذين لا يزالون على صلة معي في سورية ؟ هل تراهم انكشفوا ، أم أنني سأضطر لكشفهم بعد حين ؟ وماذا عن التعذيب الذي ينتظرني ؟ ماذا عن قصص الرعب التي سمعت الكثير عنها ورأيت ملامح بعضها في الأيام القليلة التي أوقفوني فيها المرة الماضية على الحدود ؟ هل انتهى كل شيء حقاً .. هل هي إلا مجرد أيام معدودة ثم تنتزع مني المعلومات وأنال المصير الذي ناله شهداء تدمر قبل أقل من عام !

إلى التحقيق

مضى الوقت علي كالطوفان أغرقني وأرعبني ، ولم تلبث الزنزانة أن فتحت من جديد ونادى المنادي :
13 ولا .. هيا .
وساقتني الأيدي القاسية ثانية إلى الأعلى . وعلى باب غرفة التحقيق وجدت الشخص الذي أحضرني ينزع عني ملابسي كلها ويقذف بي من ثم إلى داخل الغرفة مغمض العينين مكبل اليدين عارياً كيوم ولدتني أمي !
ولم يلبث الصوت نفسه أن أمرني بالجثو على الأرض وخفض الرأس ، وحذرني أن أحاول رفع هامتي لأي سبب .
منذ متى وأنت تعرف أبا الفرج ولا ؟
جاءني السؤال هكذا بلا أي مقدمات . أحسست أن شخصاً آخر يطل علي من وراء مكتب في مواجهتي هو الذي طرح السؤال .
من زمن .
قلتها وأنا لا أعرف بعد كيف أخاطب هؤلاء الناس أو أرد عليهم . فالجو المرعب منذ اللحظات الأولى يلغي لدى المرء القدرة على التركيز أو التمييز .
وماذا عن الدكتور صالح خوجة ؟
قلت : أعرفه كذلك من زمن .
كان الدكتور صالح على علاقة مع سالم بالفعل ، وحدث أن قمت بإحضار رسائل إليه من القيادة في الأردن إلى عيادته بحي ركن الدين ، فلما اعتقل سالم كان الدكتور صالح أحد الذين اعترف عليهم كما يبدو ، وكان قد أقر أنه يعرفني كما مر ، ولذلك فلم تعد هناك جدوى من الإنكار .
طيب محمد .. قل لنا الآن لماذا أنت تعرف هذين الشخصين ؟
كانت اللهجة إلى الآن هادئة ، والحديث يدور بشكل عادي في ظاهره ، لكن ذلك كان يزيد من شعوري بالقلق من الآتي وترقب المجهول .
قلت : كان هناك شخص طلب مني أن أوصل لهما رسائل ففعلت .
وما هي هذه الرسائل ؟
لا أعرف . هذا الشخص كان سائقاً على الخط بين عمان ودمشق ، وكان يعمل معي معروفاً فيأتي لي بأغراض من أهلي ، ويأخذ أغراضي إليهم بعض الأحيان . وكان

بين هذه المرات يطلب مني أن أوصل رسائل أو نقوداً لهذين الشخصين فكنت أرد له الجميل وأفعل .
كان مازن يوم اعتقالي مسافراً في الأردن ولله الحمد ، وتأكد لي أنه لن يعود بعدها . وكنا واقع الأمر قد اتفقنا على سرد مثل هذه الرواية إذا وقعنا بأيدي المخابرات . ولذلك بدت لي إجابتي منطقية ومترابطة . لكن الرجل تابع يسأل :
ألم تكن تعلم بمحتويات الرسائل ؟
قلت : لا .
قال : في اليوم الفلاني أنت ذهبت إلى الدكتور صالح وأعطيته مغلفاً فيه مجلة النذير ورسائل أخرى من الأردن ، وقلت له أن يأتي على موعد مع الشيخ سعيد حوى إلى عمان . ألا تذكر ذلك ؟
صحيح . أنا أوصلت إليه مغلفاً يومها لكنه كان مغلقاً ، وهو موجود عندكم ويمكنك أن تسأله . وأما مجلة النذير هذه فلا أدري ما هي . وأما بالنسبة للموعد فمازن قال لي أن أخبر الدكتور صالح بأن جماعتك ينتظرونك في الأردن بالتاريخ الفلاني ففعلت ، ولم أكن أعرف أن في الأمر تنظيماً أو ممنوعات

حفل التعذيب

لم يشأ الرجل القابع وراء المكتب أن يسمع مني المزيد كما يبدو ، وأدرك كما فهمت لاحقاً أن الأمر لم ينضج بعد . ولم ألبث أن سمعته يقول للعنصر الذي أحضرني من غير أن يدعني أنهي كلامي :
خذه هال.... اعمل كذا وكذا بأخته خليه يقر .
وسرعان ما انتزعني ذاك من مكاني وساقني في الممر الذي جئت منه إلى غرفة مجاورة ، وأنا لا أزال على حالتي عارياً مقيداً مغطى العينين . ووجدت أيدياً قاسية تتناولني من جديد فترفع القيد عن يدي من الخلف ، وتجذبهما للأمام وتعيد تقييدهما ، ثم تعود الأيدي التي تمتد من كل اتجاه فترفعني من وسطي عن الأرض ، وتتولى أيد أخرى جذب ساعديّ للأعلى . وفي لحظة واحدة أفلتني الجميع ، فوجدتني مشبوحاً كالذبيحة تماماً إلى السقف ، ورجلاي تخبطان في الهواء ليس تحتهما شيء .. وبدأت أولى حفلات التعذيب !

كنت أيامها في مقتبل الشباب ، وكانت عافيتي بحمد الله وافرة ، حتى أن أحدهم ناداني مع ابتداء التعذيب ساخراً يقول :
ولا .. هِنْت (أي أنت) بتلعب حديد ؟
لكن عملية الشبح وحدها كانت كافية لتمزق أعصابي وتتلف جَلَدي ، وتفقدني الوعي بعد عشر دقائق . غير أن الأمر ما كان كذلك وحسب ، فسرعان ما انطلقت تتناوشني مجموعة من الكبلات والعصي تجلدني كأسياخ النار ، تبعتها من حيث لا أدري لسعات الكهرباء تتخير أكثر مناطق الحساسية في الجسد فتصعقها بلا رحمة : في الأنف مرة ، ومرة في الشفتين .. في العورة .. في العينين .. في شحمة الأذن .. في كل مكان تتجمع فيه مراكز الإحساس ومواطن الشعور بالألم !
انفجرت بالصياح من شدة الألم المتفجر فكأنما ازداد الجلادون انتشاء بذلك ! وازدادت حدة اللسعات والصعقات من غير أن يسألني أحد أي شيء !
كنت أسمع وسط دوامة الألم صياحهم وهياجهم كالكلاب المسعورة حولي ، ومن غير أن أبصر شيئاً أحسست أنهم ربما كانوا قرابة العشرة ، ومع كل ضربة كانت تطرق أذني شتيمة جديدة وألفاظ كفر بالله تزلزل السماوات والأرضين . ولم ألبث أن وجدتني وقد فاق الألم قدرتي على الإحتمال وحتى على الصياح أغيب عن الوعي تماماً، لأصحو لا أدري متى فأجدني في زنزانة منفردة ينهش الألم أطرافي وتشتعل الأوجاع نيراناً في كل ثنية من ثنيات بدني .

أرقام وحسب !
كانت الزنزانة أشبه ما تكون بقبر مقفل : الجدران متقاربة لا أستطيع أن أتمدد بينها ، والرهبة مطبقة ، وليس ثمة شيء تحتي إلا الإسمنت البارد ، والسقف شاهق فوقي تتوسطه شراقة للتهوية (نافذة متشابكة القضبان) يتسلل منها ضوء خافت يزيد المشهد كآبة ووحشة . وسرعان ما تدهم السكون صيحات استغاثة سجين آخر ينال العذاب في الطابق الأعلى ، وتخترق صرخاته الجدران الصم وأبواب الحديد ، فتنتفض من هولها كل ذرة في بدني وتستعر فيّ كل الجروح والكدمات .

ومضى الوقت بطيئاً ثقيل الوطء فكأنه الرحى تدور على جسدي المنهك ، لكنني سرعان ما فقدت معنى الزمن بعد هنيهة ، واختلطت علي معالم الليل والنهار . فلا ساعة معي تدلني على الوقت .. ولا صوت أحد أو همسة حي تنبي بما يجري .. والضوء الخافت لا يتغير ولا يتبدل . وعندما تذكرت الصلاة كانت وسيلتي الوحيدة لأدائها الإيماء . وعلى ذلك مضت السنون التالية علي ، لا أكاد أعرف الصلاة إلا بالإيماء وحسب !
وفتح الباب فجأة ، وتلقيت من غير مقدمات واحدة من أقذر المسبات قذفني السجان بها وهو يلقي إلي بنصف رغيف متيبس مرت عليه رائحة الحلاوة أو المربى في يوم من الأيام ! ولم ألبث أن اعتدت سماع مثل ما سمعت مع كل فتحة باب أو نداء للتحقيق أو خروج إلى الحمام . وكان خروجنا إلى الحمام مرة في اليوم يحددونها حسب أمزجتهم ، فيسوقون مجموعة من المساجين معصوبي العيون مكبلي الأيدي ، فإذا وقف واحدنا عند باب الحمام بعد أن مر على سيل من اللطمات واللكمات واللسعات فكوا يديه المكبلتين من الخلف ونقلوهما لتقيدا معاً من الأمام ! فلا يكاد يلج الحمام حتى تهوي الكبلات على الباب وتصله الشتائم والأوامر بالإسراع وبالإنتهاء . وفي كل تقلبات هذه الأحوال نظل مجرد أرقام تنادى ، لا شخصية لنا ولا أسماء . ليتكرس إحساسنا بالهوان ، ونزداد اضطراباً وضياعاً .

معجزة !
كانت حفلة التعذيب كما تقرر لي مرتين في اليوم . أخرج إلى غرفة التعذيب مكبلاً مغمض العينين .. أجرد من ملابسي بالكامل وأعلّق مشبوحاً من يدي .. وتكر الأحداث بعد ذلك : تبدأ بالشبح أحياناً ، فتتسلط الكبلات والسياط في هذه الحالة أكثر ما تتسلط على الظهر والصدر والرأس ، وتعمل ملاقط الكهرباء عملها في الوقت نفسه . لكن أسوأ ما يصيب الضحية وهو في هذه الحالة أثر القيد الحديدي الذي يشد على الرسغ ويحتك مع العظم بلا رحمة أو توقف . حتى التهبت يداي وتورمتا من جراء انغراس الحديد القاسي في اللحم واحتكاكه المباشر بالعظم الذي انكشف وتعرى . وظلت

آثار القيد كالوشم على رسغي إلى اليوم ! وطوال خمسة أشهر تالية بقيت لا أحس براحَتَي يدي البتة ولا أقدر أن أحمل بهما أي شيء وكأنهما أصيبتا بالتنميل أو الخَدَر المزمن . وحكى لي طبيب التقيته في تدمر لاحقاً أن الأوتار في تلك المنطقة قد تهتكت بشكل كبير ، وأنها تحتاج إلى معجزة لتعود إلى حالتها الطبيعية من جديد .

بساط الريح

أما الحالة الأخرى من التعذيب فكانت على "بساط الريح" . وهو لوح من الخشب يشدون المعتقل عليه من كل أطرافه بسيور جلدية ، ثم يرفعون نصفه الأسفل الذي ارتصت عليه الساقان ولم تعودا تملكان أي فرصة للتحرك . وتبدأ الكبلات ذات النصال المعدنية تهوي على بطن الرجلين تنهشهما بلا شفقة ، وتترك مع كل لسعة لها أجزاء من نصال الحديد في ثنيات الجروح المتفجرة ، فإذا انتهى الضرب بقيت هذه النصال مع الدم المتجمد والجروح المفتوحة فتلتهب وتتعفن ، فيتضاعف الألم وتشتد الأوجاع والمعاناة . وأما الشتائم والكفر بالله فلم تكن تتوقف مع كل أنواع التعذيب . ولم أكن أنجو من هذه الحفلات الدامية إلا عندما يغمى علي ،
لأستيقظ وأنا في الزنزانة عاري البدن ممزق الأوصال مبللاً أرتجف من شدة البرد . ولا أكاد ألتقط أنفاسي وألملم بقايا جَلَدي حتى يحين موعد التعذيب مرة أخرى ، وتعود الكَبْلات تنهش لحمي من جديد ، وتنقض ملاقط الحديد على أماكن متفرقة بالغة الحساسية من جسدي لتصعقني بالكهرباء .
ولأنهم كانوا يعرفون أن العورة لدينا أمر كبير فقد كانوا يتعمدون إهانتنا بالعبث بسوآتنا بطرف الكبل والعصي أثناء التعذيب ، أو الإطباق بملاقط الكهرباء على المحاشم وإطلاق صعقات الكهرباء فيها ، وكان ذلك في الحقيقة من أشد أنواع العذاب علي ، ويبدو أن ذلك ما كنت أفقد وقتذاك الوعي بسببه وأغيب عن الوجود .

دموع التماسيح !

وفي مرة من المرات وبعد أن مضى علي في العذاب عدة أيام أخرجوني كالعادة وعروني وعلقوني ،

فوجدتني من قبل أن يبدأ الضرب أحس وكأنني فقدت الهواء في رئتي وما عدت قادراً على جذب النَفَس .
وكان يلازم في غرفة التعذيب تلك طبيب متخصص كما يبدو ، سرعان ما اقترب مني فجس نبضي وطلب منهم أن يُنزلوني ، ولم يلبث أن حقنني بإبرة جعلتني أفقد القدرة على النطق أو الحركة ، وأحس أنني أغادر هذا العالم وأموت بالفعل !
ووجدتني أغيب عن الوعي لأصحو بعد قليل فأراني في أحد أحد الأسرّة . عن طرفي من هنا حارس برشاشه الكلاشينكوف ، ومن هناك يتدلى أنبوب بلاستيكي يتصل بكمامة على أنفي أتنشق من خلالها الأوكسجين . وبعد ساعة أو ساعتين استعدت خلالهما أكثر وعيي وجدتهم يقودونني عبر ممرات المستشفى الذي نقلت إليه إلى سيارة كانت تنتظرني لتقلني إلى الفرع من جديد .
وهناك أعادوني إلى الزنزانة من غير عذاب . وبعد خمس أو ست ساعات استعدت خلالها وعيي أخرجوني إلى غرفة التعذيب من جديد ، وعوضوني عن التعذيب الذي فاتني عذاباً مثله كاملاً غير منقوص !
وفي مرة أخرى مماثلة وبعد أن كاد التعذيب يقتلني بحق حضر الطبيب ثانية إلى زنزانتي فنظف لي جروحي المتقيحة ، وقدم لي كأس حليب لأستمر على قيد الحياة ، وأجدد قدرتي على تلقي المزيد من التعذيب .. ومضى !

اعترافات

ومضى أسبوع كما قدرت على هذا النمط من العذاب ، وصعدت من جديد إلى التحقيق بنفس الكيفية : مكلبشاً ومطمشاً وعارياً من كل شيء وجلست غصباً عني جلسة الخضوع . وأتاني الصوت من جديد يقول :
اسمع ولا .. نحن لدينا كل المعلومات عنك . ونعرفك من أول يوم أتيت فيه إلى هنا وكل مهمات القتل التي أحضرتها لهؤلاء المجرمين .. وكل واحد انقتل هو برقبتك . والآن قل لنا مع من كنت تتصل .
كانت اللهجة العلوية للمتحدث وللأشخاص الذين حوله هي الشيىء الوحيد الذي استطعت تمييزه حولي ، وكان الإعتراف على مسؤولي الجديد وخيوط الإتصال التي نَمَتْ بعد اعتقال سالم هي الأهداف التي يريدونني أن

أصل بهم إليها بأسرع وقت . وعدا ذلك فالإرهاب والمجاهيل كانت تلفني من كل مكان . وعلى الرغم من هول موقفي إلا أنني استطعت أن التقط وسط هذه الدوامة المرعبة صوت امرأة يأتي من غرفة تحقيق أخرى كما يبدو وهي في موضع المساءلة والإتهام ، فزادني الأمر توتراً وتشتتاً ، لكنني استجمعت ما استطعت جَلَدي وقتها وقلت :

أنا لا أعرف أحداً إلا مازن . هو الذي كان يعطيني الرسائل ويطلب مني أن أوصلها لأبي الفرج .

قال : ألم يكن هناك إلا أبو الفرج ولا ؟

قلت وقلبي يكاد من طرقاته ينخلع من صدري خشية أن يكون سالم قد اعترف علي بالمزيد : أنا لا أعرف إلا أبا الفرج .

قال : والدكتور صالح ولا .. ماذا كان رده عندما أبلغته الرسالة ؟

قلت : استقبلني .. وضيفني فنجان قهوة ومضيت .

قال : وعندما ذهب إلى الأردن .. هل التقيته هناك ؟

قلت : أنا طالب في الجامعة هنا فكيف أذهب وألتقيه هناك !

وأتاني صوت سائل آخر : ألم تدخل سلاحاً ولا ؟

قلت بإصرار : أبداً .

قال : ولا أموال ؟

قلت : ولا قرش .

قال : طيب انقلع الآن .

ونزلت إلى الزنزانة ليلتها من غير أن يضربوني . ومضى يوم آخر من غير تعذيب أو تحقيق ، استدعوني بعدها وكانت الساعة بتقديري قد جاوزت الثانية بعد منتصف الليل .

مائدة اللئام

دخلت غرفة التحقيق مكلبشاً مكبلاً ومعرى ككل مرة ، وسرعان ما شممت رائحة خمر وطعام تملؤ المكان . وسألني أحدهم :

هل أنت جائع ؟ إذا أردت أن تأكل فتعال .

قلت وأنا لا أدري أهي دعابة منه أم محض سخرية : لست جائعاً !

ومضى الجمع في تناول الطعام واحتساء الخمر وتبادل الحديث البذيء وأنا بين أيديهم جاثياً معرى تصلني أصوات المضغ وكركعة الشراب لا حول لي ولا قوة . لكنني تمكنت هذه المرة من أن أختطف نظرة على المكان ومن فيه من تحت تلك الطماشة التي انزاحت كما يبدو عن عيني برهة . وعلى الرغم من حالة الخوف التي تتملك السجين .. وبرغم الجو الإرهابي الذي أحاطني على مدار الأيام الخالية استطعت أن أحس من خلال تلك اللمحة العجلى ظلال الخوف والتوتر ترتسم على معالم الضباط المحققين . أحسستها من محاولاتهم الجاهدة إخفاء وجوههم وشخصياتهم عني وأنا المكبل الأسير وهم المتمكنون الطلقاء . ومن همهماتهم بعض الأحيان وإشاراتهم وتغامزهم مع بعضهم البعض . وأحسستها من ذلك السرير بطرف الغرفة الذي لا بد أنهم إذا أنهكتهم التحقيقات ناموا فيه من غير أن يجرؤوا في تلك الفترة على مغادرة الفرع خوفاً من أن تطالهم رصاصة واحد من المجاهدين . لكن حالة الإنتشاء تلك لم تطل بي . ولم يلبث أن أتاني السؤال :

محمد ولا . هل تعرف أحداً من الإخوان الهاربين في الأردن ؟

قلت : لا .. لا أعرف أي أحد .

قال : أين تسكن هناك ؟

قلت : في الزرقاء . في العنوان الفلاني بشارع الفاروق .

فوجدت السائل يبادرني ويقول : بالقرب من المركز الإسلامي إذاً .

قلت وقد فاجأتني معرفته للمدينة وشوارعها بهذا التفصيل : نعم !

قال : ألم تر أياً منهم هناك ؟

أجبت : أنا لا أذهب إلى المركز .

قال : ألا تصلي ؟

قلت : نعم ، ولكن في المسجد .

قال : وهناك في المسجد ألم تر ناساً سوريين ؟

قلت : ربما ، لكنني لا أعرف اسم أي منهم .

وتبدل الحال هذه المرة ، وصاح المحقق بالعنصر ليأخذني إلى التعذيب ، وعادت الكبلات تهوي على بدني

المنهك بلا رحمة ، ومزقتني صعقات الكهرباء من جديد ، وغبت ككل مرة عن الوعي آخر الأمر ، ووجدتني في الزنزانة حينما صحوت ملابسي مكومة بجانبي والدم يسيل من كل مكان كان قد اندملت الجروح فيه ، وسرعان ما أتى العنصر فساقني في الليلة نفسها إلى التحقيق ، ووجدت سالم معي في نفس المكان ، والمحقق يسألني من غير مقدمات :
متى التقيت بسالم أول مرة ولا ؟
قلت : في شهر شباط 1980 .
قال : أين ؟
قلت : أظن أنه أتى مع مازن إلى بيتي .
ولم أكد أتفوه بذلك حتى أتتني ركلة من وراء ظهري أحسست أن عيني خرجتا معها من محجريهما ، وناداني أحدهم بتشفي :
زارك بالدار أم التقيته عند مسجد خالد ولا ؟
قلت : والله ما عدت أذكر .
قال موجهاً حديثة لسالم : ما رأيك يا أبو الفرج ؟
أجاب سالم : صحيح سيدي .. التقينا عند مسجد خالد وصلينا المغرب هناك .. وكان ذلك بداية تعرفنا عليه .
قال المحقق موجهاً الحديث لي من جديد : وإذا كنت زلمة بتعمل خير ولا .. ليش لتلتقوا بالجامع وانت تعرف أن هناك مخربين وعصابة مجرمين في البلد ؟
قلت : أنا ذهبت بطبيعة الحال مع مازن لنصلي ، وهناك التقينا مع أبي الفرج .
قال ولهجة التهديد المرعب ناطقة على نبرته هذه المرة : اسمع ولا .. إما أن تحكي الصحيح أو تنتهي .. فهمت ؟
أحسست أن الأمر بلغ حده ، وأن اعترافات سالم والمعلومات التي توفرت لهم لن تعفيني من الإصرار على الإنكار ، وأنه صار علي الآن أن أقدم لهم شيئاً ما يدفع عني شرهم .. فقلت :
الحقيقة أنا ليست لي علاقة بالموضوع من قريب ولا بعيد في البداية ، لكنني عرفت في الأخير أن هؤلاء من الإخوان وأنهم يقومون بشيء ما .. ولكن أنا ليست لي أي علاقة .
ومن غير أن أسمع تعليقاً على هذا الكلام أشار كأنما إلى الجلاد فجذبني بعنف ، ورماني في غرفة التعذيب المجاورة وأطلق عصيه وأدوات التعذيب علي ، لكنني

نزلت هذه المرة إلى الزنزانة صاحياً ولم يغم علي ، وبعد قرابة الساعتين عادوا فاستدعوني إلى المحقق الذي ابتدرني بلهجة حازمة يقول :
اسمع ولا .. هلق بدك تحكي لنا من طق طق لسلام عليكم .. احك كل شيء تعرفه من ساعة ما طلعت من ... أمك !

صراع مع النفس

كانت رهيبة تلك اللحظات بشكل لا يتصوره أحد . أجثو بين أيدي هؤلاء الظلمة كشاة لا حول لها ولا قوة .. مكشوف العورة مفضوح الأسرار . وجسدي كله لعبة بأيديهم يلهون به ويَعْدون عليه بلا رحمة . ومن غرفة التعذيب المجاورة يصلني صوت أخ آخر يستغيث ويصيح .. وهتاف مرٌّ بداخلي يقول لي : تكلم وإلا فالدور عليك ، والصراخ سيخرج للتو من جوفك أنت ! ولا تلبث أنفاس الرحمة أن تنساب في روحي وتهمس بي أن الإعتراف لن يعفيك أيضاً ، فإدانة نفسك تعني المزيد من التعذيب لتعترف بالمزيد من الأسرار ، والمصير في النهاية هو الإعدام المحقق ، مثلما تعني أن إخوة آخرين سيأتون هنا ليلاقوا كل هذا الذي لاقيت وربما أكثر .. وستكر السلسلة ويزداد الضحايا من غير أن ينجو منكم أحد .
دارت هذه الخواطر كلها في خاطري كلمحة برق ، وبدأت أسرد على المحققين الرواية ذاتها موحياً إليهم أنني انهرت وهذا كل ما لدي . وعلمت فيما بعد أنهم كانوا قد استدعوا سالم والدكتور صالح وسألوهما إن كنت أعرف عن محتوى الرسائل شيئاً فنفى الإثنان . وساعدني ذلك كثيراً ولله الحمد .
غير أن الأمر لم ينته ، وتعطشهم لمزيد من الأسماء ومزيد من الضحايا جعلهم يعيدونني إلى غرفة التعذيب ، وأسلموني ثلاثة أيام متواليات إلى الجلادين من غير سؤال أو استفسار . ثم كانت جلسة التحقيق الأخير ، وحاولوا للمرة الأخيرة أن يعتصروا كل معلومة أو اسم ربما لا أزال أحتفظ به ، وألحوا على أسماء المراسلين بالتحديد ، فثبتني الله ولم أذكر اسم أي إنسان بفضل الله ، وأصررت على أن صلتي الوحيدة كانت مع سالم إضافة إلى لقائي بالدكتور صالح تلك المرة . فأرسلوني من جديد إلى غرفة التعذيب ، لأجد من الأهوال ما أنساني كل الذي لاقيت من قبل هناك !

وانقضت ربما خمس أو ست ساعات علي هذه المرة يتعاقب علي الجلادون وأدوات التعذيب بشكل وقاكم الله شره . وعندما صحوت على نفسي في الزنزانة وجدتني على حافة الهلاك بالفعل . لا أتحسس موضعاً في بدني إلا وجدته مدمى أو مصاباً يشتعل من الألم كما تشتعل في الرماد النار !

مسيرة الأرقام !

وحضر السجان من جديد ونادى من وراء الأبواب على مجموعة من الأرقام ليجهزوا أنفسهم .. وأتاني الصوت البغيض :

13 ولا جهز حالك .

وفيما أخذت الأقفال تصطك بالمفاتيح وترتطم المزاليج الثقيلة بزوايا الحديد التي تحوط مجاريها على الأبواب الصلدة ، وبدأ تدافع الأقدام المدماة تتكؤ عليها الأجساد المنهكة يسوقونها مع الصفعات واللكمات ولسعات الكبل إلى المجهول ، انتصبتُ مكاني لأنفذ الأمر ، وجذبت بنطالي المتراخي لأستعد ، فهالني أنه اتسع علي فكأنه أكبر من قياسي بعشر درجات ، وأدركت للمرة الأولى أنني فقدت بين عشرة وخمسة عشر كيلو غراماً من وزني خلال هذه الأيام . ولم أكد أكتشف ذلك حتى فتح الباب وجذبني أحدهم بقسوة ، ودخلت ضمن مسيرة الأرقام المتحركة تسوقها اللطمات والركلات والكرابيج .

وكأنما أحس الجلادون أن اللقاء لن يتكرر ، ولذة الإستمتاع بتعذيب هذه المجموعة ها هي ستنقضي ، فبادروا بالجهد لتعويض الشوق إلى سماع استغاثاتنا وصراخنا ، ثم أركبونا وقد شارفنا على الهلاك سيارة مغلقة ، ونحن قرابة العشرين شخصاً مكبلي الأيدي معصوبي العيون . حتى إذا بدأت بالتحرك سرت التكهنات في سرائرنا وعلى أطراف شفاهنا : هل هي النهاية ؟ أإلى تدمر الآن ؟ أم ربما إلى سجن القلعة ؟ ولم يكن لنا من حيلة إلا الإنتظار . وسرعان ما وجدنا أنفسنا تتوقف بنا السيارة من جديد ، ويأينا الأمر الفظ مع سيل من الشتائم والمسبات بالنزول . ولم تلبث الأيدي القاسية والأرجل والكرابيج أن استقبلتنا بمثل ما ودعونا به هناك ، وساقتنا آخر الأمر نزولاً إلى قبو آخر

عميق جداً ، لم نلبث أن عرفنا بعد هنيهة أنه قبو فرع مخابرات التحقيق العسكري .

النوم بالتناوب !
أغلق علي باب المكان الذي دخلته وأنا لا أزال مطمش العينين ، لكن يداي كانتا مطلقتين . ولم ألبث أن سمعت همهمة تتزايد حولي ، وأحسست حركة من جهات شتى . وكأنما أتاني نداء خافت بأن أرفع الغطاء عن عيني الآن .. فاستجبت ببطء .. وبحذر . حتى إذا فعلت وكانت المرة الأولى التي أفتح فيها عيني بلا طماشة منذ اعتقالي ، وجدتني وسط مهجع محتشد بالنزلاء ، يكاد عدد السجناء فيه يصل المائة ، في مساحة لا تزيد عن حجم غرفة عادية ! ولم ألبث أن أومأت لمن حولي .. وسلمت ، فتشاغل البعض وأشاح البعض .. ورد الآخرون بصوت منخفض .
وسرعان ما لمحت سالم بين الناس فاقتربت منه بالتدريج . فلما حاولت أن أكلمه همس لي وقال :
لا تقترب مني كثيراً فربما كان هناك مخبرون بيننا !
لكن الحذر بدأ مع مضي الوقت يخف بالتدريج ، وبدأت أتعرف على الشباب ويتعرفون علي ، لنبدأ معاً مرحلة جديدة من هذه المحنة حافلة بالفواجع والأحداث .
كانت ظروف المهجع في غاية السوء . فمع هذا العدد غير المعقول من الناس لم يكن ثمة مكان لقادم جديد . وكنا إذا أردنا النوم تناوبنا على المكان فينام البعض ويظل الآخرون وقوفاً ينتظرون ! وكانت الأنفاس تختلط بنتانة العرق ، وتجتمع معها روائح جراحاتنا المتعفنة في هذا الجو السيىء . ولأن المهجع كان يحتوي على حمام بداخله ، فلم يكن هناك أي فرصة لمغادرته أبداً .
وبقيت على هذه الحال ثلاثة أسابيع تقريباً ، كان الباب يفتح خلالها لإدخال الطعام فقط ، والذي لم يكن يكفي ليقيتنا الكفاف . فنصيب الواحد منا صمونتان عسكريتان جافتان في اليوم ، تصحبهما بضع حبات زيتون أو شيىء من اللبنة أو الحلاوة في الصباح . وعلى الغداء يصلنا بعض الرز أو البرغل مصحوباً بمرقة حمراء . وفي المساء وعلى وجبة العشاء ننال نتفاً من البيض

المسلوق أو البطاطس أو حب الحمص المسلوق . صنفاً واحداً فقط ، ومقدار دريهمات منه وحسب !

القمل والجرذان !

ولقد كان من المضحكات المبكيات أننا ونحن في هذه الحالة من الجوع والضيق والمعاناة كان قضاء محتماً علينا أن نشارك الطعام والمقام ضيوفاً من مخلوقات أخرى تؤمن أن كرم الضيافة حق مباح بلا حدود !
كانت الجرذان ، والتي أقسم أن واحدها كان أكبر من القط بلا مبالغة ، تربت على طعام المساجين الذي يحتجزه السجانون عنا ثم يرمونه في القمامة ! هذه الجرذان كانت تتنقل بين المهاجع من خلال قنوات التهوية رائحة غادية ، وأثناء عبورها فوق فتحة المروحة التي كانت أعجز من أن تقدم شيئاً لهذا الجو الموبوء ، كان بعضها يزلق فيسقط بيننا أو علينا ، فيصاب المهجع كله بهستيريا الذعر ، ويتراكض الناس يميناً وشمالاً يريدون أن ينجوا من عضة هذا المخلوق المرعب . ويتدافع الخلق .. ويعلو الصياح .. ولا تنتهي الغارة ويموت الجرذ تحت الأقدام إلا وقد نهش أرجل أربعة أو خمسة منا .
ومع احتشاد المهجع وتزاحم المعتقلين ، وبسبب بعض السجناء القادمين من مواطن موبوءة أو غير نظيفة بالأصل، بدأت تتفشى فينا أعرض مرض السل ، وانتشر فيما بيننا القمل . وإذا كان البلاء الأول قد أصاب بعضنا وقتذاك ولم يأخذ صفة الوباء ، فإن القمل لم يوفر أحداً من بيننا أبداً ، وانتشر في رؤوسنا وملابسنا وأمتعتنا حتى لم يعد من سبيل لتفاديه . وكنت أنا أكثر الناس الذين قملوا . وكان منظراً اعتيادياً ونشاطاً مشتركاً لسكان المهجع كل يوم أن نخلع ملابسنا ونتابع القمل فيها فنفقأه بأصابعنا كإجراء وحيد متاح للحد أو التخفيف من انتشاره !

إلى الحلاق

وذات يوم ، وبعد أن مضت أسابيع كثيرة على اعتقالنا فطالت شعورنا ولحانا حتى بدونا كالغيلان ، صدر الأمر لنا بالذهاب إلى الحلاق . ومضى الطابور بنا إلى غرفة قريبة يتوسطها كرسي وسجان بمهنة حلاق كان يتناول

رؤوسنا كالماعز ويمر بآلة الحلاقة عليها حتى نخرج من بين يديه بالقرعة كرأس البطيخ ! ولم يكن هذا الشخص يوفر الفرصة ليمتع نفسه بشتمنا ولطمنا بين حين وآخر ، وكان واضحاً من لهجته أنه من طائفة النظام .
ولقد كان من المضحكات المبكيات أننا وبعد هذه المهزلة أمرونا أن ندفع للرجل خمس ليرات أجرة حلاقة الرأس الواحد . تولاها الإخوة الذين كانت معهم في أماناتهم بعض النقود ، أو الذين وصلتهم مع طول مدة اعتقالهم زيارات بالواسطة . وبعد ذلك جاء وقت الحمام الجماعي ، وساقتنا اللطمات والركلات وفرقعة الكرابيج على ظهورنا إلى قاعة مفتوحة أدخلوا كل عشرة فيها دفعة واحدة وأمروهم أن يتعروا من ثيابهم ويغتسلوا معاً . والجلادون على الباب يشتمون من شاؤوا ويضربون من اشتهوا ، والجرذان العملاقة تلك على المواسير فوقنا تترقب أن يغفل أحدنا لتنهش منه أو تنقض عليه !
واعتدت حياة المهجع نوعاً ما ، وألفت الإخوة وألفوني . وتعرفت على العديد منهم من محافظات شتى ، أذكر منهم الإخوة حسين رشيد عثمان ، وابن عمه أيمن عثمان من مدينة الباب قرب حلب . وطاهر جيلو من ادلب . وجمال عقيل وجلال الدين جلال من حلب . ومحمد أرمنازي وجهاد كلاس الحلبي و..... جعمور و..... نجار وأسامة فتوحي الجندي من حماة . وتيسير أبو الرز وجهاد حلاق ومأمون العظمة و .... الصفدي وعبد الإله بعلبكي من دمشق وضواحيها . إضافة إلى سالم الحامد والدكتور صالح خوجة . ولقد تم إعدام أكثر هؤلاء الإخوة فيما بعد . وشهدت إعدام بعضهم بنفسي ، وسمعت عن الآخرين من شهود عيان .

إلهي أغثني
ولم يكن هناك في تلك المرحلة تعذيب أو تحقيق بفضل الله ، أو أنه كان لا يذكر قياساً بما سبق في فرع المخابرات . فوجدناها فرصة لا تثمن لنسمع قصص بعضنا البعض ، ومشاهدات وخبرات كل منا ، وأنعم الله علينا فنظمنا برنامجاً للصلوات والأذكار والدروس وحفظ القرآن ، ووقتها أتيح لي أن أسمع الكثير من سالم ومن غيره ، مثلما كانت بداية إقباليعلى حفظ

كتاب الله ، فكنت ألازم أخاً حافظاً لكتاب الله من حماة اسمه محمد صادق العون فأحفظ عنه ما تيسّر من سورة البقرة حتى جاوزت نصفها .
واستطعنا وقتها وللمرة الأولى منذ اعتقالي وللمرة الأخيرة ربما أن نصلي جماعة ، ورغم أن الحارس كان إذا فتح الشراقة ورآنا نصلي أخرج مجموعة منا وضربهم بلا رحمة ، إلا أننا كنا نعاود فعل ذلك ولله الحمد . ففي تلك الرحلة كانت معنوياتنا لا تزال عالية ، وثقتنا بالفرج وبالنصر كبيرة ، وكنا لا نزال نؤمل أن يأتي المجاهدون بين ساعة وأخرى فيقتحموا السجن علينا ويحررونا !
وأما سالم ، وبعد أن هدأت النفوس وأمِنّا المكان جلس وحدثني ، وروى لي كيف كان اعتقاله وكيف مضى التحقيق معه . وأكد لي أنه حاول أن يصرف عني ما استطاع ، واستسمح مني واعتذر إلي . وكان سالم حقيقة الأمر غير الشخص الذي عرفته من قبل ، فهو شخص بالغ التهذيب رقيق المشاعر بطبعه ، أصلح ما يكون مربياً . لكن قرار رميه في معترك هذه المعمعة لم يكن ليناسب مؤهلاته وشخصيته ، ولذلك كان دائم السهاد شديد الأسى ، يرقب هؤلاء الذين احتشد بهم المهجع بسبب اعترافاته ، ويرى أنه إلى الإعدام مصيرهم ، فلا يملك إلا أن يسكب الدموع وهو يدعو الله تعالى أن يخلصه . ولَكَمْ سمعته ينشد بحرقة ويقول :
إلهي أغثني زماني عصيب !

اعترافات سالم

ولقد كان وضع سالم عصيباً بالفعل ، يلازمه هاجس أولئك الذين ينتظرون الإعدام ممن أتوا بسبب اعترافاته ، ويؤرقه آخرون قتلوا لنفس السبب . كان الأخ غالب آلوسي مسؤول دمشق وقتها من أبرزهم .
ولقد جرى كشف غالب حينما تم اعتقال مراسل إدلب طاهر عارف جيلو باعتراف من سالم أيضاً . فجرى تعذيبه ليعترف على موعده مع غالب ، فلما اشتد عليه العذاب ولم يكن بين اعتقاله والموعد إلا يومين أو ثلاثة أعطاهم مواعيد كاذبة ليشغلهم بها عنه . لكنهم كانوا إذا ذهبوا ولم يحضر أحد واكتشفوا الخديعة عادوا لينهالوا عليه بالضرب والتعذيب حتى كادوا يقتلونه .

وكان رحمه الله مصاباً بالقرحة وقتذاك ، إلا أن الله ثبته برغم ذلك كله ولم يعترف . ويبدو أنهم سألوا سالم عن الموعد فأخبرهم ، فأخذوا سالم وطاهر معاً وكمنوا له في المكان عند جامع المنصور . وعندما حضر غالب وتأكدوا أنه الشخص نفسه حاولوا اعتقاله ، لكنه اشتبك معهم - كما حدثني طاهر بنفسه - وأصاب أحد ضباط المخابرات بعينه قبل أن يقتل رحمه الله .

شَرَك جديد

ورغم أن سجل اعترافات سالم امتلأ إلى حافته سواء بما أدلى به تحت التعذيب أو ما توصلت المخابرات إليه عن طريق اكتشاف الهويات المزورة والمفاتيح الأخرى ، إلا أنهم كأنما أحسوا أن سالم لا يزال يخفي شيئاً .

وكان هذا متوقعاً لاهتمام سالم - كما ذكرت - بتولي كل المسؤوليات بنفسه ومقابلة كل المراسلين شخصياً بأمر من القيادة في عمان . ولذلك رسموا له في فرع المخابرات بالعدوي شركاً جديداً أوقعوه فيه ، وأوقعوا معه مجموعة جديدة من الضحايا .

وكانت الحيلة حينما أمروا سجاناً من المنطقة الشرقية اسمه وائل أن يتودد إلى سالم ويتقرب منه بذكاء وحنكة . فأخذ ذاك يزيد له في الطعام يوماً ، أو يحضر إليه كوب حليب في خفاء مُدَّعَى . ومع الملاطفة في الكلام والرقة في التصرفات نمت العلاقة بينهما وتمت الخطوة الأولى . وفي يوم من الأيام جاء وائل هذا إلى سالم وقال له : أنا في الحقيقة واحد منكم .. ولست في هذا المكان إلا لأنني مجند في الخدمة الإلزامية . وأرى أنه لا بد وأن نستفيد من الفرصة ونحرركم مثلما حصل في كفر سوسة .

ومن المعلوم أن مجنداً آخر في سجن كفر سوسة كان سبق له وأن تعاون مع الإخوة السجناء هناك وتمكن في أيار من العام السابق 1980من مساعدة سبعة عشر منهم على الهرب في حادثة غير مسبوقة . فلما بلع سالم الطعم وسأل وائل عن الكيفية طلب ذاك منه أن يؤمن له صلة بمجموعات مسلحة خارج السجن ليساعدونه ، فأعطاه سالم الأسماء . وفي ليلة واحدة تم اعتقال قرابة اثني عشر شخصاً لم يكونوا مكشوفين أبداً ، أذكر منهم عبد الكريم مهلهل من دير الزور الذي

كان يدرس الطب في دمشق ، وآخر من بيت السراج من الدير أيضاً ، أظن اسمه الأول كان محمود . وتم للسلطة ما أرادت ، واطمأنوا إلى أن سالم أفرغ الآن ما في جعبته فنقلوه إلى فرع التحقيق العسكري ، لألتقيه مترعاً بالشجون والأسى هناك .

أحقاد الطائفيين

ومرت الأيام ، واستطعنا التعرف على بعض جلادينا وسجانينا . فرئيس الفرع هو العقيد مظهر فارس من الطائفة العلوية . وأما مدير السجن في هذا الفرع فضابط شركسي ينادونه أبا نزار مسلوب الإرادة كأكثر المسؤولين والضباط من غير طائفة النظام ، على العكس من نائبه المدعو أبو منهل ، والذي كان نصيرياً حاقداً . فكان يقتحم علينا المهجع من غير سبب إلا أن يدلق علينا سيلاً من الشتائم والكلمات القذرة التي طفحت بها حوصلته ويمضي ! ومن السجانين عرفنا واحداً اسمه أحمد سالم وآخر اسمه أحمد غانم من طائفة النظام أيضاً وفي منتهى القسوة والتجبر . وكان هناك رقيباً أول بنفس المواصفات اسمه مالك لا حد لأحقاده وقسوته . فكان لا يدع أحداً يعبر أمامه من السجناء إلا ضربه ، ولا يفوت فرصة لتعذيب الناس إلا اغتنمها . وحتى السجناء الذين كانوا يخرجون من بيننا لإدخال الطعام إلى المهجع كانوا ينالون من بطشه وظلمه بلا حساب .

الكرسي الألماني !

وفي تلك الفترة نمى إلى علمنا أن أخوات من النساء معتقلات في نفس الفرع معنا ، ولكننا لم نلتق أياً منهن . كذلك علمنا أن في السجن شيوعيين من جماعة رياض الترك وبعثيين يمينيين أيضاً ، غير أنهم كانوا قد فرزوا كل اتجاه مسبقاً ولم يتيحوا لنا فرصة للقاء .

ومن المشاهد المؤلمة التي لا أنساها عن تلك الفترة حالة الأخ حسين رشيد عثمان الذي عذبوه بالجلوس على "الكرسي الألماني" في فرع المخابرات بالعدوي حتى أصيب بما يقارب الشلل . والكرسي الألماني هذا عبارة عن كرسي ذو أجزاء متحركة يوثق السجين عليه من ذراعيه وساقيه ثم يسحبون مسنده الخلفي للوراء ساحباً بذلك جذعه الأعلى معه ، فيما تظل قدماه

مثبتتان مكانهما من الجهة الأخرى المضادة . فيتركز الضغط على صدره وعموده الفقري . فإذا ازداد تهتكت الفقرات حتى تتكسر . وعندما التقيت الأخ أبا رشيد كان وضعه في غاية السوء . فلم يكن يستطيع تحريك ظهره البتة ، ولم يكن يرتاح لذلك لا في يقظة ولا في منام ، ولا يستطيع لا أن يجلس ولا أن يقف . وانتقل الألم إلى رجله أيضاً فزاد من عذابه ومعاناته . ومع ذلك كان رحمه الله يتحامل على الألم الذي لا يطاق ويصبر ويحتسب .

وكان الأخ حسين عثمان صحفياً في وكالة الأنباء السورية في غاية السرية والإنضباط ، لم ينكشف أمره رغم مضي قرابة العشرين سنة على عمله هناك ، حتى تم تكليفه بمسؤولية المكتب الإعلامي بدمشق في إدارة الأخ سالم الحامد . فلما اعتقل سالم اعترف عليه فيمن اعترف . ورغم ذلك كان أبو رشيد يردد بكل احتساب :

لا بأس .. الله يسامحهم ..كله في سبيل الله .

وعلى طيبه واحتسابه كان أبو رشيد مثال الأخ الصلب الذي ثبته الله في المعتقل ، فلم يعترف بأكثر مما اعترف عليه به سالم ، حتى أنهم أتوا له إلى السجن برئيس أركان الجيش السوري حكمت الشهابي في محاولة لإقناعه بالإعتراف . وكان الشهابي وأبو رشيد صديقان من أيام الشباب ، خرجا من بلدتهما معاً ومضيا إلى دمشق زميلين وصديقين رغم اختلاف إنتماء كل منهما . وعندما حضر الشهابي إلى أبي رشيد في سجنه حاول أن يحضه على الإعتراف . وجعل يقول له - كما أخبرني أبو رشيد بنفسه - :

اعترف يا حسين .. اعترف والباقي عندي .

وجعل يذكره كيف كان والده مختاراً للمدينة التي أتى منها الشهابي .. وكيف كان على علاقة طيبة بالناس ومن خيرة أهل البلد . وأخذ يمنيه بمساعدته إذا تعاون مع السلطة . لكنه لم يصل معه لشيء . وفيما بعد ، وعندما صرنا في تدمر وضمّنا أنا وحسين مهجع واحد حتى يوم إعدامه ، نال رحمه الله عذاباً شنيعاً على هذا اللقاء ، وحاولوا - كما سيأتي إن شاء الله - إقناع حسين بتوريط الشهابي نفسه استناداً إلى ذلك .. لكنه ورغم البون الكبير بين الرجلين فقد أبى أن يورطه بلا ذنب أو سبب ، ورفض التعاون معهم في هذه المؤامرة الرخيصة حتى ولو كان الثمن حياته .

إلى المنفردة من جديد
مضت قرابة ثلاثة أسابيع على وجودنا في المهجع الجماعي لنفاجأ صبيحة أحد الأيام بالسجان يفتح الباب ويطلب مجموعة من الشباب بأسمائهم . وعندما عادوا بعد فترة لم تطل سألناهم عم جرى فقالوا إنهم أمروهم أن يوقعوا على أوراق وحسب . ما الذي فيها ؟ لم يدر أحد . وتكرر الأمر وتتابع إخراج الشباب حتى شمل كل الذين اعترف عليهم سالم . وبعد يومين وما كدنا ننهي عشاءنا حتى جاءني الطلب مع ثلاثة أو أربعة إخوة آخرين ، فطمشونا وكبلونا من جديد ، ووجدناهم يقودون كل واحد منا إلى زنزانة منفردة ويقفلوا عليه . مرت بضع ساعات علي أترقب أي جديد دون نتيجة . ولم يلبث البرد أن بدأ يزحف على جسدي ، وينخر مفاصلي وعظامي . ولم يكن في الزنزانة أية بطانية أو غطاء ، ساعتها افتقدت نعمة الإزدحام في المهجع التي أمنت لنا الدفء على أقل تقدير ! ولم أكد أتكور على نفسي محاولاً بث الدفء من جزء من بدني إلى الجزء الآخر حتى أخذ القمل ينشط فيّ ويبدأ عضاته التي لا ترحم ولا تُتَّقى ! ولم تلبث أصوات أخ يعذب أن انطلقت تشق ظلمة الليل ، فأدركت أنني قريب من غرفة التعذيب التي لم نكن نحس بوجودها في المهجع . وازداد الصراخ ، وطال العذاب ، عذاب الأخ يليه الأخ وعذابي أنا .
وأخذت الهواجس تطبق علي وتنهش نفسي المنهكة . وعدت إلى مخاوفي التي سكنت بعض الشيء بملاقاة الإخوة والإستئناس بهم في المهجع ، وها أنا ذا هنا من جديد لا أنيس حولي آنس به ولا جليس أشكو مرارة حالتي إليه .
ومضت الأيام علي أسير هذه الزنزانة الموحشة .. يفتح السجان الباب علي الآن ثلاث مرات في اليوم للخروج إلى الحمام .. وليته لم يكن يفعل . فتلك كانت فرصة مالك السجان الموتور وأمثاله ليسلخوا جلودنا بالكبلات من جديد ، ويفرغوا فينا من سموم أحقادهم ما وسعهم الجهد . فإذا عدت عادت إلي الأوجاع والبرد والجوع والكوابيس .. عرضة في أي وقت لنزوة سجان يفرغها في بدني المنهك من غير أي سبب أو تفسير . فلا أملك إلا البكاء والتضرع إلى الله تعالى أن يخفف عنا . وبعد

مضى عدة أيام وجدتهم يستدعونني إلى غرفة التحقيق ويسألونني عن أسماء وأشخاص لم أكن أعرفهم بالفعل . فرفعوا الطماشة عن عيني وعرضوهم أمامي . فقلت لا أعرفهم . وتكرر الأمر ، ثم وجدتهم في المرة التالية يعرضونني أنا على أخ معتقل لا أعرفه ، لكنهم لما سألوه هل تعرفه قال نعم . ولقد علمت بعدها أن الأخ كان أحد من كشفتهم اعترافات سالم أيضاً ، لكنني لم أعرف لماذا قال أنه يعرفني رغم أنني لم أره من قبل بالتأكيد . ولم ألمه فيما قال وقدرت أن التعذيب لا بد وأن طاله مثلما طال البقية . لكن ذلك كان من أصعب الأمور حقاً . فالواحد لا يكاد يصدق أنه أغلق الأبواب عليه وانتهى من دوامة العذاب والتحقيقات ليأتي من يفتح عليه الباب ويعيده إلى مسلسل الرعب من جديد !

باب جديد !

وفتح الباب علي .. وعادت ليالي العذاب والجلد والسلخ والكهرباء . عشرة أيام أو ربما تزيد من التعذيب : أين هي المخابىء ؟ أين أماكن السلاح ؟ أين فلان ومن هو علان ؟ وأنا لا أعلم عما يتكلمون عنه شيئاً أبداً .

والكبلات تأكل من جسدي وتشرب السياط من دمي ولا مغيث ! حتى أشرفت على الهلاك فعلاً ولم أعد أستطيع جذب النَفَس . ويبدو أنهم اقتنعوا ببراءتي هذه المرة وشعروا أنه ليس لدي شيء بالفعل فتركوني . وعدت إلى المنفردة ألعق جراحي وأستجمع كياني المحطم ثلاثة أو أربعة أيام تاليات ، لم يطلبوني فيهن إلى التحقيق أو يخرجوني إلى التعذيب .

ومن غير مقدمات وجدتهم في ليلة تالية نادوا علي ضمن قائمة مطولة من الأسماء أذكر منهم إذا أسعفتني الذاكرة الإخوة : هيثم ملا عثمان وجمال عيار من حلب . ووضاح الدن من قرى حلب كذلك . وقاسم موسى من مدينة تدمر . وحسين رشيد عثمان من الباب . ومحمد ثابت ناعس و نديم منصور من ادلب . ومحمد طاهر مصطفى وابراهيم أحمدو من أريحا . ومصطفى الشر من جسر الشغور . وشريف البعث من ادلب . وعمر الحيدر وحزين قاسم المحاميد من معرة النعمان . وابراهيم طوبل وعمر حمزة من المعرة أيضاً . وشاكر

مومه وكمال أندورة من دمشق . وأخ من حماة هو شقيق محمد فخري .
وانتهت تلاوة الأسماء . وأمرونا أن نجهز أنفسنا جميعاً لرحيل جديد . إلى أين ؟ لم يقل أحد بالطبع . ولم يكن لأي منا القدرة حتى على الهمس . ووجدناهم يفتحون علينا الزنزانات ويسوقوننا تحت السياط ولسعات الكبل واللكمات ككل مرة إلى الذاتية ، فنستلم أماناتنا ، ونكمل تحت وابل اللكمات والركلات إلى سيارة النقل المغلقة ذاتها أو سيارة اللحمة كما كنا نسميها . فنكبل كالعادة ونطمش ، وتقيد رجل واحدنا برجل الآخر ويده بيده ، ويودع كل منا بلطمة أخيرة منتقاة ، لنجد أنفسنا أكثر من أربعين شخصاً محشورين في تلك العلبة المغلقة .. تتحرك بنا تحت جنح تلك الليلة نحو رحلة أخرى من المجهول !

أبو جهل !
لم يكن سهلاً علينا في البداية أن نتكهن إلى أين نمضي ، ولم يكن ممكناً لنا في نفس الوقت أن نتبادل الآراء أو أن ننبس ببنت شفة ، لكن الوقت الذي طال علينا والسرعة المنتظمة التي أخذت السيارة تحافظ عليها أوحت إلينا أننا الآن خارج العاصمة نتجه إلى مكان بعيد ، لم نلبث أن رجحنا هذه المرة أن يكون تدمر لا غير . وبالفعل وفي نهاية المطاف توقفت السيارة بنا وسكن هدير محركها ، وفتح الباب الحديدي علينا وأتانا الأمر بالنزول .
سرت القشعريرة في بدني فور أن نزلت من السيارة ولسعتني قرصة البرد الصحراوي قبيل الفجر . ولم نلبث أن وجدنا العناصر الذين أتوا بنا يرفعون الطماشات عن أعيننا ويفكون القيود من أيدينا وأرجلنا ويرموا بها في السيارة لأنها عهدة الفرع هناك . وبرغم الظلام الحالك إلا أن الأنوار التي تسلطت علينا كانت كافية لنرى أفراد الشرطة العسكرية يحيطون بنا ويجرون مع عناصر المخبرات إجراءات الإستلام والتسليم ، ولنعلم من ثم أنه سجن عسكري ذاك الذي وصلناه .. وأنه لكل المعطيات التي اجتمعت سجن تدمر لا ريب !

لم يطل الأمر بنا لأكثر من ثوان معدودات حينما هجم عناصر الشرطة العسكرية علينا وبدأوا يجذبون كل من تحرر من القيد منا فيركلونه ركلة يجد نفسه من فوره على باب صغير ، ينتظره على جانبه شرطي آخر يجذبه بيديه كخروف تعس الحظ ويركله مرة ثانية ليلج الباب . وهناك وما أن دلفتُ حتى استقبلتني لطمة شرطي ثالث حولت وجهي إلى الجدار . وتتابع وصول الإخوة الآخرين إلى الجدار بنفس الطريقة ، حتى إذا اكتمل عددنا وانتهت الدفعة أحسسنا ووجوهنا إلى الجدار كلنا أن شخصاً مهماً قد حضر . ونادى أحدهم وفق الإجراء العسكري المتبع :

حاضر سيدي المساعد .

وانطلق من وراء ظهورنا صوت مساعد السجن أحمد كيساني كما علمنا لاحقاً أو أبو جهل كما سماه السجناء .. انطلق من غير مقدمات يلعن آباءنا وأجدادنا ويَفْجُرُ بحق أمهاتنا وأعراضنا وديننا .. كان مضحكاً مبكياً أن ينادينا هذا المجرم الوالغ في دماء الأبرياء يقول :

يا خَوَن (أي خونة) .. يا عملاء الصهيونية !

وانطلقت السياط من غير إنذار تسلخ جلودنا المكشوفة لهم ، فإذا صاح واحدنا أو تأوه ضاعفوا عليه العذاب . لكن حفلة التعارف ما كانت لتبدأ من قبل أن نتلقى أصول الإتيكيت السائد ! ولم ألبث أن طرق سمعي صيحة أبي جهل هذا ينادي عساكره :

أحضروا هذا العرص أبو الجينز .

وكنت وقت اعتقالي ألبس بنطال جينز قدراً ، فكأنما وجده نقطة علام تساعده على أداء مهمته . وجذبتني الأيدي كملاقط الحديد ورمتني أمام سيادة المساعد ، فلما رفعت عيني إليه أريد أن أستطلع الخبر صاح بي ملء صوته :

غمض عينيك ولا .

وهجم عناصر الشرطة علي فبطحوني أرضاً يركلونني ويجلدونني من كل اتجاه . وأتتني وسط هذه العاصفة لسعة كرباج على عيني رأيت الشرر والله خرج منها ! وأدركت لاحقاً أن هذا الذي أصابني كان مجرد درس تعليمي لنا وحسب ! فالقوانين هنا في سجن تدمر العسكري غيرها في أقبية المخابرات بدمشق . وإذا كانت التعليمات تقتضي هناك أن تبقى عيوننا معصوبة

مطمشة على الدوام حتى لا نرى أحداً من المحققين أو الجلادين ، فإنها هنا توجب علينا أن نكشف عيوننا وأن نمتنع رغم ذلك عن رؤية أي أحد منهم ! ولو نزلت على واحدنا كبلات الأرض أو قطعت لحمه السياط فالواجب المحتم عليه أن يبقى مغمض العينين !

الذاتية
وتوقف الضرب فجأة بإشارة من أبي جهل ، وأتاني صوته القبيح :
راسك بالأرض ولا وغمض عينيك .
وساد المكان سكون رعيب لبرهة من زمن . فلما أدرك أن الدرس الأول وصل المجموعة كلها صاح من جديد :
قل حاضر سيدي ولا .
قلت ورأسي في الأرض وعيناي مغمضتان : حاضر سيدي .
قال : كم عملية إنت عامل ولا عرص ؟
قلت : ولا عملية سيدي .
قال وكأنني أنا الذي أشتمه : ولا عرص .. بتكذب ؟
وانهالت الكبلات والسياط علي من جديد . وجعلت أتلوى على الأرض كالذبيحة لا أدري أين المفر . والإخوة وجوههم كلهم إلى الجدار وصياحي وعواء الشرطة من حولهم وحولي يفتت أعصابهم ويفري قلوبهم . ولم يلبث الدور أن تحول ونادى أبو جهل من جديد :
واحد واحد من هون يا خَوَن اطلعوا لبرة .
وساقتنا اللطمات والكرابيج من جديد إلى باحة أخرى تتصدرها غرفة الذاتية ، أجلسونا خمسة خمسة أمامها وبدأوا يدخلوننا واحداً تلو الآخر إليها ، والشرطة خلفنا يركلوننا بأرجلهم أو يصفعون رؤوسنا بأيديهم ويلسعون ظهورنا بالكرابيج والكبلات وهم لا يكفون عن شتمنا وتوعدنا وتهديدنا :
هلق بنفرجيكم يا خَوَن .. هلق بس تخلصو يا ويلكم .. والله لنعمل ... بأمهاتكم واخواتكم .. والله الموت مصيركم يا ..
ولم يكن الزبانية كاذبون في ذلك ، فلقد اعتادوا قتل الناس بأنفسهم وفعلوا ذلك مرات لا تعد . ووفوا وعدهم في المستقبل وأزهقوا من أرواح الإخوة من نفس الدفعة عدداً ربما فاق من بقي منهم على الحياة !

التعليم !
لم يكن الفجر قد طلع بعد ، والبرودة التي أطبقت علينا من كل اتجاه ونحن في ملابسنا الصيفية الخفيفة التي اعتقلنا بها زادت عليها برودة الإسمنت الذي أجلسونا فوقه ننتظر أن نلج غرفة الذاتية تلك . فلما حان دوري وقد كدت أتجمد رغم السياط التي أصابتني دخلت فوجدتهم يسألونني كالعادة عن اسمي وسني وعنواني .. وعلمت أثناء ذلك أننا اليوم في العاشر من شباط عام 1981 . فلما علموا أنني أردني الجنسية ثارت ثائرتهم وانتفضت أوداجهم وانهالوا علي ضرباً ولكماً وشتماً بأقذع الألفاظ . ولم يكن معنى ذلك أنها غضبة ساعة وحسب . فلقد تبين لنا لاحقاً أن الشخص الذي يلقى معاملة خاصة من هذا النوع ساعة استقباله في الذاتية فقد "تعلّم" . و"التعليم" معناه أن الشرطة قد ميزوه عن غيره لسبب ما .. وأنه محتم عليه بالتالي الهلاك لا محالة .. في العاجل أو في الآجل القريب . غير أن الله سبحانه قدر ولطف ، وحدث أن تغيرت النوبة التي استقبلتنا في تلك الأثناء .. وذهبت مجموعة الشرطة التي كانت علّمتني وقتذاك وحضر آخرون فاتتهم هذه الملاحظة عني .. فأنجاني الله من موت محقق !

قصاص !
وانتهت إجراءات التسجيل ، وصرنا الآن جزء من عهدة تدمر رسمياً ، وعلينا أن نتلقى مراسيم الإستقبال الرسمي الآن .. فكل هذا الذي سبق تبين أنه لم يكن ضمن الحساب !
تجمع موكبنا الحزين خارج الذاتية ، فإذا بنا أمام باب كبير كفم الغول .. أخذتني لمحة من عيني إلى أعلاه فهالني أن أقرأ قول الله تعالى مخطوطاً هناك (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب) تحوطه شعارات النظام المعروفة "أمة عربية واحدة . ذات رسالة خالدة " !
دخلنا الباب ونحن نقرأ على الدنيا وراءنا السلام !
ووجدنا أنفسنا في باحة اسمنتية تحيطها المهاجع التي أمرونا أن نصطف على جدرانها مُسْلِمين للوحوش رجال السَرِيَة كلهم ظهورنا بالإختيار ! ولم يلبث الزبانية أن

بدأوا يسحبون الواحد منا تلو الآخر فيعرونه من ثيابه إلا الشورت ، ويفتشونه مرة أخرى من باب الإحتياط . وفي الوقت الذي يتولى قسم من الشرطة الإخوة المتجهين إلى الجدار بالضرب والجلد والركلات ، وبينما يعلو الصياح وترتفع أصوات الإستغاثة ولا مغيث ، تجذب الأيدي القاسية الأخ الذي تجرد من ثيابه وبات جاهزاً أو تدفعه فيختل توازنه ويقع على الأرض ، ليكون الدولاب في استقباله واثنان من الشرطة العسكرية على جانبيه ينزلانه فيه . فترتفع الرجلان في الهواء .. ويفقد واحدنا القدرة إذ ذاك على التحرك . لكن الجلادين ولزيادة الإحتياط وتحقيق مزيد من الإتقان يربطان الرجلين بجنزير من الحديد تعدم أية فرصة لهما للتحرك قيد أنملة .

ويبدأ الضرب من غير رحمة ومن غير عد .. فإشارة الإنتهاء لدى الوحوش أولئك أن تتفتح بطن الرجل وتسيل منها الدماء . فإذا تم ذلك فكوا القيد عن الرجلين وأخرجوا المعتقل من الدولاب وأمروه أن يفتح كفيه ليتلقى هدية أخرى . وتنهال على الراحات سياط من الجلد العريض سمعنا أنها صنعت من حزام مروحة الدبابات ! حتى إذا حل بالأيدي مثل الذي حل من قبل بالأرجل وتأكد الجلادون أن الدم الآن يسيل أمروا ضحيتهم بالإنبطاح . ولا يكون المسكين بحاجة لسماع الأمر لأنه منهار ومُنْتَهٍ بذاته ، فيستقبل الأرض لا حول له ولا قوة .. وتلحق به السياط والعصي تأكل الآن ظهره وجنبيه : خمسون .. مائة .. وربما مائتا جلدة قبل أن يتوقف الزبانية .

ويدخل الحفل مرحلته الأخيرة ، فيقفز أحدهم فوق ظهر الضحية ويلحقه ثان فيقلبه ويعلو صدره .. ويأخذ كلاهما يعفسانه ويركلانه ويمسحان به نعالهما العسكرية الغليظة .. حتى تتكسر الضلوع وتتهتك بقايا الجلد السليم . وتكون الدائرة قد مرت على الدفعة كلها ، وسالت دماء الإخوة جميعاً ونال كل واحد منهم نصيباً من العذاب غير موصوف . ولكم فُقِدَ في حفل الإستقبال ذاك من إخوة وماتوا من غير أن يأبه أحد . ولكم خرج من هذا الجحيم من خرج كسيراً أو صاحب عاهة من غير أن يزيد ذلك الزبانية إلا سروراً وغروراً .

المهجع 26

مضت ثلاث أو أربع ساعات على حفل استقبالنا هذا وسطعت علينا الشمس فهالنا أن نبصر أنفسنا وكأننا سرب طيور منتوفة الريش ! ومن قبل أن نلتقط أنفاسنا صاح بنا أحدهم أن نلبس ثيابنا ونمشي . ومشينا .. نازفي الجروح مطأطئي الرؤوس . لكن السياط والكبلات لم ترحمنا . ووجدنا أحدهم يهوي علينا بعصا لا أظنها والله إلا جذع شجرة .. إذا هوت على الظهر فلقته . فإذا أصابت الرأس أو الصدغ فالواحد ميت لا محالة ! وكان معنا أخ من ادلب اسمه نديم منصور أصيب أثناء اعتقاله بطلقات رصاص في ساقه وساعِدِهِ ولم يكن يستطيع السير . فتقدمت أنا وأخ من حلب اسمه جمال عيار وحملناه . أنا أمسكه من كتفيه وجمال يرفعه من رجليه . وركضنا وركض الشرطة وراءنا يضاعفون علينا العذاب .. وكدنا مرات عديدة أن نقع ويقع الأخ معنا . ولم نكن ندري إلى أين سينتهي هذا الجري بنا . وجعلنا ندخل من باحة إلى أخرى ونعبر من باب إلى باب حتى وصلنا آخر الأمر إلى الباحة السادسة من السجن ، ووجدنا أنفسنا نساق إلى مهجع كبير فيها هو المهجع السادس والعشرون . وهناك وبعد أن اكتمل وصولنا وجدناهم يصفوننا على الجدار من جديد ، ومضى الشرطة فختموا لكل منا بضربة عصا على ظهره الدامي لتهد ما يمكن أن يكون تبقى من جَلَدٍ فيه . حتى إذا هدأت الأصوات وسكنت الحركات دخل المساعد أبو جهل المهجع .. وافتتح كلمة ترحيب جديدة حافلة بأقذع المسبات وألفاظ الكفر بالله .. وزف إلينا وسط عباراته الناضحة بشرى وصولنا سجن تدمر .. تدمر التي ستكون فيها نهايتنا .. نحن الخون العرصات العملاء ال.... . وانتهت الكلمة الترحيبية بنا ، وخرج أبو جهل يتبعه الزبانية ، ووجدنا الباب يغلق علينا ، وصمت كصمت القبور يلفنا . وسرعان ما ألقى كل منا بدنه المنهك على الأرض .. يود لو أن مال الأرض كله بين يديه فيفتدي به ساعة من غير عذاب !

في انتظار المجهول !

أغلق الباب وظننا أننا نلنا اليوم نصيبنا كاملاً من العذاب ولن يكون هناك مزيد . غير أن الأمل تبخر لحظة أن نادى علينا صوت أجش من فوقنا يصيح :
الكل لم عالزاوية ولا .
أفزعتنا المفاجأة .. فلم نكن نتصور أن فوقنا داخل المهجع زبانية من الشرطة العسكرية أيضاً . وعندما رفع أحدنا رأسه يستطلع من أين جاء الصوت ناداه الشرطي وهو يشتمه :
أنت يا .. علّم حالك ولا . ولما أقول وين المعلّم بتطلع لبرة ..
وكالقطيع المرعوب انكمشنا نحن في زاوية من زوايا المهجع حيث أمر ، وأطرقنا برؤوسنا نترقب المجهول . وأخذنا نحاول بحواسنا المتوترة أن ندرك معالم هذا المهجع الذي ضمنا من حيث لم نحتسب . ولقد أدركنا لاحقاً أن البناء عبارة عن غرفة كبيرة مستطيلة ، ثمة دورة للمياه على يسار الداخل من الباب ، فيها حمامان تتوسطهما مغسلة وحوض . وأما بقية المهجع ففي حجم ثلاث غرف متتالية ، تحيط زاوية التقاء جدرانها الأربعة بالسقف نوافذ مفتوحة على الدوام ، عليها قضبان من الحديد وحسب ، غير أنها من العلو بما يكفي لمنع وصولنا إليها أو مشاهدتنا لما يجري في الخارج عبرها . وفي السقف نفسه هناك فتحتان مساحة كل منهما متر بمتر تغطيهما قضبان من الحديد الغليظ أيضاً ، يستطيع عناصر الشرطة الذين يتناوبون فوقنا أربعاً وعشرين ساعة في اليوم أن يروا كل ما يدور بيننا من تلك النافذتين ، أو الشراقتين كما تسميان باصطلاح السجون .

السخرة
ومضيت أتحسس جراحي وألملم بدني المنهك في سكون .. وانشغل كل منا بحاله فلا تسمع إلا اضطراب الأنفاس وأنات الألم تنطلق بين تارة وأخرى فلا يلبث صاحبها أن يكتمها ويشد على الجراح بصمت .
وانقضت ساعتان أو أكثر بقليل ، وفتح الباب فجأة ودلفت دفعة جديدة من المساجين الجدد تجاوز السبعين أغلبهم شباب في مقتبل العمر من طلاب الثانوية العامة أو الجامعة .. علمنا لاحقاً أنهم كلهم من مدينة حمص ،

وأنهم نالوا مثل العذاب الذي نلنا ، ولكننا لم نسمع أصواتهم لأن إجراءات الإستقبال تمت كذلك بعيداً في الباحة الأولى مثلنا . غير أن الشرطة لم يحرموننا من أن نتنعم بسماع صيحات الألم والعذاب ، فلم يلبث أحدهم أن فتح الباب ونادى فينا وكأن له ثأر قديم يريد أن يشتفي منه :

وين المعلّم ولا ؟

فعلمنا أن الأمر جد إذاً ، وأن الأخ لا بد وأن ينال عقوبة تلك النظرة الخاطفة . وخرج المسكين وكان اسمه صالح الوقاع أستاذاً لمادة العلوم من مناطق دير الزور . وانهال عليه الشرطي لطماً وصفعاً وجلداً ، وصراخه يصم آذاننا ويشوي قلوبنا ولكننا لا نملك له إلا الدعاء . ولم يكد هذا المشهد أن ينتهي حتى فتح الباب مرة أخرى ونادى عنصر من الشرطة فينا :

من كان منكم عسكري ولا .

غير أن أحداً منا لم يجب . أعاد السؤال فسكت الجميع . وفي المرة الثالثة رفع أحدنا يده وكان اسمه وضاح الدن من قرى حلب وقال :

أنا سيدي .

قال الشرطي : أنت عسكري ولا ؟

أجاب نعم سيدي .

قال الشرطي وهو يرمقه بقرف : ماشي الحال .. قدم الصف لأشوف .

فوقف الأخ وفق الإجراءات العسكرية ونادى فينا :

انتب......ه . است......رح . است.....عد .

وفي الوقت الذي لفنا الإضطراب ولم نعلم بم نتصرف صاح الشرطي فيه :

بتقول استرح استعد المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب . تفعل ذلك كل ما سمعت أي حركة على الباب يا ...

فطور بالإكراه !

وخرج حضرة الرقيب .. وجعلنا نحوقل في سرائرنا ونسأل الله اللطف والستر .. ولم يلبث أن فتح الباب من أجل إدخال الفطور . وقفز الأخ من مكانه وصاح بنا اللازمة التي تعلمها :

انتب......ه . است......رح . است.....عد .

ولكنه تلعثم قبل أن يعلن جاهزية المهجع للتفتيش فلم نكن قد عرفنا بعد كيف يكون ذلك أو كيف ننفذ هذا الأمر في هذه الظروف . ونادى الرقيب وهو يكاد يزمجر :
السخرة .. وين السخرة ولا ؟
ولم يكن قد مضى على وجودنا في المهجع وقت يكفي لنلتقط فيه الأنفاس فكيف لنا أن نفكر بالسخرة وبالطعام ! فلما وجد الرقيب الحالة لم تنضبط والأمر لم ينفذ سحب الأخ وضاح إلى الخارج وانهال عليه صفعاً وركلاً ، فلما انتهى رمى به إلى الداخل ونادى من جديد :
من كان منكم عسكري يا ...... ؟
في تلك المرة خرج الأخ جمال عيار وأجاب . وكان جمال أو أبو الفضل كما كنا نناديه خريج المدرسة الشرعية بحلب يخدم الجندية الإلزامية حين اعتقل . وكان رحمه الله ممتلىء الجسم قصير القامة ، فناداه الشرطي سائلاً :
أنت عسكري ولا ؟
قال بثبات واحتراف : نعم سيدي .
قال له : أدخل الفطور الآن .
ودخل علينا جمال بطشت بلاستيكي فيه بعض قطع الجبن وأرغفة الخبز العسكري الجافة ذاتها . تبعها بسطل من الشاي يبعث منظرة على القرف . ولم يكن لأحد لا قدرة وقتها ولا شهية لتناول شيء ، لكننا وجدنا الشرطي ينادي من فتحة السقف فوقنا ويصيح :
الكل واقفاً ولا .
فانتفضنا وقوفاً كلنا .
وجهك عالحيط ولا .
استدرنا من غير أن ننسى هذه المرة أن نغمض أعيننا ونخفض رؤوسنا نحو الأرض .
رئيس المهجع . شيل قطعة الجبنة وطعميهن هالعرصات واحد واحد .
فأخذ أبو الفضل يطوف علينا ويدس في فم كل منا قضمة جبن . فلما انتهى ناداه الشرطي من جديد :
املأ قصعة الشاي وشرّب هال... بالتناوب .
ونفذ جمال ما أمر الشرطي به . وجلسنا من ثم في أماكننا صامتين واجمين . وقتذاك كانت الشمس قد سطعت وتسللت أشعتها الدافئة من نوافذ المهجع العليا فنشرت فينا الدفء والإرتياح لبرهة . غير أن الباب لم

يلبث أن فتح من جديد فقفز جمال ونادى باللازمة .
ودخل هذه المرة أبو جهل وبعض الزبانية حوله ونادى :
رئيس المهجع . ضب كل المساجين لجوه .
فاجتمعنا كلنا في زاوية داخل المهجع ، فيما دخل عدد من عناصر "البلدية" وفق مصطلح السجن الذي تعلمناه لاحقاً ، وهم المساجين غير السياسيين من العساكر الذين يقضون عقوباتهم في السجن . وأدخل أولئك كوماً من البطانيات المنتنة فكدسوها على مقربة من أقدام المساعد والشرطة العسكرية وخرجوا . فنادى أبو جهل من جديد :
الكل في صف واحد ولا .
فانتظمنا في صف واحد أخذ يمر أمامه وقد أغمضنا أعيننا كلنا وخفضنا هاماتنا . فجعل الشرطة يسلمون كلاً منا بطانيتين وكل اثنين منا عازلاً مشتركاً . والعازل عبارة عن خيمة بالية من خيام الجيش مغطاة بالبطانيات العتيقة . فلما تم الإستلام وفوق البَيْعَة ما لا يعد من اللعنات والشتائم قال أبو جهل يخاطب رئيس المهجع وبقية السامعين :
هذه البطانيات والعوازل عهدة .. وكل واحد مسؤول عن عهدته ولا .
وتلقينا العهدة والتعليمات والشتائم ونحن لا نزال مغمضي العيون خاشعي الحركة . وسمعنا المساعد وأزلامه ينسحبون ويغلقون الباب علينا .. فألقينا عهدتنا الثمينة تلك وألقينا فوقها أجسادنا المنهكة .. لا ندري ماذا نفعل أو نتوقع في الخطوة التالية .

التفقد
وبلغت الساعة حوالي الثانية بعد الظهر . ووجدنا الباب يفتح من جديد . وانتفض الأخ جمال فقدم الصف .
ودخل الرقيب وصاح فيه :
صفهم خمسة خمسة للتفقد .
ولم يكن علينا إلا التنفيذ . لكن الفزع الذي غمرنا جميعاً جعلنا نتدافع مضطربين كل منا يتحاشى أن يأتي إلى طرف الشرطي ، فلما طال الأمر ولم ينتظم الصف دخل الشرطة علينا وأوسعونا ضرباً وجلداً ، وجمال رحمه الله يجهد في أن يساعدنا على الإنتظام في الصف قدر الإمكان . وتم الأمر أخيراً ، وعَدُّونا فكان

العدد فوق المائة . وصار واضحاً لدينا الآن أن هناك جزءاً أساسياً في البرنامج اليومي يسمى التفقد ، الجلد والضرب والشتائم لوازم ضرورية لا بد وأن تلازمه .. مثلما هي لوازم لا تنفصل عن أي مناسبة أخرى تتاح للشرطة فيها أن يسفكوا دماءنا !

وخرج الشرطة .. وعدنا كل إلى ذاته مطرق الرأس مشتت الفؤاد . لا يكاد واحدنا يسمع أدنى حركة حول المهجع أو فوقه حتى ينتفض كالمحموم ! وكلما ود أحدنا أن يرفع الطرف لينظر حوله تذكر ما حل بالأخ صالح فيرتد إليه طرفه وهو حسير !

وهكذا مضى اليوم .. ومرت أيام أخر ، لا يجرؤ أحدنا أن يكلم جاره الذي ينام معه على عازل واحد ، أو يهمس حرفاً لأقرب الناس إليه . والبرنامج اليومي يتكرر كاللازمة : نستيقظ في السادسة ، فنضب العوازل والبطانيات ونقبع فوقها صامتين واجمين .. ولا يلبث أن يفتح الباب فننتفض جميعاً ونقف في حالة الإستعداد . وتخرج مجموعة منا لاستلام حفنة الطعام التي يعتبرونها الفطور مجازاً . فنزدردها بلا شهية ، أو نجمعها في ركن الحمام من غير أن يقربها أحد . وربما مرت على الواحد منا الوجبة والوجبتان والخمس وهو لا يمس من الطعام من قلة الشهية شيئاً . ولكم اضطر رئيس المهجع إلى رمي الطعام في الحمام لأن أحداً لم يأكله خشية أن يكتشف الشرطة ذلك فننال ما نحن بغنى عنه !

فإذا انتهى الفطور من غير مشاكل حان وقت التفقد . فنستعد ونأخذ حسبنا الله لساعة تعذيب لازم . وينال كل منا نصيبه المقدور .. ونعود إلى جلستنا مترقبين حذرين . ولا يلبث الشرطة أن ينادوا علينا للتنفس هذه المرة . فنخرج إلى الساحة مطرقي الرؤوس مغمضي العيون .. يمسك واحدنا أخاه الذي أمامه من وسطه ويتبعه كالأعمى .. لتتلقانا الكبلات والعصي فتقودنا بالإكراه إلى حيث يشاؤون . وترانا كقطيع مسعور نجري حول الساحة والكرابيج والكبلات والضربات تلاحقنا أنى اتجهنا . فإذا زلَّ أحدنا أو وقع تعثر به البقية وتكوم فوقه المتساقطون .. فتزداد فرصة الشرطة لزيادة الضرب ومضاعفة العذاب . ويعلو الصياح وأصوات الإستغاثة ، فتعلو عليها عبارات الكفر والشتائم البذيئة .

فإذا انتهى وقت التنفس وقادتنا الكَبْلات صوب المهجع من جديد ، تكون على الباب ملحمة أخرى دامية . فمائة ونيف من هؤلاء البؤساء ليست أمامهم إلا فتحة هذا الباب لينفذوا منها . عيونهم مغمضة فلا يستطيعون مشاهدة موطىء أقدامهم ، والسياط والهراوات تلاحقهم من كل حدب وصوب . فتنحشر الأكتاف والرؤوس ، ويسقط من يسقط تحت الأقدام ، ويشج البعض بعارضة الباب الحديدية . فلا تنتهي حفلة التنفس تلك إلا وقد دمي من بيننا أكثر ممن سلم ، وأصيب أضعاف من نجا .

طعام ومنام !

وهكذا كنا نعود إلى المهجع لنلعق جراحنا بصمت ، ونتأوه تخنقنا الحسرات والعبرات .. ويحين موعد الغداء بعد حين .. ولا يلبث أن يأتي من ثم العشاء . ونحصي إذا قدرنا نصيبنا الذي نلناه على مدار اليوم من الطعام فلا نراه يكفي لأن يسد رمق طفل صغير : صمونتان صغيرتان جافتان للوجبات الثلاث . ورشفة شاي على الفطور مع بضع حبات زيتون أو لحسة مربى أو حلاوة لا تملؤ ملعقة واحدة . ومرق أحمر للغداء لا يكاد يكفي لكي يبلل الصمونة التي فتتناها فيه . وبعض حبات الحمص المسلوق أو أجزاء من البطاطس المسلوقة للعشاء .. وحسب ! ولربما استُبْدِلَ البيض بالبطاطس مرات ، أو شوربة العدس بالحمص المسلوق . لكن قلة الكمية وسوء النوعية كانت تثير فينا الشعور بالجوع أكثر من أن تلبي حاجتنا إلى الشبع ! فنصيبنا من البيض إذا حضر لم يكن يتجاوز البيضة الواحدة لستة أشخاص . ومن الأرز ملعقة صغيرة واحدة للشخص . ومن اللحم أقل من رأس العصفور في المناسبات . وإذا أحضروا دجاجاً كان نصيب المهجع كله خمس أو ست دجاجات مقابل أكثر من مائة فم ! حتى أننا بتنا نعتبر الطعام نوعاً إضافياً من العذاب ليس إلا ! وصار اعتيادياً بيننا أن نأكل قشر البرتقال وقشر البيض والبطيخ ولا نرمي من الفضلات في القمامة شيئاً . ولكن النهار لا بد وأن ينتهي ، ويحل موعد النوم في السادسة ، لكنه النوم الذي يحرم على صاحبه أن يتنعم بالنوم فيه ! فالضوء داخل المهجع لا يطفؤ ليل نهار ، والشرطة على السطح يراقبوننا

باستمرار . ولو نمى إلى سمعهم صوت همس أو حس حركة من بيننا علّموا صاحبها على الفور فكان نصيبه من العذاب في الصباح ما لا يسر !
ولقد كانت الصلاة وسط هذا الظرف نوعاً من التهلكة بالطبع ، ولكم أخرج الشرطة رئيس المهجع وانهالوا عليه ضرباً يسألونه عمن يصلي عنده من المساجين ليدلهم عليه . ولذلك كنا نصلي إيماء من أول يوم . كل بسرّه وحده من غير ركوع أو سجود . لكن النعمة التي وجدناها في ذلك المهجع كانت في الحمام . فلم يكن من رحمة الله للحمام شراقة تكشفه ، ولذلك كنا نتوضأ آمنين ، وننسحب إلى بطانياتنا فنستلقي تحتها ونصلي موميين بسكون وهدوء .

إلى الحلاق !
وانقضى قرابة أسبوع على هذه الحال .. وبدأنا نألف الوضع الجديد ونتأقلم معه . وأخذنا نجرؤ على النظر إلى بعضنا البعض والهمس فيما بيننا ولو بكليمات .
وقام الأخ جمال رئيس المهجع فقسمنا إلى مجموعات صغيرة للسخرة ، فساعدنا ذلك على الخروج من حالة الوجوم تلك ، وبدأنا نتعرف على الأفراد المحيطين بنا من غير أن نجانب أقصى أسباب الحذر . لكننا وبعد أن ظننا أن البرنامج استقر على هذه الحال فوجئنا بهم ينادوننا للخروج من المهجع مرة واحدة في غير موعد التنفس . ووجدناهم يسوقوننا مغمضي العيون إلى زاوية من زوايا الباحة تلاحقنا الجلدات والسياط كالعادة . وهناك صفونا على الجدار وجعلوا يخرجوننا خمسة وراء خمسة في صف واحد ، لنجد في انتظارنا ثلاثة من السجناء العسكريين الذين يسمون "البلدية" بلغة السجن يقومون بدور الحلاقين . وغالباً ما يتم اختيار أولئك من أبناء طائفة النظام الذين يقضون عقوبة ما في سجن تدمر ، فلا يقلون حقداً ومكراً عن بقية السجانين من الشرطة العسكرية . وعندما يصل واحدنا إلى أول الحلاقين يأتيه الإيعاز بلهجة الأمر :
وراء دُرْ .
فيستدير .
ارفع راسك .

فيرفعه من غير أن يفتح عينيه . ويمر الحلاق بالفرشاة والصابون على الذقن فيطريها . ويرسله إلى الحلاق الآخر فيفعل ما فعل الأول . وينتهزها "البلدية" فرصة لينفثوا فينا أحقادهم الطائفية . فشتيمة من هنا ، ودس للفرشاة في الفم أو الأنف من هناك ، ولطمة أو صفعة هنالك .. وأما المسبات فكلها بالمجان وعلى الحساب ! وعندما نصل للحلاق الثالث على الشاكلة نفسها ، يمر بالموس على الذقن فيحلقها ، والشرطة من ورائنا يصيحون فيه :

اذبحه هذا الكلب .. أو اسلخه هالعرص .

فيلبي الحلاق الطلب بكل امتنان ، فيضيف على الوجه جرحاً أو أكثر . ولا يبخل بمزيد من الصفعات والمضايقات . فإذا انتهى انتقل الصف إلى حلاقة الشعر ، فيجثو السجين على ركبتيه ، يداه وراء ظهره وعيناه مغمضتان . وأؤكد هنا أنني طوال السنوات التي أمضيتها في تدمر لم أشاهد وجه الشخص الذي كان يحلق لي قط إلا خلسة .. وكنت دائماً مثل الآخرين مغمض العينين مطبق الجفنين ! وعندما تنتهي حلاقة الرأس واللحية والشاربين التي تستخدم بها ماكينة يدوية بالطبع ربما انتزعت الشعر بدل أن تحلقه ، أو أصابت الوجنات فأدمتها لتبهج الحلاق .. عندما تنتهي يأتي الإيعاز من الشرطة خلفنا :

منبطحاً .

فننبطح .. ويتقدم واحد منهم أو أكثر ليقدموا لنا ما كنا نسميه "نعيماً" الحلاقة ! فيبدأوا بالقفز فوق ظهورنا ، أو يوسعونها جلداً وركلاً ، ولا ينسوا نصيبنا وافراً من الشتائم والمسبات . فإذا انتهوا وقت أن يحلو لهم الإنتهاء ، عدنا محطمين إلى الجدار من غير أن يكف الشرطة عن جلدنا وضربنا وركلنا ونحن ننتظر أن ينتهي المهجع كله من الحلاقة .

ولقد كانت مفاجأة لنا أول مرة حينما عدنا بعد هذه المعمعة إلى المهجع وأقفلوا علينا الباب ، فوجدنا أنفسنا بالقرعة تلتمع رؤوسنا كثمر البطيخ .. فلم نتمالك أنفسنا من الضحك رغم الألم . ثم وجدنا أنفسنا بعد ذلك لا نألف إلا هذا الشكل فينا ، ولا نعرف إلا هذا النوع من الوجوه !

حمام الدم !

وانتهت الحلاقة ، لكن البرنامج لم ينته . ولم يلبث مناديهم أن نادى فينا :
الكل برة بالشورت ولا .
فظننا أنها حفلة تعذيب جديدة . وبدأنا نراجع أنفسنا علنا ندرك ما حدث . ووجدتنا نساق مغمضي الأعين عاريي الصدور مكشوفي الظهور حفاة نتبع واحداً من الشرطة كالنعاج لا صول لنا ولا قوة . تتناوشنا السياط من كل اتجاه ، وتهوي علينا الصفعات والركلات في كل خطوة . وعندما صادفنا "البلدية" الذين كانوا يوزعون الطعام على إحدى الباحات في طريقنا وجدناهم يهجمون علينا فكأننا الطريدة العاجزة أمام كلاب الصيد ! وانتهت بنا المسيرة بعد قرابة الربع ساعة إلى الباحة الأولى ليعلموننا هناك أنها ساعة الحمام أتت .
وعندما يذكر الحمام عادة يتبادر إلى الذهن الماء الدافىء أول ما يتبادر .. والصابون والطيب والإسترخاء .. لكن الأمر لم يطل بنا لنعرف الحقيقة . ووجدناهم يقسموننا قسمين : أبقوا الأول في الباحة وأمروهم أن يجلسوا جاثياً ، رأسهم إلى الأرض وظهرهم العاري مكشوف للشرطة ، وساقوني مع القسم الثاني إلى الحمام .
ودلفنا أكثر من خمسين شخصاً على عدد من المقصورات لايتجاوز عدد أصابع اليدين ، وجاءنا الإيعاز بالدخول تحت الدشات ، فكنا ستة أو سبعة أو ربما أكثر كلنا تحت دش واحد ! وانصب علينا الماء البارد مرة واحدة ، لكن صوت السياط التي أخذت تجلد ظهور إخواننا الذين في الخارج أنستنا وكأنها طلقات الرصاص أحاسيس التجمد ، وأبدلت قشعريرة البرد التي سرت فينا رجفة الخوف من المصير المرتقب ! وجعل بعض أفراد الشرطة يدخلون وراءنا فينعمون علينا بلسعات الكرابيج مقدماً . وأمرنا بعضهم أن نخلع سراويلنا ونكشف عوراتنا زيادة لنا في الإهانة والعذاب .. ولم نجد بداً إلا أن ننفذ .. والزبانية بين ضاحك وساخر وشاتم .
وانتهى الأمر خلال خمس دقائق .. وخرجنا تتقاطر منا المياه لتتلقانا السياط التي سبق ونالت من ظهور الإخوة قبلنا . وزادنا ألماً وعذاباً أن عبرنا فوق مجاري الحمام المفتوحة فتعثر فيها من تعثر وارتطم بحوافها القاسية من كان له نصيب لم ينته من البلاء .. فلما

انتهت الدفعة الثانية خلنا أن دهراً بأكمله انقضى .. ومضينا تدفعنا السياط والصفعات إلى المهجع مغمضي العينين كما أتينا . وتدافعنا على الباب ككل مرة ، فتعثر من تعثر .. وشج من شج .. وارتض من ارتض . وكان الحمام حقيقة الأمر حمام دم بكل معنى الكلمة .
وارتمينا بعدما أغلق الباب علينا كالقتلى على الأرض . ما منا إلا من يئن أو يتأوه .. وليس فينا إلا جريح أو معنّى . لكن المأساة لم تكن انتهت بعد .. والمهزلة كانت تنتظر فصلها المضحك للختام . فما هي إلا دقائق حتى فُتِحَ الباب ، ودخل الشرطة فأبلغوا رئيس المهجع أن علينا أن ندفع أجرة الحلاقة والحمام .. فوراً وفي الحال !
وأتى الأخ ينتظر منا الجواب .. وليس لدينا من جواب إلا التسليم في كل مرة .. وتقدم من سَلِمَتْ نقوده في الأمانات فدفع .. واندفعنا بعدما هدأ الحال إلى حمام مهجعنا لنغسل ما كسى أجسادنا من دم وشعر وتراب ، فما كدنا ننتهي حتى كان اليوم قد انتهى .. وانتهت فينا كل ذرة من طاقة وجَلَد .. فارتمينا على بطانياتنا الرثة نلتمس ساعة نوم هادئ قبل أن تدهمنا مفاجأة جديدة .. أو تحل علينا من القوم نازلة لم تكن في الحسبان !
ولقد استمر نظام الحمام البئيس هذا مرة كل أسبوع حتي عام 1984 حيث صدرت الأوامر وقتها بأن يتم الإستحمام في حمام المهجع نفسه . وأما الحلاقة فاستمرت حتى عام 1986 حيث انتشر مرض اليرقان - كما سيأتي بأذن الله - فكان ذلك البلاء سبباً في رفع هذا البلاء !

من رحمات الله
ومرت أيام أخر .. نزداد اقتراباً من بعضنا وائتلافاً بمقدار ما يزداد الهم وتتنامى المعاناة . ومع تقادم الخبرة بدأنا ندرك كيف تمضي الأمور حولنا .. وتعلمنا أن الشرطة يتعاقبون على حراسة سطح المهجع . فصرنا ننتهز فرصة انشغالهم بالإستلام والتسليم لنتحدث بحرية أكثر أو نتحرك من غير خوف . ومع اعتياد المكان والحال بدأنا ومن نعمة الله علينا نسمع صوت الأذان الآتي من مدينة تدمر المجاورة . فلم يكن من أنيس لنا مثله أبداً . وكأنما أحس الزبانية بأثر هذه النعمة علينا ،

فكان بعضهم إذا ارتفع الأذان علانا وأطل علينا من الشراقة وجعل يتبع كل تكبيرة بكلمة الكفر .. وكل تهليلة بمسبة فاحشة واستهزاء بالله تعالى . وكنا علاوة على الأذان تبلغنا حتى أصوات السيارات العابرة على الطريق في بعض الأحيان .. فنغتم من ذلك ونتحسر .. لا نتخيل كيف تسير الحياة طبيعية على بعد خطوات منا ونحن في هذا الجحيم لا يدري منهم بحالنا أحد !
ولقد كان من رحمات الله بنا أن أحضروا لنا في بدايات الأسبوع الثاني ممرضاً مجنداً طاف على المهاجع وسجل احتياجاتنا الضرورية من العلاجات . ووجدناه يحضر لنا بالفعل بعض ما طلبنا .. وكان أكثر ماكنا نريد مراهم الجروح والإلتهابات .. فمن بين هذا الجمع من البؤساء كان ثمة من هو في أمس الحاجة لها قبل أن يصل هذا المكان .. مثلما كانت الحاجة إلى العلاجات متجددة على الدوام لدوام الضرب الوحشي والتعذيب والتشنيع .

جروح وقروح
ولقد كان من أكثر سكان مهجعنا سوءاً في حالته الصحية الأخ نديم منصور الذي حملته أنا وجمال عيار ساعة وصولنا كما ذكرت . وكان المسكين قد أصيب أثناء اعتقاله برصاصة في ساقه وأخرى في يده . وكان ثمة أخ آخر هو هيثم ملا عثمان مصاباً بالرصاص أيضاً في رجله . وهو أحد الإخوة السبعة عشر الذين هربوا من سجن كفر سوسة ثم اعتقل من جديد وأصيب أثناء ذلك . وتنقل الأخَوَان من فرع مخابرات إلى آخر حتى وصلوا تدمر من غير أن ينالا من العلاج شيء ! وكان أمراً عجيباً أن ظلا على قيد الحياة فعلاً . فالرصاصات التي مزقت اللحم وهشمت العظام استقرت هناك . وتقطعت كما يبدو أعصاب المنطقة فلم تعد الأعضاء تتحرك . ونمت العظام من جديد والتأمت بقدرة الله ولكن على غير وضعها السوي . ولذلك فلم يكن نديم أو هيثم يقدران على السير مطلقاً . وكنا نتعهدهما بأنفسنا في الحركة والسكنة . ولم يكن أمامنا ساعة التنفس أو الحمام إلا أن نتركهما في المهجع بعد الإستئذان من الرقيب . فإذا تلاءم ورفض حسب المزاج كان علينا أن نحملهما حملاً .

وظل المسكينان في معاناة دائمة حتى كان إعدامهما عام 1984 .
كذلك لم تكن معاناة الأخ حسين عثمان نتيجة تعذيبه بالكرسي الألماني أخف كما ذكرت . وكان رحمه الله دائم الإستلقاء منعدم الراحة . ولم يسلم برغم ذلك من التعذيب كما سيأتي .. حتى اختاره الله إليه ونال شرف الشهادة عام 1982 .
وأما بقية الإخوة ، ورغم أنهم كانوا في حالة أفضل أو إصابات أخف ، إلا أن آلامهم لم تكن لتكف ، وجروح بعضهم التي خلفتها حفلات التعذيب الأولى في فروع المخابرات أو تلك التي زادت عليها في حفل الإستقبال بتدمر لم تشف إلا بعد شهور . وزاد علينا القمل الذي حملناه في أجسامنا من فروع المخابرات إلى تدمر ، فانتشر في المهجع وتفشى بين الجميع .. ولجأنا إلى نظام التفلية من جديد كإجراء وحيد نخفف منه من شر هذا البلاء !

كعبة الزبانية !
وبدأت نفوسنا تعتاد هذه الحياة القاسية يوماً بعد يوم . وجعلنا في حسابنا أمر التفقد وما يصاحبه من عذاب الإستفتاح كل يوم .. والتنفس والحلاقة والحمام .
وجعل الإخوة الشباب الأصحاء يحرصون أن يقفوا من ناحية الشرطة ليفتدوا إخوانهم المسنين والضعفاء ويحمونهم من أن تطالهم سطوة الظالمين . وكان معنا عدد من المعتقلين ممن جاوزوا الستين والخامسة والستين ، أذكر منهم شريف البعث والحاج محمد غرير وكلاهما من ادلب ، وابراهيم طوبل وعمر حيدر الذي توفي رحمه الله بالسكتة القلبية عام 1986 والرجلان من المعرة . كذلك كان معنا الحاج أحمد البربور من أريحا . وكان الزبانية يحرصون على تعذيب هؤلاء الرجال أكثر ويظنونهم لكبر سنهم ولإصابة بعضهم بالصلع الطبيعي أنهم من قيادات الإخوان ! فكنا نجنبهم التعرض للعذاب قدر الإمكان ، ونأخذ عنهم دورهم في سخرة الطعام . فينال الأخ المتطوع الجلدات واللطمات ويضحي بما قد يكون حياته ذاتها فداء لإخوانه .
وكان الأخ جمال رئيس المهجع قد قسمنا إلى مجموعات كما ذكرت ، فكان ذلك سبباً في ضبط المهجع وتقليل

المشاكل مع الشرطة من جهة ، وعاملاً في تآلفنا وتعارفنا من جهة أخرى . حتى بتنا كأبناء أسرة واحدة يواسي بعضنا بعضاً ، ويساند أقوانا الضعيف فينا .. ويدخر كل منا وسعه للتخفيف عن أخيه . ولا أزال أذكر ممن كان في مجموعتي الأولى الأخ أبا رشيد حسين عثمان . وأخاً آخر من حمص اسمه أمجد طيارة . والأخوين ابراهيم أحمدو ومحمد طاهر مصطفى من أريحا .

وإذا كانت الأحداث المرة وتعاقب السنين قد أنستني من الأسماء والحوادث الكثير فإنه مما لا ينسى عن أحداث تلك الأيام وذكريات هؤلاء الإخوة المسنين يوم أن عرف واحد من الشرطة اسمه شحادة الذي ينتمي إلى طائفة النظام أيضاً أن الحاج أحمد غرير قد ذهب لحج بيت الله في يوم ما ، فمد الزنيم قدمه أمام الناس وقال لهم هذه هي الكعبة . وأمر الرجل أن يقبل حذاءه مثلما قبّل الكعبة هناك . ولم يكن للمسكين إلا أن يطيع خشية ما لا تحمد عقباه .

همجية التعذيب

وانقضى أسبوع آخر .. ودخلنا أسبوعنا الثالث على تلك الحال . وفوجئنا ضحى أحد الأيام بدفعة جديدة من السجناء تجاوز الستين تدخل إلى المهجع قادمين من حلب هذه المرة . يحضرني الآن من أسمائهم الإخوة رياض الشاوي وحسين الطُنْجي وكلاهما من حلب . الأول مهندس مدني والثاني طالب ثانوي . وأحمد عنعن طالب هندسة مدنية ، وأحمد حمزة وهذان من من مدينة الباب . وكان الأخير مدرساً . فوصل عددنا الكلي قرابة المائة والثمانين .. وأصبحت حصة كل منا في النوم شبراً وأربع أصابع وحسب ! فكان الواحد منا إذا أراد التحرك في الليل أيقظ بحركته أكثر أهل المهجع . ولو أحس الشرطي فوقنا بأدنى حركة بيننا في الليل خاصة كان ذلك كافياً ليعلّم من يشاء ويخرجه في الصباح التالي لينال نصيبه من القتل والتعذيب .

لكن وصول الإخوة الجدد كان نوعاً من التسرية المؤقتة لنا ، مثلما كان وجودنا من قبلهم عوناً لهم على تفهم الوضع وتعلم الأنظمة الجائرة تجنباً لأي مزيد من العذاب . وسرعان ما انضم القادمون إلى مجموعات السخرة

والطعام .. وجعلنا نسمع منهم أخبار الحياة خارج هذه الأسوار .. ويسمعون منا ما وجدناه منذ وصولنا هنا .. فشغلتنا الأحاديث ونشطتنا .. ووثقت بيننا العرى وألفت بيننا . وكشفت لنا في نفس الوقت أوجهاً أخرى من جرائم النظام وممارسات مخابراته الوحشية ، وأطلعتنا على أساليب من التعذيب يمارسها أولئك الزبانية عافانا الله نحن منها وابتلى بها إخواننا في حلب . رأيت بنفسي نموذجين منها كان الأول هو الأخ حسين ألطنجي الذي استخداموا معه في فرع المخابرات بحلب الضرب المباشر بالبلطة على مشط قدمه لإجباره على الإعتراف السريع ، فكادت أن تقطعها ، وظل رحمه الله يتألم منها ولا يستطيع المشي عليها حتى إعدامه بعد عدة شهور . واستخدموا مع الآخر أسلوب الحرق بالمدفأة الكهربائية ، والتي بقيت آثارها محفورة على ظهره شاهداً على همجية هؤلاء الزبانية .. وكان طالباً اسمه مأمون كردي من حماة أعدم هو الآخر بعد مدة رحمه الله .

مع كتاب الله

انقضت أحاديث التعارف وروايات المعاناة وقصص الداخل والخارج واتجهنا قدر الإمكان إلى تنظيم أمور حياتنا بما يفيد . فالسجن الذي كتبه الله لنا يظل على فظاعته فترة انتقالية لا بد وأن تنتهي ، سواء بانتهاء الحياة أو بالفرج . وليس ثمة شيء نتزود منه أجلّ من كتاب الله تعالى . ولذلك دب فينا نشاط عجيب لحفظ أكبر قدر من القرآن الكريم ، حتى إذا شاءت إرادة الله ووافنا الأجل كان آخر عهدنا في هذه الدنيا مع كتابه الكريم . وسرعان ما نشأت بيننا حلقات الحفظ بالتلقي .. فلا مصاحف لدينا بالطبع نحفظ منها . ولذلك كنا نتبادل حفظ السور من بعضنا البعض ، فيجلس أحدنا إلى أخيه إذا هدأت الأمور وانتهت حفلات العذاب ليسمع منه ما يحفظ ، ويظل يردد وراءه الآية بعد الآية هامساً ويَعُدُّهُنَّ على سُلامات الأصابع . فإذا أنهى خمساً منهن وثبتهن في ذهنه عاد فأخذ خمساً تاليات . حتى إذا انتهى اليوم وحل الليل وهجع الخلق رأيتنا نتعاقب على الحمام خلسة فنتوضأ ونعود لنصلي ونحن مستلقين

تحت البطانيات إيماءاً منفردين .. نعيد تلاوة ما حفظنا في النهار .
وعلاوة على ذلك وإذا سنحت الفرصة أخذنا نحاول أن نستفيد من كل علم يعلمه أخ بيننا ، أو رأي أو موضوع له فيه اطلاع . لكن ذلك ما كان يتم إلا بشكل فردي .. أو ربما بين أفراد المجموعة الواحدة وبمنتهى الحرص والحذر .

الكوليرا
ولم تكن بلاءات هذا المكان المريع لتتوقف .. فذات صباح في صيف عام 1981 استيقظنا على أصوات التقيؤ وصيحات الألم المكتومة في المهجع .. ووجدنا حالة من الإسهال الشديد أصابت الكثيرين بيننا . وأخذت العدوى تنتشر يوماً بعد يوم ، وجعل الإخوة يتساقطون من الإعياء داخل المهجع أو في وقت التنفس . وكانت الفاجعة بأنها الكوليرا قد سرت . ولم نلبث وقد استشرى الأمر أن وجدنا طبيب السجن محمد يونس العلي يمر على المهاجع ويسأل عن عدد المصابين ويسجل ذلك عنده . وبعد ساعتين أو ثلاث عاد الشرطة وطلبوا من رئيس المهجع أن يخرج هؤلاء المصابين جميعاً لينتقلوا إلى مهجع 13 في الباحة الثالثة فتحوه للمصابين . فخرج من مهجعنا وحده حوالي الأربعين . وأمضى الإخوة في العزل عدة أسابيع قدمت لهم إدارة السجن وقتها علاجات مباشرة خشية أن ينتشر المرض فيشمل الشرطة والسجانين أنفسهم . أو أن يتعدى حدود السجن فينتقل عبر المجاري التي كانت تتصل مع شبكة مجاري بلدة تدمر وتنتهي في حقول المزارعين لترويها !
لكن المثير في الأمر أن هذه الحركة ساعدت العديدين على الإلتقاء بأقارب لهم أو أصدقاء كانوا في مهاجع أخرى والإطمئنان على أحوالهم . وكانت كذلك سبباً في وصول أخبار جديدة إلينا وتسريب أخبارنا إلى بقية الإخوة . ولقد بلغنا وقتها أن السجناء في بعض المهاجع اكتشفوا آثار إطلاق الرصاص وبقايا دم آدمي لا تزال موجودة على السقف والجدران من أيام مجزرة تدمر الكبرى في شهر حزيران من عام 1980 . لكن الأهم من ذلك بالنسبة لنا كان تمكن عدد منا من حفظ آيات وسور

من القرآن الكريم لم تكن في مهجعنا . علاوة على انخفاض نسبة التعذيب واعتداءات الشرطة الذين باتوا يتجنبون الإحتكاك بنا خشية العدوى ! ولقد علمنا بعد عودة الإخوة أن وفيات حدثت بالفعل بين مصابين من مهاجع أخرى ، أذكر من أسمائهم الأخ ناصح شنيطي من دمشق . لكن لطف الله تعالى ورحمته كانت واضحة في هذه المحنة . وبرغم انعدام العناية الصحية اللازمة وقلة التغذية وسوء الأحوال فقد مرت الأزمة بأقل الخسائر وقد كنا نتوقع أن تودي بحياة المئات .

مهجع النساء

لم يطل المقام بنا كثيراً في تدمر حتى تأكد لنا أن هذا المكان الرهيب يضم بين جدرانه أخوات سجينات أيضاً خصصوا لهن غرفة المستوصف السابقة وحولوها إلى مهجع للنساء .

ولقد تأكد لنا الأمر أول مرة حينما استدعوا إلى التحقيق أخاً من مهجعنا اسمه بسام سفُّور من حمص كانت تهمته تأمين جواز سفر لبعض الأشخاص الملاحقين . ويبدو أن امرأة غير مسلمة اسمها أم طوني كانت قد باعته الجواز أو شاركت في عملية تزويره ثم اعترفت عليه . فلما استدعوه للتحقيق في السجن نفسه واجهوه بها . واستطاع بعدما انتهى التحقيق أن يراهم يدخلونها غرفة المستوصف التي سجنوا فيها النساء . وفي مرة تالية وبينما كنا في التنفس استطعنا أن نلمح عدداً من النساء المحجبات في ذلك الجانب من الباحة فتأكد لنا وجودهن هناك . لكننا لم يكن ممكناً لنا أن نعرف عنهن أكثر أو أن نقدم لهن أي عون .

الإعدام

واستيقظنا في يوم من تلك الأيام ننتظر أن نبدأ البرنامج الذي اعتدنا عليه وتأقلمنا معه إلى حد كبير .. وبدأنا نضب بطانياتنا ونجمع العوازل من تحتها حين نادى علينا الشرطة من شراقة الباب فجأة وبشكل إيعاز :

الكل ضبوا لجوة ولا .

فسارعنا ونفذنا الأمر وتجمعنا كلنا في أقصى المهجع نستعيذ بالله من شر ما خلق ! وإن هي إلا برهة حتى

بلغتنا من الباحة أصوات وضجيج غير مألوف .. وأحسسنا وكأنما هناك حمولة من الخشب ترمى على الأرض .. والنوافذ عالية لانستطيع أن نطل منها .. وبيننا وبين الباب مسافة لم نجرؤ أن نغادر زاويتنا ونسترق النظر من شقوق فيه خشية أن يرانا الشرطة من الشراقة فوق المهجع فيعاقبونا بما نحن في غنى عنه .

لكن الجلبة استمرت .. وتتابع صوت ارتطام الخشب بأرض الباحة الإسمنتية .. ورأينا ظلال الشرطة على جدران المهجع تعبر من النوافذ العليا كالأشباح ..

فشعرنا بقلق وانقباض .. وبدأنا نتوقع شر الإحتمالات .. ونحسب أنهم سيدخلون الآن ويطلقون علينا النار كلنا كما فعلوا قبل أقل من عام في نفس المكان . ولم يطل بنا الإنتظار كثيراً .. فما هي إلا برهة حتى سمعنا أصوات التكبير تتعالى .. وسجناء ينادون أسماءهم ويقولون أخوكم فلان يوحد الله . ومن بين هؤلاء لا أزال أذكر اسم الأخ محمد ناصر البيك من حمص ، الذي بلغتنا تكبيراته وعبارته الأخيرة يقول :

أخوكم محمد ناصر البيك يوحد الله .

فعرفه إخوة من مدينته في المهجع معنا . وأيقنا أنها عملية إعدامات تجري الآن . وأن مجموعة من السجناء يعلقون على المشانق بالفعل . فاحتبست أنفاسنا جميعاً .. واختنقت فينا العبرات .. وتجمدت على ألسنتنا العبارات .. ولم تنقض أكثر من عشر دقائق حتى خفتت الأصوات .. وسكنت الحركة .. وبدأت الأمور خارج المهجع تعود إلى طبيعتها بالتدريج .. لكن التفقد تأخر وألغي التنفس في ذلك اليوم .. وأحضر الشرطة الطعام من غير أن يشيروا إلى ذاك الذي حدث بشيء . وأغلق الباب علينا بعد ذلك لتلفنا دوامة القلق والتساؤلات . فها نحن الآن أمام الموت وجهاً لوجه .. والإعدامات التي كنا نسمع عنها ونتخوف منها حدثت على بعد خطوات منا وحسب .. وإذا كان شهداء المجزرة الكبرى قبل عام قد قضوا نتيجة نزوة كما ظن البعض أو ثأر بعد محاولة اغتيال رأس النظام ، فإن ما نراه الآن ونسمعه يجعلنا نحس أن الأمر منظم في الحقيقة ومقرر ، وأن هناك برنامجاً لتصفية السجناء إذاً . ولم يعد مستبعداً بعد الآن أن نقف أنفسنا هذا الموقف وتلتف حبال المشنقة على أعناقنا نحن بعد حين !

تساؤلات .. وتأويلات

وأخذت التساؤلات تغادر السرائر بالتدريج وترتسم على شفاهنا تباعاً ، فتنتقل من فرد إلى آخر ومن مجموعة إلى غيرها .. وترسم معها معالم مختلف الناس الذين ضمتهم المحنة وجمعهم هذا المكان الرعيب . ورغم أن الحادثة هزتنا جميعاً إلا أن أكثر من اهتز حقيقة كان أولئك الذين لم يكونوا أهل انتماء بالأصل ، وجرفتهم المصلحة أو الحماسة فشاركوا بعمل ما وألقي القبض عليهم واعتبروا في منزلة واحدة كالمنظمين والمسلحين .. ومن هؤلاء كان بضعة نفر من المهربين وتجار السلاح .. ممن لم يكونوا مهيئين نفسياً لا للمحنة ولا للإعدام والموت ! وانتشرت بناء على حال كل فئة تأويلات المتأولين وتحليلات المحللين .. فاجتمع رأي البعض على أن الإعدامات إنما تنفذ في المسلحين الذين شاركوا في عمليات حقيقية وأدينوا فيها .. وأما المنظمون من غيرهم فمثلهم كمثل تلاميذ المشايخ لا خطر منهم ولا تثريب عليهم ! وذهب نفر إلى أن المسلحين أنفسهم قسمان : قسم تسلح ولكنه لم يَقْتُل أو يقاتل .. وهؤلاء أقرب للفئة السابقة إذاً . وفئة أخرى قاتلت وقَتَلت وثبت عليها العمل العسكري .. وهؤلاء هم الذين تنفذ فيهم الإعدامات وحسب .

وأحدثت هذه التقسيمات خلخلة غير منتظرة في الصفوف .. وظهرت بسبب هذه التخمينات مشادات وأخذ ورد .. ونادى العقلاء بأن الأمور بيد المولى سبحانه والأعمار مقدرة في علمه الأزلي لا تنقص ولا تزيد .. وقال الإخوة الذين أدينوا بالعمل العسكري بأن الشهادة شرف لكل مسلم .. فإذا كانت قد دنت فمرحباً بها .. ولكننا هنا جميعاً في نظر النظام أعداء .. وهم لا يفرقون بيننا لا في عذاب ولا في إعدام .

وحل الشتاء !

ومضت الأيام وحل الشتاء .. شتاء الصحراء الذي لا يرحم .. ونحن في مهجعنا لا نملك إلا بطانياتنا البالية ذاتها ، والنوافذ والشراقات فوقنا مفتوحة على حالها ، ويا بؤس من بات ليلته تحتها .. ويا سوء حظ من تأفف من مطر السماء حتى ولو انصب عليه طوال الليل ! ولذلك

وبسبب هذه البرودة والرطوبة وسوء التغذية تفشت بيننا أمراض الزكام والروماتيزم والتهابات المفاصل .. ثم لم يلبث أن ظهر السل فينا بعد أقل من عام .. أو أنه كان قد ظهر بالفعل ولكننا لم نكتشفه إلا وقد استشرى وعم !

وهكذا عدنا إلى برنامج المعاناة نفسه .. أسرى جدران المهجع 26 نتقلب بين عذاب وعذاب .. وتفقد وتنفس .. وحلاقة وحمام .. ولكننا كنا نغالب ذلك كله بحفظ كتاب الله وتلاوة آياته ما وسعنا الجهد . ولم يكن ذلك هيناً في هذا الجو العصيب ، لكننا ثابرنا بحمد الله وتابعنا . ولم يكن فقه السجون قد تبلور لدينا في تلك الفترة بعد ، فكان بعضنا يخاطر بالقيام للوضوء مع كل صلاة رغم أن التيمم كان مرخصاً لنا . وكان احتمال أن يكتشف الشرطة حركتنا في الليل خاصة معناه عذاب محقق في الصباح التالي ربما كلف المرء حياته ! كذلك كنا نغتسل من الجنابة بالماء البارد مع برودة الجو رغم أن التيمم كان وارداً أيضاً ، ونظن أنه لا حل لنا إلا بذاك . لكننا أخذنا من بعد نتتبع الرخص الشرعية ونخفف عن أنفسنا قدر المستطاع . ولم نعدم أن نجد بيننا من ظل يتشدد ويصر على الإغتسال وعلى الوضوء في كل مرة وعلى أداء الصلاة وقوفاً والمجاهرة بالصيام حينما منع في السنوات اللاحقة ، برغم المخاطر واحتمالات الأذى له وللآخرين .

محكمة !

وذات يوم .. وكان قد مضى على حادث الإعدام بضعة أسابيع دخل علينا الشرطة وسألوا عن أسماء بعينها ، ولم نكن قد عهدناهم ينادون أحداً باسمه من قبل . لكن أياً من هذه الأسماء لم يكن بيننا . وتكرر الأمر مرة بعد مرة .. فأحسسنا أن ثمة شيئاً مريباً يدور .. حتى كان صبيحة يوم جديد ، حينما دخل الحرس ونادوا مجموعة أسماء من مهجعنا هذه المرة وقادوهم معهم . وكانوا قرابة الخمسة عشر شخصاً كلهم من حمص .

ومضت حوالي خمس أو ست ساعات أحضر الشرطة خلالها الفطور والغداء معاً وأغلقوا الباب علينا من غير تفقد أو تنفس .. فلما عاد الإخوة وسألناهم أين كنتم قالوا في المحكمة . فتيقنا ساعتها أنها جد إذاً . وعلمنا

منهم أن أحكاماً صدرت بالإعدام على أكثرهم . وسرعان ما وجدنا الإخوة المحكوم عليهم بالإعدام قد تغير حالهم .. وانصرفوا عن كل شؤون الدنيا انصرافاً تاماً .. وتوجهوا إلى الله سبحانه بكلياتهم يهيؤون أنفسهم للقاء رب العالمين حتى كأن أحدهم لم يكن من أهل هذه الدنيا أبداً . ولم ينقض شهران بعدها حتى طُلِبَ هؤلاء الإخوة للإعدام .. فكانت أول كوكبة من أهل الجنان إن شاء الله نودعهم من مهجعنا .. سائلين الله تعالى أن ينتقم لهم ويتقبلهم ويجعلهم في أعلى عليين .

مرحباً بلقاء الله

دخل الشرطة صبيحة ذلك اليوم المرير وقرؤوا أسماء المطلوبين فيما كانت إجراءات نصب المشانق وتهيئة مراسم الإعدام تتم في الباحة أمام مهجعنا مباشرة . وكانت مفاجأة لنا أن عدداً ممن تليت أسماؤهم كانوا قد خرجوا إلى المحكمة وقتها ولم يبلغونهم كالآخرين أنهم حكموا بالإعدام . فلما سمع الإخوة أسماءهم وأيقنوا المصير تراكضوا إلى الحمام فتوضؤوا ومدوا شيئاً هناك وصلوا عليه تخفياً من الشرطة خشية علينا نحن لا على أنفسهم . وخرج الركب أكثر من عشرة كأنهم غير الذين عرفنا كل هذه الأيام .. مطمئني النفوس .. مشرقي القسمات .. مقبلين بكل جوارحهم على الله راضين بقضائه . واستطاع بعضنا أن يعانق عدداً منهم .. وخرج الآخرون حتى من غير كلمة وداع . لا زلت أذكر من أسماء تلك الدفعة الإخوة حسن الصغير ، وعبد الغني الدباغ ، وبسام كالو وكلهم من حمص . ولا زلت أذكر كأنه الساعة كيف أن الأخ بسام استيقظ صباح ذلك اليوم مبكراً وقال لإخوة حوله : رأيت اليوم مناماً . سألوه : خيراً إن شاء الله .. ماذا رأيت ؟ قال : رأيت قول الله تعالى في القرآن الكريم (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين) . ولم يلبث أن نودي للإعدام رحمه الله بعد ساعة أو أقل ، فأحسسنا أن الله سبحانه حقق له منامه وتقبله وغفر له وأنزله الجنان إن شاء الله .

أرجوحة الشهداء

وأقفل الجلاوزة الباب .. وساقوا الإخوة أول الأمر إلى مهجع في أقصى الباحة يسمى "الورشة" . وعلمنا من بعد أن سليمان الخطيب يأتي بنفسه ليتأكد من الأسماء والأشخاص ويتلو عليهم ديباجة الحكم ، ويأتي معه أو يتبعه مدير السجن الذي كنا نحس بقدومه من صوت المساعد يقدمه بالازمة المعتادة قائلاً :
است.....رح .. استع.....د . الباحة جاهزة للتفتيش سيدي اللواء أو سيدي العقيد .
وبعد هذا الإجراء يبدأ الشرطة بسوق الإخوة إلى المشانق تباعاً . وعندما بدأ ذلك هرعت من فوري إلى شق صغير في باب مهجعنا فرأيت المشانق منصوبة على امتداد الباحة .. والإخوة الآن وقد باتوا على حافة الردى يكبرون بأعلى صوتهم ويهللون .. ويساق أحدهم بعد الآخر مغمض العينين مكبل اليدين إلى المشنقة التي انتصبت على قوائمها الثلاث .. يتدلى منها حبل كحبال الغسيل البلاستيكية .. يخالف في هذه المواصفات وتلك الوضعية أبسط الشروط التي يفترض أن تتوفر في مشنقة الإعدام المخصصة للمجرمين !
ورغم ذلك يؤمر الأخ بالجثو أمام المشنقة دون أن يدري ماذا أمامه ، وعن جانبيه اثنان من "البلدية" ينتظران الإيعاز من الشرطي الذي يقف في مقابل الأخ . فإذا أشار إليهما تناولا حبل المشنقة فطوقا به رقبة السجين .. ثم تأخرا إلى الوراء فأمسكا بقائمة المشنقة . ولا يلبث الشرطي أن يصدر الإيعاز الأخير .. فيشد "البلدية" الخشبة .. وتنتصب المشنقة .. فيرتفع الأخ في الهواء بلمحة عين .. ويشهق شهقته الأخيرة وتزهق روحه خلال لحظات . فإذا بدت منه حركة تدل على احتمال استمرار الحياة فيه تقدم عنصرا "البلدية" ثانية فجذبا الأخ وتعلقا به حتى يشتد إطباق الحبل على رقبته إلى أبعد مدى .
ولا يلبث الطبيب يونس العلي أن يتقدم فيجس النبض ، ويتأكد من الوفاة .. فتعاد المشنقة إلى وضعها ، ويفك الحبل عن رقبة الشهيد .. ويرمي به القتلة جانباً بدم بارد ، فيما يعد الشرطة الأخ التالي للإعدام . حتى إذا اكتمل العدد ونفذت الجريمة وتكومت الجثث ، دخلت الساحة شاحنة عسكرية ، وتقدم "البلدية" فحملوا أجساد الإخوة واحداً بعد الآخر وقذفوهم فيها .. لتمضي

إلى حيث لا يعرف بمصيرهم أحد إلا الله . وفي هذه الدفعة قدرت أن أكثر من خمسين أخاً قضوا نحبهم .. نحتسبهم في عداد الشهداء الأبرار إن شاء الله .

العزاء
غادر الإخوة إلى لقاء الله ، وبقينا نحن في كربتنا ووحشتنا تلفنا حالة من الكآبة خانقة ، والناس وكأن على رؤوسهم الطير .. ليس لنا إلا العبرات الحرى نطلقها بصمت وألم .. والتضرع إلى الله نرسله خافتاً مرتعشاً مع الزفرات .
وغاص كل منا في خواطر شتى .. فهؤلاء الذين كنا نأكل معهم قبل ليلة خلت .. ونصلي وإياهم الفجر قبل برهة . هؤلاء الذين كنا وإياهم في سباق على حفظ كتاب الله .. نسمع منهم أو يسمعوا لنا . وربما كان واحدهم قد بات ليلته الأخيرة بجانبنا ، أو أرسل آخر ابتسامة له من وجهه الطلق وغادر وتركنا . هؤلاء الذين نمت بيننا العلاقة عن غير سابق معرفة من قبل في أحلك الظروف وأقساها .. شهرين أو ثلاثة نتناوب على تلقي العذاب ومواجهة الهول معاً .. فكنا على قصر الأيام أكثر من إخوة وألصق من أشقاء . هؤلاء جميعاً خرجوا من بيننا ولن يعودوا أبداً . وغادروا الدنيا ولن نلقاهم إلى يوم الدين .
وترتد الخواطر إلى ذواتنا سريعاً ، ونبدأ نسترجع شريط حياتنا نحن الذين لا نزال أحياء . من طفولتنا البريئة .. إلى شبابنا الذي ما أن بدأ يزهر فينا حتى اقتطفته يد الظلمة من غير ما إنذار . ويتجه الحوار في ذواتنا إلى المستقبل الآتي .. وأي مستقبل ذاك والمشانق ها هي لم تُحَلَّ حبالها بعد ! وتختلط فينا مشاعر الشفقة بالشوق .. واللوعة بالخوف .. والإحباط بالرجاء . ولا نجد في خاتمة المطاف ما نعزي به أنفسنا ونواسي جراحنا ونخفف من هول المصيبة علينا إلا الإلتجاء إلى الرحمن الرحيم ، والرجاء بأن يكون ذلك في سبيله فيقبلنا في الآخرة ويعفو عنا .

مع كتاب الله
وترانا نهرع من جديد إلى كتابه جل وعلا أنيسنا وبلسم جروحنا ننكب عليه ونلتجىء إليه . ولقد أكرمنا سبحانه

بعد أسابيع لم تطل بأخ حافظ لكتاب الله قدم إلينا مع حوالي خمسة عشر أخاً من دمشق كلهم من جماعة مسجد زيد بن ثابت . والأخ الحافظ اسمه محمد صنوبر من بلدة جديدة الذيباني قرب دمشق . فكان سرورنا به أكبر من أن يوصف . وأقبلنا نتلقى منه السور والآيات ونحفظها . وكنت أنا والأخ هيثم عثمان برغم إصابته الشديدة نحفظ معاً .. ونراجع ما حفظنا باستمرار .. حتى بات كتاب الله شغلنا الشاغل . ومن شدة همتنا وعزيمتنا أذكر أنني بتوفيق الله حفظت سورة الأنعام كلها في أربعة أيام .. وكنت من قبل أن أعتقل أحفظ جزء عم وبعضاً من الجزء التاسع والعشرين وحسب . فلما رأينا الإعدامات وقدرنا أن المنية قد دنت أحببنا أن ننهي الحفظ فنلاقي به وجه ربنا . وفي عام 1982 أنهيت والأخ هيثم ولله الحمد حفظ القرآن الكريم كله . وكنا أول من ينهي الحفظ من مهجعنا بفضل الله .

مؤامرة !

ومرت الأيام .. وفوجئنا بواحد من الشرطة العسكرية صبيحة يوم تال يطلب أبا رشيد ويمضي به إلى حيث لا ندري . وعندما عاد بعد بضع ساعات كان في حالة يُرثى لها من أثر التعذيب . ولم يكن من طبع أبي رشيد الإكثار من الحديث ، لكنه خصني رحمه الله بذكر ما جرى بحكم معرفتي السابقة به وصلتي الوثيقة معه . ووقتها أخبرني أن ضباطاً من المخابرات أتوا للتحقيق معه حول علاقته برئيس الأركان حكمت الشهابي الذي حضر إلى فرع المخابرات من قبل - كما ذكرت - وحاول دفعه للإعتراف ووعده بالمساعدة . وكانت إعادة التحقيق مع السجين من أصعب الأمور عليه وقد ظن أنه انتهى من هذه المرحلة وطويت أوراق ملفه . ورغم أن الشهابي حاول حقيقة الأمر أن يوقع أبا رشيد ويعين المخابرات عليه إلا أنه رفض الإعتراف بأمر يضره . ولعب المحققون لعبة الإغراء ثانية معه ووعدوه بأن ينقذوه من الإعدام إذا اعترف بوجود صلة للشهابي معه فأبى . وعذبوه على ذلك أشنع العذاب فأصر على موقفه .. وأحس أن ثمة مؤامرة داخل أجنحة النظام تريد استغلاله لتصفية خصومات بينهم .. فأبى بنزاهة المسلم أن يظلم حتى عدوه، وتحمل في سبيل ذلك أشد العذاب.

اليوم المقدور
وانقضت شهور أخر . وتحسنت صحة أبي رشيد والتأمت جراح حفلة التعذيب تلك .. ومضت حياتنا على نفس المنوال لا نخرج من هم حتى نقع في هم أشد .. ولا ننجو من تعذيب حتى يطولنا حفل تعذيب أشنع .. وفي شهر تشرين الأول أو تشرين الثاني من عام 1981 تم استدعاء دفعة جديدة للمحكمة الهزلية التي كانت أحد فصول التعذيب النفسي والجسدي معاً . وخرج في هذه الدفعة أبو رشيد ضمن حوالي أربعين أخاً من مهجعنا .
ورغم أنه رجع من غير أن يبلغونه بالحكم إلا أنه أدرك أن الأمر انتهى .. واستشف ذلك من كلام سليمان الخطيب الذي تربع على كرسي القضاء جوراً وظلماً .. خاصة وأنه عاد وألح عليه لتوريط الشهابي .. ووعده بإنقاذه من الإعدام إن فعل .. وأصر أبو رشيد وقتها على الرفض مهما كانت النتيجة .
وعاد أبو رشيد من المحكمة وقد نوى أن يبدأ الصيام من ساعتها وإلى أن يلاقي ربه . وقال بأنه لن يفطر حتى يخرج إلى الإعدام . وعندما حل ذلك اليوم المقدور بعد قرابة الشهرين كنت قد رفعت له شاياً وبعض الطعام من وجبة الفطور ليتناولها عند الغروب . فلما دخلوا ونادوا على أسماء المطلوبين للإعدام من دفعته لم يذكروا اسمه .. وتدافع الإخوة لوداع الأحبة وأغلق من ثم الباب .. وبينما نحن نترقب ناداني أبو رشيد رحمه الله وقال لي :
أخي أبو سليم .. أراني اليوم متعباً .. هات ناولني الشاي والطعام لأفطر .
قلت له : هاك وتوكل على الله .
ووالله الذي لا إله إلا هو ، لم يرشف أبو رشيد من الشاي رشفة وبدأ بالثانية حتى فُتِحَ الباب من جديد ونادى الشرطي فينا :
حسين رشيد عثمان .
حاضر .
رد أبو رشيد وكأس الشاي لا يزال بين شفتيه .. فأيقنا سبحان الله كيف أن رزق الإنسان المقسوم لا بد وأن يبلغه .. وأنه كان لا بد وأن يأخذ رشفتي الشاي هاتين لا تزيدان ولا تنقصان !

ولم يلبث أن قفز رحمه الله إلى زاوية من زوايا المهجع وبدأ يخلع عنه ملابسه وهو يكبر ويهلل .. وحينما لم يبق عليه إلا الشورت والشرطة على الباب يكادون يجنون مما يفعل ألقى إلينا بكل ما كان يرتدي لنستفيد منه .. وخرج إلى الإعدام رحمه الله . ولم أستطع هذه المرة التلصص من ثقب الباب بعد الذي حصل . وسرعان ما انتهى تنفيذ الإعدام ، ودخل الشرطة علينا فأخرجونا إلى الساحة وأشبعونا جلداً ولطماً حتى يمسحوا عنا أي أثر إيجابي تركته فينا تكبيرات أبي رشيد رحمه الله .

أحداث حماة

وحل عام 1982 ونحن بين أيدي الظلمة تمضي بنا الأمور من سيىء إلى أسوأ . ولم تلبث أن انفجرت الأحداث في حماة من غير أن نعلم بها بالطبع . لكننا تلقينا آثارها السلبية داخل السجن ورأينا الأهوال وقتها دون أن ندري بما يجري .

فابتداء من شهر شباط اشتد التعذيب نوعاً وكماً .. وبدأ ضحاياه يتزايدون باستمرار .. حتى أن واحدنا كان إذا حل دوره في سخرة الطعام وأراد الخروج لتناوله من باب المهجع قرأ الفاتحة ووضع في حسبانه احتمال أن تكون آخر سورة يتلوها قبل أن يموت ! وبلغتنا أنباء عدة عن إخوة قتلتهم ضربات تلك العصا الغليضة التي كانوا يهوون بها على رأس السجين مباشرة ولا يبالون . وفي نفس الفترة ارتفعت نسبة المحكوم عليهم بالإعدام حتى كادت أن تشمل 98% من كل دفعة تخرج للمحاكمة . وأصبحت الأحكام تنفذ كل يومين بعد أن كانت من قبل ثلاث مرات في الشهر على الأغلب . ووقتها كان إعدام أبي رشيد ودفعته رحمهم الله .

احتياطات !

وذات يوم ، وفي دفعة من دفعات الإعدام تلك ، طلب الزبانية أخاً من مهجعنا 26 للإعدام اسمه عبد الكريم غانم من الزبداني كان طالباً في كلية الهندسة بدمشق . فلما سمعنا الخبر اندفعنا نودع الأخ وقد تفجرت من مآقينا الدموع . فوجدناه رحمه الله يقف في وجوهنا شامخاً راضياً يقول لنا :

علام تبكون ؟ ابكوا على حالكم أنتم .. أما أنا فخلاص ارتحت من هذا العذاب .
ومما هو جدير بالتسجيل هنا أنه وأثناء هذه الموجة الطاغية من العنف والإجرام بلغنا ذات مرة أنهم أخرجوا دفعة من السجناء للإعدام فتمكن أحد الإخوة من بينهم من الإفلات ، وقام بضرب الجلادين ما وسعه الجهد قبل أن يطبقوا عليه ويعيدونه إلى حبل المشنقة . وبعد الحادثة اقتحموا كل المهاجع وأذاقونا كلنا قتلة من أشد ما رأينا خوفاً من أن تولد حادثة الأخ فينا نوعاً من أحاسيس التمرد والعصيان . ومن وقتها بدأ الشرطة يأخذون احتياطات أشد أثناء الإعدامات .

العميل !
تم اعتقالي مثلما ذكرت في البداية في الشهر العاشر من عام 1980 بعد أن انتقلت صلتي من أبي الفرج إلى يحيى الشامي . ورغم التعذيب الفظيع الذي نلته في أقبية المخابرات العسكرية فإن الله ثبتني ولم أعترف على يحيى أو أي شخص آخر . لكنني فوجئت مع اشتداد موجات القتل والتعذيب في الشهر الثاني من عام 1982 بخبر استشهاد يحيى في سجن تدمر . ثم لم تلبث الأقدار أن جمعتني مع إخوة من هنا وهناك التقوا يحيى في مراحل محنته المختلفة وعرفوا قصته .
ولقد تم اعتقال يحيى ابتداء بعد اعتقالي بزمن غير طويل . وكان ذلك حينما حضر يحيى إلى موعد مع شخص يسمى عبد الكريم رجب كان طالباً من حماة يدرس الطب في دمشق تمكنت أجهزة الأمن من تجنيده لصالحها واستفادت من علاقته مع شباب الإخوان ومعرفته بالكثير منهم أيما فائدة . ولا أزال أذكر كيف كان عبد الكريم هذا يحوم حولنا بشكل دائم من خلال معرفته بإخوة آخرين ، ويكثر من الأسئلة والإستفسارات بسبب ومن غير سبب . ولقد أوقع هذا العميل كما تأكد لي عدداً كبيراً من الإخوة بالفعل ، وتمكن من كشف العديد من قواعد المجاهدين في دمشق خاصة . وكان نشاطه في قمته بين صفوف الإخوة الذين توافدوا من خارج سورية إلى دمشق لتشكيل التنظيم الوليد الذي كان أبو الفرج أبرز قادته .

وهكذا وجد يحيى نفسه وسط عناصر المخابرات يطبقون عليه وعلى عبد الكريم عند المسجد الأموي ويقتادونهما إلى فرع التحقيق العسكري ، ليقاد يحيى منه إلى تدمر بعد انتهاء التحقيق معه ، وأطلق سراح عبد الكريم رجب ليستكمل مهمته التخريبية بين أفراد التنظيم .
ولقد بلغنا لاحقاً أن المجاهدين في حماة تمكنوا من كشف عبد الكريم واستدراجه إلى كمين محكم ، فاعتقلوه وحققوا معه وأخذوا منه اعترافات كاملة . وتم اعدامه بعد ذلك جزاء خيانته .
ولم ألتق يحيى في تدمر من بعد . لكنني التقيت من عاصره وعاش في المهجع معه . وبلغني أنهم في يوم من أيام شهر شباط عام 82 حينما كانت أحداث حماة في ذروتها استدعوا يحيى إلى الذاتية للتحقيق معه ، وطلب المحقق القادم من فرع التحقيق من يحيى أسماء محددة ومعلومات لم تكن لديهم . فأبي يحيى ورفض . فأمر المحقق بالدولاب أن يُحْضِرَ وأنزلوا يحيى فيه وانهالوا عليه ضرباً وقتلاً في باحة الذاتية ثم توقفوا . فلما سأله المحقق عن الأسماء والمعلومات أصر على الإنكار . فأمر بتجريده من ثيابه إلا الشورت وأعاده إلى الدولاب . وعاد الضرب الوحشي ينهال عليه حتى أن واحداً من أظفاره طار من قدمه ووقع قريباً من سجين آخر كان ينتظر دوره في التحقيق في الباحة ذاتها . ولقد التقيت هذا الأخ وهو لا يزال يحتفظ بالظفر معه !
واشتد الضرب وانهالت الخيزرانات والعصي على قدمي يحيى وبقية جسده حتى أغمي عليه . فأمر المحقق الزبانية أن يشنقوه . ولم تكن المشانق جاهزة يومها ، فسحبوه حتى وصلوا به أمام باب مهجع 5-6 وقام الرقيب فيصل كحيلة والشرطيان سمير كوشري وشحادة - حسبما وردنا من شهود عيان - فلفوا حبلاً حول رقبة الأخ يحيى وشدوه بين أيديهم وهو لا يزال رحمه الله مغمى عليه حتى أزهقوا روحه !

مفاجأة !
ومما لا أزال أذكر من قصص الإعدامات المؤثرة - وأياً منها لا يؤثر في صم الحجر ! - قصة طبيب أسنان من

حلب من بيت قره علي كان معتقلاً مع عديله . ولقد تم الإفراج عن هذا الأخير بعد واسطات شديدة كما يبدو ، وبقي الأول ينتظر ويرجو .
وفي صبيحة يوم من تلك الأيام التعسة نودي اسم الأخ فظن أن إذْنَ إخلاء سبيله قد تم . وأنه سيغادر الآن للقاء أهله من جديد . وكان المسكين يرتدي حين اعتقاله طقماً سارع حينما سمع اسمه فارتداه . وأخرج ساعته الذهبية فارتداها أيضاً . وجعل ينفض عن كتفيه الغبار ويحاول أن يمشط شعره ويحسن من هيأته وكل الظن أنه خارج إلى الحرية الآن . فلما خرج كانت المشنقة في انتظاره حقيقة الأمر . وكانت صدمة لنا جميعاً بقيت تؤرقنا ردحاً من الزمان .

الجرب
وطالت المحنة كل أوجه هذه الحياة المرّة . فمع ازدياد العذاب والإعدامات انخفضت كمية الطعام المقررة للسجناء رغم أنها لم تكن تكفي لتقيتنا بالأصل .
وصارت إدارة السجن تتعمد قطع الماء عنا حتى أننا عانينا خلال صيف ذلك العام شهراً كاملاً من غير ماء .
وكان موردنا الوحيد عن طريق بيدونات يملؤها الشرطة لنا وقتما شاؤوا وبالعدد الذي يريدون . وقتذاك عمت القذارة المهاجع غصباً عنا وباتت رائحتها لا تطاق . ولم يلبث أن تفشى الجرب بيننا وانتشر انتشاراً كبيراً كنت أنا نفسي واحداً من ضحاياه .
والجرب كما هو معلوم مرض جلدي يصيب الإنسان بحكة شديد في جلده سرعان ما تؤدي إلى تورمه وتقيحه .. وليس هناك مكاناً محدداً يكتفي به هذا الداء . فمن الممكن أن يصيب الرجلين واليدين والصدر والظهر والمحاشم ذاتها . وعلاوة على الألم الشديد الذي يسببه الجرب فإن انتقاله بين الناس المتجاورين أمر محتم . ولو لم يعالج المصاب فقد يموت من المرض . ولقد حدث ذلك في مهجعنا 26 الذي انتشر الجرب فيه مثلما انتشر ببقية المهاجع . ولا أزال أذكر كيف دهم هذا المرض أخاً من دير الزور اسمه عبد الكريم الصالح ، فالتهب جلده كله وانتفخ ، وظل يعاني قرابة الشهر يصيح من شدة الألم وليس بيدنا شيء نقدمه لنخفف عنه إلا الدعاء . وعندما أبلغ رئيس المهجع الشرطة

بحاله وكرر عليهم البلاغ لم يزيدوا عن أن أمروه أن يكف عن الشكوى وأن يتركه في المهجع ليموت !
لكن تزايد الإصابات وانتشار المرض في المهاجع الأخرى جعل إدارة السجن بعد حين تتنازل وتحضر للمصابين دواء الجرب . وتم تعيين مسؤول صحي لكل مهجع من السجناء أنفسهم تكون مسؤوليته تقديم تقرير بالحالة الصحية إلى طبيب السجن حتى لا يضطر ذاك إلى فحص المرضى بنفسه والتعرض لاحتمالات الإصابة بالعدوى منهم ! وفي هذا السياق عُيِّنَ الأخ الطبيب قاسم موسى مسؤولاً صحياً لمهجعنا . ثم لما تزايدت الحالات أكثر فتحوا للمصابين مهجعاً خاصاً كما حدث أيام الكوليرا ، لا رحمة بهم بالتأكيد وإنما خشية أن تنتقل العدوى إليهم . ورغم ذلك فقد مات بسبب الجرب من مهجعنا وبقية المهاجع الأخرى عدد غير قليل من الإخوة ، وقدر للأخ عبد الكريم الصالح أن يتعافى بالتدريج ، حتى إذا شافاه الله بعد حين أتاه النداء ، وسيق مع دفعة من دفعات الإعدام إلى الردى رحمه الله .

من سجل الضحايا
وكان الممرض وطبيب السجن قد توقفا عن الحضور للمهجع قرابة الخمسة أشهر خلال أحداث حماة وبعدها ، مما ضاعف الإصابات وأسرع في انتشار الجرب .
وانتشرت معه أمراض أخرى لم نستطع أن نعرف أسبابها أو نوعيتها بالتحديد . فكنا نحار في أمرنا ونفعل ما بوسعنا لمساعدة المصابين . ولكم كان الإخوة يتسابقون لفداء إخوانهم المرضى من أي عذاب أو جهد وإيثارهم بحفنة الطعام المخصصة للواحد منهم . لكن ذلك لم يكن كافياً لوقف المرض أو إنقاذ المصابين .
وقضى عدد من الإخوة نَحْبَهُم فريسة الأمراض والأوبئة فبلغوا قرابة الستة عشر ، لا زلت أذكر منهم كمال أندورة ومأمون الذهبي من دمشق . وهشام مجندف وبسام الهاشمي وسامي وحود من حمص .
وكان أول من مات بين أولئك جميعاً معتقل من قرية صوران قرب حماة اسمه عبد العزيز عوض السالم .
أصابه السل كما يبدو حتى أصبح يبصق الدم . وعندما

أخبر رئيس المهجع أبو الفضل الرقيب أن لدينا مريضاً في حالة خطرة أجابه بالحرف الواحد :
ولا .. بس يموت دق الباب !
وبعد شهرين من المعاناة وبعد ظهر أحد الأيام إتكأ الأخ على صدر شقيق له كان سجيناً أيضاً وأخذ يذكر الله ويردد الشهادتين حتى لفظ آخر أنفاسه رحمه الله .
فلما تأكدنا من وفاته طلب شقيقه من الحضور أن يغسلوه قبل أن نخبر الشرطة بالأمر . لكن الإخوة خافوا أن تصيبهم العدوى أو أن تنزل بهم من الشرطة بلوى .
فلما لم يتقدم أحد رأيت أن الأمر لا بد وأن يحسم .
وتوكلت على الله وتقدمت . وأدخلته الحمام وغسلته وحدي . ومن يومها تعلم الإخوة علي وأوكلوا إلي هذه المهمة ما دمت فيهم . فغسلت كل الذين ماتوا من بعد ذلك في المهجع . بعدها قرع أبو الفضل الباب وأخبرهم بوفاة الأخ . فلم يزيدوا عن أن طلبوا منه أن يخرجه إلى الخارج . فتعاونت معه وحملناه ، وعدت أنا وبقي أبو الفضل لبرهة . وعندما عاد أخبرنا أنهم أرادوا أن يتأكدوا من موته فتقدم أحدهم منه وركله بقدمه وحسب ..
وجاء "البلدية" فأخذوه ومضوا !

سحور !
ومضت الأيام .. وازدادت الأمراض وكثرت الوفيات ..
حتى كنا نخرج في فترة من الفترات ميتاً من مهجعنا كل يوم ! ولا زلت أذكر أنني كنت أنام بجانب الأخ كمال أندورة في ليلة من تلك الليالي الرهيبة ، وكنت قد نويت صيام اليوم التالي ، فنهضت قبيل الفجر لأتسحر . وكان كمال بعد أن اشتد عليه المرض في الفترة الأخيرة لا يستطيع النوم مستلقياً وإلا اختنق . فكان يتربع في مكانه ويستند رحمه الله إلى الجدار ويظل يكابد طوال الليل ويتأوه ويعاني . فلما نهضت لأتسحر وجدته ساكتاً على غير عادته . فجعلت أناديه بصوت خافت . فلما لم يجبني وارتبت في الأمر دفعته براحتي ، فوجدته يسقط ميتاً على الطرف الآخر .
ولم يكن وارداً وقتها أن أقوم بأي حركة تكشفني أمام الشرطة على سطح المهجع ، فسحبت البطانية على وجهه بكل هدوء ، والتفت فسحبت صندويشة كنت قد وفرتها من عشاء الأمس لتكون سحوراً لي ليلتها ،

فجعلت أدس اللقيمات في فمي دساً وأغص بهن ، والأخ بجانبي مسجى لا روح فيه ! وعندما استيقظنا صباحاً ومضينا لنغسله قبل أن يعلم الشرطة بموته وجدناه رحمه الله تخشب جسده وقد مضت على وفاته بضع ساعات . حتى إذا انتهينا بعد جهد يكلله الرعب أخبرناهم بموته . فلم يزيدوا عن أن نادوا "البلدية" ليسحبوه .. وانتهى الأمر !

سُنّة طيبة !

ومما لا ينسى من مشاهد الأمراض والأوبئة التي دهمتنا قصة أخ من حمص اسمه عبد المعز العجمي . أصابه مرض اليرقان الكبدي عام 1982 وأشرف على الموت بسببه . وجعل الأخ أبو الفضل رحمه الله يجهد نفسه ويجهدنا في توفير كمية من الطعام له من نصيبنا .
وكان رحمه الله أول من سن هذه السنة الطيبة في إيثار المرضى على شدة حاجتنا وضآلة نصيبنا من الطعام . وجعلنا ندعو لأخ ونسأل الله له الشفاء . وسبحان من استجاب ومنّ على الأخ برحمته . فلم يمض شهر كنا نظن الأخ في أوله مودعاً حتى قام بيننا صحيحاً معافى . وكانت آية أخرى فيه أن طلب فيما بعد إلى الإعدام . ونال شرف الشهادة عام 1984 بعد أن نجا من الموت بسبب اليرقان .

الطبيب القاتل !

وإذا كانت حكايات الأسى وروايات المعاناة في سجن تدمر لا تنتهي فإن مما لا ينسى من بينها حكاية الأخ زاهد داخل التي تجسد كل معاني الطائفية الحاقدة والهمجية التي مارسها النظام السوري على شعبه .. وتفسر أسباب ثورة تلك الفئة المؤمنة على جلادها ولجوئهم إلى القوة كحل وحيد لم يجدوا من دونه سبيلاً للنجاة .
كان زاهد رحمه الله طالباً متفوقاً في كلية الطب بجامعة حلب في سنواته الأخيرة .. جمعته الأقدار على طاولة الدراسة مع طالب آخر من طائفة النظام اسمه محمد يونس العلي . وفي أحد الأيام تعرّض يونس هذا لزميلة لهم في الصف من أسر حلب المحافظة ، وجعل

يلاحقها بفظاظة ويتابعها بالتصريح وبالتلميح فلا يجد منها إلا الصدود .
ودارت الأيام وشاءت الأقدار أن يتقدم زاهد نفسه لخطبة الفتاة ذاتها وأن ينال موافقتها وموافقة أهلها معاً . وتم الزواج وعمت الفرحة قلوب كل الناس إلا يونس هذا .. الذي اعتبرها قضية كبرى وعدواناً على كرامته لا يغتفر . وجعل يهدد الفتاة وزوجها بشكل معلن .. وينذرهما بالويل والثبور وعظائم الأمور .
وزاهد المؤدب الحيي لا يملك إلا أن يعرض عن الجاهلين .
وانتهت الدراسة ، وتخرج زاهد ويونس من كلية الطب ومضى كل منهما في طريق . حتى إذا اشتعلت الأحداث في سورية وأسفر النظام عن أقبح الوجوه وجد زاهد نفسه فريسة بين أيدي المخابرات يتنقل من عذاب إلى عذاب ومن سجن إلى آخر ، حتى انتهى به المقام في مهجع 5-6 بتدمر ! وشاءت الأقدار أن يكون طبيب هذا السجن - ويا للهول - محمد يونس علي نفسه ! أما الإجابة عن كيفية وصول زاهد ويونس كلاهما إلى هذا المكان .. وعلاقة ذلك بتهديدات يونس السابقة فذلك ما لم نعرفه . لكنا تأكدنا كلنا أن هذا الطبيب كان يبحث من أول يوم عن شخص محدد اسمه زاهد داخل بين السجناء في مختلف المهاجع . وجعل الشرطة العسكرية يدورون على مهاجع الباحة الأولى حيث تم فرز زاهد على واحد من مهاجعها ويسألون عنه مرة بعد مرة .. حتى تم للجاني ما أراد وشاهد زاهداً في يوم من الأيام أثناء التنفس فقال للشرطة ها هو ذا . ومن لحظتها أخرجه الزبانية وأوسعوه ضرباً وجلداً ومسبات وقالوا لرئيس مهجعه : هذا معلّم . ويبدو أن زاهد قد لمح يونس أو سمع بوجوده فأدرك ما يدور .. وعرف أن طبيب السجن هو جلاده وغريمه نفسه .. وأسر بذلك للإخوة في مهجعه وسأل الله الستر .
وجعل الشرطة يخرجون زاهداً بسبب ومن غير سبب ويذيقونه في كل يوم جرعة مضاعفة من العذاب .. ومضت أسابيع على هذه الحالة أيقن زاهد والإخوة معه أنه مقتول لا محالة . حتى إذا انهار ولم يعد يستطيع الخروج للتنفس وجلس في المهجع كما اعتاد من

أصابهم مرض أو أقعدهم التعذيب أن يفعلوا أخذ الشرطة يبحثون عنه بين المرضى ويعذبونه هناك .
وفي يوم مكفهر أخذ الزبانية التفقد في مهجع 5-6 ولكن من غير أن يخرجونهم كما تقتضي العادة . وأتى الأمر من الرقيب فيصل كحيلة للإخوة أن يضبوا كلهم في زاوية المهجع . فلما فعلوا ولم يبق في ذلك الركن إلا زاهد المسكين وقد انتهت فيه كل قدرة على الحركة تقدم فيصل وعريف من الشرطة العسكرية اسمه شحادة وهوى كلاهما بالعصا على رأسه بكل قوته فانفلق من فوره ..
وسقط زاهد على أرض المهجع يتخبط دمه ، ومن غير أن تختلج في القتلة عضلة واحدة خرجوا وأقفلوا باب المهجع . ولم يلبث القتلة أن فتحوا نافذة الباب ونادوا رئيس المهجع وسألوه عم حدث . فأجاب المسكين بهلع : لا أعرف سيدي ، أظنه وقع على الأرض وأصيب بارتجاج في الدماغ ! فأقفل الجناة النافذة ومضوا غير عابئين ، وهرع الإخوة إلى زاهد فرأوه قد أسلم الروح ، فجعلوا يسحبونه إلى الحمام ليغسلوه . في تلك اللحظة فتح الباب من جديد وأمر الشرطة رئيس المهجع أن يخرج الجثة . فجعل المسكين يسأل الإخوة أن يساعدوه فأبوا . وأقعدهم الخوف وفظاعة المشهد عن أن يتقدموا خطوة واحدة . فلم يجد الأخ إلا أن يسحب جسد زاهد سحباً حتى باب المهجع . وجاء "البلدية" كالعادة فحملوه من بعد ومضوا به وكأن شيئاً لم يكن !

أمر بالفاحشة !
وأمعن الشرطة في إجرامهم وغيهم .. وزادوا في بطشهم وتفننوا في أساليب العدوان . فكم من مرة فوجئنا ونحن في ساعة النوم بواحد من هؤلاء السفهاء يطل علينا من الشراقة فوق السقف ويبول فوقنا عامداً متعمداً .. أو يبصق علينا مرة واثنتين وثلاث . والويل كل الويل لمن رفع رأسه أو تململ في مجلسه ! ولكم أخرج هؤلاء الظلمة واحداً أو أكثر من بيننا في منتصف الليل ليتسلوا بتعذيبه من غير أي سبب .. أو اجتمع عليه الجلادون في حر الظهيرة فأوسعوه لطماً وضرباً وسحلوه على أرض الباحة وهم يضحكون !

وعلاوة على الكبلات والعصي والسياط التي كانت تنهش الجلود وتحطم الأضلع وتشوه الوجوه ، عمد الزبانية إلى استخدام قضبان حديدية في ضربنا . ويا بؤس من ناله من هذه القضبان ضربة ! وإضافة إلى ذلك استخدم الشرطة القضبان ذاتها لتحطيم نفسياتنا .
فكانوا إذا حان يوم الحلاقة مثلاً دخلوا من باب الساحة السادسة التي تبعد عن مهجعنا عشرات الأمتار ورموا القضبان الحديدية على أرضها الإسمنتية لينطلق صوت ارتطامها بالأرض فيصلنا كأنه نذير الموت ! ولم يكن الإخوة كلهم في درجة واحدة من الثبات وقدرة التحمل . فكان بعضهم ترتعد فرائصه إذا سمع ذاك الصوت ويبكي حتى من قبل أن يصل الجلادون !
غير أنه مما لا ينسى أبداً من مشاهد تلك الفترة يوم أن أطل أحد الحراس من شراقة السقف ونادى على أخوين شقيقين في مهجعنا وأمرهما بكل صفاقة وسفالة أن يخلعا ملابسهما ويفعلا الفاحشة ببعضهما البعض ! ومع الضحكات الفاجرة والمسبات الدنيئة أصر المجرم على تنفيذ الأمر .. ولم يجد الأخوان إلا أن يجاريانه خشية أن يحدث ما لا تحمد عقباه .. فخلعا ملابسهما بالفعل .. والسفيه يلاحقهما ليفعلا أكثر وأكثر .. وأطرقنا نحن وأغمضنا عيوننا لا نكاد نصدق هذا المدى من الخسة الذي بلغه أولئك الوحوش .. وجعلنا نبتهل في سرائرنا أن يصرف الله الأذى وينجي الأخوين وينجينا من هذا الخسيس . والكفر بالله والمسبات والشتائم تندلق علينا من فمه النجس ولا تكف . فلما أحس أنه ضحك بما يكفي وحقرنا بما يشفي غليل حقده ورحل .. أحسسنا وكأننا خرجنا من كابوس مرعب لا يوصف . وأطرقنا صامتين لا نستطيع أن ننظر في وجوه بعضنا البعض ساعات عديدة . ولم يفتح أحد منا سيرة ما جرى بعدها .. ستراً للأخوين وحفاظاً على شعورهما وكرامتهما ، وكرامة وشعور أبيهما الذي كان نزيل المهجع نفسه !
ولقد تكرر مثل هذا الحدث غير مرة . وأعاد هؤلاء السفهاء الطلب وأمثاله في أكثر من مهجع ..وكانوا يفتحون الباب علينا أو ينادون في التنفس واحداً منا ويقول الشرطي له :
أنت يا ... أنا بدي أعمل في أمك كذا .. شو ؟

فكان المنادى يسكت أول الأمر ولا يجد ما يجيب به .
فتأتيه لطمة أو ضربة من جلاده وهو يصيح به :
كرر يا ... أنا بدي أعمل بأمك كذا . شو ؟
فلا يجد المسكين إلا أن يقول بذل وانكسار :
أنت تريد أن تعمل بأمي كذا وكذا سيدي .
فإذا أشبع ذلك من صلف المجرم تركه ، وإلا أمره أن يعيد ما قال ويُسمع به آخر من في الساحة أو في المهجع حتى تقر عينه الفاجرة وتسكن هواجسه الخبيثة !

المنفردات

وذات يوم من أيام عام 82 القاسية دخل عناصر الشرطة العسكرية المهجع فجأة وأمرونا جميعنا بالإنبطاح . وما أن امتثلنا للأمر حتى أمرونا بالوقوف من جديد . ولم يكن لمثل هذه الأوامر من سبب إلا إرهاقنا وإذلالنا . لكنهم وعندما انتصبنا واقفين لمحوا أخاً بيننا اسمه أحمد فطومة من حماة كان مشمراً قدراً عن ذراعيه . فقالوا له ولطمة من أيديهم المتعطشة للدماء تطاله :
هنت (أي أنت) بتتحدانا ولا ؟ قوم للسواليل .
وسحبوا الأخ سيىء الطالع من بيننا واقتادوه إلى واحدة من بضع زنازين منفردة قرب المطبخ يسمون الواحدة منها سالولاً بلغة السجن . واقتادوا أخاً آخر من حمص معه لسبب تافه مماثل . ولقد غادرت المهجع بعد قرابة العام والأخَوَان في السجن الإنفرادي لم يعودا بعد . وبلغني لاحقاً أن الأخ أحمد فطومة مات من التعذيب . ووصلتنا الأخبار بعدها كيف أن العذاب يتضاعف على الإخوة هناك ويجتمع الشرطة كلهم على السجين الواحد بدل أن تتوزع سياطهم واعتداءاتهم على مهجع بأكمله . ولكن وحشة الإنفراد وهول الوحدة في هذا المكان الرهيب تظل في اعتقادي أشد من كل هذا العذاب وأقسى !

من لائحة الجناة

وعلى الرغم من أن أفراد الشرطة العسكرية والرتب التي تعلوهم كانوا يحرصون على عدم معرفتنا لشخصياتهم وأسمائهم . ورغم الظروف القاسية التي كنا نواجهها عندما نكون أمام واحد منهم . إلا أننا

وبمرور الأيام تمكنا من معرفة بعض منهم . وكان ذلك يتم على الأغلب من سماعنا واحدهم ينادي الآخر باسمه أو يتحدث عن ثالث منهم فيذكره ويسميه . وهكذا علمنا أن مدير السجن هو المقدم فيصل الغانم الذي نفذت على عهده مجزرة تدمر الكبرى في 26/6/1980 .
يساعده النقيب بركات العش ، وكلاهما من الطائفة العلوية ومن محافظة اللاذقية . وكان يقوم بمهمة ما يسمى إدارة الإنضباط المساعد أول أحمد كيساني أو "أبو جهل" كما كنّاه السجناء . يساعده عريف عاصره من عام 80 وبقي إلى عام 84 اسمه فواز . ورقيب أول رافقنا من عام 81 إلى عام 85 اسمه جهاد ، كان لا يجارى في شراسته ولا يفوقه قسوة في استخدام السوط أحد . وكان ثمة رقيب آخر لا يقل عنه لؤماً وبطشاً اسمه شعبان حسين . وهؤلاء جميعاً من طائفة الأقلية الحاكمة . وكان هناك شرطي آخر غاية في الإجرام كان يتفنن في ضرب المعتقلين خاصة أيام "الإستقبالات" اسمه نعيم حنا ، بلغنا أنه مسيحي آشوري .
وعندما غادر أبو جهل السجن عام 82 ، وأشيع أنه هرب إلى العراق - وإن كنا لا ندري صحة تلك الإشاعة - خلفه في مهمته الرقيب فيصل كحيلة ، وهو علوي كذلك من اللاذقية ، وكان غاية في السادية والإجرام ، ولا يحلو له أن يعذب السجناء إلا بضربات العصا الغليظة التي يمكن أن تقصم الظهر أو تزهق الروح . ولقد أشيع كذلك أن فيصل هذا قتل فيما بعد ، وهي مجرد إشاعة تضم إلى كثير مما كنا نسمعه ولم نتأكد منه . وكان يساعده في مهمته عريف اسمه علي شعبان ترفع إلى رتبة رقيب أول لاحقاً . وعريف آخر من القتلة اسمه شحادة من نفس الملة والعلة . وكان من أبرز زبانية تلك المرحلة شرطي من الطائفة ذاتها اسمه سمير كوشري . وكنا نسمية "حيّو" لأنه كان لا يكف عن إطلاق هذه الكلمة كلما انتشى بتعذيب واحد منا !
وبعد فيصل كحيلة تولى مسؤولية إدارة الإنضباط الرقيب أول محمد الخازم الذي استمر في هذه المهمة حتى عزل مع المقدم فيصل الغانم عام 84 ضمن عمليات تصفية مراكز القوى وتسوية الحسابات بين الرئيس حافظ الأسد وأخيه رفعت كما بلغنا ، إثر معافاة

الأول من مرضته الشهيرة حينذاك . وقتها آلت مسؤولية السجن إلى النقيب بركات العش بشكل مؤقت . ثم لم يلبث أن استلم هذا الموقع المقدم غازي الجهني ، وهو علوي من قرية المخرّم بمحافظة حمص . فاختار الرقيب محمد نعمة ليكون مسؤول الإنضباط في السجن ، وهو علوي مثله من جب الجراح بمحافظة حمص أيضاً . واستمر العش نائباً للجهني إلى أن انتقل عام 1987 إلى سجن صيدنايا وأصبح مديراً له .

رقابة صارمة

ولقد كان اختيار هؤلاء الزبانية انتقائياً واضحاً ، تجسيداً لهيكلية النظام الحاكم ذاتها القائمة على منهجية الفرز الطائفي البغيض وتمكين الأقلية الموتورة من حكم الأغلبية المغلوبة على أمرها . فالعلويون هم أصحاب الهيمنة الأكبر والعدد الأكثر المسيطر على مختلف مواقع المسؤولية والمراتب التي تدير السجن . وثمة عناصر معدودة فاسدة الضمير من أقليات أخرى طائفية أو عرقية تمارس دور المخلب الذي تتحكم فيه قبضة الطائفة العلوية وتسخره لخدمتها . علاوة على بعض من أبناء الأكثرية السنية ممن يقضون فترة خدمتهم الإلزامية في هذا الموقع . ويعيش هؤلاء وكل المجموعات الأخرى تحت رقابة صارمة دائمة . ومثلما لا يسمح لهم أن يتحدثوا مع السجناء أبداً أو يسألوهم عن أسمائهم حتى لا يتعرف أحدهم على الآخر فيعرفه بالصدفة فيعطف عليه أو يتساهل معه . كذلك فإن أشد العقوبات مصير من يضبط في حالة كهذه . ولقد بلغنا أن رقيباً من حمص من آل السباعي كان يخدم جنديته الإلزامية في هذا الموقع قبل حضورنا أبدى بعض التسامح مع المعتقلين وتساهل معهم في أمور لا تذكر في هذا الجو المرعب . فلما تكرر ذلك منه تم ضبطه ومحاكمته ، وأعدم المسكين وعلقت صورته كما سمعنا في غرفة الذاتية ليتعظ بها العناصر والعسكريون الآخرون !

خصومات !

وكان من آثار أحداث حماة أيضاً أن حضرت مجموعات جديدة من السجناء من أهل المدينة . ومن هؤلاء بلغتنا

أهوال ما حدث .. وتعرفنا على إخوة جدد صار بعضهم من أعز الناس إلى القلب . ومن هؤلاء لا أزال أذكر الأخ سحبان بركات الذي كان قد اعتقل حقيقة الأمر عام 81 ثم أحضر إلينا بعد الأحداث . ولقد جرى إعدامه فيما بعد رحمه الله . وكان معه ابن عمه صبحي بركات الذي كان طالباً في كلية الطب بجامعة دمشق ، وهو من الطلاب الأذكياء جداً .

كذلك أذكر ممن حضر وقتها أحمد دعدع من حماة الذي أعدم بعد سنة أو سنتين . وغالب هؤلاء الذي أحضروهم اعتقلوا من بيوتهم أو جامعاتهم ولم تكن لهم كلهم صلة مباشرة بالأحداث . ومع هؤلاء حضرت نوعيات أخرى من المعتقلين من عامة الناس الذين انفعلوا بالأحداث واندفعوا للمشاركة فيها من غير تربية مسبقة أو انضباط كامل . ففاجأتهم المحنة من غير أن يستعدوا لها ، وكان بعضهم في بداية الأمر سبباً لنشوء المشاكل والخصومات في المهجع ، لكننا استطعنا استيعاب أكثرهم ولله الحمد ، وتمكنا من عبور تلك المرحلة . فتحسن خلقهم ، وأخذ أكثرهم في الإنضمام إلى إخوانهم والإندماج ببرامج المهجع من حفظ للقرآن ومداومة على الأذكار والعبادات .

فرز الأحداث !

ويبدو أن إدارة السجن لم تكن لتغفل عن هذا أو كأنها كانت تتوقع حدوثه ، ولذلك لم تلبث أن قامت بعملية فرز للسجناء صغار السن أو الأحداث كما يسمون ، فخصصت لهم مهجعا 31 و 34 بالباحة السادسة . ثم لما فتحوا الباحة السابعة فيما بعد نقلوهم إلى هناك ووزعوهم على المهاجع 35 ، 36 ، 37 فيها ، لعزلهم عن إخوانهم الأكبر سناً فلا يتأثروا بأفكارهم أو يتقووا بوجودهم معهم .

جرعة لبن !

مضت قرابة سبعة أشهر لم نعد نسمع فيها عن تنفيذ أحكام إعدام حتى ظننا أن الأمر انتهى ولم يعد هناك المزيد . ورغم أننا لم نجد لذلك تفسيراً إلا أن مشاعرنا مع مرور الأسابيع والشهور جعلتنا نعتقد في أنفسنا

توهماً وتأميلاً بأن الإعدامات انتهت ، وأن الفترة السوداء من سجننا قد ولت .
غير أن الأمل سرعان ما تبخر كالسراب ، وتكسرت أجنحة الحلم حينما فوجئنا ذات صباح بالمشانق تنصب من بعد الفجر بقليل ، وبالشرطة يجوبون المهاجع ويسألون عن أسماء بعينها . ولم تلبث أصوات التكبيرات أن علت من جديد .. فأسقط بأيدينا .. وانهارت آمالنا الواهية .. وعدنا يلفنا الوجوم والترقب . حتى إذا فتح الشرطي باب المهجع 26 علينا انتفضنا كلنا وقد بلغت القلوب الحناجر واحتبست أنفاسنا .. وكل منا يتوقع أن يتلو الشرطي اسمه ويناديه للردى . لكن جلادنا لم يناد إلا اسم أخ واحد من بلدة سراقب اسمه عبد الحكيم العمر كما أعتقد . كان مدرس لغة عربية وملازماً مكلفاً حين اعتقل . وكان صاحب فضل علينا في المهجع بدماثة خلقه وحسن معشره ، وبحلقات البلاغة والنحو التي واظبنا عليها حتى تعلمنا منه الكثير . وقال له أن يضب أغراضه لأنه سينقل إلى مدرسة المدفعية بحلب حيث كان يقضي خدمته الإلزامية . ورغم استغرابنا من هذا الأسلوب الجديد إلا أننا قدرنا أنهم إنما أخروا إعدامه لأنه عسكري وحسب ، وأن دوره الآن قد دنا .
وأدرك عبد الحكيم أنها منيته ، وجعل رحمه الله يطوف علينا ويتفرس في وجه كل منا ويردد آخر كلمات له في هذه الدنيا سمعناها :
سامحوني يا شباب .. واللقاء إن شاء الله في الجنة .
فلما وصل بتطوافه إلى مجموعة من أهل بلده كانوا شركاء في مجموعة الطعام في المهجع أوصاهم بأهله وأولاده . لكننا فوجئنا به وعيوننا تتابعه وقلوبنا تطوف معه يستدير نحوهم فجأة ويطلب بعض اللبن كانوا قد وفروه لفطورهم عند المغرب ليأكل منه . وكانت آية والله رأينا فيها مصداق حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال فيه : "نفث في روعي الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أجلها ورزقها" .
ووالله الذي لا إله إلا هو أخذ عبد الحكيم صحن اللبن وأكل منه . واتجه بعدها إلى الباب ونحن لا نصدق أنه مفارقنا ، ومضى إلى الإعدام ونفسه رحمه الله تفيض بالرضا والإطمئنان ، وكأنه ذاهب لملاقاة أحب الناس إليه !

لا خضوع !

وفي مهجع السل 23 بالباحة الرابعة حيث كان قد اجتمع على إخواننا هناك كَرْبُ السجن وكَرْبُ المرض أخرج الشرطة يومها أخاً مسلولاً من حلب اسمه يوسف عبارة للإعدام . وقتها لم أكن قد انضممت للمسلولين بعد ، لكنني سمعت القصة عندما صرت واحداً منهم بعد حين . فلقد نادوا الأخ رحمه الله إلى لقاء ربه قبيل صلاة الفجر . فهرع وصلى مع الإخوة الفريضة ثم ودعهم ومضى إلى منيته مقبلاً على الله . وكان من نزلاء المهجع نفسه أخ شاعر موهوب تفجرت مشاعره عندما أبصر الإخوة يساقون رتلاً طويلاً إلى المشانق ، وانسابت مع دموعه ودموع إخوانه قصيدة رقيقة له حفظناها جميعاً وأخذنا ننشدها منذ ذاك يقول فيها :

وسار موكب الجنازة في الصباح
مخلفاً وراءه الجراح
وراسماً مسيرة الكفاح
فلا حياة دونما سلاح
من قبلها نادى المنادي هاتفاً مجلجلاً
حي على الفلاح .. حي على الفلاح .
. . .
وسار موكب الشباب في خشوع
لم يعرفوا لغير ربهم خضوع
عيونهم تضيىء كالشموع
تقول للأجيال لا خضوع
من قبلها نادى المنادي هاتفاً مجلجلاً
حي على الفلاح .. حي على الفلاح .

وداع الأشقاء

وتتابع نصب المشانق وتكرر مشهد الزهرات تساق إلى حتفها على أيدي الزبانية الطغاة . وكان من أشد المشاهد إيلاماً كما بلغني يوم أن سمع أخ من بيت العابدي من دمشق اسم أبيه يطلب للإعدام من مهجع مجاور . ورآه يساق أمام عينيه من خلال ثقوب الباب فتزهق روحه على حبل المشنقة . وكان الولد قد اعتقل

مع أبيه وهو ابن خمسة عشر عاماً في مرحلة دراسته الإعدادية !
ولم يكن أقل إيلاماً يوم أن طلبوا فيما بعد اثنين من الشباب المعتقلين معنا للإعدام هما طريف حداد وملهم الأتاسي وكلاهما من حمص . وكان معهما في نفس المهجع شقيقاهما بشار حداد ومطاع أتاسي . وعندما تقدم بشار ليودع أخاه طريف ثابت الجنان قال له : اثبت واصبر .. واللقاء في الجنة . والحمد لله أن رزقك الشهادة . ولا تنسانا من الشفاعة .
كذلك خرج من بيننا أخ آخر للقاء الله في تلك الأيام العصيبة هو عبد الغني دباغ من حمص . ثم لم نلبث أن سمعنا بأن أخوين اثنين له في مهجع آخر أعدما بعد مدة وجيزة من الزمان .

تبجحات !
وانتهت أحداث حماة .. وانتهى عام 1982 الذي شهدنا فيه أقسى الظروف وأسوأ المعاملات . وبدأت ذيول تلك المحنة تنجلي شيئاً فشيئاً . ولم نلبث مع مرور الأيام أن وجدنا أنفسنا نتدرج نحو مرحلة جديدة مغايرة من المعاناة .
كانت البدايات حينما أخذ يتناهى إلى أسماعنا أن مدير السجن العقيد فيصل الغانم يقوم بزيارات تفقدية للمهاجع يزجر فيها السجناء ويهددهم مرة .. ويستفسر منهم عن احتياجاتهم ويسألهم عن أحوالهم مرة أخرى ويعدهم خيراً . وبلغنا ضمن هذا السياق أن أحد الإخوة تجرأ ذات مرة وسأله عن سبب منع المعتقلين من الصلاة ، فأجابه الغانم بكل تبجح أن إدارة السجن ليست ضد الصلاة ولا ضد التدين ، ولكن الأرض في المهاجع نجسة ولا تصح عليها الصلاة ! وزاد الراوي أن الشرطة عادوا بعد زيارة الغانم تلك فأوسعوا السائل ضرباً جعله يحرم وكل من بلغه الخبر السؤال والأخذ والرد مع هؤلاء إلى آخر العمر !
وتسارعت الأمور .. وبدأت المستجدات الغريبة تفاجؤنا مرحلة بعد مرحلة .. فلا نكاد نستوعب للأولى سبباً حتى يَجِدَّ على الساحة جديد . ونحن في ذلك كله لا نبصر إلا عشر معشار ما يدور ، ولا ندرك إلا الجزء الضئيل مما يدور أمام أعيننا .

وكانت البداية الظاهرة لنا حينما خرجنا ذات يوم من أيام سنة 1983 إلى التنفس كالعادة وجعلنا نسير في خطنا كالمعتاد ، فوجدنا الشرطة يستدعون واحداً من سجناء مهجعنا اسمه خالد عوض السالم ، واقتادوه مغمض العينين إلى مساعد السجن الجديد محمد الخازم الذي خلف فيصل كحيلة وقتها فكان شر خلف لشر سلف ! ومن غير أن يفتح خالد هذا عينيه سمع المساعد يأمره أن يرفع رأسه ففعل . فسأله عن اسمه فأجاب . فاكتفى بأن صفعه على وجهه وأمره بالعودة . وعندما بلغنا ما حدث وجدناه تصرفاً طبيعياً طالما تكرر ما هو أسوأ منه بلا أي مبرر . لكن الرقيب جهاد ما لبث وأن عاد إلى المهجع مع عدد من أعوانه وطلبوا أبا عوض معهم . وعندما عاد بعد ساعة من زمن وجدناه غير الشخص الذي عرفنا .

أبو عوض !

كان خالد عوض السالم سجيناً من صوران مات شقيقه - كما ذكرت - على صدره بسبب السل قبل أقل من عام ولفظ أنفاسه بيننا وهو يذكر الله ويشهد له بالوحدانية . ورغم أن الأخوين اعتقلا بتهمة تجارة السلاح إلا أن الفارق بينهما كان كالفارق بين السماء والأرض . فخالد هذا كان معروفاً حتى من قبل اعتقاله بسوء الخلق وفساد الذمة . ولأنه كان فوق ذلك صاحب جسم ضخم وعضلات مفتولة فقد جعلوا خدمته الإلزامية قبل سنوات خلت في الوحدات الخاصة أو الشرطة العسكرية .

كانت أول مفاجأة في عودة أبي عوض أنه ذهب سجيناً وعاد بقدرة قادر رئيساً للمهجع ! وأمر الشرطة أبا الفضل الذي حافظ على مسؤوليته طوال هذه المدة أن يتنحى ويسلم رئاسة المهجع لخالد . ولم يكن على أبي الفضل إلا الإنصياع بالطبع . ووجدنا أبا عوض يتبدل بين ليلة وضحاها . وبدأت شخصيته المتنفذة تطفو على السطح الآن .. وتتبدى عنجهيته بسبب ومن غير سبب . وصار لأبي عوض - وهو الذي طالما ضاعف الشرطة عليه القتل والتعذيب أثناء الحلاقة والتنفسات بسبب ومن غير سبب - استثناء خاص من الحلاقة .. فطال شعره من دون كل الألوف من هؤلاء السجناء جميعاً ،

وأرخى شاربيه فكأنه واحد من الشرطة لا فرق ! ولم تلبث الأسرار أن تسربت من المقربين إلى أبي عوض إلينا ، فحدثهم كيف أنه كان سجيناً ذات يوم في سجن تدمر هذا أيام خدمته الإلزامية جزاء على مخالفة عسكرية فعلها . وكان محمد الخازم رقيباً في نفس السجن وقتها .. فقامت بينهما علاقة ومعرفة . واتفقا على أن ينشئا تجارة لصالحهما بين السجناء ، يقوم محمد الخازم بتأمين مادتها ، ويتولى خالد ترويجها بين زملائه في المهاجع بأسعار مضاعفة مستغلاً حاجتهم لمثل تلك المواد . فلما شاهد الخازم أبا عوض الآن وجده الرجل الأمثل ليحقق به مطالب السيد الكبير مدير السجن الذي أوعز إليه كما تبدى ترويج نفس التجارة بين السجناء البؤساء في تدمر .

ورغم أن ذكرى أخيه لم تكن قد خفتت بعد .. وعلى الرغم من الإهتمام البالغ الذي أولاه الإخوة بخالد نفسه في أشد أيام المحنة مراعاة لوضعه وترقيقاً لقلبه ، حتى أنهم كانوا يؤثرونه بطعامهم لضخامة جسمه ويوفرون له من فتات الطعام الذي يصلهم حصة مضاعفة له وحده . ويتقدمونه في التنفس والحلاقة معرضين أنفسهم لسياط الزبانية وعصيهم حماية له وإخفاء من الشرطة الذين علّموه وقتها بجسمه الضخم فأدمنوا مضاعفة العذاب عليه . برغم ذلك كله فإن أبا عوض لم يحفظ للإخوة ذاك . فها هو ذا يريد أن يتسلط عليهم ويتحكم فيهم وكأنه لم يعد سجيناً وبات هو السجان ! وجعل في سبيل تحقيق غايته يؤلب الناس على بعضهم ويوظف بيننا من ضعاف النفوس جواسيس ينقلون إليه ما الذي يدور بين الحلقات وبماذا يتحدث المساجين عنه . وكان يريد أن يعرف كل صغيرة وكبيرة لينقلها إلى شريكه وسيده الجديد . وصار يسطو على طعام الآخرين ويأخذ ما شاء من الوجبات نوعاً وكماً .. ولم يتورع حتى عن استخدام يديه مع بعض الإخوة والإعتداء عليهم بالضرب تماماً كما يفعل بقية السجانين ! ولا أزال أذكر أن أحد ضحاياه كان الأخ محمد صنوبر حافظ كتاب الله الذي نال منه قتلة ذات مرة لم تقل عن أي من تلك التي يذيقنا إياها جلادونا قساة القلوب ذاتهم !

مهجع المدعومين !

وأخذت الأمور تتطور بالتدريج من حولنا ، فلم نلبث أن تبلغنا في شهر آذار 1983 بتغيّر النظام العام للسجن ، وأنه بات مسموحاً لنا الآن أن نفتح أعيننا ونرفع رؤوسنا أمام الشرطة العسكرية بشكل طبيعي . وبدأنا نلحظ تغيراً نسبياً في تعامل الشرطة وإدارة السجن مع مهجعنا في ظل ولاية أبي عوض عليه . فخفت الضغوط بعض الشيء عنا ، وأوكلت مهام الأمر والنهي داخل المهجع إلى أبي عوض أغلب الأحيان . ولم يعد الشرطة يكثرون من الدخول علينا أو التنكيل بنا . فيما تتالت لقاءات أبي عوض مع محمد الخازم الذي كان يستدعيه إلى الذاتية بين حين وآخر ، فإذا عاد وسئل عما جرى لم يجب إلا بالقشور .

وأخذنا نسمع عن زيارات تتم لبعض السجناء يحضر أهلهم لمشاهدتهم فيحضرون لهم كميات من الهدايا والأموال غير قليلة . وكان ذلك لا يتم إلا للموسرين بالطبع . وبعد واسطات ورشاو فاحشة عرفنا بها من بعد . وفوجئنا من ثم بهؤلاء السجناء يتواردون على مهجعنا واحداً بعد الآخر ومجموعة إثر مجموعة . حتى بتنا نسمي مهجعنا ذاك مهجع المدعومين !

ومع هذه التطورات عاد الطبيب يجول على المهاجع ويقدم بعض العلاجات الأساسية للسجناء ، وتم تعيين مسؤول صحي من السجناء في كل مهجع ، تكون مسؤوليته تقديم تقرير بالحالة الصحية للسجناء إلى الطبيب حتى لا يضطر الطبيب نفسه إلى فحص المرضى والتعرض لاحتمالات الإصابة بالعدوى منهم !

أخوة بالإكراه !

وفي يوم من أيام شهر حزيران عام 1983 فوجئنا بالشرطة يخرجوننا إلى الباحة ويخرجون معنا سجناء المهاجع الأخرى في باحتنا .. وإذ بمدير السجن المقدم فيصل الغانم الذي كان أحد المشرفين على مجزرة تدمر الكبرى عام 1980 يقف فينا خطيباً لأول مرة ويكلمنا بلهجة ما اعتدنا أن نسمعها قط كل هذه الأيام التي خلت .

ولأكثر من أربعين دقيقة جعل يحدثنا أننا فعلنا كذا وكذا ، وأخطأنا بحق الوطن ، ولكننا برغم ذلك نظل إخوة !

ووسط إيعاز الشرطة لنا بين كل جملة من كلامه والجملة الأخرى بالتصفيق تساءل الغانم عن الفرق بين العلوي والسني .. وأضاف فقال بملء فيه : أنا خَيّكُم (أي أخوكم) غصباً عنكم .
وبين الإستغراب المطلق والتحفظ المطبق من جانبنا أكمل الغانم محاضرته بالحديث عن اسرائيل التي قامت بمجزرة صبرا وشاتيلا . وقتلت من الأبرياء كذا وكذا .
وأن سوريا هي الدولة العربية الوحيدة التي تقف بوجه إسرائيل وأمريكا ! واتجه بالحديث نحونا مرة أخرى فقال : أما أنتم فقد غرر بكم لتقوموا بأعمال ليست في صالح البلد ، غير أن الإبن إذا أخطأ في حق أسرته فإنها تعاقبه ولكنها لا تتخلى عنه .. ولذلك فأنتم الآن تقضون فترة عقاب ، لكنكم ستخرجون بعدها وتحل الأمور .
وانتهت المحاضرة كما بدأت حافلة بالغموض والغرابة . وأخذت التساؤلات والتحليلات والتكهنات تتوالى . لكن شعوراً واحداً غمرنا جميعاً يوحي بأن ثمة تطورات جديدة في الأفق . ولم تلبث الأمور أن أخذت تتسارع لتتكشف على حقيقتها بعد حين .
كذلك طرأ على حال السجن تغيير جدير بالتسجيل وقتها . فلأول مرة وبعد هذا الصمت المطبق طوال الأعوام السابقة فوجئنا بالميكروفونات تنقل لنا بث إذاعة دمشق على الهواء مباشرة 12 ساعة في اليوم . فكانت لنا نافذة نتابع من خلالها أخبار العالم خارج الأسوار ، ومنفساً نخرج منه عن اعتيادية حياتنا القهرية بعض الشيء . وبالطبع فلم يكن مسموحاً لنا من قبل ولا من بعد أن ندخل جهاز راديو إلى مهاجعنا ولا أن نستخدم الورق والأقلام أو الكتب .. وأما المصاحف فكانت كما ذكرت واستمرت إحدى أكبر الممنوعات !

ذيل الثعبان !

غير أن هذه التطورات كلها كانت تخفي وراء وجهها المليح مؤامرة خسيسة .. كان المقدم فيصل الغانم رأسها المدبر وعرابها الخبيث . وكان أبو عوض من جانبنا أداتها القذرة وذيل الثعبان الذي يتحرك لمصلحة الرأس الخبيث بكل خسة ولؤم . ولم تمض مدة من الزمن حتى تبين لنا كيف أن الغانم هذا قد نظم خارج

أسوار السجن شبكة من مصاصي الدماء ترأستها أمه نفسها التي كانت تتولى تنظيم زيارات لنخبة من أهالي المعتقلين الموسرين للإجتماع بأبنائهم في سجن تدمر مقابل مبالغ طائلة من المال . لكن ذلك لم يكن يشبع جشع الرجل ، وكان ينظر إلى الأموال التي يأتي الأهالي بها لأبنائهم المعتقلين عساها تدفع عنهم بعض الشر أو المعاناة .. فيراها غنائم مغرية يسيل لها لعابه . ولذلك وحتى يضمن الغنيمة كلها أنشأ شبكة ثانية من العملاء والأجراء داخل السجن مهمتها امتصاص تلك الأموال بطريقة أخرى . كان أبو عوض مخلبها القذر بيننا .. فعرف عن طريقه احتياجاتنا ورغباتنا وحالتنا .. وفي سبيل ذلك كانت خطبته العصماء تلك ، وكانت سلسلة القرارات الإستثنائية التي أحاطت بها .

وهكذا اتجهت الحال بعمومها نحو تغير نسبي . فبات التعذيب نوعياً بدل أن يصيبنا في كل غدوة وروحة . وصار الشرطة يسمحون لنا بالخروج إلى التنفس مفتوحي الأعين نتنعم بالشمس من غير ضرب كثير ولا تعذيب . ثم لا يلبثوا وأن يقوموا بين كل أسبوع وآخر بتعويض السجن كله بحفل شديد مفاجىء من التعذيب ، بحيث يبقى الكل منضبطين يحسبون للحفل القادم ألف حساب . وأما المحاكمات والإعدامات فلم تتأثر بكل هذا الذي يجري ، وظل شبح الموت مخيماً علينا يتخطف الزهرات من بيننا ويطبق على أعناق الشباب الغر ونحن لا نملك في رد ذلك حولاً ولا قوة .

آخر الأنفاس !

وفي ليلة من تلك الليالي كنت أنام بجانب الأخ مأمون الذهبي . وكان المسكين قد أصيب بالمرض فتدهورت صحته بشكل متسارع ومريع . حتى بات وهو الذي كان لاعب كراتيه مفتول العضلات قوي البنية لا يقدر على مغادرة فراشه . ليلتها وفي ساعة متأخرة نام كل من في المهجع ونمت معهم ، مد مأمون يده الواهنة نحوي وجعل يهزني حتى استيقظت . فلما سألته ما به قال لي رحمه الله :

صدري يؤلمني .. اقرأ لي عليه .

فوضعت راحتي على صدره وجعلت أقرأ من الآيات والأدعية المأثورة . حتى إذا سكن وخلته نام عدت إلى

النوم من جديد . فلما دنا الصباح صاح فينا أبو عوض كعادته :
الكل استيقاظ .
فقمنا كلنا وبقي مأمون في مكانه تغطي وجهه البطانية ولا يتحرك . فناداني أبو عوض لأوقظه ، فناديته فلم يرد . قال أبو عوض على مشهد من الجميع:
اخبطه برجلك ليفيق .
فكشفت عن وجهه وناديته لينهض . فلما حدقت وجدته قد فارق الحياة . قلت وأنا أكاد أحس آخر أنفاسه لا تزال تتسارع على راحتى :
هذا مات يا زلمه !
فلم يهتز لأبي عوض شعرة ، ولم يزد عن أن مضي ليخبر الشرطة بحالة وفاة جديدة في مهجعه . وهرعت أنا فسحبت مأمون بمساعدة الإخوة فأدخلناه الحمام وغسلناه . ولم يلبث "البلدية" أن حضروا فأخذوه ومضوا .

مملكة الوهم !
ونمت مملكة أبي عوض الواهية .. فخصصت له إدارة السجن مكاناً يديره كمتجر أو دكان بقالة كان يبيع فيه السجناء الشاي والخضار والفاكهة والإحتياجات الرئيسية التي كانوا محرومين من معظمها ويقبض على ذلك أفحش الأثمان ! وفي نفس الوقت كان فيصل الغانم يترصد الزوار فيخضعهم كالعادة للتفتيش . فإذا أرادوا أن يعطوا أبناءهم مبلغاً من المال كان له نصيب مباشر فيه . وإذا أحضروا لهم ملابس أو حاجيات أجاز دخول بعضها وصادر بعضها الآخر بحجة أو بأخرى .
فيحمل أبو عوض الأشياء التي صودرت ويدور بها على المهاجع ويبيعها للمساجين أيضاً . وهكذا تصب كل الأموال التي أحضرها الزوار المساكين في جيب مدير السجن وشركاه . ولم تكن بيدنا حيلة لوقف هذا الإستغلال المكشوف . وكنا نشتري أغراضنا المسروقة من غير تردد . ففي حالنا البئيس ذاك كنا بحاجة لأي لقمة طعام نتقوى بها أو قطعة ملابس تقينا الحاجة والبرد وتخفف عنا ولو بعض تلك المعاناة .
وهكذا اغتنمنا جشع أبي عوض وحالة الرخاء الظاهر تلك ، فأقبلنا ابتداء على توثيق علاقاتنا داخل المهجع أكثر

وقد أمنا مداهمات الشرطة من فوق الشراقة إلى حد ما . وصرنا نتعرف على أحوال بعضنا البعض ، ونتبادل الحكايا والخبرات والمعلومات . ونضاعف همتنا لحفظ سور القرآن الكريم وآياته . وفي هذا السياق صرنا نُخَرِّج حفظة كتاب الله مجموعة إثر مجموعة ، ونعد لذلك حفلاً كبيراً نوفر له من الطعام أو الحلوى التي تصلنا من الزيارات أو من مخصصاتنا اليومية طوال أسبوع أو اثنين . فينال أبو عوض حصة الأسد منه ليسكت عنا ويأذن لنا ، ونوزع البقية علينا احتفالاً بالإخوة الحفظة وتكريماً لهم .

سماح !

كذلك استفدنا من ظرفنا الإستثنائي ذاك فصرنا نشتري من بضائع أبي عوض المسروقة أشياء ما ونرسلها مع رسالة مختصرة إلى إخوة أعزاء في مهاجع أخرى . وكنا نتلقى بنفس الأسلوب ردودهم وهداياهم . وعن هذا الطريق صار الإخوة يتأكدون من وجود فلان أو إعدامه . وعن نفس الطريق وصلني إلى مهجع السل أواخر عام 1983 إبريق شاي من أبي الفضل الذي انتقل إلى مهجع آخر بعد مدة يلمح لي به أنه حكم بالإعدام . وكان قد كتب لي على الإبريق يقول : إلى محمد سليم .. محمد جمال سماح . فعلمت أنه يطلب المسامحة لأنه راحل عما قريب . وبالفعل فلم تمض بضعة أسابيع حتى بلغنا أنه أعدم رحمه الله .

وفي المقابل كان أبو عوض ينتفخ وينتشي بالوهم وبعض سقط المتاع . ولقد سمعنا أنه طلب من المساعد أن يسمح لأهله بزيارته مرة فسمح لهم . وتردد أنه هرّب مع أخيه الذي زاره نقوداً من تلك التي جمعها من تجارة الحرام التي امتهنها ، لكن علم ذلك عند الله . وأما ما علمناه نحن ورأيناه فكان آية من آيات الله بالفعل . فلم تمض على هذه المظالم مدة من زمن حتى رأينا الدائرة تدور على أبي عوض ، وينتقم الله من أفعاله الشنيعة شر انتقام . وسيأتي الحديث عن ذلك لاحقاً بإذن الله .

الحزبية الإقليمية !

لم تكن حياتنا في السجن ملائكية أو مثالية . فبينما كنا أيام الشدة نزداد قرباً إلى الله وتجرداً وتلاحماً كنا إذا طال علينا العهد نرتد إلى أصولنا وخلفياتنا ومشاربنا

الشتى . وبعد أن مضت هذي السنون علينا يضمنا مهجع موحش باطنه عذاب وظاهره أشد وأنكى . ومع اختلاط الإنتماءات وتعدد المشارب بدأت تظهر بيننا في فترة الإنفراج النسبي تلك اختلافاتنا المذهبية والتنظيمية والإقليمية معاً !

ولقد ظهر ذلك أول ما ظهر حينما استطعنا أن ننظم بعض الدروس الهادئة إذا سنحت الظروف وأمنا الحرس من فوقنا ومن حولنا . فوجدنا الإخوة لم يلبثوا أن أخذوا يتكتلون فرقاً وجماعات تتجادل في البداية حول قضايا المذهبية واللامذهبية .. والإتباع والإبتداع .. وما يندرج تحت هذا الباب من جدل أنهك الأمة قروناً ولم ينته لصالح أحد ! حتى أن الإخوة صاروا يختلفون على الأذان الذي يبلغنا من وراء أسوار السجن قادماً من منارة مسجد مدينة تدمر . وكان وجه الخلاف حول مشروعية الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام جهراً في خاتمة الأذان !

وسرعان ما أخذ الخلاف الذي استشرى مأخذ الحزبية التنظيمية . وطفت على السطح اختلافات تنظيم الإخوان التاريخية بين دمشق وحلب . أو بين جماعة الأستاذ عصام العطار وجماعة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة . واستطاع الإخوة الحلبيون وفق ما رأيت أن يجرّوا الدمشقيين من دائرة الإختلاف التنظيمي إلى دوامة الخلاف المذهبي . وأشاعوا بيننا أن الدمشقيين سلفيون لا مذهبيين . وانعكست هذه الصراعات المقيتة على السجناء كلهم فآذتهم وأرقتهم . وآذت أكثر ما آذت الحياديين وغير المنظمين أصلاً . ورأى هؤلاء في هذا الخلاف أسوأ صورة للجماعات والتنظيمات الإسلامية كلها . ورأيتنا نعود بجدليات الطرفين المتعصبين إلى القرون الوسطى ونتفرق في قضايا لا يبنى عليها عمل أساساً .

وتطور الأمر بسرعة .. أو فقل ارتد الناس إلى خلفياتهم وتشوهاتهم التي أتوا منها ! فبعد أن انتقل الخلاف من الفكر والمذهبية إلى الحزبية التنظيمية انتهى الأمر بسقوط الأطراف جميعاً في وحل الإقليمية الضيقة ! فتكتل السلفيون الموالون للأستاذ عصام في تكتل دمشقي . وأخذ المذهبيون الحلبيون الموالون للشيخ عبد الفتاح طرفهم الإقليمي . واستغل

الحمويون التابعون للأستاذ عدنان سعد الدين القضية ليجمعوا الحمويين في كتلة ثالثة ! وانعكس ذلك على المهجع أسوأ انعكاس . وتفرقت القلوب شتى .
وانعزلت كل كتلة في دائرة مغلقة تجاور الدائرة الأخرى والثالثة ولا تتداخل معها .. رغم أن المحنة لم تكن تفرق بين أي من هذه الكتل وأصحابها .
ولم تلبث أن تعقدت الأمور أكثر حينما نشأ تيار تكفيري فيما بعد نتيجة هذه الضغوط وتلك الفتن معاً ، فازداد الطين بلة .. واشتد التعصب والتعنت .. وامتدت أحكام التكفير لا لتشمل النظام وأركانه وأعوانه وحسب ، بل كل من لم يلتزم بالفكر التكفيري وقيادته ومنهجه !

السل
كانت أبدان السجناء قد أنهكت إلى أبعد الحدود بعد سنين من العذاب المستمر والجوع والحرمان والعيش في أسوأ الظروف الصحية والنفسية . وعلى الرغم من هذا الإنفراج الظاهر الذي حدث إلا أن الوقت كان قد فات . وبدأ عدد الضحايا يرتفع من جديد .. وتزايدت حالات الوفاة المرضية والإصابات المزمنة ، حتى مات من مهجعنا وحده قرابة الأربعة عشر أخاً لم ندر إلا بعد أن قضوا رحمهم الله أن الذي أصابهم حقيقة الأمر كان مرض السل . وعندما تطورت معرفتنا بهذا المرض الخبيث ووجدنا من يفقهنا في أعراضه وأشكاله علمنا أنه لا يصيب الرئة وحسب ، وإنما هناك سل يصيب الأمعاء وسل بالكلى وثالث بالعظام ورابع وخامس . ولم يكن في مهجعنا حتى تلك الفترة الطبيب المتخصص الذي يقدر على تشخيص الداء ، مثلما لم يكن لدينا العلاج المطلوب حتى إذا علمنا به واكتشفناه .
وواقع الأمر فإن مرض السل تم اكتشافه منذ عام 1982 في المهجع 5-6 بالباحة الأولى . وهو واحد من أقدم مهاجع سجن تدمر . كبير المساحة مظلم الجنبات شديد الرطوبة . ولقد قدر أن يكون أحد نزلائه الطبيب محمود العابد من حماة ، الذي كان أحد أطباء قسم الأمراض الصدرية في إحدى مستشفيات حلب . لكن الإخوة وقتها ومن خوفهم من بطش الشرطة وإحساسهم بانعدام التجاوب أو الإهتمام لم يبلّغوا عن المرض . فلما لاحظت إدارة السجن ازدياد الوفيات وتوافق ذلك مع حالة

الإنفراج العامة تلك فتحوا للمسلولين مهجعاً خاصاً في الباحة الرابعة هو المهجع 23 .
ونعود إلى مهجعنا 26 الذي بات الآن في عهد ولاية أبي عوض القسرية عليه أحد مهاجع السجن الخاصة إن لم يكن أخصها جميعاً . وأما السبب فكان - كما ذكرت - اتفاق إدارة السجن مع أبي عوض على تحويل السجناء الموسرين وأصحاب الزيارات والواسطات إلى مهجعنا ليكونوا تحت عينه ورقابته الدائمة .. وتكون الزيارات والنقود التي يرسلها أهاليهم المساكين أدنى إلى جيب أبي عوض وأسياده من جيوب أصحابها أنفسهم !
وفي هذا السياق وضمن عمليات النقل والتحويل جاء إلى مهجعنا مجموعة من الإخوة الدمشقيين أذكر منهم محمد الحوراني ، وسليم الأسد ، وعدنان المؤيد ، وأخ من بيت دبش وغيرهم . وكان سليم الأسد طبيباً من دمشق نقل من مهجع 5-6 بعد أن تعلم من الدكتور محمود العابد هناك فحص المسلولين وتشخيص إصابتهم . ونقل لنا وقتها نبأ اكتشاف إصابات سلية بين السجناء . وأخبرنا عن تخصيص مهجع 23 للمسلولين ، وأن أخاً آخر هو زاهي عبادي من دير الزور والذي كان في سنته الرابعة بكلية الطب تطوع للذهاب إلى نفس المهجع والإشراف على إخوانه المسلولين ، ثم لم يلبث رحمه الله أن أصيب نفسه بالمرض عن طريق العدوى .
وفي يوم من الأيام كنا في التنفس أنا والأخ صبحي بركات أحد أفراد مجموعتي ففوجئت به يستند إلى ذراعي بادي الإجهاد ، وقال لي وهو لا يقوى على إخراج الكلمات أنه يحس بالغثيان وبالدوار ولا يقوى على الحركة . فطلبنا له من الرقيب إذناً بدخول المهجع . وهناك لم يلبث الأخ صبحي أن تقيأ وسقط محلول القوى . وعندما عدنا من التنفس فحصه الأخ سليم فتبين له أنه السل . وعندما حضر الشرطة وأخبرناهم أسرعوا ونقلوه إلى المهجع 35 في الباحة السابعة والذي خصص بدوره في تلك الفترة للمسلولين بعدما ضاق بهم مهجع 23 .
ومر شهر آخر وإذ بي أجدني أعاني من الأعراض نفسها : ارتفاع في الحرارة ، وقلة شهية للطعام .. وسعال وتعرق وإجهاد متزايد . وبعد أسبوع من المعاناة فحصني الأخ الطبيب سليم أسد فوجدني أصبت بالسل أيضاً .

وعندما أخبر إدارة السجن بذلك نقلوني بدوري إلى مهجع السل ، وكان ذلك في الشهر السادس من عام 1983 وبعد أيام قليلة من محاضرة فيصل الغانم العامة أمام السجناء .

جرعة العذاب !

دخلت المهجع 35 في الباحة السابعة فوجدت ويا لهول ما وجدت ! أكثر من مائة من الإخوة ألقى المرض بكلكله عليهم فسلبهم نضارة الحياة وسمت العافية . فهذا لا يكف عن السعال وفي يده علبة صفيح صدئة يبصق فيها البلغم والدم . وذاك يتقيأ بين فينة وأخرى ولا يستطيع أن يمسك نفسه . وثالث أصاب السل كليتيه فانتفخ جوفه وكأنه امرأة حامل ! ووجدت المصاب بسل الخصيتين ، وسل العظام ، وسل السحايا ، وسل الرئتين .. وكان على كل أولئك وعلي أن نستخدم الحمام نفسه وأن ننام متجاورين نتبادل العدوى ونتلقاها شئنا أو أبينا .

ولقد كنت أظن أو أؤمل أن تكون ظروف مهجع المسلولين أفضل من غيرها ، لكنني وجدت الأمور كأنها لم تتغير . فالبطانيتان اليتيمتان والعازل على حالهم .. والشراقة والنوافذ المفتوحة كتلك التي في بقية المهاجع . والحرس على الباب وفوق المهجع يروحون ويغدون . وهناك برنامج غير منقوص من التفقد إلى التنفس إلى سوء الطعام ورداءة الظروف . وعندما نكون في الساحة أو يرى الشرطة منا ما لا يسرهم كنا ننال من الضرب والجلد والعذاب ما لم يختلف عن ذاك الذي يناله الإخوة الأصحاء في مهاجع أخرى . ولعل ميزة المهجع الوحيدة كانت في نزلائه المسلولين جميعاً .. وفي جرعة الدواء التي خصونا بها وحسب ! وحتى جرعة الدواء تلك كانت أداة تعذيب وابتزاز لنا .. فلا يكاد ينقضي شهر على توفرها حتى تنقطع وتغيب أسبوعين أو عشرة أيام . فإذا عادت جعلنا نتخوف انقطاعها ونترقب وصولها فنزداد قلقاً على قلق وعذاباً على عذاب .

وهكذا ، ومع اضطراب تعاطي الدواء واستمرار سوء التغذية وقساوة الظروف استمر الإخوة يتساقطون موتى واحداً بعد الآخر حتى عددت أكثر من عشرين أخاً

ماتوا من مهجعنا نحن فقط . ومن هؤلاء أذكر الآن أخاً من حمص اسمه عبد الرحمن فليطاني ، وآخر اسمه عبد الساتر مصطفى من نفس المدينة . ومصطفى المصطفى من قرية منخ قرب مدينة حلب . وآخر اسمه الأول مصطفى من حلب أيضاً .

نوبة قلبية

ومن شهداء مهجع السل أيضاً تحضرني قصة الأخ محمد حسن عجعوج من حماة الذي كان من جماعة الشيخ مروان حديد الأوائل. والذي قامت المخابرات السورية باعتقاله من لبنان بعيد اعتقال الشيخ مروان ، وأودع سجن المزة مع بقية من اعتقل وقتها . ومع تطور الأحداث وتصاعد موجات الإعتقال في بداية الثمانينات نقل الأخ حسن إلى سجن تدمر بعد المجزرة الكبرى التي حدثت هناك . وتنقل من مهجع 9 إلى مهجع 11 لألتقيه وقد أصابه السل آخر الأمر في مهجع 35 .

وهناك وفي يوم من الأيام وصل محمد حسن عجعوج نبأ استشهاد أسرته جميعاً أثناء أحداث حماة قبل أقل من عام . وسمع بأن واحداً من اخوته سُحِلَ في شوارع المدينة سحلاً . فلم يتمالك رحمه الله وأصيب بنوبة قلبية قضت عليه .

وصار أمراً اعتيادياً بيننا أن ننادي الشرطي صباح كل بضعة أيام ونخبره بوفاة أحد المرضى ، ثم نلتفت إلى برنامجنا ذاته نكاد لا نحس تجاه الأخ الفقيد بالحسرة قدرإحساسنا بالغبطة أن قبضه الله إليه فاستراح من هذا العذاب

هستيريا

ومن مشاهد مهجع السل التي لا تنسى مشهد الأخ بسام الحافظ من حمص الذي فقد القدرة آخر الأمر على تحمل كل هذه العذابات والضغوطات النفسية وما عاد يقدر على تلقي المزيد . فوجدناه في ليلة من الليالي ينهض وسطنا وقد احمرت عيناه فكأنما هما من دم أو نار وراح يطلق عقيرته بالصراخ والعويل . وكان الإخوة كلما حاولوا تهدأته ازداد انفعالاً وتأزماً .

ودخل الشرطي المناوب يستطلع الأمر ، وأمر المسؤول الصحي الأخ زاهي عبادي أن يسكته بالقوة . فلم يجد

الأخ إلا أن يعطيه إبرة مسكنة هدأته بالتدريج . وفي الصباح نادى الشرطي المسؤول الصحي ليخرج هذا الأخ إليه . فلما خرج المسكين انهال الشرطة عليه ضرباً وجلداً وأعادوه يكاد يسلم الروح . لكنه وعندما حل المساء عاد وانتفض وكرر ما حدث ليلة الأمس . فعاد الأخ زاهي وأعطاه إبرة ثانية مهدئة . وعندما أتى الشرطي من جديد رجاه أن هذا السجين مصاب بالهستيريا ولا يملك من أمره شيئاً . ووعده أن يبذل أقصى جهده لتهدأته وعلاجه . بعدها طلب زاهي منا أن نكف عن محادثة الأخ بسام . ونصبوا له في زاوية من زوايا المهجع ما يشبه الخيمة وأجلسوه فيها . وظل المسكين قرابة الشهرين معزولاً عنا لا يكلمنا ولا نكلمه بشيء .. أخذ خلالها يتحسن بالتدريج . ثم جرى نقله بعدها إلى مهجع آخر ولم نعد ندري ما الذي انتهت به الحال إليه .

ألفية ابن مالك !

ومضت مسيرة العذاب .. تنهش المحنة من أجسادنا المنهكة وتقتات واحداً منا بعد الآخر ولا تشبع . ولم يكن أمامنا من باب نلتجىء إليه غير المولى تبارك وتعالى .. نتقوى به على محنتنا ونتعالى بالإلتجاء إليه على كل الجراح والعذابات .

ولقد كانت النفوس تضعف حيناً ، وتتقوى من ثم أحياناً أخر . لكن نفسياتنا تفوقت على أجسادنا ولله الحمد . وتمكنت من الثبات أغلب الأحيان حتى ولو انهارت الأبدان وتهتكت الأجساد . فكنا كلما خبت الهمم أو انتكأت الجراح نشد من عزم بعضنا البعض بالدعاء والصلاة والتبتل إلى الله سبحانه وتعالى . ندعوه مع كل فتحة باب ، ونشكره كلما أغلقوا علينا الباب نفسه وبقينا سالمين ! وبعدها وإذا أحسسنا ببعض الأمان عدنا إلى برامجنا التي باتت غذاء أرواحنا ورواء قلوبنا .. درّتها كتاب الله الكريم . حتى إذا أتقن واحدنا حفظه التفت إلى من حوله من إخوانه فتعلم منه ما لديه من علم مفيد . فقه كان أو تجويد أو لغة عربية أو متون . فإذا أنهاها مضى يلتمس تعلم اللغة الإنجليزية أو الفيزياء أو الكيمياء .. وكل ذلك عن طريق المشافهة .

وأما أنا وبعد أن أتقنت حفظ القرآن الكريم كله بفضل الله عكفت على دراسة المتون ، وكان شيخي في ذلك أخ من حلب جزاه الله خيراً كان متقناً لحفظ المتون . فأخذت عنه البيقونية والجزرية والرحبية .. ومن ألفية ابن مالك حفظت حوالي 650 بيتاً ولله الحمد . وظهرت في هذا السياق مواهب وعجائب .. فكان بعض الإخوة يحفظون سيرة ابن هشام ويدرسونها لإخوانهم الآخرين . فلما اتقنها جمع منهم حولوها إلى منظومة أيضاً بالغة الإتقان

التدمري الشهيد

ومن المواهب الفذة التي ظهرت بين السجناء أخ شاعر نظم مجموعة من القصائد الرائعة كنا نتناقلها بين المهاجع ونحفظها عن ظهر غيب . ولقد بلغنا أن الأخ حكم عليه بالإعدام ونفذ الحكم في كل المجموعة التي حوكمت معه ولم يصل الدور إليه .. ففجر ذلك كما يبدو موهبته الكامنة ، وجعله ينطق بمعاناتنا جميعاً من خلال قصائده الرائعة . ومما لا أنساه من تلك القصائد واحدة أهداها إلى إخوانه في مهجع السل يقول فيها :

سيشرق وجهك خلف الظلام
وصدرك ينزف خلف الحديد
وما كاد يثنيك حقد اللئام
فيا أيها التدمريالشهيد
عليك السلام عليك السلام
. . .
أخي إنا بعد الأذى والهوان
سنعلو على الخلق إنساً وجان
لنا الصدر أو منزل في الجنان
وبعد الأعاصير والزلزلة
كأن فؤادي غدا قنبلة !

راحل عنك ..

كذلك فجرت المحنة موهبة شعرية أخرى في أخ من حلب كتب قصيدة يناجي فيها والدته من خلف القضبان . فتلقاها أخ آخر من مهجعنا برزت موهبته الفذة في تلحين القصائد وإنشادها . فصارت القصيدة لحناً يتنقل

على شفاه السجناء من مهجع إلى آخر ومن قيد إلى قيد .. فتشتد بها العزائم وتعلو بكلماتها النفوس :

عندما جاءت يفيض الود منها والحنين
تطرق الباب وفي دقاتها لحن حزين
أتراها تطلب الوصل وترجو أن ألين
أم تراها ظنت القيد يهز الصامدين ؟
. . .
قلت والثورة في نفسي أعاصير تجول
حسبي الله ربي ونعم الوكيل
وحملت الزاد والرشاش وقررت الرحيل
وعلى الباب بقايا من عبارات تقول
. . .
راحل عنك أقاسي من جراحي وأسافر
لا أبالي بالمنايا وعلى الطغيان ثائر
أتحدى ظلمة الليل وأحيا لأقاتل
علمتني صحبة القيد وأنغام السلاسل
أن دين الله لا ينهض إلا بالقنابل
. . .
راحل عنك أغني للسواقي والبيادر
أملؤ البيداء نوراً ونشيداً وبشائر
ورصاصي للطواغيت إلى النار تذاكر
في سبيل الله ماض تابعاً نهج الأوئل
علمتني صحبة القيد وأنغام السلاسل
أن دين الله لا ينهض إلا بالقنابل .

أنا بعثي !
ولقد كان من ميزات مهجع السل أيضاً اختلاط انتماءات نزلائه وتعدد الإتجاهات التنظيمية والسياسية فيه . فبعد أن كان سجناء مهجع 26 من تنظيمات إسلامية أو من المحسوبين عليهم جميعاً وجدنا أنفسنا في مهجع السل 35 متجاورين مع سجناء من تنظيمات يمينية موالية للبعث العراقي . ورغم أنني وبقية الإخوة كنا ولا نزال نتعاطف مع أي مظلوم امتدت سطوة النظام فسلبته حقاً أو زادته رهقاً ، إلا أنني رأيت أولاء البعثيين في أغلبهم مجرد منتفعين مصلحيين من فلاحي منطقة الجزيرة . جاء البعثيون العراقيون إليهم فاستغلوا

فقرهم وحاجتهم وبساطتهم وأمدوهم بالمال فأصبحوا يعبدون رب هذا المال ليس إلا ! ولقد تسبب لنا هؤلاء للأسف بمزيد من المعاناة ، وكانوا مصدر إزعاج حقيقي لبقية المهجع . ورغم أن عددهم تراوح بين عشرة وخمسة عشر إلا أنهم أساؤوا للمجموع مرات كثيرة . فرغم المحنة التي أصابتنا جميعاً إلا أنهم كانوا لا يكفون عن النظر إلينا والتعامل معنا كأعداء تاريخيين .. وكانوا لا يتورعون عن وصفنا رغم كل الذي حصل ويحصل بالرجعية ! ولذلك استباحوا أن يفسدوا علينا للشرطة وإلى حد الإفتراء . فكان أحدهم إذا عنّ له خرج من المهجع وتوجه إلى الرقيب أو الشرطي وابتدره بالقول :

سيدي أنا بعثي .
وجعل بعد ذلك يخبره أننا ننظم داخل المهجع دروساً ولنا من بيننا شيخ نتبعه .. وأننا ندعو في دروسنا في المهجع إلى الجهاد ! ولطالما تسبب ذلك في إخراجنا جميعاً إلى الباحة لننال عقوبة جماعية بسبب هذه الإفتراءات .
ولا زلت أذكر من أسماء أولئك اليمينيين واحدا اسمه حسين الحافظ ، وآخر اسمه يعقوب يعقوب ، وثالث لقبه أبو علي .. كانوا كلهم من هذه الشاكلة . وأما من كان صاحب فكر ووعي من اليمينيين على قلته فقد تحول إلى الحق وأعرض عن سفاسف مجموعته منحازاً إلى الإسلام ، وشهدنا منهم من هذا النموذج من أحجم عن ذكر اسمه الآن سائلاً الله له السلامة والثبات .

الشيوعيون المدللون !
وإذا كان هذا هو حال البعثيين العراقيين معنا فإن الشيوعيين الذين أحسسنا بوجودهم عام 84 كانوا في منزلة أخرى . ففي ذلك العام تم نقل الأخوات السجينات في مهجع المستوصف إلى سجن آخر . ولقد أحسسنا ذلك من خلال توزيع السخرة . فوقتذاك وفي ظل الإنفراج النسبي أوكلت إلينا مهمة توزيع الطعام على مهاجع الباحتين السادسة والسابعة ، وكان المستوصف ضمن هذا النطاق . لكن "البلدية" الموكلين بجلب الطعام أعلمونا في يوم من الأيام بالتوقف عن

تقديم السخرة لمهجع المستوصف . وكنا قبل يوم مضى قد لمحنا رتلاً من النساء يغادر المهجع وقد قارب عددهن العشرين أو زاد عليه ، فأدركنا أنهن غادرن هذا المكان ، وسألنا الله تعالى لهن ولنا الفرج والنجاة .
فلما خلا المكان أتوا بالشيوعيين إليه . فكنا نلمحهم بعض الأحيان ونسمع بوجودهم . ولما انتقلت إلى مهجع 29 لاحقاً صرنا متجاورين على باحة واحدة . وأصبح من الممكن لي أن أراهم بشكل متواصل وأطلع على وضعهم مباشرة . وكان أمراً مثيراً للعجب أن حالتهم كانت تختلف عن كل بقية السجناء تمام الإختلاف .
فكانوا يطلقون شعورهم .. ويخرجون للتنفس بشكل دائم . ويتحدثون فيما بينهم ومع الشرطة بحرية كاملة .. ويدخنون ويطبخون ويستقبلون الزيارات بشكل متواصل . ولم نرهم يعذبونهم أو يضربونهم أبداً .. ولم نسمع بتنفيذ أحكام بالإعدام فيهم . ولم يكن عددهم يجاوز الأربعين .

مصيدة الطليعة !
ومضت الأيام ظاهرها الإنفراج وحقيقتها لؤم صرف وجشع وخسة تعصرنا من كل جنب عصراً . وخلال ذلك لم تتوقف دفعات القادمين الجدد إلى المهاجع مثلما لم تتوقف عمليات الإعدام . وكلما أخذوا من السجناء مجموعة للإعدام أحضروا مجموعة من المعتقلين الجدد بدلاً عنهم . لكن الحدث الجديد الذي زاد الطين بلة والعذاب عذاباً وقتها كان نجاح النظام في استدراج مجوعات من تنظيم الطليعة إلى سورية واعتقالهم جميعاً في خطة محكمة أوقعت عدنان عقلة نفسه بين أيدي المخابرات .
وكان استقبال شباب الطليعة غاية في الوحشية والفظاعة . وفي البداية تم عزلهم في مهجع خاص بهم صبوا عليهم فيه ما لا يوصف من العذاب .. حتى سلخوا جلودهم وهشموا أطرافهم وتركوهم من غير علاج يعانون أشد المعاناة .. إلى أن تعفنت أرجلهم المتقيحة وتفتحت جروحهم المتعفنة وسرت فيهم الغانغرينا فقضت على عدد غير قليل منهم . وبعد مدة وزعوا من بقي من هؤلاء الإخوة على بقية المهاجع ، كان منهم أخ من حلب التقيته اسمه أيمن عنجريني تم إعدامه فيما

بعد . وآخر لم ألتقه ولكنني سمعت عنه وبلغني أنه أعدم بعدها وهو طاهر العلو من قرى حلب . ومن هؤلاء سمعنا بما جرى .. وبلغتنا أخبار الأحداث بالترتيب .. بدءاً بالشَرَك الذي أوقعهم فيه النظام عبر عميل مدسوس في صفوف التنظيم اسمه محمد جاهد دندش ، وانتهاء بوحشية التعذيب الذي لاقوه قبل أن ينقلوا إلى مهاجعنا .

وملخص ما حدث مع تنظيم الطليعة الذي توزع أكثر أعضائه بين الأردن العراق بعد أحداث حماة أن قيادته قررت العودة إلى الداخل لمعاودة بناء قواعدها وبدء مواجهة جديدة مع النظام . فالتقط جاهد دندش هذا الخيط وأوحى للطليعة أنه قد أمن لهم الطريق الآمنة والأدلاء الخبراء لإيصال العناصر إلى حلب . وبدء نزول الشباب عن طريق الحدود التركية السورية مجموعة بعد أخرى يتقدمهم عدنان نفسه . كان جاهد والمخابرات السورية يستقبلونهم أولاً بأول دفعة وراء دفعة ويرسلوا إلى قيادة الطليعة في الخارج الإشارة المتفق عليها فيما بين النازلين والقيادة إشعاراً بسلامة الوصول . حتى اكتمل نزول قرابة السبعين أخاً سقطوا جميعاً بين أيدي النظام لا حول لهم ولا قوة .

ولم نعلم عن مصير عدنان عقلة نفسه شيئاً مؤكداً ، إلا أن بقية الإخوة تنقلوا من فرع العدوي إلى التحقيق العسكري فتدمر . وزاد من معاناتهم ومعاناتنا معاً أنهم كانوا شديدي الإنغلاق على أنفسهم مثلما كانوا شديدين وجريئين في أحكامهم على قيادات الإخوان وتقييمهم لهم . وكانوا بعد هذا الإحباط الذي أصابهم والمشاكل التي عانوا منها من قَبْل مع قيادة الإخوان لا يتورعون عن وصمهم بالخيانة والعمالة ، ويحملونهم مسؤولية ما آلت إليه الأوضاع في حماة وفيما قبلها وبعدها . الأمر الذي استفز عناصر الإخوان في المهجع وهم يرون قياداتهم التاريخية ورموز تنظيمهم تجرّح على الملأ ، وأحدث بيننا سبباً جديداً للقلق وللتوترات .

تصفيات جماعية

وما لا ينسى من أيام عام 1984 المريرة أننا شهدنا فيها أحد أكبر عمليات الإعدام الجماعي إن لم تكن أكبرها على الإطلاق . فبعد انقطاع تنفيذ الأحكام عدة أشهر

في تلك الفترة فوجئنا بالمشانق تنصب ذات يوم في الساحة السادسة بأعداد كبيرة ،وراح الزبانية يخرجون من الإخوة المعتقلين فوجاً إثر فوج إلى حتفهم . يومها قدّر الإخوة الذين تمكنوا من مشاهدة جانب مما يجري من خلال شق في الباب عدد الذين أعدموا بمائتين من غير مبالغة ، كان من بينهم كما بلغنا الأخ يوسف عبيد من دمشق . ومع تسرب الأخبار فيما بعد قدرنا أن تلك الإعدامات ترافقت مع حالة النزاع التي حصلت بين رأسي النظام حافظ الأسد وأخيه رفعت ، والتي شهدت حشودات عسكرية حقيقية بينهما . وفسرنا ما حدث بأن رفعت كان يهيؤ نفسه لاستلام الحكم بعد المرض الذي ألم بأخيه ، ولذلك أراد أن يصفي أكبر قدر ممكن من السجناء وينهي كل خطر مستقبلي محتمل .

المدير الجديد !

ولكن الأخ الأكبر تعافى بقدرة قادر ، وعاد يمارس سطوته على البلاد والعباد ، وهاله أن يجد النخر دبَّ في أركان النظام وبين رؤوسه المقربين ، فبدأ - مثلما تسرّب بعد ذاك - حملة تطهير وإعادة توزيع للأدوار .

وفي هذا السياق طالت التغييرات إدارة سجن تدمر ، ووجدنا الشرطة العسكريين يطلبون رؤساء المهاجع لاجتماع مشترك في شهر تشرين الأول من عام 1984 . وذهب رئيس مهجعنا فيمن ذهب ، فلما عاد بعد قليل ونحن متلهفون لسماع الأخبار أخبرنا أن مدير السجن قد تغير ، ورحل معه مساعد الإنضباط وسمسار الضحايا محمد الخازم . وأن المدير الجديد هو مساعده ونائبه النقيب زكريا العش . وأنه اجتمع بهم وهم مغمضو العيون وحذرهم من أن التراخي الذي ساد في الفترة الماضية قد انتهى .. وعاد النظام الآن وعاد الإنضباط . ورجع نظام إقفال العيون أمام الشرطة .. والويل كل الويل للمخالفين!

ولم تمض برهة من الوقت ونحن لم نكد ننتهي من أسئلتنا وتساؤلاتنا بعد حتى حضر الشرطة لأخذ التفقد . فصاحوا فينا فور دخولهم أن نغمض أعيننا ونقف بوضع الإستعداد . وما لبثوا أن ساقونا إلى خارج المهجع وانقضوا علينا ضرباً وصفعاً وجلداً حتى سلخوا جلودنا . وبدأنا من يومها مرحلة جديدة من الشدة والعذاب . وعاد

التفقد الصارم والتنفس المقيت والقتل والتعذيب والإهانات . وكان الإعفاء الوحيد للمسلولين من الحمام رحمة تقينا عذاب تلك الساعة ، لكنهم سرعان ما عوضوها بمضاعفة العذاب علينا في التنفس !
وتوقف بث الإذاعة عنا من حينها . وصدر الأمر من ذلك الوقت بتكميم أفواه الخارجين للإعدام فلم يعد يسمع لواحدهم قبل أن يطوق عنقه حبل المشنقة صوت ولا تكبير . وعاد البطش أشد علينا من السابق . ثم لم يلبث أن اشتد أكثر وتضاعف بحضور المدير الجديد اللواء غازي الجهني لاستلام منصبه بعد قرابة شهرين .
فارتفعت وتيرة البطش إلى أقصى درجاتها . وعاد الشرطة إلى ممارسة التعذيب الوحشي من جديد . حتى أنهم أخرجونا في أحد الأيام للتنفس مغمضي العينين كالعادة تلاحقنا السياط والعصي والكرابيج . فكان قدر أخ من حلب اسمه عبد الباسط دشق أن تصيبه ضربة من هؤلاء الزبانية على عينه مباشرة فتفقأها . فعاد المسكين عندما عدنا تغطي الدماء وجهه ، وهو لا يكف عن التقيؤ من شدة ألمه . وعندما دق مسؤول مهجعنا الصحي وقتها الأخ علي عباس من ادلب ليخبر الشرطة بحال الأخ ، لم يجرؤ أن يقول لهم أن أحداً منهم أنفسهم فقأ عينه ، بل اعتذر وسألهم العفو وهو يقول لهم بأن أحداً من مهجعه سقط في الحمام ففقئت عينه !
لكن أحداً لم يبال ، ولم تسفر المحاولات المتكررة عن شيء . وحينما تكرم طبيب السجن وحضر لمعرفة سبب شكواه بعد يومين أو ثلاثة لم يزد عن أن أعطاه بضع حبوب مسكنة ومضى . وظل المسكين يعاني عذاباً لا يوصف شهوراً عديدة من غير أن يهتم به من هؤلاء الزبانية أحد .

تأديب !
وعلى الرغم من هذا البطش أو ربما بسببه قام واحد من المعتقلين اليافعين من ادلب من بيت سيد عيسى نزيل مهجع الأحداث 36 بالتصدي ذات يوم لواحد من الشرطة آذاه كما يبدو في الباحة أثناء التنفس فهجم عليه الشاب وضربه . ورغم أن الحادثة كانت عفوية لا تعدو أن تكون ردة فعل انفعالية وحسب ، وعلى الرغم

من أن الشرطي رد عليه وقتها وأشبعه ضرباً ، إلا أن الأمر أخذ بعداً كبيراً . فأدخلوا السجناء إلى المهاجع كلهم ، وحضر مساعد السجن الجديد محمد نعمة بنفسه يحقق في الأمر . وأخرجوا الأخ المسكين فأجلسوه في الدولاب وانهالوا عليه ضرباً وجلداً حتى كادوا يزهقون روحه . وبعدما انتهوا أخرجونا نحن سجناء الباحة السابعة كلنا وضربونا ضرباً مبرحاً حتى يؤدبوننا ويقتلون فينا أي مشاعر محتملة بالتمرد . ولذلك لم يكن الإخوة يردون على أذى الشرطة واعتداءات جلادينا لسببين : فهم يعلمون أولاً أن النتيجة محدودة إن لم تكن منعدمة ، فيما سيكون الخطر متحققاً وغير محدود ، وربما أفضى بالشخص إلى الهلاك . ولخشيتهم ثانياً أن تتسبب أعمال كهذه في إيقاع الأذى ببقية السجناء من غير سبب ولا حاجة . وكان الشعور السائد أننا وقعنا بأيدي الظلمة بقدر الله ، وأننا إذا احتسبنا وصبرنا فهو خير لنا من أن نتسبب لنا ولمن حولنا بمزيد من المفسدة والأذى .

آية الله في أبي عوض !

غير أن الرأي لدى بعض الإخوة كان مختلفاً بعض الشيء كما يبدو . والصبر على هذه الأهوال وقد فاض الكيل انتهى بهم إلى قرار الإنتقام من أجير الإدارة وكلبها الخسيس أبي عوض . الذي بلغ تطاوله مدى لا يسكت عنه .. وتجاوزت وقاحته حدود العفة والأخلاق . فاتفق عدد من شباب المهجع 26 على تأديبه ونفذوا ما اتفقوا عليه . فاجتمعوا وانهالوا عليه ضرباً لم يكن له أن يرده . فلما قلب أبو عوض الأمور وفكر وقدر .. وجد نفسه قد انكشف وتحطمت هيبته الواهية . ورآها كأنما فرصة ترفع منزلته لدى المدير الجديد . فطلب مقابلة الرقيب فجأة وأخبره بأن لديه أخباراً مهمة يريد أن يوصلها للإدارة . ولما سأله عن نوع هذه الأخبار قال له أبو عوض إنه اكتشف وجود تنظيم للإخوان داخل المهجع . فكانت هذه العبارة أكثر من كافية لتستنفر الرقيب والمدير وكل الزبانية على هذه الحفنة من السجناء المساكين . واقتحم الشرطة المهجع على الفور ينتظرون الإشارة ليفتكوا بالمساجين . فلما رأى الإخوة الأمر بهذه الخطورة قرروا أن يقفوا صفاً واحداً في وجه افتراءات

أبي عوض وتسلطه . وجعلوا يخبرون الرقيب بكل مخالفاته وسرقاته والرشاوى التي أخذها والإنحرافات التي أحدثها . وأكدوا له أن اتهامات أبي عوض محض اختلاق . وأنهم أمامه جميعاً مستعدون لتحمل أشد أنواع العقوبات إذا ثبت من تلك الإتهامات شيء .
وسبحان من جعل الشرطة يصدقون السجناء هذه المرة . لا ندري أهي غيرة من أبي عوض الذي بات يتمتع بمزايا ويجمع من الأرباح والأموال ما لم يتح حتى للشرطة العسكرية أنفسهم .. أم أن الأمر أتى انسجاماً مع عهد المدير الجديد الذي أراد أن يساوي المساجين كلهم في العذاب والمعاناة ويفرض هيبته على رموز العهد البائد !
كل الذي دريناه وعلمناه أن الرقيب أمر أبا عوض وقد بُهت أمام جرأة الإخوة أن يجمع أغراضه ويخرج . ومن رئاسة مهجع 26 اقتيد أبو عوض إلى الحلاق هذه المرة فجز شعره وشاربيه ، ثم ألقي به في مهجع 31 مجرداً من كل صلاحياته السابقة .
ودارت الدائرة على أبي عوض . وجعل الشرطة منه هدفاً معلّماً يخرجونه إلى الباحة كل يوم لينال عذاباً مستقلاً . وصرنا نسمع صياحه وتوسلاته تصم الآذان .. وصراخه يملؤ السجن كله . حتى سلخوا جلده من القتل وحطموه من التعذيب . وظل ستة أو سبعة أشهر على هذه الحال يذوق وبال أمره ويكتوي بسيف أسياده أنفسهم . وفي أواخر عام 87 نقل أبو عوض إلى سجن صيدنايا مع مجموعة من السجناء . فأنجانا الله من شره ومكره . وأرانا آية باهرة فيه لا تنسى .

المحكمة !
وانتهى العام .. ومضت أيام عام 85 على نفس الوتيرة من العذاب والقهر والمعاناة .. لتمضي قرابة خمس سنوات على اعتقالي .. حكم خلالها من كان من دفعتي بما حكم ، ونفذت الإعدامات بمن كان نصيبه حكم الإعدام ولم تتم محاكمتي أنا بعد . ولقد كان ذلك مصدر قلق دائم لي . فالمصير الواضح يظل في النهاية أخف من انتظار المجهول . والأعمار كلها بقدر الله أولاً وأخيراً .
وفي يوم 30/3/1985 وحوالي الساعة العاشرة فتح الشرطي شراقة الباب في مهجع السل 35 وتلى أسماء

عدد من السجناء من لائحة بيده مطلوبين للمحاكمة ، كان من ضمنهم اسمي أنا واسم أخوين آخرين من مهجعنا . وخرجنا أنا والأخ حزين قاسم محاميد من المعرة وهو ابن دفعتي أيضاً ، وثالثنا أخ من قرى حلب خريج المدرسة الشرعية من بيت المصطفى فيما أذكر .
وفي باحة الذاتية تم تجميعنا قرابة السبعين أو ثمانين شخصاً مغمضي الأعين مكبلي الأيدي وأمرونا أن نجلس القرفصاء وجوهنا للجدار وظهورنا كالعادة باتجاه الشرطة الذين لم يكفوا عن ضربنا وركلنا ولطمنا بالعصي والخيزرانات والكرابيج .
وبعد قرابة الساعتين من الضرب والشتم والتعذيب وصل دوري ونادى المنادي اسمي فرفعت يدي بالإجابة .
وعلى باب الغرفة التي تتم فيها المحاكمة أمرني الرقيب أن أفتح عيني واقتادني إلى كرسي أمام القاضي وأجلسني عليه . لكنني بقيت من خوفي وتحسبي مغمض العينين مطرق الرأس حسب التعليمات . فناداني هذا الرجل القابع وراء المكتب باسمي وقال لي أن أرفع رأسي وأنظر إليه .
فعلت ما قال صاحب الصوت .. ونظرت فرأيت رجلاً قصير القامة أصفر الوجه لئيم النظرات .. يتدلى حول شفتيه شاربان رفيعان يخضبهما الشيب فكأنهما شاربا فأر عجوز . يتوسط شخصين آخرين عن يمينه وشماله .. قدرت أنه سليمان الخطيب الذي طالما تحدث الإخوة عنه وقصوا من قصص لؤمه وخَبَله الكثير !
من نظمك ولا ؟
هكذا ابتدرني سليمان الخطيب بالسؤال .
قلت : سيدي أنا مش منظم .
قال : شو اسمك إنت ؟
محمد سليم حماد سيدي .
قال وهو يمعن النظر في إضبارتي : انت أردني ولا !
نعم سيدي .
ما بكفينا هالعرصات اللي عنا ولا .. انت جاي كمان هون تقاتل معهن ؟
قلت له : سيدي أنا ما قاتلت ولا عملت شيء .
وعاد يقرأ في الإضبارة للحظات ثم سألني :
شو علاقتك مع سالم الحامد ؟

قلت وقد تبين لي أنه لم يطلع على الملف من قبل :
كنت أعرفه من الجامعة .
ومن غير أن يزيد أو ينقص عقد سليمان الخطيب حاجبيه وقطب جبينه ثم التفت نحوي وصاح :
نحنا عم نحكم الناس هون بالإعدام .. وإنت لازم نشنقك من بيضاتك !
واتجه بنظره إلى الرقيب وقال له وقد قضي الأمر :
خذه .
وكانت تلك نهاية محاكمتي . ومضيت عائداً إلى الرقيب لا أكاد أحس لشيء من حولي بطعم أو معنى . فلما أعادني بدوره للشرطي أمرني ذاك ومن غير مقدمات أن أفتح يدي . فلما فعلت هوى بالكرباج عليهما ثم أمرني أن أجلس مكاني .
وتتابع دخول الإخوة إلى المحاكمة وخروجهم منها .
حتى إذا انتهت الدفعة عادوا بنا كل إلى مهجعه . وأقبلت على الأخوين الذين خرجا من المهجع معي أسألهما عن الحكم فأخبراني أنه الإعدام أيضاً . لكن ذلك لم يكن بعد هذا الذي رأيناه طوال السنوات الخمس الماضيات يعني لنا الكثير . فالموت في هذا المكان متوقع في كل لحظة .. وهو إذا حدث خاتمة الأحزان وباب الفرج . ووالله ما رأيت أحداً ممن خرج إلى الإعدام كل هاتيك السنوات التي قضيتها هناك اختلجت له شعرة .. الكل كان إذا دنت ساعته مقبلاً غير مدبر . وإذا طلبوه بادر بنفسه يستبق إلى الباب رغبة منه بالشهادة ولقاء الله .

بقرة أبي سليمان !
ومن المضحكات المبكيات التي لا تزال عالقة بذاكرتي عن أيام المحاكمات وحكاياتها أن أخاً ممن عرضوا على المحكمة كان طبيباً بيطرياً من منطقة الساحل السوري وكان يعمل في قرية دريكيش مسقط رأس سليمان الخطيب رئيس هذه المحكمة الهزلية . ولقد حدث أن أهل سليمان الخطيب كانوا يربون الأبقار كما يبدو . فلما مرضت إحداها أخذوها قدراً إلى ذلك الأخ ليعالجها . لكنها ماتت بقدر الله بعد ذلك . ودارت الأيام وإذ بالطبيب البيطري يقف أمام القاضي سليمان الخطيب نفسه . فلما عرفه اصفر واستفز وصاح فيه :

آبتذكر يوم جبنالك البقرة وقتلتها ولا ؟ روح بدي أعدمك .
ولقد تم إعدام الأخ المسكين بالفعل . وسمعنا القصة من عدد من الإخوة كانوا معه في نفس المهجع التقيناهم بعدها . سمعوا الرواية من الطبيب وشهدوا بأنفسهم إعدامه رحمه الله !
ومما كان يتداوله السجناء عن عبثية تلك المحكمة وسخافة رئيسها ومزاجيته أن أحد العسكريين الذين كانوا يخدمون في مدرسة المدفعية بحلب أيام استشهاد النقيب ابراهيم اليوسف الذي نفذ حادثة المدرسة قبل ذلك بشهور . هذا العسكري أُمِرَ مع بقية الضباط والجنود في المدرسة بالمرور على جثة النقيب المسجاة والبصق عليها . ويبدو أن الأخ امتنع عن التنفيذ أو أحجم أمام هيبة الموت .. فاعتقلوه من ساعتها وساقوه من سجن إلى آخر لينتهي به المطاف بين يدي النقيب سليمان الخطيب هذا في محكمة تدمر . فلما سأله لماذا امتنع عن تنفيذ الأمر العسكري أجاب الأخ بأنه لم يمتنع ولكن ريقه كان ناشفاً . فاتجه سليمان الخطيب إلى كاتب المحضر وأملاه ليكتب :
.. وبصق وكانت بصقته ناشفة . إعدام !
وأعدم الأخ كذلك .. وظلت القصة تدور على ألسنة السجناء واحدة من مهازل هذا النظام واستهتاره وظلمه . وشاهداً على سفاهة ذلك القاضي الدعي ومزاجيته وحقده .

في انتظار الموت !
ومضت الأيام .. وبات الموت الآن أدنى إلينا نحن الذين حكمنا بالإعدام . وبعد شهرين .. وكما جرت العادة دوماً نصبت المشانق مع إطلالة الصباح واستعد الجلادون ، وبدأت جموع الشباب المؤمنين تساق إلى حتفها . وفتح باب مهجعنا ونادى الشرطي اسم الأخ الذي كان ثالثنا في المحكمة . لكن الذي حدث أنه رحمه الله كان قد مات قبل أسابيع قليلة بين أيدينا بعد أن غلبه السل وقضى عليه . فعاد الشرطي ومن معه يخرجون سجناء آخرين من المهاجع المجاورة . وأما أنا وما أن نادى الشرطي اسم الأخ حتى خلت منيتي قد حضرت . وإذا كانوا قد نادوا عليه فأنا وإياه قد حكمنا في يوم واحد .. وتنفيذ

الحكم لا بد وأن يكون في نفس اليوم أيضاً . وهرعت من فوري فصليت ركعتي الشهادة على عجل . وجعلت أخلع عني ملابسي ليستفيد منها الإخوة الآخرون من بعدي .. ووقفت عند الباب متوجساً أنتظر أن ينادوا علي . وجعل الإخوة يقتربون مني واحداً بعد الآخر يودعونني ويثبتونني .. وراحت الخواطر تأخذني يسرة ويمنة .. وعبرت صورة أهلي أمام ناظري فغصصت . وتوجهت إلى الله تعالى أدعوه بسري أن يلهمهم الصبر والسلوان .. وأن يجمعني معهم في الجنة . وأخذت أسأله سبحانه أن يغفر لي ويتغمدني برحمته .. وأنظر إلى الباب أنتظر أن يفتح اللحظة . فإذا مرت قلت هي اللحظة التالية . لكن الوقت مر .. وانتهى تنفيذ الأحكام .. وهدأت الأمور في الخارج ولم يأت أحد . فلم أجد إلا أن أرتد إلى مكاني كما يرتد الغريق من غيبوبة الإختناق إلى صحوة الحياة . وأيقنت أن في العمر بقية لم تزل ، وأن الأجل لم يحن بعد . ومضت أسابيع أخر .. واستعدت ساحتنا لتشهد مجموعة جديدة من أحكام الإعدام . وعاد الشرطي إلى مهجعنا فنادى الأخ الآخر حزين قاسم الذي حكم معي .. وساقوه إلى الموت وأنا عند الباب أنتظر دوري كما فعلت المرة السابقة . لكن أحداً لم يحضر لطلبي . وانتهت عملية الإعدامات كذلك من غير أن أكون أحد ضحاياها . وأخذت كلما سيقت إلى الإعدام دفعة من الإخوة أكرر ذات الموقف طوال السنوات الخمس التي تلت ! لا أشك في أي مرة منهن أن دوري قد حان الآن . وأحس أن خطأ ما قد حدث في المرات السابقات ولسوف يصححونه هذه المرة ويقودونني إلى أجلي لا ريب !

تقنين الطعام !

ومرت الأيام والشهور ولم يحن الأجل .. وخلال ذلك تم نقلي من مهجع 35 إلى مهجع السل 37 فالتقيت وجوهاً جديدة ، وتعرفت على إخوة لم يسبق لي أن التقيتهم من قبل . لكن الظروف كانت متماثلة ، والمعاناة ظلت واحدة . وزاد البلاء حينما طبق علينا نظام تقنين الطعام ابتداء من شهر أيلول 1986 فصار نصيب أحدنا من الخبز نصف رغيف فقط بدل الرغيفين الذين كنا نحصل عليهما في السابق ! وصرنا من جوعنا

نأكل قشرة الصمونة مع واحدة من الوجبات ونوفر العجين بلبّها الذي لم ينضج للوجبة الثانية بعد أن اعتدنا في الفترة السابقة على رميه لأنه يصيب آكله بوجع البطن ولا يقي من الجوع . لكنا مع شدة الحاجة صرنا نعجنه مع البصل والملح ونوفره للوجبة التالية . ويوم أن كان يأتينا البرتقال كنا نقدمه على البصل فنمزجه بقشره مع العجين ، ونرش على الخليط ما توفر لنا من السكر ونحتفل به وكأنه طبق من الحلوى !

اليرقان

وهكذا انتشرت المجاعة في السجن وازدادت الأمراض وتزايد عدد الوفيات . حتى صرنا نودع في بعض الأحيان أخاً وأخوين كل يوم . وفي تلك الفترة وزيادة على البلاءات التي نحن فيها دهمنا عن غير ما موعد وباء اليرقان الكبدي .. فجعل الضحايا يتزايدون . ولخطورة هذا الوباء دعت إدارة السجن رؤساء المهاجع جميعاً إلى لقاء مشترك لتدارك الأمر . وكانت خشية الإدارة في مثل هذه الأحوال تنصب على المسؤولين وأفراد الشرطة بالدرجة الأولى . خوفاً على أنفسهم وخشية من أن تطولهم العدوى إذا انتشرت فينا . ولقد وفق الله أحد المسؤولين الصحيين وقتها فأبدى قناعته بأن الوباء إنما ينتشر عن طريق الدم بالدرجة الأولى . وأن ذلك يتم خلال الحلاقة الجماعية . ومن لطف الله أن إدارة السجن اقتنعت بكلامه . فتقرر من وقتها وقف الحلاقة الجماعية . وتم تسليم رئيس كل مهجع ماكينة حلاقة يدوية . يكون مسؤولاً عنها وعن أمر الحلاقة الدائمة لمهجعه . فرحمنا الله من عذاب الحلاقة من يومها . وخلصنا سبحانه من بعض هذا الضنك .

منع الصيام

واستمرت المحنة تدور رحاها من غير رحمة . ولم يعد للأيام ولا السنوات في حياتنا معنى .. فالبرنامج اليومي لا يكاد يتغير . والعذاب والمعاناة لا تترك لواحدنا فرصة التقاط الأنفاس . والقتل والإعدامات قتلت فينا شهوة الحياة وأطفأت معنى المستقبل لدينا . وهكذا حل عام 86 متصلاً بمأساة الأعوام التي سبقته وواصلاً إياها لما بعده من أعوام تلت . وفي بداية ذلك العام كان قد جرى

نقلي إلى مهجع المسلولين 29 في الباحة السابعة وصرت رئيساً له منذ ذاك . ولم يكن في الساحة التي عليها المهجع إلا مهجع ثان فقط هو مهجع 30 إضافة إلى المستوصف الذي تم تخصيصه للسجناء الشيوعيين كما ذكرت . فكان نصيبنا من التنفس مضاعفاً . وبدل أن يكون مرة في اليوم كما جرت العادة فقد أصبح مرتين الآن صبحاً ومساء . ساعة في كل مرة بدل أن تكون نصف ساعة كما سبق . وهذا يعني مزيداً من العنت والقتل والتعرض لأذى الشرطة المتربصين .

ولقد اشتد أذى الشرطة في تلك الفترة زيادة عما هو عليه وتمادوا في عدوانيتهم . فكنا إذا خرجنا إلى التنفس في الصباح أو في المساء جهزنا أنفسنا لحفل كامل من التعذيب ينتظرنا . ولكم كان يحلو لهؤلاء الزبانية أن يبطحوا واحداً منا على الأرض ويأخذوا بالقفز على ظهره أو على صدره بلا رحمة . ولكم تكسرت أضلاع إخوة منا في هذا النوع من التعذيب . ولا أنسى كيف قام واحد من هؤلاء الموتورين مرة بإخراج عضوه على مرأى الناس جميعاً وأخذ يبول علينا ونحن جالسين القرفصاء بين يديه في موعد التنفس ! وأما الجلد والضرب والمسبات البذيئة فهذه كلها لم تعد تدخل في الحساب لأنها جزء لازم من حياتنا على مدار السنوات التي خلت .

ومما لا يزال واضحاً في ذاكرتي عن ذلك العام أنهم منعوا فيه الصيام عنا في رمضان لأول مرة . فمن قبل كانوا يأتون لنا بالسحور والفطور بدل وجبات الطعام المعتادة . لكنهم وابتداء من رمضان عام 1986 امتنعوا عن ذلك . وصارت الوجبات الثلاث على فقرها تأتينا في مواعيدها العادية . وصار ممنوعاً ادخار الطعام إلى الفطور أو السحور . فإذا أحسوا أن أحدنا صائم أخرجوه وقتلوه قياماً وقعوداً وأجبروه على الإفطار . وهكذا صرنا ممنوعين من الصلاة ومن الصيام معاً . وزادنا الزبانية بذلك هماً جديداً وقهراً وعذاباً من نوع آخر .

كذلك يحضرني من ذكريات عام 1986 المريرة إعدام العميد أحمد غنوم الذي اعتقل منذ عام 1980 وظل طوال تلك السنين يعاني عذاباً مضاعفاً من الشرطة الحاقدين الذين كانوا يتلذذون بتعذيبه رحمه الله ، ويحسون بالنشوة وهم يرون إنفسهم يتحكمون بهذه

الرتبة العسكرية العالية وهم مجرد أفراد مجندين في التسلسل العسكري .

اختناق

ومع اشتداد الكرب وتوافد المزيد من السجناء على المهاجع التي اكتظت بنزلائها حدثت في شهر آب من عام 87 حادثة مثيرة . ففي ذلك الشهر الذي يسمونه آب اللهّاب ارتفعت الحرارة بشكل غير معقول في الوقت الذي كانت التهوية في المهاجع منعدمة والشراقات والنوافذ تجلب المزيد من السخونة ولا تقي من وهج الشمس شيئاً ، مما تسبب في حادثة اختناق جماعي كادت تودي بأرواح العشرات .

ولقد بدأ الإختناق وقتها في مهجع السل 36 قبيل المغرب وأخذ السجناء الذين شارفوا على الموت يقرعون الباب وينادون الحرس وقد طاشت منهم العقول وشارفوا على الهلاك . فلما أتوا يسألونهم عم حدث صاحوا فيهم أنهم يختنقون . لكن الشرطة لم يأخذوا الأمر مأخذ الجد وتلكأوا في الرد عليهم . ففقد السجناء المساكين عقولهم وقد قاربوا أن يفقدوا أرواحهم جميعاً ، وأخذوا يقرعون الباب ويدقون على الجدران ويرفعون أصواتهم بالصراخ والمسبات .

وسرعان ما صدرت الأوامر للشرطة فانتشروا على أسطحة مهاجع الباحة كلها ، وسلطوا الرشاشات الكبيرة 500 مم على المهجع خشية أن يتطور الأمر إلى تمرد أو عصيان جماعي ، ثم فتحوا الباب للسجناء ليخرجوا إلى الباحة . وما أن فعلوا حتى اندفع الإخوة من غير وعي لا يلوون على شيء . وارتموا على الأرض يتلوون ويتقيأون . وحضر طبيب السجن وقتها وتأكد من جدية الأمر . ولم يلبث أن صدر الأمر بإخراج سجناء المهاجع كلهم إلى الباحات تفادياً لتكرار الأمر . وبقينا يومها في الهواء الطلق حتى قرابة الساعة الثانية بعد منتصف الليل قبل أن يعيدونا إلى مهاجعنا . ومن يومها وعلى مدى أسبوعين تاليين ظللنا نخرج إلى التنفس مرتين في اليوم من غير ضرب أو تعذيب . وسمحوا لنا وقتها أن نرش أرض الباحة الإسمنتية بالماء للتخفيف من حدة الحر . ثم لم تلبث هذه الإستثناءات أن انتهت .

وعدنا إلى برنامج المعاناة نفسه . فنجونا من الحر القاتل ومن الإختناق ولكن إلى حين !

تنقلات

مضت أيام قليلة على حادثة الإختناق تلك لأراني أنقل من مهجع السل 29 إلى مهجع جديد للأصحاء بنوه أمام مهجع 25 في الباحة السادسة أطلقنا عليه اسم "جديد ظهره" . فوجدتني في مساحة غرفة ونصف محشوراً مع مائة وعشرين سجيناً نكاد من شدة الزحام أن نجلس فوق بعضنا البعض !

ولقد تم اختياري رئيساً لهذا المهجع أول ما دخلناه . فلما رأيت الحالة على هذا الشكل اندفعت مع أول وجبة طعام يحضرونها إلينا وقلت للمساعد أن العدد كبير هنا . ومن غير أن يجيبني بشيء مضى المساعد وأرسل الشرطة بعد قليل فأخرجوني وأطعموني قتلة قياماً وقعوداً رجعت منها إلى المهجع محملاً !

لكن الحر لم يكن ليرحمنا .. والمكان يطبق علينا بجدرانه الصماء فكأنه القبر . ولم تمض أيام قلائل حتى طفح الكيل بنا وفقدنا القدرة على التحمل . وجعلنا قرابة منتصف الليل ننادي الشرطة وندق الباب ونقفز نحو النوافذ نكاد نختنق . وعاد الشرطة فأخرجونا إلى الباحة ساعة زمن ثم أعادونا . ثم لم يلبثوا وأن عادوا وطلبوا عشرين شخص منا ليغادروا إلى مهجع آخر فكنت في طليعتهم . ووجدتهم يقودوننا إلى مهجع 28 في نفس الباحة . فكانت فرصة لي للنجاة من الإزدحام من جهة ، والتعرف على إخوة جدد من ناحية أخرى . كان من أبرزهم الشيخ محمد سعيد عطا أحد تلاميذ الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي . فاستفدت من علمه ومن صحبته .

كذلك التقيت في مهجع 28 رجلاً من بيت العطار من حلب وجدت الإخوة يجهدون في مداراته وخدمته والتخفيف عنه . ولم ألبث أن أعلموني أن المسكين شهد سَوْقَ ولديه الإثنين إلى الإعدام أمامه وهما في مقتبل العمر . وما زاده ذلك إلا إيماناً وتسليماً

مغادرون .. وقادمون !

ولم تطل إقامتي في مهجع 28 كذلك ، فلم ألبث أن نقلت من جديد إلى مهجع السل 18 في الباحة الرابعة فكانت محطة قصيرة أخرى ، حدث خلالها أن قامت إدارة السجن بنقل الشيوعيين ومجموعة أخرى من السجناء الأحداث إلى سجن صيدنايا الذي بني حديثاً وقتها . فلما خلا المستوصف من الشيوعيين نُقلت إليه مع مجموعة من السجناء الآخرين . ثم لم نلبث في هذه الفترة العصيبة أن تناهى لأسماعنا وصول دفعة جديدة من المعتقلين حلوا بدلاً عن المغادرين إلى صيدنايا . ولقد بلغنا أن الوافدين الجدد اتهموا بحوادث تفجير باصات وقطارات وقتها ، وأن عددهم كان بين الستين والسبعين ، عزلوهم كلهم في مهجع مستقل وسلطوا عليهم أشد أنواع العذاب حتى قضى عدد منهم حتفه . ولقد كنا نسمع أصواتهم وهم يعذبون ونتلقى نتفاً من أخبارهم من هنا وهناك ، غير أننا لم نلتق بهم ولم نعرف عن مصيرهم شيئاً مؤكداً بعد ذلك .
وبعد أن مكثت هناك فترة تم نقلي ثانية إلى مهجع 29 . ثم لم ألبث أن نقلت مرة أخرى إلى مهجع 28 . وبعد حوالي خمسة أو ستة أشهر تالية نقلت من جديد إلى مهجع 22 في الباحة الرابعة . وفي هذا المكان تعرضت إلى محنة جديدة كدت أن أفقد حياتي بسببها وقتذاك . ورأيت من الأهوال هناك ما كاد ينسيني كل هذا الذي رأيت وعانيت من قبل !

حتى في المنام !
كانت الأسابيع الأولى التي أمضيتها في مهجع 22 كالواحة التي فاجأت عابراً أنهكه العطش وهدّه التعب في صحراء قاحلة . فمن قبل كنا في المهاجع الأخرى معرضين ليل نهار لمراقبة الشرطة من فوق الشراقات . ولم نكن بذلك نأمن شرورهم بسبب كان أو من غير سبب . فلما جئت مهجع 22 وجدته من غير شراقات . ووجدتنا على الرغم من الشدة المحيطة وسوء الأحوال نغتنم هذه الفرصة ونتنعم بها أيما تنعم . فوقتها استطعنا من أن نعود إلى صلاة الجماعة ونؤديها بشكل طبيعي بعد أن حرمنا ذلك كل هاتيك السنين . وصار أحدنا إذا أراد أن يتحدث في الأوقات التي لا يتردد

الشرطة فيها علينا وقف وتكلم وأنصت له الباقون وحاوروه وشاركوه .
كذلك كانت تلك الفترة استثنائية بالنسبة لتوفر الطعام أيضاً . فلم يكن عددنا قد جاوز الستين ولكننا كنا نتلقى طعاماً مخصصاً لحوالي المائة والخمسين وفق ما اعتاد الشرطة أن يحشروا في هذا المهجع وفي سواه . ولقد تم اختياري رئيساً للمهجع 22 أيضاً من أول ما وصلت إليه .
لكن هذه النعم لم تطل . ومع اشتداد الأحوال في السجن عام 1988 وازدياد الأوامر صرامة وقسوة فوجئنا بالإدارة تقرر فتح شراقتين في سقف المهجع 22 أسوة ببقية المهاجع الأخرى . وعاد التنفس ليصبح مرتين في الصبح وفي المساء . ومع كل موعد تنفس حفل تعذيب .. ومع كل فتحة باب للتفقد أو لإدخال الطعام حفل آخر . ولم تلبث أن صدرت إلينا الأوامر لأول مرة خلال فترة سجننا بالكامل أن نغطي أعيننا ونحن نيام ! وألزمونا أن يحتفظ كل منا بطماشة دائمة معه ليغطي بها عينيه حين النوم . علاوة على أن يكون النائم دائماً على جنبه باستمرار . فعدنا بذلك إلى وضعية الإنكشاف المستمر للشرطة الذين يتجولون فوق المهاجع باستمرار . وصار واحدهم إذا شاهد من الشراقة أحداً منا يتقلب في الليل خلال نومه أو يتحرك حتى ولو من غير إرادته صاح بالحرس الليلي أن يوقظه ويعلّمه . فإذا أصبح المسكين كان الشرطي وعذاب لا يعلمه إلا الله في انتظاره !
ولكم كان الشرطي يطل على المهجع بعد منتصف الليل يتصيد أحداً يشبع فيه تشهيه للقتل والتعذيب . فإن لم يجد كان أسهل ما يكون عليه أن ينادي على الحرس الليلي ويأمره أن يعلّم نفسه ! بل إنهم كانوا يحضرون في الصباح ويسألون رئيس المهجع أين المعلَّم . فإن لم يكن الشرطي قد علّم أحداً ليلتها قالوا له : أخرج الحرس الليلي من ساعة الثانية عشرة إلى الواحدة مثلاً . فيخرجونه ويتسلون بتعذيبه وضربه من غير أي سبب .
وضاعف الشرطة من ترصدهم للمصلين . وصار أمراً اعتيادياً أن يخرجوا رئيس المهجع ويسألونه عن أسماء الذين لا يزالون يصلون عنده . ولقد حدث ذلك معي

مرات عديدة . فأخرجوني وسألوني وضربوني لأقدم لهم أسماء من يصلي أو يُدَرِّس في المهجع !

طلاق بالإكراه

ومن مشاهد تلك الفترة التي لا تزال تحضرني قصة طبيب أسنان من دمشق اسمه رضوان العمر استدعوه بعد حوالي تسع سنوات مضت على اعتقاله وأمروه في الذاتية أن يوقع على ورقة طلاق زوجته . وذعر الأخ .. ورفض أن يفعل . لكن جلسة التعذيب التي أتبعت رفضه جعلته يوافق مكرهاً . فكانت من ثم القاصمة له . ووجد نفسه بعد هذي السنوات يفقد زوجه وطفله من غير إرادته ومن دون أن يعرف السبب ، ومن قبلهما فقد شبابه وحريته مع ألوف من خيرة أبناء الوطن مثله . ولا أدري ما الذي حل بالأخ بعدها ، لكن آثار محنته الأخيرة تلك نزلت عليه كانت أثقل ربما من كل ما نزل به طوال سني اعتقاله . ولم يكن له ولا لنا أمام ذلك كله إلا التسليم والإحتساب

الفأرة !

ولقد كان أمراً شائعاً منذ بدايات أيامنا في تدمر أن يأمرنا الجلادون بتناول بقايا الطعام من بين القمامة وأكلها عنوة ، أو التقاط ذبابة أو صرصار يصادفنا في الباحة وابتلاعه . ولم يكن بعضهم ليتورع عن البصاق على الأرض وإجبار واحد من السجناء على لحس بصاقه بعده . لكننا وعندما حان موعد الطعام في يوم من أيام عام 1989 ووصل الدور على مهجع 18 المقابل لمهجعنا على الباحة الرابعة سمعنا لغطاً من هناك أثار انتباهنا . فأسرعت كعادتي وجعلت أسترق النظر من شق في باب المهجع أستطلع الأمر . فرأيت الشرطة منكبين على رئيس المهجع من بيت خريطة من الزبداني - وكان نقيباً في الجيش قبل اعتقاله - يضربونه ويركلونه وهو عاري الصدر بين أيديهم ويأمرونه بابتلاع شيء بالإكراه يحمله بيده . فلما دققت النظر وجدتها فأرة ميتة ينهالون عليه ضرباً ويجلدونه واحداً بعد الآخر وهم يأمرونه أن يبتلعها . والأخ المسكين برغم كل هذا العذاب لا يستطيع أن يفعل . حتى إذا اشتد عليه الضرب وأرهقه الجلد وخارت قواه دسوا الفأرة في فمه دساً

وبلعوه إياها ورموا به في المهجع . وكان يتولى كبر هذه العملية شرطي منهم كان يسمي نفسه أبا غضب .
وكان أشد ما يحلو له أن يصفع الواحد منا بكفه التي تملؤ قدراً وتفيض فيكاد يخرق له طبلة أذنه وهو يقول بانتشاء : خذها من أبي غضب ولا !
ولم تمض من الزمن برهة حتى دق رئيس مهجع 18 الباب وأخبر الشرطة بشيء لم أفهمه تماماً . لكنني عدت وسمعت أصداء حديث يدور حول الفأرة . وفي المساء حضر أبو غضب إلى مهجعنا ونادى على المسؤول الصحي لدينا وكان الأخ غسان عبد الباقي من حماة ، وسأله ما الذي يمكن أن يحدث للإنسان إذا أكل فأرة .. هل يموت ؟ وقتها لم يجد الأخ إلا أن يتملص من الإجابة ويقول له لا . قال له أبو غضب : انقلع . وأقفل الباب ومضى . ولم نتبين ما الذي جرى للأخ بالتحديد ، لكننا أدركنا أن ضرراً أصابه ، وأنه لم يكن بالضرر المعتاد . الأمر الذي جعلهم يعطون الأمر بعض الأهمية فيسألون ويستفسرون !

إلى المزبلة !
وهكذا لم ينقطع العذاب أبداً . ولم يتوقف الإرهاب والضغوطات النفسية لا في الليل ولا في النهار . ولم يعد واحدنا ينعم بأدنى حد من الراحة حتى ولو في المنام . فكادت النفوس أن تنهار ، وبلغ الصبر فينا منتهاه . وانتهى الحال ببعضنا أن فقد عقله أو كاد .
وفي ليلة باردة من ليالي شهر كانون الأول من عام 1989 صحونا على صوت أحد السجناء من مهجع 20 القريب يصيح ويشتم الشرطي بملء فمه . وسرعان ما حضر عدد من الشرطة العسكرية نحس وقع أقدامهم ونسمع أصواتهم ونادوا عليه يسألونه :

شو مالك ولا ؟
ولم يكن الحوار كله واضحاً لنا ، لكننا سمعناهم يأمرون رئيس المهجع أن يربط الأخ ويضعه في "البخشة" وهو الحمام كما كانوا يطلقون عليه . وفي الصباح جاء مساعد السجن محمد نعمة فأخرجه ورماه إلى الزبانية الذين وضعوه في الدولاب أمام المهجع وانهالوا عليه ضرباً جعله يهز الباحة بصراخه واستغاثته . وعندما أتى

وقت التفقد أخرجوه مرة ثانية وجعلوا يضربونه ويعفسونه حتى لم يعد يبلغنا منه لا صوت ولا حركة . ثم أمروا رئيس المهجع أن يدخله . وبعد قليل قرع رئيس المهجع الباب وأبلغهم - ونحن نسمعه بآذاننا - أن واحداً في مهجعه قد توفي . فلم يزيدوا أن قالوا له - والله - : خذوه وكبوه في الزبالة !
ورأيتهم من شق الباب يسحبون الأخ ويمضون به .. فيما مضى القتلة إلى برنامجهم المعتاد من غير أن يهتز لهم طرف أو تختلج فيهم عضلة !

انهيار
ومع تزايد الضغوط وبلوغ البطش الذي نناله من الشرطة حداً لا يوصف ظهرت بيننا حقيقة الأمر حالات من الإنهيار النفسي لم تكن تدل على ضعف أصحابها قدر دلالتها على درجة التعذيب الوحشي والمعاناة المرة التي تتنزل علينا جميعاً حتى تفتن منا عن دينهم . وفي هذا الصدد أذكر تماماً أن واحداً من السجناء رفض ذات صباح أيقظوه فيه للصلاة أن يفعل . وأخذ الأخ - غفر الله له - الأمر موقفاً من يومها . وصار على الرغم من خلفيته الثقافية العالية يجيب سائليه بأن الله قال (إن تنصروا الله ينصركم) . وها نحن نصرناه فلم يجبنا وينتصر لنا فلماذا الصلاة إذاً ؟
وعلى الرغم من فظاعة القول وما تبعه ، ومع أن كل الذين لم يتزلزلوا عن إيمانهم بالله ولم يحيدوا عن إسلامهم كانوا يعانون نفس معاناة ذلك الأخ ويعيشون المحنة مثله ، إلا أننا عذرناه ودعونا له بالثبات والهداية . فإذا كان الفقر وحده كفراً أو يكاد ، فكيف بكل نوازل الفقر والقهر والعذاب والجوع والرعب تتنزل على تلك الفئة العزلاء من غير حول لها ولا قوة طيلة عشر سنوات !
350 جلدة !
لم يمض أسبوع على الجريمة الأخيرة للزبانية في مهجع 20 حتى وقعت محنتي أنا . فبينما كنت وباقي الإخوة في المهجع حوالي الساعة العاشرة صباحاً من يوم 20/12/89 حضر واحد من الشرطة العسكرية وناداني وقال :
رئيس المهجع لهون .

قلت : حاضر سيدي .
قال : شو هالصوت عندك ولا ؟
قلت : ما في عندي صوت سيدي .
قال : لأ الصوت عالي عندك .
قلت : حاضر سيدي بِنْوَطي الصوت .
ومن غير أن يزيد الكلام عن هذه العبارات حرفاً واحداً وجدته يبادرني ويقول :
أنا بدي أعمل هيك وهيك من أمك . شو ؟
فلما أردت أن ألتزم الصمت وأدع الإستفزاز يمر عاد وسألني باستفزاز أشد يريدني أن أجيب فأقع في حبال مكره :
شو ؟
قلت ولم يعد أمامي بد من الإجابة مكرراً ما قال حرفياً :
أنا بدي أعمل هيك وهيك من أمك .
فصعق الزنيم وصاح وهو لا يكاد يصدق ما يسمع : أنت عم بتسبني يا ....
قلت أحاول أن أطفىء جهنم هذه التي اشتعلت في قلبه الأسود : لا سيدي . أنت قلت لي أن أعيد وراءك ففعلت !
فتركني هكذا مكاني وذهب مهرولاً إلى الذاتية ، ليعود بعد بضع دقائق ومعه المساعد وجمع من الشرطة يحمل أحدهم الدولاب . وتقدم الرقيب مني وسألني عم حدث فأخبرته . فقال لي مستهزئاً :
انزل في الدولاب إذاً فهذا لن يضرك .
فلم أجد مفراً من الإنصياع . وما أن نزلت في الدولاب حتى نزلت العصي والسياط علي . وبدأت أصيح وأصيح وأصيح .. والألم ينهش جلدي ولحم قدمي اللتين تفتحتا تحت الضرب حتى لم أعد أحس بهما آخر الأمر . وعندما بلغت الضربات حوالي 350 جلدة أطلقوني . فلم أستطع العودة إلى المهجع إلا زحفاً . وارتميت على أقرب جدار وصلت إليه وأنا أكاد أغيب عن الوعي .

"فرخ راتب" !
غير أن وقت التفقد في المهجع لم يلبث أن حان . وكان المفروض أن أنهض وأقدم الصف باعتباري رئيس المهجع . فلما لم أقدر تولى نائبي الأخ عماد ذلك وقدم الصف . لكنهم ولما لم يجدوني أمامهم سألوه عني

فأخبرهم أنني مريض . فأمروه أن يخرجني إليهم . فحملني الإخوة حملاً ووضعوني أمام الشرطة لينهال الزبانية علي ضرباً وركلاً من جديد . ويأمرونني أن أخرج لمثل هذا اللقاء كل يوم .
ومن يومها صار لزاماً علي أن أنال ثلاث وجبات من العذاب يومياً على أقل تقدير . وفق عدد المرات التي يفتح علينا الباب فيها . وعدا ذلك تولى في الليل أمري شرطي آخر كنا نسميه "فرخ راتب" لأنه أتى في صوته وشراسته على شاكلة شرطي آخر سبق وعانينا من عدوانيته وجبروته عام 84 اسمه راتب . فجاء "فرخ راتب" هذا أول ما جاء ليلتها وسأل أين رئيس المهجع . فقالوا له أنه مريض ونائم . فأمرهم بإيقاظي . فلما وقفت بين يديه أمرني أن أتولى الحراسة الليلية حتى الصباح . وكانت العادة أن يوزع رئيس كل مهجع هذه المهمة على عدد من السجناء ليكون نصيب الواحد منهم ساعة أو ساعتين من الحراسة وحسب . لكنه ألزمني بتولي المهمة كلها طوال الليل . وانتهت نوبة "فرخ راتب" عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . وبقيت أنا أغالب النوم وأجتر الألم وأسأل الله الفرج . وعند الساعة الرابعة حضر "فرخ راتب" لنوبته الجديدة ونادى :
حرس ليلي .
فقفز قلبي من مكانه وناديت مجيباً : حاضر .
قال : اشلح بالشورت .
ففعلت وأنا أستعيذ الله بسري من شره ومكره . فلما فعلت أمرني أن أوقظ مساعدي ، فأيقظته . فقال "فرخ راتب" لي :
اجلس جاثياً .
فجلست . وأمر نائبي عماد أن يملأ بيدوناً بالماء ويصبه فوقي . فلم يجد الأخ إلا أن يطيع . وتكرر الأمر ، ونفّذ الأخ . وفي تلك الليلة الباردة من شهر كانون الثاني صب "فرخ راتب" علي سبعة بيدونات من الماء البارد ملأت أرض المهجع وبللت بطانيات كل من كان قريباً من مكاني . فلما انتهى أمرني أن أعاود الحراسة حتى الصباح فنفذت الأمر . وعند الساعة السادسة صباحاً سلم "فرخ راتب" نوبته ومضى . ولم يلبث أن عاد في

السابعة وفتح الباب . وأمرني أن أبقى مكاني بالشورت حتى يطلبني من جديد .
وعندما حان وقت الإفطار ناداني إلى الخارج وانهال علي جلداً بالسوط حتى كاد يهلكني . ولم يخفف صراخي ورجاءاتي وتوسلاتي من الأمر شيء . حتى إذا أحس أنه أطفأ ظمأ الهمجية التي لديه أرسلني .
فزحفت إلى المهجع زحفاً . وارتميت على الأرض أقرب للغيبوبة مني إلى الصحو . غير أن وقت التفقد لم يلبث أن حل . وخرج مساعدي يريد أن ينوب عني من جديد . لكنهم عادوا وسألوه عني . فلما أخبرهم أنني مريض ضربوه هو الآخر وأمروه أن يناديني لأقدم الصف .
وهكذا مضت الأيام والليالي على هذه الشاكلة أربعة أشهر أو ربما أكثر . حاول الإخوة خلالها أن يساعدونني في مناوبة الليل . فكنت إذا دنت نوبة "فرخ راتب" قمت وحرست . فإذا انتهى قام أحد غيري وسد مكاني . فإذا عادت نوبته أيقظوني لأقف من جديد . لكن الخبيث أرسل في يوم من الأيام شرطياً آخر ليتأكد من سهري . فلما وجد سجيناً غيري يقوم بالمهمة أخرجني وأخرج الحرس الليلي كلهم وجلدنا جميعاً . فصرت أضطر للوقوف الليل كله من جديد . وعندما وجدتهم قد علقوا على الأخ عماد أيضاً وكادوا أن يُجْمِلُونَه بالعذاب معي رأيتني أولى بذلك منه لأنني أنا الذي شتمت الشرطي .
فصرت أخرج أغلب الأحيان إلى التفقد وتقدم الصف وتناول نصيبي المقدر من الضرب والتعذيب . حتى ساءت حالتي وأُنْهِكَ بدني وعدت فانتكست بالسل بعد أن شفيت منه . فكان ذلك - سبحان الله - الضارة النافعة . إذ لم يلبث المسؤول الصحي زاهي عبادي أن حضر للكشف على المرضى ، فلما رأى حالتي تلك طلب نقلي إلى مهجع المسلولين . فتم ذلك في شهر نيسان من عام 1990 وأنجاني الله من هذه المحنة وأنا على آخر نفس !
مزيد من المعلومات!
ومما هو جدير بالتسجيل عن عام 1990 هذا أن إدارة السجن أرسلت في شهر شباط تسأل في المهاجع عن آخر شخص جاءته زيارة من أهله أو أقاربه ، فأخبر كل مهجع عن الشخص المقصود . وفي اليوم التالي تم استدعاء هؤلاء جميعاً إلى الإدارة وعُرِضَ عليهم

استئناف الزيارات وبعض الميزات مقابل التعامل مع الإدارة بشكل واضح . وطلبوا منهم معلومات محددة عن حال السجناء في كل مهجع ، وعن الأفكار التي يتداولونها ، والقناعات التي لا زالوا يحملونها ، وهل ثمة من يدعو إلى الجهاد من بينهم ، وما مدى استعدادهم للتعامل مع قياداتهم السابقة ، ورأي كل منهم في هذه القيادات . ورغم أن الحدث كان مثيراً وقتها ، وعلى الرغم من بعض اللغط الخافت الذي ساد حينذاك ، إلا أن محن السنين الخوالي جعلتنا نألف أي جديد ونتقبل كل قضاء نازل بالصبر وبالإستسلام .

وفاة زاهي عبادي

عدت إلى مهجع السل 35 مرة أخرى فابتعدت عن "فرخ راتب" ومكره وعن العذاب والقهر بعض الشيىء .
وبدأت أتلقى علاج السل المتاح من جديد . حتى إذا تحسنت حالتي واستعدت قواي نقلت ثانية إلى مهجع 28 مع الأصحاء . ولم نلبث أن بلغنا على غير موعد نبأ مفاجىء بوفاة الأخ الحبيب زاهي عبادي بعد كل هذه السنوات التي أمضاها في خدمة إخوانه المسلولين والمعلولين صابراً محتسباً . وكانت الرواية التي بلغتنا أنه أصيب بخراج مفاجىء في قدمه فأخذوه إلى مستشفى خارج تدمر فعاد ميتاً ! لكن ذلك زاد الأمر غموضاً ، وجعلنا نرجح أنه قتل عمداً بعدما أمضى كل هاتيك السنوات متنقلاً بين المهاجع واطلع على الكثير من حالات السجن والسجناء . ولم يكن أي شيء في تلك الغابة مستغرباً .. ولم يكن أي حادث بشع أمراً مستبعداً بين قوم أسهل ما اعتادوا عليه سفك الدماء !

شاهد على مجزرة تدمر

قلت أن بعضاً من المهاجع كانت حينما وصلنا تدمر قبل أكثر من عشر سنوات لا تزال تحتفظ على جدرانها وأسقفها بآثار من مجزرة تدمر الكبرى في حزيران عام 1980 . ولقد حدث فعلاً وأن سمعت كباقي الناس عن المجزرة وأنا لا أزال في دمشق قبل اعتقالي ببضعة أشهر . ولقد تمكن وقتها أحد الإخوة من بيت وطفة من دمشق من أن يحصل على قائمة بأسماء الضحايا من ملفات وزارة الدفاع حيث كان يخدم جنديته الإلزامية ،

وأوصلها للإخوة في قيادة دمشق الناشئة وقتذاك . وتم كشف الأخ من بعد وإعدامه في سجن تدمر نفسه .
وكان العدد الرسمي كما أذكر في حدود الثمانمائة قتيل . لكنني طوال السنوات التي أمضيتها في سجن تدمر لم أجد بنفسي شاهداً على المجزرة ، حتى جمعتني الأقدار في تلك الفترة بسجين يميني من حماة توطدت علاقتي معه . فقص علي أنه كان معتقلاً منذ عام 1980 مع مجموعة من البعثيين العراقيين . وأن إدارة السجن فرزتهم منذ ذاك ووضعته في أحد مهاجع الباحة الرابعة بشكل منفصل عن سجناء الإخوان أو الإتجاه الإسلامي . وذات ليلة صدرت الأوامر إليهم كلهم لينقلوا إلى مهجع 29 في الباحة السابعة بشكل مفاجىء . وصبيحة اليوم التالي بلغت أسماعهم أصوات طائرات مروحية تحلق فوق المهاجع وتنزل في مكان قريب . ولم تمض برهة حتى بدأوا يسمعون أصوات الرصاص وانفجارات القنابل وصيحات التكبير في الباحات المجاورة . ثم لم تلبث الأصوات أن هدأت . وعادت المروحيات فغادرت المكان . ولم يتمكن أي من السجناء الآخرين وقتها من معرفة ما حدث . حتى تسربت أخبار المجزرة إليهم مع سجناء جدد حضروا بعدها وسمعوا بها من خارج الأسوار قبل اعتقالهم . وظل هذا الشخص على قيد الحياة حتى قدر لي أن ألقاه وأسمع شهادته . ورغم أنني لا أدري ما الذي حل بهذا الأخ ، إلا أنني أتمنى أن أراه يوماً على منصة الشهادة يروي قصته أمام محكمة عادلة . تعيد فتح ملفات الفظائع التي شهدتها جدران مهاجع تدمر وبقية أوكار المخابرات وسجونها وأقبيتها ، وتطبق في كل الجناة حكم الحق . عل أرواح الأبرياء التي أزهقت من غير ذنب تقر .. وترتفع عن هذا الوطن غباشة الطائفية المقيتة والظلم والجبروت .

آخر الوافدين !

مضت الأمور في السجن بعمومها نحو الهدوء النسبي . فالتعذيب الجماعي خفت حدته ، والضرب الوحشي قلت نسبته . ثم لم نلبث أن وجدنا الإدارة تقوم بفرز جديد للسجناء في شهر نيسان 1991 تم بموجبها تقسيمنا وتوزيعنا على مهاجع جديدة وباحات مختلفة . ووجدتني في هذا السياق أنقل هذه المرة إلى مهجع رقم 7 في

الباحة الرابعة . وهناك أمضيت قرابة سنة أخرى خفت فيها المعاناة نوعاً ما ، وبدأنا نلحظ خلالها تحسناً نسبياً في الطعام ، كانت مادته الأساسية زيادة كمية الثوم !
ومن باحة مهجعنا السابع تلك كان على لجنة الإعدامات التي لم تتوقف أعمالها أبداً أن تمر من أمامنا مضياً في طريقها إلى الباحة السادسة لتنفذ الأحكام . وكنا نسمع أصواتهم ونتمكن أحياناً من التلصص عليهم من شقوق الباب . وفي نفس الوقت كنا نحس وصول الدفعات الجديدة من المعتقلين التي لم تتوقف أيضاً ونسمع أصوات استغاثاتهم وصياحهم من ساحة الذاتية المجاورة والباحة الأولى القريبة منا . وفي شهر تشرين الثاني عام 1991 كانت آخر دفعة جديدة من السجناء تصل تدمر على عهدي لتستقبلهم حفلة الإستقبال الرعيبة ذاتها .. وتبلغنا أصوات استغاثاتهم وصيحات الألم تزلزل المكان ولا تحرك في قلوب الزبانية شعرة ! وحتى لا تنتقل الأخبار ويطلع السجناء القدامى على مستجدات الأحداث في الخارج كان يتم عزل السجناء الجدد في مهاجع مستقلة فلا نلتقيهم ولا يلتقونا ، ولكن أصوات استغاثاتهم كانت أكثر من كافية لنعلم بوصولهم إلى هذا المكان الرعيب .

نعم للقائد !!

وذات يوم من نهايات تشرين الثاني أو بدايات كانون الأول عام 1991 . وبينما نحن في المهجع نجرع الأسى ونغص بالحسرات أقبل علينا مساعد السجن محمد نعمة وأبلغنا أن انتخابات لرئيس الدولة أوشكت أن تجري خلال أيام .. وأن علينا أن نظهر محبتنا وتقديرنا للقائد الأسد فنقول له "نعم" بالفم الملآن والصوت العالي . ولم يكن من خيار أمام أحد في كل سورية إلا أن يقول تلك الـ"نعم" . تماماً كتلك التي قلناها لسليمان الخطيب حين أبلغنا بأحكام الإعدام أمام محكمته الهزلية . أو كتلك التي قالها الطبيب المسكين بعد حفل العذاب ليطلق زوجته . أو كالنعم التي كنا نقولها للشرطي إذا قال لنا أنه يريد أن يفعل كذا وكذا بأمهاتنا وأخواتنا . أو كآلاف وآلاف مثلها يقولها كل مواطن مقهور لا يملك لرد ظلم زبانية النظام وسفاهاتهم عوناً ولا سنداً .

وكتب رئيس المهجع قائمة بأسمائنا كلنا . ووقعنا وقلنا "نعم" . وكان الأنكى أن قام بعض من هدته المحنة وأنهكته المعاناة فاقترح أن نكتب العبارة "نعم للقائد" على واحد من قمصاننا البيضاء لا بالحبر أو بالدهان وإنما بدمنا ! وهرع البعض فاستجابوا وأحضروا من مسؤول المهجع الصحي إبرة وجعلوا يسحبون من أوردتهم ما يكفي من الدم ليكتبوا به على القميص !

بشارات !

وفي ليلة من ليالي شهر كانون الأول من عام 1991 وجدتني أستغرق في النوم فأرى في المنام الشرطة العسكرية يدخلون علينا في المهجع بملابسهم الكاكية وطاقياتهم الحمراء وسحناتهم البغيضة ويخبروننا بقرار انتقالنا من هذا المكان . ورأيتني أمضي إلى زاوية من زوايا المهجع اعتدنا أن نكدس فيها حقائبنا البالية فأحمل من بين الأكداس حقيبتي وتأتي مجموعة من الشباب فيفعلون ما فعلت . ورأيت علي دوبا رئيس فرع المخابرات العسكرية يمضي معنا أو نمضي معه فننطلق إلى باص كان بانتظارنا ونركب فيه جميعنا ونمضي . وبعد أن غادر الباص سجن تدمر وقطعناه بمسافة بعيدة انتهى المنام . فلما استيقظت وقصصت الرؤيا على الشباب حولي تفاءلوا وقالوا لي إن شاء الله يفرجها الله عليك .

ولم يمض يومان فقط حتى وجدت الشرطة ينادون اسمي بعد صلاة العصر وكان يوم أربعاء . فلما خرجت إليهم سألوني عن اسمي الكامل واسم أبي وأمي فأجبتهم . فلم يزيدوا أن قالوا لي من غير أي تعليق : ضب أغراضك وجهز حالك لبرة .

وكنا جميعاً متعودين أن يأتينا مثل هذا الإيعاز في أي لحظة . سواء للإنتقال من مهجع إلى آخر أو للخروج إلى الإعدام ! ووجدت الإخوة يلتفون حولي ويودعونني ولا يدري أحد منا إلى أين المصير . وخرجت وقد وضعت الطماشة على عيني وعقدت يدي خلف ظهري كالعادة ومضيت أتبعهم . فأدركت أنهم يقودونني باتجاه الساحة السادسة التي تنفذ فيها أحكام الإعدام . فجعلت أتقلب بين هواجس اقتراب النهاية وأحاسيس غامضة تبشرني من أعماقي بدنو الفرج . وجعلت أتساءل بيني وبين

نفسي عن سبب اقتيادي إلى الباحة السادسة إذا كان هناك إفراج . ولماذا لم يأخذونني إلى الذاتية في الباحة الأولى لأخرج من حيث دخلت قبل عشرة أعوام أو أكثر ! ولم تطل بي التساؤلات التي قطعها توقف الركب وصوت باب يفتح ونداء واحد من الشرطة يقول لي :
أدخل ولا .
وأغلق الباب ورائي .. وأحسست أن الشرطة تركوني وذهبوا .. وأن ثمة من يشاركني هذا المكان الجديد ويهمهم حولي . وبحذر شديد أرسلت يدي من وراء ظهري إلى وسطي . فلما تأكدت أن أحداً لم ينتهرني أو يصرخ في رفعتهما إلى وجهي وفككت الطماشة عن عيني . فوجدتني محاطاً بعدد من السجناء يتطلعون في وأتطلع فيهم .
خير يا شباب شو في ؟
سألتهم متوجساً ومستغرباً .. فقالوا ببشاشة وبشر :
ان شاء الله خير . هناك إخلاء سبيل .
ماذا ؟
قلتها وأنا لا أكاد أصدق أو أستوعب ما قالوا . فكرروا علي وأكدوا لي . ولم يلبث أن أطل علينا من فوق الشراقة أحد الشرطة وقال لنا من غير أن نعرف السبب الشيء نفسه . ولم تمض نصف ساعة أخرى حتى فتح الباب من جديد فهرعنا من فورنا حسب العادة واتجهنا برؤوسنا إلى الجدار . وتقدم واحد ممن سبقوني فقدم الصف . وأحسسنا بدخول أشخاص عديدين وراءنا ، فتوجست خيفة وأنا أتوقع كل شر ولا أستغربه . وأتانا الإيعاز مرة واحدة :
وراء در .
فاستدرنا وعيوننا لا تزال مغمضة حسب التعليمات . لكن الإيعاز أتانا مرة أخرى يقول :
ارفع راسك ولا وفتح عينيك .
مفاجآت !
فتحت عيني يكاد يشلهما الخوف فراعني أن أنظر فأرى لأول مرة طوال تلك السنوات سحنة جلادينا بوجوه آدمية من لحم ودم . ولم يكن مألوفاً لي ولا لأحد ممن معي أبداً أن نبصر شخصاً في هذا المكان معافى في بدنه متأنقاً في ملبسه ، نبت الشعر في رأسه وشاربيه

بشكل طبيعي وطال من غير أن تجرده آلة الحلاقة أو تشوهه الصفعات واللطمات !

وأمعنا النظر ونحن كالطفل الذي يطلع على العالم من حوله لأول مرة فرأينا مساعد السجن محمد نعمة ورئيس السجن نفسه غازي الجهني يقفان في مواجهتنا ومن ورائهما وعن أيمانهما وشمائلهما الزبانية يترصدوننا بنظراتهم الماكرة . وبعبارات مقتضبة أخبرنا العقيد الجهني أن سيادة رئيس الدولة أصدر عفواً عنكم .. وإن هي إلا أيام وتكونوا بين أهليكم . وأمرنا من ثم أن نخلع ملابسنا جميعاً ونبقى بالشورت فقط . والتفت إلى كومة من الملابس والأحذية العسكرية الجديدة فأمر الشرطة أن يوزعوها علينا ثم مضى ومعه المساعد والشرطة وأغلقوا علينا الباب . عقدت المفاجأة ألسنتنا جميعاً وأصابتنا بالربكة إلى حين . حتى إذا هدأت النفوس واستقرت اتجهنا إلى بعضنا البعض نتساءل ونتداول ونحاول أن نجد تفسيراً لما يجري فلم نفلح . وأخذت أتملى في رفاق هذا المهجع الجديد فوجدتهم قرابة الخمسة والثلاثين شخصاً عركتهم المحنة وناءت بكلكلها عليهم مثلما فعلت بي ، فلم تترك فيهم إلا سحناً مصفرة وعيوناً ذابلة وأجساداً واهنة ..
وانقضى يوم الأربعاء ونحن في هذا المهجع الذي يسمى مهجع 6 على 2 الجديد نتجاذب أطراف الحديث ونتعرف على بعضنا البعض . وجاء الخميس وانقضى كما جاء ونحن نقطع الوقت بتبادل أخبار المهاجع وروايات العذاب والأسى . وكذلك حدث في اليوم التالي ونحن نقترب من الشك ونكاد ننتكس من التفاؤل إلى التشاؤم من جديد . حتى إذا كان صباح السبت وجدناهم ينادوننا للخروج من المهجع والإنتظام في صف في الخارج أمامه . فخرجنا كذلك مغمضي العيون منكسي الرؤوس يلتصق واحدنا بأخيه خشية أن يتعثر . لكن الإيعاز جاءنا كذلك بأن نفتح عيوننا ونتطلع بشكل طبيعي . فلما فعلت وفتحت عيني هالني أن أنظر إلى هذا المكان الرعيب الذي ضمتني جدرانه وحملتني أرضه وأكلت عصي زبانيته وسياطهم من جسدي ما شاء الله أكثر من عشر سنوات فكأنني أراه الآن لأول مرة !

كان كل جدار أقابله كطود جاثم على صدري عشر سنوات من غير أن أراه . وكل باب غليظ مشبك بالحديد كشوكة في حلقي أبصرها الآن لأول مرة . وهذه الوجوه الكالحة وتلك القسمات الطاغية وهذه المهاجع المقفلة كالتوابيت كم مرة لطمتني أو عركتني أو حملتني وأنا رهين المحبسين ترهقني ذلة الأسر ورهبة الظلام وقد أطبقت أجفاني على نوافذ الضياء بالإكراه فلا أرى خارج المهجع إلا الظلام وحسب !

بوابة المغادرين !

وسار ركبنا نحن الذين صدر العفو عنا كخط النمل يتجه نحو الباحة الخامسة وأنا أتوقع أن نمضي الآن إلى الذاتية لنتسلم أماناتنا ونسجل أسماءنا ونخرج من الباب الذي دخلنا منه . لكني وجدت الركب ينعرج بنا باتجاه المطابخ نحو باب خلفي للسجن اعتادت سيارات الجيش أن تدخل الطعام والمشانق منه وتخرج عائدة بالقدور الفارغة وجثث الموتى والمعدومين بنفس الوتيرة ونفس البرود ! وعلى مقربة من الباب وجدنا باص تويوتا أحمر اللون بانتظارنا فصعدنا إليه لا ننبس ببنت شفة . ورافقنا في باصنا الذي توزعنا على مقاعده واجمين ثلاثة عناصر من المخابرات العسكرية لم يكن يبدو عليهم الإكتراث بأمرنا . وكنت عندما أتملى فيهم أحس أنهم ربما لم يدروا أين أمضينا آخر عشر سنوات من أعمارنا أو حتى أنهم كانوا عندما دخلنا زنزانات الفرع الذي أتوا منه قبل اثنتي عشرة سنة خلت مجرد طلاب في المرحلة الإعدادية أو الثانوية على أبعد تقدير !

دمعة شكر

ومضى الباص بنا يزمجر على هذا الخط الضيق يسرع ساعة ويبطؤ أخرى . ونحن فيه كأننا الأطفال في أرحام أمهاتهم نشاهد العالم في الخارج من غير أن ندرك علاقتنا به أو مصيرنا فيه . والمشاهد من حولنا تتسارع وتتغير وتتبدل . والوجوه والبيوت والبهائم والسيارات والغيوم والسماوات كلها كالكلمات الغريبة في قاموس لغة نسيناها منذ أكثر من عقد خلى !

وارتددت إلى نفسي لحظة فجعلت أتذكر المنام الذي شاهدته قبل بضعة أيام وحسب . وجعلت أقارن الباص الذي ركبته في المنام وهذا الباص الذي يقلنا الآن . والجمع الذين هرعوا في الرؤيا لمرافقتي وجمع الإخوة الذين معي . ورئيس المخابرات العسكرية هناك وجنده هنا . ووجدتني من غير إرادة مني أتبسم وقد نسيت كيف تفتر الشفاه عن ابتسامة سعد . وأتجه بجوارحي كلها إلى الله العلي الرحيم أود أن أسجد له كل عمري شاكراً . فلم تجبني من كل هاتيك الجوارح المأخوذة بتسارع الأحداث وقتها إلا دمعة حرى طفرت من عيني على وجل .

وأسرع السائق بالحافلة .. وأسرعت بنا الخواطر والخيالات والتساؤلات والأماني والمخاوف كلها تتراكض فينا معاً . وعبرنا تدمر المدينة من غير أن نلفت فيها نظر أحد . وتخطينا حمص مرقد خالد بن الوليد تغشاها كآبة ووحشة .. وأشرفنا على دمشق عاصمة الأمويين والمجد والفتوحات بالأمس .. ومهد المظالم والقهر ووكر الطائفية اليوم . وأكمل الباص بنا إلى فرع المخابرات العسكرية من جديد . وتسلمنا الزبانية كالعادة تغيرت وجوههم وأسماؤهم ولم يتغير من عدوانيتهم شيء . وبعد أن أخذوا أسماءنا وتسلموا أماناتنا أدخلونا على واحد من المهاجع تحت الأرض لنقضي ليلتنا هناك .

صفحة جديدة !

وفي اليوم التالي الثامن والعشرين من كانون الأول جمعونا كلنا في قاعة محاضرات واسعة ووزعونا على كراسيها الوثيرة . واعتلى مجموعة من الضباط المدنيين المنصة . وتقدم أحدهم منا فألقى فينا كلمة مقتضبة استهلها بالثناء على الرئيس القائد الذي يعرف الناس كل الناس أن الكرم من سماته .. وأنه ينظر إلى الشعب بعين الرأفة والعطف على الدوام .. ولذلك أصدر أمراً بالإفراج عنا بمناسبة إعادة انتخابه ! وقال لنا المتحدث أن بعضنا ربما لم يكن يستحق كل هذا الإعتقال الطويل .. وأن بعضنا الآخر نال الآن جزاءه . ودعانا أن ننسى كلنا الماضي ونبدأ صفحة جديدة من اليوم . فيذهب الطالب إلى مدرسته . والعامل إلى مصنعه .

والموظف إلى وظيفته . ويعود الكل إلى حياتهم الطبيعية وينسوا الماضي . وختم المتحدث كلمته منوهاً أن الفرع سيوصل كلاً منا إلى محافظته ومدينته .
وانفض الاجتماع .. وجعل رجال المخابرات يقتادون كل مجموعة من المعتقلين إلى زاوية حسب محافظاتهم .
ولما كنت الأردني الوحيد فقد اقتادوني مع أربعة عناصر منهم إلى سيارة اتجهت بنا إلى الحدود السورية الأردنية مباشرة . وعندما وصلنا مدينة درعا بعد منتصف الليل سلموني للشرطة المدنية هناك . وتقدم هؤلاء فسلموني بدورهم إلى المخابرات الأردنية على الطرف الآخر من الحدود ، ولم يزيدوا عن أن قالوا لهم أنني كنت موقوفاً لديهم . فلما استلمني الأردنيون وسألوني عن جوازي أو وثيقة تثبت شخصيتي لم أجد شيئاً أقدمه لهم . فعاد واحدهم وسألني منذ متى تم توقيفي .
سألته : ما اليوم ؟ قال : 29 كانون الأول 1991 . قلت أرد على سؤاله : منذ أكثر من إحدى عشرة سنة إذاً . منذ الثامن من تشرين الأول عام 1980 . فكاد الرجل يصعق من المفاجأة . وعندما وصلت والدتي ووالدي وأختي بعد ساعات لاستلامي لم تكن مفاجأتهم أقل منه وهم يرون ولدهم الذي غادرهم ابن تسع عشرة سنة عاد إليهم اليوم ابن إحدى وثلاثين . ناحل الوجه ، حليق الرأس ، منهك القوى ، يرتدي ملابس العسكريين الكاكي وحذاء الجيش . ووجدتني أمام أهلي الذين غادرتهم أصحاء أشداء أنهكتهم بدورهم السنون وهدتهم اللوعة .
وهرعت إلى يدي والدي رحمه الله أقبلهما وإلى أمي أحضنها وأطلب منهما السماح . وجعلت والدتي تنظر في وجهي تتفرس فيه وتقول لي : أنت محمد ؟ أكيد أنت محمد ! وتناولت يدي تقلبها وتُبَحِر فيها ولا تكاد تصدق ! وتناولت أنا يديها ألثمهما وأطلب منها مجدداً الرضا والسماح . وتدفقت عبراتنا جميعاً وخنقنا النشيج . واحدودب بعضنا على بعض وكأننا نتقي جورة الزمان وتربص المتربصين .
وأقفلت بنا السيارة تعود بي إلى بيت أهلي الغوالي بعد غيبة عقد ونيف من الزمان .. وكرت الأسئلة وتدفقت الحكايات .. وانفجرت الأحزان والآلام والحسرات حبيسة دهر من الزمان . دهر كل لحظة فيه كانت أثقل من الدهر كله .. وكل زفرة أو شهقة من أيامه لها حكاية

تحكى .. ولوعة تفري الكبد .. وذكريات وشجى . لا توفي وصفها قواميس الأرض .. ولا تسبر أغوارها من الكلمات شيء .. ولا يمسح حرها إلا الرحمن الرحيم .

وبعد ..
فها هي ذي صفحات من ذكريات المحنة التي قدر لي أن أعيشها في سجون النظام السوري قد باتت جاهزة للتو تنتظر دورة المطبعة تأخذ مجراها . وإني إذ أحمد الله تعالى الذي يسر لي إخراج هذه الذكريات على شكل كتاب .. وأشكره من قبل ومن بعد أن نجاني وفرّج عني ومنّ بالحرية علي .. أود أن أسجل بعض نقاط أراها جديرة أن أختتم بها كتابي هذا ، سائلاً الله تعالى النفع والقبول .
1 - مرت عدة سنوات على خروجي من سجن تدمر مررت فيها بظروف عديدة متغيرة ، مما جعلني أنسى الكثير مما شاهدت ورأيت وسمعت في تلك المحنة الرهيبة . ولقد حاولت فيما كتبت أن أتحرى الدقة قدر المستطاع ، وأن أوثق المعلومات التي سجلتها ما وسعني الجهد . لكني أعلم أن الكمال لله وحده ، وأن كل بني آدم خطاء . وللزمن حكمه كما يقولون . ولذلك أرجو أن يسامحني القارىء الكريم إن وجد أي نقص أو عجز أو خطأ فيما قرأ ، وليصحح لي كل من ملك معلومة مكملة أو إضافة مفصلة .
2 - وفي هذا السياق ومن هذا المنطلق ، أدعو كل أخ مسه من فيح تلك المحنة جانب أو ناله من لظاها أذى ، وأدعو كل مواطن شهد على ممارسات النظام السوري القمعية مشهداً أو عرف خبراً أن يبادر ويسجل تجربته ويكتب مشاهداته وشهادته . ولو لم يكن لدى المرء فرصة للنشر اليوم أو كانت ظروفه لا تسمح الآن فغداً ستختلف الموازين وتتغير الأحوال إن شاء الله . لكن الأمانة تظل في أعناقنا والشهادة حق لا يقبل أن نكتمه . والذاكرة لن تدوم فيها المعلومات والذكريات كما هي اليوم . والعمر بيد الله لا ندري متى ينقضي . وإذا كان جيلنا قد عاصر جانباً من الأحداث واطلع على بعض أوجه النظام الديكتاتوري الطائفي في سورية ، فإن أجيالاً تالية وشعوباً أخرى تحتاج أن تعرف الحقيقة وتدرس ما حدث . ولا بد لكل من أراد أن يخطو على طريق الدعوة

إلى الله أن يرصد تجارب سابقيه وخبرة المتقدمين عليه . أما أن تتكرر التجارب متماثلة متشابهة لا تستزيد واحدتها من أخراها ولا يتعلم لاحقها من سابقها فتلك علة معلة وجمود مهلك . وسبب كاف لتكرار النوازل والمآسي والنكبات .

3 - وحتى لا تتكرر النكبات وحتى تكتمل الفائدة من تسطير هذا الكتاب أراني واجباً علي أن أسجل خلاصة ما وصلنا إليه من قناعات ورؤى بعد سنوات محنتنا تلك . وإنني إذ أتحدث بضمير الجماعة هنا فإنما أقصد الغالبية من إخوة المحنة الذين جمعتني وإياهم على مدار سنوات متتالية القيود المطبقة والأبواب المغلقة .. وجلسات المصارحة والنقد الموضوعي والتقييم البناء . فوصلنا من بعد جدال وأخذ ورد إلى أن الإسلام الذي اعتنقناه واعتقدناه وحملناه في قلوبنا وامتحنا في سبيله وابتلينا .. هذا الإسلام لا زال من بعد كل هذه المحنة والعذاب والمشانق والمجازر هو الحق لم يتغير ، وهو الهدف لم يتبدل ، وهو الطريق لم نحد بإذن الله عنه . ولا زلنا حقيقة على قناعة خالصة بوجوب العمل لدين الله ونشر دعوته ، وحتمية تبليغ رسالته الخالدة لأنها الأمل الوحيد لنجاة البشرية جمعاء .

4 - أما الذي توقفنا عنده وانكببنا على النظر إليه فهو الكيفية والوسيلة التي يمكن أن نحقق بها ما اعتقدناه . فمن خلال محنتنا وكربتنا .. وبعد الثمن الباهظ الذي دفعناه دماً وأرواحاً وزهرات من شباب الدعوة ورصيد من النجاح انهار وانقضى .. تبين لنا وتأكد وتحقق أن أول ما نحتاجه قبل أن نخطو أي خطوة تالية هو الصف المنظم الموحد . فوالله لم يؤت إخواننا المجاهدون في سورية - ولا في غيرها - من قلة مال أو سلاح أو عتاد ، ولم يهزمهم استبداد عدوهم أو قوة تسليحه أو شدة بطشه . ولكن التجربة أثبتت وأكدت أن الشر أتي من التنازع والإختلاف ، والبنيان تهدم من الفرقة قبل كل شيء .

5 - أما القضية التالية التي وجدنا البدء من غيرها معناه التهلكة ، والمسير من غير أن تترسخ فينا نذير الضياع فهي التربية . ولقد كان أمراً عجباً أن تنفق كل الحركات الإسلامية جل جهدها وأكثر وقتها في الحديث عن

التربية وتطبيقاتها ، ثم إذا فاجأتنا المحنة وجدنا أنفسنا أبعد ما نكون عن التربية الحقيقية وأكثر من يفتقدها ! وعندما أذكر التربية هنا فأنما أعني كل ما يندرج تحت هذا المسمى من أبواب : التربية الروحية .. والسلوكية .. والبدنية .. والعسكرية .. والتنظيمية .. والأمنية . وحتمية أن تجتمع كل هذه الأبواب في بناء شخصية الداعية . وإلا فما معنى أن يحضر شخص واحد باعترافاته مائة أخ من تنظيم سري ناشىء ؟ وكيف يفسر أن يضطلع فرد في هذا التنظيم بمسؤوليات تمكنه من معرفة كل الصف القيادي في التنظيم وعناصره الفاعلة وأسراره الخطيرة ومخابىء سلاحه ومواقع قواعده ورموز اتصالاته وكل صغيرة وكبيرة فيه !!

6 - ان قناعتنا بعد كل هذه المحنة في وجوب مقاومة الظلم لم تتغير بفضل الله ولن تتغير . والعمل للإسلام لما يزل كيوم دخلنا المحنة واجباً حتمياً وأمانة ملزمة ، لكنا إذا أردنا أن نحمل هذه الأمانة فلنحملها بوعي كامل وكفاءة كافية .. أو نتنحى لمن هو أقدر وأكفأ .
إنني ومن بعد التجربة أؤمن اليوم أننا إذا تخلينا فسيهيؤ الله تعالى من هو أقدر وأكفأ وأجدر على حمل الأمانة .
أما إذا صممنا على تقدم الصفوف من غير إعداد كاف وكفاءة وحنكة فقد جنينا على أنفسنا وتجنينا على دين الله ودعوته . وهيهات هيهات أن ينصر قوم هذا حالهم وذاك الطريق الذي اختاروه .
هذه بعض ملاحظات أردت أن أختتم بها ذكريات المحنة وشهادة التجربة . سائلاً الله تعالى الرحمة والمغفرة وحسن الخواتيم . والحمد لله رب العالمين .

محمد سليم حماد
آب/1996

من سجل الشهداء :

ليس من السهل أبداً أن يصدر إحصاء حقيقي عن عدد شهداء سجن تدمر أو أسماء أولئك الشهداء . فالإرهاب الذي يحيط حياة المعتقلين ابتداء ، والسرية التي تتم

بها الإعدامات من بعد ، وانقراض الشهود تلو الشهود ، والتوتر والخوف والتنقلات ، وانتظار الموت الدائم .. كل ذلك يجعل المعتقل ذاهلاً عن كثير مما يدور حوله ، جاهلاً بما يحدث حتى خلف باب المهجع الذي يقبع فيه .

ومما رسخ في الذاكرة ، وبعد تمحيص وتدقيق ومراجعة متكررة ، أستطيع أن أثبت فيما يلي أسماء من شهدت إعدامهم بنفسي ، أو سمعت أسماءهم تتلى من سجل المطلوبين للإعدام ، أو بلغني من مصادر ثقة أن إعدامهم قد تم تنفيذه فعلاً . وغالب أولئك قضوا في سجن تدمر ، وقليل منهم أعدموا في سجن المزة وحمل إلينا الخبر القادمون ممن عاصروا إعدامهم هناك . وإني وأنا أسأل الله تعالى الرحمة والقبول للشهداء ، أؤكد ما هو معلوم من الأمر بالضرورة ، بأن عدد الذين قضوا على أعواد المشانق أو بأيدي الجلاوزة والزبانية . أضعاف أضعاف هذا الرقم . وأعود لذلك فأهيب بكل أخ شهد هذه المحنة أو علم عنها مهما علم ، أن يسجل ذاك الذي شهد ، ويوثق ما علم وما وعى ، عسى أن تكمل أمثال هذه الأعمال بعضها البعض ، وتكمل الجهود المتعددة صورة الفاجعة ، وتحفظ للأجيال مدى الشناعة التي اقترفتها الأيدي الآثمة ، بحق أبناء القطر السوري المنكوب

من سجل الشهداء

رقم	الاسم	المدينة	المهنة	التاريخ	الكيفية
1	غالب حداد	حماة		1980	شنقاً
2	حسن الصغير	حمص	مجند	1981	شنقاً
3	عبد المجيد الدباغ	حمص	معلم رياضيات	1981	شنقاً
5	حسين الطنجي	حلب	طالب ثانوي	1981	شنقاً

6	أمين الأصفر	حماة	خريج المدرسة الشرعية	1981	شنقاً
7	محمد فخري	حماة	مهني	1981	شنقاً
8	مأمون كردي	حماة	طالب جامعي	1981	بالتعذيب
9	ناصح شنيطبي	دمشق		1981	الكوليرا
10	جهاد حلاق	دمشق		1981	بالتعذيب
11	ناصر الدين البيك	حمص	طالب هندسة	1981	شنقاً
12	نعيم صيام	الأردن	طالب تجارة بحلب	1981	شنقاً
13	حسين رشيد عثمان	الباب/ حلب	صحفي في وكالة الأنباء السورية	1981 أو 1982	شنقاً
14	أيمن عثمان	الباب/ حلب	نقيب متطوع		شنقاً
15	جمال عقيل	حلب	طالب هندسة	1982	شنقاً
16	جلال الدين جلال	حلب		1982	شنقاً
17	محمد صادق العون	حماة	كلية الشريعة	1982	شنقاً
1	عبد الكريم	دمشق	طالب	1982	شنقاً

8	غانم		هندسة		
19	كمال أندورة	دمشق	طالب كهرباء	1982	المرض
20	هشام مجندف	حمص	مجند بالآمرية	1982	المرض
21	بسام الهاشمي	حمص	طالب ثانوي	1982	المرض
22	سامي وحود	حمص	طالب ميكانيك	1982	المرض
23	زاهد داخل	حلب	طبيب	1982	بالتعذيب
24	حسان طرابيشي	حمص	طالب ميكانيك	1982	شنقاً
25	توفيق دراق السباعي	حمص	طبيب أعصاب	1982	شنقاً
26	عبد العزيز عوض سالم	صوران /حماة	مجند عسكري	1982	السل
27	يحيى عبد الكريم الشامي	حماة	طالب صيدلة	1982	بالتعذيب
28	عبد الوهاب حلموشي	حمص	طالب جامعي	1982	شنقاً
29	يوسف عبارة	حلب		1982	شنقاً
30	بسام سباعي	حمص	مهندس	1982 أو 1983	شنقاً
31	محمد صنوبر	دمشق	طالب بكالوريا	1983	شنقاً

32	عبد الحكيم	سراقب / إدلب	مدرس لغة عربية وملازم مكلف	1983	شنقاً
33	عبد الرحمن فليطاني	حمص	موظف	1983	السل
34	مصطفى	حلب	تاجر	1983	السل
35	عبد الساتر مصطفى	حمص		1983	السل
36	محمد حسن عجعوج	حماة		1983	السكتة القلبية
37	عبد الكريم الصالح	دير الزور	طالب هندسة	1983	شنقاً
38	مأمون الذهبي	دمشق	طالب بكالوريا	1983	المرض
39	أحمد دعدع	حماة	مهني	1983 أو 1984	شنقاً
40	عبد الكريم الصالح	الباب/ حلب	طالب هندسة	1983 أو 1984	شنقاً
41	حسين العدم	الأردن	سائق سيارة	1983 أو 1984	شنقاً
42	عبد المعز العجمي	حمص	طالب هندسة	1984	شنقاً
43	نديم منصور	ادلب	خريج جامعي	1984	شنقاً
44	جمال عيار	حلب	خريج المدرسة	1984	شنقاً

			الشرعية		
45	سحبان بركات	حماة	طالب زراعة	1984	شنقاً
46	.... العابدي	دمشق	تاجر	1984	شنقاً
47	ملهم الأتاسي	حمص	طالب جامعي	1984	شنقاً
48	طريف حداد	حمص	طالب بكالوريا	1984	شنقاً
49	هيثم ملا عثمان	دمشق	طالب هندسة	1984	شنقاً
50	عمر بدر	حمص	أعمال حرة	1984	شنقاً
51	يوسف عبيد	دمشق		1984	شنقاً
52	ضياء أسود	حلب	طالب هندسة	1984 أو 1985	شنقاً
53	عبد الكريم مهلهل	دير الزور	طالب طب	1984 أو 1985	شنقاً
54	.... سراج	دير الزور	طالب طب	1984 أو 1985	شنقاً
55	حزين قاسم	المعرة	مدرس ابتدائي	1985	السل
56	مصطفى المصطفى	منخ/حلب	خريج المدرسة الشرعية	1985	السل
57	.... عطار	حلب	طالب ثانوي	1985	شنقاً

58	...... عطار	حلب	طالب ثانوي	1985	شنقاً
59	أيمن عنجريني	حلب	طالب	1985 أو 1986	شنقاً
60	أحمد غنوم	حلب	عميد في الجيش	1986	شنقاً
61	عمر حيدر	المعرة	مدرس	1986	السكتة القلبية
62	طاهر العلو	حلب		1986	شنقاً
63	زاهي عبادي	دير الزور	طبيب	1990	غير واضحة
64	.... وطفة	دمشق	مجند عسكري		شنقاً
65	عبد الإله بعلبكي	قدسيا/ دمشق	مهندس		شنقاً
66	أحمد فطومة	حماة	مهني		بالتعذيب
67	طاهر عارف جيللو	سلقين/ادلب	مدرس ديانة		شنقاً
68	محمد أرمنازي	حماة		شنقاً (بالمزة)	
69	مطاع أتاسي	حمص	طبيب		شنقاً

[الشهادة الثانية]
خمس دقائق وحسب !
تسع سنوات في سجون سورية
ديسمبر 1980 – ديسمبر 1989
بقلم السجينة السابقة/ هبة الدباغ

(هذه الشهادة عبارة عن كتاب كتبته هبة الدباغ)

محتويات الشهادة /

تقديم بقلم زينب الغزالي الجبيلي
مقدمة (وتلك الأيام نداولها بين الناس)
الفصل الأول: خمس دقائق و حسب
الفصل الثاني: كفر سوسة، رحلة خارج الزمن، يناير 1981 - أكتوبر 1982
الفصل الثالث: سجن قطنا، الموت البطيء، أكتوبر 1982 - أغسطس 1985
الفصل الرابع: سجن التحقيق العسكري، في غيابة الجب، أغسطس 1985 - أكتوبر 1985
الفصل الخامس: سجن دوما، معركة مع الزمن، نوفمبر 1985- أكتوبر 1989
الفصل السادس: الفرج و الإفراج ـ ديسمبر 1989

مقدمة بقلم زينب الغزالي الجبيلي

بسم الله الرحمن الرحيم

(ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل، أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد سرابيلهم من قطران و تغشى وجوههم النار ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب هذا بلغ

للناس ولينذروا به ليعلموا أنما هو إله واحد و ليذكر أولوا ألالباب).

وبعد . . فهذه سطور من كتاب الحياة المعاصرة ، عاشتها صاحبته ورفيقات سجنها ألما وعذابا ، ومرارة وأهوالا يشيب لها الولدان . . إنها سطور كتبت بالدموع والدماء ، والسياط والقهر والعذاب ، تحكي قصة الظلم الطغيان فوق أرضنا وفي أوطاننا المسلوبة الإرادة ، والتي عشعش فيها الظلم زمنا طويلا حتى باض وأفرخ وصار ظلمات فوق ظلمات !

ماذا يريد الظالمون ؟ هل يريدون ملكا يتيهون فيه ويسرحون ويمرحون دون رقيب أو حسيب ؟ فإذا كان لهم ذلك هل يبقى ويخلد أم يزول ويهلك وينتقل إلى غيرهم ، فلو دام لأحد لما وصل إليهم . . أم يريدون مالا ينفقون منه على شهواتهم وملذاتهم ، فهل أسعدهم المال حقا ، وهل شفاهم من أمراض نفوسهم وجعل الطمأنينة في قلوبهم ؟ أم يريدون أن يتخلى أصحاب المبادئ عن مبادئهم ، وأصحاب العقائد عن عقائدهم ، فهل تحقق لهم ذلك ؟ أم أن أهل الإيمان ازدادوا تمسكا وصلابة ، وعزيمة ومضاءا ، وهم يعلمون أنه في سبيل الله ترخص الأرواح والأنفس والدماء (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) . إن الله حرم الظلم على نفسه ، وجعله بين عباده محرما ، فما أقساه وما أشد مرارته ، خصوصا عندما يتسمى الظالم بأسمائنا ، ويأكل من أرضنا ، ويشرب من مياهنا ! ثم يكون أشد قسوة من أعدى الأعداء! لقد قاسيت وعانيت وعشت مرارة السجن والتعذيب في سجون الطاغية عبد الناصر ، وهذا الكتاب هو صورة متكررة وقعت في سجون طاغية آخر ، وما أكثر الطغاة في هذا العصر.. لكن الله يمهل ولا يهمل.. ولا أريد المزيد، فوقائع هذا الكتاب أبلغ من أي استزادة ، والله غالب على أمره..

زينب الغزالى

مقدمة

(وتلكم الايام نداولها بين الناس)

حياتنا حلقة ألوان متفاوتة . . تطبع أيام الإنسان بالبياض المشرق تارة . . وتصبغها بقتامة الظلام تارة أخرى.. وأنا أشرقت حياتي أبهى من الورد النضر ، وتنسمت أيام طفولتي حنان الأبوين المحبين ودفء الأسرة الرضية فأورقت بالبر والرضا ، وأزهرت بالسعادة والحبور . . وعشت في هذا الروض أثيرة أبي وسر أمي ، وأميرة إخوتي السبعة وأخواتي الأربعه ونجيتهم . . فما كانت أحلامي الوردية تغفو إلا على وسادة الأمل . . ولم تكن تصحو إلا على راحات الرضا والأنس . لم أنتم إلى أي حزب من الأحزاب في يوم من الأيام . . وعلى الرغم من نشأتي الدينية وتعلقي بدروس الفقه والتجويد وحرصي على حفظ كتاب الله . . ورغم انتسابي إلى كلية الشريعة فيما بعد ، إلا أن ذلك لم يكن مبررا لتصنيفي ضمن أي تنظيم أو حزب . . ولم يكن عدم انتظامي أو تحزبي سببا في الوقت نفسه لأعمى عن ممارسات النظام السوري الظالم وأعماله التعسفية ضد أبناء الشعب من كل الإتجاهات والطبقات والإنتماءات . . وما أكد لي ذلك شيئ قدر مشاهدتي ومعايشتي لأصحاب الإتجاهات السياسية المختلفة وأصحاب اللا إتجاه من المواطنين والمواطنات الذين كانوا مثلي ضيوفا بالإكراه على زنازين النظام وسجونه . . لم يستثن من ذلك حتى أبناء طائفة النظام نفسه عشت على هذه الصورة كألوف من بنات وطني حتى أقبلت مسيرة حياتي على المرحلة الجامعية فكانت لوعة مفارقتي أهلي ومفارقتهم لي أول غصة . . ولم تنفصل صورتي وينأى جسدي عنهم إلا بقوة قوي . . لكن هذا البون المؤقت والفراق المقرر أتبعه غياب قسري وفراق قاهر قذف بي في أعماق الظلام وسجن الظلام . . ومضى بأكثرهم فانتزعهم من دنيا الشقاء إلى مستقر رحمة الرؤوف الرحيم . . وشط بالبقية في أصقاع الأرض وصقيع الإغتراب . . فتكدرت الصورة . . وأظلمت الدنيا . . وذوت زهور الأمل من قبل أن تعقد الثمار . . وأنا في غيابة السجون رهينة عن أخي "الناشط سياسيا ".

تنسلخ سنوات العمر مني وتتفطر جوارحي وتشيخ روحي لأجل وشاية كاذبة فندتها تحقيقات الظلام أنفسهم ، لكنهم اثروا أن يتجاوزوا الحقيقة ولا يدعوا

جهود مخبريهم الأجراء وجلبة سياراتهم التي شقت هدوء الليل لتقبض علي تذهب سدى ! فلبثت أتنقل بين زنزانة ومهجع وسجن واخر تسع سنوات عجاف . . أقفلت فيهن كل أبواب الرحمة لدى البشر . . وماتت على أعتابهن اخر امال أملتها ورجاءات بأحد من بني الإنسان علقتها وظل الرجاء بالله وحده حيا بقلبي لا تنطفئ شعلته وإن خبت . . ولا تحده حدود وان حجبته الآلام برهة من زمن . . وكانت مناجاتي لربي منجاي وملاذي إذا غفا الخلق وسكنت السياط . . أدعوه سبحانه بقلبي ولبي: اللهم يا من إذا أظلم ليل اليأس في القلوب أنار بنور جلاله ظلام الحزن وأزاله من غير ضر . . يا من إذا ما اشتد الكرب فرجه عن المكروبين . . يا من إذا ما سدت طرق النجاة أرسل سفنه لإنقاذ الغرقى من حيث لا يحتسبون . . يا رب يا من به الأمان . . وفي رحابه الطمأنينة والإستقرار . . وفي ظله السلام .
اللهم إذا ابتلينا فأعنا على الصبر . . واذا أردت فاجعل إرادتنا رهن مشيئتك . . واذا قضيت فهيىء قلوبنا لتقبل قضائك .
اللهم أعنا على الحمد والشكرفي السراء والضراء . . ففي الصبر تريية نفوسنا ، وفي الشكر اعتراف بنعمتك علينا وانسلاخ من الأنانية والكبر . . وفي كل خير .
فجد علينا بطيب الأخلاق وسلامة الصدور إنك على كل شيء قدير
من المنان علي بنعم لا تعد ولا تحصى . . فثبتني وحفظني . . وأرسل لى من بين العصاة من خفف بلواي ونفس كربي . . وأكرمني بشريكة السجن وشقيقة الروح "ماجدة" . . فكانت أشد مني صبرا واطمئنانا وأبلغ في التضحية والعطاء . . ورحمنا كلانا بأخوات بارات محسنات . . لا ننسى فضلهن ولهفتهن وعونهن . . وقد كن معنا شريكات الهم والقيد والمعاناة . .
أشكرهن هنا وأسأل الله لي ولهن المغفرة والمثوبة . . وأسالمهن المسامحة والعفو إن كنت ذكرت بين طيات الكتاب ما قد ينكأ جراح نفوسهن أو يكدر عليهن . .
لكنني أرى واجب الحديث عن مظالم النظام وانتهاكات الحقوق ألخ وأجل . . وضرورة توثيق هذه المرحلة أمانة ملزمة . . يهون أن نبذل في سبيلها بعض العنت والتكدر حتى لا يضيع الكثير الذي بذلناه والكرب الجلل والعذاب

الشنيع الذي نلناه . . لقد عشت في جحيم سجون النظام السوري تسع سنوات رهينة بلا ذنب . . لا أقدر أن أصف كيف تكون السنوات التسع من العمر حبيسة قمقم ملعون . . ويكل القلم عن أن يسجل حقيقة كل ما جرى . . لكنني وقد عشت التجربة على أي حال وأنجاني الله في الختام أستطيع القول بأن الأيام سوداء أو بيضاء . . هنية أو عصية . . مقبلة أومدبرة . . هي كلها مقادير مقدرة وأجل مسطور . . فبينما كان الظلمة يظنون أنهم ملكوا بجبروتهم البلاد والعباد كان قدر الله أغلب وأبقى . . وبينما هم اليوم يسومون الناس سوء العذاب فإنهم في الغد وإيانا على العرض بين يدي الحكم العدل مقبلون . . وإذا كان قد ساءني سجني والمني أن أفقد تسع سنوات في غيابة الزنازين بلا ذنب . . فإنني وأنا أعيش نعم الله اليوم أحس أن الكريم قد مسح برحمته جرح القلب ، وأبدل هلع النفس طمأنينة ، وحرمان الأيام السوداء نورا وعطاء وفضلا . . أحس ذلك وألمسه في زوجي الحبيب الذي كان على العهد يزرع الأمل في نفوس المحرومين نورا وأملا أشرق في نفسي
فعوضني عن كثير مما فقدت وحرمت . . وأراه في ابنتنا الأنسة "وفاء" التي أفاءت على حياتنا بالسعادة والحبور . . وفي ولدي الاخرين "جابر" وسارة" الذين تركتهما أمهما "حنان " أمانة لنا وقد حملت من قبل أمانة الجهاد وشرف الدعوة فكانت خير أسوة في الدين والدنيا معا . . وأحس من قبل ومن بعد أن النهاية لم تحن بعد . . وفصل الحساب لم يزل مقبلا . . والظلمة المتجبرون اليوم هم بين يدي الله في الغد موقوفون . . ومن كرب العالمين نصير ومجير . . ومن مثله جل وعلا وكيل بالظالمين ؟
(إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذ اب جهنم ولهم عذاب الحريق)
ذلك هو العزاء . . وبالله وحده الرجاء . . عليه توكلت واليه أنبت . . والحمد لله رب العالمين .

هبة الدباغ
ابريل 1995

خمس دقائق وحسب ! تسع سنوات في سجون سورية ، ديسمبر 1980 – ديسمبر 1989
بقلم: هبة الدباغ

الفصل الأول

خمس دقائق وحسب

كانت ليلة الأربعاء الحادي والثلاثين من ديسمبر عام 1985 ليلة بالغة البرودة في دمشق . . وفيما هجع أكثر أهل البيت وغبن في عالم الأحلام ، كنت وقد دنا منتصف الليل لا أزال أطارد السطور المتراقصة على كتاب الفقه وأجهد في استيعاب المعلومات استعدادا لامتحان اخر السنة صباح الغد . . والنعاس والبرد وإغراءات الفراش الوثير تطاردني بدورها وتشتت قدرتي على التركيز بين الحين والحين . . لكن هواجس أشد كانت تصرفني عن ذلك كله ، ومخاوف تنبعث من أعماقي بلا وضوح تجذبني هنا وهناك . . وتدفعني لاسترجاع صور الأيام الماضية وسجل ذكرياتي بشيء من القلق والرهبة والتوتر . . كانت أموري في كلية الشريعة طوال العام على ما يرام . . أو لعلها كانت كذلك حتى أنهيت الفصل الأول وعدت إلى حماة مدينتي أزور أسرتي وأقضي فترة العطلة بين الأهل والأحباب . . فخلال ذلك فاجأتني والدتي بطلب من أخي صفوان يلح علي وعليها أن أترك الدراسة وحتى البلد وأذهب إلى عمان عاصمة الأردن حيث يقيم منذ شهور هربا من ملاحقة الحكومة له بتهمة الإنتساب إلى تنظيم الإخوان المسلمين ونقلت أمي رحمها الله عن صفوان عندما التقته بنفسها هناك في عمان مخاوف تنتابه من أن يقوم رجال الأمن باعتقالي نيابة أو رهينة عنه . . لكنني لم أجد في نفسي مبررا لإجابته ، ولا عهدت في حياتي احتمالات كتلك ، فاعتذرت لأمي . . وأكملت إجازتي كالمعتاد . . وعدت إلى دمشق ثانية مع ابتداء الفصل الثاني . . لأستأجر مع عدد من البنات نفس الشقة التي اخترناها في الفصل الأول في حي البرامكة . .
وأستأنف دوام الجامعة من جديد ، وكدت أنسى الأمر كله لولا أن التوتر الأمني بدأ يتصاعد من حولنا ، ومظاهر المسلحين وحواجز التفتيش التي اعتدنا مشاهدتها

خلال الشهور الماضية في حماة بدأت تظهر في العاصمة دمشق ، لتمتد إلى محيط الحرم الجامعي نفسه . . ويفاجؤنا عناصر الأمن على باب الكلية يطلبون البطاقات ويدققون في الأسماء . . وتنتشر الهمسات وتسري الإشاعات عن اعتقال فلان وقتل اخر واشتباك وعراك . . وما لبث الأمر أن زاد إلى العلانية . . وصار سماع رشقات الرصاص وانفجارات القنابل أمرا شبه يومي في دمشق . . وبلاغات الإذاعة وواجهات الصحف الرسمية ما عادت تكف عن أحاديث القبض على " المجرمين " ومداهمة "أوكارهم " وملاحقة عناصرهم هنا وهناك . . وفي زحمة ذلك كله . . وقد امتد التوتر إلى كل نخس وسرى الرعب في كل قلب . . بدأت أحس حركة غير طبيعية بالقرب مني أنا !

الله بيعين !
كنت على سبيل المثال قبل يومين قد اصطحبت صديقتي المقربة وزميلتي في الكلية ماجدة ل . إلى سوق الحميدية لنشتري هدية ملائمة لعمتي المريضة ، فشعرت وكأن ثمة من يتبعنا من محل إلى محل ومن شارع إلى آخر . . فلما ركبنا الباص إلى "الخيم " حيث تسكن عمتي تأكدت أن الشخص نفسه قد ركب وراءنا فتملكني الخوف جدا . . وهمست وأنا لا أكاد أقدر على تحريك شفتي بمخاوفي لماجدة . . فتبسمت وقالت : أنت موهومة وحسب ! وصباح هذا اليوم . . وعندما كنت أدخل الكلية كالعادة استوقفني عناصر الأمن فأخذوا بطاقة هويتي ودققوا فيها كما يفعلون كل يوم ثم أعادوها . . لكنني ولما انتهت المحاضرات وقفلت راجعة إلى البيت مع ماجدة شعرت ثانية وكأن أحدا ما يلحق بنا . . فلما أخبرتها بما أحس عادت فأكدت لي أنني موهومة . . وأن الأمور كلها طبيعية من حولنا ولا داعي للقلق . لكن القلق ها هو لا يزال يتملكني . . وسكون الليل البارد كأنما يزيده فيه ويؤججه . . ولم يطل الأمر بي أكثر من ذلك بعد ذاك . . فخبطة أبواب السيارات المفاجىء في الشارع أسفل منا . . والجلبة التي تميز وصول رجال المخابرات مكانا ما ، كانت كافية لتطرد كل وهم عن ذهني ، وتدفعني وقد حسبت أن مداهمة جديدة أو اعتقالا لأحد المطلوبين سوف يشهده الحي الذي

نحن فيه . . تدفعني لأهرع إلى النافذة أشع الخبر وأستجلي الحقيقة ، لكنني لم أكد أبلغها حتى بلغ مسمعي طرق على باب بيتنا أشد ما يكون . . وبينا كنت ألقي نظرة خاطفة من النافذة فألمح عددا أصعب من أن أحصيه ساعتها من سيارات المخابرات تملأ الشارع . . أتاني الصوت على باب البيت يصيح : إذا لم تفتحوا فسنكسر القفل بالرصاص ! وبحركةآلية تناولت غطاء صلاتي فوضعته على رأسي وركضت باتجاه الباب بادئ الأمر . . لكنني لم أعرف ما أفعل ! أأفتح لهم والبنات كلهن نائمات ؟ أصابني الإضطراب بالحيرة . . ثم وجدتني أهرع إلى فاطمة أكبرنا سنا وهي معلمة تشاطرنا السكن ، فأيقظتها أولا وأنا أقول لها بلا وعي : -هيا . . كأن المخابرات أتوا عليك ! ثم لمح في خيالي أن شريكة أخرى في البيت معنا اسمها سوسن س . (خريجة كلية طب الأسنان وتكمل سنتها التدريبة في دمشق) قد نفذوا حكم الإعدام بأخيها صباح اليوم في سجن تدمر كما بلغها وأبلغتنا ، فظننت أنهم إنما أتوا من أجلها . . خلال ذلك كان رجال المخابرات قد بدأوا بخلع الباب والضرب عليه بالبواريد ، فأسرعت فاطمة إلى حجابها فوضعته على رأسها وفتحت لهم . . ودخلوا يا لطيف ! شيء غيرمعقول ! قفزواحد منهم إلى السقيفة فورا يفتشها . . واندفع اخرإلى الشباك . . وثالث في المطبخ . . ورابع . . وعاشر . . ولم نجد إلا أحدهم يقتحم الغرفة علينا ، وما أن رأى مصحفا معلقا على الجدار حتى انتزعه ورماه على الأرض وصار يدوسه بقدميه كالمهووس . . فيما راح اخرون ينبشون أمتعتنا وينقبون كل زاوية في خزائننا ونحن لا نكاد نستوعب لماذا أو ما الذي كانوا عنه يبحثون ! وفي غمرة المفاجأة سمعت واحدا منهم يصيح من الصالة : -وهيبة دباغ . فتقدمت وكأنني ألج كابوسا مرعبا بالرغم عني وقلت له : ما عندنا هذا الإسم.

لكن قلبي انقطع من الرعب ، وتأكدت ساعتها أنهم أتوا علي . . فقال لهم رئيس المجموعة : -أرجعوا كل واحدة إلى غرفتها وفتشوا الهويات . فامتثلنا للطلب . . ودخلنا غرفنا ونحن نرتعد . . وتقدم عنصر مني وكأنه عسكري في الخدمة - ليفحص هويتي ، فلما نظر إلى اسمي فيها ثم إلى وجهي اغرورقت عيناه بالدموع ،

وقال بتأثر وهو يبكي : -أنت بنت بلدي . . والله يعين . سألته : لماذا ؟هل هناك شيء ! أجاب : الله بيصبر . . ماذا يمكن أن تفعلي ؟ الله بيعينك . سألته وكأنني أهوي في بئر مظلم : لماذا ؟ هل أتوا من أجلي ؟ قال وهويشيح بناظريه عني : نعم . . وذهب وأعطى الهوية لرئيس الدورية الذي كان ينادي "وهيبة دباغ " . . فنظر هذا إلي بحنق وقال : - بتقولي بكل عين وقحة أنه لا يوجد لديكم هذا الإسم ! والتفت إلى عنصر اخر وقال له : - خذها إلى غرفة لوحدها وفتشها جيدا

قهوه . . أم شاي !

أخذني العنصر إلى غرفة ثانية وأخذ واحدة أخرى من البنات وقال لها : فتشيها.. قلت له : ماذا يمكن أن تجد معي ؟ لقد فتشوا البيت كله وفتشونا منذ أن دخلوا . . لكن صوت رئيس الدورية كان يغطي على صوتي المرتجف وهو يتحدث باللاسلكي مع شخص اخرسمعته يقول له : أحضروها . فقال لي : هيا ارتدي ملابسك. ستذهبي معنا خمس دقائق وحسب
لبست جلبابي فوق غطاء صلاتي ، وكانت معي بعض النقود فأردت أن أعطيها لصديقاتي ، فقال لي : لا . . دعيهم معلك فربما تحتاجينهم . قلت وقد بدأت أستعيد بعض توازني : لن يلزموا لي ، أنت تقول خمس دقائق فكيف سأحتاجهم ؟ لكنه عاد وأكد أنني سأحتاجهم ، فلم أكترث بما قال ، ودفعت النقود لإحدى البنات بقربي ، فيما وجدتهم يدفعونني إلى الخارج ورئيس الدورية يقول لأ حد العناصر : -أمسكها من يدها . كان الدرج معتما والكهرباء مقطوعة فما رضيت أن يمسك لي يدي . قال : هذا أمر . قلت له : كلبشني ولا تمسك يدي . فتركني أنزل حتى باب البناية ليعود فيدفعني نحو باب سيارة كأنما هي غول فتح فاه ينتظر افتراسي !
وسمعت أحدا يسأل باللاسلكي من جديد: من معها في الغرفة ؟ أجاب : فلانة وفلانة. قال : أحضروهم معها . فصعد ثانية وأحضر شريكتي في الغرفة ماجدة وملك غ . ولم تلبث السيارة أن تحركت وسط جمع من رجال المخابرات انتشروا على طول الشارع ، وأطلت سياراتهم المرعبة من كل زاوية ومفرق طريق . . وفي غمضة عين وجدنا أنفسنا قرب ملعب تشرين بالعباسية

في فرع المنطقة المسمى "السادات ". . وهناك أدخلونا إلى غرفة مملوءة بأجهزة كهربائية فيها أضواء كثيرة حمر وخضر تشتعل وتنطفئ باستمرار كأنها أجهزة اتصالات أو لاسلكي . . وما أن جلسنا حتى سالنا أحد العناصر الموجودين فيها: -ماذا تشربون . . قهوة أم شاي ؟
ولما لم ننبس من خوفنا ببنت شفة تطوع بالإجابة عنا وقال : - ساتي لكم بقهوة مرة لتصحوا رأسكم . . وذهب فأحضر فنجانا لكل منا وجلس يراقبنا ، فلما لاحظ أننا لا ندنيها من أفواهنا سأل : - لماذا لا تشربين ؟ هيا صحي رأسك . . الساعة الآن الثانية وأنت نعسانة بالتأكيد . قلت وشفتاي ترتجفان : أنا أشرب . قال : لا . . أناشايفك . قلت له : وهل تراقبني ؟ لا أشتهيها الآن . قال بسخرية : لازم تشربي ليصحى رأسك وتعرفي تحكي جيدا . كففت عن الكلام . . وأدنيت الفنجان من فمي وتظاهرت بالشرب . . وكنت أعود فأدنيه ثم أعيده وجسمي كله يرتجف . . وأنا لا أدري ما الذي يمكن أن يحدث في اللحظات التالية !

إلى التحقيق !
لم يطل المقام بي في الغرفة الأولى كثيرا فماهي إلا دقائق حتى سمعت مناديا يهتف باسمي ، وسرعان ما اقتادني عنصر اخر إلى مكتب رئيس الفرع نفسه ، وهو كما علمت بعدها ابن أخت رئيس الدولة واسمه معين ناصيف . دخلت هناك فوجدت رجلا عيناه جاحظتان وحمراوان كالدم ، يرتدي "جلابية" شفافة ورقيقة ويلف رجلا على رجل فتنكشف ساقاه من تحتها بشكل مقزز . اجلسي هنا . قالها لي بلهجة بادية الخشونة وأضاف قبل أن أبلغ الكرسي الذي يتوسط الغرفة فيكشفني من كل جانب : أنت منظمة أليس كذلك ؟ قلت : لا. قال : إذا فما علاقتك بالإخوان ؟ قلت : لا توجد لي أي علاقة بهم . قال وقد.بدأ يتململ في كرسيه : وإذا فكيف تقومين بتوزيع كل مجلات النذير ؟ ثم هذه الرسالة من أين أخرجناها ولمحت بين أصبعيه ورقة صغيرة عرفت أنها الرسالة التي كان أخي صفوان قد كتبها قبل مغادرته سورية كتوصية بأبي عندما ذهب الأخير مع شقيقي الأكبر إلى عمان للعلاج هناك بعدما

أصابه مرض انحلال الدم إثر ملاحقة صفوان حزنا وخوفا عليه ، ولكن مسؤولي الحدود أعادوهم وقتها لأن أخي لم يكن قد أدى خدمته الإلزامية ، وأحببت أن أحتفظ بالرسالة كذكرى من أخي . . فلما فتشوا البيت عثروا عليها وكان مكتوب فيها "حامل هذه الرسالة هو والد أحد المجاهدين فاعتبروها شيئا كبيرا ، وجعل رئيسى الفرع يقرأ لي منها بسخرية ويقول : - والد أحد المجاهدين أليس كذلك أبوك هذا عامل نفسه إشتراكي وهو من زعماء الإخوان . . لكن أنا بعرف أفرجيه . . والله لأعمل جسده مصفاية ! وظلت هذه العبارة محفورة في ذاكرتي حتى سمعت عن أحداث حماة بعد سنوات . . وعلمت أنهم عذبوا أبي أشد العذاب قبل أن يرشوه أكثر من مرة ، حتى صار جسده كالمصفاة بالفعل !

وضاع الدليل !

أنا لست منظمة ولا من الإخوان . قلتها وقد سرت القشعريرة في جسدي خوفا على أبي وعلى نفسي . قال : وماذا عن الرسالة ؟ قلت : لا أعرف . . ربما نسيها أحد هناك أو وضعها لي أحد . وكأنما أراد أن يلج إلى غايته من مدخل اخر ، فجعل يقلب الملف الذي بين يديه وسأل : من تعرفين من أصدقاء أخيك ؟
- لا أحد . . لم أر أخي من زمن ولا علاقة لي بأصدقائه ؟
قال وقد اشعت عيناه : وماذا عن عبد الكريم رجب ؟
قلت : من هذا . . لا أعرفه . فعاد إلى الصراخ من جديد وصاح بي : إذا فلن تعترفي أنك منظمة . قلت : لا . .أنالست منظمة فكيف أعترف بذلك ؟ فتناول "شحاطته " من قدمه ورماني بها ، لكنني تنحيت برأسي قليلا فتجاوزتني وأصابت الكاتب ورائي . . فقال وهو يشتمني : - وتقولين أنك لست من الإخوان . . هذه التصرفات كلها تصرفات إخوان ! ثم عاد يتحدث عن الرسالة ويلوح بها أمام وجهي . . ولم يلبث أن غادر الغرفة لبرهة فظننت أنه ذهب ليأتي بجلاد أو أحد ما ليعذبني ، فلما عاد أراد كأنما أن يريني الرسالة أو يستخدمها من جديد ، فجعل يقلب بين مجموعة أوراق كانوا قد أخرجوها من سلة المهملات ببيتنا ، وقاموا بكيها وتلصيقها جميعا أملا في أن يجدوا بينها دليل إدانة

ضدي ، فلما لم يجد الرسالة سأل الكاتب ورائي : - هل دخل الغرفة أحد ؟ أجاب الكاتب بانتباه : لا سيدي . قال له : هل تحركت هذه ال . . من مكانها ؟ هل غادرت أنت الغرفة؟ أجابه ثانية : لا . فجعل يقلب وينقب أمامه وحوله وبين يديه فلم يجد شيئا . . وضاعت الرسالة أين . . لا أدري ! فازداد التآمه وعلا صراخه ، وجعل يهددني بعبارات بذيئة ويقول : - رفيقتك هنا في الملف أمامي اعترفت بأنك منظمة ، وإذا لم تعترفي بنفسك فلدينامايجعلك تفعلين ! قلت له وقد جرحتني الكلمات البذيئة واستفزني التهديد : مهما كان لديكم من وسائل فأنا لست منظمة . . وسأبقى أقول أنا لست منظمه

سجل الاتهام

أخرجوني من غرفة التحقيق إلى غرفة كالأولى التي استقبلتنا مملوءة بأجهزة مشابهة كلها أضواء ملونة دائمة الوميض . . وأخذوا صديقتي ماجدة إلى غرفة رئيس الفرع . . ولم أكد ألتقط أنفاسي حتى عادوا فنادوني وأخذوني إليه من جديد ، لأجد قائمة بالإتهامات تنتظرني تكفي أن توزع على ثلاثة رجال أنت متهمة بأنك منظمة : توزعين مجلة النذير ، وتعطين دروسا لسيد قطب في مساجد دمشق ،وقمت بشراء بيت للتنظيم ، ونقلت سيارة ذخيرة فيها جهاز إعلامي بنفق في منطقة المهاجرين . . وهناك اعتراف ثابت من واحدة من صديقاتك بكل ذلك . . ورفيقتك هذه متأكدة تماما من كل المعلومات وهي تعرفك جيدا ودرستك وعاشرتك ولا تكذب أبدا .

هي كاذبة ، وأنا ليست لي علاقة بما قالت ولم أفعل أي شيء أو أشارك بأي مما ذكرت . قلت ذلك وقد بدأت الأمور تتضح في ذهني بعض الشيء ، واستطعت من ثنايا كلامه أن أدرك أن شخصا بعينه قد نقل هذه الوشايات لهم وملأ ملفي بكل هذه الأكاذيب . . الشخص الذي طالما كنت أسمع تحذيرات عنه رغم أن عيناي لم ترياه طوال حياتي . . إنه عبد الكريم رجب : جاسوس المخابرات والمتعامل معهم من داخل صفوف الإخوان . . أو دسيستهم داخل الصفوف ! تشجعت لهذا الذي وصلت إليه ، وأدركت أنها تهم رخيصة أراد أن يملأ بها الصفحات وحسب ، وازددت إحساسا مع كل الظروف

بالثقة . . فلم أجب تهديدات المحقق رئيس الفرع وهو يكرر علي من جديد : -إذا لم تعترفي يا . . . فلدينا ما يجعلك تعترفين !

في انتظار الاعدام !

إلى الغرفة الغامضة أعادني عنصر من المخابرات بأمر من المحقق ، ولم يلبث وأن أحضر رفيقتي ملك لتنضم إلي ، وكانت المسكينة في أيامها الأولى بدمشق وفي أول سنة لها بالكلية معي ، فلم تكن تعرف لا عن البلد ولا من الأشخاص أحدا غيري . . وبعد أن أودعانا تحت رقابة العنصر في الغرفة أخذوا ماجدة وبدأوا معها التحقيق . . فلما انتهى دورها عاد فطلبني وقد مض من الليل أكثره وأعاد نفس الكلام علي : -

رفيقتك الأولى يقصد عبد الكريم رجب اعترفت عليك اعترافا أوليا ، وهذه ماجدة اعترفت الان بنفس الكلام ، وقالت بأنك منظمة ومسلحة وقمت بأعمال كثيرة للتنظيم وتوزعين مجلة النذير . . ومن غير أن ينتظر جوابا مني أمر عنصرا فأخرجني من الغرفة واقتادني إلى الممر ثم وجهني باتجاه الجدار وأمرني أن أرفع يدي وإحدى رجلي إلى أعلى . . فقلت في نفسي : خلاص . . ها هم أكملوا صياغة التهمة لي . . والان سيرشوني أو يعدموني !

وما هي إلا برهة حتى وجدت رفيقتي ملك بجانبي يأمرها العنصر أن تفعل مثلي ، فازداد إحساسي أنهم سوف يرشوننا لا ريب ، ولم أعد أحس ساعتها بنفسي . . كان كل شعوري مركزا حول النهاية التي دنت . . وكيف ستكون : رشا من الخلف أم إعداما بالمشنقة أم ماذا ؟ وكأنني وقد تملكني الشعور بتحقق المنية استجمعت بقايا جلدي والتفت "بحلاوة الروح " إلى العنصر المكلف بمراقبتنا فسألته : - لماذا أوقفتمونا بهذا الوضع . . ما الذي فعلناه ؟ قال بلا مبالاة : أنتم تعرفون ماذا فعلتم . قلت : تقصد أنهم سيعدموننا ! أجاب هازئا : لا . . هل تظنين الإعدام يأتي بهذه السرعة والسهولة !

إلى الفلق !

مرت نصف ساعة أو ربما أكثر ، فالوقت في مثل هذا الموقف لا معنى له . . أدخلوني بعدها على غرفة الأجهزة وأمروني أن أجلس فجلست . . ولم يلبثوا أن أحضروا ملك فأجلسوها على كنبة أمامي في مواجهة الباب الذي كان مفتوحا بعض الشيء ، فما كادت المسكينة تلامس الكنبة حتى نامت . . ولم تعد تحس بشيء . . وأنا أكاد من توتري أتقطع ، وصوت ماجدة في غرفة التحقيق يبلغ أذني مرة ويغيب مرة . . فلا أدري ماذا تقول ولا أعلم أي نوع من العذاب الآن تنال . .
وألتفت إلى ملك وأهمس وبودي أن أصيح لتسمع : -ملك . . ملك . . حاولي فقط أن تنظري من طرف الباب وتعلمي ما الذي يجري . . . ولكنها في غفوتها لا تجيب ! وظلت على هذه الحال حتى الصباح أراقبها وأحاول أن أحادثها ولا فائدة ، وأنا على أعصابي لا أستطيع حتى أن أستقر على الكرسي تحتي ، وقد اجتمع علي النعاس والتعب والخوف معا . . وبين كل فينة وأخرى عنصر قادم وأخر عائد . . هذا يلقي سؤالا بلا معنى واخر يكتفي بالنظر والتبسم . . حتى أطل أحدهم مع إطلالة الصباح يسأل : - هل تريدون أن تفطروا ؟ ألم تجوعوا؟ قلت له :لا. قال : ماذا تشربين ؟ أجبت : لا شيء . . شكرا . قال : سأتي لك بكأس شاي تصحين به رأسك . وذهب فأحضر الكأس ووضعه أمامي ، ولكنني لم أستطع من توتري وتعبي أن أدنيه من شفتي . . وعندما بلغت الساعة الثامنة دخلوا من جديد فأيقظوا ملك ، وأخرجونا إلى تحقيق جديد في القبو هذه المرة ، وبينما هم ينزلوننا درجات السلم قلت هامسة لملك : - اخ . . الان سيأخذوننا إلى الفلق لا محالة ! فانتفضت المسكينة تقول : لا تقولينها ! قلت : ومن الذي قال لك أن تنامي طوال الليل ؟ لماذا لم تسمعي ماذا قالوا لماجدة ؟ كنا استفدنا بعض الشيء أو فهمنا ما الذي سيحدث .

أنا . . ضد الوطن !

عبر ممر كئيب في القبو أخذوني إلى غرفة أخرى للتحقيق وجدت في صدارتها وجها جديدا هو الرائد تركي . . أجلسني على طرف سرير عسكري في طرف الغرفة وجعل على مدى نصف ساعة تقريبا يعيد تلاوة نفس

الإتهامات علي بشكل سؤال وجواب ، ويدونها في سجل معه . كنت من تعبي وارهاقي لا أستطيع متابعة كلامه أو حتى فتح عيني . . فكنت أكبو قليلا ثم أنتبه فأشد نفسي . . وعندما كان يبلغني صوته الأجش بعربيته الثقيلة أحس وكأن أمعائي توشك أن تخرج كلها من فمي . . فلما انتهى كان أملي الوحيد في كل الدنيا وقتها أن أجد ولو بلاطة ألقي عليها جسمي المنهك وأنام . . لكن العنصر عاد واقتادني عبر الممر نفسه إلى غرفة أخرى في القبو وجدت فيها ضابطا اخر برتبة رائد استقبلني من فوره بعبارات بذيئة وكلام قذر . . واللهجة العلوية واضحة عليه . . واستمر حوالي الساعة يسمعني العبارات ذاتها : - أنت من الإخوان . . وأنت منظمة اعترف الجميع عليك . . وأنت قمت بأعمال كثيرة تضر بالوطن ولا تستحقين أقل من عقوبة اللإعدام . . كان كلامه أقرب إلى شريط تسجيل منه إلى الحديث . . يعيده بحرفيته ويكرره فلا أميز انتهاء المقطع من بداية مقطع جديد إلا من اختلاف الشتيمة أو تغير عبارات السخرية والإستفزاز . . ووجدتني وكأنما تحول رأسي إلى جرس كبير يقرع هذا الرجل عليه كل لحظة بكلماته فيرتج ولا يستقر . . وتتكرر فيه العبارات فيزداد اهتزازا وضجيجا : - الجميع اعترف عليك . . الجميع اعترف عليك . . أنت منظمة . . ضد الوطن . . إلى الإعدام . . إلى الإعدام . . إلى الإعدام ! وكأنما غبت عن الوجود اخر الأمر ، فما وجدتني إلا وعنصر اخر يدخل الغرفة وملك وماجدة في طرف اخر منها ويسأل : - ألم تجوعوا يا بنات ؟ قلناله : لا ،لم نجع . فرد بلهجة ذات مغزى : الآن سنطعمكم فروجا مشويا على أية حال ! قلت له وقد فهمت أنه يقصد التعذيب : نحن بغنى عن طعامكم . جذبنا نحن الثلاثة ، ووجدتهم يقتادوننا عبر الممر نفسه فالسلم حتى بوابة الفرع ، ولما سألته وقد دب في القلق من جديد : - إلى أين ؟ قال : الان سترون . أصعدونا في سيارة عسكرية نحن الثلاثة قبالة بعضنا البعض ، وصعد عنصران مسلحان وراءنا ، ولم تلبث السيارة أن انطلقت بسرعة مجنونة كأنما تريد أن تقفز فوق بقية السيارات التي كانت تخلي لها الطريق من بعيد ، وأمامنا سيارة أخرى تطلق الصفير المدوي ، وثالثة من خلفنا للحماية أو المراقبة . . ولم نكد نبدأ مع

انعطافات السيارة العنيفة في الصعود والهبوط حتى تملك ملك الدوار وأخذت في الإستفراغ ، فملأت السيارة من مخلفات جوفها ، وجعلتنا ونحن في حالتنا المبكية نكاد نختنق ، فأملنا رأسها للوراء باتجاه الباب الخلفي بين العنصرين ، فجعلت تكمل تقيؤها بينهما طوال الطريق ، من فرع التحقيق العسكري بالعباسيين إلى سجن أمن الدولة بكفر سوسة.

الفصل الثاني
كفر سوسة : رحلة خارج الزمن يناير 1981 -1أكتوبر 1982

كفر سوسة : رحله خارج الزمان
عبرت السيارات الثلاث بوابة السجن العامة مضيا نحو المبنى الرئيسي الذي انتصب أمامنا بطوابقه الثلاث ، والتفط السائق حوله بين ممرات ومداخل معقدة حتى بلغ بابا كهربائيا توقف بنا عنده ، واجتذبتنا الأيادي مرة أخرى فاقتادتنا عبر ساحة المبنى الداخلية إلى باب اخر تنزل خمس درجات منه إلى القبو المعتم ، فإذا هو عالم اخر من عوالم الرعب التي قطعناها خلال اليومين الماضيين عن غير ما اختيار . مضت الأيدي القاسية عبر ممر القبو المظلم فالتفت بنا جهة إليسار وليس في طريقنا إلا الصمت والأ بواب الحديدية الكئيبة ووحشة المكان ، ولم يلبث أن قطع لهاثنا المتدفق صوت أجش أتانا من وسط العتمة ينادي : -منيرة! فما كدنا نلمح المنادي حتى بدت من الجهة المقابلة في اخر الممر فتاة مضفورة الشعر ترتدي "جلابية" شاعت موضتها وقتذاك ، وجعلت تتقدم نحونا متمايلة يوحي مظهرها أنها سجانة أو موظفة هناك . . فلما اقتربت ومن غير أن يلتفت إلينا قال لها أبو عادل رئيس نوبة السجانين وقتذاك : - هيا فتشيهن واحدة واحدة . ودفع بي أول الجميع إلى غرفة علمنا بعدها أنها غرفة التحقيق والتعذيب ، ودخلت منيرة هذه ورائي وسألتني ؟ - ما اسمك ؟ قلت وقد بلغ التوتر بي مبلغا : وماذا تريدين من اسمي ؟ أحسست وقتها أن بامكاني أن أقتلها من شدة توتري بيدي . . لكنها قالت ببرود : -وليش معصبة؟ .

قلت : والله لا أدري ! ماذا تريدينني أن أفعل ؟ هل يمكن للإنسان أن يكون مبسوطا هنا ! أجابت بنفس برودها ورتابة صوتها : بس لا تعصبي . . أنا سجينة مثلك. قلت بحدة : لماذا تكذبين على ؟ شكلك هذا ليس كشكل السجينات . قالت : والله العظيم أنا سجينة وقاعدة في مهجع مملوء بنسوان من الإخوان . لم أجرؤ أن أزيد معها وظننتها سجانة تريد أن تستدرجني في الكلام خاصة وأنها تتحدث بالقاف العلوية ، لكنها عادت وقالت لي : ما صدقتيني ؟ بكره بنلتقي بالمهجع وبذكرك . أحسست لهجة صدق في حديثها فاستأنست بعض الشيء وسألتها دون أن أغادر الحذر : - ومن معك من الإخوان هناك ؟ قالت : هناك واحدة حاجة من حلب وأخرى اسمها أم شيماء و جلست تعد لي أسماء وألقاب لا أعرفها وأضافت : وأنا الشيوعية الوحيدة في المهجع والبقية كلهن من الإخوان فتشتني منيرة بعد ذلك ، وفعلت الشيء نفسه مع ماجدة وملك بالتتابع ، وكان العنصر في انتظاري حينما انتهت ، فأخذني وأصعدني ثانية من القبو ، واقتادني عبر سلالم وممرات عديدة إلى المبنى الجنوبي للفرع ، ليبدأ التحقيق معي حسب الأصول !

بين يدي الجلاد !

كان كل ما حولي يثير الفزع والإضطراب : هذا داخل وذاك خارج . . باب يقفل واخر من أين لا أدري يفتح . . وكل قادم أو عابر يحمل بيده جهاز لاسلكي أو كبلا أو أداة أخرى للتعذيب . . وفي البداية أدخلوني على مكتب رئيس الفرع ناصيف خير بك ، فأحسست وكأنني انتقلت إلى عالم اخر . . فالغرفة واسعة دافئة أنيقة التأثيث ، يمتد السجاد الفاخر على أرضهما بمهابة وقد توزعت عليه كنبات وثيرة ومكتبة ومكتب فاخر يحتل تمثال لرأس الرئيسس الأسد ركنا منه ، بينما ينتصب في زاوية الغرفة القصوى تمثال برونزي آخر لرأس الرئيس بالحجم الطبيعي . وأما المقدم ناصيف الذي كان منهمكا بمحادثة لاسلكية وقتها فلم يعرني أكثر من نظرة ازدراء بطرف عينه ، وأومأ للعنصرأن يعيدني إلى مكاني وأكمل حديثه . . ولم ألبث أن اقتادني ذاك ثانية إلى غرفة أخرى مقابل مكتب ناصيف ، فوجدت مجموعة أشخاص

مجتمعين على شاب مقيد يعذبونه ويحققون معه ، وناصيف ممسك جهاز اللاسلكي بيده يتحدث فيه مرة ومع الشاب المسكين والعناصر مرة . ولم يلبث أن أشار بيده إلى العنصر الذي أحضرني فجذبني ذاك من منكبي وأمرني أن أنتظر خارج الغرفة من جديد ، وأنا كالنائمة لا أكاد أقدر على متابعة المشاهد المتجددة والوجوه المتعاقبة والأصوات التي تختلط الشتائم فيها بالإستغاثات والآهات ! وسرعان ما عاد العنصر فأدخلني الغرفة ذاتها لأحضر تعذيب الشاب نفسه لعلي أخاف وأتكلم ما يريدون . كانوا أربعة أو خمسة يشتركون في التعذيب أمامي بالكابل والعصي والخيزران والكهرباء : ناصيف خير بك رئيس الفرع ، والرائد عبد العزيز ثلجة وهو رجل ضخم الجثة بالغ الجلافة ، وعناصر آخرون كان أحدهم لم يبلغ العشرين بعد مجندا من درعا كما عرفت لاحقا ينادونه حسين ، ولم أعرف من كان ذاك الشاب ولماذا يعذبونه ، لكنه كان يصيح طوال التعذيب ويستغيث مناديا : - والله العظيم موأنا . . ثم اعترف اخر الأمر لا أدري ليتخلص من مزيد من العذاب أم لسبب اخر فأقرأنه قتل أحد الضباط . . وعندما اشتد التعذيب عليه وكاد صراخه يصيبني بالإنهيار التفت إلى العنصر معي وسألته : -لماذا أتيتم بي هنا ؟ قال بسخرية : لا أعرف . . إسأليهم. قلت بانفعال : لا أريد أن أسألهم ولكن أنا ما عندي شيء لأعترف به ويضعوني في هذا الموقف فأتفرج على تعذيب الناس . ولم يزد العنصر عن أن هز كتفيه وابتسم متهكما وهو يقول : -لا أعرف . . لا علاقة لي بأي شيء هنا ! واستمر الضرب والتعذيب حوالي نصف الساعة أنهضوا الشاب بعدها مضرجا بالدماء والكدمات فكبلوا يديه ورجليه ، وفيما اقتادني العنصر وراءه لأكمل كما يبدو رؤية المشهد ، سحب الرائد ثلجة الشاب إلى رأس الدرج ، ثم ركله برجله بكل قسوة ، فتدحرج هاويا يئن ، ونادى على أحد ما هنالك لينزله إلى المنفردة في القبو أسفل المبنى ، وعاد فأمر العنصر ليدخلني إلى الغرفة مرة أخرى ، فأوقفني في زاويتها ، وجعل ناصيف وثلجة يتحدثان باللاسلكي لا أدري مع من ، ثم خرج الجميع فجأة ، ليعود الرائد ثلجة وحده ويغلق الباب كهربائيا بضغطة زر ، فاستوى الباب بالجدار حتى لم أعد أدري من أين دخل ولا أين كان هذا

الباب . . ومن غير أن يلفظ أي كلمة أو يسألنى أي سؤال لم أحس إلا وصفعة مفاجئة تأتيني على حين غرة اصطدم رأسي من عزمها بالجدار وارتد ، وصارت الدنيا تدور كلها في ، وصرت أرى الرائد أمامي أربعة أشخاص معا ، وأرى رأسي أسفل مني ورجلاي فوق الرأس وفوقي ! لم يزد عن أن قال : - انظري . . إذا ما بدك تحكي ما بتعرفي ما الذي سيحصل لك .

بساط الريح !

خروج الرائد ثلجة برهة لم أكد أتمالك فيها نفسي حتى عاد مع ناصيف ورئيس الدورية التي أحضرتنا من البيت وشخص رابع لم أعرف من كان . وابتدرني ناصيف يقول : -وليك . . شو ما بدك تحكي ؟ ما بدك تقري وتدلينا فين أخوك ؟ قلت له :أخي ليس هنا . قال : إذا أين هو ؟ قلت : لا أعرف الظاهرأنه ذهب ليكمل دراسته . وواقع الأمر فإن أخي صفوان كان قد أخبر أمي عندما زارته في الأردن وقال لهما : إذا سألك أبي أين أنا فقولي له ذهب ليكمل دراسته في الباكستان . تذكرت ذلك بمجرد أن سألني عنه ، ولم أكن أدري وقتها بأن أمي كانت معتقلة في نفس السجن معي ، وأنه سألها قبل دقائق عن أخي فأجابت الجواب نفسه ، والتقى كلامي مع كلامها في هذه النقطة ، الأمر الذي أعفاني من التعذيب على ذلك السؤال ، ولكنه سألني بلؤم : -أنت تعرفين بأن أخاك هنا ، وسوف تأخذيننا وتدليننا عليه ، أو على رفاقه والبيت الذي يجلسون فيه . قلت : لا أعلم أي شيء من هذا . . فنادى على أحدهم وقال له : إذهب وأحضر لها بنطالا وأعطها إياه خليها تنستر وضعها على بساط الريح . تقدم العنصر مني وطرحني على لوح من الخشب له أحزمة طوق بها رقبتي ورسغي وبطني وركبي ومشط رجلي ، ولما تأكد من تثبيتي رفع القسم السفلي من لوح الخشب فجأة فبات كالزاوية القائمة ، ووجدتني وأنا بين الدهشة والرعب مرفوعة الرجلين في الهواء وقد سقط الجلباب عنهما ولم يعد يغطيهما إلا الجوارب والسروال الشتوي الطويل ، ولا قدره لي على تحريك أي من مفاصل جسمي . . وبكل وقاحة صاح العنصر يقول : - انظر سيدي .. أرأيت ؟ قالت إنها ليست من الإخوان . . ولكن انظر كيف أنها منهم

ومجهزة نفسها للفلقة ولا حاجة لها للبنطلون ! حاولت دفع أي من القيود الجلدية عن مفاصلي فما استطعت . . وقبل أن أحاول إعادة لوح الخشب إلى استقامته طلبا للستر كانوا قد علقوه من جنزير مثبت به إلى السقف ، وتقدم رئيس الدورية التي اعتقلنا وبيده خيزرانة طويلة رفيعة وسألنى بلهجة تهديد صريح :

-شوما بدك تحكي ؟

قلت :ليس لدي أي شيء لأحكيه . في نفس الوقت كان الرائد ثلجة فوق رأسي يجهز مولدا كهربائيا مربع الشكل موصولا بالفيش وله يد يدار بها وملاقط قربها مني وأطبقها فجأة على أصابع يدي . . وفيما هوى ذاك بالخيزرانة على بطن رجلي أطلق هذا شحنة من الكهرباء سرت كالنار في بدنى ، فقال دون أن يلتفت لصرختي : -هه إلسه مابدك تحكي ؟ صرخت : قلت لكم ماعندي شيء للحكي . قال ببرود : أرأيت كم كانت الكهرباء قوية؟ هذه أخف الموجود لدينا! قلت : حتى ولو كان ، هل أعترف بأشياء أنا لم أفعلها ! قال : لا . . أنت تكذبين وتخبين علينا . . بدك تقومي الآن تأخذينا وتدلينا على البيت الذي يسكن فيه أخوك ورفاقه والا فسنأخذك إلى تدمر ! وأقبل ثلجة هنا بصورة قربها من وجهى وسألنى : - هل تعرفين هذا الشاب ؟ قلت :لا. قال : كيف ؟ ألا تعرفين رفاق أخيك ؟ قلت :لا. قال : لكن هذا رفيق أخيك الحميم . . هذا عبد الكريم رجب . . ألا تعرفينه ؟ قلت بحزم وقد تأكدت لي الوشاية الرخيصة التي حيكت لي : لا . . لا أعرفه . تبسم الرائد ثلجة ابتسامة صفراء وشرع يقرأ من مجموعة أوراق بين يديه بعين ، وعينه الأخرى تتاج انفعالات وجهي : - هبة الدباغ : منظمة مع الإخوان وتتعامل معهم . . اشترت لهم بيتا ، وتعطي دروسا لسيد قطب في مساجد دمشق و . . صرخت بانفعال وأنا أسمع قائمة الإتهامات الكاذبة للمرة الألف : كذب . . كذب . . لا أعرف أي شيء تتحدث عنه . دس الرائد ثلجة الأوراق بوجهي وهو يقول : -ألا تري ؟ هذا كله مكتوب هنا . . كله من اعترافات الرجب . . هو الذي تكلم عنك بهذا ، وهو من الإخوان مائة في المائة ويعرف عنك كل شيء ولا بدوأنك تعرفينه أيضا . . عدت إلى قولة كلا . . وعاد التعذيب من جديد ، وصار رئيس الدورية يضرب قدمي بكل عزمه ، حتى أصبحت

الخيزرانة عندما تهوي عليهما تشق الهواء بصوت كالصفير ، وجاء عنصرآخر بخيزرانة ثانية وجعل يشارك معه الضرب ، فيما عاد عبد العزيز ثلجة فقبع فوق رأسي وجعل يكوي أصابعي بالكهرباء من جديد . كان الألم أشد من أن يوصف . . وكنت في البداية أصيح : يا الله . . لكنني لم أعد أستطيع اخر الأمر أن أخرج صوتي ، فصرت ألوح برأسي فقط ولم أعد أحس بشيء . . ووجدتهم بعد عشر دقائق تقريبا من الضرب المتواصل يتوقفون فجأة ، ومع الشتائم والعبارات البذيئة طرق سمعي عبارة : - إلى تدمر! وسرعان ما انفكت القيود عن مفاصلي ، وسحبني عنصر من غرفة التعذيب عبر الممرات والسلالم ثانية إلى سيارة متوقفة عند الباب ، ففوجئت برفيقتي ماجدة قد سبقتني إليها بحراسة عنصر آخر . أركبانا معا ولكنني لم أجرؤأن أتحدث معها بشيء . . وانطلقت السيارة بحركة مسرحية إلى أن بلغت الباب الخارجي ، فسألنى من جديد : -لسه ما بدك تحكي ؟ أحسست وكأن أعصابي المشدودة تصيح كلها معي بصوت واحد : -ما عندي أي شيىء أحكيه . . أنا لا علاقة لي بأحد . . هل تريدون أن أكذب عليكم فقط ؟ هل تريدون ! توقفت السيارة ، ولم يلبث السائق أن عاد بنا إلى المبنى من جديد، وأعادوني مرة أخرى إلى التعذيب . . وعادت نفس الأسئلة والإتهامات تطرح علي ، لكن الضرب والتعذيب اشتد أكثر ، وزاد عدد المشاركين بتعذيبي حتى لم أعد أستطيع أن أعرف عدد من حولي أو عدد المحصي والخيزرانات التي تهوي على رجلي . . وبدأت أرى الغرفة كلها عصيا وخيزرانات . . والناس فيها من كثرة أسئلتهم كالضفادع تنق وتنق بصوت واحد غامض . . فلم أعد في النهاية أجيب على أحد ! وأتاني صوت الرائد ثلجة من جديد يقول : - ها . . أنت إذا مسلحة . . انظروا إليها . . تدعي البراءة وتنفي أنها منظمة وهي ليست من الإخوان وحسب . . ولكنها مسلحة أيضا! أحسست أن تهمة أكبر تلفق لي هذه المرة فصرخت بعصبية : لا . .أنا لا علاقة لى بأحد . . وأنا لست مسلحة . قال : ولكن رفيقتك ماجدة هي التي قالت ذلك عنك . قلت : لا تصدقها . . أحضرها لتقول ذلك أمامي . . ربما قالت ذلك من خوفها حتى تنجو من الضرب . قال : لا . . رفيقتك لا تكذب . . هى أصدق منك

. . تكلمت عن كل شيء وما تعذبت ، وأنت أذا لم تتكلمي فستبقي تأكلي ضربا حتى تحكي . وتقدم ثلجة من جديد نحوي وبيده بطارية كهرباء وضعها على فمي مباشرة وقال بلهجة التهديد : -الن تتكلمي ؟ قلت : ما عندي شيء أحكيه . . مهما وضعت لي الكهرباء أو أطعمتني ضربا فما عندي شيء أحكيه ولن أكذب على نفسي . وهنا صاح ناصيف بضجر : - هيا أنهضها وأعطها ورقة لتكتب ما لديها من معلومات وسنرى بعدها . والتفت نحوي مهددا يقول : -إذا لم تتحدثي بكل شيء هذه المرة فاعلمي أن لدينا عناصر الواحد منم كالوحش يسد الباب . وأضاف : - هل تعرفين ألشوايا الديرية كيف يكون شكلهم ؟ إذا لم تعترفي فسأدخلهم عليك وسنرى بعدها !

الموت راحة المؤمن !

أنهضوني عن "بساط الريح " فوجدت نفسي مبللة من غير أن أشعر، وكنت كأنما أغمي علي أثناء التعذيب فدلقوا علي سطل ماء حتى أصحو . تلفت حولي كالسكرى فرأيت الغرفة خلت تقريبا من الناس ، وأدركت من خلال نافذة كانت فوق رأسي أن الدنيا قد أصبحت ليلا ، فقدرت أن ساعتين أو ثلاث انقضت علي وأنا في التعذيب ! وبينا أنا لا أزال أحاول استعادة توازني جاء أحد العناصر بورقة وقلم وجلس أمامي يقول : - انظري . . إذا حكيت فستساعدي نفسك ، وإلا فستطمسي أكثر مما أنت طامسة . قلت له : ماعندي أي شيء أحكيه . قال : لا أحد يأتون به إلى هنا وما عنده شيء . . ولا أحد يصل هنا إلا إذا كان مذنبا . قلت له : ولكن أنا ليس لدي أي شيء . قال : أنت حرة . وأعطاني استمارة معلومات عامة عن دراستي ومدارسي ثم عن علاقتي بتنظيم الإخوان . . أجبت بما أعرف وأعطيت الورقة للعنصر فذهب بها ، ولم يلبث أن عاد الرائد ثلجة يلوح بها وملامح الغضب بادية على وجهه وهو يصرخ في : - هل هذه أجوبة تلك التي أجبت بها يا أخت ال . . . واندلقت كل الشتائم والعبارات البذيئة دفعة واحدة من لسانه وكأنها كانت تنتظرفرصتها للإفلات وفى آخرعبارة أطلقها سمعته يقول :أنت تعرفين هذا البيت الذى يسكن فيه أخوك ورفاقه وبدك تدلينا عليه الآن

لكن أنا أعرف لماذا لا تريدين ذلك . . تريدين أن تماطلى بالوقت حتى يهربواوسجل دون أن أرد عليه بعض الكلمات على الاوراق التى معه وخرج ولم يلبث أن عاد وقالوخرج ، ولم يلبث أن عاد وقال : - إذالم تتكلمي فسننزلك إلى القبو ،والقبوإذا نزلت إليه لا تخرجى منه حتى تموتى قلت له : أحسن. . الموت راحة المؤمن ! قال بغيظ :وتجيبين بكل وقاحة وكل عين يخرب بيتك الم تحسي كم أكلت من قتل ؟ ألا تفكري في أن ترحمى نفسك وتعترفى لتخلصىمن هذا العذاب. قلت له :لكن أناليس لدي أي شيء حتى أعترف به . . قلت لكم ماعندى شىء : في تلك اللحظة دخل ناصيف خير بك من وسمعنى أقول ذلك جديد للرائدثلجة،فابتدرني بتكشيرة ونظرة مرعبة وقال والشتائم البذيئة تسبق كلماته- إذا الم تعترفي بكل شيء الان .. مباشرة . .فسوف أعريك من ثيابك صحت وقدهزني التهديد:لكن اناماعندي شيء احكيه . قال بلهجة الأمر:إخلعي جلبابك .وقفت هنا ونظرت إليه والخوف الحقيقي يغمرقلبي لأول مرة . ل قال ألاتريدين أن تخلعيه؟ أناسأخلعه لك. وتقدم مني فمد يده يريد أن يفك أزرار الجلباب فما وجد شيئا . ففي تفصيلة ذلك الجلباب كانت الأزرار مخفية ، فحول يده وأنا أحاول مدافعته إلى رأسي لينزع حجابي فلم يستطع . . أمسكني من شعرى تحت الحجاب وكان طويلا وقتها وملفوفا للخلف أمسكني منه وبدأ يشده فينجذب رأسي كله من غيرإرادة مني إليه ،ثم يعود ويخبطه بالجدار . .وسيل الشتائم البذيئة يرافق ذلك كله ،لكنه لم يتمكن رغم ذلك من نزع الحجاب لأن غطاء الصلاة كان قد نزل في أكمامي عندما لبست الجلباب فوقه ساعة الإعتقال . .فصاح بي : وتقولي عن نفسك أنك لست من الإخوان وثيابك كلها ملتصقة ببدنك التصاقا والجلباب أزراره سرية ومخفية ومجهز اخر تجهيز! .

ومع استمرار صمتى وسيل الشتائم منه نادى أحدهم ليعطيه الكبل أو الخيزرانة ليجدد ضربي . . ووقتها كانت قدماي قد تورمتا من الضرب ولم يعدبإمكاني لبس الحذاء، فقال وهويتناول ماطلب :لا تريدين الكلام ؟ أنا سأريك " وتقدم ليبدأ ضربي ، فركضت بعفوية منه والتجأت وراء الطاولة فركض ورائي . . وبدأت أركض

وأدورحولها وهويركض ورائي ليمسك بى ويصيح : يخرب بيتك كل هذا التعذيب والضرب ولازال فيك روح لتنطي وتركضى ونادى الحاجب وقال له : أمسكها من عندك فلماتقدم العنصروأمسكني صاح ناصيف فيه : خذها . . خذها تنقلع من وجهى . . خذها إلى المنفردة . . لا أريد أن أراها أكثر من ذلك. لم أصدق أن حفل التعذيب قد انتهى ولم أعي مامعنى أن أذهب الى المنفرده إلا عندما دفع العنصر حذائى الى وجذبنى خارج الغرفه وجعل يقودنىعبرالسلالم والممرات ثانية نزولاهذه المرة وهويقول لى: لماذا؟ لماذا لم تتكلمي ؟ أما كان ذلك أفضل لك ؟ كنت على الأقل رأفت بحالك . . أنظري كيف انتفخ وجهك وازرقت يداك وتورمت رجلاك وأكلت قتل الدنيا حتى لم تعودي تستطيعين أن تلبسي حذائك . قلت : ماعندي شيء أحكيه . وأضفت وقد فاض بي الأمر ولم أعد ألقي بالا لكلماتي : الله لا يعطيهم العافية هؤلاء الظلام . . لكنه وكأنما كان يؤدي دورا مرسوما لم يلتفت لعبارتي وأكمل يقول : لكن لوأنك كذبت عليهم كنت خلصت حالك. قلت :- أنا لا أكذب وأعلم أن الذي يصدق هنا أو يكذب فنتيجته واحدة . سألنى بدهاء: وكيف عرفت ذلك ؟ قلت : - لأنهم لم يصدقونني . . قلت لهم الحقيقة فلم يصدقوا فكيف سيفعلون إن أنا كذبت عليهم ! كنا قد وصلنا باب القبو أخيرا ، فوجدت حسين . . العنصر الذي كان يشارك قبل قليل في تعذيب الشاب في الأعلى يطل علينا بوجه مظلم وقد فتح فمه على ابتسامة سخرية تكشف سنا مقلوعة فى الوسط فكأنها نافذة في بيت خرب . . استقبلني وبيده كبل يتلوى مثلما تلوت كلمات الترحيب الساخر على فمه وهو يقول : -أهلا . . أهلا وسهلا . . والله نورت !

قن الدجاج !

أمسكني حسين من كتفي وأنزلني الدرجات الخمس إلى أسفل ، واقتادني من جديد عبر الممر المعتم إلى ثاني زنزانة منفردة في ممر آخر لا يكاد يبدو آخره ، وقال وهو يشير إلى الداخل -هذا مكانك . . غرفتك العامرة . . وان شاء الله نومة هنية ! أحسست بالنفور من الظلمة ووحشة المكان وكنت لا أزال متوترة

الأعصاب جدا فقلت بلا وعي : - لا والله . . لا أدخلها أبدا ! قال وهو يدفعني إلى الزنزانة بغلظة : -إي بدك تدخلي بكسر رأسك . التفت إلى أبواب الغرف الأخرى فلمحت صديقاتي زميلات السكن معي يطللن بوجوههن من طاقات الزنازين التي وزعوهن عليها ، فركضت نحوهن وأنا أصيح : فاطمة . . فلانة . . فجذبني بقوة وهو يقول : تعالي . . تعالي . . هل تظنين نفسك في فندق أو في زيارة ! وفجأة سمعت من آخر الزنازين (رقم 24) صوت أمي التي يبدو أنها سمعت صوتي أيضا فبدأت تدعو عليهم بصوت عال وتصيح : -هؤلاء حريمات تتقوون عليهن يا ظلام . . ما عندكم رحمة ! والله أنا طول عمري أسمع أنه لا رحمة في قلوبكم ولكنني أرى ذلك الآن بعيني ! بهرتني المفاجأة . . وركضت ثانية باتجاه مصدر الصوت وأنا أصيح بدوري : -أمي هنا ؟ الله يخرب بيتكم . . ماذا تفعلون بها ؟ إخوتي صغار وأبي مريض . . ولا حول جميعا لهم ولا قوة . فناداني حسين وهو يقهقه بسخرية : -وما حاجتنا لأبيك وإخوتك ؟ نحن نريد أمك فقط ! وذهب فأغلق نوافذ المنفردات جميعا ثم عاد يدفعني إلى المنفردة وأنا أحاول المقاومة وأتكىء على زاوية الباب ، فقال لي مهددا : -إذا لم تدخلي الان فسأحضر كل عناصر الفرع ليدخلوك. قلت : المكان معتم جدا ! أجاب بسخرية : أنت الآن ستنورينه . . هيا ادخلي . نظرت فإذا بعلبتين من الصفيح في زاوية الزنزانة واحدة فيها خبيص من أرز أو برغل مع مرق وفي الثانية ماء . . قلت له : والله هذا مثل قن الدجاج . . وهذه والله مثل معاملة الحيوانات ! قال : هذا عشاؤك الليلة داذا كان لك نفس لتأكلي فكليه . قلت وقد تملكني الغيظ : أنتم تعرفون أن الذي يدخل إليكم لا تعود له نفس ليأكل ! وهنا حضر عنصر اخر متقدم في السن كان يحسن معاملتي فيما بعد قدر المستطاع . . تقدم مني وقال بصوت منخفض : - يالله يا أختي ادخلي وتوكلي على الله ولا تتركي له مزيدا من الفرص ليسخر منك. فدخلت المنفردة وصوت أمي لا يزال يبلغ مسمعي . . ثم لم يلبث صوتها أن غاب وسط قهقهات العناصر وصياحهم وهذرهم ، وعمت المكان رائحة الخمر وصيحات المجون احتفالا بليلة رأس السنة إ! فيما لفتني في وحدتي الظلمة ووحشة المكان فازدادت

أعصابي توترا ولم أستطع حتى أن أغير جلستي ، خاصة وأنهم أخذوا ماجدة بعدي إلى التحقيق وكان من الممكن أنها تعذب في تلك الساعة مثلما كان محتملا أن تقول عني أي شيء . وبقيت على هذا الحال إلى ما بعد منتصف الليل ، حينما حضر أحد العناصر واقتادني إلى غرفة التحقيق من جديد .

لون الليمون !

في غرفة التحقيق وجدت الرائد ثلجة في انتظاري يستقبلني قائلا : - لست من الإخوان أليس كذلك ؟ ولم تقومي بأي عمل لهم ولا تريدين الإعتراف . . ولكن هناك من أرسله الله ليعترف عليك الليلة . هذه رفيقتك - يقصد ماجدة - قالت بأنك مسلحة وأنها رأت السلاخ معك بعينها . قلت له بتحد : أحضرها لأفقأ لها عينها . . هيا أحضرها لتقول ذلك أمامي . قال : هي لا تكذب ،أنا قلت لك هي لا تكذب . . هي أصدق منك ، والدليل على كذبك لونك الذي أصبح أصفر مثل الليمون . قلت له : لي ليلتان كاملتان لم أنم ولم آكل ولم أدخل الحمام مع القتل والتعذيب ولعيان القلب ، فكيف لا يصفر لوني ! هز برأسه وهو يمط شفتيه بلا معنى وصاح للحاجب كي يعيدني للمنفردة ، فعدت إلى جلستي القلقة ذاتها وعاد إلي التوتر والأرق ، حتى أنني لم أمد البطانيات خوف أن يأتي أحد العناصر فيفتح نافذة الباب أو يدخل علي وأنا نائمة . . وبينما أنا متكورة على نفسي وسط الزنزانة أرمق الصراصير في تلك الظلمة تتسلق الجدران حولي دونما اكتراث بالنزيل الجديد . . شق جدار السكون فجأة صوت مزلاج الباب الخارجي وصياح السجانين وتدافع أقدام تتخبط مهرولة فوق الدرجات وعلى الممر باتجاه منفردة قريبة . أدركت بحدسي أن دفعة من المعتقلين الجدد قد وصلت ، وعلمت لاحقا أنهم ستة أو سبعة شباب بين الثانية عشرة والخامسة عشرة من العمر جمعوهم من مسجد واحد وحشروهم معا في هذه المنفردة التي لا تزيد بمساحتها عن متر بمتر ونصف ! والذي يبدو أن واحدا منهم أصابه إسهال من الخوف أو التعذيب فجعل يصيح طالبا الخروج إلى الحمام ، فلا يجيبه إلا صوت العناصر الغارقين في متعة الإحتفال برأس السنة : -سد حلقك ! لكن الفتى لم يكن يستطيع

الصبر ، فيعيد الرجاء وينادي : -والله بطني بتوجعني . . يا عالم . . لم أعد أستطيع ضبط نفسي . . عندها جاءه عنصر منهم وفتح النافذة وتناوله بضربة بالكبل وهو يكرر-سد حلقك واخرس يا . . . وسكت الفتى لبرهة يا حرام ، بدأنا نشم بعدها رائحة من زنزانتهم خنقتنا . . فعاد العنصرإليه يكفر ويلعن ويقول له : -فعلتها هنا يا ابن ال . . . وأخرجه إلى الممر وانهال عليه ضربا كالمجنون ، وتعالى صراخ أمي من منفردتها ثانية تدعو عليهم وتقول له : -يخرب بيتك . . مالك قلب بشر؟ سألك أن تخرجه فلم تفعل ففعلها تحته . .ماذا يفعل المسكين بنفسه ؟ وعاد الأمر بعد هذه المهزلة إلى ما يشبه الهدوء من جديد . . ومضت ساعات الليل المتبقية تمر علي أثقل من الجبال ، وعلى الرغم من أنني لم يطرق لي النوم جفنا ليلتها إلا أنني بدأت أفقد الإحساس بما حولي ، وأتخيل ربما من شدة البرد أن الثلج قد غطى المكان كله ، وأن العناصر تستعد لاقتحام الزنزانة علي ليسحبوني في هذا الثلج فيعروني ويعذبوني للمرة الأخيرة قبل أن يرشوني وأغادر الحياة ! لكن شيئا من ذلك لم يحدث ، ولم ألبث وقد دنا وقت الفجر أن أحسست بما يشبه الطرق الخافت على الجدار من الزنزانة الأخرى المجاورة حيث وضعوا ماجدة ، فعلمت أنها تنبهني إلى موعد الصلاة ، ولم نكن خلال الفترة السابقة من الإعتقال كلها قد تمكنا من الصلاة ، فتيممت وهممت أن أبدأ ، لكنني لم أستطع معرفة اتجاه القبلة فطرقت الباب ، ولم يلبث أن حضر حسين من جديد فسألته ، فقال بسخرية : - كيف وضعت رأسك على الفلقة فهذا اتجاه القبلة ! كررت عليه السؤال مع الرجاء ، فقال بتبرم : - أنا لا أصلي . . لا أعرف ، لكنني أشاهد الشباب في المنفردات يصلون بهدا الإتجاه . فصليت إلى حيث أشار وظهري إلى الباب ، فكان قلبي ينتفض من الرعب طوال الصلاة خشية أن يفتح أحد العناصر علي فيراني وأنا أصلى! فيحدث ما لا تحمد عقباه ! وبالفعل . . وبينما أنا في صلاتي فتح السجان ابراهيم الطاقة ليعطيني الإفطار ، فلما رآني أصلي قال بما يشبه السخرية : -شو . . عم بتصلي ؟ فلم أجب ، ولكنني أحسست أن قلبي قد سقط بين يدي ، غير أن الله سلم ، ومضى إبراهيم فأكمل توزيم الفطور على

الزنزانات الأخرى ثم عاد ففتح وسألنى باستهزاء :
-خلصتي ؟ الله يتقبل ! هززت برأسي دون أن أجيب ، فاكتفى بدفع طبق الطعام إلي والذهاب . . ولم يكد يفعل حتى فتحت الطاقة من جديد وكان القادم هذه المرة أبو محمد . . الرجل الذي ترفق بي لأدخل الزنزانة ليلة الأمس ، فسألني : - ألا تريدين الخروج إلى الحمام ؟ أشرت بالإيجاب ، فلما فتح باب المنفردة أطللت على الممر برأسي فما وجدت أحدا . . سألته : - مالي لا أسمع صوتا هنا ؟ وهذه صديقتي ملك ألم تنزل من التحقيق ؟ قال : خرجوا . . كلهم خرجوا ، وما بقي إلا أنت ورفيقتك الثانية - يقصد ماجدة - . قلت بدهشة واضطراب : وأمي ؟ قال : أنت ورفيقتك وأمك فقط . . صفوكم ! أحسست أنها النهاية وأنها راحت علينا . . خرج الجميع وبقينا نحن . . إذا فهي النهاية! سألته وأنا أشهق بالبكاء : - ولماذا أخرجوهم ولم يخرجونا نحن ؟ أنا لم يثبت أي شيء علي . . أنا بريئة . أطرق وهو يقول : والله لا أعلم . . إسأليهم ، أنا هنا مجرد موظف. ثم غير مجرى الحديث وقال : - أتريدين أن تأكلي .. ألست جائعة؟ أنا أحضرت فطوري الخاص معي : زبدة ومربى وأشياء أخرى . . أكلت منهم وزاد معي قطعة . تذكرت وقتها أنني لم أكن قد أكلت شيئا إلى ذلك الوقت من قبل ، لكنني لم أشأ أن آكل طعام غيري أيضا ، فشكرته واعتذرت . . ثم لما اشتد علي الجوع في اليوم الثاني بدأت آكل القشرة الخارجية للصمون الذي يحضرونه لأن الداخل عجين كله . . وقطعة الجبن التي لا يحضرونها إلا نادرا بطبيعة الحال ، وعلى هذه الحال بقيت طوال فترة بياتي في المنفردة ثمانية أيام بالتمام والكمال !

"الخط "ورعاه البقر !
طلع صباح أول أيامي في سجن كفر سوسة وأنا لا أزال قابعة أترقب في زنزانتني المجهول بوجل ، وأطل على أحداث الأيام التي مضت مصدقة ومكذبة! تلفت أتأمل "مسكني " الجديد فإذا به أشبه بالقبر منه إلى أي شيء اخر ، وعدا الصراصير التي كانت لا تزال تبحث بمجساتها المقرفة عن شيء رطب تقتات عليه لم أستطع في البداية أن أجد على الجدار القاتم شيء ، لكن تسرب بعض الضوء واعتياد عيناي على الظلمة جعلني أبصر

خطوطا مميزة بعض الشيء وشعار "الله أكبر ولله الحمد" محفورة أكثر من مرة وحولها أسماء أشخاص عديدين مروا على هذا المكان التعس قبلي . . وكان ثمة نقش لمسجد كتب حوله "لا إله إلا الله محمد رسول الله " وأسفل منه اسم الشخص الذي نقشه على الأغلب . . كذلك لمحت خريطة لفلسطين وتحتها عبارة "الله أكبر ولله الحمدا ا! لم تكن أكثر من ساعتين على صلاة الفجر قد مضتا حين بدأت دورة يوم جديد من أيام السجن تأخذ مجراها . . فكما الكلاب تفعل كان المحققون والجلادون والسجانون لا ينامون إلا إذا دنا الفجر ويستيقظون وقت الضحى! وسرعان ما بدأت الشتائم واللعنات وعبارات الكفر بالله تختلط بفرقعة الكبلات على ظهور السجناء يقتادونهم إلى الحمامات أو إلى "الخط " بلغة السجن المتداولة . كان (ياسين) المجند العلوي المتطوع أحد أجهل خلق الله وأغباهم يتصدر لهذا العمل على الدوام ، فتراه يمسك بالكبل بيده ويتفرس في طابور المعتقلين المتجه نحو الحمامات لبرهة ، ثم لا يلبث أن ينقض على المساكين لطما ولسعا يسلخ جلودهم كالدواب . . والويل كل الويل لمن كان يجرؤ ويصيح من الألم . . فجزاء ذلك مضاعفة العذاب حتى لا يعيدها ثانية! وسرعان ما انطلق صوت أمي من زنزانتها تنادي عليه : يا ولدي . . هل تظن أنك لا تزال في الضيعة التي جئت منها وهؤلاء قطيع من البقر الذي كنت ترعاه ! ولم يكن ياسين ليرضى أن يقطع متعته الصباحية شيء فاستمر يجلد الشباب ويتلذذ في خلق هذا المشهد الرهيب . . وأمي تطرق الباب بأيديها وأرجلها وتبكي ألما عليهم وحسرة وليس من مجيب ! ولم تكد تنته هذه المأساة ويهدأ المكان بعض الوقت حتى كان موعد التحقيقات قد جاء ، وعاد صراخ المعذبين وصيحات العناصر وشتائم المحققين تقرع اذاننا وتذيب منا القلوب ، ثم وكما بدأت بلا مقدمات خفتت الأصوات من جديد ، ولم ألبث أن وجدت باب الزنزانة يفتح وأحد العناصر يدعوني للذهاب إلى الحمام ، فلما أصبحت هناك وحدي وبدأت الوضوء وكل ظني أنني قد أغلقت الباب بإحكام علي فوجئت بوالدتي أمامي ، فأدهشتها المفاجأة مثلما أدهشتني . .
واندفعت من فورها تحيطني بذراعيها وتسألنى وهي

بادية الإضطراب : - قتلوك ؟ عذ بوك ؟ قلت أريد أن أخفف المصاب عنها : لا . . أنا بخير . لكنني كنت وقتها أضع رجلي على الحوض وأغسلها للوضوء ، فأشارت مفجوعة إليها تقول :ولكن ما هذا ؟ رجلك كلها زرقاء وأصابعك مزرقة أيضا ولا تكاد تظهر ! هل أذاك أحد؟ هل مسك أحد ؟ قلت من جديد : لا . . الحمد لله ما مسني أحد . سألتني وكأننا في سباق مع الزمن : ولماذا أمسكوك إذا ؟ قلت : والله لا أعرف . . يريدون أخي صفوان ويريدونني أن أدلهم عليه . فأخبرتني هنا أنها أجابت في التحقيق كما أجبت بأنه يدرس في الباكستان ، فشعرت بارتياح لتطابق كلامي مع كلامها ، ولكنني وجدتها تتركني وتخرج إلى الممر ندعو عليهم بأعلى صوتها ، فحضر حسين راكضا وهو يصيح بالعنصر الآخر : - كيف جعلتها تدخل والأخرى لا تزال هناك ؟ ألا تعلم أن اجتماع أكثر من شخص هناك ممنوع ؟ أجاب العنصر الذي أحضر أمي : لم يكن لي عالم بوجود أحد اخر . . لماذا أغلقت أنت باب المنفردة التي كانت فيها ولم تتركه مفتوحا لأعلم أنها لا تزال في الخارج ؟ واقتاد كلاهما والدتي وهي لا تكف عن إطلاق دعواتها عليهم ، ولم تتح لي رؤيتها ثانية إلا بعد أيام ، ولم تتح لي معرفة سبب وكيفية اعتقالها إلا حينما اجتمعنا في المهجع بعد انتهاء التحقيق . . فقصت علي - رحمها الله - ما جرى بالتفصيل .

الكمين !

كانت والدتي - علية الأمير - قادمة من حماة لتحضر لي بعض أغراض كنت قد نسيتها أثناء الإجازة هناك ، ولتكمل بعدها إلى الأردن حيث استقر أخي صفوان مع كثير من الشباب الملاحقين بتهمة معارضة الحكومة والإنضمام إلى تنظيم الإخوان . . ومع والدتي حضرت أسرة ال مرقة ترافقها لزيارة ابنهم المقيم في عمان لنفس السبب . قالت والدتي - استيقظ أبوك ليلة اعتقالك على منام مزعج أولمه شرا أصاب أخاك صفوان ، فقال لي اذهبي وا نظري أحواله ، فمضيت يرافقني ال مرقة وقد اتفقنا على المبيت عندكم ليلتها والتحرك إلى عمان في اليوم التالي . ، ولما وصلنا قرب بيتكم في دمشق وبت على خطوات من مدخل البناية سمعت

صوتا يأتيني ويقول برجاء ظاهر : يا خالتي ارجعي . . لا تدخلي ! كان أحد الجيران ينادي من جهة لا أراها ويحذرني من الصعود بعد أن تم اعتقالكم قبل ليلة ، ولكنني لم أرد وما ظننت النداء كان لي ، فما أن طرقنا الباب حتى استقبلتنا الرشاشات وأيادي جذبتنا إلى الداخل بغلظة ، ووجدنا أنفسنا بعد ساعة زمن في سجن كفرسوسة !

أحكم الأحكمين . .

كنت وأمي تحدثني عن اعتقالها لا أقل تأثرا وحزنا على حالها من تأثري وألمي على حال هؤلاء المساكين أسرة عمر مرقة الذين اعتقلوا معها ، فوالدتهم لم تكن قد أفاقت بعد من صدمة مقتل ابنها أيمن 18 سنة وأخته مجد 14 سنة حينما رشهما الخابرات في الشارع انتقاما من أهالي الملاحقين وحسب ! وكانت الأم حتى هذه الفترة فاقدة لتوازنها العقلي وقد نزعت حجابها وعصبت رأسها بعصابة تشد بها على الألم . . فلما وجدت نفسها قيد الإعتقال المفاجيء انهارت المسكينة . . وكنت وأنا في أول ليلة لي في المنفردة أسمع المحقق يصرخ في أذنها بأعلى صوته فيصل الصوت عندي وهي كالبلهاء لا تجيب . . وأما الزوج فكان أسوأ حالا وقد جاوز المسكين السبعين من عمره . . تجره والأم ابنتاهما اللتان اعتقلتا معهما وأغمي عليهما على باب المحقق ، فاضطرت والدتي أن تصفعهما لتفيقا ! وعندما لم يجدوا ما يهمهم من التحقيق مع هؤلاء البؤساء أرسلوهم للمبيت في القبو تلك الليلة ، لكن ولاغتصاص المكان ليلتها بالمعتقلين لم يجدوا مساحة يضعون العجوز فيها فتركوه بهرمه وشيخوخته ينام على أرض الممر أمام منفردتي ، فكنت أدعو الله أن يخفف عنهم المصائب التي تتوالى عليهم واحدة بعد الأخرى . . وأما والدتي فقد جابهتهم من البداية ما شاء الله بحزم . . قال لها المحقق : -خبرينا عن ابنك المجرم . . أين هو؟ فقالت : أنا ماعندي ابن مجرم . . دير بالك ها ! قال لها : ماذا لديك إذا ؟ مجرم ومغرر بإخواته أيضا على طريق ا لإجرا م . قالت : أنا لا أعرف نفسي إلا أنني ربيت ابني من الجامع إلى البيت ومن البيت إلى الجامعة. فقال لها ساخرا : الله يعطيك العافية . . تعيشي وتربي ! إذا

لا تريدي أن تحكي . . والتفت إلى أحد العناصر وقال له : ضعها على الفلقة . فقالت له : كتر خيرك . . أنا في سن أمك وتضعني على الفلقة ؟ قال لها : ولكنك ما تكلمت . قالت : وماذا تريدني أن أقول ؟ لا الذي يصدق يسلك معكم ولا الذي يكذب ! فتركها - سبحان الله - ولم يعذبها . . وكانت لا أدري كيف تقوم طوال فترة اعتقالها فتشد معهم وتواجههم وتدعو عليهم وكانوا مع ذلك يراعونها من دون جميع السجينات والسجناء الآخرين . . وكانت لا تكاد تنام لا في الليل ولا في النهار ، وتراقب كل صغيرة تجري وكبيرة فلا يفوتها شيء ! وفي بداية اعتقالها في المنفردة كانت تنادي أبا عصام مدير السجن - وهومن درعا - وتسأله : - ماذا فعلت أنا . . ولماذا تعتقلونني ؟ فيجيبها : أنا لا علاقة لي بذلك . فترد عليه وتقول : بل بيدك كل العلاقة . . أنا أريد أن أرفع كتابا لرئيس الفرع ، أعطني ورقة وقلما . فينهرها وهو يكرر عليها : -ممنوع . . لا تصل . . مخالفة للأوامر . . . فيصيبها القهر ويشتد بها الغيظ وتنادي داعية عليه : شكيتك لواحد أحد . . لأحكم الحاكمين . . وإن شاء الله تقعد قعدتي وما بتصبر صبري . وسبحان الله لم يمر شهر أو شهران حتى قتل هذا الرجل كما بلغنا حادث سيارة . . ودخل المقود في بطنه . . وسمعت أمي بموته قبل أن تموت

رهائن !

ولقد استمر الكمين من بعد اعتقال أمي ومرافقيها ، فاعتقلوا من زميلات السكن ومن الزائرات من غير أي تهمة أو علاقة أكثر من عشر أشخا ص : -فاطمة : من قارة ،طالبة تسكن معنا . - سوسن س : خريجة طب أسنان من حلب كانت في سنة التدريب بعد التخرج وتسكن معنا . أختين من ال جاموس إحداهما كانت تسمى منى فيما أذكر ، وهما طالبتا علوم من التل وتسكنان معنا أيضا . - يسرى ح : وهي أردنية كانت تدرس في جامعة دمشق كلية العلوم الطبيعية وتسكن معنا ، وقد اعتقلوا والدتها أيضا التي كانت في زيارة لها أيام الإمتحان . مها أ : طالبة طب في دمشق وهي فلسطينية لبنانية . طالبة أخرى من اللاذقية من ال درويش . كذلك اعتقلوا غادة ع طالبة جامعة تسكن معنا

كما اعتقلوا أخاها وصديقا له حضرا لزيارتها فاعتقلا معا . والذي حدث أنهم أخذوهم إلى التحقيق جميعا بعدما انتهوا مني ومن ماجدة واحدة بعد الأخرى ، فلما لم يجدوا فائدة من احتجازهم أطلقوهم . . لكنني ومن شدة تعبي وآلامي لم أحس ساعتها بما حدث رغم أنني كنت يقظة متنبهة طوال الليل

أمنوالإضراب

لم ينته اليوم الثاني علي من غير تحقيق جديد . . كنت خلال ساعاتي التي مضت في السجن قد أدركت مجمل ما يدور حولي ، وتذوقت في أول قدومي أشد العذاب وأبشع التهديدات ، فلما نادوني للتحقيق من جديد لم يكن هناك ثمة جديد ! أعادوا طرح نفس الأسئلة وتوجيه نفس الإتهامات بنفس الطريقة ونفس الأسلوب . .
وعلى مدار أسبوع كامل استمر البرنامج نفسه ، ولم يتغير فيه إلا طريقة الضرب بعض الشيء ! فمع الضرب بالخيزران والعصي أرادوا مرة أن يضعوني على الدولاب فلم يكن على مقاسي ، فصار المحقق يعوض عن ذلك بالضرب بالخيزرانة وأنا واقفة ، فطال بذلك كل جسدي ، وزاد من بقع الألم وآثار المعاناة ، ولكن شيئا في الأسئلة أو الإجابات لم يتغير ! أما في المنفردة فكانت المتغيرات مستمرة هناك . . والمشاهد المفجعة والحوادث المحزنة لم تتوقف : كانت استغاثات السجناء لا تكاد تكف ليلا أو نهارا . . والويل كل الويل لمن يضبطه العناصر وهو يصلي ! كانوا يمرون عليهم بلا ميعاد ، فإذا ضبطوا أحدهم من الطاقة يصلي أخرجوه فأوسعوه ضربا وتعذيبا بلا رحمة ، وأما الكفر بالله والشتائم البذيئة فكانت ديدنهم حتى عندما يتخاطبون فيما بينهم ، لكنهم لم يكونوا ولله الحمد يضربوننا نحن النساء على ذلك ، وكنا نتمكن من الصلاة حتى تحت مراقبتهم . وكنت في بعض الأحيان أعطي ماجدة بعض الإشارات بالضرب على الجدار بيني وبينها ، واذا تأكدنا من خلو المكان من العناصر كنت أكلمها وتكلمني عبر الجدار ، وأذكر أن عنصرا أحس بنا مرة نتحدث في الليل فنهض بسرعة وأتى نحونا يصيح : -أنا أسمع صوتا . . من هذا الذي يتكلم ؟ وحتى لا تكون سببا في تعذيب أحد من الشباب قالت ماجدة بثقة : - أنا . فسالها بغضب : مع

من ؟ قالت : مع صديقتي . . أهو حرام؟ ومرت الحادثة ولله الحمد بسلام . وأما والدتي فلم تكن تدخر فرصة للإتصال بي إلا واغتنمتها . . حتى ولو كلفها ذلك الكثير . كانت كلما أرادت أن تخرج إلى "الخط" توقفت عند زنزانتي وتعلقت بقفلها لا تريد أن تتزحزح حتى يفتحوا لها فتراني وتحدثني ولو كلمتين ، فإذا ملوا أحيانا من سحبها ومدافعتها فتحوا لها الطاقة وقالوا : - هيا شوفيها ولكن بلا كلمتين . . فترفض وتطلب أن يفتحوا الباب لها . . فيقولوا : ممنوع . ولم تلبث في اليوم الثاني من اعتقالها وبعد خروج بقية البنات من دوننا أن أضربت عن الطعام وعن الخروج إلى الحمام وحتى عن النوم حتى تراني . . ولم أدر بذلك إلا عندما حضر أبو عادل رئيس النوبة يقول لي : -إذا التقيت أمك مرة ثانية فأعطيها دروسا في الدين . . قولي لها إن لجسدك عليك حقا . . ألم تدرسي ذلك في الشريعة؟ خليها تأكل . قلت له : هي أم وأنت تعرف كيف يكون قلب الأم . . والحق معها . وفي اليوم الثاني ومع استمرارها بالإضراب أتى الأمر بالسماح لها أن تراني وأراها ، فجاء أبو عادل ثانية وأخذني إلى زنزانتها وهو يذكرني بحديث الأمس ، وقال وهو يدفعنى إليها : -مثلما اتفقنا . .قولي لها . . قلت له : ماذا أقول ؟ هي حرة . قال : ألا تريدين أن تساعدينا لتفك إضرابها ؟ قلت : ماذا يمكن أن أفعل . . ألا ترى وضعها ؟ الله يعينها ويساعدها . فالتفت إليها بغيظ وسالها : هل رأيت ابنتك ؟ ولم تكن رفعت نظرها إلي طوال ذلك الوقت لتقهرهم . . فقالت : لا . فقال : إذا ماذا تريدين ؟ والله حيرتينا ! قالت : أنت تعرف ماذا أريد . . وحتى يأذن الله . . هو أحسن منكم جميعا وهو أحكم الحاكمين . . وهو قادر على أن يقصف رقابكم ! فلم يجد ما يفعله إلا أن يضحك بغباء ويقفل الزنزانة عليها ويعيدني أنا لزنزانتي من جديد ، لكن إضرابها كان - والله أعلم - سببا للتعجيل بإنهاء التحقيق معنا ونقلنا بعد ثمانية أيام قضيناها في المنفردة إلى المهجع ،لننضم هناك إلى بقية النساء المعتقلات .

إلى المهجع

لم نكن خلال الأيام الثمانية قد رأينا أيا من المعتقلات أو اتصلنا بهن باستثناء منيرة التي فتشتنا أول وصولنا ، لكنهن كن قد رأيننا من شق صغير في طاقة باب المهجع وعرفن بوجودنا كما أخبرننا لاحقا ، وذات مرة وأنا في طريقي إلى الحمام رأتني الحاجة مديحة إحداهن بجلبابي الأسود أعبر من أمام مهجعهن فدقت الباب تنادي أحدا من العناصر ، فلما جاءها حسين بادرته قائلة : -أريد أن أنفض البطانية . . افتح لي ! فأدخلني الحمام بسرعة ليخرجها ، فصارت تتحدث بصوت عال لنسمع صوتها ونعلم بوجود نساء وتصيح :فلانة . . هيا تعالي نظفي البطانية معي . . ثم مضت كعادتها تحاول استدراج حسين وسألته : - كأن هناك أحدا في الحمام . . أنا أسمع صوت نساء ! أجابها وقتذاك : لا . . لايوجد أحد . . لوأن هناك نساء لأتينا بهن إليكن . لكنها استمرت تلح عليه حتى ضجر وسألها : -خبريني أنت . . ماذا على بطانيتك ؟ لك ساعة تنفضين فيها ! قالت : صرصور . . ووالله ماعرفنا وين راح ! قال لها : إي ياالله ادخلي وخلصيني . . فعادت وهي تلم البطانية تسأله بصوت خافت : - هناك نسوان أليس كذلك ؟ فأجابها أخيرا : نعم . . وبكرة سيأتون إليكم فاطمئني . لكنها عادت تسأله : ألا تعرف من أين ؟ فأجابها : بكرة جايين لعندكم وستعرفي . . وتجلسوا تتحدثوا معا حتى تشبعوا حكي ! ثم أدخلها وأرجعني المنفردة ، لكنني كنت أسمعهما وأنظر بين حين واخر إليهما بدوري من شق باب الحمام ، فاستأنست بذلك بعض الشيء واطمأننت إلى أن هناك نساء غيرنا في هذا المكان الموحش . . وفي اليوم الثامن وبينما أنا في المنفردة جاء مدير السجن وأعطاني استمارة معلومات عامة عن الإسم وتاريخ الإعتقال وسببه وعدد الأيام التي أمضيت في المنفردة . . فأجبت بشكل عادي وكتبت أنني اتهمت بالإنتماء إلى تنظيم الإخوان ووقعت ، وبعد حوالي نصف الساعة حضر حسين وفتح الباب بسرعة وطلب مني القيام ، فسألته وقد ظننت أنها جولة أخرى من التحقيق والتعذيب والأ خذ والشد والإتهامات : - إلى أين ؟ إلى التحقيق ؟ قال :لا . قلت : إلى الإعدام ! قال : الان سترين . قلت له : إذا كان الإعدام فسيكون أريح ! فأجابني ساخرا : لا . . لن نعدمك الان . قلت : واذا

فمتى ؟ قال بلؤم : حتى تعترفي أنك منظمة . قلت له : طيب . . هل تعدمونني فعلا إذا اعترفت ؟ قال : اعترفي أولا والأمر بعد ذلك بينك وبين رئيس التحقيق ! أخرجني من المنفردة وساقني عبر الممر إلى باب اخر كبير وأسود فقلت لنفسي : خلاص . . رحت فيها . . إلى التعذيب من جديد ! فلما فتح الباب ودفعني باتجاه الداخل مددت رأسي بحذر فرأيت المكان مليئا بالنساء وكلهن يضعن شاشيات صلاة بيض على رؤوسهن فارتحت قليلا وخطوت نحوهن سلمت ،ولكن الخوف كان لا يزال يتملكني ،فيما أغلق السجان الباب ورائي وعاد بعد هنيهة بأمي وماجدة فأدخلهما وعلقها إلى السقف من يديها المكبلتين خلف ظهرها ،ومضى يعذبها على ومضى، وجعلنا في البداية نتلفت حذرات خشية أن يكون بين هؤلاءالنسوة جاسوسة أو مخبرة ،ولم تلبث أمي أن انفجرت بالبكاء في اللحظة التي اندفعت أنا نحوها وعانقتها ، وكأنها أحست أنهم وضعونا في المهجع ولن يخرجونامنه إلى الأبد. . فجعلت تزدادبكاءوتدعوعليهم بحرقة وتجهربالدعاء. . في تلك اللحظة تقدمت واحدة من النساءوهي تمدإليهايدهاوتقول : ابوي . . لا تبكي ولا على بالك . . حطي إيديك ورجليك بمي باردة واقعدي .. ولاراحة لمؤمن إلابلقاءربه ! كانت هذه هي الحاجة مديحة أ.أول من دخل السجن من النساء كانت الأيام التي أمضيناها معها أكثرمن كافية لنسسع منهاومن بقيه السجينات حكاية اعتقالهن وقصص تعذيبهن ومآسيهن .

تعرية . . وتعذيب . . وقص اللسان!

كانت الحاجة مديحة في الأربعينيات من عمرها ، وهي امرأة معروفه في حلب تدرس النساء دروسافي الدين على الرغم من أنها تكادتكون أمية لاتقرأ أوتكتب وكانت قد جعلت من بيتهاقاعدة سكن فيها بعض الملاحقين ،وبينما كانت ذاهبة إلى موعدخارج البيت لتسليم رسالة ألقوا القبض عليها نتيجة فسادة من سامح كيلاني - عميل المخابرات الآخروجاسوسهم داخل تنظيم الإخوان - وحملوها مباشرة إلى فرع مخابرات أمن الدولة ، وهناك ازدادت نقمة رئيس الفرع عمرحميدة عليها حينما استطاعت رغم التعذيب الشديد أن

تراوغهم فترة كافية تمكن الشباب في بيتهامن الهرب بعدمضي فترة أمان كانوامتفقين عليها فيما بينهم . . ونتيجة جرأتها وصلابة ردودها ازداد حميدة غيظا منها فختم لها حفلة التعذيب بأن قص لها طرف لسانها بالمقص . . وفقدت قطعة منه بالفعل ! ولقد قصت علينا أن حميدة عراها في البداية من ملابسها وعلقها إلى السقف من يديها المكبلتين خلف ظهرها ، ومضى يعذبها على هذه الحالة ويسمعها أقذع الشتائم وأبشع العبارات . . ثم أمر بإحضار أخيها الأصغر وعرضها عليه بهذه الحالة وساله :هل عرفتها؟ قال الولد بصدق : لا . . من هذه ! أجاب حميدة بتشفي : أختك مديحة . فأغمي على الولد فورا ولم يعد يحس بشيء ، وأعادوه إلى البيت وهو لا يزال في غيبوبته . . واستمرت حفلة التعذيب ساعات عديدة تأكدت بعدها أن الشباب غادروا البيت كما يفترض فدلتهم عليه ، ولما لم يجدوا هناك إلا آثارهم وحسب عاد حميدة غاضبا يقسم أنه سيقص لها هذا اللسان الذي كذب عليهم وخدعهم . . وقصه بالفعل ! لكنها ولله الحمد شفيت بسرعة وعاد اللسان فنما بشكل طبيعي ، بل إن مدير السجن المدني بدوما المقدم عماد وكان سيىء الخلق جدا قال لها بعد ذلك بسنوات : - قطعنا لك لسانك ليقل كلامك فلا أراه إلا ازداد طولا ! وبعد اعتقالها الذي كان قد مضى عليه نحو الشهرأتوا بها إلى كفر سوسة مرورا بسجن المسلمية بحلب مع مجموعة السجينات الأخريات : أم شيماء ، وزوجة عبد العزيز سيخ ، وعائشة ق . فيما أفرجوا عن عدد اخر من البنات والنساء كانت بينهن - فيما روين لنا - سناء . . . . . ، و . . . . . . وكانت تسكن مع الحاجة مديحة وتلازمها في بيتها ، ولذلك كانت تدعوها الحاجة ابنتها ، وزوجة عبد القادر حربلي ووالدتها من بيت القطان ، وسيدة أخرى وكانت عروسا في شهرها السادس وفي السادسة عشرة من عمرها ، أمسكوا زوجها نتيجة وشاية من سامح كيالي أيضا وجعلوا يعذبونه ليعترف بمكان القاعدة التي اتهم أنه يديرها ، فلما لم يفعل أحضروا الزوجة بأمر من حميدة أيضا واعتدوا عليها أمامه قبل أن يرسلوه إلى تدمر فيقتل لاحقا هناك في المجزرة الكبيرة التي جرت . . وأفرجوا عن المرأة وقد سقطت عنها كل الإتهامات !

وترك لها جوربان
تقدمت الحاجة مديحة تخفف عن أمي وعنا ، وتبعتها بقية البنات : أم شيماء ، وعائشة ق . ومن ورائهما كانت منيرة التي فتشتني أول دخولي تنظروتبتسم ! وأما عائشة فهي طبيبة من حلب قامت بعلاج جريح من الشباب الملاحقين فبلغ النبأ المخابرات واعتقلوها من بيتها ، وقالت لهم وقتها إن أشخاصا أتوا إليها كأي طبيب وسألوها أن تعالج جريحا ففعلت ، ولم تسألهم عن هويتهم لأن مهمتها الإنسانية خدمة الناس لا التحقيق معهم ، لكن جوابها لم يرق لهم ، واعتقدوا أنها تداوي كل جرحى الملاحقين ومصابيهم ، وقد تولى التحقيق معها مصطفى التاجر أول الأمر فسألها في البداية : -أترضي أن تبقي بلا حجاب ؟ قالت : لا طبعا . . قال : فما رأيك إذا أن تبقي بلا جلباب ؟ فانتفضت تتطلع إلى مكان تلتجئ إليه ، لكن المجرم لم يترك لها فرصة وهجم عليها كالوحش يصفعها ويضربها وهو يمزق ثيابها قطعة بعد قطعة وهي مكبلة تقاوم بكل ما أوتيت من قوة دون أن تستطيع الدفع . . فلما مزق كل شيء ووصل إلى جواربها قال لها : -سأتركهم عليك حتى لا تبردي ! وأمر فمددوها على "بساط الريح " ومر عليها بكافة أنواع التعذيب : الخيزران والعصي والكهرباء . . علاوة على نزع نظارتها الطبية وحرمانها من استعمالها فترة من الزمن . . ثم أتى دور عمر حميدة فأجلسها على كرسي وقد كبل أيديها وأرجلها من الخلف ببعضهم البعض وجعل يطفىء أعقاب السجاير فى اعف منطقه ببدنهاليطفىء بعضا من نيران حقده الاسود ويودعها الزنزانه من ثم بضعه ايام قبل ان تنقل مع بقيه المجموعه الى كفر سوسه

فنون التعذيب !
كانت إيمان ت . "أم شيماء" راجعة إلى بيتهم مع زوجها وابنتها الرضيعة شيماء وكانت في الشهور السبعة أو الثمانية من عمرها ، وعندما بلغوا مدخل البناية لاحظوا مؤشرات غير طبيعية في المنطقة ، فتقدمت ايمان ووضعت المفتاح في القفل لتفتح ، فيما كان الزوج والطفلة معه ينتظر أسفل الدرج ، فما أن فعلت حتى

أحست كما روت من بعدصوت تلقيم السلاح من الداخل ، فأعطته إشارة سريعة بالهرب ، في الوقت الذي فتح عناصر المخابرات الباب بسرعة وأمسكوا بها وسحبوها إلى الداخل ، وفي إحدى غرف البيت دخل عليها رئيس الدورية يسألها عن زوجها وعن الشباب الذين كانوا معها في البيت لأ نهم دخلوه ولم يكن فيه أحد ، وهؤلاء جميعا أبلغ عنهم سامح كيالي ، فقالت إنها لا تعرف شيئا ولا تعرف أين ذهب زوجها ولا من كان معه ، فجعل يهددها بالإعتداء عليها إن لم تبلغه المعلومات فأصرت على الإنكار ، فنفذ تهديده بالفعل وحاول فعل ذلك ، لكنها قاومته بشدة وراحت تتصارع معه فأنجاها الله وألقى في قلبه الرعب فلم يتمكن منها كما أراد . . وبعد ذلك نقلوها إلى الفرع عند عمر حميدة الذي اتبع نفس الطريقة معها ، فشبحوها في السقف بأن كبلوا أيديها خلف ظهرها وعلقوها منهما مرفوعة عن الأرض فكأنما هي الذبيحة بين يدي الجزار ، وجعلوا يضربونها ويعذبونها وهي على هذه الحالة لا حول لها ولا قوة ، ثم وضعوا لها الكهرباء في صدرها والحليب يقطر منه زيادة في التعذيب والإهانة . . وبعد انتهاء التحقيق ومن غيرأن تدان المسكينة بشيء نقلوها إلى كفر سوسة مع عائشة والحاجة مديحة ، لنجتمع واياهن في هذا المهجع المقيت !

سحل القتلى

أما رابعة نزيلات المهجع وقتها فكانت أما من إدلب لأربعة أو خمسة أولاد من إدلب اسمها فوزية ح . هذه السيدة استشهد زوجها وهو يقاوم أثناء مداهمة قاعدتهم بحلب ، وقامت السلطة بعد مقتله بسحل جثته أمامها بالدبابة في شوارع المدينة ثم اقتادوها للسجن وعذبوها أشد العذاب . وعلى الرغم من أنها لم تتحدث عن ذلك كثيرا وكانت من النوع الذي يؤثر الصمت إلا أننا بقينا نرى اثار التعذيب على أرجلها والزرقة مكان أظافرها المقلوعة إلى حين ، وبقيت فوزية في الشهور الأولى معتدة على زوجها لا تكاد تكلم أحدا وتسارع كلما فتحوا الباب أو الطاقة فتغطي رأسها بالبطانية وتدير وجهها إلى الجدار .

أبناء النظام ضد النظام !
هؤلاء كن السجينات الأربع المتهمات بالإنتساب أو ألتعاون مع الإخوان ، وأما الخامسة منيرة كامل مصطفى فكانت من تصنيف اخر وحال مختلف : كانت البنت التي لم تجاوز الثامنة عشرة من عمرها واحدة من بنات القرى الساحلية العلويات ، شكل والدها وأخوتها وبعض أصدقائهم تنظيما ضد الدولة شيوعي التوجه وصاروا يصدرون منشورات تحض على كراهية النظام ، وكانت معتقلة مع أخيها أيضا الذي لم يكن يجاوز السادسة عشرة من عمره ، فاعتبروهما مجرد مراهقين يقومان بأعمال طائشة ، وقالوا بأنهم سيتركونها في السجن حتى يكتمل عقلها وينضج تفكيرها ، لكنهم كانوا متساهلين معها إلى أبعد الحدود ، فسمحوا لها بالزيارات ، وبإحضار جهاز راديو إلى زنزانتها ، وبزيارة أخيها في القسم الجنوبي من السجن ومقابلته ، وعندما عرف الشباب المعتقلون معه بذلك صارون يقسمون زياراتهم (أي الأ غراض التي تأتي لهم في الزيارات المتاحة) ويرسلون قسما منها مع منيرة إلينا وكنا فى البدايه نشك بها جميعا ونحذر أن تكون متعاملة مع المخابرات ، لكنها كانت لطيفة جدا وطيبة القلب ، حتى أن الحاجة مديحة سالتها مرة بين المزاح والجد : - نحن لن نبين لك أي شيء ولن نتكلم أمامك عن وضعنا لأننا نخاف أن تذهبي إلى المقدم وتحكي له . . فأجابتها منيرة بطيب خاطر : تأكدي تماما أنني لست من هذا النوع ، ولو كنت لما وجدتني معكم هنا . وعلى الرغم من أنها ظلت متمسكة بشيوعيتها بعد العديد من المناقشات بينها وبين البنات ، إلا أنها كانت تحترم تديننا ، فكانت تخفض صوت الراديو إذا كنا في صلاتنا أو تلاوتنا وتراعي مثل هذه الأمور ، وعندما أضربنا في وقت لاحق شاركت معنا ووقفت إلى جانبنا حتى النهاية .

هافي طاقة !
هؤلاء كن صحبة المهجع الأوائل ولشهور عدة قبل أن يفد نزلاء جدد ويغادر البعض من بعد . . وأما المهجع نفسه وهو الثاني في التسلسل العددي لمهاجع القسم فكان عبارة عن غرفة متوسطة الحجم ثمة حمام على يسار الداخلين إليها فوقه دوش ولكن من غير باب ،

ولحل ذلك مددنا حبلا استخرجناه من وسط إحدى "التنورات " التي معنا وعلقنا عليه إحدى البطانيات القليلة التي أعطونا إياها كحاجز . وكان الحمام يحتوي أيضا على سخان كهربائي خصوا به مهجع النساء فقط ، فلم تكن لمهاجع الشباب لاحمامات ولاسخانات ولا حتى صنابير ماء ! ولكن ذلك كان سببا لكي يخرج الشباب مرتين أو ثلاث إلى "الخط " أو إلى الحمامات بعد كل موعد طعام ، وأما باب مهجعنا فلم يكن بابه يفتح غالب الأوقات ، ولم يكن له منفذ اخر غير فتحة تسمى نافذة اصطلاحا وهي في الحقيقة مجرد فراغ بين أعلى الجدار من الداخل قريبا من السقف وبوابة السجن الرئيسية من طرفه الآخر على مستوى الأرض فيها ، وبين الجهتين ثمه طبقات من القضبان الحديديه والشباك الخشن والناعم إلى درجة لاتسمح حتى بمرور الهواء نفسه وتحجب وصول أي شعاع ضوء ! ولذلك كنا في عز البرد نستغيث من الحرارة وانعدام الهواء النقي ، ونرجوهم أن يفتحوا لنا طاقة الباب أو أن يأتوا لنا بمروحة تحرك الأ نفاس الراكدة على أقل تقدير ، فكان السجان ياسين على الأخص يرفض أن يفتح لنا الطاقة لنتنفس ، فإذا رجته إحدانا ازداد تعنتا وجعل يكرر كالآلة على مسامعنا عبارة واحدة أثيرة لديه : - هافي - أي لا توجد - طاقة . فتقول له الحاجة : طيب أحضر لنا مروحة أو أي شيء يمكن أن يغير جو الغرفة فإنا نكاد نختنق . فلا يجيب إلا بنفس الإجابة : - هافي طاقة . . هافي مروحة . . هافي باب ! وكان يوم عيد لنا يوم أن سمحوا لنا بعد ثمانية أشهر من الإعتقال بالتنفس خارج جدران المهجع مرة أو مرتين في الأسبوع . . فيما لم يجيبوا طلبنا الثاني بشأن المروحة إلا بعد انقضاء أكثر من سنتين على الإعتقال . . وامتلاء المهجع بالنزيلات حتى غص بهن ، وكدن من فرط المعاناة وشدة الإزدحام أن يقضين نحبهن !

الهمس ممنوع . . والزمن معدوم . . والشكوى مذلة ! كانت الأيام تمر بطيئة ورتيبة . . وبدأنا لذلك نعتاد أن ننسى الوقت ونغفل عن جريان الزمن ! كنا لا نستطيع التفريق بين الليل والنهار ونصلي على التقدير . . ونحسب الأيام بتبدل دفعات السجانين وبتباعد تاريخ

اعتقال كل واحدة منا ، وأما ضوء المهجع الذي كان يشعل ويطفؤ من الخارج فكان يزيد تعميق الشعور لدينا بتساوي الليل والنهار . . وبالطبع فلم تكن النافذة لتسمع عمقهما وتعدد طبقات القضبان والشبك فيها بالاشارة إلى أي تبدل في المواقيت أو الزمان ، علاوة على الظلمة التي تسود بطبيعة الحال في فصل الشتاء . وزيادة في إشاعة القلق الدائم والتوتر فينا لم يكن مسموح لنا بالكلام إلا همسا ، ومجرد أن يسمع أحد العناصر صوت واحدة منا كان يخبط الباب بالكابل خبطة مرعبة وهو يصيح بنا أن نخرس أو أن نخفض الصوت ! وعلاوة على ذلك كانوا إذا أرادوا مناداتنا لأمر ما خاطبونا باسم رجل لا بأسمائنا . . فكنت على سبيل المثال أنادى غالب الأحيان باسم محمد إ! ويبدو أن أمي قررت بعد أسبوعين تقريبا من اجتماعنا في المهجع أن تكسر هذا الجو المرعب بطريقتها وتخترق أسوار الارهاب . . فطرقت الباب بلطف في البداية وسألت حسين أن يحضر لنا مصحفافقال لها باستغراب : -وهل تظنين أنك في بيتك أو في قصرلتطلبي على كيفك ! ألا تعلمين أن المصحف ممنوع هنا؟ فسألته وهي لا تزال محافظة على هدوئها : لماذا ؟ قال بشراسة : لأنه لا توجد مصاحف هنا في الفرع . فقالت له : رأيتهم بعيني مكدسين في غرفة التحقيق وأصحابهم جالسين في المنفردات . وكانت تتحدث عن الشباب الذين أحضروهم يوم اعتقالنا الأول من المسجد دفعة واحدة ووجدوا معهم مصاحف حفاظ صغيرة فصادروها . . فأجابها بصلف : -لكن تلك المصاحف للحرق لا للقراءة ! فعادت ترجوه بلطف وتقول له : أعطنا واحدا منهم فقط ولن يراك أحد أو يحاسبك . . وحتى لو كان صغيرا فليست مشكلة . . فقال لها ممنوع وأغلق الطاقة . فعادت ودقت وكررت عليه الرجاء فأجابها نفس الجواب وصفق الطاقة بوجهها من جديد . فعادت ودقت بقوة فحضر عنصر أخر علوي اسمه ابراهيم فسألته نفس الطلب ، وكانت أجابته كما أجاب من قبله : ممنوع . . المصحف هنا ممنوع . . . فقالت له إذا أعطني ورقة لأقدم طلبا إلى رئيس الفرع . فقال لها:لايوجدلدي ورق .. وبعدمماطلات ومشادات كل ومل وأعطاها ورقة قدمت عليها طلبا للمقدم ،فأرسل ذاك وراءها وبهدلها وقال

لها: لاتوجد مصاحف هنا. وأضاف: لماذا تريدينها لتقرأى وتدعى علينا فلما عادت وأخبرتنا بذلك قررنا الإضراب عن الطعام . . وامتنعناعن استلام وجبتي الإفطار والغداء . .فهددونا إن لم نفك الإضراب بالعودة إلى المنفردات ، وقطعوا الماء عن المهجع زيادة في الضغط ، وكانت أول تجربة لنا فتوقفنا عن المطالبة وما عدنا تكلمنا بشيء وفي اليوم الثاني عادت أمي فطلبت ورقة وقلما لتقدم طلبا اخر للمقدم فحضرأبوعصام مديرالسجن وسألها ماذا تريدين فقالت اننانعاني ضيق الخلق ونريد أن نتسلى بالمصحف فقال لها ولماذا لا تتسلي بأشياء ثانية . قالت : مثل ماذا ؟ قال :كمايتسلى الشباب . . بشغل العجين قالت له : طيب علمنا . فقال لها:سأذهب فأسألهم لك وأعودبالجواب وبالفعل لم تمض حوالي الساعة حتى عادأبوعصام ومعه مصحف قديم جدا لا أدري من أين أتى به ولكنه جيد وكبير فقسمناه من فورنا أجزاء أجزاء،وكانت لدينا كرتونة لا أدري من أين أيضا فغلفنا الأجزاء بها ورقمناهم وصرنا نتلو ونحفظ منهم ، وعاد عنصربأمرمن أبي عصام إلينا فعلمنا كيف يشتغل الشباب بالعجين .

اوراد وأذكار وتسالى

كان الشباب السجناء ياكلون من الخبز وجهها الناضج وحسب ويجمعون العجين من قلبه فيعجنونه مره ثانيه اذا تكدست كميه كافيه منه ويخمرونه بلعابهم ثم يعيدون عجنه حتى يصبح متماسك القوام فيصنعون به اشكالا وتماثيل مختلفه ومسابيح جميله جدا حتى ان رئيس الفرع احتفظ بطائره من صنع الشباب فى مكتبه ظننتها اول ما رايتها هناك مصنوعه من الفضه وكان العناصر يحضرون للشباب الوانا يستخدمونها ايضا فى تجميل انتاجهم لياخذوه منهم آخرالامر بالتاكيد وهكذا دخل حياتنا الرتيبه عنصر جديد وبدانا بصنع المسابيح اول الامر فكنا نمضى ساعات نعرك فيها العجين ونخمره ونكوره ثم انتقلنا بعدها الى صنع الاطواق وعلاقات المفاتيح والاشغال البسيطه وعندما تطورت خبرتنا ادخلنا التلوين بطريقتنا الخاصه فصرنا نطلب من بعض العناصر ان يعطونا طحل القهوه او بقايا لنلون به ثم لما سمحوا لنا بالادويه فى الفتره الاخيره استخدمنا

بعضها بعد اذابته اوسحقه كعنصرتلوين وكانت المفاجاه بحق حينما وجدنا الحاجه مديحه د تمكنت من تهريب اسياخ لشغل الصوف حينما حضرت من سجن المسلميه وكانت واحده اخرى من البنات قد احضرت قطعه ملابس صوفيه قديمه معها فكررنا وجعلنا نتسلى بشغل الصوف ايضا وبدانا فى فتره لاحقه بجمع نوى الزيتون اذا حصلنا عليه وحفها وصنع مسابيح منها لكن احد العناصر عندما اكتشف اننا نحفها على جدار المهجع لخشونته نهانا عن ذلك خشيه ان تكون اشارات نكتبها لاحد فصرنا نجمعها وناخذها معنا فنحفها على ارض الساحه وقت التنفس وصارت امى تبتكراشياء جديده بسيطه ومسليه لنا وتعلمنا من الالعاب مالم نكن نعلم فعلمتنا مثلا لعبه الكاس وكان لدينا واحده من البلاستك فكنا نتحلق حولها ونديرها الى ان تتوقف عند احدى البنات فكان عليها ان تجيب على اى سؤال يوجه اليها بسرعه وصراحه وكنا نجتمع على هذه الالعاب ونستمتع بها لا يشذ عنا إلا الحاجة مديحة التي كانت تسخر منا ولا ترتاح كأنما لاتفاقنا . . وترانا دائما أقل منها سنا ومنزلة وخبرة وتحسنا وكأننا ضد طباعها في كل شيء ! وبرغم المعاناة والتوتر استطعنا أن ننظم أوقاتا لتلاوة القرآن الكريم وحفظه وتلاوة الأوراد والمأثورات والتهجد . . حتى صارت البنات يتبارزن من تستطيع أن تصلي أكبر قدر من القران في تهجدها . . فإذا قدرنا دخول وقت الفجر صلينا وجلسنا إلى المأثورأت - والضوء مطفؤ بالطبع لنبدأ بعدها بقراءة ياسين أربعين مرة وحزبا من القرأن على نية الفرج وتيسير الأمور ، ونكرر الشيء نفسه في المساء . وكنت أبقى مع ماجدة بعد انتهاء ورد الصباح نراجع حفظنا من القران حتى ننعس فننام أو نكمل اليوم بلا نوم . وكانت والدتي تظل صاحية بعد الفجر حتى يدخل وقت الضحى فتصليها وتنام بعدها برهة من زمن .

أحاديث عبر الجدار !

وخارج جدران مهجعنا كان لأكثرنا تسلية وتسرية من نوع اخر ، فكنا نترقب وقت خروج الشباب بعد الإفطارإلى الخط فيقبل بعضنا إلى شق في طاقة بابنا تراقب ما يجري وتترقب بعضهن أن ترى أخا لها أو قريبا

بينهم . . ولم تكن هذه هي الصلة الوحيدة بيننا وبين الشباب ، فلقد اكتشفت البنات قبلنا وجود فراغ بسيط حول انبوب التدفئة بين مهجعنا والمهجع المجاور فطلبن من العناصر خرطوما بحجة استعماله في الحمام فأحضروه لهم ، فمددوه عبر الفراغ وصرن يحادثن الشباب عبره أو يمررن لهم الماء من خلاله لأن المهاجع الأخرى باستثنائنا لم تكن فيها حمامات أو صنابير مياه كما قلت ، ولم يكونوا يسمحون لأحد بطلب ماء أو الذهاب للحمام إلا في المواعيد . . ولقد حدث بعدها أن واحدة من السجينات الجدد متهمة بالتعامل مع العراق اسمها أم كامل فسدت علينا ، فقام العناصر بسد الفتحة بالإسمنت ، فلجأنا إلى التخاطب عبر الأ نبوب المعدني نفسه بالطرق عليه كإشارة أولى ، وكانت الحاجة تتولىالحديث بعدها أغلب الأحيان لأن مكانها كان مجاورا للأنبوب ، فكانت تنتظر هدوء الأحوال ونوم الحرس لتقرع على الأ نبوب وتحادث الشباب بصياح مكتوم تخفيه قدر ما تريد أن تبديه خشية أن يسمعها أحد من العناصر ! وكانوا في تلك الفترة يتعمدون معاملة الشباب أسوأ ما يمكن ، وينقلون دفعات منهم إلى تدمر كل يوم ، وكان الشخص الموكل بذلك وينادونه أبا طلال يأتي قبل صلاة الصبح فيقرع باب المهجع الذي فيه المطلوبون بكلبشات يحملها بيديه ثم يبدأ بتلاوة أسمائهم واحدا بعد الاخر ، وبعد أن ينتهي من سرد القائمة التي كانت تبالغ عشرين أو ثلاثين اسما كل يوم يصطف الشباب المساكين في الظلام فيكلبش كل اثنين منهم من أيديهما وأرجلهما معا . . فمنهم من يتجلد فيمضي ،ومنهم من يصيح ويستغيث ، ومنهم من يغمى عليه وقد أحس بدنو منيته ، فيشحطون هؤلاء على أرض السجن إلى سيارة بانتظارهم كالذبائح تماما تقاد إلى المسلخ . . وربما استفرغ بعضم أو فعلها تحته من هول الخبر ، فلا نستطيع ونحن نسمع هذه المأساة كل فجر يوم إلا البكاء والدعاء . . وكانوا كلما نقلوا دفعة إلى تدمرأتوا بثلاث أو أربع دفعات جديدة من المعتقلين مكانها ! فكانت الزنزانات والمهاجع محشورة أيامها بالشباب حشرا ، حتى لجأوا إلى استخدام الحمامات كزنازين في بعض الأحيان !

لوعة الام. . ومأساه الولد !
ولقد كان من عجائب مشاهدات السجن وقتذاك أن والدتي أخبرتني يوم لقائنا الأول في المهجع بأن أخي وارف سيغادر سورية حسب معلوماتها إلى لبنان ، وسيخرج من هناك إلى بلد اخر ولن يعود ، ويبدو أنه أخبرها بذلك حتى لا تقلق عليه وحسب ، وحقيقة الأمرأنه كان لا يزال في سورية . . ففي يوم من الأيام صلت أمي التهجد ثم الفجر ، وانتظرت فصلت الضحى ثم اتكأت لتنام على عادتها ، فما وجدتها إلا وقد انتفضت فجأة من نومها تقول لي :- سمعت صوت مشي أخيك وارف في السجن ! وكان السجن وقتها في غاية الهدوء ، فالشباب عادوا من الخط . . والعناصر نائمة على الأغلب . . فلا تسمع أي حس . . فقلت لها : - ما هذا الكلام ؟ لا يوجد أي صوت . . وتقدمت من شق الطاقة لأتأكد فوجدتهم يقودون أخي وارف بالفعلمن طرف سترته البنية التي أعرفها وقد طمشوا له عينيه وكبلوا يديه للوراء . . ورأيت حذاءه الرياضي الأبيض وحسين يسوقه ويقول له : - هيا إلى المنفردة . لكنني قلت لأمي وكأنني أحدثها من عالم آخر : لا أحد هناك . غير أن قلبي كان كأنما هبت النار فيه . . وغمرتني رغبة في البكاء وحاجة لإخبارأحد ، لكنني لم أستطع فعل أي شيء أمام أمي . . وبعد فترة وعندما أضربنا إضرابنا الثاني وأخرجونا إلى المنفردات فعلا عقوبة لنا تصادف أن وضعوا أمي وأم شيماء في زنزانة واحدة معا ، لى اذ بها نفس الزنزانة التي كان وارف معتقلا فيها ، في تلك اللحظات كانت أمي تتصنع وأم شيماء البكاء لترقفا قلوب السجانين علينا ،لكنهما كانتا لا تكادان تتمالكان نفسيهما من الضحك . . فأخذتا منشفة ووضعتاها بين أسنانهما لإخفاء الضحكات ، والتفتت أمي كأنها تريد أن تدق الباب على السجان فرأت على الجدار رسم مسجد محفور وقد كتب تحته بنفس الطريقة : لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد . . الشهيد محمد وارف دباغ . فانقلب البكاء الذي كانت أمي تتصنعه حقيقيا ، وصارت تنادي عليهم تريد أن تعرف أين ولدها ومتى اعتقال . . لكن أحدا لم يجبها . . وظلت تعذبها الظنون وتقتلها الحيرة ولا من مجيب . . وتبين لي فيما بعد أنهم اعتقلوا وارف وغسان أول مرة في حماة وأفرجوا عنهما بعد

أيام دون أن يثبت شيء على أي منهما ، ثم كان اعتقال وارف الثاني واحضاره إلى كفر سوسة والإفراج عنه من غير أن يدان بشيء أيضا ، وعندما استشهد بعد مدة استدعى المقدم ماجدة وقال لها ضمن ما قال :-
أمسكناه في المرة الأولى لما ظننا أنه مجرم ، فلما تبين لنا أنه بريء أخرجناه . . وفي المرة الثانية ظنناه بريئا فأطلقناه أيضا ولكنه طلع مجرما غرر به أخوه فنال جزاءه بعد ذلك . . وبشر القاتل بالقتل ولو بعد حين !

نصف بلاطة للنوم !
وتستمر معاناة السجن وتزداد . . ووجدتني بعد فترة في المهجع قد ابتليت بالام شديدة في ظهري حتى لم أعد أستطيع رفعه ، وترافق ذلك مع حالة تقيؤ مستمر واسهال . . حتى كدت أموت يومها بالفعل ! كان نومي وقتها بجانب أنبوب السخان المركزي الذي كان عاطلا عن العمل بالطبع فلا نتلقى منه إلا برودته ورطوبة الماء المتكثف عليه ، ولم يكن لي خيار في المكان لأ ننا كنا لازدحام المهجع لا يكاد يجاوز نصيب الواحدة منا وقت النوم أكثر من نصف بلاطة وحسب ، ولو أرادت إحدانا أن تتقلب لاستدعى ذلك تحريك المهجع بأكمله لم أحس بالبرودة في البداية ، لكنني وجدتني فجأة لا أقدر على تحريك ظهري مع الأعراض المؤلمة الأخرى التي ذكرت . . فقامت البنات يطرقن الباب جميعا ويسألن العناصر أن يحضروا طبيبا لعلاجي لكنهم لم يجيبوا ، فطلبت الدكتورة عائشة منهم طستا من البلاستيك أحضروه لها بعد إلحاح وطول رجاء ، فجعلت تعمل لي مغاطس ماء ساخن متتالية خفت عليها الأوجاع بحمد الله بعد يومين .

اضراب جديد
ومرت الأيام ، وفي كل يوم كانت لنا قصة جديدة وتجربة وعبرة . . وكانت أمي لا تفوت فرصة تحقق لنا فيها بعض السلوى أو تؤرق فيها السجانين والعناصر إلا واغتنمتها ، وباتت سياسة واضحة عندها أن تبتكر مطاليب لنا أو باسمنا تحقق منها إحدى الغايتين أو كلاهما . . وذات يوم وبعدما رأيناهم سمحوا لمنيرة بتقديم امتحان الثانوية خطر على بال بعض البنات

المطالبة بالمثل ، فكتبن إلى رئيس الفرع يسألنه السماح لنا بالكتب الجامعية التي ندرس بها وبتوفير جو ملائم للدراسة . . وبالطبع قوبل الطلب بالرفض والسخرية والتقريع ، فاقترحت أم شيماء أن نضرب عن الطعام حتى يستجيبوا ، وسرعان ما شجعتها أمي وأيدت أكثريتنا الفكرة ، فلما أتوا بطعام العشاء رفضنا استلامه . سألونا : - لما ذ ا ؟ قلنا : مضربين . -السبب ؟ أجبنا : نريد أن نقدم امتحاناتنا أيضا . رد العنصر ابراهيم : إذا لم تأخذوا العشاء فسنأخذكم إلى المنفردات . فأجابته أمي : سيكون أحسن . . ستتنفس كل واحدة لوحدها على الأقل ! أغلق ابراهيم الباب بلؤم وذهب ليعود بعد قليل بضحكة صفراء يقول : - المعلم - أي رئيس الفرع يريدكم أن تتجهزوا لننقلكم إلى المنفردات بعد نصف ساعة . وبالفعل لم تمض الفترة التي تحدث عنها حتى حضر وأخذ كل اثنتين منا إلى زنزانة من المنفردات ، فوضع أمي وأم شيماء في واحدة ، وماجدة وعائشة في أخرى ، ووضعني وفوزية حجازي في الثالثة ، وأما الحاجة مديحة فسألها ساخرا : - وماذا عنك أنت ؟ ألن تقدمي الثانوية أيضا ؟ فأجابته : أبوي . . أنا لا أعرف القراءة ولا الكتابة ! فتركها في المهجع . . وبقينا بضع ساعات شاهدت أمي خلالها اسم أخي وارف على الجدار فازدادت ثورتها وعلا صياحها . . ولم يلبثوا أن أعادونا إلى المهجع اخر الليل ، ولم يستجيبوا لطلبنا بالطبع ، لكننا كنا سعداء بهذا الأثر الذي تركناه والحركة التي أحدثناها رغم كل الضغوط والترهيب .

رصاص بعد منتصف الليل !

وفي يوم من الأيام وبعدما انتهى العشاء وهجع أكثر السجناء والسجانين مزق السكون عن غير سابق إنذار صوت الرصاص يلعلع على مقربة من السجن وكأنه فوق رؤوسنا . . واستنفر الفرع كله وهرع العناصر فأغلقوا الطاقات كلها وأطفؤوا الأ نوار ، وصاحوا بالمساجين وصوتهم يكاد لا يسمع مع أصوات خرطشة الأسلحة وأزيز الرصاص : - ولا حركة ! لم نفهم ما الذي يجري بالتحديد هل كان اشتباكا أم هجوما على الفرع ، لكن الرصاص كان يصل إلينا فيصيب حتى جدار المهجع من الخارج ولم يكن بينه وبين الشارع إلا فسحة صغيرة يليها

السور فنحس وكأنما اخترقه . . حتى أن أمي نهضت فتوضأت وصلت صلاة الشهادة ثم احتمت وإيانا بالجدار خشية أن تبلغنا الطلقات ! وبلغنا فجأة من بين الأصوات المختلطة صرخة كالزعيق تبعها صياح العناصر المضطرب ينادي : فلان قتل . . تعالوا . . فقدرنا أنه أحد عناصر الحماية على الباب . . وبعد حوالي الساعة من بدء الإشتباك هدأت الأمور بالتدريج كما بدأت ، وحاولت الحاجة الإستعلام عما حدث من ابراهيم الذي كانت نوبته وقتها فنهرها وحذرها من إعادة السؤال ، وعدنا إلى ما كنا عليه لأيام قليلة أخر دون أن نعرف حقيقة ما جرى بالتحديد . .

إفراج . . ولكن إلىتدمر !

وذات يوم . . وبينما كانت الحاجة تحادث الشباب في الزنزانة المجاورة عبر الأنبوب أتاها من وراء الجدار صوت سائل منهم يسأل إن كان بيننا حمويات . فقالت له نعم . . فقال لها : - يا خالتي نحن من حماة أيضا وسنخرج غدا إفراج ، فلو كانت لدى أي من الحمويات رسالة لأهاليهن اكتبوها وضعوها في شق الطاقة ونحن سنسحبها بإذن الله أثناء خروجنا إلى الخط بطريقة لا تشعر العناصر ونوصلها لهم . والذي تبين بعدها أن هؤلاء الشباب المساكين وعدوا بالخروج في اليوم التالي بالفعل ولكن الخروج كان في الحقيقة إلى تدمر ! وفوجئنا عند الصباح بالمحقق يرسل وراء أمي بلا مقدمات أو سبب . . فتعود والدموع ملء عينيها تحدق في وتبكي . . فتملكني القلق والخوف عليها وهجمت أحضنها وأسألها ماذا حدث . . فقالت : - أخبرني أنهم سينقلونني إلى فرع اخر اليوم ولكنني أظنه كاذبا . . وأحس أنهم سيطلقونني اليوم . وقصت علينا أن المحقق لما استدعاها ابتدرها يقول لها : - جهزي نفسك وأحضري أغراضك بسرعة . فسألته : وابنتي ؟ قال : ستبقى رهينة عن أخيها صفوان ولن تخرج حتى يسلم نفسه . . أو فاعتبري أنك لم تلدي هذه البنت وانسيها ! وجعلت أمي وهي تقص علينا ذلك تخلع ملابسها عنها وتعطينا إياها قطعة بعد قطعة ، وما أبقت إلا ما يسترها وحسب لعلمها أنه ليس لدينا ما يكفينا . . وسألتنا إن كان أي منا يريد إرسال رسالة أو توصيل خبر

عنه ، فسارعت ماجدة وأخذت قلما من منيرة وكتبت رسالة لأهلها على ورق المحارم دستها أمي في كم سترتها ، وأخذت تعانقنا وتقبلنا وتدعو لنا وندعو لها وخرجت . . ولم تكد تبلغ الباب عند السلم وهي تستحلف العنصر أن يخبرها بموعد خروجنا لى اجابته الساخرة ورجاؤها المتكرر يبلغ مسامعنا فيزيدنا ألما وحسرة حتى انفلتت من بين يديه وقفلت راجعة ، ففتحت طاقة الباب وسألت بسرعة تقول : - نسيت هؤلاء الشباب جيراننا من بيت من كانوا ؟ ولم نكد نخبرها حتى كان حسين قد وصل إليها فأمسكها من ياقة جلبابها وجذبها مغلظا لها في الكلام . . وهي ترد عليه الكلمة بأخرى والعبارة بأشد منها حتى خرجت . . وكانت اخر مرة أراها فيها رحمها الله . وأما رسالة ماجدة فعلمنا بعدها أن أمي توجهت أولا إلى بيتنا في دمشق الذي اعتقلنا فيه وقصت أخبارنا على البنات اللاتي كن معنا فسألنها أن يرين الرسالة ، لكنهن اجتهدن أن ينقلنها على ورقة عادية خشية أن تتمزق المحرمة ، فلما ذهبت أمي بها إلى أهل ماجدة لم يصدقوها لأنهم رأوا الخط مختلفا . . وظنوا وقد فقدوا الأمل بابنتهم أنها إنما تسري عنهم وحسب ، وظلوا في شكهم حتى فتحت الزيارات في سجن قطنا بعد سنين فرأتهم هناك ورأوها بعد طول فراق .

معززات مكرمات !

وتم الإفراج عن أمي في السادس عشر من شباط . . وتأكد لنا الخبر حينما استدعى المقدم ماجدة بعد أسبوع تقريبا لأنها قدمت طلبا له تسأل فيه حلا للوضع ، فقال لها بكل صلافة واستعلاء : - انظري . . لا توجد أحسن من جلستكن هذه أبدا . . أنتن هنا معززات مكرمات . . ومثل هذا الفرع لن تجدوا ! وأضاف يقول : هذه أم هبة أخرجناها فجلست هنا على الباب فترة طويلة تبكي ولا تعرف كيف تتصرف حتى أعطيتها أجرة الطريق من جيبي أنا . . وبالتأكيد كان ناصيف يكذب لأن أمي ظلت جالسة عند الباب ترفض التحرك قبل أن تعرف مصيرنا وتأمل أن تسمع قبل ذهابها ولو إشارة بقرب الإفراج عنا وإلى أين ستتجه الأمور ، لكن الإفراج لم يتم . . وسارت الأمور من سيء إلى أسوأ ، فلم تلبث أن

انضمت دفعة جديدة من المعتقلات إلينا . . لتنفتح علينا قصص أخرى من الماسي والآلام . . ونبدأ فصلا جديدا من الكرب والمعاناة .

مزيد من الضيو ف . . مزيد من المآسي !
لم تكن يومان أو ثلاثة من الإفراج عن أمي قد انقضت حينما قرع علينا أبو عادل مدير السجن باب المهجع ضحى ذلك اليوم ودفع إلينا بسيدة تضع منديلا أسود انقلب لونه من الأعلى إلى الصفار الباهت . . وترتدي بالطو من الجوخ الأسود أيضا وتحمل في يدها بقجة جمعت فيها حاجياتها كما يفعل الشحاذون تماما ! أطلت ثم ارتدت للوراء لبرهة كانت كافية أن نلمح هيأتها الرثة وبقايا جدري أصابها منذ الطفولة فترك مع أصابع الزمن ندبا على وجهها المرهق . . فتبادر إلى أذهاننا أنها متسولة ألقوا القبض عليها وأحضروها لتشاركنا المكان ! فحوقلنا وقلنا لأ نفسنا ونحن بين النفور والإشفاق : وهل ينقصنا عذاب من هذا النوع مع كل الذي نلقاه . . روائح ومناظر الشحاذين ! لكن الباب فتح على اخره مرة ثانية واندفع أبو عادل يصيح بنا : -هيا . . انهضوا واستقبلوهن . . ودخلت السيدة نفسها تتبعها أخريات لا يختلفن في الهيئة الرثة عنها كثيرا : فهذه كالخادمة . . والأ خرى أشبه بالمتسولات . . وتلك تلبس مانطو ممزقا . . ورابعة ترتدي تنورة أطول منها وقد عقدت إيشاربها على رأسها أوثق ما تستطيع ، وعليها كنزة ضيقة تلتصق على جسدها وقد عفا عليها الزمن ، وفقدت أزرارها من الخلف فبقيت مفتوحة بعض الشيء . . ولم نكد نستوعب النظر إلى النساء الست القادمات حتى اندفعت أولاهن نحو الحاجة مديحة تعانقها وهي تصيح :
- أبوي . . أنت هون ؟ وانفجرت السيدة في البكاء ، وبادرتها الحاجة بالدموع تقول : - حاجة رياض . . الحمد لله على سلامتك . أخيرا . . أخيرا وجدت ونيسا لي في هذا المكان .
وبحركة غير متكلفة دفعت الحاجة مديحة البنت التي كانت تجاورها في المجلس وأفسحت لصديقتها الحاجة رياض المكان فأجلستها فيه وما عادت تحركت عنه أبدا !
وتحركت بقية القادمات الجدد نحونا بتوجس طبيعي بادئ الأمر . . ثم لم تلبث النفوس أن استراحت . .

وانفتحت جعب الحكايات . . وغص المهج بالعدد الذي زاد عن سعته . . لتزداد المعاناة وتتوالى أيام العذاب .

باب الحديد !

كانت القادمات من سجن المسلمية بحلب خمس هذه المرة : الحاجة رياض د. ولمى ع. ورغداء خ. ومنتهى ج. وإيمان ق. وكانت مهزلة إحضارهن إلى كفر سوسة لا تقل ألما عن مأساة اعتقالهن وتعذيبهن . . فلقد أركبوهن السيارة من سجن المسلمية بحلب وقد كبلوا كل اثنتين منهما معا والخبر يقول إنه إفراج ، وكان قد سبق بالفعل إطلاق سراح حوالي 16 سيدة أخرى كن معهن ، لكن السائق اتجه بهؤلاء الخمس على الطريق الموصل إلى دمشق ، فلما عبرت السيارة الكرة الأرضية مغادرة حلب لاحظت الحاجة رياض ذلك رغم أن الوقت كان مساء فقالت للسائق ببراءة : -أنا بيتي عند باب الحديد خيو . . يمكن ضيعت الطريق ! فأجابها بلؤم وسخرية : لا . . طولي بالك . . ما وصلنا باب الحديد بعد . . أريد أن أعمل لكم دورة حول حلب وأوصلكم بعدها كلكم إلى باب الحديد ! فلما فهمت الحاجة المقصود أغمي عليها . . واصفر وجه لمى وقد ظنت أنهم سيأخذوهن الان إلى غرفة الإعدام . . وجعل العناصر يسخرون منهن طوال الطريق ويزيدون قلقهن قلقا ورعبهن رعبا . . فلما وصلن إلينا كن في غاية التوتر والإجهاد . . لكن دقائق تالية مرت كانت كافية لتغير الحال . . ولتفتح كل منها جعبتها وتروي قصتها في رحلة الآلام .

تحويشة العمر !

كانت الحاجة رياض من النساء الطيبات البسيطات ، خرجت من المدرسة في الصف السادس ولم تكمل تعليمها ، ولم تتزوج رغم بلوغها الأربعينات ، لكنها -كالحاجة مديحة - من أسرة متدينة وأخت لأشقاء ملتزمين كانت لديهم منجرة في حلب ففتحوا فيها مخبأ للملاحقين قبل أن تنكشف فيعتقل واحد منهم ويهرب الآخر إلى عمان ، وفي مرة كانت الحاجة رياض ذاهبة إلى هناك لتزور أخاها في عمان قدمت لها إحدى السيدات بعض المال لتوزعه على أبناء الشباب الذين

أعدموا ولا يكادون يجدون في هذا الظرف الصعب معينا أو مصدرا للكسب ، وبالفعل أخذت رياض المبلغ ووزعته كجزء من واجب أحسته نحو هؤلاء المساكين ، لكن اعترافا أتى عليها لا تدري من أين فاعتقلوها وجعلوا يعذبونها أشد العذاب ، وبعدما فتشوا بيتها ولم يجدوا شيئا جعلوا يهددونها لتخرج النقود التي أحضرتها من عمان ، لكنها كانت قد وزعت المبلغ كله ، فزادوا عليها التعذيب حتى اضطرت أن تخبرهم عن مبلغ من المال كانت قد جمعته على مدار حياتها وخبأته للطوارئ تحت أحد الكراسي ، فأعطتهم إياه مرغمة لتنجو بنفسها ، وكانت كلما تذكرت ذلك بعدها تبكي وتقول للحاجة مديحة بحسرة : - أخذوا تعبي وعرق جبيني يا حاجة وعملوهم من الإخوان . . إي ولي على الإخوان وساعتهم ! وكانت تنشد أحيانا بين الحسرة والطرافة تقول : - إلهي قد غدوت هنا سجينا . . لأني وزعت مصرات الإخوان المسلمينا إ! وروت الحاجة رياض عن تعذيبها الأهوال بحق ، فلقد تمت تعريتها مثل أكثر المعتقلات بحلب ، وجعل عمر حميدة يسحبها من شعرها على الأرض فيرتطم رأسها بالأرض والجدار ، مما تسبب في كسر عظمة أنفها . . وأصابها بعسر دائم في التنفس ، فكانت المسكينة بعد ذلك دائمة التشخير . . وزاد حميدة على ذلك العذاب الوحشي فسلط على وجهها خرطوم ماء شديد لتصحو من الإغماء فخرق لها طبلة أذنها ، وكان من المضحكات المبكيات أنها اعتادت بعد ذلك أن تنام على أذنها السليمة فلا تعود تسمع شخيرها الذي كان يؤرق نوم المهجع كله ، فنضطر إلى إيقاظها آخر الأمر لتعدل من وضعي

الفصل الثالث
سجن قطنا ، الموت البطيء
أكتوبر 1982 - 1985

سجن قطنا ، الموت البطئ
أخذت السيارة تنهب الأرض نهبا وتكاد في كل انعطافة لها تلفظنا إلى الخارج لولا أن تتلقانا القضبان الصماء تارة وأجساد بعضنا البعض المنهكة تارة أخرى . . وفيما جلس اثنان من الحرس بيننا وبين حجرة القيادة واثنان

اخران بين القفص الذي أغلق علينا بإحكام والباب الخلفي مدججين كلهم بالسلاح ، بقي أبو طلال في المقدمة بجوار السائق وحده . كنا أنا وماجدة وأم شيماء والحاجتان ومنتهى وايمان ورغداء ومنى وحليمة وأم محمود وأمل . . وفي بداية المشوار الذي استغرق قرابة الساعة أصابني الدوار ، فلما تلفت لأستنجد بأحد حولي وجدت أكثر البنات مغمى عليهن ! فقد اجتمع علينا الجوع والإرهاق والرعب والهم . . وكانت شهور قد مضت علينا لم نركب فيها سيارة ولا سطعت علينا الشمس بهذا الطول . . وأما أنا وبعد أن بدأت استعادة وعيي حاولت أن أحرك يدي في القيد فشد عليها أكثر ، فلما حاولت تخفيف هذا الضغط ازداد واشتد حتى ازرقت أناملي وأحسست أنها ستنقطع ! ولم نلبث وقد بلغ الكرب مداه أن توقفت بنا السيارة عند حاجز للشرطة المدنية ، وتقدم أحدهم ففتح الباب الخلفي لبرهة وكأنما أرادوا أن ينزلونا . . وقتها استطعت أن ألمح قوسا معدنيا فوقنا مكتوب عليه بخط عريض "سجن قطنا المدني " لكن الباب عاد فأقفل ، وعادوا فساروا بنا إلى الداخل ليتوقفوا عند باب اخر جرت عنده كما تبدى عملية التسليم والإستلام ، وبعد انتظار ربع ساعة تقريبا ريثما سلموا الأوراق واستلموها جاء أحد أفراد الشرطة ففتح باب السيارة ودعانا للنزول . كنا لا نزال كالخارجين من القبور لا نستوعب ما يدور ولا نقوى من الإعياء أن نتحرك . . وأذكرأنني سحبت نفسي سحبا وجاء الشرطي فأسندني ثم أمسكني من يدي وأنزلني . . وارتمينا جميعا من فورنا على الأ رض وافترشناها كالشحاذين ! فيما تحلق بعض رجال الشرطة حولنا يتهامسون ويحوقلون ، وأخذ آخرون يطلون من شبابيك المخفر علينا وكأننا مخلوقات من كوكب اخر !

كان منظرنا محزنا مثلما كان غريبا ورهيبا . . فالوجوه مصفرة من الهزال باهتة من اعتياد الظلمة والبعد عن ضوء الشمس ، والثياب رثة ممزقة تراخت فوق أجسادنا المنحولة وقد تغيرت ألوانها واختلطت الرقع عليها فكادت أن تغطيها . . وفوق ذلك كنا لا نزال مقيدات الأيادي نتحرك - إذا استطعنا - أزواجا بالكلبشات ! وتبين فوق ذلك أن أبا طلال قد نسي مفاتيح الكلبشات

في كفر سوسة عمدا لا ندري أم سهوا ، فتركنا على حالنا في القيود فوق الرصيف ومض ليحضرها . . لكن وما أن تحركت سيارة المخابرات حتى أقبل الشرطة علينا يدعوننا للدخول إلى غرفتهم إكراما لنا ، ولما لم نقو حتى على الإنتقال سحبونا سحبا وأجلسونا هناك في انتظار عودة أبي طلال بالمفاتيح . كانت غرفة الخفر بسيطة المحتويات تضم طاولة مكتب وخزانة السلاح وبعض الكراسي ، وكان العناصر يطلون من الباب بين الحين والآخر ينظرون إلينا نظرات يختلط الإشفاق فيها بالإستغراب ، ولا تالبث أن تدمع عيونهم ويبكون مثل النساء ! وأقبل واحد منهم في الخمسينيات من عمره وحاول أن يفك الكلبشات من أيدينا مرات عديدة فلم يستطع . . فجعل يواسينا والدموع تسيل على خديه ويقول : اطمئنوا أخواتي اطمئنوا . . الان ستنتقلون إلى الداخل وتعيشون عيشة طبيعية من جديد . . وجعل يشير من النافذة ويقول وهو لا يتمالك نفسه من البكاء : انظروا . . يوجد أولاد هناك . . وشجر . . ونسوان . . هناك واحدة من حماة اسمها غزوة . . وهناك غيرها فلانة وفلانة ، يالله إن شاء الله الآن تتنشطوا وتعودوا إلى حياتكم الطبيعية . . وعندما لمحت أم محمود ولدا هناك تنهدت وقالت له : وهل إذا وجدنا أولادا هنا سيعوضوننا عن أولادنا ؟ فقال لها : منشان الله . . والله إن شاء الله سيأتي أولادك وترينهم وتطمئني عليهم . . ومض الرجل الطيب مسرعا فأحضر لنا شايا نشربه ونحن لا نكاد نصدق ما يجري ، ولم يلبث مدير السجن المساعد أبو مطيع أن جاء مع وصول أبي طلال بالمفاتيح بعد قرابة الساعتين ، ففك لنا الكلبشات واحدة بعد الأخرى ، ومن غير أن يقول لنا أية كلمة مضى بالعناصر والسيارة . . فيما أخذ أبو مطيع يهدئ من روعنا ويؤكد لنا أن هذا المكان مختلف جدا، ولن يكون هناك أي تعذيب ولا خوف بعد اليوم . . ودخل إلى منطقة المهاجع ونحن نتبعه ، فلما دخلت أولانا - وكانت أم شيماء - وجدنا السجينات جميعا هجمن عليها يعانقنها ويحملنها إلى المهجع حملا . . وهي تناديهم ولا يسمعون ترجوهم أن يتركوها لتمشي بنفسها . . والذي تبين أن أبا مطيع دخل على السجينات وأخبرهن بأن نساء خارجات من أحداث حماة أتين إليكن . . منهن

المكسورة والمجروحة والمصابة ، . وهن في أسوأ حال . ولم يكن الرجل متصنعا ولا كاذبا وقتها ، وظننا كذلك فعلا نتيجة الحالة المزرية التي كنا عليها بعد ثلاث سنوات من العيش في قبو لا يشبهه من بقاع الدنيا شيء إلا حفرة القبر!

أحكام شكلية : عشر سنوات فقط !
كان سجن قطنا عبارة عن بناء حجري أشبه ما يكون بالبيوت العربية القديمة تتوزع الغرف فيه على محيط باحته ، وتفصل بين هذه الباحة وبينهم القضبان الحديدية فتجعل من كل حجرة مهجعا مستقلا بذاته . وعلاوة على مهجع مخصص من قبل للسجينات السياسيات كانت المهاجع الأخرى موزعة حسب القضايا التي حبست السجينات على ذممها ، فثمة مهجعان للمتهمات بالقتل ، وآخر للحشيش والمخدرات ، والرابع للدعارة . . وثمة غرفة خامسة أشبه بالزنزا نة المنفردة كانت والدة مهدي علواني الذي أعدم مع مجموعة من الشباب في أواخر عام 79 مسجونة فيها وحدها ثم أفرج عنها قبل أن نأتي . . لكن وبرغم المجاورة فإن الإختلاط بين السياسيات والقضائيات كان ممنوعا ، وكانوا ساعة أن وصلنا قد سمحوا للسياسيات بالخروج لاستقبالنا ، لكن بعضا ممن كن يعرفننا لم تتمكن من التعرف علينا بادئ الأمر ! فسناء س . التي كانت معي في الجامعة جعلت تحملق في وتقول : -غيرمعقول . . هل هذا أنت ؟ ماذا حصل . . هل جففوكم في العلب ! وأقبلت غزوة ك . أيضا تستقبلنا بضحكتها وفكاهاتها . . وغمرت الفرحة قلوبنا وقلوبهن وكأننا التقينا في بيوتنا معززات مكرمات ! وبين خليط من القبلات والدمعات والتنهدات جلست كل واحدة تقص قصتها . . ولم يلبث أن حضر العقيد موفق السمان قائد المنطقة ورئيس السجن فسلم علينا ورحب بنا وقال لنا أنتم هنا في أمانتنا ولن تجدوا إلا خيرا ، وجعل يؤكد علينا أنه لم تعد للمخابرات أية علاقة بنا ، وأنه لم يعد لذلك أي معنى للاستمرار في الإضراب ، راجيا إيانا أن ننهيه للتو ونصبر ونحتسب حتى يأذن الله بالفرج . . وحضر أحد رجال الشرطة بكرسي للعقيد فجلس عليه أمامنا ، ولم يلبث أن أخرج أوراقا بيده وقد ارتسمت معالم الجدية أكثر

على قسمات وجهه وقال لنا دون أن تختفي ظلال الحرج عن نبرته : - اسمعوني الآن . . لا أريد بكاء ولا نواحا . . اسمعوا فقط . فسألته الحاجة : ليش إيش في ؟ قال : هذه ورقة الأحكام التي بلغتنا سأقرأها عليكم لتعلم كل منكم حكمها. ومن غير أن يترك لنا فرصة لاسترداد الأنفاس شرع يقرأ : حكمت محكمة أمن الدولة على المتهمة هبة دباغ بعشر سنوات مع الأشغال الشاقة . . فصاحت الحاجة رياض : اه . . ولي على قامتي ان شا الله يا هبة . وهجمت علي وضمتني وهي تبكي وتنوح . . وردت الحاجة مديحة معها: -ولي على قامتي ان شالله . . عشرسنين ! لكن أثر المفاجأة والتأثر بما سمعوه لم يلبث أن تقلص عندما تذكرت كل منهن نفسها وجال بخاطر كل منهن عدد السنين التي حكمت بها أيضا ، وسرعان ما اتجهت الأنظار إلى المقدم ثانية وقد بدأ يكمل قراءة بقية الأحكام : حكمت محكمة أمن الدولة على المتهمة رياض د. بعشرين عاما مع الأشغال الشاقة ! فصاحت به بانفعال : وقف أبوي ليكون دبانة عملت نقطة هنا بالغلط ! ماذا ؟ هل قلت 25 عاما ؟ غير معقول فتركوني واتجهوا إليها وقد تضاعف حكمها يواسونها ويخففون ما وسعهم عنها . . ثم تتابعت قراءة الأحكام : منتهى ج . عشرون سنة . الحاجة مديحة عشر سنوات . رغداءخ . ومنى ع . أربع سنوات (لكنهما جلستا معنا السنين العشرة) ! أم شيماء 4 سنين . عائشة ق . أربع سنوات . حورية أم محمود عشرة . منى ف . وأختها عشرة . ماجدة ل . عشرون . هالة عشرة . ترفة عشرة سنين . . ولما انتهى من الأسماء كلها ورأى حالة الوجوم التي كستنا وتأثرنا وبكاء من يبكي منا ونحن مضربات بالأصل وحالتنا حالة قال لنا مواسيا: هذه مجرد أحكام شكلية وحسب ، وان شاء الله تخرجوا قبل ذلك ولا تطولوا ، ولا أحد جاء هنا إلا وخرج . . ثم جعل يحدثنا عن حقوقنا هنا والمزايا المتحققة لنا ، وأخذ يشجعنا هنا لكي نتناول الآن طعام الإفطار ونعود إلى حياتنا الطبيعية . . وخلال ذلك أعدت البنات لنا مائدة طويلة على طول المهجع الذي خصصوه من فورهم لنا نحن القادمات الجدد ، فالتفت إلى ماجدة وأنا أصيح ولا أكاد أصدق نفسي : - بندورة . . خيار . . بقدونس . . وبيض إ! لكننا وعلى الرغم من الجوع

الشديد والطعام الشهي إلا أننا وما أن ابتلعنا اللقمة الأولى بعد سبعة أيام من الإضراب حتى أصبنا جميعا بمغص في المعدة وعجزنا عن الإستمرار . . لكننا أنهينا إضرابنا واستعدنا بعضا من حيويتنا ، وكانت سعادتنا غامرة وقد لمسنا نجاح إضرابنا ولو إلى حد ، وبدأنا وقد حدثتنا سابقاتنا عن نظام الزيارة الأسبوعي لكل الأهالي . . بدأنا نعد الأيام انتظارا ليوم الجمعة الآتي . . وننسج الأحلام من ظهيرة يوم الأربعاء الذي وصلنا فيه ترقبا لهذا اللقاء الذي طال .

أشغال شاقة !

كان مهجعنا عبارة عن غرفة مستطيلة الشكل لا يجاوز طولها خمسة أمتار تقع في زاوية السجن اليسرى، وبعد أن يتجاوز الداخل درجة حجرية في البداية تنخفض أرضية المهجع بما يسمى "العتبة" ثم تعود لترتفع إلى المستوى الأ ول من جديد . وفي الزاوية اليسرى هناك حجرة الحمام ، وثمة نافذتان تطلان على باحة السجن على يمين الباب . وبعد أن استلمنا المهجع وعلمت كل منا حكمها عاد مدير السجن فسلمنا فرش إسفنج ومخدات وبطانيات على عددنا ، لكنهما كانت كلها قديمة ومستعملة ومنتنة ، وسرعان ما دب الخلاف بين القادمات وهن يتسابقن للفوز بأحسن الفرش والبطانيات وأفضل الأماكن ، وبالطبع لم تتسع الغرفة لنا جميعا ، وحسما للخلاف صارت فرشتى انا وأختي على العتبة ونصفها الآخر على الخلاء ! وبعد أن مرت الأزمة على خير واستطعنا آخر الأمر الإستقرار على حال جعلنا ننظف المكان معا ونعد مسكننا الجديد فيه . وخلال ذلك لاحظنا أن بعض زوايا الغرفة متآكلة من القدم ، وجانبا من الدرجة التي على الباب مكسور بما يهدد أي عابر بالزلق ، فسالنا مدير السجن أبا مطيع إن كان بالإمكان السماح لنا ببعض الإسمنت لترميمها فوافق ، وفي اليوم الثاني جاءنا مبكرا وفتح علينا الباب فخرجت الحاجة رياض أول من خرج ، فما أن راها وناداها حتى وجدناها وقد أغمي عليها ، وأسرعت الحاجة مديحة فسكبت عليها الماء وصحتها ،فلما فتحت عينيها تشبثت بها وهي تقول : - أبوي يا حاجة ، يريدون أن يأخذونني إلى الأشغال الشاقة! من شان الله تكلمي

معه . . قولي له لا أستطيع . . ضغطي يرتفع . . ونفسي والله يضيق ولا أتحمل . . وصارت المسكينة تبكي كالممسوس . . فخرجت الحاجة مديحة وقد تملكتها الدهشة وسالته : -ما الذي حدث . . إلى أين ستأخذها ؟ قال الرجل باستغراب واضطراب : والله لم أفعل لها أي شيء . . لم أزد عن أن أقول لها تعالي يا حاجة وخذي الإسمنت . لكنها وكما علمنا بعده ، ولضعف سمعها من جهة ورواسب الخوف التي لا تزال تملؤ نفسها من جهة أخرى ظنت أنه يريد أخذها لتبدأ تنفيذ حكم الأشغال الشاقة . . فأغمي عليها !

ولاده "معقل " في المعتقل !

كان مهجع السياسيات قبلنا غاصا كذلك بنزيلاته القادمات من شتى المحافظات : غزوة ك . من حماة ، وسناء د . من دمشق ، وأم معقل وولدها الذي ولدته في السجن أيضا ، وأم هيثم من جسر الشغور ، وأم عبد الباسط وابنتها عائدة وهما من الجسر أيضا ، وسنيحة وفاطمة من اللاذقية ، وأم محمود كامل من اللاذقية أيضا . ولكل من هؤلاء كانت قصة . . ولكل منهن مأساة وغصة . كانت غزوة طبيبة أسنان من حماة ساعدت بشراء بيت في دمشق للشباب الملاحقين ، ولكن عبد الكريم رجب اكتشف ذلك وأبلغ عنها فاعتقلوها من عيادتها في صوران ، وفي البداية أحضروها إلى فرع الأمن السياسي بحماة ثم نقلوها إلى فرع التحقيق العسكري بدمشق ، وبقيت هناك حوالي 6- 8 أشهر أحضروها بعدها إلى قطنا لتبقى معنا إلى النهاية . أما سناء ر . فيبدوأن أحدا ما قد استعمل هويتها في شراء بيت وهي لا تدري ، وانكشف البيت بعدما تبين أنه باسمها فاعتقلوها وأتوا بها ، وسناء من مواليد 1965 وكانت معنا في كلية الشريعة ، وقد اعتقلوها في نفس اليوم الذي اعتقلت فيه ولكن الجهة التي فعلت ذلك كانت التحقيق العسكري ، وأثناء التحقيق معها سألوها عني ثم طلبوا منها أن تأخذهم إلى بيتي في دمشق ، وبالفعل ذهبوا معها إلى البيت وقدموها أمامهم لتقرع الباب ، فلما فعلت خرجت لها أمي وكنت بالطبع قد اعتقلت الليلة السابقة ولا يزال العناصر كامنين في البيت ، فلما رأتها أمي قالت لها إذهبي ولا تعودي ثانية

في محاولة لإنقاذها من الإعتقال ، لكن الدورية التي وراءها والعناصر في الداخل سرعان ما اتصلوا معا وعلموا أن جهة أخرى اعتقلتني فعادوا بها إلى الفرع من جديد . وأما ثالثة السجينات مطيعة ح . أم معقل فكانت معلمة مدرسة شملها قرار تحويل المدرسين المشكوك في ولائهم للنظام وتحويلهم أواخر السبعينات إلى الوظائف الإدارية ، فمنعت من التدريس وتم تحويلها إلى أحد المستوصفات كموظفة إدارية . . وأثناء ذلك لوحق زوجها ولكنه تمكن من الهرب ، فأتوا واعتقلوها مكانه إضافة إلى اعتقال والده كرهينة! وكانت مطيعة أيام اعتقالها في أواخر الثلاثينات من عمرها وأما لأربعة أولاد، وتحمل الخامس في اخر شهور الحمل ، لكن ذلك كله لم يشفع لها ، فأتوا وأخذوها رهينة عن زوجها ووضعوها مؤقتا في مستوصف عسكري تابع للأمن السياسي بالجسر ، وهناك وفي الحجرة التي اعتقلوها فيها ونتيجة الخوف والتهديدات التي أسمعوها إياها جاءها الطلق على غير موعد ، فجعلت تدق الباب عليهم وتستغيث وهي تخبرهم أنها تضع مولودا دون أن يجيبها أحد ، فلما خرج المولود وعلا بكاؤه سمحوا لإحدى الممرضات بالدخول إليها لمساعدتها . . لكن كل شيء كان قد تم ! وبعد ذلك نقلوها والمولود إلى فرع التحقيق العسكري بدمشق وبقيت هناك عدة شهور قبل أن ينقلوها إلى سجن قطنا فنلتقيهما هناك ولم يكن معقل قد جاوز شهوره السبعة أو الثمانية بعد . . ولقد أطلقت حليمة عليه اسم معقل تيمنا بالصحابي معقل بن يساراضافة إلى أنه ولد في المعتقل . . وعلى الرغم من أنها كانت غاية في الصبر إلا أنها ذاقت المر كثيرا من أجله ، وعلاوة على لوعتها المستمرة وهي ترى ابنها يقضي طفولته الغضة في السجن من غير ذنب ولا سبب ، وترى مستقبله مجهولا كمستقبلها رهن المهاجع والزنازين والسجون . . علاوة على ذلك الإحساس المؤلم فقد كانت أشد ما تعاني بشأنه وهي تراه بين أيدي الجميع ووفق هواهن . . وكل منهن تفرغ فيه شوقها لبنيها أو تسلي به مللها من رتابة الحياة حولها فتحاول أن تعلمه ما يروق لها حتى ولو لم يرق للأم ! وتجذبه إليها أو تستبقيه معها حتى ولو لم يرضها ذلك ! ولقد تسبب لها بعض من ذلك

بكثير من المشاكل والحرج . . فمن أين لا تدري بالتحديد تعلم الولد أول ما تعلم النطق أن يقول "طظ أسد". . فكان كلما سمع اسمه أو رأى صورته قال ذلك . . وذات مرة مرض معقل وازدادت شكاته فسمحوا بنقله إلى المستوصف للكشف عليه ، وهناك وهو بحالته تلك رأى صورة الرئيس معلقة ، فما أن راها حتى صاح "طظ أسد بين الناس . . ولم تدر أمه وقتها كيف نجت لكنها وفي مرة تالية وعندما أخذوها إلى المحكمة الميدانية كان لا بد وأن تصطحبه معها ، فلما كانوا أمام اللجنة التفت معقل فرأى تمثال رأس الأسد في زاوية الغرفة قريبا منه فبصق عليه وقال نفس العبارة ، فأمر الضابط باقتياد الأم وابنها فورا إلى المنفردة للتأديب ، فجعل معقل يبكي وهو يصيح "طظ أسد". . وصارت أمه كلما حاولمت أن تسكته أو تسد له فمه ازداد صياحا وتردادا للعبارة . . وكان عليها أن تتحمل المعاناة في المنفردة من جديد بسببه أو بسبب من لقنوه العبارة وحملوها الثمن !

إثاره الشغب إ!
وممن سبقننا إلى قطنا أيضا كانت أم هيثم من جسر الشغور أيضا ، وهي أم لأربعة أطفال شارك زوجها في إيواء بعض الملاحقين ببيتهم فداهمته الخابرات واشتبكت معهم ، فقتل البعض وفر اخرون واعتقل أبو هيثم وزوجته وذاقا معا أشد أنواع العذاب . . وفيما تم إعدام الزوج فيما بعد كما ترجح أم هيثم فقد تم استبقاؤها في السجن بتهمة إثارة الشغب . . وهي نفس التهمة التي وجهت لأم معقل وأم عبد الباسط وابنتها عائدة في المحكمة الميدانية ولم يخرج هؤلاء جميعا إلا أواخر عام 85 . وأماسميحة وفاطمة ، وهما بنات خال وبنات عمة من مرج خوخة بمحافظة اللاذقية فقد خرجتا مع مجموعة من أقربائهما الملاحقين الذين التجأوا إلى الجبال حول قريتهم . وكان عمر فاطمة وقتها 15 سنة وسنيحة 16 سنة ، وكانت معهم بنت ثالثة اسمها غنية عمرها 18 سنة . وهناك في الجبل جلست البنات مع المجموعة الهاربة يطبخن لهم ويساعدنهم في بعض الأمور حتى جاءت عليهم فسادة فداهمتهم الخابرات وحصلت مقاومة انتهت باستشهاد غنية وبعض

الشباب الآخرين ، واعتقال سميحة وفاطمة . وقد أخذوهما بادئ الأمر إلى سجن الشيخ حسن بدمشق ليومين أو ثلاثة لم تسلما خلالها من التعذيب ثم أحضروهما إلى قطنا . وفيما لم يسلموا غنية لأهلها ودفنوها بأنفسهم فقد تم نقل الشباب الذين اعتقلوا معهما إلى تدمر جميعا . وكان من نزيلات المهجع الثاني قبلنا أيضا سيدة من اللاذقية اسمها أم محمود كامل في الخمسينيات من عمرها ، ومي جدة وأم لأربعة أو خمسة أبناء . وكان اعتقال أم محمود قبل اعتقالنا بأيام فقط بتهمة مساعدة الملاحقين بتأمين وثائق سفر لهم عن طريق أحد أقربائها . وفي البداية تم سجنها في كفر سوسة قبل أن نأتي هناك ولكنهم نقلوها بسرعة إلى قطنا . وقد تحدثت أنهم عذبوها وضربوها دونما أية مراعاة لسنها ، وظلت في السجن بعد ذلك ولم تخرج إلا معنا .

تجسس مزدوج !

ومن نزيلات قطنا كانت أسماء الفيصل زوجة رياض الترك الزعيم الشيوعي المعروف ، وهي طبيبة في الخمسينيات من عمرها ، وكانت موجودة هناك في المهجع الثاني من قبل أن نأتي ، وأظن أنها كانت قد أمضت في السجن ثلاث سنين قبلنا ، لكنه تم الإفراج عنها بعد أشهر قليلة من لقائنا بها ، وبرغم قصر الفترة إلا أنها تركت في نفوسنا انطباعا حسنا عنها ولمسنا طيبها وحسن تصرفاتها معنا ، وذلك على العكس من أميرة زركلي التي كانت شريكتها في المهجع عند وصولنا أيضا ، وهي سيدة دمشقية كردية الأصل في الخامسة والأربعين من عمرها ، متزوجة من عراقي وتشتغل معه في السفارة العراقية ومتهمة بالتجسس المزدوج لصالح العراق وسورية معا ! وبعد اكتشافها سجنت في سورية فيما صدر عليها الحكم في العراق بالإعدام غيابيا وطلقها زوجها بعد ذلك ، وخرجنا من السجن وهي لا تزال فيه . وكانت هذه السيدة لا تكف عن إيذائنا وإثارة المشاكل معنا والحديث بالسوء دوما عن الإخوان ، وكانت لا تكف عن ترديد قولها على مسامعنا : - بكره شوفوا . . ستخرج كل السجينات وسجينات الإخوان جالسات ينظرن مساكين بأعينهن . .

والذي حصل أننا خرجنا جميعا في النهاية وبقيت هي تنظر إلينا بأعينها سبحان الله . . ولم يفرجوا عنها إلا بعدنا بسنة أو ربما سنتين !

ضحايا!
كانت حياة السجن في قطنا مختلفة عن سابقتها بكفرسوسة لا ريب ، والميزات والتحسن الذي وجدناها نعمة كبرى ، لكن السجن يظل في كل الإعتبارات هو السجن . . والقيد قيد حتى ولو كان من ذهب . . وبعد أن يفقد الإنسان في السجن طعم الحرية تمتد بين ناظريه من ثم قائمة أطول من أن تعد من أصناف المشاكل والالام والمعاناة المتنوعة . . وعلى العموم كنا في النتيجة مجبرين على التكيف والتعايش . . نحاول كلما ضاقت علينا الحال أن نجد منفسا جديدا يعيننا ويهون علينا الخطوب . لم نكن نختلط في البداية مع السجينات القضائيات لأن الأبواب كانت تفتح لنا بالتناوب ، مجموعة في الصباح والأخرى في المساء ثم يعكسون الآية في اليوم التالي ، لكننا كنا نتكلم معهن من وراء القضبان ونستمع إلى قصصهن فنجد في ذلك بعض التسلية والترويح . . وكنا ننصحهن أحيانا ونريهن أغلاطهن ، لكننا وجدنا الكثيرات منهن كن ضحايا سوء تربية الأهل أو ظروف السوء التي أحاطت بنشأتهن . ولقد نجحنا ذات مرة في المساعدة على استنقاذ إحداهن من واقعها السيىء ومستقبلها المظلم ، فنتيجة لخلاف معهم قام أهل هذه الفتاة بطردها من البيت بلا رجعة ، فلم تجد من يؤويها إلا امرأة قوادة أخذتها إلى بيتها ومضت بها في هذا الطريق ، فلما أحسسنا أنها ضحية تدفع ثمن سوء تصرفات الغير سعينا للإتصال بباحثة اجتماعية كانت تأتي ضمن مجموعة من الباحثات لتعمل وسط السجينات ، وعلى الرغم من أن الإتصال كان محظورا بيننا وبين هؤلاء الباحثات أو حتى مع طلاب الحقوق الذين يحضرون دوريا لدراسة حال السجن والسجناء القضائيين ، إلا أننا وفقنا في الإتصال معها بطريقة ما ، وبعدما أطلعناها على رأينا ومعلوماتنا تفاعلت الباحثة معنا ومع السجينة ، ولم تلبث أن أخذتها إلى المحكمة وعالجت لها وضعها هناك ووجدوا لها من ثم شابا زوجوها إياه .

القروانة !
وإذا كان المقام هنا هو الحديث عن مواصفات سجن قطنا فإن من الطريف الإشارة إلى وضع الطعام الذي كنا نتناوله في هذا المنزل الجديد ! فلقد كانت الوجبات الرئيسية تأتينا من سجن القلعة بحلل أو صواني معدنية ، لكن "القروانة" ما كانت تصل إلا وقد كدنا نموت كلنا من الجوع . . فلقد كان على السيارة أن تقل السجينات القضائيات إلى المحكمة وترجعهن وتأتي بالطعام في الطريق . . فإذا وصل أنزله الشرطة في باحة السجن وفتحوا للسجينات ليتجمعن ويتوزعنه بينهن . . لكن المشاكل والخناقات سرعان ما كانت تندلع : وضعتي لها أكثر . . وأقل . . ونريد هذه أن توزع لنا . . ولا نريد تلك . . ولا ينتهي الأمر إلا وقد تفرقت القلوب واشمأزت النفوس . . فلما ازدادت المشاكل عين مدير السجن غزوة لهذه المهمة ، وظلت المسكينة حتى خروجها موكلة بتوزيع وجبات الطعام على كل السجينات ! واذا كانت هذه كيفية توزيع الطعام فإن نوعيته كانت قصة أخرى . . فكثيرا ما كنا إذا حضرالطعام وبدأنا نحركه طفت الصراصير على سطحه أو تمهلت حتى نلتقطها بين الأسنان ! وكان اعتياديا أن تصلنا الصواني وآثار أقدام المرافقين منطبعة عليها وقد وطأتها أثناء النقل . . واذا بكر السائق في الوصول لسبب ما رمى "القروانة" على باب السجن الخارجي فتسبقنا الكلاب والقطط إلى الطعام قبل أن يحضر مدير السجن ويفتح الباب ! وصرنا لذلك نطلب من إحدى السجانات أن تشتري لنا - سرا بالطبع - مع طعامها شيئا نأكله . . وبعد ذلك سمحوا لنا رسميا بذلك فصارت أم ديبو السجانة الأخرى - تأتي بالأغراض وتبيعها لنا ولكن بأسعار مضاعفة إ! كذلك كانت هناك مشكلة أخرى في الماء الذي لم يكن يصل عبر الحنفيات في المهاجع ، وإنما كان علينا أن ننتظر وصولها إلى المهاجع بالتناوب من حنفية رئيسية في السجن مددوا منها خرطوما متفرعا على كل الغرف ، وكانوا يديرونه على المهاجع بالساعة ، ويتحكم كل مهجع بالمهجع الذي يليه إذا شاء . . وكان الماء لذلك أحد أسباب المشاكل بيننا ! وعندما حضر جهاز التلفزيون إلى المهجع بمرسوم من إدارة

المخابرات لتثقيفنا "ثوريا" وإطلاعنا على منجزات النظام الرائدة إ! حضر سبب جديد للخلاف بين النزيلات . . وكان من طرائف التلفزيون أن الحاجة رياض تصر على أن يلتزم الجميع الهدوء والسكينة ويصغوا باهتمام إلى كل نشرات الأخبار لعل خبرا يصدر بالعفو عنا فتكون أول من يتلقاه ! ولقد حصل فيما بعد وأثناء ما سمي ببيعة الأبد للرئيس الأسد عام 85 أن صدر عفو بالفعل ولكن عن المتخلفين عن الخدمة العسكرية فقط ، لكن الحاجة رياض التي واظبت على سماع الأخبار انتظارا لمثل هذا النبأ سقطت فور سماع الموجز مغشيا عليها وهي تصيح : - الحمد لله سأرى أمي . . فلما سمعنا التفاصيل أسقط في نفوسنا وسقطنا مكسوري الخاطر ، لكنها كانت فاجعة بالنسبة للحاجة رياض . . بقيت أياما على اثرها غارقة في لجج الدموع والأحزان !

حريق !

ومما لا يغيب عن البال من أيام سجن قطنا النار التي شبت أكثر من مرة هناك شاهدا جديدا على قساوة الحياة التي نحياها وعنصرا اخر من عناصر الألم والتوتر والإضطراب التي تلفنا باستمرار . . ففي المرة الأولى اشتعلت النار في حمام مهجع القتل فالتهمت سجينة متهمة بقتل زوجها اسمها فاطمة . . وامتدت النار إلى المهجع كله فأحرقته وكادت تودي بحياة السجينات الأخريات . . ووقتها كنت أنا وماجدة على شباك مهجعنا المطل عليهن نقرأ القرآن بعد المغرب . . فجعلن ينادين علي وقتها ويستغثن بي ، لكن الأبواب كانت مقفلة علينا جميعا ، فجعلنا ننادي بدورنا على السجانة أم ديبو لتفعل شيئا ، لكنها لم تكن ترد علينا في العادة بعد إقفال المهاجع ولا تستجيب . . فلما وصلت ألسنة النار إلى ساحة السجن وغطى الدخان المكان كله وكاد الحريق يطال أشرطة الكهرباء وأوعية الغاز في المطبخ المجاور . . قرعت أم ديبو جرس الإنذار آخر الأمر . . وحضر العناصر يحاولون في ظلمة الليل تبين مصدر الحريق دون جدوى . . وفي النهاية وأثناء الهرج والمرج قامت إحدى سجينات المهجع نفسه فأطفأت ببطانيتها النار عن السجينة التي شبت بها النار وعن المكان . . لكن الناركانت قد التهمت جزءا كبيرا من جسد فاطمة

فأسلمت الروح بعد أسبوع . . وكان أنين المسكينة طوال ذلك وهي في غيبوبتها يمنعنا النوم ويزيد من عذابنا النفسي . . ورائحة لحمها المتقيح تزكم الأنوف وتزيد في معاناتنا وألمنا . . وأما المرة الثانية فكانت في مهجعنما نفسه عندما اندلعت النار في "البابور" أثناء استحمام واحدة من البنات ، فقامت من اضطرابها بقفل الباب بدلا من فتحه والتجأت إلى الزاوية التي تقابله من الحمام ، فصارت النار بينها وبين الباب وكادت الأخرى تحترق ، لكن لطف الله تداركها وتداركنا . . فاضطررنا إلى كسر القفل ، ودخلت ماجدة جزاها الله خيرا فحملت البابور لا تبالي بالنار المشتعلة فيه ، فأخرجته إلى العتبة وألقته هناك ، واحترقت يدها بسبب ذلك .

رحمهم الله !
واذا كانت ميزات سجن قطنا المدني الإيجابية لا تعد قياسا بكفر سوسة ، إلا أن السماح بالزيارات كانت في طليعة ذلك كله . ولقد تنعمنا في فترة من الفترات بحرية المراسلة ، فكتبت إلى بيت أخي بحلب وبيت عمتي وحتى أم شيماء بالسعودية . . وكنت أتلقى البريد منهم جميعا ، لكن ذلك لم يدم أكثر من شهرين أو ثلاثة ثم عاد نظام الرقابة الصارم على الرسائل وعلى الكتب والمطبوعات ، فيما استمرت الزيارة الأ سبوعية كل يوم جمعة ولم تتوقف. كان الاهالى يتوافدون من شتى المحافظات الى سجن قطنا منذ الفجر يترقبون ساعة اللقاء . . وبعد أن يتجمعوا على البوابة ساعات طوالا ويعن على بال المسؤول يومها السماح لهم بالدخول يكون النهار قد انتصف عى أحسن الأحوال . . فيسوقونهم إلى قاعة الزيارة كأول خطوة ، وبعد أن يتم تفتيش "الزيارات " أو الهدايا والأغراض التي جلبها الزائرون فيستبعد ما قد يخالف التعليمات أو لا يوافق هوى العنصر القائم على التفتيش ، ويجاز المسموح أو ما يمكن أن ينال العنصر نفسه نصيبا منه أو عطاء عليه . . بعد ذلك يطل الزوار علينا وبيننا وبينهم حاجزان من القضبان بينهما ممر يبقى رجال الشرطة يتسكعون فيه يراقبون أحاديثنا ويتدخلون فيها بعض الأحيان وفينا إ! وكانت ليلة لا توصف ونحن ننتظر أول يوم جمعة بعد

وصولنا لنطلب من أهالي السجينات قبلنا الإتصال بأهالينا وإخبارهم بانتقالنا وبمكاننا ، فلما حضر أهل غزوة حينها رجوتهم أن يفعلوا ذلك مع أهلي لعلهم يحضرون الجمعة التالية ، ولم أكن أعلم أن أحدا منهم لم يعد على قيد الحياة وأنهم قد قضوا نحبهم قبل حوالي ثمانية أشهر في أحداث حماة ، لكن أهل غزوة كانوا يعلمون بالطبع ، علاوة على أن والدتها نفسها استشهدت في الأحداث ، لكنهم عادوا في الأسبوع التالي واعتذروا بأنهم لم يعرفوا مكان أهلي بعد التغيير الكبير الذي حصل في المدينة . . وجعلوا يحدثونني عن الأحداث ولكن أحدا لم يذكر شيئا عن أهلي وعائلتي . . وفي الزيارة التالية حضر أهل رفيقتي سناء فرجوتهم أن يذهبوا إلى دار عمتي في دمشق ويخبروها بانتقالي ، فلما اجتمعوا معها وعلموا أخبار أهلي منها أشفقوا علي ولم يتاؤوا إخباري ، وأجابوني في زيارتهم التالية أنهم لم يستدلوا على البيت ، وفي الزيارة التي تلتها قالوا أنهم ذهبوا فوجدوها مريضة ولم يسالموها عن أهلي ، وبدأت أحس أن في الأمر شيئا غيرطبيعي ،فلما ذهبوا قلت لسناء مواجهة : - تعالي لأقول لك . . أمك ذهبت إلى عمتي وعمتي قالت لها شيئا . . فماذا هناك ؟ هل مات أبى فلم تتمالك نفسها وردت بصوت خافت : الله يرحمه . قلحت : الله يرحمه . . إذا كان مات فالله يرحمه . فقالت لي : هكذا بكل سهولة الله يرحمه ؟ قلت لها وكأن ألم السجن يسهل على الإنسان كل شيء : الله يرحمه . . ماذا يمكن أن أفعل له إذا مات ؟ لو نطحت رأسي بالجدار فلن يرجع ! فوجدتها تبكي وبقايا كلام لا تزال على شفتيها ، فقلت لها : هل مات أحد اخر معه ؟ فأشارت لي نعم برأسها . قلت لها : أمي ماتت ؟ قالت : الله يرحمها . صحت : ولي . . وأين إخوتي إذا ؟ فقالت لي : ذهبوا مع أمك . . لم ترض بأن تتركهم فأخذتهم معها ! قلت لها : بماذا تخرفين . . هل تمزحين ؟ كل إخوتي ماتوا ! قالت : إي كلهم . . الله يرحمهم . . أليس ذلك أحسن من أن يبقى أحد منهم وينشغل بالك عليه ! قلت وأنا كمن يتخبط في كابوس مرعب : إي طيب خلاص . . لا تزيدي . وما عدت أريد أن أفهم أي شيء أو أسمع المزيد . . ولم تلبث عمتي وعمي أن حضرا في الزيارة التالية فلفت نظري أن وجدتها تلبس

السواد وساكتها مستغربة : -عمتي . . لماذا تلبسين الأسود ؟ فقالت لي : هيك والله جاي على بالي الأسود ! قلت لها : هل توفيت جدتي ؟ قالت لي : لا . قلت : إذا لماذا تلبسين الأسود ! غمزني عمي بطرف عينه لأغير الموضوع ، لكنني لم أتمالك نفسي وقلت له : -عمي . . لماذا تغمزني ! هل هناك شيء ؟ قال لي وهو لا يريد إعادة القصة أمام عمتي التي صدمت جدا بما حدث : -لاشيء . . للأشيء حدث . فقلت لها من جديد : صحيح لماذا تلبسين الأسود؟ ترى نقز قلبي ! فابتسمت لي ابتسامة حزن وابتدرني عمي بقوله : - كيف تسالينها هذا السؤال . . ألا تعرفين الخبر ؟ قلت وكأني عدت إلى ذاكرتي تلك اللحظة وحسب : نعم . . عندي خبر بأن أهلي استشهدوا ، لكن أنا أسالها لماذا هي لابسة الأسود . . ولم يخطر لي أنها تلبسه على أهلي . . ونسيت أنها متشحة بالسواد حزنا على بيت أخيها ! فقال لي عمي وهو يراني أمامه أتصرف ببلاهة : إي حزنانة على أهلك . . هل فهمت ! قلت لها : أنظري ، إذا مرة ثانية ستأتين لابسة أسود لعندي فلا تأتي . . لأن الشهيد حي مو ميت ، واذا أردت أن تحزني عليهم لأنهم أحياء فلا تأتي لعندي.

وشاب الشهود !
كانت العبارة قاسية على عمتي ، لكن الحالة كانت أقسى على نفسي وأشد ، ورغم أن عمتي انفجرت وقتها في البكاء وأخذ عمي يهدىء من روعها فما سكتت إلا بصعوبة ، إلا أنها تفهمت حالتي لا ريب ، ولما عادت في المرة التالية أتت وقد غيرت السواد بالفعل . . لكنني لم أسمع قصة أهلي بالتفصيل إلا من أم ماجدة التي حضر والدها أول مرة فلم تكد تعرفه من الشيب الذي غطى رأسه والكرسي المتحرك الذي أقعده نبأ اعتقالها عليه ، فلما تأكدت أنه أباها جعلت تقفز من فرحتها وقد عقدت الفرحة لسانها فلا تستطيع الكلام ، فلما استدركت نفسها قالت لأبيها وكأنها تعتذر : - والله ما عرفتك . . تاري شايب . . فقال لها : والله شيبتيني يا بنتي ! وكان والدها حزبيا ضد الإخوان فتوقعت أن تكون لديه ردة فعل ضدها أيضا ، لكنه لما راها أول ما حضر بكى وهو يقول : - انظري . . أنا ات ورافع رأسي

ولي الشرف والحمد لله . وفي الزيارة التالية حضرت أم ماجدة فكانت فرحتنا معا بها لا توصف ، وأبلغتني أم ماجدة أول ما أبلغتني باستشهاد أخي وارف ، وقصت علي القصة من بداياتها ، فقالت بأن الخابرات كانوا بعد خروج أمي من السجن قد استبقوا كمينا في بيتنا وفي ظنهم أن إخوتي سيأتون للسلام على أمي بعد خروجها فيعتقلونهم ، فلما لم يجدوا جدوى من ذلك ولم يحضر أي منهم جعلوا يعتدون بالتعذيب على أبي ، فيخرجونه بين فينة وأخرى إلى حديقة كبيرة كانت أمام بيتنا على طرف العاصي ويعذبونه أمام الناس فيها ، فيضربونه مرة ، ويحرقون له ذقنه مرة ، ويجرجرونه في الشارع أخرى ، إهانة وإذلالا له وتخويفا لغيره . . وكانت أمي تخرج عليهم وهي تصيح وتدعو ، فيقول لها مسؤول الدورية : - سلمينا أولادك لنكف عن زوجك ونعطيك ابنتك . . فترد عليه بتحد كعادتها : سلمني إياها بيدي . . حتى أراها بعيني وأمسكها بيدي لأقول لك أين بقية أولادي ، لكن والله طالما أنها غير موجودة أمام عيني فلن تأخذ شيئا ولو قتلتني . ثم كانت الفاجعة التالية حينما استشهد أخي وارف في حلب (وكان عمره 18 عاما وحسب) أثناء مداهمة بيت أوت إليه مجموعة من الملاحقين كان من بينهم وذلك قبل 16 يوما فقط من استشهاد أهلي ، وبرغم الفاجعة فإن أمي اثرت أن تكتم الخبر عن أبي وهو بحالته تلك فكانت تذهب عند أم ماجدة وتخرج صورة وارف هناك وتبكي عليها ما شاءت حتى تطفىء حرقة قلبها فتعود إلى البيت . . لكن ذلك لم يمنعها أن تحاول زيارتي في السجن بأي وسيلة ، ولم تمنعها النوازل أن تمضى إلى كفر سوسة مع أم ماجدة مرة فتقابل ناصيف من جديد وتساس إذنا بزيارتي ، فكان كل الذي أجابها به : - والله آسفين ، هذا الإسم غير موجود عندنا ! فكادت أمي - كما روت لي أم ماجدة أن تجن . . وعندما تركت مكتبه وقفت أمام نافذة مهجعنا المطلة على ساحة الفرع الداخلية والتفتت إلى أحد العناصر من لهفتها تساله راجية أن يخبرها ولو بإشارة من طرف عينه إن كنت لا أزال هناك أم لا ، لكنها لم تحظ حتى بتلك الإشارة وغادرت ملوعة القلب دون أن تراني أو تسمع عني أي شيء . . وظلت وظلوا جميعا على حالتهم تلك حتى كانت بداية الأحداث في حماة .

شهداء أحياء

كنا لا نزال في سجن كفر سوسة حينما تفجرت أحداث حماة الشهيرة في شباط 82 لكننا في عزلتنا المفروضة وقتذاك لم نسمع بأدنى خبر عنها ، وعلى الرغم من تسرب بعض الأنباء لبعض البنات بيننا إلا أن المقدم ناصيف حذرهن أشد التحذير من أن يتحدثن عنها أو أن يعلمنني بشيء عن مصيرأهلي ، فلما نقلنا إلى قطنا بدأ الخبر يصل إلي والقص التي لا تصدق والفاجعة الرهيبة تبلغني من هنا وهناك ، فلما حضرت أم ماجدة روت لي المزيد من تفاصيل ما جرى وخاصة فيما يتعلق بأهلي رحمهم الله ، وقالت بأن البداية كانت حينما رأت في منامها أن إخوتي الصغار ينامون على سرير واحد ولكنهم غارقون في الماء ، وأحست أنهم برغم غرقهم فقد كانوا يتمايلون في الماء الصافي وهم أحياء . . ثم رأت أمي تدخل وترقي عليها فتنقسم في حجرها إلى قسمين . . فلما استيقظت حدثها قلبها بأن أهلي في خطر، فقامت من فورها ورجت زوجها أن يذهب ويستطلع أمرهم ، ويجهد لكي يعود بهم معه إلى البيت ، ولما كان أهل ماجدة قد انتقلوا من "حي الطوافرة" الذي جاورونا فيه طويلا إلى حي جديد على طريق حمص ، مما جعلهم عمليا من سكان الضواحي ، فقد كان عليه أن يقطع مسافة طويلة حتى يبالغ محيط المدينة القديم ، فلما خرج بعد صلاة صباح ذلك اليوم وشارف حماة وجدها مطوقة من كل مداخلها ، فلم يستطع التقدم أكثر وعاد ناجيا بنفسه . . وانفجرت الأحداث . . وعم القتل والتدمير . . وانقطعت حماة عن العالم بينما المذابح تجري في شوارعها وأهلها يموتون بالمئات . . وأثناء ذلك حاولت عمتي من جهتها الذهاب من دمشق إلى حماة لاستطلاغ حال أهلي ومساعدتهم في شيء ، ورغم أن محاولتها تلك كانت انتحارية لم يوافقها عليها حتى زوجها ، إلا أنها أصرت على المحاولة ، وتمكنت من دخول المدينة بالفعل حتى شارفت على الحي الذي نسكن فيه ، إلا أن القوات العسكرية ردتها من هناك وما سمحوا لها بالإستمرار ، ووقتها كانت أربعة أيام قد مضت على أبي وهو ملقى في الشارع لا يجرؤ أحد حتى على رفع جثته !

كسره خبزو حسب !
أما حادثة استشهادهم فبدأت عندما اعتصم أفراد من المقاومة في حينا واستعصى على القوات الحكومية اقتحامه ، فأحكموا الحصار حوله ومنعوا المؤن والكهرباء والماء عن الحي كله ، واستمر الحصار لسبعة أيام كما سمعت حتى لم يبق في بيتنا من الطعام أو الماء شيء ، فخرج أبي وجعل يسأل طليعة القوات المحاصرة بعض ما يقيت الأطفال ، وروى لي خالي الذي كان يشهد الحادثة من شباك بيته المطل على المكان أن الجندي انتهر أبي وأمره بالعودة من حيث أتى ، لكن أحدا لم يكن ليستطيع أن يسكت جوع الأطفال ، فخرج أبي مرة أخرى يقول للجنود : -فقط نريد قطعة خبزللصغار. فأجابه الجندي منتهرا : إرجع أحسن ما أرشك وأرميك بالأرض . لكن ذلك لم يرد أبي إلا لبرهة ، عاد للمرة الثالثة بعدها يسالهم خبزا فالأولاد يكادون يموتون . . في تلك المرة لم يجبه الجنود إلا بزخة رصاص أردته على باب بيته . . وصاح خالي من بيته المقابل وسقط من هول المنظر مغشيا عليه ، فلما ركضت زوجة ابنه لتحمله لمحها الجنود فالقوا على البيت قنبلة ضوئية لتكشف كل ما فيه واقتحموا عليهم وانتشروا في كل مكان فيه متدرعين بالنساء والأطفال فيه . . في تلك اللحظات وعندما سقط أبي برصاص الجنود سمع أخي ماهر الصوت من قبو البيت حيث كان الجميع قد التجأ فخرج ليستطلع الأمر ، فلما رأى أباه صريعا أمامه ارتد إلى حجرته وتناول سلاحا كان "شبيبة الثورة" قد سلموه إياه ليدافع عن أمن الثورة" ولم يكن عمره قد جاوز الثالثة عشرة بعد ! واندفع ماهر خارج البيت يطلق النار على الجنود الذين قتلوا أباه ، فأصاب منهم من أصاب قبل أن يردوه هو الآخر قتيلا . . ولقد قال ناصيف خير بك لماجدة ولبقية رفيقاتي بعد ذلك عنه بكل صراحة : -أعطيناه السلاح ليحمينا به فقتلنا به . . هؤلاء كلهم خونة . . ولذلك جعلنا الصغير فيهم أربع قطع لأن بذرته إخوان وكان سيطلع إخوان ! بعد ذلك خرجت أمي تدعو عليهم وتبكي وتستنزل اللعنات ، فأكملوا جريمتهم ورشوها أمام الباب أيضا . . ثم دخلوا على البيت فأجهزوا على كل من بقي فيه : ياسر ابن أربعة

أعوام ، وقمر ابنة خمسة ، ورنا في السادسة ، وصفا التي كانت قد دخلت المدرسة في أول سنة لها وقد بلغت لتوها السبعة أعوام ، ثم أختي ظلال التي كانت في العشرين تقريبا . . وأما أخوتي الثلاثة المتبقين فكان صفوان أولهم خارج سورية ، وغسان وسامر متخفيان في حلب ، فكانوا الناجين من بين بقية الأسرة التي قضت جميعا ، وبالطبع فقد تم جمع جثث الجميع مع بقية القتلى في البلد ودفنوا في مقابر جماعية دونما تمييز وذلك قبل أن يتم رفع حظر التجول ووقف القتل والتدمير بأيام . . وعندما تمكن الناس من الخروج من مخابئهم اخر الأمر وتوجه عمي وزوجته ليروا ما حدث لم يجدوا إلا غطاء رأس أمي عند بوابة البيت وسط بقعة كبيرة من الدم ، ووجدوا على جدران القبو وفوق أرضه دم إخوتي البقية ولا أثر لجثة أي منهم .

حي على الجهاد

وأما أخي عامر الذي كان في الرابعة عشر من عمره فقد استشهد في نفس الفترة بعيدا عن أهلي في شارع 8 اذار . وكانت أمي قد أرسلت عامر ليجلس مع جدته في بيت أخيها المسافرإلى السعودية حتى لا يأتي المخابرات ويجدوا البيت خاليا فيسرقونه كعادتهم ، لكنهم لما أتوا للتفتيش فعلوا ما هو أسوأ . . فعندما وجدوا عودا من ممتلكات خالي جلسوا يدقون عليه وقد انهمك بقيتهم في العبث بمحتويات الغرف الأخرى بلا رقيب أو حسيب ، ثم طلبوا من جدتي وسط قهقهاتهم الفاجرة أن تقوم فترقص لهم ، في الوقت الذي اختبأ عامر تحت السرير فما وجدوه ، ومن رعبها وخشية منها أن يتمادوا معها أو أن يعثروا على أخي قامت جدتي بسنها الذي قارب السبعين فامتثلت ورقصت بهيبتها ووقارها وتقاها لهم . . فلما انصرفوا وقد نهبوا ما أرادوا وحطموا أكثر مما نهبوا نادى مناد في المآذن ا احي على الجهادا ا . . فخلع أخي ساعته وتوضأ وصلى ركعتين سنة الشهادة ودفع إليها بالساعة وقال لها : - هذه الساعة ذكرى مني خليها معك وأعطيها لأمي ذكرى وادعي لي .. وخرج راكضا وجدتي تناديه أن يا عامر تعال وهو لا يستجيب . . ورأته آخر ما رأته وقد دخل سوق الطويل حيث كان الإخوان يعتصمون بداخله ، ولم يخرج

بعدها إلا مرة واحدة طرق الباب فيها على إحدى القريبات حافي القدمين ممزق الثياب يسالها أن تمنحه أي نوع من الطعام أو اللباس لديها ، وأخبرها بأن رفاقه يكادون يموتون من الجوع والبرد . . ولم يكن لدى هذه العائلة من الأولاد إلا البنات ، فاحتارت أول الأمر ، ثم أعطته ما توفرمن جاكيتات وكنزات كبيرة الحجم يمكن للشباب أن يستخدمونها ، وأعدت له بعض الطعام وأشياء أخرى أخذها وذهمب ، وفي اليوم التالي وجدوه مستشهدا في نفس الشارع ، فأتى رفاقه ودفنوه مكان مسجد هدمته المخابرات ، وبعد انتهاء الأحداث حفروا ثانية ونقلوا الجثة إلى المقبرة ، ولكننا لم نعرف للأسف أين بالتحديد لأن الذي دفنه استشهد أيضا ! وهكذا تلقيت نبأ استشهاد والدي وخمسة من إخوتي مرة واحدة ، وبلغني الخبر الذي كانت البنات تخفينه عني طوال شهور رحمة بحالي وإشفاقا على ، إلا أنني سبحان الله لم أحس الخبر مفجعا كما ظن الآخرون ، ولم أحزن عليهم حزني على أحبة فقدتهم لأنهم في حالتهم هذه شهداء إن شاء الله . . وكل منا يدعو الله متمنيا أن يرزقه الشهادة كرما منه سبحانه وفضلا ، فكيف يحزن إن أكرم الله بها أحب الأحبة وأقرب الناس إليه ؟ إننا نخاف من الموت فقط حيث الحساب والسؤال والإمتحان. . وأما الشهادة فهي الحياة الحقيقية ، وهي النعمة التى لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم .

إبر للعقم . . لا للألم !

ومرت الأيام . . وعادت دورة الحياة المملة ومعاناتها تجثم على الصدور أثقل من الصخر الأصم . . ثم لم ألبث أن سقطت فريسة أمراض متتالية لم أعهدها في نفسي من قبل . . ووجدتني أسقط من ثم بيد طبيب حاقد من أبناء طائفة النظام أسوأ من قطاع الطرق . . اتخذ المرض ذريعة ليفعل بي ما لايخطرعلى قلب إبليس ! كان الدكتور سمير كما ينادونه طبيبا زائرا مكلفا بعلاج القضائيات في الأصل ، فلما ازداد عدد السجينات السياسيات وتزايدت مشاكلهن الصحية جعل يخصص بضع دقائق من وقته بين الحين والاخر لمقابلة أصحاب الحالات الشديدة منهن ، ولا يزيد عن أن يعطي أسوأهن حالا بعض حبوب مسكنة لا تنفعهم بشيء ! وكان

سميرهذالئيما جدا نحس أنه يعاملنا معاملة مخابرات لاطبيب وعندما نشكوله شيئا لا يزيد عن أن يهزأ بنا ويكرر علينا عبارة واحدة بشكل آلي "ما فيكم شيء ا ا . . حتى أننا لكثرة ما سمعنا عبارته تلك لم نعد نساله شيئا اخر الأمر . وكنت في البداية وعندما أخذت القرحة التي ورثتها من كفر سوسة تشتد علي الامها قد طلبت مقابلته وشرحت له حالتي وحدثته بما أعاني ، لكنه قاطعني في نصف حديثي ولم يزد عن أن قال لي : - هذه الأعراض لا دواء لها ، وعليك أنت أن تعالجي نفسك بنفسك ! وأكرمنا الله وقتها حين بدأ قريب إحدى السجينات معنا وهو طبيب متمرن بالتردد علينا وتقديم الأدوية والعلاجات اللازمة لنا بالسر غالب الأحيان ، والتي وجدت عليها تحسنا كبيرا وبدأت أتعافى من قرحتي شيئا فشيئا ، لكن أعراضا أخرى بدأت تنتابني خلال ابتداء دورتي الشهرية تصحبها الام شديدة ، فاضطررت من شدتها مرة أن أطلب مقابلة الدكتور سمير مرة أخرى وأساله ولو نوعا من المسكنات يخفف عني الألم ، ولم يلبث بعد أيام أن استدعى الحاجه مديحة وقال لها أنهم شكلوا لي لجنة للنظر في هذا الوجع الذي يأتيني وقرروا لي العلاخ ، ووجدته يرسل لي علبة إبر أخذت اثنتين منهما بالفعل قبل أن يأتي الطبيب من جديد فتحدثه قريبته بالموضوع ، فلما سالها أن يرى الإبر وأتت بها إليه لم يصدق ما يرى ، وصاح فيها وقد تملكه الذهول : -هذه إبرللعقم لا للالم وهرع غاضبا ذهب إلى موفق السمان مدير المنطقة ورئيس السجن وحكى له ما حدث ، ومن غير أية مقدمات انقطع الدكتور سمير عن الحضور إلى السجن وانقطعت أخباره . . لكن أحدا لم يأت ليحقق في تلك الجريمة أو يستفسر عن حالتي . . مثلما لم يأت طبيب اخر مكانه ولم يحضروا أي بديل .

بول أم دم !

ذهب الدكتور سمير إلى حيث لا أعرف . . لكن الألم لم يذهب . . والبلاء لم ينته . . وسرعان ما بدأت أحس أعراضا مغايرة في منطقة أخرى من جسدي . . وبازدياد نوبات الألم الذي استمر شهورا أغالبه ويغالبني حتى غلبني في النهاية تبين لي أنه التهاب الكلى . . فصار

الدم يخرج مع البول مني وحصل معي استفراغ متواصل واسهال مستمر ، ومع استمرار الظروف الصحية السيئة تفاقمت الحالة حتى فاقت أي احتمال . . وأمضيت شهر رمضان من عام 1454 (يونيو 84) كله على هذه الحال لم أستطع بالطبع أن أصوم يوما واحدا منه ولا حتى أن أصلي . . ولم تكن زميلاتي في المهجع يستطعن النوم من كثرة تأوهي ونحيبي ، ولم أعد أستطيع من شدة ضعفي القيام حتى إلى الحمام ، فكانت البنات يحملنني إليه حملا . . وفي تلك الفترة انتشر الفسفس في السجن فكان ابتلاء آخر زيادة على ما أنا عليه ، وكان إذا سكنت الامي لحظة تقدمت هذه الحشرات المقيتة لتذيقني بعضاتها طعما جديدا من الألم ! وكانت ماجدة جزاها الله خيرا وأجزل ثوابها تسهر الليل عند طرف وسادتي لتلتقطهم عني بيديها ما وسعها الجهد والجلد . . وفي النهاية وعندما قاربت بالفعل على الموت تدخل العميد موفق السمان وسمح بإخراجي على مسؤوليته الخاصة وعرضي على طبيب مختص ، وأخذوني بالفعل بسيارة الشرطة وداروا بي في قطنا حتى وجدوا طبيبة أخصائية أمراض الكلى فحصتني وأعطتني إبرة مسكن وقالت لهم أنني أحتاج إلى تحليل ، فلما أخذوا البول ليحللونه سأل المحلل السجانة التي أخذته : - هل هذا دم أم بول . . أو أن الزجاجة لونها بني ؟ وبعد ظهور النتيجة وصفت لي الطبيبة ست إبر كل اليوم كانت تعطيني إياهم أم معقل بنفسها ، لكن أجنابي تعقرت ولم أشعر بأي تحسن . . فقامت إدارة السجن أخيرا بإرسال كتاب إلى أمن الدولة بكفر سوسة شرحوا لهم فيها حالتي وطلبوا إذنا لأخذي إلى مستشفى المواساة ، فأتت الإجابة بالموافقة المبدئية معلقة على تقرير الطبيب هناك ، ووجدتني في اليوم التالي محمولة في سيارة الشرطة إلى هناك وأنا أقرب للغيبوبة مني إلى الصحو . . وهناك وجدت جمعا من الطلاب التفوا حولي كأنما يريد كل منهم أن يتدرب في ، وتقدمت طبيبة من بينهن فخلعت عني جلبابي وفحصتني بشكل سريع ثم أعطتني إبرة مسكن في الوريد لم أعد أحس بعدها بشيء . . وعندما استعدت وعيي وجدتني في المهجع من جديد تتحلق البنات حولي وكأنني في النزع الأخير ! وسرعان ما انتهى مفعول إبرة المسكن دون أي تحسن

، فعادوا بعد يومين أو ثلاثة وأنزلوني إلى المستشفى مرة ثانية ، وتكرر ذلك ثلاث مرات أو أربع لم أزدد فيهن إلا رهقا وثقوبا في أوردة الساعدين ! وفي المرة الأخيرة أبلغت صديقتنا السجينة قريبها الطبيب فوجدته يستقبلني هناك ومعه أخي وابنة عمي التي كانت تتدرب في نفس المستشفى ، وقاموا فور استلامي فأخذوني إلى الطابق العلوي حيث تشتد العناية وتأخذ الفحوصات مسارا جادا هناك . . وهناك وجدت من عجائب الأقدار أحد الأطباء يهرع إلي فينتحي بي جانبا ويسالني بانفعال : - ألست أخت صفوان دثغ ؟ قلت له :نعم . قال والكلمات ترتجف على شفتيه من التأثر والإرتباك معا : ماذا حدث له . . ولماذا أنت مسجونة؟ ولم يدع لي الفرصة للجواب الذي لا يخفى فقال وهو دامع العينين : -معليش بيعين الله . . وأسر لي وهو يكمل فحوصاته بأنه كان وصفوان زملاء في الكلية ، وأنه لذلك سيجهد لكي يبقيني في المستشفى لاستكمال العلاج . . إذا تمكن . ولما كتب ذلك في تقريري ومضى به إلى مدير المسمتشفى وافق عليه شريطة موافقة الجهات الأمنية . . وبكل طيب وحسن خلق تقبل الخبر الشرطي الذي كان مكلفا بمرافقتي ، وطلب مني الإنتظار على باب المستشفى مع أخي ريثما يمضي فيحضر الموافقة من سجن القلعة .

فرصة ذهبية للهرب !

مضت سيارة الشرطة ووجدتني من شدة ضعفي لا أستطيع أن أري الدرج أمامي وأصبت بالدوار ، فجرني أخي من يدي وأنزلني وكأنني عمياء ! وجلسنا في الخارج على كرسي للإنتظار وحيدين لا رقيب علينا ولا حسيب ، عندها سالني أخي : - ما رأيك لو أهربك الآن ؟ قلت له وأنا لا أكاد أجد للحرية مع السقام والإعياء معنى : - لا أريد . . سيلقطوننا من على الحدود ويرجعوننا فيزيد بلاؤنا بلاء . ولم تمض دقائق حتى عادت سيارة الشرطة وأطل العناصر من نافذتها يسالوننا إن كنا نفضل الذهاب معهم بدل الإنتظار الممل فوافقنا . . وجعلت السيارة تخترق أحياء دمشق متجهة نحو قلعتها التي تتوسط أحياءها القديمة ، ووجدت الناس كل في شغله بين بائع و مشتري ، وطالب وعامل ، وموظف

وتاجر . . كلهم غارقون في دوامة الحياة يشغلهم تأمين احتياجاتهم الأولية عن ذاك الذي يجري بينهم دون أو يبصروه أو يسمعوه . . وترهقهم مشقة الحياة عن أن يلتفتوا ليتفكروا إلى أين تمضي قاطرة الظلم بالوطن ! فلما وصلنا سجن القلعة وهرع أحد عناصر الشرطة الذين يرافقوننا بيده الأوراق يأمل أن يجد لها توقيع الموافقة ارتد بعد هنيهة مكسور الخاطر وقد نال الطلب الرفض . . لكن نفسي التي اعتادت الإحباطات باتت تتقبلها بدون انفعال . . وقفلنا راجعين إلى سجن قطنا أكمل مع نزيلات المهجعين أيام الأسر والمعاناة . . وكثف الطبيب قريب زميلتنا زياراته محملا بالأدوية والعلاجات ، وبالمواظبة على تناولها تحسنت حالتي شيئا فشيئا ، وبعد مضي شهر كامل تمكنت من الخروج إلى الحمام أول مرة بدون مساعدة من أحد ، وبقيت سنتين تاليتين لا أشتغل أي شيء في الغرفة مثلما يتوجب علي ، وظلت رفيقاتي يجزيهن الله الخير يحمنني خلال ذلك ويغسلن لي ملابسي . . ويستتفدن من أية فرصة متاحة ليحضرن لي االطعام الصحي والعصير والمقويات .

الولد الضائع

كانت حياة السجن مزيجا من المعاناة والغرابات ، ففي هذا المجتمع الفريد تتوقع أي شيء في أي وقت ، وتقابل من أصناف المشاهد غير المعتادة ما لا يعد . . وتظل الأيام حبلى والمغيبات أسرار وألغاز حتى يحين الميعاد ! وعلى غيرميعاد وخارج كل التوقعات بدأت قصة ذلك الغلام الضائع الذي التقطه الشرطة من حي من أحياء دمشق . . وبما يفوق شتى التوقعات انتهت من غير ميعاد قصته الغريبة ! كان منظرا مؤذيا للشعور أن ترى غلاما لم يمد يبلغ السادسة من عمره سجينا على غير إرادة منه في غرفة المتهمات بالدعارة إ! لكن الشرطة الذين التقطوه تائها في دمشق وضعوه هناك انتظارا للعثور على أهله ،غير أن شهورا خمسة انقضت دون أن يظهر له أهل أو أقارب ، وكان مما يزيد في الحسرات أن الفتى أخرس لا ينطق ولا يتكلم حتى باسمه . . فصار الجميع ينادونه أحمد . وكأنما وجدت السجينات في أحمد هذا الخادم المطيع ، فكن يأمرنه

وينتهرنه ويضربنه في بعض الأحيان . . وذات مرة وأنا جالسة بعد الإفطار في رمضان اكل بعض الحلوى على شباك المهجع - وكانوا يفتحون كل المهاجع للتنفس بعد الإفطار - وجدت أحمد يقترب مني محملقا في الصندوق وهو يمد يده ويقول : - أعطيني واحدة . لم أصدق أذني في البدء . . فطوال الشهور المنصرمة لم نسمع الولد ينطق ببنت شفة . . وها هو ذا الآن يتكلم ! فلم أتمالك نفسي ووجدتني أصيح : -يابنات . . أحمد حكى . فلما قلنا ذلك للشرطي تأثر وقال : - اتركوه إذا عندكم . يبدو أن جو الغرفة هناك لم يعجبه. فلما التففنا حوله وجدناه يتكلم بشكل طبيعي ، وجاءت الحاجة فسالته أول ما سالته عن اسمه ، فقال : -أحمد بدر الدين . سالته : من أين أنت أبوي ؟ قال : أنا من حماة . قالت وقد تعجبنا كلنا من الجواب : وماالذي أتى بك إلى الشام ؟ قال الفتى ومسحة انكسار جلي ترتسم على ملامحه: أنا لموني مع الأولاد الذين لموهم في حماة بعد الأحداث وأتوا بي ووضعوني في الجامع الأموي ثم لم أعرف أين أذهب . سالته الحاجة : وأين أهلك ؟ فصاريبكي ثم قال لها : ماتوا . سالته : كيف ؟ قال : أرسلتني أمي عند أبي إلى الدكان فوجدت الحائط واقعا فوقه وهو ميت والدم طالع منه . . ذهبت إلىالبيت أبكى أريد أن أخبر أمي فوجدتها مقتولة أيضا ! والتفت الفتى نحو الحاجة باضطراب وقال لها : لا تقولي لأحد . . إذا سمعت أحدا يذكر اسمي فهذا معناه أنك أنت التى تكلمت . . أرجوك لا تقولي لأحد وتفهمنا جميعا حالة الطفل وتفطرت عليه القلوب . . وصارت له الحظوة والمنزلة بين البنات . . وذات يوم وبينما كنت أخيط مرة على ماكينة يدوية كان أهل رغداء قد تمكنوا من إدخالها الى السجن بعد جهد كبيروجدته يقول لي :منشان الله شيلي هالماكينه من وجهى لا أحب أن أرى أحدا يخيط . ". قلت له : لماذا ؟ فبكى . . فجعلت الحاجة تسايره وتلح عليه حتى تكلم وقال : - لأن أمي كانت خياطة ، وكانت لديها ماكينة تشبه هذه الماكينة التي مع هبة . . وكانت أمي تضع غطاء صلاة مثلها أيضا وتجلس لتخيط وفي مرة ثانية وكنا ننادي عاثشة بعيشة فقال للحاجة :منشان الله لا تنادونها عيشة . قالت له : وماذا تريد أن نناديها ؟ قال : نادوها أم النظارات . سالته : ولماذا ؟

قال : لأن أمي اسمها عائشة . قالت له : وأبوك . . ماذا يشتغل ؟ قال : عنده مكتبة قرآن بالحاضر . سالته :أين ؟ فوصف لها المحل وصفا دقيقا كأنه يراه فازددنا تأثرا عليه وتعاطفا معه . . وجلس أحمد معنا وهو يبدع يوما بعد يوم على غير كل الأولاد . . كان ولدا عبقريا بالفعل . . لا توجد طبخة ولا خياطة ولا شغلة إلا وتعلمها . . وكان يؤذن أجمل أذان ويتلو القران أحلى تلاوة . . واذا دعا بعد الصلاة يقول : اللهم أنزل قنبلة على سجن تدمر! وسمع المقدم موفق السمان مدير السجن بقصة الفتى ، فلما التقآه عطف عليه وصار يأخذه معه إلى البيت فيحممه ويدلله أيما دلال ، وكان للمقدم بنت وصبي متقاربان في العمر مع أحمد ، فصار يأخذه معهما إلى المسبح ، ووضع له سائقا خاصا ليتنقل به بين السجن والبيت ، وأخذه مرة إلى المحل الذي يشتري منه احتياجات بيته ، لكن الولد تعلم على المكان فصار يذهب إلى البائع وحده يقول له أعطني كذا وكذا على اسم العقيد ، ثم يضع هذه الأشياء بصندوق ويذهب إلى محطة القطار فيبيعهم فيه ويرجع إلى السجن عندنا ، فإذا حضر المقدم يسأل عليه رآه بيننا ، وإذا غاب عنا نظنه عند المقدم . . حتى إذا حان اخر الشهر وجد المسكين فاتورة كبيرة عليه لم يدر من أين ، فلما استعلم أخبره البائع أن أحمد كان يشتري على اسمه . . فسكت !

شخصيتان . . وصفعتان !

وانتشر صيت أحمد وذاع حتى بين الأهالي ، فصاروا إذا حضروا لم يغب نصيبه من الهدايا ، واذا انصرفوا تنافسوا من سيأخذه ليزور عنده . . وصار أحمد حكاية وتنعم إلى حد البطر . . وصار إذا قالت له واحدة منا : لم فعلت هذا؟ رعف بسرعة وأغمي عليه وأخذمع الأيام يحب أناسا ويكره اخرين ! ولا يتورع أن يرمي العداوة بين واحدة وأخرى وتكشفت له قدرات رهيبة في هذا السياق . وذات مرة لم يعجبه في عائشة شيئا ما فمضى إلى الشرطي وقال له : -عيطت علي . فانفعل الشرطي حنوا على الولد وقال لها : إذا تكررت الحادثة مرة ثانية فسأمنع عنك الزيارات ! وكأن قلبها كان دليلها بالفعل ، فلقد قالت لنا مبكرا إن لهذا الولد شخصيتان . . وهو غير طبيعي . لكن الأمورلم تتكشف

حتى ظهيرة يوم كان مقررا أن يذهب أحمد فيه ليزور أقارب للحاجة في حمص ، وبينما كانت الحاجة تلبسه البوط الجديد وقد أجلسته في حضنها وقف أحد الشرطة في الخارج ونادى : - سمير جفان . فما وجدنا الولد إلا وقد تفجر الرعاف من أنفه وأغمي عليه . . فقالت له الحاجة مستغربة : -على من كنت تصيح ؟ قال لها : ألم تري كيف وقع صاحبكم على الأرض ؟ قالت له : لماذا ؟ قال : هذا ليس اسمه أحمد . . هذا اسمه الحقيقي سمير جفان . . ألم تروا صورته قبل مدة في التلفزيون ؟ وتذكرنا وقتها أنهم أعلنوا بالفعل عن ولد ضائع وعرضوا صورته ورأيناها ، ولكن أحدا لم يخطر على باله وقتها أنه هو نفسه . . وتذكرنا كذلك أنه عندما رآها حينذاك أسرع فأطفأ التلفزيون وكأنه يلعب " وبين الحيرة والعجب جعلوا يغسلون له وجهه والدم يدلق من أنفه دلقا ، ثم لم نجد إلا رجلا كبيرا في السن يقف على الشبك وهو يبكي ويطرق رأسه عليه . . فعلمنا أنه أباه ! وهنا دخل الشرطي فأخذ الولد للمقدم ، فلما ساله : - من علمك أن تقول أن اسمي كذا وتدعي بأن أهلك استشهدوا في الأ حداث ؟ قال له : هبة . قال له : أكيد هبة ؟ قال له : نعم . . أنا ما الذي يدريني ؟ هي كانت تعلمني وتقول لي إحك كذا واعمل كذا . ولم أجد إلا وقد ناداني المقدم لمقابلته ، ومن غير أن أعي ما الذي يجري نزل بي بهدلة يقول : - الله لا يعطيك العافية . . تريدي أن تسيئى إلى سمعة الدولة . . أنت حاقدة . . لئيمة . . أنا فكرتك غير ذلك . . فقالت له الحاجة مديحة التي تبعتني : طول بالك أبوي . . ماذا حدث ؟ فقال لها : هي تريد أن تنزع سمعة الدولة . . هذه حاقدة . . قلبها مليان . . سالته : لماذ ا ؟ قال لها : هي علمت الولد يقول كل هذا . . . قالت له الحاجة : تعال أقول لك . . كل البنات قربوا صوبه إلا هي لا سايرته ولا شيء . فردني المقدم إلى مكاني وقد ازداد تعجبه وحيرته . . وعادت الحاجة معي تهدئ من روعي . . فلما قابلت الشرطي أثناء رجوعنا سالته أن يشرح لها ما الذي يجري . . فقال لها : -هذا الولد يخرب بيته . . عمال يلعب علينا كلنا كبيرنا وصغيرنا ويدعي اليتم وهو له أهل . . وأضاف : وهذه أمه وهذا أبوه المسكين يقولان الآن بأنه يعمل فيهم مثل هذا الفصل بين كل فترة وفترة . . فيهرب

من البيت ويختلق القصص الغريبة ليخدع بها الناس !
وهنا اقتاد المقدم الولد إلى غرفة التحقيق وساله بحضورأبيه عمن علمه ذلك حقيقة ، فاعترف الولد أنها فعلته وحده وأنني لم أعلمه أي شيء ، فما تمالك المقدم نفسه وصفعه من الغيظ صفعتين على وجهه كادتا تقضيان عليه . . ومع ذلك فلم يغير الولد من تصرفاته أو يبدي ندما ولا اعتذارا . . ومضى مع أهله يقدم رجلا ويؤخر أخرى ونحن كلنا كأننا في مشهد من مشاهد الأفلام السينمائية بين مصدق ومكذب !

إ فرا ج

كان عام 84 قد انتصف وانسلخت من العمر سنون وشهور ما عدنا نبالي حتى بعدها . . وكان يوما عاديا كمئات من أيام السجن المملة غيره يوم أن دخل أبو مطيع مدير السجن علينا فجأة وصاح على باب المهجع : -إيمان ت .إيمان ق .عائشة ق . حليمة . . فلما التفتن إليه وتقدمن يستطلعن الخبر ألقى إليهن العبارة كالقنبلة وقال -هيا . .جهزن أنفسكن . . إفراج ! لم تستوعب البنات العبارة بادئ الأمر . . وظن أن ثمة خطأ ما . . في النقل أو في التلقي . . فلما عاد وأكد ما قال احتبست الكلمات واختلجت في الصدور القلوب . . ولم تلبث أم شيماء وايمان أن ردتا دامعتي العينين : -لا نخرج إلا مع كل السجينات . . - وتقدمت إيمان فجثت عند رأسي وكنت لا أزال مريضة وقتها وصارت تبكي وتقول لهم : -لن أخرج إلا أن تخرجوا هبة معي . فقال لها أبومطيع : - بإمكانك أن تبقي هنا على الرحب والسعة لولا أن الأمر أتى بالإفراج ، لكن بإمكانك أن تخرجي وتجلسي تنتظرينها على باب السجن ماشاء الله ! قالت له : لا لن أخرج . . لن أخرج . . ووقفت أم شيماء تبكي من جهتها وتقول لي : -كيف سأخرج وأنت لا تزالين هنا ؟ وأخيرا لم يجد إلا أن يسحبهما سحبا وهما تحاولان التشبث بالشبك وبالقضبان ولا تكفا عن النحيب حتى خرجتا . . وعلمنا بعدها أنهم أخذوهن إلى أمن الدولة في البداية ثم أفرجوا عنهن من هناك وما عدت رأيتهن بعدها . لكن خروج هذه الدفعة ثم الإفراج عن سناء بعد أسابيع قليلة وبمناسبة الحركة التصحيحئ فيما أذكر أحيا فينا الأمل ، وظننا بأن باب الفرج قد فتح

وأن أيام خروجنا قد دنت أيضا . . غيرأن الأيام التالية كذبت ظنوننا . . فمات الأمل من جديد . . وعاد مزيد من السجينات يفدن علينا دفعة وراء دفعة ، فيحرك فينا الألم الراكد ، ويزيد فينا الشعور بأنها حياة ها هنا بين المهاجع والزنازين إلى الأ بد ! في السبعينات وأحرقوا لحيته ! كانت أم خالد أمية أ . وأم زهير أ . قد أمضيتا عاما كاملا في سجن التحقيق العسكري بدمشق قبل أن يأتوا بهما إلى قطنا أواخر عام 84 ، لكن كلتيهما كانتا قد فقدتا أحب الأحباب من عائلتيهما وعانتا في سبيلهم الكثير . وأما أمية فهي ابنة عالم شهيرمن علماء دمشق هو الشيخ أحمد أ . الذي استشهد اثنان من أبنائه (علاء ومصطفى) واعتقل الثالث والأكبر (شهاب) ويقال أنهم أعدموه بتدمر فيما بعد . . ولقد تم اعتقال أفراد العائلة كلهم مرتين أو ثلاث بما فيهم إحدى حفيدات الشيخ أحمد الطفلة شيماء وكان عمرها سنتين فقط ، فيما كان الشيخ أحمد في السبعينات من عمره ! ولا أزال أذكر كيف قال الرائد عبد العزيز ثلجة في التحقيق : - انظري . . هذا الشيخ أحمد عامل حاله شيخ أنا أحرقت له لحيته بالنار ! وكانوا قد اعتقلوهم أول مرة ثم أطلقوا سراحهم ، فلما استشهد ولداه أعادوهم إلى الإعتقال ! وأما أمية فقد نالت نقمة مضاعفة مرة بسبب والدها وإخوتها والثانية بسبب زوجهاوهو طبيب من حلب اسمه صالح خ . - اعتقل قبل أن نعتقل نحن بعام كامل بتهمة التعامل مع الإخوان ومدهم بالمال ، وفي البداية اعتقلوا ابنهم معه وكان عمره 16 سنة فقط ثم أطلقوا سراحه لاحقا على أساس أن يتعامل معهم ، لكن أمه هربته إلى تركيا مباشرة لتنجو به ، فلما عادت تم اعتقالها ، وبقيت قرابة العام في سجن التحقيق العسكري قبل أن تنقل إلى قطنا . وفيما تم الإفراج عن أم خالد بعد بذل وساطات كبيرة في العام التالي ، فإن زوجها لم يخرج إلا بعد خروجنا بأكثر من عام . ولا أزال أذكر أنها لما دخلت المهجع في قطنا ورأتني أمامها شهقت وهي تقول لي : - أنت هنا ؟ ألم يرموك من الطائرة ؟ قلت وقد تملكني الدهشه . ماذا ماذا تقصدين : قالت : سمعنا والله أنهم رموك من الطائرة وبكينا عليك وقتها أشد البكاء !! وأما أم زهير التي كانت في الأربعينات من عمرها فقد استشهد

أخواها أيضا مع بدايات الأحداث في مواجهات مع المخابرات بدمشق ، وصارت لهما شهرة وصيت وقتذاك ، وكا نت أم زهير قد ذهبت لتأدية فريضة الحج بشكل عادي ، فلما عادت اعتقلوها أيضا من غير سبب واضح ، وأمضت قرابة السنة في سجن التحقيق العسكري قبل أن ترافق أم خالد إلى قطنا وتخرج معها عام 85 .

سنوات عجاف

كانت ثلاثة أيام وحسب قد مضت على زواج السيدة ابتسام ع . من زوجها الطبيب الذي يؤدي خدمته الإلزامية في اللاذقية حينما تم اعتقاله وشقيقه لسبب لا تعرفه ابتسام إلى اليوم . . فبذلت المسكينة وعائلتها الكثير من النقود ووسطوا وهم من عائلة معروفة في اللاذقية الوساطات الكبيرة حتى تمكنت من زيارته في تدمر خمس دقائق فقط لم تكن كافية حتى لتلتقط أنفاسها وهي تراه بحالة من التعذيب والهوان مزرية . . وبعد أقل من شهر واحد على تلك الزيارة وجدت ابتسام نفسها مكبلة الأيدي ، يقتادها عناصر المخابرات العسكرية إلى فرع التحقيق العسكري في اللاذقية ثم إلى الفرع الرئيسي في دمشق . . لتمضي سبعة أو ثمانية أشهر من الضياع هناك قبل أن تحط بها الرحال بيننا بعد بضعة أسابيع وحسب من وصول مجموعة أمية ، فتمضي معنا من غير ما سبب تعرفه بضع سنوات عجاف ، وأما الزوج فظلت أخباره منقطعة عنها حتى بعدما خرجت من السجن ، وكان اخر ما بلغها من أنباء تسربت عن حالته المؤلمة أنه أصيب بالسل ، ونقل من مهجع كان فيه في سجن تدمرإلى مكان مجهول!

شو الك بالقصر

لم تمض أسابيع قليلة من وصول ابتسام حتى أطلت ضيفة جديدة علينا هي أمل ل . قادمة من سجن الأمن السياسي بحماة . وكانت أمل قد خرجت أثناء الأحداث إلى الإمارات حيث يقيم إخوة لها هناك ، فلما عادت عام 85 لزيارة أهلها وبلدها ألقوا القبض عليها في المطار واقتادوها مباشرة إلى الأمن السياسي بحماة ، وتم تعذيبها هناك بشكل قاس لتعترف بعلاقاتها التنظيمية وبأحوال إخوتها الملاحقين ونشاطاتهم ، ولقد حدثني

زوج عمتي وكان وقتها في السجن نفسه أنهم كانوا لا يستطيعون النوم عند سماع صوتها في التعذيب وبعد ذلك نقلت أمل إلى قطنا وظلت هناك حتى خرجت معنا بعد قرابة خمس سنوات . . ورغم ذلك وعندما انعقدت لجنة النظر في أمرنا في الفترة الأخيرة برئاسة حسن الخليل رمقها من عليائه بنظرة امتهان وقرف وهو يقول : -شو إلك بالقصر . . مبارح العصر وجاية لتطلعي معهم !

الطفلة العجوز !

وانقضت أسابيع قليلة أخر . . وحضر ضيوف جدد لينضموا إلينا في رحلة الشقاء . . وكأن هذا الوطن ضاق بالصالحات فما عاد يرى لهن مكانا فيه إلا هذين المهجعين المتكدسين ! كانت القادمتان هذه المرة أختين شقيقتين من حلب أولاهما رغيدة ق . وهي مدرسة تربية إسلامية والأخرى عائشة مدرسة لغة انجليزية . ولقد ابتدأت حكاية الأختين المنكوبتين حينما لوحق زوج رغيدة وهو مهندس ولها منه ولدان وبنت وانقطعت عنها أخباره ، ثم لم تلبث وأن بلغها نبأ استشهاده في دمشق ، فلم تجد من وسيلة لإعالة أسرتها إلا أن تذهب إلى السعودية وتتعاقد هناك كمدرسة ، وذهبت معها أختها عائشة وزوجها ، وأمضوا هناك بضع سنين قبل أن يقرروا العودة لأول مرة وزيارة الأهل والبلد وحضور زفاف واحدة من بنات أخيها . . وحملت الأسرتان أفرادهما في سيارة جيمس مليئة بالهدايا والتحف النادرة وبجهاز كامل للعروس . . فلما وصلوا حدود درعا أوقفهم أمن الجمارك فهالهم ما معهم من متاع ثمين ، ولم يلبثوا أن غابوا عنهم لحظات ثم عادوا يخبرونهم بأنهم مطلوبون لمخابرات أمن الدولة . . فأخذوا السيارة بما فيها واقتادوا الأختين والزوج إلى سجن كفر سوسة ، وأرسلوا وراء أهلهم فسلموهم أولاد عائشة التسعة وابناء رغيدة الثلاثة ! وفي كفر سوسة لم يتورع المحققون هناك عن تعذيب الأختين رغم أن عائشة كانت حاملا في شهرها السادس أو السابع ، وكان من المضحكات المبكيات أنهم أرادوا من رغيدة معلومات عن زوجها الذي استشهد قبل سنوات ! ثم لم يلبثوا وأن اتهموا كلا الأختين بالتنظيم

. . وبعد شهرين من المعاناة والعذاب حولوهما إلى قطنا . . فلما وصلتا كانت عائشة في شهرها التاسع وقد سلم الله لها الحمل . . ولما دنا ميعاد الولادة رجونا المقدم مدير السجن أن يسمح لرغداء س . القابلة أن تأتي لتزور الليلة عندنا من مهجعها الثاني . . فوافق دون أن يعلم السبب . . وظلت رغيدة تعاني ألم الطلق حتى ولدت مع تباشير الفجر بنتا سمتها تسنيم . . ولا أزال أذكر أنها كانت صباحية العيد الكبير . . فلما جاءت المولودة أحسست حينما نظرت إليها أن شعر رأسي قد وقف من كثرة ما كانت هزيلة مجعدة الجلد كعجوز في اخر العمر ! وبقيت رغيدة معنا إلى اخر فترة فيما خرجت عائشة قبل انتقالنا إلى دوما . . وأما زوجها فلم يخرج إلا بعدنا بشهور . . وعندما طالبوا بالسيارة وما كان فيها ورغم وساطات وسطوها لذلك فإنهم لم يحصلوا حتى على جواب !

الشيوعية الغامضة !

وفي تلك الفترة وضمن النزيلات الجدد حضرت ذات يوم سيدة من التل اسمها هند قهوجي وهي ابنة عمة فاديا لاذقاني ومسؤولتها وزعيمة في التنظيم الشيوعي . وهند مهندسة متزوجة لم تكن قد بلغت الثلاثين بعد ،وأغلب الظن أن زوجها كان معتقلا كذلك ، لكننا لم نعرف كيف اعتقلت بالتحديد فقد كانت في المهجع الثاني وكانت غامضة وكتومة . وقد خرجت مع بقية الشيوعيات في دفعة واحدة بعد الإفراج عنا بعدة أشهر .

نزيلات تدمر !

كان سجن تدمر حتى ذلك التاريخ كالقبر المقفل . . الداخل فيه مفقود والخارج منه مولود ! فلما خرجت مجموعة من النساء منه وقدمن إلينا كانت حادثة أشبه بالمعجزات وسرعان ما بلغنا أن سبب إحضارهن هو انتشار السل والجرب هناك ، إضافة إلى الإنتهاء من بناء سجن جديد دشنوه لخدمة الوطن هو سجن "صيدنايا! ولهذه الأسباب قاموا أولا بتصفية المعتقلين لديهم ، فأعدموا الذين قرروا إعدامهم ، ونقلوا بقية من يريدون الإبقاء عليهم وجرى نقل النساء إلى قطنا ضمن هذا السياق وتجميعهن في نفس المكان . وضمن السياق

نفسه وصلت خمس نسوة إلينا في دفعة واحدة فيما تم التصرف مع بقية النساء المعتقلات هناك بطرق مختلفة .

مأساه "أم حسان"

كانت ثلاث من القادمات من أسرة واحدة : أم حسان خديجة س . التي كانت في الخمسينات من العمر ومعها ابنتاها سلوى ويسرى ح . وكان زوج أم حسان ووالد البنتين قد شارك في إيواء مجموعة من الملاحقين في بيتهم بحماة قبل الأحداث ثم قدم الأب ابنتيه عروسين لاثنين راقا له من هؤلاء الشباب ، فلما قامت الأحداث واجتيحت حماة خرجت العائلة إلى القرى المحيطة نجاة بأنفسهم مثلما فعل ألوف الناس وقتذاك لكن يسرى إحدى البنتين - اثرت البقاء وزوجها في قاعدة ثانية مع مجموعة من الملاحقين الآخرين ، غير أن أمرهما اكتشف وداهمت المخابرات المكان فقاومت المجموعة لفترة تمكن زوج يسرى خلالها من الهرب ، فيما قتل شاب كان معهم اسمه أبو خالد ، روت يسرى أنه كان مصابا بشلل نصفي من قبل ، وأصيبت في الإشتباك زوجته ليلى ب . وابنته التي لم يتجاوز عمرها 20 يوما ، وتم في النهاية اعتقال يسرى وليلى فيما لفظت الطفلة أنفاسها دون أن يعنى بأمرها أحد . وسرعان مما اضطرت يسرى أمام وحشية المحققين والجلادين أن تعترف على مكان أهلها في القرية وتدلهم عليها ، فاعتقلت أم حسان وسلوى وتمكن الأب وقتها من الفرار ، لكن أخت أم حسان وزوجها اعتقلا في نفس البيت ، وقيل بأن الأخت وزوجها قتلا نفسيهما بابتلاغ السم في الزنزانة قبل أن يبدأ التحقيق معهما ، وأما أم حسان فقد تمكن المخابرات من ادراكها واخراج حبة مماثلة من فمها قبل أن تبتلعها ، وجلست المسكينة في السجن موزعة البال بين حالها الرعيب وحال أختها وزوجها وأبنائهم السبعة في الخارج لا معيل لهم ، وأبنائها هي البقية فواز الذي لم يبلغ ثلاث سنوات بعد وأمل ونرجس وغزوان الذي دخل صفه السادس حينذاك . . ثم كانت مصيبتهم التالية حينما اعتقل الزوج عام 85 فاضطر غزوان إلى ترك الدراسة والعمل في محل تصليح سيارات ليقيت نفسه وإخوته ولم يعبث الوالد أن

أفرج عنه بعد تعذيب وحشي ليسلم أنفاسه بسبب ذلك بين أولاده بعد أيام ! وكثيرا ما كانت أم حسان وقد اجتمعت على كاهلها هذه الهموم تفقد أعصابها فتصيح في وجوهنا وتقذف ما يصل إلى يديها في كل اتجاه وأكثر ما كانت المسكينة تفعل ذلك يوم أن يأتي أولادها لزيارتها يجر بعضهم بعضا ويحمل واحدهم أخاه أو أخته بالتناوب ليقفوا على الشباك ويستطيعوا رؤية أمهم . . فإذا ذهبوا ازدادت لوعتها وتفجرت الامها فتراها تلطم خديها وتمضي ساعات وأياما ربما في البكاء . وعندما أفرج عنا وخرجت أم حسان وابنتاها معنا وجدت المسكينة أنهم سرقوا لها الذهب الذي أخذوه منها في الأمانات ، وأنهم دمروا بيتهم فى حماة بحجة أنه كان قاعدة للمجاهدين ، فلم يجدوا بعد كل هذه الماسي إلا أن يسكنوا بيتا طينيا من غرفتين ضيقتين كان المطر إذا نزل اخترق السقف الرث وفاض عليهم بلا استئذان ! وأما أولاد أخت أم حسان السبعة فلم يجدوا من حظ الدنيا إلا أن يأخذهم بعض المشفقين إلى عمان ليقيموا مع الأسر السورية الملتجئة هناك ، ولم يلبث الولد الأصغر المعوق أن مات لانعدام العناية ، وأسرع من قام بالإشراف على هؤلاء المساكين فزوج البنتين الكبيرتين يوم أن بلغتا إحدى عشرسنة . . وحسب !

السيلون !

لكن مأساة هذه العائلة الممتحنة لم تتوقف عند هذا الحد ، بل ربما كان ذلك كله الجانب الأسهل منها ، فبعد أن أنهى فرع الأمن السياسي استجوابهم في حماة أرسلوهم ومعهم ليلى ب . إلى تدمر وقد اعترفن بالمشاركة في مساعدة شباب ملاحقين بايوائهم . . وهناك في هذا المكان المرعب الذي كن يرين منه مواكب المعتقلين تساق صباح كل يوم إلى الإعدام حان موعد ولادة سلوى دون أن تكون لديهن أية وسيلة لذلك أو حتى أي ملابس للمولود القادم ، لكن الله رحمهن بوجود قابلة من حماة معتقلة معهن اسمها رغداءس . فلما جاء سلوى الطلق كتمن الخبر وصياحها معه خشية أن يكون ذلك سبب عذاب جديد لها أو حتى لهن حتى إذا ولدت سمع أحد الحرس على السطح بكاء المولودة فسأل فأخبرنه ، فجاء هذا الشاب الذي لم تمت فيه بقايا

الإنسانية بعد وأدلى لهن علبة صفيح فارغة وعود كبريت فأشعلن من ثيابهن فيها ما يكفي لتسخين ماء حمموا به المولودة ، وروت الأم بنفسها أنهن قصصن لها الحبل السري بقطعة تنك اقتطعنها من علبة الصفيح تلك !
غيرأن المأساة لم تنته أيضا ، والخطر لم يبتعد عن هذه المولودة البريئة التي أسمتها الأم سمية . . فلقد قامت إحدى المعتقلات معهن وهي مسيحية اسمها أم طوني متهمة ببيع جوازات سفر للملاحقين ، فلما اعتقلت تحولت تماما مثل فاديا الشيوعية إلى مخبرة لتنال حظوة في السجن وبعض المزايا الرخيصة ، وقامت بالإبلاغ عن هذا العنصر الذي ساعدهن بالتنكة الفارغة وعود الكبريت . . فحضر مدير السجن المقدم فيصل غانم وجعل يسمعهن سيلا من الشتائم والإهانات والتهديدات كعادته ، ثم أخرج عائدة ك . - إحدى المعتقلات - فنزع عن رأسها الحجاب وجعل يدوسه بقدميه والشتائم لا تزال تتدفق من فمه المنتن . . فلما انتهى وهدأت نفسه أمر بمعاقبة المهجع كله ونقله إلى "السيلون ا ا إ! و"السيلون " هذا عبارة عن قبو كبير رطب ومعتم لا منفس فيه ، مسكون بالعناكب والصراصير والحشرات ، وقتها كان عمر سمية عشرين يوما فقط ، وكان عليها أن تنتقل إلى "السيلون " مع بقية السجينات ، فأصيبت المسكينة من حينها . بربو مزمن لم تشف منه إلى الآن . لا أزال أذكر أنهم يوم أتوا إلى قطنا بعدما أمضوا سنتين قي تدمر وبضع أسابيع بعدها في سجن حمص وبينما وقفت النساء تفتشهن الشرطيات وتتسلمن أماناتهن تسللت سمية ببراءة الأطفال من بينهن ودخلت بين أرجل الشرطة نحونا ، فركضت أنا فرحة بمولود صغير بيننا لأحملها ، فلما رفعتها أحسست أنها طارت من خفتها وضعفها من يدي وكادت أن تفلت مني في الهواء !

التهاب في الاعصاب
حضرت أم حسان وابنتاها ومع هؤلاء حضرت أيضا رغداء س . ومنى ب . وأما مجموع النساء في تدمركما روين فكان قد وصل أيامهن إلى إحدى عشرة : الخمس اللاتي وصلن قطنا وست أخريات هن : عائشة أ . ونهلة ز . وعائدة ك . وسلسبيلة أ . وليلى ب . وأع طوني . . وأما

عائدة وعائشة فقد نقلوهما بعدها إلى سحن حلب لنعود فنلتقيهما في مراحل سجننا الأخيرة ، فيما نقلوا سلسبيلة مع مجموعة أم حسان إلى سجن حمص في البداية ، ولكنهم نسوها هناك كما تبين لاحقا ، ولم يفطنوا لغيابها إلا بعد سنين ! وأفرجوا عن ليلى ونهلة وأم طوني من تدمر مباشرة نتيجة واسطة وتدخلات ثقيلة للأولى ، وبعدما اشتد المرض بالثانية حتى قاربت الهلاك وأحسنت الثالثة التعامل معهم فتخرجت من السجن مخبرة محترفة كانت رغداء ومنى صديقتين حميمتين كلاهما من حماة أما رغداء فكانت قابلة وأما منى فخريجة كلية الشريعة ومدرسة ديانة . وكانت منى وزوجها قد شاركا في تأمين مأوى لمجموعة من الملاحقين تم اكتشافه بعد أحداث حماة فهرب زوجها والشباب جميعا واعتقلت المسكينة ، وهناك في الأمن السياسي بحماة عذبوها كثيرا لتعترف أنها منظمة وتدلهم على مكان زوجها ومن كان معهم في القاعدة ، ونتيجة التعذيب بالكهرباء أصيبت المسكينة بالتهاب في أعصاب أرجلها فلم تعد تستطيع حتى النوم إذا لم تسلط المروحة عليهما من شدة الألم . . وبعد العذاب والتحقيق أرسلوها إلى تدمر . . وأرسلوا معها رغداء التي اعتقلت في نفس الفترة من مكان عملها كقابلة في المستشفى لكن رغداء لم تتكلم عن تعذيبها أو الظروف التي مرت بها وكانت من النوع الكتوم والهادئ تحتسب ما أصابها عند الله .

سجينة طي النسيان !

هؤلاء كن الخمس الذين حضرن من تدمر والتقيناهن في قطنا ، وأما الست الأخريات فقد التقينا ثلاثا منهن في مراحل سجننا الأخيرة هن : عائدة ك . وعائشة أ . وسلسبيلة أ . وسمعنا قصص الأخريات الباقيات ولكننا لم نرهن . كانت عائدة مهندسة عاملة من حلب أتى الطلب عليها في بدايات الأحداث ولكنها نجت ، ولأ نها وحيدة أهلها وخشية عليها أحضرها والدها الى بيتنا في دمشق لتسكن مع صديقات لها بيننا ، ثم لم تلبث أن اطمأنت فعادت إلى حلب وبقيت بسلام هناك إلى أن اشتدت الأحداث فعادوا واعتقلوها بوشاية من سامح كيالي أيضا . . ولقد بلغنا أنها عذبت عذابا شديدأ في

فرع المخابرات ولاقت كأكثر اللاتي لاقين على أيدي عمر حميدة ومصطفى التاجر ولكنها كانت تؤثر الكتمان ولا تتحدث بشيء ولم يكن لقاؤنا إلا في الأسابيع الأخيرة من سجننا حينما جمعنا في سجن التحقيق العسكري بدمشق قبل أن يتم الإفراج عنا . كذلك كان لقائي مع عائشة أ . في نفس الفترة وفي نفس المكان . وعائشة معلمة مدرسة من حلب اعتقلت في نفس الفترة مع عائدة ولكنني لم أعرف السبب ولا التفاصيل . وأما سلسبيلة أ . فهي سيدة مربية من حمص كانت في الستينات من عمرها اعتقلت لعلاقة أخيها بالإخوان واعتقلوا معها ابنها وكان عمره حوالي 16 سنة وقتذاك . . وعلمت أنها تعذبت أيضا ولكني لا أعرف التفاصيل لأني لم أجلس معها إلا الأسابيع الأخيرة . وكانوا قد نسوها في سجن حمص بعد أن نقلوها مع الأخريات من تدمر ، وعندما قرروا الإفراج عنا ورد اسمها في القائمة ولكنهم لم يعودوا يعرفوا في أي فرع هي وفي اخر الأمر جاء مدير سجن التحقيق العسكري إلينا وسالنا : - هل تعرفون هذا الإسم وأين هي ؟ فقالت له البنات : نعم ، كانت في سجن حمص وربما لا تزال هناك .
وبالفعل ذهبوا فوجدوها باقية هناك في الزنزانة وحدها ! وبعد الإفراج عنها وجدتهم قد صادروا لها البيت ، ولم يسمحوا لها حتى الان بالخروج من سوريا رغم أن زوجها وأولادها يقيمون في السعودية ، وأما أخوها الذي اعتقل معها فلا يعلمون عنه شيئا إلى الان !

على لوح الخشب !
كانت نهلة ز . إحدى النساء الثلاث اللاتي أفرج عنهن من تدمر مباشرة مهندسة كهرباء من زميلات عائدة ، وكان زوجها قد فتح بيته مأوى لبعض الشباب المطلوبين ، لكن السلطة علمت بالأمر فداهم رجال الخابرات البيت وكمنوا فيه ، وخشية على نفسها من هؤلاء الوحوش وصيانة لعرضها وشرفها ركضت فور اقتحامهم البيت وألقت بنفسها منشرفته بالطابق الثالث ، فلما سقطت أصيبت بكسور عديدة لكنها ظلت على قيد الحياة ، وظن الناس أن سيارة صدمتها فركضوا وخبروا الشرطة المدنية لإسعافها ، فلما حضروا وسألوها عم حدث وجدت نفسها تخبرهم بأن الإخوان أتوا إلى البيت

وأصروا على الدخول وحبسوني فرميت نفسي ، فجاءت دورية مخابرات أخرى وحصل اشتباك بينهم وبين العناصر الكامنة في البيت وكل يظن الأخرين من الإخوان ، فلما اكتشفوا الأمر كانت إصابات عديدة قد وقعت بينهم فحقدوا عليها أكثر ، وتركوها طوال فترة اعتقالها بدون علاج ممددة على لوح خشبي لا تستطيع التحرك عنه بسبب كسر رئيسي أصاب حوضها ، حتى كاد عظمها المهشم أن يصاب بالتسوس . . وزاد من معاناتها المسكينة حينما اكتشفت في تدمر أنها كانت حاملا في شهورها الثلاثة الأولى تقريبا ، لكنها وبسبب حالتها المفجعة أصيبت بنزيف مستمر

الفصل الرابع
سجن التحقيق العسكرى
فى غيابة الجب
أغسطس 1985 أكتوبر 1989

سجن التحقيق العسكرى
كانت سيارة المخابرات المدنية التي أقلتني تنهب الأرض نهبا فيما كانت رجلي ترتجف من شدة اضطرابي فتصعد وتنزل بشكل لا إرادي حتى اضطررت أن أثبتها بيدي الإثنتين فلا تفضحني ! كنت أحس السيارة تقفز بنا قفزا فوق باقي السيارات من سرعتها ، ورأسي يرتطم بالسقف مع كل انعطافة منها أو لفتة ويعود فيرتج بين كتفي . . فيما تطلق سيارة المرافقة الأمامية أضواءها الباهرة وبوقها المرعب فتنفر السيارات والناس من حولنا مذعورين ، وتكمل سيارة الحماية الخلفية المشهد فتزمجر بمحركها لتزيد الناس إرهابا وخوفا . . وحينما مر موكبنا على "جديدة عرطوز" حيث المكان المخصص لإعدامات العسكريين قلت لنفسي : - إذا هم اخذينني إلى الإعدام . لكننا تجاوزنا وقد أطبقت ظلمة الليل علينا حتى وصلنا فرع التحقيق العسكري بالمزة فاستقبلتنا الأبواب مفتوحة بالإنتظار ، وسرعان ما ولجت السيارات الثلاث داخل الأسوار الشاهقة فلم تعد لي من وقتها صلة بالعالم في الخارج .

توقفت السيارة أمام باب المبنى وتقدم المقدم مني فعصب لي عيني وكبل يدي إلى الخلف وأنا لا أزال مكاني، فقلت له : لكنني حتى أثناء التحقيق الأصلي لم أطمش ولم أكلبش . فقال وهو يجذبني من كتفي : القوانين هنا غيرها هناك . ووجدته يصعدني على درج طويل ثم لم يلبث أن أنزلني ثانية وعاد يصعد بي وذلك حتى أفقد القدرة على معرفة المكان أو تمييز الإتجاهات . . وبعد رحلة من الصعود والهبوط زادت من توتري واجهادي وأنا لم أتناول شيئا بعد الإفطار أدخلني في ممر طويل وأدارني باتجاه الجدار وقال لي انتظري ، وبعد خمس دقائق فتح الباب الذي يليني وسمعت صوتا يقول : أدخلها. فدخلت لا أكاد أدري إلى أين ، ويد المقدم تقودني إلى كرسي أجلسني عليه فجلست ، ومن طرف العصابة التي انزلقت عن عيني بعض الشيء استطعت أن ألمح ظل طاولة أمامي وهيئة رجل ما يجلس خلفها ويسالنى : - ماذا ترين أمامك ؟ قلت له : لاشيء . كان محدثي هو العقيد كمال يوسف رئيس الفرع ، وكان أشد ما يخاف على نفسه ربما لأنه مسيحي لا تحميه طائفته كأكثر الضباط الاخرين ، فكان يشدد على أن لا يعرف صورته أحد . . ووجدته يلتفت على عنصر معنا ويسأله : - وأين ذاك الآخر ؟ فأجابه من غير أن أدري عمن كانا يتحدثان : إنه تحت في المنفردة 24 سيدي .. لكن الرعب تملك قلبي من جديد ، وقلت لنفسي إنه أخي إذا وقع بأيديهم وكانوا يحققون معه للتو . وعاد العقيد فسأل : - وكيف وضعيته ؟ أجاب الاخر : جالس على الأرض ومكلبش من يديه ورجليه للوراء ومطمش سيدي . فلما أحس أنني تلقيت الرسالة المطلوبة وأصابني الرعب التفت إلي يقول : -إي يا ست هبة . . شوفي . . إذا بدك تحكي معنا الصدق فهناك أمل أن نخرجك ، واذا بدك تكذبي فلا مجال أن تخرجي أبدا . قلت له : بكون أحسن. قال ببرود : وليش بكون أحسن ؟

قلت : لأن أي شيء ستسالنى عنه ليست لدي أي معلومة عنه ، فأنا في السجن منذ خمس سنوات ، وعلى علمك أن السجين لا تدخل إليه أخبار ولا تخرج عنه أخبار . . وأنا حتى التلفزيون لا أراه . قال : ولا تعاشري أحدا من السجينات ؟ قلت له :لا . قال : ليش ؟هل أنت شيء

مختلف عنهم ! قلت له : لا لكن الله أعطى لكل إنسان طبيعة وأنا لا أحب أن أتكلم مع أحد . قال : ولا حتى مع القضائيات ؟ قلت له : أصلا أنا القضائيات لا أتكلم معهن . قال :ليش غيرخلقة !
قلت له : لا ، لكن أنا طبعي هكذا لا أحب أن أتكلم حتى مع رفيقاتي اللاتي معي في المهجع .
فقال لي : لا . . بدك تقولي لي من هو بيت سرك . قلت : ليس لدي بيت للسر ولا أحتاجه . ثم ما هو هذا السر الذي سأخبؤه هنا وهناك . فقال لي : لا لك . . لا تظني أنني لا أعرف شيئا عن السجينات . . صحيح وضعناكم في سجن مدني لكن أنا أعرف كل شيء عنكم . قلت له : إذا من هو بيت سري يا شاطر إذا بتعرف؟ فقال لي : ماجدة . فلما ذكر اسمها تذكرت للتو كيف كان ابن خالتي يتضايق منها عندما يأتي في زيارته السمجه لأنها كانت تقف قريبا مني وتشجعني على صده ورده وتجيبه أحيانا بنفسها وتسال أن يدعني وشأني. فيتضايق جدا ، ومن أجل هذا نقل لهم أنها بيت سري ، ومن هنا عرفت أنه ذهب وفسد علي . . فلما تلمحت ذلك في ذهني قلت للمقدم : -هذه لا بيت سري ولا شيء . . فقط مجرد واحدة جالسة بجانبي
ألا أتكلم معها أكثر من البعيدة عني خاصة وأنها كانت زميلتي في الجامعة؟ ثم ما هو السر الذي تتوقع أن أخبئه عنك ؟ فقال لي : لا أعرف وأنت التي ستقولين لي . قلت له : أنا ما عندي سر واذا بدك رجعني إلى السجن فأنا أحب إلى قلبي أن أجلس في السجن طول عمري ولا تتهمني تهمة ليس لها و جود . فقال لي : طيب أنت من يأتي لزيارتك ؟ قلت له : تأتي ابنة عمي - وكانوا يعلمون أنها تدرس الطب بدمشق وتأتي لزيارتي أحيانا - وأحيانا في السنة مرة تأتي عمتي أو عمي. فسالنى : فقط . . لا أحد اخر؟ قلت :لا. قال لي ساخرا : وهذا حسني . . ألم يحضر لزيارتك ؟ ولأن اللعبة لم تكن قد اتضحت لي تماما ولم أتبين نواياهم وقتها والدور الذي يؤديه كل منهم فقد أشفقت أن أذكر اسمه في زيارته الوحيدة لي فأضره ، لكنه لما ذكره أمامي قلت له : - أظن أنني نسيته لأنها المرة الوحيدة التي زارني فيها . فقال لي : طيب سأعطيك ورقة لتكتبي فيها من يأتي ليزورك بدون كذب . قلت له ؟ أنا لا أكذب

.إن شاء الله . فأشار إلى عنصر منهم وقال له: خذها إلى الغرفة الثانية . وهناك أعطاني العنصر ورقة وقلما قبل أن يرفع الغطاء عن عيني ويمضي . وبعد عشر دقائق كتبت خلالها نفس الكلام الذي قلته عاد العنصر ثانية فعصب لي عيني ثانية وقادني إلى المقدم الذي سألنى : -خلاص ما عندك أي شيء اخرتقولينه ؟ قلت له : لا. فقال له : خذها إلى المنفردة . ووجدت العنصر يجذبني من جديد وينزل بي الدرج مطمشة ومكلبشة إلى الطابق الأرضي ، وهناك عاد فأخرجني من المبنى وأركبني السيارة وجعلوا يلفون بي حول المبنى قبل أن يعيدونني إلى الباب نفسه وينزل بي إلى القبو هذه المرة بأربعين درجة !

ليلة عيد . . وقبرسعيد !

كان الدرج حجريا متآكلا من كثرة ما تعاقبت عليه الأرجل متقعرا من شدة ما وطأته الأقدام ! وعندما بلغنا أسفله أدخلوني أول الأمر على غرفة الإستعلامات ، وهناك أخذوا مني الساعة التي جاوز الوقت فيها منتصف الليل والمشط والنقود التي كانت معي ووضعوهم في ظرف كتبوا عليه اسمي والتهمة "إخوان مسلمين " . . بعدها أدخلني غرفة مكتب صغيرة وأجلسني على كرسي فيها وهم بالذهاب ، فقلت له : - ممكن أن أرفع الطماشة الان ؟ قال : لا . قلت له : لكنني عندما أضعها أصاب بضيق شديد في التنفس . قال : وما دخل الطماشة بنفسك ؟ قلت :ولو . . حالة نفسية . فلم يجبني وذهب . . وبعد قليل دخل عنصر اخر فسألته السؤال نفسه وقلت له السبب فقال لي : -بإمكانك أن تلحلحيها قليلا إذا أحسست بضيق النفس فعلا . كانت الساعة قد جاوزت الواحدة ليلا ، لكنني ورغم الإرهاق والتعب الشديدين فإن النوم جفاني ، وأعادني السهاد إلى أحاسيس أول أيام اعتقالي قبل خمس سنوات ، والتوتر والتوجس والخوف من المجهول عادت فبسطت أرديتها الكئيبة على قلبي الأن من جديد فأثقلته . كنت أحسهم أمام الغرفة يروحون ويغدون وهم يحيون ليلة العيد على طريقتهم مثلما أحيوا ليلة رأس السنة وقتذاك ، وأصداء ضحكاتهم الفاجرة وكلماتهم البذيئة تطرق أذني طوال الوقت . وكان السؤال لا يكف عن الدوران على محيط

رأسي : لماذا أحضروني وحدي وبعد كل هذه السنوات . . ولماذا لم يسألوني عن أي شيء جاد إلى الآن . . وماذا ينوون أن يفعلوا بي . . فلما طلع الصباح وبدأ يوم جديد من الحياة طلبت أن أذهب إلى الحمام فأخذوني إلى مرفق يستعمله العناصر أنفسهم ، لكنني وجدت بابه مرتفعا عن الأرض بمقدار شبر وهم يجلسون أمامه ، فخفت ولم أحس بالإرتياح وقلت له : - لم أعد أريد . وعدت إلى الكرسي نفسه وبقيت على نفس الحال إلى وقت العصر دون أن يعيرني أحد انتباها أو يسالنى سؤالا أو حتى يتذكرني بوجبة طعام . فلما كان العصر أتاني أحد العناصر وأخذني عبر الممرات المتعرجة إلى المنفردة التي خصصوها لي ، وفي الطريق إلى هناك وجدت مجموعة من السجناء أخرجوهم من المهجع بملابس خفيفة وقام عليهم طبيب وأظنه كان سجينا أيضا كان يفحص لهم دمهم ، ولا أدري ما الذي كان منتشرا فيهم من مرض أو فقر دم ، لكنهم وما أن دنوت منهم حتى انفجرت صيحة السجان فيهم : - وجهك إلى الجدار . . وفرقع الكرباج في نفس اللحظة التي التصقت فيها وجوههم بالجدار دون أن أقدر على استيعاب ما حدث . . وعندما وصلنا المنفردة وفتح السجان بابها الثقيل ساكته : - هل سأبقى هنا ؟ قال وعلى ناظريه ترتسم ملامح السخرية : - نعم . . هذه أحسن منفردة وأعلى درجات المنفردات . . إحمدي ربك أنك هنا ! قلت : ماذا ! أجابني : نعم . . هذه المنفردات جديدة كلها لم يجلس فيها أحد من قبل . . فاحمدي ربك وأدخلي. ورمى لي ببطانيتين رثتين ثم أغلق علي الباب الحديدي الثقيل ومضى . . وما أن فعل حتى أحسست نفسي أنني اختنقت . . متر ونصف بمتر ونصف من الأرض وحسب . . الجدران سميكه جدا . . والسقف منخفض إلى درجة أنني كنت أستطيع لمسه . . وفي وسطه فتحة للتهوية لكنها كانت عاطلة عندي وليس هناك أي فتحة غيرها أو شباك . . وبين الباب والجدار الذي يليه توجد طاقة عميقة في آخرها لمبة ضعيفة الضوء بيني وبينها طبقتان من الشبك فلا تكاد تنيرإلا نفسها ! فلما أغلق الباب أحسست أنه قبرني وذهب . . وشعرت أنني على بوابة الموت بالفعل . . ولم أعد أستطيع جذب النفس . . كانت لحظة صعبة جدا لم

أستطع تحملها ، ولم أعد أستطيع استيعاب ما يجري . . أو لماذا يفعلون بي كل هذا ! ومن تعبي ورعبي كأنما ارتخت أعصابي وخارت قوتي فما شعرت بنفسي إلا وباب المنفردة مفتوحا والدنيا ظلام جدا والعنصر واقف على الباب يلكزني بعصا يمسكها بطرف يده ويقول : - قومي . . قومي. فلما استجمعت نفسي وحاولت استرجاع الأحداث أدركت أن الليل قد حل وقد حضر وقت الخروج إلى الخط . . وقدرت أنني كأنما أغمي علي ، لكنني وعندما استيقظت ووجدته أمامي أحسمت كأنه عزرائيل . . ولم أعد أستطيع حتى أن أدرك حقيقة شعوري : هل أنا متضايقة . . زعلانة . . خائفة ؟ كله مع بعض ! لم أعد أحس لا بالزمان ولا بالمكان فلم تكن معي ساعة ولم أعد أعرف الليل من النهار . . فلما ناداني نهضت وأعصابي على أشد ما تكون توترا . . فلم أكن أعرف ما الذي يجري هنا ، ولا طبيعة هؤلاء العناصر . . وتبعته إلى الحمام حيث اقتادني فوجدته كبيرا جدا . . ووسخأ إلى أبعد الحدود ، لكنني تمالكت نفسي وغسلت وجهي وعدت . . فوجدته أحضر لي طعاما رددته بلا شهية ، فلم تكن لي نفس وقتذاك لتناول أي شيء ، فأدخلني ثانية وأقفل علي . . فلم أكد أبلغ الأرض وأنا أتلمس موضي كالعميان حتى انطلق عنين صاخب خلف الجدار عن يمين زنزانتي جعل بدني ينتفض كالملسوع ، لكنني سرعان ما أدركت أنه صوت جهاز التكييف المركزي الذي لم يلبث أن توقف بعد خمس دقائق كما بدأ فعم السكون المكان من جديد ، ثم عاد فانطلق بعنينه الهادر مرة أخرى فكأنما هو وحش سجين يشتكي عنت السجن مثلي ، وبقي الهدير على هذه الدورة المتناوبة يطرق أذني تارة بعد أخرى فكأنه في كل دورة له يخرز فيهما خرزا . . حتى بت لا أكاد أسمع إلا الطنين ، ووجدتني بذلك ومع عتمة الزنزانة وكأنما فقدت الحواس ، فعدت إلى ما يشبه الإغماء ، ولم أصح إلا صباح اليوم التالي على تكبيرات العيد !

تكبيرات العيد من زنزانة رياض الترك!

كانت التكبيرات تنطلق من جهاز راديو جلس جاري في الزنزانة المقابلة الزعيم الشيوعي المعارض رياض الترك يستمع إليه ضمن بعض الإستثناء ات التي نالها

في منفردته التي أمضى فيها أكثر من عشر سنين ! كان الممر الذي تقع فيه زنزانتي يضم أربع منفردات كل اثنتين منهما تقابلان الإثنتين الأ خريين ، فكانت زنزا نتي الأ ولى من اليسار ، ومجاورتي التي تليها فارغة ، وفي مقابلها كانت زنزانة رياض الترك ، بينما كانت الزنزانة التي في مقابل زنزانتي فارغة في البداية ثم أتوا بعدها بشاب وضعوه فيها ، ولم أره إلا مرة واحدة عندما كان باب زنزانتي مفتوحا للتنفس وأتوا بقصعة الطعام له فمد رأسه ليأخذه ، ولم أعلم أي شيء عنه إلا أنه كان يطلب الخروج للوضوء . وأما رياض الترك فكانت له بعض الميزات عن السجناء الآخرين ، فبين حين وآخر كانت تأتيه زيارات من الخارج ، كما سمحوا له بإحضار الراديو ، وبطهي بعض الطعام لنفسه ، وكثيرا ما كان العناصر يجلسون عنده ليطبخ لهم أو يأخذونه ليجلي لهم الصحون ! وبعد مدة جعل رياض الترك كلما طبخ طبخة سكب لي لقيمات منها ، لكنني لم أكن اكلها وأعيدها مع العنصر إليه . كذلك كان يرسل لي محارم وشايا وأشياء مشابهة . وفي إحدى المرات التي كان باب زنزانتي فيها مفتوحا رأيته وكأنما طلب من العنصر أن يراني فأذن له ، فذهب وعاد مرتين من أمامي استطعت خلالها أن ألمحه لمحا لكنه لم يقل أي شيء . . ولأنه كان صباح العيد فقد انطلقت التكبيرات من الراديو فصحوت عليها . . لكن البشريات التي يحملها العيد للناس انقلبت حسرات في قلبي وضيقا وكآبة ، ووجدتني أنخرط في البكاء دون إرادة مني . . الناس في الخارج تعيش بهجة العيد وكل هؤلاء الذين في السجن لا يحسون للعيد وجودا ولا معنى . . ولا يعرفون حتى الليل من النهار وما هي إلا برهة حتى فتح الباب علي ووجدت عنصرا اخر قصير القامة طويل الشاربين لا يبعث شكله على الإرتياح ابتدرني بالسؤال : -أنت ما اسمك ؟ قلت له : لماذا ؟ قال : أريد أن أعرف لأن واحدة كانت هنا تشبهك كثيرا . . ربما هي أنت ! هل سبق لك وأتيت إلى هنا ؟ قلت له : لا . وكانت رفيقتي ابتسام التي أحضروها إلى قطنا قبل شهور قليلة قد مرت على هذا السجن من قبل فرجحت أنه يقصدها ، ولما سألته عن اسمها تأكد ذلك ، فسالنى من جديد : - وما اسمك أنت ؟ قلت له وقد أحسست أنه يريد أن يتسلى بي

وحسب : - وماذا يلزمك اسمي ؟ إذا أردت فاذهب وانظر إليه عندكم . فلم يلبث وأن غاب قليلا ثم عاد ففتح الباب ثانية لأجد أمامي المقدم عمر مدير السجن الذي أحضرني وحوله عناصر بيد أحدهم طبق فيه برغل ، أدناه من الأرض فدفعه المقدم برجله نحوي وهو يقول لي : -وقفي على حيلك . قلت له :لا أستطيع . . فقال : ما اسمك ؟ أجبته : ألم تأخذه بالأمس ؟ قال : جاوبيني . . ما أوقحك . وجعل يشتمني ويصيح في ، فتملكني الغضب وصحت فيه : - هل لي أن أعرف لماذا وضعتموني هنا. قال : بكره بتعرفي من نفسك. قلت له :لكنني لم أفعل شيئا. قال ببرود : إن لم تفعلي شيئا غدا يخرجوك. قلت له راجية : قل لي فقط ما هي تهمتي . . وإلى متى سأبقى هنا . . كنت أحس أنني سأجن فعلا إذا بقيت هنا . . وجاء جوابه ليعمق في هذا الشعور . . فقال وهو يغلق الباب علي :ألا تعرفي حالك أنك مجرمة . ومضى ليكمل جولة التعييد على بقية السجناء في الوقت الذي أحسست أنني على حافة الإنهيار تماما ، ولم أجد من سلوى إلا أن أنفجر بالبكاء في عتمة هذا القبر الكئيب ، وأتجه إلى الله بقلبي أتطلع إلى فرجه الكريم . ولم تمض دقائق إلا والباب يطرق من جديد . . وأطل على عنصر اخر يقول لي هامسا : لا تخافي يا أختي فأنا مثل أخيك . . قولي لي . . كم تريدينني أن أفتح لك الباب ؟ قلت وأنا لا أكاد أصدق : لو كان اختياري لقلت طول الوقت . . فأنا على هذه الحالة لا أستطيع أن أتنفس ، والمكيف الذي يعن طوال اليوم بجانب رأسي لا يصلني من هوائه شيء . فقال لي : كرمال عينك راح أفتح لك الباب طول الليل ، لكن لو سألك أي أحد لا تقولي من فتحه . ثم أعطاني ليرة معدنية وقال لي : خذي هذه الليرة ، واذا احتجت أي شيء وقت دفعتي فلا تدقي إلا دقة واحدة بها على الباب أكون موجودا بعدها عندك ومضى هذا السجان الذي سأدعوه هنا (س) وترك باب الزنزا نة مفتوحا علي ، فكأنما هي طاقة فتحت بين رحمة الله وبيني ، وصار "س " يطل علي في كل نوباته فيفتح لي الباب ويسالنى عن احتياجاتي ، ولم يلبث أن جعل يحضر لي زجاجات حليب يوزعونها على العناصر فيضعها عند طرف الباب ويذهب ، فصرت لا أطلب شيئا من أحد غيره

أبدا ، وعندما يحين وقت نوبته أدق الدقة كما قال لي فيأتي وأخبره إن كنت أريد الحمام أو الطعام . . ولما أحسست بالفعل أنه ادمي وأمين رجوته مرة أن يحضر لي مشطا وقصاصة أظافر ، فسالنى : -ألا يوجد معك مشط ؟ قلت له :أخذوه مني . فقال لي قدمي كتابا للمقدم . فلما قدمت الكتاب وجدتهم يحضرون لي مشطا اخر كأنه من قذارته قد تمشط به كل المساجين قبلي . . ولكثرة الوسخ المحشو بين أسنانه لم أتمكن من تنظيفه بأي وسيلة . . فلما تقدمت بطلب اخرأتاني الجواب بالمنع ، لكن حوالي عشرة أيام كانت قد مضت علي وقتذاك وأنا لا أستطيع في هذا المكان الإغتسال أو حتى تمشيط شعري المغطى طوال الليل والنهار تحت الحجاب حتى خشيت أن أصالب بالقمل بالفعل ، فوجدتني أتجرأ وأسأل "س " عن الإغتسال وأرجوه أن يحضر لي مشطا وقصاصة أظافر معه ، فتأسف لي في البداية واعتذر بأن ذلك الطلب ممنوع ، لكنه ذهب بعدها وأحضر لي على مسؤوليته مشطا رجاليا صغيرا من عند رياض الترك وقراضة الأظافر التي طلبت ، وأحضر لي صابونة أيضا وشحاطة بلاستيك . . وحوالي الثانية ليلا وجدته يطرق علي الباب ويسالنى أن أتبعه إلى الحمام التي كانت في منتصف ممر طويل يحتوي كله على زنزانات ومهاجع متتالية ، فأحست وهو يأخذني والسكون يغمر المكان بالرهبة والرعب ، فلما بلغنا الحمام وجدت على بابه عنصرا اخر اسمه ياسين أمره "س " أن يجلس على الباب فيغلقه من الخارج ولا يترك أي إنسان يدخل إليه . ولما دخلت الباب الحديدي وجدت مجموعة مغاسل وتواليتات تليها مقاسم لثلاثة حمامات لها أبواب ولكنها مرفوعة عن الأرض أيضا . . فلما دخلت أحسست بقلبي أن هذا العنصر سيتبعني فلم أخلع ثيابي ، ولم ألبث وأن سمعت حسيس خطوات تتقدم نحوي ، فلما نظرت أسفل الباب رأيت حذاءه بالفعل ، ففتحت بسرعة وجريت خارج المكان كله إلى الممر وهو يناديني : -أين . . إلى أين ؟ قلت له وأنا أصيح : - أريد رئيس السجن حالا . . ماذا تفعل أنت هنا يا قليل الأدب . . فجعل يجري ورائي ويناديني لأرجع ويقول : - تعالي . . أنت الآن تخالفين نظام السجن . . قلت له وأنا أرفع صوتي أكثر وأتجه نحو زنزانتي : أحضر لي مدير السجن

حتى لا أخالف النظام فيه . وكأنما سمع "س " الصوت فحضر يسأل ماذا حدث ، فلما أخبرته صاح فيه بغضب : - بدل أن تحرسها كما قلت لك عملت هذا العمل يا حقير . . واتجه إلي يعتذر ويقول : - إمسحيها بذقني هذه المرة يا أختي وعودي فتحممي . . وأعادني من جديد فدخلت وأقفلت الباب من الداخل وبقيت قرابة الساعة لا أجرؤ أن أخلع ثيابي ، حتى إذا أحسست بالإطمئنان وتأكد لي أن لا أحد هناك فتحت الماء علي ، فلما انتهيت وخرجت وجدت ياسين هذا مكانه على الكرسي ، ورأيته ينظر إلي من جديد ويقول بكل وقاحة : - ألا تريدين رؤية هذا الوجه الحلو بالمراة . . إذا أردت أنا معي واحد ة . أجبته باحتقار: الله لا يعطيك العافية. ولم يكن أمامي إلا أن أعود إلى منفردتي تتعاقب علي الأيام من غير أن أدري سببا لوجودي هناك أو نهاية لحالي . وبعد حوالي عشرة أيام من وصولي وفي ظهيرة يوم اشتد فيه الحر في القبو وازدحمت الأ نفاس وأطبقت علينا رائحة العفونة مختلطة بالعرق وبالأنفاس حضر المقدم عمر فناداني ووضع الطماشة على عيني ثانية وكلبشني إلى الوراء وجعل يقودني بين المتاهات هناك فأحسست أنه خنقني ، فلما سألته أن يمنحني فرصة أتنفس فيها من غير هذه العصابة لأنني أكاد أختنق بالفعل قال لي : -حتى لو مت بحق فلن أرفعها لك . . هكذا يقول النظام ! ثم أخذني إلى رئيس الفرع كمال يوسف مرة ثانية معصوبة ومكبلة ، لكن ذاك لم يزد عن أن سالنى : -هل لديك شيء تقولينه ؟ قلت باستغراب : لا . . لماذا . فقال له من غيرأن يأبه لسؤالي : خذها . . وأعادوني إلى المنفردة كما جئت لأكمل فيها عشرين يوما لا أرى فيها الشمس ولا القمر . . ولا أعرف الليل من النهار ولا الصباح من المساء إلا من تبدل الحرس ومن صوت إذاعة لندن التي تبلغنى من زنزانة رياض الترك عصر كل يوم !

عسرويسر. .
وتظل رحمة الله أكبر وأوسع ، فما هي أيام حتى أرسل سبحانه إلي مجندا اخر في النوبة الثانية يؤدي خدمته العسكرية ، صار يعاملني بشكل جيد أيضا ويحضر لي أشياء خاصة ويسمح لي بالخروج إلى الحمام مرات أكثر لأغسل وأشرب . . وعندما أخبرته أن التكييف في

زنزانتي لا يعمل ذهب وأصلحه حتى اشتغل اخر الأمر ، وكان عندما أخرج إلى الحمام في نوبته يأتي بسجين اخر ليمسح لي المنفردة وينظفها وينفض لي البطانيات ويرتب الزنزانة لي قدرالمستطاع . لكن هذه النماذج كانت الإستثناء في هذا المكان الظالم أهله ، وكان سوء الخلق وانعدام المروءة والكرامة والأدب هو الأصل الأصيل . . فالعناصر دائما يحملون عصيا أو خيزرانات أو كابلات ، وكان المقدم عمر يحمل كلبشات وطماشات باستمرار ، لكنني لم أكن أسمع أصوات تعذيب هناك لأن غرفة التحقيق كانت كما يبدو بعيدة . وفي إحدىالمرات جاءني عنصر من هؤلاء ببقايا صندويتشة فلافل أكل أكثرهاوأبقى الجزء الأخيرلي . . فجاءيقول لي : - ألست جائعة ؟ قلت : لا . . لكن وقبل أن تسالمني هذا السؤال أريد أن أسألك أنا إلى متى سأبقى أنا جالسة هنا؟ قال : والله لا أعرف . . هذه ليست شغلتنا . قلت له : طيب . . حسبي الله . لكنه بدل أن ينصرف تقدم فجلس القرفصاء أمامي وهو يرتدي جلابية بيضاء رقيقة تكشف مظهره المقرف وقال لي : - هل تحبين أن تخرجي إذا أراد أحد أن يخرجك ؟ قلت له : لا . قال : عجيب . . لم أرأحدا يحب قعدة السجن غيرك . قلت له : الحمدلله . قال : لكن والله أنا مستغرب . . لماذا أحضروك إلى هنا بعد خمس سنوات من اعتقالك . . ألم تعرفي السبب ؟ قلت له : لا ،لم أعرف ، هكذا كتب الله . فقال لي : طيب إذا أخرجوك الآن . . أنت والله مثل أختي وأنا أعيش لوحدي عسكري . . وأنت تعرفي حياة العسكري . . مستأجر غرفتين بالمهاجرين ، أعطيك غرفة لك وأنام أنا في الغرفة الأخرى . قلت له أنتهره وقد بدا لي أنه يتمادى : وما هي المناسبة؟ قال : حسبما دريت أنه لا أحد لك . قلت له : ومن قال لك ؟ قال : أهلك قتلوا بأحداث حماة . قلت له : وإذا لم يكن للواحد أهل أما له الله ؟ أنا لي الله . . فقال لي وكأنما التأم مني لأني لا أسايره : يعني ما بتحبي تطلعي . قلت له : لا . فخرج وأغلق باب المنفردة علي وجعل يلعب بزر الضوء الذي ينير الكوة في زنزانتي حتى أحرقه ، فأحسست أن في نيته أن يطفئ الضوء علي ليدخل في العتمة . ووقتها كانوا قد أعطوني وجبة الطعام في طبق من بلاستيك ميلامين ثقيل الوزن ، فأفرغت

الطعام منه وحملته بيدي وصحت : -من هناك . فلم يرد . . وما وجدته إلا وهو يفتح باب المنفردة ببطء ويحاول الإنسلال للداخل . . فطبقته بوجهه بقوة وصحت له : - والله العظيم إذا لم تترك الباب فسأجمع عليك العناصر الموجودة . قال بخبث : ولماذا ؟ أنا أريد أن أدخل وأصلح لك الضوء . قلت له : وما الذي أدراك أن الضوء عندي احترق ؟ بقيت تلعب به حتى حرقته يا سفيه ! وصرت أنادي على "س " وظللت أصيح وأصرخ وأطرق بالصحن الذي بيدي على الباب حتى حضر وعدد اخر من العناصر يسألونني ماذا حدث . . قلت : - هذا الحقير ظل يلعب بالضوء حتى حرقه وقال يريد أن يدخل بعدها في العتمة ليرى ما حدث . فأخذوه عني وهم لا يكتمون شتائمهم له ، لكنهم ذهبوا في نفس الوقت إلى الزنزا نة المقابلة وأخذوا اللمبة منها فركبوها لي ، وتركوا ذاك السجين المسكين هناك في الظلام !

وساطة فاشلة

وفي نفس ذلك اليوم كانوا قد أخرجوا كل بطانيات الفرع ليعقمونها لا أدري أين ثم أعادوها إلى الممر ليوزعونها على السجناء من جديد ، فجاءني أحد العناصر المناوبة وقال لي : - سأخرجك الان لتختاري البطانيات التي تريدينها . وبعد أن أخذتها وعدت لحق بي وناداني : -أريد أن أقول لك شيئا . . إن شاء الله ستخرجي قريبا لأنهم لا يأتون بأحد هنا إلا إذا كان على وشك الخروج ، وأنت حسبما علمت أتتك واسطة وسيفرجون عنك .
قلت له :إن شاء الله . قال : لكن لا تقولي لأحد لإنهم إذا دروا أنني أخبرتك والله بيخربوا بيتى . قلت له : الله يجزيك الخير . فلما انصرف وانتهت نوبته وحل الصباح حضر عنصر اخر كبير الشاربين جاحظ العينين قصير القامة اعتدت مشاهدته بين حين وآخر بين بقية العناصر فأنفر من مرآه ، ووجدته ومن غير استئذان ولا إعلام يفتح الباب علي ويسالني : - لماذا تبكين ؟ قلت وقد أربكتني المفاجأة : - ماذا ؟ أنا لا أبكي . . ثم كيف تفتح علي الباب من غيرأن تعطيني خبرا بذلك ! قال : كنت مارا من هنا فأردت أن أرى إن كان أحد قد ضايقك !
أجبت : لا شكرا ، ولو سمحت أغلق الباب فأنا لا أريد رؤية أحد . فقال وهو يدنو مني خطوة بعد خطوة : - لا

والله أنا حابب أطمئن عليك . . والله أنا قلبي مشغول عليك . . كنت جالسة وقتها في زاوية الزنزانة متكومة على نفسي ، فلما أحسست بنيته العاطلة نهضت بسرعة أريد أن أقفل الباب ، لكنه أمسك بيدي يريد أن يتمادى ، فاستجمعت نفسي ودفعته وأطبقت الباب في وجهه وأنا أصيح : -إذا لم تخرج فسأجمع عليك أهل السجن جميعا . . فانصرف لبرهة لم تكن كافية حتى لالتقاط أنفاسي ، ولم يلبث أن عاد يقول لي : - هيا جهزي نفسك والبسي . . هذا آخر يوم لك هنا . . سيفرجون اليوم عنك . فجمعت ما لدي من أغراض وكنت بطبيعة الحال لا أملك إلا الملابس التي علي ، ولما خطوت خارج الزنزانة لم أجده إلا خلفي بين الجدار وبيني يحاول أن يحيط رأسي بذراعيه ، فانتفضت برعب وغضب ودفعته عني بقوة وركضت إلى الأمام وأنا أشتمه وأحقره وهو لا يبالي يقول لي ببلاهة : - والله كنت حابب أشرب معاك كاسة شاي . . والله لهلقا سخنة إذا بتحبي . فلما دنونا من أحد الأ بواب دفعني إلى الداخل ومضى ، وهناك وجدت عنصرا اخر برتبة مساعد اسمه جلال أجلسني وقال لي : - هناك واسطة أتتك من التحقيق العسكري للإفراج عنك لكن فرع أمن الدولة الذي اعتقلك مانع . . ولذلك فسوف نعيدك الان إلى قطنا. ومن غير أن أجيب بكلمة واحدة نادى عنصرا آخر أعادنى إلى الغرفة الأولى التي وضعوني فيها أول ما وصلت القبو . . وبقيت هناك من الظهر إلى قرابة العاشرة أو الحادية عشرة ليلا ، أخرجوني اخر الأمر فسلموني أماناتي وأركبوني السيارة إلى قطنا . . والذي يبدو أنهم كانوا ينوون الإفراج عني بالفعل ضمن مخططهم ، فلما أحسوا أنه سيفشل ألغوا الفكرة وأعادوني من حيث أتيت.

إشاعات المغرضين

عدت إلى قطنا كما جئت بسيارة تنهب الأرض نهبا في ظلمة الليل وتكاد تفترس العابرين في جريانها الأرعن ، فلما وصلنا وسلموني للشرطة هناك أحست رفيقاتي بوصولي فعلا صراخهن وارتفعت زغاريدهن وتسلقن الشبابيك والأ بواب مقفلة عليهن - كالعصافير يتقافزن فوق بعضهن البعض ، ولم يهدأن حتى هددهن الشرطي

بأخذي إلى مكان اخر إن لم يستجيبوا ، فنزلن يتطلعن إلي بشوق ومحبة ، فلما أدخلني السور صرن يناديننى من كلا المهجعين : - تعالي هنا . . تعالي إلينا . . وأخذن في كل مهجع يسألن الشرطي أن يفتح لهن أولا ليستقبلنني ، فلم يجد إلا أن يفتح المهجعين اخر الأمر معا ، وتركنا نجتمع ليلتها في واحد من اللقاء ات الجميلة التي لا أنساها أبدا . . ولا أزال أذكر كيف اندفع معقل وسمية نحوي وركضا مع البنات لاستقبالي وقد أخذا حفاضتيهما ووضعاها على رأسيهما مثلما فعلت البنات بحجاباتهن وركضا يستقبلانني بالأحضان والقبلات ! ولم ينغص علي فرحة اللقاء إلا ما سمعته من أن أميرة زركلي والسجانة أم جميل التي كانت دائبة الإساءة لنا قد أشاعتا بعد مغادرتي بأنني أدنت بالإتصال مع الإخوان من داخل السجن وبتلقي رسائل ونقودا منهم . . ولذلك كانت البنات في غاية القلق علي طوال هذه المدة ، ولم يصدقن أنني سأعود إليهن من جديد . . لكنني عدت بمشيئة الله .

البقره الزرقاء !

عدت إلى قطنا حيث تخف المعاناة مقارنة بالسجن الذي أتيت منه ولكنها لا تنتهي . . ولم يجدد من رتابة حياتنا المملة إلا حدث الإفراج عن دفعة أخرى من السجينات كن أم معقل وأم هيثم وأم عبد الباسط وابنتها عائدة . . ثم لم تلبث وأن لحقت بهن أم خالد وأم زهير بعد عدة أشهر . . وكان الإفراج عنهن جميعا بنفس الطريقة والترتيب ، فقد قرأوا أسماءهن عند الصباح وأعطوهن فرصة ليجمعن حاجياتهن ، ثم أخذوهن إلى التحقيق العسكري ليفرج عنهن من هناك . . وكان منظرا مؤثرا بالفعل خروج معقل الذي ولد في المعتقل وشب وترعرع فيه حتى قارب من العمر خمس سنين ! ولا أزال أذكر حين غادر حدود السجن لأول مرة عندما أخرجه أخي غسان في إحدى زياراته بإذن من مدير السجن ، فلما عاد جعل يحكي لأمه مشاهداته الأولى في عالم الإنسان الطبيعى ويقول لها بانفعال : " - ماما . . ماما . . أنا رأيت واحدا يمشي على أربع أرجل . . فلما سألت أخي عما يعنيه قال لي ضاحكا : لقد رأى الحمار ! وقال لي أنه وضع رجله على الأرض ليمشي فتحركت

حجرة تحت رجله فغشي في البكاء ! وعندما أراد مدير السجن أن يحرك دراجته النارية خاف واضطرب والتصق بأخى كأنما يستغيث به ! - وفي المرة الثانية وعندما بلغ ثلاث سنوات أرسلوه إلى الضيعة عند بيت جده حتى يتأقلم قليلا مع الناس ويرى إخوته ، لكنهم ومن كثرة ما رأوا منه لم يصدقوا كيف أعادوه ! ولقد روت جدته أنه كان يتناول الأحجار فيرمي بها إخوته ويشج رؤوسهم وهو لا يدرك أن الحجارة يمكن أن تؤذي ! ولما ساكناه عم رأى هناك قال : -رأيت بقرة زرقاء بتبش حليب ! وفهمنا بعد الشرح والإستقصاء أنه شاهد كيف تحلب البقرة فظنها تبول حليبا ، ولعدم معرفته بالألوان ظنها زرقاء ! ومثلما كان وداع معقل مؤثرا فقد كان استقباله بعد بضعة أشهر حينيما أتى في زيارة مع والدته مؤثرا أيضا . . فلقد تجمعت البنات حوله ينتظرن أن يسمعن منه كلمته الأثيرة "طظ أسد . . " لكن أمه بادرت وسألته لتسمعنا الفارق وترينا أثر الحرية عليه : قل لهم حبيبي ماذا تعلمت في المدرسة . فجعل مقبل الذي أنفق سنوات عمره الخمس الأولى وراء القضبان بسبب هذا النظام الظالم يسمعنا أغنيات المديح والتمجيد للثورة وللقائد الأسد ! ولقد روت لنا أمه أنها لما أخبرته عن زيارتنا أخذ يبكي . . فلما سألته عن السبب قال لها : الان أبو مصطفى يدخلني المهجع ويقفل علي . ولم يدخل مقبل علينا إلا بثق الأنفس رغم تطمينات أمه وأبي مصطفى نفسه ، وعندما صار بيننا جعل وقد ذاق بعض معاني الحرية في الخارج يوزع علينا نظرات التحسر والأسف ، ولا يكف عن مراقبة الباب خشية أن يغلق عليه من جديد !

الفصل الخامس
سجن دوما
معركة مع الزمن
نوفمبر 1985أكتوبر 1989

سجن دوما ، معركة مع الزمن
مرت أسابيع أخر ونحن في قطنا نمضغ الأيام ونزدرد الأسى . . ونحس كلما تطاول العهد وتباعد الزمان أنها رحلة إلى النهاية ليس عنها من فكاك ! وبرغم الأنباء

التي كانت بدأت تتسرب إلينا من قبل عن نية نقلنا إلى سجن آخر . . ورغم إشارات من بعض مسئولي السجن لنا بتخفيف الأغراض والإستعداد لرحيل قريب ، إلا أننا وكأننا ألغينا كلمات الإفراج والخلاص وحتى الإنتقال من قواميسنا . . وبتنا نعيش يومنا وحسب في هذا القمقم الذي ضاق حتى بالأنفاس ! لكننا وفي صباح تشريني بارد وجدنا مدير السجن ومجموعة من الشرطة معه يدخلون من غير مقدمات علينا ويقولون لنا جهزوا أنفسكن للنقل صباح الغد ! كان السؤال الأول الذي قفز إلى أذهاننا : إلى أين ؟ فلما بلغنا الجواب : إلى سجن دوما المدني حضر بداهة إلينا السؤال التالي : لماذا ؟ وكانت الإجابة حينها بأن السجن هنا ضاق بنزيلاته ، وأن الحكومة انتهت من بناء سجن جديد في "عدرا" فنقلوا سجناء دوما إليه لينقلونا إلى هناك ويحولوا قطنا إلى مجرد مخفر . لكن إشاعة سرت وقتذاك - ولكنني لم أدر بها إلا بعد الإفراج عنا روجت بأن النقل كان بسببي أنا ! وأن أخبارا تسربت عن اعتزام اخوتي القدوم واختطافي من السجن ، وأن زوجة أخي غسان علمت بذلك وأخبرتهم فقاموا بنقلنا بناء على ذلك إ! ولم أفاجأ حينما سمعت القصة حينها لأنني كنت قد وجدت من زوجة أخي ما يؤكد تعاملها مع المخابرات . . مثلما وجدت عددا غيرها من الأقارب وأبناء البلد تحولوا إلى صف النظام وجندوا أنفسهم جواسيس لديه طمعا بمكاسب رخيصة ينالونها أو خوفا من مشاكل ومتاعب قد يواجهونها إ! وعلى كل حال تم الإشعار بالنقل ، ووجدتنا نهرع لنلملم ما تكدس لدينا من متاع وحاجيات . . وفي صباح اليوم التالي انتشر الحرس على الأسطحة وتوزعوا على المداخل والأ بواب . . وتقدمت شاحنة كبيرة في البداية لنقل الأمتعة والأكياس وغالونات الكاز التي كنا قد اشتريناها لنملأ بها وقود الحمام . . حتى إذا امتلأت الشاحنة وكادت أن تفيض تحركت باتجاه منزلنا الجديد ، أخرجونا بعدها اثنتين اثنتين فكبلونا وأصعدونا واحدا من باصات النقل الداخلي ، وصعدت مجموعة من الشرطة المسلحين فجلسوا عند البابين الأمامي والخلفي ، ومضوا بنا قرابة العشرين سجينة نحو دوما من طريق خارج المدينة ، تتقدمنا سيارة شرطة وتتبعنا اثنتان أخريان للحماية

والحراسة . . وزاد من كآبة الحال الغيوم الداكنة التي كست السماء يومها فحجبت الشمس وأحالت الدنيا من حولنا كئيبة مظلمة . . وعندما وصلنا اخر الأمر كنا متعبين جدا وجائعين وقلقين . . ووجدناهم وقد ألقوا أمتعتنا في ساحة السجن فاختلط منها وتداخل قدر ما تكسر أو فقد ! وكان أكثر السرقات وضوحا جالونات الوقود التي كانت عزيزة علينا لأننا لم نحصل عليهم إلا بشق الأنفس . . وعندما طالبنا الشرطة بها نفوا مسؤوليتهم عنها وتلعثموا في الإجابة . . ووعد بعضهم بالمساعدة في استرجاع بعض منها ولكن شيئا لم يرجع . . ووجدتنا من ثم نقاد إلى منزلنا الجديد ، فأعطونا مهجعين للسياسيات دب الخلاف كالعادة حول التوزع عليهما وتقاسم الأماكن فيهما رغم أن ذلك تقرر من إدارة السجن قبل أن نحضر !

إضراب جديد

كان سجن دوما أشبه ما يكون في بنائه بالبيوت العربية القديمة . . فالجدران الحجرية وبركة الماء في منتصف الباحة تحيطها أحواض الزراعة من كل جوانبها . . وطريقة بناء الغرف نفسها كلها تقول ذلك . . وعدا عن مطبخ وحمام وغرفة طبابة وأخرى لبيع الحاجيات الرئيسية كنا نسميها ندوة السجن . . واضافة إلى ثلاث غرف صغيرة كانت تستعمل كزنزانات منفردة ، كانت ثمة ست مهاجع رئيسيه : الأول من اليمين لمتهمات الدعارة ، والثاني بعده للقتل ، والأول من اليسار للحشيش ، تليه غرفة القتل والسرقة ، وبينهما غرفة كانت لمحو الأمية ثم ألغي هذا البرنامج فتحولت إلى غرفة عامة . وفي صدارة البناء كان مهجعا السجينات السياسيات وجدت مكاني في المهجع الأيسر منهما ، وهو بناء طويل وضيق بعض الشيء ، ترتفع فيه مصطبتان عن اليمين والشمال تتوزع الفرش فوقهما بانتظام ، وبينهما ممر على ضفتيه خزائن صغيرة تحت المصطبتين خصصت لاستيعاب حاجيات كل شخص من النزيلات .

مخبرة كل العهود !

كان ثمة مفاجأة تنتظرنا في دوما ، ففي أواخر أيام قطنا تم نقل المقدم موفق السمان بسبب تقرير مغرض اتهمه بالتعاون مع الإخوان ! فلما وصلنا دوما وجدنا الشخص نفسه هناك ، لكن استئناسنا لم يطل ، واستبشارنا انحل مكانه ، فالمقدم مدير السجن الذي يليه وهو درزي من عائلة السبع أذاقنا السم بالفعل ! فلم يمض الأسبوع الأول على وصولنا حتى أصدرمجموعة قرارات صارمة حرمتنا من كثير من الحقوق المهمة التي اكتسبناها من قبل . . ففي البداية وبينما كنا خارج مهاجعنا وقت التنفس حضر المقدم السبع وأمرنا أن نخرج إلى الساحة كل ما لدينا من مواقد غاز لأنها ممنوعة ، ولأننا لا نستطيع إلا الإمتثال فقد أخرجنا ما طلب ولكننا رفضنا دخول المهاجع احتجاجا على القرار . . وبعد مداولات لم تطل سمح لنا بإعادة المواقد ، لكنه وبعد أيام قليلة قام أثناء وجودنا في المهجع بجولة تفتيشية مفاجئة صادر عناصر الشرطة خلالها مواقدنا وكل الأدوات المعدنية والزجاجية التي لدينا بعدما أحكموا إقفال الأ بواب علينا ير لا نعاود الإعتصام في الخارج . . فلم نجد بدا إلا أن نرسل كتابا من خلال إحدى السجانات لرئيس السجن المقدم موفق السمان نخبره بالأمر . . فتدخل المقدم وأعاد لنا الأغراض . . لكن المقدم السبع لم يتوقف عن مساعيه في التضييق علينا . . ووجد في أميرة زركلي - مخبرة كل العهود خير معين له على نبش أسرارنا ورصد تحركاتنا ، وما هي إلا أيام حتى فاجأنا بقرار أقسى وأغرب ، فأمر بمنع الزيارات عن اللاتي لم تصدر أحكام بحقهن من "المحكمة الميدانية" . . وكانت أكثرية السجينات واقع الحال تجهلن أحكامهن رغم مرورهن على المحكمة التي اعتبرت أحكامها سرية ! وسرعان ما سرت فينا روح المقاومة من جديد ، وقررنا بالإتفاق أن تبدأ المتضررات إضرابا عن الطعام حتى يتراجع عن هذا القرار ، فبلغ عدد المضربات حوالي العشرين كن جميعا من المسجلات تحت اسم الإخوان هذه المرة ، لأن الزيارات لم تمنع عن الشيوعيات بالأصل رغم أنهن لم تكن محكومات . . وأما نحن اللاتي نعلم أحكامنا فلم نشاركهن الإضراب بالإتفاق فيما بيننا حتى لا يمنع زياراتنا أيضا ويقفل الباب الذي كنا نتصل نحن وهن

جميعا بأهالينا عبره . . لكنه رغم ذلك أصدر أمرا بمنعنا من الإقتراب من الشباك أثناء الزيارات حتى لا نوصل الخبر للخارج . . واستمر الإضراب واحدا أو إثنين وعشرين يوما كادت المضربات في أواخرها أن يمتن بالفعل . . وصرنا حينها نحملهن إلى الحمام حملا ونغير لهن ثيابهن وننظف أماكن نومهن وقد فقدن كل مقدرة على الحركة والتنقل . . فتعبنا كما لو كنا مضربات معهن تماما ، خاصة وأننا كنا نأكل أقل القليل وبالسر احتراما لشعورهن . . وصارت منهن من يرتفع ضغطها أو تأتيها حركات عصبية . . فأحضروا طبيب الفرع المخصص للشرطة والضباط بالطبع للكشف الدوري عليهن ، فكنا نحملهن إليه في البطانيات حملا كأنهن قتيلات !

سم ودم!

لم ينقض شهر على ممارسات المقدم السبع الذي لم يكترث بما حصل حتى صدرقرار مفاجىء لم ندر سببا له يقضي بنقله ،لكن فرحتنا لم تتم ومأساتنا معه لم تنته ، فلقد أحضروا مكانه مقدما اسماعيليا من السلمية اسمه عماد لم يكن أقل لؤما منه . . وكان عماد هذا إذا التأم انقلب وجهه إلى لونين : أصفر كالسم وأحمر كالدم ! لكننا وقد فاض بنا الكيل وما عاد لدينا جلد على احتمال الظلم قررنا التصدي له أيضا ، ويبدو أنه بطياشته وعنجهيته أراد أن يخضعنا بالطريقة التي اعتادها وأمثاله مع السجينات القضائيات ، فأقبل علينا صباح أحد الأيام وأراد أن يضرب إحدى السجينات من بيننا لتمتثل لأوامره ، فما كان منها إلا أن ردت عليه بصفعه على وجهه جعلته يرتد مبهونا وقد تهاوى انتفاخه الزائف . . وصار يهددها بالجزاء وبالعقوبات ، فقمنا كلنا عليه نقول له إن هذا ليس بحقك ولا بصلاحياتك . . وهذا القرار بمنع الزيارات كله من عندك . . وعندما أسقط من يده وأحس خطورة ما يجري وقد شارفت بعض المضربات على الموت بالفعل وعد أن يكتب إلى إدارة المخابرات ليطلب الأحكام ويتحقق من وضعنا ، لكن الأهالي كانوا أسرع بالإتصال معهم والحصول على أذونات بالزيارة ، فأنهت المضربات إضرا بهن ، وخفت الضغوط والقيود بعض الشيء وإن لم تنته ، ولكنه

استمر يضايقنا أيام الزيارات ولا يسمح للأهالي بالدخول إلا بعد أن تدنو الساعة من الثانية أو الثالثة . . ولقد حدثتنا أم ماجدة فيما بعد أنها كم وكم قبلت الأرض على باب السجن تقول له أو لمسؤول الزيارات : دعني أقبل رجلك وأدخل هذه الأغراض لابنتي فقط . . فيرفض . . فإذا أسقط في يدها كتبت ورقة صغيرة تطمئن ابنتها فيها ببضع كلمات وترجوه أن يوصلها لها ، فكان يأخذها ويمزقها أمامها ويطؤها بقدميه أمامها دونما رحمة !

من السياسة إلى الى الاقتصاد !

كانت فاتحة الوافدات الجدد علينا في دوما فتاة فلسطينية الأصل في الثلاثينات من عمرها اسمها جميلة البطش ، كانت تدرس في سوريا واتهمت مع مجموعة من تنظيم شيوعي بتفجير الفندق السياحي بحلب وإحدى السفارات بدمشق وبأشياء أخرى . وكان قد ألقي القبض عليها عام 79 وحكمتها محكمة أمن الدولة العليا بالسجن المؤبد . . وبعد أن أمضت قرابة السبع سنوات في سجن المسلمية بحلب نقلت إلى دوما مع بداية انتقالنا عام 86 ولم تخرج إلا بعدنا بسنتين . . وبرغم مشاركتها السجن معنا لأكثر من سنتين إلا أنها كانت تميل إلى العزلة ولا تختلط حتى مع الشيوعيات الأخريات . . وبعد جميلة بأسابيع أحضروا طالبة أدب فرنسي من دمشق اسمها هلال معتقلة بتهمة تخريب الإقتصاد ! فقد كان أبوها كبير صرافي دمشق ولوحق أثناء التضييق على الصرافين فهرب خارج سوريا . . ولم يلبث بعد فترة وأن أرسل سبعة ملايين ليرة ونصف من الأردن وطلب من ابنته أن تعطيها لصراف اخر في دمشق . . فلما ذهبت إلى البيت المطلوب تصادف ذلك مع قيام الإخوان بتوزيع منشورات في المنطقة فظنوها واحدة منهم ، فلما فتشوا سيارتها ووجدوا هذا المبلغ الكبير نسوا الإخوان والمنشورات وأخذوا النقود والسيارة . . ولم يعيدوا لها من ذلك شيئا حتى بعد الإفراج عنها بعد ثلاث سنوات !

رهينة الجبناء !

وتتالت الأيام وحلت علينا ضيفة جديدة هي عزيزة جلود زوجة النقيب إبراهيم اليوسف . . وكانت عزيزة قد

اعتقلت أول مرة بعد حادثه المدفعية نالت فيها أشد العذاب ، ثم أفرجوا عنها لتكون طعما يمكنهم من اصطياد زوجها ، فلما لم يصلوا إلى شيء من خلالها أعادوا اعتقالها ثانية فوجدوها حاملا ، فقالوا لها إذا فأنت تعرفين مكان زوجك وتقابلينه ، وكان عمر حميدة يضربها على بطنها وينادي كالممسوس على الجنين يقول له :إنزل . . إنزل واشهد اللهم إني بعثي ! لكن الله حفظ لها الطفل وعادوا فأفرجوا عنها بعد أن سجنوها في ثكنة هنانو وعذبوها هناك أيضا . . وعندما خرجت وضعت مولودها اسماعيل قبل أن يعتقلوها للمرة الأخيرة واسماعيل معها في شهره الأول أو الثاني ، وبقيا معا في المنفردة بسجن المسلمية أربع سنوات . . وهناك ، وعلاوة على معاناة السجن المرة فقد مرت عزيزة بظرف رهيب جعلها تعيش كابوسا مرعبا لا مثيل له ، فخلال تلك الفترة حدثت عملية تمرد قام بها بعض السجناء . . فاعتصموا في مهجعهم احتجاجا على التعذيب والإرهاب وسوء المعاملة وأحرقوا فرشهم ورفضوا الإنصياع لأوامر المخابرات بإخلاء المكان . وقتها ظن أولاء أن مجموعة من المسلحين تسللت إلى داخل السجن وقامت بالتمرد فما عادوا يجرؤون على الإقتراب . . فبادروا بخستهم إلى جذب عزيزة من زنزانتها وقدموها كرهينة وصاروا يساوموا الشباب عليها : إذا لم تسلموا أنفسكم فسنقتلها . . فعاشت المسكينة على أعصابها يومين من الرعب كاملين . . أتوا خلالها بقناص قتل المعتصمين أمام عينيها واحدا بعد الآخر حتى أنهوا الموضوع ! وعندما نقلوها من بعد إلى دمشق تمكن أهلها من أخذ إسماعيل معهم ليعيش مع إخوته في بيت والدها طوال الفترة القادمة ، حيث ظل أهل أبيهم كلهم في السجن ! وقد مكثت عزيزة في سجن التحقيق العسكري ثمانية أشهر ثم نقلوها إلى دوما والتقينا معها هناك لنبقى معا حتى الإفراج عنا . . ورغم أنهم تلوا اسمها مع قائمة الذين شملهم العفو فقد نقلوها إلى سجن المسلمية من جديد واحتفظوا بها هناك لمدة سنتين إضافيتين في زنزانة منفردة سيئة جدا تحوطها معاملة أسوأ . . فلم يسمحوا لها في البداية برؤية أحد أبدا من أهلها حتى أصيبت المسكينة بانهيار عصبي . . وبعد فترة طويلة سمحوا

لأبنائها فقط بزيارتها وظل الحظر على بقية الأهل قائما . . وكانت عزيزة في قلق دائم على أولادها خاصة بعد تهديدات العميد حسن خليك رئيس اللجنة التي قابلتنا قبل الإفراج ، والذي قال لها بلسان ينفث الحقد والمقت : - ثأر الذين قتلهم زوجك المجرم ما نسى واهل القتلى نار قلوبهم تخمد . . وهم مستعدون في أية لحظة لكي يأخذوا به . . وأضاف يقول لها : أنت يجب ألا تعيشي قريبا من أولادك . . لازم تبقي بعيدا عنهم حتى لا تشربينهم الحقد والإجرام ! ولذلك كانت المسكينة في خوف دائم عليهم من نقمة العلويين وهاجس مستمر أين ستخفيهم . . ولقد سلم الله لها إياهم وأتى اسماعيل فزارنا في دوما مع جده في العيد وقد بلغ سبع أو ثماني سنين ، وكان ما شاء الله ذكيا جدا . . وعندما أدخلناه ووضعنا لهم إفطارا وأردت أن أضع له عيدية بجيبه نظرإلي دامع العينين وقال : - نحن في الخارج نستطيع أن نأتي بنقود ، ولكنكم لا تستطيعون وأنتم هنا أن تأتوا بثيء ! وأقسم ألا يأخذها أبدا إ!

مع الشيوعيات . . في فراش واحد !

كان عدد نزيلات مهجعنا قد وصل إلى قرابة الأربعة والعشرين حينما أصبحنا ذات يوم وحوالي 14 معتقلة من الشيوعيات على الباب . . ومدير السجن يأمرنا أن نستوعبهن معنا . . وأن تقتسم كل سجينة من الإخوان الفراش مع أخرى شيوعية ! . كانت القادمات قد اعتقلن دفعة واحدة بعد انكشاف تنظيمهن وتورطه بالعمل المسلح ضد النظام . . وروت القادمات أنهن أتين من التحقيق العسكري بعد أن ذاقوا هناك العذاب الشديد شبابا وبنات معا ، وروين أن الكثير من المعتقلين معهن أصيبوا بالشلل النصفي نتيجة تعذيبهم على الكرسي الذي يتسبب بعد طي الإنسان بداخله في كسر عموده الفقري . وعلى الرغم من تعاطفنا مع كل سجين وترحيبنا بكل قادم بغض النظر عن اتجاهه أو تنظيمه إلا أن التعايش مع الشيوعيات وقد قارب عددهن الثلاثين وصل إلى نقطة الإستحالة ! فأكثرهن لم يكن ابتداء متعاونات ولا يتورعن عن إظهار العداوة وعدم الإحترام . . ولم يكن يبالين بالطهارة والنجاسة مثلنا ، ولا يعتنين بالنظافة مثلما نفعل ، وكنا حينما نستيقظ

لنصلي في الليل لا نستطيع ذلك إلا إذا طوينا فرشتنا وفرشة التي بجانبنا حتى يتسع المكان للإثنتين معا ، فصار ذلك غاية في الصعوبة وهن معنا على فراش واحد ! ولقد حاولنا تحملهن في الليالي الأولى فأعطينا إحداهن فراشا وبت أنا وماجدة في الفراش الاخر ، لكننا وبمرور الأيام لم نعد نحتمل ، وخاصة أن منهن شديدات الوساخة تفوح الرائحة السيئة منهن أنى التفتن أو تقلبن! فاتفقنا معهن اخر الأمر أن نعطيهن قسما من المهجع يتقاسمنه فيما بينهن ونجتمع نحن على بعضنا في القسم الاخر . . فوافقن على ذلك وسررن له جدا، لكن المشاكل كانت تندلى كل مساء حول الأمكنة والفرش التي تأخذ مكان فرش أخرى . . وكنت أنا وماجدة ننتظر إلى الأخير حتى تستقر الأمور وننال ولو جزءا من المكان ننام عليه ، وكثيرا ما كانت المشاكل تتصاعد فتقلب هذه فراش تلك أو ترمي لها أغراضها . . حتى تتدخل الشرطة ولا تنتهي المشكلة برغم ذلك !

(الخلية)!

واستمتعت الشيوعيات بالوضع الجديد ، وصرن يعقدن في هذه المنطقة اجتماعهن الذي يسمينه "الخلية" . . حتى أقلقونا أيامها وصرعونا بماركس ولينين . . وأذكر أنني كنت مريضة مرة بحمى التيفوئيد وتصادف ذلك أثناء اجتماع خليتهن ، وكنت أتأوه من ألمي ولا أستطيع تحمله . . فأحسوا وكأنني أعطل عليهن الإجتماع . . فاقترحت إحداهن وكانت طبيبة متخرجة اسمها تماضر العبد الله أن يعطوني مسكنا . . فوافقت البنات وذهبن إلى الممرض وأحضرن منه إبرة مسكن أخذتها تماضر وحقنتني بها في الوريد مرة واحدة وبشكل سريع ، فوجدتني خلال لحظات أفقد الإحساس بفكي ولا أستطيع تحريكه ولو بكلمة . . ثم غبت عن الوعي و لم اعد احس بشيء فقامت كل البنات من قسمنا عليها يشتمونها ويحقرونها وصاحت فيها الحاجه غاضبه لم لم تقولى انك تريدين قتلها من اجل اجتماعكم الملعون ومع الايام ازداد التوتر بيننا وبينهن يزيد فيه ضيق المكان وبؤس الحال وكثيرا ما كانت النقاشات معهن تتطور الى خناقه يختمها وهن يقلن لنا : بكره يااخوان اذا استلمنا الحكم فسنعلق مشانقكم فى وسط دمشق

الحج اليومى
ولقد كان تعليق المشانق اهون ربما من الحياه الرتيبيه المملة بلا هدف ولاأمل ومع ازديادالأعداد ومجاورة الشيوعيات وكثرة التضييق والتشديد من إدارة السجن ومديريه ازداد إحساسنا بنفاذ الصبر فدبت الفوضى واختلطت الأمور وصار اعتياديا قيام المشاحنات وسماع المشاجرات وكان الماء ينقطع أحيانا فلا يصل دور الحمام لواحده منا الا مره فى الشهر وأما الزيارات فكانت لاتمر دوما على خير فإما أن يمنعوا الزياره عن الجميع أو يؤخروا اللقاءات الى آخر الوقت وكثيرا ما كانو يبالغون فى تفتيش الطعام حتى يفسدونه ويمدون أيديهم فيه ويقلبونه حتى تنفر منه النفوس ولقد وصل الامر بنا الى شدة الضجر أن ابتكرنا فى الفتره الأخيره حجا نؤدى مناسكه كل يوم فاتخذنا من البركه وسط الباحه مااعتبرناه الكعبه وحددنا أماكن أخرى حولها للسعى وكنا نندفع كلنا بلا إستثناء صباح كل يوم فنطوف ونسعى ونلبى وفى إحدى المرات دخل علينا عنصر من الشرطه ونحن بهذا الحال فسأل مستغربا ما الذى يجرى فقالت له إحدانا وكلنا منهمكات فبالتلبيه والهروله إننا نحج فقال الرجل محولقا يبدو والله أن نهايتكن جميعا فى مستشفى ابن سيناء للمجانين

ريمى
وإذا كانت ذكريات دوما كباقى السجون التى نزلنا فيها محفوره فى القلب لا تنسى فإن ريمى أحد معالم تلك المرحلة التى لا تغيب عن البال وريمى فى الحقيقة قط أنيس أتى به أهل إحدى القضائيات لها وهو صغير جدا فاشتريناه فكان كأنما أرسله الله لنل رحمة وسلوى فى هذا المكان الموحش وعدا عن متعة اللعب فيه والفرجه عليه والإستئناس بوجوده كان ريمى غاية فى النظافه وفى الذكاء وكنا إذا أردنا غرضا من المهجع الثانى ربطنا له ورقه بما نريد على رقبته وأرسلناه فيذهب ويوصلها للمهجع الثانى ويعود بالطلب وكان أيام الزياره يساعدنا فى نقل الأغرض من مكان استقبال الزولر الى المهجع ينقلها قطعه بعد أخرى بفمه وكثيرا ما كان يوقظنا للتهجد إذا لم نستيقظ وينام عند أقدامنا فى الليل

كالحارس الأمين وذات مره حضر قائد شرطة دمشق للتفتيش على السجن فلمح ريمى بيننا فثارت ثائرته لأن الحيوانات ممنوعه فى هذا المكان ونادى أحد العناصر وقال له تضعه فى كيس وتأخذه فترميه خارج دمشق فنفذ الشرطى الأمر وذهب بريمى ونحن فى حزن عليه ولوعة وكأننا فقدنا أخا أو قريبا لكننا وبعد ثلاثة أيام وحسب وجدناه وقت الضحى يعود متسللا الى المهجع وقد اتسخ جلده وساءت حالته فلما رأيناه عمت الفرحه وركضت البنات نحوه وكأنما هو أمهم وأبوهم وبعد خروجنا عادت واحده منهن الى دوما خصيصا وأخذته معها الى حلب.

الفصل السادس
الفرج والإفراج
ديسمبر 1989

مرت قرابة أربع سنين أخرى انسلخت من أعمارنا دون أن نحس لهن بمعنى أو أثر . . وحل الشتاء من جديد في دوما ونحن لا نكاد نميز بين فصل وفصل أو عام وآخر . . وبينا نحن في حياتنا الرتيبة الخامدة كسر حاجز الصمت ذات يوم من أيام أكتوبر الباردة عام 89 نداء مناد على عزيزة جلود وغزوة ك . أن تجمعا حاجياتهما وتستعدان للمغادرة . إلى أين . . ولماذا ؟ وما الذي حصل ؟ لم يجبنا أحد . . فظننا أن تحقيقا جديدا قد فتح أو محكمة ميدانية عادت للعمل وأنهما عائدتان إلينا خلال أيام . . لكن أسبوعا مر دون خبر . . ولم يلبث المنادي أن نادى من جديد على أم حسان وابنتيها سلوى ويسرى . . ومضت بهما سيارة المخابرات ولم تعد أخبارهم تصل إلينا مثل من سبق . .

حلم وبشاره!
كنت في تلك السنوات التي انقضت لا أنفك أرى أمي في المنام حاملا باستمرار وقد حان موعد ولادتها وأتاها الطلق ولا تلد . . لكنني وفي ليلتي تلك رأيتها رحمها الله تطلق ثم تلد . . فلما رويت الرؤيا للحاجة استبشرت بدنو الفرج . . وكان ما قالته سبحان الله . . إذ لم يلبث مدير السجن أن حضر إلى المهجع في الصباح وقرأ

أسماء حوالي 12 منا : أنا وماجدة وأم ياسر ولما ورغداء ومنتهى وهالة ونجوى والحاجتين . . وأتبع قراءة الأسماء بكلمة واحدة : إفراج ! لكننا ومن كثرة ما كان يفعل ذلك دائما ويعدنا بالعفو وبالخروج ولا يحدث شيء بعدها لم نتحرك من أماكننا . . وأذكر أنني كنت وماجدة جالستين على طرف البركة نقرأ القران حينما حضر من جديد وهو يصيح فينا : - قوموا بقا . . تحركوا . لكننا لم نحرك ساكنا وقلنا له : -يكفي كذبا علينا . . لا نحتاج هذا المزيد من الكذب ! لكنه أقسم أنه صادق اليوم . . وأرانا قائمة الأسماء مطبوعة في قرار رسمي . . ورغم ذلك فلم نغير من جلستنا ونحن لا نزال نظنه كاذبا . . فقال لنا بانفعال : - سأدخل لكم دورية المخابرات التي أتت لتأخذكم حتى تصدقوني . فلما رأيناهم بالفعل وتحققنا من جدية الخبر هذه المرة انفجرنا بالتكبير الذي اختلطت الزغاريد فيه مع الدموع والنحيب وفرقعة القبلات إ! وتنشطنا جميعا وقمنا نجمع أغراضنا مثلما اتفق . . وأذكر أنني وماجدة جمعنا كل أغراضنا في كيس كبير بلا وعي وسحبناه وراءنا ، فكانت الأشياء تتساقط منه ولا نبالي . . ولا نكاد نستوعب ما يجري ونحن بين التصديق والتكذيب . . وقام السجن كله على سماع الخبر ولم يقعد ، وخرجت كل السجينات القضائيات يهنئننا ويناد ين : - خرجت السياسيات . . وتقدم منا رجال الشرطة وموظفو السجن الطيبون هذا يسألنا عن صحة النبأ . . وذاك يهنؤنا بحرارة ودموعه تجري من الفرحة كالنساء . . ساعة لا يستطيع المرء أن يصف شعوره فيها . . وكأنني لم أعد بوعيي . . ولم أعد أذكر حتى كيف خرجنا إلى السيارة . . أو ماذا كان شكلها . . أو كيف تسلسلت الأحداث . . لكنني لا أنسى كيف لحق بنا القط "ريمي " يبكي والله وتنهمر دموعه وكأنه إنسان ! وأركبونا السيارة في النهاية لنجد أنفسنا أمام بوابة فرع التحقيق العسكري ونحن أشبه ما نكون نسبح في حلم غريب !

نحن هنا !

من بوابة الفرع إلى غرفة الاستعلامات قادنا العناصر ونحن لا نزال مكبلين حتى نسلم أماناتنا ونملأ بيانات القدوم ، ثم أنزلونا إلى القبو عبر الدرج المقيت نفسه ،

ووضعونا في مهجع واحد في القسم الشمالي هذه المرة ، وبينما كنا نعبر الممر سمعت البنات اللاتي سبقننا أصواتنا كما يبدو فصرن يضربن على الباب ويقلن لنا: نحن هنا. وقتها لم نعد نأبه بالعناصر الذين كانوا يصيحون فيهن وفينا لنسكت . . وأخذنا نتبادل عبارات الترحيب والشوق والتبريك . . ووجدنا أنفسنا أخيرا في مهجعنا الجديد أربعة عشر سجينة نكاد لا نجد مكانا للنفس . . فقرعنا الباب وقلنا لهم ذلك ، فأجابنا العنصر : - هذا المهجع الذي تقولون أنه لا يتسع لكن كان اتسع قبلكن لاثنين وتسعين شخصا من الشباب ! وكنا لما رفعنا رؤوسنا نستطلع المكان لمحنا في سقف المهجع رغم ارتفاعه الشاهق رسما لمسجد كما اعتاد سجناء الإخوان أن يفعلوا وتحته اسم شخص ما . . واستغربنا وقتها كيف وصل هذا الشخص إلى أعلى وتمكن من رسمه . . فلما أجابنا جوابه ذاك الذي تقشعر له الأبدان قالت له الحاجة مديحة : - الآن فهمنا خيو . . معنى ذلك أنهم كانوا وصلوا إلى السقف فوق بعضهم البعض !

مزاح فقط !

مرت الليلة الأولى والثانية . . والثالثة ونحن نبيت وراء الباب جميعا ننتظر الإفراج كل لحظة ونظنه بات قاب قوسين أو أدنى . . فلما لم ننل إلا السراب وعدنا نتقلب بين التسويف والتجاهل خبت فرحتنا من جديد اين وانتكست أمالنا . . وعادت رتابة نظام السجن تلفنا مرة أخرى زاد عليها أننا عدنا إلى أيدي المخابرات مباشرة وخضعنا من جديد لأجواء الرعب والارهاب . كانت أيامنا في التحقيق العسكري كما فهمنما لاحقا أقرب ما تكون إلى فترة تأديب . . عاملونا فيها بقسوة بالغة ، وضيقوا فيها علينا أشد مما كان التضييق حتى أيام كفرسوسة . . فالطعام أقل مما يكفي لنصف عددنا ، والزنزانة مقفلة الأ بواب فلا نغادرها إلا للتنفس حسبما يقتضي مزاج العنصر وقتذاك : عشر دقائق أو ربع الساعة في اليوم وحسب ، نمضيها في باحة داخلية ضيقة تحيطها الجدران المرتفعة من كل الإتجاهات ، لكن الجوع والقلق والأ بواب المغلقة لم تكن لتفعل فينما ما تفعله صيحات الإستغاثة وصراخ المعذبين من حولنا . فعندما

يحين وقت تنفس الشباب كانوا يخرجونهم راكضين لا ينتعلون في أرجلهم رغم شدة البرد شيئا . . يهرولون حفايا تتبعهم الكرابيج والكابلات وكأنهم قطيع غنم ! ومن شدة اصفرارهم كنا نحس وكأن شعلة ضوء تخرج من كل فرد منهم . . ولا أزال أذكرأن أحد السجناء تأخر في إحدى المرات داخل الحمام بضع ثوان . . وكان بابه مجاورا لباب سجننا ، فأخرجه العنصر المكلف بمراقبته وصار يعذبه عذابا أسوأ من عذاب العبيد. . فبعد اللسعات التقليدية بالكابل جعل هذا العنصر يأمره ونحن نسمع مايدور ويقول له: إحمل الشحاطة بفمك .
فيمتثل المسكين لاحيلة له ويحملها . . فيقول له ثانية :
- إزحف بها إلى التواليت . . والتواليت هناك يقرف الواحد من الإقتراب أو النظر إليه . . لكن هذا المجرم كان يقوده والشحاطة في فمه إلى هناك فيطمس له رأسه في الحفرة ثم يخرجه ، ويعود بعدها فيأمره أن يحمل الشحاطة ثانية بفمه . . ليعود ويسوقه في اتجاه آخر وهو لا يكف عن لسعه وسلخه بالكابل . . وذاك يصيح ويستغيث وليس من مجيب . . وعندما فاض بنا الصبردقت الحاجة الباب وهي تصيح فيه : -هل أنتم يهود ؟ ألا توجد رحمة في قلوبكم ؟ وجعلنا ننادي جميعا ونقول له : - منشان الله إذا ما بدك ترحمه إرحمنا نحن وخذوه إلى مكان آخر عذبه فيه ! فقال السفيه وظل ابتسامته الساخرة يتراءى لنا من وراء باب ا لحديد :
-ليش شوفي ؟ نحن نمزح مع بعضنا فقط ! . وفي مرة أخرى كانوا يوزعون الطعام ، وهناك في فرع التحقيق العسكري كانت الطاقة أسفل باب المهجع ، فكان أحد السجناء يحمل الطعام ويضعه عند الطاقة تم يأتي العنصر من ورائه فيفتح الطاقة لنسحب القصعه . . .
وذات يوم سألتنا عزيزة أن نحاول السؤال عن بيت أهل زوجها إن كانوا معنا في نفس السجن . . فلما جاء السجين وكان دوري يومها دفعت الطاقة فوجدتها مفتوحة ، فمددت رأسي وسألته : -هل سمعت ببيت اليوسف ؟ فقال لي : نعم . . أتوا بهم جميعا إلى المهجع الجنوبي . . ولم يكد المسكين يتم جملته حتى كان العنصر وراءه ، فأمسكه وسحبه وبدأ يضربه ويعذبه على باب مهجعنا وذاك يصيح ويستغيث : -لم يكن ذنبي . . هي التي كلمتني . . ولم أرد عليها . . وقامت الحاجة

فصاحت عليه وقالت له لعله يغفل عنه قليلا : -فعلا لم يكن ذنبه . . هذه مقروفة العمرساءلته عن الطعام فقط . . لكنه لم يتوقف أو يلتفت إليها . . ومضى يتابع الضرب والتعذيب حتى شبع !

الرئيس ما كان له خبر !
ومرت أيام أخر . . وبدأت ملامح أكثر جدية تتبدى عن اقتراب أيام الفرج والإفراج . . فبدأوا يخرجوننا إلى المكاتب في القبو نفسه ويعطوننا استمارات لنملأها بمعلومات مفصلة عن تاريخ حياتنا . . وصورونا مرات عديدة بأوضاع واتجاهات مختلفة ونحن نمسك بأيدينا لوحة الأرقام . . وبعد 15 يوما تقريبا أبلغونا عن صدور العفو بشكل رسمي . وقتها سألت الحاجة مديحة رئيس الدفعة وقتها : - خيو . . وليش تذكرتونا الآن بعد كل هذه السنين . . ما هي ا لمنا سبة ؟ فقال لها : والله الرئيس ما كان له خبركم . قالت له : يعني الآن وصله خبرنا ؟ قال لها : نعم . قالت : بالله عليك مض علينا تسع سنين وماله خبر! قال : إي والله . . والله يا حاجة لو له خبركم من زمن كان طالعكم . . لكن من أول ما دري قال طالعوهن إ! فقالت له الحاجة : وما الذي يمنعكم من إخراجنا إذا ! فأخبرها أن سورية الآن حزينة تضامنا مع لبنان الذي قتل رئيسيه رينيه معوض قبل أيام . . وقد صدر الأمر لذلك بتنكيس الأعلام وإغلاق الدوائر الرسمية لهذه المناسبة . . وبالفعل فقد بقينا في الإنتظار أسبوعين أو ثلاثة أخر. . وخلال ذلك أخرجونا مرتين إلى لجنة شكلوها من أجل إبلاغنا النبأ وتوديعنا بما يليق كانت برئاسة العميد حسن الخليل ومعه كمال يوسف رئيس الفرع وضباط آخرون . . فلما حان دوري قابلني كمال يوسف وأنا مثل الأخريات معصوبة العينين وقال لي : - لا تظنني أننا أخرجناك وتأخدي راحتك . . أنا من أهلك حاطط لك مخابرات. قلت له : وحتى . .أنا أصلا لم أعمل شيئا . . فقام يشتمني بكلام قبيح ويقول لي أنني مجرمة ولا زلت أنكر . . وقال لي أيضا أن علي الإبلاغ عن أي شخص مطلوب يتصل بي أو حتى أراه . . وكذلك قسى على عزيزة جلود وحدثها عن أولادها ما سبق وذكرته . . وقال لأمل : - شو إلك بالقصر مبارح العصر وجاية لتطلعي !

وكانت كل مهمة اللجنة أن تؤكد لنا أننا لا نستاهل الطلعة ، وإننا لا نزال في دائرة الإدانة . . ولكن كرم الرئيس وعفوه وحده هو الذي أخرجنا إ!

تأهيل أم تجميل !

وضمن مظاهر الكرم الحاتمي الذي تدفق علينا من أصحاب الفضل . . جلادينا المحترمين أنهم بدأوا قبيل الإفراج عنا بما يمكن تسميته تأهيلا لسمية ابنة سلوى التي ولدت في تدمر وترعرعت بين سجون حمص وقطنا ودوما . . وحلت آخر الأمر في العسكري وقد بلغت سن المدرسة ، ولكنها تبدو لمن يراها لا تزال في سنوات عمرها الأولى من الهزال . . ولربما أصابت الرعدة ناظرها لأول مرة من شدة ضعفها واصفرار وجهها . . وتحاشيا لمزيد من الأدلة اليقينية على جرائم النظام ، وحتى لا تخرج هذه البنت إلى المجتمع فيراها الرائح والغادي بهذه الصورة فيسألوا ويعرفوا عن الفاجعة كان برنامج التأهيل هذا . . فكانوا يأخذونها وأمها كل يوم إلى باحة الفرع خارج القبو ويتركونها تتعرف على العالم من حولها ، ويقدمون لها طعاما إضافيا وحلوى وألعابا تستعيد بهم بعضا من طفولتها السليبة . . وفي يوم من الأيام حضر رئيس الفرع وهي هناك فوقفت سيارته ونزل السائق ففتح له الباب وتناول الحقيبة منه وتبعه بعدما نزل إلى مكتبه . . فلما لمح سمية قبل أن يدخل ناداها وأدخلها معه وجعل يداعبها ويتحدث معها ، فلما عادت من عنده قالت لأمها : 227

- ماما أنا غدا عندما أكبر أريد أن أصبح عقيد ! فسالتها سلوى : ولماذا ؟ قالت لها : حتى تكون عندي سيارة وشوفير أي شوفير - يسوق لي السيارة ويحمل لي سنتايتي - شنتايتي - ويدخلني إلى غرفتي مثل غرفة هذا العقيد كمال ! ولما سالتها : كيف مثل غرفته ؟ قالت سمية : يعني فيها سجاد ممدود بالأرض وأضواء وأشياء حلوة ما في منها عندنا ! وكانت سمية تقليدا للسجناء قد كتبت اسمها على الجدار للذكرى . . ولكم كان مؤثرا أن يقرأ المرء ما كتبت هذه الطفلة البريئة تحته تقول : أنا من مواليد تدمر . . سكنت في سجن كذا

. . وسجن كذا . . وكذا . . مسجلة كل اسم وتاريخ كل سجن تنقلت مع والدتها إليه !

المقدم المخمور !

وكان رئيس الفرع كمال اليوسف على عنجهيته وتجبره يتصرف إذا جن الليل وحان موعد الكاس والطاس أسفه من الأطفال ! وكثيرا ما كان يرسل وراء غزوة فيأمرها بالجلوس في مكتبه ويمضي يحدثها وهو في نصف وعيه يهدر بما لا يقيم أي معنى . . أو ينزل بنفسه إلى القبو فيقف على طاقة المهجع ويناديها لتتكلم معه . . فكانت المسكينة تمتنع أكثر الأحيان ولا تستجيب . . وأذكر أننا كنا نياما مرة وقد جاوزت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . . فما وجدنا إلا وطاقة الباب قد فتحت وأطل أحد ما برأسه علينا ، وكانت العادة التي جرت أن يدق أولا لنضع على رؤوسنا ، لكن هذا الطارق المجهول فتح الطاقة على حين غرة وأطل يحملق فينا بعينين محمرتين كالدم ، فما وجدنا أنفسنا ألا ونحن ننادي بصوت واحد: الله لا يعطيك العافية . . ومنا من بصقت بوجهة ومنا من صاحت فيه : -أغلق الطاقة وانقلع . . من سمح لك . . ياقليل الأدب . . يا قليل الذوق . . فقام من المفاجأة بشكل غير إرادي وسحب نفسه قليلا ، ثم كأنما تذكر أنه هو رئيس الفرع فمد رأسه وقال : - من هذه قليلة الأدب التي ترفع صوتها . . لكنه وبسبب لهجته المثقلة من السكرلم نعرفه . . وعدنا فسحبنا باب الطاقة وأغلقناه في وجهه . . وفي الصباح خرجت الحاجة تقول للعنصر : - خيو . . نريد أن نقدم طلبا لرئيس الفرع . قال لها : بأية مناسبة ؟ قالت : هناك عنصر قليل الأدب فتح الطاقة علينا بالأمس ومد رأسه . سالها : أية ساعة . فلما أجابته قال لها : - دعني أقول لك شيئا . . لا تتكلمي بما حصل لأن الذي تتحدثين عنه كان رئيس الفرع نفسه ! فشهقت الحاجة وقالت : الله يلعنه ! وعلمنا من البنات في التنفس بعدها أنه بعدما غادرنا أمضى الليلة على باب المهجع الثاني يحاول محادثة غزوة والمسكينة مقطوعة من الرعب لا تدري كيف تتهرب منه !

مد. . وجزر !

ومضت الأيام ونحن كأنما نتقلب على السفود . . حتى دنت أواخر ديسمبر فأتوا صباح يوم منه وقرأوا أسماءنا جميعا وقالوا جهزوا أنفسكم . . تجهزنا أسرع من البرق ، ودبت الفرحة من جديد . . لكن النهار مضى ولم يحدث شيء . . قرعنا الباب وسالناهم: ماذا جرى ؟ فقالوا من غير أن يذكروا السبب : تأجلت للغد . . وفي الصباح التالي حضروا ونادوا أم حسان وابنتيها سلوى ويسرى ومعهم سمية ، وكانوا قد جمعوهن معنا عند وصولنا لضيق المهجع الذي كانوا فيه ، فلما خرجن لم يذكروا لهن عن الإفراج شيئا . . وظننا أنهن ستنقلن إلى المهجع الآخر من جديد ،لكننا لما سالمنا عنهن بعدها . . قالوا لنا : خرجوا . فقلنا لأنفسنا إذا هؤلاء اللاتي صدر العفو عنهن وخرجن ، وأما نحن فقد فاتنا القطار! وقطعنا الأمل وعدنا للتشاؤم . . وجعلت عزيزة تبكي سبحان الله و تقول :أن قلبي يحسسني أني لن أخرج معكن . . وسترون ! وبالفعل خرجنا نحن وبقيت المسكينة من غير ذنب ولا سبب سنتين تاليتين بعدنا . وبعد يومين نادوا على غزوة من المهجع الثاني وحدها وأطلقوا سراحها . . وأخيرا ونحن نصارع الهواجس ونتقلب بين المد والجزر أتوا صباح الرابم والعشرين من ديسمبر وأبلغونا أن ساعة الإفراج قد حانت هذه المرة . . وأخرجونا ونحن بين مصدق ومكذب لتسلم الأمانات وملء الإستمارات . . لكننا لم نكد نغادر المهجع حتى تراجعوا وقالوا أن الأمر تأجل للمساء ! وعادوا فكرروا نفس الأمر في الليل ، فأخرجونا إلى غرفة الأمانات وأوقفونا في طابور طويل . . وبينما نحن ننتظر على أعصابنا طفح الكيل بأمل فمالت على بنت بجانبها وقالت لها : - والله كأننا واقفين بانتظار بطاقات التموين في المؤسسة! فالتقط أحد العناصر العبارة واهتبلها فرصة فقال للمقدم عمر : - سيدي . . أتسمع ما تقوله ؟ فسأله ذاك : ماذا قالت ؟ قال : سيدي هؤلاء لا يتوبون . . ويبقون يتحدثون في السياسة ونقل له العبارة مثلما يحلو له . . فجاء المقدم وكأنما لسعته أفعى يرغي بالشتائم ويزيد وهو يصيح : - والله أنتو ما لازم تخرجو . . لا زم تنقبروا هون حتى الموت . . حتى إذا أكمل قاموس الشتائم التي يحفظها عن ظهر قلب وتسلمنا آخر الأمر أماناتنا وملأنا كل الإستمارات

ووقعناها قالوا لنا بأن الأمر تأجل إلى صباح الغد بسبب الضباب . . وأعادونا إلى المهجع الثاني الذي كانت البنات فيه ، فتكومنا كلنا وراء الباب مترقبات متحفزات لا نستطيع النوم . . وعدنا إلى التشاؤم من جديد ، وتذكرنا كيف وعدوا الشباب بالإفراج في كفر سوسة ثم نقلوهم إلى تدمر! وبقينا طوال الليل نستسلم لهذه المشاعر المرة حينا . . وحينا لمداعبات الأمل ولمحاته اللذيذة والتفكر فيما يمكن أن نفعله إذا خرجنا . . لكنني كنت واقع الأمر أحس نفسي عاجزة عن تصور ما الذي يمكن أن أفعله إذا خرجت . . وكأن العقل لدي قد توقف قبل هذه المرحلة وما عاد يستطيع استيعاب معنى الخروج أوالى أين يمكن أن يكون . . كانت البعض تقلن : أنا سأعود لأكمل دراستي . . أو إلى وظيفتي من جديد . . ومنهن من كانت تقسم أنها لن تعود إلى الوظيفة الحكومية أبدا. . وستمضي العمر بين الأهل والأحباب . . وأما أنا فلم أعد أستطيع حتى أن أفكر في هذا الإتجاه . . وأراه حتى اللحظة شيئا مقطوعا منه الأمل ولا يتصوره العقل . . ذاك الذي كان بيننا وبين أن نبلغه مجرد مطلع الفجر!

حتى مطلع الفجر!

واذا كانت ليلة الأربعاء الخامس والعشرين من ديسمبر تلك ليلة لا تنسى فإن مما لا ينسى فيها أولئك الشباب السجناء الذين أحيوا الليلة معنا في مهجعهم المقابل يتلون القران والتسابيح والأذكار وقد بلغهم قرب الإفراج عنا على نية الفرج والتسهيل ، وكنا نتلمس من إشارات منهم أنهم يعيشون همنا ومشغولون بنا أكثر من أنفسهم . . وعلى الرغم من الخاطرة البالغة فقد استمروا يجهرون بالتلاوة والدعاء ليبلغنا في ظلمة الليل فكأنما هو النور يتنزل من السماء . . وسلمهم الله من الحرس فاستمروا في دأب ونشاط حتى مطلع الفجر . ودنا الفجر وكنا كلنا ميتات من التعب والنعاس والجوع . . لكن ترقب الإفراج كان يغلب كل الأحاسيس والمعاني والمعاناة الأخرى . . فجعلنا نطرق الباب مرة بعد مرة نسأل الحرس ما الذي حصل . . ومتى سيفتح هذا الباب بيننا وبين الحرية من غير رجعة . . حتى فاض الصبر بالعنصر فقال لنا آخر الأمر : توقفوا عن الطرق .

. عندما نريد أن نخرجكم فسنفتح لكن الباب ونقول لكن اخرجوا . . فلما فتحوا الباب وقالوها كنا كالموج المختزن خلف سد تفجرت بوابته . . واندفعنا فوق بعضنا البعض وكأننا خائفات أن يغلقوه علينا من جديد . . ولما تجمعنا في الممروقد تثبتت عيوننا على الباب بين القبو وساحة السجن في الأعلى قرأوا أسماءنا جميعا ، ووجدناهم قد أخذوا الحاجتين مديحة ورياض ومعهما نجوى وسلسبيلة إلى المهجع الثاني دون أن نعلم لماذا ، وهناك أخبروهم بأن دورهم في الإفراج لم يحن بعد فكدن أن يمتن بأرضهن . . وأصيبت الحاجة رياض بما يشبه الإنهيار العصبي وقد كانت تظن أنها ستكون أول الخارجات . . وأما نحن الذين بقينا أربعة عشر امرأة - سبع من حلب وسبع أخريات من حماة - فأخرجونا وقتها إلى باحة الفرع والشمس لا تزال تتسلق السماء في أول إشراقتها . . فكنا ونحن نعبر من العتمة إلى الضوء مهلهلات الثياب صفر الوجوه كالخارجات من القبر إلى دنيا الناس بعد غياب ! ولم نتمالك أنفسنا جميعا فوقفنا كلنا نتأمل الشروق الدافن ونتلو الشهادتين وقد انفجرت بعضنا في البكاء ، فنظر رئيس الدورية إلينا مستغربا وقال : - ماذا هناك ؟ لماذا وقفتم كلكم ؟ فقالت له أم زهير : بعد تسع سنين هذه أول مرة نرى فيها الشمس وقت شروقها . . ماذا تريدنا أن نفعل وسرعان ما وجدناه أحضر الكلبشات وعاد ، فسألناه وقد غاصت قلوبنا بين الضلوع من جديد : -لم هذه الكلبشات ؟ قال : هذا القانون . . لازم تتكلبشوا حتى تقطعوا ضواحي دمشق . كمدنا مرة أخرى بعد شعور الفرح الذي لا يوصف . . وبدأنا تراودنا المخاوف مجددا من أنهم سينقلوننا إلى سجن اخر وحسب . . لكن الأحداث مضت متسارعة . . فتلوا أسماءنا مرة أخرى . . وتحققوا من عددنا وشخصياتنا ، ثم أصعدونا إلى "الميكرو" ونحن مكبلات . . وصعد معنا ثلاثة عناصر من المخابرات جلس اثنان منهم في الأمام وأخذ الثالث مكانه عند الباب في الخلف . وعندما تحركنا سالمت ماجدة أقرب العناصر إليها إن كنا خارجات إلى بيوتنا بالفعل أم أنه مجرد نقل من مكان إلى اخر . . فطمأنها وأكد لها أنه إفراج حقيقي . . فساكته وهي تستحلفه : -قل لي . . هناك طلعة للشباب ؟ قال لها : والله لا أعرف . لكنها ظلت

تلح عليه حتى قال لها : نعم هناك أمل ولكن ليس الآن . . لكنهم أخرجوكم أولا ليتخلصوا من همكم !

تهاني العام الجديد !
ومض الباص بنا نريده أن يطير أسرع من السحاب ويبلغنا بيوتنا للتو . . لكننا كنا في نفس الوقت وكأننا نفكر بعقل واحد في الأتي المجهول : كيف سنفترق اليوم ونصحو في الغد بعيدين عن بعضنا البعض بعد تسع سنوات من صحبة العسر واليسر؟ إلى أين سنذهب . . ومن سنلتقي . . وماذا عمن مات أو قتل . . ماذا عن حماة التي تهدمت . . والأحياء التي سويت بالأرض . . والأحباب الذين واراهم الثرى وقد كانوا بهجة العمر كله !! وظلت دوامة التساؤلات تعصف بنا حتى بلغنا مشارف حماة وفكوا لنا الكلبشات من أيدينا وقالوا للحمويات أن يستعددن للمغادرة . . فالركب سيكمل بالبقية إلى حلب . وجعلنا نقبل الحلبيات ويقبلننا ويستسمح بعضنا البعض ونتواصى بالزيارة القريبة والإتصال المستمر . . وتوقف الباص أخيرا أمام فرع الأمن العسكري على مشارف المدينة ، وتخطى السائق البوا بة ونزل رئيس الدورية التي رافقتنا فتبادل بعض الكلمات مع مسؤولي الفرع قبل أن يأمرننا بالنزول . . وعاد وبقية العناصر معه إلى الباص وهم يهنؤوننا على الإفراج ويقولون وهم يبتسمون : -الحمدلله خلصنا منكم ومن نقكم . .

كل عام. . وأنتم بخير!
وذهب الركب باتجاه حلب . . ووجدنا عناصر أخرى تستقبلنا هناك بلا اكتراث . . ولم نلبث أن طرق أسماعنا عبارات التهنئة بالعام الجديد يتبادلونها بينهم . . فتذكرنا أن رأس السنة على الأبواب. . ولكننا لم ندرك أننا ينبغي لذلك أن ننتظر مزيدا من الوقت ليحضر رئيس الفرع من مراسم التعييد ! وفي غرفة من غرف الفرع الباردة تكومنا واحدة تلو الأخرى ليست لنا من حيلة إلا الإنتظار . . وبعد ساعات كنا لا نملك إلا التحديق بوجوه بعضنا البعض وارسال الزفرات حضر أحد العناصر وسأل كل واحدة أن تعطيه رقم هاتف ولي أمرها الذي تريد أن يستلمها .؟. وكان الأهالي قد سمعوا قبل أيام عن نبأ الإفراج فذهب الآباء إلى دوما أولا ليسألوا فقال لهم

المقدم هناك بأننا نقلنا إلى سجن(عدرا) ! فلما ذهبوا هناك لم يجدوا عنا أي خبر . . ولم يعودوا يعرفوا عنا أي شيء . فلما اتصلوا بهم بدأوا يتوافدون على باب الفرع بين مصدق ومكذب . . واجتمع أكثر آباء البنات واخوانهن وأنا لم يحضر لاستلامي أحد ! وعندما حضر العنصر وسالنى عن هاتف ولي أمري لم أدر بم أجيب . . ولم أجد شيئا أعطيه أو اسما من الأحياء أذكره ! وكانوا قد اتصلوا بوالد ماجدة وقالوا له مثلما قالوا للآخرين -تعال واستلم ابنتك . . فظنها مداعبة من أحد ما وأقفل الخط ! فذهبوا إلى البيت وأحضروه بأنفسهم وهو لا يزال يظن الأمر لعبة . . فلما راها بعينيه كاد أن يغشى عليه . . وأخذ وهو يحتضنها ينظرإلي ويبكي وهو يتمتم : - وأنت من الذي سيأتي ويأخذك ! فلما عاد العنصر يسالنىوقد كاد ينفض الجميع - مع من أريد الذهاب ، قلت مع أبي ماجدة . وأثناء ذلك حضر شقيق واحدة أخرى من البنات وعرض أن يصحبني برفقتها . . فلما اخترت والد ماجدة اتصل ذاك ببيت عمي بعدما أخرج رقمهم من الدليل، لكن عمي وزوجته كانا في حمص وبقيت خالة الأولاد معهم في البيت ، فلما أبلغها بالنبأ اتصلت بخالي هناك وأخبرتهم أن شخصا اتصل وقال بأن هبة طلعت واذهبوا لتأخذوها . فقالت لها عمتي : يكفي كذبا واذا اتصل ثانية أغلقي الخط بوجهه ! فاتصل مرة ثانية وقال لها : - هبة عند بيت رفيقتها ماجدة . . اذهبوا وأتوا بها . فأعطته رقم حمص ليحدثهم مباشرة ، فلما اتصل سألته عمتي : - من حضرتك ؟ قال : فاعل خير. فخافوا من ذلك وارتابوا . . لكنها وبعدما أقفلت الخط رأت أن تتصل ببيت أهل ماجدة فتأكد لها الخبر ، لكنها ولما طلبت أن تتكلم معي حتى تصدق ونادوني لأحدثها وجدتني وكأنما نسيت كيف يكون الحديث على التلفون ! ولم تكد تسمع صوتي حتى وجدتها حضرت أسرع مما أتخيل ! ودخلت فاحتضنتني ورجعت تقبلني وأنا جامدة مكاني وكأنني لم أعد أميز بين الفرح والحزن ! اختلط الشعوران عندي فلم أعد أعرف ماذا أفعل أو الى أين ينبغي أن أذهب ! وكان أهل الحي قد اجتمعوا رجالا ونساء وأطفالا يهنئون بسلامتنا ويباركون لنا . . لكن ظلال التوجس كانت بادية على الوجوه وهم يحملقون فينا ولا يزيدون على أن يحمدوا الله . واقتادتني عمتي

من يدي . . وأم ماجدة من ورائنا ترقبنا دامعة العينين وقد أرادتني أن أبيت عندهم الليلة . . وكنت أود ذلك أيضا وأحسها بمنزلة أمي رحمها الله . . وكانت قد رأتني قبل يوم في نومها أنني أرسلت لها بطاقة عليها رسم المسجد الأقصى وكتبت لها تحتها : (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد ا لأقصى) فتفاءلت بذلك وذهبت للشيخ ففسر لها المنام وبشرها بقرب فك أسرنا . . وكان ذلك في اليوم الثاني بالفعل ..

ظلال الفاجعة!

وفي تلك الليلة الباردة أواخر عام 89 ولجت سيارة عمتي وقد قاربت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل . . وتكورت على نفسي أتقي البرد القارس والقادم المجهول . . وبينما كانت السيارة تعبر بنا المدينة من طرف إلى طرف ، كانت المشاهد أمامي تنطق بالوحشة أنى اتجهت . . فالدمار الذي مضت عليه سبع سنوات لا تزال ظلاله تنطق بالفاجعة . . والشوارع المقفرة تحكي حال القلوب المقفرة . . والنواعير التي طالما حركت بأنينها شجى القلوب أراها جامدة خامدة . . وقد جف من تحتها العاصي وتيبست حولها الأشجار والحقول . كان كل شيء عهدته في المدينة قد تغير ، وماتت على شفاه المشاهد هيئة الحياة . . وحدها سيارات المخابرات لم تتغير برغم السنين . . ها هي ذي تحتل مفارق الطرقات أو تطل مقدماتها من بين الأزقة تترصد الساعة ربما أحلام النائمين ! وقتها ارتد بي البصر إلى دمشق عام 85 وعدت بالذاكرة إلى ليلة رأس السنة في بيتنا بالبرامكة قبل تسع سنوات بالتحديد . . ليلة أن اصطفت سيارات المخابرات على طول الشارع في منتصف الليل . . وسألنى رئيسهم أن أذهب معه خمس دقائق وحسب ، فانتزعوني من الحياة تسع سنوات كاملات . . دون أن أعرف سببا لذلك إلى اليوم !

[الشهادة الثالثة]

شهادة المعتقل السابق عباس محمود عباس

الاسم: عباس محمود عباس
مواليد: حماة - دير ماما 1952
متزوج، اسم الزوجة: فائزة ونوس
لديهما ابنة: ديمة عباس مواليد 1984 - سنة أولى تجارة واقتصاد جامعة دمشق
توارى عام 1984 بعد ملاحقته من قبل المخابرات العسكرية فرع فلسطين
اعتقل في نيسان 1987.
كان موظفاً حتى آب 1984.
أفرج عنه قبل انتهاء تنفيذ حكمه بخمسة أشهر وذلك في 18/11/2001 كان قد حكم عليه بالأشغال الشاقة مدة خمسة عشر عاماً مع حجره وتجريده مدنياً، وصدر قرار المحكمة بتاريخ 27/6/1995 بعد توقيفه عرفياً منذ 14/4/1987.

تقول الحكاية:
"إن أحد الخانات وقع في غابر الأزمان أسيراً بيد خانٍ آخر. فقال هذا الأخير للخان الأسير: إذا أردت، فستحيا لديَّ عبداً رقيقاً، وإلاّ فسأجيبك إلى أحبّ الأماني إلى قلبك، ثم أقتلك بعدها.
فكّر الأسير الخان مليّاً ثم قال: لا أريد أن أحيا عبداً، والأفضل أن تقتلني، على أن تدعو لي قبل مقتلي أوّل راعٍ تلقاه من وطني.
ما حاجتك إليه؟ سأل الخان.
فأجاب الأسير: أريد أن أستمع منه قبل موتي كيف يغنِّي!!".
قبل أن تمضي بي الطريق، وشت لي دون مواربة: "إنني شائكة ووعرة ومتعرِّجة ما أمكن، إنني موقوتة البغتات ككلِّ الدروب المناوئة للعسف!!"
كذا شرع العمل السياسي المعارض، أشبه بالسير في حقل ألغام حين تكون بعض حقوقك الدستورية معلّقة إلى أجل يحدِّده أولياء حياتك.
إن "حرية التعبير" و"الإسهام في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية" وسواهما، كلها حقوق نصَّ عليها الدستور السوري الدائم لعام 1973، وقد عُهد للمشّرع بسنِّ القوانين والتشريعات التي تكفل ممارسة

هذه الحقوق. أما واقع الحال فإن مفهوم "الحرية حق مقدّس" كما صيغَ في متن الدستور ظلّ خارج القاموس السياسي السائد ولم يرَ الحياة. ومع غياب قانون تشكيل الأحزاب وتنظيم الحياة السياسية، والحضور المطلق لقوانين الطوارئ والأحكام العرفية منذ عام 1963، كان يسيراً جداً أن يعتبر النظامُ قوى المعارضة بأسرها خارج القانون، أو خارجة على قوانين الاستثناء سارية المفعول. وبالتالي فقد تمَّ إطلاق العنان لقانون القوة، خصماً وحكماً في آن، واعتبرت كل هذه اِلأحزاب محظورة.

في ظل ظروف كهذه ولدت رابطة العمل الشيوعي (حزب العمل الشيوعي لاحقاً)، بصفتها تنظيماً سياسياً معارضاً، واختارت العمل السري مكرهة، شأنها شأن جميع التنظيمات السياسية المعارضة، وكانت الجريدة السياسية وسيلتها الوحيدة في التعبيرعن مصالح الطبقات الشعبية وتطلعاتها نحو مجتمع يسود فيه القانون والعدالة. وقد رافقتها حملات القمع والملاحقة والاعتقال على نحو مستمر منذ نشوئها كرابطة ومن ثم كحزب، إلى أن شهدت أعوام التسعينات من القرن الماضي انتصار النظام بشكل ساحق على كل الأصوات الوطنية التي لم تندرج تحت مظلته.

في أوائل عام 1978 انتميت إلى رابطة العمل الشيوعي وكنت آنئذ موظفاً وطالباً جامعياً. وقد عملت في عدد من الهيئات الحزبية، وحين اعتقلت كنت عضواً في اللجنة المركزية لحزب العمل الشيوعي.

في عام 1984 لوحقتُ من قبل الجهات الأمنية ولم تكن ابنتي قد بلغت الأشهر الخمسة من عمرها. وبقيت متوارياً لثلاث سنوات تقريباً، كنت متفرِّغاً خلالها للعمل السياسي إلى أن جرى اعتقالي في مدينة حمص بتاريخ 14/4/1987 من قبل فرع فلسطين.

وهناك تعرّضت لشتى صنوف التعذيب النفسي والجسدي، واستمرّت هذه الحال نحو أحد عشر شهراً في ظروف تحقيق بالغة السوء.

* * *

في 2/3/1988 رُحلّت إلى سجن تدمر مع خمسة عشر رفيقاً لا نحمل سوى أقلّ القليل مما بخس وزنه وثمنه، بما في ذلك أجسادنا التي استُبيحت هناك أيّما استباحة،

ضرباً وتنكيلاً، بينما كانت في أمسّ الحاجة إلى الترميم واستعادة بعض قواها.
كنا نعتقد أن اعتقالنا، رغم لا مشروعيته، هو إقصاء عن العمل السياسي أي إخراج من ساحة النشاط اليومي، لنكتشف أن معتقل تدمر يعني الإقصاء عن كل ما يصلك بالحياة وتقطيع أواصرك معها. يعني تفكيك الذات الإنسانية عبر العزلة المطلقة والعطالة وتعطيل الحواس. يعني الترقّب المريع، والهلع من المجهول، والعيش في حمأة التوتر اليومي. يعني الشحّ في كل شيء ما عدا التعذيب متعدد الضروب. يعني، باختصار شديد، جهنم من صنع البشر!!!
ما من شك في أن الشروط التي تتوافر عليها السجون العسكرية الثلاثة: (تدمر، المزة، صيدنايا) متفاوتة بين سجن وآخر، بيد أنها جميعاً لا تتناسب والمعايير الدولية؛ ولكن فيما يتعلق بسجن تدمر فإنه يمتاز بافتقاره لأدنى الشروط الإنسانية، حيث أن الطقوس الفظيعة التي تمارس فيه كفيلة بإماتة القطط.
ففي المرحلة الأولى من وجودنا فيه، كنا كمن يقف في حلق هاوية، بلا قرار، عرضة للضرب والتعذيب والإهانات، يكفي أن يُفتح باب المهجع حتى تنهال العصي واللكمات والركلات والقضبان من كل حدب وصوب. ومن يشهد إدخال الطعام أو لحظة الخروج إلى "التنفس" في الباحة يعتقد أنه في ساح الوغى. وما من شك في أن ظروف المعتقلين الآخرين ممن ينتمون إلى حركة الإخوان المسلمين وحزب البعث الموالي للعراق كانت أكثر سوءاً بما لا يقاس. فالاختلاف في التعامل يبرز ليس فقط بين سجن وآخر، وإنما أيضاً بين جماعة وأخرى داخل السجن الواحد، وفقاً للتقديرات السياسية والأمنية والتوصيات العقابية الخاصة بكل مجموعة على حده. كما أن هنالك هامشاً كبيراً يمكن لمدير هذا السجن أو ذاك التحرّك داخله بحرية، ناهيكم عن أن السجّان بحدِّ ذاته - وهو أداة التنفيذ المباشرة - قادر على التحكّم بهذا الهامش دون حسيب أو رقيب، فهو المعني أصلاً بابتداع وسائله الخاصة في التعذيب وتطبيقها على المعتقلين جسدياً ونفسياً. وليس مهماً بالنسبة له أن يرتكب السجين خطأً ما، لأن النتيجة تكاد تكون واحدة في ظل غياب حقوق السجين، وجهله لواجباته التي

ينبغي أن يكتشفها بنفسه، ولكن ليس قبل أن يدفع ثمنها غالياً من دمه وروحه.
إن عددنا القليل جنَّبنا الآثار المرعبة للازدحام الذي كان يعانيه باقي المعتقلين: التوتّر والضغط النفسي وعدوى الأمراض وكميات الطعام التي توزّع على المهاجع دون الأخذ في الاعتبار عدد نزلائه.
بعد معاناة قاسية دامت أشهراً لم يكن من الصعب خلالها التوصل إلى حقيقة مفادها أن ليس ثمة قرار سياسي بتصفيتنا جسدياً، ولكن كل ما عدا ذلك كان متاحاً ضدنا إلى ما لا نهاية. وكانت وسائلنا الدفاعية شبه الوحيدة التململ الجزئي والصبر ونزع الذرائع. ومع استمرار دورة الآلام اليومية لم يبق أمامنا سوى خيار واحد وحيد: الرفض الواضح لهذه السياسة العقابية والاحتجاج على كل تلك الممارسات المجنونة. وفعلاً خرجنا تدريجياً من وطأة القهر والخوف، وارتفعت أصواتنا، وبدأت مطالبنا تتزايد، وكذلك حاجاتنا، مدركين في الوقت نفسه أن ما نطالب به لا يعدو كونه أدنى متطلبات وحقوق السجين السياسي، من قبيل: وضع حد للضرب العشوائي، رفع الرأس وفتح العينين لدى خروجنا إلى باحة التنفس، تحسين الطعام، إيقاف الشتائم والإهانات، تلقّي المعالجة الطبية، الحصول على كمية من المنظفات كافية (الصابون العسكري طبعاً)، توفير الصحافة والكتب من مكتبة السجن - وهذا المطلب الأخير لم يتحقق إلا بعد خوضنا الإضراب الأول (ليوم واحد) في 6/6/1989، ولم ينتظم وصول الصحف المحليّة والكتب إلاّ بعيد إضرابنا الثاني عن الطعام (12 يوماً) وذلك في 12/10/1989، حيث تمّ نقلنا إلى مكان آخر كجزء من مطالبنا الجديدة. مع ذلك كله كانت مطالبنا، على الرغم من تحققها النسبي، تواجه بالتطنيش والتسويف والتقطّع. ولعلّ الهدنة الوحيدة التي عشناها هي تلك الفترة التي سبقت إضرابنا الثالث (17 يوماً) في 16/2/1991، الذي كنا نسعى من ورائه إلى تكريس ما حققناه خلال المرحلة الفائتة وانتزاع حقوق ومطالب جديدة. وفي هذا الإضراب كنا قد ازددنا ثلاثة، وصار عددنا تسعة عشر رفيقاً، وعلى الرغم من أن أوضاعنا باتت أقل سوءاً إلاّ أننا بقينا معزولين كلياً عن العالم الخارجي، محرومين من الزيارات لمدة خمس

سنوات ومن الأوراق والأقلام والراديو والثياب وعدة النوم الكافية.

* * *

في تدمر كان ثمة سؤال مصيري انبرى أمامنا من تلقائه: كيف سنحافظ على قوانا الذهنية والنفسية والجسدية بأقل الخسائر؟
حاولنا منذ البداية الاحتيال على الشرطين، الخارجي والداخلي، من خلال ابتداع وسائل مناوئة للوقت والأسر: كنا نتحاور، نتبادل الخبرات، نخلق وسائل تسلية من شأنها إزاحة كابوس المشاهد اليومية المريعة عن نفوسنا، كنا جميعاً نتعلّم من ونعلّم بعضنا بعضاً: قمنا بدورات تعليمية شفهية في الاقتصاد واللغات والعروض وما إلى ذلك، نحفظ الشعر كجزء من تمرين الذاكرة، ونتبارى شعرياً، ونحكي القصص والروايات والسيِّر الشخصية. اغتنت تعارفاتنا، وصرنا أكثر إحاطة وتفهّماً، واتضحت سماتنا بكل ما فيها من سجايا حسنة أو غير مستحبة، ومن تناقضات .. وأصبح الكل مرئياً في مرايا الكل. باختصار كوّنا بدائل حقيقية ولو متواضعة، وكنا نسعى إلى إدخال الفرح من أي كوةٍ متاحة. نحتفل بأعياد ميلاد أولادنا ومناسبات زواجنا، ولدى رؤية حمامة تحطُّ مصادفة فوق غصن شجرة السرو البعيدة، أو حين عصافير الدوري تقيم أعراسها الموسمية. في المعتقل تعابثك الذكريات فقط لكي تؤكد لك أن وجدانك ما يزال على قيد الحياة، وأن قدرتك على تحديد جهات أربع وسط هذه الدائرة الصوانيّة ما تزال حاضرة.
في بؤر عسف كهذه يضربك الجلاّد وهو يقهقه، ويتلو القاضي حكمه عليك وهو أشبه بمومياء ضاحكة، ويجلدك السَّجان فارضاً عليك أن تعدَّ العصي، حتى إذا سها عقلك تحت وطأة الألم، يعيدك إلى البداية، مستنسراً إلى أقصى الجبروت والانفلات من عناصره البشرية. في لحظات كهذه كنت أتذكّر نُعَرَةَ الخيل، تلك الذبابة الزرقاء الكبيرة التي تعذّب ضحيتها. تناور، تئز، تخاتل، إلى أن تنسلَّ إلى أنف الحصان. يتململ، يراوح، يدور في مكانه، يضرب برأسه صعوداً وهبوطاً، ينخر. تخرج. تعاوده، تداور، تنقض، تلدغ، تفرّ، تلتصق تحت الذيل. يركل الأرض بقوائمه، يتحرك بعشوائية المهتاج، يفتل عنقه، يضرب بذيله، يحمحم ألماً وغيظاً، يحتكّ بجذع

شجرة، يسقط يتقلّب، تفرّ، تدوّم، تئز تنتصر. وما إن يشرع بالوقوف ثانية على قدميه، حتى تستنسر من جديد: البغاث البشري زرقته سوداء قاتمة!!!

هذا العالمُ الأسري اللامتوازن، اللاعقلاني يريدك ألاّ تكفَّ عن عدِّ الخسائر، وألاَّ يخرجَ عقلك أو ذاكرتك من حمأة هذه المظلمة، الأمر الذي يفرض عليك تحدّياً ثنائياً، أوَّلهما إزاء الظرف المحيط بك وثانيهما إزاء كينونتك الداخلية. تنشأ لديك معايير خاصة لحبّ الحياة، تفترض بك خلق توازن يليق بذاتك الإنسانية، ونسج صراط لحمتهُ الفعل وسداته الإرادة الواعية.

إنها لحاجة ماسة أن يصير أحدُنا العقل البلسمي للآخر وصمّام أمانه على الرغم من جسامة الضريبة المترتبّة على مهمة كهذه.

أحياناً تكفي تمريرة يد على رأسك كي تنسيك الدم النازف من هامتك، تكفي ابتسامة خافقة، أو دمعة وارفة الرحمة كي تحيل اليأس بأساً، قل تكفي طرفة على سبيل التأسِّي كي تخلق مهزلة من كل هذه الدراما الجهنمية!! تلك هي الضمادات الإنسانية التي كانت ناجعة لجراحاتنا. وما دامت تندرج في إطار السلوك الجمعي فإن ضمانتها فيها، وكذلك عناصر استمرارها، ذلك أن القوى الذاتية لكل فرد تكون، والحالة هذه، محصلة لطاقات المجموعة البشرية التي تحتويك بين ظهرانيها.

بدءاً من محطة تدمر وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام خصمٍ وصديق في آن: الوقت. كنت مدركاً أنه في مكان كهذا، يمكن للوقت أن ينطوي على نقيضي الخصومة والصداقة، ولذلك فقد خضت الرهان معه، وربما جميعنا خاض الرهان نفسه، كل بطريقته الخاصة: من سيمتطي صهوة الآخر؟ كنت على يقين من أنه مزوّد بما تقتضيه عدّة الفارس أما أنا فكنت موثقاً بكل دواعي المطيّة.

هذا الرهان يتطلّب من السجين أن يشغل نفسه ما أمكن، أن يتخلّى عن بعض العادات الماقبل أسرية ويجترح لنفسه أخرى بديلة. أن يسأل نفسه كل ليلة: ما الذي فعلتهُ سحابةَ هذا النهار؟ أن يتأكد من أن عوامل تكيّفه مع الأسر فعّالة. فالتكيّف سيف ذو حدين، أحدهما ضدّك والآخر لك. أحدهما يودي بك إلى مهاوي كهفك الجوّاني فتتآكل ذاتياً وببطء، فيما الآخر يشدّ أزرك،

ويعلو بك فوق الأسر، ويمنحك القدرة على إيفاء ذاتك حقّها، وعلى إنصاف الآخر، الذي يشاركك المصير نفسه، ويجعلك أكثر اتساعاً للعطاء والتواصل والصدر، أي يقرّبك من كينونتك أكثر.

* * *

قد يسأل سائل: هل أضافت لك شيئاً هذه التجربة، هل أغنتك، هل أفقدتك شيئاً، وهل تركت آثارها عليك؟!

بين معتقل تدمر وسجن صيدنايا بضع مئات من الكيلومترات، وحلمٌ أو بعض حرية مبتغاة. البون بينهما خرافي في المحتوى. وصفرٌ عن متناول الحرية الحقيقية، وكلاهما استمرار للتجربة.

حين قالوا لنا: "ضبّوا أغراضكم"، تقمّصتنا ملامح الأطفال صبيحة "العيدية"! وعاودتنا قسمات الأمل بصورة مغايرة، كذا الأحلام ومشاريع الفرح. لم ننم طوال تلك الليلة التي سبقت ترحيلنا. إذن كان الخامس من أيار 1992 معلماً لا يُضاهى. خلع المكان عنه حياديته فتوادعنا مذ أصبح في ذمة الماضي. وهناك في صيدنايا السجن بدأنا نشهد آثار الزمن والشوق على وجوه رفاقنا، ثم أهلينا لاحقاً، ونشهد طلوع الشمس وغروبها، ومحكاماتنا في محكمة أمن الدولة العليا التي أحِلنا إليها في 7/5/1992، أي بعد وصولنا إلى سجن صيدنايا بيومين، واستمرت جلسات المحكمة حتى 27/6/1995 يوم صدور الحكم بحق مجموعتنا.

في سجن صيدنايا تعرّفنا الأوراق والأقلام والأصوات والوجوه والزيارات والراديو والثياب، وكل هذه الأشياء كانت مستحيلة في تدمر وتعتبر "ترفاً"!!

أبدأ من السؤال الفرعي الأخير لأقول: ما من شك في أن التجربة قد خلّفت آثاراً متنوعة قد يحتاج بعضها إلى وقت طويل كي يتم تجاوزها. ولكن ما مقدار هذه الآثار وكيف ستتمظهر؟، فهذا سؤال في عهدة الآخرين ممن يحيطون بي، وكذلك في قدرتي على غربلة ذاتي بصورة واعية وقصدية، بل تنخيلها حين ينبغي.

لا أدري بالضبط إلى أي حدٍ أصبحت متفارقاً مع أناي السابقة، لكنني أقدّر أنني تجاوزتُني في مواضع ومواقف وآراء عديدة. وأفترض أن هويتي ذات الأثافي الثلاث - الماضي والحاضر والغد - قد اتسعت إنسانياً، واحتدمت ربما، بصراعات ذاتية المنشأ أكثر بكثير من

السابق. ولعلّ الآخر، بوصفه المرآة الأنجع، يمكنه أن يعكس ما تغيّر لدي، تعديلاً أو إلغاءً أو تطويراً بصورة أقلّ خداعاً، وذلك أن مرآة الذات قد تشتمل على غبش مردّه نزعة التصالح مع الذات أو التستّر الضمني، وأحياناً على النقيض من ذلك: جلد الذات المبالغ فيه!! أستطيع الزعم بأنني بتُّ أرى الألوان بكل اتساعها الطيفي، محترماً تدرجّها القاضي بالتباين لا الإلغاء. وربما استطعت أن أنزع عني الميل إلى التفتيش عن إيمان تحصيني واهم، وترسخَّت قناعتي في أن تخليد المعتقدات أو محاولة إكسابها طابعاً مناعياً أمر مردّه التهيّب النفسي والخوف الفطري من كل ما هو جديد على المرء، ولذلك فغالباً ما نمارس تصفيات حقيقية لما يخالف قناعاتنا.

إن ضريبة من "كعب الدست" طولها خمسة عشر عاماً من السجن وثلاثة أعوام ملاحقة لا يمكن إلاّ أن تكتنف، شأنها شأن أي تجربة بشرية، لحظات ضعف وقوة، خسائر عامة وفردية، بقعاً مضيئة وأخرى، معتمة. والأمر الأكيد من بين هذه القضايا كلها، أنني أصبحت أكثر تشبثاً بأهداب الحرية التي تستحق أن يبذل الكثير من أجلها. فلو أخذنا بعين الاعتبار الفروقات في الخصائص الفردية بين الناس من حيث التجربة والوعي وتفرعاتهما، لحريٌّ بنا أن نضيف أيضاً عوامل الإضعاف المباشرة وغير المباشرة، وأن نرى إلى عناصر القوة أيضاً.

أولاً: ماذا يعني أن يُحكم على صديق سياسي لحزب معارض بـ 15 سنة أو بعشر سنين أو حتى بسنة واحدة؟ إنها الروح العقابية الردعية التي أرادت أن تجعل منه عبرة لشعبٍ بأكمله، وفزّاعة تقطع دابر القول ناهيكم عن الفعل السياسي. وقد نجحت هذه الروحية في ترويع الناس عموماً وتفريغ النخبة الثقافية والفكرية السياسية من أضعف إيمانها. وإلاّ ما معنى أن تزجَّ قوى المعارضة الوطنية في السجون وتجرجَر إلى المحاكم بالجملة دون أن نسمع صوتاً على سبيل المؤازرة أو الإنصاف من قبل مواطنينا من الساسة والمثقفين؟! أوليست فداحة أن يختزلَ العدد الهائل للمحامين السوريين إلى مجرّد كوكبة صغيرة من أكباش الفداء الذين تطوعوا للدفاع عن المئات من المعتقلين

السياسيين، على الرغم من إدراكهم أن هذه المحاكمات سياسية وأمنية أصلاً؟!!! ما معنى أن يكون هؤلاء الذين قضوا ربع أعمارهم أو خمسها أو سدسها في السجن مجردّين الآن من حقوقهم المدنية من دون أن تهتز شعرة لنقابة المحامين، أو تنبري جماعة من الأطباء لمعالجتهم صحياً أو .. إلخ؟!!! إنها أسئلة برسم الجميع. ليست تحسّراً على ما فات، وليست استجداء لصدقة. فهذه التجربة بكل ما لها وما عليها ما عادت ملكاً حصرياً لمن خاضها. وما ذكرته ليس سوى عيّنة لا نهائية من الأسئلة المرَّة التي انتابتنا داخل السجن وخارجه على السواء، هي أمثلة شبه نموذجية عن بعض عوامل الخذلان والإضعاف، وبالتالي فإن الشفاء من تداعيات الأسر الطويل يرتهن بعناصر عدة منها، الطبيعة الذهنية والنفسية للفرد، وطبيعة التجربة، وكذلك مجمل الشروط التي تلي محطة "الانعتاق"؛ أقصد ألاّ يكون ما ينتظرك هو مجرد حريّة مجازيّة أو انتقال جغرافي. أنا أؤمن بالنسيان الرحيم، لكنني لا أعتبر الماضي ماضياً إلاّ بمقدار التنكّر له، أو حذفه من تقويم الكائن البشري، أما تجاوزه على نحو إيجابي وفعال فهذا هو التحدي المطلوب.

من لحظات الضعف الأخرى، والتي تشكل في حدّ ذاتها شحنة إنسانية عارمة، أن يعتريك وجه أمّك أو زوجك أو ابنك!! أو أن تبادرك طفلتك على نحو مفاجئ وربما متوقع، قائلة: "أبي! لم أستطع أن أتذكّر منك شيئاً، على الرغم من صورك الموزّعة حول سريري!!!".

حين خرجت من المعتقل استقبلني والدي متوكئاً على عكازه الذي ورثه عن أبيه وقال وهو يغمرني بشيخوخته ذات العقد التاسع: هل تذكر يا بني تلك الخلاصة التي دونها النبي يوسف عليه السلام على جدار سجنه لحظة إطلاقه "هنا مقبرة الأحياء .. هنا تجربة الأصدقاء؟!".

* * *

قاصر كل قول عن الإحاطة بفيض المشاعر التي انتابتني لحظة عناقي "الحرية". ما من شك في أن رئتيَّ اتسعتا عن حاجتي بمقدار صراخ، على الرغم من إصابتي الرّبوية. أوجعني النور من جرّاء مديد الظلمة التي أودعناها. وكان الاختبار الأوّل، قل الانتشال الأول، صوت ابنتي على الطرف الآخر من الخط

الهاتفي. صوتٌ لم أتبيَّن من حشرجاته وفوضاه سوى موعدٍ على مفترق الجادة المؤديّة إلى بيت لا أعرف موقعه إلاّ في خارطة البال. دوّامة من الأحاسيس المتناقضة والأسئلة المشرعة كانت تتناهب الروح والعقل آنئذ. بعد قليل ستلتقي بكل منتظريك على قارعة الغياب، يرفعونك إلى السماء السابعة من انعدام الوزن، ويجرِّدونك من الزمان والمكان في طرفة عين. لكنْ، ما إن تقع عيناك على أم ترى فيك ابنها الأسير بعدُ، حتى يستبدّ بك البكم فتطرق رأسك لكأنك المسؤول عن إبقائه رهن الأسر. تطالعك وجوه من ودعوك عند الباب الأوّل وشيّعوك حتى الباب الأخير المؤدي إلى "حريتك" وأنت أعجز عن التفاتة إلى الوراء. تزدرد شهقةً أمِلوها لك صعدَاء، فتنكمش خلايا الفرحة منذ تلك اللحظة. إذ ذاك تتأكد للمرة الألف من أن لا شيء بلغ منتهاه بعد: لا الفرح ولا الحزن، لا المكتسبات الصغيرة ولا الخسائر، حتى أن اسمك الذي كان لك ذات ولادة، يعود إليك متوجّساً، قبل أن يستجمع شجاعته وينزع عنك الرقم الذي منحته خلال سني أسرك.
أنت خارج من "العالم الآخر" إلى عالم لا يشبهك، كأن كلاً منكما غريب عن الثاني. تقتحم الحياة وأنت مدرك تماماً أن الكثير من معاييرك الأسرية صارت في عهدة الماضي وأن صراعاً، من نوع آخر، سوف تكون معنياً بخوضه، ليس أقلّه ردم تلك الهوّة الزمنية التي تفصلك عن البشر، بكل ما انطوت عليه من تغيرات. إذ ذاك، أيضاً، تترسّخ لديك حقيقة أن القدَر الذي اخترته طواعية ذات يوم لا يتوقّف ثمنه عند الشريحة الزمنية التي سدّدتها من عمرك، بل يتعدّاها عمقاً واتساعاً. فالتصورات والأفكار التي كنت تجهد في صوغها داخل الأسر لم تكن تُمتحن على محك الواقع بما يكفي لتجنيبك المفاجآت اللاحقة على مسرح الحياة.

* * *

لا يكفي القول إن اعتقالي، بوصفي سجين رأي، كان مظلمة كبيرة. فالظلم الأكبر هو ما يتصل بظروف الاعتقال والتحقيق وشروط السجن الرديئة، خاصة في السنوات الخمس الأولى، ناهيكم عن شروط المحاكمة وآثارها الكارثية التي لحقت بنا خارج السجن: كالتجريد من الحقوق المدنية، وكذلك ما يترتب عليها من نتائج

اقتصادية واجتماعية وحقوقية. ففي ظل غياب العدالة، بل في غياب القانون أصلاً، ليس ثمة حام أم مرجع يمكن أن يفزع إليه المرء، وهذا ينطبق على مساحة زمنية امتدت لعقود كانت خلالها قوانين الاستثناء والأحكام العرفية - وما تزال بالطبع - سيفاً مسلطاً على رقابنا. إن ظروفاً كهذه شكلت مع الزمن واقعاً استثنائياً هو الآخر، يستمد قوته واستمراريته من الخوف والمصلحة، ومن القناعات الايديولوجية والسياسية التي تستميت في الدفاع عن كل ما قائم من ظلم وفساد وتغييب للقانون وانتهاك للحريات، العامة والفردية على السواء، وتسيّد مطلق على الجميع. وهنا بالضبط يصبح الاحساس بالظلم مزدوجاً - بماضيه وراهنيته - وما دام الحاضر مقروناً إلى نير الماضي وينوء بثقله وتركاته إلى حد الجهالة. وهنا بالضبط لا يعود ممكناً أصلاً فصل المعاناة الفردية عن تلك التي يكابدها المجتمع بأسره. وبالتالي فإن الحديث عن الأمل أو فقدانه، عن التفاؤل أو التشاؤم، يكف قطعاً عن أن يكون مجرد نتاج طبيعي للنزعة الفردية. بوسعي الزعم أن طبعي التفاؤلي قد زودني بالأمل والصبر طوال سنوات الأسر، بيد أن ذلك لا يغير كثيراً من حقيقة أن ما واجهناه من إحباطات وآلام وفداحات كان فظيعاً.

قبيل خروجنا بعام كنا - نحن النظّارة عن بعد - نسمع ونقرأ ونراقب ونتأمل الأحداث والتفاعلات الجارية في ساحتنا السورية ونحن بين مصدق ومستغرب، ليس لأن ما يحدث غريب من حيث المبدأ، وإنما لأنه يحدث في سورية على وجه التحديد، مدركين في الوقت نفسه أن المناخ العام الذي رافق تلك المتغيرات قد سمح لنوع الحراك السياسي الجزئي بالظهور وذلك تعبيراً عن التوق المزمن إلى الحرية والرغبة في مواكبة التطورات العالمية المتسارعة والمتلاحقة، وربما أيضاً انطلاقاً من إحساس البعض أن ملامح جديدة قد ترتسم في الأفق القريب. وقد أطلقت تسميات عديدة على هذه الأجواء: "ربيع دمشق"، "الحرية أخيراً"، "بشائر الإصلاح" .. إلخ، مستمدة فحواها من مقابلات الرئيس وخطاب القسم وما تلاها من نشاطات عامة مختلفة: مقابلات إذاعية وتلفزيونية، بيانات وتصريحات، حوارات على صفحات الجرائد المحلية والعربية، منتديات ثقافية وسياسية. بيد

أن لجوء النظام إلى مواجهة هذه النشاطات الديمقراطية، وعلى الرغم من طابعها السلمي - الإصلاحي الصرف - بطرائق قديمة جديدة (أمنية) يؤكد استمرار البنية العقلية والنفسية ذاتها للنظام السياسي. كما أن الخطاب السياسي للنظام لا يزال يتجه إلى الخارج أصلاً وليس إلى الداخل.

ما من شك في أن الضرورة الموضوعية هي الباعث الفعلي لأي تغيرات، نوعية كانت أم كمية، وإذا كان "الإصلاح" في سورية ابناً شرعياً لهذه الضرورة، وهو كذلك حقاً، وإذا كانت الأزمة العامة، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والايديولوجية جاثمة ومستفحلة إلى حد لا يمكن معه إنكارها فإن السؤال الأهم يرتبط أولاً بالاعتراف بوجود الأزمة ثم بالبحث عن جذورها ومعاينتها وتشريحها دون أي خداع للذات، أي بطرائق كفيلة بأن يبعث "بعل" من عالمه السفلي ليس بصفة موسمية وإنما كضرورة فعلية لإعادة الروح إلى الجسد المجتمعي برمته.

* * *

أما بصدد سير المحاكمة وتوجيه التهم إليَّ من قبل محكمة أمن الدولة العليا وصولاً إلى جلسة النطق بالحكم فيمكن إيراد ما يلي:

في 7/5/1992، أي بعد يومين من وصولنا إلى سجن صيدنايا، جرت إحالتي إلى محكمة أمن الدولة العليا، وكانت الجلسة الأولى في هذا التاريخ، والجدير بالذكر أن أكثر من خمس سنوات كان مضى على اعتقالي عرفياً، وهناك معتقلون آخرون كانوا قد أمضوا أكثر من عشر سنين قبل إحالتهم إلى هذه المحكمة. ولعلَّ قراراً كان قد اتخذ بإحالة معتقلي الرأي جميعاً، شمل أحزاباً سياسية أخرى: الحزب الشيوعي السوري - المكتب السياسي، حزب البعث الديمقراطي، حزب العمال الثوري، حزب العمال الكردستاني P.K.K، إضافة لمعتقلي لجان الدفاع عن حقوق الإنسان وقوى قومية وإسلامية أيضاً.

وبصفتي عضواً في حزب العمل الشيوعي في سورية، ومؤيداً لبرنامجه السياسي وشعاراته التي أقرّها المؤتمر التأسيسي، وممارساً لحقي الذي مُنحتهُ أصلاً

من قبل الدستور السوري - على الأقل نصّاً - فقد تمت ملاحقتي ومن ثم اعتقالي فمحاكمتي.
رفضت الإجابة على جميع الأسئلة التي وجَّهها إليَّ قضاة التحقيق، اللهم ما خلا تأكيد عضويتي وموقعي التنظيمي في الحزب وقد طالبتُ على غرار الكثيرين، بإحالتنا إلى محكمة مدنية عادية علنية وعادلة بديلاً عن محكمة أمن الدولة العليا الاستثنائية واللادستورية، ولمّا كان ذلك مستحيلاً فقد طالبنا بعلنية الجلسات مراراً، وكان ثمة استجابة جزئية من قبيل السماح لذوينا ومحامينا بالحضور. وخلال هذه الفترة تقدّمت بطلب رسمي إلى رئاسة محكمة أمن الدولة العليا ذكرت فيه:
"السيد رئيس محكمة أمن الدولة العليا:
سبق لي وقبلت أن أوكّل محامين للدفاع عني، كما تهيأت للدفاع عن نفسي شخصياً، أملاً أن تتيح لي المحكمة ولو حدّاً أدنى من الشروط والحقوق التي تسمح لي على الأقل بإيصال صوتي إلى المعنيين والمهتمين من أبناء شعبي وقواه السياسية، والهيئات المختصة بحقوق الإنسان محلياً وعربياً وعالمياً.
وإذا ظهر بعض الإيجابيات المحدودة جداً في بداية سير المحاكمة، والتي كان يمكن لها، لو استمرت في التصاعد إيجابياً، أن توفّر جزءاً بسيطاً من شروط المحاكمة العادية المعروفة لديكم جيداً. إلاّ أن الوقائع اللاحقة لم تكن متناسبة حتى مع الوعود التي قدّمت في الجلسات الأولى، لذلك أرى لزاماً عليّ إبلاغكم أنني أرهن استمراري في توكيل المحامين بتوفّر شروط المحاكمة العلنية والتي ألخصها بما يلي:
1 - السماح لكل من يرغب بحضور الجلسات.
2 - السماح للمحامين وللمتّهمين بتقديم مرافعاتهم شفهياً.
المعتقل بسبب الانتماء إلى حزب العمل الشيوعي في سورية - عباس محمود عباس".
بالطبع لم تجد مطالبنا هذه أذناً صاغية، زد على ذلك أننا حُرمنا كمتهّمين من حيازة لائحة الاتهام التي تُليت على مسامعنا شفهياً. وقد تضمنت اللائحة الموجهة ضدي التهم التالي:
1 - جناية الانتساب إلى جمعية أنشئت بقصد تغيير كيان الدولة وفق المادة 306 من قانون العقوبات العام.

2 - جناية مناهضة أهداف الثورة عن طريق القيام بالتجمّعات والتحريض على أعمال الشغب وبنشر الأخبار الكاذبة بقصد البلبلة وزعزعة ثقة الجماهير بأهداف الثورة وفق المادتين 3 و 4 من المرسوم التشريعي رقم 6 لعام 1965.

3 - جناية القيام بأعمال مخالفة لتطبيق النظام الاشتراكي.

خلال الفترة اللاحقة كانت الجلسات تتواصل بين تأجيل وانعقاد شكلي إلى أن تبيّن لي بما لا يقبل الشك أن جميع المطالب المطروحة كانت تتبخّر تدريجياً، الأمر الذي دفعني إلى تقديم بيان مقاطعة في إحدى جلسات الدفاع التسويفية، بعد أن كنت قد حضّرت مرافعتي الشخصية، وكذلك المرافعة الجماعية التي شاركت في إعدادها وصياغتها، كما كنت قد أبلغت المحامين الموكّلين بالدفاع عني بموقفي هذا وسحبت التوكيل. وقد جاء في بيان المقاطعة، الذي سلمتّه إلى المحكمة ما يلي:

"منذ البداية كان واضحاً لي، وكنت مدركاً تماماً ماذا يعني أن أمثل أمام محكمة استثنائية تشكّل في الأصل امتداداً عضوياً للسلطة التنفيذية التي هي من وجهة نظري سلطة ديكتاتورية استثنائية لا شرعية، مثلما كان واضحاً لي بالقدر نفسه أن القوانين التي أحاكَم في ظلها هي أيضاً قوانين الطوارئ الإستثنائية، والأمر نفسه فيما يتعلق بالمرسوم 6 الذي أحاكم بالاستناد إليه. ومع ذلك قبلتُ أن أوكل محامين عني كما تهيأت للدفاع عن نفسي شخصياً أملاً في أن تثبت المحكمة بالملموس قدراً من الاستقلال الكافي عن توجيهات السلطة التنفيذية وأجهزة الأمن، خصوصاً بعد ظهور بعض الإيجابيات المحدودة جداً في بداية المحاكمة التي كان من المقدَّر لها، لو استمرت في التصاعد إيجابياً، أن توفر جزءاً ولو بسيطاً من شروط المحاكمة العادية. ولأن الوقائع اللاحقة لم تكن متناسبة مع الآمال، والوعود التي قُدمت سابقاً، ولأن جميع جلسات الدفاع تنعقد دون أن يسمح لمن يرغب بحضورها الدخول إلى قاعة المحكمة، دون أن يتاح لي أو للمحامين تقديم المرافعة بصورة شفهية، لا سيّما أن مقابلتي الوحيدة مع المحامي لم تتح لي الاطلاع على دفاعه عني، ولأنني

اضطررت أيضاً لإعداد دفاعي الشخصي دون تسلُّم نصّ الاتهام مكتوباً .. أقول لأن كل ذلك كذلك .. ولأن المحكمة لم تثبت بالملموس استقلاليتها عن السلطة التنفيذية مما جعلها تفقد هي الأخرى أي شرعية، فإنني أسحب توكيلي من جميع المحامين الذين سبق لي أن وكلتهم وأعتبر أن أي محام تعيِّنه المحكمة لا يمثلني إطلاقاً، وأعلن مقاطعتي لمحكمتكم، وأعتصم بالصمت، محتفظاً بما أعتبره حقي في حجب دفاعي عن هيئة المحكمة، وتقديمه إلى أعلى مرجعية في وطني .. أعني شعبي.

المعتقل بسبب الانتماء إلى حزب العمل الشيوعي في سورية - عباس محمود عباس".

قررت المحكمة بتاريخ 27/6/1995 وبموجب القرار رقم 33 تجريمي بـ:

1 - جناية الانتساب إلى جمعية والحكم عليَّ بالأشغال الشاقة مدة خمس عشرة سنة.

2 - جناية مناهضة أهداف الثورة والحكم عليّ بالأشغال الشاقة مدة ست سنوات ولكون هذا الجرم مشمولاً جزئياً بقانون العفو رقم 11 لعام 1988، تمّ تنزيل العقوبة إلى أربع سنوات ودغم هاتين العقوبتين، وتنفيذ الأشد، وهي أشغال شاقة مدة خمس عشرة سنة وفق المادة 204 من قانون العقوبات العام.

3 - جرى تجريدي مدنياً عملاً بأحكام المادتين 50 و 63 من قانون العقوبات العام، على أن تُحسب لي المدة اعتباراً من 14/4/1987.

4 - براءتي من جناية مخالفة تطبيق النظام الإشتراكي.

والتعقيب الوحيد الذي يمكن قوله بصدد هذه الأحكام هو أنها خارج نطاق المعقول، وأنها أحكام سياسية أمنية لا تمت إلى المشروعية القانونية بصلة.

أحكام رادعة عقابية مطابقة للتهم التي فُصِّلت سلفاً على قدّها، مجرِّدة المتهم وجهة الدفاع من وسائل الطعن أو النقض لدى أي مصدر قضائي.

وهذا بحد ذاته ما يؤكد لا دستورية تشكيل محكمة أمن الدولة العليا، ومجافاة مرسوم تشكيلها لقواعد العدالة والحق والقانون، وتناقضها الصارخ مع المادة 18 الفقرة 4 من الدستور السوري: "حق التقاضي وسلوك

سبل الطعن والدفاع أمام القضاء وصونه بالقانون".
ناهيكم عن المواد والفقرات الدستورية الأخرى!!!

[الشهادة الرابعة]
شهادة
مهندس سوري يروي تجربة اعتقاله في تدمر: أطباء معتقلون
أجروا عملية زائدة دودية في المهجع

تنشر مجلة "العدالة" هذه الشهادة دون توقيع صاحبها مراعاة لظروفه الخاصة

عرّفني أحد الأصدقاء على الدكتور رامز طباع في مهجرنا العربي الذي اخترناه رغماً عنا لأن وطننا ضاق صدره بنا. كان لقائي مع الدكتور الطباع عفوياً وحدثته فيه عن معاناتي أنا وآلاف غيري في سجن تدمر الذي لم

يكن يتصور عقل آدمي أنه موجود على هذه الكرة الأرضية.

أصر عليّ الدكتور رامز أن أكتب فقلت له أنا لا أجيد فن الكتابة، لكنه أصر وحدثني عن عامل الصدق والحرارة في كتابة المذكرات وهي ما تتوفر في كلماتي.

وعدته خيراً وبدأت بكتابة جانب من مذكراتي في سجن تدمر، فوجدت أنها تتقاطع مع شهادات أخرى كتبها غيري، بل وكانوا أقدر مني في فن التصوير ونقل الحالة كما شعروا بها، فاستشرت الدكتور رامز الذي أصرّ على أن أكتب دون أن أضع شيئاً في اعتباراتي .. فبدأت ولم أنتهِ حتى هذه اللحظة. وطلبت منه أن ينشر شهادتي المختصرة هذه في مجلة "العدالة" على أن أستكملها وأتوسع فيها في فترة لاحقة وكان هذا الوعد بيننا.

مناضل شبيبي

لم أتخيل في يوم من الأيام أن أكون سجيناً سياسياً، ولم يخطر في بالي مجرد خاطر أنني سأكون حبيس أشد معتقلات العالم قسوة، دون أي سبب مقنع. فأنا حتى هذه اللحظة ومنذ خروجي من المعتقل قبل نحو عشر سنوات لم استطع أن أجد سببا واحدا مقنعا يجعلني أمضي زهرة شبابي في مهجع بين أعدائي الطبقين والأيديولوجيين (الإخوان المسلمون) الذين حاربتهم في الجامعة وكنت قائداً لإحدى الكتائب البعثية المسلحة التي كانت مهمتها قتالهم قتال شوارع؟!!
أنتمي لأسرة فلاحية نصف بدوية من منطقة الفرات، ومنذ أن وعيت على هذه الدنيا كان البعث والقائد يلازمان حياتي. قضيت معظم فتوتي وشبابي في رابطة الشبيبة حيث كنت أقود الاجتماعات وأذهب إلى المعسكرات ألقي على الرفاق الشبيبيين المحاضرات التي تشرح فكر القائد، وتهيئ الأجيال للانضواء في هذه الدورة النضالية، التي لم أكن أعرف من الدنيا غيرها.
كنت أقضي بعض الأيام والليالي في مقر الرابطة الشبيبية أعد الأعلام، أنا والرفاق، واللافتات التي سننصبها في مفارق الطرق، أو نوزعها على المسيرات التي كنا نهيؤها في الأسبوع مرة أو مرتين، فبلدنا مهدد

والمؤامرة الداخلية في قمة أوجها ولا بد من حشد التأييد للقائد والثورة.
نحن أبناء الريف درع الثورة، قاعدتها الخلفية وعمقها الاستراتيجي، والذخيرة المخبأة لوقت الشدائد. هكذا كنا نفهم الأمور وهكذا تعلمنا، والمؤامرة كبيرة كبر الوطن العربي ولا بد من التصدي لها.
في عام 1982 لم يمض يوم إلا وخرجنا فيه بمسيرة تأييد ومبايعة، لم أكن أذهب إلى البيت إلا لماماً، فقد كلفت بقيادة كتيبة بعثية مسلحة، وكنا نقيم الدورات في معسكرات الصاعقة وبعض الثانويات نتدرب على السلاح والاستعداد لاقتحام أوكار "الخُوّان" المسلمين، كما كنا نسميهم.
في هذا العام كنت في السنة الثالثة في كلية الزراعة، وأميناً لفرقة حزبية، وعضو قيادة شعبة حزبية، ومرشحاً قوياً صاعداً لمناصب أعلى، أقربها عضو في قيادة فرع الحزب.
كان الحزب محور حياتي ووالدي ووالدتي يستنكران علي ذلك قائلين: ماذا سيفيدك الحزب طالما أن دراستك مؤجلة؟ وكنت أرد عليهم بكل صدق أن التحديات التي تواجه الوطن كبيرة ولا بد من التضحية!
مضت السنوات على هذه الحال إلى أن تخرجت عام 1984 مهندساً زراعياً وتم تعييني في مشروع استصلاح الأراضي في الفرات، وكان هذا أقصى ما أطمح إليه على صعيد العمل، فيما واصلت مهماتي الحزبية التي كنت مرشحا فيها كما أسلفت لمناصب ومهمات أرفع.

ضالع في مؤامرة لليمين المشبوه
وفجأة، ودون سابق إنذار أتت فجراً سيارة مخابرات إلى بيت أهلي واقتادتني وسط ذهولي وذهول والدي ووالدتي إلى فرع الأمن، الذي رحلني إلى فرع التحقيق العسكري في الليلة التالية.
ما أذكره الآن بعد هذه السنوات أنني كنت أشبه بالإنسان المخدر لا أعرف ما الذي يجري بالضبط ولا السبب الذي يجعلني أقف هذا الموقف الذي كان خارج تصوراتي.
مضى علي أكثر من أسبوع في إحدى المنفردات لا أحد يكلمني ولا أكلم أحداً. كانت المنفردة بحجم القبر

وأصوات الأنين والشكوى تنبعث من المنفردات المجاورة وأصوات السجانين تشتم وتلعن.
خلال هذا الأسبوع طالت ذقني وهزل جسدي وكأنني قد قضيت دهراً في أحد الكهوف.
اقتادني عناصر الفرع إلى غرفة التحقيق "مطمشاً" وكان هناك رقيب أو مساعد بانتظاري، بعد ساعة من الانتظار وأنا واقف طلب من أحد العناصر أن ينزع الغطاء عن عيني، وألفيته يضع دستة من الأوراق أمامه.
قال لي بسخرية: أرى أن سيرتك حسنة فما الذي ورطك هذه الورطة؟ قلت له أي ورطة؟ نهض من مكانه وصفعني بيده على وجهي وهو يقول: قول سيدي ولا وعامل حالك مالك دريان.
قلت: سيدي أقسم بالله العظيم أنني لا أعرف عن ماذا تتكلم؟
قال: وعم تحلف بالله وبدأ بالتجديف على الله والأنبياء والرسول.
مضت جلسة التحقيق على هذا المنوال وضربت ضرباً مبرحاً في كل أنحاء جسدي ووضعوني على الدولاب وضربوني حتى تورمت قدماي ولم أعد أستطيع المشي عليهما، وهنا أمرني "سيدي" أن أعدو داخل غرفة التحقيق الكبيرة نسبيا كي لا يتجمع الدم بقدمي.
بعد أسبوع من التحقيق العبثي والعذاب المنهجي الجسدي والنفسي اقتادني السجانون إلى غرفة الضابط، كالعادة كنت مطمشاً بقطعتي جلد على عيني.
تظاهر الضابط باللين وحدثني عن تاريخي البعثي المشرف وأشفق على حالي لأنني ورطت نفسي مع اليمين المشبوه!
لأول مرة أسمع كلمة اليمين المشبوه. فقلت له ماذا تقصد سيدي؟ وهنا انفجر غضبه وانهال علي لكماً وشتماً وضرباً وهو يقول: وعم تغشم حالك يا ابن الكلب؟ وهنا تدخل عناصر كانوا موجودين دون أن يبدر منهم صوت وأخذوني وأعادوني إلى زنزانتي المنفردة.
في الزنزانة لم أستطع أن أجد علاقة بيني وبين اليمين المشبوه الذي سمعته للتو.
أنا أعرف أن صفة اليمين المشبوه تطلق على جناح البعث العراقي وأنا شخصياً لم أكن على علاقة مع أي عراقي حتى خلال دراستي الجامعية، وكانت جامعتنا

مليئة بالطلبة العراقيين، حتى الدكتور العراقي الذي كان يدرس في كليتنا واسمه على ما أذكر محمد الحبوبي لم ألتق به بشكل منفرد طيلة فترة دراستي، فمن أين أتتني هذه التهمة؟
بعد أسبوع من العذاب اليومي والتحقيقات الشكلية طلبني الضابط مرة أخرى، وذكر على مسمعي عدداً من الأسماء، وطلب أن أوضح علاقتي بها. كان من بين الأسماء ابن عم لي كانت علاقتنا متينة، وكان ضابطاً في الجيش وأنا أعرف أنه لا علاقة له بالسياسة، لا من قريب ولا من بعيد.
أخبرني الضابط بعد سيل من الشتائم والضرب والركل أن تهمتي هي الاشتراك بمؤامرة للبعث العراقي لتنفيذ عمليات تخريبية في البلاد والسعي لتأسيس تنظيم حزبي معادٍ.
بعد ذلك جرت محاكمتي أمام المحكمة العسكرية لأن في القضية طرفاً عسكرياً، وحُكم علي بالسجن عشر سنوات. وما هي إلا لحظات وكانت سيارة شرطة عسكرية تأخذني إلى معتقل تدمر، إذ علمت فيما بعد أن ابن عمي الضابط الذي اتهم هذه التهمة الباطلة مات تحت التعذيب في فرع التحقيق العسكري.

في مملكة تدمر

الآن وبعد هذه السنوات تبدو ذكريات تدمر أشبه بلحظة واحدة متشابهة، فقد اكتشفت أن ذاكرتي لعبت في المكان ومسحت أشياء كثيرة منه، وربما تناستها لأن الزمن الذي دخلت فيه المعتقل يكاد أن يكون خارج سياق حياتي ولا أستطيع أن أضمه لسني عمري.
في معتقل تدمر أنت لا شيء، وخصوصاً إذا كنت متهما ببعث العراق أو الإخوان المسلمين، فنحن دمنا مهدور، وهذا يعني أن الذي يموت منا تحت الضرب والتعذيب لا أحد يسأل عنه أو يحاسب من أجله .. بخلاف المعتقلين الشيوعيين الذين كانت لهم مهاجع خاصة مختلفة ومعاملة أقل قسوة، وطبعا بخلاف المعتقلين الجنائيين الذي كانوا يعذبوننا أيضاً ويطلق عليهم اسم البلدي.
في مهجعك أنت مكشوف مراقب من خلال فتحة في السقف طوال ليلك ونهارك وحتى الكلام ممنوع عليك.

في السنة الأولى لاعتقالي وكان نزلاء مهجعي كلهم من الإخوان المسلمين أو من يسمون كذلك، لأن الكثير منهم كما اكتشفت فيما بعد لم تكن لهم علاقة بالتنظيم لا من قريب ولا من بعيد، وساقتهم أقدارهم العاثرة بفعل تقرير كيدي أو دسيسة من أحدهم إلى هذا الجحيم.

أقول في السنة الأولى كانت علاقتي بنزلاء المهجع علاقة سيئة، لم أكن أحبهم وكنت أنظر إليهم بريبة وأتحاشى الحديث معهم إن سمحت الظروف بذلك، إلى أن مرضت مرضاً أقعدني أسبوعاً كاملاً طريح الفراش. ارتفعت حرارتي ولم تهبط، وأصبت بنزلات برد متوالية ولم أعد أستطيع النهوض. وقام رئيس المهجع بإبلاغ الرقيب بالأمر فحولني إلى الطبيب، الذي أشك في أنه ليس أكثر من ممرض فذهبت إليه محمولاً، فأعطاني قمعاً ورقياً فيه حبوب بيضاء لا أعرف ما هي، ولكن المعتقلين الآخرين أكدوا أنها تعطى للجميع وطلبوا مني أخذها دون تردد.

لم تتحسن أحوالي وكان بعض العناصر المكلفين بعقابنا اليومي يطلبون إخراجي من المهجع للشروع بتعذيبي لكنني كنت لا أقوى على النهوض، وهذا لم يكن يمنع البعض منهم من ضربي وشتمي.

في إحدى الليالي كنت أرتعش من البرد وأنا أصرخ من الألم فقام أحد عناصر الحراسة الذين يتواجدون على سطح المهجع "بتعليمي"، أي أنه يقول لي: علّم حالك، وفي الصباح يخرج الشخص "المعلّم" لينال عقابه المميز وإلا فإن العقاب سيكون من نصيب الجميع.

في اليوم التالي خرج بدلاً مني أحد المعتقلين من الإخوان المسلمين وكان رجلاً متوسط العمر ويعاني من الأمراض المزمنة، ومع ذلك نهض وحاول آخرون ثنيه والخروج بدلاً عنه، إلا أنه أصرّ قائلاً إنهم سيراعون سنه ويكون العقاب خفيفاً.

لم يكن العقاب أخف من المعتاد وعاد إلينا أشبه بخرقة بالية. نال الضرب بالكابل الرباعي والركل والشتم، كله بدلاً عني. عند هذه الحادثة بدأت أنظر بعين مختلفة إلى رفاق السجن وبدأت مشاعر الود تنمو بيننا يوماً بعد يوم، واكتشفت أن أكثر من طبيب يعيش بيننا وصيدلي وطبيب أسنان.

تحسنت صحتي بفضل العناية التي لقيتها من زملاء المعتقل الذين كانوا يدخرون الطعام لي وحتى الدواء الذي يتكون كما قيل لي من المضادات الحيوية لا غير.
بدأت أقترب من رفاق المهجع وبدأنا نختلس الأوقات لتبادل الأحاديث وعرفت قصص أغلبهم ومعظمهم كما قلت كانوا لا علاقة لهم بتنظيم الإخوان المسلمين وإنما بسبب تقارير أو صلات قربى أو انتماء فكري فقط .. فالذين ثبت انتماؤهم العسكري كانوا قد أعدموا في سلسلة محاكمات استمرت عدة أعوام وعندما وصلت إلى تدمر كانت شبه منتهية اللهم إلا بعض الطوارئ.
كان برنامجنا اليومي يبدأ منذ الصباح بحفلة تعذيب تستمر إلى أن يحين موعد الإفطار فنتناول فطورنا المكون من بضع حبات من الزيتون وشاي لا لون فيه وخبز مليء بالأخشاب. وهناك حفلة تعذيب على الغداء وأخرى قبل العشاء، هذا غير الذي يقترحه علينا رقيب غضبان أو عريف مصاب بحالة عصبية.
أحد زملاء المهجع له زيارة يستطيع أن يجلب له أهله مسحوقاً من الحمص يُضاف إليه الماء فيصبح حمصاً ناعماً نأكله كوجبة نادرة نظراً لنوعية الطعام التي تُقدم لنا كالبطاطا المسلوقة أو شوربة حمراء وبرغل مليء بالحصى أو رز خالٍ من الدسم.
ذات يوم كان المعتقلون يتحدثون عن رقيب ديري هو الوحيد الذي لا ينتمي للطائفة العلوية، فكل السجانين والحراس والضباط وصف الضباط في تدمر هم من الطائفة العلوية. كان هذا الرقيب ويدعى جاسم يبالغ في تعذيبه للمعتقلين، وصيته وصل إلى كل المهاجع. سمعت عنه ولم أره، وكم فوجئت وفوجئ حتى كاد أن يقع من طوله عندما رآني. لقد كان أحد الرفاق الشبيبيين الذين كنت أجتمع بهم. تدارك الأمر وصفعني على وجهي طرحني أرضاً وهمس في أذني ما الذي أتى بك إلى هنا؟ ودار حديث بيننا وهو يعذبني لكي لا يلفت نظر أحد.
كان يركلني ويسألني ماذا تريد؟ ويطرحني أرضاً ويعتذر مني قائلاً إنه مضطر لذلك.
لم أستوعب هذا الموقف إلا بعد أن أخبرني بعض رفاق المهجع ممن سبقوني بأن رقيباً في السابق شوهد يتحدث مع أحد المعتقلين بشكل ودي فجرى إعدامه

وأصبح اسمه وقصته مصدر خوف لأي عنصر أو سجان أو رقيب في سجن تدمر.
مضت الأيام والسنوات على هذا الروتين واستطعت أن أحفظ القرآن خلال عامين، إذ كان المعتقلون قد ابتكروا طريقة للكتابة تتكون من أكياس نايلون يضعونها بطريقة معينة فوق بعضها ويستخدمون بعض دهون الطعام للصقها ثم الكتابة عليها وعندما تتعرض لمصدر نور يستطيع المرء قراءتها بسهولة وبهذه الطريقة حفظت القرآن إضافة لمساعدة الحافظين من جماعة الإخوان المسلمين.
كان حفظ القرآن مغامرة كبرى إذ قد تودي بالحافظ والمحفظ إلى المنفردة التي تعني جنوناً حقيقياً. أما تدريس فكر الإخوان في المهجع فيعني حكماً مباشراً بالإعدام ينفذه أصغر رقيب وبقرار شخصي منه.
ذات مرة آلمني ضرسي فكشف علي أحد زملائنا المعتقلين وكان طبيب أسنان وقال لي لا بد من قلعه. وأخرج من تحت فراشه أداة خشبية وثبتها بطريقة محترفة وقلع الضرس بسهولة لم أتوقعها.
وفي أحد الأيام أصيب زميل لنا بآلام شديدة في الخاصرة ولم يستجب له السجانون، وقد أكد أحد زملائنا الأطباء بأنه يحتاج إلى عملية زائدة دودية فوراً وإلا انفجرت ومات.
وبدأ إعداد غرفة العمليات في المهجع.
كان زملاؤنا الأطباء قد ادخروا بعض الخيطان والأبر وصنعوا مشرطاً من ليرة سورية قاموا بحفها.
وبدأت عملية الزائدة الدودية دون مخدر أو أدوات، وكان مطلوباً من البعض مراقبة الجو والبعض الآخر مساعدة المريض على عدم الصراخ بوضع كتلة من اللباس على فمه.
وجرت العملية بيسر وتم استئصال الزائدة الدودية التي تبين أنها كانت على وشك الانفجار. وتمت خياطة جرح المريض وأعطي لعدة أيام مضادات حيوية مدخرة وعاش وخرج من السجن .. فسبحان الذي بيده تقدير الأعمار.
هذا عن وضعي البائس. أما وضع أهلي فلم يكن أفضل من ذلك. ففي الفترة الأولى من اعتقالي طافوا على جميع معارفهم من المتنفذين ولم يستطيعوا أن يعثروا على خبر عني ولا أي شيء عن تهمتي. وقد ربطوا بين

اختفاء ابن عمي الضابط وبين اعتقالي وشكوا في أن الموضوعين على علاقة ببعضهما، فابن عمي اختفى في ثكنته العسكرية، وأحد ما أخبر أهله بأنه اعتقل، ولكن لم يعلموا بأنه مات تحت التعذيب في فرع التحقيق العسكري. وقد أخبرني أثناء التحقيق معي رقيب من مناطقنا بهذه المعلومة محذراً إياي من إفشاء هذا السر الخطير الذي قد يودي به.

خرجت من تدمر بعفو رئاسي ووجدت والدتي ووالدي مريضين، فقد فقدت والدتي عيناً من شدة البكاء، وفارقت وجه والدي الابتسامة التي كانت تلازمه أينما حل.

وبدأت معاناتي الحقيقية فور خروجي من السجن فأنا ممنوع من العمل ومجرد مدنياً، والكثير من الأصدقاء باتوا يخافون من الحديث معي أو زيارتي وأصبحت شبه منبوذ.

بعد أن وسّط أهلي وساطات كُبرى مُنحت إذناً بالسفر بعد ثلاث سنوات من خروجي، ووجد لي شقيقي الصغير فرصة عمل في دولة خليجية.

[الشهادة الخامسة]

الطريق إلـى تدمر

ياسين الحـاج صـالـح

نقلا عن النهار اللبنانية 1/7/2003

تروي هذه الأسطر تجربة مثقف سوري أمضى في السجن 15 عاما يروي فيها وقائع حياته اليومية في سجن تدمر ويدعو إلى تحويله نصباً يكرّم عذابات ضحاياه، ويسمّيه نصب التوبة.

دمشق...
لعلي لا اختلف عن سوريين كثيرين في النفور من أي تذكّر تفصيلي لوقائع من "سنوات الموت"، مثل مذبحة تدمر ،1980 أو تاريخ سجن تدمر كله بين أواخر السبعينات حتى إغلاقه عام ،2001 أو مأساة حماة ، 1982 أو حتى المحطات الرئيسية في تاريخ حبسي الشخصي. لا يختلف هذا النفور عن موقف من يغيّر دربه كي يتجنب رؤية جثة مشنوق تتدلى في مكان عام. وبعد كل هذه السنوات، مَن لا يريد اليوم ان يوفر على نفسه رؤية جثة القتيل المشوهة، المنفسخة!؟ لكننا أهل الميت، والجثة جثتنا ولا مفر من تعرفنا عليها وغسلها وإكرامها بالدفن. التذكر صعب حقا، لكن النسيان مستحيل.
في كل عام حين يقترب الشهر الأخير وتقترب ذكرى اعتقالي وذكرى الإفراج عني، يلحّ علي من جديد الشعور بضرورة ان اكتب حكايتي، اكتبها لا لأرث ارض الكلام واملك المعنى كما زعم محمود درويش، ولكن لأكف عن الهرب وأتخفف من عبء الحكاية. لكن كل عام، وقد قاربت سبعة يتكرر الهرب وتتأجل المواجهة من جديد. وتمر السنوات وأشعر أكثر واكثر انني اخون نفسي وأخون أصدقائي الذين ماتوا في السجن أو بعيد خروجهم منه، وأخون الامهات والآباء الذين ماتوا في الانتظار أو ربما اترك جثثهم في العراء. ولم يساعد احد السجين ان ينسى، وبخاصة لم تقدم السلطات الرسمية في البلاد أي مساعدة على النسيان للألوف ممن اكتووا بنار المحنة التي دامت طويلا طويلا. بل كأنها وهي تتحدث عن "الاستقرار والاستمرار" تريد ابقاء ذاكرة الخوف حية في النفوس. أو لعلها تريد لنا من الذاكرة ما يكفي لأن نبقى خائفين ومن النسيان ما يكفي لعدم مطالبتها بشيء. والا فتهمة الثأرية ونزعة الانتقام جاهزة. وامر هذا الاتهام عجيب بالفعل في درجة انعدام الامانة والاستقامة فيه. فكأن المظالم رُدّت لأهلها،

وكأن الحقوق عادت لأصحابها، وكأن كلمة واحدة قيلت لتطييب خواطر الضحايا، وكأن احدا اعتذر من "المذلين المهانين"، وكأن السجون فُرّغت من سكانها، وكأن منفيا واحدا عاد بكامل حريته، وكأن محكمة امن الدولة الغيت، والاعتقالات السياسية باتت شيئا من الماضي.... كأن ذلك كله تحقق لكن الضحايا السابقين مصرون على ركب رؤوسهم ولا يرضون بأقل من ان يسجنوا من سجنهم وينفوا من منفاهم... ويستبدوا.. ويتحكموا.

عبور مستنقعنا

لكني باستعادة تدمري الخاصة هنا احتفل بذكرى مذبحة 26 حزيران 1980 بطريقة ربما تتسع لمشاركة آخرين، واحاول التدرب على الانفصال عن تجربة ما انفكت ممسكة بتلابيبي. اريد ان اتركها في الماضي لأنال استقلالي عنها أو لأتحرر منها. لأستطيع ان اتذكر وانسى باختياري. فاذا كنت لا استطيع النسيان الآن فلأن الماضي لم يمض ولأني لا ازال موضوعا للتجربة وليست هي موضوعي. ولذلك ايضا لا استطيع ان اتذكر بحرية ماضيا لم ينفصل عني. ولعل كثيرين مثلي حاولوا ويحاولون السيطرة على شوك تجربتهم، ولعله لم تتح لمعظمهم فرص اتيحت لي لمقاومة الاستسلام. انا اعرف ان كثيرين استسلموا، تركوا انفسهم لاختلاط نسيان مشوش أو لتثبت الذاكرة على عذاب الماضي ومهانته، ترك بعضهم جرح روحه يندمل من دون ان ينظفه ويطهره، ويرعى بعضهم جرحه كأعز ما يملك، يتركه ينزف كي يدخر شراسة طازجة لمستقبل ينتقم فيه. لكن الاستسلام بشكليه، ليس خطيرا عليهم وحدهم، ولن اقول انه خطير على هذه البلاد الحزينة والمجهولة، انه خطير على أي فرص محتملة لنا لأن نتصالح مع انفسنا ونستحق حريتنا، كل واحد منا وحريتنا جميعا. الآن اضحى فك قيد الحكاية عنصرا اساسيا من أي تجربة ممكنة للتحرر من قيودنا. هذا المستنقع مستنقعنا نحن، لا نستطيع التحليق فوقه ولا توكيل غيرنا باقتحامه بدلا منا، لكن يمكن ان نعبره بحرص أو بطيش. الخيار لنا.

اللجنة
في الشهر الأخير من عام 1995 كنت قد انهيت 15 عاما من الحبس قضت بها عليّ "محكمة امن الدولة العليا" في دمشق، وهي المحكمة التي احلت عليها بين 600 آخرين في ربيع عام 1992 أي بعد قرابة 11 عاما ونصف عام من اعتقالي أو "توقيفي الاحترازي" (شيء شبيه بمذهب "الضربات الاستباقية"، اصاب عشرات الالوف بين أواخر السبعينات واوائل التسعينات"). وبدلا من ان يُطلق سراحي عُرضتُ على "لجنة امنية" من النوع الذي سبق لي ان خبرته اكثر من مرة. الشيء الذي تفعله اللجنة اسمه "مساومة" أي صفقة "يتعاون" السجين فيها مع اجهزة الامن (يقول اعضاء اللجنة، وهم ضباط كبار في اجهزة الامن، إن التعاون تعبير عن "حسن نية" السجين ازاء... الدولة!) فيشي بأصدقائه ورفاقه أو "يكتب التقارير" عنهم، أو على الاقل يتعهد عدم "العمل بالسياسة"، مقابل الإفراج عنه، والا يبقى في السجن الى ما شاء الله (ليس هناك أي زلل في اعتبار "المساومة" تدريبا على الخيانة).
قلت للعميد الذي طرح العرض: اني صاحب حق الآن. فقد اعتقلتموني اكثر من 11 عاما من دون تهمة، ثم قدمتموني الى محكمة استثنائية غير علنية لا دفاع فيها ولا شهود، ثم من دون ان يجبركم احد حكمتم عليّ بالسجن 15 عاما. انا صاحب حق الآن.
بالحرف الواحد قال الرجل الذي سيشغل منصبا وزاريا في حكومة ميرو الاولى: ما الك حق عندنا!
وبعد ثلاثة اسابيع، في بداية عام 1996 نُقلنا ثلاثين سجينا، الى سجن تدمر الرهيب الذي يستحق سمعته الشنيعة واكثر. وكان "أعدل" ما في الامر ان بيننا اناسا وافقوا على شروط "المساومة" كلها الى درجة انهم وعدوا بأنهم سيبيتون ليلة الغد في بيوتهم. لكن الغد لم يأتِ بالنسبة للبعض منهم الا بعد خمس سنوات تدمريات ونصف سنة. ولم يفرج عن شخص واحد عند انتهاء المدة التي وجدتها "محكمة امن الدولة العليا" عادلة. وحين كان يفرج عنا بعد الحاق هزيمة حزيرانية كاسحة بنا في سجن تدمر كانت تجري "مفاوضات" مساومة جديدة ليقطف المنتصرون ثمار نصرهم المؤزر. اذ يجب الا يخرج احد من السجن فرحا طليقا!

لا اعرف أي حدس ومض في ذهن صنع الله ابرهيم حين كتب روايته الصغيرة "اللجنة". لكن ليس حدثا روائيا ولا مفاجأة درامية ان انتهت لجنته الى اجبار بطل الرواية على ان يأكل نفسه، لا، هذا الامر هو جزء من تعريف اللجنة بالذات. فاللجنة لا تكون لجنة الا لأنها تملك هذا السلطان: كلوا انفسكم!

هناك دائما ما هو اسوأ!

لطالما تملكني خلال الايام التالية لموعد الإفراج المفترض عني شعور غامر بالقلق، ولم احتج الى كثير من الجهد لأعرف ان هذا القلق مصنوع من الخوف المحض. كانت اللجنة قد توعدت بارسالي الى تدمر ان لم "اوقع" عقدا بأكل نفسي، لكن رأسي بقي "يابسا". وليس في هذا اليباس أي بطولة، فبكل بساطة لم اصدق التهديد. وكان لديّ من الاسباب "العقلانية": ما يجعل عدم تصديقي معقولا. غير ان اسبابي العقلانية لا تدل الا على عدم استيعابي للعقلانية "غير المتوازية" للسلطة المطلقة والاعتباطية، اعني قدرتها دائما على اختراق سقف العقل، على مفاجأتك بما لا يخطر لك ببال، نفورها من أي قاعدة مطردة أو قانون مستقر يتيح لضحاياها درجة من التوقع الرشيد والتكيف المعقول. وطوال خمسة عشر عاما كان "القانون" الوحيد ان هناك دائما ما هو اسوأ من اسوأ مخاوفنا: في السجن العرفي الذي سيدوم سنوات تراوح بين أي مدة واحد عشر عاما ونصف عام، كانت المساومات المتطرفة المبنية على فلسفة كل شيء لـ"الدولة" مقابل لا شيء للسجين. كانت قبلها فنون القسوة في التعذيب، كان قطع الزيارات بلا سبب، كان رفض التعامل معنا كسياسيين وكمجموعات، كانت محكمة امن الدولة،... فلماذا لا تكون تدمر ممكنة بعد 15 عاما؟ كان شعوري يعرف احسن من عقلي، وكان يعبّر عن نفسه بنوع من القلق الكتيم الثقيل. وفي تلك الفترة فقط، وحتى قبل الشحن الى تدمر، عرفت معنى الزلزلة الجذرية للأمن وخبرت تقصّف الركب، وامام اللجنة عرفت ما معنى نشفان الريق. لكن قد لا يكون السبب الخوف من اللجنة نفسها لأني بالفعل لم اكن خائفا، بل الخوف اني عدت من جديد ريشة في مهب

الريح بعدما ظننت انني اقتربت من المرسى. في ذاكرتي تمثل الاسابيع الثلاثة بين "مساومة" اللجنة في 10/12/1995 وموعد نقلنا الى سجن تدمر فترة الافتقار العميق للأمن وعودة كل توقعاتي وخططي للاهتزاز. ورغم اني طمأنت زملائي بأن تدمر مجرد تهديد فان عقلي الباطن لم يطمئن. في تلك الاسابيع الثلاثة كتبت 40 صفحة متوترة عن الحرية والامن، لكن السجانين لم يسمحوا لي بأخذ دفتري حين افرج عني بعد قرابة عام، وكنت في وضع الناجي المستعد لخلع قميصه ليملص من المأزق.

زيارة في الفجر

اطبقت المجلد الاول من كتاب محمد عابد الجابري عن فلسفة العلوم عند الصفحة 120 في الساعة الرابعة والنصف صباحا من فجر يوم 1996./3/1 تقلبت في فراشي مثل دجاجة تشوى طوال ساعة تقريبا. كنت نهبا للقلق والرعب. كنت قلقا من هذه القسوة التي لا حدود لها التي يمكن ان تسحقني مثل قملة. قلقا من استحالة توقع المصير. قلقا من اني عدت الى نقطة الصفر في الشهر الأخير من عام 1980، عدت موقوفا "عرفيا" أو "احترازيا" ولا تزال صفحات الدفتر الجديد بيضاء كلها.

حوالى الخامسة والنصف صباحا سمعت صوت مفتاح في قفل المهجع الاول من جناح السياسيين في سجن دمشق المركزي المعروف بسجن عدرا. اختلجت امعائي بقوة حيال كسر العادة الاستثنائي هذا (تفتح ابواب المهاجع عادة في الثامنة صباحا) فُتحت الابواب كلها، وطُلب منا ان نضب اغراضنا الشخصية. الى اين؟ منذ البداية تسرب الينا اننا منقولون الى سجن تدمر، لكن كان للرجاء والتوهم رواياتهما: ذاهبون الى فرع الامن من اجل مساومة جديدة، ذاهبون الى سجن صيدنايا حيث سيتم جمع كل السجناء في البلد قبل الإفراج...

في "العادة" يؤخذ سجناء الرأي من امثالنا الى تدمر اما بعيد اعتقالهم واما عقابا لهم على مشكلة تسببوا بها في سجنهم الاصلي: اضراب عن الطعام مثلا (اما الاسلاميون فسجن تدمر هو "مكانهم الطبيعي"). اما بعد سنوات طويلة من الحبس، وبعد الاحالة على محكمة

امن الدولة، وعند نهاية النصف الاول من التسعينات، فهذا يتجاوز حد تخيلنا، ويبلغ الامر في حالتي حدا وسخا لأنني أنهيت سنوات حكم محكمة امن الدولة الخمس عشرة. لكن حالتي لم تكن فريدة جدا، فقد كانت مجموعتنا المشحونة الى تدمر في عز مربعانية الشتاء تضم سجناء انهوا 14 عاما، أو اقتربوا من نهاية احكامهم التي كانت بين ثماني سنوات وخمس عشرة سنة.

وصلنا السجن ظهرا، ولاحظنا درجة من الدهشة عند ادارة السجن لوصول سجناء جدد. تجاوز كثيرون منهم عشر سنين سجنا. ثم تلقينا بروتوكول السجن بسرعة" الرؤوس منكسة دائما، الكلام همسا، الشعر والذقن والشاربان حليقة دائما. وتم اقتيادنا من الادارة الى المهجع المخصص لنا ورأس كل منا عند اسفل ظهر متقدمه وعلى عيني كل منا قميص داخلي أو بشكير. وكانت قافلتنا تتحرك بايعازات تبلغنا ان هناك درجة أو بابا، وربما صاحبت الايعاز رفسة على المؤخرة أو لكمة على الظهر.

تكسير خشب

اظن ان شعورنا في يومنا الاول لا يختلف عن شعور من وقع في بئر عميقة في منطقة مقطوعة عن العالم. اختاروا احدنا رئيسا للمهجع وابلغوه ان النوم في السابعة مساء والاستيقاظ في السابعة صباحا، وشرحوا "نظـام التعليم" باختصار، وحددوا مواعيد الطعام وكيف نستقبله. وحين احيل عليـ"هم" بصفة جمعية غير محددة فليس رغبة مني في ان اشملهم بهوية اتميز عنها، بل لأنهم غارقون فعلا في غفلية لا تتمايز. فلم ار ولم ير احد من زملائي تعابير وجه احد منهم ابدا ولم ننظر قط في عيني أي منهم. ممنوع. فالعين ليست مغرفة الكلام فقط كما يقول المثل الشعبي، وانما هي قناة التراسل والتعرف والتواطؤ والتنبؤ، أي العلاقة الانسانية. مرة طلب رئيس المهجع من المساعد اول، المسؤول المباشر عنا، ان نرفع رؤوسنا حين نتحدث الى السجانين، رد البطل: وماذا فعلتم مما يرفع الرأس لترفعوا رؤوسكم؟

صباح اليوم التالي سمعت اصوات تكسير خشب آتية من بعيد. لكنها كانت تقترب بين حين وآخر. في التاسعة والنصف فتح باب مهجعنا وتم استقبالنا رسميا.
"الاستقبال" أو "التشريفة" حفلة "فلقة" من 100 "كابل" في "الدولاب" لكل واحد منا (قد "يأكل" الاسلاميون 500 كابل) ونحن عراة الا من الكلاسين. والهدف منها "كسر العين".
استغرق تكسير خشبنا نحن الـ 11 نحو ساعة (قسمنا 22 شيوعيا موزعين على مهجعين، وفصل عنا 8 من البعثيين العراقيين اخذوا الى مهجع مستقل). وحين كان بعض عناصر السجن "يدولبوننا" تولى آخرون منهم تفتيش اغراضنا. سمح لنا بالالبسة الشخصية فقط.
طوال اسابيع ظل السجانون مستغربين ارسالنا اليهم، لكنهم ارتاحوا في النهاية الى فكرة انه لو لم نكن اولاد قحبة لما نقلنا الى تدمر. وبالفعل يصعب ان يجود احد منا بشهادة تدمر ابلغ من هذه. اقترح احد السجناء ان يكون شعار سجننا الجديد شعار جحيم دانتي: ايها الداخل الى هذا المكان، تخل عن كل امل!
الغريب اني لم اصب بالرشح أو الكريب هناك قط رغم جو تدمر الصحراوي القارس شتاء، ورغم انعدام التدفئة وقلة الاغطية والالبسة، ورغم حمام الماء البارد دائما، ورغم اني كنت سهل الاصابة بأمراض البرد في ظروف احسن بكثير في سجن عدرا وقبله في سجن المسلمية في حلب. اظن ان الجسم يستنفر كل طاقاته للتكيف مع وضع طارئ صعب.

"نظام التعليم"
طوال شهر ونصف شهر لم اتعرض لأي اذى جسدي يتجاوز بضعة "كفوف" على الوجه، بينما اصاب معظم زملائي عقاب اشد، خصوصا "المعلمين" منهم.
و"التعليم" هو تمييز بعض السجناء بعلامة محددة (ابو البيجاما الخضراء أو صاحب الفرشة الثالثة من اليمين مثلا) ليعاقبوا حين يفتح باب المهجع، أو غالبا صباح اليوم التالي، بعد تسلم الفطور أو عند اخراجنا الى الباحة. ويُطلب عادة من رئيس المهجع ان "يعلّم" أي عدد من السجناء يخطر على بال السجان ولأية اسباب يرتأيها. والعقاب يراوح بين بضعة "كفوف" أو عشرات

منها الى "دولبة" المعلم المنكود. الاشنع من العقاب هو انخلاع قلب المعلّم في انتظار العقاب، والشعور المقيت بدبيب ملايين ديدان الخوف في الاحشاء والعضلات. والهدف من نظام التعليم التدمري غرس المنعكسات الشرطية المناسبة، ومنع "روح" الاستقبال أو التشريفة من التقادم، أو ببساطة انعاش كسر العين. ولديّ شبهة بأن مصدر "نظام التعليم" هذا هو نفسه مصدر ديموقراطيتنا الشعبية: اوروبا الشرقية. اذ يروي كثيرون ان سوريا استوردت، منذ بداية الازمة السورية أواخر السبعينات خبراء اوروبيين شرقيين في شؤون التحقيق وانتزاع المعلومات و"تربية" السجناء.

لكن في احدى الليالي كنت "ليلياً"، أي اقوم بنوبة حراسة لزملائي النيام مدة ساعتين اكون مسؤولا فيهما عن كيفية نومهم (على جنباتهم حصرا) وعن وضع "الطماشات" على عيونهم وعدم انزياحها الى الاعلى أو الاسفل، وعن عدم وجود أي منهم في دورة المياه، وعن أي شيء يخطر على بال "حضرة الرقيب اول" (هكذا كنا نخاطب أي سجان خشية ان يكون رقيبا اول بالفعل) فوق سطح السجن (الوان فُروج امهاتنا مثلا). من "الشرّاقة"، الشباك المفتوح دائما في سقف المهجع والتي تنزل منه اوامر التعليم عادة، لاحظ الحارس ان احذية زملائي وشحاطاتهم ليست مرتبة في زاوية محددة من المهجع. وهكذا عثر لي على ما يسليني لبعض الوقت في "ليليتي" المملة: نقل الاحذية والشحاطات بفمي الى احد اركان المهجع .

مر علينا صيف 1996 فظيعا من شدة الخوف وغزارة التعليم وسوريالية افانين الترويع. في احد ايام ذلك الصيف، وبينما كنا جالسين منكّسي الرؤوس وايدينا خلف ظهورنا تحت شمس آب الحارقة في حوش المهجع امر السجان بأن يضع كل منا "شرفه" في فمه. كززنا على فردات احذيتنا بأسناننا وابقينا ايدينا خلف ظهورنا المحدودبة. وكان حضرة الرقيب اول متسامحا حين تبين له ان الشخص الستيني الذي كان يسند شرفه بيده انما كان يؤازر طقم اسنانه في الإطباق على فردة الحذاء.

في ذلك الصيف عرفت الخوف كشعور جسدي محسوس، لا كقلق. كنت اعرف انه الخوف، ذلك الشعور الذي لا يوصف ولا يطاق، شعور الوهن والتآكل الذي

احس به يدب في خاصرتي وفي عضلات عضدي، كدت افقد وعيي مرة من الخوف وانا ليليّ لو لم اوقظ رئيس المهجع ليتولى دقائق قليلة باقية من مناوبتي.

التوبة!

لم اكن انوي الدخول في اية تفاصيل، لكن شيطان التفاصيل يدخل نفسه في كل شيء.
افرج عني أواخر عام 1996 بعدما اكملت قرابة عام في السجن الفظيع. وحين تخرجت من الجامعة عام 2000 التقيت فيها بزميلين سابقين لي كان قد افرج عنهما قبل اسابيع فقط. امضى احدهما 19 عاما في سجن تدمر والآخر 18 عاما. ومع ذلك كانا يبدوان شخصين طبيعيين وبصحة جيدة، وأحدهما هو الذي تذكر اننا عملنا معا في مخبر الكيمياء في سنتنا الجامعية الاولى. ينبغي ان يكون هذا مذهلا: فسنة تدمرية واحدة في الثمانينات تعادل سنوات في التسعينات، وبتدويني هذه الشهادة اجازف ان اكون "نقاقا" قياسا الى ما شهده الوف قبلي. ولا شك ان الفضل في سلامة زميليّ الدراسة يعود الى الايمان. فلحسن الحظ لا احد يستطيع منع السجين من اللجوء الى ربه وإسلام روحه وقلبه له حتى لو كانت الصلاة والصيام ممنوعين اطلاقا في تلك البقعة "المحررة" من الغيبيات والعقائد الدينية. ولعله الايمان ايضا ما كان يدفع كثيرين الى التطوع لتلقي العقاب التعليمي المربع فداء لسجناء مرضى أو مسنين.
اود في الختام ان استعيد خاطرا الح علي في باستيلنا المريعة: هذا سجن لا يجوز هدمه أو إغلاقه. لم لا نقلبه متحفا لأدوات التعذيب، ونشيد فيه نصبا يكرم عذابات ضحاياه ويعلن اننا لن ننساهم. ونسمي هذا النصب نصب التوبة، توبتنا جميعا. هذا جزء من عملية اوسع، سياسية وثقافية وقانونية وانسانية، تهدف الى ضمان تسامي السوريين على اية دوافع ثأرية ممكنة وقطع الدائرة الجهنمية لتبادل مواقع القاتلين والمقتولين. فالضحية الدائمة لهذه الدائرة هي الجميع وبلاد الجميع. سجن تدمر عار سوريا، وبتكريم ضحاياه نوزع هذا العار علينا جميعا وبالتساوي، لا لأننا متساوون في المسؤولية عن الماضي ولكن تعبيرا عن استعدادنا لتحمل المسؤولية معا في المستقبل.

نقلا عن النهار اللبنانية 1/7/
اللجنة السورية لحقوق الإنسان
1/7/2003

[الشهادة السادسة]
شهادة
11 عاما في السجن بجرم عدم الوشاية بالجار!!

إعداد: سليم الحسن

قال محدثي مستذكراً الماضي المأساة: "كنا مجموعة مؤلفة من حوالي خمسين معتقلاً في ذلك اليوم من ربيع 1981 عندما عرضنا أمام القاضي سليمان الخطيب لمحاكمتنا. لم تستغرق الأحكام علينا جميعاً أكثر من 45 دقيقة. حُكمت سنتين لكنني أمضيت في سجن تدمر 11 عاماً. جرمت بتهمة إخفاء معلومات. كان لنا في الحي جار معروف بانتمائه للإخوان المسلمين من الأربعينيات، اعتقل فترات عديدة في فترة حكم البعث. وهو معروف للقاصي والداني بتوجهاته وأفكاره التي لم يكن يخفيها عن أحد. وجريمتي أنه كان يسكن في نفس الحي والشارع الذي كنت فيه ولم أبادر بكتابة التقارير عنه .. هكذا ألصق بي وبآخرين من أهل الحي جريمة إخفاء معلومات وعدم المسارعة إلى إخبار السلطات عن حركات وسكنات هذا الجار (الطيب). بنفس التهمة وبنفس الملابسات

والظروف اعتقل جار آخر، وكانت محاكمته في نفس اليوم الذي مثلت قيه أمام المحكمة المهزلة، وحكم عليه القاضي بستة أشهر. قال للقاضي: هل سيطلقون سراحي فقد مضى على اعتقالي عشرة أشهر. نظر قاضي محكمة أمن الدولة إليه بهزء واستخفاف وأمره أن ينصرف، ولم يطلق سراحه إلا معنا في عام 1991.

سألت محدثي عن المحكمة والقاضي والقانون والإدعاء والدفاع والشهود. قال مختصراً التفاصيل المملة: لا يوجد إلا القاضي وكان يومها سليمان الخطيب، ومعه مساعد يسجل ما يمليه عليه. ملف المعتقل وهو جملة ما يرد من فرع المخابرات أو التحقيق وما يحتويه هذا الملف من اعترافات انتزعت تحت التعذيب أو أثبتها المحقق حتى دون أن يعترف بها المعتقل. أما القانون والأحكام فكانت على مزاجية القاضي. كثير من الذين لم تثبت عليهم تهمة الانتماء إلى الإخوان المسلمين ألصق بهم تهم أخرى، مثل إخفاء معلومات وعدم المسارعة لإخبار الأجهزة الأمنية عن أشخاص يشتبه بصلتهم بالإخوان المسلمين. وكانت الأحكام في هذه الحالة تتراوح بين البراءة والسجن لمدد مختلفة قد تصل إلى المؤبد. لكن هذه الأحكام لم تكن تعني شيئاً أكثر من التعذيب النفسي للمعتقل إذ لم يفرج عن أحد في تلك الفترة، واستمر الجميع بمن فيهم الذين حكم ببراءتهم حتى أول دفعة من الإفراجات عام 1991. حكم على الأستاذ الجامعي (س) بالمؤبد بتهمة إخفاء معلومات عن أشخاص مطلوبين للتحقيق. وقضى تحت التعذيب. كثير من الذين حكم ببراءتهم ماتوا تحت التعذيب في ساحات وزنزانات سجن تدمر.

قلت لصاحبي: حدثني عن الحريات المتاحة في سجن تدمر والحقوق التي كنتم تتمتعون بها؟

هز رأسه قائلاً: لا توجد حريات ولا حقوق، حتى حرية النظر كانت ممنوعة، وحرية التفكير أو الشرود الذهني كانت ممنوعة. كم من سجين عذب حتى وصل إلى شفير الهلاك لأنه نظر إلى أحد الحرس أو السجانين بدون قصد منه، كان مطلوب منا أن نطأطأ الرأس دائما ولا ننظر إلى الحرس والسجانين. وكم من سجين تلقى وجبة دسمة من التعذيب وسالت دماؤه لأنه عثر عليه متلبثا بشرود الذهن أو على وضعية توحي بالتفكير.

حتى حرية العبادة كانت ممنوعة: كان في مهجعنا رجل مسن وأولاده الأربعة من ميسوري الحال من محافظة إدلب، وذات يوم جمعنا مدير السجن الرائد فيصل الغانم وسألنا عن طلباتنا. قال له الرجل المسن: تعلم يا سيدي أني جاوزت الخامسة والستين وأنا في صحة عليلة ومشرف على الموت في أي لحظة أناشدك بالسماح لي بالصلاة. أجابه الغانم: ومن يمنعك من الصلاة! استغل آخر المناسبة، وقال: يمكننا إذن أن نصلي. قال فيصل الغانم محاولاً توضيح الأمر من وجهة نظر شرعية: إن الصلاة تحتاج إلى طهارة ونقاء وأنتم تعيشون في نجاسة ودماء، كل المكان نجس: الأرض نجسة والبطانيات نجسة والماء قليل وهذا لا يليق بمقام الصلاة. وبعد مغادرة مدير السجن، قام الرجل المسن فتوضأ وشرع في الصلاة بناء على الإذن الذي حصل عليه من فيصل الغانم، لكن أحد الحراس رآه وعلّمه من خلال نافذة سطح المهجع. وفي صباح اليوم التالي نودي على من كان متلبساً بجريمة الصلاة فخرج الرجل المسن لينال قسطاً كبيراً من التعذيب، وعندما أعيد مسحوباً بعد ساعتين إلى المهجع كان مغشياً عليه والدماء تسيل من أنحاء جسمه، ثم ما لبث أن مات متأثراً بهذه الوجبة التي لا تحتمل من التعذيب - رحمه الله.

سألت صاحبي: هل يفهم من هذه الحادثة أن الدين كان المستهدف؟

أجاب من فوره: هذا ما تأكدنا منه. إنهم كانوا يتقصدون إيذاءنا في ديننا، وكانوا يفصحون عن كراهيتهم للإسلام والمتدينين، بل وكانوا واضحين في التعبير عنها بصور شتى من التعذيب والشتم والتحقير المستمر لكل المقدسات. كان جميع حرس السجن من الذين باعوا ضمائرهم وعقولهم لإرواء غريزة التعذيب والقتل والولوغ في الإيذاء. كثير من المعتقلين مثلي لم يكن لهم علاقة بالإخوان المسلمين، لكن كان يصب فوق رؤوسنا حمم من العذاب لا طاقة للجبال بها. كان حقدهم لا حدود له، وكراهيتهم لا حدود لها وهمجيتهم لا حدود لها. إن ما نسمعه عن غوانتانامو لا يعدو أن يكون نقطة صغيرة في متاهات تحقير الإنسان وتعذيبه في سجن تدمر! هذا السجن الذي سيبقى ما حدث في

جنباته وزواياه المظلمة وصمة عار لا تمحى في جبين نظام الأسد على مدار الزمان، مهما ابتعد الزمان.

صف لي حياتكم في سجن تدمر؟

قال والأسى يغطي محياه الواهن: لقد حولوا مظاهر الحياة وأنشطتها إلى ألوان شتى من التعذيب: النوم تعذيب، واليقظة تعذيب، والطعام تعذيب، والحمام تعذيب، والحلاقة تعذيب، والتعذيب تعذيب، حتى هانت الحياة على الكثير وتمنى بعض السجناء الموت من شدة التعذيب. أصبح منظر الدماء مألوفا، ومنظر الرؤوس المفتوحة مألوفاً ومنظر الذين يموتون تحت التعذيب مألوفاً. في كل يوم هناك موت في المهجع وموت في ساحات الإعدام وموت في باحات التنفس. وفي كل يوم هناك ترقب لما هو أسوأ. أما إن أردت تفصيلا فاقرأ كتاب "تدمر شاهد ومشهود" لزميل السجن "محمد سليم حماد" ففيه وصف دقيق موثق لبعض ما كان يجرى، وهناك ما هو أكثر هولاً لم يضمنه دفتي الكتاب، ربما نسي أو أشفق على القارئ.

وهل رأيت محمد سليم حماد في السجن؟

نعم اجتمعت معه سنتين في مهجع واحد، وكان شاباً لامعاً لماحاً صاحب ذاكرة قوية، وكتابه مما يعتمد عليه في توثيق سيرة العذاب والمهانة التي عاناها المعتقلون في سجن تدمر.

كيف كانت حياتك بعض إطلاق سراحك؟

بعد الخروج من السجن عام 1991، كان عليّ أن أبدأ حياتي من قبل نقطة الصفر، فقدت عملي وحقوقي المدنية. كانت أسرتي في حالة مزرية من الحاجة والفاقة .. بحثت عن أي عمل، وعلى الرغم من التعاطف الضمني من كثير من الناس فلم أجد العمل المناسب. ثم لجأت للحصول على جواز سفر للعمل في الدول المجاورة. تعثر الحصول على جواز السفر عدة سنوات، ثم استطعت أن أحصل على جواز سفر لمدة سنتين، وبعد انتهاء السنتين لم يوافق على تجديده مرة أخرى، وها قد مضى وقت وأنا مخالف في الإقامة هنا بسبب انتهاء صلاحية جواز السفر، وعلى الرغم من المراجعات والمناشدات يرفضون تجديد جواز سفري هنا في السفارة السورية ويقولون: تقضي التعليمات الواردة بعودتك الفورية إلى البلد. وهذا يعني بالنسبة

لي فقدان مصدر المعيشة، وقد يكون وراء العودة مضايقات أخرى. فالذين أطلق سراحهم مطلوب منهم مراجعة فروع الأمن التي اعتقلتهم وتقديم تقارير ومعلومات، ومن لا يفعل ذلك يلقى عنتاً ومضايقة تصل إلى الاعتقال مرة أخرى في بعض الأحيان.

أراك تنظر إلى الحياة بسوادوية؟

لا أبداً فأنا منسجم تماماً مع ما قدر لي وأحتسبه عند الله. لكنها الورطة الرهيبة التي أوقع النظام فيها البلاد وشرخ فيها الناس وصنفهم، وعاملهم على أساس هذا التصنيف الظالم. دمر سورية وإعادة البناء ليست سهلة. لقد كنا نحس ذلك في السجن. كانوا يقولون لنا: ادع ربكم ينجيكم منا. نحن قدركم المحتوم سنفعل كذا وكذا بكم وبدينكم وبأمهاتكم وأخواتكم. لم يكن بيدنا حيلة أن نقول حرفاً واحدا لهم، لكنهم كانوا يلحون على فكرة الانقسام الطائفي والاستعلاء الطائفي وإذلالنا على أساس طائفي. وكلما حاولنا استبعاد هذه الفكرة ونسيانها كانوا يؤكدون عليها.

لماذا تحفظت على ذكر اسمك وتفصيلاتك الشخصية في هذه المقابلة؟

إذا ذُكر اسمي فهذا يعني عودتي المؤكدة إلى السجن. لا توجد حريات في سورية للتعبير عن الرأي، ولا توجد حريات لكتابة سيرة المعاناة. ولا يوجد من ينصف المظلوم ويعين الكل. الحياة الرسمية هي ممارسة القهر فوق المواطنين ولم أجد وجهاً إنسانياً لنظام الحكم في بلدنا المغلوب على أمره.

[الشهادة السابعة]

حوار

المعتقل السابق أصلان عبد الكريم في حديث للعدالة عن تجربة اعتقاله: السجن نمّا لدي روح التسامح

أجرى الحوار: د. رامز طباع

أصلان عبد الكريم أحد قياديي رابطة العمل الشيوعي المؤسسين، وقد اعتُقل على خلفية آرائه السياسية المعارضة للنظام السوري حوالي عقداً من الزمن. وفي هذا الحوار الخاص بـ "العدالة" يروي رحلته في السجن التي غيّرت مجرى حياته.

هل تحدثنا عن نشاطك السياسي قبل الاعتقال؟

أعتقد أنه لا حاجة لتحويل الجواب إلى بيوغرافيا ذاتية، ولذلك أقول: إن أول تنظيم انتسبت إليه هو رابطة العمل الشيوعي في سورية والتي تحولت لاحقاً إلى حزب العمل الشيوعي في سورية، ويمكن تلخيص نشاطي السياسي في إطار الحزب المذكور ببضع كلمات: النضال في سبيل حل جذري للقضية الفلسطينية والوطنية بشكل عام، وفي سبيل حل جذري للصراع الطبقي في سياق ثورة اجتماعية صائرة إلى الاشتراكية، وفي سبيل ثورة سياسية جوهرها قيام نظام سياسي ديمقراطي.

كيف تصف لنا عملية التحقيق معك؟

الكل تقريباً يعرف القليل أو الكثير عن أساليب التحقيق والتعذيب الجسدي والنفسي التي يلاقيها المعتقل السياسي، وبوسعي القول بكل بساطة أن مثلي في ذلك مثل الآلاف من أبناء الوطن بانتماءاتهم المختلفة، مع الأخذ بعين الاعتبار أن التيارات الإسلامية هي التي تعرضت لأبشع وأحط أنواع التعذيب في التحقيق أولاً وفي السجون لاحقاً، ولذلك هي التي يجب

أن تسأل بهذا الخصوص. لقد تحول الكثيرون منهم بسبب التعذيب الجسدي والنفسي المستمر وبسبب المرض والجوع و.. إلخ إلى مجرد كائن حي غريزي همه الوحيد الحفاظ على البقاء، وذهب الإنسان بما هو ذلك الكائن المعنوي بامتياز أدراج الرياح. إن اختزال الإنسان إلى هذا القاع البيولوجي يمكن أن يشكل في رأيي الجريمة الكبرى والنتاج المأساوي الأكثر انحطاطاً لآلة القمع والقهر في كل زمان ومكان.

هل تنقلت بين أكثر من سجن؟ وما هي انطباعاتك عن المعتقلين من التيارات الأخرى؟

لقد عرفت غير سجن، وانطباعي عن المعتقلين من التيارات الأخرى يحتاج إلى حديث طويل وشاق، إلا أن الأهم من ذلك هنا تلك الفائدة العميقة للتواصل بين التيارات المختلفة حتى لو كان في أضيق الحدود الأمر الذي يوفر معرفة عن كثب (فالإنسان عدو ما يجهل) وهي ضرورية لمراجعة الأفكار المسبقة، أيديولوجياً وسياسياً، وقد تم التقدم على هذه الطريق وكانت هناك مراجعة عند الجميع تقريباً، وإن يكن بدرجات مختلفة بالتأكيد، سواء في العمق أم في الاتساع لأسباب كثيرة لست بصددها الآن.

ماذا أكسبتك تجربة الاعتقال؟

التخلص من أوهام السوبرمان، ورؤية الإنسان على حقيقته كمركب من القوة والضعف والعقل والغريزة، والطيب والسوء .. إلخ، وقد نمت لدي روح التسامح والإيمان بقدسية الإنسان الحي الماثل أمامنا واعتبار كرامته وحريته وقبل كل شيء حقه في الحياة، وحرية الضمير والرأي والتعبير هي مربط الفرس، واعتبار ذلك كله حقاً مطلقاً وغير مشروط للجميع بدون استثناء في نطاق قانون يستحق اسمه، وهو الشيء المختلف عما يسمى قوانين لدينا، وهي ليست أكثر من فرمانات سلطانية متعسفة إلى الحد الأقصى والى حد اللامعقول. على صعيد آخر توفر لي في المعتقل ما يكفي من الوقت (بعيداً عن مشاغل الحياة والعمل والسياسة) لإعادة النظر بكل شيء والتأسيس الفكري للانطلاق من جديد على أرض أرسخ من منظوري فكرياً

وسياسياً وعملياً. ويقع الآخر في مركز هذا التأسيس باعتبار الموقف منه محك كل مراجعة وكل إنسانية وكل قيمة، وقد استدعى ذلك التخلي عن كثير من الأفكار القديمة التي كان من الضروري تجاوزها حتى لو كان ذلك بصعوبة قلع الضرس. وآمل ألا يدفع ما قلته أحداً إلى التخفيف بأي قدر كان من درجة الرفض التام للاعتقال السياسي، فالآثار المدمرة لذلك لايمكن الالتفاف عليها بأي شكل كان وبأية ذريعة تكن من مثل ما ذكرت قبل قليل.

هناك من يخرج من المعتقل وهو ناقم على تجربته السابقة وقد رأينا الكثير من الحالات وخصوصا معتقلي حزب العمل .. إلام تعزو ذلك؟

من الطبيعي أن يحصل ذلك، وقد أشرت قبل قليل إلى الدمار النفسي الكارثي في الاتجاه العام، وهذا ما تعلمه كل التجارب التاريخية وفي كل مكان، وليس حزب العمل الشيوعي في سورية بدعاً في ذلك وخاصة إذا تذكرنا الموت المعنوي للقوى الاجتماعية الحية في سورية طيلة ما يزيد عن ربع القرن الأخير. يمكن للسجن في حالات خاصة أن يكون له مفعول إيجابي معاكس بدرجة ما، وذلك عندما يترك السجين وراءه حركة شعبية وسياسية قوية، وعندما يكون شيئاً ذا معنى ليس مجرد حلم وعندما تكون شروط السجن مقبولة وعندما يكون زمانه غير متطاول، وعندما .. إلخ. ولما كان لا شيء يذكر من ذلك في سورية، فإن القوى جميعها وليس حزب العمل فقط قد آلت إلى ما آل إليه بهذه الدرجة أو تلك، وعلى الأقل على الصعيد السياسي، حيث لا قوة سياسية لم يدمر نفوذها السياسي بما في ذلك حلفاء النظام. لقد ظهر ذلك بوضوح في حزب العمل الشيوعي لأسباب كثيرة من بينها طبيعة الصدام الذي انخرط فيه ضد السلطة وما ترتب على ذلك من قبل النظام، ومنها أنه حزب لم يخف صراعاته وخلافاته وتراجع الكثير من رفاقه على قاعدة تبني مناهج جديدة في التفكير والعمل السياسي وليس على قاعدة الطلاق مع السياسة فقط، كما لعب دوراً في إظهار هذا الوضع التركيز الدائم عليه في إطار

تاريخية الصراع السياسي في سورية وأخلاقياته بما في ذلك بالطبع الألعاب الناتجة عن الإعلام والعلاقات العامة، وقد كان ذلك واضحاً قبل السجن وأثناءه وبعده، ولا يحتاج من قبل المتابع إلى جهد كبير للامساك به. ولا أقول تشكيكاً أو دفاعاً آلياً عصبوياً، وإنما لأنني أزعم أنه واقع الحال.

هل تحدثنا عن بعض اللحظات الإنسانية التي تتذكرها في المعتقل ولا تغيب عن ذاكرتك؟

إن المأساة الإنسانية التي عايشتها سورية داخل وخارج المعتقل الصغير والكبير لم تطرح بعد بكامل حجمها وعمقها المأساوي، ومن المستحيل طرحها في سياق هكذا مقابلة، لذلك سأختار مشهدين "بسيطين" وأترك للقارىء استكناه ما يقولان بالعمق:

1 - جمعني السجن مع شاب (لا داعي لذكر اسمه فالمهم المشهد) جيء به من جحيم تدمر (فتدمر ليست سجناً) فاقداً القدرة على المشي (وفي العادة كان يؤتى ببعض المرضى المزمنين أو العضال أو العجزة إلى سجن صيدنايا من أجل العلاج ولزمن ما قد يمتد شهوراً أو سنوات). لقد تحسن السجين المذكور بالتدريج وأصبح قادراً على المشي الطبيعي، وقد تحول لذلك نحو الأحسن على كل الأصعدة وبخاصة نفسياً بالقياس إلى ما كان عليه، وذات ليلة نودي عليه وعلى أمثاله للعودة إلى جحيم تدمر، فانهار كلياً إلى درجة عجز فيها عن السير وراح يزحف على يديه ورجليه ومقعده نحو باب الخروج.

2 - في السنتين الأخيرتين نقل سجناء تدمر إلى صيدنايا على دفعات وقد جرت الحادثة التالية مع دفعة منهم: لقد دخلت إلى ما يسمى ساحة الاستقبال وهي الساحة التي يقوم فيها الجلادون بما يسمى التشريفة، وهو وصف مفارق ومهين إلى حد القرف، لأن المقصود بالتشريفة هو تعريض القادم الجديد لنوبة تعذيب جسدي ونفسي كفيلة بإخضاعه التام من خلال قتل روحه بالرعب والإهانة، أقول دخلت الدفعة المذكورة هذه الساحة ولأن التشريفة كانت قد خّفت أو ألغيت فقد

طلب إلى القادمين رفع رؤوسهم والنظر إلى الأمام (في سجن تدمر كان ذلك محرماً) ثم طلب إليهم بعد قليل القعود بانتظار نقلهم إلى الهاجع، ولما كان القادمون قد تشجعوا قليلاً على ضوء ما سبق فقد تناقلوا بضع كلمات بهمس ويبدو أن الصوت قد تجاوز الهمس قليلاً وإذا بالحراس يخاطبونهم قائلين: يا شباب بلا صوت!! وهنا كانت المفاجأة، حراس يستخدمون كلمة يا شباب وهي كلمة لم يسمعوها منهم قبل الآن قط، وذاكرتهم مملوءة بالشتائم فقط، ثم لا يطلب قطع الصوت نهائياً، بل تجاوز الهمس فقط، لقد كان ذلك أكثر مما يمكن أن تتحمله أعصابهم، فكلمة يا شباب كان لها مفعول السحر وراحت عيونهم وكلماتهم الهامسة المتقاذفة بينهم تعبرّ عن فرحة اللامعقول واللامتوقع الذي حدث!

ما كان شعورك حيال سجانيك ومعذبيك؟ كره أم شفقة أم مزيج بين الاثنين؟

لا أحد يحق له أن يطلب من أحد سجن تعسفاً ولهذا الزمن الطويل ألا يعيش المشاعر المذكورة لفترة مؤقتة قد تطول أو تقصر، ولذا فإنني كنت أمر بشكل عام وبين فترة وأخرى بمزيج من مشاعر الغضب والرفض والكره والسخرية والاحتقار والشفقة وبدرجة مختلفة باختلاف مستوى المسؤول ومع ذلك فإنني أزعم أن المطلوب منا جميعاً هو تنمية روح التسامح الأصيلة في نهاية المطاف حتى لو كان في ذلك إهانة للعدل والحق.

هل تعتقد أن هناك تأثيراً نفسياً لتجربة الاعتقال على المجتمع ككل وما آثار ومظاهر ذلك التأثير إن وجد؟

يتضافر الاستبداد والسجن بصفته أحد الوسائل لتكوين مجتمع مسلوب الإرادة خائف مذعور ومزر إلى الحد الأقصى، إن أحد المظاهر الأكثر سلبية لما ذكرت هو قتل الفاعلية والقيم والإنسان في نهاية المطاف وتخفيض حياته وحياة المجتمع إلى القاع، إلى درجة الموت المعنوي.

برأيك كيف يمكن لسورية أن تخرج من أزمتها الديمقراطية بعد الانقلاب على حركة المجتمع المدني؟

إن ذلك يمكن ويمر بالضرورة عبر تفكيك النظام السياسي الشمولي وقيام نظام ديمقراطي ومن أجل ذلك لا بد من تضافر كل الجهود دون استثناء ولأن حجم المخاوف والمصالح والمغانم السلطوية كبير إلى حد مذهل، ولأن الذاكرة التاريخية قريبة العهد لا تزال حاضرة، ولخصوصية البنية الاجتماعية للسلطة والمجتمع بشكل عام فان سياق التفكيك سيكون معقداً وعسيراً وبعيد المدى وبطيئاً إلى حد كبير، ولا شيء يمكنه أن يغير بشكل نوعي من ذلك إلا حدوث تغيرات عميقة مفاجئة ليست منظورة أبداً ولا يمكن التكهن بها منذ الآن ومثل هذه المفاجئات قد تكون رجماً بالغيب أكثر من أي شيء، ولذا من الجوهري وحدة المعارضة الديمقراطية وتمركزها حول الهدف الرئيس الذي هو الديمقراطية، والعمل بأقصى ما يمكن من الموضوعية والعقلانية والمسؤولية وبالقدر الضروري من الإصرار والدأب والروح الكفاحية.

[الشهادة الثامنة]

شهادة العقيد توفيق الطيراوي عن العذاب الذي تعرض له في السجن السوري

هذا توثيق لما يجري للفلسطينيين في السجون السورية

أحمد مطر

إلى كافة منظمات حقوق الإنسان : هذا توثيق لما يجري في السجون السورية !! * شهادة حيّة للعقيد توفيق الطيراوي ، مدير المخابرات العامة في رام الله. د. أحمد أبو مطر ، أوسلو

لا أعتقد أن مايجري في السجون السورية ، وما يرتكب من جرائم ، بحق السجناء الفلسطينيين تحديدا ، يجري واحد من المليار مثله معهم في السجون الإسرائيلية . إن ملف السجناء الفلسطينيين في سجون النظام البعثي في سورية ، ستظل لعقود قادمة من أبشع الصفحات في تاريخ هذا الحزب الدموي ، فهم منذ عام 1965 ، عام إنطلاق المقاومة الفلسطينية بدون رغبة سورية ، كان مجرد الإنتماء إلى المقاومة الفلسطينية تهمة ، الطريق الوحيد المفتوح أمامه هو الطريق إلى السجن . وكان من أوائل السجناء الفلسطينيين المناضل الفتحاوي المعروف(عبد المجيد الزغموت)، الذي أعتقل عام 1966 ، وظل في السجن أربعة وثلاثين عاما ، إلى أن مات في فبراير من عام 2000 ، وقد أرسل آنذاك أبو اللطف ، رئيس الدائرة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية ،في العشرين من فبراير للعام ذاته ، برقية لياسرعرفات ، نعاه فيها قائلا : (أنعي لكم بمزيد من الأسى وفاة المناضل الشهيد عبد المجيد الزغموت ، بعد أن أمضى أربعة وثلاثين عاما في غياهب السجن وجدرانه المغلقة...مضى عبد المجيد رحمه الله يحمل شهادة البراءة ، بعد أن حرره الموت من ظلم الإنسان وقسوته ، بعد أن حرره الموت وأنقذه من حياة السجون). أما الذين ماتوا في السجون السورية من الفلسطينيين ، فقد رصدت الجمعية الفلسطينية لحقوق الإنسان في غزة ، حتى حزيران عام 2000 ، عد د ثمانية وعشرين ، منهم : النقيب أبو الفخر ، أبو رمزي قدورة ، المقدم أحمد أبو عيشة ، الرائد حسام البعلبكي ، الرائد علي فتحي كريمة ، الدكتور محي الدين الأسطل ، الرائد نبهان الشيخ ، و علي يوسف زعيتر . (وقائمة الأسماء كاملة وبرقية أبو اللطف منشورتان في العد الخامس والسادس من مجلة (النشرة) ، حزيران 2002 ،

الصادرة عن الجمعية الفلسطينية لحقوق الإنسان .
وفي العدد نفسه رصدت الجمعية الفلسطينية ونشرت أسماء أربعمائة وأربع وتسعين سجينا فلسطينيا ، كانوا في السجون السورية ذلك التاريخ ، ونشرت أمام كل سجين ، تاريخ سجنه وعمره ومسقط رأسه وعنوان وهاتف أسرته ، للاتصال بها إن تجمعت معلومات لدى أي مصدر .

شهادة العقيد توفيق الطيراوي عن العذاب الذي تعرض له في السجن السوري

إلى كافة منظمات حقوق الإنسان في العالم...إلى كل ضمير إنساني..إلى العدد القليل جدا ممن يدافعون عن النظام البعثي المجرم في سورية...إقرأوا شهادة العقيد الطيراوي ، وحكّموا ضمائركم إن كانت ما تزال حيّة تنبض ...هل صاحب هذه الشهادة لديه أحقاد شخصية ، أم يروي الموت والعذاب الذي عاشه...والشهادة منشورة حسب رواية العقيد توفيق الطيراوي في نفس العد من مجلة (النشرة) ، الصادرة عن الجمعية الفلسطينية لحقوق الإنسان ، التي مقرها في مدينة غزة ....
* العقيد توفيق الطيراوي
من قيادة منطقة بيروت ومن القيادات المؤسسة لإتحاد طلبة فلسطين. إختطفته المخابرات السورية يوم الثالث والعشرين من يوليو 1985 من بيروت ، بتهمة الإنتماء لحركة فتح. أفرج عنه يوم الثاني من نوفمبر لعام 1989 ، بعد إعتقال وسجن دام أكثر من أربع سنوات ، قضاها في سجن فرع فلسطين بدمشق ، وقد اصيب من جراء التعذيب بكسور في العمود الفقري وضعف في البصر . يحمل شهادة ليسانس في اللغة العربية ، وليسانس فلسفة وعلم إجتماع ، وهم من مواليد الطيرة في فلسطين عام 1948 ، متزوج وله ثلاثة أولاد .
يقول توفيق الطيراوي في شهادته عن فترة سجنه في السجون السورية :
(بداية أود القول أن كل ما سأرويه في شهادتي هذه ، لا يعطي إلا صورة موجزة عن حقيقة مايعانيه جميع

المعتقلين داخل زنازن وأقبية سجون النظام السوري .
في تاريخ الثالث والعشرين من يوليو 1985 ،
إختطفتني المخابرات السورية من بيروت إلى معتقل (عنجر) ، وبقيت هناك أربعة أيام تعرضت خلالها لأقسى أنواع التعذيب والإضطهاد والإهانة ، ثم نقلوني مع العشرات من المعتقلين الآخرين إلى فرع المخابرات السورية االمعروف ب (فرع فلسطين) رقم 235 في العاصمة السورية دمشق ، وبقيت في سجن هذا الفرع قرابة إحدى عشر شهرا ، في قبو صغير تحت الدرج ، ويعتبر زنزانة إنفرادية ، بعد ذلك نقلوني إلى مهجع أكبر قليلا من الزنزانة الأولى ، وبقيت فيه حوالي ثلاث سنوات ، ثم قاموا بنقلي إلى مهجع أكبر ، وبقيت فيه إلى حين خروجي من المعتقل ، يوم الثاني من نوفمبر عام 1989 ، حيث أبعدوني إلى لبنان . الشهور الأولى لإعتقالي التي أمضيتها في زنزانة منفردة ، كانت الأقسى والأصعب خاصة الأشهر الثلاثة الأولى منها ، هي الأشهر التي يخضع فيها السجين للتحقيق اليومي المكثف على مدار الأربع والعشرين ساعة ، يتعرض خلالها لأقسى أنواع التعذيب الجسدي والنفسي...إضافة إلى ما يعانيه السجين داخل الزنزانة (القبر) ، حيث البرد القارص الذي لا يحتمله إنسان في الشتاء ، والحرارة الأشد في الصيف ، ولا يوجد فيها أي متنفس سوى فتحة صغيرة في الأعلى ، والزنزانة خالية من دورة المياه ، وهذا يعني أنه إذا رغبت في قضاء حاجتك في غير الأوقات المسموح لك بالخروج فيها ، فما عليك إلا أن تتبول في ملابسك ، وهذا حصل معي أكثر من مرة .

وسائل التعذيب الجسدي

كثيرة هي الطرق و وسائل التعذيب التي يمارسها الجلادون في السجون السورية ضد المعتقلين ، ولديهم أكثر من ثلاثين طريقة تعذيب ، ولكن سأتحدث فقط عن الطرق التي مورست في تعذيبي شخصيا داخل السجن :
أولا : (الدولاب) ، وهذه الوسيلة يستقبل بها السجين منذ اليوم الأول لوصوله ، ويتم خلالها وضع السجين داخل إطار سيارة ، بحيث يكون غير قادر على الحركة ويصبح ظهره مقوساً ، وتكون رجليه قريبة من رآسه ،

ويبدأ ضرب السجين ب (الكرباج) ، وهو عبارة عن كابل كهربائي مؤلف من عدة أسلاك معدنية ، ويستمر الضرب حتى الإغماء ، ويطال الضرب كل أعضاء الجسم بما فيها الأعضاء الحساسة .
ثانيا : (الفلقة) ، ويتم فيها ربط رجلي السجين ورفعهما إلى أعلى ، ويبدأ الضرب بالكابلات الكهربائية والهراوات ، ويستمر الضرب حتى يفقد السجين وعيه ، وهذه العملية تستعمل أكثر من مرة في اليوم .
ثالثا: الوسيلة التي عذبوني بها كثيرا ، وتكاد تكون الأصعب وهي (الكرسي) ...وهو كرسي خاص مجهز بمفاصل حديدية في منطقة إتصال المسند بالمقعد ، ويربط عليه السجين من القدمين والأكتاف واليدين خلف مسند الكرسي ، حيث تفتح بعد ذلك المفاصل بما لا يتيح للسجين أي شكل من أشكال الحركة ، حيث أية حركة تضغط على العمود الفقري ، وهذا يعني أن أي سجين إذا زاد عليه الضغط لثوان معدودة يمكن أن يؤدي ألى كسر عموده الفقري...وقد تعرض أحد السجناء لكسر في عموده الفقري جراء هذا التعذيب ، وسجين آخر ينتمي إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، أصيبت يديه الإثنتين بالشلل التام جراء تعذيب (الكرسي) ، وهناك وسائل تعذيب أخرى إستعملت ضد سجناء آخرين ، وتضاهي (الكرسي) في وحشيتها ، وهي (البلانكو و السلّم)...بالإضافة إلى وسيلة جديدة إبتكرها الجلادون ، وهي (الدفاية) ، ويقوم خلالها الجلادون بفتح رجلي السجين ، ويأتون بدفاية كهربائية ذات درجة حرارة عالية جدا ، ويقومون بتقريبها من أعضائه الجنسية ، مما يسبب له آلاما لايمكن إحتمالها .

التعذيب النفسي

في الحقيقة ، كان للتعذيب الفسي والمعنوي طوال فترة السجن التأثير الأكبر عليّ وعلى باقي السجناء ، حيث أن التعذيب الجسدي ، كان ينتهي بعد نهاية الآلآم والأوجاع التي كنّا نعاني منها بعد كل عملية تعذيب ، أما التعذيب النفسي ، فكانت آثاره تستمر طوال اليوم والشهر والسنة ، خاصة وأنت لاتعرف أين أنت ، ولماذا أنت في السجن ، وما هو مصيرك وما يمكن أن تتعرض

له...والسؤال الأقسى الذي كان يضغط علينا هو : هل أهلك يعرفون عنك شيئا ، حيّا كنت أم ميتا ؟. والتعذيب النفسي كان يأخذ أشكالا مختلفة..على سبيل المثال ، وهذا السؤال وجهوه لي منذاليوم الأول لإعتقالي : ما رأيكم أن توقعوا على بيان تشتمون فيه ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية ، ونفرج عنكم ؟. وقد عرضوا عليّ أيضا أن ألتحق بصفوف المنشقين عن حركة فتح ، كي يفرجوا عني!!!. أنا شخصيا تعرضت لمساومات عديدة للخروج من السجن مقابل التوقيع على بيان ضد الأخ ياسر عرفات وضد منظمة التحرير أو الإنضمام للمنشقين ، وآخر مرة تعرضت فيها للمساومة من هذا النوع ، كانت أيام حرب المخيمات ، حين أتاني محمود عيس (أبو عيسى) ، وهو أحد قيادات المنشقين إلى السجن ، وقابلته بوجود العقيد (بسام) ، وهو نائب رئيس فرع فلسطين في المخابرات السورية ،
وساومني الإثنان على الخروج من السجن شريطة الإنضمام إلى المنشقين...إضافة إلى العديد من السجناء ، كانوا يضغطون عليهم من خلال أقاربهم واهلهم، مثل (عادل الصغير) وكان مصابا بالربو وهو إبن عم (زياد الصغير) أحد المنشقين ، وقد جاءه أحد أقاربه ليقول له : إن إبن عمك سيتدخل للإفراج عنك ، فردّ عليه (عادل) : لن أخرج من السجن عن طريق المنشقين حتى لو بقيت عشر سنوات أخرى في السجن ، وكانوا يهددوننا على الدوام بالإتصال بأهلنا وعائلاتنا للضغط علينا ، أو يمنعون عنا الزيارة التي كانت تتم بالمناسبة .
وأريد أن أذكر قصة تعطي الدليل على فظاعة التعذيب النفسي والمعنوي الذي يمارسه النظام السوري بحق جميع السجناء والمعتقلين . عندما وصلت في اليوم الأول إلى السجن في دمشق ، بادرني أحد المحققين بالقول : إن إسمك ليس (توفيق الطيراوي) ، وإنما (عصام ثابت) ، و بمجرد أن سمعت هذا الإسم ، حتى تملكني الرعب وتبادر لذهني على الفور إسم (أمين ثابت) وهو الجاسوس الإسرائيلي الذي أعدم في سورية ، وكان إسمه الحقيقي (كوهين) . وتبادر إلى ذهني أن (عصام ثابت) هذا ، ربما إرتكب عملا ما ، وستم بالتالي إتهامي بهذا العمل ، وربما قاموا بعد ذلك

بتصفيتي جسديا ، ثم عرفت أن هذه أسماء وهمية يطلقونها على بعض السجناء الذين ينوون إنكار وجودهم في السجن اصلا ، حتى لا يطالب بهم أحد ، وأمام هذا الوضع كان لا بد من الإصرار على موقفي مهما كانت التبعات ، فرفضت أمامهم وبشدةهذا الإسم ، وأصريت على أني إسمي هو (توفيق الطيراوي) ، ورفضوا هم ذلك ، وأصروا على إنكار إسمي الحقيقي بالتهديد حينا وبالضرب والشائم أحيانا عديدة ، ثم أخذوني إلى شخص آخر مهمته إستلام أغراضي الشخصية التي سرقوها فيما بعد ، وعندما سألني هذا الشخص عن إسمي ، قلت له : (توفيق الطيراوي) ، فقام على الفور بضربي وشتمي قائلا : ياكلب يا إبن الكلب ، إسمك الحقيقي يجب أن تنساه وإياك أن تذكره ، وإن إسمك الآن هو (عصام ثابت) . وقد كان هذا الإسلوب من أقسى اساليب التعذيب النفسي الي يتعرض لها السجناء ، لأنهم لا يعرفون لماذا يطلقون عليهم هذه الأسماء تحديدا ، وما هو المصير الذي ينتظرهم من وراء تغيير أسمائهم !!. الشيء الآخر الذي كان يسبب لنا ضغطا نفسيا كبيرا ، إنك تكتشف بأنك مسجون ضمن ظروف لا تفهم عنها شيئا ، خاصة بعد أن إتهموني بأنني كنت وراء وضع متفجرات في سورية ، وهذا غير صحيح ، وبمجرد أن سمعت بهذا الإتهام الباطل حتى تبادر لذهني بأنهم يودون إعدامي ، مما جعل ظروفي النفسية صعبة للغاية . ومن ضمن وسائل التعذيب الأخرى ، نظام (الرهائن) ، حيث يتم إعتقال زوجة أو شقيقة أو والدة أو والد أو شقيق أو إبن أحد المطلوبين الذين لم يتمكنوا من إعتقالهم ، ويستمر إعتقال هؤلاء حتى يسلم المطلوب نفسه ، وعلى سبيل المثال تمكن سجين من الهروب من السجن ، فقاموا على الفور بإعتقال زوجته وضربوها حتى أجهضت ، ورفضوا الإفراج عنها إلى أن سلّم السجين الهارب نفسه...في الحقيقة إن المعاملة السيئة التي تعرضنا لها ، وما يزال باقي السجناء يتعرضون لها ، لا يمكن وصفها ، حيث كان الواحد منّا يشعر بأنه (إسرائيلي) مسجون عند النظام السوري .

النساء السجينات

يوجد في السجن العشرات من السجينات الفلسطينيات واللبنانيات والسوريات ، ممن أعتقلن من لبنان وسوريا ، والعديد منهن أعتقلن مع أطفالهن ممن تتراوح أعمارهم بين السنتين والأربعة سنوات...وكنّا نسمع دائما أصوات بعض النساء وهن يصرخن في وجوه السجانين ، قائلات لهم : (نريد حليبا وماءا لأطفالنا) . وقد تعرضت أولئك النسوة للتعذيب الجسدي والنفسي ، و أيضا كان العديد من النساء اللواتي أعتقلن مع أزواجهن مثل زوجة الأخ (عطية) ، وهو عضو لجنة منطقة في مخيم شاتيلا (ما يزال معتقلا حتى الآن) ، وبقيت زوجته معتقلة أكثر من عام ، وزوجة المحامي (ياسين) بقيت في السجن أكثر من عام ، وكان هناك إمرأة مسنّة إسمها (أم عصام) ، بقيت معتقلة مع ولديها الإثنين ، وما يزالا في السجن...وهماك ثلاثة فتيات فلسطينيات ، أفرجوا عنهن ، وتم تسليمهن للمنشقين الذين وضعوهن في السجن لأكثر من ثلاثة شهور، بعد أن رفضن التوقيع على بيان التعاون والعنل معهم .

العدد الحقيقي للمعتقلين الفلسطينيين في سجون النظام السوري

في الحقيقة ، إن العدد الحقيقي للمعتقلين الفلسطينيين في سجون النظام السوري ، يتعدى الستة آلاف ، ولكنني لا أستطيع أن أعطي رقما دقيقا لعدد السجناء للأسباب التالية :

أولا : هناك مابين 1500 و 2000 سجين مفقودين ، لا يعرف عن مصيرهم شيئا.

ثانيا : توجد أماكن عديدة للإعتقال والسجن ممنوع عنها الزيارة ، وبالتالي من الصعوبة معرفة عدد المعتقلين داخلها .

ثالثا : العدد الكبير للسجون وأماكن الإعتقال .

رابعا : صعوبة الإتصال مع غالبية السجون والمعتقلات .

لهذه الأسباب ، لا أستطيع أن أعطي رقما دقيقا عن عدد المعتقلين الفلسطينيين في سجون النظام السوري ، وعلى سبيل المثال ، فإن ما يسمى (سجن فرع فلسطين) الذي كنت مسجونا فيه ، وصل عدد

السجناء الفلسطينيين فيه إلى أكثر من 1000 سجين ، في الوقت الذي لا يتسع فيه لأكثر من 500 سجين .
في الختام ، وأنا أضع شهادتي هذه بين أيديكم ، أرجو من جميع الهيئات والمؤسسات والمنظمات العربية والدولية المهتمو والمدافعة عن حقوق الإنسان ، أن تضاعف جهودها من أجل الإفراج عن جميع المعتقلين في سجون النظام السوري : فلسطينيين ولبنانيين وعربا آخرين .)
هذه هي شهادة العقيد توفيق الطيراوي ، مدير المخابرات الفلسطينية العامة في رام الله ، عن عذاباته في سجون البعث السوري ، وبعد كل هذه الجرائم المرتكبة في سجون هذا النظام ، هل يبقى هناك من يقول (فضّ الله فوه) ، بأننا نتحامل على (النظام الوطني العروبي البعثي الصامد الذي يعد العدة لتحرير الجولان والإسكندرونة) ؟. لا مصلحة لي في التحامل على أي نظام عربي ...هذه هي الحقائق على لسان من عاشوها...وعندما نتحول ككتاب عرب لصف شعوبنا المضطهدة المظلومة ، ونكفّ عن مهنة خدمة المستبدين والديكتاتوريين والدفاع عنهم ، نسهم عندئذ في تحرر شعوبنا من هؤلاء الطغاة !!!.

[الشهادة التاسعة]

في القاع سنتان في سجن تدمر الصحراوي
بقلم: خالد فاضل

المقدمة
- 1 -
- لماذا هذا الكتاب المخيف؟
قال بعض الناس: إنه كتاب مخيف رعيب، بعد أن سمعوه يذاع على حلقات من صوت المجاهدين (إذاعة التحالف الوطني لتحرير سورية).. وسمعنا لقولهم واحترمنا رأيهم، ومع ذلك أذعناه في مائة حلقة وحلقة، وها نحن أولاء نصدره في كتاب.

- لماذا؟
- حتى يعلم الناس كل الناس، يساريهم ويمينهم، عربيّهم وأعجميهم، أبيضهم وأسودهم.. المتعاملون مع أسد ونظامه، والساخطون على أسد وسياسته الطائفية.. حتى يعلم كل هؤلاء، أي نظام ملعون هذا النظام الأسدي الذي رمانا به الصهاينة وأعداء هذه الأمة، ليعزلوا الشعب السوري وجيشه الأبي عن معركة تحرير فلسطين الأسيرة، وليخضدوا شوكة هذا الشعب وهذا الجيش، فهما كانا مصدر قلق وتوجس من قبل دهاقنة بني صهيون، ولم يستطع الاستعمار وظلمه وسياساته المتفاوتة في الشدة، أن يفعلوا شيئاً تجاه هذا الشعب، ولاتجاه الجيش السوري المنبثق من هذا الشعب..
وحتى يعلم سائر العرب والمسلمين ما يلاقي أبناؤهم العرب المسلمون السوريون من ألوان القهر

والاضطهاد حتى الموت في سجون ابن الأفاعي حافظ أسد... فلعل اطلاعهم هذا يحفزهم على الثورة بهذا النظام، أو لعله يحفز هممهم لمساعدة الشعب السوري الذي طالما قدّم لهم المساعدات في أيام المحن التي مروا بها، لعلهم يقدّمون شيئاً ذا بال لهذا الشعب المنكوب بأسد ونظامه الطائفي الأجير، يخفف عنه بعض بلواه، ويعينه على التخلص من ظالمة الجزار حافظ أسد.. ولعله يشير نخوة الرجال فينهضوا لتخليص هؤلاء المعتقلين الأسرى من براثن هذا العقور الذي أطلقوا عليه اسم: حافظ أسد..

كما أن إخواننا المعتقلين في سجن تدمر، كان يوصي بعضهم بعضاً بأن ينقل المحكومين بالبراءة ما يجري لهم في سجن تدمر، في حال الإفراج عنهم، ومن يتمكن من تسريب بعض المعلومات عن الجرائم التي ترتكب بحقهم في سجن تدمر، فليفعل، وقد أذن الله بالإفراج عن الأخ صاحب هذا الذكريات، وهو لا يزال يذكر وصية إخوانه المعتقلين له، بأن يعمل على فضح هذه المخازي والجرائم، في سائر الأماكن التي يمكنه الوصول إليها، وبشتى الطرائق والأساليب، حتى غدت تلك الوصية هماً يومياً طالما عانى منه الأخ صاحب هذه الذكريات، إلى أن يأذن الله بنشرها وإخراجها إلى الناس، بعد أن شرح صدورنا لنشرها.

نحن كنا نعلم مدى الحزن الذي ستخلفه كل حلقة مذاعة في نفس سامعها، ولكننا كنا نعلم أيضاً التأثير الإيجابي الذي سيكون لهذا الحلقات على الساحة السورية خاصة، وعلى الساحة العربية عامة.. فقد قامت كوكبة كريمة من سيدات حمص -على أثر سماعهن البعض هذه الحلقات- بالتظاهر أمام مبنى المحافظة، وطفن في شوارع حمص، ووقفن طويلاً أمام مباني المخابرات العسكرية، والعامة والشعبة السياسية، وطالبن بأزواجهن وأبنائهن وأخواتهن وآبائهن وإخوانهن المعتقلين والمعتقلات منذ بضع سنين.. ثم تلتها مظاهرة نسائية أخرى في دمشق.

ثم ذهبت كوكبة من نسوة حمص الحرائر إلى دمشق، لمقابلة الشيطان الأكبر حافظ أسد الذي رفض استقبالهن، وأرسل أزلامه مهددين متوعدين، وقد تمكنوا من (الانتصار) الساحق على هؤلاء الحرائر،

فشتتوا شملهن، وأعادوهن حزينات مهزومات إلى حمص..
فليهنأ الجيش الفخور بنصره وبكسر هنه..
إننا بإصدار هذه الذكريات عن سجن الموت في تدمر، ونقل معاناة أولئك الأحرار الأسرى، نريد أن نشهد العالم أجمع، نريد أن نشهد الدنيا بأسرها، على جرائم هذا الملعون ابن الأفاعي، لعل الحسّ الإنساني يتحرك فيهم، فيبادروا إلى فعل حاسم يجتث هذا السرطان من جسم أمة العرب، لينقذوا العرب والمسلمين من خبائثه وجرائمه..
وقد توخينا تقديم هذه الذكريات بهذا الأسلوب العفوي البعيد عن التزويق والتشذيب، لأننا رأيناه ينبثق من أعماق القلب، ليقع في قلب من يصل إليه، وإن كان ما يحزننا أننا حذفنا بعض مناجياته على الرغم من عفويتها ورقتها ونعومتها وتأثيرها لاعتبارات لا مجال لذكرها الآن.

- 2 -

ولعل قارئ هذه الذكريات المحزنة المؤلمة، الذكريات التي تجعل نفس قارئها تطفح بالرعب.. لعله يلاحظ معنا عدداً كبيراً من المعاني الإسلامية والإنسانية والتنظيمية نذكر منها:
1 - إن الأمل لم يفارق هؤلاء الأحبة حتى وهم يعانون أقسى أنواع التعذيب، ويعيشون أحلك اللحظات، فقد كان الأمل لديهم ينبثق من بين أسداف الظلم والظلام، وإذا هم شاكرون حامدون، وصابرون محتسبون، يملأ الإيمان قلوبهم، وينير أبصارهم وبصائرهم، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم: عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير.. إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له..
كان لجوؤهم إلى الله الملجيء المنجي، هو الذي يجعلهم في هذا الصفاء العجيب.. يسحقون وتسحق معهم أجسامهم وإنسانيتهم، وهم في حالة عروج روحاني عجيب، تصحب حالة السحق والطحن.
2 - وقد نتج عن ذلك ثبات الفتية الشباب كثبات قاسيون، ورجولة بزت رجولة الفحول، إلى جانب

التقوى الحقيقية والإيثار الذي علّم الكبار.. إنهم فتية آمنوا بربهم، وارتضوا أن يكونوا جيلاً استشهادياً فريداً.. وأنا أذكر الفتية الأشبال، لأن الشيوخ لا تستغرب منهم هذه المواقف التي تمليها عليهم تجاربهم الطويلة وثقافتهم الشرعية، وعبادتهم الخالصة لوجه الله على مدى السنين.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، لنبين الفوارق الكبيرة بين هؤلاء الفتية المؤمنين، وبين أترابهم وزملائهم، أولئك الذين ما يزالون تائهين في دروب المراهقة، يلاحقون الفتيات ويمضون أعمارهم، في الخزعبلات والترهات..

كنا ذات يوم في السجن المركزي الكبير في حلب... كان في مهجعنا رقم (1) حوالي خمسين أخاً معتقلاً، وكان من بينهم فتى مهذب، وكلهم..

كل الفتيان كانوا مهذبين، اسمه فهد تاج الدين من حلب.. شاب في عمر الورود، لم يتجاوز ربيعه السادس عشر، تقي نقي ذكي، لمحني أقف على (البلاط) أرض المهجع، أكلم أحد السجانين، وإذا هو (فهد) يسرع بجلب بطانيته ليمدها تحت قدمي كيلا أتأثر بالبرد في الدقائق التي أحدث فيها ذلك السجان..

أعجب السجان أيما إعجاب بفعل الفتى فهد تاج الدين وقال: اطمئن يا أستاذ، المستقبل لكم، وسوف تحكمون العالم، ما دام عندكم أمثال هؤلاء الشباب..

وكانت هذه الحادثة أحد الأسباب في هداية ذلك السجان... أذكر أن الشهيد وليد حماد -رحمه الله تعالى- دخل السجن وهو بريء لا علاقة له بالجماعة.. اعتقل لقرابته من الأخ الحبيب النقيب إبراهيم اليوسف -تغمده الله، وسائر إخواننا الشهداء بفيض رحمته ورضوانه-.. وقد ثبت لدى المحققين والجلادين هذا عن وليد.

وكان يوم حاول أحد السجانين الاعتداء على أحد الأخوة المعتقلين في السجن المركزي بحلب، فضج الإخوان، وكانت أيامنا أيام عز، وقد كان إخواننا المجاهدون يصلون أسداً وأزلامه نيراناً حامية.

فما كان من عناصر المخابرات إلا أن يشتطوا على إخواننا، فتصدى لهم وليد، فأخرجوه من المهجع ليعذبوه، فهاجمهم وليد -وكان قويّ البنية، مفتول العضلات- وتمكن من صرع ثمانية سجانين.. واستنفرت

أجهزة المخابرات، وهاجمت السجن عدة سيارات محملة بالعناصر، واستاقوا الأخ البطل وليداً إلى فرع المخابرات العسكرية بحلب..

وفي فرع المخابرات العسكرية هذا قال له رئيسها آنذاك، العقيد عدنان رام حمداني: يا وليد.. ألم تقل لنا: أنك لا علاقة لك بالإخوان؟

فأجابه وليد بحزم: صحيح قلت لكم هذا، ولكني أدعوك إلى الذهاب إلى السجن، والعيش مع الإخوان مدة أسبوع فقط، وسوف ترى نفسك أنك صرت (خلق) أي صرت إنساناً مسلماً مهذباً لا كما أنت الآن.

وابتلعها العقيد وخرس، ثم أعاده إلى السجن المركزي وقد حقق انتصاراً على السجانين، وانتصاراً على رئيس المخابرات العسكرية بحلب، وانتصاراً على نفسه وانتصاراً لإخوانه على الظالمين، إذ حفظ لهم هيبتهم وكرامتهم..

وكان من نتيجة ذلك، أن أخلوا سبيل وليد وأفرجوا عنه، قبل أن يتأثر بشباب الإخوان وبفكرهم... ولكنه خيّب ظنهم، فقد خرج من السجن إلى العمل المسلح، ولقد شاهدته بعد خروجه وخروجي من السجن، وإذا هو شاب مرهق، وقد خفّ وزنه وشحب لونه، وعندما سألته أمام الأخ النقيب عن سبب هذا الضعف وهذا الشحوب أجابني النقيب: انظر إلى كفيه.. إنه يقاتل في الليل، ويبني القواعد في النهار.. ثم ما لبث أن استشهد في القاعدة التي داهمتها مئات العناصر الأسدية فقتل منها وليد مقتلة عظيمة..

مما يلفت نظر القارئ هذا الجيل الاستشهادي الفريد من أشبال الإخوان المسلمين، فقد طلّقوا دنياهم طلاقاً بائناً، وأقبلوا على آخرتهم مخلصين منيبين، فكانوا نماذج حيّة للشبان الناشئين في طاعة الله المقبلين على جنته، ليكونوا من الذين يظلهم عرش الرحمن بظله يوم لا ظل إلا ظلّه.

3 - ولعل ظاهرة الإيثار الذي تميز به الشباب، من أقوى الإيجابيات في حياة هؤلاء الأحبة الأسرى.. فأي إيثار أعظم من هذا الإيثار؟.. أن يتقدم الفتية الشباب ليكونوا في الصفوف الأولى التي تتلقى أعنف الضربات، وأقسى ألوان التعذيب على أيدي جلاوزة أسد، بينما يبعدون المرضى والعاجزين والكهول والشيوخ إلى

الصفوف الخلفية، كيلا تنالهم الصدمة الأولى من التعذيب الوحشي..
يا حسرة عليكم أيها الشباب.. فما أمسّ حاجة الدعوة إليكم وإلى أمثالكم في هذه الأيام العصيبة.
ترى.. أي عقوبة تلكم التي ستنزل بهؤلاء الجلادين الذين فعلوا الأفاعيل بأولئك الأحبة؟..
اللهم أي لا أكاد أتصور عقوبة تشفي منهم الغليل..
اللهم مكنّا من هؤلاء الوحوش الأنذال، لنثأر منهم لدينك ولجندك ولنشفي بثأرنا صدور قوم مؤمنين...

- 3 -

يا شباب.. هؤلاء هم إخوانكم الذين سبقوكم إلى الجنة.. هؤلاء هم.. محمود ورامز وهمام وعبد الله وعصام ووائل وفهد.. ادرسوا حياتهم جيداً، ثم اتخذوهم قدوة لكم، وسيروا على نهجهم، لتفوزوا في الدنيا والآخرة.. ودعوا السفلة ودعاة الفتنة والمزايدين في أسفاف.. دعوا رافعي الرايات البيض والمنبطحين والمستسلمين والمستفيدين من هذه الثورة، المثيرين على حسابها كما أثرى عملاء أسد... دعوا هؤلاء فهؤلاء ليسوا منكم ولستم منهم... إنهم عمل غير صالح... هؤلاء ليسوا قدوتكم، ولا يستأهلون أن تنظروا إليهم إلا نظرات الإشفاق الحزين، ولا تشغلوا أنفسكم بهم.. لأنهم تافهون.. تافهون.. تافهون..

- 4 -

يا هوووووو..
ترى أي ثأر سيكون الثأر لأولئك الأطهار...؟
إن الآفاق ينبغي أن تصبغ بالحمرة القانية..
وعلى كل مجاهد أن يضع على عينيه نظارة حمراء، يرى مستقبل أولئك الأشرار الأسديين من خلالها..
وليكن شعاركم أيها المجاهدون:
ليقتل كلّ منكم أسدياً واحداً على أقل تقدير..
والموت والعار للجبناء والمستسلمين..
فالثأر الثأر لتدمر الحمراء..
ولن تطفى الحرائق في قلوبنا وأعصابنا إلا أنهار الدم تجري عبر الزمان..

فلنثأر نحن..
ولنربّ أولادنا وحفدتنا على الثأر..
فليس للعقرب حافظ أسد إلا الحذاء...
ولا يفهم غير لغة الحذاء الذي سندوسه به..
وليس لنا من مادة نتعامل بها مع تلك الوحوش الجبلية إلا الثأر والنار..
فانتظرونا أيها الجلادون مصيركم المحتوم..
فإننا منتظرون..
انتظر يا فيصل ويا سليمان ويا فواز ويا شعبان ويا ديوب..
هيه صواعق السماء..
هيه براكين الأرض..
تفجري حمماً، وطهري الأرض من هؤلاء الأوباش..
يا ثارات الله تحفزي..
يا استغاثات الأعراض استوفزي..
يا لوعات المنكوبين في سجن الموت قد جئناك..
ويا أعداء الله والإنسانية قد جئناكم بالذبح، فمدّوا الرقاب..
ويا شعراء العالم اقرؤوا سطوراً منه همجية هذه الوحوش الجبلية في سجن تدمر..
يا فناني العالم اقرؤوا قصة المأساة..
ثم خلّدوا إقدام هؤلاء الشباب..
خلّدوا هؤلاء الشباب الشهداء الأطهار..
واجعل اللهم دماءهم ناراً تلظى، تحرق الظالمين، وتنير الطريق للمجاهدين ولسائر المسلمين..
اللهم احصهم أسداً وقبيله وعبيده وأزلامه وأركان نظامه.. اللهم احصهم عدداً، واقتلهم بددا، ولا تغادر منهم أحدا.. اللهم اجعل قتلهم على أيدينا وبأيدنا يا منتقم يا جبار.. وسلام عليكم إخوة الجهاد في الخالدين.
25/8/1985
"أسرة النذير"

في القاع سنتان في سجن تدمر الصحراوي
توطئة
أخي القارئ الكريم.
قد يكون هذا الجهد قاصراً، وهذا العمل ناقصاً، والخبر غير مكتمل فالكمال لله وحده، والعذر أمام الله وأمامك،

وأن أخاكم قد بذل جهده، وسعى طاقته، وإن لم يمكنه أن يحصي في هذا العمل كل هذه الأحداث، فقد ذكر جلها، وفي هذا غناء لمن وعى، أن يتذكر أولو الألباب.
أخي القارئ الكريم يمكنك أن تقول: إن هذه الصفحات إنما هي عصارة روح آضها ظلم فادح، ونزل بها بغي فاجر، وأحاطت بها محن وأهوال ومهالك بك ما في تلك الكلمات من معانٍ، وهكذا فإن صاحبها عاجز عن نقل كل ما عاناه وعاشه هو وزملاؤه المعتقلون من صنوف البلاء، ولكنه يرغب من صميم قلبه أن ينقل إلى الملأ كل ذي بصر وبصيرة، وإلى كل ذي همة ومروءة وشهامة، خبر ما عاناه وما عاينه في تلك الفترة، ما بين آب 1980 وتموز 1982 من أحداث رهيبة، وإنه يقول ويعلن بكل أسى وحرقة، أن هذه الأوضاع والأحداث الرهيبة مستمرة، بل إن وتيرة المكابدة في ازدياد..
فلئن كان نزلاء السجن سجن الموت تدمر في أواخر عام 1982 ستة آلاف معتقل، فانهم الآن يجاوزون التسعة آلاف، سوى من هلك خلال ذلك الوقت.. ولئن كانت أحوال المعتقلين في سجن الموت في تدمر مؤسية منذ أول يوم وجدوا فيه، من جميع النواحي المعيشية والصحية، وخطيرة جداً بعد ذلك من النواحي المذكورة، حتى أواخر عام 1982 فكيف هي أحوال هذه الألوف المؤلفة من المعتقلين الذين يكدسون أعداداً فوق أعداد؟ فكيف أحوالهم اليوم؟ ولئن كان الجوع يطحنهم والأمراض والتعذيب والإعدامات تفتك بهم في أواخر عام 1980 وهم ستة آلاف، فكيف وقد تضاعفت أعدادهم؟ ومن أين لحياتهم المهلكة في سجن الموت أن تسمى حياة؟! إنها قتل بطيء عدا القتل وعدا الإعدامات وعدا الجوع والمرض.
فهل يطيب لذي ضمير أن يهنأ بالطعام والشراب، ويشرب قهوته، وينفث دخان سيجارته في تراخ وكسل، وهو يعلم يقيناً سوء ما يلاقيه إخوان له – في الإنسانية على أقل تقدير.
إنها صرخة أرجو أن لا تذهب في واد.
وإنه استصراخ لأصحاب الضمائر والمروءات.
وإنه نذير للساهين الساردين..
ونذير للممالئين للظالمين..
وإنه هزة للغافلين والمتغافلين..

وإنها صرخة المظلوم في وجه جلاده اللئيم..
ولكنها محنة ستنقضي، وليل سيعقبه – مهما طال – فجر مشرق وضاء، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون.
وعلى الله قصد السبيل
"خالد فاضل"

خرجت صباح يوم 10/7/1980 في السابعة والنصف صباحاً قاصداً مركز عملي في إحدى إدارات الدولة وقد تسحرنا هذا اليوم الأول من شهر رمضان المبارك.
لقيت في طريقي بعض الناس فسلمت عليهم من بعيد. كان يوماً عادياً كسائر الأيام. مشاغل كثيرة، أفكار مختلفة، اليوم سوف أنطلق إلى العمل كالعادة، سوف أكون مجداً. يجب أن تثمر الجهود وأن نقدم أكبر خدمة ممكنة لهذا الوطن ونحصل على أفضل النتائج، لن أتهاون مع المعطلين. ليكن الأمر جداً، فمصلحة العمل أولاً وأخيراً.
رمضان شهر الخير والبركة، لا بد من إفطار شهي مناسب ومن أنفق ووسع على عياله وسع الله عليه (أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا) من للأرامل واليتامى والمشردين في شهر الخير؟. أصبح عمل الخير مخيفاً في هذه الأيام...
التقيت البارحة بصديق خرج حديثاً من السجن فهنأته بالسلامة. قال لي: لا تؤاخذني لا أجسر أن أدعوك لزيارتي...
عجيب أمر هذه الدنيا في هذه الأيام، سخرت من هذا الأمر في نفسي. قال الصديق: قد لا تصدق ولكن من جرب عرف...
مالي ولهذا الأمر لا أريد طبعاً أن أجرب. أمامي اليوم عمل كثير. العمل والإنتاج هما الأساس ولأن تكون عاملاً منتجاً فعالاً خير من أن تكون (سياسياً) متحذلقاً ترائي الحكام، ولا تعمل ولا تنتج إلا قليلاً. مررت بالسوق واشتريت بعض المواد ووضعتها في حقيبة الخضار، لا بأس أن ترسل هذه الأشياء إلى البيت ليفرح العيال بإفطار رمضاني شهي. أمر هام ومهمة جليلة أن تربي أطفالاً وتخرج للحياة وللوطن شباباً وأعين ورجالاً

منتجين، وعلى خلق حسن أمناء في الفكر والعمل، مررت بالبقال المواجه للدائرة فقد كان من العادة أن أمر به كل صباح لأشرب معه كأساً من الشاي، وهو يلقي بنكاته الساخرة ويضحك بمرارة، ويقسم أن بطن الأرض أصبح خيراً من ظهرها، لم أجده اليوم على خلاف العادة. وضعت حقيبة الأغراض أمام الدكان أمام بصر ابنه الصغير، نظرت إلى باب المحل المجاور.. كان خالياً تماماً، أنا لا أحب تضييع الوقت في الأسواق، ولكني أجد هنا في الغالب أبا محمد موظف الزراعة وأمين أستاذ التاريخ الذي لا يجد عملاً وعبد الله صاحب محل النوفوتيه، فقد اعتادوا أن يشربوا كأس شاي سريعة قبل الانطلاق إلى العمل، وكنت أمر بهم في بعض الأحيان لأسمع أخبارهم الجديدة، عن المظاهرات والتمشيط والمحاكم الميدانية وغيرها، فقد كانوا ينفذون إلى دقائق الأمور وهم يحللون كل قضية، غريب أمر هذا اليوم.

تحدثت البارحة مع صديق لي معلم في إحدى المدارس قال: أنا خائف من الاعتقال فهؤلاء الحكام طائفيون وأنذال. قلت: ولم تعتقل وأنت بريء لم تفعل شيئاً يخالف القانون؟..

قال: هؤلاء لا يعرفون شيئاً اسمه قانون، ولا يهمهم ما إذا كنت عملت شيئاً مخالفاً أم لم أعمل.. إنهم يضربون في الناس يميناً وشمالاً، حتى الحزبيون ليسوا في أمان.. بلادنا في محنة، تسلطت عليها هذه الفئة غدراً وقهراً، يأخذون الإنسان هكذا بالشبهة وإلى أن يتحققوا من براءته، يفقد نصف حياته أو كلها..

الاعتقال

وصلت إلى مكان عملي متأخراً بعض الشيء، وجدت على الباب جمعاً من الناس كالعادة بل وأكثر، إنهم لا ينتظرونني بل ينتظرون الموظف الكبير وكاتبه الأمير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وقام أحدهم إلي، فظننت أنه يريد مجرد استفسار مني، ولكن تبين لي أن عمله عندي وشعرت بالحرج والخجل، أتركت إنساناً ذا عمل ينتظرك؟ أيسامحك ربك؟ أسرع فاقض له حاجته وكفاك تعطيلاً له.

أسرعت إلى طاولة العمل، وبينما أنا أمسك بالقلم لأخط بعض الكلمات، اقترب مني زميل وأشار إلى ثلاثة أشخاص جالسين قريباً وقال هامساً: إنهم ينتظرونك. وبدت الوجوه غريبة علي وقام أحدهم فسلم وسألني: أنت فلان؟

قلت: نعم..

قال: نريدك لخمس دقائق في الدائرة.. ودار سؤال في ذهني قلت: أهلاً وسهلاً، كتبت شيئاً، وناولته للرجل وكان آخر عمل، وخرجنا من المكان فإذا سيارة في طريق جانبي فيها رجال مسلحون. ركبنا السيارة وسارت بنا كانت كل خطوة تبعدني عن أهلي وعن حياتي وأولادي وعملي لأعيش حياة كلها عذاب وقهر وموت، ولأشهد الظلم ليلاً حالك السواد يلف بلادنا الحبيبة، ويطيح بحياة الألوف من أبناء هذا الشعب ليلقيهم جثثاً هامدة مشنوقة بحبال رفيعة على خشبات رهيبة، وتلقيهم في حفر ضخمة في صحراء (تدمر) ويهيل عليهم البلدوزر التراب، وليترك آخرون أشباه بشر يعيشون حياة هي إلى الموت أقرب، ولولا إيمانهم ولولا صبرهم لماتوا قهراً، فالموت أهون بكثير من حياة يوم واحد في (تدمر) الظلم، حتى ليقسم الإنسان البسيط قائلاً: والله لولا أن قتل النفس حرام لما ذقت طعاماً حتى أموت.

كان في الدورية شاب نحيف أسمر تبدو عليه علامات الإشفاق والضيق، وبعد وقفة قصيرة في أحد فروع المخابرات انطلقت بنا السيارة إلى مركز مخابرات المحافظة. كانت السيارة قوية سريعة، وأنا جالس في المقعد الخلفي وبجانبي عنصر مسلح وفي الأمام آخر والسائق. تشجعت وسألت: ما هي القضية التي تريدونني فيها؟

قال الأسمر: لا بسيطة..

قلت: أرجو أن يكون ذلك سريعاً.

قال الأسمر: لا تستعجل..

حرت ماذا أقول.

معتقل أمن الدولة بإدلب

وفي بناء طويل ضخم كأنه مدرسة دخلنا من باب جانبي وسرنا في ممر طويل وأنا لا أكاد أشعر بشيء، وقد

أنست إلى الأسمر ولكنه كان يبدو يائساً.. نزلنا درجاً إلى قبو البناء وسلمني هناك إلى رجل في يده رزمة مفاتيح وأوصاه بي قائلاً: دير بالك عليه. ومضى..
وقادني السجان إلى باب أفضى إلى ممر متعرج على جانبيه أبواب، فتح أحدها وأدخلني وقال: خذوا هذا لعندكم.. وأغلق الباب ومضى.. قلت لنفسي: هذا أول الغيث.. زنزانة مظلمة وأبواب حديدية فماذا بعد؟ ولو عرفت لقلت أنه أدهى وأمر. أين أنا من الوظيفة والعمل وتقديم الخدمات للناس والعيال وكيف يعيشون بعدي؟ وعلى الدنيا السلام، وناداني صوت من داخل الزنزانة: تفضل يا أخ. نظرت فإذا أناس جالسون وخجلت من نفسي، فألقيت عليهم السلام. كان قلبي يهفو إلى خارج هذا المكان فكيف أدخل؟ وأعادوا الكلام: تفضل يا أخ. هل أقول لهم أنا مستعجل؟ أنا مشغول؟ ورائي عمل أريد أن أعود، وهل ذلك بيدي؟ فماذا أعمل يا رب؟
ولكن.. يبدو أنه لابد من الجلوس. نزعت حذائي وجلست في طرف الغرفة كضيف خجول، فشددوا الطلب: تفضل إلى هنا. قلت لنفسي: يبدو أني حللت بين قوم كرام فليس من المناسب أن أخرج دفين قلبي فأزعجهم، ولكن لسان الحال كان ينبئ عما في الأعماق.

التحقيق والتثبيت
مضى الوقت وألفت الجلوس والنظر إلى الجدران الكالحة، ولكن شوقي إلى رؤية السماء كان حاراً، وألمي من الباب المغلق كان مراً. حلّ المساء وكانت أيام رمضان شهر الخير الذي طالما أمضيناه في حال من السرور حيث نجتمع على مائدة الإفطار الشهية بانتظار مدفع الإفطار، ونغرف للجيران حتى لا نؤذيهم بقتار قدورنا ويغرفون لنا فيكون خير على خير، وكانت مائدتنا اليوم عامرة بالنسبة لوضعنا حيث كنا نتوقع أن لا نجد ما نأكله فإذا بالمائدة وقد حوت ما يسد الرمق ويذهب ألم الجوع، فالحمد لله رب العالمين.
في هذا المعتقل (معتقل أمن الدولة) الذي هو قبو أرضي في بناء كان مخصصاً لمدرسة، كان هناك حوالي ثماني زنازين فيها حوالي ثلاثين معتقلاً، وسنحت فرصة

في المساء حينما سمح لنا بالخروج إلى الدورة واحداً بعد واحد، وبمساعدة من الأخوة كلمت بعض من أعرفهم في الزنزانة المجاورة وخاصة "أبو بلال" وعلمت شيئاً عن سبب اعتقالي قال لي أبو بلال بالحرف الواحد: أنا حكيت عليك تحت التعذيب.. دبّر حالك.
قلت: كيف أدبر حالي يا أبا بلال؟
قال: لا أعرف.
قلت: ماذا قلت عني؟
قال: قلت سمعت أحد الأشخاص يقول عنك: ماشي حالو.
قلت: يعني؟ ماذا تعني بماشي حالو؟
قال: متعاطف أو شيء من هذا القبيل.
قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.
طلبت في العاشرة ليلاً للتحقيق.. شجعني الأخوة قائلين:
توكل على الله.. قل لهم: مالي علاقة بأحد، علاقتي بالناس طيبة، لست ضد الوضع.
فتح السجان الباب وأمرني بالخروج واقتادني إلى غرفة جانبية وجاء بمنديل أسود فعصب به عيني جيداً واقتادني إلى ممر ثم دخل بي إلى قبو التحقيق وأوقفني فيه. شعرت أني أقف أمام إنسان ما، فألقيت السلام فلم يعجبه ذلك فقام إلي وانهال عليّ ضرباً فوجئت بهذه الهجمة المنكرة، وصدمت رغم أني كنت أتوقع ذلك وأكثر منه، ولم أكن أتصور كيف.. ثم أمرني أن أحدثه عن تنظيم الأخوان المسلمين بالتفصيل.
قلت: لا أعرف عنهم شيئاً.
قال: يا إما تحكي بالطيب وإلا والله بسلخك؟ احكي مين اللي نظمك؟..
قلت: أنا لست منظماً يا أستاذ. أنا موظف بسيط من بيتي لعملي وهذه هي حكايتي فعلاً وبكل صراحة.
قال: احكي مين اللي نظمك في الأخوان المسلمين؟ مين تعرف منهم وبدك تحكي كل شيء.. نحن نعرف كل شيء عنك لكن بدنا أنت تحكي..
قلت: صحيح.. أنتم تعرفون كل شيء وأنا لا أعرف شيئاً، أنا أقول الصدق ولا أكذب عليك. أنا لا أعرف شيئاً عن الأخوان المسلمين ولا بعمري التقيت بواحد منهم هذا هو الصدق.

قال: أنت ما بتفهم بالمعروف ولك..؟
واندفع يصفعني ويضربني وهجم عليّ شخص آخر وألقاني أرضاً ووضع رجلي في دولاب، وأدخل رأسي فيه فجمع رأسي إلى رجلي (يا رب ماذا فعلت)؟
صرخت: والله قلت الصدق..
فصرخ: كذاب ولك..
وانهالوا عليّ ضرباً بالخيزرانة على رجلي وعلى ظهري وجانبي، بدأت أشعر بألم في جسمي كله، وكأنه يكوى بالنار، وأن هذه النار تضرب في العظم وصرت أتأوه وأصرخ:
يا أستاذ يا سيد أنا بريء. أنا مالي علاقة بأحد اسأل عني..
فصرخ فيّ: كذاب ولك.. بدك تحكي غصباً عنك..
وصرخت رغماً عني. كان الألم رهيباً فارتفع صوتي بالصراخ والتأوه.. ودارت الخيزرانات تأكل من جسمي من الرجلين والجانبين والظهر ومن كل مكان، وأنا أستغيث ولا مغيث ثم وقفوا بعد أن تعبوا وكلوا.
ونهرني قائلاً: بتحكي ولك..؟
قلت: نعم بحكي ايش بتريدوا؟..
قال: هات لنشوف مين اللي نظمك وإيش بتعرف عن الأخوان المسلمون؟
قلت: والله ما بعرف شيء عن الأخوان.
فصرّ على أسنانه وقال: ما بتعرف يا... خود..
وعاد الفلم من أوله، وتوالت الضربات على رجلي كأنها النار تكوي العظام، وتناولتني الخيزرانات تلدغ بسمها جميع بدني كأنها الأفاعي تنهش من لحمي وعدت أصرخ:
- دخيل الله يا الله أنا بريء.. أنا بريء..
وكأنهم حموا أكثر فكأن كلامي الزيت يلقى على النار فغبت عن الوجود.. وهدأت حمى عذابهم وعادوا إلى المحاورة:
- بتحكي ولك؟
قلت: نعم بحكي دخيلكم. أنا رب عائلة وأطفال صغار، ما عندكم أطفال, إيش بتريدوا مني؟
قال: مين اللي نظمك؟ ماذا تعرف عن الأخوان المسلمون؟

قلت: والله يا ناس ما بعرف شيء والله ما بعرف.. انتو بتعرفوا..
وعادت الخيزرانات تلعلع وتأكل من رجلي وجسمي وعدت أصرخ وقد جفّ حلقي وضعف صوتي وقال أحدهم:
- الكهرباء..
ووقف الضرب وجاؤوا بسلكين فربطوا كل واحد منهما بإصبع من إحدى رجلي وقالوا:
- بتحكي ولك وإلا منشويك بالكهرباء مثل العصفور؟...
فصرخت: يا سيدي والله حكيت وبحكي إيش بتريدوا..
وسرت الكهرباء في الأسلاك وكأنما هي العقارب تدب وتلسع في رجلي ثم اشتدت فأخذت جسمي رجفة شديدة والنار تسري في دمي وعظامي وتأخذ بقلبي تريد أن تحنقه وتقتله وصرت أصرخ ملء فمي بلا شعور وأنتفض كالمذبوح وكأن جسمي أصابه مسّ شيطاني، وكأنما ركب في رجلي زنبرك كما في لعب الأطفال، فهي تتحرك آلياً في انتفاضة مستمرة والنار تسري في دمي وجسمي حتى كللت ووقفت النار.
وصرخت بصوت ضعيف: والله بحكي يا سيدي بحكي..
فصرخ المحقق منتصراً: مين اللي نظمك وإيش بتعرف عن الأخوان المسلمين؟
قلت بألم: والله ما حدا نظمني يا ناس لا أعرف الأخوان، كل عمري ما شفت شخص من الأخوان المسلمين من أين أعرفهم ما حدا قال لي أنا من الأخوان.
وعادت النار تسري في جسمي ويغلي بها دمي، وأصبح صراخي ضعيفاً وصوتي لهاثاً لا يكاد يسمع وجسمي ينتفض كريشة تضربها رياح عاصفة من كل مكان، ووقفت النار وعادت المحاورة القاتلة ولا أدري كيف مرت ساعتان من حياتي كأنهما الدهر، وأخرجوني من غرفة التحقيق إلى الممر ثم إلى الغرفة الجانبية, ونزع السجان العصابة عن عيني وأعادني إلى الزنزانة وأنا أستند إلى الجدران وأجر نفسي جراً، وتلقاني الأخوة يواسونني ويهونون عليّ وقال أخ مهندس: شد حيلك هي ساعة وتزول..
وسألني آخر: هل تورطت في الكلام؟ وأشرت برأسي كالذي يناطح الصخر:لا.. وكانت الدموع تسيل من عيني ورجلاي متورمتان مشققتان، وساقاي مجروحتان في

عدة مواضع. أردت أن أضطجع فما استطعت. كان جسمي يؤلمني أشد الألم، وجالت في نفسي خواطر، ما أحلى أن يصاب الإنسان في سبيل مبدأ سام شريف، تذكرت أنا كنا منذ فترة نسعى لبناء جامع في حينا، وشاركت مع عدد من أهل الحي في العمل بهذا المشروع، وكان هناك الحاج معروف صاحب أرض البناء الذي تبرع بالأرض كلها والتاجر يونس الذي دفع مبلغاً كبيراً والبناء أبو خالد يشارك باستمرار في العمل والإشراف. وكنت أساعده.. وزلقت رجلي يوماً فوقعت وكشطت ركبتي وتألمت كثيراً ولكن هون علي ذلك أن هذا في سبيل الله واليوم يصيبني هذا العذاب: لمَ يارب؟ إن لم أكن من تنظيم الأخوان فأنا مسلم وأنت يا ربي كريم، فإني أرجو أن تكون هذه الآلام في سبيلك، وأنها لظلم واقع بي من هؤلاء الطاغين، وأنت يا ربي لا تحب الظلم ولا يضيع عندك شيء.. اللهم انتقم منهم.

أبو اصطيف

كان دور المحقق يبدأ في العاشرة صباحاً ويستمر إلى الثانية بعد الظهر، ومن التاسعة ليلاً حتى آخر الليل. وكان لي في كل يوم جلسة تحقيق في الصباح وأخرى في المساء، وينشغلون عني بعض الأحيان، ويعيدون في كل مرة (فلم) العذاب بأكمله قاسياً مريراً رعيباً, وكانوا يطلبون مني أن أكتب لهم في كل مرة اعترافاتي ولا يعجبهم ما أكتب، فيضربونني عليه أشد الضرب.

فتح السجان باب الممر قبل الظهر وأدخل شخصاً فأوقفه في الممر وتركه ومضى.

قام أحد الأخوان فاسترق النظر من النافذة الصغيرة ثم قال: قادم جديد.. قمت استرق النظر وهالني ما رأيت يا الله.. إنه أبو اصطيف، كان يقف في طرف الممر يلبس بدلة رصاصية اللون مكوية، وكأنه جاء ليتفقد أحوال المعتقل، ناديته: أبو اصطيف. السلام عليكم..

أجاب: وعليكم السلام.

قلت: خيراً إن شاء الله يا أبو اصطيف؟

كان سؤالاً حائراً، وأقول في نفسي: وهل يحتاج الأمر إلى سؤال؟ ولكني لم أكن أصدق ما أرى.. ما جريرة هذا الإنسان الطيب الأديب الذي ما عرف حتى الكلمة

الجارحة ولا اللفظة النابية كله أدب وأخلاق كريمة وعمل ونشاط دؤوب واستقامة.
وأجاب أبو اصطيف: لا ما في شيء سؤال وجواب خمس دقائق.
وكان عازفاً عن الكلام.. وكأنه مشغول أو مستعجل (نفس الحالة التي مررت بها) وكدت أصدق أنه كذلك (سؤال وجواب) خمس دقائق.. حتى لقد هممت أن أحمله سلامات للأهل.. وجاء السجان وأدخل أبا اصطيف الزنزانة المجاورة واستفهم أحدهم عن أبي اصطيف وأمره فقلت حائراً: يقول سؤال وجواب خمس دقائق فقط. فقال أحدهم: نعم إلى يوم يبعثون.

الطائفيون
قال لي الأخ (س) المهندس وأنا ذاهب إلى التحقيق: لا تخف (يا فلان) أنت أقوى منهم أنت أقوى منهم بإيمانك.. إنهم لم يستطيعوا أن يطاولوك فراحوا يعتدون عليك بالضرب.. اعرف ما تقول واذكره فأنت مسؤول عنه.
وأعود بعد التحقيق محطماً فيواسيني الأخوة بكلمات رقيقة مشجعة كالبلسم يمسحون بها الجراحات.
جاء أخ منقول من الفرع العسكري لبعض التحقيقات، كانت حاله سيئة جداً، رجلاه مضمدتان ويده متورمة من الكوع وفي وجهه كدمات مختلفة وحول عينيه هالتان سوداوان، وإذا هو يحسدنا على حالنا في معتقل أمن الدولة ويقول:
- أنتم بخير وعافية، تحقيقكم هنا (أسهل من شربة ماء) الطائفيون عندكم لا يعملون بأيديهم بل بصفة مراقب فقط، بينما عندنا يتولون العمل بأيديهم هناك يؤخذ المعتقل للتحقيق فإما أن يتكلم بما يريد المحقق (ما جرى وما لم يجر) وإلا فإن مصيره التحطيم أو الموت، وإذا لم يمت فسوف يعود إلى التحقيق من جديد..
شابان في شرخ الشباب في سن العشرين قتلا أمام عيني بعد عذاب رهيب استمر أربع ساعات متوالية أحدهما هو الأخ سيف الدين طرشه، رحمه الله، فترحمنا عليهما، وحمدنا الله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

إلى دمشق

جاء السجّان وفي يده ورقة مكتوبة ونادى باسمي وأمرني أن أوقّع عليها وقد أخفى ما فيها.
قلت: على أي شيء أوقع؟
قال: مالك علاقة يا إما بتوقع يا إما باخدك إلى غرفة التحقيق.
نظرت إلى الأخوة حولي أستفهم منهم. قال (س): وقع. وأشار بيده: وليكن ما يكون واخلص من العذاب فوقّعت. عرفت في الورقة كلاماً يسيراً لحظته خلال التوقيع، كان اعترافاً ملفقاً بأشياء لا أعرفها.
وفي اليوم التالي كان في المعتقل حركة غير عادية، فقد جاء أشخاص آخرون ونودي بأسماء منها اسمي.
قال بعض الأخوة: نقل. وتذكرت. لقد هددني المحقق في آخر جلسة تحقيق وآخر حفلة تعذيب وقد يئس مني فقال: (والله لأبعتك على الشام يا...) ولم أعر الأمر كبير اهتمام فماذا في الشام أو غيرها؟ ولكني عرفت فيما بعد معنى هذا التهديد، ولكن بعد فوات الأوان.
ففي (تدمر) الموت حدثني الأستاذ (ع) مدرس الرياضيات قال: طلبت من قبل المخابرات فهربت واختفيت خائفاً أترقب ومضت أيام صعبة قرابة شهر ولم أكن من المجرمين ولا ارتكبت أي ذنب يعاقب عليه القانون، ولكني متدين أصلي وأصوم وكان لي بعض الأصدقاء المتدينين، ولكن في هذه الأيام الكل مجرم حتى ولو ثبتت براءته، ونحن نرى الذاهب (الذي تأخذه المخابرات) لا يعود، بريئاً كان أم مذنباً، إلا من رحم الله ليحدث عن العذاب والإرهاب.
ضاقت بي الحال وصعب علي مواصلة الاختفاء فتوسط لي بعض الأقارب لدى مسؤول كبير في المخابرات وأخبره بأمري فقال له بالحرف الواحد: ليس متهماً بشيء، ولكنه مطلوب إلى الشام ومن يذهب إلى الشام لا يعود فليهرب.
ويتابع الأستاذ (ع) ولم أقتنع، وقلت لنفسي: ما دمت لست متهماً بشيء فسوف يكون تحقيق يسير فبراءة فعودة.. فسلمت نفسي للمخابرات واقتادوني إلى دمشق ثم إلى تدمر الموت هذا ولم أرتكب والله جرماً.
إذن الرحلة اليوم إلى دمشق.. ودّعت الأخوة، وعزّ عليّ أن أترك هذا المعتقل الذي عشت فيه أياماً قليلة، اعتدت فيها عليه، حيث أنني هنا قريب من الأهل وإن لم

أكن أراهم أو أسمع عنهم، ولو كنت أعرف تدمر وما ينتظرني فيها لوقفت وجلاً أمام هذه الرحلة.
كنا ستة أشخاص جمعونا من زنازين مختلفة وقيدونا بالسلاسل حتى أصبحنا كتلة واحدة، ووضعونا في سيارة لاندروفر وانطلقت السيارة بنا (وقد ملئت من الأمام والخلف حرساً شديداً) إلى دمشق. لم نودع أهلاً ولم نر قريباً. تركنا وراءنا حياتنا كلها وأهلينا.. هكذا كنت ألقي نظرة الوداع على تلك الربوع التي طالما سعيت فيها بآمالي وهمومي وأقول بحسرة: هل من عودة يارب فقلبي يحدثني أنها رحلة ليس من السهل الرجوع منها.
كانت أيام رمضان المبارك وصمنا نحن المعتقلين المنقولين رغم رخصة السفر.. وحرّاسنا مفطرون طبعاً. وصلنا إلى دمشق فسجن الحلبوني مع المساء، وكان السجانون في المحافظة من نوعيات مختلفة.
كان أحد الجلادين يأتي فيتفقدنا في الصباح وقبل التحقيق ويسأل: (كيف حالكن)؟ وكنا نظن به خيراً، وإذا هو خبيث كزملائه يريد أن يتعرف على حال من سيجلدهم في التحقيق ليعرف مدى تحملهم، وكان السجّان سعيد مثال الغباء والقسوة.
كما سجن مع الأخوة في إحدى الزنازين عنصر مخابرات ارتكب مخالفة وكان شديد الإيذاء للأخوة جاهلاً متغطرساً ينظر إلينا باحتقار، فلما عايش الأخوة يومين إذا به ينقلب حملاً وديعاً وإذا بالندم على ما فات يقرع قلبه، فكان إذا خلا بنا بعد ذلك أو بعدت عنه عين الرقيب يقول: أنتم أعمامي وإخوتي ويبدي أسفه وحزنه على ما بدر منه تجاهنا..

في القاع سنتان في سجن تدمر الصحراوي
في معتقل الحلبوني
معتقل الحلبوني قصر قديم مؤلف من طابقين وملحق صغير وقبو وأمامه حديقة واسعة ويحيط به سور عال وأسلاك شائكة، وعلى يمين الداخل في الحديقة قبو طويل فوقه غرف وأمام بابه فسحة يسيرة 3×2م مشبكة بالحديد كالقفص،وعلى اليسار الدخل في أقصى غرفتان أيضاً.
أدخلتنا الدورية إلى مكتب في زاوية البناء اليمنى وتلقانا هناك عنصر من المخابرات سلمه رئيس الدورية

أوراقاً لا شك أنها تخصنا فاستلمها منه على مضض والتفت إلينا فعدّنا بالخيزرانة وسبنا وشتمنا وهمّ بضربنا. كان فارغ الدماغ، قد حشي ذهنه بأشياء غريبة عبر عنها بقوله: (انتو يا... لو شفتوني بره قتلوني) ونحن لا قتلنا ولا نقتل أحداً. كان في ذهنه أن المعتقلين مجرمون هكذا قبل أن تثبت التهمة أو حتى قبل أن توجه التهمة.

سلمنا بعد ذلك إلى سجان آخر يدعى (أبو سميح) فقادنا إلى القفص فوضعنا فيه وسألنا: أنتو صايمين؟ قلنا: نعم. فجاء بوعاء كبير فيه شوربة مليئة بالحصى وقال: كلوا. طلبنا ماء فقال: بعدين. وهكذا أكلنا من الشوربة ما يسر الله. وجاء بعد ذلك السجان أبو سميح فادخل أربعة منا في القبو وقادني وآخر إلى البناء الرئيسي وسار بنا في ممر طويل وفتح باباً حديدياً ونزلنا درجاً ضيقاً إلى صالة صغيرة جداً على جانبها أربعة أبواب أدخلني من الباب الأول الذي أفضى بي إلى زنزانة ضيقة معتمة وأدخل الآخر الثانية وكان يبدو من خلال باب مغلق آخر (شودير) جهاز تدفئة مركزي قديم متروك تراكم عليه الغبار وبعد ذهاب السجان سمعت أصواتاً. وفتح شخص النافذة الصغيرة وأطل وجه فتى جميل بلحية شقراء فحياني بقوله: السلام عليكم. ورددت عليه بود: وعليكم السلام.

قال: نحن جيرانك في الغرفة الجماعية، كيف حالك، وماذا تحتاج؟

فشكرته وطلبت منه شيئاً من الماء فأحضر لي ماءً وطعاماً (خبز وحلاوة) وشكرته ثانية وجلست أتمتع بالوحدة وأستأنس بذكر الله. وجاء السجان في حوالي منتصف الليل فأخذني إلى الطابق العلوي وعصب عيني وأدخلني على محقق باشرني بالتهديد والوعيد. يقول: أنت منظم في الإخوان هذا أكيد وأنت معترف هنا (ويشير إلى أوراق أمامه) ولم يترك لي فرصة للكلام أو المعارضة ثم أعادني السجان إلى الزنزانة.

الزنزانة رقم (4)

وفي اليوم التالي جاء السجان فأخذني من الزنزانة وسار بي في الممر الطويل إلى الحديقة ثم إلى القبو فدخلنا فيه وقادني في ممر على جانبيه غرف وأبواب حتى أدخلني زنزانة ذات باب واطئ في آخر الممر ضيقة

كانت هذه هي الزنزانة رقم (4) أغلق الباب ومضى كانت الزنزانة كالعلبة واطئة السقف ليس لها نوافذ سوى باب صغير من خشب سميك وفي وسطه فتحة صغيرة مشبكة بالحديد.

الجماعية في قبو الحلبوني

وجاء السجان بعد ثلاثة أيام فأخرجني وأعادني إلى قبو المبنى قرب (الشويدر) ولكنه في هذه المرة وضعني في الغرفة الجماعية وبابها في الزاوية إلى اليسار مع الأخ الأشقر صاحب اللحية وجماعة من المعتقلين كان أكثرهم بالثياب العسكرية رحبوا بي أنست بهم.
كان أول ما لفت نظري – وأنا داخل إلى الزنزانة الجماعية كتابات على الجدران تحتوي على أسماء وتواريخ وشعارات. كنت نشطاً قد ملأت قلبي مشاعر الصبر والاحتمال والاحتساب أنه لن يمسكني عن لقاء ربي شيء.

الوحدات

كان الشاب الأشقر ذو اللحية قصير القامة ضاحك الوجه أديباً سلس الحديث ودوداً وهو طالب في الجامعة (جامعة دمشق كلية الهندسة) ويدعى (م – ع) ومعه شاب آخر طويل نحيل ذكي القلب وهو طالب جامعي أيضاً، وكان في الجماعية أربعة عشرة شخصاً آخرون باللباس العسكري المبرقع الخاص (بالوحدات الخاصة) جيش الطائفي علي حيدر. وكان في هذا الجمع سلوى، وتحدث العساكر فقالوا: نحن من الوحدات، أتعرف الوحدات يا أخ؟ قلت: ومن لا يعرف الوحدات؟ جيش ظالم غاشم يفعل في شعبنا كما فعل جيش هولاكو وجنكيز خان في البلاد المفتوحة قهراً فهي حلال له بأهلها ومالها وكل شيء فيها، أعرف أن القاتل في هذا الجيش لا يحمد على ما فعلته فقط بل يعطى مبلغاً ضخماً من المال (10) عشرة آلاف ليرة سورية فوراً لمن يقتل أي واحد من الشعب فعل شيئاً أم لم يفعل ولأورد الدليل كشاهد عيان: كان سمير الدج يعمل مع أبيه في مقهى صغير بجانب سوق الميكانيك في مدينة جسر الشغور على اليمين الدخل إلى المدينة من جهة طريق حلب.وهو شاب لطيف طيب القلب عمره (16)

سنة لم يتمرس بشقاوات الأولاد. كان طيباً بكل ما في الكلمة من معنى ذهب مع أبيه إلى المقهى صباحاً وقبيل المغرب حمل غلة المقهى ولحق بأبيه إلى البيت فقد كانت خطة معروفة لأبي سمير أنه لا يفتح مقهاه في الليل أبداً ولا يسمح للمقامرين أن يقامروا فيه مهما كان الأمر.وفي الطريق لمح الشاب عساكر الوحدات ذوي البدلات المبرقعة تقطع الطريق وكان الجو العام في البلدة قاتماً فأحداث الجسر لم يكن قد مضى عليها إلا قليل، فانفتل الشاب عائداً ليغير طريقه بعيداً عنهم ورآه أحدهم فصرخ به فأرعبه وأربكه فأراد الابتعاد ولكن الروسية كانت ملقمة واليد على الزناد فبادرته برشة من الطلقات النارية، فسقط الغلام مضرجاً بدمائه، وضحك المجرم ضحكة السعادة الفاجرة، وجاء ينظر إلى الضحية ويغنم غلة المقهى التي تعب الغلام وأبوه فيها طوال النهار، ويتساءل الضابط شامتاً: ألم يمت بعد؟

ويقرر من عنده (مات وشبع موتاً) فيأتيه اثنان منهم فيجرونه من رجليه إلى السيارة الشاحنة الواقفة غير بعيد، فيلقونه فيها ويقف القاتل واضعاً رجله على جثة الطفل الضحية في وضع بطولي يحتاج إلى صورة تذكارية، والروسية مهيأة والإصبع على الزناد وتنطلق السيارة.

مزقت الأم ثيابها وقطعت شعرها واعولت وألقت نفسها على الأرض وهي تبكي.. ووضع الأب يديه على رأسه وانهد باكياً في حزن يهد الجبال: يا سمير يا ولدي يا سمير.. يا سمير.. وقبض القاتل المكافأة (10) آلاف ليرة كاملة لا تنقص قرشاً، ورفض ضابط الوحدات الإجابة عن أي سؤال، ورفض تسليم الجثة إلى ذوي القتيل بل سلموها لمكتب دفن الموتى في المحافظة ليتولى دفنها سراً، وسارع الوالدان إلى مكتب الدفن وأشفق عليهما المسؤولون وسمحوا لهما برؤية ولدهما القتيل فألقيا النظرة الأخيرة على طفلهما وأكبا يقبلانه ويشمانه وهو جامد بارد فاغر الفم وفي صدره ينابيع دم متجمدة.. ماذا تفعل الأحزان؟ وماذا تفعل الآلام؟ لن تفعل شيئاً إلا أن تحفر في القلب جروحاً غائرة لا يمحوها إلا عدل إلهي يعاقب المجرم على جريمته، بل لقد ارتفع ثمن القتل كما عرفت مؤكداً

فأصبح (20) ألف ليرة بدل عشرة آلاف، ففي جامعة حلب وبالذات كلية الهندسة، والطلاب في امتحان يكتبون ويعملون وإذا بالمخابرات تقتحم قاعة الامتحان لتوقفه ولتأخذ الطالب الجامعي (محمود) وتقتاده إلى سجونها المظلمة، أمسكوا بتلابيبه وهو الشاب الرقيق الغض الإهاب الحيي الخجول. حدث محمود نفسه: (يا رب إليك ألجأ – أهكذا يجرونني إلى الموت وأنا مستسلم كالخروف- وخاطب نفسه: أنت بريء وأي براءة عندهم لا تشفع، يكفي أنك تصلي وأنك مسلم وأنك لست عميلاً) وعند الباب انفلت محمود من آسريه وانطلق هارباً كالسهم فامتدت اليد المجرمة إلى سلاحها المهيأ إلى المسدس الملقم فوجهته إليه وأطلقت عليه طلقات متلاحقة ضربت إحداهما ظهره، ونفذت من تحت الثدي الأيمن، ووقع محمود على الأرض ولكنه قام مغالباً الألم يقول في نفسه: فلأمت بعيداً عن أيدي المجرمين وأبتعد، ولكن النزيف لم يتركه يبتعد كثيراً فوقع غير بعيد، وجاءته قوى (الأمن) لا بل قوى الإرهاب والإجرام فحملته لتلقي به إلى مكتب الدفن ليدفن سراً وصدر الجاني يهتز أملاً وفرحاً فها هي عشرون ألف ليرة قريبة جداً من يده تكاد تدخل الجيب الفارغ الذي خوى بعد سكرة الأمس ولعبة قمار البارحة، ولكن الشاب كان لا يزال حياً وحمل إلى المستشفى وكتب الله له عمراً فعاش ليدخل سجون الظالمين، سجون المخابرات ولكمته اليد الجانية المجرمة ويقول له صاحبها: (ما كنت تموت يا كلب، ضيعت عليّ عشرين ألف) فالتسعيرة عندكم رخيصة يا وحدات.

كثيرون جداً نالهم ما نال سمير ولم ينج مثل محمود إلا القليل لينقل إلينا النبأ الذي لم يعد سراً وقال أحد العناصر: يا أخ نحن لسنا مثل هؤلاء نحن لا علاقة لنا بما يجري.. نحن لا نعرف شيئاً وحينما نذهب في مهمة يبقوننا بعيداً عن مكان الحادثة.

سألتهم: أحضرتم تفتيش حماة /1980؟

قالوا: نعم حضرنا ولكنا والله لم نؤذ أحداً بينما كان النصيريين شديدي البطش، كل ما يقال لنا في مثل هذه الأحوال: إن هناك خونة مخربين يجب القضاء عليهم.

وكان حديث طويل وتنصلوا من كل مسؤولية، وقالوا: يا أخي علمونا نحن أمانة في أعناقكم.

إلى كفر سوسة
ولم يطل بنا المقام في قبو الحلبوني، فقد جاء السجان (أبو سميح) فاستدعاني مع معتقل آخر فأخذنا ووضعنا في القفص الحديدي أمام القبو وأخرج بضعة أشخاص من القبو فوضعهم معنا. لم نكن نعلم لماذا أخرجونا إلى هذا المكان، وظن البعض أنه إفراج خاصة وأن قضايانا كانت تافهة وليس علينا أي تهمة ذات بال، وكان لبعض زنازين القبو نوافذ صغيرة على القفص فرآني أبو اصطيف وأوصاني بإبلاغ سلامه إلى أهله، وكل الظن أنه الإفراج.. كم كنا حسني الظن ولم نكن ندري عن الحقد الطائفي ومكره وكيده شيئاً ولم يخطر ببال أحد منا أن يعاقب إنسان على غير جريمة أو جريرة أو أن يقتل إنسان هكذا لمجرد نزوة من إنسان شاذ حتى صرنا لعباً عند من يتسلون بقتل البشر وقد ماتت في صدورهم القلوب.
وضعونا في سيارة اللاندروفر ذات القفص الحديدي، وسارت بنا خلال شوارع مدينة دمشق، وإذا الناس في غدو ورواح لا يشعر بنا أحد، وإذا المحال مفتوحة والأبواب والحياة الطبيعية لم تقف ولم تتعطل.. كان البعض يفكر: ماذا سيعمل إن أفرج عنه، وإلى أي مكان سيذهب؟
وصلنا إلى بناء عرفة أحد الموجودين فقال: هذا هو المركز الرئيسي للمخابرات العامة المسمى (كفرسوسة) إنه الفرع (285) ودخلت السيارة ضمن حواجز وحراس وأبواب ضخمة، ثم وقفت في باحة واسعة واقتادونا إلى بناء ذي طابقين فأدخلونا فيه، وفي مكان واسع في المدخل وضعت طاولة وسرير وكرسي وتلقانا شخص أسود الوجه شديد السمرة متوسط القامة ممتلئ الجسم، بل بدين له سحنة مغبرة وصوت مبحوح قال بجفاء: وقفوا هون..
صفنا وفتشنا جميعاً وهو مكشر جامد الوجه وكأنه يعامل أدوات سيئة يجب الحذر منها، ومن ثم أدخلنا في ممر طويل قادنا إلى الزنزانة رقم (5).
وجدنا هناك ثمانية أشخاص من المعتقلين، وكان البناء الذي دخلناه ذا طابقين وطابق أرضي، وكانت صورة المكان الذي دخلته كالآتي: هناك باب يفضي إلى ممر

طويل وعليه تفتح مجموعة غرف ولكل غرفة منافع في داخلها إلا الغرفتين (5، 6) فإن لهما منافع مشتركة يفتح لهما بالتناوب في أكثر الأحيان، وفي الغرفة (3) كان يوجد المحامون وبعض المهندسين، وفي الطابق الأرضي يوجد غرفتان (1، 2) وثلاث مزدوجات ومجموعة من الزنازين الانفرادية وفي الغرفة (2) كان يوجد المهندسون وما لبثنا إلا قليلاً حتى جيء ببقية الأخوة الذين كانوا في الحلبوني وقد أفرغ من كل من فيه إلا الشاب الشيوعي وأخاه وشخصاً آخر له علاقة بهما، وتاجر سلاح كردي وسائق براد أجنبي، كان يقود سيارة مليئة بالسلاح، ورجل سوداني كان يقسم أن يذهب فور الإفراج عنه إلى أفخر مطعم ليشرب خمراً حتى السكر، وذلك بعد وجبة ثقيلة مما لذ وطاب.

وكان في الحلبوني أربع نساء على الأقل، إحداهن حامل ومعها أطفال ولا أدري إن كانت هؤلاء النسوة قد نقلن إلى كفرسوسة أم لا، ولكن تبين لي أن في معتقل كفرسوسة نساء أيضاً، وأنهن يفتشن أدق تفتيش من قبل رجال المخابرات، وقد عثر مع إحداهن عند الإفراج عنها قصاصة ورق فيها سلام من أحد المعتقلين إلى ذويه، فأوقف الإفراج عنها ولا أدري ماذا جرى بعد ذلك.

ولما استقر بنا المقام في الغرفة رقم (5) سلمنا على الجميع وممن تعرفت عليه: المعتقل القديم أبو سعيد، وكان سياسياً عريقاً لذلك كنت تراه خبيراً بالأمور والأحداث يجيد الحديث ويتقن الاستدلال والاستنباط وعنده الشواهد والأمثلة، ولا يعوزه على ما يريد الدليل، ولطالما حدثنا عن مخازي الحكام النصريين.

وكان أبو سعيد قد أمضى في الحلبوني وكفرسوسة زهاء سنتين، فسألناه عمن مرّ به من أشخاص فذكر لنا بعض الشخصيات التي مرت به، فكان منهم الأستاذ أحمد كيالي مدرس اللغة الإنكليزية الشاعر الإسلامي النابغة، وقد بقي معه في غرفة واحدة عدة شهور، وكان وقتها مسموح بالقلم والورق، فكان أحمد كيالي (أبو إياس) يكتب الشعر الجميل يعبر به عما هو فيه وعن مشاعره ورؤاه، وكان أبو سعيد يحفظ بعض مقاطع من شعره، وأرشدني إلى شباب في غرف أخرى يحفظون بعضاً من قصائده، ولم أتمكن من رؤيتهم في وقتها، وكان أبو سعيد ولوعاً به يتمنى أن يفرج الله عنهما ليصحب هذا

الشاب وأمثاله. وحدثنا عن والد لعدة شهداء (وهو موظف كبير في مدينة حلب رجل في الخمسين من العمر، مكتمل الرجولة والأدب، نيّر الفكر لم ير له مثيلاً، كان له ولدان استشهدا في غارة من غارات قوات السلطة في مدينة حلب، ولم يكن الوالد يدري حتى ذلك الوقت بالأمر، فقد كانوا يخففون الأمر ويكتمونه عنه خشية عليه وكان أبو خالد يعاهد ربه (لئن فرج الله عنهما) أن يحج في نفس السنة مع أبي الشهداء هذا، وحدثنا عن أمين الأصفر الشاب القوي في جسمه وخلقه ودينه صاحب اللحية السوداء الذي لا يخشى في الله لومة لائم، وأن شعار الإخوان المسلمين كان ملصقاً على دعامة السقف رسمه الأستاذ أمين وألصقه نكاية في المخابرات، وعن عبد الله الطنطاوي وكيف اتفق مع الدولة هو ورجال الإخوان الآخرون على إيقاف سفك الدماء وأنه لما أفرج عنه مرّ بجميع الغرف فودع الجميع وأنه قال لجميع المساجين: نحن اتفقنا مع الدولة على إخراج المساجين المعتقلين، وعلى أن نحول السجون إلى مدارس، وحدثنا عن إبراهيم عاصي وتقاه وأدبه وفكره النيّر. يقول أبو سعيد: كل الإخوان كانوا هنا رجالاً، ولا كل الرجال شباباً مهندسين وأطباء ومدرسين بناة أمة ومربي أجيال هم الناس هم صنعوا هذه الرفوف التي ترون. هنا كانت الكتب تملأ هذا المكان، وهنا جرائد اليوم وهناك جرائد الأمس وهذا برنامج الدروس ملصق على الباب وفيه من كل علم وفن.. وإن المخابرات أخذوا كل ذلك دفعة واحدة في غضبة عارمة لا ذنب لنا فيها.. أخذوا الكتب والدفاتر الشخصية والأقلام وديوان شعر لأبي إياس وغير ذلك.. أخذوا كل ذلك فما أبقوا منه شيئاً، ومنعوا عنا كل شيء حتى المشتريات بقيت ممنوعة فترة طويلة وحتى الآن لم تعد إلى ما كانت عليه، فلا خضار ولا فواكه، ولا شيء إلا ثياب وسكر وشاي.

وسألناه: وأين أولئك الرجال يا أبا سعيد؟

فقال: أخذوهم إلى تدمر كلهم كل أسبوع كانت تذهب من هنا دفعتان إلى تدمر وعندما طلب أبو إياس إلى رئيس الفرع حيث سأله: ما رأيك يا أحمد في الحكام الحاليين؟ قال: جناة. كلمة واحدة نقل بعدها إلى تدمر مع المنقولين.. دفعات كانت تأتي إلى هنا تبقى أياماً

قليلة ثم ترحل إلى تدمر.. يا ليتهم أخذوني معهم حتى أموت كما ماتوا.
قلت: صفهم لنا يا أبا سعيد.
قال: هم ليسوا بشراً بل ملائكة أطهار.
قلت: كيف إذا استلموا زمام الأمور والحكم كيف تكون الحال؟
قال: يمشي الذئب مع الغنم.. لا.. أستغفر الله، يحرس الذئب الغنم.
ثم تابع: أصحيح مجزرة تدمر أنت كنت طليقاً وتعرف، هل صحيح حدثت مجزرة تدمر؟
قلت: نعم حدثت.. فيما أعلم..
سأل: وكم قتل فيها؟
قلت: كل من كان في تدمر من المعتقلين هكذا الأخبار..
فزفر بحرقة وقال: أكلّ أولئك الناس قتلوا؟ لئن جرى ذلك فإن تدمر أصبحت مكة ويجب أن نزورها ونحج إليها، ألا تعلم الاسم الجديد لسجن تدمر؟ لقد سموه مركز التطهير الوطني لتصفية الإخوان المسلمين.
وتابع يقول: لقد تركنا السجانون مرة يوماً كاملاً بلا طعام، وشعرنا أنهم هكذا في اعتباط وحركة غير عادية وسمعنا بعد ذلك أنه كانت هناك محاولة لاغتيال حافظ أسد وبعدها أتت الأخبار عن مجزرة تدمر وتوقف إرسال المعتقلين إلى هنا.

الشيوعيون

يبدو أن الشيوعيين وقد طال بهم المقام في معتقل كفرسوسة، وطاب وللقدم دور لا ينكر في الإلفة وخاصة في المعتقلات والسجون، لذا دعينا بعد وصولنا بفترة يسيرة إلى جلسة تفاهم لتنظيم أمور الغرفة حيث أن عدد نزلائها قد بلغ ثلاثين معتقلاً بينما مساحتها (25) متراً مربعاً.
وتكلم أحد الشيوعيين عن ضرورة النظام والحاجة الماسة إليه حتى تكون في حال مناسبة وراحة تامة، لذا فلابد من رئيس للغرفة ودعا إلى اختبار أحد الموجودين لهذا الأمر، واقترح رئيس الغرفة السابق (شيوعي ديري) فوافقنا وتقدم الديري للكلام وتحديد النظام فقال: حيث أن الوقت شهر رمضان وأنتم مصرون على الصيام فإن عندكم بالتالي سحوراً ونحن لا نمانع في

مثل هذه الأمور مع أن النظام في المعتقل يمنع السهر في الليل ومع أن السجانين لا يشددون في ذلك الوقت من الليل إنما هو وقت راحة ونوم (عز النوم) لذلك نأمل أن يكون سحوركم بدون ضجة ولا صوت وإن تعودوا فور ذلك إلى النوم على أن من يصلي التراويح الطويلة ويزعج بصوته الآخرين، وهذا شيء غير مرغوب فيه، ويجب أن يراعي كل منا شعور الباقين، فإن كل واحد في هذه الغرفة له حق فيها مثل غيره، ومن حقه أن يرتاح أو ينام ولا يزعجه إنسان، وخاصة في صلاة الصبح فإن بعضهم يرفع صوته بالقراءة ليرى الناس جودة ترتيله وحسن تجويده ويقلق بذلك راحة النائمين ويزعجهم أجمعين، فهذا أمر غير صحيح ولا نريد أن يحدث، ومن أراد الصلاة فليصل بعد الاستيقاظ في الضحى أو (وعلي مضض) يتيمم على البطانيات بهدوء وليس ضرباً قوياً يرتج له المكان ويصلي في مكانه بدون صوت (وظهر بعض الوجوم والضيق).

وقال أبو اصطيف: معك حق الواجب على الجميع في السحور مراعاة مثل هذه الأمور وعدم إحداث أي صوت بالمرة، وسوف نتيمم إذا كان باب الغرفة مقفلاً عن المنافع، ونصلي دون رفع الصوت إلا بقدر الحاجة (وهكذا وضعت النقاط على الحروف).

وقال الشيوعي الديري: لا تؤاخذوني هذه أمور يجب أن نتفق عليها. ومن ناحية الطعام فإنه يصعب أن نأكل جميعاً لأن عددنا كبير كما ترون لذلك يفضل أن تكون هناك مجموعات طعامية، ونحن القدماء وحيث أننا لن نصوم طبعاً فإننا سوف نكون مجموعة طعام ومن أراد أن يفطر فلا مانع لدينا أن يأكل معنا أما أنتم (الصائمون) فكما تريدون إما أن تأكلوا في مجموعة أو مجموعتين وكل مجموعة تنظم موضوع الخدمة بينها بالتناوب.

قال أبو اصطيف: لا بأس أما نحن فسوف نأكل سوية إن شاء الله.

وفي المساء جلسنا إلى مائدتين طويلتين كل منهما عبارة عن قطعة نايلون استعرناهما من الشيوعيين ووضعنا عليهما ما يسر الله من طعام قليل (برغل مطبوخ بالحصى والقش ومرقة بندورة فيها قليل جداً من حبات الفاصولياء وشيء من الحلاوة والخبز) وهكذا

أفطرنا بشهية وحمدنا الله على نعمه وأفضاله، وتكرّم علينا الشيوعيون بإبريق ضخم من الشاي الساخن فشرب كل منا كوباً كبيراً وشكرنا لهم هذا الكرم الحاتمي، وحمدنا الله على هذه النعمة، وكان هذا أول كوب من الشاي الساخن منذ زمن طويل. ويبدو أن حكاية الكوب الأول هذه ملحوظة تماماً لدى الشيوعيين، فلقد جاءتهم قبلنا أفواج عديدة من المعتقلين من معتقلات ليس فيها شاي ساخن بل (علقات ساخنة) وكهرباء محرقة وعذاب وإرهاب، فكانوا يعرفون ما لهذا الكوب الأول من قيمة فيحرصون على تقديمها..
وتابع الشيوعيون في اليوم الثاني في الإفطار اثنان من العساكر أغرتهما الشاي الساخنة والسيكارة.

شهيد الرأي: المهندس بسام النابلسي
ماذا يعني أن تقول رأيك هكذا بصراحة في النظام وفي الفساد والظلم. كنا نعلم أن ذلك أمر بالغ الخطورة بل وقد يعني أن تهيأ نفسك للموت، ولم يكن ذلك خافياً على أحد، وهناك كثيرون قضوا شهداء الرأي الصريح، وكلمة الحق التي قالوها ولأستبق الأمور وأحدثكم عن واحد منهم إنه الأخ المهندس بسام نابلسي الشاب الساذج البسيط الذي لم يكن في تفكيره أن يواري شيئاً أبداً، ولم يفعل ذلك وهو ما ارتكب جريمة ولا خالف قانوناً ودستوراً. كان مهندس ميكانيك يعمل بجد ونشاط واستقامة. عاش هكذا يفعل ما يؤمن به ويلتزمه باستقامة، ليس في حياته أسرار ولا أشياء يخفيها، كل أموره هكذا واضحة جلية فلا خفاء ولا تستر يرى أنه إن كان من عيب فيجب كشفه لا ستره حتى يصلح. وهكذا وجد نفسه يوماً في غرفة التحقيق والدولاب يلفه ويضم الرأس إلى الرجلين. كان يسأل ماذا أجرمت؟ ماذا اقترفت؟ وبعد عذاب وكهرباء لم يكن هناك شيء أبداً إلا وجود اسم أخينا هذا في فهرس الهواتف في مفكرة أحد الأخوان المسلمين، وكانت حصيلة التحقيق المر انتزاع اعتراف منه بمعرفة ذلك الشخص وأنه جلس معه في بعض المناسبات وتحادثا في بعض الأمور التي لا يذكرها بل وقرأ مرة في القرآن الكريم وأثبت المحقق ذلك في ضبطه وأرسله مع المعتقل من مقر المخابرات في حمص إلى مقر المخابرات في دمشق كما جرى لنا

جميعاً، وعرض علي ما قيل بعد ذلك أنه القاضي العسكري (إنسان شاذ حاقد يحكم بهواه وحقده الطائفي) فلا ممثل اتهام ولا دفاع حتى ولا يعرف المتهم أنه في محكمة بل يعرف أنه أمام محقق يهدد بالدولاب والعصي والكهرباء وبالرش والقتل رمياً بالرصاص، ومثّل المهندس بسام أمام (القاضي) فسأله بعض أسئلة فأجاب عنها ثم قال له الأخ بسام: لم تعتقلونني وتعذبونني؟ ألأنني قرأت بضع آيات من القرآن؟ ماذا أجرمت؟ هذه هي جريمتي إن كانت جريمة. ففكر القاضي ملياً ثم سأله: ما رأيك في الإخوان المسلمين؟ قال بسام: جماعة صالحين مستقيمين، وإن كنت لا أوافقهم في بعض الأمور.

فقال له القاضي: هكذا إذن فما رأيك في الحكام الحاليين؟

قال بسام: أنتم أدرى؟

قال القاضي: لا لابد..

قال بسام: إنهم غير صالحين ولا مستقيمين.

قال القاضي: آخدين عقلك الإخوان أليس كذلك؟ قم إلى مكانك.

جاء الأخ بسام يحدثنا بما جرى معه، فلامه بعضهم على هذه الشجاعة التي في غير محلها وقالوا له: عرّضت نفسك للخطر (ولم نظن أبداً أن يصل الأمر إلى ما وصل إليه) كان رأي الأخ بسام الذي يعلنه بصراحة أنه يجب علينا أن ندعو هؤلاء الحكام إلى الإسلام وإلى الخير والصلاح، وإذا عرفنا كيف نفهمهم أحقية هذا الدين وخير الإسلام فلن يتوانوا عن التزامه، وعلى كل ندعوهم ونصبر عليهم ونتحمل كل أذى ينالنا في سبيل الدعوة، فهو لا يرى ولا يوافق على مجابهتهم.

ومضت الأيام ونقل بسام إلى (تدمر الموت) وعاش الأيام الكالحات وذاق من العذاب ألواناً، ثم سيق إلى الإعدام شنقاً في فجر يوم من أيام تشرين الثاني 1980، وقضى شهيد الرأي والصراحة والصدق فعليه رحمة الله. كان رحمه الله تقياً ورعاً أراد أن يصوم إضافة إلى رمضان شوال وذي القعدة وعشرة ذي الحجة، وهكذا ثابر على صيامه في الحل والترحال، وفي العذاب ورغم كل الظروف البيئية التي كنا نعيشها.. تسحر قطعة خبز وقطعة جبن ثلاثية ابتلعها مع قليل من

الماء، وتوضأ ومضى إلى ربه صائماً. طلب قبيل الفجر مع نفر آخرين فعصبوا عيونهم وأوثقوا أيديهم إلى الخلف وساقوهم إلى المشانق ليصرخ والحبل في عنقه (الله أكبر الله أكبر) ومضى إلى ربه صائماً. كان ذا شعور رقيق ونفس حساسة ولقد شهدته يوماً بعد حفلة تعذيب رهيبة اكتوت فيها أجسامنا العارية بلسعات الكرابيج وبهداتها وتركت فيها خطوطاً عريضة سوداء نافرة بعضها فوق بعض، وجلداً ممزقاً ودماً نازفاً ودخلنا المهجع نلهث من التعب والإرهاق والرعب، ونشكو إلى ربنا ما يسومنا هؤلاء المجرمون من ظلم وقهر وعذاب.
ويقول بسام: وعلى وجهه إمارات الاستغراب الشديد (يا رب عجيب أمرهم. يا رب ما هذا الظلم؟؟ ما هذا؟.. أيستمتعون بالعذاب.. بعذابنا؟) نعم يا بسام وبموتنا يفرحون وينتشون فتعساً لهم وخزياً إلى يوم الدين.
كانت هذه هي نتيجة التعبير عن الرأي بصراحة لدى هؤلاء الوحوش الأسديين.
كان بين الشيوعيين نقاش مرة فقال أحدهم: أنا مستعد إن طال السجن أو ضاق بي الحال أن أترك العمل السياسي وأخلص وأخرج من السجن فوراً.. وعلى كل فللشيوعية مواقف متعددة الوجوه في الوقت الواحد، فالشيوعيون الأمميون (البكداشيون) مؤيدون للدولة وشيوعيو رابطة العمل الشيوعي معارضون وشيوعيو مالا أدري قدموا طلبات انتساب لحزب الرئيس وقدموا أنفسهم جنوداً له.
فالسيد الديري المتلبس بموقف المعارض ما أسهل عليه كما صرح هو أن يطلب مواجهة المحقق أو رئيس مركز المخابرات ويتعهد له بترك العمل السياسي وبتغيير الموقف، بل ويخلع الفكرة كلها.. والمحقق أو رئيس المركز يجد في هذا حلاً مناسباً وجيداً بل وكسباً، فقد غيّر الرجل فكرته وحوّل وجهته.
أما بالنسبة للمسلمين فالأمر يختلف جداً، فالموقف المتلبس به أصيل وليس هكذا يسهل تغييره، إنه عقيدة لن تبرح الإنسان المسلم حتى الموت.
وقد حدث أحد رؤساء فروع المخابرات في حلب بعض المتوسطين لديه بشأن شاب معتقل فقال: (أنتم لا تعرفون هؤلاء الشباب الإسلاميين إنهم لا يتركون نشاطهم ولا يقبلون أي تنازل عن أفكارهم أو عقيدتهم.

كم من مرة جاءنا أمثالكم يشفعون في بعضهم فنترك له سجينهم بعد التعهد بترك العمل الإسلامي، فلا يمضي وقت قصير حتى نراه أو نصطدم به وقد صعّد من نشاطه أو حمل السلاح ضدنا (ولهذا أسبابه) لذلك فالمحقق ورئيس المركز والجميع يعلمون حق العلم أن الموقف الإسلامي موقف عنيد لا يوقفه شيء ولا يحوله عن طريقه عذاب أو إرهاب أو سجن.

المرض والسجانون

كنت مريضاً من ثلاثة أيام بالتهاب اللوزتين الحاد، مثلت أمام طبيب المعتقل البارحة وجاء الممرض اليوم يوزع بعض الدواء. سألني عن رقمي فلم أعرفه، فبحث عنه حتى وجده فقال (بدي قلع عينيك إذا نسيت رقمك) أزعجني هذا الكلام ولم يدر بخلدي أن أتمناه وأتحسر عليه فالأمور نسبية.

حدثنا أحد المعتقلين عن السجانين وأنهم عناصر من سرايا الدفاع المشهورة يؤتى بهم إلى هنا وهم قساة غلاظ الأكباد لا شفقة عندهم ولا رحمة، وما يمضي إلا القليل حتى تلين قلوبهم بما يعرفونه من حقيقة أحوال المعتقلين، فتخف حدتهم إلا الطائفيين مثل سعيد، فنراه ووجهه يقطر سماً وحقداً، ومن يجسر أن يكلمه فيده سريعة إلى الضرب الأليم وإلى كل أذى ويا ويل من يقع تحت يده. وإلا أبا محمد الطويل الكالح (وهو نصيري) فلم يؤثر فيه طول المدة ولا أحوال المعتقلين التي تدمي القلوب، فهو شرس شديد الحقد يستعمل يديه ورجليه وأسنانه إضافة إلى العصي والكبلات ولقد دخل قبل مجيئنا بيومين على مجموعة من الإخوة الحلبيين قدموا حديثاً وكانوا هنا في غرفتنا هذه، دخل والخيزرانة في يده فأوقفهم على الحائط وأوسعهم ضرباً حتى شفى غيظه وما اكتفى..

ولما جيء بحسني عابو إلى هذا المكان قبل بضعة أشهر كان أبو محمد هذا يدخل عليه الزنزانة وينقض عليه بالضرب والرفس واللكم وما يتركه إلا بين الموت والحياة. أبو محمد هذا لا يقدر سناً ولا يرحم بريئاً ولا يأبه لخلق أو مبدأ. وأضاف في سخرية: ومن طباعه أنه شره أكول دنيء، فإذا جيء بالطعام بعد الظهر انقضّ على كمية اللحم القليلة أصلاً فصال فيها وما ترك هبرة

جيدة إلا أتى عليها يأكل أكل الفيلة يبلع وما يشبع، ويخبئ ما لم يستطع أكله في الظهر إلى المساء، وإذا كانت اللحمة دجاجاً مسلوقاً ولمئة وخمسين شخصاً يكون هناك بضع دجاجات فوق الأرز المطبوخ فإن أبا محمد يهاجم الدجاجات المسكينات فيدعهن جميعاً بلا أفخاذ، فهنا ظهر معقور وصدر منزوع وعظام خاوية مجردة.

أشبال في المعتقل

وجيء إلى الغرفة رقم (6) المجاورة والمشتركة معنا في المنافع، جيء بحوالي اثني عشر شاباً لا يتجاوز أكبرهم السابعة عشرة، لم ينبت في وجوههم الشعر بعد، أحدهم طالب في الثالث الإعدادي، وآخر طالب أول ثانوي والباقون حول ذلك، وكانت لديهم أخبار كثيرة ومثيرة ووجودهم نفسه كان مثيراً، فقد تجمع حولهم عناصر المخابرات والسجانون فور وصولهم
يتفحصونهم بدهشة وخوف واستغراب، فقد بلغهم أن هؤلاء من التنظيم المسلح للإخوان المسلمين من المجاهدين (هكذا قيل لهم) تشجع أحد السجانين وسأل أحدهم:

- كم عمرك أنت؟
- 16 سنة.
- أنت إخوان مسلمين (وقد غلظ صوته)؟
- لا أنا طالب تاسع..
- إيش جابكم لهون؟
- المخابرات.
- ولك إيش قضيتك؟ أنت قاتل؟
- لا..

وانتشر الخبر الغريب في المعتقل وأخذ كل واحد منا خلال فتح باب الغرفة يتسلل إلى نافذة الغرفة (6) لينظر إلى الشباب الصغار وحاول البعض التسرية عنهم ولكن ابتساماتهم كانت توحي بأن ليس فيهم هذا الهم، وكانوا ينشدون الأناشيد الإسلامية الجميلة في إيقاع حلو وأصوات ندية.
وكان في الغرفة (6) معتقل مقطوع الرجل اليمنى تعرفت عليه خلال اختلاطنا النادر، وعجبت للأمر، ولم ألبث أن رأيت شاباً مشلولاً نصفياً.. مشلول اليد

والرجل وعلمت أنه متهم بحمل السلاح ضد الدولة مع أنه لا يكاد يستطيع المشي، واكتملت برجل أمي الفكر واللسان مقطوع اليد وكلهم من جهات الساحل السوري وكان هناك الطفل الضاحك أبو عبد وابن الثالثة عشرة يتيم يعمل في مطعم ليعول نفسه.. يا بلد الغرائب.. وجيء إلى الغرفة (6) بشيخ وقور كنت أرى هؤلاء الناس من بعيد وتثور في نفسي تساؤلات حول هؤلاء الذين جيء بهم إلى المعتقل؟ ما جريمتهم؟

حركة في المعتقل

كانت أفواج المعتقلين تتوالى إلى معتقل كفرسوسة باستمرار، وكان هناك إضافة إلى البناء القديم عدة مبان مماثلة بعضها جاهز مستعمل والآخر في طور البناء، كان يعرض القادمون على محقق بعد أن تدرس إضباراتهم فإما عودة إلى التحقيق أو تأكيد له. ويحوّل المعتقلون خلال ذلك من مكان لآخر حتى لا يعلم الأخير اللاحق ما جرى للأول السابق، وكانت إشاعة المحكمة العسكرية هكذا مجرد كلام ولا يعرف المعتقلون إلا أنهم بين أيدي المخابرات وعصيهم ودواليبهم.. اكتظت الغرفتان (5، 6) وخاصة الغرفة (6) وفي ليلة 19/8/1980 أغلقوا باب الغرفة (5) في المساء دون أن نعلم لهذا سبباً أو معنى معيناً ولكن أبا سعيد كان لخبرته وطول إقامته في المعتقل يلحظ ذلك بعين الخبير العارف، وفي منتصف الليل جاء السجانون فأخرجوا نزلاء الغرفة (6) جميعاً وكانوا حوالي (35) شخصاً وتجاسر بعضهم فاقترب من باب الغرفة (5) وفتح النافذة الصغيرة وودع من رآه. قال: لا ندري أين يذهبون بنا.. نستودعكم الله.

وفي الصباح كانت الغرفة رقم (6) خالية تماماً. قال أبو سعيد: إلى تدمر.

قال البعض: أكيد يا أبا سعيد؟

قال: أكيد ما في غيرها.. مستكلبين على الناس..

وبلغ التأثر مبلغه بنا، وأخذ أبو سعيد يخاطب نفسه:

- كان الرئيس يحكم سنة أو سنتين أو ثلاث سنين، فإذا وجد الناس فيه تقصيراً أو انحرافاً أو ضعفاً تعاونوا عليه وأقالوه إلا هذا الولي.. إلا هذا الدعي.. لا يريد أن يترك الكرسي، يمسكه بيديه ورجليه.. كل هؤلاء الناس تريد

أن تقتلهم يا حافظ أسد.. أطفال أبرياء ورجال طيبون كرام، وعلماء وأطباء.. أذكر لكم المدرس أبا إياس شاب كله رجولة وأدب وفكر وعلم، طلبه رئيس المركز يوماً وسألاه:

- ما رأيك في الحكام الحاليين يا أحمد؟

فردّ أبو إياس بالجواب الشجاع المعبر: أراهم بغاة تجاوزوا كل حدّ.

قال: أهذا رأيك؟

قال: نعم..

وبقي أحمد بعدها يومين ثم أخذ..

- إلى أين يا أبا سعيد؟

- إلى تدمر.. إلى الموت.. ثم تابع:

- هكذا يقتل رجل أمة ومربي جيل لأنه قال كلمة حق.. وانطلق يحاور حافظ أسد وكأنه أمامه:

- هل جئت بهؤلاء الناس من بيت أبيك وأمك يا حافظ أسد حتى تعدمهم وتقتلهم هكذا دون حساب؟ ما طيب الحياة بعد هؤلاء الناس؟.. لن أذوق طعاماً حتى أموت وألحق بهم..

ومضى يومان وثلاثة وهو لا يذوق طعاماً..

المحقق بل القاضي المستتر

طلبت في ظهر يوم 24/8/1980 جاء السجان فوقف بباب الغرفة ونادى باسمي وأمرني بالقيام معه دون تلكؤ أو إبطاء، واقتادني إلى الطابق العلوي وأدخلني بعد انتظار يسير مكتباً في آخر الممر إلى اليسار كانت هناك طاولتان إحداهما كبيرة وعريضة، ووراءها يجلس رجل نحيف كأنه قزم وفي يديه كانت تلمع خواتم ذهبية وعلى لوحة في مقدمة الطاولة كان اسمه بأحرف كبيرة (النقيب سليمان حبيب) وبجانب تلك الطاولة منضدة أخرى أصغر منها يجلس إليها آخر، وأمام الطاولة الأولى كرسي أجلسوني عليه وطلب مني النقيب أن أحدثه فأخبرته بأمري: موظف بسيط في بلد غريب، علاقاتي بالناس محدودة، ليس عندي ما أخفيه. وتابعت:

- عذبني رجال المخابرات كثيراً وأجبروني على التوقيع على أوراق لا أدري ما فيها.

- وبعد بضعة أسئلة سألني إياها قال لي: لاصت معكن..

- ثم أخذني السجان فأعادني إلى الطابق الأول وأنا في (شبه ذهول) وأدخلني الغرفة رقم (3) غرفة المحامين التي سمعت بها قبلاً، وإن فيها محامين ومهندسين، وقد سألت يومها مستغرباً عن سبب اعتقالهم ووجودهم هنا؟ ولم أحظ بجواب يفسر هذا الأمر المعضل. وفكرت في القضاء وحرمته والمحامين ودفاعهم واختصاصاتهم بالدفاع عن الناس فلم لا يدافعون عن أنفسهم والقانون في عقولهم وهم أخبر الناس به وبالحقوق التي يصعب على غيرهم من البشر معرفتها.. ولهم أصدقاء كثر من القضاة ورجال القانون أفلا ينصفونهم؟.

قال أحدهم: هذا لما كان هناك قضاء وقضاة، أما الآن فأصبح كل ذلك صورة فقط، فالمحاكمات صورية والقضاء ممثلون بل أجراء يقرؤون صحيفة فيها كلام جاءهم من فوق..

استغربت ذلك كثيراً ولكن ما اطلعت عليه بعد ذلك وما سأرويه لكم يكشف الستار عن مهزلة القضاء والقضاة في دولة اللا قانون الأزلام والمحسوبيات والطائفية..

كان الأخ (م..) من إحدى المحافظات البعيدة كان زميل السجن في الأيام التي مرت بي ولا يزال هو يعيشها، إن كان لا يزال حياً. قال: قبض علي في العاصمة وأودعت زنزانة في سجن المزة العسكري، وتعرضت لبرنامج طويل من التعذيب والضرب الرهيب، فاعترفت بما أرادوا وقلت كل ما طلب مني، وقدمت بعدها إلى محكمة في نفس المكان فيها رتب عالية (لواء عميد) نظن فيها الفعالية والقدرة ولكن رتبة صغيرة كانت تسيطر على أمور المحكمة كلها (نقيب) فيستجوب المتهمين ويكتب ما يروق له من أقوال سواء أراد اللواء (رئيس المحكمة) ذلك أم لم يرده. يقول الأخ المعتقل: لما أحضرت مع آخرين إلى هذه المحكمة تكلمت بما عندي وأخبرتهم بجلاء ووضوح أني بريء لم أرتكب أي ذنب وأني تعرضت لعذاب رهيب مدة طويلة وإن ما في هذه الأوراق غير صحيح (مع أنه غير ذي بال) ولكن النقيب أبى أن يكتب كلامي بل كتب أشياء أخرى وسخر مني ونهرني ورفض طلب رئيس المحكمة في أن يكتب أقوالي هذه، وجيء بآخر (ن) إلى المحكمة في ذلك اليوم معنا ولما حقق معه واستجوب، راح ينفي التهم

الموجهة إليه، وإذا بالقاضي يوقفه ليقول له: يكفي أنت ماشي حالك ويسجل له النقيب عبارات الإنكار من عنده وكنا نعرف قضيته كان متهماً بالتعامل مع تاجر سلاح ويبرأ (ن..) واحترت في أمري وجلست في الجماعية ساهماً.. كيف يجري ذلك ولم؟ ولكن الأخوة هونوا عليّ الأمر وعزوني وقالوا لي هذا هو القضاء الأسدي ومن يعش رجباً يرى عجباً، فالأحكام تأتي جاهزة من فوق، والقاضي ليس له من الأمر شيء، فاترك الوساوس وتوكل على الله.

وذكرت قولة القاضي للسيد (ن..) (يكفي أنت ماشي حالك) كيف يمشي حاله رأساً من أول الاستجواب ولا يمشي حال كثيرين غيره من الأبرياء؟ أبرياء لم يرتكبوا ذنباً ولا جريمة وإذا بالأحكام توزع علينا وفيها من العشر سنوات إلى المؤبد إلى الإعدام برصاصة في القلب في زنزانة من زنازين المزة.

سلمت على الموجودين من محامين ومهندسين وغيرهم، وكان منهم الأساتذة أبو معروف وجورج بدرة وأبو سعيد ورئيس لجنة هامة في الدولة هي لجنة الإشراف على السجون والمساجين، وهو يحمل دكتوراه في الحقوق ولما تعرفت إلى رئيس اللجنة المذكورة نظرت إليه مستغرباً فعلم حالي فقال: من بديهيات الإشراف على السجون دخولها!!

قلت: ولكن للإشراف لا للإقامة؟.. وضحك الجميع.. وتلقوني بجملة من الأسئلة عن أحوال البلد والأحداث والمجازر التي سمعوا شيئاً ما عنها وكان أهم سؤال: ماذا تعرف عن مجزرة جسر الشغور ومجزرة أريحا؟ فوجئت بهذه الأسئلة التي نقلتني من أجواء مصيبتي ومحنتي إلى أجواء ماضية ليست بالبعيدة كلها محنة وعذاب وإرهاب. لقد كنت شاهد عيان في أحداث هذين البلدين الطيبين: أريحا وجسر الشغور.. شهدت المأساة كاملة ورأيت الدماء الحارة تتدفق على الأرض مهدرة قد أراقتها أيد مجرمة تتصرف برعونة وطيش وحقد وتزهق أرواح الناس بلا حساب وكأنما تقتل ذباباً.. وها أنا أمام جمع من المحامين رجال القانون ومهندسين مثقفين.. كم كنت أود أن أصرخ وأحكي هذه القضية لهؤلاء الرجال ولكن ها هي يد الظلم قد جمعت القاضي والمجني عليه

في سجن واحد، وركلت القانون وطبقت على رجاله قانون الغاب وشريعة الوحوش.
وأقبل أحدهم يحدثنا عن اجتماع المجلس العام لنقابة المهندسين الذي حدث قبل بضعة شهور، وكيف اتخذ عدة قرارات منها المطالبة بإطلاق الحريات العامة والإفراج عن المعتقلين وإيقاف العمليات اللاقانونية وإعادة المسرحين وغيره، ولدى عرض القرارات على المجلس صوّت المجتمعون كلهم مؤيدين لهذه المقررات إلا واحداً رفع يده معارضاً ومحتجاً، فاستغرب موقفه كثيرون ممن يعرفونه ويعرفون شجاعته ومواقفه.. وسأله رئيس المجلس:
- ما هو اعتراضك على هذه المقررات؟..
فأجاب: لا اعتراض لديّ إنما أريد أن نحافظ على نسبة 99% التي جرت العادة أن تكون نتيجة كل تصويت أو انتخاب في بلادنا.. وضجت القاعة بالضحك وكتمه بعض من يحسبون حساب العواقب.
مضت ثلاثة أيام ثم نقلت مع مجموعة إلى الغرفة (6).

الغرفة (6) غرفة التجمع
كان في الغرفة (6) بضعة وعشرون شخصاً من مختلف محافظات القطر، فيهم الصغار وفيهم الكبار في السن. كان موضوع التجميع يطرح نفسه ويشغل ذهن البعض. وكنت أريد أن أعلم بعض أمور كان أولها مدى ذنب هؤلاء الذين يجمعون في هذه الغرفة معي، هل هم أبرياء أو مذنبون؟ لعلي أعرف من ذلك طبيعة المرحلة القادمة. كل من قابلتهم حتى الآن أبرياء فعلاً.. لم يكن أحد منهم قد حمل السلاح أو قام بعملية عسكرية كما كنا نسمع، فإن كان هؤلاء كذلك، فلعلي إذن لا أكون في وضع حرج.. وكنت كل يوم أزداد يقيناً ببراءة هؤلاء الناس وأقول في نفسي معارضاً أي فكرة أخرى لابد أننا نجمع في هذه الغرفة ليطلق سراحنا ولنعاد إلى بيوتنا وأهلينا، فما يستفيد النظام من اعتقال الأبرياء وسجنهم؟ واطمأن بالي وغدوت قرير العين ما دمت مع هؤلاء الناس وهم معي فلابد أنه الإفراج القريب.. ولعلهم ينتظرون مناسبة ما لذلك؟

إلى تدمر
امتلأت الغرفة (6) إلى آخرها وصعب التحرك والعيش، ففيها (37) شخصاً رغم صغرها (5×5م) وفي منتصف ليلة 30/8 – 1/9/1980 جاء السجانون فأخرجونا من الغرفة مع أغراضنا القليلة إلى ساحة المعتقل حيث وضعوا في أيدينا القيود. تمكنت خلال خروجنا من رؤية أبي سعيد، فودعته ومن رأيت من الشباب، وكأنما أودع العالم كله، فلا ندري إلى أين مكان سوف يذهب بنا.
وضعنا في باص صغير (37) شخصاً حشرنا فوق بعضنا البعض، وتربع في المقعد الأمامي شخصان مسلحان وفي آخر الباص آخرون والويل لمن يقترب منهم، وانطلقت بنا السيارة تحت الحراسة المشددة حيث كانت تتقدمها سيارة أو اثنتان وتتبعها أخرى. وتعطلت إحدى السيارات في الطريق، فتوقف الركب حتى أبدلت ثم انطلقوا بنا.. كنا نرى الشاحنات وبعض السيارات الأخرى منطلقة في الليل ومع الفجر إلى هدفها، ونظرت باستغراب وأسى إلى هذه الدنيا أهي لا تزال كما هي؟ الناس يغدون ويروحون لا يدري بحالنا أحد، ألا يدري هؤلاء السائقون بما يحمل هذا الباص الصغير من بشر حجزوا عن الدنيا ومنعوا من كل شيء، وعذبوا أشد العذاب وهاهم ذاهبون إلى المجهول ربما إلى تدمر ألا تدرون؟ هكذا في جنح الظلام يتحرك الركب المسلح يقود أشخاصاً ليسوا والله بمجرمين، هل من مخبر للأهل بما جرى ويجري؟ هل من قائل إلى أين يذهب بنا؟
تجرأ أحد المعتقلين وسأل: إلى أين تذهبون بنا؟
فقال له عنصر المخابرات مشفقاً: بعدين بتعرف، وتذكر أبا سعيد فقد قال بعد عودة عناصر المخابرات من توصيل المجموعة السابقة: إنهم كانوا متضايقين جداً من إعادة تسفير المعتقلين إلى تدمر، وأنه بدا عليهم الوجوم والحزن وأسر بعضهم بعد العودة لأحد المعتقلين: اليوم الواحد بستين.. ولم أحفل بالأمر كثيراً كما لم أعره كبير اهتمام (ويا خبر بفلوس بكره يجيك ببلاش) كما يقول المثل الشعبي، فغداً نعرف وإن غداً لناظره قريب.

اليوم الأول

أشرقت الشمس ونحن سائرون وقد تحول اتجاه السير من شمال شرقي إلى شرقي تماماً، وغزا الأرض نور الصباح، فأي صباح صباحنا؟ (رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين) أي حال سوف تكون عليه بقية اليوم؟ أبداً لم نكن نتوقع ما كان ينتظرنا من أهوال.. وهكذا بدت المعسكرات على الطريق، ثم شارفنا تدمر ودخلناها مع أول النهار، وشاهدنا عن بعد الآثار الرائعة لمدينة تدمر التاريخية، وذكرت زيارة بعيدة لهذه الأماكن أين أنا الآن منها؟ مررنا بسوق تدمر وإذا الناس يغدون ويروحون وقد فتحت المحال أبوابها والمقاهي وغيرها، وكنت أنظر من نافذة السيارة (وهذا أمر نادر الحدوث ومعاملة لم يحلم بها المعتقلون بعد ذلك، حيث كانوا يجبرونهم طول الطريق على طأطأة رؤوسهم حتى يضعوها على أرض المقعد الذي يجلسون عليه وضرب الخيزرانة والكبل مستمر طوال الطريق، وقد بقي رأس أحدهم ينزّ قيحاً ودماً شهرين كاملين بعد تلك الرحلة الرهيبة. كنت أنظر إلى الناس يغدون ويروحون وكأني أقول لهم: ألا تعرفون ما تحمل هذه السيارة؟ نحن معتقلون جدد قادمون إلى سجن مدينتكم هذه.

ووصلنا إلى مدخل يحرسه عسكري بالقبعة الحمراء والسلاح الكامل.. أوقفت السيارات ولم يسمح لهذا بالتقدم حتى تقدم مساعد يضع القبعة الحمراء ويزيّن عضده بثلاث نجوم على رقعة حمراء كالدم، فتفحصّ الأوراق ثم ذهب إلى الحرس فأمره بفتح الباب وركب في السيارة الأمامية، ودخل رتل السيارات معتقل تدمر العسكري أو مركز التطهير الوطني لتصفية الإخوان المسلمين.

كانت لحظات فاصلة بين مرحلتين مرحلة الاعتقال والتحقيق وسجون المخابرات وزنازينهم الرهيبة، ومرحلة السجن العسكري الذي لم نكن ندري عنه شيئاً (والذي فاق بهوله كل وصف) سمعت من البعض ومن أبي سعيد (وما أدراك ما أبو سعيد) إن المعتقلين في سجن تدمر يوضعون في مهاجع ضخمة في كل مهجع (100) معتقل وقال: إذا كان الأمر كذلك ففي هذا تسلية لنا حيث نتعرف على الناس ونسمع مشاكلهم فيمضي الوقت، وما درى أبو سعيد أن الكلام في سجن الموت جريمة لا تغتفر، وأنه سوف يجلس بل نجلس جميعاً

صامتين وجلين يشغلنا الرعب والفزع والعذاب عن كل أمر سواه..
كانت هناك قوات عسكرية تحيط بالسجن من الخارج، معها المصفحات والأسلحة والعتاد وحولها الأسلاك الشائكة، وهم باللباس المبرقع الخاص بسرايا الدفاع.

مع العذاب في سجن تدمر العسكري
دخل رتل السيارات باب الثكنة العسكرية بعد أن أذن لهم ورافق السيارة الأولى المساعد ذو القبعة الحمراء وسارت السيارات إلى الأمام شمالاً مسافة (150م) ثم دارت نصف دورة إلى اليسار ووقفت أمام باب ضخم حائل اللون. كانت الأرض أمامه مفروشة بالإسفلت الأسود والجدران ترابية مغبرة ومن الباب الحديدي كانت تبدو درجات نازلة وأمام الباب كان يقف نفر من الجنود بالقبعات الحمر (لباس الشرطة العسكرية) أمرونا بالنزول فقمنا إلى مصيرنا نحمل أغراضنا القليلة.
وقف عناصر دورية المخابرات التي قدمت بنا وأخذ مسؤول منهم بمفتاح صغير وأخذ يفك قيودنا ويوجهنا إلى مدخل السجن، فيشير لنا الشرطة بالدخول (كانت لحظات حاسمة ودعنا فيها الدنيا والناس والحياة خارج السجن.. ونحن لا ندري).
انطلقنا راكضين حتى دخلنا غرفة إلى يسار المدخل، ووقفنا نتأمل في هذه الغرفة في جدرانها التي كانت بيضاء، فإذا هي كأنما طليت بألوان شتى: السواد – القذارة، وهناك شعارات منها: نعم لبطل تشرين والجولان.. وصرخ أحدهم بصوت قاس وتلاه بسباب وأمر حاسم بالوقوف إلى جانب الجدران، فوقفنا..
ودخل نفر من الشرطة وأخذوا يضربوننا ضربات عنيفة كانت تسمع هبداتها، كما رأينا بعض إخواننا يقعون على الأرض، وأخذنا الألم والرهبة من هذه البداية الرعيبة.
تكامل دخول الدفعة وصرخ فينا صوت يقول بحقد وزجر وسباب: ولك يا.. كل واحد يسمع اسمه يقول (حاضر) ويرمي أغراضه لهون (وأشار إلى الجهة اليمنى) ويخرج فوراً وبسرعة.
وبدأت قراءة الأسماء، وسمعت اسمي.. واندفعت ألقي بأغراضي إلى الجهة التي أشار إليها، وعدوت خارجاً.
كان هناك جلاد على الباب وبيده كرباج يوجه به ضرباً

إلى غرفة مقابلة. دخلت الغرفة المقابلة، كان هناك اثنان من المساعدين أمام كل منهما دفتر، ومع أحدهما ورقة يقرأ فيها الأسماء، وسجل أحدهما اسمي وعملي وعنواني، وكان قبلي شاب طالب هندسة وقد سأله المساعد الثاني عن مهنته فقال: طالب هندسة بالجامعة، فأغاظه ذلك وأثاره، وقام يزعق، فدخل عسكري بكرباج وانهال على الشاب ضرباً، وخرجت أعدو كما أمروني ووجهني حامل الكرباج إلى باب في زاوية المكان ضمن سياج حديدي وعليه جلاد كان يضرب بكرباجه كل داخل وأكلت نصيبي من الكرباج ودخلت، فإذا نفر من الجلادين إلى يمين الباب يتلقون الداخل وبأيديهم الكرابيج فيصرخون فيه ويضربونه ويأمرونه: غمض عيونك، افتح ايديك، ويغلظ فيضربونه أكثر، ثم يصفونه مع غيره إلى الحائط، ويتناولون القادم الجديد. لم أفهم شيئاً، كان رأسي يدور بألف سؤال: لم كل هذا الزعيق والأوامر: أغمض عينيك مد ايديك.. روح تعال.. وكيف يتحرك الإنسان وهو مغمض عينيه؟ هذا ما يجب أن نتعلمه، وكيف يكون التعلم؟ بالضرب الرهيب والصراخ المرعب، كانت الضربات أليمة قاسية ولكن.. والخوف من المجهول كان أكبر من الألم.. كنت أقول: (يا رب ماذا يريدون ولم كل هذا؟) ويا ويل من يأتي بحركة أو ينبس بحرف يا ويله.. ولجهلي حركت رأسي ومددت يدي أمسح عيني فانقضّ عليّ عسكري يصرخ بي مالا أفهمه وكلما نظرت إليه زاد في الصراخ، وتناولوني بالكرابيج ضرباً، وصراخاً.

حفل عذاب الاستقبال

ولما اكتمل العدد ساقونا في صف طويل متعرج لا يتركونه يسير إلا بالضرب حتى دخلنا إلى باحة كبيرة مفروشة بالإسفلت وصفونا على الجدار واحداً واحداً، وأمرونا أن نخلع ملابسنا كنا في آب فصل الحر الشديد، لذلك كانت الثياب خفيفة جداً فنزعناها بسرعة..
وجاء شخص يسمونه (البلدية) فجمع أحذيتنا وأخذها وبدأ عندها التفتيش أمسك أحدهم بشعر لحيتي ينتف منه ومن صدري الخصلة تلو الخصلة، ولما تأوهت لكمني على وجهي.

أمرونا بإنزال اللباس الداخلي ففعلنا وسلقونا بالكرابيج على مؤخراتنا مع البصق والكلام الفاجر، وبدأت الحفلة الرهيبة تشكلت مجموعتان للتعذيب وفرقة جوالة والكل مزودون بالكرابيج. أوقفونا واحداً واحداً ووجوهنا إلى الجدار وتنقض المجموعة على الواحد بالضرب الرهيب وتقوده إلى الدولاب فيضعونه فيه ويضبطون رجليه بعصا الفلقة ومن ثم ينهال عليه ثلاثة جلادين بالضرب الشديد على رجليه فكأنها النار المحرقة تكوي العظام، ويشتد الألم ويتعالى صراخ المعذب ويتأوه متألماً شاكياً، ولكن الضرب يشتد على المعتقل في دولاب التعذيب والكرابيج تطحنه فيصيح ملء الفم زعيقاً وعويلاً هو أبعد ما يكون عن صوت البشر وينفتح الفم إلى آخره فيقلمونه الحذاء ويدسونه في فمه، فإذا أبعد وجهه ركلوا رأسه وداسوا رقبته، ويعلو الزعيق والصراخ من شدة الألم والعذاب في تلك الباحة حتى يضج به المكان فينبري الرقيب العتيد يصرخ زاجراً ناهياً بصوت مدو يأمر بالسكوت: (سكوت ولك) وكأنه قائد أوركسترا يضبط النغم في حفلة صاخبة يستعمل الصراخ الناهر بدل عصا الأوركسترا فيلجم الخوف الأفواه وتختنق صرخات الألم.
تذكرت في ذلك الموقف أصحاب الأخدود والنار ذات الوقود وإلقاء المؤمنين في وقدة النار وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، كانت عناصر الفرقة الجوالة تطوف على الواقفين المنتظرين بسيل من الضربات العارمة تجعل الواحد يحن إلى دولاب الموت أن يدركه، فسمع صوت الكرباج الثقيل (وهو عبارة عن قشاط دبابة) ينهدّ على ظهر المعذب أو على رأسه فيرتجف ويكاد يصعق، ويئن ويصرخ بالصوت المخنوق المرة تلو الأخرى.
كنت أقف ووجهي إلى الجدار أنتظر دوري في الدولاب الرهيب، وأناجي ربي: يا سميع يا بصير يا من لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يا رب رحمتك غوثك.. هاهم الجلادون المجرمون جنود الشيطان ينقضون على عبادك المستضعفين بالعذاب.. يا الله يا الله..
وجاء دوري وطحنني الجلادون بكرابيجهم وأنزلوني في الدولاب واشتد البلاء بضرب رهيب وثلاثة من الجلادين

عاري الصدور والظهور وبأيديهم الكرابيج كأنها اللهب، يقف الواحد منهم مباعدا رجليه جاثياً على ركبتيه رافعاً يده بالكرباج إلى الأعلى والوراء، حتى ترى عفرة إبطه، وينزل به كأنه الصاعقة الماحقة، تريد أن تدمّر وتحطّم ولكن لطف الله أعظم.
ويصرخ الواحد منهم بأعلى صوته وكأنه يحارب في معركة قد حمي فيها الوطيس، واحمرت الحدق، ونحن، عبيد الله المستسلمين لقضائه، لا ترحمنا سياطهم ولا ترأف بنا قلوبهم/ وكأنهم جنوا وركبتهم العفاريت والشياطين فانقضّوا علينا وقد فقدوا العقول فلا عقول.
كان الشاب الصغير إسماعيل يصرخ متألماً باكياً شاكياً مستغرباً يقول: إيش بتريدوا دخيلكن؟ أما نبيل فقد كان يعلن براءته مالي علاقة والله ما عملت شيء دخليكن أنا بريء، وهم يزودونه بالكرابيج ويلكمونه ويرفسونه ثم ألقوه أرضاً وأوسعوه ركلاً وضرباً حتى سالت الدماء من وجهه وشفتيه وغاب عن الوعي أو كاد فأدخلوه في الدولاب وأذاقوه من العذاب ثم أقاموه بعد أن تعبوا وكلّوا وأنهكوه ووجهوه إلى الجدار حيث العصا الرهيبة في الانتظار تفلق الرؤوس وتحطم الظهور وتدفع من انتهى أجله إلى القبور.
صبرت قليلاً على الضرب والتعذيب ولكن رجلي أصبحتا وكأن فيهما جمر نار يحرق العظام، فنفد الصبر وضاق بي الأمر وكدت أغيب عن الصواب وصرخت مرة ومرات ثم انفتح فمي الزعيق فما شعرت إلا وحذاء ضخم يصك أسناني ويكاد يسد حلقي ولكني كنت في شغل عنه وغبت عن الوجود، فما دريت إلا وأنا أساق دفعاً وركلاً إلى مكان ما وأبصرت أمامي نفراً من إخواني بعضهم واقع على الأرض، والبعض يقفز أو يتحرك في حال مأساوية، دماء نازفة ووجوه ملأى بالجروح وأرجل قد تمزقت وسالت منها الدماء وصراخ يقطع الأكباد.
وصرخ فيّ عسكري جلاد، وانقض آخر بعصاه فحطم بها ظهري فوقعت بين الموت والحياة وصرخت صرخة انطلقت مخنوقة من صدري الذي ظننته قد انشق نصفين (يا الله يا الله) وبادرني آخر بالزعيق لكي أستجيب وأقوم فما استطعت ولكن الركل والضرب أجبراني على القيام فقمت وكنت أظنني لا أقوم. وجاء

شخص بالماء فرشقنا به وإذا بي قرب نبيل وهو يبكي ويتمسك بي قائلاً:
- سلّم لي على أهلي أنا بدي أموت..
فقلت: اصبر يا رجل..
وإذا بالصراخ يأخذنا من كل جانب.. واستدعانا الرقيب الكبير فإذا به جالس على كرسي في الظل بارز الصدر مستقيم الظهر منفوش كالديك فأخذ يستجوبنا:
- إيش كنتو عم تحكو يا...؟
كان عقله المريض يصوّر له أشياء غريبة، لابد أننا نتآمر عليهم أو على سلامة النظام. قلت: إنه يقول لي أنا بدي موت سلّم على أهلي.
فصرخ بغضب: (كذاب ولك) إيش كنتو عم تحكوا؟
قال نبيل: والله يا سيدي هيك قلتلو..
- كذابين ولك حقراء..
ثم أشار للجلاد وقال:
(سلخن لها الكلاب..) وانهال علينا مارد عاري الصدر نحيل الوجه مليء الجسم، فكان وجهه وجه فأر وجسمه جسم حمار وإنها لسحنة معروفة ولهجة غير خافية وهو يقول: (متحكوا يا حقيرين يا...) وانهال عليّ ضرباً حتى وقعت على الأرض أصرخ، فلم يتركني حتى شفى غيظه وحقده مني وأعادني إلى مكاني مع نبيل بعد أن ضربه أيضاً ضرباً شديداً.
وجاء من يرش الماء علينا ويسمونه (البلدية) كان كما علمنا بعد ذلك، سجيناً قضائياً من سجن العسكريين يعمل هنا في الخدمة التي يسمونه (البلدية) ولا أدري ممن بدرت بادرة خير ولعلها من نوع الرأفة بالحيوانات فقال أحدهم للبلدية: اسقيه.
كانت شفتاي مشققتين من الضرب، وحلقي جافاً من العطش، والصراخ واللهاث وحالي بالغة السوء، فناولني (البلدية) سطلاً من البلاستيك فيه ماء قذر وسخ قائلاً: تفضل.. فاندفعت أشرب منه بضع جرعات ولم أعده إليه بل ناولته لنبيل فشرب وسقى شخصاً آخر أو شخصين.
ثم أخذوا الماء ولم يسقوا الباقين، وكنا بلا طعام ولا شراب منذ أربع عشرة ساعة تقريباً. كانت كلمة (تفضل) ترن في سمعي وصوت واجف يقولها وكأنه يقول: اشرب يا أخي فداك روحي.

أربع ساعات من القهر والعذاب والتحطيم لا يعلم ما قاسينا فيها إلا الله والذي عاشها من نزلاء تدمر، وكل معتقل يأتي تدمر لابد أن يطبق له الاستقبال اللعين فتطحنه رحى العذاب ويذوق الموت في ذلك الدولاب، وينظر بوحشية بني البشر التي فاقت وحشية وحوش الغاب سوءاً وضراوة وغدراً.
أربع ساعات مرت والموت يحوم فيها فوقنا تصكح آذاننا أصوات غريبة رهيبة، كرابيج تعوي وتصفع الأقدام والرؤوس والظهور بلطمات هائلات يلقي صوتها الرعب والهلع في قلب أشجع الشجعان.
وساقونا بعد ذلك في صف طويل متموج واحداً واحداً ونحن منكسو الرؤوس محنيو الظهور، وهم يضربوننا بالكرابيج. أدخلونا بعد سين وجيم مهجعاً طويلاً فاندفعنا فيه إلى أقصى مكان نتزاحم على الحائط أو الزوايا البعيدة بعد أن وضعنا الجرحى جانباً، وأغلق الباب وسمعنا صوت قفله وتنفسنا الصعداء وثبنا إلى أنفسنا وأخذنا نجول بأبصارنا في أجسامنا وفي جنبات المكان. وتعالت تنهدات وآهات وتوجعات وتكلم البعض، وإذا بصراخ مخيف يأتي من جهة الباب:
- ولك يا حقيرين يا... بدون صوت ولك يا... بلا صوت والله لندبحكن ونشرب دمكن يا.. بلا صوت..
وانكفأنا مبتعدين خائفين، وخمد الكلام في الأفواه وصبرنا وقتاً أطول واجمين هلعين. نظرت فيمن حولي.. كان كل فرد في حالة رهيبة من الألم والتعب والإرهاق، وإذا بأحدهم يضم آخر ويبكي بكاء مراً فانهمرت من عيني الدموع، وأمسكت بمن كان قربي ونظرت في وجهه، كان وجهاً دامياً باكياً فناديته هامساً:
- يا أخي..
كان ذاهلاً فأخذته وضممته إلى صدري. إنها الرحمة التي أودعها الله في قلوب عباده..
وناجيت ربي قائلاً:
- يا رب إن كانت عواطف الخير والرحمة قد عدمت وجفّت ينابيعها في قلوب الناس، فها هي قلوبنا تملأ الدنيا بحب الخير والشوق إليه وإلى عدالتك.. يا رب السماء وإلى رحمتك يا إله العالمين، وإن غفلت عنا الدنيا ولم يعرف بأمرنا الناس ولم يرحمنا البشر فأنت يا رب بحالنا عليم، ورحمتك أوسع لنا يا أرحم الراحمين.

التعليمات.. أو خطبة المساعد

لم نلبث إلا قليلاً حتى جاؤوا.. سمعنا صوت المفتاح في قفل الباب، فاندفعنا إلى أقصى المكان نحتمي ببعضنا بعضاً وقد أخذ الخوف مأخذه منا، وفتح الباب واندفع الجلادون إلينا يصرخون بحقد وجنون وانهالوا علينا ضرباً رهيباً بالكرابيج حتى كلّت أيديهم وحتى علا الصراخ واشتدّ الكرب وجاء صوت رفيع يأمر قائلاً:

- يكفي شرطة ثم تابع: الجميع واقفاً.

فوقف كل من له رجلان فالخوف فوق الألم، وكنا ندير وجوهنا إلى الحائط وظهورنا إليهم، وجاء الأمر: وراء در، وأمر آخر لم نطعه لغرابته: فتح عاينك، تطلع لهون، ولكن مع تكرار الأمر فتحنا عيوننا ونظرنا فإذا بضعة عشر جلاداً باللباس العسكري والقبعات الحمراء والكرابيج في أيديهم وكان المتكلم يلبس بدلة عسكرية مكوية وعلى رأسه القبعة الحمراء أيضاً وعلى عضده نجمات ثلاث، وتكلم بصوت مدو فقال:

- انتو جيتو لهون باجريكن ما حدا جابكن يا حقراء يا... بتعرفوا وين هون؟ ما بتعرفوا.. هون سجن عسكري، يعني نظام عسكري يعني بدنا نفطركم قتل، ونغديكم قتل، ونعشيكم قتل، مسموح لنا نقتل (20) منكم (كان هذا فعلاً على أقل تقدير كما تبين لنا فيما بعد) يا حقراء.. يا.. ممنوع الكلام الصوت ممنوع، الكلام مع الشرطة ممنوع، تفتيح الأعين ممنوع، السهر ممنوع، بدكن تستلموا الحكم ما هيك استلموا البطانيات يا حقراء، لولا سباط الحزب (يعني حذاء الحزب) ما شبعتوا الخبز.

- ثم أعطى بعد ذلك تعليمات معينة مؤادها أن نرفع رؤوسنا ووجوهنا إلى السقف وأن نغمض أعيننا ونقف باستعداد كلما فتح باب المهجع، وفي حضرة الشرطة والرقباء. ووضعوا لنا رئيس مهجع من العسكريين المعتقلين معنا. فإذا سمع صوت المفتاح في القفل فإنه يصرخ: انتبه.. وعندها يسارع كل واحد إلى مكانه بأقصى سرعة ويقف بحالة انتباه ويعطي رئيس المهجع إيعاز: استاعد.. فيستعد الجميع، فيقدم رئيس المهجع الصف قائلاً: المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب،

ويكون الجميع بوضعية الاستعداد والوجه مرفوع للسقف والأعين مغمضة.
أنهى المساعد خطبته والتفت إلى ما حوله فأيده الجلادون بكرابيجهم وزمجرتهم وسبابهم ثم خرجوا.. كنا في موقف لا نحسد عليه، ولم يكن لنا إلا خيار الانفلاق على حسب رأيه ولكني كنت أفكر: هل مات الضمير؟ هل فقد العقل وتحطم المنطق؟ هل انعدمت القيم كل القيم؟ ولم يبق شيء.
بعد مضي حوالي الساعتين تقريباً، عاد إلينا الجلادون أيضاً وصرخ أحدهم بصوت مرعب: ولك حقراء.. وأخذوا يسبون ويشتمون.
وسارعنا نطبق تعليمات رئيس الجلادين، وذلك بأن سارعنا إلى أماكننا ووقفنا باستعداد، ورفعنا رؤوسنا إلى الأعلى وأغمضنا أعيننا!! وسلمنا أمرنا لمن بيده الأمر.
وقدم أحد المعتقلين وهو الذي سموه (رئيس المهجع) الصف قائلاً: استارح.. استاعد المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب.. وهكذا بدأت في حياتنا تلك الجملة المكررة الرهيبة حين دخول الجلادين وحين خروجهم، ورافقت هذه الجملة بعد ذلك طوال مدة وجودنا في سجن تدمر الرهيب تتكرر في الصباح والمساء، والضحى والظهر والعصر والليل والنهار.. وما أن نسمعها من بعيد حتى يسيطر علينا الخوف ويهيمن الرعب والفزع، فننطلق ضارعين متوسلين مستغيثين..
كان معنى هذه اللازمة أن جلادي سجن الموت قد جاؤوا أو قل جاء الشر والقهر والعذاب في صور غير معلومة.
ثم ما لبث أن اندفع الجلادون إلى الداخل كالوحوش الضارية يصرخون ويشتمون ويأمروننا بفتح أيدينا للضرب، ويضربوننا عليها بالكرابيج بقسوة، مع الأمر بتغميض العيون. وتعالى الصراخ من الجلادين بالنهر والسباب والزجر، ومن المعذبين بالشكاية. وكان الجلادون خلال ذلك لا يرحمون مريضاً أو طريحاً لا يستطيع القيام بل يضربونه بالكرباج بقوة وقسوة ويأمرونه بالقيام مع السباب فإذا رأوه بين الموت والحياة زادوا عليه ضرباً وركلاً وأظهروا التشفي ويصرخون:
- موت يا حقير.. الله لا يرحكم.. فطوس يا كلب..

ووقع بعض المعذبين على الأرض فلم يتركوهم بل اندفعوا يضربونهم ويرفسونهم ويأمرونهم بالقيام. وقرع الباب.. قرعة الرقيب حامل المفاتيح، واستدعى الجلادين، فخرجوا وهم يشتمون ويكفرون ويسبون الله ومحمداً والدين والإسلام والمسلمين، وقبل أن يخرجوا عادوا وكأنهم تذكروا شيئاً فطلبوا رئيس المهجع وأمروه بالوقوف باستعداد رافع الرأس مغمض العينين، فوقف أمامهم كذلك، فاندفع إليه العسكري الجاهل الحاقد فصفعه على وجهه بقسوة ولكمه في بطنه، وانقضّ الجلاد الآخر عليه بالكرباج يضربه بقسوة حتى ألقوه أرضاً، حدث ذلك في وقت قصير، حيث أنهم اندفعوا يضربونه بسرعة وقسوة وهم يصرخون ويزمجرون وتركوه ملقى على الأرض وخرجوا فرحين هازئين. وكان هذا الشاب مثقفاً يحمل شهادة عالية في الأدب الإنكليزي، وهو أيضاً ضابط مجند في الجيش، أديب كريم ذو رجولة وأخلاق، ولكن ماذا أقول؟ إنما هي محنة وبلاء من الله يمتحن به هذه الأمة. كان هناك طعام قد أدخل ولكن لم يلتفت إليه أحد.

حالات

بعد خروج الجلادين كان الأخ (م ع) أبو أنس مغمى عليه ملقى في الزاوية وهو طالب جامعي في فرع الهندسة الكهربائية وفي السنوات الأخيرة.. وعمره (23) عاماً وقد خصوه بأكبر قسط من العذاب، ويبدو أنهم فطنوا لما ذكره عند تسجيل الأسماء عن عمله، فكان ذلك دافعاً لزيادة العذاب عليه وهذه فلتة من فلتات عبقرية الجلادين.. لا أحد يدري من أي مبدأ استوحوا القاعدة التي يتبعونها في معاقبة وتعذيب حملة الشهادات دون غيرهم، لذلك كان الأخ المهندس (ش س) يجيب إذا سأله الجلادون عن عمله بعد ذلك يقول: نصاب عواميد كهرباء.. ولم يكن ذلك ليصرف عنه العذاب، ولكنه كان ينجيه من غضبة الجلادين. دعاني بعضهم أن أقوم لأنظر حال الأخ أبي أنس..

فقمت إلى الأخ أغالب ما بي.. كان أبو أنس قد استفاق لتوّه من إغماءته وكان منهكاً مرهقاً.. قلت:

- كيف حالك يا أخي..؟

قال: الحمد لله..

وجاء شاب كان يجلس قريباً منه كان في حالة سيئة جداً: وجه متعب مشوّه، وجسم منهك وكشف القميص عن منظر مثير، ظهر تمعط جلده وتسلخ وظهرت فيه جروح غائرة ولحوم مشرشرة، وكان ينزف قيماً ودماً.. حتى صبغ القميص بل غمره..

كان هذا الشاب يدعى (ع) وهو من جهات الساحل السوري، وعمره ستة عشر عاماً..

قال: شفلي ظهري أستاذ..

ورأيت ظهره واعتصر الألم قلبي، لأني لم أكن أستطيع له شيئاً.

الطعام

وجاء أحد الأخوة يدعوننا إلى الطعام، فرد عليه سليم: أنا ما بدي آكل بدي موت.. فعاتبته: لا يا أخي قتل النفس حرام، قم وكل ومن يوم إلى يوم بيفرجها الحي القيوم.

وكان الطعام عبارة عن وعاءين في أحدهما أرز مسلوق (مطبوخ) وفي الآخر مرقة ماء البندورة وفيها نوع من الخضار وبعض الخبز.

ولما لم يلتفت أحد إلى الطعام، ولم يقم أي واحد إليه، رأى بعض الأخوة أنه لابد من أن يتقوى كل أخ بشيء من طعام يسد به رمقه ويقيم به صلبه، فقام اثنان من الأخوة يتحاملان وأخذا يدعوان الأخوة بالدور إلى الطعام وكانا يقابلان بالاستغراب والزهادة والرفض، فيؤكدان الطلب ويصران عليه: لابد من الطعام ولو لقمة واحدة، ولم يكن لدينا صحون ولا ملاعق ولا أي نوع من الأوعية، فقد أخذت منها الصحون البلاستيكية والملاعق والأكواب البلاستيكية، وفراشي الأسنان وكل شيء.

الأذان

وفي هذه المرة.. جاءت الرحمة على صورة صوت غير غريب انطلق من مكان غير بعيد.. صوت مدو مجلجل.. راسخ كالجبال عظيم ليس له مثال إلا أن يكون ترتيلاً من تنزيل.. وهو يعلن أمراً بدا في ذلك الوقت والمكان غريباً رغم بداهته.. وهائلاً رغم وضوحه وفصاحته..

الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله،

أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله.. نداء رباني سماوي إلهي يأتينا من العالم الآخر من دنيا بعدت عنا، دنيا يكاد يصعب علينا تصورها دنيا الحرية، ومن جو العبادة المسجدي النوراني ينطلق هذا الصوت في أجواء سجن تدمر الملتهبة بالحقد والغل والكيد والغش والبذاءة والأذى والعذاب، فيطعن الباطل في الصميم، ويشفي صدور قوم مؤمنين، ويسقي الظامئين الذين كاد يهلكهم العطش رشفات باردات عذاباً.. صوت أرق وأندى من مناغاة الأم لطفلها، وأحلى من صوت الحمامة للحزين..

المهجع

كان منع النظر وتفتيح الأعين يحول بيننا وبين معرفة ما حولنا من أشياء، كنا لا نعرف سوى المهجع، وكان المهجع بطول (14) م وعرض (4م) وله أربع نوافذ من كل جهة سعة كل نافذة 80 ×80سم ترتفع عن الأرض حوالي (3م) وهناك فتحتان في السقف 1×1م وكل النوافذ والفتحات مشبكة بالحديد بكثافة، وكانت أرض المهجع مغطاة بطبقة من الغبار الرملي كثيفة وهي محفرة في كثير من المواضع، وقد أمرنا الرقيب محقراً ومتعالياً:

- كنسوه بلحاكم يا...

وكانت لنا بالفعل لحى طويلة حيث أننا لم نحلق منذ مدة طويلة، لأن عناصر المخابرات كانوا يمنعون عنا أدوات الحلاقة والحلاقين..

وكانت جدران المهجع مطلية بطلاء أخضر فاتح إلى مستوى (1.5)م ثم بطلاء أبيض حتى السقف، وقد بدا واضحاً أن عملية تنظيف وتعزيل وطلاء قد جرت حديثاً للمهجع وأنه لم يستعمل بعدها أبداً، فهناك آثار وبقايا الطلاء على الأرض.

وكان للمهجع دورة مياه أخذت من طوله بعرض (2م) فيها مرحاضان أحدهما معطل ومغسلة صنبورها معطل أيضاً، والأرض في دورة المياه مشققة وكسرة.

كنت قد سمعت قبل اعتقالي بفترة وجيزة بمجزرة تدمر الرهيبة التي قتل فيها مالا يقل عن (1000) معتقل من

الأخوان المسلمين، وذلك في سجن تدمر العسكري هذا، فقمت أنظر في نواحي المهجع لعلي أرى آثار ذلك الحدث الذي سمعت عنه، فكان أول ما لفت نظري الجدران. كان في الجدران وعلى مستوى (150)سم وما دون وخاصة الجهات الداخلية البعيدة عن الباب حفر صغيرة متناثرة متجمعة أو متباعدة بقطر (1)سم وقد بدا واضحاً أنها قد حشيت بالجبس وطليت بعد ذلك، وعثرت في أحد الشقوق في المنافع القريبة من الباب على ظرف فارغ لطلقة رصاص، وفي اليوم الثاني وخلال إزالتي للغبار وتنظيف المكان وجدت في الأرض المحفرة لوناً داكناً بين الأسود والرمادي، تفحصته ملياً وشممته، إنه لم يكن بعيداً عما توقعت، بل كان شاهداً حقيقياً عما جرى في هذا المكان من جريمة.. بل كل الشواهد تحكي قصة رهيبة ليست أحداثها بعيدة، ولا غابرة بل هي قريبة العهد.

إذا هذه الأيدي التي تمتد إلينا بالأذى أيد آثمة، إنها ملطخة بالدماء.. وما يدريك ماذا يخبئون لنا؟ وهذه أفعالهم وهذه جريمتهم وهذا حقدهم..

حالات صعبة

في ذلك الوقت كان عندنا بعض الحالات الصعبة منها: حالة الأخ عزام الحمصي كان مصاباً بمرض القلب، فما أن جاء دوره في حفل الاستقبال وأنزل في الدولاب حتى ضاق صدره وتسارع نبضه وخف ضغطه وغاب عن الوعي، ولم يشفهم ما به فأنزلوه في الدولاب وضربوه ونهروه وزجروه وسبوه، ولكنهم كانوا يضربون في حديد بارد وقد أنجاه الله ولكنه لم يكن يستطيع المشي ولا الحركة مما كان يضطرنا إلى حمله، فكنا نحمله أينما ذهبنا كما نحمله إلى دورة المياه ونعيده منها، فإذا جاء الجلادون ودخلوا علينا هجموا عليه يضربونه وهو مضطجع لا يستطيع القيام ويسبونه ويحقرونه ويستعجلون موته.

وكان هناك أخ يدعى عثمان من جهات الساحل مصاب بمرض الربو، فكان إذا اشتد العذاب حوله أو باشر الجلادون بضربه أصيب بحالة اختناق فيقع على الأرض وقد تشنج جسمه وضعف تنفسه وشخصت عيناه وظهر

الزبد على فمه مع ارتجاف كلي في جسمه وأطرافه، ويفقد الحس والحركة.
وكان هناك الأخ عصام وكان مشوّه الجسم والوجه، وكان ظهره خاصة في حالة مؤلمة للغاية، وقد تقيح وتورم كما ظهر الورم في أنحاء مختلفة من جسمه في قدميه ويديه ووجهه، فكان ممن يخشى عليهم من الموت.
وكان الأخ أبو سعيد مصاباً في رجليه بتمزق شديد إضافة إلى رضوض مختلفة في نواحي جسمه نتيجة التعذيب الوحشي الذي تعرض له، وقد حاولنا علاج جروحه ولكن لم يؤد ربطها بقطع الثياب إلى أن تعفن الجروح وتورمها واشتداد آلامها، حتى غدت كريهة الرائحة.
وكان الأخ أبو بدر الرجل المؤمن الصابر الذي أمره الجلادون بأن لا يفتح فمه أبداً خلال عذاب الاستقبال، فوضع يده في فمه وعض عليها وأخذوا يضربونه يقول: وأنا صامت وهم مندفعون قد أعجبهم الأمر وارتاحوا له حتى عددت ثمانين ضربة ثم تهت في العد وغبت عن الوعي، فكان أبو بدر لا يستطيع المشي على قدميه المنتفختين ورماً وقد تمزق الجلد في كثير من نواحيهما، أما يداه فكانتا زرقاوين متورمتين حتى الكوع، وكان الوجه الأنسي للساعد أسود كالحاً منتفخاً وقد تمزق جلد الرسغين وأخذ ينز بالماء والدم، فكان أن جهز قطعتي قماش يلف بهما رسغيه ليحميهما من الضربات الجديدة. تألمت لحاله وغلبني القهر والألم وهو يروي لي قصته وقلت في نفسي: حتى الصراخ في حال الألم ممنوع؟ أيمنع الإنسان أن يصرخ متألماً؟
وهناك الأخ أبو مالك الذي كان أشد ما أثارهم أنه طالب هندسة في الجامعة، ولم يكن الوحيد ولكن آذان الجلادين التقطت هذا التعريف دون غيره، ولكننا بعد ذلك كنا حريصين على أن نبتعد تماماً عن أي تعريف حقيقي بأعمالنا، وقد ساعدنا في ذلك نظام السجن ذاته الذي كان يمنع كل الجلادين من رقباء وعرفاء وشرطة الكلام مع المساجين إلا بالنهر والضرب، وكان ذلك لغايات أخرى هي منع أية علاقة أو معرفة بالمعتقلين وظروف اعتقالهم وماهية تهمهم.

ومن ناحية أخرى حتى لا يتأثر بهم الجلادون (ويعدون) بآرائهم المتطرفة، كما أن إغماض الأعين جعل له مبرر يزيد في حقد الجلادين وهو أن هؤلاء المعتقلين مجرمون وربما ينجو منهم أحد فلا يجوز أن يروكم ولا يعرفوكم حتى لا تتعرضوا لانتقامهم.

كان الأخ أبو أنس مريضاً بعد كل ذلك العذاب، وإن كان يستطيع السير بصعوبة جداً..

وكان الأخ أسامة الشاب ابن الثامنة عشرة في حالة سيئة من التشويه والجروح.

كذلك كان المعتقل نبيل ينزف الدم من فمه وأنفه، وقد تورم وجهه حتى غابت عيناه، إضافة إلى ورم رجليه ويديه وآلام شديد في سائر جسمه.

وفي اليوم الثاني لم يكن أحد يستطيع السير إلا بصعوبة كبيرة، وكانت حبات الرمل في أرض المهجع نحس كأنها حسك الحديد ولم يكن أحد يستطيع إطباق أي من يديه لما كان فيهما من ورم ووجوهنا كانت ملأى بالخطوط الزرقاء والحمراء والهالات السوداء.

وكان الأخ المعتقل أبو نجيب مكسور الكاحل بضربة عصا، فكان لا يستطيع المشي، فإذا أجبر حجل على رجل واحدة مستنداً إلى كتف معتقل آخر.

أول ليلة في تدمر

جاء المساء ونحن جالسون كل في مكانه، يذكر الله ويدعوه ويسبحه.. وفي السابعة مساء جاء الجلادون يصرخون، دخلوا علينا المهجع وضربونا بالكرابيج وأشبعونا سباباً وشتائم وتهديداً وكفراً.. وخرجوا يغنون ويصخبون، وأدخل خلال ذلك طعام العشاء ولكن لم يلتفت إليه أحد..

اضطجعنا على الأرض دون أي وطاء أو غطاء ووضع كل واحد منا حذاءه تحت رأسه.. أخذت أفكر في حصيلة يومي من أين أبدأ؟ وأين ينتهي؟ كانت صورة سجن تدمر غير واضحة في ذهني، وكنت أول المستهينين به. أقول لمن يبدي قلقه وخوفه من سجن تدمر: وهل هو إلا سجن كباقي السجون؟ خلوة مع الله..

لم أكن أعلم أي غدر فيه وأي كيد؟ لم نكن نظن أنه يمكن أن توجه إلينا كلمة سيئة، فإذا بنا الآن في حالة أقل ما توصف به أنها سيئة جداً من نواح كثيرة صحية

ومعاشيه وأمنية وإنسانية.. كنت أشك كثيراً في أنه يمكن أن أوخذ هكذا بالظنة.
كنت أشك في أن تأخذ الدولة الناس فتعاقبهم وتسدنهم هكذا بالشبهة والظنون، على غير ذنب واضح معروف أو ثابت، ولكن التاريخ يذكر لنا أن ظلم الحكام الطاغين كان بلا حدود لا يفرقون بين برئ أو مذنب، فها هو صاحب الأخدود يلقي المؤمنين في النار وكل ذنبهم أنهم آمنوا بالله رب العالمين، ليس ذلك صورة ماضية ولكنه خط فرعوني نمرودي أبو جهلي متجدد يسير عليه كل عتل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب..
كم كنت حسن الظن بل كم كنا حسني الظن بل لم نأخذ العبرة من فعل الطغاة السابقين، ولا من القرآن الكريم وهو يقول: (كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة).
فهاهم يظهرون وها هي أيديهم المجرمة وخططهم الماكرة لا تراعي عهداً ولا قانوناً ولا مبدأ، بل تتبع قانون الحقد ومبدأ الغدر، وتتخذ سبيل الظلم والفجور.. لو درسنا كتاب الله لعرفنا ذلك من قبل..
فلا يجب أن نخدع بكلامهم اللين وبهرجهم الزائف، وها نحن نلمس النتيجة وهاهم يطعنوننا في الظهر، اللهم خذ على أيديهم وأذلهم واصرف عنا كيدهم وأخذت أدعو..
انطلق فجأة صوت يصرخ بقوة.. في وسط ظلام الليل: هوووه هوووه هوووه.. ينطلق صارخاً بقوة فيدوي في جنبات سجن تدمر العسكري الرهيب، فتجاوبه أصوات أخرى بصراخ أقوى: هييه هييه هييه.. هوووه هوووه.. هييه..
تساءلنا في استغراب ما هذا؟.. ماذا فيك بعد يا سجن تدمر من سوء تظهره؟.. وتكررت الأصوات وكثرت في أذهاننا التساؤلات..؟
وكان أحد الأخوة قد تأخر عن أداء صلاة العشاء فقام يصليها والوقت لم يجاوز العاشرة مساء.. وإذا بصوت يصرخ فيه بقسوة وحقد ولؤم: ولك حقير شو متسوي يا.. والله لأفعل.. وكأنه ضبطه في جرم رهيب.

تدمر مدينة تاريخية عريقة، أشهر ملوكها أذينة وزوجته زنوبيا وآثارها من أجمل الآثار في الدنيا بمعابدها الرومانية وأعمدتها الرائعة التي لا تزال قائمة على مرور الأيام.
أما الآن فهي مدينة صغيرة لا يزيد سكانها عن (10) آلاف نسمة، وتقع إلى الجنوب الشرقي من الآثار المذكورة، وفي الجهة الشرقية الشمالية من تدمر توجد ثكنة عسكرية واسعة يحرسها رجال الشرطة العسكرية ذوو القبعات الحمر، وإن السائر في جنبات تدمر التاريخية إذا اتجه شرقاً جاعلاً المدينة عن يمينه فلن يسير طويلاً حتى يجد أمامه مدرسة وملعب كرة في العراء بجانبها، ومن ثم جدراناً عالية ذات لون ترابي طويلة، ومن وراء هذه الجدران تبدو أبنية ممتدة كثيرة تساير الجدران الخارجية، وسوف يرى على أسطح هذه الأبنية التي لها سياج بارتفاع متر واحد تقريباً حارسين يتجولان أحدهما في الزاوية الجنوبية، والثاني على بعد (100م) إلى الشمال منه. ولكل منهما غرفة صغيرة يأوي إليها بعض الأحيان
ولكن أحداً لا يستطيع الاقتراب من هذه الجدران، فحولها يتمركز عدد كبير من العساكر من سرايا الدفاع ذوي اللباس المموّه وهي تابعة لرفعت أسد، وقد أقامت خيامها وأحاطت نفسها بالأسلاك الشائكة، وهيأت المتاريس ومعها المصفحات بمدافعها الرشاشة.
فما هي الأبنية الطويلة الممتدة؟ وماذا يوجد فيها؟ إنها مهاجع سجن تدمر وفيها الآلاف من المعتقلين المساكين وهم في وضع بائس رهيب، يعيشون تحت ضغط الرعب والإرهاب والقسوة، مهددين بالموت من كل جانب.
هذا هو سجن تدمر العسكري أو ما سمي مؤخراً بـ : مركز التطهير الوطني لتصفية الأخوان المسلمين.
وداخل هذه الجدران والمهاجع حدثت بتاريخ 27/6/1980 أفظع مجزرة في العصر الحديث لأنها تميزت بقتل السجناء العزل المستسلمين، وقد استغرقت ساعة من الزمن، قتل فيها ألف معتقل تقريباً دفعة واحدة وأكثر هؤلاء من العلماء والأطباء والمهندسين والمحامين والمدرسين، وهم من خيرة رجال سوريا علماً ودراية..

وفيها الطلاب والأحداث الذين اتهموا بحمل السلاح في وجه حافظ أسد.

ويستقر اليوم في مهاجع سجن تدمر العسكري هذا أكثر من (5000) خمسة آلاف معتقل من كل أنحاء سوريا فيهم كبار السن (60 – 70) سنة والعجزة من مقطوعي الأطراف والمشلولين والأحداث دون سن (18) سنة وهو عدد كبير يزيد على (400) حدث وفيهم المرضى بل كلهم مرضى بمختلف الأمراض والأوبئة وأولها نقص التغذية والجرب والإسهالات والسل وغيرها.

وهؤلاء المعتقلين يعذبون في الصباح والمساء، في الليل والنهار، في كل دقيقة، بمختلف الأشكال والصور ويعيشون في رعب دائم وقهر شديد ولولا الإيمان بالله والثقة برحمته لقتلهم ما هم فيه.

على كل حال فمن أراد أن يتأكد من الأمر فإني أؤكد أنه لو أنصت وحبس أنفاسه وهو يقف في ملعب الكرة الموجود قرب المدرسة غربي السجن وفي أي وقت لسمع من بعيد من داخل جدران المعتقل السميكة صرخات وآهات وزعيقاً عميقاً يدل على آلام شديدة ورعب كبير، مما يدل على استمرار العذاب في كل الأوقات في سجن تدمر الرهيب، وخاصة في الصباح الباكر أو الضحى أو المساء، ومع ذلك فهذا ليس كل شيء، ففي صباح الاثنين من كل أسبوع وبالتحديد فيما بين الساعة السابعة والتاسعة يمكنك أن تسمع أصواتاً قوية تنطلق بين الفينة والأخرى من داخل الجدران: الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر، وقد تسمع الصوت يخمد في منتصف الكلمة فتخرج مبتورة هكذا الله أكبـ..، ولكنك لن تسمع الحشرجات الرهيبة، لأنها ليست قوية بما فيه الكفاية لتخترق جدران السجن العالية السميكة التي تحيط بسجن تدمر العسكري أو مركز التطهير الوطني لتصفية الأخوان المسلمين. وفي مكان الإعدامات يجري إعدام مجموعة كبيرة من المعتقلين يقدر عددها ما بين (30 – 80) معتقلاً في يومي الاثنين والأربعاء من كل أسبوع على الغالب.

وسوف نسمع بكل تأكيد بعد ذلك صوت محرك السيارة من نوع (زيل الروسية الصنع) وهي تتحرك حاملة الجثث إلى حفرة في صحراء تدمر ليهيل عليها البلدوزر التراب ويخفيها إلى الأبد.

فهل سيبقى ما يجري في سجن تدمر خفياً مكتوماً؟ وهل سيخرج أولئك المقهورين من سجن الموت في يوم من الأيام؟

سجن تدمر

الأصل في سجن تدمر أنه ثكنة عسكرية أقيمت أيام الفرنسيين، وقد استعمل قسم منها بعد ذلك كسجن للعسكريين المخالفين للأنظمة العسكرية كما وضع في هذا السجن أيضاً في بعض الفترات سجناء سياسيون.. وتوسّع سجن تدمر أكثر من مرة حتى بلغ عدد مهاجعه في عام 1979 (34) مهجعاً موزعة على سبع باحات ومستوصف وبه أربع غرف عادية، والمهاجع الأرضية وهي اثنان أو ثلاثة ولها مدخل خاص ومجموعة زنازين عددها عشرة وساحة خاصة للمكاتب، ومجموعة من الغرف عند المدخل الرئيسي للسجن، كما بنيت مهاجع أخرى عددها سبعة في أوائل عام 1982 فأصبح عدد مهاجع السجن (44) مهجعاً عدا المستوصف وغرفه. وهناك المطبخ في الجهة الجنوبية الشرقية للسجن. ويمتد سجن تدمر على رقعة مربعة من أرض الثكنة، ضلعها (125م) وتشكل الزاوية الغربية الجنوبية من أرض الثكنة.

باحات السجن منفصلة تماماً عن بعضها البعض، ويصل بينها أبواب حديدية ما عدا الباحتين (5 – 6) فهما متصلتان بممر واسع.

ومهاجع السجن من حيث البناء على نوعين الأول: قديم مبني بالحجر واطئ السقف ضيق النوافذ، معتم.

والثاني حديث البناء فيه فتحات في السقف واسعة (1× 1م) كانت في الأصل مغطاة بأقفاص زجاجية ولكن زجاجها تكسّر فبقيت مكشوفة تعرض نزلاء المهجع لمختلف الظروف الجوية.

ومن حيث السعة فالمهاجع على نوعين: الكبير وهو الغالب وأطواله 14×4م وفيه دورة مياه مأخوذة من طوله وعلى عرضه 2×4م فيها مرحاضان ومغسلة.

والنوع الآخر: إما صغير يتألف من نصف المهجع السابق مثل المهجعين (9 و 13) أو كبير عبارة عن مهجعين متصلين مثل (5 – 6) ويحيط بأبنية السجن جدار سميك مرتفع (4م) تقريباً من الجهات الجنوبية والغربية، وجزء

من الجهة الجنوبية بينما تشكل جدران المهاجع الجدار نفسه من الجهة الشرقية وهي ليست جدراناً خارجية بل داخلية يحيط بها سور الثكنة.

وفي مربع السجن بابان فقط الأول في الجهة الجنوبية وهو واسع وصالح لدخول السيارات ولا يستعمل للمساجين إنما للأعمال الأخرى.

والباب الثاني في الجهة الشمالية الشرقية وهو بعرض (1.5)م تقريباً وينزل درجتين حيث مستوى أرض السجن أدنى من مستوى الأرض الخارجية وهذا الباب الأخير هو المستعمل لإدخال المساجين وإخراجهم، فهو باب السجن الرسمي.

فإذا دخلنا منه فسوف يقابلنا باب آخر يفضي إلى صالون، وعن يسارنا باب غرفة الانتظار ذات الجدران القذرة والعفن والشعارات (الثورية) مكتوبة بخط عريض وسوف ترى في غرفة الانتظار هذه إلى اليمين شبكاً حديدياً مزدوجاً من الأرض إلى السقف ومن جهته الثانية غرفة أخرى فهذا مكان الزيارات التي كانت سابقاً ويواجه غرفة الزيارات غرف مكاتب متصلة ببعضها وفي زاوية الغرفة الأولى طاولتان من الخشب فإذا سرنا إلى الأمام وجدنا باباً حديدياً ضمن سياج من قضبان الحديد المتشابكة، فإذا ولجناه وجدنا باحة كبيرة فيها أشجار وأزهار وبركة ماء صغيرة في الوسط وعلى جوانب الباحة التي تبلغ أبعادها 20×20م غرف مكاتب السجن والمحكمة وغيرها، وتدعى هذه الباحة باحة المكاتب وفيها غرفة الرائد فيصل غانم مدير سجن تدمر ونائبه النقيب، وفي زاوية هذه الباحة الجنوبية الشرقية نجد باباً حديدياً يفضي إلى ممر واسع طوله 4م يوصل إلى الباحة الأولى.

الباحة رقم (1) باحة الاستقبال

باحة كبيرة 25×20م وفي ضلع المستطيل الشرقي منها تنفتح أبواب المهاجع 1-2- 3 ولها شرفة (2م) وفي الضلع الشمالي مهجعان متصلان تمتد نهايتهما غرباً خارج حدود الباحة ولها باب واحد وهما المهجع (5 – 6) المزدوج وطوله حوالي (30) متراً، وأن السجناء العسكريين الذين شغلوا هذا السجن فترة طويلة سابقة قد أطلقوا تسميات معينة شاعت بعد ذلك ومنها أنهم سموا هذا المهجع (المطار) لطوله، أما ضلع المستطيل

الغربي فهو عبارة عن جدار فقط يفصل هذه الباحة عن الباحة رقم (3) وفي وسطه باب حديدي. وأما الضلع الجنوبي ففيه مهجع واحد هو رقم (4) ويدعى (السينما) وكأنه استخدم سابقاً لغرض من هذا القبيل، وبين نهاية المهجع (4) والمهجع (3) في الزاوية الجنوبية الغربية ممر بعرض (4م) وفي آخره باب حديدي موصل إلى الباحة الثانية، ونزلاء مهاجع الباحة الأولى هذه هم الذين يعيشون القهر والألم كل حين، وهم يسمعون (النشيد المر) وهو صراخ الجلادين نهراً وزجراً وسباباً بأصوات قاسية عنيفة وحشية، وأصوات الكرابيج ضاربة هابدة قارعة، وصراخ المعذبين الذي يمزق نياط القلوب وذلك على مدى ساعات طوال تشمل غالب النهار وخلال عدة أيام في الأسبوع فيما يسمونه (الاستقبال) أو حفل تعذيب الاستقبال.

الباحة الثانية

وتتألف من مستطيلين يلتقيان ليشكلا زاوية قائمة رأسها في الجهة الجنوبية الشرقية للسجن، وهي تحيط بمهاجع الباحة الأولى من الجانبين الشرقي والجنوبي تقريباً.
وتشمل هذه الباحة على أربعة مهاجع وحمام السجن وهي المهجع رقم (8) ثم الحمام ثم المهاجع (9و 10 و 11) وهناك جدار من البلوط الإسمنتي يحجز المهجع (11) مع جزء من الباحة ويفصله في حيز بمفرده.

الباحة الثالثة

وفي وسط الجدار المرتفع الذي يشكل الضلع الغربي في باحة الاستقبال يوجد باب حديدي يؤدي إلى الباحة رقم (3) والتي تساوي في أبعادها أبعاد باحة الاستقبال نفسها تقريباً.
ففي الجهة الغربية من الباحة بدءاً من الشمال الغربي نجد مجموعة من الزنازين عددها (10) ثم المهاجع (18 – 17 – 16 – 15 – 14) ومن الجنوب نجد المهجعين (12 – 13) ولهما شرفة نجد امتداد المهجع الطويل (5 – 6) ثم باباً حديدياً يوصل إلى الباحة (4) وفي زاوية هذه الباحة الجنوبية الغربية ممر واسع يمتد حوالي (15م) وعلى يساره مدخل إلى المهاجع الأرضية وفي نهاية

الممر جنوباً باب حديدي واسع (3م) يوصل إلى ممر عريض (4م) يقود يميناً إلى الباحة (5-6) ويساراً إلى باب حديدي كبير (4م) مغلق هو المدخل الثاني للسجن.

الباحة الرابعة

ومن الباب الموجود وسط الجدار الشمالي في الباحة الثالثة نصل إلى الباحة الرابعة وهي واسعة وفي وسطها بركة دائرية ليس فيها ماء وفيها المهاجع (19-20-12-22-23-24).

الباحتان الخامسة والسادسة

ومن الباب الواسع في زاوية الباحة الثالثة الجنوبية الغربية نصل إلى ممر عريض (4م) يتجه يميناً بعد (10) أمتار نجد باحة بعرض (20م) وطول (50م) وينفتح على الباحة (5) ثلاث مهاجع هي ذوات الأرقام (32 - 33 - 34) وعلى الباحة رقم (6) المجاورة لها تفتح خمسة مهاجع أربعة منها على خط طول مواز لجدار الثكنة الخارجي ابتداء من الزاوية الغربية الجنوبية ويمتد شمالاً وهي ذوات الأرقام (25 – 26 – 27 – 28) وأخيراً وفي صدر الباحة المهجع رقم (31) ثم مهجع كبير في أول صف المهاجع المذكورة في الزاوية الغربية الجنوبية تماماً يدعى الورشة عرض الباحة السادسة هذه (20م) ولأسطحة المهاجع سياج يزيد ارتفاعه على متر وهناك أضواء كاشفة موجهة على السطح ذاته وعلى الباحة من الزوايا.

المستوصف

ومن باب حديدي عرضه (1.5)م في زاوية الباحة السادسة الشمالية الغربية نصل إلى ممر عريض يوصلنا إلى باب باحة المستوصف والذي يوجد فيه أربع غرف ثلاث منها بأبعاد (4×4) وواحدة بأبعاد (4×8م) واقعة بين المهجع (28) وغرف المستوصف الممتدة على سويته، وكان هذا فارغاً ثم استعمل بعد ذلك كسجن للنساء.

الباحة السابعة

وفي نفس الباب في الباحة السادسة يقودنا الممر إلى باب آخر غير باب المستوصف على جهة اليمين إلى باحة

مستطيلة فيها المهجعان (29) وهو ملاصق لجدار المهجع (31) الخلفي والمهجع (30) يقابله وبينهما باحة عرضها (15م) ومن بين غرف المستوصف والمهجع (30) فتح ممر إلى باحة أحدثت فيما بعد وأنشئ فيها أربعة مهاجع إضافة إلى إنشاءات أخرى ستذكر في حينها إن شاء الله.

اليوم الثاني في سجن تدمر

نعمة عظيمة من نعم الله التي لا تعد هي نعمة النوم، ارتاحت أجسامنا المنهكة واستراحت أعصابنا المتوترة وصفت أذهاننا المكدودة المرهقة بل عاش الجميع أحلاماً جيدة لا مثيل له من العذاب والرعب.

صليت الصبح في خشوع واستغراق وجلست أذكر الله وأدعوه، وأشرقت الشمس بنور ربها وغمرت الأرض بنورها الوضاء، وتسللت حزم من أشعتها المشرقة إلى داخل المهجع من النوافذ الشرقية. تذكرت نسمات الصباح الندية وأنا أخرج كل يوم من بيتنا لصلاة الصبح وأعمال البكور.. فأي عذاب ينتظرنا اليوم.. إنه اليوم الثاني لنا في سجن تدمر.

تساؤل

كانت الساعة تشير إلى السادسة صباحاً حين خيّم علينا جو من الترقب والتوجس والخوف.. الآن يأتي الجلادون كالكلاب المسعورة ومعهم آلات العذاب وكلهم حقد وسعار ولا يرحمون صغيراً ولا يوقرون كبيراً ولا يشفقون على مريض (إن المجرمين في ضلال وسعر) وليس لنا إلا الدعاء ليس لنا إلا أن نلجأ إلى الله ونلوذ به وندعوه.

وكنت أتساءل بألم وحيرة فأقول لنفسي: ما هؤلاء الناس؟ أي قسوة ركبت فيهم؟ أي بلادة وسماجة خالطت نفوسهم؟ أفي صدورهم قلوب ذات إحساس ومشاعر؟ أم أحجار صلدة قاسية؟..؟ أماتت في صدورهم القلوب؟

بل صدق الله وصدق رسوله: لهم قلوب لا يشعرون بها.. أهكذا يعمي الهوى والطمع والجشع أهكذا يعمي الدينار والدرهم..؟ أهكذا يغترّ الإنسان بالزعامة الفارغة..

بحطام الدنيا؟ أهكذا تفعل خزعبلات الكاذبين في نفوسهم الجاهلية؟
وهذا الحقد الرهيب.. على المعتقلين الأبرياء ما الذي أثاره فيهم..؟ أجبت نفسي بحسرة: ما أثاره إلا عقيدة بل عقائد باطلة فاسدة.. باطنية مكتومة.. أخفاها أهلها.. يخافون عليها من نور الشمس.. وحرارة الحق.. ولا مهرب..

إدخال الفطور
وفجأة صرخ صوت هستيري من النافذة الصغيرة في الباب: (ولك عرصات) وانتفض المهجع قائماً وصرخ رئيس المهجع (باللازمة): انتبه استاعد المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب. ووقف كل ذي قدرة على ذلك ورفعنا الوجوه إلى السقف وأغمضنا أعيننا وسرت كهرباء القلق في الأعصاب ولج القلب بالدعاء والاستغاثة.
وفتح الباب ودخل الجلادون وهم بفاحش السباب يصرخون ويشتمون وهجموا علينا يضربوننا ويرفسوننا بأرجلهم، وبدأ صوت الكرباج يلعلع في جو المهجع، وأخذت الأصوات ترتفع، واستغاث أحد المعذبين بالله قائلاً: دخيل الله، فثار الحقد الكافر في نفس الجلاد فقال له: (الله.. خذ.. هاي لألله) ثم استنكر عليه استغاثته بالله، قائلاً: إنت بتعرف الله يا كلب؟
واستغربت في نفسي لهذه المراوغة والمخاتلة السمجة وذكرت المثل: رمتني بدائها وانسلت، يرموننا بالكفر وهم الكافرون، يصموننا بالإجرام وهم والله المجرمون، وإن كنا لا نستطيع دفاعاً عن أنفسنا فإن الله يدافع عنا: (إن الله يدافع عن الذين آمنوا) وعزموا أن يخرجوا أخيراً بعد أن أذاقونا صنوف العذاب ثم طلبوا رئيس المهجع فأخذوه وبادره أحدهم بالكرباج يضربه وآخر يرفسه حتى وقع بين أيديهم مغمى عليه، وخرجوا أخيراً وصرخ رئيس المهجع بصوت ضعيف: استارح استاعد المهجع انتهى من التفتيش حضرة الرقيب. ولقد أدخل خلال هذه الحفلة من العذاب طعام الإفطار وهو عبارة عن صحن زيتون وكمية قليلة من الشاي.

ترقب

عزفت النفوس عن الطعام فلم يأكل أحد إلا قليلاً، وعزفت عن الكلام وانشغل كل واحد بدعاء أو ذكر أو تسبيح يتسلى عن آلامه ويتقوى على محنته والرعب ينشر ظلاله القاتمة في ذلك الجو المكفهر جو الجدران الكالحة والأبواب الحديدية الموصدة والنوافذ المشبكة بألف قضيب حديدي جو الصراخ الهستيري والأوامر الصارمة والعذاب والعقاب لغير ما جريرة أو ذنب، ما عرفنا ذلك قبلاً ولا سمعنا أن يعذب الإنسان لأجل العذاب.. وأن يكون هناك نظام.. للسجن يتفنن في تعذيب نزلائه. كنا في ترقب فما تكاد تسمع نأمة حتى تسري الكهرباء في جو المكان. البارحة وفي مثل هذا الوقت كنا نعيش كابوس العذاب البشع فهل انتهت محنتنا؟ إني لأشعر أن كل دقيقة بل كل ثانية تمر إنما هي محنة وعذاب لكل إنسان هنا. كنا نتساءل ما يخبئ لنا اليوم عباقرة سجن تدمر؟ الذين حكموا باستحقاقنا للعذاب والموت لأننا كما يقول كبير الزبانية: (انتو جيتوا لهون باجريكم) كيف أستنبط ذلك وعلى أي أساس أطلق حكمه وبأي منطق يتكلم؟ الله وحده يعلم.

كان بعض المتفائلين من إخوتنا قد اهتدوا إلى فكرة مؤادها: إن التعذيب يتم خلال اليوم الأول وربما بضعة أيام أخرى بعده، وبعد ذلك تعود الأمور طبيعية عادية.. ولكن صورة البغي والحقد والجهل الذي عرفناه ولمسناه في هؤلاء القوم كان يجعلنا نتوقع أسوأ الاحتمالات خاصة وأنه لا يردعهم عن ظلمهم خلق ولا دين ولا ضمير، بل هناك حقد يؤجج الشر في نفوسهم وأولياؤهم هم يمدونهم في الغي ولا يقصرون.

إرهاب ورعب

في العاشرة سمعت أصوات بعيدة أولها أصحاب الترقب وتوقعوا من ورائها أشياء وأشياء ولكني تركت كل هذه التصورات المخيفة جانباً وقلت: نسلم أمرنا لمن بيده الأمر.

ومزق جو السكون والترقب صوت غريب رهيب آثار الرعب في النفوس، كان صوت الكرباج يضرب جدار المهجع بقوة يتردد صداها الرهيب في جنبات المكان. لا ريب أنه الإرهاب الحاقد. تهيأت النفوس للموت وبلغت

القلوب الحناجر كاظمين ما للمعتقلين من شفيع يطاع فقدوا الحق في الراحة والأمان، وأصبح الاطمئنان أبعد منالاً من العنقاء وفقدوا الحق في الحياة.
ودوى باب المهجع الحديدي بضربة هائلة من الكرباج الثقيل، وازدادت ضربات القلوب وأصبحت تضج في الصدور وكأنها مطارق ثقيلة (اللهم أنت القوي المعين نجنا من القوم الظالمين، اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم).
من النافذة الصغيرة في الباب صرخ صوت هستيري بحقد مجنون: ولك حقراء.. ولك يا.. ولك يا.. وصك آذاننا بأبشع ما في معجمهم من شنيع الألفاظ وفاجر القول مع التهديد والوعيد.
تحرك المفتاح في القفل وصرخ رئيس المهجع: انتبه استاعد المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب. ووقفنا حيارى مستسلمين لقضاء الله مغمضي العيون رافعي الوجوه إلى السقف وأمرونا بالخروج قائلين:
(اثنين اثنين لبرا ولك كلاب.. بسرعة يا..) واندفعنا مسرعين مطأطيء الرؤوس والأوامر التي تتوالى مع لسع الكرباج: (أسرع يا كلب.. غمض عينيك يا حقير يا..) وأمرونا أن نسير رملاً على أطراف الباحة ثم دخل نفر من الجلادين إلى الباقين في المهجع وهم من المرضى والمصابين العاجزين عن السير وأخذوا يضربونهم ويعذبونهم.
وأمرنا الجلاد بصوته الكريه أن ننبطح على الأرض ونرفع أرجلنا قائلاً: (منبطحاً.. ارفع رجليك) وهجم علينا الجلادون بالكرابيج يضربون أرجلنا وظهورنا ورؤوسنا بضربات شديدة وهم يصرخون مزمجرين ويسبوننا بأقذع السباب، ويكفرون بالله ويشتمون النبي صلى الله عليه وسلم.
وصبرنا على الضرب ولكن الضرب كان شديداً والألم رهيباً، فانطلق صراخ المعذبين يملأ المكان بأصوات متألمة شاكية تنفطر لها القلوب القاسية، أصوات منكرة غريبة لا تعرف فيها صوت أحد ولا تميزه كأنها آهات ثكلى أو زفرات محترقين أو صرخات متردين في هاوية.
وينبري الجلاد يصرخ بالصوت الزاجر الرهيب يأمر بالسكوت: (سكوت. سكوت يا حقير يا حقراء سكوت..)

فتخمد الأصوات كلها إلا أصوات الكرابيج، ولكن الآلام لا تحتمل والموت مرّ فتعود الأصوات المتألمة إلى الارتفاع والناس بين واقع به العذاب فهو يتقلب تحت الكرباج ظهراً لبطن وبطناً لظهر وبين منتظر أن يأتيه الجلادون بالكرابيج فهو في رعب وكرب وعذاب قبل العذاب.

ويمر الوقت متباطئاً لا يريد أن ينقضي، والشمس ترسل أشعتها فتغمر المكان: ويدور في نفسي حوار: كم يتكتمون علينا ويضيقون؟ ولكن أمرهم مكشوف وسرهم مفضوح، والأرض تشهد والجدران والشمس تشهد على ما يجري تحتها من ظلم ومن ظلام، وجاء الأمر من الرقيب الجلاد: واقفاً، رملاً ثم جاء الأمر من جديد: منبطحاً ارفع رجليك يا.. وعاد الفلم وعادت الأصوات ترتفع إلى رب السماء شاكية إليه تخلي الناس عن بشريتهم وارتدادهم إلى أدنى دركات الحيوانية والوحشية، فها هم يلغون في الدم كأي وحش كاسر (إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل) ولكل شيء نهاية. انتهت حفلة العذاب وجاء الأمر من الرقيب: واقفاً رملاً إلى المهجع، وعلى الباب وقف الجلادون يودعون الداخلين بضربات الكرباج الثقيل يصبون فيها كل حقدهم ووحشيتهم.

ودخلنا نحمل بعضاً ممن انهاروا أو أغمي عليهم أو أصيبوا، وقد ردد رئيس المهجع اللازمة وأغلق الباب وقذفونا بأشنع ما سمعناه من شتائم وسباب وفحش ووعيد بالقتل والشنق وغيره. (وانطلقت حسرات حرة وخرّ البعض ساجدين، وتبعهم الآخرون يحمدون الله الذي لا يحمد على مكروه سواه).

كانت حصيلة حفلة العذاب عدداً كبيراً من المشوهين والجرحى أصيب أبو أحمد في صدره فحُمل وكان رجلاً ضخماً ممتلئاً في العقد الرابع من عمره، وقع مغشياً عليه بين أيديهم، فلم يرحموه، ولماُ حمل إلى الداخل أمرونا أن نسعفه فبادر بعض القريبين ليسعفوه، فانقضّ عليهم الجلادون يضربونهم.

وأصيب أبو سيد وقد تمزقت رجلاه ودهاه من العذاب أمر عظيم، فكان في حالة دنف وإرهاق لما أصاب رأسه وجسمه من ضرب وركل.

وأصيب أبو (ن..) فقد كسرت رجله قرب الكعب خلال وقوعه تحت أيديهم، ولكنه رغم الكسر قام يحجل على

رجل واحدة حتى دخل المهجع، لا يكاد يشعر من الخوف بألم رغم أنه يعاني من ألم شديد.
وأصيب الأخ عزام الذي أقعده عن الخروج مرض القلب الذي ثار عليه يوم الاستقبال، فلم ينج اليوم منهم رغم عدم استطاعته الخروج، حيث دخلوا عليه وعذبوه وضربوه حتى غدا بين الموت والحياة.
وأصيب عصام.. ضربوه على ظهره حتى سال منه الدم وانتكأ ما كان قد التأم من جروحه.
ولم يكن هناك أحد إلا وأصيب إصابات مختلفة.
ترى: ما هذه الحفلة التعذيبية. إنهم يقولون أنها تنفس!!
ربنا إننا مسّنا الضر وأنت أرحم الراحمين..
استلقى كل في مكانه مرهقاً في حالة شديدة من الألم والسوء، وكنت أدعو ربي قائلاً: (ربنا إننا مسنا الضر وأنت أرحم الراحمين).
وأخذ كل واحد يتفقد من حوله ويتعرف على حال إخوانه، كان الكلام قليلاً جداً إلا عبارات ضرورية للاطمئنان عن الحال، ولكن أية حال صعبة أو احتياج إلى معونة أي أخ لا يتوانى عن مد العون لإخوانه، يتبادر الجميع إلى ذلك ويحرصون عليه.
فتحنا أعيننا وأخذ كل منا يلملم نفسه ويتلمس مواضع الألم ويتعرف على الإصابات، ومع ذلك كان كل منا يردد الكلمة الفاصلة الحمد لله.. الحمد لله.. الحمد لله رب العالمين.. يا رب إنا لك حامدون وبنعمتك وعنايتك ولطفك معترفون.. يا رب فاجعلنا من الصابرين المحتسبين.
وبادر بعض الإخوة إلى السجود وأخذت أذكر بعض من حولي قريباً كان أو بعيداً: أن يسجد لله رب العالمين..
تقف عقارب الساعة فلا تكاد تتحرك، والزمن لا يسير إلا ببطء شديد ونحن نستعجل الدقائق والثواني لتمضي ولينقضي النهار ويأتي الليل، فنحن نعيش كل دقيقة من النهار في ترقب وتوجس ورعب، وينهك أعصابنا ويضنينا أكثر من آلام أجسادنا الممزقة، ويكاد يقضي على ما نتمسك به من صبر وثبات، وكان ذكر الله البلسم الشافي والدواء الناجع لقلوبنا، ومولاه ما استطعنا الحفاظ على قوانا النفسية.

فأصوات المعذبين وهم يصطرخون تقرع الأسماع وتقري في الأعصاب طول الوقت..
كان أجمل صوت في الوجود نسمعه بل أحلى دقائق تمر بنا ونستروح فيها رائحة الجنة، ونجد فيها متعة عظيمة وهناءة وسعادة إيمانية غامرة إنما كانت دقائق الآذان ذلك الصوت الندي الذي كانت ترتاح له أسماعنا وتحن إليه قلوبنا وهو يردد نداء الله أكبر الله أكبر..
وننصت خاشعين متبتلين نتملى كلمات الآذان ونردددها بخشوع لا نود أن تنتهي، إنه الصوت الوحيد الذي يخترق حواجز السجن ويتجاوز الجدران والحراس ليصل إلينا رقيقاً رخيماً كأنه الندى، فتشربه قلوبنا العطشى ونستشف منه أحوالاً ونتخيل صوراً ومواقف غالية في قلوبنا..

دخلات تعذيب
جاء الجلادون بعد الثانية ظهراً بقليل، فطافوا علينا بالعذاب وسبونا وحقرونا كالعادة، لا يرحمون مريضاً ولا عاجزاً وأدخلوا إلينا ما يدعونه طعام الغداء..
ثم عادوا في المساء وفي ظلام الليل فدخلوا المهجع وضربونا وعذبونا وهم يضحكون ويهزؤون ويلعبون وبعذابنا يستمتعون، ويمضي النهار ونحن على حال أليمة لا تهدأ رغم أنا ساكنون، ولا نستريح كان الهم كبيراً والقهر قد فاق التصور..
جاء الليل وثار التساؤل والخوف من جديد: ما هذه الأصوات المرعبة؟ التي تقلق ليلنا وتنغص علينا ساعات نومنا، ولكن كشف بعد ذلك سرها فهان أمرها، فقد عرف أنها ليست إلا وسيلة اتخذها الحرس فيما بينهم ليحافظوا على اليقظة والانتباه والحذر (وهم يحرسون مكاناً هاماً خطيراً) فكانت هذه الأصوات الهستيرية..

الظلم
أي ظلم هذا الذي نعانيه في سجن تدمر..
إنه ظلمات.. يوم القيامة.. مقيت وكريه، مر ممجوج لا ترضاه النفوس السليمة ولا القلوب الحيّة والحقد عمى وضلال وتيه.

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً فالظلم مرجعه إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

وإنا لا نجد لنا ملجأ إلا إلى الله، فنحن نضرع إليه وندعوه بالدعوة التي ذكرها الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال: اتقوا دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب، يرفعها الله فوق الغمام.. ويقول: وعزتي وجلالي لأنصرنّك ولو بعد حين..

اليوم الثالث: (الأحلام)

اليوم هو اليوم الثالث في سجن تدمر العسكري.. الأحلام هنا من نوع آخر.. صافية وضيئة معجبة، إنها نافذة لنا إلى الدنيا –التي فقدناها- إلى الحياة التي كنا نعيشها.. وأبدلنا الظالمون بها هذا الجحيم البشري، ففي هذه الأحلام نستشعر الراحة التي حرمنا منها، ونلمس السعادة التي فقدناها، فنجد في الأحلام سلوى وبشرى. في هذه الليلة رأيت والدي وبعض أهلي وأخذت يد والدي فقبلتها، وكلي احترام وحب له، وهو يدعو لي.. كان ذلك في وضوح عجيب..

ويحدث الإخوة في المهجع كل بما رآه من طيب الأحلام والرؤى. قال أحدهم: "جئت الآن من بيتنا من عند أمي والأولاد، كنت بينهم سعيداً هانئاً. قبلت أمي ورأسها وبكيت سروراً".

هنأت هذا الأخ على رؤياه: قلت عسى أن يجعلها ربك حقاً، وما ذلك عليه بعزيز، وأمسكت دمعة ترقرقت في عيني، فإني مشتاق إلى رؤية أمي الحنون المصابرة، مشتاق أن أقبل يديها وأبللهما بالدموع.

قال الأخ أبو عبدو ساخراً: ما هي إلا أحلام، لم يبق لنا في هذه الدنيا شيء (مستحب مقبول) سوى الأحلام، فعيشوا في الأحلام فموتكم والله قريب، على أيدي هؤلاء المجرمين في هذا المكان اللعين.

فقلت له: يا أبا عبدو لئن كانت أحلاماً فإنما هي –وبحمد الله أحلام جميلة، ورؤى صادقة صافية مبشرة، وإنها لنعمة عظيمة من الله- ولن نموت حتى ينتهي أجلنا وإنا نؤمن بقدر الله ونثق أن لنا آجالاً لن نجاوزها ولكن ثقتنا الأكيدة بالله: إن لنا عودة إلى الحياة والجهاد، وأن لنا مع الظالمين حساباً..

الفطور – وبالحذاء
وفجأة جاء الجلادون يفتحون أبواب المهجع ووصلوا إلى الباب فأسرع رئيس المهجع يصرخ باللازمة: انتبه استاعد المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب.
ووقفنا باستعداد جامدين رافعي الوجوه إلى الأعلى، مغمضي العيون كالعادة.
واندفع الجلادون إلى الداخل وبدؤوا يضربوننا والويل لمن فتح عيناً أو تحرك حركة..
وكان صوت صفع غريب يدوي في المهجع مع آهات مكتومة، ووصلني الدور فأخذت صفعة.. بل خبطة هائلة على وجهي وهكذا سار الصفع والضرب للجميع بالترتيب مع السباب والشتائم حتى انتهوا وخرجوا وهم يهددون.. فتحنا أعيننا ننظر ما حلّ بنا.. كان على وجه كل واحد منا خطوط ودوائر حمراء وزرقاء.. بم كانوا يضربوننا؟ وجاء الجواب: بالحذاء رأى بعضهم أحد الجلادين (وهو بثياب مدنية) يحمل بيده حذاءً سميكاً ويضرب به الوجوه بأقصى ما يستطيع من قوة، وقد حفظ من كلامه خلال ذلك قوله (وهذا أشرف من لحاكم يا..) وكان لنا جميعاً لحى طويلة لأننا لم نحلق منذ شهور، فالحلاقة ممنوعة في معتقلات المخابرات وكان (الحذاء) قد ترك بصماته واضحة على وجوهنا فما هي حفلة العذاب الصباحية هذه؟
لقد تبين لنا أنه الفطور.. نعم الفطور، فبحجة إدخال كمية يسيرة جداً من الطعام، كانوا يدخلون علينا ويعذبوننا كل يوم في مثل هذا الوقت من الصباح الباكر، فياله من فطور!!

التنفس
الأصوات في سجن تدمر العسكري غريبة، صراخ قاس يتنادى به الجلادون من عناصر جهاز السجن مع السباب الفاحش والشتيمة والتجديف، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لهم –وكأنهم كما يقول المثل العامي: (محط كلام) وصوت الكرابيج المرعب وصراخ الألم وعويل المعذبين، كل ذلك كان يشكل الجو العام للسجن.. كان ذلك غريباً

غير مفهوم لدينا ماذا يجري في هذا المكان؟ وعلى أي نظام تسير الأمور؟ وماذا ينبغي أن يفعل؟ كان ذلك كله معميات.. مجهولات مخيفة.. ليس لها أي جواب..

وفي التاسعة والنصف تقريباً نشطت حركة في الباحة تنبه لها ذو الحذر والترقب، وقام رئيس المهجع بسرعة يصرخ "باللازمة" انتبه.. استاعد.. المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب..

وفتح الباب وصرخ فينا صوت منكر يأمرنا بالخروج قائلاً: لبرا ولك.. ولك يا.. تنفس.. بسرعة يا.. رملاً يا.. لم نكن ندري ما التنفس..

خرجنا مسرعين ونشطوا لعذابنا كالبارحة (منبطحاً.. ارفع رجليك) وهجم علينا الجلادون يضربوننا بالكرابيج على أرجلنا ومختلف أنحاء أجسامنا..

كان هناك صوت رفيع عرفناه.. إنه صوت المساعد أحمد.. صاحب الخطاب الشهير.. وكان له غرام بأن يدع التعذيب يشتد أوره، وهو يحرض الجلادين سراً ويشير إليهم خفية بتشديد الضرب وقوة الجلد.. فاذا ارتفعت حمى العذاب واشتدّ أوارها وصلينا بها صرخ بصوت مدو: (يكفي شرطة) فيقفون يسيراً ثم يشير إليهم أن يبدؤوا من جديد ليقوم دائماً بدور المنقذ.. ومع ذلك كان خوفنا أقل واحتمالنا أكثر.. إلا المرضى والعاجزين فإن حالهم قد ساءت كثيراً..

وهكذا تبين لنا أنه حفل يومي فها هو يتكرر معنا للمرة الثانية، وهم يسمونه (التنفس) لم أسمع في حياتي عن مثل هذا التنفس..؟ والتعذيب هنا لا ينقطع عنا، وأي تعذيب؟!! لا نكاد نودع الجلادين غير مأسوف عليهم حتى نستقبلهم من جديد، فلا أهلاً ولا سهلاً بل: أخزاكم الله..

في الحادية عشرة والربع دخلوا علينا وضربونا وعذبونا وأدخلت خلال ذلك كمية من الخبز ثم مضوا، وفي الثانية جاؤوا فدخلوا علينا يضربوننا ويعذبوننا وطلبوا اثنين لإدخال الطعام، فضربوهما وعذبوهما أيضاً..

وأدخل بعض طعام قليل، كنا نتمنى أن لا يأتوا إلينا وننجو من حفلات العذاب هذه ونستغني عن طعامهم وخبزهم (والله الغني) لا نريد كل ذلك ولينصرفوا عنا، وتراهم نشطين دائماً لتعذيبنا مندفعين كأنهم في حفل جنوني.

الحلاقة في سجن تدمر
في الساعة الثالثة تقريباً، وفي وقت ظننا فيه الأمان ولما يمض على العذاب حين إدخال طعام الغداء إلا قليل، جاءنا الجلادون فجأة..
وصرخ رئيس المهجع باللازمة: انتبه استاعد المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب.. لم نستطع أن نصدق أنهم جاءوا هكذا بسرعة ولكن الباب فتح.. وقذف الرقيب بأوامره مع السباب الشنيع.. (برا ولك حقراء.. برا بسرعة يا.. كللكم.. ولا واحد يبقى في المهجع).. ودون مخالفات كنا نعاني من العذاب والضرب وغيره، فكيف مع المخالفة؟!! فنفذنا الأمر، وأسرعنا خارجين، نحمل المرضى والمصابين.
وأخذ الجلادون يسلقوننا بالكرباج.. من لدن الباب ثم قادونا في رتل أحادي يمسك كل منا بظهر الذي أمامه ويسير مطأطئ الرأس محني الظهر.. والضرب شديد والجلادون حولنا كالكلاب المسعورة يصرخون (هنت متطلع يا حقير.. هنت مترفع راسك يا.. ولك لك) وأدخلونا من أبواب وأخرجونا من أخرى، ونحن مغمضو الأعين لا نعرف أين نذهب، وكلما وصلنا باباً اشتد الضرب علينا عنده ومررنا بعدة أبواب، ولم نكن ندري نهاية المطاف ولا أين المستقر..
سلمنا الأمر إلى الله سبحانه، والتجأنا إليه وتوكلنا عليه..
حتى جاؤوا بنا مكاناً ضيقاً.. متطاولاً فيه من جهة اليمين أعمدة وشرفة واسعة قدرنا ذلك مما لمحناه من ظل، وأجلسونا دون الشرفة في مكان كأنه ساقية إسمنتية، وأخذ نفر من الجلادين يطوفون علينا ويضربوننا بالكرابيج على رؤوسنا وظهورنا بقسوة وحقد.. وكان نفر آخر من الجلادين من ناحية أخرى يقومون بعمل آخر، فكنا نسمع أصوات التعذيب والضرب لنفر منهم بصورة أقسى وأرهب.. والجلادون يصرخون بوحشية..
كانوا يأخذون الواحد فيضربونه ويعذبونه ويحقرونه، وهو صامت أو متأوه متحسر، أو صارخ مستغيث 0إذا اشتد العذاب- وبعد أن ينهكوه يسلمونه لآخرين.. كنا نسمع أوامر تملى على هؤلاء مثل: قعود.. قرفصة..

قرب.. لا تتحرك.. أغمض عينيك يا.. وقف.. وأوامر: تعال لهون.. وكلمات ساخرة هازئة: سلقاه.. عطرو لها الحقير.. بودرو لها الكلب.. مع ألفاظ بذيئة ويعقبها صراخ التألم والاستغاثة من المعتقل وتوسل وعويل.. وأخذ الشيخ أبو سيد، فكان يضرب ويعذب. عرفنا ذلك من صوته المميز، وكان له لحية طويلة.. وسأله الجلادون عن عمله: فأجاب بشيء لم أسمعه عرفت بعد ذلك أنه قال لهم إن عمله إمام مسجد، فأحنقهم ذلك وأحفظهم، فأخذوا يضربونه ويسبونه ويشتمونه، ثم وصموه بأنه يعمل عمل قوم لوط وأمروه أن يقول ذلك عن نفسه –أي يقوم بعمل قوم لوط في مكان كذا لمكان الجامع الذي سماه- وما زالوا يعذبونه ويضربونه حتى قال ما أرادوا فسبوا المساجد ووصموا روادها بالفاحشة مما يعف اللسان عن ذكره.

وسمعت صرخات وآهة من الشيخ أبي سيد وكلمات هزءوا وسخرية من الجلادين مثل (شوى – ولعت..) وانتشرت رائحة الشعر المحترق، علمتا بعدها أن الجلادين قد أحرقوا لحية الشيخ بقداحات الغاز، وأخذ أيضاً شاب صغير فعذب حتى تعالى صراخه واستغاثاته.. وجاء دوري فأخذني اثنان من الجلادين فضرباني على ظهري ورأسي بالكرباج وعلى يدي ورجلي.. ثم دفعا بي إلى مقعد محطم فأجلسوني عليه ويداي خلف ظهري وعيناي مغمضتان، وأخذ شخص يحلق لي شعر رأسي بعنف وبسرعة ثم دفعني وأمرني بالقيام، فما كدت أتحرك حتى تلقاني جلاد، فضربني ووجهني دفعاً إلى حائط قريب حيث وقفت وعيناي مغمضتان، ويداي خلف ظهري، وما لبث أن تناولني شخص آخر، وضع على وجهي معجون حلاقة، وأخذ يدلكه بالفرشاة وهو يسب ويجدف ثم دفعني دفعة شديدة إلى الحائط وجذبني آخر وهو يصرخ في وأخذ يحلق لي لحيتي بسرعة غريبة كنت أشعر معها أن شيئاً غير قليل من جلد وجهي قد كشط أو اقتطع، عدا الجروح في هذه الجهة أو تلك، وفرغ مني سريعاً، فأخذني نفر من الجلادين وعملوا لي حفلة (نعيماً) وهي ضرب شديد بالكرابيج على اليدين وغير اليدين إلى آخره..

كلنا نعرف الحلاقة عملية محببة كلها لطف وأدب، فإذا بالحلاقة في تدمر عملية غامضة مرعب فيها العذاب

والضرب والإيذاء، وفيها التنكيل والجرح والتشويه والإذلال.
لما كنا في (كفرسوسة) في معتقل المخابرات العامة، طلبنا أكثر من مرة أن يسمحوا لنا بالحلاقة سواء بأدوات نحلق بها أو حلاق يقص شعورنا، فماطلوا وسوفوا ومنعوا ذلك عنا..
وكان نصيبنا وقدرنا أن تكون لنا أعظم حلاقة عرفناها في حياتنا، حيث نالنا من العذاب والألم ما الله وحده به عليم، وقصّ شعرنا جميعه وحلق لحانا سوى نتف هنا وهناك، وجروح غائرات وهكذا عدنا إلى المهجع حالقين مشوهين.
ولم نكن قد رأينا بعضنا ونحن بغير تلك اللحى الشقراء والسوداء، فإذا بنا نصبح جرداً مرداً لم يكد أحدنا ليعرف أخاه، وفي غمرة هذا الاستغراب نسينا ألمنا ومتاعبنا وعذابنا وحمدنا الله على النجاة والسلامة من تحت أيدي الجلادين والحلاقين، وأخذنا نتذكر ما جرى لكل منا من آلام وأهوال وعذاب وجروح.
لكن الأمر العجيب هو ذلك اللطف الإلهي فقد كان أكثر من أحرق شعره وجهه وهو أبو سيد يبدو وكأنه لم يصب بشيء.

الانتقال إلى مهجع جديد

بعد عودتنا إلى المهجع من الحلاقة التي استمرت ثلاث ساعات تقريباً، لم يمض إلا ساعة من الزمن حتى عاد إلينا الجلادون.. ونحن في حيرة وألم لا ندري متى يذهبون ولا حتى يعودون ولا ماذا يريدون؟ والأنكى من ذلك والأشد سوءاً هو أنهم دائماً ساخطون غاضبون.
فتح الجلاد باب المهجع وأمرونا أن نخرج بسرعة مع أغراضنا، فحملنا أغراضنا وحملنا المرضى والمصابين، وخرجنا بسرعة وقادونا ونحن مغمضو العيون وهم يصرخون فينا ويشددون علينا ويضربوننا بشدة بتهمة تفتيح أعيننا.
مررنا بعدة باحات، وولجنا عدة أبواب ثم أدخلونا مهجعاً جديداً يشبه سابقه إلا أنه معتم واطئ السقف قليل النوافذ ضيقها.. وغاب الجلادون قليلاً ثم عادوا وأدخلوا علينا عدداً من المعتقلين الجدد وقد بلغ عددنا في

المهجع حينذاك (60) معتقلاً ولم يكن هؤلاء المعتقلون الذين انضموا إلينا بأحسن حالاً منا.

اليوم الرابع

أية سكينة تتنزل في القلوب، وأية حياة وروح وراحة، من خلال النوم والأحلام يفوز بها المعتقل المعذب في سجن تدمر العسكري. إنها النعمة العوض، خوف ورعب وعذاب واستغاثة ولجوء، والنتيجة سكينة وصفاء وروحانية وإيمان، شاهدت في الرؤيا والدتي الحنون فقبلت يديها، وكانت راضية تدعو لي.

كنت سعيداً بهذه الرؤيا التي تسعد القلب وتثير فيه الحنين والشجن، وأملت من هذه الرؤيا خيراً.. فإني أعرف بركة دعاء أمي ورضاها.. كم من مرة نجوت من ورطات ومآزق ببركة دعائها. توهمت كثيراً أن الحلم حقيقة فكنت مغضباً متحسراً أريد أن أعود إلى الحلم الجميل وأبتعد عن الواقع المرير، فأية رحمة إلهية هذه؟! إنها تثبيت للنفس وتقوية للروح.. بل هي كرامة اختص الله بها من عاشوا المحنة من أمثالنا..

في الساعة السادسة والنصف صباحاً سمعنا صوت حركة الجلادين وصراخهم، فتسمّر كل منا في مكانه، وضم عليه ثيابه، ووقف رئيس المهجع وحضّر نفسه للقاء غير المبارك وبحث كل واحد عن أي شيء يلوذ به من الجلادين والعذاب، فلم يجد له ملاذاً إلا الله، فانطلق يدعوه ويلهج بذكره: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم. وأخذ آخرون يقرؤون آية الكرسي وقل هو الله أحد وياسين.. يتعوذون بها من شر الجلادين، واقتربت خطا الجلادين من المهجع وصرخ رئيس المهجع باللازمة (انتبه استاعد المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب) وفتح الباب..

كنا نقف صفاً متصلاً على جوانب جدران المهجع ووجوهنا مرفوعة إلى الأعلى والأعين مغمضة، وكانت دماؤنا تغلي ترقباً وتوجساً وخوفاً من هذه الوحوش الجبلية التي تحمل لنا أطواداً من الأحقاد التاريخية.

خرج اثنان منا بناء على أمر الجلادين، فأدخلا طعام الإفطار بعد أن أخذا نصيبهما من الضرب خلال ذلك، ثم دخل الجلادون باندفاع وأخذوا يضربوننا بكرابيجهم

بقسوة وعنف وسباب فاحش طاف الجلادون علينا بالضرب الشديد ونحن مغمضو العيون لا يدري أحدنا متى يأتيه الدور..
وأتاني الدور، وهبدني الجلاد بالكرباج على صدري فانطويت على نفسي وملت إلى الجدار، فضربني مرة ثانية وثالثة ورفسني بقسوة على بطني، ولما كدت أقع على الأرض صرخ بي وأمرني بالوقوف.
وخرجوا أخيراً وهم يسبون ويشتمون ويهددون ويمرحون، وأغلق الباب وصرخ رئيس المهجع باللازمة المفروضة: استارح استاعد المهجع انتهى من التفتيش حضرة الرقيب..
خرّ البعض ساجدين لله وحرك البعض الآخر أيديهم محتجين وأشاروا إلى أن الجلادين في الساحة قريبون فماذا بأنفسكم وبنا تصنعون..؟
في التاسعة والنصف استنفرنا في المهجع، فقد قرب موعد التنفس اليومي، كنت لا أبالي كثيراً بمثل هذه الاستعدادات ولكن كثيراً من الأخوة المعتقلين في المهجع كانوا مرهفي السمع ينصتون ويتأولون ما يسمعون.. وفي مهجعنا الجديد تبدو الأصوات أقرب..
قال بعضهم: هناك فتح مهاجع هناك تعذيب.. أنصت مع المنصتين فسمعت فعلاً صراخاً بعيداً إنه في الساحة الأخرى.. كما سمع كثيرون بل الكل سمعوا ما سمعنا..
فتلفت بعضنا إلى بعض وتفاهمت النظرات بصمت.. يعبر عن ألم وقهر.. كان أمراً غير معقول.. لم يستطع أي منا أن يجد له مبرراً.. إلا صورة من الظلم والحقد والانحراف لم نعرف لها مثيلاً..
تحدث بعض المتنصتين هامساً.. فقال: (بلشوا) أي ابتدأوا بالتعذيب. أنكر البعض على المتخوفين هذا مستهينين، وقالوا هذا شيء بعيد، فأجابوهم: إنكم ترونه بعيداً ونراه قريباً. دخلت الأصوات باحتنا، وسمعت بعض التحركات الغريبة، فعم الخوف والقلق والتوجس نفوسنا.. لقد جاء الجلادون.. الفاجرون..
وسمع صوت دبيب الأرجل العارية الحافية راكضة على أرض الباحة، ولعلع صوت الكرباج اللعين.. في ضرب المعذبين.. يتألمون ويصرخون ويستغيثون. ما أفظع وأشنع ما يفعل هؤلاء الحاقدون الفاجرون..

وما أصعب وما أقسى أن تكون شاهداً على تلك الجريمة، وها نحن نعيشها بدقائقها وننتظر دورنا في السحق والتقتيل لا تملك دفعاً ولا ممانعة.
ونشطت عملية التعذيب واشتدت.. وملأ جو المكان صراخ جماعي أليم يفتت الأكباد والجلادون ماضون في صراخهم وضربهم وهزئهم..
ومضى الوقت بطيئاً زاخراً بالألم، وكأن اللقطة أعجبت المشاهدين فهي تعاد ببطء شديد وتعاد وتعاد وأدخل نزلاء المهجع رقم (8) وأخرج الجلادون نزلاء المهجع رقم (9) المجاور لنا فعذبوهم أيضاً ثم أدخلوهم..
كان كل واحد من المعتقلين في المهجع في تحفز وخوف يتلفظ بأحر ما في قلبه من دعاء واستغاثة..
صرخ رئيس المهجع: انتبه استاعد المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب.
فتح الباب.. ووقفنا كالعادة.. باستعداد جامدين مغمضي العيون.. ننتظر قضاء الله..
وصرخوا فينا بقسوة: (لبرا ولك حقرا.. لبرا ولك كلاب.. تنفس..) وخرجنا مسرعين واحداً واحداً..
اللهم لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك.. لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.. عليه توكلنا وعليه فليتوكل المتوكلون..
استرقت النظر وأنا أخرج من الباب.. كان رئيس المهجع في أول الرتل الراكض رملاً.. كان مطأطئ الرأس محني الظهر ووراءه الجميع، كل واحد يدفن رأسه في ظهر الذي أمامه، صورة من الذل والمهانة لم أرها ولم أسمع بها.. لا بين الأسرى لدى إسرائيل ولا لدى هولاكو ولا في حال العبيد لدى نيرون والرومان..
ولعلع صوت الكرباج.. مع أول خارج من باب المهجع..
ولما تكامل خروجنا جاء الأمر: منبطحاً ارفع رجليك..
وبدأ حفل العذاب.. بين هدوء واحتدام..
وهجم الجلادون علينا يضربوننا بالكرابيج ويسبوننا ويشتموننا ويدوسوننا بأرجلهم ويرفسوننا في صور مريعة من القسوة والعنف وعدم الرحمة.. وعلا صراخ الألم، وأصوات المعذبين، وهجم علي جلاد كالبغل، فنالني من أذاه ما الله به عليم، وصرخت بصوت مبحوح، حتى كللت ثم أذن الله بالفرج، وجاء الأمر بدخول المهجع.. ووقف اثنان من الجلادين على الباب يضربون الداخلين..

دخلنا المهجع.. وأغلق الباب.. وصرخ رئيس المهجع باللازمة.. استلقى كل منا في ناحية أو تكوم في زاوية، فكتم التنهدات والحسرات والآلام حتى ابتعدوا عن الباب.. وخر البعض ساجدين وتبعهم الباقون، وسجدت لله أحمده وأشكره..
كنت أمثل لحالنا وحالهم: بصورة شعبية معروفة في منطقتنا، تحكي تبجح الجبان حيث يقول متحسراً ومتفاجراً يظهر بطولته في تأديب الخصم:
أخ لو كتفوا لي إيديه ورجليه.. وأعطوني عصا غليظة.. وقالوا لي ميل عليه.. فكنت أعجب من هؤلاء المتبجحين بالرجولة والشجاعة.. وهم من أجبن الناس، ومن أخس الأوباش، أهكذا الرجولة تكون؟..
ولكن التنفس هكذا يكون في نظام سجن التصفية الجسدية للأخوان المسلمين..
ذهب الجلادون بعد ذلك إلى المهجع الذي يلينا، ففتحوا بابه وأخرجوا نزلاءه فأخذوا يعذبونهم ويضربونهم ونحن نستمع في إشفاق وألم وقهر، ولا نملك سوى الدعاء بحرقة إلى الله.. نسأله أن يرحم المعذبين ويشل أيدي الظالمين، في أي زمان وأي مكان، تحدث هذه المظالم وهذه الوحشية؟ وفي ظل أي قانون أو دستور؟ (إنه زمن الضياع).
شغل كل منا بنفسه وتصوراته، وذكره ودعائه كان البعض ينصتون ويحسبون.. وآخرون يقرؤون ويرتلون.. وآخرون يسبحون.. وأبو بدر ماض في قراءته وترتيله لا يلتفت إلى شيء.
شكا البعض أنهم لا يستطيعون قراءة القرآن الكريم.. في ظل هذه الأجواء المكهربة بالرعب والإرهاق، ونحن لا ندري ما يحدث لنا بعد ساعة.. وأصوات المعذبين التي تذيب القلوب القاسية.. وأصوات الجلادين الكريهة.. وصوت الكرباج المرعب لحن جهنمي لا يكاد ينقطع، ونحن نجلس في سكون، حائرين، مترقبين، خائفين، ساهين، والمتنصتون يؤولون الأصوات.. ويحللون.. ويتصورون ما يحدث وما سيحدث؟ يقولون سيأتي الجلادون.. ويصدقون.. وكل لقاء لنا مع الجلادين حار فعواطفهم الملتهبة تجاهنا يترجمها الكرباج بقوة وشراسة بعد اللسان السليط..
التفقد

في الساعة الثانية بعد الظهر جاء نفر كبير من الجلادين وأخذوا يدخلون مهاجع الباحة، وكانوا يبقون في المهجع حوالي ربع ساعة حيث تعلو الأصوات ويعلو صراخ المعذبين والجلادين معاً، ثم جاؤوا إلينا ففتحوا الباب وصرخ رئيس المهجع باللازمة المعروفة ودخلوا كالأبالسة هذا يصرخ من هنا وذا من هناك، فما فهمنا إلا أمراً واحداً من صراخهم وضربهم وهو أن نصطف اثنين اثنين، فانطلقنا بين الضرب والركل نصطف، وكلما كاد الصف ينتظم بعثره الجلادون، فكان وقتاً عصيباً رهيباً حتى جاء الفرج من الله وعدّنا الرقيب على ما يبدو ثم انطلقوا خارجين لم نفهم لهذه العملية معنى سوى أنها نوع من العذاب ولكن أحد المعتقلين وهو عسكري سابق كان قد أمضى مدة من الزمن في سجن تدمر هذا، قال: هذا هو التفقد.. تساءلنا وما هو التفقد؟ قال: كل يوم يأتون في الساعة الثانية حيث يجب أن نكون جميعاً مصطفين اثنين اثنين فيعدنا الرقيب.. تساءل أحد الأخوة قائلاً: ولماذا كل يوم ما دام لا يأتينا جديد، ولا يذهب من عندنا أحد والباب مغلق؟ هل يخافون أن يخترق أحدنا الجدار ويخرج؟

وهكذا كانت أيامنا في سجن تدمر ملأى بالعذاب والقهر والإرهاب، لا يدعنا زبانية السجن نرتاح أو نهدأ، إلا بضع ساعات من الليل، فكنا نطلبها حثيثاً قائلين: أدركنا يا ليل الأمان. كما كان أحد الأخوة المعتقلين بقول إذا حلّ الظلام وأمنا إغارة الجلادين: يا سلام يا ليت الأيام كلها ليل، ولن يبدو هذا غريباً إذا علمنا ما حلّ بهذا الأخ وما أصابه نتيجة العذاب والإرهاب.

أبو مازن في فخ المخابرات

كان أبو مازن نموذج الإنسان الوادع المسالم الأديب، مخلصاً في عمله، محبوباً بين زملائه ورؤسائه، يزينه خلق كريم ولطف ودماثة، كان موفقاً في اختيار الزوجة الصالحة، الودود الولود وله منها الآن أربعة أولاد وكان لا يغيب عن بيته ولا يسهر خارج المنزل إلا نادراً..

قام بخدمة إنسانية من خلال عمله في مشفى الدولة بإدلب، حيث نقل رسالة من معتقل محطم جيء به إلى المستشفى للعلاج إلى أهله، ثم فوجئ بالمخابرات تطلبه فسلّم نفسه إليهم دون أي تردد، وإذا به يقع في فخ التحقيقات والتعذيب حتى وصل أخيراً إلى سجن

تدمر، وهنا أصيب الأخ بمرض عصبي يفقده إمكانية السيطرة على نفسه وخاصة حين حضور الجلادين، وخلال حفلات التعذيب..

الثقة بالله

ومع كل ذلك ورغم حالنا الصعبة هذه وما كنا فيه من عذاب وإرهاب فإن ثقتنا بالله كانت بلا حدود، وكان كثير من المعتقلين يقولون بثقة واطمئنان: لا تراعوا فإن الفرج قريب، فكلما اشتدت المحنة كان الفرج أقرب، فما يأتي الفجر إلا بعد اشتداد الظلام، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إن النصر مع الصبر، وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرا) فمهما اشتد ظلم زبانية سجن تدمر وطغيانهم فإن لكل شيء نهاية، وسوف تأتي نهاية كل ذلك قريباً بإذن الله..

كنس الباحة

في يوم 17/9/1980 تسللت بعد الفجر إلى المنافع (المرافق) من أجل الوضوء نعم تسللت لأن الزبانية يراقبوننا وخاصة عند الفجر، ويحظرون علينا الحركة أو الذهاب إلى المرافق لمنعنا من الوضوء والصلاة..

وكانت هذه أقسى مشكلة، أن نمنع من الصلاة بالإكراه وبالإرهاب وبالعذاب، لماذا هذا الإصرار على محاربة الصلاة والعبادة؟

لقد أجبرتنا حفلات العذاب الرهيبة التي أنزلت بنا جراء الصلاة على الحرص على التخفي بصلاتنا.. قال الأستاذ أبو أسامة: إن هؤلاء قد أعلنوها من قبل حرباً على الله. منذ يومين كان أحد الزبانية يراقبنا سراً دون أن ندري، واستطاع أن يضبط أحد الأخوة وهو يصلي فأخذ يصرخ فينا ويسبنا ويهددنا بالويل والثبور.. ورغم أن الوقت كان عصراً وليس من عادة الزبانية الحضور في مثل هذا الوقت، فقد جاء عدد منهم وهم في أشد الغيظ والحمية وبأيديهم الكرابيج، فصرخوا فينا وسبونا ثم فتحوا باب المهجع وأخرجونا إلى الباحة تحت الضرب الشديد، وأمرونا بكنس الباحة بأيدينا العارية، وكانت هذه حجة ووسيلة لتعذيبنا وضربنا، فبينما كنا نقوم بكنس الباحة المحفورة والملأى بالرمل والأوساخ كان الزبانية يحولون ويصولون وينقضون علينا ويضربوننا أعنف

ضرب، وكان من الزبانية عريف طويل القامة ممتلئ الجسم ذو صوت أجش منكر يدعونه (شعبان) كان أكثرهم وأنشطهم في الضرب والعذاب، وكان يظهر واضحاً من لهجته أنه نصيري.

حفلات التعذيب

في يوم 22/9/1980 ورغم مرور أكثر من عشرين يوماً على وجودنا في سجن تدمر، فإننا لم نكد نعرف شيئاً عن أمور هذا السجن المليء بالغرائب والأهوال..

اليوم ومنذ الصباح الباكر التقطت آذاننا أصوات أشياء تلقى على أرض الباحة، وبعد مدة يسيرة سمعنا من جديد حركة في الباحة وأصوات الجلادين وهم يصرخون ويضربون في همجية كالعادة.. ورغم كل الظنون والافتراضات فقد بقي الأمر مجهولاً.. واستمرت الحركة والضرب والعذاب في الباحة، وكنا نعيش دقائق الضرب والتعذيب والآلام رغم أننا ضمن المهجع لا نرى ما يجري ولا نعلم عنه إلا تلك الأصوات التي نسمعها، فندرك منها قسوة العذاب وشدة وقع الضربات على المعذبين بل ونعرف المعذبين أنفسهم، ويشتد بنا القهر والحرقة لما يحل بهم ونشرع في الدعاء لهم ونبكي وتنهمر دموعنا ألماً لما يصيب هؤلاء الأطهار من ظلم وبغي وعذاب..

وبدا لنا أنهم يأتون بنزلاء بعض المهاجع بالتتابع وقد استمر العذاب طوال هذا اليوم..

الجمعة 23/9/1980

أي ظلم هذا وأي بغي فقد عاد الزبانية اليوم إلى ما كانوا عليه بالأمس من تعذيب المعتقلين، وعدنا نعايش هذا القهر والألم وكنا ننتظر أيضاً أن يحين دورنا في العذاب، وهل نحن إلا بعض من هؤلاء المعتقلين الذين يعذبون؟

استمر العذاب رغم أن اليوم جمعة وهو يوم العطلة الرسمية، ولكن الزبانية على ما يبدو لا عطلة لديهم ولا يراعون حرمة يوم الجمعة المبارك، وبينما كان صوت القراء والمؤذنون ينطلق من مآذن مدينة تدمر إيذاناً بحلول وقت صلاة الجمعة كان الزبانية يهزؤون بالتلاوة

وبالآذان، ويثابرون عل غيهم في ضرب المعتقلين وتعذيبهم، واختلطت أصوات ضرب الكرابيج وصراخ المعذبين وتجديف الزبانية مع أصوات تلاوة آيات القرآن الكريم ومع الآذان المنطلق من مآذن مدينة تدمر، فيا غيرة الله.

30/9/1980

تبين لنا أن حفلات العذاب الرهيبة التي كانت تنشط طوال يومي الخميس والجمعة ويوم السبت في بعض الأحيان، ويستمر فيها تعذيب المعتقلين منذ الصباح وحتى المساء، تبين لنا أنها عمليات حلاقة تتم لنزلاء مهاجع سجن تدمر بالتناوب.

رجال الغد

يوم 1/10/1980 كنا نسمع في المهجع المجاور عند تقديم الصف وترديد اللازمة صوت غلام صغير دون الخامسة عشرة وهو يصرخ بصوته الرفيع باللازمة انتبه استاعد المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب، ثم نسمعه يردد وهم خارجون بصوت باك استارح استاعد المهجع انتهى من التفتيش حضرة الرقيب، فيهفو قلبي إلى ضم هذا الغلام إلى صدري وحمايته من كيد هؤلاء الظالمين، كان يثير في قلوبنا الحنان والعطف، وكان الجميع يثيرهم هذا الصوت الرقيق الذي ما كان يجب أن يسمع بسيرة هذا المكان حتى لا تؤذي مشاعرها الرقيقة وأحاسيسه الطفولية البريئة، ولكن الجلادين كانوا يهوون ضرب هؤلاء الأطفال بقسوة وعنف، ويهوون تعذيبهم وتقتيلهم، ففي فترة الحلاقة البارحة كانت هناك أصوات مختلفة تصرخ متألمة شاكية، وكان بينها الصوت الطفولي الرقيق لعله هذا أو غيره فالأطفال هنا كثيرون.. كان الطفل يبكي ويصرخ والجلاد يضربه، وسكت فترة ليعاود الصراخ من جديد ثم يتبعه بعد ذلك صوت طفولي آخر يتوسل إلى الجلاد بلهجة حلبية كنت أحدث نفسي والدموع تنساب من عيني: أي مرارة تزرعونها أيها الظالمون في قلوب هؤلاء الصغار الأبرياء؟ ثم ماذا ستحصدون بعد ذلك..؟

يوم 3/10/1980

العذاب في سجن تدمر مستمر لا ينقطع، يبدأ منذ الصباح الباكر وربما من الفجر، ويستمر هنا وهناك بصورة أو بأخرى وصوت الكرباج اللعين وصراخ

المعذبين وعويلهم لا تغيب عن الأسماع في هذا المكان الرهيب.

وفي الساعة التاسعة من صباح اليوم وبينما كنا نسمع أصوات العذاب ونحن في خوف وألم حصل ما كنا نتوقعه، فقد شعرنا بالزبانية وهم يدخلون باحتنا ويبدؤون بتعذيب نزلاء المهاجع المجاورة، وكانت صورة العذاب اليوم غير ما ألفناه سابقاً في صورة عذاب التنفس والحلاقة أو غيره.. وجاء دورنا أخيراً بعد أن عشنا مع عذاب إخواننا وقتاً طويلاً، وضرب الجلادون الباب الحديدي ضربة قوية ارتجّ لها المكان ثم فتحوه وصرخ أحد الجلادين بصوت هستيري: ولك حقراء.. أنذال.. والله لأفعل.. وتلفظ بأشنع السباب ثم صرخ: بالشورت يا حقراء..

وبعد تردد يسير استوعبنا معه الأمر. بادرنا بنزع ثيابنا بعد أن كان كل منا قد لبس كل ما لديه من ثياب لتدفع عنه شيئاً من أذى الكرباج، ودخل الجلادون علينا فضربونا ضمن المهجع في هجمة عذاب منكرة ثم أخرجونا إلى الباحة ونحن عراة وأخذوا يعذبوننا بالكرابيج اللعينة، يضربوننا على أجسامنا العارية، وطلب الجلادون رئيس المهجع فأخذه كبير الجلادين (المساعد أحمد) ودخل به إلى المهجع واستمر العذاب والضرب بمختلف الأشكال والصور.. منه أنهم أمرونا أن نجلس القرفصاء وننظف أرض الباحة وأخذوا يطوفون علينا ويضربوننا أشد الضرب على أجسامنا العارية.. وكانوا يأمروننا أن لا نصرخ وإلا ضاعفوا لنا العذاب، وكان ممن شددوا عليه الضرب والعذاب، المعتقل أبو الورد فاستغاث بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم قائلاً: (دخيل محمد) فأخذت الجلاد حمية الجاهلية، وصرخ غاضباً مستهيناً: مين هادا محمد يا كلب؟ وانقض على المعتقل يضربه بقسوة بالغة، دخلنا المهجع أخيراً ونحن منهكون، فوجدنا كل ما في المهجع من حاجيات قد نبشت وقلب عاليها سافلها، وتكومت هنا وهناك في صورة غريبة من اللخبطة مما أدهشنا وحيرنا.. وقام كل منا يبحث عن ثيابه وسط هذا الخليط ليستر جسده، وبصعوبة كبيرة تمكن كل منا من جمع حاجياته..

أخبرنا رئيس المهجع أن المساعد قام بعملية تفتيش دقيقة شملت كل المهجع وتسببت في هذه الفوضى،

ولما تفقدنا حوائجنا تبين لنا سرقة مبالغ كبيرة من النقود وعدد كبير من الساعات أذكر منها:
- مبلغ 1350ل. س + ساعة يد إلكترونية للمعتقل محمد سعيد.
- مبلغ 900 ل. س + ساعة يد عادية للمعتقل أبو إبراهيم، كانت النقود في دفتر صغير أحمر اللون.
- مبلغ 500 ل. س للمعتقل أبو عبيدة.
- مبلغ 325 ل. س + ساعة يد أورينت للمعتقل مالك.

ولم يعثر لها على أثر رغم البحث الشديد، وبدا واضحاً أن فقدان هذه الأشياء ضمن المهجع مستحيل ونحن محصورون ضمن جدران أربعة، وفطن رئيس المهجع إلى أن المساعد كان خلال عملية التفتيش يدس يده في الثياب ويدقق في الجيوب، وأنه –أي رئيس المهجع- لم يكن يجسر على أن يرفع بصره إليه ليدقق ويعرف ماذا يفعل، ولكنه تذكر أنه شاهد الدفتر الأحمر الخاص بالمعتقل أبي إبراهيم في يد المساعد خلال التفتيش.. إذن فقد وضح الأمر وعرف السارق، ولكن دون أية فائدة فمن يستطيع الاعتراض على شيء تجاه كبير الجلادين؟ ولكن كبير الجلادين كان يعرف على ما يبدو أننا سنكتشف أمره، لذلك بادر هو وزبانيته إلى الهجوم علينا، فما شعرنا إلا والزبانية قد حضروا وفتحوا باب المهجع ودخلوا علينا وأخذوا يجلدوننا بعنف وقسوة.. كان على رأسهم كبير الجلادين يحمل بيديه الاثنتين عصاً غليظة طويلة أخذ يضربنا بها.

الحلاقة

فوجئنا اليوم 8/10/1980 بالزبانية وقد أتوا إلى مهجعنا وهم ثائرون، فصرخوا فينا وفتحوا باب المهجع وأمرونا بالخروج بسرعة.. فخرجنا نعدو ونحن لا ندري أي مصيبة تنتظرنا.. وفي الباحة وقفنا في صف عند أحد الجدران واحداً واحداً ووجوهنا إلى الجدار، وأخذوا ينقضون علينا ويضربوننا ويأخذون بعضنا فيوقعون بهم أشد العذاب، خلال ذلك وقع أحد المعتقلين على الأرض مصاباً بحالة تشنجية عصبية فهو يضطرب ويختلج.. وجاءه أحد الجلادين وأخذ يضربه ويرفسه ويصرخ فيه ويسبه، ثم صرخ فينا قائلاً: مين كلب منكم دكتور؟ فلم يرد عليه أحد، ثم صرخ قائلاً: اثنين يشيلوه عالمهجع.. فحملناه إلى المهجع وأخذنا نحاول إنعاشه، ثم جيء بمعتقل آخر

مغمى عليه فوسد إلى جانب الأول وبقيت مع اثنين آخرين نعتني بهما حتى انتهت حفلة العذاب، وجيء بزملائنا فأدخلوهم إلى المهجع، فلما رأيناهم تبين لنا أنه قد حلقت رؤوسهم ووجوههم، وأي حلاقة! فقد كانوا مجرحين منهكين من الحلاقة والعذاب، فذهب كل يغسل جروحه ويداوي إصاباته..

وبعد أن هدأت الحال قليلاً أخذ كل يحدث بما لقي من العذاب والضروب وبما عانى من آلام.

قال الصيدلي (ع. م) ضربوني على يدي (15) كرباجاً وعلى رجلي مثل ذلك، ثم أخذوا يرفسونني، وأخيراً صعد على ظهري وأنا منبطح على الأرض جلاد ثقيل كالبغل وأخذ يقفز فوق ظهري ويدعس عليه.. أيقنت أن ظهري قد تحطمت عظامه وأنني لن أقوم بعدها أبداً، وكان هذا الأخ قصير القامة نحيف الجسم رقيق الحاشية يقول: ولكنني قمت بعد ذلك وأنا لا أكاد أصدق نفسي.

وقال الأخ المعتقل الأستاذ (أ. ع) تولاني جلاد فاجر أمرني أن أمد يديّ الاثنتين إلى الأمام وأخذ يضربني عليهما.. ولم أحص عدد الضربات لأنها كانت كثيرة، وكنت رغم الألم الرهيب أجبر نفسي وأمد يدي إلى الضرب حتى ملّني الجلاد ورفسني وضربني وقال: انصرف بقي يا كلب. ويقول الأخ المعتقل: ولكن يدي قد عطبتا وأراني يديه فإذا بهما متورمتان زرقاوان مجرحتان.

وحدثني الأخ (م. خ) من قرب دمشق قال: ابتليت بجلاد رهيب ضربني على يدي حتى كلّ ثم ألقاني أرضاً، فضربني بالكرباج على رجلي حتى كلّ أيضاً، ثم صعد على ظهري يرفسني برجليه، فلما ضقت بذلك تحركت من ألمي فألقيته عن ظهري فاغتاظ مني وجاء يرفسني ويرفع رجله "بالبوط" الضخم ويوجه الكعب الحديدي وينزل به بقوة في منتصف ظهري حتى لقد ظننت أن ظهري قد كسر وأني لن أقوم حياً، ولكن لطف الله هو الذي أنجاني..

وكان زملاؤنا يتساءلون: لماذا لم تحلقوا أنتم الثلاثة؟ فنتبسم ونلوح بأيدينا ونقول: أنجانا الله من هذه المصيبة.. قال بعض الأخوة: ولكن كيف إذا شاهدكم الجلادون وأنتم بلا حلاقة، ماذا تقولون؟وكثرا الاقتراحات علينا كما أننا أخذنا نقلب الأمر على وجوهه

ماذا سنقول للجلادين؟؟ وأي حجة تنفع عند هؤلاء المجرمين؟؟ ولكن المعتقل المهندس "بسام" اندفع يقول راداً كل الاقتراحات: لن نقول شيئاً.. "إن الله يدافع عن الذين آمنوا" فالله يدافع عنا..
وكان الرأي الفصل، وسلمنا أمرنا إلى الله، وقد أنجانا الله سبحانه.. ومضت الأيام ولم ينتبه الجلادون إلينا ولم يسألونا شيئاً عن هذا الموضوع.
يوم 11/10/1980 أبو بدر ورأسماله
كان أبو بدر لا يتوانى عن متابعة قراءة آيات القرآن الكريم، فهو يرتلها باستمرار مشغولاً بها عن كل شيء.. يرجو بها ويأمل ويدعو ويستغيث، وفي مختلف الظروف والأحوال تراه مستغرقاً مشغولاً بها عن كل شيء حوله.. مما يشغل الناس من خوف ورعب يشل التفكير.. والحواس.. وكانت الأحوال قاسية والأمور صعبة.. فالمهجع في حميا خوف ورعب دائمين، لا يكاد يهدأ أوراهما..
يبدأ الرعب قبل الفطور الذي تحدث فيه أمور أليمة وصور قاسية من العذاب والضرب، ثم تتوالى دخلات العذاب فلا تكاد تنقضي واحدة حتى تنتظر الثانية.. ولا تكاد تنقطع أصوات التعذيب وضرب الكرابيج وعويل المعذبين، فلا نسمع شيئاً من ذلك إلا اشتد علينا الأمر وأخذنا الألم والقهر وتهيأنا للمصيبة في أنفسنا..
ولا يكاد الشيخ أبو بدر (أسامة خواشكية) ينتهي من فطوره ويرد على بعض السائلين حتى يأخذه ما يأخذ الجميع من التحفز والقلق والخوف، فيبادر إلى لف معصميه بقطعتي قماش للوقاية من آثار الكرابيج وإلى آيات الله يتلوها.. وهكذا يعرض أبو بدر عن كل ما حوله من أحداث.. ومن خوف وقلق ورعب وينشغل بما هو فيه من تلاوة، فإذا جاءنا الجلادون، قام ولسانه لا يزال مشغولاً بالذكر والدعاء والاستغاثة، فإذا انقضى العذاب وذهب الجلادون وثبنا إلى أنفسنا، نرى أبا بدر ثابتاً على قراءته وتلاوته فإذا أخرجته من جو القرآن بسؤال لم يبخل عليك بالجواب.. وتراه مطمئناً إلى رحمة الله.
قلت له مرة: ماذا تفعل طوال الوقت يا أخي أبا بدر؟..
قال: أشتغل برأس مالي..
قلت: وما رأس مالك هذا؟..

قال: ياسين، والواقعة، وتبارك ونوح وعم والنازعات.. وغيرها..

قلت: بارك الله لك في هذا الرأسمال، ورزقك منه أكثر وأكثر..

قال: أما الآن فلا أستطيع الحفظ في هذه الحال.. نسأل الله اللطف.

وقال أبو مصطفى: جيد أنك تستطيع القراءة يا أبا بدر، فإنني والله لا أستطيعها خاصة في حالات الشدة والخوف ولكني أسبّح الله وأدعوه دون انقطاع..

الحمام

كل شيء في سجن تدمر العسكري مسخر لتعذيب المعتقلين وإرهابهم حتى الحمام! فبعد أن مضى علينا في سجن تدمر هذا قرابة شهر ونصف لم نر فيه الحمام ولم نتمكن من الاغتسال إذا بزبانية السجن يأتوننا في 13/10/1980 ليقودونا إلى الحمّام، فتحوا باب المهجع وصرخوا فينا: "بالشورت يا كلاب" ثم أمرونا بالخروج وبعد أن قاموا بتعذيبنا وضربنا مدة طويلة في الباحة أجبرونا على كنس أرضها المحفرة بأيدينا العارية تحت الضرب الشديد أخذونا إلى ما يدعونه (الحمّام) وهو مكان في زاوية الباحة التي تقع مهجعنا فيها، وكان هناك عدد من الكابينات لا يجاوز عددها العشرة فوقها صنابير مياه، فأمرونا بالدخول إليها للاستحمام، ولكنهم لم يتركونا سوى دقيقتين أو ثلاث ثم صرخوا فينا آمرين بالخروج، وهجموا علينا يضربوننا ونحن نركض باتجاه المهجع، وقد وقع بعضنا على الأرض تحت سياط الجلادين فياله من حمّام؟

يوم 12/10/1980

جاء الزبانية وفتحوا باب المهجع لإدخال الفطور فلما خرج اثنان من المعتقلين لإدخال طعام الفطور انقضوا عليهما وضربوهما، ثم دخل الزبانية إلى المهجع وضربوا عدداً من المعتقلين وهم يسبون ويشتمون بألفاظ قبيحة، ولم يكن طعام الفطور سوى بضع علب جبنة محفوظة وكمية قليلة من الشاي كانت حصيلة أحدنا منه لا تتجاوز قطعة واحدة مثلثية من جبن (لافاجكيري) وكأس صغير من الشاي البارد.

وكنا نود لو تركنا الزبانية من شرهم فلا نريد منهم أي طعام..

زيارة
زار مهاجع السجن اليوم ضابط ذو رتبة كبيرة رجح بعض المعتقلين أن يكون مدير السجن نفسه، وكان محاطاً بعدد كبير من الحرس الخاص، وما كانت زيارته إلا لضرب المعتقلين وتعذيبهم بنفسه.
فتح باب المهجع ودخل المساعد رئيس الجلادين ومعه عدد كبير من الجلادين، توزعوا في أرجاء المهجع ثم دخل الضابط وحوله عدد كبير من الحرس الخاص يحيطون به، وتولى المساعد تقديم الصف منادياً: (استارح، استاعد، تهيأ).
وأخذ الضابط يمر بالمعتقلين فيسأل كلاً منهم عن سبب اعتقاله ثم يشتمه ويضربه، بينما يقوم اثنان من الحرس الخاص بالإمساك به والمعتقل مغمض العينين، جامد مستسلم لقدر الله.
وكان نموذجاً من القسوة والدموية، حيث كان يهدد المعتقلين بالشنق والقتل.
يوم 16/10/1980
وقع المحذور الذي كنا نتوقاه جهدنا، فقد ضبط الرقيب عدداً من الأخوة المعتقلين وهم يذهبون تباعاً إلى المرافق، فصرخ فيهم وسب وشتم وتوعدهم قائلاً: (الصبح بفرجيكن يا.. يا حقراء).
وجاء الزبانية فأخرجونا جميعاً إلى الباحة، وضربونا وعذبونا طويلاً كان الأمر خطيراً أنمنع من الصلاة؟

يوم 17/10/1980
خلال حفلة عذاب التنفس هجم عليّ الجلاد وأخذ يضربني على رجلي وجسمي وكان بجانبي أبو عبدو، وإذا بعدد من الجلادين ينقضون عليه ويضربونه ويعذبونه ويتناوبون على ضربه، فإذا وقع أقاموه وكلما ضربه واحد منهم تلقاه آخر.. حاول الفرار منهم ولكنهم أمسكوا به وما زالوا به حتى أنهكوه وحينما دخلنا المهجع بعد نهاية حفلة عذاب التنفس، كان الأخ أبو عبدو في حالة سيئة.. كان يلهث بقوة والكدمات تملأ وجهه، كما تبين لي أن الزبانية قد ضربوا الأخ المعتقل أبا أحمد حتى وقع مغشياً عليه، وأدخل محمولاً بأيدي زملائه.

وكان من الزبانية عريف يدعى (شعبان) كان يحمل بكلتا يديه عصا ضخمة يحطم بها المعتقلين، وقد ضرب المعتقل أبا موسى وهو شاب رياضي مفتول العضلات بالعصا على صفحة وجهه ضربة قاسية ألقت به أرضاً.

النقيضان

أمر يشتد له العجب ويثير في النفس الاستغراب والتساؤل كيف؟ ولم؟.. كيف يتواءم الضدان ويتوافق المختلفان؟ ضيق وكرب وعذاب نعيشه نحن المعتقلين هنا في سجن تدمر العسكري الصحراوي منقطعين عن الدنيا جميعها وعن الناس كلهم ضمن المهجع.. والباب الحديدي مغلق أربعاً وعشرين ساعة في اليوم لا يفتح إلا لهجمة شرسة أو حفلة عذاب رهيبة، وقد آلى جهاز السجن على نفسه أن لا يترك للمعتقلين ساعة من الراحة والأمان في ليل أو نهار، وأن يملؤوا حياتهم عذاباً وإرهاباً وقهراً، حتى عششت الرهبة والقلق والتوتر في جو المكان وفرخت، وعاد السجن وباحاته ومهاجعه ميدان عذاب وإرهاب لا ينقضي، تنبض نسماته بالعذاب وتصطفق أبوابه بالرعب ويمتلئ جوه بعويل المعذبين وأنات البائسين.. فما تنقضي محن المعتقلين فيه، كأن أيامه ظلمات بعضها فوق بعض والمنقذ الوحيد للنجاة هو الموت.

في هذا المكان الرهيب وفي هذا الجو القاتم توجد طيور صغيرة الحجم ندية الصوت كثيرة الحركة والتنقل، إنها العصافير تستيقظ باكراً لتسعى وراء رزقها دون هم ولا غم، تشدو بأصواتها الجميلة مع بعضها ويعلو صياحها ثم يتفرق كل إلى حالة آمنة مطمئنة سعيدة فرحة تبني أعشاشها وتضع بيضها وتربي أفراخها، فهي في اجتماع وانتشار وتناج وصياح وغدو ورواح في حياة هانئة وأصوات فطرية وحركات ممتعة مسلية.

كيف يجتمع المتناقضان ويأتلف الضدان: الخوف والأمان، في هذا المكان؟ إلا أن الله في خلقه شؤوناً! أيتها الطيور الصغيرة الوادعة، ما أسكنك في هذا المكان.. العاتي الرهيب حيث القهر والآلام والأحزان لا تنقضي، حيث الظلم والتجبر، حيث الموت بصورته الكالحة.. حيث انقلب بعض بني البشر ذئاباً ووحوشاً مفترسة وحيوانات مؤذية، أفاعي وعقارب تلدغ وتعض

وتنهش أليس لك أيتها الطيور الوادعة في غير هذا المكان حياة؟ أم أنك لنا سلوى وتعزية؟

غارات وقمل

لم يكتف زبانية سجن تدمر بما يوقعونه بنا من عذاب طوال ساعات النهار، بل تفتقت أذهانهم عم صور أخرى للعذاب ينزلونها بنا في أواخر الليل وتحت جنح الظلام. فوجئنا ليلة البارحة بأصوات صراخ وعويل جماعي ينطلق فجأة من أحد مهاجع السجن القريبة، رغم أن الوقت كان بعد منتصف الليل، وغلت الدماء في عروقنا غضباً وقهراً من هذا البغي والعدوان الذي يمارسه الزبانية الأنذال، الذين لم يكتفوا بكل حفلات العذاب اليومية فجاؤوا في الليل يعذبوننا وينغصون علينا هذا الوقت القليل الذي نرتاح فيه من بغيهم وفجورهم..

وكان الأعجب من كل ذلك ما ذكره أحد المعتقلين من أن أحد الجلادين قال مهدداً: (ظبطوا يا كلاب بدنا نجيكم غارة ليلية).

اكتشفنا منذ بضعة أيام أن القمل منتشر بين المعتقلين في مهجعنا وبكثافة كبيرة.. كان ذلك مقرفاً حقاً ولكنه واقع حاصل لا يمكن إنكاره، كثر الحديث بيننا عن أسباب وجود القمل ومصدره، وتبين لنا أن السبب هو ما نحن فيه من تضييق وحرمان من وسائل وإمكانيات النظافة والاغتسال، وأن هذه الحال تحتم وجود القمل وانتشار مختلف الأمراض السارية.

وكانت الوسيلة الوحيدة الممكنة لمكافحة القمل هي "التفلية" حيث يقوم كل منا بخلع ملابسه والبحث عن القمل فيها والتخلص منه، وكنا نجد القمل وقد تغلغل في طيات الثياب وهو منتفخ البطن بما امتص من دم، ثم تبين لنا انتشار نوع آخر من القمل بيننا هو قمل العانة (ضبوع) وهو قمل من نوع آخر لا يصيب إلا منطقة العانة وما حولها، حيث يلتصق بأصول الشعر ويضع بيوضه عليها، ولم يكن من السهل معالجة هذا النوع من القمل، لأنه كان أشد سوءاً من سابقه.

العيد

كان يوم 20/10/1980 هو أول أيام عيد الأضحى المبارك، أمل بعض المعتقلين أن يذكر العيد بمعانيه السامية طغاة بلادنا بلزوم وضرورة الصفح عن

المعتقلين الأبرياء، ولكن خاب فألهم، فها هم الزبانية لا زالوا على ماهم فيه من بغي وشر لم يلتفتوا إلى العيد، ولم يفهموا من معانيه السامية شيئاً.

وفي الساعة الثانية ظهراً جاء زبانية السجن إلى مهجعنا لإجراء التفقد اليومي ولإدخال طعام الغداء، وحينما خرج اثنان منا لإدخال طعام الغداء ويسمونهما (السخرة) ضربوهما بعنف، ثم دخل الزبانية المهجع، وبينما كان الرقيب يعدنا كان نفر من الزبانية مندفعين في تعذيبنا ثم أخذوا اثنين من المعتقلين: الأول رقيب سابق في الجيش ويدعى مبارك، والآخر فران في مدينة ساحلية، وأخذوا يتفننون في تعذيبهما، ثم أجبروهما على غمس رأسيهما في (الشاكرية) وهي لبن مغلي كان لا يزال شديد الحرارة، وبعد خروج الزبانية بادرنا إليهما وغسلنا رأسيهما بالماء، فأما الأول فقد سلق جلد رأسه باللبن المغلي وتنفط ثم أخذ بعد ذلك ينز بالماء والقيح وكان الأخ المعتقل يشعر بآلام شديدة وبقي مع ذلك دون علاج.

أما المعتقل الثاني فقد أصيب وجهه ببعض الحروق، وحمى الله عينيه من الأذى، كانت الإصابات التي تقع بنا من الكثرة بحيث اعتدنا أن نتوقعها في كل حين، ونبادر إلى تشجيع المصاب وتثبيته، وكنا نعتبر أن هذه الإصابات أوسمة فخار لا ينالها أي واحد، هكذا بسهولة، وأنه سيكون لها الوزن الراجح في ميزان العدالة الربانية، فهي الأجر في الآخرة والعافية والسلامة في الدنيا بإذن الله.

بعد تناول طعام الغداء البسيط، جلس كل منا في مكانه وقام بعض الأخوة يوزعون "دوسير العيد" وهو مقدار يسير من الفاكهة شبه الفاسدة، وكانت حصة المعتقل حوالي نصف موزة وبضع حبات من العنب وجزء من تفاحة.. كان هذا يذكرنا بالفاكهة المحرمة علينا في هذه الأيام والتي لا نرى منه إلا ما يذكرنا بها فقط، أو ما يمكن أن يستعمل للشم (شم ولا تذوق).

ورغم كثرة وإحاطة البلاء بنا في سجن الموت في تدمر، ورغم بعدنا عن أهلينا في هذه المناسبة الكريمة، التي يلتقي فيها الأحباب، فإننا شعرنا بالرضى والاطمئنان يغمران قلوبنا، حتى كنا نشعر أننا في كنف الله وتحت ظل رحمته، مغمورين بلطفه وكرمه، محاطين بعنايته

سبحانه، وشعرنا كأن فيضاً من السعادة يحيط بنا، حتى تمثلت بقول الله سبحانه: "إخواناً على سرر متقابلين) دون أن أستطيع تحديد مبعث ذلك أو مصدره، أهو السعادة بمجالسة الأخوة والأحباب أم هو الشعور بالأمان أم هو روح من عند الله غمر ذلك المكان التعيس البائس، فأحال وحشته أنساً، وظلمته ضياء، وضيقه سعة ورحابة، فالحمد لله على كل حال..

الظلم والغيرة الإلهية

الجلادون في سجن تدمر العسكري لا يقيمون للخير والصلاح وزناً.. ولا يعيرون انتباهاً لكرامة كريم أو كبر مسن.. أو ضعف مريض.. أو حرمة بريء مسكين، فهم قساة، غلاظ.. عتاة.. وأسيادهم يؤزونهم ويمدونهم في الغي ويزينون لهم عمل الشر والفساد.. سلبوا إرادتهم وشوهوا أفكارهم، ووجوههم إلى ما يريدون من أغراض دنيئة.. والحكام المتسلطون على رقاب العباد بالقهر يعبثون في الأرض والبلاد ظلماً وفساداً، لا إيمان يضبطهم ولا أخلاق تردعهم، ولا شرف ولا ضمير ولا مروءة.. همهم الكرسي.. والمال.. والزيف.. والضلال.. والمعتقل المسكين ليس له –في سجن تدمر العسكري- قيمة أو اعتبار ولا حرمة ولا كرامة ولا حقوق، فلا حق للمعتقل في التملك ولا في العيش ولا الطعام ولا الأمان، ولا حق للمعتقل في أي شيء..

فقد كل ذلك على عتبة السجن، وهو داخل ومجرد بقائه حياً إنما هو تفضل (غير مقصود) لأنه لم يمت حتى الآن.. ولأن جهاز السجن والمسؤولين، غير مهتمين أصلاً بقتله فوراً.. لأنه ليس مثيراً له من جهة.. (ولو كان لقتل رغم أنفه.. شنقاً حتى الموت أو عذاباً).. ومن جهة أخرى أنه يبقى رقماً في الحساب.. الذي يجب أن يصفى.. عن قرب، التصفية هي الأساس تصفية هؤلاء وهذه الرؤوس وما تحتوي من أفكار.. لقد كان هؤلاء المعتقلون يرفعون الرأس عالياً.. ويتحدون.. بأفكارهم ومنطقهم وإيمانهم.. معتزين.. متفاخرين، فلئن لم يستطع الطغاة قهر الفكرة بالفكرة فسيقهرونها بالكرباج والبطش حتى تنمحي وتزول.. هكذا يظنون.

إن الطغاة يعبدون المادة ويرون أن القوة هي الأصل فيجب أن تحترم وتقدس.. أما ذلك المسكين الذي أوقعه

سوء حظه في أيدي الطغاة ولم يعرف كيف يتملقهم ويسبح بحمدهم ويمجد سلطانهم، فسيعرفه الكرباج قيمته وسيعلمه العذاب والخوف والجوع هنا في سجن الموت كيف ينحني ذليلاً صاغراً أمام القوة الغاشمة وليأكل مبادئه وليخلصه تدينه وربه، لقد قالها الطغاة وأعلنوها بكل صفاقة وتبجح وغل.

قالوا: سنجعل المعتقل حيواناً أعجم تحركه الغرائز فقط فيها وحدها يجب أن يعيش.

أحد الرقباء النابهين، حفظ عن أسياده حديثاً شجياً، ففي الحلاقة وبينما هو وزملاؤه الجلادون في أوج انبساطهم يضربون ويعذبون المعتقلين، قدح زناد فكره وأخرج للمعتقلين مكنون سره فقال يبين لهم كيف سيعيشون وكيف يتصرفون.. وما يراد بهم ومنهم.

فقال: (لا نريد منكم عقولاً ولا أفهاماً إنما نريد غرائز فقط.. سيدكم هنا أبو سمرة الكرباج وأخوه الدولاب).. ثم أمر عدداً من المعتقلين أن يقبلوا الكرباج باحترام وتقديس..

نظام سجن تدمر العسكري لا يعترف للمعتقلين فيه إلا بأنهم أرقام لا أسماء لها، ويهتم بإعطائهم قسطاً وافراً من العذاب يومياً في الصبح والضحى والظهر والمساء وما بين ذلك لا يقر نظام السجن للمعتقلين بأنهم بشر أحياء ولا أنهم متهمون أبرياء حسب القاعدة التي يرددها بعض الأغبياء في العالم من أن (المتهم بريء حتى تثبت إدانته)!! بل هو قد طور هذه القاعدة إلى (أن المتهم مدان يجب تصفيته) نظام تدمر يحرم على نزلائه الأمان والراحة.. ويحرم عليهم الكلام والنظر ويحرم السؤال والحركة ويحرم الاحتجاج على تصرف الجلادين.. فتصرف الجلادين قانون نافذ.. ونظام السجن يعتمد على الكرباج والدولاب والعذاب والإرهاب وغاية نظام السجن.. المعلنة الواضحة هي تحطيم السجناء وتصفيتهم، بعيداً عن الأعين، ومن ناحية أخرى فإن نظام السجن ثوري استمد ثوريته من بين صخور الجبال الساحلية العالية، فهو لا يلتفت إلى كل ما وهبه الله للإنسان من كرامة وما حباه من نعم، وما جعل له من حقوق وحرمات، فكلها في اعتبار الطغاة من المخلفات والمعوقات حتى غدا التنفس في سجن تدمر (قطعاً للنفس).

يخرج الجلادون المعتقلين للتنفس في الباحة بالدور ومهجعاً وراء مهجع ومدة التنفس من 20 – 30 دقيقة ومعلوماتنا عن التنفس والنظام والجلادين والعذاب تجعلنا حتى في وقت الهدوء خائفين قلقين كيف لا.. والكرباج لا يغيب من أيدي الجلادين.. فإذا أخرجنا إلى الباحة سارعنا راكضين مطرقين ندور (حسب الأوامر) في جنبات الباحة أو نجلس القرفصاء متراصين منحني الظهور دون حركة أو همسة.. الجلادون يضربوننا بقسوة لا يرحمون.. ومن أصيب فبقدره ومن قتل فقد انتهى أجله، وينال القاتل الثناء ويحيا بالإكرام والمنح..
وفي هذا الوقت تطول الدقائق والثواني ويصبح لها قيمتها ذكراً واستغاثة عذاباً وإرهاباً وصبراً واحتساباً..
أتأمل الأرض أمامي وأرى حبات الرمل وأطراف الجدران السفلى، أي وضع غريب نحن فيه؟ وأي ظلم هذا الذي يقع بنا؟ ولكني أشعر أن الله معي، بل إن كل شيء في هذا الكون معي.
حبات الرمل معي.. تحدثني وتؤيدني وتغضب لي بل لنا أجمعين، فحبات الرمل هذه ليست ظالمة لو كانت مخيرة لما رضيت أن تكون في جدار يحجز الناس عن حياتهم وعن معاشهم ظلماً وغشماً ولكنها مسيرة، فلو نطقت لاحتجت ولملأت الدنيا صراخاً وأعلنت احتجاجها على الظالمين، وتأييدها للأبرياء المستضعفين، ولو استطاعت أن تكون قذيفة حق قاتلة، لوجهت نفسها إلى رؤوس الجلادين وأسيادهم المجرمين فحرقتها، وقامت بواجبها في ضرب الباطل المتبجح حتى تذيقه الصغار والمحق.
وهذه الجدران والأحجار التي فيها تحتج على ما استخدمت فيه من طعن الأبرياء تحتج على موقعها.
يوم 27/10/1980
في الساعة الثامنة صباحاً بدأت عمليات الحلاقة في باحتنا، وباحتنا هي المكان الذي اختاره الزبانية لهذه العمليات، حيث يجلبون إليها نزلاء المهاجع على التوالي، فيجرون لهم الحلاقة وعذابها في هذا المكان، لأن باحتنا هذه بعيدة عن أطراف السجن المواجهة لمدينة تدمر، وبالتالي فإن أصوات العذاب وصراخ المعذبين يكون أبعد عن أسماع الناس في الخارج.

ولكن دور الحلاقة وصل اليوم إلى مهاجع باحتنا، وبدئ بالمهجع رقم (8) ونشطت عمليات التعذيب وأخذنا نسمع أصوات المعذبين وهم يصرخون متألمين مستغيثين بأصوات تمزق القلوب، وكنا نعيش معهم في قهر وعذاب شديدين، وكان الدعاء هو متنفسنا الوحيد، فكنا ندعو الله سبحانه ونفزع إليه ونستغيث به، نستعجل قضاءه في الظالمين وانتقامه منه المجرمين، وفرجه للمستضعفين، وكان جميع الأخوة في المهجع على لسان واحد، يدعون ويستغيثون في إلحاح وتبتل، كما أننا هيأنا أنفسنا للعذاب، فلبسنا كل ما لدينا من ثياب، ولف الأخ أبو بدر معصميه بقطعتي قماش، كل ذلك استعداداً لحفلة العذاب التي تقترب منا. أخذت أتجول في أطراف المهجع وأنظر من خلال قضبان النوافذ الحديدية إلى السماء الزرقاء بألم، وكنت أقول لنفسي: ها هنا يصنع الرجال فكما تصهر النار المعدن وتنقيه من خبثه، فإن المحن والشدائد تصقل القلوب وتنقيها من خبثها وتخرجها نقية صافية..

كان حفل العذاب في الباحة لا يزال على أشده، وصراخ المعذبين ونهر الجلادين مستمران، وصوت الكرباج اللعين كأنه مطارق ثقيلة تدق برتابة، وكانت أيدي الأخوة المعتقلين مرفوعة إلى الله يدعونه بحرارة، ودموع الرحمة والألم والقهر تنهل من عيونهم وتداعى إلى ذهني شطر بيت من الشعر انطلق به لساني: دأبي التوسل حاشا أن تخيبني، فأخذت أردده في استغراق.. بدا في السماء صفاء غريب أخذ يظهر من بعيد كأنه نور يطل على الوجوه، شعرت بالسكينة تغمر كل شيء، وأحسست بالرضا والطمأنينة بذكر الله.

كان في الباحة فتى يعذب وهو يصرخ: (أنا بدي أموت) ورجل كبير السن يصرخ متألماً مستغيثاً: (دخيل الله، دخيل الله) وفجأة سكتت الأصوات وانقطع صوت الكرباج وتوقف حفل العذاب..

وجاء دورنا في الحلاقة فأتى الزبانية إلينا وأخرجونا إلى الباحة وقال أحد الجلادين: لا تخافوا ما في قتل. ولم نصدق آذاننا، وقد عشنا أكثر من ثلاث ساعات مع عذاب إخواننا، ولكننا شاهدنا الكرابيج ملقاة على الأرض ودسناها بأرجلنا العارية، وكبرنا في سرنا (الله أكبر،

الله أكبر) ومرت تلك الحلاقة بسلام دون عذاب لأول مرة ولآخر مرة أيضاً دون أن ندري لذلك سبباً.

يوم 1/11/1980

تبدلت عمليات التعذيب وتباعدت شيئاً ما وأخذنا نراقب ما يجري، كان هناك تبدل في المعاملة، ولكن عمليات التعذيب لم تقف إنما تبدلت صورتها، حيث صار الزبانية يتخيرون من يروق لهم من المعتقلين خلال التنفس أو غيره، فيضربونه ويعذبونه أو ينقضون علينا في هجمات منكرة فيضربون هنا وهناك. وكان بطل عمليات التعذيب في هذه الأيام العريف الحاقد الجلاد "شعبان" صاحب الصوت الأجش الذي لا يهدأ له أوار، ولا ينطفئ له حقد، وكان يتخير من بين المعتقلين كل من يعتقد أن له مكانة أو فضلاً، ويوقع به أشد العذاب، وهذا جزء من خطة غسيل الدماغ والتصفية الجسدية في سجن تدمر.

يوم 11/11/1980

أيقنا أن ما يجري في السجن من تبدل في المعاملة ومن شدة عذاب وقسوة إنما هو وليد أهواء متقلبة يسيطر عليها حقد غريب ومرض نفسي عجيب، فبعد هدوء نسبي اشتدت حميا الزبانية للعذاب وللإيذاء فجأة، فما سنحت لهم فرصة إلا وانقضوا علينا كالوحوش الكاسرة يضربوننا أشد الضرب غير السباب الفاحش البذيء والتهديد والوعيد.

ليلة البارحة جاء الزبانية في أول الليل ودون أن يفتحوا باب المهجع صرخوا فينا وسبونا وشتمونا وأمرونا بأن نقف باستعداد ونرفع أيدينا إلى الأعلى ونبقى كذلك والويل لمن يخالف هذه الأوامر، وهكذا أمضينا الليل كله ونحن على تلك الحالة، والزبانية يمرون ليراقبونا وليوسعونا سباباً وفحشاً.

وكانت تلك الوقفة عملية تعذيب شديدة مؤلمة تورمت بسببها أرجلنا وأنهكت أجسامنا، ولكننا انتهزنا الفرصة لتلاوة القرآن، والإكثار من ذكر الله ومن الدعاء والاستغاثة.

وفي الليلة التالية منعنا الزبانية من النوم أيضاً، وأجبرونا على الوقوف في صف خماسي وسط المهجع، وأخذوا يراقبوننا ويتجسسون علينا ليضبطوا من يجسر على الجلوس، وقبل منتصف الليل شعرنا بالزبانية يتلصصون علينا، فلم نعبأ بهم، فاندفع أحد الزبانية

يصرخ من النافذة الصغيرة الموجودة في الباب (الشراقة): ولك حقراء والله لأفعل، وأخذ يقذف بالكلام الفاحش الرخيص ويهدد ويتوعد (والله لأعدمكن يا منحطين يا كلاب، ولك والله لأشرب من دمكن.. ولك المشانق جاهزة يا حيوانات، ولك الكلاب ما عم تأكل جثثكم يا حقراء) وكان يشدد في كلامه ويصر على أسنانه وهو يقذفنا بهذا الكلام مظهراً ما في قلبه الأسود من الغل والحقد الرخيص! كان بريق الدم يلمع في نبرات صوته كأنه وحش جائع يبحث عن فريسة.

يوم 20/11/1980

كان اندفاع الزبانية إلى الشر وما يظهر منهم من حقد وغل وفجور يوحي بأن وراء الأكمة ما وراءها، ولكن مهما بيتوا لنا من شر وغدر فإنا لم نكن نبالي بهم ولا بما يبيتون، لأننا وطّنا أنفسنا على التسليم لقدر الله، وصار الموت في سبيل الله هو أقصى ما نتمناه خاصة وأن فيه الخلاص من بلاء السجن وبغي الزبانية الأنذال.

جاء زبانية السجن في أول الليل والظلام قد خيم على الوجوه، فقرعوا باب المهجع بضربة كرباج قوية دوى لها المكان، وصرخ أحدهم: (ولك عرصات، اسمعوا، اللي بيطلع اسموا بقول حاضر)، وقرأ قائمة طويلة من الأسماء تزيد على ستين اسماً، كان من بينها أسماء ثمانية من الأخوة المعتقلين في مهجعنا، وأسماء سبعة وثلاثين معتقلاً من المهجع المجاور (كما علمنا بعد ذلك) وقال الجلاد لمن نودي بأسمائهم: (حضروا حالكن ولك، بكرة عندكن محاكم).

فالتبس الأمر علينا لأننا فيما نعلم قد عرضنا جميعاً على المحكمة الميدانية في معتقل كفرسوسة بدمشق والتي كان قاضيها النقيب سليمان حبيب، ولكنه لم يبلغ أياً منا أي حكم إنما كان كلامه مجرد تهديدات خفية، وإشارات عابرة، حتى ظننا أنه ربما تجري محاكمتنا هذه المرة بصورة أخرى تكون أكثر واقعية، ولعله أن يكون فيها شيء من الإنصاف والعدالة. كانت الوصية الأولى لهؤلاء الأخوة هي أن يكشفوا للمحكمة المزعومة ما جرى معهم سابقاً من عذاب، وما استخلص عناصر المخابرات منهم من اعترافات بالإكراه، ثم ما يجري هنا في سجن تدمر من ظلم وبغي وإجرام، كما أوصيناهم أن يسربوا ما استطاعوا من أخبار السجن وما يجري فيه، إلى

الناس، ليعرفوا وليدركوا ما يرتكب في حق أبنائهم من سوء.
حضر أولئك الأخوة المطلوبون أنفسهم ولبسوا ثيابهم وصرّوا الأغراض القليلة التي كانت لديهم استعداداً للرحلة المجهولة.. تسحّر أغلبهم ونووا الصيام وقاموا يصلون..
وفي الساعة الرابعة صباحاً قبيل الفجر جاء الزبانية ففتحوا باب المهجع وطلبوهم، فربطوا أيديهم وعصبوا أعينهم واقتادوهم خارج المهجع.
ومع أنه بدا لنا في حينه أن هؤلاء الأخوة مأخوذون للمحاكم من أجل محاكمتهم، ومثل هذا يعد نصراً كبيراً خاصة إذا كان في المحكمة ظل عدالة، إلا أن قلوبنا كانت منقبضة جداً، وبكينا لفراق هؤلاء الأخوة وللمجهول الذي كان ينتظرهم.
كانت هذه المحاكم لغزاً لم نكتشفه إلا بعد مدة طويلة، وبعد أن حاول كثير من الأخوة المعتقلين التغطية عليها إشفاقاً على إخوانهم، ولكن الحقيقة المرة تكشفت وظهرت بجلاء ووضوح، فكان من يطلب بعد ذلك باسم "محاكم" يدرك أنه ذاهب للقاء ربه، فيودع إخوانه وهو ثابت الجنان ووجهه مشرق بالابتسام، ولسانه يترجم عن قلبه: يا مرحباً بلقاء الله.
يوم 23/11/1980
ثلاث دفعات من المعتقلين تصل إلى سجن تدمر أسبوعياً على الأقل، ويتلقاهم زبانية السجن بوسائلهم الجهنمية، فينظمون لهم حفلات العذاب والتحطيم، ويرتفع صراخ المعذبين واستغاثتهم على مدى ساعات طوال تشمل أحياناً غالب النهار وبعضاً من الليل.
اليوم ومنذ الفجر بدأت حفلة العذاب لمجموعة من المعتقلين القادمين حديثاً إلى سجن تدمر، واستمرت حفلة العذاب حتى منتصف النهار، والزبانية ماضون في سوء ما يصنعون، لا تصل أصوات المعذبين واستغاثاتهم إلى آذانهم ولا تؤثر في قلوبهم المتحجرة بل على قلوبهم أكنّة وفي آذانهم وقر، وفي بصائرهم عمى فهم لا يبصرون، فقدوا طبعهم البشري وحسّهم الإنساني، وغدوا آلات صماء عمياء، فكم حطموا من فتى ماجد مؤمن، وكم اعتدوا على رجل مسن كريم فاضل، وكم عذبوا من طفل أو غلام رقيق وادع، وكم

أهانوا من عالم جليل وكسروا عظامه وأحرقوا لحيته، وكل ميزة خيرة يتميّز بها المعتقل سواء أكانت هذه الميزة شهادة عالية أم منصباً رفيعاً أو درجة علمية أو صفة صلاح وتقى، فإن لها عند زبانية سجن تدمر تأثيراً عكسياً، فبدلاً من تقدير صاحب الميزة واحترامه عليها فإنهم ينقضون عليه ويعذبونه أشد العذاب، وكأن ميزته هذه ذنب اجترحه حتى أن الزبانية يزيدون في عذاب المعتقل الطويل لطوله والقصير لقصره، والبدين لبدانته وعلى هذا فقس، مما لا يفطن له إلا إبليس في أحكامه.

كنا ننتهز فرصة ابتعاد الزبانية عنا فنتحدث فيما بيننا همساً، ويتعرف كل منا على قصة أخيه وكيف اعتقلته المخابرات، وعن السبب الذي أدى به إلى الاعتقال، ورغم أن أسباب الاعتقال كانت متفاوتة كثيراً وأن أغلبها تافه بسيط، فإن النتيجة كانت الإرسال إلى سجن التحطيم سجن تدمر.

ورغم تباين مستويات المعتقلين في مهجعنا من النواحي الفكرية والعلمية والنفسية والاجتماعية وغير ذلك، فقد صهرتنا المحنة في بوتقة الألم والقهر والعذاب والإرهاب، فصفت قلوبنا من الأكدار وتقاربت أرواحنا وتألفت وتلاحمت في شعور واحد ونبض واحد، وهمّ واحد، فهي تعاني حرقة الألم ومرارة الظلم وحسرات القهر، وتعمرها حرارة الإيمان وعزيمة الثبات وصدق الإنابة إلى الله، مع الشعور بعناية الله ولطفه. واستمطار رحمته والتطلع إلى عدالته والأمل بفرجه ونصره.

يوم 4/12/1980

قام زبانية سجن تدمر بعملية تجميع ضموا فيها نزلاء كل عدة مهاجع إلى بعضهم البعض، وذلك لأن أعداد المعتقلين في المهاجع قد تضاءلت بعد أخذ تلك الأعداد الكبيرة باسم (محاكم) ولأن زبانية السجن بحاجة إلى مهاجع فارغة يضعون فيها الأعداد الكبيرة من المعتقلين الذين يؤتى بهم إلى سجن تدمر لأنهم يحرصون أن لا يخلطوهم بنزلاء السجن السابقين مدة من الزمن حتى يطبقوا عليهم برامج العذاب والتحطيم المقررة لهم.

وهكذا فقد ضم نزلاء مهاجع الباحة الثانية إلى بعضهم بعضاً، ووضعوا في مهجع واحد هو المهجع رقم عشرة، فارتفع العدد فيه من أربعين معتقلاً إلى مئة وخمسة عشرة معتقلاً، وقلّت حصة المعتقل من أرضية المهجع، ولم يعد هناك إمكانية للراحة في النوم أو غيره نتيجة الزحام الشديد.

زادت الكثافة كثيراً بعد عملية التجميع، وضاقت المهاجع بساكنيها، وفي مهجعنا كما في كل المهاجع نبتت مشاكل مختلفة وأشدها كان مشكلة المنافع والمراحيض، فكان الوصول إلى المرحاض أمراً صعباً، فكانت تحدث أزمات شديدة على المراحيض ابتداء من الاستيقاظ في الساعة السادسة.

من بداية الوقت يكون قد اصطف عدد كبير للوصول إلى المراحيض، ويمضي الوقت الساعة والساعتين وقد لا يصل الدور لكثيرين مما جعل الأمر مشكلة حقيقية ملحة.. حتى غسل الوجه واليدين أصبح مشكلة تحتاج إلى نظام وترتيب وانتظار.

وبات النوم عسيراً في هذا الزحام الشديد (ولم ندر أن ذلك الوضع على ما فيه من سوء وضيق ومشاكل يعد نعمة كبرى، لما سيصير إليه الحال بعد ذلك، وبالتحديد بعد نصف عام..).

وكان بعض الأخوة المعتقلين يقومون بضبط أمور المهجع وتنظيمها بروح أخوية خالصة، فهم يقومون بترتيب الدور للمنافع وتحديد صورته، كما يقومون بتوزيع الطعام، بعد أن تدخله السخرة من خارج الباب، وينظفون الأواني ويرتبون عمليات الغسل والتنظيف وغيره، وكان انضباط الأخوة وتعاملهم الأخوي وتحملهم لمختلف المضايقات والصعوبات آية في التعامل الحسن، فقد كانت روح الأخوة تحل جميع المشاكل وتتجاوزها.

2/1/1981

هلّ عام 1981 جعله الله عام خير وفرج ورحمة لبلادنا العزيزة وللمعتقلين في سجن تدمر وفي غيره من المعتقلات والسجون؟

الزبانية هذه الأيام لم يعودوا قادرين على التوغل داخل المهجع لضربنا وتعذيبنا، كما كانوا يفعلون سابقاً، وذلك بسبب ازدحام المهجع بالمعتقلين، ولكنهم كانوا

يضربون السخرة التي تخرج لإدخال الطعام والمعتقلين القريبين من باب المهجع، كما ينتهزون مناسبات التنفس والحلاقة للاعتداء علينا بالضرب والعذاب، وصار التنفس يومين في الأسبوع والحلاقة أسبوعياً للوجه، وشهرياً للرأس، والحمّام أسبوعياً ولكنه كان حماماً بالاسم فقط.

12/1/1981

جاء زبانية سجن تدمر فطلبوا المعتقلين الأحداث مواليد 1963 وما بعد، فجمع هؤلاء الشباب أو الغلمان الصغار من بيننا، وكان في مهجعنا منهم حوالي خمسة عشرة غلاماً منهم عماد طالب في الصف التاسع، وأبو عبدو وعمره اثنا عشرة عاماً، وكانوا نشيطين مندفعين يتولون غالب أعمال الخدمة في المهجع، ويقدمون أنفسهم فداء لإخوانهم في حال العذاب، وكان هذا التقدير منهم لإخوانهم الكبار، وهذه الشجاعة والفداء مثار إعجابنا وفخرنا، حتى كنا ننظر إلى أنفسنا خجلين ونحن نراهم بهذا الثبات وهذه القوة، فأحزننا وأهمنا أن يؤخذ هؤلاء الأحباب من بيننا، وخاصة حينما علمنا أنهم سوف يوضعون في مهاجع خاصة وحدهم، فخشينا عليهم أن يصيبهم جراء ذلك مكروه في حياتهم ومعيشتهم أو في أفكارهم، وليس بينهم كبير ذو خبرة يرجعون إليه ويسترشدون برأيه، ولما لم يكن بأيدينا أن نصنع لهم شيئاً فقد سلمنا أمرنا إلى الله وسألناه سبحانه أن يتولاهم برحمته ويحوطهم بلطفه وعنايته، ويحفظهم من كل سوء.

20/1/1981

ظهرت منذ أيام إسهالات شديدة بين عدد كبير من الأخوة المعتقلين دون أن نعرف لها سبباً، سوى أن الطعام ملوث وغير نظيف..

أبلغنا مسؤولي السجن بما نعانيه، فكان رد الزبانية: (خليكن تموتوا يا كلاب) واشتد أخيراً المرض على عدد من المعتقلين منهم المعتقل مصطفى قاسمو، وهو رهينة عن أخيه المتواري، والأخ مصطفى راشد ذي النون الدمشقي وغيرهما، وغدا هؤلاء الأخوة نحيفي الأجسام شاحبي الوجوه.

21/1/1981

ترافق الإسهال الشديد بقيء متكرر لدى الأخ مصطفى راشد منذ البارحة، وساءت حاله أكثر واشتد عليه الدوار والدوخة حتى لم يعد يستطع القيام، فكان الأخوة يحملونه باستمرار إلى المراحيض ليتمكن من قضاء الحاجة، ولما أبلغ رئيس المهجع زبانية السجن عن حالة الأخ الخطيرة، كان جوابهم السابق ذاته: (خليكن تموتوا كلكم يا عرصات) وتفاقمت المشكلة أكثر حين لم يعد الأخ المريض يتمالك نفسه من التقيؤ والتبرز لا شعورياً ملوثاً ثيابه وأغراضه، وكان يشعر بألأم وتيبس في مفاصله وأطرافه.
وفي المساء وحينما حلّ الظلام كان الأخ المعتقل مصطفى راشد ذي النون في سكرات الموت، وبلغ بنا الألم مبلغه فضربنا باب المهجع حتى حضر الحارس الذي على السطح فأبلغناه بأن أحد المعتقلين يموت، فسبنا وشتمنا وجاء الزبانية بعد مدة فأخبرناهم عن حالة الأخ فطلبوا إخراجه إلى الباحة، فحملناه على بطانية وأخرجناه إليهم وراقبناهم من وراء الباب المغلق، فتبين لنا أنهم لم يحاولوا إسعاف الأخ أو معالجته، وأنه ترك حتى مات ثم حمل من هناك إلى مثواه المجهول، فعليه رحمة الله ورضوانه، في الوقت نفسه كان معتقل آخر قد اشتد عليه القيء والإسهال حتى أنه لم يعد يتماسك نفسه تماماً.
أثارت وفاة المعتقل مصطفى راشد واشتداد مرض الإسهال والقيء على أخوة آخرين الأسى والقلق في نفوسنا، فها هو ذا الموت قد اختطف واحداً منا وهو في سبيله لاختطاف آخرين ما دام هذا المرض مستفحلاً بيننا دون أن يسمح لنا زبانية تدمر بأي علاج.
24/1/1981
إن وزر ما يجري في سجن تدمر ليس على الزبانية بشكل أساسي، بل إنه من تخطيط رجال السلطة الطائفيين، وما هؤلاء الزبانية إلا أدوات منفذة فقط.
أول البارحة وبعد أن اشتد مرض الإسهال والقيء على عدد من المعتقلين في مهجعنا، قرر بعض ذوي الخبرة الطبية من الأخوة المعتقلين أن ما نعاني منه ما هو إلا جائحة وباء الكوليرا، وأننا معرضون جميعاً لخطر الموت بهذا الوباء.. فقرر الأخوة إبلاغ مسؤولي السجن عن الوضع صراحة، متحملين ما قد ينالهم من بغي الزبانية

واعتداءاتهم، ولكن الزبانية الجبناء أرعبهم وباء الكوليرا فلم يترددوا هذه المرة في استدعاء طبيب السجن وهو طبيب شاب حديث التخرج قليل الخبرة، فاستعان بطبيب آخر أكبر سناً وأكثر تجربة، وهو طبيب مستوصف مدينة تدمر، فجاءا وكشفا على المرضى واستجوبا عدداً منهم، وكانت كل الدلائل (التشحيص السريري) تشير إلى أن هذه الحالات وباء الكوليرا..

بادر الطبيبان باتخاذ بعض الإجراءات، فعزل المصابين بالإسهال مباشرة، وأعطى للمدنفين منهم -أكياس السيروم- إضافة إلى الدواء المناسب، كما أخذت مسحات شرجية لهؤلاء وأرسلت للمختبر ولكن توقفت اليوم كل هذه الإجراءات فجأة..

لماذا حدث ذلك؟ لم نكن نحتاج إلى كثير تفكير لندرك أن مدير سجن تدمر لم يرضه أن يعامل المعتقلون معاملة إنسانية، فأمر بإلغاء كل صورة من صور المعالجة الواقعية، والاكتفاء بالمعالجة الشكلية وبما يوزعه الممرض من علاج بسيط.

9/2/1981

كان من ألوان العذاب التي أنزلها بنا زبانية سجن تدمر خلال الحلاقة أمس، إن الزبانية كانوا ينقضون على مجموعة المعتقلين الواقفين قرب الحائط للحلاقة، فيضربونهم بالكرباج واحداً واحداً ثم يتخيرون واحداً وراء الآخر فيأخذونه ويلقونه أرضاً وينزلون به ألوان العذاب والضرب، وقد أخذ الزبانية الأخ المعتقل أبا أنس فضربوه بقسوة حتى أغمي عليه نتيجة إصابته بضربات قوية على رأسه وجبهته، فأمر الزبانية بحمله إلى المهجع.

وأخذ الزبانية المعتقل أبا جميل وعمره (50) عاماً فضربوه وعذبوه ثم أخذوا المعتقل أبا عبد الرحمن وعمره (40) عاماً فضربوه أيضاً، ثم أوقفوهما تجاه بعضهما، وأجبروهما على أن يصفع كل منهما الآخر بالتناوب، وكان أبو جميل أصلع الرأس، فكانوا يجبرون أبا عبد الرحمن على ضربه على صلعته، ومن قصّر في ضرب الآخر فيا ويله.

وكان الزبانية يطفئون أعقاب السكائر في رقابنا ووجوهنا، ويحرقون أصابعنا وآذاننا بقداحات الغاز.

وقد أطفأ أحد الزبانية سيكارته في عين الأخ المعتقل أبي مصطفى.
بعد انتهاء الحلاقة، أبلغ رئيس المهجع الرقيب (رئيس الزبانية) بأن المعتقل المصاب في حالة خطيرة، فصرخ فيه الرقيب بغضب: (خلي يموت.. لبوطي..) وكان الأخ أبو أنس لا يزال مغمى عليه، ولما صحا من إغماءته بعد مدة طويلة كان يردد بصوت ضعيف "الحمد لله.. الحمد لله" ولكنه بقي فاقداً للذاكرة مدة من الزمن، حتى منّ الله عليه بالشفاء رحمة منه سبحانه ومع كل ما نالنا في عمليات الحلاقة المرعبة الرهيبة، فإننا مطالبون بأن ندفع عليها أجرة محددة حسب العدد وإلا..
الكفر البواح
ألفاظ السباب الفاجر، والكفر والتجديف شيء عادي متداول لدى زبانية سجن تدمر وهم على ذلك معتادون، فهم لا يتخاطبون بينهم إلا بهذه الطريقة، بل أكد أحد الأخوة أن هذه الصورة من التعامل منتشرة في كثير من المواطن والبيئات في بلادنا، وخاصة في كثير من قطعات الجيش، فهذه خطة من الإفساد يرعاها ويدعهما طغاة بلادنا.
كان الزبانية خلال عمليات العذاب يسوموننا بها يجدفون ويسبون ويستهينون بالذات الإلهية وبمحمد صلى الله عليه وسلم، فقد سمع أحد الزبانية معتقلاً يستغيث بالله، فصرخ فيه باستهانة: (مين هادا الله) فرد عليه المعتقل: (هو الخالق الرازق، هو الكريم العظيم، هو العزيز الجبار القهار، هو رب السماوات والأرض مالك الملك وملك الملوك ذو الجلال والإكرام) وفوجئ الجلاد بهذا الجواب، فصرخ بالمعتقل وأمره بالسكوت وكان بعض الزبانية خلال مناسبات العذاب يصمنا بإدعاء الشرف فيقول: (مستهزئاً) أشراف مكة يا عرصات).. وكان ينقض (بالكبل) فيضرب حرّ وجوهنا فهذا الانحلال الخلقي والفساد ناتج عن فقدان القيم وتزعزع العقيدة وفسادها، لدى هؤلاء الناس وأمثالهم.
القيم التي ينادي بها طغاة بلادنا عبر عنها نفر من شبابهم الذي يعد نفسه مثقفاً أنه مبهور بالغرب وحضارته الزائفة، يراها مثله الأعلى حتى في زيفها وفجورها وإلحادها وتحللها من كل الفضائل والأخلاق، إنها قيم عبادة المال والنساء والكأس والمتع الحرام.

تراهم يلبسون جميل الثياب، فيعجبك مظهرهم فإذا تكلموا تأسفت لما ترى من انحطاط أخلاقهم وتدني أفكارهم، وإذا أدركت سوء طويتهم وبشاعة أعمالهم وتصرفاتهم صدمت، فأي سوء في حسن، ترى فيهم مصداق قوله تعالى "ثم رددناه أسفل سافلين" وإذا قلت لأحدهم: اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم وبئس المهاد، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد.

السخرة الشهرية – سرقات نظامية 20/2/1981

جاء الزبانية يصرخون بحقد وأبلغوا تعليماتهم لرئيس المهجع، طلبوا منه أن يجمع فوراً مبلغ (20) ل. س عن كل معتقل في المهجع، ولم يعطوا أي توضيح أو تعليل لهذا الطلب، بل أشفعوا طلبهم بمزيد من السباب والشتائم.

وقام رئيس المهجع بجمع المبلغ المطلوب، وكان كثيرون لا يملكون أي نقود، ومع ذلك فقد أجبرنا على الدفع عن الجميع، فكان يدفع الذي معه نقود عن المفلس، وهكذا قبض الزبانية المبلغ كاملاً (2000) ألفي ليرة سورية عن مائة معتقل هم نزلاء مهجعنا، وكثر التساؤل حول هذه النقود، والغاية من جمعها. قال بعضهم مستنداً إلى معلومات سابقة: إنه النقل من سجن تدمر إلى سجن آخر، وهذه أجرة السيارة (وهذه إشاعة انتشرت في السجن، أشاعها جهاز السجن ذاته) ولكن أحداً لم يشعر بالأسف لأنه سيفارق سجن تدمر رغم ما هوّل بعضهم عن سجن القامشلي العسكري وسوء المعاملة فيه.

وجاء الزبانية مرة ثانية فطلبوا مبلغ ليرتين عن كل معتقل، فجمع لهم المبلغ تفادياً لشرهم وأذاهم.

نصيري في سجن تدمر

كان من المعتقلين معنا في سجن تدمر العسكري معتقل نصيري، وكانت قضيته عبارة عن نقل سلاح بقصد الكسب والربح، ونتيجة وصول بعض هذا السلاح إلى مجاهدي الأخوان المسلمين فقد غضب عليه المسؤولون من جماعته، وحكموا عليه بالمؤبد في محكمة المزّة، ثم ساقوه إلى سجن تدمر، وتعرف عليه أبناء طائفته هنا فجعلوه رئيس مهجع، وتعاون معهم في نقل أخبار المعتقلين وتصرفاتهم وخاصة مراقبة

المصلين والوشاية بهم، وقد منع المعتقلين في مهجعه رقم (10) من الصلاة وتسبب لعدد منهم في تعذيب وضرب موجع، بل خطر مهالك، ولما طال به الأمر لان جانبه قليلاً.

4/3/1981 عقوبة على الصلاة

جاء الرقيب فواز.. من على السطح يراقب المعتقلين، ويضبط المصلين في الرابعة والنصف صباحاً، وضبط بعض الذاهبين إلى الدورة، فاستشاط غضباً.. وصرخ بحقد وسبّ وشتم: (ولك حقراء.. ولك شو متسوي هنت.. ولك..).

وبادر كل منا إلى الاضطجاع، وهدد فواز وتوعد: الصبح بتشوفوا يا حقراء والله لربيكم يا.. يا حقيرين يا..

كان بعض الأخوة يرون أن نصلي جهراً، وأن لا نلتفت إلى تهديدات الجلادين.. وكان معلوماً لدينا أن عقوبة الصلاة رهيبة، ولا يمكن التكهن بنتائجها، وكنا موقنين أنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، ولكن ترك اتخاذ الأسباب عجز وغباء..

وفي الصباح حين إدخال الفطور جاء فواز مع نفر من الجلادين ومعهم الكرابيج مدلاة فدخلوا علينا، وطافوا بيننا وأخذوا يضربوننا ضربات شديدة رهيبة، وحيث أننا كنا مغمضي الأعين حسب التعليمات، فلم نكن ندري بما يحدث إلا أننا كنا نسمع الأصوات والجلبة والصرخات الوالهة، وصوت الكرباج وهو يدق جسماً صلباً، كان لهذه الضربات صوت مختلف.

فلا هي من الهابدة على الظهر ولا الصافعة على اليد أو الجسد العاري، بل كأنها ضرب على الجدار الكتيم، وأتاني الدور فدار رأسي بضربة هائلة وغامت عيناي ودار بي المهجع، فتهاويت على الأرض تلتها (كما عرفت بعد ذلك) ضربات أخرى.

مضى بعض الوقت حتى صحوت إلى نفسي، كان أحد المعتقلين يمسح وجهي بالماء، فحاولت أن أجلس فشعرت برأسي يضج بألم شديد، وأذناي قد فقدتا حاسة السمع، فهما تدويان بطنين مستمر، علمت أن كثيرين من المعتقلين مصابون أكثر مني، وقد شجّت رؤوسهم فهي تنزف بالدم، فالحمد لله على كل حال. فقلت في نفسي مخاطباً الجلادين: ما تضركم صلاتنا؟ وما

يزعجكم منها..؟ أين حرية العقيدة، أين الحرية الشخصية؟ يا من تتبجحون بالحرية؟!!

9/3/1981

مع بداية الشهر الجديد آذار، جاء الرقيب أيضاً يطلب جمع مبلغ (10) ل.س عن كل معتقل فيما سماه (بالسخرة الشهرية) وفهمنا أننا يجب أن ندفع في رأس كل شهر مبلغ (10) ليرات سورية أتاوة لزبانية سجن تدمر.

وفي السابع من آذار جاء الرقيب وطلب جمع مبلغ ليرتين عن كل معتقل للزينة، ولم يرض بإعفاء المفلسين، فدفع المبلغ تاماً، وهكذا نشطت عمليات جمع النقود من المعتقلين نشاطاً عجيباً، وعجزت بعض المهاجع عن تأمين كل هذه الطلبات وأعلنت إفلاسها، فكان الجلادون يتشددون في الطلب ويهددون بالتفتيش لاستخراج النقود، وقال الرقيب مرة وهو يشتم: إن كل هذه المبالغ تذهب "لتحسين الطعام" للسجين فأي تحسين وأي طعام؟ وقال بعض المعتقلين: الدولة أفلست فلم تعد تستطيع تقديم الطعام، فهي تجمع هذه النقود لتأمين الطعام.. وقال آخرون غير ذلك.. ولكن الرأي الصحيح أنها سرقات منظمة تحت ظل الكرباج وأن حاميها حراميها.

العجيب في الأمر أن جهاز السجن بعد جمع مبلغ (2) ل.س من كل معتقل في السجن للزينة.. وزعوا على كل مهجع من مهاجع السجن صورة لحافظ أسد مع حبل من حبال الزينة، وكان لابد من لصق الصورة في مكان ظاهر، وكان أمراً مضحكاً مبكياً فقد كانت هذه الصورة مثار تذكير للناسين من المعتقلين في كل حين، فكنا نصب على صاحب الصورة وأخيه، قسماً كبيراً من خالص دعائنا، ولا ننساه من اللعنات كلما رأينا الصورة في ليل أو نهار..

اجمعوا أموالكم

رأى أحد الأخوة رؤيا جميلة بديعة مبشرة حرنا في تأويلها: رأى الأخ النبي صلى الله عليه وسلم يطل عليه من الفتحة الموجودة في سقف المهجع، فكلمه الأخ وسلّم عليه وسأله ملهوفاً: يا رسول الله متى الفرج؟ يا رسول الله متى النصر صلى الله عليك؟ فأجابه النبي

صلى الله عليه وسلم: الفرج قريب والنصر قريب، اجمعوا أموالكم..
فأولها بعض الأخوة أن نجمع ما عندنا من مال فنصرف منه بشكل جماعي لأغراض المهجع وحاجات المحتاجين، وقد فعلنا في مهجعنا ذلك، فجمعنا غالب المال الموجود وجعلناه في أيدي نفر من الأخوة ليصرفوا منه.. ولكن السخرة الشهرية أتت عليه ولم يبق منه شيء.
وهكذا بدا يقيناً أن المال مهما كان مبلغه فسوف يستهلك خلال فترة يسيرة (في ظل نظام السرقة المنظمة هذه) حيث أن من لديه مال كان مجبراً على دفع مبلغ (10) ل.س شهرياً عن نفسه، وأن يدفع عن كل من ليس معه نقود في المهجع، وكان أغلب الأخوة بعد شهرين أو ثلاثة من (السخرة الشهرية – السرقة المنظمة) بغير مال..
وفطن بعض الأخوة إلى تأويل الرؤيا، فوعوا أمر النبي أنه يوصيهم بحفظ أموالهم وعدم التفريط بها، فأمسكوا أيديهم وأخفوا بعض المال بعد أن ذهب أكثره ولم يبق إلا أقله، وعملية السخرة الشهرية (السرقة) مستمرة، وهكذا استخلص الرقباء كل ما استطاعوه من أموال المعتقلين.
17/3/1981 مرض الجرب يغزو معتقلي سجن تدمر العسكري
ظهر مرض الجرب وانتشر بين المعتقلين في سجن تدمر العسكري الصحراوي منذ مدة ليست قصيرة، وكان ذلك نتيجة لأمور كثيرة لعل أهمها: عدم إمكانية النظافة، من اغتسال وغسيل ثياب بشكل واف، وعدم نشر الغسيل وتجفيفه تحت أشعة الشمسي والهواء الطلق.. حيث أن الباب مغلق طوال اليوم علينا وعلى المعتقلين في جميع مهاجع السجن، والكثافة التي اشتدت أخيراً بدرجة كبيرة.
إضافة إلى جو الإرهاب والخوف الذي كان يشلّ حركتنا خلال غالب النهار، فنبقى جاثمين كل في مكانه نسمع أصوات العذاب والمعذبين، وننتظر دورنا.. ونفكر في مصيرنا. شكا أبو جميل أنه لا يستطيع النوم في الليل من الحكة، وأراني مواضع من جسمه كانت مليئة بالبثور الصغيرة، وكان الجلد أحمر مخدشاً، كما شكا قبله معتقل آخر من إصابة فطرية وتمعط والتهاب بين أعلى

فخذيه، ولم يكن هناك أي علاج.. اليوم جاء ممرض السجن فطلب مرضى الجرب لأول مرة.. وتجاسر بعضهم فأعلنوا عن أنفسهم. كان مهجعنا خمسة من المصابين.. جمع مرضى الجرب من جميع المهاجع، فوضعوا في المهجعين 9 – 10 بعد إفراغهما وعولجوا بمادة تسمى بنزوات البنزوبل فدهنوا بها أجسامهم مرتين ثم أخذوا إلى الحمام ثم أعيد كل معتقل إلى مهجعه بعد ذلك، وقد تحسنت حالهم إلى حد كبير كان في جعبة القادمين من مهجع الجرب في المرة الأولى هذه أخبار كثيرة مثيرة مع أنها لم تكن بذات أهمية ولكن (الغريق يتعلق بحبال العرمط) كما في المثال الشعبي، ولم يكن في هذه الأخبار جديد إنما هي أمور كان يتسلى المعتقلون بتداولها ومع ذلك كان بعضها مثيراً إلى حد بعيد. كان الأخ ابن الخمسين عاماً بعد عودته من مهجع الجرب يحمل في حقيبته رؤيا جميلة.. كان يحدثنا بها والدموع تملأ عينيه، وتنهمر على وجنتيه في تأثر شديد وسرور وإيمان وتسليم بقول أحد الأخوة الصالحين إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وتحدث إليه فقال له: (يا فلان بشروا أهل تدمر (معتقلي سجن تدمر) بالجنة) يقول أبو جميل رضينا يا رسول الله، رضينا يا رسول الله، تكفينا هذه البشرى.

15/4/1981

أخذت دفعات تالية من مرضى الجرب فوضعوا هذه المرة في المهجع 28 في الباحة السادسة، وكانت عدة مهاجع في هذه الباحة لا تزال فارغة.

وأخذ الممرض يمر في كل شهر على المهاجع، فيأخذ المرضى إلى مهجع الجرب فيعالجون هناك ويعودون إلى مهاجعهم، وكانت الإصابات تتوالى فإذا عولج بعض المصابين ظهرت الإصابات في أعداد أخرى.. وقد أصبت بهذا المرض فغزا الجرب جسمي ولم أعد أطيق الغطاء في الليل، حيث تثور الحكة وتشتد مع الحرارة والدفء، فكان يكشف الغطاء عني لا شعورياً دون إرادتي، مما أدى إلى إصابتي بمرض في الكلى جعلني أبول دماً، أعلمت رئيس المهجع فنقل الأمر إلى الرقيب، فلم يرد عليه إلا بالسباب.. كالعادة.. فخرجت مع المصابين بمرض الجرب فأخذنا الممرض إلى المهجع (28) مهجع

الجرب في ذلك الحين وهناك عرضنا على طبيب نصيري شاب حديث التخرج، فردّ كثيرين لأنه لم يكن يهتم بفحصهم أو علاجهم، وكنت من هؤلاء، وقد شكوت إلى الطبيب ما بي من مرض الكلى فلم يردّ عليّ.. وقال لي بعض الجلادين الذين كانوا مع الطبيب (بعدين ولك).. وأعدت إلى المهجع بدون علاج، وخرجت مرة أخرى للمعاينة والكشف، وكانت بثور عديدة قد ظهرت في أماكن كثيرة من جسمي.. فقبل الطبيب أن أعالج، وكان الذي يشرف على علاج المعتقلين هو الممرض الذي يدعى أبو بسام.

كان بعض المعتقلين يشكون من إصابات شديدة من الجرب، وقد امتلأت أجسامهم بالدمامل المتوزمة المقيحة في الساعدين والرجلين والأماكن المستورة مثل منطقة العانة، كما رأيت أحد المصابين بالجرب وهو حلبي ويدعى (م-ص-ج) كان يعاني من إصابة جرب لم يعرف لها مثيل قبلاً، فقد كانت منطقة الآليتين وما فوقها دملاً واحداً متصلاً متقيحاً نازفاً.. وحدثني أنه منذ أكثر من شهر ونصف لا يستطيع النوم ليلاً من الحكة الشديدة الحارقة، فهو يدلس باستمرار ويكشط في هذه الدمامل حيث يسيل منها القيح والدم، ورأيت يديه فإذا أصابعه مبرية ملساء مصقولة لماعة قد براها الحك المتواصل.

وكان هناك عدد كبير من الأحداث قد جيء بهم من مهجعي الأحداث (31 – 32) اللذين وضعوا فيهما وكانت إصابات الجرب فيهم كثيرة وقوية.

عولجنا من مرض الجرب وأعدنا إلى مهاجعنا، ولكن المرض لم يغادرني رغم أنه هدأ عدة أيام ولكنه عاد كأنشط ما يكون.

كانت طريقة العلاج كالتالي: يدور الممرض أبو بسام مع نفر من الجلادين على المهاجع، فيخرج مرضى الجرب ويرسلهم إلى مهجع الجرب رقم (28) وهناك يخرجون بالشورت إلى الباحة حيث يجري الكشف والمعاينة عليهم من قبل الطبيب غالباً، وبعض الأحيان من قبل الممرض وحده فقط، ويعاد من تكون إصابته غير واضحة، ثم يؤخذ المرضى بالشورت إلى الحمام في الساحة الثانية فيتركون في الحمام ما بين 4 – 7 دقائق ثم يعيدونهم إلى المهجع، ويأتي الممرض فيأمر

بإخراجهم بالشورت إلى الباحة حيث يوزع عليهم زجاجات الدواء وهو (محلول بنزوات البنزويل) ويعطي لكل زجاجة (4 – 5) أشخاص، فيدهنون أجسامهم بما فيها خلال وقت يسير ثم يدخلهم إلى المهجع
ويأخذونهم إلى الحمام في اليوم التالي ويعاد الدهن مرة ثانية مع حمام آخر، وبعض الأحيان يعاد الدهن مرة ثالثة بعد بضعة أيام، وفي تمام الأسبوع يعادون إلى مهاجعهم. لقد عشت في مهجع الجرب أياماً لا زلت أذكرها في نفسي، كانت مليئة بالغرائب والمشوقات، والتقيت فيها بمجموعة طيبة من الدعاة الإسلاميين والرجال الطيبين، والمربيين والنوابغ، وضباط مسرحين وطلاب أخذوا من مدارسهم، ومهندسين وأطباء وعمال.

المكيدة تنقلب على أصحابها
وكان مما علمت وسرني كما سرّ غيري.. أخبار مهجعي الأحداث فقد علمت أن الأحداث قد وضعوا في مهجعين هما (31 – 32) وأن هؤلاء الشباب قد صعب عليهم الأمر للوهلة الأولى واضطراب الحال بعض الوقت، ولكن قام من بينهم من ضبط الأمور ونظموا الأعمال وشدوا العزائم، وقووا الهمم حتى انتظم أمر الأحداث في كلا المهجعين، وصلح حالهم وظهرت فيهم أخلاق الإيثار والتضحية والبذل، ففي الطعام يؤثر بعضهم بعضاً، وفي التعذيب يفتدي بعضهم بعضاً، وفي الشجاعة ينافس بعضهم بعضاً، بل وفي التقى والصلاح والحكمة حتى فاقوا الشيوخ في كل شيء.
16/4/1981 تقييم لإجراءات علاج الجرب في سجن تدمر العسكري الصحراوي
لاشك أن مهجع الجرب والعلاج الذي قدم فيه، كان له تأثير لا بأس به في تهدئة المرض ووقفه جزئياً، كما خفف من آلام المعتقلين الرهيبة في ناحية واحدة على الأقل من نواحي معيشتهم الملأى بالآلام في سجن تدمر العسكري، وهي ناحية الأمراض عامة ومرض الجرب خاصة، ولكن العلاج كان قاصراً لا يعالج المرض بشكل جذري صحيح بل يعالج أعراض المرض ويترك كافة النواحي الهامة الأخرى، مثل وقف سريان المرض، التأكد من إجراءات النظافة والتطهير أو تأمينها، تأمين البيئة الصحية السليمة.

وهذه الأمور هي أساس العلاج في مرض الجرب خاصة.. وفي الأمراض السارية عموماً.. ومع ذلك فما زالت الظروف البيئية والنظافة سيئة جداً، والمعتقلون محجوزون في المهاجع الضيقة في زحام شديد يسهل معه بل يتأكد سريان مرض الجرب وغيره من الأمراض المعدية، حيث يتم انتشارها بأكثر من وسيلة، ولا يتأمن في هذه المهاجع أي شيء من وسائل النظافة إضافة إلى عدم إمكانية تطبيق النظافة والتطهير اللازمين لذلك كانت بيئة صالحة لمرض الجرب مسهلة لانتشاره وقوته.

ولعل أهم شيء أن يستمر العلاج بشكل دائم لاستمرار العدوى وعدم توقفها، وهذا ليس مجهولاً لدى جهاز السجن العسكري أو الطبيب.. حتى لقد سمعت بأذني الطبيب يكفر ويجدف لأن أحد المرضى الذي عولج قبل شهر فقط، يأتي الآن مصاباً بالجرب من جديد.. ولو درى هذا الطبيب لكفر بعمله وعلاجه القاصر الناقص الفاشل، وعلم أنه إنما يضحك بذلك على نفسه.

لذلك لما توقف العلاج في منتصف عام 1981 لم تمض سوى فترة بضعة أشهر حتى رأينا مرض الجرب وقد أصاب كل المعتقلين في المهجع بل وكل نزلاء السجن بدرجات متفاوتة، علماً بأن عدد المعتقلين في ذلك الحين كان يقارب خمسة آلاف معتقل رغم أن مرض الجرب هذا مرض قديم وسيط وسهل العلاج.

ومع ذلك فإن الألوف المؤلفة من المعتقلين في سجن تدمر العسكري تعاني منه آلاماً رهيبة تقضّ مضاجعهم وتذيقهم العذاب في الليل والنهار..

والإنسانية المغفلة غافية على هدهدات السلام والحرية والأمان.

قد يكون ما يجري إهمالاً أو نكاية ولكنه يبدو دائماً في صورة القصد مع سبق الإصرار والتصميم، وليس مرض الجرب بالمرض الوحيد الذي يعاني منه نزلاء سجن تدمر، بل هو حلقة من سلسلة من الأمراض السارية وغير السارية والإصابات.. ويبقى كل ذلك دون علاج.. أو يعطي بعد ذلك علاج قاصر لا يسمن ولا يغني من جوع..

من أخبار مهجع الجرب.. الإعدامات

كان من أخبار مهجع الجرب خبر بدا غريباً غير معقول أو مقبول في حينه، وكان مفاده أن عمليات إعدام تتم هنا في سجن تدمر.. وإن ما يسمونه (المحاكم) حينما يطلبون بعض المعتقلين عند الفجر، ويأخذونهم مع أغراضهم ويقولون لهم أنتم مطلوبون (محاكم) فهذا الطلب إنما هو الإعدام.. وكان معنى هذا الكلام رهيباً.. فسارعت كما سارع كثيرون غيري إلى ردّه وتكذيبه في الحال.

كان معناه أن كل أولئك الذين أخذوا باسم محاكم وهم عدد ضخم قد استشهدوا ومضوا إلى بارئهم، وهذا ما حاولنا نفيه واستبعاده، ولكن كان هناك أدلة تؤيده أهمها:

- التكبير الذي يسمع بعد أخذ هؤلاء المطلوبين (محاكم) بفترة ساعة أو ساعتين، وقد سمعه المعتقلون في عدد من المهاجع..

- وهناك حادثة أخرى مؤيدة، ففي أحد المهاجع تواعد أحد الأخوة المعتقلين مع إخوانه، وهو يعلم أنه معرض للإعدام: إن كان هناك إعدام، على أنه إذا طلب (محاكم) كالعادة، ووجد أنه الإعدام، فسوف يعلن لهم عن ذلك بأن يصرخ بأعلى صوته: أنا فلان بن فلان أموت في سبيل الله..

وقد طلب هذا الأخ بعد ذلك (محاكم) قبيل شروق الشمس، فلما أخذ تنصت زملاؤه في المهجع، فلم يلبثوا بعد ذلك أن سمعوا صوته ينادي بقوة: أنا فلان ابن فلان أموت في سبيل الله.

- ومن الأدلة على ذلك أن الجلادين كانوا يعصبون أعين المطلوبين (محاكم) ويوثقون أيديهم إلى الخلف.

- كان الأمر خطير جداً، ولم يكن من السهل تصديقه، لذلك كنت أبحث عن مبرر لرفضه، وقد حاول آخرون أن يموهوا على الأمر كله.. ولكن الأمر كان يتوضح أكثر وأكثر حتى غدا جلياً ظاهراً.

واعتذر المموهون بأنهم خافوا من تأثير الخبر.. على الشباب.. وما يثيره من رعب واستفظاع، وجاء هذا الخبر مكملاً لكأس الظلم المريرة.. فها هم الطغاة يسفكون الدم الطاهر البريء ظلماً وجوراً وراء الجدران السميكة، وفي سرية وخفاء.. شأن الجبناء.

كشف هذا الأمر وزال عنه الخفاء واللبس، تفصيلات دقيقة واضحة، فبدا كريهاً مرعباً، إنه الموت يتخطفنا، يتخطف المعتقلين في سجن تدمر.. شباب وادعون، طاهرون، مستقيمون، ورجال كرام أبرار صالحون، رحمكم الله أيها الشباب الغض إنكم كالبراعم لما تتفتح أكمامها بعد فجاءتها اليد المجرمة فاقتطعت الغض الرطب واعتسفت الحياة الثرة الغنية الطاهرة، وأراقت الدم الزكي، فرحمكم الله أيها الشباب المؤمنون.
كم تفاءلنا أن تكون هناك محاكمات فعلية يحاكم فيها أولئك الذاهبون فتنصفهم، وكنا ننتظر أوبتهم ونتواعد معهم على اللقاء، ونأخذ العناوين فإذا هو ذهاب لا أوبة بعده ولا لقاء مع أولئك الأحباب في الدنيا، ولكن اللقاء في الآخرة في جنة الخلد إن شاء الله.
وكان ممن أخذ في الفترة السابقة عدد كبير من الأخوة أذكر منهم:
1 – الشيخ محمد خير زيتوني/ حلب – إمام مسجد – 40 عاماً.
2 – الأستاذ رياض جعمور/ حماة – 30 سنة – مهندس.
3 – حسن الصوراني/ معرة النعمان – 30 سنة.
4 – عمر حوا/ اللاذقية – 30 سنة.
5 – محمد مصدق طرابلسي/ حمص – مدرب رياضي – 25 سنة.
6 – عزام خزندار/ حمص – طالب – 28 سنة.
7 – أسامة خواشيكة/ دمشق – إمام مسجد – 40 سنة.
8 – عبد المعطي حلموشي/ حمص – طالب – 18 سنة.
9 – عرفات يونس/ دمشق – طالب – 20 سنة.
10 – محمد رنكوس/ دمشق – موظف – 35 سنة.
11 – أسامة لبابيدي/ حلب – طالب – 19 سنة.
12 – بسام نابلسي/ حمص – مهندس – 30 سنة.

مذبحة تدمر الكبرى في حزيران 1980
كان من أخبار مهجع الجرب أيضاً خبر مفاده اعتقال ضابط طائفي كبير في الأردن يدعى عدنان بركات مع بعض عناصر سرايا الدفاع، الذين ذهبوا إلى هناك بقصد اغتيال رئيس الوزراء الأردني مضر بدران، وخلال التحقيق معهم اعترفوا بأنهم مرسلون من قبل رفعت أسد لهذه الغاية، واعترفوا بأنهم شاركوا في مجزرة

تدمر بأنفسهم، وأنهم قبضوا على ذلك مبلغاً من المال، وقد أخبرنا بهذه الحادثة أخ دمشقي، وأخبرنا أن هذه الاعترافات عرضت في التلفزيون الأردني وأن السلطة الحاكمة في سوريا قطعت التيار الكهربائي لمدة ساعتين عن مدينة دمشق وما حولها في وقت إذاعة هذه الاعترافات، وعرضها التلفزيون الأردني ولكن الكثيرين كانوا قد استحضروا مولدات كهربائية خاصة لتلافي مثل هذه الحالة المتوقعة، كما سجلت المقابلة التلفزيونية هذه على أشرطة الفيديو وأخذ الناس يتناقلونها بينهم.
نحن هنا في تدمر لسنا بحاجة إلى مزيد من التفاصيل، فإن الأخبار والشواهد ظاهرة حاضرة تحكي تلك القصة الرهيبة.
في آخر شهر حزيران وبالتحديد في يوم 26/ حزيران 1980 جرت محاولة لاغتيال حافظ أسد من قبل عناصر الحماية الخاصة به، وأذيع بعدها أنه أصيب في رجله اضطربت الأحوال بشدة في دوائر المخابرات والمعتقلات والسجون، وقف كل شيء بانتظار نتيجة الحادثة.
في زنازين المخابرات كان المعتقلون في شك مما يجري وفي عجب من هذه الحالة الغريبة التي هيمنت على دوائر المخابرات، وفي معتقل كفرسوسة بقي المعتقلون دون طعام على مدى أربع وعشرين ساعة لا يلتفت إليهم أحد ولا يسأل عنهم، والأبواب مغلقة والكل صامت، حتى أفاق المذهولون إلى أنفسهم.
وفي سجن تدمر بدا الاضطراب واضحاً في تصرفات جهاز السجن في ذلك اليوم، وصدرت الأوامر بتعذيب المساجين واندفع الزبانية وأغلبهم من النصيريين يسومون المعتقلين صنوف الضرب والإيذاء بشكل وحشي، أدى إلى حدوث إصابات كثيرة بين المعتقلين.
كما جرى تعذيب عدد من المهاجع خلال عملية الحلاقة، وقد كان التعذيب خلالها رهيباً، فكانوا يأخذون كل معتقل على حدة فيعذبونه ويستعملون أدوات الحلاقة فيصلمون الآذان أو يشقونها، ويقطعون الأنوف وغير ذلك، فيدخل المعتقل المهجع وهو في حالة سيئة بل بالغة السوء، وقد يحمل حملاً حيث يجري له رفاقه بعض الإسعافات.

وكان المعتقلون في حالة اندهاش وحيرة ورعب بالغ لما رأوه من عنف دموي، وهكذا بات المعتقلون شر ليلة وقد جاءهم الجلادون في الليل فضربوا بعض المعتقلين وأوقفوهم جميعاً على رجل واحدة والأيدي مرفوعة إلى الأعلى، وأسمعوهم شنيع الكلام والسباب، وأجبروهم على هذه الوقفة طوال تلك الليلة.

وقد اتخذت الاستعدادات ووضع مخطط لصلي المعتقلين بعذابات رهيبة في اليوم التالي.

وفي اليوم الثاني وصلت إلى المطار القريب مجموعة من الطائرات المروحية حوالي عشر طائرات تحمل عناصر من سرايا الدفاع المسلحين بلباس الميدان الكامل، وكانوا حوالي (200) عنصر مع ضباطهم، وكان لديهم الصلاحيات التامة بأن يدخلوا سجن تدمر العسكري ويقتلوا كل من فيه من المعتقلين الذين يبلغ عددهم حوالي (1000) معتقل ومعهم أمر صريح بذلك وجاء (80) عنصراً إلى السجن للقيام بالمهمة وترك الباقون كاحتياط.

كان مدير السجن على علم مسبق بالأمر وقد اتخذ التدابير اللازمة، فأمر بإجراء تفقد لموجود السجن وضبط عددهم، وقد قال أحد الرقباء من زبانية السجن للمعتقلين في بعض المهاجع هازئاً بهم: (حضروا حالكن بدنا نفرج عنكن) وهو يعلم أن الموت سيحصدهم بعد قليل.

كان عدد مهاجع سجن تدمر في ذلك الوقت حزيران 1980 (34) مهجعاً موزعة على سبع باحات، ولكن لم تكن جميع هذه المهاجع ملأى بالمعتقلين، بل كان المشغول منها (20) مهجعاً وفي كل مهجع ما بين (30 – 100) معتقل، وكان مجموع المعتقلين في السجن (1000) معتقل تقريباً.

وهكذا استلمت قوة سرايا الدفاع مفاتيح السجن فور وصولها دون أي صعوبات.

وفي الممر الواسع بعد باب السجن الرئيسي الثاني المجاور للمطبخ في أقصى الجهة الجنوبية من السجن وقفت سرايا الدفاع هناك وأخذ قائدها يوزع المهمات على عناصره، وقسّمهم إلى مجموعات عدد أفراد المجموعة حوالي (15) عنصراً وانطلقت المجموعات

لتنفيذ عملية قتل المعتقلين الموجودين في سجن تدمر..
كان المعتقلون في حالة سيئة بعد عمليات التعذيب التي جرت لهم في اليوم السابق، وكانوا في حالة قلق وتوجس ورعب، كان الأمر بالغ الخطورة وقد رأوا من حقد الجلادين النصيريين وشراستهم وتمتعهم بالعذاب ومناظر الدم ما هالهم.. فانطلقوا يدعون الله ويستغيثونه ويسألونه حسن الختام.
بدأت عملية الإبادة والقتل للمعتقلين في مهاجع الباحات (3 – 5 -6) وهو القسم الجنوبي الغربي من السجن، فكان عناصر السرايا يفتحون باب المهجع ويأمرون المعتقلين بالابتعاد عن الباب إلى آخر المهجع، ثم يدخلون ويبدؤون بإطلاق النار عليهم، وارتفعت حينئذ أصوات المعتقلين في هذه المهاجع بالتكبير مع صراخ التألم مختلطاً بأصوات إطلاق الرصاص.. في أحد هذه المهاجع انقض معتقل كان يختبئ في المرافق القريبة من باب المهجع على العساكر من الخلف، واستخلص من أحدهم بندقيته فقتله بها وأصاب اثنين آخرين بجراح، ولكن العساكر الآخرين تكاثروا على المعتقل وأخذوا يطلقون النار عليه حتى قضوا عليه.
وانطلق جنود سرايا الدفاع يفرزون المعتقلين المكومين في المهاجع ويقضون على من يجدوا فيه بقية حياة حتى أفنوهم عن آخرهم.. وتجمعوا أخيراً ثم انطلقوا إلى الباحات الثلاث الباقية وهي ذات الأرقام (1 – 2 – 4) وهي تشكل القسم الشمالي الشرقي من السجن، وفيها عشرة مهاجع على الأقل ملأى بالمعتقلين..
وكان بعض المعتقلون في مهاجع هذه الباحات قد سمعوا أصوات إطلاق النار وبعض الصراخ والاستغاثات، ولكن لبعد المسافة وانفصال الباحات بعضها عن بعض لم يتأكد لديهم شيء، وإن كانوا على خوف وحذر لما لمسوه من شراسة الجلادين ومظاهر الحقد في تصرفهم، ولم يكن في إمكانهم لأن يعملوا شيئاً سوى الالتجاء إلى الله سبحانه بالدعاء والاستغاثة، وطلبوا من الله سبحانه أن يقبلهم شهداء في سبيله.

وقال بعضهم لبعض: الملتقى في جنة الخلد إن شاء الله، وبكى بعضهم وهم يدعون الله أن ينصر المسلمين ويخزي الظالمين المجرمين.
وحيث أن المهاجع في هذه الباحات معتمة واطئة السقف فقد خشي جنود السرايا دخولها على المعتقلين، خاصة بعد ما جرى معهم في المهاجع السابقة، فقاموا بإخراج المعتقلين مع أغراضهم الشخصية إلى الباحة رقم واحد وجمعوهم في زاويتها الشمالية الشرقية، ثم انقضوا عليهم وأصلوهم وابلاً من رصاص بنادقهم الرشاشة حتى قضوا عليهم، وتعالت خلال ذلك الاستغاثات وصراخ التكبير وكلمات الشهادة، ولكن عدداً من المعتقلين هؤلاء تمكن رغم الرصاص المنهمر من مغادرة الباحة إلى داخل أحد المهاجع، فلحق بهم جنود السرايا إلى داخل المهجع وقتلوهم عن آخرهم.
وفي الباحة رقم (4) أخذوا يفتحون أبواب المهاجع ويلقون بقنبلة إلى داخلها ثم يدخلون عليهم ويقتلون من بقي حياً من المعتقلين. وفي الباحة رقم (2) أخرج جنود السرايا المعتقلين من المهاجع الأربعة وجمعوهم مع أغراضهم في زاوية من الباحة محصورة ليس لها منفذ وذلك مقابل نهاية المهجع رقم (8) ذي الشرفة الواسعة، ثم انقض العساكر عليهم فأصلوهم وابلاً من رصاص بنادقهم، وألقوا عليهم قنابل حارقة فاشتعلت النار في ثياب المعتقلين وأجسادهم وهكذا حتى أفنوهم عن آخرهم.
واندفع عساكر سرايا الدفاع المملوءين بطولة زائفة هم وضباطهم اندفعوا إلى أكوام الأجساد البشرية يقلبونها ويبحثون عمن فيه بقية حياة فيقتلونه ذبحاً أو طعناً بالحراب، حتى اصطبغت أيديهم وثيابهم بالدماء، ثم غادروا السجن أخيراً إلى المطار عائدين.
وهكذا وخلال ساعة واحدة من عمر الزمن في صباح 27/6/1980 قتل قرابة (1000) معتقل.
وامتلأت مهاجع وساحات سجن تدمر برائحة الدم والموت، والمئات من الضحايا مكومين مضرجين بالدماء، فقام جهاز سجن تدمر باستحضار سيارات عسكرية شاحنة ضخمة، واشتركت عناصر الخدمة في السجن (البلدية) مع عناصر جهاز السجن في عملية

تحميل الجثث ووضعها في السيارات مع الأغراض وسرقوا خلال ذلك كل ما وجده معهم من ساعات ونقود، ونقلت الجثث إلى صحراء تدمر حيث أفرغت في حفر كبيرة، ردمت بواسطة البلدوزر وكان بعضها لا يزال فيه بقية حياة.

ولكن بقي الدم الزكي يغمر الأرض في كثير من نواحي السجن، ويتجمد فوقها إضافة إلى آثار كثيرة مختلفة.. فأحضر جهاز السجن مجموعات من عناصر الخدمة (البلدية) قامت بتنظيف مهاجع السجن وساحاته من الدماء وبإزالة كل ما يمت إلى الجريمة بصلة، وقد جرى ترميم عام لمهاجع السجن وطليت جدران المهاجع بطلاء مناسب يستر ما تحته من آثار الجريمة ولكن هيهات.. فحتى الدماء أبت أن تزول في كثير من الأماكن في الحفر والزوايا، لتبقى شاهداً على الجريمة لا ينمحي. وقدر الله أن ينجو من هذه المجزرة الرهيبة بضعة عشر معتقلاً أعمى الله بصر المجرمين عنهم.

الدفعات 25/4/1981

في استمرارية مرعبة تأتي أفواج المعتقلين من كل أنحاء سوريا حيث ترسل فروع المخابرات العسكرية من تجمع ما لديها من المعتقلين الذين انتهى التحقيق معهم ترسلهم مباشرة إلى سجن تدمر العسكري، وقد تبين لنا أن هذا الإرسال يتم دورياً ولكل محافظة يوم معين ترسل فيه المعتقلين إلى سجن تدمر كالتالي:

السبت: محافظة حلب.

الاثنين: محافظة اللاذقية.

الثلاثاء: محافظة دمشق.

الأربعاء: محافظة حمص.

الخميس: محافظة إدلب.

ومع ذلك قد تتغير المواعيد عند الضرورة، وكان المعتقلون القادمون من مختلف الأعمار والفئات، ففيهم الصغير والكبير، والطالب والموظف، ورجل الأعمال والعامل، وكان يغلب عليهم فئة المثقفين من الطلاب وحملة الشهادات، ويتراوح عدد المعتقلين في الدفعة ما بين 25 – 80 معتقلاً، وكان حفل تعذيب الاستقبال الرهيب ينظم لهم سريعاً، وغالباً يبدأ التعذيب مع الصباح الباكر، فيتجمع الجلادون بعدد

مناسب ويأخذون هؤلاء القادمين إلى باحة الاستقبال أو التعذيب الباحة رقم (1) المشهورة، وهناك يعرونهم من ثيابهم تحت الضرب الشديد، ثم يضربون كل واحد في الدولاب حتى ينهكوه ثم يضربونه بالعصا الرهيبة فيحطمونه، وهكذا حتى تنتهي الدفعة، وخلال التعذيب الفردي يتم تعذيب جماعي حيث يطوف نفر من الجلادين بالكرابيج فيضربون المعتقلين دون كلل.
وخلال هذا الحفل التعذيبي الرهيب تشتد الأصوات أصوات الصراخ والعويل من المعذبين، والاستغاثات وطلب الرحمة وتشتد بالتالي أصوات الزجر والسباب والتجديف، وتكون أصوات الكرابيج اللاسعة كصوت المطر المتساقط لا تقف ولا تهدأ.
وكنا نسمع من مهجعنا أصوات العذاب والعويل طوال اليوم، وبعد هذا العذاب الشديد كانوا يأتون بالمعتقلين المعذبين فيضعونهم في المهجع رقم (1) ويتركونهم فيه عدة أيام وهم في حالة مؤلمة من الإنهاك، ويتعاورونهم بالعذاب والضرب بين الحين والحين، وقد مات أحد هؤلاء المعتقلين بعد حفل تعذيب (الاستقبال) بيوم واحد وكان عمره حوالي أربعين سنة، ويبدو أنه قد نال يوم الاستقبال عذاباً شديداً، وضرباً أليماً حيث أنه لم يكن قادراً على السير، فحمله رفاقه لأنه كان في حالة شديدة من الانهيار، وكان يتساءل: لوين..؟ فإذا ضربه الجلادون استغاث بالله، فيزيدون عليه ويشتدون.. وقد أبلغ زملاؤه عن موته زبانية السجن وأخرجوه لهم على بطانية، وكانوا يحسدونه على هذا المصير وهذه النجاة من بغي الظالمين.
كانت الكثافة تشتد في مهاجع سجن تدمر حتى استغرقت كافة المهاجع الفارغة في السجن.. وملئت المهاجع (26 – 27 – 28) وكان يستعمل الأخير منها في شهري شباط وآذار الماضيين كمهجع للمصابين بالجرب.
وبعد امتلاء كل المهاجع الفارغة أخذ جهاز السجن يجمع المعتقلين فيبقيهم في المهجع (11) بضعة أيام تحت وطأة العذاب الشديد ثم يوزعونهم على المهاجع.

الناجون من المجزرة

في الفترة ما بين أواخر عام 1980 وأوائل 1981 كان في أحد مهاجع الباحة السابعة ستة عشر معتقلاً فقط لم يخلطهم جهاز السجن بغيرهم من المعتقلين لذا لم يعرف تماماً من هم (وإن كانت هناك إشاعة تقول أنهم هم الذين نجوا من مجزرة تدمر الكبرى) وقد نقلوا بعد ذلك إلى جهة غير معلومة.

نساء في سجن تدمر

وضع في غرف المستوصف المعتقلات من النساء، وكان عددهن حوالي عشرين امرأة، وقد كن قبل ذلك في المهجع رقم (11) وبقين فيه شهرين أو ثلاثة ثم نقلن إلى المستوصف في الباحة السابعة، وخلال وجود النساء في المهجع (11) ولدت إحداهن وهي امرأة حلبية وزوجها معتقل وموجود في سجن تدمر أيضاً، وهو في المهجع المزدوج (5 و 6) ومن السجينات فتاة نصرانية كانت موظفة في السفارة العراقية وامرأة مسنة من الساحل السوري، وطبيبة دمشقية مع أمها، وأبوها معتقل في مهاجع الرجال أيضاً، والمهاجع التي لا توجد فيها معتقلون هي (1 – 2 – 3 – 14) ويبدو أنها تستعمل كمستودعات.

وفي محاولة قمنا بها لإحصاء عدد المعتقلين تبين لنا أن المهاجع المشغولة بالمعتقلين هي حوالي (30) مهجعاً، وفي كل منها ما بين (100 – 135) معتقل تقريباً، فكانت النتيجة كالتالي 30×115= 3450 معتقلاً.. كما سمعنا أحد الرقباء يقول في معرض كلامه مع زملائه: (عندنا في هالسجن (3500) معتقل).

4/5/1981

انتشر مرض الإسهال في مهجعنا واشتد بحيث كان 60 معتقلاً من أصل 100 في المهجع مصابين بالإسهال الشديد.. وكان يعالج إما بالامتناع عن الطعام أو شرب الشاي (وكمية الشاي قليلة جداً ولا تتجاوز كوباً واحداً من الشاي البارد) وكانت بعض الحالات تهدأ وبعضها يسكن تماماً رحمة من الله سبحانه، ولم يكن يظهر للطبيب في السجن أي أثر.

11/5/1981

قبيل منتصف الليل جاء الزبانية على عادتهم وفتحوا باب مهجعنا وطلبوا خروج المصابين بالإسهال، وحيث أني كنت مصاباً بإسهال شديد منذ أيام، فقد خرجت مع عدد من الأخوة المعتقلين المرضى، ثم أخرجوا مرضى الإسهال من المهاجع الأخرى في الباحة، وأخذونا إلى المهجع (13) في الباحة الثالثة فوضعونا فيه وتابعوا عملهم في جمع المرضى (المصابين بالإسهال والقيء) من مهاجع السجن الأخرى، كان بعضهم يسير على قدميه وبعضهم يسندهم زملاؤهم وآخرون يحملون بالبطانيات لعدم استطاعتهم السير، وكانوا يضعونهم أمام باب المهجع ومن ثم نقوم نحن بإدخالهم وخدمتهم والعناية بهم رغم ما نحن فيه من مرض.
المهجع (13) عبارة عن غرفتين متجاورتين يصل بينهما باب في الوسط، وفي زاوية الغرفة الداخلية مساحة محاطة بحافة من الإسمنت وفيها مرحاض (ملئ بالشقوق والشروخ في أرضيته) ومغسلة، وكان في هذا المهجع أربعون معتقلاً منهم الأخ أمين الأصفر، وقد أخرجوا قبل مجيئنا فوزعوا على المهاجع الأخرى..
علمنا هنا أن مرض الإسهال والقيء لم يكن محصوراً في مهجع أو مهجع معينة، بل هو وباء عام منتشر بين المعتقلين في مهاجع السجن كافة، وأن الطبيب أعلن انتشار وباء الكوليرا في المعتقل، وذلك بعد أن كثرت الإصابات والوفيات في العديد من المهاجع، واضطرت إدارة السجن إزاء ذلك إلى الاعتراف بالأمر الواقع والعمل على معالجته، ولكن زبانية سجن تدمر أصروا على عدم السماح بإخراج أي معتقل من سجن تدمر مهما كانت الأسباب ومهما كانت حالته المرضية وأنه يتحتم معالجة المصابين ضمن السجن حصراً، ووافق طبيب السجن النصيري الطائفي على هذه الخطة الجهنمية، رغم علمه باستحالة هذه المعالجة ضمن السجن من الناحية الطبية.
وحين يتم مسلسل المتناقضات كان طعام الغداء الذي أحضر لنا عبارة عن برغل مطبوخ إضافة إلى حب الفاصوليا المطبوخ بماء البندورة (الطماطم) والدوسير (حلويات سيئة الصنع) وكانت هذه المواد الغذائية هي مما يزيد مرض الإسهال أكثر لدينا، وقد طلب أحد المرضى من الطبيب تأمين طعام مناسب مع شيء من

الحمضيات مثل الليمون، وأنه مستعد لدفع ثمن هذا الطعام من حسابه الخاص ولكن الطبيب لم يلتفت إلى كلامه رغم علمه بأن مثل هذا الطعام ضروري جداً لهؤلاء المرضى، ولذلك لم يتمكن المرضى من تناول أي طعام، وخاصة المرضى الذين أصيبوا بالتقيؤ، مما زاد حالتهم سوءاً وكان زبانية السجن خلال التفقد اليومي وخلال إدخال الطعام يفتحون الباب بسرعة وهم يحبسون أنفاسهم ثم يقفون بعيداً وعلى وجوههم إمارات الخوف من المعتقلين في مهجع الكوليرا، وحينما خرج أحدنا لإدخال الطعام واقترب صدفة من الجلاد صرخ الجلاد بفزع وابتعد وهو يسب ويشتم.

12/5/1981

امتلأ مهجعنا رقم (13) والذي يدعونه حالياً (مهجع الكوليرا) عن آخره وبلغ عدد المصابين فيه (40) مصاباً كان عدد منهم في حالة خطرة والإسهال والتقيؤ شديد لديهم، وبعضهم عاجز عن الحركة تماماً لشدة ضعفه وهزاله وقوة إصابته وهؤلاء فقط كانوا يحتاجون إلى مستشفى كاملة لكي يمكن إسعافهم وتقديم الخدمة والعلاج اللازم لهم خاصة وأن عدداً منهم كان يتقيأ ويتبرز لا شعورياً ملوثاً ثيابه.

وهكذا فإن المهجع (13) كان عبارة عن مستشفى غريب أو محجز كوليرا من نوع عجيب، قال أحد الأطباء المعتقلين: إنه من الناحية الطبية فإن كل نزلاء سجن تدمر يعتبرون مخالطين حاملين لجرثوم الوباء ويجب أن يحجزوا ويعالجوا وتجري لهم التحليلات حتى تثبت سلامة أجسامهم من جرثومة الوباء.

كانت الطريقة التي تتبع لعلاج الوباء في سجن تدمر تلغي جميع المبادئ والنظم والأعراف الطبية، وكأن المهجع (13) إنما هو (غرفة النزع) المعروفة في المستشفيات هذا دون الالتفات إلى طرق الموت الأخرى في سجن تدمر وإلا عد السجن كله (سجن الموت)!

أحضر لنا الزبانية فطوراً كان مؤلفاً من مربى وشاي بارد فخصصنا المرضى المدنفين بمعظم الشاي ولكن دون فائدة فما كان يستقر في أجوافهم شيء بل كانت

معداتهم تقذف كل طعام يدخل إليها –قيئاً- خلال دقائق.
وكانت الحالة الصحية للمرضى لا تصل مرحلة الخطر حتى يبدأ معهم القيء، فإذا بدأ القيء لدى المريض تدهورت حالته الصحية وضعفت قوته وتلاشت مقاومته، وتنعدم إمكانية استفادته من الطعام أو الشراب عن طريق الفم، لأنه لا يستقر في جوفه شيء فهو يقيء كل بضع دقائق سواء كان في معدته شيء أم لم يكن، فهو يقيء مادة رغوية مائية، ثم يشتد عليه الدوار والدوخة، ويقع إذا ما حاول الوقوف.
لذلك كان يحدث بل يكثر وقوع المصابين خلال ذهابهم إلى المرحاض، مما يؤدي إلى مشاكل أخرى عسيرة، هي تلوث ثيابهم مع عدم وجود ثياب أخرى بديلة خاصة، وأن إمكانية الغسيل والتجفيف معدومة في المهجع، فكنا نضطر أن ننزع شيئاً من ثيابنا ونتركه لهم ونحرص على معاونتهم خلال حركتهم، كما قد يعجل القيء المريض فلا يتمكن من الذهاب إلى المرافق أو أخذ وعاء القيء فيقيء على ثيابه وأغراضه، أو يتبرز دون أن يشعر في ثيابه.. كل ذلك كان محنة جديدة وموتاً وهلاكاً محققاً يحق للمعتقلين في سجن تدمر تحت سمع المسؤولين وبصرهم وهم غير آبهين أو ملتفتين.
في الساعة العاشرة من صباح اليوم جاء الطبيب ينظر إلينا عن بعد وهو كاره قرف بينما الممرض يدور حوله ويقوم بإلقاء بعض الأسئلة وقياس ضغط لبعض المرضى المدنفين، ثم وزع علينا الممرض بعض الحبوب وطلب (سطلاً) من الماء فحلّ بعض المواد فيه، وطلب منا أن نشرب منه بكثرة وأخرج له المدنفون إلى الباحة فأخذ يعلق لهم أكياس السيروم في العراء بواسطة بعض الأوتاد التي كانت في الجدران.

13/5/1981
نظم بعض الأخوة المعتقلين من ذوي الخبرة الطبية، مناوبة ليلية للسهر على المرضى من ذوي الحالة الخطيرة والعناية بهم طوال الليل، وفي منتصف ليلة البارحة توفي الأخ المعتقل ناصح شنطيبي وهو من مدينة دمشق، وذلك بعد خمسة أيام من الإسهال والقيء الشديدين.

ضربنا الباب حتى حضر الحرس الموجود على السطح، فأبلغناه بالحادثة وبعد قليل جاء رئيس الجلادين المساعد أحمد مع نفر منهم، ولما علموا بالأمر أظهروا الشهامة، وتمنوا الموت لنا جميعاً، بينما كان المساعد أحمد رئيس الزبانية يقف بعيداً عن باب المهجع وقد لفّ رأسه بـ (لفاحة) وغطى بها فمه وأنفه خوفاً من هواء مهجع الكوليرا، وهو صامت من الخوف، وطلب الزبانية إخراج المتوفى فأخرجناه على بطانية ووضعناه في الباحة ومن ثم حمل إلى مثواه المجهول في حفرة في صحراء تدمر.

في الوقت نفسه كان مريض آخر في مرحلة الخطر وقد غاب عن الوعي، فسارعنا بإبلاغ الزبانية عن حالته ولكن رغم مضي الوقت لم يأت الطبيب فاضطررنا إلى ضرب الباب الحديدي وإبلاغ الحرس بالأمر، وبعد مدة من الزمن جاء الطبيب غاضباً حانقاً لأننا قطعنا عليه نومه، وأطل علينا من النافذة الصغيرة الموجودة في الباب وصرخ بحدة (إيش بدكن ولك حقراء..) فأخبرناه بالمريض المغمى عليه فقال: هاتوه لهون، فحملنا المريض إلى أمام الباب حتى أبصره فخاطبه: إيش فيك ولك؟ للصبح بداويك..! ثم أغلق النافذة الصغيرة ومضى.. أحد الأطباء المعتقلين لم يحتمل هذا الموقف المخزي من طبيب مثله، فتفل جهة الباب وقال: أين اليمين التي أقسمتها يا دكتور؟ أن تكون إنسانياً وأن تسارع إلى إسعاف المرضى، وأين شرف المهنة؟..

وتابع الزبانية اليوم جلب المصابين من مختلف مهاجع السجن وتابع الطبيب طريقته في النظر إلينا من بعد، بينما يقوم الممرض بالعلاج القليل القاصر، ولكن عدد المصابين قد زاد كثيراً ولم يعد المهجع (13) يستوعب هذا العدد الكبير من المرضى، فأفرغ الزبانية قسماً من المهجع (12) ذي الحجم الكبير ونقلونا إليه، فحملنا المرضى المدنفين على البطانيات ونقلناهم إلى المهجع الجديد.

15/5/1981

قام الزبانية البارحة بنقلنا من المهجع (12) إلى المهجع (34) في الباحة الخامسة بعد أن ضاق عن استيعاب من فيه من المصابين بوباء الكوليرا وغيرهم، وخلال الليلة

الماضية توفي معتقل آخر لم أعرف اسمه وضربنا الباب فلما جاء الزبانية أخرجناه إليهم وأخذ إلى مثواه المجهول.

20/5/1981
كان واضحاً أن الزبانية في سجن تدمر يشعرون بخوف شديد من وباء الكوليرا المستشري في السجن، فما عادوا يقتربون من المعتقلين بأي حال بل وما عادوا يجسرون على دخول المهاجع، بل صار يرعبهم هواؤها وكان هذا بالنسبة لنا أمراً غريباً، فبعد أن كنا نخاف مجيء الزبانية ونرهبه ونحسب له ألف حساب، إذا بالأمر ينعكس بقدرة الله سبحانه فكنا نشعر بالأمان من كيد الزبانية وفجورهم، وإذا حدث مرة واقترب أحد المعتقلين من الزبانية فإنهم كانوا يهربون منه فزعين، ويبدو أن المسؤولين أحسوا بأن الأمر يكاد يفلت من أيديهم، فسارعوا إلى اتخاذ الإجراءات المناسبة ليعيدوا إلى الزبانية ثقتهم بأنفسهم، فكثرت إجراءات العلاج وعمليات التنظيف الصورية في المهاجع والباحات، والتي كانوا يجبرون المعتقلين على القيام بها يومياً وتستمر من الصباح حتى الظهيرة إلى أن عادت الثقة والعنجهية شيئاً ما إلى نفوس الزبانية المنهارة.

6/6/1981 (عودة العذاب)
دفع المسؤولين في سجن تدمر العسكري بعض الجلادين إلى العمل على ضرب المعتقلين وتعذيبهم في محاولة منهم لتنشيط عمليات التعذيب، وتشجيع الزبانية ليتغلبوا على عقدة وباء الكوليرا التي أرعبتهم زمناً.. فكان الجلاد سمير والملقب بـ (حيو) لا يكف عن ضرب المعتقلين وتعذيبهم في كل مناسبة حتى تشجع آخرون واندفعوا يضربون المعتقلين ويعذبونهم في التفقد والحلاقة والتنفس.. ويتفننون في ذلك (والعذاب في القسوة والحقد) ففي كل تفقد ما أن ينتهي الرقيب من عدنا (ونحن نقف في صف خماسي في الباحة) ويعطي الأمر بدخول المهجع واحداً واحداً حتى يقف واحد أو اثنان من الجلادين بالكرابيج يضربوننا قرب الباب بقسوة ويصرخون فينا ويستعجلوننا: (بسرعة ولك) وحيث أن الباب ضيق ولا يتسع مع السرعة لدخول

أكثر من واحد، فتحدث الأزمة على الباب ويشتد التدافع بحيث يتأخر الدخول.
ولم يكن ذلك في صالحنا.. وكنا نتواصى بأن ندخل بالترتيب والنظام واحداً واحداً ولكن ما إن يسير الرتل الأول ويهجم الجلادون بالضرب على الأرتال الباقية حتى يضطرب الأمر فالضرب والعذاب لم يكن أمراً سهلاً ومع ذلك كان كثيرون يقفون ببرودة أعصاب لا يغادرون مكانهم ولا يتحركون إلا بنظام.. فلا يلقون إلا الضرب والعذاب ليكونوا الفداء لإخوانهم.
البارحة خلال التفقد وقف الجلادون قرب الباب يضربون واحتدمت المدافعة والضرب قرب الباب وعلى الصفوف وتصايح الجلادون.. ودخلت إلى المهجع بعد ضربتين قويتين إحداهما على الرأس.. (الخوف غريزة إنسانية) فيأبى الخوف إلا أن يثور في الصدر، ووقفت داخل المهجع حائراً.. متألماً لا أدري ما أفعل لإخواني الذين تكاثروا على الباب وغص بهم، وكانوا يدخلون خائفين مرعوبين أو مصابين.. ودخل أبو عبد الرحمن من الباب كان وجهه البريء الصادق التعبير يرسم صورة معبرة للخوف والرعب لا يمكن لأي فنان أن يصوره على حقيقته.. تذكرت إكرام الله للمسلم وأن النبي صلى الله عليه نهى عن ترويع المسلم.
اليوم رأينا ابتكاراً جديداً في التعذيب لم نعرفه من قبل، فما إن انتهى الرقيب من ضبط العدد وأصدر أمره بالدخول.. حتى اندفع بعض الجلادين يضربوننا كالعادة ولكن أحد الجلادين اندفع بحمية جاهلية وغل شيطاني فحمل سطلاً كان قرب الباب وأخذ يضرب بحافته السفلى الحادة والتي تبرز عن أرضيته بحوالي 3 – 4 سم يضرب بحافة السطل رؤوسنا فلا يصيب واحداً إلا شجّه وجرحه.. وكان يصرخ بوحشية.. واندفعنا إلى باب المهجع نحاول أن ندخله بسرعة كبيرة فكنا نقذف بأنفسنا فيه معرضين أنفسنا للاصطدام بالباب نفسه وله يد كبيرة تبرز مسافة (8)سم فكانت تشكل نتوءاً حديدياً مرعباً يمكن أن يكسر اليد أو يجرح الجسم.. وكنا معرضين للاصطدام بالحائط أو الوقوع في الباب لسبب ما.. وقد اصطدمت بالباب الحديدي وجرحت يدي.. وكان في المهجع بعد التفقد أكثر من عشرين جريحاً..

المحاكم الميدانية

كانت نتائج محاولة اغتيال حافظ أسد بتاريخ 26/6/1980 رهيبة إلى حد كبير، فبعد (مجزرة تدمر) التي دبرها رفعت أسد في غضبة عارمة وذهب ضحيتها مئات المعتقلين، اتخذت إجراءات أخرى صارمة وشديدة الوطأة لاجتثاث الإخوان المسلمين خاصة والمعارضين عامة، ولعل أشد هذه الإجراءات (القانون 49 الذي صدر بتاريخ 7/7/1980) والذي نص على اعتبار الانتماء إلى الإخوان المسلمين خيانة عظمى عقوبتها الإعدام، وترك مدة شهر واحد اعتباراً من تاريخ صدوره ونشره لكل من كان من الإخوان أو له علاقة معهم، ليتقدم منسحباً ويقدم تقريراً مفصلاً عن ما يعرفه عن التنظيم، مع عدم شمول هذه المهلة للمعتقلين.

ويقال أن المعتقلين قبل صدور هذا القانون يخضعون لقوانين أخرى مثل قانون الطوارئ الكثيفة، التي صدرت على المعتقلين (من قبل ومن بعد..) وشكلت لتنفيذ مضمون القانون (49) ثلاث محاكم على الأقل.

المحكمة الأولى: برئاسة غازي كنعان (نصيري – 35 سنة) ممتلئ الجسم متوسط الطول أسود الأسنان كثير التدخين، وهو يشغل إضافة إلى ذلك منصب رئيس فرع المخابرات العسكرية بحمص، وهو قريب لحافظ أسد. واختصت محكمته بمحاكمة المعتقلين في فروع المخابرات العسكرية في المحافظات، وكان مقرها في مركز فرع المخابرات العسكرية بحمص، مدة من الزمن ثم انتقلت إلى سجن تدمر.

المحكمة الثانية: برئاسة ضابط سني كبير وعضوية ضباط آمرين، أحدهم نصيري وكان النصيري يتصرف بأمور المحكمة كما يحلو له، وكان رئيس المحكمة اسمياً فقط، ومقر هذه المحكمة هو سجن المزة العسكري، وتختص بمحاكمة المعتقلين الواردين إليها من فروع المخابرات العسكرية المختلفة.

المحكمة الثالثة: برئاسة النقيب سليمان حبيب (32) سنة نصيري متوسط الطول، نحيف الوجه، ضئيل الجسم، معقد الشخصية، لا يدل ظاهره الهادئ على نفسيته القاسية، ولكن محاوراته ومداوراته للمعتقلين، ومحاولته الإيقاع بهم تكشف عما يحمله من كره شديد للإخوان المسلمين.

وتختص هذه المحكمة بمحاكمة المعتقلين الواردين عن طريق مخابرات أمن الدولة، وكان مقرها في مركز مخابرات أمن الدولة (285) كفرسوسة في بناء المعتقل القديم الطابق العلوي الغرفة قبل الأخيرة، في الممر إلى اليمين، ثم انتقل مقرها إلى سجن تدمر العسكري.
اشتد الإصرار على معتقل تدمر العسكري وزادت الثقة به (بعد المجزرة) وبدت له أهمية كبيرة.. خاصة وأنه مهيأ لدور جديد هام.. نعرفه من الاسم الذي أطلق عليه، وهو مركز التطهير الوطني لتصفية الإخوان المسلمين (ومن والاهم من المعارضين جميعاً) كما استحدث للسجن نظام جديد.. أشد قسوة وسوءاً عن ذي قبل، ويتلاءم مع الهدف منه.. وهو التصفية الجسدية والفكرية، وأعطيت الأوامر لأجهزة المخابرات وفروعها المختلفة لتجهيز المعتقلين لديها بالتحقيقات اللازمة، وإرسالهم إلى سجن تدمر العسكري لصالح (المحكمة الميدانية) هذا بالنسبة للفروع العسكرية في المحافظات، أما في دمشق فإن المعتقلين الموجودين لدى جهاز المخابرات العسكرية بدمشق أو الواردين إليها بصورة من الصور أو سبب من الأسباب، يحاكمون لدى المحكمة العسكرية الثانية في سجن مزّة العسكري.. أما جهاز مخابرات أمن الدولة فيجمع المعتقلين من فروعه في المحافظات، ليعرضوا على القاضي العسكري في المركز الرئيسي، معتقل كفرسوسة بدمشق، ويرسلوا إلى سجن تدمر للتنفيذ ثم بعد ذلك تغير الأمر وأخذوا يرسلون المعتقلين فوراً إلى سجن تدمر لإجراء محاكمتهم هناك.

أفواج المعتقلين الأولى إلى سجن تدمر
أخذت أفواج المعتقلين تأتي إلى سجن تدمر العسكري (بعد المجزرة) وقد نظف ودهن وهيئ، فكانت أول دفعة وصلت سجن تدمر بتاريخ 16/7/1980 (3 رمضان) ثم دفعة في منتصف الشهر الكريم أي 27/7/1980 ودفعة بتاريخ 9/8/1980 وكان عددها (100) معتقل ملء باصين كبيرين جيء بهم من مدينة حلب من سجن المسلمية وغيره وصلوا إلى سجن تدمر في السابعة صباحاً، وتهيأ لاستقبالهم وتعذيبهم جهاز السجن

فأخذوهم ووضعوهم في الباحة رقم (1) باحة الاستقبال أو التعذيب، وتجمع لتعذيبهم أكثر من (100) جلاد، ونظم لهؤلاء المعتقلين المساكين حفل من العذاب الرهيب، استمر من الساعة السابعة صباحاً وحتى السابعة والنصف مساء، وكان جميع المعتقلين في هذه الدفعة صائمين في تلك الأيام المباركة الأخيرة من شهر رمضان.. ثم وضعوا في المهجع المزدوج (5 و 6) في الباحة الأولى.

وكان نتيجة هذا اليوم الهائل (والذي كان يتكرر مع مجيء كل دفعة من المعتقلين إلى سجن تدمر) إن خروج هؤلاء المعتقلون من حفلة التعذيب مشوهي الوجوه ممزقي الظهور والأرجل والأيدي، متورمي الرؤوس مع كسور متبدلة كاملة وكسور في العمود الفقري وغيره.. وحتى بعد عام ونصف كان اثنان من هذه الدفعة لا يستطيعان الوقوف والمشي، بل يسير أحدهما على يديه ورجليه، ويسير الآخر محنى الظهر بشكل زاوية حادة. وجاءت دفعة صباح العيد بالذات (عيد الفطر) وكان عدد أفرادها (60) معتقلاً، واستمر تعذيبهم غالب النهار (نهار العيد) وجاءت أول دفعة من مركز مخابرات أمن الدولة (كفرسوسة) بدمشق إلى سجن تدمر يوم 19/8/1980 وكان تعداد أفرادها (70) معتقلاً كان منهم الشيخ محمد خير زيتوني (45) عاماً من علماء حلب، والذي يحفظ القرآن كله، والأستاذ المهندس رياض جعمور، من حماة وهو الوحيد الذي نجا من المجموعة التي أعدمت بتاريخ 28/6/1979 وهو يحفظ القرآن الكريم كله.

جاءت الدفعة الثانية بتاريخ 30/8/1980 وعدد المعتقلين المنقولين فيها (37) معتقلاً منهم إمام مسجد الشيخ فتوح بإدلب: الشيخ وليد شعبان، وهو مدرّس في المدرسة الشرعية. ومنهم الشيخ أسامة خواشكية (40) سنة من دمشق حي الميدان، وهو خطيب ومدرس في سجن القلعة بدمشق، ومنهم مدرب الكاراتيه في الكلية الحربية بحمص، محمد مصدق طرابلسي.. وغيرهم.. ودفعة بتاريخ 10/9/1980 كان فيها مجموعة من تلاميذ المدارس (الأحداث) ومن معتقل المزة العسكري أخذت تفد دفعات من المعتقلين أيضاً وهم الذين جرت

محاكمتهم هناك وضاق بهم سجن المزة، فحولوا إلى سجن تدمر العسكري.
ثم وصلت دفعة بتاريخ 22/8/1980 من ثمانية أشخاص منهم الأستاذ أحمد سالم – دير الزور، ودفعة بتاريخ 29/8/1980 من (15) معتقلاً عسكريين ومدنيين وفلسطيني ولبناني..
وتتابعت الدفعات.. فكانت تأتي الدفعات إلى سجن تدمر على مدى خمسة أيام من كل أسبوع.. ولكل محافظة موعد تحضر فيه المعتقلين لديها وكان عدد المعتقلين في الدفعة ما بين (20 – 80) معتقلاً، وحيث أن كلاً من المهاجع (4 و 5 و 6) تطل على الباحة رقم (1) باحة الاستقبال (التعذيب) لذلك كان نزلاء هذه المهاجع في أيام وصول الدفعات يجلسون طوال الوقت وهم في هم وغم وكرب وعذاب، يستمعون إلى (النشيد المر) وهو صراخ المعذبين وهم يستغيثون ويتألمون بأصوات تفطر القلوب القاسية، وأصوات الكرابيج والعصي وهي تضرب وتهبد وتعوي في لحن مرعب رهيب لا يهدأ ولا ينقطع، وأصوات الجلادين وهم يصرخون في وحشية زاجرين آمرين منتشين/ هازئين يسبون ويجدفون.

المحاكمات
إن المحاكم الميدانية التي شكلت كردة فعل غاضبة عنيفة على نشاط مجاهدي الإخوان ومحاولة الاغتيال بشكل مباشر تهدف إلى أمور بعيدة الغور، وأن الأشخاص الذين سموا قضاة لتلك المحاكم هم في المحكمتين الأولى والثالثة ضابطان نصيريان من أشد المقربين من حافظ أسد، والغاضبين له والمتعصبين للطائفة، بل وكانا يلتهبان حماساً للدولة الطائفية النصيرية.. ويحملان كرهاً شديداً لجماعة السنة عامة والإخوان خاصة، لذلك كان بديهياً وقد أطلقت أيديهما – تحت اسم القانون- أن يقوما بالتنكيل بالإخوان ومن يواليهم، ولم يكن في هاتين المحكمتين العسكريتين الميدانيتين أي صورة للمحاكم المعروفة، إنما تتمثل المحكمة كلها في شخص الضابط الطائفي النصيري المتحمس..
ولعل المحكمة الثانية التي مقرها معتقل المزّة العسكري، هي الصورة التي أريد لها أن تبدو طبيعية

للناس، فهي قريبة منهم مع أنها فعلاً (صورة فقط) تنفذ ما يمل عليها من أوامر، وتتلو ما يوضع لقضاياها من أحكام.
وعلى ضوء هذه المعطيات الغريبة كانت النتائج (كما هو متوقع) رهيبة لا تكاد تصدق ولا في الخيال وذلك بأن يعدم العشرات والمئات دورياً وباستمرار رتيب.. ولنبدأ القصة منذ أولها.
باشرت المحاكم الميدانية الثلاث أعمالها في محاكمة المعتقلين بعد عيد الفطر لعام 1399هـ الموافق لشهر آب 1980 ففي مقر المحكمة العسكرية الميدانية الأولى في سجن تدمر، طلبت قوائم طويلة من أسماء المعتقلين في سجن تدمر العسكري –للمحاكمة أمام المحكمة الميدانية الأولى، لدى العقيد غازي كنعان- واستخرج هؤلاء المعتقلين من المهاجع المغلقة، وأخذوا تحت الضرب الشديد إلى باحة المكاتب حيث غرفة المحكمة فأوقفوا في صف طويل ووجوههم إلى الحائط.. ليؤخذوا بعد ذلك واحداً واحداً إلى غرفة المحكمة فيسألهم العقيد بضعة أسئلة عن الاسم والعمر وعن بعض نواح من التحقيق، ولم يكن هناك مجال للمعتقل للكلام والإبانة فإن إجابته يجب أن تكون (نعم) دائماً، وإلا تعرض لما هو أشد من الموت من العذاب.. ويصرفه القاضي بكلمة سباب.. أو تهديد.. ولا يعلم المعتقل المسكين مدى صدق هذا التهديد.. وجديته.. حتى يجد نفسه، مساقاً إلى الإعدام، في الزاوية الجنوبية الغربية من سجن تدمر العسكري.
كان الجلادون المدربون على الجلد والتعذيب وغيره ينقضون على المعتقلين المساكين الواقفين بانتظار المحاكمة يضربونهم ويعذبونهم بقسوة طوال الوقت.. ومن أدوات العذاب (الكرباج الثخين – العصا الغليظة الطويلة، والمسلّة) والمسلة إبرة ضخمة من الحديد مدببة الرأس طولها (15)سم وقطرها (3)مم تقريباً، يخزون بها المعتقلين في آلياتهم وخواصرهم ووراء آذانهم.

في المحكمة
عندما يطلب المعتقل للدخول إلى قاعة ما يسمونها المحكمة في سجن تدمر، يجذبه الجلاد ويضربه ويدفعه

إلى باب الغرفة، فإذا دخل باب غرفة المحكمة تلقاه جلاد عنيف فيضربه بالكرباج على أم رأسه حتى يقف أمام القاضي.. أصم أبكم لا يجيب على كل سؤال إلا (بنعم.. نعم.. أنا سيدي) وإذا دفعه دافع ما أو تحرك في نفسه أمل بأن ينفي بعض التهم الفظيعة التي دبجت له في أقبية المخابرات تحت ظروف قاهرة رهيبة فيها العذاب والتحطيم والرعب.. غضب عليه القاضي وانتهره وسبّه وشتمه وهجم عليه الجلاد بإشارة من القاضي، فضربه فإن ثاب إلى الإذعان وإلا أخرج إلى الدولاب وسلق بضرب كثيف عنيف حتى يغمى عليه، فيصبون عليه الماء ويحاورونه فإن عاد عادوا.. حتى يضطر إلى الاعتراف بما فعل وما لم يفعل، ويسلم أمره لله.. ويترك الأمر لعدالة السماء.. عند من لا يضيع عنده حق، ولا يرضى بظلم..

عرف بيننا نحن المعتقلون أن التنصل من أي تهمة وردت في التحقيق أمر غير ممكن، فقررنا أن نجيب القاضي بالإيجاب على كل سؤال.. تخلصاً من العذاب، وكنا نقول فليكتبوا ما شاؤوا وليحكموا بما أرادوا، الموت ولا العذاب، وكان بعضهم يتمثل خلال المحاكمة بالآية الكريمة (فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا).. وكان كل همّنا بعد ذلك أن ندعو الله أن يصرف عنا كيدهم وينقذنا من تحقيقهم وعذابهم، فكل ما يسألوننا عنه أو يتهموننا به نحن مستعدون للموافقة عليه.. والاعتراف به.. وفي المحاكمة: لم يكن هناك أي أثر لإجراءات المحاكم المعروفة وطرائقها، فلا وقائع جريمة ولا إثباتات ولا شهود ولا دفاع.. بل اعتراف واعتراف.. ولم يكن هناك نطق بالحكم معلل محترم بل يتكرم القاضي ببصقة على المعتقل، مع كلمة سباب فاحشة ويقول له: بدي أعدمك يا (عرص).

ومن أحكام هذه المحكمة:

1 – الإعدام ويحكم به عل كل من اعترف على نفسه أو اعترف أحد عليه أنه منظم في تنظيم الإخوان العسكري، وكل من له علاقة خدمة أو عمل بهذا التنظيم، ولعل الأهم أنه: يحكم بالإعدام أولاً وأخيراً على كل واحد أثارت قضيته أو شخصيته أو كلامه – القاضي.. المحترم..

2 – الحكم غير المبلغ: حيث لا يبلغ القاضي المحكوم شيئاً ويبقى الحكم مجهولاً، وهذا الحكم غالباً لكل من له علاقة (بتنظيم) الإخوان المسلمين في وقت ما، ولعل هذا الحكم إنما هو الإعدام المؤجل التنفيذ.. أو التصفية الجسدية بالمعاملة السيئة والعذاب الشديد والظروف البيئية القاتلة.

3 – المؤبد والـ (15) سنة لمن كانت له علاقة من قبيل التعاطف والتستر أو تأدية خدمة لمنظم.. أم كتم معلومات.

4 – السجن (6) سنوات للأحداث دون (18) سنة ويحكم على الحدث الذي له علاقة بالتنظيم المسلح بالإعدام، وينفذ فيه إذا بلغ سن الثامنة عشرة خلال مدة الاعتقال.

5 – البراءة، وكان العقيد يصدر حكمه في كثير من الحالات بالبراءة إذا لم يثر من ناحية، ولعدم وجود أي تهمة يمكن أن توجه للمعتقل من ناحية أخرى.. ومع ذلك كان هؤلاء الأبرياء.. يضمون إلى الأبرياء الآخرين الذين حكموا ظلماً بمختلف الأحكام، ويخضع الجميع للاعتقال مدة غير معلومة تحت ظل المعاملة السيئة المميتة والعذاب.. في سجن تدمر الصحراوي.

ملاحظات:

1 – كانت مدة المحاكمة ما بين (2 – 5) دقائق.

2 – أول دفعة سمعت أنها أخذت للإعدام كانت بتاريخ 19/8/1980 وكان مجموع من أعدم فيها (60) شخصاً.

أعمال المحكمة الميدانية في سجن المزّة العسكري بدمشق..

وفي مقر المحكمة العسكرية الميدانية الثانية في معتقل المزّة العسكري بدمشق بدأ النشاط لمحاكمة دفعات متوالية من المعتقلين ضمن صورة معينة من الإجراءات الصورية، حيث يطلب المعتقلون أولاً للاستجواب من قبل المحكمة (وهو شكلي) والضابط المسؤول عن الاستجواب (نصيري) يثبت ما يريده، ثم جلسة الحكم وفيها يوضع المعتقلون المحاكمون في قفص حديدي، ثم تقرأ عليهم الأحكام ويؤخذون بعد ذلك إلى مهاجعهم.

وكانت هذه المحكمة لدى الاستجواب تلين للبعض القليل، فتسجل لهم إنكارهم وتنصلهم وتثبت لهم ذلك في ضوابطها وتقسو على الباقين، وتعرض عما يقولون وترفض أن تسجل لهم أقوالهم وإنكار ما نسب إليهم من تهم وتنصلهم منها.. كما يجري التلميح للبعض بالحكم مسبقاً حتى أصبح معلوماً لدى المعتقلين هناك بالتجربة ونقلاً عن مصادر معينة أن (الأحكام هذه) توضع لهذه المحكمة من فوق، من قبل شخصين طائفيين كبيرين هما: علي دوبا رئيس المخابرات العسكرية، وعلى حيدر قائد الوحدات الخاصة.

ولم يكن في هذه المحكمة مناقشة للتهم والأدلة والإثباتات ولا دفاع ولا غيره من إجراءات المحاكم المعروفة.

وتتكرر في هذه المحكمة صورة الأحكام تقريباً فهناك من الأحكام:

1 – الإعدام: ويحكم به على العسكريين الموالين للإخوان، أو المنظمين في الإخوان وعلى تجار السلاح الموردين للإخوان، وكانت أحكام الإعدام أكثر ما تكون للضباط وكان هؤلاء يتلقون هذه الأحكام بصورة غريبة تدل على ما يعتمل في نفوسهم من ألأم وقهر، فكانوا يجهرون بالتكبير، ويعلنون للقاضي وللمحكمة وللملأ آراءهم في الدولة والتسلط الطائفي النصيري، والعداوة للدين، ويتهمون القاضي وهيئة المحكمة بأنهم أجراء قد باعوا ضمائرهم وتخلوا عن شرفهم، ومالئوا الباطل، فقد قال أحدهم وهو ضابط طيار: إنما أقتل هاهنا لأني رفضت أن أكون خائناً لضميري ووطني ولشرفي العسكري لأني رفضت كل هذا الزيف والباطل والسوء والفساد الذي يعشش في رؤوسكم ورؤوس أسيادكم، وإنما أقتل في سبيل الله. إن هذه الدولة كافرة عدوّة لله وللدين وإنما أنتم أيها الجالسون أمامي على كراسي القضاة أجراء لأسيادكم الظلمة، وقد بعتم ضمائركم في سبيل المال والمنصب.. وقام ضابط آخر: فأعلن بالأذان الله أكبر الله أكبر وكان حكم الإعدام ينفذ في زنازين سجن المزّة العسكري (للمدنيين ورمياً بالرصاص للعسكريين) فتعصب عينا المحكوم بالإعدام ويوضع في زنزانة انفرادية ويدخل عليه الجلاد (وهو يدعى أبو محمد) ومعه مسدس (9) مم فيطلق عليه

رصاصتين إحداهما في الرأس وأخرى في القلب.. ويقبض الجلاد المبلغ (50 – 100) ل. س عن كل عملية..
2 – الحكم المجهول: أو غير المبلغ نفسه ما يجري في المحكمة الأولى وهو لك من له علاقة بتنظيم الإخوان في أي وقت ولم يثبت له فعالية أو نشاط.
3 – المؤبد وال (25) سنة: وكان كثيراً جداً.
4 – (10) سنوات و (5) سنوات: وهو قليل وهو على الغالب لمن يشك في ذنبه وجريرته وكل المحكومين بهذين الحكمين أو الأحكام الأربعة ممن لا علاقة لهم بتنظيم الإخوان قطعياً (عملياً أو فكرياً) وإنما هم تجار وعمال ومهربون وسائقون وعسكريون وغيرهم.
ومن المحاكمين أمام هذه المحكمة (خاصة) عدد كبير من البعثيين (اليمنيين) وأعدم عدد منهم وحكم الباقون بأحكام مختلفة.
5 – حكم البراءة ويحكم به على عدد محدود من المعتقلين.
وبعد تنفيذ أحكام الإعدام، في نفس سجن المزّة كانت تجرى إحالة المحكومين الذين عرضوا على المحكمة أو أغلبهم إلى سجن تدمر العسكري (سجن الموت) أو ما يسمى مركز التطهير الوطني لتصفية الإخوان المسلمين ويساق هؤلاء بشكل مفاجئ إلى سجن تدمر، وكان شائعاً بين الجميع (قضاة وجهاز مخابرات وسجانين وغيرهم) أن من يؤخذ إلى سجن تدمر في تلك الأيام فقد ذهب بلا عودة، ويعتبر بعد ذلك بحكم الميت، لذلك كان السجانون (من عناصر جهاز سجن المزة العسكري) يسلبون هؤلاء المعتقلين المنقولين إلى سجن تدمر كل ما يملكون بشكل أو بآخر، ففي إحدى الدفعات وكان عددها خمسة عشر شخصاً، جاءهم السجان فجأة فطلبهم بالأسماء، وطلب منهم وصول الأمانات وكان لديهم نقود وأموال أخذت منهم فوضعت لدى جهاز السجن (أمانة) وأعطوا (وصولات) بذلك، فأخذت وصولات أو إشعارات الأمانة منهم واستخرجهم الجلادون فوراً من الزنزانة الجماعية وهم يقولون لهم: اخرجوا بسرعة.. بسرعة.. فيقول الواحد منهم حتى ألبس ثيابي أو أحمل حاجياتي وآتي بساعتي، فيرد عليه السجان ما في حاجة اتركها.. أو بعدين بعدين.. حتى إذا

خرجوا إلى باحة السجن وأغلقت وراءهم الزنزانة، قيدوا وحملوا في سيارة عسكرية مغلقة، وجيء بهم إلى سجن تدمر العسكري، حيث أصبحوا في شغل عن حاجياتهم ونقودهم وساعاتهم بما هم فيه من عذاب وإرهاب ورعب..
بقيت كل (ساعاتهم) في عجالة النقل في سجن المزّة كما بقيت ثيابهم وكثير من نقودهم، سواء ما كان منها في الثياب أو ما كان أمانة لدى جهاز السجن، وكان لواحد منهم فقط وهو فلسطيني يدعى (أ. و. ع) مبلغ (5000) ل.س أمانة عند جهاز السجن في المزّة، إضافة إلى مبلغ (800) ل.س وساعة يد وثياب.. ومبلغ 180 ألف لمعتقل آخر احتجزت كلها لقمة سائغة للسجانين في سجن المزّة العسكري.

(أعمال المحكمة العسكرية الميدانية الثالثة)
في مركز مخابرات أمن الدولة الرئيسي في كفرسوسة الفرع (285) نشط النقيب سليمان لمحاكمة المعتقلين في مكتبه بالطابق العلوي من بناء السجن القديم، وهو الغرفة قبل الأخيرة في نهاية الممر إلى اليسار، فجلب له المعتقلون من مختلف الفروع وقد زودوا بالتحقيقات اللازمة، وأخذ النقيب (القاضي) يطلب هؤلاء المعتقلين واحداً واحداً، وكانت صورة المحكمة أقرب إلى التحقيق منها إلى المحاكمة، فقد كان النقيب سليمان يحرص أن يوقع بالمعتقل وهو يفترض أن كل ما جاء في التحقيق أمر مسلم به ولا يجوز إنكاره، وإذا حاول المعتقل التنصل من الاعترافات التي أخذت منه بالإكراه وتحت التعذيب الشديد، كان النقيب يرفض ذلك، ويهدد المعتقل بالعذاب والدولاب، بل وبالقتل رمياً بالرصاص يقول له (والله برشّك) وقد ينفذ تهديده بإرسال المعتقل للعذاب، ولم يكن يبلغ أي معتقل عن الحكم الذي يحكمه به بل يعيده كما أتى دون أن يعلم حتى أنه أمام محكمة.

وكانت الأحكام على ثلاثة أنواع:
1 – الإعدام: لكل من كان له علاقة بالإخوان المسلمين وعملهم المناهض لنظام أسد.

2 – الحكم المجهول: لكل من كان له صلة قريبة أو بعيدة بالإخوان المسلمين دون أي نشاط أو فاعلية.
3 – براءة: لمن ليس له علاقة بشيء حتى معرفة ولو عنصر أخواني واحد فقط.
ويحال جميع المحاكمين المحكومين إلى سجن تدمر العسكري لتنفيذ الحكم وحتى المحكومين بالبراءة يحالون إلى سجن تدمر العسكري، حتى إشعار آخر.. ولقد رأى النقيب سليمان أن معتقل المخابرات ليس فيه الرهبة والاحترام اللازمان لمحكمة وهكذا انتقلت هذه المحكمة إلى سجن تدمر العسكري، وصدرت الأوامر بنقل جميع المعتقلين لدى مخابرات أمن الدولة إلى سجن تدمر العسكري، بعد تزويدهم بالضوابط اللازمة لمحاكمتهم هناك، وبدا النقيب بأعمال محاكمة المعتقلين في سجن تدمر منذ أواخر عام 1980 على نفس منوال محكمة العقيد في تعذيب المعتقلين وإهانتهم واحتقارهم وسلبهم.
يلاحظ أن السرية التامة كانت تلف المعتقل منذ ساعة اعتقاله.. فلا يدري أهله ولا الناس ما يجري له من تحقيق وعذاب وغيره، وربما يموت تحت التحقيق ويدفن وأهله ينتظرون عودته، ولا يعلمون من أمره شيئاً، فإذا نقل المعتقل إلى سجن تدمر انقطعت أخباره تماماً وكأنه فارق الحياة.
أما المحاكمات ذاتها التي تتم في سجن تدمر العسكري مركز التطهير والتصفية فهي سر من الأسرار الغامضة.. ولا يجوز أن يعلم أحد عنها شيئاً في طول البلاد وعرضها، ولا في أي مكان ولا عما تحكم به ولا ما تنفذه، إلا أخبار يسيرة بين كبار رجال المخابرات والمسؤولين، وقد أكون نقلت صورة ما عن هذه المحاكم.. ولكن الأصل الواقع كان ولا يزال أشد سوءاً وشناعة.

20 حزيران 1981 حقد على الصلاة والمصلين
في الرابعة والنصف صباحاً كان المعتقلون في مهاجع سجن تدمر نائمين فالحركة في ذلك الوقت ممنوعة حسب نظام السجن، وكان العريف "فواز" قد استيقظ في ذلك الوقت من الليل يريد أن يضبط حركة المعتقلين وأن يضبط المصلين خاصة فإن له معهم

حساباً عسيراً، فتسلل في جنح الظلام إلى أسطحة المهاجع وأخذ يراقب المعتقلين في كل مهجع فترة من الزمن، وكان يقف في مكان منزو بحيث يراهم ولا يرونه، ويترقب من يتحرك منهم، وكان المعتقلون نائمين وقد اختلطت أجسادهم وتشابكت أطرافهم، وكان بعض المعتقلين يريدون الذهاب إلى دورة المياه لقضاء الحاجة، فيتحينون الفرصة المناسبة ويقومون إلى دورة المياه.

ضبط العريف تحرك هؤلاء فصرخ فجأة بصوت منكر: ولك رئيس المهجع، وكرر الصراخ حتى قام إليه رئيس المهجع، فأمره أن يخرج من دورة المياه من المعتقلين وأن يعرفهم ويقدمهم له في الصباح حين قدومه مع الزبانية، ثم سبّ وشتم وهدد وتوعد وحدد الجريمة فقال: (متصلوا يا عرصات.. الصبح بفرجيكن) وقبيل مجيء الجلادين في الصباح، كان في المهجع كمواقف إيثار رائعة، فقد طلب رئيس المهجع ثمانية معتقلين ليقدمهم للعريف فواز ليتحملوا العقوبة الرهيبة عن زملائهم، فتقدم المعتقلون الشباب في رجولة يقدمون إخوانهم الآخرين بأنفسهم، وجاء العريف مع عدد كبير من الزبانية وكلهم ممتلؤون حقداً وغلاً، وطلب من سمّاهم المجرمين (اللي ميصلو) فخرجوا إليه فانقضّ عليهم الجلادون وأخذوا يضربونهم ويعذبونهم بوحشية دونها وحشية وحوش الغاب، وظن بعض المعتقلين أن العريف "فواز" يشتط بدافع من حقده وأن الرقباء والمسؤولين الآخرين لا يقرونه على فعله وإجرامه، فتجرءوا وشكوا إلى أحد الرقباء ما جرى وما فعل العريف "فواز" بل سأل بعض المعتقلين الرقيب: هل الصلاة ممنوعة؟ فثار الحقد الأسود في قلب الرقيب وانقضّ مع الزبانية على المعتقلين هؤلاء وأخذوا يضربونهم حتى ألقوهم أرضاً، وأخذوا يدوسونهم ويرفسونهم بأكعاب أحذيتهم، ولم يشتفوا أو يكتفوا فأخذوا نزلاء المهجع مجموعة وراء مجموعة يعذبونهم أشد العذاب، ويضربونهم أعنف ضرب، وحمل الرقيب الفاجر قطعة ضخمة من الإسمنت يصل وزنها إلى حوالي (10كغ) وأخذ يهبد بها المعتقلين على ظهورهم في وحشية.. عرف المعتقلون الجواب على أسئلتهم، وكان نتيجة هذه الحفلة الرهيبة من العذاب إصابات

كثيرة منها إصابة المعتقل أبو جليل الذي يبلغ من العمر السبعين عاماً، فقد تحطمت أضلاعه وأصيب ظهره، فحمل إلى المهجع حملاً وأصيب المعتقل "أبو أسعد" وهو موظف في العقد الرابع من عمره أصيب بضربة على كليته، فساءت حاله وأخذ يبول الدم، وارتفعت حرارته حتى غدا بين الموت والحياة.

1/7/تموز 1981
منذ اقترب أوان الشهر الكريم رمضان، ونحن في حيرة وقلق لما سوف نلقاه من صعوبات خلال الشهر المبارك خاصة وأننا كنا مصرّين على الصيام مهما كانت الصعوبات. فنحن لسنا مسافرين ولا ندري هل نعيش إن أفطرنا حتى نقضي أم لا، وترقبنا أول يوم من رمضان فلما تأكدنا منه بواسطة المدافع الرمضانية التي أطلقت في مدينة تدمر تسحر البعض بلقيمات قليلة أو شرب جرعات من الماء، ونوى الصيام مضى أوان السحور وسمعنا أذان الفجر الندي، يرفعه المؤذنون في مساجد تدمر الله أكبر الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله باللهجة البدوية والصوت الحنون العذب، فهفت القلوب إلى طهر المسجد ونور المحراب وقدس الصلاة العظيم، ولكن لم يجسر أحد أن يرفع رأسه عن وسادته أو يقوم إلى الوضوء أو الصلاة لأن هذا حرام، ممنوع في ظلام تدمر وفي نظام سجنها الرهيب.

10/7/1981 الفرز – النقل
في اليوم الثالث من شهر رمضان 1401هـ ظهرت حركة غريبة في الباحة، الأصوات والحركات كانت تنبئنا بأن هناك مالا نعرفه! قالت بعض الإشاعات أن هناك تنقلات، كان أملنا جميعاً أن تكون قضية نقل المعتقلين من سجن تدمر حقيقة، وتمنينا ذلك اليوم الذي نغادر فيه هذا المكان بأي صورة.
ولفنا الانتظار والقلق والترقب..!
وصل إلينا الدور أخيراً، فأمرونا أن نخرج من المهجع مع أغراضنا الشخصية فقط، فحمل كل منا ما يملكه من متاع قليل (عبارة عن ثياب قليلة، وملعقة خشبية وصحن وكوب بلاستيكي) وخرجنا بسرعة، فكل الأمور تجري بسرعة هنا، فأخذونا جانباً وخلال وجودنا في

الباحة سمعنا من أوامر المساعد ذي الشوارب وهو مسؤول عن (قلم السجن) ما عرفنا منه أنهم قسموا هؤلاء إلى ثلاث فئات:
1 – المحكومين بالمؤبد + من لا يعرف حكمه.
2 – المحكومين بـ 10 سنوات – 15 سنة.
3 – المحكومين بـ 5 سنوات وما دونها إن وجد.
وعلمنا بعد ذلك أن كثيراً من هؤلاء كانوا من البعثيين (اليمينيين) وتجار السلاح، ومنهم من حكم بجريمة (سب الرئيس) فقط.
ووضع هؤلاء في المهاجع 9 – 10 – 11 في الباحة رقم 2.
كان الجلادون في هستريا من الشراسة والحقد، فهم لا يفتئون يصرخون فينا ويضربوننا بقسوة ويسبوننا بفاحش الكلام، ويهدوننا أشنع تهديد.
ضاق بنا الأمر وصعب الحال وضاعت الأمنيات والآمال (ورضينا من الغنيمة بالإياب) وتمنينا أن نفارق الجلادين ولو إلى ضمن جدران مهجع من المهاجع، أو زنزانة انفرادية.. انقض أحدهم على شاب مهندس قصير القامة، نحيف الجسم، وأخذ يضربه بالعصا حتى أنهكه، وقد تبيّن لنا أن رجله قد كسرت خلال ذلك، فحملناه حملاً وسرنا به مسرعين وهم يلاحقوننا بالضرب والسباب.
وهكذا أدخل قسم منا المهجع رقم (27) وقسم آخر المهجع رقم (28) وكنت من القسم الأول.
ولدى دخولنا المهجع وجدنا نزلاءه يقفون في صف خماسي وسط المهجع بانتظار التفقد الذي أزف وقته والذي يتم في الساعة الثانية بعد الظهر.
وجرى (فيلم) آخر من العذاب والقسوة والقهر.
فقد كان يجلس أمام الصف ومقابل باب المهجع عدد من المعتقلين الذين لا يمكنهم الخروج للتفقد الذي يتم في الباحة أمام الباب، والذي نخرج إليه راكضين وندخل راكضين معرضين للضرب والعذاب، مضطرين للتدافع والتزاحم.
كانوا من المرضى المدنفين والمكسرين والعاجزين عن السير لعاهة جسدية، فأغاظ جلوسهم هذا الجلادين، فجاءوهم إلى الصف واحداً واحداً حتى أعادوهم جميعاً

إلا ثلاثة تركوهم بعد أن عذبوهم، اثنان لم يقدرا على الحركة، وواحد كان مقطوع الرجل من الفخذ

الفرز الثاني في 17/7/1981
وفي اليوم العاشر من شهر رمضان (1401هـ - 1981م) جاء الفرز الثاني وكأنه بداية انفراج أو تهيئة لإطلاق سراح بعض المعتقلين، فقد طلب عدد كبير من المعتقلين وكنا نعرف أنهم أبرياء، فلما طلب إليهم إنهاء علاقتهم بمن في المهجع، أملنا الإفراج عنهم قريباً، فودعناهم على هذا الأساس، علمنا بعد ذلك أن جهاز السجن جمع حوالي (150) معتقلاً من المحكومين بالبراءة فوضعوهم بالمهجع رقم (8) توطئة لإطلاق سراحهم، وعلمنا أنهم يعاملون معاملة حسنة نوعاً ما. وكان المتوقع إطلاق سراح هؤلاء على العيد بعد بضعة عشر يوماً، وقد بدا من جهاز السجن كثير من التجاوز في معاملة المعتقلين، فالكرباج اختفى من أيدي الشرطة والضرب في التفقد والحمام أصبح نادراً، وكان التنفس النادر (غريباً) فقد وقف الشرطة جانباً وتركونا نسير في صف ثنائي على أطراف الباحة بل تجرأ بعضنا ورفع رأسه وشاهدت لأول مرة مئذنة المسجد القريب في مدينة تدمر، كانت ترتفع شامخة في الفضاء تناطح زرقة السماء في استعلاء وإباء وقوة، فملأت قلبي مشاعر الحنين إلى المساجد وإلى الحياة الكريمة، فترحمت على العدالة وعلى القوانين والدساتير والأعراف، كيف ماتت ودثرت في سوريا الغالية وبقيت صورة لا حقيقة، وكيف غابت في تدمر غياباً تاماً.
ومع ذلك عادت المعاملة السيئة وظهر الكرباج من جديد، قبل العيد وعاد الضرب والتعذيب كما كان، فالمعاملة هنا طبيعتها السوء والعذاب والتضييق فلن تغادر طبيعتها!

رمضان شهر الخير 30/7/1981
23 من رمضان 1401هـ إنه أول رمضان يمر بنا في سجن تدمر، ولما كانت حياتنا قاسية مرة، وضيقنا كبيراً ومحنتنا شديدة فقد كان لنا في رمضان فرصة كبيرة وملاذ، فالتجأنا إلى الله بالتوبة والإنابة والخضوع والخشوع والدعاء والاستغاثة والابتهال وقراءة القرآن

والذكر في الليل والنهار، في كل حين نسأل الله من فضله وكرمه، ونجد لذلك لذة وسعادة وروحانية وأملاً وثقة وفرجاً.
كان الجلادون النصيريون يشعرون باستغراب كبير من صيامنا رغم العذاب والإرهاب، ورغم التقتيل ورغم الموت المحيط بنا من كل جانب، رغم النظام الرهيب الذي يطبقونه علينا (بقصد تحطيمنا فكرياً وجسمياً وإذلالنا مادياً ومعنوياً، وغسل دماغنا من كل شيء سوى الخوف والجوع والألم) فلا يزال في النفس عزيمة للصيام..!
لذا كان العساكر الجلادون من ذوي المرامي البعيدة يسألون المعتقلين في مختلف المهاجع، صائمين ولك كلاب؟.. ويأتيهم الجواب بالإيجاب: نعم، ويعودون للسؤال فهم لا يصدقون: كلكم ولك حقراء.. ؟ : نعم.. ويحيرهم الأمر فيجدفون ويسبون ويفحشون، ولو عرفوا صدق التوبة وعظمة الإيمان ونور اليقين في قلوب هؤلاء المعتقلين المعذبين لهالهم الأمر وأجفلهم وأرعبهم وأخذ بمجامع عقولهم هذا إن كان لهم عقول؟
لم يكن الصوم يثير حقد النصريين (كالصلاة) كانوا يرونه أمراً بسيطاً ليس له قيمة (جوع وعطش) فكأن لسان حالهم يقول لنا مستهزئاً: (فجوعوا واعطشوا يا كلاب..!).

الكثافة ومشاكلها
5 آب 1981.. اشتدت الكثافة في مهجعنا وأصبح عددنا فيه (143) معتقلاً، كما اشتدت الكثافة في كل مهاجع السجن، فقد كنا نسمع صوت رؤساء المهاجع الآخرين خلال التفقد حين يسألهم الرقيب السؤال التقليدي: قديش عنك ولك؟ أي كم عدد المعتقلين في هذا المهجع، فيجيبه رئيس المهجع: كذا وكذا يا سيدي الرقيب.
وظهرت مشاكل كثيرة وصعوبات جمة نتيجة هذه الكثافة، فقد تضاءلت حصة الفرد من أرضية المهجع (350سم 2) فقط.
وحيث أنا مجبرون حسب نظام السجن الذي يفرض علينا أن ننام من الساعة السادسة مساء وحتى الساعة السادسة صباحاً دون أي حركة أو قيام، فقد كنا نظل

مضجعين هذه الفترة متلاصقين متدافعين على أرض المهجع التي ضاقت على من فيها أشد الضيق، حتى كنا نعاني من مزعجات هذه النومة أكثر مما نرتاح، وكان لهذه النومة سلبيات وأخطار أخرى منها عدم إمكانية استعمال المنافع والمراحيض إلا بشكل محدد خلال مدة الـ (12) ساعة هذه، فالنظام المفروض يمنع أن لا يتواجد في المنافع أكثر من شخص واحد لا غير خلال فترة النوم هذه.

ولم يكن إلا للتضييق على المعتقلين والإعنات عليهم، وقيل أن هذا الإجراء له أصل في نظام السجن سابقاً، حينما كان يستعمل كسجن للعسكريين الناشزين على أنظمة الجيش والمرتكبين لمختلف المخالفات والجرائم، وأنه كان يقصد به منع اللواطة بين أولئك المساجين حيث البيئة الفاسدة.

ولكن على فرض ذلك فأي مبرر لهذا الإجراء في بيئة المعتقلين هذه التي تسيطر عليها الأخلاق الفاضلة ويعمرها الصلاح والعفاف والتقى، ومن أخطار هذه النومة الإجبارية تيسير سبل العدوى بالأمراض المختلفة وخاصة مرض الجرب العين، حيث تكون الأجساد متلاصقة متدافعة فينتقل مرض الجرب من شخص إلى آخر حتماً.

ومن مشاكل الكثافة أيضاً أنه أصبح من العسير علينا أن نغسل ثيابنا وأيدينا ووجوهنا أو أدوات الطعام مثل الملعقة والكوب والصحن، وكان أصعب شيء قضاء الحاجة، وخاصة مع وجود حالات الإسهال الشديدة المتكاثرة، إضافة إلى أن أحد المرحاضين ضيق الفتحة كثير الانسداد والتعطل، مما أوجب علينا ضبط نظام دقيق لكافة استعمالات المنافع ودور منظم ولا يتجاوز هذا النظام إلا في حالات الضرورة القصوى.

مشكلة محرجة

كان للأخ أبو جميل مشكلة محرجة، كنت من القلائل الذين يعلمون خفاياها، كان مصاباً بفتاق كبير في أسفل البطن، وقد صنعت له حزاماً خاصاً في فترة سابقة، كان يؤلمه كثيراً وكان أشد ما يؤلمه حين يكون بحاجة إلى (قضاء الحاجة) فلا يستطيع الانتظار، وقد يكون اصطف قبل على دور المراحيض عدد كبير.

لذا سمح له بتجاوز الدور ودخول المراحيض حين الحاجة، فكان يجاوب من يعترضه وهو يتجاوز الدور أن يسأله عن السبب فيقول: (معي فرمان مراحيض) فكان لا يفوت النكتة رغم ما فيها من ملابسات.
ومن مشاكل الكثافة أن الطعام لم يزد عندما زاد عدد المعتقلين (حسب الحاجة) فوقع النقص في الطعام حتى أن الفطور والعشاء كانا من القلة، بحيث غدوا رمزيين فقط.

دفعات المعتقلين تتوالى إلى سجن تدمر

11 من آب 1981.. دفعات المعتقلين القادمين إلى سجن تدمر يتلو بعضها بعضاً، فهي تأتي عدة مرات في الأسبوع دون انقطاع.
وحفلات عذاب الاستقبال الرهيبة تنظم لهم فوراً، والعذاب في هذه الأيام أقسى وأعنف وأرهب، ويبدو أن جهاز الجلد والعذاب في سجن تدمر يكتسب مع الوقت والزمن خبرة وتفننا.. ويزداد جلادوه مع الأيام قسوة وعنفاً.
كان جهاز السجن يتسلم الدفعة القادمة من المعتقلين ويأخذهم إلى باحة الاستقبال، ويعريهم من ثيابهم ثم يعذبهم العذاب الشديد بالكرباج والدولاب والعصا بعنف وقسوة، وبعد نهاية حفل التحطيم يودعونهم في غرفة الورشة ويثابرون على تعذيبهم وإرهابهم في كل حين، وبعد ثلاثة أيام يوزعونهم على المهاجع بمعدل (10) معتقلين لكل مهجع تقريباً، وكنا نجد هؤلاء القادمين الجدد (بعد ثلاثة أيام من الاستقبال هذا) في حالة فظيعة من الإنهاك والتشويه والسوء، ولدى سؤالهم عما رأوه في الورشة، رووا لنا أنهم رأوا هناك أكياساً صغيرة فيها أغراض يسيرة مثل ألبسة داخلية وغيرها.. ولم يعرفوا لوجود هذه الأغراض معنى في ذلك المكان؟ فأنبأهم بما خفي عنهم.. إنها تخص الشهداء الذين يمضون إلى ربهم في خفاء سجن تدمر.

أمراض وعلاجات

17 من آب 1981.. في المهجع (34) حدثت حالات من المرض، كان أصعبها حصر بول أصيب بها أخ محام من مدينة اللاذقية في الأربعين من العمر، واشتد عليه

المرض حتى خشي على حياته، فقرر رئيس المهجع وبعض الأخوة المخاطرة بنقل الموضوع إلى جهاز السجن –وليكن ما يكون- فقرع رئيس المهجع الباب الحديدي، ولما حضر الحرس الموجود على السطح أخبره عن الحالة الخطيرة.. فأفلحت المساعي للمرة الأولى وحضر الممرض "أبو بسام" وشاهد المريض وأجرى له عملية التمييل حتى أفرغ ما في مثانته.. ولكن المشكلة لم تنته، فقد اشتد المرض على الأخ من جديد في اليوم التالي، فحضر "أبو بسام" ثانية وميله.

وعادت المشكلة تلح في اليوم الثالث، ومنع الزبانية الممرض رغم طلبه من الحرس والإبلاغ عن الحالة.. وانشغل الناس في المهجع بحال أخيهم المريض وارتفعت الأكف الطاهرة تدعو الله له.. وكان في المهجع عدد من الأطباء المختصين، ولكن لم يكن لديهم من الوسائل والإمكانيات ما يستطيعون معه تقديم أي عون للمريض المشرف على الهلاك.

ولكن الضرورة الملحّة أوحت لأحدهم بالمحاولة لإيجاد حل ما.. فتمكن من أن يصنع ميلاً من شريط لاصق مستعمل انتزعه من علبه الكرتون التي كانت تحوي بعض الصابون، ومن ثم أجرى عملية التمييل للأخ المريض المخطر، ونجحت العملية ونجا المريض من موت محقق بالتسمم الدموي.. وأعيدت العملية مرات ومرات..

وكانت هناك حالات نخر أسنان والتهاب جذور الأسنان وتقيحها، فأجرى أحد أطباء الأسنان المعتقلين عمليات قلع الضرس بما تيسر من خيوط النايلون.

السارقون يختلفون على الغنيمة

20 آب 1981 استمرت جباية (السخرة الشهرية) 10 ليرات سورية لكل معتقل أو ما يمكن تحصيله بالتهديد والوعيد والسباب، ثم 2 ليرة سورية لكل معتقل أيضاً (سخرة عادية) وأخذ الرقباء يتسابقون في جبايتها.

جاء المساعد (أبو جهل) أحمد فطلب مبلغ السخرة الشهرية من عدد من المهاجع، وقدم له رئيس مهجعنا مبلغ (250) ليرة سورية، فاضطر رئيس المهجع إلى جمع مبلغ آخر حتى بلغ المجموع (400) ليرة سورية،

فأخذها المساعد ومضى وجاء رقيب آخر يطلب السخرة الشهرية ولم يقتنع إلا بصعوبة أننا قد دفعناها لغيره.

فترة هدوء

توافق موضوع التطاحن على السرقة بين الرقباء مع وقت أرادت فيه السلطة أن تخفف من إجراءات التعذيب والتنكيل على المعتقلين، فظهرت إجراءات جديدة..
فقد طلب رؤساء المهاجع (وهم من المعتقلين) فجمعوا عند مدير السجن وتحدث إليهم الرائد المجرم فيصل غانم مدير السجن (وقائد سجن الموت) فأعلن لهم أن الضرب ممنوع، وأن السخرة الشهرية ممنوعة منذ الآن، وأن أجرة الحلاقة قد خفضت.. و.. و..
وسألهم إن كان لهم أي طلب، فتجاسر أحدهم وطلب بطانيات لأن عدد البطانيات قليل جداً في المهجع ولا يفي بالحاجة، فوعده بتأمين طلبه وكذا تشجع آخرون وطلبوا نفس الطلب مع طلبات مثل زيادة كمية الطعام.
وعاد رئيس مهجعنا يعلن ما جرى.
ولم يصدق أحد أن زبانية سجن تدمر يمكن أن يكونوا رحماء منصفين، فلا بد أن وراء ذلك غايات أخرى.
وجاء الرقيب "علي دوبا" (يثبت مواقف)، ويظهر الحرص على نقود المعتقلين، فطلب منا أن لا ندفع نقوداً لأحد إلا أن نراه، ونعرف من هو، ولأي شيء ندفع النقود.. وقال: إذا أخذ منكم أي واحد مصاري بدون ما تعرفوا ليش، وتتأكدوا منو، بلغوني.. ثم أمر رئيس المهجع أن يفتح عينيه وينظر من يأخذ منه النقود، وأن يفتح عينيه حتى خلال التفقد والحلاقة وغيرهما..
وأثارت هذه الأمور فينا كثيراً من الذكريات والآلام، وتساءلنا: أتعود إلينا قيمتنا كبشر، ولو في المعاملة؟ كان هذا الأمر مستحيلاً في تدمر..
وتوقعنا افراجات قريبة وربطها بعضهم بالمناسبة، وكانت أقرب مناسبة هي عيد الأضحى.

الزيارات

في 23 من آب 1981 بدأت تأتي لعدد من المعتقلين زيارات ولكن بعدد قليل ومحدود، فقد جاء لحوالي سبعة معتقلين من مهجعنا زيارات، وجاء أهلوهم ومعهم المآكل والثياب والنقود، ولكن الزيارة كانت غريبة في

صورتها، كان المعتقل يؤمر بأن يلبس أحسن ثيابه، ثم يؤخذ ويوصى بعدم الكلام عن أي شيء من أمور السجن أو المعتقلين فإذا وصلوا به إلى الغرفة التي تتم فيها الزيارة، أمروه بأن يرفع رأسه ويفتح عينيه ويدخل وكأنه إنسان طبيعي، محفوظ الكرامة..

فإذا جاء يسلم على أهله وقفوا معهم لا يتركون همسة تبدر من أحدهم إلا وعوها، ويمنعون كل كلام غير السلامات والسؤال عن الصحة والأهل والأولاد.

وخلال دقائق تنتهي الزيارة التي قد تكون من بعد سجن طويل، سنة أو سنتين ذليلاً مطرقاً والجلادون لا ينسون أن ينالوه خلال الطريق بالضرب والإهانة بعد أن يكون الرقيب قد نبش الأغراض وسمح، ومنع.

وكان الزبانية يمنعون الخضار، ويقولون للأهل: عندهم كثير.. ولو عرف الأهل القضية لما أحضروا الخضار!

ومع ذلك فإن الرقيب والزبانية لا يتركون هذه الأشياء دون تلويثها أو تشويهها، وقد انقض الرقيب أمام بصرنا على بطيخة ضخمة (جبسة) يحملها المعتقل، فرماها منه أرضاً ورفسها حتى تناثرت قطعاً..

وقد توقفت الزيارات بعد فترة الهدوء فما عادت أبداً..

عيد الأضحى المبارك

يوم 28 من آب 1981 يوم كسائر الأيام، الباب مغلق، الطعام والمحنة قاسية والأمر لله. ونحن جامدون في جلستنا اليومية ندعو الله ونسأله، ونستغيث به، كنت أحتفظ بتفاحة صغيرة هي حصة أيام وفرتها بالجهد للعيد، فقمت أقسمها وأوزعها فحظيت بالرضى والإعجاب، حتى تساءل بعضهم من أين لك هذا؟.. قلت رزق ساقه الله، وأكل منه بضعة عشر إنساناً، عايدنا بعضنا وتمنينا العيد القادم في عرفات إن شاء الله والإسلام قد انتصر والكفر قد انخذل، وقد فرّج الله عن سجناء تدمر، وقال بعضهم: (العيد القادم وهؤلاء الجلادين بيكونوا هم السجناء إن شاء الله).

في اليوم الثالث للعيد (2 أيلول 1981) ظهر الكرباج الرهيب في الباحة من جديد، وهجم الجلادون بشراسة وحقد يضربوننا ويعذبوننا، وضربوا رئيس المهجع وأمروه بإغماض عينيه في اليوم التالي وخلال التفقد أيضاً هجم نفر من الجلادين علينا يضربوننا خلال الدخول

إلى المهجع بعد انتهاء التفقد، واشتدت شراسة الجلادين في ضربنا.
وهجم علي جلاد بحجر كان يحمله بيده، فأخذ يضربني به على رأسي والدم بتفجّر بين يديه وهو يصرخ هازئاً:
احمر يا جبس..!
وأمام مشاهد المتألمين والصارخين والمصابين صرخ أحد الجلادين: (الله أكبر والنصر للشرطة العسكرية)
كان الجلادون يضربوننا بعنف ودموية وقسوة مرعبة، ولم ندر لهذه الأفاعيل سبباً وتأوّل بعضهم أن مدير السجن قد حلم ورأى مناماً سيئاً.
ولكن آخرين أكدوا أنه لابد أن أموراً تحدث في الخارج.. وذهبت آمال الإفراج مع الرياح.

التنفس
في 3 أيلول 1981 توقف التنفس أو كاد، فلا يوجد لدينا تنفس هذه الأيام، ونادراً ما يفطن جهاز السجن إلى إجراء تنفس للسجناء في يوم الجمعة، حيث تأتي دورية مؤلفة من رقيب وعدد من العساكر وتخرج نزلاء المهاجع مهجعاً وراء الآخر بالتسلسل فيخرجون نزلاء المهجع مع أغراضهم حيث يضعونها في الباحة أو يمدونها ويجلسون عليها متقاربين، ويستمر هذا التنفس من 15 – 20 دقيقة، وخلال ذلك يتصرف الرقيب والعساكر كما يحلو لهم، فيضربون المعتقلين ويعذبونهم بدون أي ضابط، ويبدو أن أكثر من دورية تقوم بعملية إخراج المعتقلين للتنفس في السجن.
وكانت هذه هي الفرصة الوحيدة التي نخرج فيها للهواء الطلق والشمس، ولكن الرعب من العذاب الذي ينتظرنا كان يهيمن عليها، ويقلب مفعولها، فتصبح بدل التنفس (قطع النفس) كما سماها المعتقلون.

الأمراض
22 أيلول 1981 كانت الأمراض بمختلف أنواعها ما عرفنا وما لم نعرف تغزونا بكثرة وشدة، وكان منها مرض الإسهال والكريب، والالتهابات: التهاب اللثة، التهاب الأسنان، والتهاب الظفر، الالتهابات المفصلية (الروماتيزم) والدسك والجرب والقمل والفتاق، والتهابات الكلى والمجاري البولية وسوء التغذية وفقر

الدم.. وغيره، وكان الأطباء يلاحظون علائم سوء التغذية وفقر الدم على جميع المعتقلين، وقد سقط نتيجة هذا المرض بعض الأخوة مدنفين، وظهرت لديهم أعراض الدوخة والإقياء، وكان مرض الجرب لا يزال منتشراً بشكل واسع، ولكن أعراضه في هذا الحين كانت خفيفة نوعاً ما.
الممرض يمر بالمهاجع برفقة عناصر من جهاز السجن أسبوعياً تقريباً، فيقف أمام باب المهجع المغلق، ومن خلال النافذة الصغيرة (الشرّاقة) كما يدعونها هناك:
يسأل رئيس المهجع: كام واحد عندك إسهال ولك..؟
فيلتفت رئيس المهجع إلى نزلاء المهجع الذين يكونون واقفين باستعداد في أماكنهم دون حركة ويصرخ: مين معو إسهال يرفع إيدو.. فترتفع الأيدي ويعد الأيدي ويستعجله الممرض.. مرة بعد مرة، ويقول (35) واحد سيدي.
فيسأله الممرض من جديد: كام واحد لثة (أي التهاب لثة)؟ ويستحثه بسرعة (ولك بسرعة) ويحاول رئيس المهجع ضبط العدد 21 – 22 – 25 فيشدد عليه بالسرعة ليبادر إلى القول (26) واحد سيدي، وكان منتشراً بشكل كبير بين المعتقلين وخاصة (اللثة النازفة) ثم يسأله: كام واحد سنية؟ (أي التهاب أسنان).
وهكذا يبادر رئيس المهجع إلى الجواب، يقدر العدد وينطق بالجواب فوراً، وهكذا يدور الممرض على المهاجع فإذا انتهى ذهب ثم عاد بعد ساعتين أو ثلاث يقذف من النافذة الصغيرة في باب المهجع بلفافات ورق صغيرة مكتوب عليها سنية أو معدة أو روماتيزم أو غيره من الأمراض، ونفتح اللفافة فنجد فيها بضع حبات كنا نأخذها وكأنها للتسلية أو للضحك على الذقون، ونقول: الشفاء من الله.
ولقد كان عدد المرضى كبيراً فعلاً ولم يكن هذا علاجاً بأي معنى، ومع ذلك حسدنا زبانية السجن على هذه المعالجة واستكثروها علينا فانقضوا على رؤساء المهاجع يضربونهم ويعذبونهم ويقولون حانقين: إسهال (30) لثة (40) سنيّة كلب.. يا.. كذا وكذا..
وهكذا انكمش رئيس المهجع وبدأ يعطي (ميكرو) أرقام كالتالي:

إسهال (3)، لثة (2)، روماتيزم (2) معدة (1)، أسنان.. لا يوجد لا يوجد..
ومع ذلك لم يكتف زبانية السجن بهذا، بل أنهم تولوا معالجة المرضى بأنفسهم، يجرحون ويداوون ولا حاجة لطبيب ولا لممرض.
وبالفعل أخذ الرقيب فواز مع نفر من الزبانية أبرزهم الجلاد سمير (المقلب حيّو) يطوفون على المهاجع ومعهم الكرابيج حيث يطلبون المرضى ويحققون معهم بدل المعاينة أو الكشف الطبي: شبك، شو ميجعك.
ويقول (حيّو) للمريض: عمتكذب ولك حقير، ويضربه أو يرفسه فيتمنى المريض من العلاج السلامة، وهكذا تضاءل عدد المرضى ثم انقطع العلاج تماماً، وغاب الممرض فلم نره بعدها.

5/10/1981 المحاكمات تعود وتشتد
... طلب عدد كبير من المعتقلين وقرأت الأسماء على أبواب المهاجع في الساعة السابعة والنصف صباحاً..
وعرفنا من وقت الطلب وطريقته ومن تصريح العساكر أنهم مطلوبون إلى المحكمة، وكنا قد سمعنا من قبل عن المحاكمات وما يجري فيها.
خرج من مهجعنا حوالي (25) معتقلاً "للمحاكمة" وجمع المطلوبون للمحكمة من مختلف المهاجع ومضوا بهم، وكنا نسمع صراخ الجلادين ونهرهم وهبدات الكرابيج على أولئك الأخوة، فأخذنا ندعو لهم أن يرد الله عنهم كيد الظالمين المجرمين وينقذهم من هؤلاء القضاة الفاجرين ولم يكن أي واحد من المعتقلين يأمل أن ينصف أو يجد عدالة لدى هذه المحاكم الصورية.
كنا نعلم مسبقاً ما يجري فيها وإن كان كل هؤلاء الذاهبين سوف يعودون إلى هنا وسيبقون في السجن سواء منهم المحكومون بالإعدام بالبراءة وما بينهم.
وأننا سوف نبقى للعذاب والتحطيم والتصفية في سجن الموت هذا، ولن ينجو إلا الذاهبون إلى الإعدام، فهؤلاء يفوزون بالنجاة تماماً من الظلم ومن عظيمة النجاة، ونغبط من فاز بالشهادة وهو يحمل السلاح مقاتلاً هؤلاء الظالمين المجرمين ونتحسر على أننا لم ننل مثل هذا الإكرام.

طال غياب الذاهبين إلى المحاكمة فلم يعودوا حتى الساعة التاسعة ليلاً حتى آيسنا من رجوعهم إلينا هذا اليوم، وكنا قد احتفظنا ببعض الطعام تحسباً من أن يعودوا جائعين وقد رأى بعض الأخوة أنه لابد أن يكونوا أعطوا شيئاً من الطعام خلال هذه المدة وأنه لا لزوم للاحتفاظ بأي طعام فتصرفوا بشيء من الطعام وبقي القليل منهم، وجيء بهم فجأة، فإذا بهم يسارعون إلى المرافق وإذا هم جائعون لم يذوقوا أي طعام منذ الصباح..

وحدثني بعضهم عما جرى معهم فقال: أخذنا تحت الضرب إلى باحة المكاتب ونحن منكسو الرؤوس حسب العادة، وهناك في طرف تلك الباحة وجدنا عدداً كبيراً من المعتقلين قد جيء بهم قبلنا، كانوا يجلسون على الأرض منكسي الرؤوس جميعاً دون أي حركة أو صوت، فضمونا إليهم ثم جيء بآخرين وآخرين حتى تجمع عدد كبير يقدر بحوالي (300) معتقل وكان عدد كبير من الجلادين يطوفون حولنا ويضربوننا، وبدأت المحاكمات في التاسعة فأخذوا ينادون على اسم المعتقل فيقوم إليهم فيضربونه بالكرباج ويصرخون فيه ويسبونه ويقودونه إلى غرفة المحكمة ويتلقاه على الباب جلاد عنيف معه كرباج ثقيل فيضربه على أم رأسه ويدخله على القاضي، حيث يسأله بضعة أسئلة ثم يطرده فيخرجه الجلادون ويضربونه ويعيدونه إلى مكانه.

توقفت المحاكمات في الساعة الواحدة والنصف للغداء، حيث يتغدى القاضي على ما يبدو، وعاد إلى العمل في الساعة الرابعة تقريباً ونحن لا نزال جلوساً في أماكننا دون أي حركة تحت حر الشمس اللاهبة، وقد تجمدت أطرافنا وتجمدت مفاصلنا وتصلبت رقابنا فكانت هذه الجلسة من أشد العذاب علينا.

كان كثير منا متضايقين يريدون الخروج إلى الخلاء، وقد تجاسر أحد الأخوة المعتقلين فرفع يده وطلب أن يسمح له بالذهاب إلى الخلاء فرفض طلبه وسبه الجلادون وشتموه وضربوه، وتجرأ آخرون وقد ضاق بهم الحال وصعب عليهم الصبر فرفعوا أيديهم وطلبوا أن يسمح لهم بالذهاب إلى الخلاء (المرحاض) لقضاء الحاجة فرفض طلبهم وانقض بعض الجلادين عليهم يضربونهم ويسبونهم.

وطلب أحد الأخوة للمحكمة وكان في أشد الضيق وهو مصاب بالإسهال الشديد، فلم يتمالك خلال وجوده في المحكمة فتبرز في ثيابه ولوّث قاعة المحكمة، فثار عليه القاضي والجلادون وانهالوا عليه ضرباً وأخرجوه من قاعة المحكمة حيث أخذ إلى مكان ما.. حينذاك اضطر الزبانية لمعالجة الوضع، فأظهروا أنهم يريدون أخذ المتضايقين إلى المراحيض فقام عدد بسيط (50) شخصاً والواقع أن الكل متضايقون فأوقفوهم في صف طويل، وأخذ عدد من الجلادين يضربونهم في حمية وحقد، ومن أسعده الحظ بدخول المرحاض متحملاً أذاهم قبل الدخول وبعده منعوه أن يقضي حاجته مستريحاً وأجبروه على الخروج بعد دقيقة واحدة فقط.. ورد قسم من هؤلاء الواقفين دون أن يسمح لهم بدخول المراحيض.
قال محدثي: وكنت في أشد الضيق ولكن ما رأيت من عذاب وإهانة جعلني أصبر وأحتمل، مفضلاً آلامي على أذاهم وبغيهم، يقول: وبقينا كذلك في مثل هذا الحال دون أي راحة ودون أي طعام أو شراب حتى رجعنا ومع ذلك فإن كثيرين لم يحاكموا أيضاً ونحن منهم.

16/10/1981
وقد أخذ عدد آخر من المعتقلين في اليوم التالي للمحاكمة، واستمرت المحاكمات ما بين 3 – 5 أيام حوكم خلالها ما يقرب من 300 – 500 معتقل، وأخذ هؤلاء الأخوة فحوكموا أيضاً.

في المحكمة
كان ممن طلب للمحكمة وذهب في اليوم الأول والثاني، الأخ صالح بكور وهو معلم في بلدته معرة مصرين القريبة من إدلب عمره (38) سنة، متوسط الطول، ترى فيه صورة كاملة للأدب والأخلاق الطيبة واللطف، فتشعر نحوه بالحب والود.
ولما عاد الأخوة في اليوم الثاني من المحاكمة، ولدى وصولهم رأينا الأخ صالح وهو في حالة إنهاك شديد، يسير بصعوبة مستنداً إلى بعض الأخوة، وهكذا اضطجع الأخ في ناحية وجئت مع بعض الأخوة نريد أن نطمئن عليه ونساعده ونرى ما به، فلما حاولنا لمسه نهانا وهو

يئن ويتألم، مما أوقعنا في حيرة كبيرة سألنا من معه عما به؟ فقالوا: أخذه الجلادون فضربوه وعذبوه، فلم يشفنا ذلك ولما تحسنت حال الأخ صالح حدثني عن ما جرى معه، قال: حين دخلت إلى المحكمة وجدت القاضي كان غاضباً يشدد في الأسئلة ويسب ويشتم وقد زاد في ثورته ما في تقرير المخابرات عني.. وبعد بضعة أسئلة طردني من المحكمة مع بعض ألفاظ السباب وأعادني الجلادون إلى مكاني في الباحة مع الجالسين، ولم يمض وقت طويل حتى جاءني أحد زبانية السجن، وأنا مثل غيري مطرق إلى الأرض ممنوع من الحركة أو النظر أو الكلام/ فسألني: أنت تحاكمت؟ قلت: نعم. قال: أنت من أي مهجع؟ قلت: من مهجع (27) قال: قوم حتى آخذك على مهجعك.. امش وراي.. فسرت وراءه، أفتح عيني قليلاً حتى أبصر مواطئ قدمي إلى أن وصلنا إلى نهاية الباحة رقم (3) وعند الباب الواصل إلى الباحة رقم (5) كان يقف عدد من العساكر الجلادين..
فأوقفني هناك، وأخذ كرباجاً ثقيلاً وانقض عليّ يضربني بقسوة على مختلف أنحاء جسمي كيفما اتفق، وكان أولئك الجلادون يهزأون ويضحكون، ويوجهونه قائلين: اضربوا على راسو، وكان يفعل ويضربني على رأسي ووجهي واستمر يضربني بشراسة وحقد واندفاع مدة طويلة، لا يكل، وقد بلغ مني الألم والإنهاك مداه، وهو ماض في ضربي حتى جاء جلاد آخر، فنهره وأوقفه، ليس إشفاقاً عليّ ولا رحمة ولكن لأنه خالف التعليمات بأخذي من ساحة المكاتب إلى الباحة (3) أما ما حدث لي فهذا شيء لا قيمة له، فلا قيمة للمعتقلين كبشر، إنما قيمتهم كأرقام فقط، وهكذا أعادني الرقيب إلى حيث يجلس زملائي في باحة الإدارة فبقيت هناك حتى أعدنا إلى المهجع.

طالب في المحكمة

كان ممن طلب للمحاكمة شاب حلبي يدعى محمد عقيل وهو طالب ثانوي (19) عاماً قصير القامة، نحيف أسمر الوجه، حيي خجول، كثير الود.
كانت جريمته خطرة فهي (أكلة حمّص).. كما لخصها من عرف القصة واشتهرت بين المعتقلين بهذا الاسم فكانت أصدق تعبير واقعي عن قصة هذا الشاب البريء.

وتفصيل ذلك أن الأخ محمد خرج مع أستاذه مدرس اللغة العربية وطلاب آخرين في نزهة خلوية إلى قرية المسلمية التي تبعد عن مدينة حلب شمالاً مسافة (10كم) والمشهورة ببساتينها الخضراء ومياهها العذبة.. فتغدوا هناك حمصاً وزيتاً..!! والشيء الذي أثار عليه رجال الحكم وأقامهم فما أقعدهم، أن هذا المدرس من الإخوان المسلمين، وأنه استشهد في إحدى عمليات التفتيش، لذلك عدَّ الحمّص رابطة تنظيمية أكيدة، واحتسبت هذه الرحلة وهذا الغداء الحمصي جريمة ما بعدها جريمة، وعملاً رهيباً ضد النظام الأسدي النصيري، ودخل أخونا محمد عقيل المحكمة وانقض عليه الجلاد يقرعه بالكرباج على أمّ رأسه وفقدت أذناه حاسة السمع، وضاعت معالم الأشياء أمام بصره، وكاد يصرع وقدم للقاضي المحترم..! فسأله واستجوبه عن الرحلة والغداء فأجاب الأخ بالإيجاب على كل سؤال.. ولم يجد القاضي المحترم لهذه الجريمة سوى (الإعدام) عقاباً!!.. ولم يكتف بهذا الحكم ويسكت عن هذا المسكين فلا يبلغه هذا الحكم المريع كما يفعل مع أكثر المحاكمين، بل كان في أشد الغيظ من هذا الشاب الصغير آكل الحمّص، الهادئ المسكين، فوجهه بالحكم قائلاً: روح إعدام يا.. وأتبعها بكلمات من السباب الرخيص وخرج الأخ من المحكمة، فجلس مع إخوانه في الباحة تحت التعذيب حدثنا بعد مجيئه فقال: أبلغني القاضي حكم الإعدام واقتادني الجلاد إلى الباحة حيث أجلسني مع إخواني، ووالله إني لأشم رائحة الجنة منذ أن قال لي القاضي ما قال، فقد أيقنت أنني قد أصبحت قريباً من الجنة، وها أنا أشم ريحها وأجد أنسها فلا تهمني دنياكم هذا بشيء، لقد رأيت حلو هذه الدنيا ومرّها فكفاني منها ما رأيت وما علمت كفاني..

.. وحدثنا أخ آخر من حلب وهو شاب في الثامنة عشرة من عمره، طالب، يدعى عبد الغني قلاع، (جميل الطلعة، طيب الأخلاق، اشتهر بالشجاعة بين زملائه) أنه لما دخل المحكمة وضرب فيها ونهره القاضي وسبّه وسأله الأسئلة المعهودة يقول: فقرأت في سري قول الله سبحانه (فاقضي ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا).

شاب صغير آخر حكم عليه بالإعدام، فسأله بعضهم: بماذا حكم عليك؟.. فقال: حكم علي بدخول الجنة بعد شهرين من الزمان، وكان الإعدام يتم غالباً بعد شهرين من تاريخ الحكم.

8/11/1981 أحداث في المحكمة الميدانية

طلب للمحكمة الأستاذ محمد جميل بنشي وهو مدرس رياضيات في ثانوية سلقين الرسمية لسنوات طوال، في الأربعين من العمر، متوسط القامة، ممتلئ الجسم، أشيب الشعر، ولم تسأله الشرطة عن متممات هويته، وسيق إلى المحكمة تحت الضرب والإهانة وهناك ضربه الجلاد على أم رأسه بالكرباج الثقيل حتى كاد يصرع، وأخذ القاضي يسأله بعض أسئلة وهو قرف منه، وتبيّن للأستاذ أنه ليس الشخص المطلوب، وكان يعرف أن هناك شخصاً آخر في سجن تدمر يوافق اسمه وهو محام من اللاذقية، فبادر وأوضح للقاضي أنه ليس الشخص المطلوب، وأنه ليس من اللاذقية.. فغضب القاضي، لا على الجلادين الذين أحضروه بل على الرجل المسكين وصرخ فيه: فلم أتيت إذن؟.. قال: هم أتوا بي.. فانقض عليه جلاد المحكمة وضربه مرة ثانية على أم رأسه ثلاث ضربات رهيبة عاد بعدها مريضاً.. وقد توفي الأستاذ بعد مرض استمر عدة أشهر، فعليه رحمة الله.

التهم

كانت أغلب التهم التي توجه إلى المعتقلين كالتالي:

1 – معرفة عنصر إخواني أو إطعامه أو حضور درس قرآن في المسجد، أو قراءة مجلة النذير التي تصدر عن الأخوان المسلمين، أو دفع مبلغ مالي معونة لزوجة معتقل أو ملاحق ذات أولاد تعيلهم، أو نقل رسالة من ملاحق أو سجين إلى أهله أو آخرين وعقوبتها من 15 سنة إلى المؤبد.

2 – تهمة التنظيم المسلح، وتكون بتأييد أو إعلان الرضا بالمشاركة فيه أو اقتناء مسدس أو قطعة سلاح، أو له علاقة بعنصر ممن يحسبون من التنظيم المسلح، كأن يكون قد آواه وأطعمه وتستر عليه. ونتيجة هذه التهمة الإعدام.

3 – تهمة التنظيم في الإخوان المسلمين، تنظيم سياسي وهؤلاء لا يبلغون أي حكم.
4 – كتم المعلومات والمعرفة البسيطة 10 – 15 سنة.

18/11/1981 الإعدامات صورة حيّة
... (وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، أو ما تدري نفس بأي أرض تموت) صدق الله العظيم.. جاء الجلادون في الصباح الباكر قبل موعدهم اليومي المعتاد في السادسة والنصف، جاؤوا في الخامسة والربع، وسمعنا أصواتهم وهم يقرأون قوائم طويلة أسماء طويلة على أبواب المهاجع، كما سمعنا أصوات تقديم الصف، كان اليوم هو السبت (أحد يومي الإعدام) المعتادين المعروفين السبت والأربعاء..
جفلت قلوبنا لهول الأمر، وشعرنا أننا في قبضة مجنون لئيم لا يرعى حقاً ولا عهداً ولا قانوناً ولا دستوراً، ليس في قلبه ذرة خير ولا إنسانية ولا شرف ولا مروءة ولا رجولة، يقتل الأبرياء ظلماً ويسفك الدماء جزافاً بلا حساب ولا تقدير.. ولا.. ولا.. اقتربت خطاهم من باب مهجعنا وصرخ أحد الزبانية: مهجع (27) ولك، فرد رئيس المهجع حاضر سيدي. فقال: استيقاظ ولك حقيرين.. فصرخ رئيس المهجع يطلب منا الاستيقاظ، فالاستيقاظ ممنوع في نظام السجن قبل السادسة، فجلسنا وقدم رئيس المهجع الصف فوراً: انتبه استاعد، المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب..
ووقفنا باستعداد مطرقي الرؤوس، وصرخ الرقيب من نافذة الباب الصغيرة، (ولك كل واحد بيطلع اسمو يقول حاضر، ويأتي فوراً لعند الباب..) ثم أخذ يقرأ القائمة الطويلة، ولا شك أنها قد نقصت إلى النصف بل إلى الثلثين قبل أن تصل إلى مهجعنا، لأنها قد مرّت قبله بعشرين مهجعاً على الأقل ولم يبق إلا مهاجع معدودة.. ثمانية تقريباً.. واندفع أخ وقد صرخ باسمه يجيب حاضر، اتجه نحو ناحية الباب فوراً، فسأله الرقيب عن اسمه واسم والده ووالدته وتولده.. وأمره بالوقوف قرب الباب وتابع الرقيب القراءة، وخرجت أسماء خمسة أخوة آخرين من مهجعنا فوقفوا رتلاً أمام الباب، وكانوا جميعاً من الشباب الصغار من سن الـ (18) عاماً ولما انتهى الرقيب من القائمة وقد قدر عدد الأسماء فيها

بحوالي الثلاثين اسماً قال لهؤلاء الأخوة: حضروا أغراضكم انتو مطلوبين محاكم..؟
وذهب الرقيب إلى المهجعين المجاورين ليقرأ قائمة الأسماء عليهما وترك هؤلاء الشباب أماكنهم أمام الباب إلى داخل المهجع، وكانت فرصة لم نحظ بها قبلاً لتوديع إخواننا، فقد كانوا يطلبون الإخوة ويأخذونهم فوراً، أو كنا لا نعلم شيئاً عن المصير كما حدث في أول مرة.
واندفع الأخوة يعانقون هؤلاء الشباب ويقبلونهم، وقد اضطرمت المشاعر في الصدور، فكان الجميع في حالة لا يعلمها إلا الله، من القهر والألم والحزن، لا يدري أحد ماذا يقول وتنهمل الدموع على الوجوه، وتأخذ الغصات بالحلوق، تكاد تمزق الحناجر، يقول بعضهم: الله معكم، والبعض الآخر: توكلوا على الله.
وكان كثيرون يعانقونهم ويقبلونهم ثم يوارون وجوههم عنهم ويجهشوا في بكاء شديد.
كان الأخ (بكري فتحي نحاس) شاباً طويلاً رقيقاً لم ينبت الشعر في وجهه بعد، وقد حفظ تسعة وعشرين جزءاً من القرآن الكريم أبعد المتزاحمين حوله وقال: يا أخوة لا يقبلني أحد.. ولما رأى تكاثر الأخوة حوله وشديد حزنهم وألمهم عليه وعلى رفاقه، أخذته غضبة فاندفع يقول بشدة: (مالكم؟ لم أنتم حزينون؟ لا تحزنوا نحن ذاهبون إلى رب كريم، أما أننا قد شبعنا من طعامكم هذا من البرغل والرز والصمون، تركنا لكم هذا كله، إنّا مشتاقون إلى ربنا ولسنا آسفين على دنياكم هذه، فلم الحزن..).
وانطلق باسماً عريض الابتسامة، فوزع ما لديه من متاع قليل، ونزع ما عليه من ثياب جديدة، ولبس ثياباً خلِقة وهو يقول: الحي أولى بالجديد من الميت، ونزع ساعته وحزامه فأعطاهما لإخوانه وسارع يتوضأ هو وإخوانه المطلوبين للإعدام، ثم صلى كل واحد منهم ركعتين (ركعتي الشهادة) آخر ركعتين من الدنيا، وجاء الرقيب يفتح الباب، وقدم رئيس المهجع الصف وطلبهم الرقيب فجاؤوا سراعاً لا يترددون، وطلب منشفة من كل واحد منهم وعصب عيونهم بها ثم أخرجوا من المهجع.
كنا نودعهم بقلوبنا ونخاطبهم بأفكارنا، ونتمنى أن نفديهم بأرواحنا.. كم نحن في شوق إلى الجهاد، إلى جهاد هؤلاء الظالمين المجرمين، نقول قد وضح

الطريق، فالظلم كبير والظالمون فاجرون كافرون، قد انتهكوا كل حرمة وداسوا كل مقدس، ولم يلتفتوا إلى أي قيمة أو خلق أو مبدأ، فجهادهم هو الجهاد الفرض على كل مسلم، بل على كل إنسان حي الضمير، فيه شرف وفيه مروءة وفيه إنسانية، فالظلم تأباه النفوس، ومن الإنسانية أن يتألم الإنسان للظلم، يمارس على إخوانه وبني جنسه، وأن يسعى للإحقاق الحق ورفع راية العدل والإنصاف والرحمة.

كان مسئولو السجن يتخذون إجراءات عديدة مشددة للتكتم على موضوع الإعدامات خاصة، وعلى كل أخبار سجن تدمر عامة، ويظنون أننا لا نعرف عن الإعدامات شيئاً فقد منع الرقيب خلال إدخال الفطور في الساعة السادسة والنصف، منع السخرة من الخروج لإدخال الطعام أمام باب المهجع، وصرخ فيهم: لا حدا يطلع ولك..

وقام أحد عناصر البلدية بإدخال طعام الفطور، وتبين لهم أنهم قد وضعوا على النافذة الصغيرة الموجودة في الباب قطعة (كرتون) كبيرة تمنع النظر من خلالها.

وأوّلت هذه الإجراءات بأنهم قد نصبوا المشانق في الساحة (فهم لا يريدون أن نراها) لكي لا نعرف أن في سجن تدمر إعدامات بالجملة، وموت بالمفرق، ولم يدركوا أننا نحس بالأمر وأننا قد وعيناه تماماً وأدركنا صورته وأبعاده. وجاءت دورية من فوق السطح وصرخ أحدهم فينا: (ولك حقراء.. لجوا.. بعدوا عن الباب ولك لجوا يا كلاب يا أنذال يا..) فلما ابتعدنا إلى منتصف المهجع وتجمعنا في النصف الداخلي، أمرنا بالجلوس وهو يصرخ (جالساً ولك.. ما حدا بيوقف أبداً) وجلسنا متقاربين متراصين واجمين، فقد كنا نعلم أن معنى ذلك أن عملية الإعدام على وشك أن تتم، ومضت الدقائق ثقيلة بطيئة والكل مطرق متحير محزون مقهور، وبدا السجن هادئاً على غير العادة، هادئاً هدوءاً مريباً، فلا تسمع أي صوت فلا أبواب تفتح، ولا جلادون يصرخون أو يسبون ويشتمون، حتى ولا صوت بلدية ممن يعملون في جلي الطشوت أو إفراغ أوعية القمامة إلا حركة يسيرة كسير أحدهم مسرعاً في طرف الباحة البعيد.. كانت الساعة تشير إلى التاسعة إلا ربعاً، الجو مشمس والهواء ضعيف، والعصافير تغدو وتروح وأصوات بعيدة

تأتي من المدينة تبدو واضحة، صوت سيارة مارة، نهيق حمار، نداء طفل.
وشق السكوت صوت جلي يصرخ بقوة وسرعة: الله أكبر وكأنه يستبق الزمن، تحفزت الأعصاب وأرهفت الآذان، وانقطعت كل نأمة في المهجع جميعه، وبدا الجميع مطرقين واجمين كأن على رؤوسهم الطير ولم نسمع إلا صوت نسمات الهواء الخفيفة وحفيفها، وشقّ السكون صوت آخر أقوى وأوضح صكّ أسماعنا وقرع قلوبنا: الله أكبر.. وأعقبه شخير حاد، وتتالى النداء العظيم: الله أكبر، الله أكبر.. الله أكبر.. يتبع بعضها حشرجات النزع والحبل يشتد على العنق، وكانت كلمة الله أكبر تخرج مقطوعة بعض الأحيان حيث تعاجل الحبلة المسكين وتقطع عليه نداءه فيخرج مبتوراً.. الله أكبر.. وتسرع الحشرجات.
أي مشاعر كانت تصطرع في الصدور، وأي قهر، والكل مطرق ساهم يدعو ويضرع إلى الله السميع البصير أن لا تضيع هذه الدماء هدراً.. والقلب يندب العدالة بين البشر ويسخر من هذه الحياة الزائلة ومن أتباعها، وينعي على القاعدين السادرين في غيهم.
وبعد مضي ساعة ونصف تقريباً عاد السكون يخيم من جديد، كان آخر شيء سمعناه هدير محرك السيارة وهي تنطلق وصوت أخشاب تلقى.
فسرت هذه الأصوات بأنها صوت الشاحنة التي تنقل جثث الشهداء إلى مثواهم الأخير في صحراء تدمر، حيث يلقون في حفرة كبيرة ويهيل عليهم (بلدوزر) التراب وينتهي الأمر، أما الأخشاب فإنها خشبات المشانق تعاد إلى مستودعها بعد أن أدت مهمتها في انتظار مهمة جديدة

15 كانون أول 1981
عمليات الإعدام مستمرة بمعدل مرتين كل أسبوع، فنحن دائماً على صلة بالموت والآخرة، وأصبحت رحلة الموت شيئاً قريباً سهلاً وكأنها انتقال من مهجع إلى آخر، أو من سجن إلى الحرية ومن الخوف إلى الأمان، وكانت الدنيا هينة جداً على قلوبنا جميعاً لما نعانيه من ظلم ومن قهر ومن عذاب، فكانت عمليات الإعدام فرصة للخلاص، ولكن أعمالنا كانت بسيطة وذنوبنا

كبيرة حتى تساءل الكثيرون هل هذه شهادة في سبيل الله؟.. ولكن آمالنا في رحمة الله الواسعة وكرمه العظيم كانت عظيمة، وشوقنا إلى عدالة السماء كان شديداً، وكل الأمل أن يرزقنا الله فيما بقي لنا من حياة أن نجاهد هؤلاء الظالمين ونقاتلهم في معارك فاصلة ينصر الله فيها من يشاء، ويخذل من يشاء والله على كل شيء قدير. وأن نموت شهداء في ميدان الجهاد، ونحن أعزاء نحمل سلاحنا ونقاتل عدونا والأمر لله من قبل ومن بعد.

16/12/1981 التنفس والتعذيب بالتمرينات الرياضية
كانوا يخرجوننا للتنفس الرياضي أو التعذيب بالتمرينات الرياضية ثاني يوم من كل عملية إعدام، فيخرجوننا دون أغراض ويصفوننا متباعدين ويجعلوننا نقوم ببعض الحركات الرياضية وخاصة تمرين الضغط والتمرين السادس وهو ما يدعى بالرقصة الروسية، ومشي البطة، والزحف، ولا يخلو هذا التنفس من الكرباج والضرب بل الضرب مستمر فيه بالكرباج وغيره من قبل اثنين أو ثلاثة من الجلادين، وكان يتحول هذا التنفس الرياضي بعض الأحيان إلى عملية تعذيب قاسية، حيث يرهقوننا بهذه التمرينات الصعبة غصباً وجبراً، حتى نكل وتنهار قوانا، وهم يجبروننا على متابعة الرقصة الروسية أو الضغط أو الزحف أو مشي البطة، وكان ما نعانيه بعد ذلك من الآلام العضلية صعباً حيث تصبح عضلات أيدينا وأرجلنا وكأنها دمامل حقيقية.

إحصاء قرآني
أحصي ما في مهجعنا من القرآن فكان ثمانية عشر جزءاً متفرقة، وكانت هناك حاجة ماسة إلى أجزاء وسور أخرى.. ويسر الله فكانت تأتي إلى مهجعنا السورة تلو السورة من طرق مختلفة.. وعن طريق القادمين الجدد، فكان أول ما يتلقى به القادم حديثاً إلى سجن تدمر سؤاله ماذا تحفظ من القرآن؟
ولما جرت عمليات الفرز وتغيير المهاجع، نقلنا إلى مهجع آخر.. فإذا فيه كميات كبيرة محفوظة من أجزاء القرآن وسوره، فتكامل ما معنا وما وجدناه عندهم حتى أصبح كل القرآن تقريباً محفوظاً في المهجع، ونشط

كثيرون للحفظ.. بغاية إتمام حفظ القرآن، ثم أخذ للإعدام الشخص الوحيد الذي كان يحفظ القرآن كله، غيباً وهو الأخ الشهيد محمد عطري رحمه الله.

وأكمل بعد ذلك كثيرون حفظ القرآن منهم الأخ (ي س) الأمي، والمعلم أبون والمهندس الزراعي (م. ج) والدكتور (م. د).

وكان موضوع التفسير يتحرج منه الإخوة، وكان لابد من التفسير وكان للآيات والمقاطع إثارة في النفس، فكنت أتحدث عن هذه الآثار وهذا الانطباع الذي تتركه الآيات في النفس.. إضافة إلى معاني وبعض الإشارات إلى النواحي البلاغية والإعجازية، مما أعان الله به.

ولم أكن أدعي علم التفسير ولكني كنت أشحذ الهمة للفهم على ضوء معرفة سابقة.. ولا أبخل على أولئك الذين هم في شوق إلى الكلمة الإيمانية، فلا أحرمهم من حديث شجي وكانت الدموع تترقرق في عيني وتنساب منهما وأنا أحدث عن دعاء سيدنا زكريا عليه الصلاة والسلام، واستجابة الله له وعن محنة مريم البتول عليها السلام، وكان للأخ أبي أنس علم بتفسير "الجزء الثلاثون" قد استكمل ذلك وأجاده حفظاً وتفسيراً، وكان المهندس الزراعي (م. ح) قد ألهمه الله مما عرف من علوم زراعية ومعلومات علمية، ومما حفظه وفهمه من القرآن الكريم إلى اكتشاف روابط وموافقات رائعة يربط فيها بين آيات القرآن الكريم والعلوم والمعارف الإنسانية المختلفة، فكانت روائع من التفكير والتدبر.

وكانت تحصل لدينا إشكالات في بعض الكلمات القرآنية، أو الحروف أو التشكيلات نتيجة عدم وجود أي نسخة للقرآن، نرجع إليها في جميع مهاجع السجن، فكنا نرجع إلى جهابذة اللغة فيجتهدون أن يعطوا القول الصواب.

كان القرآن ممنوعاً منعاً باتاً في جميع مهاجع سجن تدمر، بل كل شيء من ورق وأقلام وكتب، ممنوع أيضاً، ويا ويل من يضبط لديه ورقة من القرى القرآن، فرؤية القرآن والقراءة فيه إحدى الأماني الكبيرة التي نراها في الأحلام، فنفرح وتنشرح قلوبنا بالحلم ويقول القائل متحسراً: هل نرى القرآن يوماً ونقرأ فيه ونرتل الآيات مطمئنين؟..

كنت أتحرج من كثرة الحفظ، بل قد توقفت تقريباً عنه، كنت خائفاً من أمر واحد هو النسيان.. والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: "أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة آية من كتاب الله أوتيها ثم نسيها".. فحدثت بخوفي هذا الأخ الكريم الشيخ (ح. ي) وهو من أرباب الفقه ورجاله، فقال لي: ألم تسمع ما قال الحفاظ؟
قلت: وما قالوا يا أبا محمد؟
قال: قالوا (من يقرأ الخمسة لا ينسى) يعني من يقرأ خمسة أجزاء في اليوم لا ينسى.. وعجبت للفكرة الجميلة ولكنها إذن مهمة جليلة، فكلف نفسك ما تطيق لذلك كان يرمي أن يكون هناك توازن وعدم طغيان أمر على أمر، وهكذا كنت أحفظ ولكن ببطء شديد مدققاً فيما أحفظه ومتقناً حفظه ما استطعت..
وبذلك كنت أنصح بعدم الاقتصار على حفظ القرآن، بل الأخذ بنواح أخرى هامة مثل حديث النبي صلى الله عليه وسلم، والفقه والسيرة.. وغيرها..
وعزم بعض الأخوة على حفظ حديث النبي ولم يكن في مهجعنا الكثير منه، وكنا نتداول هذا القليل دون ترتيب أو حصر وكنت أحفظ عدداً لا بأس به من الأحاديث النبوية الموجودة في كتاب الأربعين النووية، فكنت أرددها مع بعض الأخوة. جاء أحد الأخوة فطلب أن أعدد له الأحاديث وهو يثبتها.. حتى وصل بنا العدد إلى ثلاثة وعشرين حديثاً من أحاديث الأربعين النووية، وبهر كثيرون بما عند الأخ من عدد جيد، وجاء بعضهم إلي فنصحني أن أستعين بالأخ فلان لأن عنده عدداً كبيراً من أحاديث الأربعين النووية لعلنا نستكملها، ولكن تبين إنما هي الأحاديث التي أثبتناها سابقاً ومع ذلك وبالتعاون مع عدد من الإخوة، وصل معنا الرقم إلى ثمانية وثلاثين حديثاً ونشط كثير من الإخوة لحفظها ونشرها، ثم أتممناها بحديثين من غير الأربعين فتمت أربعين حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم.

3/1/1981 - الشتاء –

الشتاء قارس، والأغطية قليلة والمطر غزير، وفتحات السقف غير مغطاة في الغالب بأي شيء مما يجعل أكثر من ثلث المهجع معرضاً للبلل، ومما يزيد الأمر سوءاً أن الحركة في الليل ممنوعة، ويجب أن ينام الجميع، ولا

مكان إلا تحت المطر. فكانوا ينامون لتبتل بطانيتهم وثيابهم وأغراضهم.
حصة المعتقل بطانية واحدة كغطاء مع عوازل تمد على الأرض، ولم تكن كافية بأي شكل في جو كانون الثاني، حيث البرد القارس، فكنا نصاب بالزكام والإسهالات والأمراض المختلفة، ورأى البعض حلاً في الغطاء الجماعي، حيث يشارك عدد من المعتقلين في غطاء واحد مع النومة المتداخلة: رأس ورجلان وهذه عامة في المهجع لضرورة أن يجد كل واحد مكاناً بالكاد يمدد فيه جسمه،.
وكنا نجلس طوال النهار نرتجف من البرد، ويأتي الحارس من السطح ليأمرنا بأن لا نستعمل البطانيات لتدفئة أرجلنا وأجسامنا، ويقول بأن ذلك ممنوع -مع السباب طبعاً- ونتيجة للجلوس الطويل فقد كانت تتيبس مفاصلنا ونكون عرضة للإصابة بالروماتيزم والآلام العصبية..
وقد أصيب الكثيرون، وكان أحدنا إذا قام من جلسته يسمع لأعضائه طقطقة (كالضباع) على حد تعبير بعضهم.
ورغم أن أفواج المعدومين كانت تخفف كثيراً من الزحام الشديد في المهجع، فإن أفواج المعتقلين المستمرة كالسيل، كانت تعوض هذا النقص وتزيد وبالتالي فإن الكثافة كانت تشتد باستمرار، وقد قدرنا عدد معتقلي تدمر في هذه الأيام كالتالي: عدد المهاجع المستعملة 32 مهجع × متوسط عدد المعتقلين في المهجع (140) = 32 × 140 = 4480 معتقلاً في سجن تدمر.
وقد علمنا من المعتقلين الذين وصلوا إلينا أخيراً أنهم يوضعون بعد حفل الاستقبال التعذيبي الرهيب في أحد المهجعين 1 - 2 في الباحة الأولى، فإذا امتلأ كلاهما وزع أحدهما على بقية المهاجع، وأن الدفعات: دفعات المعتقلين الآتية إلى سجن تدمر، تأتي مرتين أو ثلاثة في الأسبوع، وعدد الدفعة يتراوح بين 25 - 50 معتقلاً.

الكثافة مرة أخرى

كنا نتساءل هل يمكن أن يستوعب مهجعنا أكثر مما فيه الآن وعددنا فيه الآن (150) معتقلاً بعد تأرجح بين

الزيادة والنقصان، وهكذا فإن حصة المعتقل من أرض المهجع لا تتجاوز (375) سم مربع، ولكن ما نلمسه هو اندفاع المسؤولين إلى كل ما من شأنه أن يزيد في عذابنا وإيذائنا بل وموتنا، وهذا يجعلنا نعتقد تماماً وبشكل واضح أنه ليس لشرهم وسوئهم وإجرامهم من حدود تقف عندها.
كانت أرض المهجع مستغرقة حتى آخر شبر فيها، ولم يبق فيها موطئ لقدم، حينما سمعنا حركة في المهاجع والزبانية يتنقلون بسرعة من مهجع لآخر، ولما وصل الدور إلينا فوجئنا بعدد من المعتقلين الجدد مطأطئي رؤوسهم يتدافعون على الباب، ولا أدري كيف جازف رئيس المهجع بالكلام فقال: سيدي ما في موضع، المهجع مليان، سيدي والناس عبتنام في الباب. فغضب المساعد (أبو جهل) وقال: خلي ينامو وين بدن، ولكنه أشار من طرف خفي إلى الجلادين ونحن مغمضو العيون لا نبصر المناورة، فاندفع الجلادون يصرخون: لجوا ولك لجوا يا كلاب... يا حقيرين.. يا.... وابتعدنا عن الباب فدخلوا وأخذوا يضربوننا بالكرابيج يميناً وشمالاً، وتراكمنا فوق بعضنا في آخر المهجع، وهم يتبعوننا بالضرب وصعد بعضهم فوق الكوم البشري فضرب ودعس فيه.... وعشنا وقتاً عصيباً.. نتيجة الاعتراض البسيط.

يوم 6/1/1982
جاء الزبانية ظهراً، ففتحوا باب مهجعنا وأدخلوا مجموعة من المعتقلين الجدد، وبعد ذهاب الزبانية كنا نود التعرف على هؤلاء المعتقلين الجدد، وقد هالنا ما كانوا فيه من حالة سيئة، أرجلهم وأيديهم متورمة ممزقة، ووجوههم ملأى بالجروح والكدمات، بينما كان رأس أحدهم قد شج شجة منكرة تحت وقع ضربات الكرباج الكثيرة، وقد تجمدت الدماء فوقه ولوثت ثيابه، وظهر معتقل آخر قد تمعط وتسلخ نتيجة الجلد الشديد بالكرباج وغيد ذلك مما يصعب حصره والإطاحة به، ومع ذلك فإن شخصيات هؤلاء كانت أعجب من أحوالهم..

يوم 7/1/1982

معظم المعتقلين في المجموعة التي أدخلت مهجعنا البارحة، من كبار السن أو بالأحرى ممن تخطوا سن الشباب ودخلوا في سن الكهولة، وكانت أعمارهم بين الأربعين والستين عاماً، ومعظمهم من سكان الأرياف، فهم بسطاء طيبون كرماء أتقياء، ذوو عيال كثيرين وأراض زراعية يعملون فيها، ولقد علمت أن مجموع عيال أحدهم يصل إلى العشرين نفساً، ما بين امرأة وصغير وعاجز، وكلهم يعتمدون عليه في إعالتهم وإقامة أودهم، ولكوني ريفي الأصل فقد كنت من أشد المتألمين لحال هؤلاء الإخوة، وذكرتني حالهم وعيالهم بحالي وعيالي الذين تركتهم ولا معين لهم إلا الله سبحانه وتعالى، وكان ذنب هؤلاء هو كرمهم الذي دعاهم لا طعام أو إيواء المتوارين من الإخوان المسلمين صدمت بنبأ مؤلم مفاده أن الطبيب الاختصاصي والعلامة الكبير نزار الدقر كان أحد أفراد مجموعة المعتقلين الجدد، وصعب علي تصديق النبأ. الدكتور محمد نزار الدقر حاصل على شهادات علمية اختصاصية عالية من معهد العلوم الطبية والأمراض الجلدية في موسكو، وهو رئيس دائرة الأمراض الجلدية في وزارة الصحة بدمشق، وله بحوث طبية وتجارب علمية مستفيضة في علاج عدد من الأمراض والحالات المستعصية، وخاصة فيما يتعلق بالعلاج بالعسل، وله كتاب طريف في هذا المجال عنوانه (العسل فيه شفاء للناس) وله علاقات فعالة مع عدد من المؤسسات العلمية الدولية.

يوم 8/1/1982

انتهزت فرصة غير سارة وجدت فيها الدكتور "نزار" بقربي وذلك خلال إحدى حفلات التعذيب، وفي غفلة من أعين الجلادين سلمت عليه تتجاذبني عاطفة الفرح بلقياه، والألم لحاله وما هو فيه من بلاء ومحنة، فلقد كان يوم مجيئه أول البارحة متسلخ الظهر، متورم الرجلين واليدين، ووجهه ورأسه مليئان بالجروح والكدمات.

واليوم ربما أنها أول حلاقة لهذه المجموعة الجديدة من المعتقلين، فقد خصهم زبانية سجن تدمر بعذاب شديد، وكان وجه الدكتور محمد نزار بعد حفلة العذاب هذه،

مليئاً بالجروح والكدمات والدم يسيل من شفتيه، ولاحظت وأنا أراقبه أن سبابته اليمنى كانت ترسم في الفراغ كلاماً وكتابات مجهولة، هكذا يعامل العلماء والنوابغ البارزون، وهكذا يحطون في سجن تدمر.
والمعهود أن تكون السجون للأشرار المجرمين، لكن سجن تدمر هذا لا يحوي بين جدرانه إلا التقاة الصالحين والأبرار الطيبين، الذين ارتفعوا إلى هذه السوية، وارتقوا بأنفسهم رغم المحنة والبلاء وكلما ازداد والبلاء ازدادوا إقبالاً على الله ولجئوا إليه، ورغم أن كثيراً من المعتقلين لم يكونوا يميلون إلى التدين سابقاً، ولم يكونوا يؤدون الصلاة ويرتكبون شتى الموبقات، فقد أعلنوا هنا عن توبتهم وصلحت حالهم وسمت نفوسهم، وقد عزا رئيس فرع المخابرات في دمشق ما لمسه من تبدل سريع في سيرة أحد المعتقلين بعد مدة يسيرة من الاعتقال إلى تأثير المعتقلين من الإخوان المسلمين عليه وعلى غيره، ولكن أحد المعتقلين وهو من رجال الدولة السابقين قال حينما لمس هذا التأثير وهذه التغيرات الجذرية إنه يرى أن وضع عدد من المتدينين في السجون المدنية بين المجرمين والمنحرفين كاف لإصلاحهم وإعادتهم إلى الجادة الصحيحة.
علمت أن الدكتور محمد نزار الدقر معتقل منذ أكثر من عشرة شهور، وأنه كان في إحدى زنازين معتقل السادات بدمشق، وقد زاره هناك وزير الأوقاف محمد محمد الخطيب -وأنه لم يضع تلك المدة من عمره هباء رغم ما كان يعانيه من مضايقات، فصابر على بحوثه وألف كتاباً جديداً عن النحل سماه: النحلات صيدلانيات ملهمة- كما حفظ القرآن الكريم كله غيباً وقد جرده زبانية سجن تدمر من كتبه العلمية واحتجزوها مع كل ما بحوزته من أوراق وكتب.
وكان من أفراد هذه المجموعة من المعتقلين، نجل ضابط كبير من ضباط الجيش، أشقر الشعر، طويل القامة، جميل الطلعة، وقد جلبت له قامته الطويلة وشبابه الغض غضب الزبانية وأذاهم، فكان يحتمل كل ذلك بصبر جميل، رغم رقته وعدم اعتياده على خشونة العيش، ويدعى هذا الشاب (شرف الدين شرف)..

يوم 11/1/1982

(من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلاً).
طلب عدد من المعتقلين الشباب في مهجعنا للإعدام وذلك في أوائل أيام شهر شباط ،1982 وكنا نودعهم في ألم عميق ودموعنا تنهمر رغماً عنا ونحن نرى هؤلاء الشباب الذين هم كالزهور في رقتهم ولطفهم وأدبهم، وكالجبال الراسيات في ثباتهم وصمودهم، نراهم أمام كل هذا الكيد والغل والغدر، يتواصون فيما بينهم بالثبات وعدم الخوف، والتكبير قبل تنفيذ الإعدام.
ثم ينزعون ثيابهم الجيدة الجديدة وساعاتهم ويخرجون نقودهم فيعطون كل هذه الأشياء لإخوانهم المعتقلين، الذين هم بحاجة إلى هذه الأشياء ويسارعون إلى الوضوء وإلى صلاة ركعتين سنة الشهادة، ولما جاء الزبانية لأخذهم للإعدام وسألوهم عن أغراضهم قال كل منهم: ما عندي أغراض.
جمع زبانية السجن في هذه المرة عدداً كبيراً من المعتقلين لإعدامهم، وفجأة ارتفعت أصوات التكبير: الله أكبر الله أكبر، وكانت تردد هذا النداء أصوات جماعية مختلطة متفقة، وتبع ذلك أصوات ضرب بالكرابيج وصراخ الألم.
وكان هذا الفعل المنكر أشنع تصرف لزبانية سجن تدمر الذين أخذوا يعتدون على هؤلاء الذين سيواجهون الموت بعد لحظات، ويلقون وجه ربهم شاكين متألمين.
عم السكون والصمت المطبق والهدوء الغريب جنبات سجن الموت، إنها السكينة تتنزل على قلوب هؤلاء الذاهبين إلى الإعدام، وكان كل شيء في الدنيا قد وقف يرقب عملية الإجرام البشعة التي تقترفها أيدي الطغاة وزبانيتهم وأزلامهم في خفاء سجن الموت في تدمر.
حضر ضباط كبار للإشراف على العملية، وحضر مدير السجن الرائد فيصل غانم، وفي الثامنة والنصف صباحاً كان كل شيء جاهزاً تماماً، المشانق والجلادون والطغاة الكبار.. والمطلوبون للإعدام في غرفة الورشة يصلون ويتوجهون إلى ربهم ويدعونه: اللهم اجعل دماءنا ناراً على الظالمين، ونوراً للمسلمين وللدنيا أجمعين، اللهم إنهم يقتلوننا ظلماً وجوراً في سبيل تسلطهم

وفسادهم، اللهم فتقبلنا في رحابك تائبين منيبين، اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحدا. وبدأت العملية الرهيبة تتم وسط السكون المخيم، ففتح باب الورشة وأخرج هؤلاء المعتقلون وصفوا في طرف الباحة قرب الجدار أرتالاً وهم معصوبو الأعين موثقوا الأيدي إلى الخلف، وكان يتقدم رجلان من الزبانية ليمسكا الأخ المعتقل من عضديه ويسيران به إلى المشتقة ويعلمونه خلال ذلك ويشاغلونه ويموهون عليه فيقولون ما اسمك؟ ومن أي مهجع أنت؟.. بدنا ننقلك إلى سجن آخر.. فإذا وصلا به إلى المشنقة قالا هذه هي السيارة ويضعان الحبل في عنقه.

ويكون اثنان من خدم السجن (البلدية) قد أمسكا بالمشنقة الثلاثية الأرجل وأمالاها جهة المعدم فإذا وضع الحبل في عنقه أقاماها بقوة حتى تقف على قوائمها الثلاث، ويرتفع المعدم محمولاً من عنقه ويصرخ في هذه اللحظات القصيرة بكلمة التكبير يسابق بها الزمن ويثبتها في سجل الحياة الله أكبر، وقد يعاجله الحبل عن إتمامها فيزفر ويحشرج حشرجات الموت ويسلم الروح، أما الزبانية فكانوا يمسكون المعدم من رجليه ويشدونه إلى الأسفل ليسرعوا عملية الموت وحتى بعد إنزال الجثث كان الزبانية يعتدون على أجسام الشهداء بالضرب والركل والدوس لا يحترمون ولا يقدرون الموت الذي حلّ بهم ومن أين للزبانية الفهم والعقل حتى يكون لديهم احترام وتقدير، وقد شوهد الجلاد "فواز" وهو يرفس جثة الشهيد يحيى الشامي ويدوس رأسه، والشهيد يحيى الشامي رحمه الله من كبار ضباط الجيش السوري. وبعد أن تمت عملية الإعدام حمل الزبانية والبلدية الجثث فوضعوها في سيارة زيل عسكرية ضخمة ثم انطلقت بهم إلى مثواهم الأخير... حفرة ضخمة في صحراء تدمر وهكذا تمت العملية الرهيبة وإعدام (65) شهيداً دفعة واحدة في خفاء سجن تدمر.

الجرب الرهيب

لم يعد أحد يشكو بالمرة من الجرب أو القمل مرضي الوساخة، فقد أصبح أمراً مفروغاً منه ولا جدال فيه أن يصاب كل المعتقلين بالجرب وبالقمل والصيبان أيضاً

حتى قال بعضهم مازحاً: (اللي ما بيقمل ما هو رجال) فلا إجراءات النظافة التي حاولناها أجدت شيئاً ولا الاحتراز ولا أي شيء أجدى أمام زحف القمل والجرب الرهيبين.. في هذه البيئة المساعدة المهيئة حيث الكثافة الشديدة وعدم إمكانية النظافة والغسيل والتطهير وعدم وجود أي علاج.

الدمامل المقيحة تنبت فجأة في الأماكن الحساسة من الجسم: القضيب والمقعدة والآليتين، وتثير هذه الدمامل حساسية شديدة وحكة حارقة، فإذا حكت (ولابد من ذلك) انفقأت وسال منها القيح والدم، ولوثت ونشرت عدواها سواء بالأيدي الملوثة أو الثياب أو البطانيات، وحتى بالأحذية (شحاطات) ويعقب الحكاك ألم رهيب شديد، فكان الأخ أبو عبدو (صاحب محل) يكاد يبكي ألماً في الليل أو النهار من قضيبه الذي أصبح مليئاً بالدمامل النازفة بالدم والقيح، وقد تورم فإذا حكه تألم، وإن تركه تألم فكان يتمنى لو اقتطعه واستراح؟..!!

ولم يجد الأخ عبد الستار ما يداوي به نفسه سوى (رماد السجاير) وقد امتدت الدمامل المقيحة النازفة المتراصة لتأخذ مساحة واسعة امتدت من قمة آليتيه إلى محزمه بحيث لا يستطيع الجلوس ولا الاضطجاع على ظهره، فجمع كمية من رماد السجاير وجاء يطلب من أحد الأخوة أن يذر هذا الرماد فوق منطقة القيح والنزف، ففعل ولم يغن هذا العلاج شيئاً.

كان الأخ سالم ابن السابعة عشرة طالب الحادي عشر النحيف الجسم، ممتلئ الجسم بالدمامل المقيحة ذات الرؤوس الصفراء، والتي تثير حكة شنيعة فيضطر إلى حكها ونزع قشرتها ومن ثم تنزف بالقيح والدم امتلأت من هذه الدمامل ساقاه ثم اليتاه ثم بطنه وذراعاه وصدره، واشتد هجوم الجرب على الأخ سالم ففي كل يوم دمامل جديدة تنبت في مختلف أنحاء جسمه وهي مقيحة صفراء الرأس حتى وصل الأمر إلى حالة لم أرها ولم أسمع بها وحار بها الأطباء من الإخوة المعتقلين في المهجع، فقد نبتت الدمامل في راحتي كفيه برؤوسها الصفراء المقيحة..

كان الأخ سالم لا يستطيع النوم بتاتاً لا في ليل ولا نهار، إنما يسكن قليلاً ويعود إلى الحك والهرش، ولم تكن هذه

الحالة الوحيدة في شدتها، بل كانت هناك حالات صعبة عديدة، فكان الأخ جابر يكشف عن ركبتين متورمتين منتفختين وقد تراصت فيها الدمامل حتى غدت كل منهما دملاً واحداً، وقد سميت تلك الحالة (ركبة الجمل) وكان يقشر الدمامل ويعتصرها ويجفف القيح والدم بقطعة قماش.
لم تكن هذه العملية المؤلمة تفيد شيئاً سوى أن المريض مضطر إلى فعل شيء لهذه الدمامل التي تثير الحكة الحارقة، وكان عدد الحالات الصعبة أكثر من (40) حالة، وكنت منهم فكنت لا أستطيع نوم شيء من الليل ويدي تمتد لا شعورياً لتحك وتكشط الدمامل، وكان أصعب شيء موضوع التلوث وعدم إمكانية التنظيف والتطهير.. وكان معناه العدوى المستمرة، العدوى الذاتية أو العدوى للغير، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

يوم 6/2/1982
دور الحلاقة ذلك البلاء وتلك المحنة الأسبوعية الرهيبة أصبح قريباً منا وها نحن نسمع صوت الكرباج اللعين يمزق السكون، وهو يصفع ويهبد أجسام إخواننا المعتقلين في أحد المهاجع القريبة، برح الخفاء وتوضح الأمر.
واشتد بنا الألم والقهر فلذنا بالله سبحانه نشكو إليه بغي الفجار الأشرار، وبعد ساعات طويلة من القهر والعذاب مع تعذيب إخواننا لم نعهد له مثيلاً قبلاً جاء دورنا واستقر زبانية السجن مع الحلاقين أمام باب مهجعنا بعد أن جرى تبديل الزبانية بآخرين، وخرج عشرة منا وراء عشرة للحلاقة حسب طلب الزبانية فاصطفوا ووجوههم إلى الجدار (حسب العادة التي درج عليها زبانية سجن تدمر أخيراً).
فقد حفظنا نظام الحلاقة هذا وأسلوبه كما حفظنا أساليب الضرب والإيذاء التي يمارسها الزبانية علينا لكثرة ما نالنا منها ولكن كما أن السمو والرفعة عند أهلها ليس له حد فإن بغي الظالمين والزبانية الفاجرين في سجن تدمر ليس له حد، وما يتوقع ممن ماتت ضمائرهم وسقطت مروءآتهم وامتلأت قلوبهم بالحقد البغيض، فلم يعودوا يستسيغون سوى الشر والفساد!!

جاء أحد الزبانية وهو يصرخ بحقد مسعور وانقض بكرباجه الثقيل يضرب رؤوسنا وظهورنا بقسوة، ومع غلوه وشدته في الضرب وفي الشتائم البذيئة والتهديد الرخيص الذي كان يكيله لنا فإن ذلك لم يشف غيظه فقال بحقد: (يا كلاب يا عرصات.. هلق بفرجيكن.. وقفوا لجيب العصاي.. يا حقيرين..)!!

وتمنينا أن يكون تهديده فارغاً ولكن لم نلبث إلا قليلاً حتى أخذنا نسمع صرخات ألم شديدة مفاجئة يتخللها صوت الجلاد اللعين فواز وهو يقود عملية الضرب والتعذيب الرهيبة.

وبينما كنت أحلق هجم علي الجلادون وضربني أحدهم بالكرباج الثقيل على أم رأسي عدة ضربات وأشفعه بالسباب والتهديد والوعيد، وكان المنتهون من الحلاقة يوجهون إلى زاوية الباحة حيث كانت عملية العذاب الرهيبة، فلما وصلت إلى هناك وبينما كان الجلاد فواز يصرخ بي انقض الجلاد حامل العصا فحطم ظهري بضربة شديدة وقعت على أثرها على الأرض وأنا أصرخ بصوت مخنوق يا الله يا الله، وهجم علي جلاد آخر وأخذ يضربني بالكرباج على رأسي.

استمرت الحلاقة واستمرت حفلة العذاب الرهيبة وضربات العصا الهائلة تحطم ظهور المعتقلين وتفلق رؤوسهم، وتكسر عظامهم ساعات طويلة هائلة، كانت حصيلتها إصابة أكثر الإخوة برضوض شديدة أو كسور وممن أصيب بكسر في الأطراف، الرجل الطيب ابن الخامسة والخمسين عاماً أبو جميل فقد كسرت يده قرب الكوع، وكسرت يد معتقل آخر يدعى أبا أحمد وهو صائغ حلبي، والأخ أبو إبراهيم كسرت يده من العضد، بينما كان عدد من الإخوة لا يستطيعون الحركة مما أصاب ظهورهم من التحطيم، وقد أصيب معتقل يدعى (صلاح) بضربة عصا على رأسه تسببت في حدوث ارتجاج في الدماغ أدى إلى إصابته بشلل تام فقد معه النطق والحركة، لم تكن هذه المرة الأولى التي نفاجأ فيها بمثل هذه الهجمة الرهيبة من التعذيب، ولكنها كانت هجمة رهيبة ومحنة قاسية مريرة على أي حال، ولكن هذا هو غدر الجلاد اللعين "فواز" ذي الحقد الأسود والسعار.

ومما زاد الأمر سوءاً وبشاعة عدم التفات إدارة السجن الظالمة إلى معالجة أي من هذه الإصابات التي عمت المعتقلين في سجن تدمر، بل كان الزبانية يمنعوننا من ربط هذه الإصابات أو تضميدها زيادة في النكاية بنا، كما تبين لمن من أحاديث الجلادين أن جلادين آخرين من خارج السجن من المخابرات وغيرهم يحضرون إلى سجن تدمر ويمارسون تعذيب المعتقلين بسادية غريبة.

يوم 8/2/1982 التفقد

في الساعة الثانية بعد ظهر كل يوم نقف في صف خماسي في وسط المهجع استعداداً للتفقد الذي يتم في الباحة، حيث يفتح الزبانية باب المهجع حين حضورهم ونخرج فنصطف في الباحة، ويعدنا الرقيب ثم يعاد إدخالنا إلى المهجع، وكنا نتعرض خلال هذا التفقد اليومي لكثير من الضرب والعذاب، ويخترعون منه أشكالاً وصوراً عديدة يوقعونها بنا، وكان شعارنا الصبر والثبات، وملاذنا وملجأنا إلى الله، وكان الرتل الأول والصف المواجه للجلادين من الإخوة يتعرض للضرب والتعذيب بألوانه وأشكاله المختلفة، بعكس الأرتال والصفوف الأخرى، فقد كانت بمنجاة من تعديات الجلادين نوعاً ما، فكان الإخوة يبعدون كبار السن والمرضى عن الصفوف المقابلة للجلادين رحمة بهم، وكان الشباب يندفعون إلى هذه الصفوف بشجاعة منقطعة النظير.

تأخر التفقد اليوم عن موعده المعتاد!!.. وسمعنا من بعيد ضجة غريبة وأصوات صراخ مختلفة.. صراخ الجلادين وعويل واستغاثات المعذبين..! كانت هذه الضجة تعلو وتشتد حيناً ثم تسكن وتهدأ حيناً آخر، مع أننا نعلم أن العذاب بحفلاته وأشكاله لا ينقطع، وأن أصوات التعذيب وصراخ المعذبين حدث واقع مستمر، فإن ما جعلنا نستغرب الأمر ونرتاب فيه هو حدوثه في مثل هذا الوقت من النهار، مترافقاً مع تأخر زبانية السجن في إجراء التفقد الأمر الذي لم نعهده قبلاً.

لزمنا الصمت التام عسى أن نجد لهذا الأمر الذي أثار قلقنا تفسيراً.. ولكن ضجة التعذيب أخذت تقترب منا وبدأنا نسمعها بوضوح، وجاء الزبانية وأخذوا يخرجون نزلاء مهاجع باحتنا للتفقد.. وحسب العادة فإن مجموعة

من الزبانية تفتح المهاجع بالترتيب وتخرج المعتقلين ليصطفوا أمام المهجع ثم يأتي الرقيب فيعدهم ثم يدخلهم الزبانية ثانية.

فتح الزبانية باب مهجعنا وأمرونا بالخروج بأصوات منكرة، مع ألفاظ التهديد والوعيد، وكان الجلاد فواز بلهجته الحاقدة يصرخ بنا بشماتة وتشف (طلعو يا كلاب لبرا لفرجيكن.. طلعوا لنشوف يا حقراء)..

وبينما كنا نقف في الصف أمام المهجع بانتظار التفقد ارتفعت ضجة التعذيب أمام باب المهجع القريب، ولمحنا باستغراب واستهجان ما كان يجري لنزلاء المهجع (25) فقد انقض عليهم الزبانية يضربونهم ويعذبونهم وهم يحاولون دخول المهجع، وعدّنا الرقيب بسرعة بينما كان نفر من الزبانية الأنذال ينقضون على الصف ويضربون بعض إخواننا.

وفي العادة أن الرقيب بعد أن ينتهي من العدد يسأل رئيس المهجع عن عدد المعتقلين في مهجعه ويجب أن يطابق بعد ذلك العدد الذي حصل عليه الرقيب، ثم يأمر المعتقلين بدخول المهجع.

وقد فعل الرقيب وأمرنا بدخول المهجع، لكن الجلاد فواز منعنا من دخول المهجع.. وصرخ يدعو الجلادين للحضور: (العصي لهون) وجاء الزبانية يتراكضون وبأيديهم العصي الرهيبة، واصطفوا على طريق دخولنا إلى المهجع، وهيأوا أنفسهم وحضروا عصيّهم، وصرخ الجلاد فواز بحقد وتشف: (واحد واحد عالمهجع يا كلاب..) وما أن سرنا نريد دخول المهجع حتى انقض علينا الزبانية يحطموننا بعصيّهم، واشتد الضرب وعلا الصراخ وحمي وطيس التعذيب وهاجم الزبانية أوائل الصف وأخذوا يضربونهم، فاضطرب النظام واندفع الأخوة يريدون دخول المهجع والزبانية يحيطون بهم ويضربونهم على أي مكان تصل إليه عصيّهم، واشتد الزحام والتدافع على باب المهجع، وبدأ المعتقلون يتساقطون على الأرض تحت وقع ضربات العصي، وتراكموا فوق بعضهم البعض حتى أغلق الكوم البشري باب المهجع أو كاد، وفشت الإصابات والجروح والكسور، وعلت ضجة العذاب وتمكن عدد من الأخوة من دخول المهجع رغم كل ذلك، فلم يقعدوا ولم يتوانوا عن مديد العون لإخوانهم المكومين على الأرض في باب المهجع،

فاندفعوا يجذبون ويحملون منهم الواحد بعد الآخر ويدخلونهم المهجع، ويأخذون الأعلى فالذي يليه لعدم إمكانية تحريك أولئك الذين هم في أسفل الكوم، كل ذلك والضرب مستمر والزبانية ماضون في هجمتهم الفاجرة.
وأخذ الكوم البشري يتناقص شيئاً فشيئاً حتى تمكنا من إدخال جميع الأخوة المعتقلين، وأغلق الزبانية الباب ومضوا يهزأون ويضحكون. كان الاضطراب الشديد يعم المهجع جميعه، وصراخ المعذبين وأنينهم يملأ المكان، وكان عدد كبير من الإخوة المعتقلين قد استلقوا في جوانب المهجع بين مغمى عليه أو هو يغالب آلامه وإصاباته، كان ممن حولي من الإخوة المعتقلين واحد يضع يديه على جرح كبير في جبهته والدماء تسيل منه وقد ملأت يديه ووجهه وثيابه، وآخر يتلوى وهو يصرخ: ظهري. وثالث يضع كلتا يديه على رأسه فوق جرح كبير نازف تسيل منه الدماء. ورابع يمسك إحدى يديه حيث يبدو من تألمه أنها مكسورة وخامس وسادس.. هذا يصرخ: يدي، وذاك: رجلي، ولأول مرة، ارتفعت الأصوات في المهجع المصاب رغم تعليمات السجن بلزوم الصمت التام، وكان بيننا عدد من الأطباء لكنهم كانوا مشغولين بأنفسهم وبإصاباتهم.
بدا المهجع وكأنه ميدان حدثت فيه معركة ضارية شديدة، نشط بعض الأخوة يسعفون المصابين ويربطون جروحهم ويضمدون إصاباتهم ببعض قطع الثياب الداخلية.

9/2/1982
لم نستطع إدراك الأسباب الحقيقية لما جرى البارحة وكثرت التأويلات، فأوّل بعض الأخوة المعتقلين السبب إلى كثرة مخالفات الأحداث في مهجعيهم (31 – 32) وأنهم لا يرهبون كرباجاً ولا عذاباً.
فأغضبت أفعالهم زبانية سجن تدمر.. وأوّل آخرون السبب فيما جرى بأنه التكبير القوي الذي ارتفعت به أصوات الذاهبين إلى الإعدام منذ يومين، وأكد بعض الأخوة أن نزلاء بعض المهاجع وخاصة الأحداث شاركوا في التكبير.. وقلت: احفظوا هذا التاريخ 9 شباط 1982 وتعلمنّ نبأه بعد حين..

لم يخطر ببالنا أن يتكرر حادث الأمس الرهيب، ومع ذلك فقد هيأنا أنفسنا لما قد يكون والتجأنا إلى الله سبحانه بالدعاء والاستغاثة، وفي موعد التفقد ذاته، كذبنا سمعنا، ولم نرد نصدق أن حفلة تعذيب البارحة ستتكرر اليوم أيضاً ولكن ذلك ما حدث..

فقد أعاد الزبانية هجمة العذاب مرة أخرى، ولما جاء دورنا وعدنا الرقيب كان الجلاد فواز مع نفر من الزبانية يقفون في طريقنا والعصي في أيديهم، وما لبثوا أن انقضوا بها علينا ونحن نحاول دخول المهجع، واستعر الضرب الشديد وتساقط الأخوة المعتقلون واحداً إثر الآخر، وتراكمت أجسادهم في باب المهجع في هرم ارتفع أكثر من مترين حتى سد باب المهجع أو كاد، وعلا الصراخ وأصوات الاستغاثة وضجيج العذاب، وكنت في هذه المرة من أول من وقع بهم الضرب، فوقعت في باب المهجع وتكوم فوقي عدد كبيراً من الإخوة وداست رجلي عشرات الأقدام ووقع بهما الكثير من الضرب والتجريح، ثم تغطتا بالأجساد البشرية، وكانت رقبتي على عتبة باب المهجع المرتفعة عن مستوى الأرض بحوالي 20سم، ولها زاوية حديدية حادة، ومن لطف الله أني لم أتعرض لشيء من الضغط من هذه الجهة وإذن لقضي عليّ خنقاً.

حاول بعض الأخوة الذين تمكنوا من دخول المهجع جذبي من تحت الكوم البشري ولكن دون فائدة، فقد كنت مثبتاً إلى الأرض بقوة ورجوتهم تركي وشأني والاهتمام بالإخوة الآخرين.

أحد الأخوة الذين سقطوا فوقي جاء رأسه محصوراً بين ركيزة الباب وبيني وسقط فوقه آخرون، فكتمت أنفاسه حاول التملص ما وسعه فلم يستطع حتى أشرف على الهلاك اختناقاً وتشهد وزاغ بصره وأغمي عليه، ولكن تداركته رحمة الله فقد أنقذه الأخوة في آخر لحظة وحمل إلى المهجع.

كان لدينا اليوم كثير من الإصابات الشديدة والكسور والجروح النازفة، وقلّت الألبسة الداخلية الصالحة للربط والتضميد، وضاق الحال بنا ونحن نرى أن أغلبنا كان بين مكسور أو مجروح أو منهك.

يوم 10 شباط 1982

ها هو ذا اليوم الثالث منذ تلك الهجمة الرهيبة من العذاب الذي فاجأنا به زبانية سجن تدمر.
تحضرنا للتفقد الرهيب فتسلحنا بالوضوء حتى نلق الله على طهارة إن قضينا، وتذرعنا بالدعاء والاستغاثة والتضرع، وحاربنا الظالمين بالذكر والتبتل، ووضعت بعض الخطط لتلافي الأزمة التي تحصل في الباب، وتحضر بعض أقوياء الأجسام ليقيموا الواقعين في الباب، وتواصينا بالشجاعة والثبات، وأن ندخل بنظام دون خوف لن ويصيبنا إلا ما قدر لنا.. ولأن يصاب بعض الأخوة وندخل سريعاً أفضل من أن نتراكم على الباب فلا نستطيع الدخول إلا بعد حين، وحفظ كل منا دوره في العمل وواجبه في التحرك السليم المنضبط، ووقفنا في الصف الخماسي بانتظار التفقد، وثارت الأصوات أصوات التعذيب من جديد، كانت محنة العذاب على أشدها في المهاجع، وتحضر الأخوة المصابون أو المضمدون بضمادات ظاهرة فنزعوها (لأن وضع الضمادات ممنوع).
ووصل الدور إلى باحتنا وخرجنا إلى الباحة واستعرت معركة الضرب على باب المهجع السابق (26) كأشد ما تكون.
وجاء دورنا فأتى الجلادون راكضين يصرخون بأصوات منكرة، وانقضوا علينا بعصيّهم وبدأ الضرب والتحطيم واستعرت ملحمة العذاب من جديد، ودخل بعض الأخوة المهجع رغم الضرب الشديد، وحمل بعضهم حملاً إلى المهجع أو جروا جراً، ونشطت عمليات الإنقاذ ولكن الواقعين أمام الباب عادوا فتكدسوا من جديد لليوم الثالث.
لم أتمكن اليوم من الدخول وحصرت خارج الكوم أو الهرم البشري، حاولت أن أقف في مكاني قدر الإمكان حتى لا أوذي إخواني أو أدوس أحداً منهم، فوصل إلي أحد الجلادين وحطمني بعصاه المرة بعد المرة، وسارعت أبتعد وأدافع بيدي عن رأسي ومن ثم أدس نفسي بين إخواني في الكوم محاولة للدخول فالكوم أرحم.. ومضت الدقائق والمعركة على أشدها، وقد بلغ الأمر مداه وضاق الحال، حتى أذن الله بالفرج.

15 شباط 1982 أفواج إعدامات

(من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلاً) صدق الله العظيم.
نشطت عمليات الإعدام الجماعي بعد هدوء نسبي، وأخذ الجلادون يطلبون الأفواج إثر الأفواج، فيأخذونهم إلى الموت حتى كادت عمليات الإعدام تكون يومية، وغدت رحلة الموت تتم بسهولة ويسر وكأنها نزهة، يطلب المعتقل من مهجعه، ويقال له محاكم، ثم يؤخذ وهو معصوب العينين موثق اليدين فما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى يرفعوه على الخشبة معلقاً من رقبته، وخلال نصف دقيقة أو أقل يكون قد قضى وصعدت روحه إلى بارئها حيث الأمان والسلام وما يشعر بالألم إلا كمثل القرصة كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: ما يجد الشهيد من مسّ القتل إلا كما يجد أحدكم من مسّ القرصة، وينجو من كيد هؤلاء الظالمين المجرمين فما يعود باستطاعته الجلاد فواز ولا زبانيته الوصول إليه بأي أذى أو عذاب..
تبدأ رحلة الموت هذه المرة بالرقيب يقف وراء باب المهجع المغلق وفي يده قائمة طويلة مدروزة بالأسماء.. ويصرخ بالأسماء من خلال الفتحة الصغيرة (الشراقة) والكل في المهجع وقوف مطرقون.. لا يدري أحد هل يصرخ باسمه؟ هل جاء دوره لرحلة الموت؟ إنها فرصة للنجاة من هذا السجن الرهيب، وهذا الموت البطيء على أيدي الجلادين، ودعنا الدنيا وأقبلنا على الآخرة نتصور ما فيها من راحة وأمان حيث تنعدم قدرات قوى الشر هذه أن تنال أحداً بأذىً.. وحيث ينال المعتقل العدالة التي مات محروماً منها.
كان كثير من الأخوة يتساءلون: هل هذه القتلة (شنقاً) شهادة في سبيل الله أم لا؟ وهم يرون أفواج الذاهبين إلى الإعدام وقد تتابعت وفيها من كان في حياته السابقة تقياً صالحاً، وفيهم من لم يكن كذلك إنما هو من تائبي سجن تدمر.. ومنهم من عمل لدينه وربه ومن لم يعمل وكان بعض المتسائلين من المهددين بالإعدام ولم يروا لهم كبير عمل أو صلاح يشفع لهم، فهم يريدون أن يطمئنوا على المصير وكانوا يقولون حائرين: نحن لم نقم بكبير عمل بل لم نعمل شيئاً يذكر في سبيل الله؟ وكان كثيرون قد أخذوا واعتقلوا على غرة

فجيء بهم إلى هذا المكان حيث يواجهون الموت ويتعرضون للإعدام لعمل بسيط لم يعرفوا له قيمة.. أو لتهمة لم يتلبسوا بها.. أو لغير ما ذنب أو جريرة..
يقولون نحن ما جاهدنا في سبيل الله.
وكان بعض ذوي العلم يرجعون الأمر إلى مشيئة الله، ولكني أجد الأمر على صورة أوضح، فقلت لهم بصراحة يا إخوة أنتم تدعون أنكم لم تفعلوا شيئاً وتقولون لم نجاهد في سبيل الله.. وبالتالي فنحن لا ندري ما نتيجتنا عند الله، وهل يمكن أن نحسب شهداء في سبيله فإني أقول لكم لا تطمينا ولا رياء: أنتم مع سيد الشهداء حمزة رضي الله عنه أسد الله وأسد رسوله، إنكم لم ترضوا بالظلم يقع ببلدكم وإخوانكم ولم تسكتوا عن الظالم ولم توافقوه على ظلمه وفجوره فمن قتل بيد هذا الظالم الفاجر فهو مع سيد الشهداء حمزة رضي الله عنه في أعلى الجنة إن شاء الله، مصداق قول النبي صلى الله عليه وسلم ووعده (سيد الشهداء حمزة رضي الله عنه) ورجل قام إلى إمام جائر فوعظه ونهاه فقتله وأنتم كذلك فاطمئنوا وأبشروا رحمكم الله.
أخذنا نودع في كل يوم أو يومين عدداً من الإخوة الذين عشنا معهم وعرفناهم وأحببناهم وارتبطنا بهم برباط الأخوة في الله.. كان أكثرهم من الشباب الصغيرين في عمر الزهور.. أطهار كأكمام الورد حييون كالعذارى لم يعرفوا وهم في هذه السن انحرافات (المراهقة) لم يعرفوا إلا التقى والصلاح والنقاء والصفاء والطهور، دؤوبون على العمل والدراسة والمطالعة واكتساب المعارف والدعوة، فكانوا نعم الشباب ونعم الدعاة ونعم الرجال.
أعود بذاكرتي وأنا في محبسي إلى البارحة تماماً كان يجلس هنا بجانبي الشاب (م. ل) والشاب (ع. ق) و (م.ع) وقد عزم كل منهم أن ينمي ثقافته ويغذي أفكاره بالقرآن وعلومه وبالسيرة النبوية، وبالحديث النبوي، فهو مقبل على العمل مقبل على الله، مقبل على الخير ثابت الجنان، لن ترعبه أهوال السجن ولم تفقده سلامة تفكيره ولم تؤثر في هدوء أعصابه، وهو يعلم يقيناً أن أجله أصبح قريباً وأن أيامه أصبحت معدودة، بل كان يضحك لغباء الجلادين وهم يظنونه خائفاً أمامهم ويعجب لتعنت سادتهم الطاغين في عداء الحق والنور والخير،

وفي الاعتداء على الأبرياء وفي الظلم والفجور والتعدي الصارخ وإلغاء كل الحقوق. بل كان بعض هؤلاء الشباب يعاند الجلادين في سجن تدمر الرهيب في شجاعة فائقة واستهتار شديد بهم بسياطهم وبساديتهم، فإذا خوفه زملاؤه من الضرب والعذاب قال ساخراً: أنا أشتهي أن أضرب علقة ساخنة في سبيل الله..

يوم 21 شباط 1982
نزلاء المهجع (28) يعانون من مشكلة، فقد سمعناهم وهم يضربون الباب ويطلبون من الحرس الإبلاغ عن وجود مريض في خطر لديهم، وراقبنا ما يجري، جاء الزبانية وطلبوا منهم إخراج المريض على بطانية فلما أخرجوه إليهم وأغلق الباب وراءه، سأله أحد الزبانية عن المكان الذي يؤلمه فأشار المعتقل إلى صدره وبطنه، فانقض عليه وأخذ يضربه بعصا غليظة كانت معه على صدره وبطنه والمريض ينتفض بين يديه ولن يتركه حتى أيقن أنه فارق الحياة.

25 شباط 1982
استمر سيل الإعدامات حتى لقد تمت عمليات الإعدام خلال أربعة أيام من هذا الأسبوع السبت والأحد والاثنين والأربعاء، ففي كل صباح ننتظر قائمة جديدة وذاهبين إلى الموت نودعهم بألم، ونجلس في صمت وقهر نناجي ربنا ونضرع إليه، ونستغيث به طوال ساعتين أو ثلاث حتى تنتهي عمليات الإعدام ولا تنقضي الأحزان، ولا الآلام، فأيامنا مليئة برائحة الموت والإعدامات، لم يكن بيننا وبين الآخرة إلا شيء يسير، ورحلة قصيرة من هنا حتى الورشة.. وخلال دقائق معدودة يكون كل شيء قد تم وحدثت تلك النقلة التي يعدها الناس كبيرة وما هي إلا يسيرة هينة، فما إن يلتف الحبل الرفيع على العنق ويعلق المعتقل من رقبته، حتى يكون في الحياة الأخرى.. خلال دقائق أو ثوان يحيا حياة الأرواح عند رب الدنيا والآخرة، حيث الكرم الإلهي والعدل الرباني والرحمة. حيث لا ظلم لا بغي ولا كرابيج ولا عذاب ولا قهر ولا جوع ولا عطش.. وتنتهي الآلام وينجو المعتقل من معتقله وعذابه وجلاديه في سجن تدمر، لذلك كنا

نناقش هذا الأمر.. نقول ما أهونها رحلة وما أجملها من فرصة للنجاة والخلاص والراحة.. ولولا أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يتمنى المسلم الموت عند الضر، لتمنينا هذه الموتة، خاصة وأنها شهادة وأن وراءها رضوان الله ورحمته، وأن وراءها فوزاً وخلوداً وحناناً وجناناً.. لذلك كان البعض لا يريد أن يفرط في نعمة الله التي أنعم بها عليه مع ما في ذلكم من ضر وعذاب، ولكن بهدف وحيد.. يسر به في مناجاته لربه فيقول ضارعاً يا رب.. يا رب.. يا رب.. لا تمتني هاهنا ولكن أمتني يا رب شهيداً في ساحات القتال وأنا أحمل السلاح محارباً للظلم والظالمين.. الباغين المجرمين أعداء الحق والدين..

كانت لنا ملاحظات في الأيام الأخيرة منها أن صوت التكبير قد خمد، فلم يعد يسمع بتاتاً خلال عمليات الإعدام حتى الزفير وحشرجة الموت، لم نعد نسمعها.. إلا نادراً وكأنما كتمت أنفاس هؤلاء المعدمين عند تنفيذ الإعدام.. وكان أمراً غريباً لم نجد له تفسيراً إلا أن يكون الزبانية يكممون أفواه المعدمين.

نبوغ الأميين

هناك من المعتقلين الأميين من نبغ في حفظ القرآن وتفهم معانيه. فها هو الأخ (ي س) ابن العشرين عاماً يحفظ حتى الجزء الخامس والعشرين حفظاً دقيقاً، بإصرار ومثابرة وتدقيق، وهو الذي لا يعرف الألف من الياء ولا التاء من الخاء، عاش يتيماً من الأب، وتربى على العمل والشقاوة (شقاوة الأولاد) وكان له زميل ورفيق صبا يحبه ولا يفارقه.. تمازحا يوماً وهما في سن الصبية المراهقين (16) سنة وكان المزاح (بالقندرجية) (وهي سكين فولاذية قاطعة) فشقت بطن الأخ (ي س) وكادت تقضي عليه، فحمل إلى المستشفى، وفر الزميل خائفاً ولكنها كانت مزحة.. وعاد الزميلان إلى الصحبة وعزما على السفر في هذه السن، وسافرا مئات الكيلو مترات بعيداً عن الأهل والبلد، ولكنهما عادا.. ليلقيا قدرهما.. أو ما قدر الله لهما من محنة.. واعتقلا وحقق معهما وسيقا سوية إلى سجن تدمر العسكري، فهما اليوم غارقان في المحنة مقبلان على الله، مندفعان إلى القرآن.. ولكن (ي س) برّ الجميع

بنشاطه وصبره ومثابرته فها هو يحفظ ويأخذ من معين القرآن بدأب ونشاط وتدقيق دون ملل وهو يرافق المعلم أبو.ن ويلزم المهندس الزراعي (م. ج) وكلاهما من أنشط من في المهجع في حفظ القرآن.. وهو معهما الفارس المجلي حفظ كل ما في المهجع من قرآن، وفي المهجع الجديد الذي نقلنا إليه بعد ذلك، اندفع يحفظ ويحفظ، مما أفاء الله علينا من قرآن، كان محبوساً وغائباً عنا.. وهكذا حتى رأيته أخيراً وهو يحفظ السورة الأخيرة ويكاد يكمل حفظ القرآن كله غيباً..
وهو يقرأ كل يوم ثلاثة أجزاء مراجعة، ثم يحفظ من 10 – 15 آية يكررها ويرددها ويقرأها مع آيات قبلها من السورة نفسها.. فيومه كله قرآن وتلاوة وذكر وحفظ ومراجعة، ومع ذلك لم يكن يقتصر في سعيه وطلبه للعلم على القرآن وحده، كان يبحث هنا وهناك عن علوم إسلامية أخرى يغذي بها روحه، وينمي معرفته، وكان يعتب علي المرة بعد المرة وهو يراني أجالس بعض الشباب والطلاب فيقول: نحنا مالنا دور.. مالنا حق عليك..؟
فأقول له: لك حق وكل الحق.. وهكذا كان لي معه ومع إخوة آخرين مجلس يومي نتحدث فيه عن الأنبياء وسيرتهم، وعن الابتلاء والمحنة والصبر والفرج والنصر في حياتهم.. وكان يغرم بهذه الأحاديث وسمع السيرة وأغرم بها، وأراد أكثر وكان له بعض ما أراد، فهو لا يريد أن يقف عن التعلم والتفقه وكان من طباعه الغضب، فقد كان غضوباً شديد الغضب، لا يكاد يقف في وجه غضبه شيء، فإذا غضب وثار وعربد، واضطرب جسمه، واحمرّ وجهه، وهدد وتوعد وأرغى وأزبد.. وكان غضبه والحق يقال: للحق يمتهن أو يضيع، فهو يثور للخير لا لنفسه، ولكن بطريقته الخاصة فإذا سوي الأمر واسترضي رضي وفاء وندم، فنعم الغضب ونعم الرضى، وهو بعد ذلك نشط دؤوب على العمل شجاع حين الخطر، وصبور على الشدائد، تراه صابراً على البلاء محتسباً ما يناله عند الله، رغم المحنة التي طالت دون أي بصيص أمل في الفرج، إلا الأمل بالله، وإلا التوكل على الله.

7 آذار 1982

جاء الجلادون فجأة فسألوا عن عدد المصابين بالجرب، فلم يجسر رئيس المهجع على ذكر العدد الكامل للمصابين، لأنه كان يشمل كل من في المهجع، وخشي من غضب الجلادين فخفضه إلى الربع تقريباً، فذكر له أن العدد أربعون مصاباً، فطلبهم الزبانية وأخذوهم إلى الحمام ثم وزعوا عليهم كمية من دواء الجرب بمعدل زجاجة صغيرة لكل أربعة مصابين، فدهنوا بها أجسادهم ولم يسلم هؤلاء من تعديات الزبانية وضربهم.

8/3/1982
تبين لنا أن العلاج أصبح من اختصاص الزبانية وحدهم، كما تبين لنا أيضاً أنهم يبدون شيئاً من التساهل في المعاملة بالنسبة لما قبل، وقد عادوا أمس فطلبوا مصابين آخرين بالجرب، فقد كانوا يعرفون أن المصابين بالجرب أكثر من ذلك بكثير، فخرج عدد أكبر من السابق فعالجوهم أيضاً.
ورغم أن ذلك العلاج كان اعتباطياً فقد شعرنا بتحسن كبير، وتراجعت حدة المرض التي كنا نعاني منه الأمرّين، ولكنه تحسن وقتي لا يلبث أن يزول لأن حشرة المرض لا زالت متمكنة منا جميعاً من أجسامنا التي لم تعالج جيداً، ومن ثيابنا الملوثة وبطانياتنا التي لم تغسل أو تغلى مطلقاً ولم تر الشمس إلا نادراً.

يوم 9 آذار 1982
علمنا أنهم يعملون على توسيع سجن تدمر اللعين هذا فهم يبنون عدة مهاجع جديدة في الجهة الشمالية الغربية من السجن، لإضافتها إلى المهاجع الحالية، من أجل استيعاب الأعداد الكبيرة من المعتقلين التي يؤتى بها إلى السجن، بعد أن امتلأت المهاجع الحالية وغصّت بمن فيها من المعتقلين، ولم يعد فيها موطئ قدم.

12 آذار 1982
شهد سجن تدمر اليوم حركات غير عادية وتنقلات واسعة، وحيث أن هذه التنقلات ترافقت مع فترة انفراج وتحسن في المعاملة شيئاً ما فقد أملنا من ورائها خيراً. جاء الزبانية إلى مهاجع باحتنا فطلبوا المعتقلين القدامى (كل من أتم سنتين في سجن تدمر)

وأخرجوهم مع أغراضهم (وكنت منهم) ثم وضعونهم في المهجع (32) الذي وجدناه فارغاً.
وعلمنا من بعض الأخوة المعتقلين أن من التنقلات التي حصلت في السجن هي: نقل المعتقلين الأحداث الذين كانوا يشغلون المهجعين (31 – 32) إلى المهاجع الجديدة في الباحة السابقة، ونقل نزلاء مهجع البراءة رقم (8) إلى المهاجع الجديدة، ثم أخذ المعتقلون القدامى فوضعوا في المهاجع الفارغة، ونتيجة لهذه التنقلات فقد خفّت الكثافة عما قبل وأصبح عددنا في مهجعنا الجديد رقم (32) (110) معتقلين فقط!!
وجاء الرقيب الجلاد فطلب طلباً كانت له نتائج مثيرة أجبرته على العودة إلى أسياده لاستفسارهم من جديد.. فقد طلب الزبانية المحكومين بالبراءة في مهجعنا، ولقد رأيت أن قريباً من نصف الأخوة المعتقلين في المهجع قد اصطفوا أمامه وكلهم قد حكم له بالبراءة من قبل جلادي المحاكم الميدانية ذاتها.
وظهرت الحقيقة الدامغة فالمعتقلون أحد ثلاثة: إما حكم بالإعدام فأعدم أو حكم بالإعدام المؤجل التنفيذ، أو تبين براءته وهؤلاء المعتقلون المنتمون إلى الفئة الأخيرة يبقى عليهم للمساومة بهم واستخدامهم في إظهار سماحة المتسلطين في التفريج عن المعتقلين في المناسبات.

24 آذار 1982
كم من مرة يخيب ظننا في هؤلاء الزبانية الأنذال، ولكن هل يرجى من العقرب إلا اللدغ، فصفات السوء والشر متمكنة من نفوسهم، لا يرعوون، وعن غيهم وظلمهم لا ينتهون، ولكن الله يسمع ويرى ما يرتكب زبانية سجن الموت في تدمر بحق المعتقلين المسالمين الأطهار وهو الغيور.
فهذه المعاملة التي ظنناها تحسنت عادت أسوأ مما كانت عليه، والكرباج اللعين لا يغيب عن الساحة، أما المحن وحفلات التعذيب المعهودة فعادت كما هي، ففي الحلاقة التي تمت لنا البارحة كان هناك تعذيب شديد منتظم حرص عليه الزبانية، حيث كانوا يهجمون على الواقفين قرب الجدار ووجوههم إليه فيجلدونهم على ظهورهم، ثم يهجمون على المنتهين من الحلاقة

فيضربونهم ويعذبونهم إضافة إلى تعديات الحلاقين وسبابهم وفحشهم الذي إن دل فإنما يدل على أنهم موتورون حاقدون، وكما تبين لنا من لهجتهم وفاحش كلامهم أنهم من العلويين، وكانوا يسحبون المعتقل على بطنه ويرفسونه على خصيته أو يمسكونه منهما ويعصرنهما عصراً شديداً حتى يغمى عليه وهم يسبون بفاحش القول بذيء الكلام، وكان حلاق الرأس يضرب كل معتقل يحلق له رأسه بماكينة الحلاقة ذاتها فيفتح في رأسه جرحاً كبيراً نازفاً الدماء.
إضافة إلى كل ذلك فقد تبين لنا أن بعض الزبانية جواسيس على بعضهم الآخر، ويا ويل من يضبط فيه أية رأفة بالمعتقلين.

يوم 13 نيسان 1982
في هذه الأوضاع القاسية والظروف الصعبة في سجن تدمر كانت الأمراض تنتشر بيننا بكثرة، والمعاناة من مختلف الأمراض تشتد يوماً بعد يوم، أما الجروح والإصابات التي كانت تصيب المعتقلين في السجن فإنها كانت تترك لتلتهب وتتقيح مسببة شتى أنواع الآلام وأسوأ النتائج دون أن تنال أي علاج، وكانت علائم وأعراض سوء التغذية وفقر الدم واضحة جلية على جميع المعتقلين إضافة إلى عد كبير من مختلف الأمراض والأوبئة.

17 نيسان 1982
تظاهر زبانية السجن ضد المعتقلين بهذه المناسبة وطافوا باحات السجن وهم يصرخون بشعارات أسيادهم، فما هم إلا أدوات تنفذ تلك الأغراض البذيئة. ولما جاء زبانية السجن لإدخال طعام الغداء إلى المهاجع وهو كمية قليلة من الأرز المطبوخ وفاصولياء بماء البندورة، أخذ الزبانية يمنون على المعتقلين بالطعام ويدلون عليهم بأمور الله أعلم ما هي..! وقال بعض الزبانية: خذوا لنشوف خلّي يبين معكن، وقال زبانية آخرون صراحة: منا نسمع كلامكن وإيش بدكن تقولوا..؟ أي أنهم يطلبون منا أن نمجد أسيادهم ونهتف بشعاراتهم، فقال بعض المعتقلين راؤهم بشيء من الكلام حتى يخففوا من غلوائهم.. ورد معتقلون آخرون:

لا.. إن ما يفعلونه يدل على أنهم منهارون ساقطون، فلا تأبهوا بهم.

يوم 27 نيسان 1982 الجرب يعود من جديد
وفي جو الازدحام الشديد في سجن تدمر الصحراوي يجد الجرب مرتعاً خصباً فيعيش ويفرخ، ولا تؤثر فيه إجراءات العلاج الموضعية، وعندما توقف توزيع دواء الجرب نشط المرض اللعين وغزا المعتقلين من جديد واستفحل في أجسامهم، فكنت ترى الحبوب والدمامل وسهر الليل وعذاب النهار وهناك صور من الإصابات العامة الشديدة التي لم يشهد الأطباء لها مثيلاً، وكان بيننا من هو طبيب مختص بهذه الأمراض وعلاجها، ولم يكن يستطيع لعلاجها شيئاً. اخترع بعض المعتقلين العلاج بالصابون العادي والطبي يذيبونه بالماء ويضيفون إليه الزيت والملح ويدهنون به أجسامهم يومياً، ولم يغن كل ذلك شيئاً.
وكنت مصاباً بالجرب أيضاً، وأخذت أستعمل قطعة صابون طبي أدلّك بها مكان الحكة حتى تهدأ، ولم يكن يفيد ذلك إلا في عدم خدش الجلد، وكان بعضهم يضع الملح العادي فيدلك به مكان الحكة حتى ينزف الدم منه، وكان.. ولم يفد كل ذلك شيئاً..

يوم 5 أيار 1982
أحضر الزبانية مجموعة من المعتقلين فضموهم إلينا وتبين لنا أنهم من القادمين حديثاً إلى سجن تدمر، وكان عدد هذه المجموعة خمسة عشرة معتقلاً ثالث مجموعة تصل إلينا كانت الأولى (10) معتقلين، والثانية (8) معتقلين، وعلمنا منهم أن زبانية السجن نظموا لهم فور وصولهم حفل عذاب رهيب استمر عدة ساعات (عذاب الاستقبال) ضرب فيه كل منهم في الدولاب (150) كرباجاً، كما ضرب على رأسه وظهره وغير ذلك مالا يحصى من الكرابيج والعصي، وقد وضعهم الزبانية بعد ذلك في المهجع رقم (1) فبقوا فيه شهراً كاملاً والزبانية يعذبونهم في الصباح والمساء ويذيقونهم ألوان العذاب في كل حين، كما علمنا أن دفعات المعتقلين مستمرة في القدوم إلى سجن تدمر بمعدل ثلاث دفعات أسبوعياً، وأن عدد دفعتهم كان 22 معتقلاً،

وأن المهجعين (1 و 2) يستعملان لتجميع المعتقلين الجدد وبعد أن يمتلئا عن آخرهما يفرغ أحدهما بالتناوب ويوزع نزلاؤه على بعض مهاجع السجن، وأن الدفعات تأتي من مختلف فروع المخابرات في دمشق وغيرها من محافظات القطر.

11 أيار 1982
كانت حفلة عذاب الحلاقة البارحة رهيبة قاسية، تفنن الجلادون خلالها في تعذيب المعتقلين وضربهم وإيذائهم، حيث كانوا يأخذون كل بضعة عشر معتقلاً بعد أن ينتهوا من الحلاقة ويجبرونهم على نزع ثيابهم (بالشورت) ويجعلونهم يزحفون على أكواعهم وركبهم حتى تسيل منها الدماء، وهم يضربونهم ويجلدونهم بالكرابيج.
وقد أخذ الدكتور عبد العزيز الذي كان مصاباً من قبل في رجليه منذ حفلة عذاب الاستقبال وبالكاد استطاع المشي منذ بضعة أيام، فعذب وجلد حتى أغمي عليه وأدخل حملاً إلى المهجع، وكان هناك خلال هذا الحفل من العذاب زبانية مميزون نشطون في الضرب والعذاب لا يكلون ولا يملون يحركهم حقد أسود وتدفعهم شياطين الإنس والجن.
كما أن الحلاقين كانوا يملأون الوجه بالجروح، ويقطعون منه كثيراً من الجلد، ويتركون فيه كثيراً من خصل الشعر هنا وهناك.

يوم 14 أيار 1982
في الساعة العاشرة صباحاً جاء الرقيب المجرم فواز وفتح باب المهجع وصرخ بصوت قاس يأمرنا بالخروج بالشورت إلى الباحة قائلاً: لبرا ولك كلاب تنفس يا عرصات.. بالشورت.. بادرنا إلى نزع ثيابنا والخروج فلا مجال ولا مناص، وما يفعل الأسير وهو في يد عدو لا يرحم، ووقفنا في طرف الباحة وصرخ فواز وهو غاضب ساخط: ولك حقراء.. اثنين اثنين خلال ربع دقيقة وإلا، حاولنا أن نصطف حسب المطلوب فلم نتمكن خلال الوقت المحدد، فهجم فواز وزبانيته علينا كأنهم الكلاب المسعورة يضربون أجسامنا العارية.

ثم أمرنا فواز أن نمسح أرض الباحة وننظفها بأيدينا، وباشرنا عملية التنظيف أو التعذيب المؤلمة، نمسح الأرض ونجمع حبات الرمل والتراب وغيره.
ولكن فواز أخذ يصرخ من جديد بغضب: ولك لورا يا كلاب.. ويأمرنا أن ننظف الأرض جيداً لأنها كما يقول لا تزال وسخة. وينقض علينا هو وزبانيته يضربوننا ويرفسوننا مع السباب وشنيع الألفاظ، واستمر الحال هكذا في تقدم وتراجع وفواز لا يهدأ له أوار، كلما تقدمنا متراً أرجعنا إلى الخلف مترين حتى ملت الأسماع الصراخ وضاقت الأنفاس من القهر والألم..
وفي النهاية لا نهاية للعذاب والقهر في سجن تدمر تخير الجلادون بعض المعتقلين فأوقعوا بهم أشد العذاب، هذه بعض فنون فواز وأساليبه المجرمة في تعذيب المعتقلين ساعة من العذاب وكأنها دهر لما جرى فيها من بغي وكيد.

"الجلادون"
(فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين)
كأننا نحن المعتقلين في سجن تدمر أموات في حساب الأحياء، أو أحياء في حساب الأموات، نودع النهار وراء النهار، والليل وراء الليل، فلا نستقبل في كل صباح إلا القضبان والجدران، والزبانية العتاة يمنون علينا باللقيمات القليلة ويعذبوننا ويعتدون علينا في كل وقت وفي كل مناسبة، قد أدمنوا معاملتنا بالكرباج والعصا والقسوة والعنف، فهم مثابرون على إيذائنا دون كلل أو ملل، ودون تفكير أو نظر كأنهم آلات ناطقة بالأذى والشر يعملون دون عقل أو فكر، لا يفهمون ولا يسمعون (صم بكم عمي فهم لا يبصرون) الزبانية من الكبير المنتفش حتى الصغير المنتفخ المغرور، ولكنهم معروفون موصوفون ولن تخطئهم يد العدالة الربانية، وسينتقم الله منهم عاجلاً أو آجلاً، كل نفس بما كسبت رهينة إنهم أساطين العذاب والبغي والعنف والفجور في سجن تدمر المندفعون إلى الاعتداء على المعتقلين حملة الكرابيج والعصي، أصحاب الدواليب ومن أبرزهم الرقيب الحاقد "فواز" فرعون عصره في تدمر الذي طغى وبغى فلم يسلم أحد من كيده وشره.

يوم 19 أيار 1982
أستاذ ومدرس قدير ومرب فاضل من مربي الجيل يبلغ من العمر (40) سنة متوسط القامة أسمر الوجه أمضى في التعليم بضعة عشر عاماً ، ذلك هو المعتقل (محمد جميل ب) من محافظة إدلب.
كان الأستاذ محمد جميل مريضاً منذ بضعة أشهر دون أن يكشف عليه طبيب أو يلتفت إليه أحد، وكانت حالته تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، ومع انهيار قوته الجسمية فإن قوته الإيمانية كانت في الذروة، فهو مؤمن بأن هذه المحنة ما هي إلا أيام وستزول وسيعقبها فرج كبير ونصر عاجل بإذن الله، وإن لم تحتم أن يعيش ليرى هذا الفرج، فالآجال بيد الله.
ولما أقعده المرض عن الحركة وصعب عليه الأمر، بكى ألماً وقهراً ولكن الأخوة انتدبوا لخدمته واختص بالعناية به زميل له ومدرس رياضيات مثله، فهو يحوطه بالعناية ليل نهار، يحمله ويضعه ويهيئ له مضجعه الخشن، ويلبي طلباته في الليل والنهار، ويغسل ثيابه ويعتني به كما تعتني الأم بطفلها.
ولكن حالة الأخ زادت سوءاً يوماً وبعد يوم، فلما كان يوم أمس غاب عن الوعي وأخذ يردد كلمات غير مفهومة المعنى، وحزن الأخوة المعتقلون في المهجع جميعاً لحاله واهتموا لما به وأخذوا يدعون له بحرارة، ولكن روحه الطاهرة انتقلت إلى بارئها قبيل الظهر، فغسلناه وكفناه بثيابه وصلينا عليه ثم أخرجناه للزبانية حيث أخذ إلى مثواه الأخير.
كانت وفاة هذا الأخ الطيب رغم ما كان يتمتع به من صحة جيدة حين مجيئه إلى سجن تدمر صدمة قوية للمعتقلين، فهو مؤشر هام على ما ينتظر المعتقلين جميعاً من هلاك سواء بالتعذيب والضرب على أيدي الزبانية، أم بالشنق أم بغيره من الصور والأسباب.
كان الصيدلي (ع) وهو شاب دون الثلاثين، رقيق الحاشية، يجلس ويمد رجليه ويقشر الدمامل المقيحة أو يفقأها، ويعتصر القيح منها.
وكنت أتألم لحاله وأقول له مازحاً: الله يعينك..
فيتحسر ويقول أنا ما شفت ولا سمعت بمثل هذا الجرب.. فأقول له: وبشر الصابرين..

وبعد أن يهدأ يسألني بعد أن يطلب مني الجلوس: تعال لعندي.. نعم خبرني كيف شايف حالك؟.. كيف وضعنا في سجن تدمر؟.. وهل إلى خروج من سبيل؟.. فأقول له: أما أن الله كريم عظيم رحيم وسنخرج من هنا بإذن الله سالمين غانمين، رغم أنف الكافرين والحاقدين.. ولا يعجبه هذا الكلام فيقول: يا أبا محمد، لماذا نحن نتكلم في الآمال.. نعم أملنا بالله أننا سوف نخرج من السجن ولكن الواقع.. أنا أريد الواقع كيف ترى هذا الواقع؟ وهل سيفرج عنا حافظ أسد وإلا (بدو يموتنا هون) وأقول: هذه بيد الله وحجه، ولا يحيي ولا يميت إلا الله على كل حال هذه ليست آمال بل يقين، فالله لن يتركنا ولن يتخلى عنا ونحن بحبله مستمسكون وببابه واقفون، ويرد قائلاً: والله الصحيح أنا شايف أن الموتة هون.. ما في طلعة.. إذا ما أعدمونا بدنا نموت مرض وجوع أو عذاب وقتل، وبعد وفاة الأستاذ محمد جميل كان يقول: كلنا بدنا نلحق الأستاذ محمد جميل.

يوم 23 أيار 1982
كان من الجلادين المشرفين على عملية الحلاقة اليوم اثنان من عتاة الجلادين الأول: الجلاد صلاح - طويل أبيض (22 سنة) ابن مختار قرية ساحلية قريبة من بانياس حاد الصوت - كثير الحقد على المسلمين- شديد الكره للصلاة والمصلين. والثاني: جلاد مهذار لا يكف عن الهذر والسباب والفحش وكأنه مخمور في حانة وهو يتسلى خلال ذلك بتعذيب المعتقلين.
كان الجلاد الرهيب صلاح شديد الحماس كعادته للضرب والأذى، يستعمل يديه أحياناً فيلكم ويصفع، وأحياناً أخرى يستعمل الكرباج يضرب به الظهور والرؤوس.
وقد اخترع مع نفر من الجلادين العتاة ممن هم على شاكلته، أسلوبا جديداً من أساليب العذاب وذلك منذ فترة من الزمن، فكان يأخذ المعتقل من الخارجين للحلاقة، فيلكمه ويرفسه ويصفعه ثم يلقيه أرضاً على ظهره، ويجثم على صدره ويضغط بركبته على عنقه، حتى يحطم حنجرته ويكاد يقضي عليه.
اليوم أخذ الجلاد صلاح شاباً من اللاذقية وهو محام في الخامسة والعشرين من العمر يدعى (ي) فضربه وعذبه ثم ألقاه أرضاً ودعس على عنقه وظل يضغط حتى

أغمي على الرجل المسكين وانقطع نفسه، ولما رأى الرقيب ما جرى صرف صلاح رفيقه عن الرجل المسكين، ثم أمر اثنين من المعتقلين أن يحملوه إلى المهجع، وفي المهجع أخذ الرجل المغمى عليه يقيء وقد انقطع نفسه، فهو يشرق بريقه ولعابه وقيئه، حتى كاد يختنق، وجحظت عيناه، واصفر وجهه وظل كذلك فترة وغدا بعد ذلك عليلاً نحيفاً. وقد طبق صلاح هذه الطريقة على عدد من المعتقلين في المهاجع الأخرى، فقتل على يديه عدد من المعتقلين، وكان الجلاد الآخر الفاحش يتسلى بتعذيب المعتقلين بصور أخرى منها: أنه يأمر المعتقل أن يضع إصبعة السبابة على الأرض ويدور حولها بسرعة -وهو يستحثه- وكان المعتقل بعد ذلك يحس بالدوار، فيقع على وجهه على الأرض، أو يصطدم بالجدار فيشج رأسه، أو تلتوي عنقه، ومع ذلك كان يضربه بالكرباج ويسخر منه ومن ألمه، وكان مع هذا الجلاد نفر من رفاقه الجلادين، يعاونونه ويتسلون معه، فما أبشعها من تسلية.

جلادون عتاة

سجن تدمر مركز رئيسي لتدريب الجلادين على التعذيب وأساليب القسوة والعنف، هذا ما أدركنا وجوده، فمنذ مدة من الزمن كان يأتي إلى السجن الجلادون العتاة في الأماكن الأخرى مثل: مراكز المخابرات وغيرها، يأتون إلى السجن ليمارسوا بعض أساليب التعذيب على المعتقلين، ويحلو للجلادين العتاة أن يظهروا قوة عضلاتهم وشدة ضرباتهم ليثبتوا لأنفسهم البطولة والمهارة في اللكم والرفس، وحيث أن أغلبهم أو عامتهم من العلويين الذين تمتلئ قلوبهم بالغل والحقد الدفين، الذي لم يجدوا له متنفساً إلا في مثل هذه الحالات داخل جدران السجون والمعتقلات، فهم يمارسون ساديتهم الجبانة على المعتقلين العزل.. ويصبون أحقادهم عليهم. فنراهم في كل مناسبة يندفعون بحمية جاهلية، يضربون ويرفسون وخاصة خلال التفقد اليومي.

يوم 2 حزيران 1982

ينالنا في كل يوم عدة هجمات من العذاب والضرب العنيف، ومن أقسى هذه الهجمات في هذه الأيام، ما يتم خلال التفقد اليومي الذي يجري في الساعة الثانية ظهر كل يوم، ونخرج فيه إلى الباحة حتى يعدنا الرقيب كالعادة، ثم ندخل المهجع وخلال ذلك يهجم علينا الزبانية وينالون منا.

منذ بضعة أيام وخلال التفقد المعتاد انقض أحد الزبانية وبيده كرباج ثقيل وأخذ يضرب به الأخوة المعتقلين خلال دخولهم إلى المهجع، بينما يضرب آخرين في جهات أخرى، وأصاب الأخ أبا مصطفى ضربة رهيبة من هذا الجلاد على رأسه، والتف رأس الكرباج فقرع صدغه من الناحية الأخرى، فصرع الأخ المعتقل أبو مصطفى وشج رأسه، ولكن تبين لنا بعد ذلك أنه أصيب بارتجاج دماغ شديد أفقده ذاكرته بالكامل، كما أفقده السيطرة على جسمه وأعضائه، وأبو مصطفى عالم جليل، ومدرس في إحدى المدارس الشرعية المعروفة.

وفي تفقد آخر منذ يومين هجم الزبانية على المعتقل الشاب عبد القادر (19 سنة) طالب ثانوي، فأخذوه وضربوه وحملوه على أيديهم ورفعوه أقصى ما يستطيعون، ثم ألقوا به على الأرض الإسمنتية الصلبة، فوقع الأخ مغمى عليه وحمله زملاؤه إلى المهجع.

أما البارحة فقد انقض أحد الجلادين العتاة ويبدو أنه زائر جديد انقض علينا ونحن في صف التفقد، وهو يصرخ بحقد ويسب ويجدف ويرفس برجله وجوه المعتقلين واحداً بعد الآخر، وهو يتلفظ بأشنع ألفاظ السباب، فكان مما قال: ولك كلاب حقراء انتو بدكن قتل كلكن... والله لأضربكن برشاش الشميزر كل 16واحد، بدي اقتلن بطلقة يا كلاب.. وحينما وصل هذا الجلاد الحاقد إلى المعتقل الأخ "أبي إبراهيم" وهو بنّاء في الخمسين من عمره، وقد خالط الشيب شعره وجعل له مظهراً مهيباً، فغاظه مظهره وصورته الساكنة الهادئة، فانقض عليه ورفس وجهه بقوة جعلت الدم يتدفق من فمه وأنفه، وصرخ فيه وسبه: شو جاي تسوي هون.. ما وسعك بيت أمك وأبوك ما شبعوك الخبز جاي لعندنا..!!

وكان ممن نالهم الضرب والأذى، المعتقل الأخ أبو أنس الذي أصر على أن يقف بدل أحد كبار السن في الصف المواجه للزبانية، فأصابه ما أصابه ولكنه لم يأبه لما

أصابه، وقال لمن حاول أن يشجعه أو يعزيه: يا أخي هذا الجسم يجب أن يفنى في سبيل الله.

يوم 5 حزيران 1982 حمام دم

كانت الساعة تقترب من الرابعة بعد الظهر، والحر شديد والجو خانق، ونحن نجلس في ظلام المهجع، نذكر الله ونسبحه وقد مال بعض المعتقلين على بعض يتهامسون بأصوات خافتة كالعادة، كان هذا يوم آخر يكاد يمضي وينقضي من أيام سجن تدمر الطويلة الحافلة.

كانت هذه حالنا بينما كان زبانية سجن تدمر من جهة أخرى يكيدون ويمكرون، فليس لدرك التردي الذي يساقطون فيه من قرار، فقد عميت بصائرهم وتسلطت أهواؤهم، وما عاد للنور إلى قلوبهم من سبيل.

وما لبثنا أن فوجئنا بمجيء الزبانية، وسمعنا صوت الجلاد الفاجر فواز، وهو يصرخ: (مهجع 32) ولك حقراء.. بالشورت يا كلاب)، واتبع ذلك بسيل من السباب البذيء، لم يدع عندنا شكاً في أن ما سمعناه حقيقة وليس وهماً، فأسرعنا ننزع ثيابنا ونخرج، لم يكن من المتوقع حضور الزبانية في مثل هذا الوقت الذي يكونون في كسالى متخمين بعد وجبة الغداء الدسمة التي حشوا بها بطونهم.

كان الجلاد الفاجر فواز في أشد ما عرف عنه من حقد وغل، فهو يصرخ ويسب وينقض علينا مع الزبانية الآخرين، يضربوننا بالكرابيج والعصي، ويتلاعبون بأرواح المعتقلين كما يحلو لهم.. وفي طريقنا إلى الحمام كان الجلاد الفاجر فواز مع الزبانية ينظمون لنا في كل باحة وعند كل زاوية أو باب تمر به هجمة عذاب شرسة، من ذلك النوع الذي برع الجلاد الفاجر فواز في شنها على المعتقلين، فيهجمون علينا كأنهم الكلاب المسعورة، أو الوحوش الضارية، ويضربوننا حتى يكلوا، وفي الحمام ذاته أخذوا ينقضون على من تصل إليه أيديهم منا فيضربونه، فتناثرت الدماء في أنحاء الحمام نتيجة جروح وإصابات كثيرة، وأصبح الحمام "حمام دم".

وفي طريق العودة كان أشد ما يثير الزبانية ويزيد في أوار هجوهم علينا، هو أننا نحمل الأخوة المصابين الذي عجزوا عن متابعة السير.

يعجز القلم حقاً عن وصف أحداث ذلك اليوم المشهود وما جرى فيه، والذي شمل التعذيب المهلك فيه جميع المعتقلين في مختلف مهاجع السجن، وقتل فيه واستشهد عدد من المعتقلين أذكر منهم: الطالب الشهيد أحمد طوير: وهو شاب حدث لم يبلغ السابعة عشرة من عمره، من مدينة إدلب، ضربه الزبانية على رأسه بالعصي حتى سقطت إحدى عينه من محجرها، فحملها وهو يكبر، حتى استشهد وانتقلت روحه إلى بارئها.

وفي مهجعنا كان هناك عدد كبير من الأخوة المعتقلين، بعضهم مصاب بكسور في الأيدي أو الأرجل، وبعضهم مصاب بجروح شديدة قاطعة في الرأس، وآخرون مصابون برضوض وجروح مختلفة. كان ممن أصيب مهندس زراعي من مدينة إدلب في الخامسة والأربعين من عمره، ناله من الجلادين عذاب شديد، ورغم سقوطه مصاباً بكسر في الحوض، لم يتوقف الزبانية عن ضربه ومنعوا زملاءه من حمله، فاضطر أن يزحف تحت الضرب والعذاب حتى دخل المهجع.

وممن أصيب المعتقل أبو إبراهيم البالغ من العمر سبعة وستين عاماً، فقد كسر ساعده وشج رأسه.

يوم 9 حزيران 1982

كان حر الصيف أشد علينا من برد الشتاء وأصعب، حيث تشتد حرارة شمس الظهيرة حتى تصلي الأرض ناراً ولهيباً، ويغدو كل شيء ساخناً الهواء والجدران والماء، ومع الباحات الواسعة المفروشة بالأسمنت، ينبعث اللهيب فيزيد في شدة الحر رغم انقضاء فترة الظهيرة، فيكون الحر آخر النهار أشد منه في وسطه، وفي جو المهاجع المحصور كنا نعاني من ذلك الحر اللاهب..

وكان الزحام الشديد في المهاجع يجعل الأمر مشكلة خطيرة فعلاً، هذا بالإضافة إلى أمور أخرى أيضاً مثل: عدم كفاية الغذاء من ناحية الكمية والنوعية، وفساد الهواء وتناثر غبار وأوبار البطانيات القديمة المهترئة، لذلك كان كل معتقل يعاني من مجموعة من الأمراض المختلفة، وكانت نتيجة تلك العوامل ظهور مرض الالتهاب الرئوي والسعال الشديد والبصاق المدمي أو الكدر، وقد أصيب بهذا المرض وبشكل قوي، بضعة عشر

معتقلاً في مهجعنا.. وكنا نحاول التخفيف عن هؤلاء المرضى، فنخصهم ببعض الأغذية المناسبة التي تأتينا رغم قلتها.
وكان رأي الأخوة الأطباء المعتقلين، أن حالة الجميع من الناحية الصحية سيئة وتنذر بالخطر، وإضافة إلى أنهم يحتاجون إلى العلاجات الفعالة بشكل ضروري، فإنهم بحاجة ماسة إلى غذاء مناسب يرد إليهم شيئاً من القوة الجسمية، ويخفف من سوء التغذية وفقر الدم الذي يعانون منه، ولكن الإصابات القصبية والرئوية كانت منتشرة بين غالب المعتقلين في المهجع المزدوج (5 - 6) الذي يبلغ طوله حوالي ثلاثين متراً والذي يعيش في ظلام حتى في النهار، إضافة إلى أن الحر في ذاك المهجع لا يطاق، وأن أجسام المعتقلين تتصبب عرقاً طوال النهار، وكأن في حمام شديد الحرارة، ورغم أن الأخوة المعتقلين حاولوا بكل الوسائل الممكنة وقاية أنفسهم وحمايتها والحفاظ على سلامة أجسامهم، لكن الظروف القاسية جداً التي كانت تحيط بهم والتي يعيشونها رغماً عنهم، وهم يعيشون في ظلام المهجع أربعاً وعشرين ساعة في اليوم، والكثافة شديدة فقد كان في هذا المهجع وحده ما يقترب من (300) معتقل، والهواء فاسد متغير الرائحة على الدوام، لأن نوافذ هذا المهجع على الدوام كالعديد من أمثاله ضيقة وقليلة.
فقد جاء الزبانية يوماً وطلبوا المرضى فجأة، وحيث أننا قد جربناهم وعرفنا أن ما يبغونه في العادة هو تعذيب المرضى، لذلك لم يخرج إليهم إلا عدد قليل جداً، فإذا بهم يأخذون هؤلاء المرضى ويعرضونهم على فحص ما صوري ليقولوا بعد ذلك.. ما فيكن شيء عم تكذبوا عم تتمارضوا.
وعرفنا أنهم أي الزبانية لا يرضون أن تتدخل أية جهة في موضوع المعتقلين هؤلاء حتى الأطباء مهما كانت الأسباب، لذلك عالج الزبانية الموضوع بنقل نزلاء المهجع المزدوج (5 - 6) ووضع قسم منهم في المهجع (31) والقسم الباقي في مكان آخر، ووضعوا معتقلين آخرين عوضاً عنهم في المهجع المزدوج.
كان الأطباء يتحرجون أن يسموا هذه الأعراض بأنها (مرض السل) لأن ذلك يجب أن يقرره المختبر، ولكن التطورات الأخيرة جعلت الأمر لا يثير أي خلاف، فقد

اعترف الزبانية بأن عدداً كبيراً من المعتقلين مصابون بمرض السل الرئوي الشديد.
بما أن مهجعنا يقع في أول صف المهاجع في الباحتين (5 و 6) فإن حفلات العذاب كانت غالباً ما تبدأ به، فما نشعر إلا والزبانية على الباب يضربون بكرابيجهم الجدران ويصرخون فينا للخروج إلى ساحة العذاب.
ورغم فظاعة هذا الأمر وشناعته، فقد كنا نحمد الله سبحانه ونسجد له شاكرين، فالمؤمن يحمد الله على السراء والضراء أولاً، وثانياً لأننا بهذه الطريقة ننجو من عذاب "انتظار العذاب" وترقبه، وهو عذاب يرهق الأعصاب ويؤلم أشد من ألم العذاب ذاته.
أما المميزات العكسية فهي:
أولاً: أن الزبانية يأتون إلى مهجعنا وهم في أوج اندفاعهم وحقدهم ونشاطهم، فننال أوفر قسط من العذاب من بين مهاجع الباحتين /5 و 6/ سواء في حفلات عذاب الحلاقة أو الحمام أو غيره. إضافة إلى أن بعض حفلات العذاب تبدأ وتنتهي في مهجع أو مهجعين، وغالباً ما يكون أول مهجع في الباحة الذي هو مهجعنا، كما أن نوعين من الأعمال المجهدة كان يتعرض لها المهجعان الأولان في الباحتين /5 و 6/ هما المهجعان (25 - 32) وأقسى هذين العملين هو توزيع أكياس الخبز الثقيلة، وتوزيع جاطات الأرز المطبوخ أو البرغل، وسطول المرقة، كانت أكياس الخبز على ثقلها مما يمكن حمله من قبل الفتيان النشيطين، ولكن جاطات الأرز أو البرغل كانت أثقل وأصعب على الحمل، ومع ذلك كان الزبانية ابتداء من أوائل عام 1982 يخرجون عدداً من المعتقلين من المهجع 25 ما بين /10 - 20/ معتقلاً ونادراً ما يجاوزونهم إلى غيرهم، وكان على هؤلاء أن يتحركوا بسرعة فائقة دون أي هدوء أو التفات، ويجب أن يركضوا حتى وهم يحملون الحمل الثقيل من خبز أو طعام، وكان الضرب بالكرباج أو العصا يلاحقهم دائماً، فما ينتهون من هذا العمل المضني إلا وهم في أشد حالات الإنهاك.
وكان الزبانية يوقعون بهم أو ببعضهم على الأقل أشد العذاب دون سبب أو لأتفه الأسباب. والعمل الثاني: هو ما يدعونه تنظيف الباحة، حيث يخرج الزبانية أيضاً عدداً من المعتقلين ما بين /15 - 25/ معتقلاً مع المكانس

وأوعية الماء، ويجب أن يتحركوا بسرعة كبيرة، يكنسون وينظفون، ومع ذلك يعتدي عليهم الزبانية بالضرب والعذاب بسبب ودون سبب.
وغالباً ما تتحول عملية التنظيف إلى حفل عذاب مرعب.. ومضت مدة من الزمن وعملية العذاب هذه تكرر يومياً..
وكان هذان العملان من نصيب نزلاء المهجعين الأولين في الباحتين وهما المهجعان (25 - 32) ونادراً جداً ما يجاوزها الزبانية إلى غيرها، وخاصة إدخال الطعام فقد كان غالباً وخلال فترات طويلة من نصيب نزلاء المهجع (25) وكان هذا عملاً مرهقاً، إضافة إلى ما يتعرض له المعتقل خلال ذلك من عذاب.

يوم 17 حزيران 1982
وكعادة الرقيب فواز فقد جاء اليوم وهو غاضب حانق عرفنا ذلك من حدة صوته وهو يصرخ قائلاً: بالشورت ولك كلاب.... وتوقعنا السوء من هذا الفاجر، وتلقانا الزبانية ونحن نخرج إلى الباحة بالضرب والسباب.. كان فواز يصرخ كعاداته، وأجبرنا على كنس الباحة بأيدينا تحت ضرب السياط وصراخ الزبانية، وكان ممن عذب اليوم: مدرس تاريخ متقدم في السن، أشيب الشعر، قد هدّه المرض وما عاناه في سجن تدمر، أخذ الجلاد يرفسه بحذائه العسكري (البوط) على ظهره وبطنه بقسوة، والمعتقل المريض يتعطفه ويرجوه أن يشفق عليه، والجلاد مندفع إلى تعذيبه غير آبه.. وعذب معتقل آخر دمشقي (صاحب معمل) اتهمه فواز بأنه رفع رأسه وفتح عينيه، فضربه الجلادون حتى أنهكوه، وقد تورم وجهه وجسمه، وعذب آخرون وآخرون، وعلى مدى ساعة أو تزيد كان أوار العذاب والضرب والصياح على أشده.. حتى حين دخولنا المهجع أمسك الزبانية بعدد منا ثم ضربوهم بالكرباج على أجسامهم العارية أقسى الضرب، وكان من نصيبي حوالي عشر ضربات هائلة من الكرباج، وخمس على يدي، وخمس على ظهري، وقد تورمت يداي وبقي أثر تلك الكرابيج في ظهري أياماً طويلة، ولقد ذهب الزبانية بعدها إلى غيرنا من المهاجع يعذبون نزلاءه، ورغم أن العذاب قد استعر في الباحة وقتاً هو أقصر ولا شك مما تعرضنا له نحن من عذاب،

ولكنا كنا خلال ذلك مشغولين بأنفسنا، نداوي الجراح، ونطمئن على أعضائنا، ولم ننس مع ذلك الدعاء لإخواننا المعتقلين المعذبين.
كانت هذه إحدى مفاجآت العذاب الذي لا ندري إلا وقد حل بنا، فلا نعلم له موعداً ولا سبباً ولا مناسبة.

من جرائم الجلاد الرقيب فواز والزبانية في سجن تدمر - حزيران 1982
الحديث عن جرائم زبانية سجن تدمر طويل لا يكاد ينتهي مليء بألوان الفساد والشر والقسوة والعنف والعبث بأرواح المعتقلين، وكأن هؤلاء المعتقلين ذباب فهم يقتلون فيهم بغير حساب بل بمتعة وانتشاء.
كان بطل حفلات التعذيب والقتل هو الرقيب الرهيب فواز، وهو متوسط القامة دون الثلاثين من عمره، له شاربان أسودان في وجه حنطي، وهو نصيري شديد الحقد، ويتميز بصوت رفيع حاد ولهجة جبلية، رغم أنه يحاول أن (يتفاصح) ومن ألفاظه كلمة (حوص) التي لقب بها (والدكتور) أحد ألقابه أيضاً، وهو كثير الصراخ والكفر والتجديف والسباب، لذا لقبه بعض المعتقلين بـ (عيطه) وقد حق له أن يحوز قصب السبق في ميادين التعذيب في سجن تدمر لما في نفسه من غل وكيد وسعار، فكان ينشط لمراقبة المعتقلين في المهاجع في الليل والنهار، ويقوم بضبط حركاتهم وضبط المصلين والمشتبه بأنهم يصلون خاصة، وينزل بهم بعد ذلك أقسى العقاب مع مهاجعهم كلها وذلك في هجمات عذاب رهيبة.

شنق بأيدي الزبانية
أول ما عرفت هذه القضية كان خلال الحلاقة التي جرت لنزلاء بعض المهاجع أواخر سنة 1981 ثم انتشرت بعد ذلك وتكررت وطبقت على الكثير من المعتقلين في مختلف المهاجع. في شباط 1982جاءت دورية من زبانية السجن بإمرة الرقيب فواز مع الحلاقين لإجراء الحلاقة للمعتقلين في مهاجع الباحة الخامسة، وأخذ الزبانية مع الرقيب فواز يمسكون بالمعتقل ويضعون عنقه ضمن عصا الفلقة ويفتلونها حتى يشتد حبلها على

رقبته، ثم يحملونه بها حتى يختنق، ثم يلقونه وهو بين الموت والحياة.

(وعصا الفلقة هذه عبارة عن عصا خشبية غليظة مثبت عليها حبل بطول (1.5)م مربوط من نهايته على طرفيها. ويتدلى من الوسط، وعمل هذه العصا هو ما اشتق من اسمها (الفلقة) حيث توضع رجلا المعذب في الحبل وتفتل العصا، ويشتد الحبل ويمسك بالرجلين إلى العصا التي يمسك بها اثنان من الجلادين يفتلونها ويرفعونها، فترتفع رجلا المعتقل لتلقي ضربات الجلاد عليهما دون أن يستطيع تحريكهما أو إبعادهما، ولكن الجلادين اليوم يريدونها لعمل آخر اسمه (لعبة الشنق) وهكذا اختاروا أحد المعتقلين ممن توخوا فيه الأهمية والمكانة، فوضعوه في وسط الباحة وأدخلوا رأسه ضمن الحبل المربوط إلى نهايتي العصا وفتلوا العصا حتى اشتد الحبل على عنقه، والعصا على رقبته وهكذا أعلن فواز للمعتقل المسكين: والله لنشنقك يا كلب..

ورفع اثنان من الجلادين المعتقل بالعصا إلى الأعلى محمولاً من رقبته، فزفر المعتقل واختنق وتخالج واضطرب بقوة، وحاول بيديه الضعيفتين تخليص رقبته من الحبل الذي يضغط عليها، ولكن يديه خانتاه وغامت عيناه وغاب عن الوجود ومات، كان الجلادون يصرخون في هستيريا يسبون ويلعنون ويجدفون ويضحكون بجنون، وألقوه أرضاً لا حراك به، ورفسه فواز اللعين ووصمه بالكذب قائلاً: عمتعمل حالك ميت يا كلب؟ ولكن أنى للميت أن يجيب، فأمر فواز اثنين من المعتقلين فحملاه إلى المهجع وجيء بآخر.. ثم آخر وآخر.

كان المعتقل (ش) هو ضابط صف أحد أولئك المشنوقين وقد ألقي في المهجع إلى جانب إخوانه أولئك، وأخذ بعضهم يمسح وجهه ويدلك له رقبته، وقد أحس الحرارة في الجسم، ولكن بلا طائل، وبعد ساعتين تقريباً صحا المعتقل (ش) من إغمائه وكأنه بعث من بعد موت، ولما سئل عما حدث له قال: لا أعلم سوى أني كنت في حلم جميل.

كانت لعبة الشنق إضافة إلى عذابات أخرى تجري أمام المهجع (34) وفواز منتش بنجاحه في تسعير حمى العذاب، فهو يصرخ بصوت قاس ويسب ويجدف ويشارك في التعذيب بيديه، وفي المهجع (25) في الباحة

السادسة والذي انتقلت إليه الدورية مع الحلاقين بعد الانتهاء من مهاجع الباحة الخامسة، بدأت الحلاقة وفواز يغلي كيداً وغيظاً وما لبث أن تفاهم مع عناصره بالنظر والإشارات، وصرخ في المعتقلين وسب وشتم وجدف، ودار الكرباج يهبد به الجلادون على رؤوس المعتقلين وظهورهم في قسوة، وجيء بعصا الفلقة، فقد أعجبت لعبة الشنق فواز اللعين والطغاة الصغار، وهكذا أخذوا أحد المعتقلين وأدخلوا رقبته في الحبل وفتلوا العصا ورفعها اثنان منهم، واشتد الهرج والصياح والهزء، والمعتقل المسكين يغالب الموت والحبل يخنقه ويحطم حنجرته وألقوه جسداً هامداً لا حراك فيه، ولم يتحرك رغم رفسات الرقيب فواز وصراخه، فلما آيسوا منه أمر فواز اثنين من المعتقلين فحملاه إلي داخل المهجع والرجل السكين يغالب الموت، وبعد ساعة من الزمن فارق الحياة.. ولم يأبه فواز ولا الطغاة الصغار بالأمر. وأما القتيل الشهيد فيدعى أبا محمد رجل حلبي في الثلاثين من عمره، وهو واحد من كثيرين استشهدوا تحت التعذيب بهذه الوسيلة أو بوسائل وطرق أخرى، وطبعاً لم يجر أي تحقيق أو سؤال للقتلة، بل كوفئوا على ما اقترفوه من جرائم.

28 حزيران 1982 رمضان

رمضان هذا العام أشد رمضان مر علينا في سجن تدمر وأقساه، ذلك أننا لم نكن نأبه بما أحاطنا من تضييق وعذاب، وما أصاب أجسامنا من أمراض وسوء تغذية، فجاء انقطاع الماء مكملاً لسلسلة العذاب، وقد كنا نعاني سابقاً من انقطاع الماء فترات طويلة تستمر أحياناً أغلب اليوم، ولكن هذه المرة كان الانقطاع مستمراً، فها قد مضت ثمانية أيام ولم تعد المياه (إلى مجاريها) ونحن لا نجد أقل الكفاية من الماء في هذا الحر اللاهب، خاصة وأننا صائمون، فعندما يحين موعد الإفطار لا نجد من الماء ما يروي ظمأ النهار الطويل، فكان ذلك بلاء رهيباً ومحنة جديدة مضافة إلى بلاءات ومحن السجن.

يوم 7 تموز 1982

كم من أرواح طاهرة انتقلت إلى بارئها تشكو ظلم الطغاة وبغيهم، وإجرام وعدوان الزبانية الأنذال وفجورهم، ودمويتهم. كم يستطيب هؤلاء الزبانية أجواء العذاب والتقتيل والدم، وكم لهم من صولات فاجرة على المعتقلين الأبرياء في سجن تدمر، ولئن ظنوا أن بغيهم هذا يخفى على الناس فإنه لا يخفى على الله (الذي لا تخفى عليه خافية) وأنه سبحانه سيفضحهم ولو اختبئوا في عقر دارهم أو أعمق أوكارهم..

البارحة وخلال عملية الموت الأسبوعي (الحلاقة كان الضرب والعذاب على أشده ولم يكد ينجو أي معتقل في مهجع، من الضرب والعذاب والإيذاء ولكن أحد الأخوة المعتقلين وهو شاب في الخامسة والعشرين من العمر طويل القامة أسمر الوجه، اشتط عليه الزبانية في عدوانهم المنكر، فما أدخل إلى المهجع إلا حملاً ووضع في ناحية من المهجع.

كان مشوه الوجه والدماء تنزف من وجهه، محطم الجسم منهكاً، وكأن هؤلاء الزبانية الأنذال وحوش غاب أو كلاب مسعورة لا عقل لهم ولا ضمير ولا مروءة ولا وجدان.

وممن أصيب يومها الشاب اللطيف الأديب ابن العشرين عاماً المعتقل (عبد الواحد) فقد عذبه الزبانية حتى أنهكوه وأدخل المهجع ذاهلاً وقد فقد ذاكرته جزئياً وراح ينظر إلينا وإلى المهجع باستغراب وكأنه يرى ذلك المكان للمرة الأولى في حياته، وأخذ يسألنا: ليش أنا هون؟ ليش ما بروح على بيتنا؟ ولما لم نستطع أن نرد عليه الجواب بغير النظرات التائهة انخرط في البكاء وأخذت الدموع تسيل على خديه بغزارة.

يوم 15 تموز 1982

خلال التنفس الذي تم لنا اليوم بالبطانيات، كان يجلس قربي في طرف الباحة الأخ المعتقل "حسين" فوق بطانياته وقد أطرق رأسه وغض بصره وسكن نصف عار، كما كان كل منا جالساً عن نفس الصورة تقريباً، كانت هذه هي صورة التنفس الذي يتم بين فترة وأخرى، والذي لم يكن يخلو في الغالب من الضرب والعذاب.

كان المعتقل "حسين" مريضاً منذ مدة من الزمن وقد ارتفعت حرارته البارحة، فكان يهذي طوال الليل، وكان

لمرضه يخاف البرد، لذلك لبس بعض الثياب الإضافية فكان يلبس بنطلوناً تحت بيجامته ومع أن الجو في الخارج كان ربيعياً، إلا أن جو المهاجع البعيد عن أشعة الشمس كان أقرب إلى البرودة، لذلك كان عدد غير قليل من المعتقلين يلبسون أيضاً بعض الثياب الإضافية لأنه لم يخطر ببال أي واحد منا أن الجلاد "جهاد" سيتخذ ذلك ذريعة لتنفيذ غاية في نفسه وأمر بيته من قبل ، خاصة وأن الجلاد "جهاد" كان قد قال لنا مرة: ولك لا تلبسو ثياب كثير حتى ما تقملوا. وقد عجبنا يومها من نظريته غير المنطقية.

قام هذا الجلاد المجرم إلى المعتقل حسين وصرخ فيه: ولك ليش لابس بنطلون.. وأخذ كرباجاً وانقض عليه يضربه ويهبد به ظهره العاري، والأخ المريض يئن ويصرخ ويرتجف تحت وقع الضربات حتى أنهك.

وبتوجيه هذا الجلاد أخذ الزبانية ينقضون على هذا المعتقل أو ذاك ويضربونه أقسى الضرب بحجة أنه يلبس ثياباً إضافية ثم عادوا يضربون الأخ حسين ويعذبونه حتى اضطر إلى خلع ذاك البنطلون وإلقائه بعيداً قدر ما يستطيع.

24 تموز 1982 (حفلة عذاب ليست الأخيرة في سجن تدمر)

اشتد الحال في سجن الموت وحمي وطيس العذاب حولنا، ولليوم الرابع على التوالي كان الزبانية يطوفون على المعتقلين في المهاجع المجاورة ويعذبونهم ونحن نسمع أصوات المعذبين وصرخاتهم الوالهة وهبدات الكرابيج على أجسادهم وغيره من أصوات العذاب.. فترتفع أيدينا إلى السماء وتتوجه قلوبنا إلى الله سبحانه ندعوه ونستغيثه ونستعينه ونستنصره ونتوكل عليه وحده.. وكنا نتوقع أن يأتي دورنا وأن يحل بنا العذاب بين لحظة وأخرى..

وفي صباح اليوم جاء الزبانية وعلى رأسهم الرقيب المسمى (جهاد) وصرخوا فينا أن نخرج إلى الباحة بالشورت.

كان ظناً رجونا أن يصدق وهو أن المقصود هو أخذنا إلى الحمام، ولكن الرقيب جهاد وجهنا إلى داخل الباحة ثم أمرنا أن نمشي مشي البطة.. ولمحنا عند ذلك العدد

الكبير من الزبانية والكرابيج في أيديهم.. فما لبث هؤلاء أن انقضوا علينا يضربوننا، فكانوا لا يتركون المعتقل حتى يتمزق ظهره وتسيل منه الدماء وينقلب لونه من الأبيض إلى الأسود الكالح والأحمر الكامد. وبعد ساعة من العذاب دخلنا المهجع مجرحين ممزقين فماذا نفعل لقد قررنا أن نسجد لله رب العالمين فله الحمد على كل حال.

وهذه الحفلات الدموية أمر روتيني في سجن تدمر.

5 آب 1982

طلب عدد كبير من المعتقلين للإعدام وأخذوا مع شروق شمس هذا اليوم 1982 وكان مهجعنا أقرب ما يكون إلى مكان الإعدام، كان الصمت التام يلف المكان، وغابت جميع الأصوات والحركات المعهودة في باحات السجن سوى ركض بعض العساكر مسرعين يقرعون بأحذيتهم الثقيلة أرض الباحة، كان كل شيء يوحي بأن العملية الرهيبة على وشك أن تتم فعلاً.

أخذنا نسمع الحركات المعهودة حين الإعدام مثل تحركات الجلادين، ثم بعض الأصوات القليلة التي تبدأ بين الفينة والأخرى، وصوت آخر سمعناه قبل هذه المرة ولم نعرف له معنى! ولكن في هذه المرة أصبح لدينا تصور جديد عنه..

إنه صوت آلة جديدة للإعدام يستعملها جلادو سجن تدمر ويبدو أنها ليست بحاجة إلى كثير تعب، كانت تصدر حين تشغيلها صوتاً يشبه الضرب بالرجل على الأرض، وكان هذا الصوت يتكرر بين الفينة والأخرى. ونسمع بعض الأحيان ضحكة هستيرية مجنونة رغم رهبة الموت المسيطرة، إنهم المجرمون العتاة فقط الذي يضحكون، ومن يحلو له الضحك في مثل هذا الموقف غيرهم، كما كنا نلاحظ أيضاً أصوات اضطراب وارتطام وزفير شديد. وانطلقت صرخة واحدة شقت السكون ثم اختفت.

فما هذه الآلة الجهنمية الجديدة التي تختطف الأرواح...؟؟

وأمر آخر كان قد تكرر مرات ونحن في أشد الاستغراب والعجب منه هو اختفاء أصوات التكبير... من قبل المعدمين..

كان الذهول والحيرة يسيطران علينا، وكان الألم والقهر يعتصر قلوبنا، فلا ندري ماذا نقول ولا نفعل سوى التسليم إلى الله والدعاء له سبحانه والاستغاثة به.
وكان يحيرنا أكثر وأكثر موضوع انقطاع التكبير حتى نقل إلينا أحد المعتقلين الذين شاهدوا عمليات الإعدام، وكيف أن جلادي سجن تدمر قد أزعجهم وأقلق خاطرهم صوت تكبير الشهداء ساعة الإعدام، بل وأرعبهم بقوته وعظمته وبالإصرار الذي في، لذلك فإن الزبانية أخذوا منذ مدة، يضعون على أفواه المعدمين شريطاً لاصقاً (بلاستر) يسد أفواههم ويمنعهم من صراخ التكبير، وحدثنا عن مشاهدات رآها في ساحة الإعدام، وكيف أن بعض زبانية السجن كانوا ينقضون على الشهداء بعد أن تفارق أرواحهم أجسادهم فيمثلون بهم، وكيف أن حبل المشنقة كانت عبارة عن حبل رفيع (مرسه) من خيوط النايلون، وإنها كانت تؤدي في بعض الأحيان إلى قطع حنجرة الأخ المعدم. والذي كان يتعذب حينذاك فترة طويلة، هو الذي يزفر من حنجرته المقطوعة..
تتالت أفواج الشهداء المعدمين في الباحة الخامسة في سجن تدمر وكأن الطغاة المجرمين يسابقون الزمن ليقضوا على أكبر عدد من المعتقلين (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين).

7آب 1982 هدوء معتقل
من ذا الذي يغتر ويلمس الثعبان اللين الناعم الأملس وينسى ذلك السم القاتل في أنيابه فإنه ذو طبع غدار لا يتغير ولا يتبدل، لم يمض إلا وقت يسير على الانتهاء من إعدام فوج كبير من المعتقلين في خفاء سجن تدمر حتى شعرنا أن الزبانية يريدون أن يغطوا على قضية الإعدام وعلى غيرها، فهاهم يبدون تساهلاً ولينا، ولكن هيهات فإن اليد الملوثة بالدم البريء لن تغسلها مياه الدنيا.
وفيما تلا ذلك من أيام كنا نشعر من معاملة الزبانية أن في الجو شيئاً، وأن يد الله تعمل في الخفاء.. فأكرم بموعود الله..
جاء الزبانية اليوم لإخراجنا للتنفس وفتح الرقيب الباب وقال: تفضلوا تنفس، إنها كلمة ما شبهناها إلا بالكلمة

التي قالها عمر قبل إسلامه لزوجة المؤمن المهاجر عبد الله بن جحش حينما جابهته بإيمانها القوي غير ملتفتة إلى جبروته وعنجهيته.. فقال لها برقة (صحبتكم السلامة) ولكن. إنها عناية الله وإنها قدرته التي تذل الجبابرة وتقصم ظهور الأكاسرة والقياصرة.

11 آب 1982 المرضى
بعد شهور طويلة من المرض والعذاب جاء زبانية السجن وطلبوا مرضى الجرب، فخرج عدد منا للعلاج مع أن الجميع كانوا مرضى، وهكذا أعطي هؤلاء بعض العلاج مرتين أو ثلاثاً ولكن الشر المتأصل في نفوس زبانية سجن تدمر وطبيعة العقارب والأفاعي تأبى أن تغادرهم، فما لبثوا أن انقضوا على مرضى الجرب هؤلاء وأخذوا يضربونهم، وكان أول من وقع به العذاب في الباحة مهجعنا، فأجبرونا أن نمشي مشية البطة على جنبات الباحة مع الضرب، ولما عجز بعض المرضى من المسنين والمصابين بالفتاق مثلاً لم يرحموهم بل أجبروهم على السير تحت الضرب الشديد، وأخطأ الصيدلي المريض (ع) فكان نصيبه حفلة عذاب ساخنة، وأجبرونا جميعاً أن ندوسه بأقدامنا وهو ملقى على الأرض.. وقد حرم كثير من الأخوة المعتقلين على أنفسهم العلاج بعد ذلك، ورضوا بالمرض فهو أرحم من تعذيب زبانية سجن تدمر، وذهب الزبانية يدورون على المهاجع يطلبون المرضى فإذا خرجوا إليهم أنزلوا بهم أشد العذاب، حتى إذا جاء الزبانية مرة ثانية يطلبون المرضى والكرابيج في أيديهم رد عليهم رئيس المهجع: ما في حدا مرضان ولا حدا جربان.. وانتشى الزبانية بانتصارهم.. وانتعشوا.

15 آب 1982 "رؤى مبشرة"
إن الله سبحانه يتولى بعنايته ورعايته ولطفه وكرمه أولئك المعتقلين الأبرار المنيبين إلى الله اللائذين بحماه، فهم على نور ورضا وطمأنينة قد أنزل الله عليهم سكينته وحفتهم ملائكته وذكرهم في ملئه الأعلى. وقد أكرمهم الله سبحانه بالرؤى الصادقة بشرى وتثبيتاً وإكراماً لهم من الله تعالى. فقد رأى أحد الأخوة المعتقلين النبي صلى الله عليه وسلم رؤيا

واضحة جلية ولم يكن الأخ الكريم بالذي يريد الظهور فأخفى أمرها إلا أنه للترويح وتبشير إخوانه حدث بها أحد إخوانه المعتقلين وطلب منه عدم نسبتها إليه.
كان مضمون الرؤيا كالتالي: رأى الأخ المعتقل النبي صلى الله عليه وسلم وحادثه طويلاً وقال له النبي صلى الله عليه وسلم : الفرج قريب.. إن هي إلا أيام.. ثم أوصاه النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً: لا تكثروا من الكلام واللغو، وأكثروا من الذكر والتسبيح والدعاء وقراءة القرآن.. مع وصايا أخرى... وقد تفاءلنا كثيراً ببشارة النبي هذه، وأيقنا أنها لا بد أن تحدث فرؤيا النبي صلى الله عليه وسلم حق.

الإفراج
في يوم الثلاثاء بعد الفطور من تاريخ 18/8/1983 كنت قد نويت الصيام وقمت إلى حصتي من الفطور - ربع كأس من الشاي. وست حبات من الزيتون فصررتها في قطعة صغيرة من النايلون ووضعت الشاي في كأس البلاستيك ووضعته في جانب من المنافع.
وكان الإخوة يتناولون طعام الإفطار والساعة تشير إلى السابعة صباحاً حين نودي في المهاجع البعيدة على بعض الأسماء وهذا في حد ذاته أمر غريب، ففي هذا الوقت أو ما قبله إنما ينادى على أسماء المعدمين.. فوقفنا وجلين وتنصتنا حذرين، فإذا بعض الأسماء تعرف من قبل بعض الإخوة المعتقلين وأن أصحابها ممن حكم القاضي ببراءتهم منذ زمن بعيد...؟ إذاً ما الهدف من طلب جهاز السجن لهؤلاء...؟ لعله الإفراج!!...
وتحفز الإخوة في المهجع وجاء الرقيب إلى باب مهجعنا ونادي بعض الأسماء، ونشط المهجع يريد أن يودعهم فرحاً لإفراج طال انتظاره حتى لمن حكموا بالبراءة من قبل القضاة الجلادين.
ونودي على اسمي فجأة لم أكد أصدق أذني فأسرعت بالإجابة - حاضر- وأسرعت إلى الباب فتثبت الرقيب من اسمي وأمر من نودي باسمه أن يجهزوا أنفسهم ولم يقل شيئاً. فأسرعت إلى مكاني جاء الإخوة يعانقونني ويودعونني: لا تنسنا أبا محمد، وقال أبو أنس: ادع لنا يا أبا محمد إنه يعني ما يقول.

وكيف أدعو لكم يا أبا أنس فهذه: الكلمات هي الدعاء وهي النداء وهي البيان: فلعل هذه الكلمات تكون دافعاً لكرة الظلم والظالمين بما تصف وتكشف من بغي وجور وظلم وظلام. ولعل هذه الكلمات تثير في الإنسان روحه الإنسانية ونفسه الخيرة وشهامته ومروءته، فيكون من مبعد ذلك مندفعاً إلى كل خير مندفعاً إلى خير نفسه ومجتمعه وبين جنسه، أما الكافرون بالحق والدين فلن تزيدهم هذه إلا فجوراً وضلالاً وعمي (فمثلهم كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث).

جمع عدد من المحكومين بالبراءة من مختلف المهاجع وساقونا إلى باحة المكاتب فأجلسونا في طرف منها، وأخذ كاتب هناك يتحقق من أسمائنا وأرسل في طلب من لم يحضره السجانون من المعتقلين، ثم أدخلنا الغرفة المشؤومة غرفة الانتظار قرب المدخل. فإذا هي قد طليت بدهان زيتي أبيض يخفي تحته سواداً وأوساخاً وآلاماً، وها هي الجدران الحجرية مشوهة غير مستقيمة تشي بأنها طليت طلاء زائفاً، من هنا مررت منذ عامين.. عامين من العذاب والقهر والآلام والموت.. عامين لم أمت فيهما لأنه لم ينته أجلي، وها أنا ذا شبح إنسان أنهكني المرض والنحافة والجرب والسعال والتهاب الرئتين الشديد والتهاب الكلي والبيلة الدموية، والحمد لله على كل حال ونعوذ بالله من حال أهل النار، إن لله في رقابنا عهوداً قطعناه ولن نخونها: أن نكون لله عاملين وعلى دينه مستقيمين ولنبيه متبعين مقتدين لا نمالئ الظالمين المجرمين، نحارب الظلم والظالمين، نجاهد في الله حتى يأتينا اليقين شهداء، إن شاء الله رب العالمين.

خرجنا من باب سجن تدمر الكالح وتسلمنا عناصر المخابرات ونقلونا بسيارات مغلقة كل معتقل إلى المحافظة التي اعتقل فيها، وبعد بضعة أيام في زنزانة المخابرات جاء خلالها زبانية المخابرات ليتفقوا معنا على صيغة للوشاية بكل من يحمل أفكاراً لا توافقهم، فلم نلتفت إلى ذلك حقاً فنحن نعرف الحقيقة ونعيها. ثم أفرج عنا.

كاد الأهل يصعقون لتلك المفاجأة التي ما كانوا يتوقعونها، وضج الناس بالبكاء وهم يرون أمامهم شبح

رجل عاد إليهم من العدم، ولقد رأيت أحد الشيوخ يحدق بي بعينيه الكليلتين وهو دهش، يتمتم لنفسه: "كأنه خارج من قبر".
كان منظري حينها مرعباً حقاً فوزني الذي كان قبل الاعتقال /85/ كغ إذا به الآن 45 كغ فقط، ووجهي شاحب وعيناني غائرتان وخداي بارزان ويداي نحيفتان معروقتان، وبكى أبي الشيخ الكبير وبكى الناس من حولي، فأبكوني لبكائهم حتى ما عدت أتمالك نفسي.
فإذا كانت هذه حال عائلة واحدة فكيف هي أحوال آلاف العائلات المنكوبة بفقد أبنائها، وهل يهنأ لي عيش مع أهلي وعيالي وأنا أرى آلام الأهل والعيال على أبنائهم ومعيليهم، وأعرف ما يعاني أبناؤهم في سجن الموت سجن تدمر العسكري الصحراوي؟؟

نظام الممنوعات في سجن تدمر

نظام الممنوعات في سجن تدمر وسيلة من أكبر وسائل العذاب في هذا السجن وهو مؤيد بالتعذيب وأجواء الرعب المسيطرة في ذلك المعتقل الرهيب. ويبدو أن الغاية من نظام الممنوعات هي إيقاع المعتقل المسكين في وحدة عميقة من الانقطاع التام عن الدنيا، وشل عقله بالعذاب والرعب، لينضبط لهذه النظم من ناحية مع التكدير المستمر من ناحية أخرى، بحيث ينسى المعتقل كل شيء، فلا يفكر إلا فيما يلقاه من أهوال ويسيطر ذلك على فكره فيشوشه، وعلى نفسه فيعقدها، وعلى جسمه فيضعف ويهزل ويبقى صورة مهزوزة للإنسان، مع إعدام كل ذي خطر (في رأيهم).
أما الممنوعات في سجن التصفية الجسدية هذا فهي كثيرة جداً لذا فإن الأسهل هو ذكر المسموحات ولكن بما أنها غير موجودة أصلاً ولا عرف منها شيئاً فلا بد من تعديد بعض أهم الممنوعات، إلا أن هناك مسموحات من نوع آخر، وهي خاصة بالجلادين ومسؤولي السجن فهم حائزون على الدعم الكامل في ممارسة كل ما يمكنهم من فنون العذاب والتقتيل التضييق على المعتقلين.
وأهم الممنوعات في سجن تدمر هي:
1 - منع الكلام بتاتاً وخاصة مع العساكر الجلادين، كما أنه ممنوع على العساكر أنفسهم الكلام مع المعتقلين أو سؤالهم عن أسمائهم أو تهمهم.

2- ممنوع رفع الصوت والتكلم بشكل عادي في المهاجع، ولا يجوز أن يسمع من المهجع أي صوت وإلا تعرض لأشد العقوبات.
3 - ممنوع أن يتكلم المعتقلون مع بعضهم بعضاً حتى لو كان ذلك بصوت خفيض لا يسمعه أحد، ومن يضبط وهو يحادث جاره يعاقب الاثنان عقوبات شديدة، وقد تعم العقوبة المهجع كله.
4 - ممنوع الحركة والتجول في المهجع نهاراً، إلا للحاجات الضرورية وكافة الحركات الرياضية منوعة. والتجمعات والحلقات ممنوعة.
5 - ممنوع استعمال الأسماء سواء من قبل العساكر ومن قبل المعتقلين، إلا أن يكون طلباً من جهاز السجن.
6 - يمنع وجود أي نسخة من القرآن الكريم منعاً باتاً.
7 - الكتابة ومستلزماتها ممنوعة فالأقلام والدفاتر وسائر أنواع ورق الكتابة ممنوع.
8 - الكتب والصحف المجلات وكافة أنواع المطبوعات ممنوعة منعاً باتاً.
9 - الراديو والمسجلة وكافة الوسائل السمعية أو البصرية ممنوعة منعاً باتاً، ولا يجوز أن تجتاز جدران سجن تدمر بتاتاً.
10 - الزيارات: زيارة الأهل أو غيرهم للمعتقل ممنوعة منعاً باتاً، وقد دفع بعض الناس مبالغ خيالية ورشاوى للمسؤولين حتى تمكنوا من زيارة معتقليهم.
11 - الرسائل من و إلى المعتقل وسائر أنواع الاتصال أو إرسال الأغراض أو الحاجيات ممنوعة منعاً باتاً.
12 - العبادة والصلاة (خاصة) والوضوء كل ذلك ممنوع منعاً باتاً. والعبادة هي الملاذ الروحي للمعتقل، يقصد بمنعها إفقاد المعتقل هذه الناحية الهامة التي تقوية وتثبته وتعينه على ما يلقاه من محن وآلام.
13 - فتح الأعين والنظر في وجوه الشرطة ممنوع، ويمنع النظر إليهم تحت طائلة التحطيم والتعذيب الشديد.
14 - يمنع السهر بالليل بل يجب أن يكون الجميع نائمين من السادسة مساء حتى السادسة صباحاً، ويمنع النوم أو الإضجاع نهاراً، وتمنع الحركة ليلاً ويتعرض من يتحرك لعقوبات شديدة.

15 - الإبر والخيطان ممنوعة وكذلك الدبابيس.
16 - الملاعق ممنوعة وكذلك كافة الأدوات المعدنية.
17 - ممنوع الحركة في وجود الشرطة، ويجب أن يكون الجميع واقفين باستعداد مغمضي العيون منكسي الرؤوس.
18 - الدخول للمنافع لأكثر من واحد ممنوع ليلاً.
19 - الاتصال مع المعتقلين في المهاجع الأخرى ممنوع.
20 - كما يمنع نظام السجن المعتقلين من الحصول على أي مواد طعامية.
21 - ممنوع تجبير الكسور ومن شوهد أعيد فك الأربطة البدائية عن الكسر. وهكذا في سلسلة لا آخر لها من الممنوعات.

أسباب ومناسبات وأنواع العذاب في سجن تدمر

لا ادري بأي منطق يسوغ تعذيب الإنسان أو بأي سبب يرتكب التعذيب بحق المعتقلين في سجن تدمر.. حتى الموت بلا حدود وفي استمرارية منتظمة، نعم إن نظام سجن تدمر إنما هو برنامج عذاب وإرهاب وتقتيل يستغرق الليل والنهار يذيق المعتقلين أفانين القهر والموت والمرارة.
أما ما هي الأسباب لكل هذا فهذا ما لا يمكن الإجابة عليه، ولكن هناك نقاطاً يمكن تحديدها وتمييزها لأسباب العذاب، سواء ما كان منه داخلاً ضمن نظام سجن تدمر، أو هو من نوع آخر إضافي..
كما أن هناك المناسبات المستخدمة للعذاب وهي نقاط ومناسبات تزخر بها أيام سجن تدمر ولياليه.
أما أنواع العذابات فهي عديدة أيضاً ولندخل في التفاصيل.

أنواع التعذيب في سجن تدمر

1 - التعذيب بالجلد على الرجلين بالكرباج بعد وضع المعتقل في الدولاب وضبط رجليه بعصا الفلقة.
2 - التعذيب بالجلد بالكرباج على الجسم العاري والظهر والصدر والجانبين، أو الضرب بالكرباج على الرأس.
3 - التعذيب بالجلد بالكرباج على الأيدي وجهاً وقفا.

4 - التعذيب بالخنق باليدين أو الشنق بعصا الفلقة المذكورة سابقاً، أو بالدوس بالحذاء على الرقبة أو الضغط على الحنجرة بالركبة.
5 - التعذيب باللكم والرفس والدوس على مختلف أنحاء الجسم.
6 - التعذيب بالضرب بالعصا الغليظة قطر (7 - 8سم) وطول (1.25)م على الظهر أو الرأس أو الأطراف أو البطن.
7 - التعذيب بالوخز بالمسلة وراء الأذن وفي الآليتين والكتفين والوجه وغيره.
8 - التعذيب بالضغط على الخصيتين أو رفسهما.
9 - التعذيب بالضرب بالحذاء على الوجه.
10 - التعذيب بوضعية الجلوس، حيث يجبر المعتقلون على الجلوس بأوضاع مرهقة فترات طويلة منها: جلسة السجود واليدان خلف الظهر، ومنها القرفصاء واليدان خلف الظهر والرأس محني بشدة والقدمان منصوبتان وغيره.
11 - التعذيب بالأعمال الرياضية المجهدة: رقصة روسية (التمرين السادس) - مشي البطة – القرفصاء - سير القرد - الضغط وغيره.
12 - التعذيب بوضعية الوقوف على رجل واحدة واليدان مرفوعتان إلى الأعلى ساعات طوالاً.
13 - التعذيب بالتجويع وقلة الطعام كماً وكيفاً.

جهاز معتقل تدمر العسكري الصحراوي
يتألف جهاز سجن تدمر العسكري الصحراوي من سلسلة من الرتب العسكرية من ضباط وصف ضباط وجنود ومجندين وجميعهم من الشرطة العسكرية، ويتبع هذا الجهاز الطباخون وهم عساكر أيضاً. والبلدية وهم سجناء عسكريون قضائيون يستخدمون لأعمال الخدمة في السجن.
يتم انتقاء عناصر جهاز سجن تدمر من النصيريين الطائفيين أو من عناصر حزبية موالية تماماً، أو من البدو، وقد اخضع عناصر هذا الجهاز لدورات تدريبية على فن التعذيب كما يخضعون لعملية توجيه مستمرة تجعلهم في غفلة عن واقع الأمر الذي يعيشون فيه.
وعلى رأس جهاز السجن هذا:

أ - مدير السجن: الرائد المجرم فيصل غانم "34" سنة نصيري طائفي متوسط القامة ممتلئ الجسم حليق الشاربين.
الرائد فيصل يتميز بالقسوة البالغة الدموية يملأ قلبه حقد اسود على المعتقلين، لذا فهو مولع بحفلات التعذيب الصاخبة ومولع بصراخ المعذبين لا يرتاح إلا إذا سمع صوت ضرب الكرباج وعويل المعذبين من باحات السجن. وهو متكبر متغطرس لا يكلم مرءوسيه إلا باستعلاء واحتقار دون أن يلتفت إليهم. والرائد فيصل من المقربين من الطاغية أسد وممن يثق بهم كثيراً. وقد هيئت له كافة الإمكانيات ليقوم بمهمته في ضبط معتقل تدمر والسيطرة عليه والتعتيم على ما فيه. وعززت إمكانية المجرم فيصل بأن أسند إليه منصب قيادة سرية التأديب الموجودة في نفس الثكنة التي يقوم فيها سجن تدمر، ومنصب ضابط أمن المطار العسكري الذي لا يبعد عن مدينة تدمر إلا 2كم تقريباً، وزوّد أيضاً بهاتف خاص يتصل مباشرة مع مكتب الطاغية حافظ أسد.
ب – معاون مدير السجن: وهو برتبة نقيب. طويل القامة حنطي اللون، وهو ضالع أيضاً في جرائم سجن تدمر.
جـ - ضباط الصف ويبلغ عددهم حوالي (15) ضابط صف عرفنا منهم:
1 – المساعد الأول أحمد 34 سنة، متوسط القامة، أسمر ملئ الجسم، له صوت رفيع حاد مميز، وهو من بلدة القريتين التابعة لمحافظة حمص.
ويتميز هذا المجرم بأنه شديد القسوة والجشع والمخادعة، فهو الذي يقود عمليات التعذيب، ويوجه الجلادين ويدفعهم، وكان لا يتوانى عن سرقة أموال المعتقلين. نقل من سجن تدمر في أواخر عام 1981 وخلفه الرقيب علي شعبان في منصب رئيس الانضباط، يعاونه الرقيب الأشقر.
2 – الرقيب علي شعبان 32 سنة، أسمر طويل القامة، نصيري طائفي، وهو معتز بنفسه، نزق غضوب، وإذا غضب اشتد شره وأذاه.
3 – الرقيب الأشقر: 30 سنة، ممتلئ الجسم، نصيري طائفي.

4 – الرقيب جهاد: 30 سنة، متوسط القامة، ممتلئ الجسم أسمر، يلبس الثياب الضيقة، متعجرف لا يأبه بأرواح المعتقلين، مندفع إلى تطبيق برنامج التعذيب على المعتقلين.
5 – الرقيب الأول فيصل: 30 سنة، نصيري طائفي، متوسط القامة أسمر اللون، متكبر متبختر نشيط في برنامج التعذيب.
6 – العريف فواز حسين: عمره 28 سنة، متوسط القامة، أميل إلى النحافة، له شاربان رفيعان أسودان وصوت حاد، وهو نصيري متعصب مليء بالحقد، ميت الضمير. كان مولعاً بتعذيب المعتقلين وإيذائهم، وممارسة شتى صنوف البطش والإرهاب عليهم، لا يرعوي عن سفك دمائهم البريئة بشغف زائد، ولا يرعوي أمام جلال الموت الرهيب. وقد رقي فواز بناء على هذه المواصفات إلى رتبة رقيب.
7 – الرقيب منير: (نصيري).
8 – الرقيب علي ديوب: (نصيري).
9 – العريف شعبان: 25 سنة، طويل القامة ممتلئ الجسم، أسمر اللون، أجش الصوت، وهو نصيري ملحد فاجر شرير، مليء بالحقد. يتميز من بين جلادي سجن تدمر بأنه كثير العنجهية، بالغ القسوة والعنف على المعتقلين، فهو من عتاة الجلادين في سجن تدمر، وفي رقبته كثير من الدماء والأرواح البريئة التي قضى عليها.
10 – الرقيب عادل: 25 سنة، أسمر، نصيري.
11 – العريف الأشقر: 24 سنة، ممتلئ الجسم، أشقر نصيري حاقد شرير، قتل معتقلاً صغير السن يدعى أحمد طوير، أثناء الحمام.
12 – العريف (ولي): وهو لقب له لأنه يتلفظ بكلمة: ولك باللهجة الجبلية ولي، وهو في العقد الثالث من عمره، متوسط الطول أبيض ممتلئ الجسم، نصيري.
13 – المساعد ذو الشاربين الكبيرين وهو رئيس قلم السجن.
14 – المساعد أبو بسام (الممرض): وهو أسمر طويل القامة، يعمل بنشاط في مهنته، يخفف آلام السجناء ومعاناتهم.
د – العساكر الجلادون، وهم من عناصر الشرطة العسكرية، ويبلغ عددهم حوالي 300 عنصر.

أغلب هؤلاء من النصيريين، وبعضهم من الشوايا والبدو، وبعضهم من الحزبيين الموالين، وجميعهم يهيمن عليهم فكر خبيث موجه، وجهل بالحقائق مطبق.. ويغلب على أكثرهم أصلاً فجور وسوء خلق وانحلال ذاتي. استغله أسيادهم فتراهم مندفعين إلى عملهم الإجرامي بلا شعور أو تفكير..

من هؤلاء الجلادين نفر تميزوا بالعتو والإجرام، واشتهروا بنشاطهم واندفاعهم إلى إيذاء المعتقلين والإعنات عليهم، وممارسة شتى صنوف القمع والإرهاب عليهم ومن هؤلاء:

1 – الشرطي سمير المقلب (حيو): في العشرين من عمره، أسمر الوجه نحيف الجسم، له شاربان أسودان مبرومان في وجه متطاول وهو سكير فاجر، كان يردد دائماً مجون السكارى، ويكثر من ترديد كلمة (حيو) التي لقب بها بعد ذلك..

والجلاد (حيو) باطني حاقد يمقت المعتقلين أشد المقت، ويسبهم بألفاظ بذيئة، ويتوعدهم بالشر والسوء، وهو شرير مجرم ينتهز كل فرصة للانقضاض على المعتقلين وصليهم بصنوف الضرب والإيذاء بنذالة لا مثيل لها.

2 – الشرطي صلاح: في الثانية والعشرين من عمره، متوسط القامة أبيض اللون أجش الصوت، وهو نصيري من قرية حريصون القريبة من بانياس على الساحل السوري، وهو كسابقيه من الجلادين معروف بالحقد فالغل والفجور والتجرد من كل الصفات الإنسانية، وحين يصرخ الجلاد صلاح في المعتقلين فإن صوته يشي بما في قلبه من غل وحقد وسعار على المعتقلين.. كما كان لا يتمالك نفسه فينفث ما في قلبه من حقد على المصلين إيذاءً وسباباً بذيئاً وتهديداً بشكل علني صريح، فكان يصرخ مهدداً وهو يغلي غيظاً وغضباً ويقول: "والله اللي ميصلي لفضي التلاتين ببطنو".

3 – الشرطي نعيم: طويل القامة أسمر الوجه، عمره قريب من الخامسة والعشرين، موطنه الأصلي الجزيرة الفراتية، وهو من طائفة الآشوريين، فهو ملحد فاسد العقيدة وهو فظ الأخلاق ملئ بالشر، لا يقل عن أقرانه السابقين في السوء والإجرام.

4 – الشرطي (وجيه) في العشرين من عمره، قصير القامة حنطي اللون، وهو نصيري حاقد لئيم، يندفع إلى تعذيب المعتقلين وإيذائهم في كل مناسبة، وكان مظهره يوحي بأن عمره لا يجاوز الخمسة عشرة عاماً لذا كان بعض الرقباء ينادونه قائلين: يا صغير. وكانت تصرفاته تتسم بالسخافة والصبيانية، منها أنه كان يجبر رئيس المهجع أن يلبس حذاء (شحاطة) ثم يقدم له الصف في المهجع، وهو يضرب رجله بالأرض وكانت مجمل تصرفاته توحي بالغرور والحقد والجهل الذي يملأ رأسه.

5 – الشرطي النصراني: وكان يظهر أو يدعي كراهية للتعذيب ولا يتورع عن فعله وتعذيب المعتقلين.

أما الجلادون الباقون، فمنهم من لم يبرز ولم يشتهر اسمه في مهجعنا، ومنهم من كان يحرص على التعمية وعدم معرفة اسمه، حتى كان بعض هؤلاء الجلادين يغيّر صوته ويخاطبنا بأصوات مختلفة.

أعداد المعتقلين في سجن تدمر

صرح أحد الرقباء العاملين في سجن تدمر من الذين يقومون بضبط أعداد المعتقلين، خلال مناوباتهم في معرض تسخطه أو تفاخره بعمله أنه يعمل في سجن يحوي أكثر من (3500) معتقل، كان ذلك في أواسط 1981 وكان متوسط عدد النزلاء في المهجع الواحد (110) معتقلين تقريباً، وعدد المهاجع المستعملة في السجن (32) مهجعاً، وكان الحساب التالي 32×110= 3520 معتقلاً. وفي نهاية عام 1981 كان معدل نزلاء المهجع الواحد 140 معتقلاً، وكان عدد المعتقلين في السجن كله يساوي 140 × 32 = 4480 معتقلاً، أما في منتصف عام 1982 وحتى بعد استغراق المهاجع الجديدة الأربعة فكان معدل نزلاء المهجع الواحد (170) معتقلاً، فأصبح العدد الكلي في السجن 170 × 32 = 5440 معتقلاً، ومعنى هذا أن كل ثلاثة معتقلين حصتهم 1م 2 يعيشون عليه كل حياتهم، التي يقضونها في سجن تدمر فالحياة في سجن تدمر وضمن مهاجعه المغلقة مشكلة في أساسها، فكيف إذا أضيفت إليها مشاكل أخرى، وهكذا نجد أن كثافة والازدحام بدأت كمشكلة منذ أوائل

عام 1981 أي بعد بضعة شهور من بداية استقبال السجن للمعتقلين بعد إفراغه في المجزرة الرهيبة. أما بعد ذلك في أواخر عام 1981 وعام 1982 فإن الكثافة غدت رهيبة وأصبحت الحياة في مهاجع سجن تدمر صعبة قاسية، ونبتت مشاكل عديدة وأخطار شديدة.

والله من وراء القصد

"خالد فاضل"

أخي يا من قرأت مذكراتي أو ذكرياتي هذه عن سجن الموت سجن تدمر العسكري الصحراوي..
ترى ما هي أحاسيسك ومشاعرك تجاه آلاف المعتقلين من خيرة أبناء الشعب السوري الأبي المجاهد؟
ترى ما هي أحاسيسك ومشاعرك تجاه القرامطة الجدد الذين يحكمون سورية الإباء مثل هذا الحكم الذي هو أخس حكم وألعن نظام ابتلي به شعبنا السوري المجاهد؟
ترى ما هو واجبك تجاه هذا الشعب.. تجاه هؤلاء الأحرار الأبرار الذين تصدوا للطاغية الجبان حافظ أسد الطائفي العميل؟
أليس من حق هذا الشعب عليك، وأليس من حق هؤلاء المعتقلين عليك، أن تكون إلى جانبهم، وأن تعمل على استئصال الطاعون الأسدي من أرض الشام، ظئر العروبة والإسلام؟..
لقد نقلت إليك –أخي- جزءاً يسيراً مما نالنا وما يزال ينال إخوانك المعتقلين من ألوان التعذيب والقهر والاضطهاد حتى الموت، في سجن تدمر العسكري الصحرواي.. فماذا أنت فاعل؟..
إن التاريخ يسجل على الحكام مواقفهم، كما يسجل على الشعوب مواقفهم.. فبماذا تريد أن يحكم عليك التاريخ؟
ألا أنني قد بلغت، فاشهد الله..
اللهم اشهد أنني قد بلغت..
الله اشهد أنني قد بلغت..

[الشهادة العاشرة]

حمامات الدم في سجن تدمر
(لم يذكر الشاهد اسمه)

المقدمة
الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وبعد:
فالذي كتب هذه المذكرات أو الذكريات عن سجن تدمر، بعيد من مهنة الكتابة والتأليف، فلا تزويق ولا تنميق، بل عبارات وجمل تحمل مشاعر وأحاسيس ملتهبة، من خلال سرد وقائع يعجب المرء لوقوعها على أيدي ناس. يزعمون أنهم بشر، لهم رؤوس وأدمغة وأعين وآذان وأرجل وألسن، وما إلى ذلك من شكل البشر، ولكن... شتان شتان بين ما يفكرون ويخططون وينفذون وبين سائر البشر.
إن إبليس يتعلم من أولئك الطواغيت أساليب الإجرام، وإن بني صهيون، أولئك الذين يعدون في الدرك الأسفل من العطاء الإنساني، هم تلامذة صغار في مدرسة الطائفية الحاقدة على كل ما يمت إلى العروبة والإسلام بصلة... وما أظن أبالسة بني صهيون يهبطون إلى الدركات التي هبط إليها حافظ أسد وجلاوزته وجلادوه وهراطقته...
وقد عبر مؤلف هذا الكتاب عن هذه الحقيقة المرة بكلمات جاءت عفو الخاطر، ولكنها مشحونة بما لقيته البشرية من ألوان العذاب والاضطهاد عبر القرون، فلا محاكم التفتيش، ولا مجاهل سيبيريا، ولا جرائم

الصهاينة، تعد شيئاً إذا قيست بما يجري في ذلك السجن الرهيب الرعيب القابع في عمق بادية الشام، في تدمر الحمراء الصفراء البتراء...
ولهذا جاءت كلمات المؤلف ذات تأثير من نوع خاص، لأنها محمولة على أجنحة الصدق الصدوق، بعيدة من كل غلو أو مغالاة أو تضخيم، فهو لم يكتب إلا عن بعض ما عانى أو شاهد ولمس أو سمع... فكان ما كتبه هو الصدق الصرف في التجربة المذبوحة، والمعاناة الملتهبة...
تبت يدا أبي لهب وتب... فقد أودى بحياة الآلاف المؤلفة من صفوة الشعب السوري المجاهد، في أقباء سجونه ومعتقلاته، في تدمر، في المخابرات العسكرية، في معتقلات سرايا الدفاع، في سجون الوحدات الخاصة، في جحيم مخابرات القوى الجوية، في أقباء أمن الدولة، في فرع فلسطين، في الفرع الداخلي، في سجون المخابرات العامة والأمن السياسي، في عشرات السجون التي ابتناها الطائفيون في سائر المدن السورية، لتتسع لعشرات الآلاف من أبناء الشعب السوري المصابر...
تبت يدا أبي لهب وتب... فقد سجلنا أكثر من خمسين ألف شهيد في حماة وحلب وحمص ودمشق وتدمر واللاذقية وإدلب وجسر الشغور ودير الزور والرقة والطبقة، وفي كل قرية سورية، فقد عمت المأساة الريف والمدن، ودخلت كل بيت، فرملت ويتمت وأثكلت وروعت، وما تزال تعتقل وتقتل وتروع، إرضاء لبني عمومة أبي الجهالات في تل أبيب وأوكار الماسونية الصهيونية اليهودية الصليبية الطائفية التي تنزّ أحقاداً سوداً على هذه الأمة... أحقادا تاريخية، تمثلت في ما جرى وما يزال يجري في سجن العذاب والموت في تدمر...
لقد توقف الكاتب عند سنة 1984 وقد كانت المجزرة مستمرة، وكانت الكوارث والمآسي التي ينزلها الباطنيون بأسراهم في سجن تدمر خاصة، ما تزال على أشدها... فالبطش والتنكيل وألوان التعذيب ينزلها الباطنيون في كل لحظة، على أحبتنا المؤمنين هناك، وما سمعناه من بعض من أفرج عنهم في هذا العام (1991) يفوق كل تصور، بحيث يجعلني أزعم، أن ما ورد

في هذا الكتاب كان- وهو يكتب عن معاناته فيه- يلحظ أعصاب القراء، فلا يريد تحطيم أعصابهم وأعصاب ذوي المعتقلين الذين لا يعرفون عنهم شيئاً منذ اثنتي عشرة سنة... لا يريد تحطيم قرائه بنقل الصور الفاجعة التي عاناها شخصيا، أو رآها تمثل أمامه في أقسى تراجيديا يمكن أن تخطر على بال الأبالسة... وربما كان يخشى ألا يصدقه الناس فيما يروي، وربما لاعتبارات أخرى لا نعلمها، ولا نرغب في أن نخمنها...

ما جرى وما يزال يجري في سجن تدمر أعصى من أن يحيط به وصف من شعر أو نثر، ولقد قرأت كتاب الأستاذ خالد فاضل: (في القاع... سنتان في سجن تدمر العسكري الصحراوي)، ولكن ما سمعته منه، من الأستاذ خالد، كان يفوق كثيراً ما قرأته في كتابه... ومعاناة الذين جاءوا من بعده، كانت أقسى بكثير مما رواه مؤلف هذا الكتاب، ومؤلف (في القاع).

وأخيراً...

لابد لي من توجيه الدعوة إلى كل من كان يموت في ذلك السجن عشرات المرات في ليله ونهاره، إن كان في سجن تدمر نهارات، ثم من الله عليه بالفرج، أن يبادر إلى تسجيل ما مر به من ألوان النكال والعذاب على أيدي القرامطة الجدد، ورّاث الأحقاد التاريخية، وخونة هذه الأمة، من أجل التأريخ لهذه المرحلة العصيبة الدقيقة من حياة الشعب والأرض والوطن، لتكتمل الصورة، بتكامل الشهادات، وليس لأحد عذر في أن يكتم شهادته، مهما تكن ظروفه، إذ لا يمكن لواحد واثنين وعشرة وعشرين ممن كتب الله لهم الحياة وخرجوا من سجن الموت ذاك، أن يفوا الصورة حقها، أو أن يحيطوا بكل ما كان يجري...

لقد كانت المؤامرة على الشعب السوري خاصة، كبيرة ومتشعبة، لأن اليهود ومن يسير في ركابهم وتحت ألويتهم، يعرفون طبيعة هذا الشعب، وجهاده، وبذله وتضحيته، لذلك تآمروا عليه، وأغرقوه في حمامات الدم، وصولاً إلى تهجينه وتدجينه، وعندها، لم تقوم للعرب قائمة، فالشعب الذي لم يلق السلاح يوماً قد ألقاه، بعدما حكم الطائفيون على كل من توجد لديه قطعة سلاح بالإعدام...ظنوا أنهم قد دجنوه... وخسئوا... فهذا الشعب الذي يئن تحت وطأة الجزارين الطائفيين،

سوف ينتفض من أوباش القرن العشرين ولن يكون مطية لمستعمر أو عميل.. ويسألون: متى هو؟ قل عسى أن يكون قريباً...
أليس الصبح بقريب؟.

20/10/1992 عبود بن الشيخ

كلمة شكر
ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين).
الحمد لله الذي من علي بالنجاة من أيدي الظالمين بعد سنوات عجاف من العذاب في سجونهم المظلمة، كما أحمده تعالى على إنجاز هذا العمل، كما لا يسعني أيضاً إلا أن أتوجه بالشكر الجزيل لجميع إخواني الذين ساهموا معي سواء الذين شجعوني أو أمدوني بالمعلومات اللازمة والذين ساهموا بكتابة بعض الفصول وإعادة صياغة وتصحيح ما كتبته، والذين قاموا بتصحيح الأخطاء اللغوية والمطبعية، وإذا لمس القارئ مسحة احترافية بالكتابة فالفضل بذلك يعود بعد الله للأخوة الذين أسهموا بذلك.
كما أوجه شكري لإخواني الذين ساهموا بطباعة ونشر الكتاب لهم مني جميعاً جزيل الشكر سائلاً المولى أن يتقبل منهم جهودهم وأن يجعلها بميزان حسناتهم يوم الفزع الأكبر يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مقدمة المؤلف
الحمد لله، نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.
يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون).
يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءا واتقوا

الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً) (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً).

أما بعد، فلا يخفى على أحد أن عالمنا الإسلامي يواجه أحداثاً يشيب لهولها الولدان، فقد افتتح القرن الحالي (القرن العشرون) بإسقاط الخلافة الإسلامية، ثم توسطته نكبة فلسطين، وأخيرا جاءت مأساة الخليج، وبين كل نكبة وأخرى العديد من النكبات والكوارث في شتى بلاد المسلمين.

وبلاد الشام كنانة الله في أرضه، قد نالت حظاً وافراً من تلك النكبات، فمأساة فلسطين ما تزال قائمة، والجرح اللبناني مازال ينزف، والباطنيون يسيطرون على عاصمة عمر بن عبد العزيز، لقد وصلت تلك العصابة إلى الحكم عام 1963 ومع الأيام كانت تلك العصابة تزداد إجراماً، حتى إذا جاء عام 1979 وجدنا تلك الفئة المارقة تشن حرباً مكشوفة لاستئصال الإسلام وأهله، فما كان من شباب المسلمين إلا أن يهبوا للدفاع عن دينهم وأعراضهم، فسقط آلاف الشهداء، واعتقلت آلاف أخرى، منهم من قتلهم الظالمون، ومنهم الذين مازالوا يعانون شتى صنوف التعذيب والقهر في أقباء السجون والمعتقلات الرهيبة.

لقد كنت أحد الذين قدر عليهم أن يتعرضوا للاعتقال في سجن تدمر، ذلك السجن الذي أصبح اسمه مشهوراً رعيباً لما ارتكبت داخل أسواره من مجازر بحق أبناء سورية، ولما تعرض له السجناء من ألوان التعذيب والقهر التي تفوق كل وصف.

لقد قدر الله علي أن أقضي عدة سنوات بذلك المعتقل ثم كتب الله لي السلامة من تلك المحنة إذ خرجت مع من خرج... لقد قررت أن أدون ما رأيته وعايشته مع إخواني في ذلك السجن الرهيب، وأنا به رهين، وعندما خرجت وجدت أن أخواني الذين أخلي سبيلهم قبلي قد قاموا بهذا العمل، لقد اطلعت على كتاب (في القاع) للأخ خالد فاضل وقرأت كتاب (تدمر المجزرة المستمرة) فوجدت أن الكتابين يتضمنان الكثير من المعلومات التي كنت أنوي نشرها، كما وجدت أيضا أنهما يفتقدان معلومات أخرى، إضافة لتحليل وتعليل تلك الأحداث.

ومن جهة ثانية، فقد أحببت أن أضيف تجربتي وما تعلمته من تلك المحنة حول أجهزة المخابرات وطريقة عملها، لاعتقادي بأهمية هذا الموضوع لشباب الصحوة الإسلامية، مع تلخيص لبعض الدروس والعبر التي تعلمتها من المحنة.

لقد توخيت الدقة بكل ما كتبته، فلم أدون إلا المعلومات التي تأكدت من صحتها، وعند وجود أي شك بصحة تلك المعلومات فإنني أكتبها بطريقة تتيح للقارئ هامشاً من الشك، وبالنسبة لي فأنا لا أهدف من نشر هذه المعلومات فضح وتعرية ذلك النظام العفن، فهذا أمر مفروغ منه، لأن رائحته النتنة تزكم الأنوف، ويكفينا أن نعرف أن أنصار العدو الصهيوني يبررون جرائم الصهاينة بحق أهلنا داخل الأرض المحتلة وخارجها، من خلال الاستشهاد بجرائم القرامطة الجدد، فكلما وقعوا نتيجة لجريمة ما، فإنهم يبادرون إلى القول: في سورية يحصل كذا وكذا.

وإني لأرجو الله تعالى أن أكون قد وُفقت لتوثيق جزء من محنة المسلمين في سورية، وهو ما يتعلق بسجن تدمر، فإن أحسنت فبفضل الله وتوفيقه، وإن أخطأت فمن نفسي، وأسأله تعالى العفو المغفرة.

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به، واعف عنا، واغفر لنا، وارحمنا، أنت مولانا، فانصرنا على القوم الكافرين). (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب). وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الاعتقال

الظلام حالك، الأيام تسير ببطء شديد، لقد تغيرت الدنيا حولنا فالوجوه لم تعد كما كانت بالأمس القريب واختفى معظم الشباب من المساجد كما توقفت الدروس وجلسات العلم، وغاب عدد كبير من الأخوة الذين أعرفهم منذ نعومة أظفاري، استشهد بعضهم في العمليات الاستشهادية، وآخرون فروا بدينهم خارج البلاد، وبعضهم توارى عن الأنظار، وربما التحقوا بالمجاهدين، لأنهم أصبحوا في قائمة الملاحقين، وقسم كبير آخر يغيب في قاع السجون، لا يعلم أحد

بحالهم إلا الله... لقد تحولت البلاد لسجن كبير، إذ لا يجرؤ أحد أن يزور إخوانه أو الاتصال بهم، فأجهزة الأمن ترصد حركات الناس وسكناتهم، ومن يعلم؟ فلعل المخابرات يحتلون منزل ذلك الأخ الذي يرغب المرء في زيارته فيصطادوا كل من يأتي إليه؟.

وتمر الأيام وكأنها كابوس مخيف يجثم فوق صدور الناس، يا الله!! لقد طال ليل الظالمين، وادلهمّ الخطب، فعلميات الاعتقال شملت القاصي والداني، من له علاقة بالمجاهدين ومن ليس له علاقة، فالسلطة الباغية تأخذ الناس بالشبهات، ومن يعتقل لا يعلم أحد إلا الله بمصيره، دوريات المخابرات الراجلة والمحمولة موجودة في كل مكان، والحواجز الثابتة والطيارة تحيط المدن، وتنتشر بداخلها، الناس يعيشون بهاجس دائم، فشبح المخابرات، والاعتقال، وأعمال القتل، والمداهمات تسيطر على الجميع.

وسط هذا الجو المشحون بالخوف والرعب يفكر الإنسان فلا يرى طريقاً للخلاص إلا الفرار بدينه أو الالتحاق بالمجاهدين، حتى لا يقع رخيصاً بأيدي الظالمين كنت مثل غيري من الناس أعيش بوساوس وهواجس لا تفارقني في ليل أو نهار وأدعوا الله وأرجوه أن يعمي أبصار الظالمين عنا فلا ينالنا منهم شر. ولكن لا أحد يعلم ما تخبئه الأقدار وماذا ينتظرنا في مستقبل الأيام. وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }لقمان 34، وفجأة وقع المحذور عندما جاءت دورية المخابرات لمنزلنا قبل آذان الفجر، واقتحموا المنزل دون أي إنذار، فلم أجدهم إلا فوق رأسي، لقد اندفع أولئك الأوغاد داخل البيت، وباشروا بالتفتيش، استيقظت من نومي، فطلبوا مني رفع يدي مستسلماً، ثم فتشوا جميع الغرف جيدا، لعلهم يعثرون على كنز ثمين، لكن الله سلم لقد كنت في غاية الحذر؛ فقد عمدت إلى إتلاف كل ما من شأنه أن يجر علينا أو على غيرنا البلاء، وأخفيت جميع كتبي الإسلامية، كما أتلفت جميع الرسائل والصور وبطاقات التهاني، وأخفيت أشرطة التسجيل المتعلقة بالمجاهدين، ولم أترك أي شيء يثير الشبهة، أو يمكن أن يكون ممسكاً له دلالته عند أجهزة القمع.

بعد أن أنهوا التفتيش، طلبوا مني الخروج، وهكذا قادوني معهم. في هذه الأثناء أخذت تدور برأسي الكثير من الأفكار المختلفة والمتناقضة، وعبثاً حاولت إقناع نفسي أن فترة الاعتقال لن تدوم طويلا، ربما عدة أيام أعود بعدها إلى البيت، كما حصل مع بعض الناس. أليس كذلك؟ فأنا لا علاقة لي بالمجاهدين، وربما كان الأمر لا يعدو كونه تقريرا لأحد المخبرين. نعم إذا كان همّ السلطة اعتقال الناس كيفما اتفق، فالشوارع مليئة بالناس... ألا يستطيعون أن يفعلوا ذلك؟ ماذا يستفيدون لو فعلوه؟ وأخيرا سلمت أمري لله، وباشرت بقراءتي سورتي يس والواقعة، وتوجهت إلى الله بالدعاء، سائلاً إياه السلامة.
لقد أجلستُ بمقعد السيارة الخلفي، وجلس عن يميني ويساري اثنان من عناصر المخابرات، يحملان بنادقهما بينما جلس بالمقعد الأمامي السائق مع رئيس الدورية، وانطلقت سيارتنا بالمقدمة، ترافقها سيارة جيب، تحمل خمسة عناصر آخرين تمنيت أن تطول الرحلة فلا نصل إلى فرع المخابرات، أو نصطدم بسيارة أخرى فيموت الجميع، ولكن هيهات؟؟ هيهات؟؟
ما كل ما يتمناه المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن
هاهي ذي القافلة تصل إلى فرع المخابرات الذي طالما سمعنا به والذي بات اسمه يثير الرعب والخوف في نفوس الناس، فكيف بمن يدخل ذلك المكان اللعين كمعتقل؟ عند ذلك توجهت إلى الله بالدعاء: (اللهم إني أعوذ بك من شر هذا المكان وشر ما فيه ومن فيه).

التحقيق
وصلت القافلة إلى فرع المخابرات الذي أحيط من جميع جوانبه بالحراسة المشددة، وأقيمت المتاريس والحواجز الإسمنتية، وتحصن الجنود خلف أكياس الرمل، وكأنهم في خط الدفاع الأول في الجبهة: نعم، لقد أصبحت الجبهة بالنسبة للنظام هذه الأيام هنا داخل البلاد وأصبح الشعب عدوا لذلك النظام، وما على السلطة الباغية إلا أن تعد للأمر عدته.
دخلت القافلة ذلك المكان المشؤوم، وهناك وقعت الطامة الكبرى، إذ ما إن نزلت السيارة حتى انهالت علي

اللكمات، وأصبت بالذهول لهول المفاجأة، وطلبوا مني الوقوف جانبا متوجها للحائط. في هذه الأثناء، جاءني أحد العناصر يفتشني، متحسسا أماكن الجيوب... لقد سالت الدماء من أنفي وأسناني نتيجة الضرب، ومن الغرفة المجاورة كنت أسمع صوت أحد المعتقلين يصرخ ويستغيث من شدة التعذيب، بقيت على هذه الحالة مدة من الزمن، واقترب مني أحد الضباط، وسألني عن اسمي قائلا: (شو اسمك ولك حقير) فأعطيته اسمي، فنادى عناصره الذين أحضروا الغمامات(1). فوضعوها على عيني وجاءوا بالقيود الحديدية التي قيدوا بها يدي، وأدخلوني لإحدى الغرف وانصرفوا.
أنا الآن في غرفة التحقيق التي طالما سمعنا عنها هناك في الخارج، بادرني المحقق بالسؤال عن اسمي وعنواني ومهنتي وأفراد أسرتي، ثم انتقل بعد ذلك بسرعة سؤالي، فقال لي: (إيه يا فلان أنت إنسان بتفهم وأنت إنسان عاقل ومحترم وأعتقد أنك لن تحيج نفسك للإهانة ولن تحيجنا لتعذيبك).
فأجبته: كما تريد... قال لي: إذا عليك أن تخبرنا عن كل ما تعرفه عن أبي فلان وعلاقتك به، فسألته: من هو ابن فلان، قال لي: يبدو أن المعاملة الحسنة لن تجدي معك، فنادى كلابه، وطلب مني إخراجي من الغرفة قائلاً: خذوه.
لم أسمع أي كلمة أخرى، ولا أعلم إن قد أشار عليهم بشيء آخر. المهم: أمسكني أحدهم من رقبتي، كما تمسك الشاة التي تؤخذ للذبح، وأخرجني لغرفة أخرى في الجهة المقابلة، ورفعوا الغمامات عن وجهي... نظرت حولي ويا لهول ما رأيت!!! رأيت أحد المعتقلين قد عري من ملابسه ما عدا السروال الداخلي، قد افترش الأرض وجلده متصبغ باللون الأسود، الجروح والقروح ملأت جسمه حتى ظهر العظم من بعض الأماكن، والدم ينزف من جروحه، وربما كان في حالة غيبوبة، ولم يكن يصدر منه أي صوت سوى التنفس. وجلس إلى جانبيه أحد العناصر يدهن له جسمه بقطعة من القطن عليها مادة مطهرة.
دخل الغرفة أحدهم، ويبدو أنه ضابط، فقال لي: انظر... ستصبح مثله إذا لم تعترف بالتي هي أحسن، فالأفضل لك أن تعترف، حتى لا ترى مالا تتوقعه، ولم تسمعه، ثم

تعترف بعد ذلك بالقوة. وتابع بلهجة أقل حدة: لقد جئنا بك إلى هنا كي نسألك بضعة أسئلة، فإن أجبتنا فسنخلي سبيلك حالا، هي ربع ساعة أو نصف ساعة وتكون في بيتك. قلت له: كما تريدون.
نظرت إلى الأرض فرأيتها قد امتلأت ببقع الدم، ورأيت السياط من مختلف الأنواع، وأغلبها من الكبلات الكهربائية الغليظة، وقد برزت ضفائر الأسلاك المعدنية من أطرافها، وشاهدت الدولاب والسلم والحبال والخيزرانات وبساط الريح (عرفت اسمه فيما بعد) وغيرها من أدوات التعذيب الهمجية، فقلت في نفسي: لقد وقعت في الفخ. فقرأت قوله تعالى: (أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة)، وطلب الضابط من زبانيته أن يدخلوني إلى غرفة التحقيق قائلا لهم: (خذوه لعند سيادة المحقق)(2) فأعادوا وضع الغمامة على عيني وأخرجوني إلى الغرفة المقابلة التي يجلس فيها المحقق، فقال لي: (إيه يا فلان ما رأيك الآن)؟ فقلت له: كما تريد. قال: سوف نرى. ثم أعاد علي السؤال: ما علاقتك بأبي فلان؟ قلت له: عندنا في الحي شخص اسمه أبو فلان. سألني: من هو؟ قلت له: اسمه فلان الفلاني، أجابني ليس هو المطلوب قلت له: لا أذكر اسم شخص آخر اسمه هكذا... فقال لي: سوف نريحك، إننا نسألك عن فلان الفلاني الذي يعمل (.....) قلت له: أعرفه، قال لي: عليك أن تشرح لنا ما هي علاقتك به، منذ أن تعرفت عليه حتى اليوم. فأجبته: إنه جاري في الحي، وأشاهده كل يوم، وهو إنسان حسن السمعة، يعرفه كل سكان الحي عندنا، وعلاقتي به علاقة جوار، كما هي علاقتي بجميع سكان منطقتنا.
فلم تعجبه الإجابة، قال لي: لا تتعب نفسك، ولا تحاول أن تخفي شيئاً، فإن فلان عندنا، وقد اعترف بكل شيء.
هنا أخذت أتساءل: هل صحيح ما يقوله هذا الشيطان؟ هل الأخ فلان يكذب ويفتري علي كما يدعي هذا الأفاك اللعين؟ قلت له: وماذا اعترف فلان؟ فليس عندي ما أقوله..
قال لي: هل تريد أن تحقق معنا أم نحن الذين نحقق معك؟ وتابع يقول: يبدو أن (الآدمية لا تجدي معك)(3) فنادى زبانيته وقال لهم: خذوه فاجلدوه... عند ذلك انقض علي الجلادون، ونزعوا ملابسي كلها، باستثناء

السروال الداخلي، ووضعوني في الدولاب، وهو الإطار المطاطي الخارجي لدولاب السيارة، فحصروا جسمي فيه، ورفعوا رجلي للأعلى، ثم انهالوا علي بالضرب المبرح فرحت أصرخ، وأستغيث، والجلادون يرددون (بدك تعترف يا كلب) فقلت لهم: سأعترف بكل شيء أعرفه... فأخرجوني من الدولاب، وأدخلوني غرفة المحقق الذي أعاد السؤال، ورحت أتساءل: هل صحيح ما يقوله هذا اللعين من أن فلان قد اعترف علي؟؟ فالأمر لا يعدو كونه أحد احتمالين:
الأول : أن الأخ قد اعتقل وتحت التعذيب تعرّض لأسمي بأنه يعرفني أو أنه ألصق بي تهمة وهذا ما كنت أسمعه من الناس .
وأما الاحتمال الثاني : وهو الأرجح ، فهو أن الأخ فلان لم يعترف علي بأي شيء ، وأن المحقق قد حصل على تقرير من أحد المخبرين يتهمني فيه بمعرفتي لهذا الأخ ، فربما كان لي صلة تنظيمية به ، وأعرف عنه بعض المعلومات المهمة .
الوقت لا يساعد على التفكير وإجراء المحاكمات العقلية والتحليل والتركيب والاستقراء والاستنتاج ، فلابد للمرء أن يجهز نفسه لغرفة التحقيق قبل دخوله تلك الغرفة الجهنمية ، وعدت بذاكرتي لأقنع نفسي من جديد ، لمعرفتي مدى صلابة وشجاعة الأخ المذكور ، فهو لا يمكن أن يفتري علي كما يدعي هذا اللعين ، إذن فالقضية شبهة ، ولا تعدو أن تكون تقريرا لأحد كلاب السلطة ، فليس أمامي سوى الصبر وتحمل التعذيب ، حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا ، فإما أن يتوقف التعذيب ، بعد أن يقتنع المحقق بأنني لا أعرف شيئا ، أو أن أرزق الشهادة ، وفي كلتا الحالتين (فرج من الله) . نعم ليس لدى المحقق أية معلومات عني ، وعليّ أن لا أفيدهم بشيء، وأخيرا طلب المحقق من زبانيته إعادتي لغرفة التعذيب، وعاد الجلادون لضربي، حتى تورمت قدماي ، فطلبت منهم إعادتي للمحقق، ولكن دون جدوى . وبعد فترة قصيرة، جاء أحد الزبانية وفك القيود عن يديّ، وطلب مني أن ألبس ثيابي، وأمسكني من يدي وأنزلني درجا طويلا، وأدخلني إحدى الزنزانات المنفردة ، وبعد أن نلت نصيبي من الركل واللكم والشتائم . وبعد مدة قصيرة، جاء أحد الجلادين ، وأخرجني من زنزانتي،

فارتعدت أوصالي، وقلت في نفسي : لقد أخرجت للتحقيق أي (للتعذيب) ولكن خاب ظني هذه المرة . فقد أخرجت لغرفة صغيرة يجلس فيها أحد الجلادين الذي سألني عن اسمي وعنواني وبقية المعلومات الشخصية ، وأحضر مظروفا كتب عليه اسمي وعنواني وتاريخ الاعتقال ، ووضع بداخله أغراضي ، وقال لي : إن أغراضك أمانة عندنا (وكأن القوم يعرفون معنى الأمانة) ويمكنك أخذها عندما تخرج من هنا إلى مكان آخر، وسجل قائمة بتلك الأغراض، وطلب مني التوقيع عليها، ثم أعادوني لزنزانتي، كانت بطول 180 سم أو أكثر قليلا، وعرض متر ونصف، وارتفاع حوالي 3 أمتار، وعلى أحد جدرانها مصباح كهربائي محاط بأسلاك معدنية غليظة، كما تحوي على فتحة مرتبطة بجهاز التهوية المركزي، تصدر منها ضوضاء مستمرة، أما بابها فحديدي يحتوي على فتحة صغيرة بقسمه العلوي مربعة الشكل طولها حوالي 30 سم، ولها باب يمكن فتحه وإغلاقه نحو الخارج، يسمونها (الشرّاقة)، ولا يوجد فيها مرحاض ولاصنبور ماء إنما يخرج المعتقلون كل يوم مرتين أو ثلاثة فقط لقضاء الحاجة ، وجلب المياه ، وينالون حظهم من الضرب والتعذيب والتحقير. أما محتويات الزنزانة فهي ثلاث بطانيات مع صحنين بلاستيك يستخدمان للطعام والماء وربما لقضاء الحاجة أيضا، كما حصل مع البعض .

الساعات تمر ببطىء متثاقل، تراودني فيها الكثير من الأمور المرعبة، وكلما سمعت صوتا أو حركة تدل على فتح إحدى الزنزانات المجاورة، سيطر عليّ الرعب، وتسارعت دقات القلب والتنفس، وسمعت قرقرة الأمعاء، وربما شعرت بالحاجة إلى للخروج إلي بيت الخلاء (ولكن لم أجرؤ على طلب ذلك منهم) وتوجهت إلى الله بالدعاء : أن يردّ عني كيد الظالمين وأذاهم، وتسلحت بسور القرآن التي أحفظها، أرددها وأعيدها طوال الوقت. لقد أنهكني التعب والجوع، لأنني لم أتناول طعاما قط .. الساعة الآن تقترب من الثانية بعد الظهر، عندما بدأ الجلادون بتوزيع الطعام للمعتقلين، وكنت من بعيد أسمع أصواتهم يسألون نزلاء الزنازين المجاورة عن عددهم، فيجيبونهم (خمسة وخمسون، سبعة وعشرون وهكذا) فعلمت بوجود الزنزانات

الجماعية في هذا المكان اللعين، وعرفت أنه يضم عددا كبيرا من المعتقلين، فسألت الله الفرج للجميع .
وصل الجلادون للزنازين الانفرادية ، وباشروا توزيع الطعام على نزلائها، حتى وصلوا إلى زنزانتي وطلبوا مني أن أخرج لهم الصحون، فوضعوا فيها الطعام، وأعطوني رغيفين من الخبز، ثم انصرفوا فأكلت وحمدت الله على كل حال، وسألته السلامة والعافية، وأن يلهمني الصبر والثبات في محنتي . نظرت إلى جدران الزنزانة فوجدت عبارة كتب صاحبها فيها : القبلة لهذا الاتجاه فسررت بهما أي سرور، وعدت أتذكر محنتي والتحقيق وما يعده لي هذا المجرم من شباك وخداع ليوقعني فيها، فعزمت على الاستمرار بنفس الاعترافات السابقة، دون زيادة أو نقصان، والخير فيما اختاره الله.
بعد الطعام بفترة قصيرة أخرجوني لقضاء الحاجة فتوضأت وصليت الظهر والعصر، ودعوت الله بما تيسر لي من الدعاء، وقرأت بعض السور التي أحفظها...
وفي المساء، فتح أحد الحراس الشراقة، وسألني عن اسمي، فقد كان يحمل بيده ورقة صغيرة كتب عليها اسمي، فنادى السجان المناوب (وهو ضابط صف) فجاءه بمفتاح، وفتح باب الزنزانة، فخرجت منها، وهنا لا أستطيع وصف مشاعري... لقد سيطر علي الرعب، واضطربت، فطلبت منهم أن يسمحوا لي بدخول دورة المياه فرفضوا، ووضعوا العصابة على عيني، وأمسكني أحدهم من رقبتي، وسار بي حتى وصلنا إلى الدرج فأخذ يقول لي: (اصعد) كلما وصلنا إلى درجة جديدة، حتى وصلنا إلى غرفة المحقق.
أدخلني السجان وانصرف... وها أنا ذا أقف أمام ذلك اللعين الذي أصبح صوته المنكر معروفاً لديّ (إن أنكر الأصوات لصوت الحمير)، أعاد علي كلامه السابق:
فسألته: وبماذا تريد مني أن أعترف؟ فرد علي: إن الطريق أمامك طويل، وعليك أن تقول لي: متى تعرفت على فلان؟ ومن الذي عرّفك عليه؟وما اسم الأشخاص الذين عرّفك عليهم؟ وأين؟ وأسماء أفراد مجموعتك بالتنظيم؟ وما هي المهمات التنظيمية التي قمت بها؟ وأسماء الأشخاص الذين تعرفهم بالتنظيم؟ وتابع يقول: لك أن تبدأ بالإجابة حيث تشاء (فحرية الرأي مصونة عند

القوم!!!!). ولا تظن أننا سنتركك بسهولة، ومازال الطريق أمامك طويلاً، وسوف تتحمل من التعذيب أكثر مما تتصور، وما تعرضت له حتى الآن ليس إلا دغدغة ومزحاُ، أمامك الآن خياران: إما أن تعترف وإما أن تموت هنا يا (.....). فقلت له: لا علاقة لي بالتنظيم ولا أعرف شيئا عن هذه الأسئلة.

أعاد علي نفس الصيغة قائلاً: لا تحاول التملص فلان قد اعترف بكل شيء، وعليك أن تعترف. أجبته: إن فلان قد اعترف على نفسه وإن ذكر عني شيئا فأنا على استعداد لتكذيبه أمامك. عاد ليقول لي: هل تريد أن تحقق معنا أم نحن نحقق معك؟ يبدو أنك لا تريد أن تفهم، ويبدو أن العقل الرحماني لم يأتك بعد (وكأنهم يعرفون الرحمن). ونادى زبانيته ليستأنفوا التعذيب بنفس الطريقة السابقة واستمروا بتعذيبي فترة من الزمن دخل المحقق بعدها لغرفة التعذيب، وتناول السوط بيده، وأخذ يضربني ويسألني.. فرحت في البداية عند دخوله، ظناً مني أنني أمام ضابط كبير، أي أمام إنسان عاقل، ربما يجدي معه العقل والمنطق والحجج، ولكن سرعان ما خاب ظني حين وجدته أسوأ من كلابه، فهو يستعمل أقذر الألفاظ والشتائم الموجودة بقاموسهم الهابط، والتي يعف اللسان عن ذكرها فضلا عن القلم. بعدها باشروا تعذيبي باستعمال الكهرباء فربطوا قطبي المولد بالإبهامين، وكنت أسمع صرير المولد وهو يديره بيده ورحت أرتجف وأصرخ وأستغيث، فانهالوا علي بالسياط، وراحوا يضربوني على ظهري كنت عارياً من جميع الملابس، باستثناء السروال، واستمروا على هذه الحال حتى منتصف الليل، ولكن الله سلم. طلب المحقق إحضار الطبيب الذي أجرى لي فحصاً عادياً، إذ قام بقياس الضغط، وأصغى لدقات القلب، وعد النبضات، فقال لهم: إن حالته أصبحت سيئة، وليس بالإمكان أن يتحمل أكثر من ذلك، فتوقفوا عن تعذيبي. كنت أعلم أن القوم لم يفعلوا ذلك حرصاً منهم على سلامتي، فسلامة المعتقل وحياته لا تساوي عندهم شيئاً، ولكنهم كانوا يظنون أنني أحمل معلومات هامة، وعليهم الحصول عليها بأي طريقة، وإن موتي أو إصابتي بعاهة قد تحول دون حصولهم على تلك

المعلومات القيمة، وعرفت ذلك لاحقاً (ألا ساء ما يحكمون).
طلب المحقق من زبانيته إعادتي للزنزانة قائلا لي: (لنا معك حساب طويل، ولن تخرج من هنا إلا إلى المقبرة يا كلب إذا لم تعترف).
عدت إلى الزنزانة وقد أرهقني التعذيب، ولكن ما أزال أتمالك قواي العقلية، فرحت أفكر بحصيلة ذلك اليوم، فحمدت الله الذي ألهمني الثبات، فلم أتكلم بأي كلمة تكون ممسكاً أو طرف خيط لها ما بعدها ورددت ما أحفظه من كتاب الله، والتجأت إليه بالدعاء راجياً إياه أن يكف عني كيدهم وظلمهم، ويعينني على محنتي، ويرزقني الصبر والثبات وهكذا أعانني الله على قضاء تلك الليلة.
بزغت شمس يوم جديد بعيداً عنا في العالم الخارجي... أحضر الجلادون طعام الإفطار وكان قليلاً من الحلاوة مع وقطعة جبن مثلثة (لافاشكيري) مع كمية من الشاي، بعد الإفطار طلبوا مني الخروج لبيت الخلاء، ليأتي بعدها دور التحقيق. وفتحت زنزانتي، وحضر شخص يحمل الغمامة (والأصفاد) وكالعادة، وضعت الغمامة مع القيود، وساقوني إلى الطابق العلوي، بعدما نلت قسطا من الشتائم والإهانات والركل واللطم، وأسهل بها، مقارنة مع الذي واجهته في ذلك اليوم من تعذيب، ترك آثاراً لا تحصى على جميع أنحاء جسمي، وحفر آثاراً بذاكرتي بل وشخصيتي والتي ستبقى ملازمة لي مدى الحياة. إذ أدخلوني غرفة المحقق الذي بادرني بالسؤال: هل جاءك العقل الرحماني أم مازال الشيطان لابسك؟ فأجبته: لقد جاءني العقل الرحماني.
قال لي: (احك لنا ماذا تعرف) قلت له: لا أعرف شيئاً.
قال لي: إن تعترف نساعدك. أجبته: وبماذا أعترف؟
قال لي: سنسألك شيئاً آخر. فسألني: ماذا تعرف عن فلان؟ وما هي الأحاديث التي كان يتكلم بها بين الناس؟ وما هي الأحاديث التي فاتحك بها؟ ومتى التقيت به آخر مرة؟ وأين؟ ومن هم الأشخاص الذين يترددون عليه؟ وماذا تعرف عن انتماءاته الدينية والسياسية والاجتماعية؟ فأجبته: أعرف أنه إنسان عادي يسكن عندنا بالحي، وجميع أهل الحي عندنا يعرفون بعضهم بعضاً بحكم الجوار، وسمعته طيبة بين الناس، وأما

الأحاديث التي كان يفاتح بها الناس، فإنه كان يحثهم على الصلاة دائما. فلم تعجبه الإجابة، كنت أعرف مقصده تماماً، فهو يريد مني أن أقول: إن صاحبي من الإخوان المسلمين، ليقول لي: وكيف عرفت ذلك؟ وإذن أنت منهم؟ عند ذلك يدخل التحقيق مرحلة جديدة، لأنهم عثروا (على طرف خيط) ولكن الله خيب آمالهم. طلب من زبانيته أن يأخذوني للتعذيب، وقال لهم بالحرف الواحد: خذوه اسلخوه لهذا (ال ع ر ص). هنا ساقني الجلادون وجروني على الأرض ونزعوا مني ملابسي، وأعادوا وضع القيود بيدي، ثم انهالوا عليَّ ضرباً بالكبلات الكهربائية كيفما اتفق وعلى جميع أنحاء جسمي من قمة رأسي حتى أخمص قدمي فأخذت أصرخ وأستغيث قالوا لي: (بدك تعترف يا....) فقلت لهم سأعترف بكل شيء.. سحبوني لغرفة المحقق بعد أن أصبحت عاجزاً عن الوقوف والمشي، سألني ما تقول الآن؟ فأجبته: كما تريد، اكتب ما تشاء وأنا على استعداد لأوقع. فقال: لا أريد منك شيئا سوى أن تقول لي ماذا تعرف، فنحن لا نتهمك بأي تهمة، فنحن نعرف الذين ضربوا وقتلوا وفعلوا، ولكننا نريد منك أن تساعدنا بما تعرفه من معلومات، فإذا قلت لنا الذي تعرفه فإننا سنخلي سبيلك، فنحن نعرف أنك إنسان آدمي وبريء ولا غبار عليك، فلماذا تتعب نفسك وتتعبنا معك؟ قل ما تعرف وخلصنا وخلص حالك.. قلت له: من أين آتيك بالمعلومات التي تريدها؟ لقد قلت لك على كل ما أعرف... صرخ بوجهي: يا... يبدو أنك لا تريد أن تفهم بالتي هي أحسن. ونادى كلابه الذين أمسكوا بيدي، وسحبوني على الأرض، وأدخلوني غرفة التعذيب، وانهالوا علي ضرباً مبرحاً حتى أشرفت على الموت، ولم أعد أقدر على الصراخ عند ذلك دخل المحقق وأمرهم بوقف التعذيب، فتركني الجلادون بعد أن أصبت بجراح كثيرة، ثم انصرف المحقق وحضر بعد ذلك أحد العناصر، وربما كان ممرضاً ومعاه قطنة تحوي مادة مطهرة، وراح يدهن الجروح، وما أكثرها، بعدها دخل المحقق ثانية وحاول هذه المرة أن يتكلم معي بلطافة قائلاً لي: لماذا أحجت نفسك لهذا التعذيب والإهانة، كل ما نحتاجه منك بعض كلمات تعود بعدها إلى بيتك وأهلك، فلماذا تعرض نفسك للتعذيب؟ وتابع يقول: نحن لسنا

جلادين، والضرب والإهانة ليست هدفنا، وإن هدفنا هو حفظ الأمن في البلاد وحماية أرواح المواطنين، وأنت ترى الأعمال التي تقوم بها عصابة الإخوان المسلمين، وعلى كل مواطن يعرف أي شيء مساعدتنا في القضاء على المجرمين، وإلا فإنه متعاون معهم. وتابع محاضرته بتلك العبارات والمزايدات التي تثير الغثيان والاشمئزاز، وانتقل بحديثه إلى السادات وكامب ديفيد وإسرائيل وأمريكا وتآمرهم على جبهة الصمود والتصدي وسورية!!! والهجمة الإمبريالية الشرسة، وأخيرا قال لي: عليك أن تتعاون معنا، وتساعدنا. قلت له: ومن أين آتيك بالمعلومات؟ هل تريد مني أن أفتري على نفسي وعلى غيري؟ قال: لا!! فقط نريد منك أن تقول لنا ما تعرف، وبعدها نطلق سراحك. حاول أن يتظاهر باللين عندما طلب من الممرض أن يدهن لي الجروح، وأن يعطيني الأدوية اللازمة، ففعل ذلك.. طلبت منهم الماء مرتين فأحضروه لي فشربت. تركوني فترة داخل غرفة التعذيب وحيدا أفترش الأرض، ثم جاء أحد الحراس، وفك قيودي والغمامات، وطلب مني أن ألبس ثيابي، فلبست بنطالي، ولم أتمكن من لبس القمصان (الداخلي والخارجي) وأعادوني إلى زنزانتي. هناك وجدت طعام الغداء قد تم توزيعه فلم أتمكن من أكل شيء. حالتي يرثى لها، لا يخلو مكان في جسمي من الأذى من رأسي حتى أسفل قدمي وما تزال علامات ذلك اليوم واضحة على جسمي حتى كتابة هذا الكلام، وفقدت حدة النظر من إحدى عيني، وقدماي متورمتان، لا أقوى على الوقوف والنوم، والألم موجود في كل مكان، والجلد متهتك، والدماء تلطخ جسدي، وظهري متسلخ... في المساء جاء السجان، طلب مني الخروج لقضاء الحاجة، فقلت له: لا أستطيع... قال لي: لن تخرج بعد الآن، وستبقى حتى صباح الغد. وقلت له: وماذا أفعل؟ فأنا لا أقوى على المشي. قال لي (تصطفل)(4) وانصرف. لقد انتهت المرحلة الأولى من التحقيق المسمى مرحلة انتزاع الاعترافات وبعدها دخلت مرحلة جديدة هي تثبيت الاعترافات، جاء أحد السجانين في اليوم الثاني وأعطاني عدة أوراق وقلما وطلب مني الكتابة فسألته: وماذا أكتب ؟ فأجابني: (اكتب من أجل ماذا جئت إلى هنا) فرددت عليه: ولماذا؟ فعقب: هذا يفيدك ومن أجل

مساعدتك!!! فكتبت معلومات مختلفة وركزت خلال كتابتي على أن فلان قد افترى علي، وأنا بريء من أية تهمة...
في اليوم التالي عاد إلي السجان ومعه عدة أوراق وقلم، وقد وضعت على إحدى الأوراق مجموعة أسئلة طالبين مني أن أتكلم عن علاقتي بـ... متى وأين تعرفت عليه؟ ومن هم الأشخاص الذين عرفك عليهم؟ وماذا كان يتكلم معك ومع الناس؟ ومتى التقيت به آخر مرة؟ فأجبت على الأسئلة، وفي مساء ذلك اليوم استدعيت للتحقيق، فارتعدت أوصالي، ورحت أدعو الله بالسلامة، وقفز قلبي إلى حنجرتي هلعاً بما لقيته وألاقيه، دخلت غرفة التحقيق فإذا بي أمام ذلك اللعين ثانية (طبعا كنت مغمض العينيين فعرفته من صوته) قال لي: يبدو أنك لم تفهم حتى الآن بأننا أتينا بك إلى هنا من أجل فلان: وعليك أن تقول لنا كل شيء عنه، أجبته: كما تريد. ثم أمر زبانيته بإعادتي إلى الزنزانة. لم أتعرض لأي ضرب، فحمدت الله، وعلمت أن المحقق قد هزم في الجولة الأولى، وسألت الله الثبات حتى النهاية، وكانت هذه آخر مرة ألتقي بها بذلك الزنيم إذ تولى التحقيق بعد ذلك أشخاص آخرون (لا أعرف أسماؤهم). استمر التحقيق على هذه الشاكلة أي الكتابة ثم الخروج للإجابة على الأسئلة حوالي ثلاثة أسابيع، وبعدها دعيت للإفادة النهائية، عندما أدخلت غرفة التحقيق، فتولاه شخص جديد لم أسمع صوته سابقا، كان يسألني ويصوغ إجاباتي لكاتبه الخاص، كانت الغرفة تحوي عدة أشخاص، تركوني واقفاً طوال مدة التحقيق، وأما الأسئلة التي وجهت إلي، فهي تثير السخرية، كسؤاله إياي عن اسمي وعنواني وأسماء أفراد عائلتي ومهنتي الخ... بعد ذلك باشر بالأسئلة الآتية:
- من تعرف من الإخوان المسلمين؟
قلت له: أعرف الأشخاص الذين أذيعت أسماؤهم بوسائل الإعلام.
- من تعرف غيرهم؟
لا أحد فهم تنظيم سري وليس بإمكان أي إنسان أن يعرف عنهم شيئاً.
-هل فاتحك أحد بالتنظيم في جماعة الإخوان المسلمين؟

فأجبته بالنفي.
- هل أعطاك أحد شيئاً من منشوراتهم؟
لا.
- ما هي الأحزاب والنوادي والجماعات والاتحادات والهيئات التي انتسبت إليها؟
لاشيء.
- من هم أصدقاؤك، ومتى تعرفت عليهم، وما هي انتماءاتهم السياسية؟
ذكرت له أسماء بعض أصدقائي... بالطبع ليس لهم أي انتماء.
- هل قرأت منشورات للإخوان المسلمين؟
لا.
- ماذا تعرف عن تنظيم الإخوان المسلمين؟
ما سمعتُ من وسائل الإعلام.
- ما رأيك الشخصي بتنظيم الإخوان المسلمين؟
كما نسمع عنهم من الراديو ووسائل الإعلام بأنهم يقتلون الأبرياء فهم عصابة قتلة ومجرمين.
ثم انتقلوا بعد ذلك لسؤالي عن الشخص الذي اعتقلت من أجله، وهنا خرج المحقق عن طوره وبدأ يهددني: إذا لم تقل الحقيقة فالدولاب جاهز، وسنسجنك عشر سنوات، فالأفضل لك قول الحقيقة. قلت كما تريدون.
- متى تعرفت على فلان؟
منذ كذا مدة.
- ما هي علاقتك به؟
علاقة جوار. (لم تعجبه الإجابة فهددني).
لاشيء آخر عندي، إذا كان فلان يفتري علي، فأنا على استعداد لمقابلته، وعلى أي حال فهو عندكم ويمكنكم أن تتأكدوا من ذلك.
عاد وسأل: ما هي الأحاديث التي كان يتكلم بها بين الناس؟
- كان يتكلم دائما عن الصلاة.
-ماذا تعرف عن انتمائه السياسي؟
فسألته: الآن هنا أم قبل أن آتي إلى هنا؟
قال لي: (لما كنت بره من زمان)(5).
قلت: أعرف أنه إنسان (كويس وآدمي) سمعته طيبة في الحي، وهو إنسان متدين، وهذا أمر يعرفه عنه جميع سكان الحي.

أخذ يسألني عن بعض الأسماء، لكني لم أعرف أكثر الأسماء التي سئلت عنها، فأجبته بالنفي. وهكذا انتهى التحقيق.
ظننت أنهم سيخلون سبيلي عما قريب، فلاشيء يستدعي الاعتقال. وقّعت على محضر التحقيق، وأعادوني إلى الزنزانة.
من الأحداث الغريبة التي مازلت أذكرها أثناء وجودي بالزنزانة الانفرادية بعد أن نلت قسطاً وافياً من التعذيب أصبت بعدم القدرة على التركيز فقد نمت ذات يوم فترة قصيرة وعندما استيقظت ظننت أن الوقت قد صار متأخراً أي قرب منتصف الليل وبالطبع فإن المرء لا يستطيع أن يميز الليل من النهار أثناء وجوده في أقباء المخابرات فجميع فروعها تتصف بنفس التصميم فالسجن يكون في الطابق السفلي تحت الأرض وأما بقية الطوابق فهي عبارة عن غرف ومكاتب للضباط وباقي الموظفين العاملين بالفرع. بالتالي فإن نزلاء تلك الكهوف المظلمة لا يختلفون عن سكان القبور.
بعد استيقاظي تيممت وصليت الظهر والعصر والمغرب والعشاء، عندها بدأ الجلادون بتوزيع طعام الغداء فعرفت عندها أن الوقت ظهر هكذا كنت أشعر أن الساعات تمر ببطء شديد حتى يخيل إلي أن الساعة تعادل نهاراً كاملاً.

في الزنزانة الجماعية

بعد ذلك أخرجوني من الانفرادية إلى إحدى الزنزانات الجماعية وهي عبارة عن غرفة مساحتها 61 متراً تقريباً ويحتجز بها حوالي 25 سجيناً من مختلف الأعمار ومختلف الفئات السياسية، وإن كان أكثرهم من الإسلاميين. لا تحوي صنابير ماء أو مراحيض، إنما كنا نعامل بنفس الطريقة الانفرادية، فكانوا يخرجوننا مرتين أو ثلاثاً لقضاء الحاجة. لقد فاحت منا الروائح الكريهة المتعفنة، لأننا لم نستحم طوال هذه المدة، ولم نعرف النظافة، ولا أشعة الشمس أيضا. لقد اغتنمت مرة فرصة خروجنا لدورات المياه، فخلعت ملابسي، وصببت الماء البارد فوق جسمي، وعندما خرجت، كان أحد الجلادين في انتظاري، فانهال علي ضرباً بالسلك الكهربائي الغليظ، موقعا بي أشد الألم. وقال لي: يا

(...) تريد التكلم مع السجناء الآخرين؟ لقد كان ذلك حجة تذرع بها لإهانتي وضربي وما أكثر تلك الفصول.
قضيت مدة في العذاب بالزنزانة الجماعية، عانيت خلالها من الآلام بسبب تقيح الجروح والتهاباتها نتيجة الإهمال والقذارة، فكنت لا أستطيع النوم نتيجة الازدحام، حتى دعوت الله أن يفرج عني، سواء من المعتقل أو إلى سجن آخر، عسى أن يكون أريح من هذا المكان.
وأخيراً نقلنا إلى سجن تدمر، لنتحسر على الأيام التي قضيناها بفرع المخابرات، رغم ما فيها من أهوال ومشقات، وأخذت أدعو الله بهذا الدعاء (اللهم الطف بنا فيما جرت به المقادير، اللهم لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه) فالأمور نسبية، ومهما تكن المحنة قاسية، فإن هناك ما هو أشد وأنكى.
قبل أن أنتقل للحديث عن سجن تدمر، لابد لي أن أتحدث قليلاً عن التحقيق وأساليب المحققين للإيقاع بالمعتقل، ثم طرق التعذيب المتبعة، ليعرفها شباب الصحوة الإسلامية . لقد بين لنا القرآن أهمية معرفة أساليب الأعداء. إذ يقول تعالى: (ونفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين) كما أفاض القرآن بوصف أحوال الكفار على اختلاف مللهم وكذلك المنافقين حتى يكون المسلمون على بينة من ذلك.

ملاحظات هامة حول التحقيق
يتظاهر المحققون عادة بأنهم يعرفون كل شيء عن المعتقل، فهم يحاولون إيهامه بأن جميع أموره باتت معروفة، إلا إذا كان التظاهر بالجهل أكثر فائدة، وهذا قد يحصل في حالات نادرة جدا.
كما يسعى المحققون لتضليل الضحية أثناء التحقيق بشتى الطرق، وحقيقة الأمر أنهم لا يعرفون شيئا في الغالب، وربما عرفوا شيئا يسيراً، أو لديهم بعض الشكوك، وهذا ما يعرف بالاشتباه.
وفي حالة كون المعتقل مشتبها به، فان الذي ينفي أو يثبت الشبهة، ويقود لمعرفة المزيد من المعلومات عن المعتقل، هي غرفة التحقيق، واعترافات المعتقل هي الفيصل النهائي في هذه الحالة . وقبل أن نمضي بعيد ا في هذا المجال، لابد لنا من ذكر بعض الحالات التي يكون فيها الضحية مشتبها به.

دواعي الشبهة لدى أجهزة الأمن:
1- معظم تقارير المخبرين حول الأشخاص، والتي ترد لإدارة فرع المخابرات، لأنه في حالات نادرة يفلح المخبر في استدراج الضحية بالكلام، وأحيانا بالحصول على أدلة ملموسة، كالمنشورات أو السلاح أو أن يفاتح الضحية ذلك المخبر بأمر التنظيم، أو يستدرجه للتورط بعمل ما، فيلقي عليه القبض متلبسا بالتهمة.
2- وجود علاقة قربى أو صداقة بين الشخص المشتبه به، وبين أحد الناس المعروفين بانتماءاتهم السياسية المناوئة للسلطة.
3- إذا ذكر أحد المعتقلين أثناء التحقيق اسم شخص ما، ونسب إليه أية تهمة، خاصة في حالة عدم وجود صلة تنظيمية بين الشخصين لأن المحققين يوجهون لكل معتقل السؤال التالي : من تعرف من أفراد التنظيم؟ وذلك بعد الانتهاء من الأسئلة المتعلقة به، وعادة يلقي المعتقل التهم جزافا في هذه الحالة، ليتخلص من التعذيب، وهذا أمر يعرفه المحققون، لذلك يعتبر المعتقل في هذه الحالة (مشتبها به). وحتى في حالة وجود صلة تنظيمية بين الشخصين فيمكن للمتهم نفي التهمة، بثباته أمام التعذيب، فاعتراف أحد الأشخاص ليس دليلا قطعيا، إلا إذا تواترت الاعترافات، فان التهمة تصبح مثبتة ولا مجال لإنكارها.
4- عند العثور على بعض المستمسكات المادية، كوجود المنشورات أو الكتب الممنوعة عند المتهم، أو وجود المتهم مع أحد الملاحقين، أو وجود صورته مع صور الناس المعروفين بانتماءاتهم السياسية والتنظيمية.
5- قيام الشخص ببعض الأمور المثيرة للشبهة أثناء الحوادث، كالاشتراك بالمظاهرات، أو الوقوف بمكان يثير الشبهة، أو القيام ببعض الممنوعات الأمنية كالتصوير قرب المواقع العسكرية، أو وجود الشخص بمكان حصلت فيه بعض الأعمال المخلة بالأمن كالاغتيالات، وهكذا نرى أن دواعي الشبهة كثيرة، ولذلك لجأت المخابرات أثناء الحوادث، خاصة خلال الأعوام 79-80-81 لاعتقال الناس كيفما اتفق، كاعتقال أحد الناس من الشارع، لكونه ملتحيا أو لمجرد قدومه إلي المسجد، كما حدث ببداية حزيران عام 1980 عندما قامت

المخابرات العسكرية بمداهمة مساجد دمشق(راجع فصل مداهمة مسجد دمشق).
ولجأت المخابرات والوحدات الخاصة لاعتقال كثير من سكان الحي، ومن يرد إليه، لمجرد وجود قاعدة للمجاهدين في تلك المنطقة، وهذا ما حصل بمدينتي حلب، وحماة، وحتى في دمشق، عندما قامت المخابرات العسكرية بمحاصرة حي القزاز، واعتقال كثير من سكانه، وكل من وصل إليه في صيف عام 1980 وأما المجرم غازي كنعان(6) فأمر زبانيته باعتقال الناس من الشوارع اعتقالاً عشوائياً كل يوم للتحقيق، وتعرض الكثير من سكان حماة للاعتقال والتحقيق في الأعوام الماضية، لذلك، لا مجال لحصر أسباب الشبهة، وما ورد هنا مجرد أمثلة فقط، ولابد للمعتقل من معرفة ظروف اعتقاله، (أي سبب الاعتقال، وماذا يعرف المحقق من أمره ليتمكن من الإجابة على الأسئلة التي تعرض عليه أثناء التحقيق).

كيف يعرف المعتقل دواعي اعتقاله:
قد يصعب ذلك في بعض الأحيان، فأجهزة الأمن تحرص على إخفاء تلك الأمور، وتضليل المعتقل، ليتسنى لهم انتزاع كل المعلومات التي يعرفها، والأمر في غاية السهولة، إذا كان الشخص لا يعرف شيئاً، ولا يرتبط بأي عمل تنظيمي، فتكون نتيجة التحقيق صفراً. أو يعترف نتيجة التعذيب باعترافات مضللة قد تتمسك بها المخابرات، وقد يعرف المحققون أنها لا أساس لها من الصحة، وإنما كانت نتيجة التعذيب، وقد ترفض الاعترافات عند وجود أدلة مؤكدة بنفيها. أضرب مثلاً لذلك أن أحد السجناء بفرع أمن الدولة بحلب، اعترف أنه نفذ عملية اغتيال لأحد رموز السلطة، وكانت تلك العملية قد نفذت أثناء فترة اعتقاله!!!.
أما في حالة كون المعتقل له علاقة ما، فهذا قد يُصعّب عليه أحياناً معرفة ظروف اعتقاله، خاصة إذا وجد التسيب الأمني والاستهتار ضمن الجماعة.

من صور التسيّب الأمني:
وجود علاقات جانبية بين أفراد الجماعة، بحيث يكون الشخص معروفاً لدى أفراد مجموعات أخرى غير

مجموعته، إما بسبب الانتقال من أسرة لأخرى، أو بسبب مشاركة أفراد المجموعات الأخرى، في اجتماعاتهم أو نشاطاتهم المختلفة، أو المشاركة بالمناسبات الاجتماعية والحفلات والرحلات وحضور الدروس العامة.. إلخ..

ومما يزيد الطين بلّة (كما يقال) استعمال الكاميرات وتدوين الأسماء والعناوين، وحصول المراسلات بين أولئك الأشخاص، وتكون الطامة الكبرى إذا كان أولئك الأفراد الذين تعارفوا على بعضهم البعض، يسكنون في مدن بعيدة عن بعضها البعض، ومثل هذه العلاقات الفوضوية تحصل بين طلاب الجامعات أثناء فترة الدراسة، عندما يعتقل أحد الأشخاص في مدينة ما دون أن يعلم معارفه بالمدن الأخرى، ومما يزيد البلاء أو يجعل أو يجعل الكارثة أعظم، أن تتحول الأمور التنظيمية لمسائل عادية يفاتح بها الشخص كل من يعرفهم، ولمجرد ثقته بهم، لاعتقاده أن كونهم من المسلمين يبرر ذلك، فيصبح الشخص في هذه الحالة يعرف من أمور العمل الإسلامي الكثير من المعلومات، سواء كانت تعنيه أو لا تعنيه... وربما كانت فضولية بعض الأشخاص تدفعهم لمعرفة المزيد من الأمور، وكلما عرفوا شيئا فتحت لهم أبواب جديدة للتساؤلات عن أمور أخرى وهكذا...

ومن أشكال التسيب الأمني أيضا: ألا يضبط الشخص لسانه، فيتكلم بأسرار العمل الإسلامي هنا وهناك بقصد التفاخر.

ومما يسبب التسيب الأمني. أن يكلف الشخص بمهمات أكبر من قدراته، أو أن يكلف عدد كبير من الأفراد بمهمة يمكن إنجازها بعدد قليل من الناس.

ومن مظاهر التسيب الأمني أيضا أن يعرف الشخص الكثير من المعلومات والأشخاص ضمن الجماعة، خاصة إذا كان ذلك الشخص ممن يتوقع وقوعهم بيد الأعداء، كالملاحقين، أو الذين اعتقلوا سابقا، أو الأشخاص المعروفين لدى العدو بسبب بروزهم بمجال الدعوة أو الكتابة أو الخطابة.

ومن صور التسيب أيضا: عدم المحافظة على أمن الوثائق التي تخص العمل الإسلامي، ومنها أيضاً:

علاقات وصلات قوية مع الفوضويين والمشبوهين الحمقى والسذج.

كيف يمكن تحقيق الانضباط الأمني: -
1- عدم السماح بوجود علاقات جانبية بين أفراد الجماعة، أي أن تكون العلاقة التنظيمية محدودة، ومنضبطة، وذلك بمنع كل ما يؤدي إلى إيجاد العلاقات الفوضوية، مع توعية أفراد الجماعة بصورة مستمرة لمخاطر السلوك غير المنضبط.
2- أن تكون المعرفة بقدر الحاجة فقط، فلا يعرف الشخص أية معلومات لا تتعلق بمهنته. أي على الشخص ألا يعرف أن أمور الجماعة إلا ما يساعده على أداء عمله، فلا مجال للفوضوية ضمن العمل الإسلامي التنظيمي، آخذين بهذه القاعدة التنظيمية المهمة جداً: "تُعطى المعلومات حسب الحاجة، وليس حسب الثقة".
3- ضرورة حفظ اللسان أمام جميع الناس، ولو كانوا موثوقين، فقد يتعرضون للاعتقال والتعذيب، أو لا يضبطون ألسنتهم والمثل العربي يقول: من مأمنه يؤتى الحذر... لذا ينبغي الحذر في جميع الأحوال وعدم الركون إلى الاطمئنان.
4- تكليف الأشخاص بمهمات تناسب قدراتهم.
5- إبعاد الأشخاص الفضوليين والفوضويين والحمقى والسذج عن المراكز الحساسة بالعمل الإسلامي التنظيمي، مع تنبيه أفراد الجماعة بالابتعاد عن المشبوهين.
6- المحافظة على أمن الأشخاص، وخاصة الشخصيات القيادية، والرؤوس المدبرة للعمل، مع السعي الدائم لإخفاء تلك الشخصيات، وعدم كشفها، والاكتفاء بكشف بعض الرموز المعروفة والمكشوفة سابقاً، لضرورة العمل فقط؛ إذ لا يمكن لأي جماعة أن تكون جميع عناصرها سرية، ولابد للناس من معرفة بعض الرموز.
7- الاعتماد على الحفظ والذاكرة ما استطاع الأخ إلى ذلك سبيلاً، وعدم اللجوء للكتابة إلا في حالات الضرورة القصوى، مع استعمال الشيفرات قدر المستطاع، خاصة في الظروف الحرجة.
8- المحافظة على أمن الوثائق، وذلك باستعمال الشيفرات ما أمكن، مع وضع الوثائق في أماكن يصعب

على العدو كشفها، كأن توضع عند أشخاص غير معروفين لدى أعضاء الجماعة، أو خارج البلاد، مع أخذ كافة الاحتياطات لإتلافها عند اللزوم، حتى لا تقع بيد العدو..

9- عدم الاحتفاظ بالرسائل والصور والمذكرات اليومية، التي تحتوي أسماء لأشخاص أو عناوين أو أرقام الهواتف، فعند وقوع الخطر، تصبح تلك المواد صيداً ثميناً يمكن العدو من معرفة جميع الأشخاص الذين يتربصون بذلك الشخص.

ومن الأمور البسيطة التي ينبغي أن ينتبه إليها الجميع، عدم كتابة أي شيء على الكتب التي يقتنيها الشخص، مع عدم كتابة أي شيء على أي كتاب يقوم بإهدائه لغيره، لأنه في مثل هذه الحالات، يسهل على الشخص أن يرد ذلك الكتاب لنفسه دون أي إشكال.

10- ضرورة تدريب جميع أعضاء الجماعة على الانضباط الأمني، بدءاً من أبسط الأمور حتى أشدها تعقيداً، ليصبح ذلك عادة وملكة يتصف بها الجميع، مع توعية أفراد الجماعة لطرق المخابرات وأساليب عملها، للكشف عن خصومها واعتقالهم، والتحقيق معهم، حتى يسهل على أفراد الجماعة تجنب كل ما من شأنه أن يؤدي إلى وقوعهم بيد العدو، وإذا ما حصل ذلك، فإن الخسائر تكون في حدودها الدنيا التي لا تؤثر على سير العمل، إذ لا يمكننا أن نتوقع عملا ما دون أخطاء أو تضحيات، فوجود الخطأ يعتبر دليلاً على وجود العمل، ومن لا يعمل لا يخطئ ولا يصيب.

أساليب المحققين:

إن كل ما ذكرناه سابقا ليس إلا مقدمة لابد منها، وهي عوامل مساعدة ووقائية لتجنب كل ما من شأنه أن يفيد الطغاة. لو قدر الاعتقال على أحد لسبب ما، وهو أمر يجب افتراضه دائما، وخاصة إذا كان العمل الإسلامي يأخذ طابع المواجهة والجهاد(7)، وهذا ما يجب أن يكون عليه العمل الإسلامي في هذه المرحلة في بعض البلاد الإسلامية كسورية، وحتى إذا كان العمل الإسلامي سلمياً، فيجب افتراض قيام الأعداء بعمليات الاعتقال لتحجيم العمل الإسلامي، فالطغاة لن يتركونا نكمل

مسيرة الدعوة وإصلاح الأمة، فماذا ينبغي على المعتقل أن يفعله لتكون الخسائر في حدودها الدنيا؟
يجب على المعتقل أن يعرف ظروف اعتقاله، وما هي المعلومات التي يعرفها المجرمون عنه، فإذا تيقن من اعتقاله لسبب الشبهة، فعليه أن يعلم أن العدو لا يعلم من أمره شيئاً، وإن لاعترافه القول الفصل، فإما أن تتحول الشبهة لذنب أو جريمة، أو تتحول لبراءة من الاتهام، ويتظاهر المحققون عادة بأنهم يعرفون كل شيء، فلا فائدة من الإنكار. ويقولون: إن تتكلم نساعدك. وربما ألقوا ببعض المعلومات المعروفة لديهم، كطعم لخداع المعتقل بأنهم يعرفون ويعرفون، وقد يوجهون أسئلة محددة لإقناع المعتقل بأنهم يعرفون من أمره شيئاً، كأن يقولوا له: حدثنا عن علاقتك بفلان، وتكون تلك المعلومات قد وصلت إليهم عن طريق المخبرين، أي أنهم غير متيقنين من صحتها، وربما احتوت على معلومات خاطئة، وهنا يسهل على المعتقل معرفة ما لدى المحقق من معلومات، ومصدرها، فعلى المعتقل في هذه الحالة: التسلح بالنفي لكل الأمور التي لا يعرفها المحققون، والعكس بالعكس أي عدم نفي شيء يعرفه المحقق بشكل أكيد، فلا فائدة من ذلك، فذلك يؤدي لإقناع المحقق أن الضحية يكذب، وهذا ما يقوده إلى استعمال التعذيب.
كما أن على السجين اختصار الإجابات قدر المستطاع، فالكلمة أفضل من الكلمتين، والإشارة أفضل من العبارة، وإذا كان الصمت كافيا للإجابة فهو أفضل من الكلام، ومن الأفضل الإجابة على السؤال بسؤال آخر، لمعرفة ما لدى المحققين من معلومات. ويكون التعميم أحياناً أكثر فائدة، وربما يكون التخصيص أكثر فائدة في أماكن أخرى، وعلى المعتقل أن يعي تماما كل سؤال قبل أن يباشر الإجابة، فلكل كلمة مدلولها وخلفيتها لدى المجرمين.
وقد يتظاهر المحققون باعتقادهم أن المعتقل بريء، ولا يريدون منه شيئاً سوى أن يذكر كذا وكذا... كأن يقولوا: (عليك أن تدلنا على اسم شخص من الجماعة الفلانية) ليلتقطوا طرف خيط يعملون على جرّه لنهايته، كما يوحي المجرمون لبعض ضحاياهم بأن قضيتهم تافهة، ليشجعوه على أن يقول كل شيء يتعلق

بتلك التهمة (كأن يقولوا: إن حضور الدروس بالمسجد مسألة (تافهة)). وبذلك يطمئن السجين فيبوح بكل شيء. وبالعكس، فقد يلجأ المجرمون لرمي المعتقل بتهمة أكبر بكثير من تهمته، مما يسهل عليه الاعتراف بقضيته، لينفي عن نفسه التهمة التي رمي بها.

وقد يبدأ المجرمون بتعذيب الضحية دون توجيه الأسئلة المحددة، قائلين بصورة مستمرة: عليك أن تعترف بكل شيء. وهنا تكون الطامة الكبرى إذا وجد التسيّب الأمني لدى أفراد الجماعة، لأن المعتقل سيسرد قصة حياته كاملة، وخاصة عندما يكون جاهلاً ظروف اعتقاله، فعلى السجين أن يتحمل التعذيب قدر استطاعته، ليعرف ماذا يريد المحقق؟ وما هي المعلومات التي يعرفها؟ وقد يلجأ بعض المحققين لتوجيه أسئلة عامة، يحاولون من خلالها التقاط بعض المماسك التي لها ما بعدها، هنا يجب الاحتراس من الاعترافات، مع اختصار الإجابات ما أمكن، والتسلّح بالنفي عند الضرورة (خاصة إذا كان المحقق لا يعرف شيئاً).

والأفضل للمعتقل: أن يتظاهر بالغباء والسذاجة والحماقة والجبن ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، لأن إظهار الشجاعة والعبقرية لا تفيد في هذه الظروف، والأمور نسبية، فلا يمكن لأي معتقل التظاهر بالجهل والسذاجة أو استغباء نفسه، خاصة إذا كان شخصية اعتبارية، أو يحمل مؤهلاً علمياً، ففي هذه الحالة، يعرف المحققون أن المعتقل يحاول خداعهم بادعائه السذاجة والغباء، وهذا أمر يجب وضعه بالحسبان عند توزيع المهمات.

وبالعكس: إذا كان المعتقل أميّاً لا يملك أية مؤهلات، فقناعة المحقق الأولية أن هذا الإنسان لا يعرف شيئاً، وتوجيه إليه الأسئلة بناءً على هذه القناعة، فيجب عليه إظهار نفسه وفق ذلك، وأن يخفي ذكاءه وعبقريته كإظهاره للمحققين أنه يدرك مغزى أسئلتهم، فمثلاً إذا سئل عن أسماء الأشخاص الذين يعرفهم من جماعة مناوئة للسلطة فعليه الإجابة بالنفي فقط دون أي تعليق كقوله مثلاً أن على الشخص أن يكون منتسباً لتلك الجماعة ليعرف أشخاصاً منها فهذه الإجابة أو نحوها توحي للمحقق أن المعتقل يعرف غايتهم من الأسئلة وهذا يدعوهم للاعتقاد أنه (المعتقل) يضللهم بإجاباته مما يدعوهم لاستعمال التعذيب.

وعليه أيضاً تجنب ذكر أي شيء يوحي للمجرمين بمعرفته ظروف اعتقاله أو استغبائه لهم وإدراكه لجهلهم بأمره. كأن يقول إذا كان لديكم دليل كذا وكذا، وعليه أن يوحي لهم بشكل مباشر أنهم يعرفون كل شيء، ولا يخفى عليهم شيء من أمور الناس، لأن ذلك يؤدي لزرع الثقة لدى المحققين باعترافات المعتقل، وبالتالي سيقودهم لتخفيف التعذيب.
ويجب تجنّب التناقض بالاعترافات، وأن يقول الإنسان ما يعتقد فيه النجاة والإفلات من قبضة الجلادين، تاركاً قناعاته الشخصية(8) جانباً فمثلاً حينما يُسأل عن جماعة مناوئة للسلطة، فعليه ذم تلك الجماعة، مادحاً النظام في الحدود المعقولة، وبطريقة مقنعة عندما يكون ذلك ممكنا، كأن يعتقل بسبب الشبهة. وتحمل التعذيب والصبر والجلد ضروري إذا لجأ إليها المحققون لإثبات صدق الاعترافات وزرع الثقة في نفس الجلاد، وفي حالة كون المعتقل متلبساً بالتهمة يوجه المحققون الأسئلة الآتية: ما أسماء مجموعتك التنظيمية؟ من الذي نظمك؟ من المسؤول عن مجموعتك التنظيمية؟ وأين تعرفت على من نظمك ومن عرف عليه؟ ومن هم الأشخاص الذين عرفك عليهم؟ ما هي المهمات التي قمت بها؟ ما هي الرحلات والمعسكرات والجلسات التي شاركت بها؟ ما هي الكتب التي قرأتها؟ ما الموضوعات المطروحة أثناء الجلسات التنظيمية؟ من هم الأشخاص الذين نظمتهم؟ أين ومتى وكيف تعرفت عليهم؟ ما هي البلدان التي سافرت إليها؟ وماذا فعلت أثناء سفرك؟ وإذا كان الشخص ملاحقا فإنه يسأل إضافة إلى ذلك عن أسماء الأشخاص الذين آووه وساعدوه مادياً ومعنوياً خلال فترة ملاحقته؟
أما إذا كان من المجاهدين، فيسأل أيضاً عن العمليات التي نفذها أو شارك بتنفيذها، وأسماء الذين شاركوه في تلك العمليات، كما يسأل عن العلماء الذين أفتوا له للقيام بأعمال الاغتيالات، ويسأل أيضا عن المستمسكات المادية التي تم ضبطها أثناء اعتقاله، كالأسلحة والمنشورات وأجهزة اللاسلكي وبقية المستمسكات إن وجدت، ومن أين أتى بها؟ وفيم

استعملها؟ ومن علمه على استعمالها؟ كما يسأل عن المكان الذي تدرب فيه على السلاح ومن دربه؟

والخلاصة:
إذن : أهم الأمور التي ينبغي أن يعرفها المعتقل، هي ظروف اعتقاله، وما يعرفه المحقق من أمره، فيسهل عليه تضليله ببعض الاعترافات، ويستطيع إخفاء قسم كبير من المعلومات الهامة التي يعرفها، وعلى المعتقل أن يرد كل شيء لنفسه ما أمكن، لتجنب توريط الآخرين، سواء أكانوا مرتبطين بالعمل أم لا.

المحققون والتعذيب:
تلجأ أجهزة المخابرات لتعذيب المعتقلين بغية انتزاع الاعترافات، ويحصل هذا عندما يقتنع المحققون أن المتهم يخفي بعض ما يعرف، وهذا لا ينطبق على (باطنيي) سورية، فالتعذيب هدف في ذاته. لقد شاهدت الكثير من السجناء خلال فترة اعتقالي لا يحملون أية معلومات تستحق الذكر، وغالباً التقطوا عشوائياً من الشوارع، دون أن يكونوا مطلوبين لتحقيق معين، إنما تم اعتقالهم بتصرف أهوج من دوريات المخابرات التي تجوب الشوارع، ورغم ذلك، فقد تعرضوا لأشد صنوف التعذيب والقهر، خاصة إذا تولى الزبانية الصغار التحقيق معهم، لأن الضباط الكبار مشغولون بقضايا أخرى، لقد كان أولئك المساكين يتعرضون للضرب والإهانة دون أي سبب، ودون أن يوجه لهم أي سؤال، فضلا عما شاهدناه في سجن الموت بتدمر، فالجلادون يتصرفون بدافع الحقد، بعيدين كل البعد عن العقل والمنطق والحق: (كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون)، ذلك هو شأنهم: طاغية حاقد لئيم تمكن من عدو يهدد وجوده وعرشه وسلطانه.
فالتعذيب والقهر هما القاعدة والعرف في حياة النظم المستبدة، وهي المتبعة في أكثر بلدان عالمنا الإسلامي المنكوب، بهدف انتزاع الاعترافات من المتهم، وإذا كان الشخص معتقلاً عشوائياً دون وجود أي أدلة ضده، فالمحقق يوجه إليه أسئلة عامة، يحاول من خلالها التقاط أطراف بعض الخيوط، فإن توصل من التحقيق

المبدئي إلى ما يثير الشبهة، فالاستجواب يأخذ شكله المعروف، أي: التعذيب لانتزاع الاعترافات المطلوبة. وعند الفشل في الوصول لإثبات تهمة ما فالجلاد عادة ما يلجأ إلى التعذيب، والإهانة والقهر بعد ذلك ليس لهما سوى هدف واحد، هو المحافظة على رهبة المكان، الذي يجب أن يحمل الرهبة دائماً في أذهان الناس، لأن هيبة النظام من رهبة أجهزته القمعية، التي يجب المحافظة عليها دوماً.

أما إذا كان المتهم متلبساً بالتهمة، وكانت قناعة المحقق أنه قد أفرغ كل ما عنده، فقلما يستعمل التعذيب، لئلا يقود ذلك إلى اعترافات تضليلية. وهناك بعض الملاحظات التي ينبغي الالتفات إليها في هذا المجال:

1- إن معرفة المعتقل لظروف اعتقاله، وتضليل المحقق ببعض الاعترافات، يؤدي إلى تجنب التعذيب أو تخفيفه.

2- ليس هناك قاعدة ثابتة لتحمل العذاب، فبعض الأشخاص الذين يفترض فيهم تحمل الأذى لم يثبتوا أمام القهر، وباحوا بكل ما يعرفون من معلومات عند تعرضهم للعذاب، وربما أصيب المحققون بالدهشة نتيجة لتلك الاعترافات التي لم يتوقعوها، وبالعكس فهناك أشخاص قد تحملوا تعذيباً شديداً رغم أنهم لا يفترض فيهم ذلك، وهذا أمر يجب أن يوضع في الحسبان، مع أخذ كافة الاحتياطات الأمنية، وذلك بأن تكون المعلومات التي يعرفها الأخ بأقل قدر ممكن عملا بقاعدة (المعرفة على قدر الحاجة) مع السعي لقطع جميع الخيوط الموصلة للمعتقل، وتغيير الخطط التي يعرفها، تحسبا لأسوأ الاحتمالات.

3- وللتعذيب درجات متفاوتة، وكلما اقتنع المحققون أن المعتقل تحمل درجة دون أن يعترف، شددوا عليه، وهكذا... كما أن هناك طرقا مختلفة للقهر كما سنرى. وهذا أمر يجب أن يعرفه المعتقل، فإذا شعر أنه سينهار، ووصل إلى الدرجة التي لم يعد يطيقها، فعليه ترتيب بعض الاعترافات التي يستطيع بها تضليل المحققين بأقل خسارة ممكنة، حتى لا يبوح بكل ما عنده في حالة الانهيار، ويفتح أبوابا جديدة للتحقيق، بقاؤها موصدة أفضل وأرحم.

4- إن الأحداث وصغار السن لا يتحملون التعذيب، وغالبا ما يبوحون بكل ما يعرفونه عند تعرضهم لأخف درجاته، فليحذر من تحميلهم أية مهمات تتطلب الكثير من المعلومات، وإبعادهم عن العمل التنظيمي ما أمكن، وأن تكون العلاقات التنظيمية بعيدة عن أنظارهم وعن أنظار بقية أفراد العائلة، لأن السلطة قد تلجأ لاعتقال الأقارب (إخوة... أبناء.. الخ) للاستفادة مما يحملونه من معلومات عن المعتقل.

5- إن الأشخاص غير المعنيين بأمور الجماعة، سواء كانوا أقارب أو أصدقاء يبوحون بكل ما يعرفونه عند التحقيق، لقناعتهم بأن ذلك لا يعنيهم، وكل ما يهمهم أن يكونوا بأمن وأمان، ولو على حساب غيرهم، خاصة إذا كانوا من المستهترين، والذين يرضون لأنفسهم أن يعيشوا على الهامش في الأحداث وفي حاشية الحياة الكريمة.

6- يجب علي الإنسان الملتزم بالصف الإسلامي أن ينزع من تفكيره أن الاعتراف هو نهاية التعذيب، وما عليه إلا الاعتراف ليتخلص من التعذيب، كما أن اعتقال الآخرين واعترافاتهم ستؤدي لفتح المزيد من الثغرات، والمزيد من التساؤلات التي تقود المحققين لزيادة التعذيب حتى يجد المعتقل نفسه قد أفرغ كل ما في جعبته للمجرمين.

7- هناك الكثير من الناس قد ماتوا تحت التعذيب وهم لا يعرفون شيئاً، فعلى المعتقل إقناع نفسه أنه لا يعرف شيئاً. كما أن هناك كثيرين ممن عذبوا حتى الموت دون توجيه أية أسئلة (مثلما حدث في سجن تدمر) عند ذلك يجد المعتقل نفسه مرغماً على تحمل العذاب الذي لا فكاك منه.

8- فإذا علم السجين أنه لن يتحمل التعذيب، واستطاع بنفس الوقت أن يعرف ظروف اعتقاله، وما يعرفه المحققون من أمره، فما عليه إلا ترتيب الاعترافات قبل تعرضه للتحقيق والتعذيب، وذلك برد الأمور لنفسه قدر استطاعته، وأن تكون بقية الاعترافات مضللة ومقنعة للمحققين، لتكون الخسارة بحدودها الدنيا، لأنه إذا لم يفعل ذلك، فإن المحققين سيلجئون للتعذيب الشديد، وبالتالي ينهار المعتقل فيبوح بما لديه.

9- على الشخص الملتزم بالعمل الجماعي أن يعي الغاية التي نذر نفسه لها، وأن يدرك أنه على ثغرة من ثغور الإسلام، فانهيار البعض يكون طامة كبرى على المسلمين، إذ تؤدي اعترافاتهم إلى جر العشرات وربما المئات إلى السجون أو إلى المقصلة. إن الثبات أمام التعذيب وتضليل المحققين يعتبران بطولة من نوع فريد، لأنها تؤدي إلى إنقاذ الكثيرين وربما أدت إلى نجاح الخطط، نتيجة فشل الطغاة في كشفها... كما أن علينا أن نعي أن طريق الدعوة مليء بالمحن والشدائد، وما على الذين نذروا أنفسهم لذلك إلا أن يتحملوا تبعات الطريق، فلا مكان للمنهزمين والمتخاذلين ضمن الدعوة، والذي يشعر بنفسه أنه غير قادر على تحمل تبعات الطريق، فما عليه إلا الابتعاد عنه، حتى لا يكون عثرة أو طامة كبرى على الدعوة وأهلها وقت الشدائد، وصدق الشاعر حيث قال:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

الانتهاء من التحقيق:

يوقف المجرمون التعذيب والاضطهاد عند اقتناعهم أن المعتقل قد باح بكل ما لديه من معلومات، أو عند وصول التحقيق إلى طريق مسدود، أي أن الطغاة لم يعد بإمكانهم الحصول على المزيد، بسبب ثبات المعتقل أمام التعذيب، أو عند نجاحه بتضليل المحققين ببعض الاعترافات.

وتوقف التعذيب لا يعني نهاية التحقيق، لأن للطغاة طرقا ووسائل أخرى لاسترسالهم في الإجرام.

- فقد يلجأ المجرمون إلى إعطاء السجين عدة أوراق يطلبون منه تدوين اعترفاته، فإذا عثروا على جديد عادوا لطرح الأسئلة. وربما لجئوا للتعذيب من جديد، وقد يسلك المحققون طرقاً أكثر دهاءً، وذلك باستخدام المخبرين الذين ينتشرون بين المعتقلين، ويتظاهرون بتعرضهم للتعذيب الشديد، وأن كذا وكذا... وأن المحقق قد سأله كيت وكيت، ويدلف بعد ذلك إلى أسئلة محددة، سواء داخل الزنزانة المنفردة أو الجماعية (بعد أن يحدد لهم سجين بعينه، ويعطونهم المعلومات التي تساعدهم على أداء مهمتهم) ويخرج المحققون كلابهم بين فترة

وأخرى بحجة التحقيق ليسألوهم عما التقطوه من معلومات وأخبار خلال مهمتهم التجسسية بين المساجين.

- وقد يقوم الجلادون باستدعاء شخص ما (سواء كان مخبراً أو معتقلاً آخر) ويطلب منه الاعتراف على مسمع سجين، ناسباً إليه تهمة ما، كقوله: إن السجين الآخر قد نظمه، أو بالعكس ليوهموا الشخص الآخر أن هذا السجين هو أحد أصدقائه في الجماعة، والذي اعترف عليه كيت وكيت، وهذا الأسلوب قد يجر المعتقل للاعتراف، خاصة إذا كانت بعض الادعاءات التي سمعها صحيحة، وهو غير منتبه للتلقين في التمثيلية الإجرامية تلك.

- أو يلجأ إلى وضع المخبر في زنزانة منفردة، تواجه زنزانة سجين معين، فيفتح الشراقة الصغيرة، منادياً ذلك المعتقل برقم زنزانته، ويبادله السلام والكلام، وربما استطاع خداعه، وسحب بعض المعلومات منه، بعد اطمئنان الثاني الساذج.

- أو يرسل المخبر للمستشفى لينام على سرير مجاور لمعتقل معين، متظاهراً بأنه قد عذب، وأن تهمته كيت وكيت، محاولاً استدراج المعتقل، ليأخذ منه بعض المعلومات التي كلف من أجلها بمهمة التجسس والاستدراج.

- ولربما تظاهر ضباط المخابرات باللين لأبعد الحدود، حين يقومون باستدعاء المعتقل، ويجلسون معه، ويبادلونه أطراف الحديث، ويقدمون له بعض المأكولات الشهية، وربما سمحوا لأقاربه بزيارته، ويمنونه بالأماني العِذاب (كالإفراج)، ويظهرون اهتماما بمشاكله الخاصة داخل وخارج السجن، ويؤثر هذا الأسلوب على بعض الناس، فالمعاملة اللينة من ضباط المخابرات مع المعتقل الذي أنهك جسميا ونفسيا من التعذيب، تؤدي لانهيار الحاجز النفسي بين السجين وخصمه، فينطلق المعتقل بالكلام دون أي ضابط، فيبوح بما لديه من معلومات مشكلاً بذلك ظروفاً معقدة جديدة، وسلبيات لانهاية لها مع الناس والأحداث...والتحقيق.

وسبب ذلك: أن المعتقل يصل إلى حالة نفسية يشعر معها أن كل ما يكلمه بصورة طبيعية هو صديق حميم أعز عليه من أقرب الناس، فكيف إذا تظاهر المحقق باللين

و.. و..؟ على أن هذا الأسلوب لن يخدع إلا ضعاف النفوس، أما أصحاب العقول النيرة الواعية، فلن تخدعهم جميع أساليب العدو. وصدق الله العظيم حيث يقول: (يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون)، وقال سبحانه أيضاً: (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار)، ورحم الله الشاعر الحصيف عندما يقول:

إن الأفاعي وإن لانت ملامسها عند التقلب في أنيابها العطب

- وهناك أسلوب آخر يشبه الأسلوب السابق، وهو أن يتودد أحد عناصر المخابرات كطبيب الفرع أو الممرض أو أحد الضباط بالتكلم مع السجين، متظاهراً بالإشفاق عليه، ومبدياً أسفه لما تعرض له من تعذيب، ثم يقدم له النصائح بأن يقول كل ما يعرف ليخلص نفسه من التعذيب.

وهكذا نرى أن طرق المحققين متعددة، وعلى السجين أن يدرك أنه في تحقيق مستمر طوال فترة اعتقاله، وكلما فشل أسلوب استبدل به غيره، وهكذا حتى يصل الطغاة إلى غايتهم مهما كانت هذه الأساليب فالغاية عندهم تبرر الوسيلة، ولا مكان للقيم الأخلاقية في عقيدتهم (وهذا ما سنراه عند الحديث عن أساليب التعذيب بشكل مفصل وموضوعي أكثر..).

وبعد التحقيق الشفهي والكتابي، توضع جملة أسئلة لطرحها عليه (حسب التهمة الموجهة إليه) من قبل أحد المحققين، تاركين للسجين الإجابة عليها بأسلوبه الخاص، ويقوم بعد ذلك المحقق بصياغتها هو بأسلوبه، وبما يناسب قناعته، وتدون تلك الاعترافات بمحضر التحقيق النهائي، والمسمى عندهم: الإفادة النهائية... وأخيراً يدون رئيس قسم التحقيق رأيه، وربما أضاف أموراً أخرى لم يعترف بها المعتقل، وسواء حصل عليها من اعترافات معتقلين آخرين أو من تقارير مخبرين سريين، مقترحاً إيقاف المعتقل احترازياً، انتظاراً لما تكشفه الأيام، ويحصل هذا عندما يفشل المحققون في إدانة المعتقل بأية تهمة، أو يقترح إخلاء سبيله، عندما تكون نتيجة التحقيق صفراً، مع عدم وجود داع للشبهة، وإما أن يطلب إحالة السجين إلى المحكمة إذا كانت نتيجة التحقيق تشير إلى تهمة ما.

وإذا زج المتهم في أحد السجون، فإن إخلاء سبيله يصبح من اختصاص السلطات العليا، وتخرج القضية من اختصاص رئيس الفرع، خاصة إذا ثبت بحق المتهم تهمة ما، ولربما أصبح ذلك من صلاحيات الصنم الأكبر، كما هو حال معتقلي سجن تدمر، وعلى أية حالة، فإن الاحتفاظ بالمعتقلين لفترات طويلة هي القاعدة المعمول بـها هذه الأيـام، مهما كانت نتيجة التحقيق. فما هو مبرر ذلك؟.

الاعتقال التعسفي:

كثيراً ما يعتقل الأشخاص ويحتفظ بهم لفترات طويلة، وأحياناً دون وجود أية تهمة تستوجب ذلك، وهذا ما يعرف دولياً بالاعتقال التعسفي. أما بالنسبة إلى أجهزة أمن الطغاة، فإن لهذا الإجراء مبرراته، ويسمى عندهم بالتوقيف الاحترازي، أو الاعتقال لأسباب أمنية. فما هي أسباب ذلك؟.

1- عجز المحققين عن نفي الشبهة تماما، لأن الجلادين لا يثقون بنتائج التحقيق واعترافات المتهمين، لذا يترك المعتقل في مثل هذه الحالات رهن الاعتقال في قاع الظلم والظلام، انتظاراً لما قد تكشفه الأيام، ويلجأ الجلادون لسؤال ضحاياهم الجدد حول أولئك المعتقلين، لاكتشاف أمور جديدة، كأن يقولوا للمعتقل الجديد: ماذا تعرف عن فلان؟ لقد اعترف أنه قد نظمك، أو اعترف أنك نظمته؟! وربما اعترف المعتقلون الجدد، بأمور تتعلق بآخرين اعتقلوا سابقاً، فيعاد التحقيق مع ذلك المعتقل، وبشكل أشد قسوة من المرة السابقة، لأن الجلادين باتوا مقتنعين بأن ذلك المعتقل قد نجح بتضليلهم فلابد من استخدام أبشع الوسائل لانتزاع تلكم المعلومات الخطيرة. ويصاب المعتقل بالانهيار أمام التعذيب، فيبوح بما لديه من معلومات تمكن من إخفائها سابقاً، لأن التحقيق السابق وفترة الاعتقال تضعفان كثيراً من معنويات المعتقل، فتجعله غير قادر على تحمل التعذيب من جديد، كما أن المحققين يملكون حساسية مفرطة جدا تجاه ورود اسم أي شخص قد اعتقل سابقا، سواء كان رهن الاعتقال أو حراً طليقاً، خاصة إذا ورد اسمه بنفس الفرع الذي اعتقل به سابقاً وربما أعيد اعتقاله مثل هؤلاء الناس لأتفه الأسباب التي

لا تستوجب اعتقال غيرهم ممن لم يتعرضوا للاعتقال سابقا، فيجب تجاهل أسماء الأشخاص الذين اعتقلوا سابقا وخاصة إذا كانوا ما يزالون رهن الاعتقال، ولم يطلق سراحهم بعد، وإذا وقع المعتقل أثناء التحقيق في أية هفوة أو زلة تتعلق بأحد المعتقلين، فعليه رد الأمور إلى نفسه أو إلى أشخاص آخرين يصعب على المخابرات الوصول إليهم، كالمسافرين خارج البلاد، مع إبلاغهم بعد ذلك، إذا أمكن، لاتخاذ الحيطة والحذر.

2- اعتقال ناس معنيين تلافياً لما قد يقومون به من أعمال مناوئة للسلطة، إذا كانوا أحراراً طليقين، وخاصة في الظروف الحرجة، كالذين اعتقلوا سابقا بتهم سياسية، أو المهربين، خشية أن يقوموا بتهريب الأسلحة، لخبرتهم في هذا المجال، وربما لجأت المخابرات إلى تلفيق التهم لبعض المعتقلين لتبرير اعتقالهم، ومثال ذلك، ما لجأت إليه المخابرات في السنوات الأخيرة من اعتقال وتسريح ضباط الجيش السنيين الذين يشك في ولائهم للنظام بعد حبكة درامية فائقة الحقد والمكر لهم.

3- اعتقال رهائن من أقارب وذوي الملاحقين للضغط عليهم، كي يسلموا أنفسهم، أو للكف عن الأعمال المناوئة للسلطة، خوفاً على أقاربهم، وربما استمر اعتقال الرهائن لسنوات مديدة، وقد لجأت المخابرات لاعتقال ذوي الملاحقين الموجودين خارج البلاد حتى لا يساعدوهم مادياً أو معنوياً، بإعلامهم أنهم مطلوبون للاعتقال، وليعودوا إلى البلاد فيقعوا في الفخ (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين).

4- الاحتفاظ بالمعتقلين، رغم قناعة الجلادين التامة ببراءتهم، خوفاً على المعلومات التي عرفوها خلال فترة اعتقالهم من أن تخرج فيعرفها الخصوم، لأن أجهزة الأمن تحرص على أن تبقى تلك الأمور سرية للغاية، ولا يعرفها أحد، لتتمكن من تضليل خصومها، ببث الإشاعات التي تريدها، وإخفاء الحقائق لذلك رأينا كيف كانت المخابرات تحيط المعتقلين بالسرية التامة منذ اللحظة الأولى لاعتقالهم، مع عدم السماح لأقاربهم بزيارتهم، وعدم السماح للمحسوبين على النظام وحتى

بعض رموزه من التعرف على التهم الموجهة إليهم مهما كانت تافهة.
وربما كان سبب الاحتفاظ بالمعتقلين الأبرياء هو خوف السلطة مما قد يقومون به من أعمال مضادة لهم، بعد أن اعتقلوا وأصبحوا حاقدين على النظام، نتيجة الاضطهاد والظلم الذي لحق بهم، خاصة إذا كانت الظروف العامة في البلاد تساعد على ذلك، كما يحصل في حالات الانتفاضات الشعبية، كما حصل في سورية وعليه نرى أن دواعي التوقيف التعسفي متعددة، وتختلف باختلاف الظروف المحلية، وطبيعة الأنظمة القائمة، وطبيعة المعارضة التي تواجهها.
وأما التغطية القانونية لتلك التصرفات، فإن حالة الطوارئ واستخدام الأحكام العرفية، يؤديان لتعطيل جميع القوانين، وبالتالي تصبح الأجهزة الأمنية تمتلك صلاحيات واسعة، فهي السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية، فهي التي تعتقل وتحقق وتقوم بالتحريات، وتحاكم، وهي التي تسجن وتنفذ حكم الإعدام، وليس من حق أي شخص مهما كان شأنه التدخل أو الاعتراض على تصرفات أجهزة القمع، لأن تلك القضايا أمنية بحتة، تتعلق بأمن البلاد (كما يدعون) وبتعبير أدق بأمن النظام الذي في سبيله تهدر كل القيم، وتهتك الأعراض، وتداس الكرامات، وترتكب الجرائم، وتنتهك الحرمات، فأمن النظام وسلامة رموزه فوق كل الاعتبارات والأعراف.

التعذيب في أقبية المخابرات
يقول الله تعالى: (ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون)، ويقول أيضاً: (ألم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين).
قبل التحدث عن وسائل التعذيب المتبعة في معتقلات طغاة سورية لابد لنا من تقديم بعض الحقائق في هذا المجال:
1- إن ما أقدمه هنا من معلومات هو نتيجة لتجربتي الشخصية فقط، أي أنني أقتصر على سرد طرق التعذيب التي واجهتها أو شاهدت آثارها على أجساد إخواني المعتقلين الذين قابلتهم وتعرفت عليهم خلال

فترة اعتقالي التي دامت عدة سنوات، وهي بالتأكيد ليست إلا جزءاً يسيراً من طرق التعذيب الموجودة عند أولئك المجرمين.
2- ولا أهدف من خلال وصف تلك الطرق الجهنمية المتبعة في سورية تعرية وفضح ذلك النظام الطائفي العفن، فهذا أمر بات معروفا للقاصي والداني، كيف لا ورائحة النظام النتنة تزكم الأنوف؟
3- قد يعتقد البعض أن ما أقدمه هنا من وصف ربما كان غير صحيح، وربما ظن آخرون أن فيه الكثير من المبالغة، وهنا أذكر هؤلاء وأولئك ببعض ما ارتكبه النظام من مجازر فاقت كل تصور، كمجزرة سجن تدمر، ومجازر حماة وحلب وجسر الشغور، والمعرة وسرمدا وطرابلس وغيرها وغيرها... فإذا تذكرنا ذلك، فإننا نستطيع أن نضع هذا الكلام وأكثر منه في إطار المعقولية والواقع.
4- وأهم شيء أقصده هنا، هو تذكير الشباب المسلم بما ينتظرهم وبما يعده لهم الطغاة الجلادون، ليكون شباب الصحوة الإسلامية عن بينة من أمرهم، ليعدوا أنفسهم لذلك الامتحان، فطريق الدعوة مفروشة بالأشواك، ومليئة بالآلام والمكاره، ولابد من الامتحان لتمحيص الصفوف (وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين).
5- إن طرق التعذيب التي أتحدث عنها هي الموجودة في أقباء المخابرات، أما طرق التعذيب التي واجهها نزلاء سجن تدمر، فأترك الحديث عنها لاحقاً عند التكلم عن ذلك السجن الرهيب القابع في صحراء الشام.
وأهداف التعذيب: هي إهانة وتحقير وإذلال المعتقل، وتحطيم معنوياته وسحق كرامته وشخصيته، وتبدأ الإهانة من اللحظة الأولى للاعتقال، فيندفع أفراد الدورية المكلفون باعتقال الشخص المطلوب إلى داخل المنزل من دون أذن أو مراعاة لحرمة البيوت المتعارف عليها، ويفاجئون المتهم تحت جنح الظلام، وقد يداهمون المنزل بعد خلع الأبواب، وربما اقتحموه من الأعلى بتسلق الأسطحة، دون مراعاة لكرامة الإنسان وقيم المجتمع.
كيف لا والقاعدة المعمول بها عندهم: كل متهم مذنب حتى يثبت العكس.
وليتم ذلك، لابد أن يمر ذلك المتهم بمراحل الاعتقال والتحقيق وما فيهما من إهانة وتعذيب وقهر، وربما

استمر الاعتقال سنوات طويلة، يتعرض خلالها ذلك المظلوم لشتى صنوف المرارة والقهر، كما تهدف الإهانة إلى تحطيم معنويات المعتقل وإرهابه، ليبوح بما لديه من معلومات، وبأقل التكاليف (أي بأقصر مدة زمنية ممكنة) ليتفرغ الجلادون لغيره من المعتقلين المضطهدين.

ولعل أهم سبب للتعذيب والإهانة، هو إرغام المعتقل على الاعتراف، كما يريدونه هم، حتى ينسقوا تمثيليتهم ويصلوا بحبكها وعقدتها إلى أعلى درجة من الواقعية.

ويهدف التعذيب والإهانة أيضا إلى الانتقام من المعتقل بسبب الحقد الأسود الذي يحكم تصرفات أولئك الأوغاد، لأن أكثر المحققين، إن لم يكونوا جميعهم من أطراف الطائفة النصيرية المستولية على مقاليد الأمور، والمتسلطة على رقاب الشعب، وكذلك حال الجلادين والسجانين، إن صدورهم تتدفق بالحقد الدفين، وقد وجدوا هؤلاء الشبان المسلمين أمامهم، فراحوا يشفون بهم أحقادهم التاريخية، وانحرافاتهم النفسية والعقائدية، وصدق الله العظيم: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألوكم خبالاً ودّوا ما عنتّم، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر).

وسائل التعذيب الجسدية والنفسية:

وتختلف بتعدد الأجهزة الأخطبوطية، ومن طرق التعذيب الجسدية الفاجرة:

1- التعذيب بالضرب: يبدأ الضرب منذ اللحظة الأولى للاعتقال، فينهال الزبانية على المعتقل لطماً ولكماً وركلاً، بهدف إهانته وإذلاله وإرهابه، وعندما يصل ذلك المسكين إلى فرع المخابرات، تبدأ فصول أخرى من التعذيب بالضرب، أهمها: الدولاب. وقد تحدثنا عنه سابقاً أثناء الحديث عن التحقيق.

2- استعمال السلم: يثبت المعتقل على سلم خشبي، وجهه للأسفل وظهره للأعلى بعد أن يعرى من ملابسه، ويجلد على ظهره بالكبلات الكهربائية المجدولة. كما يجلد على سائر أنحاء جسمه كالفخذين والإليتين والرأس وسواها...

3- استعمال بساط الريح: تستعمل هذه الطريقة في فروع المخابرات العامة (أمن الدولة) وهو عبارة عن

قطعتين من الخشب تتمفصلان مع بعضهما البعض، بحيث يمكن طيها لتصبح بشكل زاوية قائمة، يوضع المعتقل عليها، ويثبت وترفع رجلاه للأعلى ليضرب عليهما باستعمال الضرب المختلفة.
4- وفي مدينة حلب استخدمت طرق وحشية أخرى للتعذيب منها ضرب السجناء على مفاصلهم (مفاصل الرجلين خاصة الركبتين) بالمطارق الحديدية، وسواطير اللحمة والفؤوس، كما استعملوا تلك الأدوات للضرب على الساقين والقدمين أيضا، إضافة للمفاصل مما يسبب آلاما مبرحة وكسورا بالعظام، وآفات دائمة بالمفاصل، ليصبح المعتقل بعد ذلك مقعداً كسيحاً.
5- التعليق إلى السقف بواسطة سلاسل حديدية من اليدين ويرفع السجين للأعلى، أو يعلق من رجليه ورأسه للأسفل، كما تعلق الذبيحة، ويضرب على جميع أنحاء جسمه بوحشية رهيبة، وتستخدم هذه الطريقة بمعظم فروع المخابرات، أذكر منها فرع المخابرات العسكرية بحلب (فرع السريان) وفرع الخطيب أو ما يسمى بالفرع 251 التابع للمخابرات العامة، مأوى وحوش القرن العشرين.
6- الضرب بوضعية الوقوف أو الركض وتستعمل هذه الطريقة بسجن الشيخ حسن التابع لشعبة الأمن السياسي بدمشق، ويوجد داخل المعتقل بحيرة صغيرة يلقى فيها السجين بعد أن يعرى من ملابسه أثناء الشتاء، ويؤمر بالخروج منها والدوران حولها مسرعاً، والجلادون يحيطون به يلسعونه بسياطهم على ظهره أو أي مكان من جسمه، ويبقى التعذيب على هذه الصورة حتى يعترف المعتقل، وكلما سقط أرضاً اشتدّ عليه الضرب ليصاب بالإغماء، فيرش الماء على وجهه ليقف ويستمر التعذيب على هذه الصورة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (صنفان من أهل النار من أمتي لم أرهما: رجال بأيديهم سياط كأذناب البقر يضربون بها وجوه الناس، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة).

أدوات الضرب:
1- الكبلات الكهربائية: وهي الأكثر استعمالاً في جميع الفروع، وتستخدم الخيزرانات أيضاً (عصي الخيزران).

2- السلاسل الحديدية (الجنزير) واستعمل بفرع المخابرات العسكرية بحلب.
3- البلطات والمطارق وسواطير اللحمة، وتستعمل بفروع المخابرات العامة خاصة بمدينة حلب، ولم يتوان أبداً أولئك الهمج الأوباش عن استخدام أي أداة أو وسيلة يتذكرونها.

طرق أخرى للضرب:
وتستعمل الأكف للطم الوجه مؤدية لثقب غشاء الطبل بالأذنين، وتستعمل قبضات الأيدي للكم، إضافة لاستعمال الأرجل بالرفس والركل على البطن والصدر والخصيتين، وذلك أثناء إلقاء القبض على المعتقل، لأن هذه الطرق فيها من الإذلال والإهانة أكثر من تأثيراتها الجسدية، وخاصة أن الضرب يتم أمام الأقارب والناس الآخرين.
ويضع الزبانية أقدامهم على رأس المعتقل ورقبته، وربما وضعوا نعالهم داخل فمه، إمعاناً بإذلاله وإهانته، وكثيراً ما يتدرب الجلادون الجيدو والكراتيه بالمعتقلين الذين أنهكهم التعذيب والقهر إرضاء لغرورهم وساديتهم.

التعذيب بالماء البارد:
يقوم الجلاوزة في فصل الشتاء بتعرية المعتقل من ملابسه ووضعه في حوض الحمام لمدة طويلة، ثم يخرج ويضرب على جسمه، أو يثبت على السلم ورأسه للأسفل، ويصب الماء البارد عليه من الأعلى أو يغطس في البحيرة الموجودة داخل المعتقل، كما يحدث في سجن الشيخ حسن بدمشق، أو تغمر الزنزانة بالمياه، ويدخل المعتقل إليها، فلا يستطيع النوم أو الجلوس، خاصة أيام الشتاء، ثم يخرج بعد أن أعياه التعب والبرد ليعذب بهمجية ووحشية بالضرب والجلد.

التعذيب بالكهرباء:
وله أشكال عديدة: منها ربط الأقطاب الكهربائية بأصابع اليدين أو القدمين أو بالأذنين، وهذا ما يؤدي لأذيات بالدماغ، فيصاب المعتقل بآفات عقلية قد تصل إلى الجنون. ولعل أبشع هذه الوسيلة، هو وضع الأقطاب

على الأعضاء التناسلية، وإدخال القطب الآخر بالدبر بواسطة الخازوق، وهذا ما يستخدم بفرع المخابرات العسكرية في حمص، وتؤدي هذه الطريقة لنزيف من الشرج، وأحيانا توضع الأقطاب على العينين أو داخل الفم أو الأنف، أما التيارات المستعملة بالتعذيب، فهي المستعملة بالمنازل بعد تمريرها على محول للتحكم بها، وأغلب الأحيان يستخدم مولد كهرباء يدوي.

التعذيب بالنار:

كاستعمال الأدوات الكهربائية، مثل السخان الكهربائي الذي يستخدم بالمنازل، فيرغم المعتقل بالجلوس عليه بعد تسخينه، ويوضع على أماكن حساسة ومختلفة من الجسم، كالظهر والصدر، محدثاً حروقا شديدة وآلام فوق تحمل البشر.

واستعملت هذه الطريقة بفرع كفرسوسة (رقم 185) بدمشق، وتعرض الأخ الشهيد حسني عابو لهذه الطريقة من التعذيب، كما تستخدم المكاوي الكهربائية المستعملة لكي الملابس، فهي تمرر على جسم الضحية بعد تسخينها، وتستخدم كذلك قداحات الغاز لحرق الجسم موضعياً، وحرق اللحية والشوارب وشعر الجسم، وشعر العانة... وتستخدم أيضاً السجائر التي تطفأ بجسم المعتقل خاصة في الأماكن الحساسة كالرقبة والظهر والأعضاء التناسلية والصدر والإبط، وتستعمل أعواد الثقاب لحرق الأذنين، أو تستعمل قطعة قطنية مشربة بالبنزين وتوضع على أماكن معينة من الجسم وهي ملتهبة.

ومن طرق التعذيب التي لا تطاق سكب البنزين على قدمي المعتقل ثم إشعالها بعد ذلك.. وقامت بعض فروع المخابرات بصب البنزين على جسم الضحية، وإحراقه ثم تسليم جثته لأهله، مدعين أنه قد أحرق نفسه.... وهذا ما حصل مع عدة أخوة أذكر منهم الأخ الشهيد التقي النقي حافظ القرآن: عمر سالم من حلب رحمه الله رحمة واسعة.

التعذيب بالأدوات الحادة:

كالسكاكين وأمواس الحلاقة والشفرات، وذلك بتشطيب الجلد وقضبان الحديد المدببة لوخز الجسم.

استعمال الخازوق:
وهو عبارة عن أداة معدنية لها رأس مدبب وقاعدة عريضة يؤمر السجين بالجلوس عليها ليدخل رأسه المدبب بالدبر، وقد يوصل بها تيار كهربائي.
واستخدمت الزجاجات ذات العنق المكسور لهذه الغاية مؤدية لنزيف شديد من الشرج أو تبرز عفوي.

استعمال المواد الكاوية والأملاح:
وهي أن يذاب الملح بالماء ويسكب على جسم المعتقل الذي امتلأ بالجروح نتيجة طرق التعذيب الأخرى، وقد تستعمل المواد الكاوية (الحموض والقلويات) بدل ملح الطعام..

التعذيب بالكماشة:
تقلع أظافر اليدين والقدمين بواسطة الكماشات، وينتف شعر اللحية والشارب وشعر الجسم في مناطق حساسة أخرى إما اليدين أو بالكماشات وتستعمل هذه الطريقة مع المعتقلين الملتحين.

الشنق من القدمين:
ومن طرق التعذيب أيضا تقييد قدمي السجين بقيود خاصة، أو بالسلاسل، وتعليقه من قدميه، رأسه إلى أسفل كما تعلق الذبيحة، وتسمي هذه الطريقة (الشنق من القدمين) وتصاب الأقدام عند الكاحلين والكعبين بجروح عميقة في مكان التعليق، وتستخدم هذه الطريقة في فروع المخابرات العسكرية في اللاذقية وحلب ودمشق.

طرق التعذيب الأخرى:
كأن يؤمر السجين بالوقوف لفترة طويلة مع الحرمان من الطعام والشراب والخروج لبيت الخلاء يوما أو أكثر...

طرق التعذيب النفسي:
ذكرت أن إهانة السجين تبدأ منذ اللحظة الأولى لاعتقاله بشتى الطرق، وعندما يصل المعتقل إلى فرع

المخابرات تبدأ فصول أخرى من الإهانات والقهر والبطش والإذلال:

1- يرغم المعتقل على إغماض عينيه، كماُ يشتم وُيضرب فور وصوله إلى الفرع.

2- التهديد بالموت بطرق مختلفة، كغطس الرأس بالماء حتى درجة الاختناق.

3- إدخال المعتقل لغرفة التعذيب، ليشاهد التعذيب، وآثار العذاب المختلفة مع بقع الدم، وقد يشاهد معتقلاً آخر قد عذب بشدة، وفي بعض الحالات يشاهد جثة أحد الذين ماتوا تحت التعذيب، كل ذلك من أجل إرهابه.
كما يعمد الجلادون للتحقيق مع ذلك المسكين فور دخوله الفرع في غرفة قريبة من غرف التعذيب، ليسمع أصوات المعذبين المضطهدين من صراخ وأنين، وقد يترك فترة من الزمن أمام غرفة التعذيب، ثم يؤخذ بعد ذلك للتحقيق، بعد أن استولى عليه الهلع، نتيجة سماعه أصوات المعذبين ورؤية صورهم وحالتهم التي يشيب لهولها الولدان..

4- التهديد بالأهل: تقوم المخابرات السورية في كثير من الأحيان باعتقال أقارب السجين من النساء كزوجته وأخته وابنته، والتهديد باغتصابهن أمامه إذا فشلت طرق التعذيب الأخرى في إرغامه على الاعتراف، وقد يكون المعتقل بريئا من الأساس، لكن المحققين مقتنعون أن لديه معلومات لا يريد البوح بها، وقد تعرض الأخ أمين الأصفر من حماة لهذا الأسلوب الجهنمي، فقد اعتقلوا طفله وزوجته (وهي مسلمة من بلغاريا). أو تقوم المخابرات بتعذيب أحد أقارب المعتقل أمامه بغية إرغامه على الاعتراف وجعله ينهار أمام مشهد التعذيب الوحشي، وقد يهددون المعتقل أيضا بقتل أحد أبنائه.
ومن الطرق المتبعة أيضاً: سجن المعتقل في زنزانة منفردة ضيقة لأجل طويل: يقدم له فيها الطعام مخلوطا بالقاذورات (كالبول والبراز) كما حصل مع الشهيد القائد مروان حديد رحمه الله، مع حرمانه من العناية الطبية، وتعريضه للإصابة بالجرب والقمل المتوفر هناك كثيراً، فجميع مراكز الاعتقال السورية موبوءة بهذين المرضين.

5- التهديد بممارسة اللواطة (الشذوذ الجنسي) مع المعتقل وأحياناً أمام زوجته إذا أصر على عدم الاعتراف.
6- ومن الطرق المتبعة أيضاً: تقييد أيدي المعتقل طوال الوقت، ولا تفك إلا أثناء إخراجه لقضاء الحاجة، أو عند تناول الطعام، وهذه الطريقة موجودة بمديرية المخابرات العامة في دمشق، المعروف باسم سجن (كفر سوسة).
هذه هي أهم طرق التعذيب التي شاهدتها وعايشتها خلال فترة اعتقالي، وهذا لا ينفي وجود طرق أخرى لم أذكرها، إذ سمعت بطرق كثيرة، خاصة بفرع مخابرات القوى الجوية بدمشق، ومعتقلات سرايا الدفاع التابعة للمجرم رفعت أسد... فقد اشتهرا بوجود الطرق الجهنمية لديهما، ولكنني لم أدون تلك الطرق لعدم مقابلتي لأشخاص تعرضوا لها. وعلى أية حال فإن الذين يعرفون طبيعة ذلك النظام الإجرامية، يصدقون كل ما يسمعون من روايات، لأن تلك الجرائم لها مبرراتها عند الجلادين وجلاوزتهم، وهذا هو شأن كل الطغاة عبر التاريخ حتى يرث الله الأرض ومن عليها وفي كل ديار الظلم، التي تجاوزها النظام الأسدي بمراحل في إجرامه وهمجيته...

الانتقال إلى سجن تدمر لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد).
قبل الحديث عن سجن تدمر لابد من إشارة سريعة إلى بعض أحداث تلك الفترة، التي كانت سببا لإرسال المعتقلين إلى ذلك السجن الجهنمي الرهيب.

أهم أحداث النصف الأول من عام 1980: الأحداث تتسارع حولنا، والأيام مليئة بالمستجدات، فقد وقعت خلال عام 1980 الكثير من الأحداث الجسيمة والتي تركت سجلاً حافلاً يزخر بها تاريخ سورية المعاصر والتي لا تنمحي أبد الدهر.
فخلال الشهور الأولى من ذلك العام وصلت الأحداث ذروتها في بلدنا المنكوب سورية الجريحة، وواجه النظام النصيري منزلقاً خطيراً كاد يطيح بأركانه، مما دفع برموز السلطة إلى أن يتراجعوا وبصورة خطيرة.

لقد ظهر الطاغية الجبان حافظ أسد بمناسبة 8 آذار من ذلك العام على شاشة التلفزيون ليلقي خطاباً يعبر فيه عن مرارة قاسية، وكاد يبكي في ذلك الخطاب، وراح يقول بكل تأثر: إنني مسلم وأصلي منذ أكثر من ثلاثين عاماً، وأعترف لأول مرة بأن أخطاء قد حصلت، ونماذج أخرى من العبارات التي تعبر عن جبنه وخوفه مما يحدث في طول البلاد وعرضها.

في تلك الأثناء قام النظام بإخلاء سبيل عدد كبير من المعتقلين الذين كانوا يرزحون تحت نير قهر فرعون منذ بداية عام 1979، لقد ظن الصنم الكبير وأزلامه أن هذه المبادرة (الإفراج عن المعتقلين) ستؤدي إلى تهدئة المشاعر وتطبيب الخواطر وبالتالي تنتهي المواجهة بين الشعب والنظام، تلك المواجهات التي أتعبت السلطة وأفقدتها صوابها، لكن النظام لم يصل إلى النتيجة المرجوة، فازداد بطشاً وتنكيلاً، وزج بالجيش والوحدات الخاصة في أتون المواجهة، فأرسلت الفرقة الثالثة بقيادة المجرم شفيق فياض مع عدة أفواج من الوحدات الخاصة بقيادة المجرم علي حيدر إلى مدينة حلب لتمشيطها، ونصب الحواجز الثابتة والطيارة في شوارعها، بعد أن عجزت المخابرات وسرايا الدفاع والوحدات الخاصة (التي أرسلت سابقاً) عن قمع الانتفاضة الشعبية الإسلامية التي عمت أرجاء المدينة وقراها. كما أرسلت السلطة المزيد من عناصر الوحدات الخاصة وسرايا الدفاع إلى مدينة حماة وإلى محافظة إدلب بعد أحداث جسر الشغور ومعرة النعمان، عندما تمكن الأهالي من السيطرة على أحد مستودعات الأسلحة فقامت الوحدات الخاصة بمحاصرة المدينة، فتدخل وجهاء البلدة، وأعيدت الأسلحة إلى السلطة، وفي هذه الأثناء ارتكبت مجازر وحشية تقشعر لهولها الولدان في الكثير من المدن والقرى، ففي حلب قتلت السلطة الدكتور أدهم سفاف الأستاذ بكلية الزراعة مع الأستاذ محمد نذير زرنجي (من كلية الزراعة أيضاً) والدكتور مصطفى عبود (طبيب جراح) وكذلك قتلت السلطة الدكتور حسن محمد الحسين الذي كان يعمل أستاذاً بكلية العلوم بجامعة حلب وكلية الهندسة الحربية وكان مختصاً بالفيزياء النووية، ولعله الشخص الوحيد الذي يحمل هذا الاختصاص في ذلك الوقت(9).

وفي حماة قتلت الوحدات الخاصة العديد من وجهاء المدينة منهم الدكتور عمر الشيشكلي رئيس نقابة أطباء العيون، وخضر شيشكلي من زعماء الكتلة الوطنية والدكتور عبد القادر قنطفجي (طبيب جراح) مع المزارع أحمد قصاب وقد مثل المجرمون بجثث الشهداء شر تمثيل.

وفي اللاذقية قتلوا الدكتور الشيخ ممدوح جولحة، ورموا جثته في عرض الطريق بعد أن مثلوا بها.

وفي محافظة إدلب ارتكبت مجازر أخرى كمجزرة جسر الشغور وسرمدا.

ونتيجة للرعب الذي سيطر على رموز النظام في هذه الأثناء (بداية عام 1980، وبالتحديد شهر آذار من ذلك العام) اتخذ النظام قراراً بسحب جزء من قواته من لبنان، ليتسنى له تصفية الانتفاضة الإسلامية في سائر المدن والقرى السورية. وقد أبلغ قادة المنظمات الفلسطينية والفصائل اللبنانية بهذا القرار.

وخلال هذه الفترة نفذ المجاهدون الكثير من العمليات الناجحة التي أفقدت النظام الجبان صوابه، وأهم تلك العمليات كانت تهريب 17 سجيناً من سجن المخابرات العامة بدمشق المسمى بسجن (كفر سوسة) في يوم 25/5/1980، ونتيجة لهذه العملية ساءت المعاملة كثيراً في جميع السجون والمعتقلات، كما قرر النظام ترحيل جميع المعتقلين الإسلاميين لسجن تدمر.

وفي بداية شهر حزيران من ذلك العام استشهد الأخ عبد المعين السيد (قائد تنظيم الطليعة بمدينة حمص) مع ثمانية من إخوانه بعد معركة حامية مع المخابرات العسكرية وقد جن المجرم غازي كنعان وراح يقتل المسلمين ويرسلهم لسجن تدمر. كما استشهد بنفس الفترة (بداية شهر حزيران 1980) الأخ النقيب إبراهيم اليوسف قائد عملية مدرسة المدفعية في أحد شوارع مدينة حلب، وقامت المخابرات العسكرية بحمل جثته لمدرسة المدفعية بالراموسة، وطلبوا من جميع طلاب المدرسة أن يمروا من أمام الجثة ويبصقوا عليها، وقد مثلوا بجثته شر تمثيل، كما أقام النصيريون احتفالاً لذلك، شربت فيه الأنخاب، وأطلقت فيه الأعيرة النارية في ذلك اليوم، وأصيب سكان مدينة حلب والقرى المحيطة بها بالهلع، وظنوا أن عمليات ضخمة قد وقعت.

مداهمة مساجد دمشق: ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم).

في بداية شهر حزيران من عام 1980 قامت المخابرات العسكرية بالتعاون مع مخابرات القوى الجوية وسرايا الدفاع والوحدات الخاصة بمداهمة مساجد دمشق بعد منتصف الليل، وتم اعتقال جميع الموجودين فيها من مصلين وأئمة ومؤذنين وخدام، إضافة إلى طلبة العلم الشرعي الذين يقيمون في الكثير منها، وبينهم عدد كبير من غير السوريين من بلاد إسلامية مختلفة، ومن مسلمي أوربا، كما اعتقل عدد كبير من الأشخاص العاديين الذين صادفتهم دوريات المخابرات في طرقات وشوارع المدينة عشوائياً دون رحمة أو قانون، وانتهك المجرمون حرمات بيوت الله، عندما خلعوا الأبواب المقفلة ودخلوا بنعالهم إلى المساجد، وقاموا بتفتيشها، ورموا الكتب والمصاحف الموجودة بمكتباتها على الأرض، ونهبوا الكتب والسجاجيد(10)، وحطموا النوافذ عندما عجزوا عن تحطيم الأبواب الضخمة الأثرية القديمة(11)، وفي اليوم التالي استدعى محمد محمد الخطيب وزير الأوقاف علماء دمشق لمكتبه في الوزارة، وبعد اجتماع قصير بينهم، حضرت سيارات المخابرات، وقادت جميع العلماء لمقابلة المجرم حافظ أسد يهوذا الذي فشل سابقاً في مقابلتهم، عندما استدعاهم عدة مرات أثناء موجة الأحداث العارمة في الشهور الماضية، لأنهم كانوا يرفضون ذلك بشدة، يومها أخذ الطاغية يهدد ويتوعد، وكان مما قاله: إن أمن البلاد فوق أي اعتبار، وما تم تخريبه ستقوم وزارة الدفاع بإصلاحه، وإن المساجد ملك للدولة. وأردف قائلاً: إن الحجاج قد هدم الكعبة في يوم من الأيام، فرد عليه أحد العلماء: بأن الحجاج قد فعل ما فعل فاستحق لعنة التاريخ إلى يوم الدين، فغضب المجرم وهاجم العلماء بألفاظ فظة وقال لهم: إنكم تسكتون عن الجرائم التي يرتكبها الإخوان المسلمون، أما إذا قامت الدولة بأي إجراء أمني ضروري فإنكم تنتقدون تلك التصرفات. وانفضّ الاجتماع بعد أن وعدهم بإخلاء سبيل جميع الأبرياء!!.

وتمادى النظام في تلك الأيام في طغيانه غير آبه للنتائج، وقرر أن يقطع طريق الإجرام حتى النهاية، لقد أحدثت جريمة مداهمة المساجد ردود فعل عنيفة، حتى بين رموز السلطة، فبعضهم عارض العملية قبل حدوثها كالعقيد محمد مسعود (رئيس فرع فلسطين التابع للمخابرات العسكرية بدمشق) والذي عارض العملية الهمجية، ورفض المشاركة بها، واقترح على علي دوبا (رئيس المخابرات العسكرية) أن يتم استدعاء بعض الأئمة ومستخدمي المساجد، وإغرائهم بالمال، ليكونوا مخبرين للسلطة ضمن مناطق عملهم، لأن ذلك أجدى من هذه العملية التي ستؤدي في النهاية إلى تجميع عدد كبير من المواطنين العاديين الذين يمكن جمعهم من الشوارع دون أي عناء (حسب رأيه)(12) لكن علي دوبا ورفعت أسد لم يلتفتا لهذا الرأي، وقررا القيام بتلك الجريمة، غير آبهين للنتائج الوخيمة، فالمهم عندهم: هو إسكات المعارضة، ولو كلفهم ذلك ذبح الشعب بأكمله والظروف الدولية في تلك الأثناء كانت تشجع النظام على التمادي في طغيانه، فالتعتيم الإعلامي على جميع جرائمه ضد المسلمين من الشعب، مع الدعم المادي والمعنوي من مختلف الجهات العربية والعالمية، فعلى سبيل المثال قد تم التعتيم إعلامياً على جريمة مداهمة مساجد دمشق فلم تذكرها سوى إذاعة لندن وصوت أمريكا بطريقة عابرة، أما بقية الجرائم التي تقترف في المدن الأخرى والمناطق النائية، فلا يذكرها أحد ما دامت ضد المسلمين.

لكن، في هذه الأثناء، تمكن المجاهدون في مدينة حلب من قتل لجنة من المحققين التابعين للمخابرات العسكرية، ممن تم تدريبهم في روسيا، وكانت تضم أربعة أشخاص، ونفذت هذه العملية في قلب مدينة حلب أمام الفندق السياحي وقد أرسلت هذه اللجنة من دمشق لدراسة ملفات وقضايا المعتقلين الذين تم تجميعهم في ثكنة وفرع السريان ومدرسة المدفعية بالراموسة التي تحولت إلى سجن مؤقت، وكان القسم الأعظم منهم قد تم اعتقالهم بصورة عشوائية أثناء عمليات التمشيط والمداهمة التي قامت بها الوحدات الخاصة والفرقة الثالثة وعجز المحققون في فرع السريان عن القيام بإجراءات التحقيق المطلوبة من هذا

العدد الضخم من المعتقلين (الذي يعد بالمئات) فطلبوا من دمشق تزويدهم بعدد من المحققين لهذا الغرض ليتسنى لهم فرز المعتقلين، وإرسال من يريدون لدمشق أو سجن تدمر والاحتفاظ بالباقين في مدينة حلب، وإخلاء سبيل من لا يوجد داع لاعتقالهم.
فقدت السلطة صوابها تلك العملية الكبيرة فقامت المخابرات العسكرية بإرسال جميع من تبقى من المعتقلين الموجودين في ثكنة هنانو إلى سجن تدمر، وعددهم 170 سجيناً، فكانت أكبر دفعة تدخل سجن تدمر في تلك الظروف، علماً أن معظمهم من عامة الشعب، بلا انتماء سياسي.

مجزرة سجن تدمر: واختتم النظام جرائمه خلال تلك الفترة بمجزرة سجن تدمر الكبرى، التي كانت بداية لمرحلة جديدة حالكة السواد في تاريخ سورية المعاصر، تميزت بالمجازر الجماعية بحق المسلمين، فقد تمادى النظام في جرائمه التي بلغت ذروتها بمجزرة حماة الكبرى خلال شهري شباط وآذار من عام 1982.
من المعروف عن سجن تدمر أنه مخصص للعسكريين الذين يرتكبون جرائم عادية (غير سياسية) أثناء فترة الخدمة العسكرية فيحالون للقضاء العسكري ليصدر بحقهم عقوبات مختلفة ويتم تحويلها بعد ذلك إلى سجن تدمر لقضاء مدة العقوبة.
ولعل أكثر المخالفات شيوعاً بالنسبة للعسكريين، الفرار من الخدمة العسكرية، وأطلق عليه اسم (سرية التأديب) ويتبع لجهاز الشرطة العسكرية (لكونه سجناً عسكرياً) ومع ذلك فقد استخدم كمعتقل للسياسيين في عقود السنوات الماضية، وهذا ما عرفته أثناء فترة اعتقالي، لأن بعض الأخوة التقوا أثناء فترة اعتقالهم ببعض الأشخاص الذين سجنوا فيه سابقاً بتهم سياسية، وكما ورد في كتاب تدمر المجزرة المستمرة (ص 19) أن عدداً من قادة الإخوان المسلمين والأحزاب الأخرى قد دخلوا سجن تدمر بنهاية عام 1966 وكان منهم الشيخ عبد الفتاح أبو غدة والدكتور محمود بابللي، وعادل كنعان وأحمد بنقسلي وعبد الرحمن قره حمود والشيخ مروان حديد، وكذلك الأستاذ جودت سعيد، والأستاذ

مصطفى الأعسر ورشدي كيخيا، ونصري كساب وقد أفرج عنهم بعد هزيمة حزيران عام 1967.
وفي نهاية عام 1979(13) ومع اشتداد الأحداث عقد المؤتمر القطري السابع لحزب البعث في دمشق بالصالة الرياضية بحي المزرعة وتحدث المجرم رفعت الأسد مهدداً ومتوعداً بقتل عشرين بالمائة من الشعب ليعيش الباقون بأمن وأمان، واستشهد بالمجازر التي ارتكبها ستالين من أجل تثبيت أركان الشيوعية في الاتحاد السوفيتي (14)، كما تحدث عما أسماه بمشروع التطهير الوطني الذي يجب أن يطول كل معتنق للمبادئ الرجعية الهدامة. (حسب قوله) على أن تنشأ معسكرات خاصة لذلك المشروع في صحراء تدمر لتخضير الصحراء، مع وضع برامج تثقيفية قومية اشتراكية لأولئك الأشخاص، والذين عليهم أن يجتازوا امتحانات خاصة ليعاد إليهم اعتبارهم، وبالتالي يعودون لحياتهم العادية. لقد تسربت كلمات رفعت الأسد لخارج المؤتمر، وأحدثت ردود أفعال عنيفة داخل البلاد وخارجها، وقام المجاهدون بنشر مقاطع من ذلك الخطاب بمنشوراتهم التي وزعوها في تلك الأيام، وربما كانت كلمات رفعت أسد بمثابة بالون اختبار للشعب تجاه هذا المشروع، أو ربما ارتكب حماقة كبيرة عندما أفصح عما كانوا يخططون له، لأنه (أي رفعت أسد) مشهور برعونته وحماقته، ولأن القضايا الأمنية الحساسة بالنسبة للنظام والطائفة العلوية تتم مناقشتها في اجتماعات سرية مغلقة بين حافظ أسد وأركان نظامه من الضباط النصيريين، ثم بينه وبين ما يسمى بالمجلس الملّي للطائفة النصيرية... ولا تجري مناقشتها في اجتماعات عامة، كمؤتمرات الحزب، واجتماعات الحكومة، وغيرها، ولا يتم إعلام الخدم والإمعات والدمى إلا بقدر وفي اللحظات الأخيرة (عند التنفيذ).. أو إذا تطلب الأمر أية حركات تمثيلية بهدف إضفاء الصفة القانونية على تلك الإجراءات التي يقررها القوم، وما على الإمعات والخدم إلا الموافقة، دون أي تردد أو مناقشة والدليل على صحة ما نقول، أنه بينما كان رفعت أسد يتكلم عن مشروعه المذكور، كانت ورشات البناء تقوم بتدشين سجن جديد في تدمر على مقربة من السجن القديم المعروف.

تصاعدت الأحداث كثيراً في الشهور الأولى من عام 1980 مما أفقد السلطة صوابها ورشدها، وجاءت عملية تهريب الأخوة المعتقلين من سجن كفر سوسة يوم 25/5/1980 لتخرج ذلك المشروع المخطط له إلى حيز التنفيذ، وقبل أن يكتمل بناء سجن تدمر الجديد وكان القديم مكتظاً بالسجناء القضائيين صدر مرسوم جمهوري بالعفو عن سجناء تدمر العسكريين، وفيه تم تفريغ السجن القديم من جميع نزلائه، وأما الذين حكموا بعد صدور المرسوم المذكور، فقد نقلوا للخدمة في السجن القديم، ريثما يتم استكمال السجن الجديد، عندئذ صدرت الأوامر لفروع المخابرات بتحويل المعتقلين الإسلاميين بعد انتهاء التحقيق إلى سجن تدمر، وقد وصلت ثلاث مجموعات من المعتقلين قبل المجزرة وهم:

* المجموعة الأولى: وتضم المعتقلين الذين جمعوا في سجن القلعة في دمشق وهم من معتقلي المخابرات العامة وشعبة الأمن السياسي، وكانوا قد اعتقلوا عامي 1979- 1980 من جميع المحافظات، وأفرجت السلطة في بداية عام 1980 (شباط- آذار- نيسان) عن عدد كبير ممن اعتقلوا عام 1979 وهم من أعضاء التنظيم السياسي، أو ممن ليس لهم علاقة بالتنظيم أصلاً، وأما الذين لهم علاقة بالتنظيم المسلح والذين لم يمض على اعتقالهم مدة محددة (ستة أشهر) فلم يفرج عنهم، لأن التحقيق لما ينته بعد (راجع فصل الاعتقال التعسفي). وعدد أفراد هذه المجموعة حسب أكثر الروايات يتراوح بين الـ 500 و 600 شخص، كان بينهم الشيخ محمد خير زيتوني ورياض جعمور اللذان نقلا إلى دمشق لأجل التحقيق قبل المجزرة بعدة أيام، ثم أعيدا بعدها، وتشكل هذه المجموعة القسم الأكبر من السجناء الذين كانوا في السجن أثناء المجزرة، أذكر منهم الأسماء الآتية:

1- عبد الله حياتلة: معلم مدرسة وهو فلسطيني مقيم بحمص واعتقل عام 1979.

2- محمد مهتدي كسحة (والد الشهيد باسل كسحة): موظف من مدينة حلب، اعتقل عام 1979.

3- الأستاذ إبراهيم عاصي ويعمل مدرساً وله عدة مؤلفات وهو من جسر الشغور اعتقل 1979.

4- حسان سعيد طبيب من حلب اعتقل عام 1979.
5- محمود العابد طبيب من حماة اعتقل عام 1979.
6- نائل عثمان: عامل من مدينة حلب اعتقل عام 1979.
* أما المجموعة الثانية من المعتقلين، فكان مصدرها فرع المخابرات العسكرية في حمص، فقد باشر المجرم غازي كنعان بإرسال المعتقلين لسجن تدمر منذ وقت مبكر، وتحديداً منذ شهر أيار عام 1980 لأن سجن البولوني الموجود في ثكنة خالد بن الوليد بحمص لم يعد يتسع للمعتقلين الذين زاد عددهم، كما اشتدت حملة الاعتقالات بعد استشهاد المرحوم عبد المعين السيد وإخوانه في بداية شهر حزيران من ذلك العام، عندها فقد المجرم غازي كنعان صوابه، وراح يعتقل الناس خبط عشواء، ويرسلهم إلى تدمر.
ويمكننا تقدير عدد معتقلي هذه المجموعة بحوالي 200 معتقل، لأن فرع حمص كان يرسل دفعة واحدة أسبوعياً، يتراوح عدد أفرادها بين عشرين وثلاثين شخص. وبذلك يمكننا أن نقدر عدد الذين أرسلوا خلال هذه المدة (حوالي شهر) بمئة معتقل، يضاف إلى ذلك المعتقلون الذين تم جمعهم سابقاً وهم ممن أخلي سبيلهم في بداية عام 1980 وكان غازي كنعان قد أعاد اعتقالهم وعددهم حوالي 80 شخصاً، ولا أعرف بالضبط عدد الذين تمكن غازي كنعان من إعادة اعتقالهم، إذ إن قسماً منهم قد نجح بالفرار من البلاد ويضاف إلى هذه المجموعة أيضاً: الأشخاص الذين تمكن من كشفهم واعتقالهم أول مرة، ويمكن تقدير هذه المجموعة بمئة معتقل، وبالتالي يصبح مجموع معتقلي مدينة حمص 200 معتقل، أذكر منهم:
1- الدكتور توفيق دراق السباعي: أخصائي بالأمراض العصبية من كندا.
2- محمد أدهم عضيم مهندس مدني.
* أما المجموعة الثالثة فكانت من معتقلي دير الزور: عندما اندلعت المظاهرات في شهر آذار من عام 1980 وشارك طلاب المدارس في تلك المظاهرات، فأرسلت السلطة قوات البادية (الهجانة) لقمع المظاهرات، واعتقلت عدداً كبيراً من الطلاب الذين شاركوا فيها، وبعد التحقيق معهم أرسلوا إلى تدمر في شهر حزيران من نفس العام، وقد سمعت روايات مختلفة حول عدد

هؤلاء المعتقلين، قال لي أحد الأخوة من أبناء مدينة دير الزور بأن عددهم ستون طالبا، ولدى منظمة العفو الدولية أسماء لثمانية وثلاثين شخصاً وقد عرفنا أنه لا يصل إلى علم تلك المنظمة سوى جزء يسير من عدد المعتقلين لا يساوي ربع العدد الحقيقي، وهذا ما عرفته من دراسة العديد من تقارير المنظمة الصادرة في فترات مختلفة، وتوصلت لتلك القناعة، وسببها أن المصدر الوحيد الذي تعتمد عليه المنظمة لمعرفة أسماء المعتقلين هو أقارب المعتقلين الذين يراسلون المنظمة، وهذا لا يتم إلا إذا كان للمعتقل أقارب يقيمون خارج سورية، ليتمكنوا من ذلك.. يضاف إلى هذا: أن المنظمة المذكورة لا تقبل ولا تتبنى تلك الأسماء، إلا إذا وصلت إليها معلومات متطابقة عنهم من عدة مصادر، أي يجب أن يراسل المنظمة عدد من أقارب المعتقل بنفس الوقت، وهذا أمر لا يتوفر لأغلب المعتقلين.
لذلك يمكننا أن نقدر عدد معتقلي هذه الفئة بحوالي مائة شخص.
وبذلك يمكننا تقدير عدد شهداء مجزرة تدمر من 800 إلى 900 معتقل.
وقبل أن أختم حديثي حول هذا الموضوع لابد أن أذكر رواية سمعتها أثناء فترة وجودي في تدمر، أن أحد الأخوة توصل لمعلومات من بعض أزلام السلطة مفادها أن عدد شهداء المجزرة كان 1181 شخصاً، وأنا لا أستطيع رد أو قبول تلك الرواية، فليس لدي دليل على ذلك، إنما سجلها دون تعليق.

وصف المجزرة: لم تتناه لعلمنا تفاصيل تلك المجزرة إلا في منتصف عام 1981 من إخوة وصلوا إلى السجن، وقد سمعوا إفادات اثنين من المجرمين الذين شاركوا بتلك الجريمة، وهما الرقيب عيسى إبراهيم فياض، والعريف أكرم بيشاني واللذان وقعا في قبضة السلطات الأردنية، بعد أن أرسلا بهدف اغتيال مضر بدران رئيس وزراء الأردن عام 1981 وظهر المجرمان على شاشة التلفزيون وشرحاً بالتفصيل كيف تمت تلك المجزرة الوحشية، وسجلت تلك المقابلة على أشرطة فيديو، ونشرت خلاصة عنها في كتاب (تدمر المجزرة

المستمرة) الذي استقينا منه تفصيلات هذه المجزرة وإليكموها كما نشرت:
في تمام الساعة الثالثة والنصف من صباح يوم 27/6/1980 دعيت مجموعتان من سرايا الدفاع (التي يقودها الزنيم رفعت أسد) للاجتماع بلباس الميدان الكامل، فالمجموعة الأولى من اللواء 40 والذي يقوده الرائد معين ناصيف زوج تماضر بنت رفعت أسد، والمجموعة الثانية من اللواء 138 والذي يقوده المقدم علي ديب، وكل مجموعة يزيد عددها عن مئة عنصر. اجتمعت المجموعة الأولى في سينما اللواء نفسه، وألقى المجرم معين ناصيف كلمة متقيئاً (راح تقوموا بهجوم على أكبر وكر للإخوان المسلمين وهو سجن تدمر مين ما بدو يقاتل؟) لم يرفع أحد منهم يده أو صوته تعبيراً عن عدم رضاه بالقتال. في مطار المزّة التقت المجموعتان، كانت في انتظارهم عشر طائرات هليوكوبتر، كل طائرة تتسع لأربعة وعشرين عنصراً. كان قائد العملية المقدم سليمان مصطفى وهو قائد أركان اللواء 138 ومن الضباط المشاركين الملازم أول ياسر باكير، والملازم أول منير درويش، والملازم أول رئيف عبد الله، أقلعت طائرات الهيلوكبتر الساعة الخامسة صباحاً، ووصلت مطار تدمر الساعة السادسة وعقد اجتماع لضباط العملية تم فيه توزيع المهمات وتقسيم المجموعات، ثم أعطي العناصر استراحة لمدة ثلاثة أرباع الساعة، بعد ذلك دعي عناصر سرايا الدفاع للاجتماع وتم تقسيمهم لثلاث مجموعات:
1- المجموعة الأولى (80 عنصراً) كلفت بدخول السجن، وسميت مجموعة الاقتحام!!.
2- المجموعة الثانية (20عنصراً) لحراسة الطائرات.
3- المجموعة الثالثة بقية العناصر للاحتياط في المطار.
ركبت المجموعة الأولى السيارات، وعند وصولهم للسجن تم تقسيمهم لمجموعات، تتألف كل واحدة من 6 إلى 10 عناصر يقودها أحد الضباط.
كان مدير السجن على علم مسبق بالأمر فسلّم عناصر السرايا مفاتيح السجن وأرسل معهم بعض الجنود (من الشرطة العسكرية العاملين في السجن) مرشدين لهم (لأن عناصر السرايا لا يعرفون مداخل السجن والزنازين..)

يتألف سجن تدمر من 32 زنزانة جماعية موزعة على خمس باحات عدد المعتقلين وقتها حوالي 800 - 1000 شخص ونفذت المجزرة على مرحلتين:
بالمرحلة الأولى تم إخراج المعتقلين من الزنازين المطلة على الباحة الأولى والثانية والثالثة، جمع معتقلو الباحة الأولى في زاوية من الباحة الشمالية الشرقية، أما نزلاء الباحة الثانية، فجمعوا في آخر الباحة مقابل نهاية المهجع رقم (8) ذي الشرفة الواسعة (راجع فصل وصف سجن تدمر).
أما نزلاء الباحة الثالثة فجمعوا في الزاوية الشرقية الجنوبية من الباحة أمام المهجع رقم (12). تعرض المعتقلون في اليوم السابق لتعذيب شديد فأصيب الجميع بالذهول عندما فوجئوا بالشرطة يقتحمون الأبواب ويخرجونهم على هذه الصورة في ذلك الوقت (الساعة السابعة صباحاً) أعطيت الأوامر بإطلاق النار على جميع المعتقلين، فانهمر الرصاص يحصد أولئك الأبرياء، كما قام المجرمون بإلقاء عدة قنابل يدوية، وخاصة في الباحة الثانية، وتمكّن أثناءها بعض المعتقلين في الباحة الأولى من الهرب والدخول إلى المهجع رقم (4) فتبعهم عدد من المجرمين وأطلقوا عليهم النار وقتلوهم، بعد ذلك قام القتلة بتقليب جثث الضحايا والإجهاز على كل من لاحظوا فيه بقية من حركة أو رمق، وهكذا أجهز المجرمون على المجموعة الأولى من المعتقلين، ثم انتقلوا إلى الباحة الرابعة، ففتحت المهاجع وطلب الشرطة من السجناء الابتعاد عن الأبواب وقام القتلة بإلقاء القنابل اليدوية على المعتقلين، وفتحوا عليهم أسلحتهم النارية، حتى أجهزوا على الجميع، وخرج القتلة بعد ذلك إلى الباحة الثالثة، ودخلوا الباحة السادسة وفعلوا بمعتقليها مثلما فعلوه بمعتقلي الباحة الرابعة، ولكن أحد الإخوة تمكن من الاختباء في دورة المياه القريبة من باب أحد المهاجع، وتمكّن من انتزاع البندقية من أحد القتلة، وأجهز عليه، ويدعى الرقيب إسكندر أحمد، وجرح شخصين آخرين، لكن أحد المجرمين أطلق عليه النار وقتله. ثم قلب القتلة جثث الضحايا، فأجهزوا على كل من وجدوا فيه بقية رمق، وتلطخت أيديهم وثيابهم بدماء الضحايا، وهكذا، وفي خلال دقائق أصبح جميع

معتقلي سجن تدمر في عالم الآخرة..عاد المجرمون من حيث أتوا، ووصلوا مطار المزّة بتمام الساعة الثانية عشرة والنصف، وانصرفت كل مجموعة إلى لوائها... كان الرائد معين ناصيف بانتظار المجموعة التي خرجت من اللواء 40 ليشكرهم على جهودهم، وقال لهم: (أنتم قمتم بعمل بطولة بعمل رجولة) ثم أمرهم بكتمان العملية وقال (ما لازم تطلع هالعملية خارج متّا!؟ يعني لازم تظل سرية ومكتومة) وفي اليوم التالي وزعت السلطة مبلغ (200 ل.س) على كل عنصر من العناصر الذين شاركوا بالمجزرة." أ هـ.

تسرّب أخبار المجزرة: رغم محاولة المجرمين إخفاء تلك الجريمة، فقد تسربت أخبارها منذ الأيام الأولى لوقوعها، وانتشرت الإشاعات في جميع أنحاء البلاد، لأن أجواء الكبت تساعد كثيراً على انتشار الإشاعات وتضخيمها(15)..
سمعنا بالمجزرة بعد شهر واحد من حدوثها، عندما وصلنا إلى السجن، واجتمعنا باخوة التقوا أثناء وجودهم بفرع المخابرات ببعض المعتقلين بعد المجزرة، كما سمعنا مرة ثانية في شهر تشرين الأول من عام 80 عندما التقينا باخوة آخرين، وكان من بين الإشاعات التي سمعناها أن الشرطة العسكرية قد أخرجوا السجناء إلى الصحراء، وقاموا بقتلهم هناك، كما راجت إشاعة أخرى مفادها: أن السجناء حاولوا الفرار من السجن، فتصدى لهم حرس السجن، وقتلوا كثيراً منهم. وإشاعة ثالثة تقول: إن السجناء قد تمردوا داخل السجن، فأدى ذلك لتدخل الجيش، وبالتالي قتل عدد كبير من السجناء. بالتأكيد... إن سكان مدينة تدمر قد علموا بتلك المجزرة، لأنه باستطاعة الناس الذين يسكنون قرب السجن أن يعلموا بما يجري داخل الأسوار، وهذا ما عرفناه أثناء وجودنا هناك، لأننا كنا نسمع أصوات الناس خارج السجن، كأصوات الأولاد أثناء اللعب، والزغاريد أثناء حفلات الزواج، إضافة لصياح الديكة، وبالتالي فإن المجاورين للسجن لا يصعب عليهم أن يعلموا بوقوع المجزرة في حينها، لسماعهم طلقات الأسلحة النارية، مع تفجير القنابل التي اختلطت مع صيحات الضحايا، وكذلك الأمر بالنسبة للقطع العسكرية المحيطة

بالسجن، خاصة الوحدات الخاصة المكلفة بحماية السجن من الخارج، وهذا ما علمته بعد خروجي من السجن..
ومهما يكن من أمر، فقد حُسم الشك باليقين، وتأكدت تلك الإشاعات بصورة لا تدع مجالاً لأي شك أو التباس، بعدما عرض التلفزيون الأردني اثنين من عناصر سرايا الدفاع عندها أيقن جميع الناس بوقوع المجزرة، مما أحدث ردود فعل عنيفة داخل سورية وخارجها، وقام العديد من وجهاء المدن بمقابلة المجرم حافظ أسد الذي أجابهم كعادته بطريقة ملتوية (كباطنيته) فهو لم يفند تلك الأخبار ولم يؤكدها، واكتفى بالقول:" لقد شكلنا محاكم ميدانية لتبتّ في أمر المعتقلين في تدمر.
واحتجّت العديد من المنظمات الإقليمية والدولية على تلك المجزرة، مما أربك النظام، فما كان من المخابرات النصيرية إلا أن دبّرت عملية إختطاف للسفير الأردني بلبنان في تلك الأثناء، ولكن أُرغم النظام النصيري على إطلاق سراحه نتيجة ردود الأفعال والضغوط التي تعرّض لها.
وكان لتسرّب أخبار المجزرة أسوأ الأثر على ذوي المعتقلين الذين سيطر عليهم القلق على مصير أبنائهم، وخاصة الذين اعتقلوا قبل المجزرة(16)، وهذا ما مكّن أزلام النظام من ابتزاز المزيد من الأموال من أولئك المساكين (راجع فصل الزيارات بسجن تدمر) إذ اتبع المجرمون طريقة في غاية الخبث والخسّة، لأنهم لم يفاتحوا أحداً من ذوي المعتقلين بمصير أبنائهم حتى ساعة كتابة هذه السطور (نهاية عام 1991) وما زال أولئك المساكين يعيشون بقلق دائم مشوب ببعض الأمل، وينتقلون من مدينة لأخرى، ويدفعون الرشاوى لأزلام النظام الذين يمنونهم بالوعود المعسولة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

آثار المجزرة: بعد المجزرة قام جهاز السجن بإزالة آثارها، فنقلت جثث الضحايا بالسيارات العسكرية، وتم دفنهم بصحراء تدمر بمقابر جماعية، ويقال بأنهم دفنوا بعض الأشخاص الذين ما زالوا على قيد الحياة، كما قاموا بإزالة آثار الدماء من باحات وزنازين السجن، وباشرت ورشات الدهان والبناء بترميم الجدران وطلائها، وعاد سجن تدمر لاستقبال المعتقلين بعد أقل

من ثلاثة أسابيع من المجزرة وعندما دخلنا السجن (بشهر تموز) كانت ورشات الدهان والترميم تواصل عملها، ورغم جميع محاولات طمس آثار المجزرة، فقد بقيت آثارها ظاهرة على بعض الجدران، وهذه أمثلة على ذلك..
ففي المهجع 19 من الباحة الرابعة بقيت بعض بقع الدم على الجدران، إضافة لقطعة من فروة الرأس التي التصقت بالسقف، نتيجة لإلقاء القنابل اليدوية على السجناء، وكذلك الأمر في المهجع 18 في نفس الباحة، فهو يحتوي على بقع دم على جدرانه إضافة لبعض الحفر نتيجة لإطلاق النار، أما في المهجع الرابع في الساحة الأولى فقد تمكّن بعض السجناء من الاختباء داخل المهجع في دورات المياه القريبة من الباب فتبعهم عدد من المجرمين وأجهزوا عليهم، وبعد المجزرة وصلت أولى الدفعات للمهجع المذكور فلاحظوا انسداداً بدورات المياه فحاولوا فتحها دون جدوى فقام أحد المعتقلين بإدخال يده لإزالة الانسداد فحصل على عدد كبير من الخراطيش الفارغة.

سوء معاملة المعتقلين في جميع السجون بعد المجزرة:
لقد كانت تلك الفترة (نهاية شهر حزيران من عام 1980) عصيبة جداً على جميع المعتقلين في كل السجون، ولكن بلغت ذروتها بالنسبة لنزلاء سجن تدمر الذين تعرضوا للإبادة الجماعية (راجع فصل المجزرة).
لقد صدرت الأوامر من الجهات العليا بإساءة معاملة المعتقلين في جميع السجون، وهذا أمثلة على ذلك:
ففي سجن المزّة بدمشق دخل الجلادون إلى الزنازين المخصصة للإسلاميين وبأيديهم السياط وانهالوا على السجناء ضرباً وإهانة، وبعد انتهاء (الحفلة) قالوا لهم: لقد جاءتنا الأوامر بهذا، ونحن أدينا واجبنا (أي بتنفيذ الأوامر الصادرة من الفراعنة إلى عبيدهم) كما صودرت الكتب والمصاحف وأجهزة الراديو، ومنعت الزيارات(17) وتم نقل جميع الإسلاميين لسجن تدمر بعيد المجزرة ومُنعت الصلاة منذ ذلك الحين وحتى الآن.
وفي سجن (كفر سوسة) تعرّض المعتقلون للإهانة والإيذاء، ومُنعت الصلاة وصودرت المصاحف التي كان مسموحاً بها قبل ذلك.

أما في السجن المركزي بحلب، فقد وصلت الوحشية ذروتها عندما دخلت عناصر الوحدات الخاصة إلى الزنازين يحملون بأيديهم الكبلات الكهربائية، وطلبوا من المعتقلين أن يخلعوا ملابسهم، وانهالوا عليهم ضرباً، وطلبوا منهم الخروج لساحة السجن.. بعد ذلك طلب الجلادون من السجناء أن ينقسموا إلى ثلاث مجموعات، الأولى أمرت بالاستلقاء على الأرض، والمجموعة الثانية أمروا بالجلوس على بطون المطروحين أرضاً، والمجموعة الثالثة يمسك أفرادها بأقدام الذين استلقوا على الأرض، ويقومون بجرّهم، والسياط تنهال على الجميع، تلسع وتمزّق جلودهم. إن المرء يعجز عن أن يصف المشهد، فالحصى والأشواك تمزّق أجسام الأخوة الذين يستلقون على الأرض، أما البقية فالسياط تلهب أجسامهم، وبعد أن امتلأت الساحة ببقع الدم، طلب المجرمون من الجميع أن يزحفوا على الأرض، والسياط تلسعهم، بل تشوّههم، والجلادون يدوسون عليهم بنعالهم، حتى تعب الأوباش من تلك المجزرة الهمجية، عند ذلك طلبوا من المعتقلين الدخول لزنازينهم، وقد امتلأت أجسامهم بالجروح والقروح، وبقيت آثار تلك الحفلة الرهيبة على أجسام البعض عدة سنوات، تشهد على همجية أولئك الأوباش وساديتهم.

وصف سجن تدمر:
لابد لنا قبل الحديث عن إرسالنا لسجن تدمر، وكيف قضينا تلك الأيام، من لحظة دخولنا وحتى ساعة خروجنا، من تقديم لمحة موجزة عنه، نصف فيها ذلك السجن، ليتمكن القارئ من تصوره، واستيعاب الأحداث، والأماكن التي وقعت فيها تلك الأحداث.
دخلنا سجن تدمر في شهر تموز من عام 1980 وخرجنا منه بعد سنوات عجاف مريرة مرارة الموت والعلقم، وكنا مغمضي الأعين عند دخولنا وخروجنا، لذلك لم نر شيئاً من معالم السجن الخارجية، أما معالمه الداخلية، فإنني أعلمها بكل تفاصيلها، لأننا تنقلنا خلال فترة وجودنا هناك بين مختلف الباحات، كما قمنا بأعمال السخرة، كتوزيع الطعام والماء والتنظيفات، خلال فترة

طويلة من وجودنا فيه، مما أتاح لنا معرف معالم السجن الداخلية بكل تفاصيلها.

المواصفات: يتألف سجن تدمر العسكري من حوالي 40 زنزانة جماعية، موزعة على ست باحات، مفصولة عن بعضها البعض بفتحات ضيقة نسبياً، لا تسمح بمرور أكثر من شخص واحد، وهذه الفتحات يمكن إغلاقها، لأنها تحوي أبواباً حديدية وأقفالاً، وذلك ليتم فصل الباحات عن بعضها البعض، وفتحة الباب محاطة بإطار حديدي سميك ذي حواف حادة نسبياً، وأما الجهة السفلى من الباب، فتحتوي على حافة إسمنتية ترتفع عن الأرض 30 إلى 40 سم لعرقلة اندفاع السجناء إلى الباحة المجاورة عند حدوث أي تمرد بالسجن، وعادة يقف الجلادون وبأيديهم السياط عند فتحة الباب من الداخل والخارج، ليستقبلوا السجناء الداخلين والخارجين، ويتجمع السجناء أمام تلك الأبواب، بسبب هذه العوائق، وكثيراً ما يحصل عند الحمام والحلاقة هذا الاختناق والتجمّع البشري للسجناء، فتنهال السياط متسارعة لإيقاع أكبر وأكثر كم من العذاب والآلام بهم.
تبدأ هذه الباحات بباحة الإدارة، وتسمى باحة القلم، وتقع عند مدخل السجن في الجهة الشرقية، وهي تضم عدداً من الأشجار والمكاتب، وتحوي في قسمها الداخلي المهجع رقم(1) الذي يضم عدداً من السجناء القضائيين، أي السجناء غير السياسيين من العسكريين، وهؤلاء يقومون بأعمال الخدمة، كتوزيع الطعام، والتنظيفات العامة، والحلاقة للمساجين، ويسمون بالبلدية، لأنهم يقومون بأعمال البلدية.

الباحة الأولى: وتأتي بعد باحة القلم، ويطلق عليها السجناء اسم باحة التعذيب، أو باحة الاستقبال، ويفصلها عن باحة الإدارة باب حديدي بمغلاق، وتضم أربعة مهاجع مرقمة بالتسلسل 2 ،3، 4 بالإضافة إلى المهجع المزدوج رقم (5، 6) وأرضها مفروشة بالإسفلت المتآكل، لتعاقب المساجين والزمان، إذ تحتوي الكثير من الحفر، وتجري فيها حفلات الاستقبال البشعة للقادمين الجدد، كما أنها استعملت للحلاقة في الأشهر الأولى بعد المجزرة الدموية، وقد مُلئ المهجعان

4 و 5 - 6 المزدوج من الأيام الأولى التي تلت المجزرة البشعة، وأما المهجعان 2، 3 فقد ملئا في عام 1981 ويعتقد بعض الإخوة أن المهجعين المذكورين كانا يضمان سجناء سياسيين غير إسلاميين، لأن معاملتهم كانت أفضل (نسبياً) من معاملة من معاملة بقية السجناء الإسلاميين، وأما المهجع رقم (4) فيقال: إنه كان في الماضي صالة للسينما أو للمسرح، لأن تصميمه الداخلي يدل على هذا الغرض، أما المهجع المزدوج رقم 5 - 6 فإنه كبير ولكنه مظلم ورطب، وقد انتشر مرض السل بين نزلائه عام 1982.

الباحة الثانية: وتسمى أيضاً بباحة الحمام، وهي تتصل بالباحة الأولى بباب حديدي، وهي تضم أربعة مهاجع هي: المهجع رقم 8 ويليه الحمام الذي يتألف من غرفتين، كما تحتوي الباحة على صنبور ماء قرب الحمامات، ثم المهجع رقم 9 و 10 و 11 وهذه الباحة على شكل زاوية قائمة، والمهجع الأخير رقم 11 تفصله عن بقية المهاجع باحة صغيرة لها باب مستقل، وقد استعملت هذه الباحة للحلاقة أيضاً والتعذيب في صيف عام 1980 لذلك فإن الأخوة نزلاء الباحتين الأولى والثانية كانوا يعيشون في حالة دائمة من الخوف والذعر بسبب سماعهم صراخ المعذبين، خاصة نزلاء المهجع رقم 4 الذي تطل نوافذه الخلفية على باحة الحمام، واستخدم المهجع رقم 11 في البداية لتجميع الأخوات المعتقلات من حرائر المسلمين، استبدل في منتصف عام 1981 بغرفة المستوصف التي تقع عند مدخل الباحة السابعة، وفي شهر تموز من عام 1981 قام جهاز السجن بفرز المعتقلين، واستخدم المهجع رقم 8 لتجميع المعتقلين الذين حكموا بالبراءة وكان عددهم حوالي مئة شخص.. وكانت المهاجع الأخرى تضم عدداً كبيراً من الأبرياء، ولكنهم اكتفوا بفرز السجناء القدماء والذين دخلوا السجن بعد المجزرة الدموية مباشرة.. وعومل هؤلاء في البداية بصورة أقل فظاظة من بقية السجناء نزلاء الزنازين الأخرى، ولكنها ما برحت أن ساءت المعاملة فيما بعد، ليستوي الجميع في الآلام. وأما المهجع رقم 9 فاستخدم للمعتقلين الذين حكموا في سجن المزّة أحكاماً تتراوح ما بين العامين

والخمسة، واستخدم المهجع رقم 10 لتجميع السجناء ممن حكموا أحكاماً أطول حتى 15 عاماً وما فوق.
أما المهجع رقم 11 فقد استخدم لتجميع من حكم عليهم بالسجن المؤبد، وقام جهاز السجن في بداية عام 1982 في شهر شباط بنقل نزلاء هذه الباحة إلى الباحة السابعة ماعدا نزلاء المهجع 11 الذين أبقوا في مكانهم، وسقف الباحة تم تشبيكه بالأسلاك الشائكة احتياطاً.

الباحة الثالثة: وهي كبيرة ذات أرض إسفلتية تتصل بالباحة الأولى بباب حديدي صغير، كما تتصل بالجهة المقابلة بالباحة الرابعة بباب آخر، وتتصل بالباحة السادسة بفتحة واسعة تسمح بمرور السيارات منها، وتضم المهجع رقم 12 الذي يعتبر امتداداً للمهجع الثامن من الباحة الثاني، كما تضم أيضاً المهجع رقم 13 على نفس الصف، وأما الجهة الأخرى فتحوي المهاجع ذوات الأرقام 14 - 15 - 16 مع مجموعة الزنازين المنفردة، ويطلق عليها الجلادون اسم (السيلونات)(18).
وتقع بجانب المهجع رقم 16 كما تحتوي هذه الباحة على صنبور ماء يقع قرب المهجع رقم 13 وعند التقاء الباحة الثالثة بالسادسة يوجد مكان خاص لتوزيع الطعام وتجميع النفايات فتدخل السيارات المحملة بالطعام لذلك المكان، وتفرغ حمولتها، لتخرج محملة بالفضلات، واستحدث في هذه الباحة مهجع جديد عام 1982 وحمل الرقم 7 ويقع قرب الباب الذي يصلها مع الأولى.

الباحة الرابعة:
وتتألف من المهاجع ذات الأرقام بالتسلسل من 17 حتى 24 ومساحتها ضيقة نسبياً رغم كثرة عدد مهاجعها، وأرضها إسمنتية مربعة الشكل، تحتوي على حفر كثيرة، ويقع في منتصفها حوض ترابي يستعمله الجلادون في الشتاء لزراعة البصل والفجل، ويستخدمون السجناء لري الحوض ورعايته، أما مهاجعها فمختلفة المساحة، منها الكبيرة مثل الرقم 18 و 19، ومنها الصغيرة كالمهجع رقم 20 و 21 وجدران هذه المهاجع منخفضة لأنها من القسم الذي بني قديماً(19) وجرى بناء جدران إضافية فوق جدرانها (فوق السقف)

لتزيد من ارتفاعها، وتم تشبيك المسافات الواصلة بين الجدران بالأسلاك الشائكة، أي أن الباحة من الأعلى مسقوفة بشبكة من الأسلاك الشائكة كالباحة الثانية.
هذا ويقال بأن المهجع رقم 17 كان يضم عدداً من المعتقلين السياسيين من غير إسلاميين كالبعثيين جناح العراق وجماعة صلاح جديد، وكانت معاملاتهم أقل سوءاً من معاملة بقية السجناء، وكان عددهم 24 شخصاً عام 1980 ثم زاد عددهم إلى 49 شخصاً بعد اعتقال دفعة جديدة تضم 25 شخصاً من مدينة حمص عام 1981.
أما المهجع رقم 24 فيقع في مواجهة المهجع 17 عند مدخل الباحة، وضم عدداً قليلاً من السجناء (13 شخصاً) ولم يزد عددهم لأن جهاز السجن لم يضف إليهم أحداً من الوافدين الجدد، لأمر مهم يخافه الجلادون، ويظن بعض الأخوة أن هؤلاء المعتقلين هم البقية الباقين من السجناء الذين كانوا أثناء المجزرة الوحشية الآثمة، أي أنهم الناجون منها (والله أعلم) وباختلاطهم بالسجناء الآخرين تشيع وتنتشر أخبار المذبحة الهمجية، وأسماء وأحداث تلك الجريمة القذرة. إن المهجع رقم 23 مظلم، رطب لذلك انتشر فيه مرض السل بعام 1982.

الباحة الخامسة: عند التقاء الباحة الثالثة بالساحة السادسة يوجد باب يؤدي إلى الداخل بدهليز ينتهي بباب حديدي محصن كتب عليه (الباحة الخامسة) وتقع إلى جانبها غرفة المحرس(20) إذ يتجمع الجلادون هناك دائماً ولم نستطع أن نعرف شيئاً عن هذه الباحة طوال فترة وجودنا بالسجن وبقيت سراً غامضاً ولغزاً مبهماً ويقول بعض الإخوة: إنها تضم عدداً من الزنزانات المنفردة، والتي كانت تستعمل للسجناء المتهمين بالتجسس، أو تستخدم للسجناء العسكريين الذين يرتكبون الكثير من المخالفات أو جرائم خطيرة أخرى أثناء فترة اعتقالهم، والله أعلم.

الباحة السادسة: وهي أكبر ساحات السجن على الإطلاق، كما أنها اكتسبت أهمية خاصة(كالأولى) حيث كانت تجري فيها عمليات الإعدام، راجع فصل عمليات الإعدام.. وهي تحتوي على مهاجع قديمة وغرفة الورشة، وهي المهجع رقم 25 و 26 و 27 و 28

والمهجع 31 أما القسم الآخر، فقد بني حديثاً، ويضم المهاجع المرقمة بالتسلسل 32 و 33 و 34، وبني مهجع جديد أيضاً قرب المهجع 34 في عام 1982 فلم تعد السجون تتسع، لقد استعمل المهجعان 31 و 32 لتجميع الأحداث (القاصرين دون سن 18) عندما قام جهاز السجن بفرزهم عن بقية المعتقلين في نهاية عام 1980 وكان عددهم كبيراً (حوالي 400 حدث وقاصر) وهكذا جمعت الطغمة حتى الأطفال داخل السجون لتخرج حبل الخنوع والركوع الأسدي للصهاينة، ولكن... هيهات.

باحة المستوصف: وهي منفصلة عن الباحتين: السادسة والسابعة، وتقع بينهما، وتضمم إلى جهتها اليسرى غرفة المستوصف، والذي استخدم لتجميع الأخوات المسلمات المعتقلات منذ عام 1981 بعد أن تم نقلهن من المهجع رقم 11 وكان عددهن بضع عشرة امرأة، وكان بينهن طبيبة من دمشق اسمها فادية دهان، وهي متخرجة عام 1979 اعتقلت مع جميع أفراد أسرتها (والدها واثنين من اخوتها أحدهم عمره 13 سنة وزوجة أبيها) بعد أن قتلت المخابرات اثنين من اخوتها هما الشهيدان فواز وبشار، وأخلي سبيلها مع والدها وخالتها وأحد اخوتها في نهاية عام 1981 أما شقيقها الآخر فقد استشهد في منتصف عام 1981 على أعواد المشانق في دياجير الظلم والقهر والحقد الطائفي اللئيم.
أما الجهة اليسرى لهذه الباحة فتضم باحة صغيرة تحتوي على المهجعين رقم 29 و 30.

الباحة السابعة: تم استحداثها عام 1981 وهي تضم 4 مهاجع كبيرة هي المرقومة بالتسلسل 35 - 36 - 37 - 38 واستخدم المهجع 35 في بداية عام 1982 لتجميع المعتقلين نزلاء المهجع رقم 8 في الباحة الثانية والذين جرى فرزهم في شهر تموز من عام 1981 وهم ممن حكمت عليه المحاكم الميدانية بالبراءة.
وأما المهجعان رقم 36 و 37 فاستعملا للمعتقلين الأحداث نزلاء المهجعين رقم 31 و 32 وأما المهجع رقم 38 فاستخدم لتجميع المعتقلين نزلاء المهجعين رقم 9

- 10وهم ممن حكموا في سجن المزة لفترات تتراوح ما بين عامين و 15 عاماً.. وكان عددهم حوالي مائتي معتقل، بينهم عدد كبير من ضباط الجيش، كان من بينهم الرائد الطيار عثمان الأصفر (مواليد اللاذقية عام 1949) أسر في حرب رمضان عام 1973 واشتهر باسم الصاروخ الخامس عندما سئل أثناء المقابلة الإذاعية في الأسر عن عدد الصواريخ التي تحملها طائرته (ميغ 21) فأجابه: إنها تحمل خمسة صواريخ، فتعجب المحقق اليهودي من إجابته ولم يفهم مغزاها، فقال له: نحن نعلم أنها تحمل 4 صواريخ فقط، فأجابهم: بأنها أربعة صواريخ فعلاً ولكنه هو ذاته الصاروخ الخامس في الطائرة، فاضطر المحقق إلى قطع المقابل الإذاعية التي كانت تبث على الهواء مباشرة، وهكذا انتقم العملاء من كل المستويات إرضاء لأسيادهم في تل أبيب وواشنطن.

لقد اعتقل هذا الأخ عام 75 أي بعد عام واحد فقط من عودته من الأسر، ومكث عامين ونصف العام في سجن المزّة بتهمة انتمائه للبعث العراقي، وأُعيد اعتقاله بنفس التهمة عام 1980 وأدخل سجن المزة وحكم عليه بالسجن 15 عاماً، نقل بعدها إلى سجن تدمر في نهاية عام 1980.

وتم تسريحه من الجيش بعد أن اعتقل في المرة الأولى، ولم يسمح له بمغادرة البلاد، إذ عمل في مجال التجارة ليعول أسرته. وهكذا يكون مصير الشرفاء من أبناء سورية على أيدي الأوباش النصيريين الباطنيين.

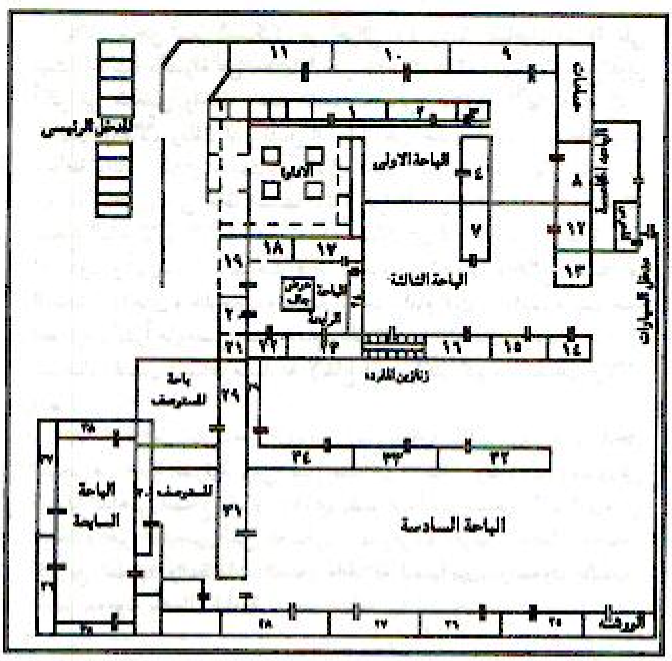

(مخطط سجن تدمر)

وصف مهاجع سجن تدمر: إن أكثر المهاجع تم بناؤها قديماً، فهي ذات جدران سميكة من الحجارة، وأسقفها منخفض، وأبوابها حديدية رهيبة، يتم إغلاقها من الخارج بدقر حديدي غليظ، يوضع في نهايته قفل كبير، وتحتوي هذه المهاجع على نوافذ ضيقة، وفي جهة واحدة فقط من الزنزانة، يضاف إلى ذلك الشرفات العريضة في واجهة المهاجع، حيث توجد النوافذ، مما يمنع وجود تيارات هواء نقية، لذلك فهي مظلمة، ورطبة لوجود صنابير المياه بداخلها.

إن كل مهجع يحتوي على دورة مياه واحد مزدوجة مع صنبور للماء تنفصل عن بقية أجزاء الزنزانة بجدار في منتصفه فتحة تشبه الباب، ولكن لا وجود له به: وقد لا تنفصل دورة المياه عن المهجع بأي حاجز، إنما تكون في إحدى الزوايا، محاطة بجدران يصل ارتفاعها إلى متر ونصف المتر فقط، فتكون شبه مكشوفة الداخل، لأن الجدران لا تصل للسقف فتستر من في بالداخل، ولها باب وضعت عليه بطانية بالية لتستر من خلفها، ولذلك فإن رائحة البول والغائط تخرج للمهجع مباشرة، وتبقى فيه، بسبب سوء التهوية، وعند انقطاع الماء تكون الأوضاع لا تطاق، وهذا ينطبق على أكثر المهاجع القديمة، ويضاف إلى ذلك الرطوبة المنبعثة من صنبور

الماء نتيجة عمليات الجلي والغسيل المستمرة. وأدت هذه الأوضاع إلى إصابة أكثر المعتقلين بأمراض شتى، لتزيد إلى عنائهم وشقائهم وآلامهم عاهات إضافية من السل والربو وأمراض الروماتيزم وغيرها.

الإنارة والتهوية: يحتوي كل مهجع على مصباحين كهربائيين أو أكثر تتمم إنارتها من قبل جهاز السجن، فلا وجود للمفاتيح داخل المهجع، وتبقى المصابيح مضاءة طول الوقت. ولأن الدفء منعدم أساساً في الزنازين، لذلك فالبرودة شديدة خلال فصل الشتاء، كما أن أكثر الزنازين تكف (ترشح) الماء من أسقفها عند هطول الأمطار في فصل الشتاء، لأنها قديمة متهالكة، ولم تجر عليها أية عمليات ترميم، ولزيادة العذاب طبعاً. أما المهاجع الحديثة، فتمتاز بارتفاع جدرانها، وبنوافذها الواسعة الموجودة في القسم العلوي، والنوافذ لا تحتوي على شبابيك، إنما تم تشبيكها بالأسلاك الحديدية فقط، فهي مفتوحة دائماً (وكذلك الحال في المهاجع القديمة) كما تحتوي المهاجع الحديثة على فتحات واسعة بسقفها (بمساحة متر مربع) ولم يتم تغطيتها بشيء، إنما تم تشبيكها بقضبان حديدية (تسمى الشراقات) لذلك فالتهوية جيدة والحالة مقبولة نسبياً في فصل الصيف، خاصة أثناء النهار، أما في الشتاء فالوضع سيء للغاية، فالبرد شديد، والمطر يسقط من الفتحات العلوية على المعتقلين مباشرة، وبما أن تدمر منطقة صحراوية، فالجو حار جداً في الصيف أثناء النهار، مع انخفاض ملحوظ في درجة الحرارة ليلاً، وأما في الشتاء، فالحرارة منخفضة هناك، ولانعدام التدفئة، إضافة إلى النوافذ المفتوحة مع الفتحات العلوية، في السقف، علاوة على الهواء الذي يتسرب من جوانب الأبواب الحديدية بسبب انكماشها الناتج عن برودة الجو، كل هذه العوامل تجعل درجة الحرارة داخل الزنازين لا تختلف عما هي خارجها.

الملابس والأغطية التي يملكها المعتقلون: أكثر المعتقلين لا يملكون سوى الملابس التي اعتقلوا بها، فحوالي 95% منهم لم يسمح لأقاربهم بزيارتهم. ونتيجة لعمليات التعذيب المستمرة (من ضرب وزحف

وجر على الأرض...) فإن الملابس قد تحولت لأسمال بالية بعد فترة قصيرة من دخول السجن، وقد قام المعتقلون بترقيع ملابسهم قدر استطاعتهم لترد عنهم غائلة البرد، والبقية أي 5% من السجناء فقد سمح لبعض أقاربهم بزيارتهم، وكانوا يوزعون ما يحصلون عليه من الملابس والنقود والطعام على إخوانهم، وفي نهاية عام 1980 سمح جهاز السجن لأول مرة بشراء بعض الحوائج، فقد وزع الجلادون ورقة وقلماً على كل زنزانة، وطلبوا من السجناء تسجيل حاجاتهم من المواد الضرورية، لكنهم لم يحضروا جميع المواد التي سجلها السجناء، إنما اشتروا بعض الملابس والجوارب والصابون. وهنا كانت فرصة ثانية للحصول على بعض الملابس، ورغم ذلك، فقد ظلت كمية الملابس قليلة جداً لا تقي من البرد (لا يزيد عددها عن 5 قطع للسجين الواحد) ويقوم الشخص بارتدائها جميعاً أيام الشتاء وأثناء النوم وفي النهار.

أما البطانيات فقد قام جهاز السجن بتوزيع 3 بطانيات مع عازل خلال أيام الأولى لمجيئنا للسجن، والعوازل عبارة عن قطعة من شادر سيارة بطول مترين وعرض متر واحد، خيط على أحد وجوهه قطعة من بطانية بالية، وهي بدل الفراش، لذلك فهي قاسية ورقيقة لاتقي من برودة الأرض ولا ترد زمهرير الشتاء عن السجناء، لكن بعد ذلك، زاد عدد المعتقلين دون أن تزاد البطانيات والعوازل، فأصبحت حصة السجين الواحد بعد ذلك لا تزيد عن بطانيتين، يكون مقبولاً نسبياً خلال فصل الصيف، خاصة في المهاجع الحديثة، ورغم لك، فقد كنا نشعر بالبرد أثناء الليل (لأن الأغطية قليلة) أما في فصل الشتاء فالبرد شديد أثناء الليل والنهار، وكنا لا نستطيع النوم من شدة البرد ليلاً.

أما في المهاجع القديمة فالوضع أسوأ من ذلك بكثير، فهو غير مقبول صيفاً ولا شتاءً، وينطبق عليه المثل القائل (في الصيف حريق وفي الشتاء غريق)

ويسعى المعتقلون جاهدين لتلطيف الجو داخل الزنازين في فصل الصيف بتحريك الهواء، فيمسك اثنان بالبطانية، ويقومون بتحريكها باتجاه النوافذ، بغية طرد الهواء الفاسد إلى الخارج وتلطيف الجو، كما تفعل

المراوح، ويتبادل المعتقلون الأدوار على هذا العمل ليلاً ونهاراً، حتى يصبح الوضع محتملاً خلال أيام الصيف.
وتمكن المعتقلون من ترقيع ملابسهم الممزقة، وذلك بانتزاع الخيطان من الملابس للترقيع، وكذلك استخدمت الخيطان المأخوذة من الأكياس البلاستيكية المستعملة للخبز (وهي أكياس الدقيق) أما إبر الخياطة فكانت في البداية قطعة قش قاسية كشوكة، أو من المكانس، وبما أن الملابس بالية، فيمكن خرقها بها، واستخدمت بعض الأسلاك المعدنية التي حصلنا عليها بطريق الصدفة، لصنع إبر الخياطة، التي لم يسمح لها بدخول السجن مع الخيطان إلا في عام 1983 عندما سمح للمعتقلين بشرائها.

سجن تدمر يعاود نشاطه بعد المجزرة: بعد محاولة اغتيال المجرم حافظ أسد، وما سبقها من عمليات، وما لحق بها من أحداث، أفقدت تلك العمليات الجريئة السلطة صوابها، مما دفع بأجهزة القمع أن تتمادى في أساليب قمعها، فكان أن اشتدت عمليات الاعتقال، فلا يكاد يمر يوم واحد إلا وتستقبل فيه تلك المراكز أعداداً كبيرة من المعتقلين الجدد، مما جعل فروع المخابرات وبقية مراكز الاعتقال المؤقتة في مختلف المحافظات، تضيق بسجنائها، عندها صدر قانون العار رقم (49) والذي يقضي بإعدام كل منتسب لجماعة الإخوان المسلمين، وقد شكلت محاكم صورية لتتولى تنفيذ ذلك القانون الهمجي، والتي أطلق عليها اسم المحاكم الميدانية (راجع فصل محاكم التفتيش). وبدأت فروع المخابرات في جميع المحافظات بإرسال المعتقلين إلى سجن تدمر الجهنمي، بعد إزالة آثار المجزرة.
إن العادة المتبعة في هذا المجال، أن تقوم المخابرات العسكرية بإرسال معتقليها إلى تدمر مباشرة، ماعدا بعض الاستثناءات، حيث يرسلون المعتقلين إلى دمشق، ومن ثم إلى تدمر، أما المخابرات العامة (أمن الدولة) فجميع فروعها في مختلف المحافظات ترسل المعتقلين إلى سجن (كفر سوسة) بدمشق ليتم إعادة ضبط الاعترافات، ومن هناك يرسل السجناء إلى تدمر، وأما الشعبة السياسية، فإنها تحول معتقليها إلى دمشق، ومن هناك يتم تحويلهم إلى سجن تدمر أو المزة

الرهيبين، وقد كان عدد معتقلي هذه الشعبة قليلا مقارنة بشعب المخابرات الأخرى، وما أنشئ من أجهزة أخطبوطية همجية أخرى. لقد كنت واحد من الذين قدر عليهم أن يدخلوا ذلك السجن المخيف بعد فترة قصيرة فقط من المجزرة الرهيبة، فكيف كان ذلك؟.

الخروج من فرع المخابرات: هنالك حلَّ رمضان شهر الرحمة والبركة، فاستبشر المعتقلون بقدومه خيراً، وتفاءلنا باقتراب الفرج، كنا نظن أن السلطة قد تقوم بإخلاء سبيل المعتقلين الأبرياء الذين لم يثبت التحقيق أية تهمة تستحق الذكر عليهم وهؤلاء يمثلون السواد الأعظم من المعتقلين أو الإفراج عن بعضهم، وكان أكثرنا يحسن الظن في أولئك الوحوش الخسيسة والجرذان المذعورة، لكن سرعان ما خابت الظنون، وتبددت الأحلام، وحدث ما لم يكن بالحسبان، وعرفنا بُعد الشقة ما بين الآدمية والوحشية.
حضر مدير السجن مع بعض الجلادين ذات ليلة، حاملاً معه قائمة، فيها بعض الأسماء، فظن أكثرنا في بداية الأمر، أنه إخلاء سبيل، إلا أن الوقت كان متأخراً (حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً)، كنا نصلي صلاة التراويح، وكان اسمي موجوداً في تلك القائمة المشؤومة وطلب منا الجلاوزة أن نجمع أغراضنا، وأن نهيئ أنفسنا، ثم أخرجنا من الزنازين، وتم تجميعنا في إحدى الصالات، وجاء الجلادون بالقيود الحديدية والسلاسل والغمامات، هنالك أصبنا بالانقباض، وسيطر علينا الخوف، وتبددت الآمال، وعرفنا أنهم يريدون نقلنا إلى سجن آخر، أو ربما إلى إحدى محاكم التفتيش، كما كانوا يرددون بتلك الأثناء، لأن اللغط حولها قد زاد في تلك الأيام المشؤومة من تاريخ بلدنا المنكوب. وقام الجلادون بوضع الغمامات على أعيننا، ووضعت القيود الحديدية في الأيدي، وربطت بالسلاسل، حتى صار الجميع كتلة واحدة، فكل واحد منا مقيد الأيدي، ومربوط بالسلاسل إلى الذي يليه وهكذا.
أجلسنا على الأرض، وبدأ الجلادون ينهالون علينا بالسياط، فرحنا نصرخ ونستغيث ولا من مغيث إلا الله الذي يعلم السر وأخفى. كم تساءلت في تلكم الظروف الرهيبة: هل يعلم أحد بأحوالنا وما نقاسيه ونتحمله؟

الله أعلم. لقد مارس الجلادون إطفاء السجاير في وجوهنا ورقابنا ورؤوسنا وراح آخرون يبصقون علينا حتى امتلأت وجوهنا بالبصاق وآخرون راحوا يرفسوننا بأرجلهم على صدورنا وظهورنا، بل ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك، فوضعوا نعالهم فوق رؤوسنا ناهيك عن الشتائم والألفاظ المنحطة والحقيرة التي يعف اللسان عن ذكرها.

قضينا وقتاً عصيباً على هذه الحالة، قاسينا خلالها من الإيذاء والقهر والإهانة ما لا يعلمه إلا الله، وما يعجز الإنسان عن وصفه، لأنني أجد نفسي عاجزا عن وصف مشاعرنا في تلك الأثناء، فهذا أمر لا يعلمه ولا يدركه إلا من عايش تلك الحالات بين أيدي الظالمين، وبعدها، طلب منا الزبانية الوقوف، لكن أنى لنا القدرة على ذلك بعد أن أخذ الإعياء منا والإنهاك كل ما أخذ؟! لقد تيبست مفاصلنا من الجلوس الطويل على الأرض، وأصيبت أطرافنا السفلية بالخدر والنمل، وسيطر علينا الخوف والهلع، فلم نعد نفكر بالآلام والهموم، وكنا في حالة انهيار شامل.

راح الزبانية يخرجوننا من القبو الأرضي، وطلبوا منا تسلق الدرج، وكثير منّا وقع على الأرض بسبب عصب العيون والإنهاك والإرباك الناشئ عن الرعب وساعدنا الجلادون على صعود الدرج، لينتهوا من المهمة بأسرع وقت.

أدخلنا بعدها سيارة باص أعدت لهذه المهمة، فسترت جميع النوافذ بالورق، لئلا يرانا أحد من الخارج أثناء ترحيلنا، جلسنا في مقاعد محددة، وأحاط الجلادون بنا من الأمام والخلف، وطلبوا منا حني رؤوسنا للأسفل، وكل من حاول رفع رأسه كانت السياط تنهال عليه وتلسعه كالجمر الحارق. انطلقت بنا قافلة العذاب، ورافقتنا أعداد أخرى من السيارات التي اكتظت بعناصر المخابرات المدججين بالسلاح خوفاً على صيدهم الثمين... فكرت... ودارت في مخيلتي الكثير من الأفكار والصور والتساؤلات: إلى أين نحن ذاهبون؟! طبعا إلى سجن آخر، أو إلى محاكم التفتيش العصرية التي تتناسب مع الحقد الطائفي الدفين، وإذا كان الأمر كذلك، فما هو الجرم الذي اقترفته حتى أجد هذه

الوحشية، ولأدخل السجن، أو حتى لإرسالي إلى إحدى محاكمهم؟!
امتد الوقت وتطاول، والسيارة تنهب الطريق مسرعة، عندها علمت أن الرحلة طويلة، فسيطر علي الخوف أكثر فأكثر، ورافقتني أشباح للموت والكرب كثيرة... كنا نسمع أنهم يريدون تجميع الإخوان المسلمين في سجن تدمر، ولطالما صرح رفعت أسد النصيري بأنه سيخضر بادية الشام بأيديهم، فذلك أنفع من وجودهم في المجتمع، لأن عزلهم ضروري. فأخذت أتساءل: ما علاقتي بالإخوان المسلمين لأذهب إلى سجن تدمر؟ هل كتب المحققون في إفادتي أشياء أخرى لم أعترف بها؟ هل لفقوا لي تهمة ما؟ وهل.. هل.... وهل..؟.
كنت أمنّي نفسي أثناء وجودي بفرع المخابرات، بأن الكثير من أقاربي يعرفون بعض رموز النظام والمحسوبين عليه، ولعل أحدهم يتدخل لي عندهم، فيتمكن من إخلاء سبيلي بطريقة أو بأخرى، ولكن ذلك لم يحصل، هاأنذا في طريقي إلى السجن أو إلى المحكمة.. ورحت أتساءل ثانية وبمرارة: لماذا يحدث ذلك؟ هل تخلى عني أصحابي وأقاربي؟ هل يعلم أحد بحالي؟ هل صرت منسيا في هذه الدنيا فلا أحد يذكرني؟ أم تراهم (أي أقاربي) لا يتجرءون أن يفعلوا ذلك؟ هل تدخل بعضهم وحاول مساعدتي ففشل في إقناع الجلادين ببراءتي، بل أقنعهم المجرمون بأني شخص خطير وفعلت كيت وكيت؟؟.
كيف تحلو لأقاربي الحياة هناك خارج أسوار السجون، وأنا هنا أعاني ما أعاني بعيداً عنهم؟؟ هل كذا؟ كيف كذا؟ لماذا كذا؟!! وأخيراً قلت في نفسي: لقد انقطعت بنا كل أسباب الأرض، ولم يبق لنا إلا حبل السماء نعتصم به، وكفى بالله وكيلاً، وكفى بالله حسيباً (وتوكل على الحي الذي لا يموت، وسبح بحمده، وكفى به بذنوب عباده خبيراً) حسبنا الله ونعم الوكيل، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إنا لله وإنا إليه راجعون.
وبالطبع إن ضعف الإنسان يظهر عند الشدائد والنوائب، حيث تسيطر عليه وساوس الشيطان واليأس والقنوط، وربما ظن الإنسان بربه الظنون، كما ورد في القرآن الكريم: (وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا). ومهما يكن من أمر فإن تلك

المحنة كانت فوق طاقة التحمل البشري. (ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به). لقد سيطر علي الخوف، وغمرني شعور بالرعب، لكني أسلمت أمري لله، ورحت أقرأ ما أحفظه من آيات القرآن الكريم، والأذكار، والأدعية سائلاً المولى سبحانه وتعالى السلامة والمغفرة، مستمدا منه العون والتأييد. وكم كنت أدعو الله بهذا الدعاء (اللهم يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف، اللهم إني لا أسألك رد القضاء بل أسألك اللطف فيه، اللهم الطف بنا فيما جرت به المقادير) نعم لقد سيطر علينا الخوف لأن كل ما حولنا كان مجهولاً ومخيفاً، وكننا نتعامل مع طلاسم ومعميات ومجاهيل، كباطنية ذلك النظام العفن المتفسخ، وهذه حالتنا طوال فترة سجننا..

وبعد ساعات مريرة من الإرهاق في السفر، تعرضنا خلالها لشتى صنوف الإهانة والقهر والإيذاء، وصلنا إلى سجن تدمر، دون أن نرى شيئاً من الطريق أو من معالم ذلك السجن المخيف من الخارج.

الوصول إلى سجن الموت: وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً).

عندما وصلت قافلتنا إلى مدخل السجن، علت الأصوات، وراح الزبانية يسحبوننا إلى خارج السيارة، بعد أن فكوا القيود والسلاسل والغمامات عنا، وما إن ينزل أحدنا من السيارة، حتى يستقبله زبانية السجن بالضرب واللكم والرفس والدفع للداخل، وهناك اختلطت الأصوات بين عواء الزبانية، مع صراخ المعذبين، ولسعات السياط، حتى تم إدخالنا إلى السجن. أوقفنا، ووجوهنا متجهة إلى أحد الجدران، والسياط تنهال علينا من كل جانب، وبعد وجبة رهيبة من الضرب المبرح، راح الزبانية يدخلونا واحداً بعد الآخر إلى غرفة القلم (السجل) هناك يجلس (مساعد أول) مع دورية المخابرات التي أحضرتنا، أما الكيفية التي يدخلوننا بها لغرفة القلم، فقد ذكرتني بطريقة سحب الخراف إلى عتبة الذبح إلى المسلخ، وربما تكون عملية ذبح الخراف أقل قسوة؛ إذ يمسك أحد الجلادين من الشرطة العسكرية برقبة المعتقل، ويدفعه أمامه بعنف، وربما وقع المعتقل على الأرض مع

الشتائم والنهر والضرب، حتى يقف أمام الطاولة التي يجلس المساعد عليها الذي يقوم بتوجيه الأسئلة لنا.
- ما اسمك؟ وما اسم والدك ووالدتك؟... تاريخ ومكان الولادة، المهنة، العنوان، الحالة العائلية... وهكذا.
والويل كل الويل لمن كان متعلماً، كأن يكون طبيباً أو مدرساً أو مهندساً.... الخ إذا سيحفظ الجلادون شكله، ويصير معروفاً عندهم، ويخص بعذاب وإهانة شديدين.
ففي هذه اللحظات لا يسمع الإنسان إلا أصوات السياط تلسع أجساد المعتقلين، والتي كانت تختلط مع نباح الشرطة والسباب والشتائم وصوت (افتح يديك واغمض عينيك ولك حقير..) والتي تعودنا سماعها فيما بعد في كل مناسبة نقابل بها أولئك الوحوش الآثمة من عبيد فرعون وجنود الحاخام حافظ أسد، من النصيريين.
ومن الحوادث التي حصلت معنا في تلك الأثناء أن أحد الجلادين أمسك بأحد إخوتنا وانهال عليه ضرباً، بينما وقف الجلاد الآخر واضعاً يديه حول عنقه، واستمر بالضغط عليها حتى أصيب ذلك الأخ بالإغماء وسقط أرضا، عندها تدخل المساعد، وطلب منهم أن يتركوه (أية أحقاد بل أية أنفس أشربت باللؤم والفجور!!!؟)..
قضينا في هذه الحالة فترة من الوقت، حتى انتهى (المساعد) من تسجيل جميع الأسماء، وقام بضبطها، مقارنة مع القائمة التي استلمها من دورية المخابرات التي أحضرتنا، واتصل بفرع المخابرات التي أرسلنا إلى السجن: وهكذا انتهت عملية إدخالنا إلى سجن تدمر جميعاً، وبعد ذلك طلبوا منا الاصطفاف بطابور منفرد والرؤوس مطأطئة نحو الأسفل، والعيون مغمضة، وكل منا يمسك بملابس الذي أمامه، وأدخلنا إلى إحدى باحات السجن، وهي الباحة الأولى التي سميت بباحة التعذيب أو باحة الاستقبال، ويتم تنظيم حفلات الاستقبال فيها للقادمين الجدد من الذين قدر عليهم أن يدخلوا ذلك المكان اللعين.

حفلة الاستقبال: من الأشياء التي ما أزال أذكرها منذ اللحظات الأولى لدخولنا ذلك السجن، بعض الكتابات الموجودة في القسم العلوي للجدران، وأكثرها من الشعارات المكتوبة على جدران مؤسسات الدولة في بلدنا المنكوب مثل (وحدة حرية اشتراكية، أمة عربية

واحدة...)، والذي لفت نظري، وبقي محفورا بذاكرتي، هو الآية الكريمة (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون) فتعجبت من تلك المفارقة العجيبة، وتلك السماجة، بل وتلكم الوقاحة، فقلت في نفسي: هل يؤمن هؤلاء الأوباش بكتاب الله ليكتبوا آياته الكريمة على جدران هذا السجن اللعين؟ ومهما يكن من أمر، فنحن في نظرهم مجرمون، وما يقومون به من تعذيب وإيذاء وإهانة هي عدالتهم بعينها، لم ينقطع الضرب لحظة واحدة منذ نزولنا من السيارة، ولم تتوقف أصوات الجلادين وشتائمهم، فهم يستعملون أحط الألفاظ التي يعف اللسان عن ذكرها، وهذا هو شأن جميع الزبانية في ذلك النظام العفن والمهترئ، سواء أكانوا من الجرذان الصغار أو من الخنازير الكبار، وهذا ما شاهدناه وعرفناه قبل ذلك أثناء التحقيق وفي كل مكان وطئنا بأقدامنا في أقبيتهم ودهاليزهم..

وعندما أدخلنا إلى باحة التعذيب أحضر الدولاب المطاطي، وشاهدت أحد عناصر (البلدية) يحمله ويرميه على الأرض بعنف، ليزيد من هلعنا، كما سمعت صوت أحد ضباط الصف يقول للعناصر (تصرف كيفيا)، عندها طلبوا منا أن نخلع ثيابنا، وباشروا بتفتيشنا، ولم يكن عندنا من المتاع ما يستحق الذكر، اللهم إلا الملابس التي اعتقلنا بها، وكنت اشتريت منشفة صغيرة (وشحاطة) نايلون أثناء وجودي في فرع المخابرات، وهذا هو حال جميع السجناء معنا، فهم عزل من كل شيء، وهذه فرصة ثمينة لأولئك الوحوش أن نتعرى من ملابسنا، لتلسعنا سياطهم، ويمارسوا ساديتهم وانحرافهم الحاقد اللئيم ضدنا.

ثم جرجرونا بوضع قدمي المعتقل بعصا الفلقة، وهي عبارة عن عصا غليظة ربط طرفاها بوصلة من سلك كهربائي يلفونه عدة مرات حول القسم السفلي من الساقين، فتنحصر القدمان بشدة، دون أي إمكانية لسحبهما أو تحريكهما، ثم يقوم الجلاوزة برفع العصا، فترتفع الرجلان بدورهما، لينهال عليهما أربعة من الجلاوزة بالسياط، حتى تسيل منهما الدماء، وتتورم الأقدام، فيأمرهم المساعد بأنه يكفي، فيخرج المعتقل، ويوقف جانباً أمام أحد الجدران، فيدفعه أحد الشرطة، بعد أن يمسكه من النقرة (القسم الخلفي من الرقبة)

ثم يأتون بغيره، ويضعونه في الدولاب.... وهكذا، وأما الذين مازالوا ينتظرون دورهم، فالضرب ينهال عليهم باستمرار ودون انقطاع، يجلدون ظهورهم وأيديهم، وكذلك حال الذين أخرجوا من الدولاب، يتلقون ضربا إضافياً أيضاً على ظهورهم وأيديهم ورؤوسهم، وإذا أصيب أحد المعتقلين بالإغماء، رشوا على وجهه الماء حتى يصحو، كما يرشون الماء فوق أقدام الأشخاص الذين أخرجوا من الدولاب. وقتها كنا في شهر رمضان الموافق لشهر تموز من عام 1980 حيث أصبت بالعطش الشديد، فطلبت من الشخص الذي يحمل دلو الماء أن يسقيني، فلم يلتفت لطلبي، إنما باشر برش الماء على قدمي وأقدام الأخوة الذين يقفون بجانبي. استمر التعذيب على هذه الشاكلة حتى انتهى الزبانية منا جميعاً، ونال كل منا حظه من التعذيب، وكانت ساعات مريرة، ربما فاقت شدتها ساعات التحقيق الأولى عند بعض الإخوة (لأن بعض الذين كانوا معنا لم يتعرضوا أثناء التحقيق للتعذيب الذي شاهدوه هنا) هناك رحت أتساءل وما أكثر التساؤلات المحيرة في تلك الأثناء:

لماذا الضرب؟ ما الهدف منه؟ لماذا نتعرض للتعذيب هنا؟ ألا يكفينا ما شاهدناه وما تعرضنا له في فرع المخابرات أثناء التحقيق؟ ألم ننته من التحقيق؟ ماذا يريدون منا؟ وغير ذلك من التساؤلات المحيرة التي لا أجد لها جواباً سوى أن هؤلاء الوحوش يعذبوننا بدافع حقدهم، قال الله تعالى (وما تخفي صدورهم أكبر)، لقد كادت آثار التعذيب التي تعرضت لها أثناء التحقيق أن تتماثل للشفاء، ولكنني أجد نفسي الآن أعاني من آثار أخرى، إضافة للآثار السابقة التي أصيبت بالتقرح والنزف، مما جعلني أعاني من الجروح والقروح مدة عام كامل، بعد دخولي سجن تدمر، بسبب حفلات التعذيب اليومية، وسوء العناية الصحية، مما ترك آثاراً دائمة في أماكن مختلفة من جسدي بعد اندمالها، وأنا الآن أحمد الله تعالى الذي منّ عليّ بالنجاة من تلك المحنة، حيث أشعر بعزّة الإيمان، عندما أنظر إلى تلك الآثار الموجودة في الأماكن التي أستطيع رؤيتها، وحينما أطلع عليها أي أخ أقابله ويسألني عن تلك المحنة فأبادر لإطلاعه على تلك الآثار قبل أن أتكلم شيئاً، فلا حاجة لي إلى الشرح،

فجراحي هذه تحكي محنة المعذبين في أقباء السجون النصيرية الرهيبة... ومع ذلك فإنني أسأله تعالى أن يجعل ذلك كفارة لذنوبنا ورفعا لدرجاتنا في الدنيا والآخرة، وصدق الشاعر في تصويره:
وقروح جسمك وهي تحت سياطهم قسمات صبحٍ يتقيه الجاني
وأثناء حفلة الاستقبال مرت على مخيلتي أيام حياتي السابقة وكأنها فيلم سينمائي يختصر تلك السنوات الطوال بدقائق معدودة، وأخذت أتساءل: هل صحيح ما أتذكره الآن؟ هل صحيح أنه حصل معي كيت وكيت؟ لقد تذكرت في تلك الأثناء الذكريات الحلوة والذكريات المريرة وأكاد أكذب نفسي بأن شيئاً من ذلك لم يحصل، حينما أتساءل بمرارة أين كان ما أتذكره مما أنا فيه الآن؟ وأعود للتساؤل مرة أخرى وأكاد أكذب نفسي قائلاً: إنني لم أشاهد شيئاً في حياتي وإن حياتي كلها هي هذه الساعات الرهيبة التي أعيشها الآن وهذا التعذيب الذي أتعرض له ويصعد إلى مخيلتي قوله تعالى: (ويوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها).
وحينما أتذكر فصول التعذيب التي تعرضنا لها في تلك الأيام، واستعرض بعض الآيات الكريمة التي تصف حالة الكافرين يوم القيامة، يزداد إيماني أكثر فأكثر بكتاب الله عز وجل، إذ لا يمكن لأي إنسان، أن يصف تلك الأمور إلا الذي عانى تلك المحنة (التعذيب) (واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك في ضيق مما يمكرون)..
وأثناء حفلة الاستقبال، سمعت صوت أحد الجلادين (وقد عرفنا اسمه فيما بعد ويدعى نعيم حنا (21) يقول لنا: (غير لعبدكن العجل يا حقراء..) وكان الضرب بقوة ولؤم، وقضينا عدة ساعات قاسينا خلالها من التعذيب والقهر والإهانة ما لا يعلمه أحد إلا الله، فالإنسان يجد نفسه عاجزاً عن وصف تلك المشاعر والأحاسيس التي لا يعرفها إلا من تعرّض لها، ولله الأمر من قبل ومن بعد وإليه المشتكى.
وبعد انتهاء حفلة الاستقبال قاموا بوضعنا في صف منفرد، مطأطئي الرؤوس، مغمضي الأعين يمسك كل منا بتلابيب الذي أمامه، حانياً رأسه على ظهره، وسرنا بطابور منفرد على هذه الحالة داخل السجن، حتى أوصلونا، إلى إحدى الزنزانات الفارغة، فأدخلونا فيها،

وأغلقوا الباب وانصرفوا... إن حالتنا كانت تدعو للأسى والحزن، ولو قدر لأحد من أهلينا أن يرانا لأجهش بالبكاء، فالأرجل متورمة ومليئة بالجروح، والأجساد مغطاة بالكدمات والقروح، والإنسان لا يسمع إلا أصوات الأنين والتأوّه والتوجع من شدة الألم، فأحدنا لا يقوى على الوقوف من شدة الألم، والإعياء أخذ منا كل مأخذ، وإذا غالب أحدنا نفسه، واستطاع الوقوف، فإنه سرعان ما يصاب بالدوار الشديد، فيسقط على الأرض... كيف لا وقد قضينا مدة تزيد عن عشر ساعات في التعذيب والإهانة، منذ أن خرجنا من الزنزانة في فرع المخابرات حتى دخلنا زنزانة سجن تدمر.
عند ذلك توجه الجميع إلى الله بالدعاء، طالبين منه أن يفرج عنا ما نحن فيه، بعد أن خانتنا جميع أسباب الأرض.

لازمة سجن تدمر: كانت الساعة تقارب التاسعة صباحاً عندما جاء الجلادون يقودهم المساعد أول أحمد كسيبي (والذي لقبه السجناء فيما بعد بأبي جهل) فتح باب الزنزانة فاندفع أولئك الوحوش يلهبوننا بالسياط، فأصيب الجميع بالذهول.. ألم ننته من الضرب والتعذيب؟ بعدها قال المساعد للشرطة: (يكفي).. وأخذ يتكلم ليعطينا (لازمة السجن) أو بتعبير آخر (نظام السجن) فكان مما قاله لنا: أنتم الآن في سجن عسكري، كل شيء ممنوع هنا: الكلام ممنوع، فتح العينين ممنوع، النظر للشرطة ممنوع، السؤال ممنوع وهكذا... وأردف يقول: أنتم خونة للوطن، ليس لكم أية حقوق هنا، وقد جئتم لتموتوا في هذا المكان بما اقترفته أيديكم، نحن، لم نأت بكم من الشارع، إنما جرائمكم هي التي أتت بكم إلى هذا المكان، ولا بد للعدالة أن تأخذ مجراها.... إلى غير ذلك من الكلام الذي يدعو للسخرية ويثير الاشمئزاز والتقزز، ولم نكن نعلم: هل يقول ذلك الأحمق قناعته أو يتزلف لأسياده؟. بعد ذلك قام المساعد بتعيين أحد الإخوة رئيساً للمهجع، وعلمه (لازمة السجن) ليرددها، وهي بالشكل التالي: كلما جاءت الشرطة للزنزانة (سواء أفتحوا الباب أم لم يفتحوه) على رئيس المهجع أن يقدم الصف قائلاً: (انتـ.... به- استـ.... عد- است....رح- است.. عد.. المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب) وعلى الجميع أن

يقفوا بحالة الاستعداد العسكري، منفذي إيعازات رئيس المهجع، ومغمضي الأعين . وبعد ذلك طلبوا من جميع السجناء أن يديروا وجوههم نحو الجدران، وعندما ينصرف الجلادون، يكرر رئيس المهجع نفس اللازمة، ولكن يقول: المهجع انتهى من التفتيش حضرة الرقيب. ثم قام المساعد بإحصائنا، وقدموا لكل فرد منا 3 بطانيات مع عازل، والعازل يستخدم بدل الفراش والبطانيات تستعمل كغطاء، وأما الوسادة فكنا نستعمل أحذيتنا، وهكذا بدأنا نعيش مرحلة جديدة مليئة بكل أشكال التعذيب والإهانة والذل، جعلتنا نترحم على الأيام التي قضيناها في فرع المخابرات رغم ما فيها من بلاء وعذاب.... لقد كنت متيقناً بأن ما نعانيه في تلك الأيام السود سيسجل في صفحات التاريخ وستكتب به المؤلفات وتدبج به القصائد وسينقل للأجيال القادمة وهذا ما ذكرته لإخواني أكثر من مرة.

أول رمضان في سجن تدمر: دخلنا سجن تدمر خلال شهر رمضان من عام 1400هـ المصادف لشهر تموز من عام 1980، وقدر الله علينا أن نكون من الدفعات الأولى التي وصلت إلى السجن بعد المجزرة الكبرى، وكان عدد المعتقلين في ذلك الوقت قليلاً (وربما لا يتجاوز الـ 300 شخص) لكن الدفعات تتالت فيما بعد، حتى ارتفع العدد إلي 4000 معتقل في غضون ستة أشهر فقط..
أما كيف قضينا تلك الأيام فربما وجد الإنسان نفسه عاجزاً عن وصفها بكل تفاصيلها، إنما سأذكر هنا ما أحفظه في ذاكرتي، رغم أن ذاكرة الإنسان قد تخونه في كثير من الأحيان، عندما يكون في ظروف طبيعية، فكيف بذاكرة الذين يعيشون تلك الظروف القاسية من التعذيب والإهانة والقهر، والتي يقصد منها تحطيم الإنسان نفسياً وفكرياً وجسمياً، وقتل كل شيء فيه؟ لقد نظم أحد إخواننا قصيدة بتلك الظروف الحالكة، وكان مطلع القصيدة البيت التالي:
يا صفوة الأحبابِ والخلانِ عفواً إذا استعصى عليّ بياني
لم أتمكن من حفظ تلك القصيدة، وإنما حفظت منها هذا البيت فقط...

وبرامج الإيذاء والتعذيب في تلك الأيام كانت على أشدها، حيث يداهمنا الجلادون بعد منتصف الليل لتوزيع طعام السحور، فنستيقظ من نومنا عندما يدخل الزبانية إلى باحتنا، ويباشرون فتح أبواب الزنازين.. وكانت زنزانتنا هي الخامسة في الباحة، فيفتح المجرمون الباب فيقدم رئيس المهجع الصف (لازمة السجن) فيدفع الجلادون إلى الداخل وينهالون علينا بالضرب واللكم واللطم والرفس، عند ذلك لا يسمع الإنسان إلا أصواتاً لصراخ المعذبين التي اختلطت مع هبدات السياط وأصوات الشتم والسباب والصراخ من الجلادين الذين يكررون عبارات (افتح يديك -أغمض عينك.. ولك حقير.. وو...).
وأخيراً يصرخ رئيس الدورية، وهو غالباً من ضباط الصف برتبة عريف أو رقيب: شرطة لبره.. لبره شرطة: (أي اخرجوا من المهجع). فيخرج الجلادون من الزنزانة، ويغلق الباب، فيقدم رئيس المهجع الصف، لينتقل الزبانية بعد ذلك إلى الزنزانة المجاورة، حتى ينتهوا منها، فالتي بعدها ثم الأخرى، فالأخرى، وهكذا يفعلون بسائر الباحات. وبعد ذلك يبدأ المعتقلون بتناول الطعام، وأنى لنا أن نأكل بعد أن استولى علينا التعب والألم والخوف الذي أعجزنا عن تناول الطعام في الأيام الأولى، رغم ذلك، فإننا كنا نجبر أنفسنا على تناول لقيمات نتقوى بهما على تحمل ما نحن فيه من كرب، حتى يأذن لنا الله بالفرج.. وبعد أن ننتهي من تناول الطعام، كنا ننتظر أذان الفجر الذي كنا نسمعه، فيهيج في أنفسنا الذكريات والحنين لبيوت الله، فنقوم للصلاة، وكنا نصلي جماعة في الأيام الأولى فلم نكن نعرف نظام السجن القاضي بعقاب كل من يقدم على الصلاة.

الصلاة في سجن تدمر: كنا في الأيام الأولى نصلي جماعة، وذات يوم جلس أحد الحراس يتجسس علينا، فسمع أننا نصلي الصبح جماعة، لأن زنزانتنا كانت مقسومة إلى قسمين: يضم قسمها الأول، المهجع الذي ننام فيه، وأما القسم الثاني، فيضم مكان الخلاء وصنبور الماء، مع قطعة أرض صغيرة تستخدم لوضع القمامة وبقية الأغراض، ويوجد في سقف تلك القطعة

فتحة (شرّاقة) والقسمان متصلان بفتحة تشبه الباب ولكن لا وجود له بها وبالتالي فإن الشخص الذي يجلس فوق الشراقة يمكنه سماع ما يدور بالمهجع من أحاديث، بل ويمكنه أن يشاهد قسماً لا بأس به من الزنزانة ذاتها..

جلس ذلك المجرم يوماً (وكان نصيرياً) فوق الشراقة يتجسس علينا ونحن لا نراه، لأننا لم ننتبه للأمر، وبعد أن أنهينا الصلاة، جلسنا نقرأ الأوراد والأذكار، ثم بدأ الإمام يدعو وكنا نؤمّن على دعائه، عند ذلك نبهنا أحد الإخوة وكان يجلس قرب (الشراقة) بأنه يشم رائحة تدخين، وهذا يعني أن أحد الزبانية يقف فوق الشرّاقة. سكت الجميع، فنادى ذلك المجرم رئيس المهجع بصوت كفحيح الأفاعي قائلاً: (ولك يا.... عاملين جامع هون) ثم طلب منه أن يحضر الأخ الذي صلّى إماماً، فسأله (إنت اللي كنت تصلي إمام؟) فأجابه بالإيجاب، فشتمه بأقذع الألفاظ ، وتابع قائلاً: بكره منت حاسب غير لأسحقكن يا كلاب يا حقراء يا.....) فأخذنا ندعو الله و نسأله السلامة.

وفي اليوم التالي حوالي الساعة التاسعة، حضر الزبانية لباحتنا ومعهم الدولاب، وبأيديهم السياط، وجاءوا مباشرة لزنزانتنا بعد أن تجاوزوا الزنازين الأربع التي تقع عند مدخل الباحة، فتح الجلادون الباب، فقدم رئيس المهجع الصف كالعادة، فصرخ أحدهم: (لبره يا كلاب يا حقراء...) وخرج الجميع للباحة لتبدأ حفلة التعذيب... فانهالوا علينا ضرباً بالسياط، ثم أحضروا رئيس المهجع، وطلبوا منه أن يدلهم على الأخ الذي كان إماماً، فوضعوه في الدولاب، واستمروا بضربه حتى أصيب بالإغماء، فصبّوا عليه الماء، وأخرجوه من الدولاب، واستمروا بضربه على يديه وظهره حتى تعبوا منه، وكذلك فعلوا برئيس المهجع، أما البقية، فقد نالوا حظهم من التعذيب والإهانة بدرجات متفاوتة ومتقاربة، رغم أن آثار حفلة الاستقبال ما تزال موجودة على أجسادنا.

وانصرف الجلادون بعد إشباعنا إهانة وإيذاء وشتائم، وهكذا كان جزاء كل من يصلي بذلك السجن اللعين، أو يتجه إلى الله سبحانه كافراً بالطاغوت.. بعد ذلك قرر الإخوة أن نصلي خلسة حتى لا يشعر بنا أحد، أما الأخ

الذي صلّى بنا إماماً فقد أصبح معروفاً لدى الجلادين الذين صاروا يخصونه بالإهانة والتعذيب في كل مناسبة، فراح يدعو الله أن يفرج عنه، فتقبّل الله دعاءه وتخلّص من التعذيب، فجاء الأوباش فسألوا عنه، فأخبرهم رئيس المهجع أنه خرج حيث لا ندري، فطالبوه أن يخرج لهم خليفته، حيث سأله المساعد أبو جهل بالحرف الواحد قائلاً: (من هو خليفته) فأجابهم رئيس المهجع: لا يوجد له خليفة، فانهال عليه الجلادون ضرباً، حتى اضطر لإخراج أحد المعتقلين بشكل عشوائي ليتخلص من التعذيب. فانهال الجلادون على ذلك الأخ ضرباً، فصار يصرخ ويستغيث وينفي التهمة الموجهة إليه!!!؟ بأنه لا يعرف الصلاة، وأنه لا يصلي، وبعد ذلك أوقفوه عند باب المهجع، وطلبوا من جميع السجناء أن يبصقوا على وجهه احتراماً له لأنه كان إماماً.

وللصلاة في سجن تدمر قصة مؤلمة وطويلة، لقد كان الجلادون يسألون رؤساء المهاجع بكل مناسبة عن الأشخاص الذين يصلون، فيجيبهم رؤساء المهاجع بالنفي، فينهالون عليهم ضرباً ليعترفوا على الأخوة الذين يصلّون، وربما اضطر بعضهم تحت التعذيب إلى إخراج أحد السجناء، أو عدد منهم بصورة عشوائية، ليتخلص من التعذيب. ومن القصص التي انتشرت في سجن تدمر في نهاية عام 1980 أن اثنين من الإخوة من محافظة إدلب، أحدهما مهندس مدني قد استشهدا تحت التعذيب، لأنهما ضبطا متلبسين بجريمة الصلاة!!!.

ومن الحوادث التي حصلت في زنزانتنا، أن أحد الإخوة ضبط متلبساً بجريمة الصلاة، إذ كان يصلي جالساً، فصرخ به رئيس الدورية وهو برتبة عريف اسمه عبود، فأنكر ذلك الأخ، لأنه كان يصلي مومئاً برأسه فقط، فهدده وشتمه وانصرف. وفي اليوم التالي، حضر ذلك المجرم ومعه عدد من الجلادين، فطلب من ذلك الأخ خلع ملابسه، والخروج للباحة، واستمر الجلادون في ضربه حتى تسلّخ جلده، وكذلك فعلوا برئيس المهجع، وسألوه عن أسماء الذين يصلون عندنا، ولكنه تحمل التعذيب دون أن يعترف بشيء، مع العلم أن ذلك المصلي كان في العقد السابع من عمره، ويمتاز بالخوف والهلع، وطالما أصيب بالانهيار عند مجيء الشرطة، لذلك أصيب الإخوة بالغم عندما شوهد ذلك الأخ من قبل الجلادين

وهو يصلي، وتوقع الجميع أنه سيعترف بأن جميع السجناء يصلون عند أول سوط، ولكن الله سلّم، وقد شاهد الحرس نزلاء المهجع المجاور لنا يؤدون الصلاة ذات ليلة من شهر رمضان عام 1402هـ، فحضر الجلادون منذ الصباح الباكر، وأخرجوا جميع المعتقلين، واستمروا بتعذيبهم فترة طويلة من الوقت، ونال رئيس المهجع قسطاً كبيراً من التعذيب والهوان، وعلمت من الإخوة الذين قدموا إلينا من السجون الأخرى من مختلف المحافظات، كسجن المزّة وكفر سوسة والشيخ حسن (بدمشق) والسجن المركزي بحلب وغيرها، أن الصلاة ممنوعة في جميع تلك السجون دون استثناء، والويل كل الويل لمن يقبض عليه متلبساً بجريمة الصلاة؟!.

وعندما تحسنت المعاملة نسبياً بسجن تدمر في نهاية عام 1982 قام النصيري المجرم الرائد فيصل غانم مدير السجن بجولات تفقدية داخل السجن، وتحدّث إلى السجناء بنفس اللغة التي يتكلم بها سيده الصنم الكبير، فادعى أنه مسلم، وأنه يصوم ويصلي ويقرأ القرآن، فتجرأ أحد المعتقلين وسأله: طالما أنك مسلم وتصلي وتصوم، فلماذا لا تسمحون لنا بالصلاة؟ فأجابه: إن أرض الزنزانة وسخة لا تصلح للصلاة، فكيف تصلون على الأرض التي تأكلون عليها وتدوسون عليها؟!! وكأنهم حريصون أن تكون صلاة المعتقلين مستوفية لكل شروطها وأركانها لتكون مقبولة. وصدق الله العظيم حيث يقول واصفاً حال هؤلاء المنافقين: (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلو إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنما نحن مستهزئون. الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين).

نعم الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون، وتلك هي سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً: (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً، حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً، ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك، ثواباً وخيرٌ مرداً).

الحلاقة الأولى بسجن تدمر: بعد مضي عدة أيام من قدومنا إلى السجن، جاء المساعد ومعه عدد من السجانين، وفتحوا باب الزنزانة بعدما ضربوا الباب والجدران بسياطهم، وهذه عادتهم في كل مرة يفتحون بها أبواب الزنازين، ليرهبوا السجناء قبل أن يبدءوا بتعذيبهم، فالسياط كانت تسبب اهتزاز جميع أجزاء الزنزانة، إضافة للصوت الشديد الذي يشبه صوت الانفجار الشديد، والذي يمكن سماعه من مسافة بعيدة، طلب منا المساعد الخروج للباحة حفاة الأقدام- كالعادة- ونلنا حظنا من الجلد عند باب الزنزانة. ثم وقفنا بالرتل الأحادي مغمضي العيون، مطأطئي الرؤوس، يمسك كل منا بثياب الذي أمامه. سرنا داخل السجن والسياط تنهال علينا من كل جانب، وتجاوزنا عدة أبواب تفصل بين الباحات. وعند الأبواب استقبلنا الجلادون عند دخولنا وخروجنا، إضافة لاصطدامنا بحواف الأبواب، لأننا كنا مغمضي العيون، وهذا ما يؤدي إلى أذى بالأقدام، وربما وقع بعضنا على الأرض، فكان ذلك فرصة للجلادين ليعملوا سياطهم بأولئك المساكين الذين لا يدرون كيف وأين يسيرون، وغالبا ما يسقط عدد من الأخوة فوق الأخ الذي وقع على الأرض نتيجة لتعثرهم به، ولا يستطيع الجميع القيام ومتابعة المسير إلا بعد أن ينالوا حظاً وافراً من السياط.

وفي النهاية وصلنا إلى الباحة الثانية، أو باحة الحمام، فأوقفنا أمام أحد الجدران، وهو جدار المهجع رقم 8 والسياط تنهال علينا من كل جانب.. قام الحلاقون بصفنا، ووجوهنا للأمام، وظهورنا للحائط، وأيدينا خلف ظهورنا، والعيون مغمضة، والرؤوس منحنية.... بعد ذلك بدأ الحلاقون عملهم، مقسمين العمل فيما بينهم.... بعضهم يقوم بوضع معجون الحلاقة، وآخر يقوم بتدليكه بفرشاة الحلاقة المبللة بالماء، وآخرون يقومون بحلاقة شعر الرأس، حيث يجلس السجين جاثياً على ركبتيه، حانيا رأسه للأمام، واضعاً يديه خلف ظهره، وآخرون يقومون بحلاقة اللحى بواسطة أمواس الحلاقة.

عملية الحلاقة هذه تتم بسرعة، لذلك كانت الرؤوس مليئة بخصل الشعر غير المحلوق، والحلاقون لا يستعملون شيئاً لمنع سقوطه على الملابس أو داخلها، فتسقط الأشعار على الرقبة، ومنها للأسفل (على ظهر

المعتقل) فتمتلئ الملابس الداخلية بالشعر، كل ذلك يذكرني بالحلاقة التي يجريها الفلاحون للمواشي، وليت الأمر يقتصر على هذا الحد من الإهانة والذل، ولو كان كذلك لهان علينا كثيراً، لكن الجلادين كانوا يتجولون بين المعتقلين الذين ينتظرون دورهم، لينهالوا عليهم ضرباً، وبشتى الطرق والوسائل، بالأيدي والأرجل، وبالسياط، ويطلبون من المعتقل أن يفتح يديه لينهالوا عليهما ضربا، وقد يلطمون الوجه أو يرفسون البطن، أو يستعملون قبضات اليدين للكم السجين على بطنه أو صدره، وهكذا...

أما الوجوه فقد امتلأت بالجروح والقروح، إما بسبب السرعة أو عدم الخبرة وإما بسبب وجود عدد كبير من النصيريين الحاقدين، وبعض الحثالة بين الحلاقين الذين كانوا يعتمدون أن يسببوا لنا الجروح، وقام بعضهم بجدع الأنف والأذن من تلقاء أنفسهم، أو بتحريض من الجلادين، إذا أغاظهم مظهر أحد المعتقلين، كأن يدل مظهره على الحشمة والوقار، أو يكون شيخا مسنا، أو صغير السن، أو طويل القامة، أو وسيم الهيئة، وهكذا حيث يقول الجلادون للحلاق: (اذبحه لهذا الـ... أو اسلخه لهل ....) وإذا بكى المعتقل أو استغاث، فإن الجلادين يقولون له: (ما شفت شي يا حقير، هلق لما تخلص حلاقة بنورجيك يا...) فيسكت ذلك المسكين منتظراً ما هو أشد وأدهى.

وكلما انتهى أحد المعتقلين من الحلاقة، استقبله الجلادون بالسخرية قائلين له: (نعيما شرف لهون) فيطلبون منه أن ينبطح أرضاً، رافعا قدميه للأعلى، فينهالون عليه بالسياط، بينما يقوم آخرون برفسه بأقدامهم، ويدوس بعضهم فوق ظهره، بل أكثر من ذلك، فقد قفز بعضهم فوق ظهور بعض المعتقلين، مما سبب له كسورا بالأضلاع والعمود الفقري، وربما قام بعضهم بوضع نعاله فوق رأس المعتقل أو رقبته، وإذا ما صرخ ذلك المسكين أو استغاث فإنهم يلقمونه حذاءهم العسكري إمعاناً بإذلاله وإهانته..

بعد ذلك يطلبون من المعتقل الوقوف، وربما كان لا يقوى على ذلك، فيجلس جاثياً على ركبتيه، وقد فتح يديه، لينهال عليهما الجلادون ضرباً. وهكذا حتى يأتي غيره... لقد قضينا حوالي ساعتين، وربما أكثر على هذه

الحالة، حتى انتهينا من الحلاقة، ثم وقفنا بالرتل الأحادي، وعدنا إلى الزنزانة بنفس الطريقة التي خرجنا منها. لقد أصابنا الذهول عندما أغلق باب الزنزانة، وفتحنا عيوننا، لأن ملامحنا تغيرت، وربما لم نعرف بعضنا البعض للوهلة الأولى.
ورحنا نغسل وجوهنا لنزيل آثار الجروح والصابون عنها، وأخذنا نزيل الشعر الذي علق بملابسنا وأجسادنا، وراح بعضنا يزيل الأوساخ عن ملابسه، لأن باحة الحمام تحتوي على مجار مكشوفة بشكل ترعة صغيرة لجر مياه الحمامات، وأحد صنابير المياه الموجودة هناك والذي يستعمله الشرطة والحلاقون. لقد وقع أكثرنا بتلك المجاري عندما كانوا مغمضي العيون، كما قام الجلادون بوضع بعضنا داخل تلك المجاري عندما كانوا يريدون ضربه على قدميه إمعانا بإيذائه وإهانته. وهكذا كانت الحلاقة في ذلك السجن الرهيب نوعا آخر من الإرهاب والقهر.

التعذيب في سجن تدمر: لسجن تدمر برنامج أعد خصيصاً لتعذيب المعتقلين وإهانتهم بكل مناسبة يلتقي فيها السجانون بأولئك المعتقلين، إضافة لتخصيص مناسبات أخرى يأتي فيها الجلادون للغاية نفسها، ليتفننوا بأساليب التعذيب. أما المناسبات اليومية التي يأتي بها السجانون للزنازين فهي:
1- في الصباح الباكر يقوم السجانون بتوزيع طعام الإفطار.
2- التنفس.
3- توزيع الخبز مع الفاكهة أو الحلوى إن وجدت.
4- التفقد.
5- توزيع طعام الغداء.
6- توزيع طعام العشاء.
7- مناسبتا الحمام والحلاقة أسبوعياً.
وخلال هذه المناسبات يقوم السفلة بضرب المعتقلين وإهانتهم، لكن أهم المناسبات المستعملة خصيصا للتعذيب، هي التفقد والتنفس، والحلاقة والحمام.

التفقد: في الأسابيع الأولى من مجيئنا لسجن تدمر، كان الجلادون يحضرون حوالي الساعة الثانية بعد

الظهر، فيفتحون الباب، ويقوم رئيس المهجع بتقديم الصف، فيدخل ضابط الصف المناوب (عريف أو رقيب) للمهجع مع عدد من الجلادين، حاملا بيده ورقة يقوم بإحصاء السجناء، ثم يسأل رئيس المهجع بعبارات مختلفة مثل (قديش عندك ولك) وبعضهم يسأل (كم كلب عندك ولك حقير) وآخر يقول (قديش عندك ولك حقير)، فيجيبه رئيس المهجع، ويضرب الجلادون السجناء، منذ اللحظة الأولى لدخولهم المهجع وحتى ينتهي الضابط المناوب من عدّ السجناء وإحصائهم وتسجيل العدد الموجود بعد ذلك يخرج ضابط الصف طالباً من الشرطة الخروج قائلا: (شرطة لبره) لينتقلوا بعد ذلك المهجع لمهجع آخر، حتى ينتهي التفقد والعذاب. وعندما زاد عدد السجناء، أمرنا الجلادون بالوقوف برتل ثنائي داخل المهجع، ثم زاد عدد المعتقلين أكثر، فطلبوا منا أن نقف برتل ثلاثي ثم رباعي ثم خماسي، وفي هذه الحالة، كان الأخوة الذين يقفون بالصف الخارجي هم الذين يتحملون القسم الأكبر من الإهانة والضرب، لذلك كان الأخوة الشباب يؤثرون إخوانهم المسنين والمرضى بالوقوف في الصفوف الداخلية، حتى لا ينالهم الإيذاء والضرب والجلد، وكان المعتقلون يستعدون للتفقد قبل مجيء المجرمين بوقت طويل، وقد يطول الانتظار فنقف الساعات الطوال دون أن يأتي الجلادون لانشغالهم بأمور أخرى، ويقضي السجناء تلك الساعات في اضطراب وقلق دائمين، ولطالما تمنينا قدومهم لنتخلص من أحد فصول التعذيب اليومي.

وكان بين السجانين أحد الرقباء المغرورين، ويدعى علي، ويتصف بالحقد واللؤم، وكلما انتهى من التفقد بصق على السجناء ثم ينصرف.

وفي شهر نيسان من عام 1981 انتشر مرض الكوليرا في السجن، فصار الجلادون يخافون من دخول المهاجع، فأمرونا للخروج من الباحة لنصطف بالرتل الخماسي، وعندما ينتهي الرقيب من إحصاء المعتقلين وتسجيلهم، يؤمرون بالدخول للمهجع قائلين لهم: (لجوا ولك) أو (للمهجع ولك حقراء) عندها يجتهد الجلادون بضرب المعتقلين الذين تزاحموا أمام الأبواب الضيقة التي لا تسمح بمرور أكثر من شخص واحد،

ونتيجة للخوف والفوضى يندفع الجميع لدخول الزنزانة تفاديا للأذى، مما يؤدي ذلك لسد باب المهجع وعرقلة دخول البقية. وهنا يبادر الأخوة الذين صاروا داخل الزنزانة لسحب إخوانهم نحو الداخل، والجلادون يعملون سياطهم عشوائياً حتى يدخل الجميع، عندها ينصرف المجرمون، ويستعد السجناء لحفلة تعذيب جديدة ومأساة أخرى، وأصبحت هذه الطريقة من التفقد هي المتبعة بعد ذلك، وأصيب الكثير من السجناء فيها إصابات مختلفة نتيجة للسياط التي قد تصيب الرأس فتؤذي العيون، أو نتيجة لاصطدامهم بحواف الأبواب الجانبية، أو الحافة السفلية التي تحتوي على زاوية حديدية يمتد ضلعها القائم من بداية الباب حتى طرفه الآخر، أو نتيجة للضغط الناشئ عن اندفاع المعتقلين بصورة فوضوية، مما يؤدي لحصر البعض بين الجدران أو أحرف الباب، وبين المعتقلين الآخرين الذين يضغطون بهدف الدخول. وهكذا كانت مناسبة التفقد في سجن تدمر رعبا وبطشا وكثيراً ما تساءل الأخوة لماذا يتعبون أنفسهم ويتعبوننا معهم بالتفقد؟ يمكنهم حصر عدد المعتقلين بطرق أسهل من ذلك بكثير، ولكنها على أية حال كانت مناسبة لإيذاء المعتقلين وإهدار كرامتهم، وشفاء أحقادهم الطائفية التاريخية ليس إلا.

التنفس في سجن تدمر: ويعد من أشد فصول التعذيب إيلاما ومرارة، فكنا نصاب بالغم عندما نسمع كلمة تنفس!!! حتى سماه بعض السجناء (تفطّس). يدخل الجلادون للباحة، فيفتحون باب الزنزانة الأولى قائلين: (اطلعوا ولك حقراء للتنفس) أو (تنفس ولك- الكل برا) بعد أن يصرخوا وينبحوا ويضربوا الأبواب والجدران والأعمدة بسياطهم، مما يؤدي لارتجاج الزنزانة من شدة الضرب، فيخرج السجناء حفاة الأقدام مغمضي العيون مطأطئي الرؤوس، وتبدأ عندها السياط عملها لسعاً، وبعد أن يكتمل خروج الجميع للباحة، يبدأ فصل التعذيب الذي يأخذ صوراً بشعة متنوعة، جلداً وبطشاً من شتى صور الهمجية الجاهلية. وقد يطلب الجلادون من السجناء أن يسيروا هرولة حول الباحة، ليباشر أحد الجلادين بإعطاء الإيعازات المختلفة... رملاً... منبطحاً... فينبطح الجميع على الأرض، التي امتلأت

بالحفر والقاذورات وبالماء في أيام الشتاء، ثم يعطي إيعازاً آخر قائلاً: تابع رملا. فينهض الجميع راكضين، لتأتيهم إيعازات أخرى، ثم مستلقياً، فيستلقي الجميع على ظهورهم، أو يقول: جاثياً، فيجلس الجميع جثياً على ركبهم، ويحيط بالباحة عدد كبير من الجلادين وبأيديهم السياط، وربما زاد عددهم عن عدد المعتقلين وخاصة في الأشهر الأولى من دخولنا السجن، عندها كان عدد المعتقلين قليلاً نسبياً، وكلما مر أحد السجناء أمام أحد الجلادين ضربه بالسوط كيفما اتفق، وربما استوقفه وطلب منه أن يفتح يديه لينهال عليهما ضربا، أو يأمره بالانبطاح على الأرض رافعاً قدميه للأعلى ليجلده عليهما... وهكذا... حتى انتهاء مدة التنفس. والويل كل الويل لمن يتلكأ بتنفيذ أمر من الأوامر الصادرة للجميع أو له شخصياً.

نوع آخر من التنفس: يخرج السجناء للباحة فيطلب منهم أن يسيروا رمَلاً حول الباحة، ثم يطلب منهم الانبطاح على الأرض رافعين أقدامهم للأعلى من الخلف، فتصبح السيقان مع الأقدام عمودية على الأرض، فينهال الجلادون بسياطهم على الأقدام، وآخرون يدوسون فوق ظهور المعتقلين. وفي هذه الحالة، لا يسمع الإنسان إلا لسع السياط وصريرها المختلط مع صراخ وأنين المعذبين، والجلادون ماضون في حقدهم الغادر اللئيم.
لقد اتبع الجلادون هذه الطريقة من التنفس خلال الشهور الأولى من وصولنا إلى السجن، (آب، أيلول، تشرين الأول وتشرين الثاني من عام 1980) فقد كان التعذيب على أشده خلالها، حتى أسماه المعتقلون بأيام التعذيب، تمييزاً لها عن غيرها من الفترات.
وخرجنا ذات يوم للباحة، فوجدنا أن أرضها قد امتلأت ببقع الدم، وكان الجو حاراً، ففاحت رائحة الدم التي اختلطت مع رائحة المطاط المنبعثة من السياط وإطارات السيارات الملقاة على الأرض، وكان بعض الجلادين يرمون تلك الإطارات الثقيلة على المعتقلين مع القهقهة الشديدة، وآخرون يقومون برفس المعتقلين، ويدوسون بأقدامهم على أجسامهم، وقام بعضهم بالقفز فوق ظهور المعتقلين مما سبب كسوراً

ورضوضاً في عظام الصدر والعمود الفقري والأطراف... لقد كان الكرب شديداً في تلك الأيام، كان عددنا قليلاً بالنسبة إلى عدد الجلادين، ولاحظت خلال تلك الفترة عدداً من الجلادين بثياب مدنية، وهم غالبا عناصر البلدية الذين يقومون بأعمال الخدمة في السجن، ولفت أنظارنا وقتها دخول دوريات المخابرات المتكررة، وكانوا يجلبون دفعات جديدة للسجن، ويقومون بتعذيب المعتقلين مع عناصر الشرطة العسكرية تنفيساً عن أحقادهم.
أما الحالة النفسية للسجناء، فلا يمكن وصفها، فالخوف والرعب قد أخذا منهم كل مأخذ، وهما أشد على النفس البشرية من لسعات السياط، والسجناء الآخرون ينتظرون دورهم، وقد تسمر كل في مكانه من الهلع. وهذه هي أشد لحظات التعذيب إذ تتسارع ضربات القلب مع قرقرات شديدة بالأمعاء. وقد أصيب أكثر السجناء بالإسهال، وتزاحموا أمام دورة المياه، فالكل مصاب بالغم والكرب، بعضنا تسلح بالوضوء، وراحت الألسنة تجأر إلى الله بالدعاء، وآخرون يقرؤون ما حفظوه من كتاب الله العزيز، حتى يأتي دورنا، هكذا كنا نقضي أوقاتنا على هذه الوتيرة من التوتر والقلق والعذاب كلما سمعنا أصوات التعذيب في الباحات الأخرى، وكلما انتهى فصل من فصوله كنا ننتظر الفصل الذي يليه، وكلما سمعنا صرير الأقفال وفتح الأبواب بالباحات الأخرى، سيطر علينا الغم والكرب والخوف. ولعل الألم النفسي الذي كنا نواجهه يفوق بشدته جميع أنواع التعذيب الجسدي الذي نتعرض له رغم وحشيته وفظاعته، وهكذا حتى يأتي الليل ليسدل علينا ستره وبعض الراحة النفسية. وكم كنا نتمنى ألا يطلع علينا الفجر، بل إننا كنا نصاب بالغم عندما نسمع المؤذن يرفع آذان الفجر هل يصدق المسلمون هذا الكلام؟.. أجل.. كنا نصاب بالهم والذعر عندما يتناهى إلى مسامعنا صوت المؤذن لصلاة الفجر، فيتساءل كل منا: ماذا ينتظرنا في هذا اليوم الجديد؟! وكم دعوت الله تعالى إذا حل الظلام أن نقبض فلا نصبح إلا جثثاً هامدة، نعم لكم تمنينا الموت في تلك الأيام الحالكة السواد. لقد قالها لي بعض الأخوة: قد يكون الموت فرجاً بالنسبة لنا. وكم تذكرت قوله تعالى عندما يصف حالة الكافرين

الذين أدخلوا جهنم عندما يشتد عليهم العذاب فيتمنون الموت حيث يقول تعالى: (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك، قال إنكم ماكثون).

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا أن يكن أمانيا

نعم لقد وصل الكرب ذروته، فأصبح الموت أمنية غالية يتمناها أكثرنا إن لم يكن جميعنا، لأنه باب الخلاص الوحيد من بطش الجبناء الرعاديد فئران.

وتنفس ثالث للأوباش: وهي أن ننزع ثيابنا ونخرج إلى الباحة، فيبدأ الجلادون بضربنا، ويطلبون منا أن ننبطح أرضاً كذلك، ومرة طلبوا منا أن نخرج، وكان الجو بارداً وامتلأت الحفر الموجودة في أرض الباحة بالماء، بسبب هطول الأمطار خلال الليلة السابقة.. كان الوقت صباحاً عندما طلبوا منا الانبطاح على الأرض التي امتلأت بالماء والحصى والقاذورات، ولم يقتصر الأمر على هذا فقط بل راحوا يسلقوننا بسياطهم على أجسادنا العارية حتى انتهى التنفس.

ونمط رابع للتنفس: يخرج المعتقلون مع جميع أغراضهم من أسمال بالية وبطانيات وعوازل، ويضع كل معتقل أغراضه أمامه ويجلس، فيطلب الجلادون منا أن نخلع ثيابنا، ويتجولون وبأيديهم السياط يلهبون بها أجسادنا كما يحلو لهم، وقد يطلبون منا أن نقوم بإجراء التمارين الرياضية المرهقة مع الجلد والبطش،
ويستعمل الجلادون هذه الطريقة من التنفس أيام الصيف الحارة، حيث الشمس المحرقة في صحراء تدمر. ونتيجة لإخراج الأغراض وتعريضها للشمس، فإنها تمتص معها كمية من الحرارة، وعندما ندخلها إلى الزنزانة تزيد الحرارة داخلها أكثر وأكثر، ليضاف ذلك إلى معاناتنا من ارتفاع درجة الحرارة بسبب الصيف وسوء التهوية والازدحام الشديد، فيكون ذلك كربا فوق كرب، ظلمات بعضها فوق بعض، ورغم ذلك كنا نفرح بانتهائنا من حفلة التنفس لذلك اليوم.
مدة التنفس عادة نصف ساعة أو أقل قليلاً أو أكثر، يقضيها السجناء بالتعذيب والإهانة والشتائم والهم والكرب، وكنا نحسبها يوماً كاملاً لما لها من وطء رهيب

على النفس، والتنفس عادة يومي، ولكن قد تمر بعض الأيام دون أن نتعرض له، ولكن التعذيب لا يفارقنا لحظة واحدة من ساعات النهار الذي نقضيه بالترقب والحذر.

الحمام في سجن تدمر: وهو أيضا مناسبة أخرى لتعذيب المعتقلين، وأول مرة خرجنا إلى الحمام كانت في تشرين الثاني عام 1980م بعد مضي أكثر من ثلاثة شهور من دخولنا السجن، ثم أصبح الحمام فيما بعد أسبوعياً. يأتي الجلادون فيفتحون باب الزنزانات قائلين: (الكل بالشورت للحمام) فيخرج السجناء كالعادة مطأطئي الرؤوس مغمضي العيون يمسك كل منهم بيد أحد إخوانه ثم يصطف الجميع في الباحة رتلا ثنائيا ثم يسيرون مسرعين نحو الحمام، ويقف الجلادون على طول الطريق وبأيديهم السياط يلسعون بها أجساد المعتقلين وخاصة عند المهجع والأبواب التي تفصل الساحات عن بعضها البعض. وأمام باب الحمام المكون من غرفتين منفصلتين، جرى تقسيمهما لعدة أقسام، يفصل بينهما جدران إسمنتية ترتفع حوالي متر ونصف المتر، وكل قسم يتسع لشخصين فقط، وهو مخصص عادة لشخص واحد ولكن يزدحم فيه عدد أكبر من المعتقلين حوالي 5-6 أشخاص على الأغلب وخاصة عندما زاد عدد المعتقلين بداية عام 1981.
الماء المستعمل في أكثر الأحيان هو الماء البارد، ونادراً ما يكون الماء مقبولاً، وأحياناً يكون الماء حار جداً، مما يسبب الحروق الجلدية، ولا مجال للاعتراض على تعذيب من نوع جديد، فالماء يسكب من صنابير موجودة في الأعلى، ويتحكم بها السجانة، وبعد عشر دقائق من دخولنا الحمام نؤمر بالخروج فنقف قليلاً بباحته لتلقّي كم هائل من لسعات السياط، ثم نعود بنفس الحفاوة التي استقبلنا بها عند دخولنا الحمام.
وللإنسان أن يتصور أي حمام ذلك، فكل شيء مخصص للتعذيب والإهانة، من خروج المعتقل عاريا ماعدا السروال الداخلي، والسير بهذه الصورة مسافة طويلة مع السياط والماء البارد وما بعد الحمام. ولو أن الأمر اقتصر عند هذا الحد لهان علينا كثيراً، ولكن سجناء تدمر تعرضوا لحمامات أكثر فظاظة وفظاعة مما وصفت، وتستحق أن تسمى حمامات الدم.

حمامات الدم في سجن تدمر: هذه العبارة معروفة في القسم السياسي، وهي تعني المجازر الدموية التي يرتكبها الطغاة. وسجن تدمر يعتبر حمام دم بهذا المعنى وهذا ما سنراه عند الحديث عن المحاكم الميدانية، لكن حمامات الدم التي نتحدث عنها هنا هي شيء آخر، ولعلها أشد إيلاما، لأن التعذيب أشد على النفس من الموت.

خلال شهر شباط عام 1982 وبالتحديد أثناء مجزرة حماة الكبرى اشتدت حدة التعذيب في سجن تدمر، وتحولت مناسبة الخروج للحمام إلى مجزرة حقيقية فراح الجلادون يضربون المعتقلين بحقد وفظاعة لم يسبق لهما مثيل.

يتم تقسيم المعتقلين إلى دفعتين عند بلوغهم ساحة الحمام، فتدخل الأولى وأما الثانية فينتظر أفرادها في الباحة لينهال عليهم الجلادون بالسياط وبقسوة وعنف، فيتراكض المعتقلون، ويطاردهم الأبالسة الجلادون، عند ذلك لا يسمع الإنسان إلا لسع السياط التي اختلطت مع أنين واستغاثات المعذبين وأصوات وقع الأقدام على الأرض من شدة التدافع والركض، وبعد عذاب رهيب يطلب الجلادون ممن دخل الحمام الخروج ليدخل مكانهم الذين كانوا بالباحة، ليبدأ التعذيب من جديد لمن كانوا داخل الحمام، وبنفس الصورة السابقة على الأجساد العارية المبللة بالماء البارد.

وبعد ذلك يخرج الذين دخلوا الحمام، ليسير الجميع نحو المهجع والسياط تلهب أجسادهم. ويمكن للإنسان أن يتصور فظاعة ذلك الفصل من التعذيب، فالأجساد عارية ومبللة بالماء في شهر شباط (فبراير) وفي درجة حرارة متدنية في صحراء تدمر. لقد امتلأت أرض الباحات وخاصة باحة الحمام ببرك الدم.

واستشهد عدد من الأخوة تحت التعذيب، وأصيب آخرون بأذيات شديدة كالكسور والجروح والخلوع وفقد البصر نتيجة لفقوء العيون، والتي أدت لعاهة دائمة، لأن الدواء والعلاج ممنوعان عند القرامطة.

وأما البرد فلم نكن نشعر به، رغم أننا نخرج عراة ونسير مسافة طويلة نحو الحمام، وقد تزيد المسافة عن مئتي متر أو أكثر ما بين المهجع والحمام، ورغم ذلك، فلم

نكن نفكر بالبرد، خاصة بعد عودتنا مبللي الأجسام، لأن الخوف قد استولى علينا، وتفكيرنا يتجه نحو السياط فقط. وهكذا كانت حال الحمام في سجن تدمر.

طرق أخرى للتعذيب والتنكيل: فالجلادون لا يتركون مناسبة تمر دون التنكيل بأسراهم، ويتفننون في ذلك. ولو أراد المرء أن يحصي طرق التعذيب والبطش لاحتاج إلى عدة مجلدات، ولكن تبقى هنالك بعض طرق القهر التي يعف اللسان والقلم عن ذكرها، فلا أدونها هنا. ولعل ذهن القارئ في أبشع تصور يتقرب من أسهلها، وأكتفي هنا بإيراد عدة أمثلة من طرق أخرى للتعذيب والإهانة التي اتبعها أولئك الوحوش والتي لها مغزاها:
1- كان الجلادون يستعملون العصا الغليظة للضرب، وأحدهم ويدعى سمير كوشري وهو نصيري حاقد، أسمر اللون، ذو شاربين رفيعين، وصوت غليظ، ويكثر من استعمال كلمة (حيو) فلقبه المعتقلون بهذا اللقب (حيو) والعصا التي يستعملها كانت بطول متر ونصف تقريباً، وأحياناً يستعمل عصا الفلق (الموصوفة سابقاً)، ويضرب بها المعتقلين على الظهر والفخذين والساقين والرأس، مما أدى إلى إصابة بعض المعتقلين بعاهة دائمة، كما استشهد آخرون. وكان الرقيب فيصل وهو نصيري حاقد مشهور باستعمال العصا الغليظة بالضرب، لأن السوط لم يكن ليشفي غله وحقده، وتسبب ذلك المجرم باستشهاد العديد من الاخوة، ففي إحدى حفلات الاستقبال، استشهد شخصان: أحدهما يدعى حسن شغيل والآخر من عائلة صافي من مدينة حمص.
ومن طرق التعذيب اللطم على الوجه، حيث يؤمر المعتقل برفع رأسه مع الوقوف بوضعية الاستعداد مغمض العينين، ليلطمه المجرم على وجهه، مما يؤدي لثقب غشاء طبلة الأذن. وكذلك اللكم بقبضة اليد على البطن. وكان بعض الجلادين من ذوي القامات الطويلة، والبنية الغليظة، يتدربون الجيدو والكراتيه بالمعتقلين الذين أتلفت أجسادهم سوء المعاملة وسوء التغذية، فيالها من شجاعة ورجولة وشهامة نصيرية!!! ولقد كان اللكم أشد إيذاء من السياط، حيث يضربون السجناء على البطن والمناطق الحساسة من الجسم . وقد يصاب البعض بالصدمة العصبية، فيسقط على الأرض مغميا

عليه، وكذلك الأمر بالنسبة للرفس على المناطق الحساسة من الجسم.
ومن طرق الإهانة: حدثني أحد الإخوة أنهم عندما وصلوا إلى السجن، كان أحدهم يخفي مصفحاً بين أغراضه، فقام الجلادون بانتزاعه منه وتمزيقه ورميه بأرض الباحة.
2- وفي إحدى مناسبات التنفس، جاء أحد ضباط الصف، ويدعى شعبان حسين (برتبة عريف)، كان طويل القامة، غليظ البنية، ذا صوت أجش، معروفا لدى جميع المعتقلين بفظاظاته وغلظة قلبه، وقف يومها يسألنا: من منكم ذهب إلى الحج (مين منكم حجي) فلم يجبه أحد، فتجول بين المعتقلين، وأمسك بأحد الاخوة المسنين، فسأله (أنت ولك حقير) (أنت مالك حجي) فأجابه بالنفي، فطلب منه الخروج جانباً وبعيداً عن بقية المعتقلين، حيث يجلس على كرسي مع بقية الجلادين في إحدى زوايا الباحة، فطلب من ذلك الأخ أن يقبل له حذاءه العسكري، فتردد ذلك المسكين في تنفيذ هذا الأمر، فقام من مقعده وانهال عليه ضرباً فما كان من ذلك المسكين إلا أن امتثل للأمر، فطلب منه أن يطوف حوله، وهو يقول له: هذه هي الكعبة (مشيراً لحذائه والعياذ بالله) ثم تابع قائلاً: أنت الآن ذهبت للحج، وفي المرة القادمة عندما نسأل: من ذهب إلى الحج؟ فإنك تجيب: أنا!! لأنك صرت الآن (حجي)؟!!!.
وكثيرا ما كان الجلادون يطلبون من بعض المعتقلين أن يمسحوا لهم أحذيتهم، إرضاء لغرورهم وساديتهم، وإمعاناً في إذلالهم وإهانتهم. وكان الجلادون يزرعون البصل في أحد الأحواض الموجودة في باحتنا ومرة اقتلعوا كمية من البصل الأخضر، وطلبوا من عدد من الإخوة أن يأكل كل منهم بصلة كاملة مع جذورها التي تحتوي على كمية من الطين، والرمل، وبقايا البصلة التي تم غرسها وقد تعفنت قشرتها ولحمتها، فأصبح طعمها مقززاً، علما بأن البصل المزروع هو من البصل الكبير الذي يأخذونه من المطبخ، فهم بحاجة للمقبلات كي يأكلوا جيداً، فتقوى بذلك أجسامهم، ليستطيعوا أداء واجبهم (الوطني) بتعذيب المعتقلين وإهانتهم!!! ويمهدوا الأرض للصهيونية. وكانوا إذا وجدوا أية قطعة من لحم أو حلوى أو غيرها في أرض الباحة، أجبروا

المعتقلين على التقاطها وأكلها، لأن الطعام يوزع في أطباق مكشوفة، وكثيراً ما تتساقط قطع منه على الأرض بسبب الهرج والمرج أثناء توزيعه، وبسبب الضرب الذي يتعرض له السجناء الذين يقومون بالتوزيع، وأذكر أنهم طلبوا من أحدنا أكل قطعة من الحلوى فقال: لقد شعرت بطعم كريه مقرف، لأنها كانت فاسدة ومملوءة بالرمل بسبب وطء حوافر وأظلاف الجلادين وأقدام السجناء عليها، وهكذا كان الزبانية يتفننون بتعذيب المعتقلين وإهانتهم كلما سنحت لهم الفرصة.

التعذيب المخصص لأناس معينين: يزداد سخط السجانة ويصبون جام غضبهم على نوعيات معينة من السجناء وهذه النوعيات هي:
1- المعتقلون ذوو الكفاءات العلمية كالأطباء والمهندسين والمدرسين وطلبة الجامعة وضباط الجيش، ويتعرض هؤلاء المقهورون لقسط أكبر من التعذيب والإهانة، لذلك يتجنب السجناء ذكر ألقابهم وأعمالهم.
ومن الأمثلة: أن أحد الأخوة الأطباء من نزلاء المهجع المزدوج (5-6) بالباحة الأولى، ويدعى محمد زاهد داخل (من مدينة حلب) دخل سجن تدمر في شهر رمضان من عام 1980 وحفظ السجانة اسمه وشكله ومهنته، فأصبح معروفا لديهم أنه طبيب، فكانوا يخصونه بالتعذيب أكثر من غيره، حتى استشهد تحت التعذيب عام 1982 على يد المجرم (فواز) الذي استمر بضربه. حتى قضى عليه. وكذلك الأمر بالنسبة للعميد أحمد غنوم الذي اعتقل عام 1980 بتهمة ملفقة، فعرفه الجلادون، فصاروا يخصونه بالتعذيب أكثر من غيره، حتى توفي في سجن تدمر في عام 1986، لذلك كان الجلادون يسألوننا في كل مناسبة: من منكم أستاذ؟ من منكم دكتور؟ أيكم طالب جامعة؟ وهكذا... وذات مرة راح أحد الحاقدين يسأل: من منكم أستاذ مدرسة؟ أيكم مدرس تربية دينية؟ فلم يجبه أحد، فاختار أحد الإخوة وسأله عن عمله، فأجاب أن لا يعمل مدرساً، فقال له وما عملك؟ قال له: بائع صابون، فانهال عليه ضرباً بالسوط، وكلما لسعه سوطاً قال له: (خذ لوح هالصابون)،

حتى شفى حقده من ذلك المسكين، وكذلك الأمر بالنسبة لكبار السن، وأغلبهم من الرهائن الذين ليس لهم أي قضية تستوجب إعتقالهم، وكان الجلادون يستعملون معهم ألفاظاً تنم عن درك سافل من المستوى الوضيع الذي وصل إليه أولئك الأوباش، كعبارة (شيبة الكلب) و(شيبة الخنزير) ويضربونهم بقسوة، مما أدى لاستشهاد عدد منهم نتيجة التعذيب، أذكر منهم: الحاج هاشم الحبال من حمص، وقد اعتقله المجرم غازي كنعان مع أحد أبنائه كرهائن، وهو في العقد الثامن من عمره، وأرسل لتدمر بعد المجزرة مباشرة (في شهر تموز من عام 1981) وضمه المهجع رقم 19 في الباحة الرابعة، وكان مصابا بأمراض مختلفة، نتيجة الشيخوخة، ومع ذلك، تعرض للتعذيب الشديد على أيدي المجرمين الذين كانوا يخصونه دون غيره في كل مناسبة بالجلد، فيصرخ ويستغيث، حتى صار صوته معروفاً لدى جميع المعتقلين نزلاء الباحة الرابعة.
ولسوء المعاملة والأوضاع المتردية في السجن، توفي في مطلع عام 1981 فسأل المجرم غازي كنعان بعض المعتقلين ممن أُعيدوا للفرع للتحقق أو لأمور أخرى عن سبب وفاة الشيخ هاشم حبال قائلاً لهم: هل كانت وفاته طبيعية أم لسبب آخر؟ وكأنه لا يعلم ما يعنيه ذهاب المعتقل لسجن تدمر. ولطالما ردد لكثير ممن معتقليه قوله (روح لتدمر لتموت هناك كالكلب) ولكن أنى للمعتقلين قول الحقيقة؟ فأجابوه بأن الوفاة طبيعية، فهم يعرفون أن ذلك المجرم النصيري (غازي كنعان) يريد استدراجهم من خلال السؤال، فيفتحون على أنفسهم كرم أخلاق ذلك الوغد!!!
وكذلك الأمر بالنسبة لصغار السن (الأحداث) والذين لقبهم الجلادون بالوظاوظ أو الوظاويظ(22)، وخصهم الجلادون بالتعذيب أكثر من غيرهم ليكسروا فيهم الرجولة والشهامة، فتأمن إسرائيل. وقد وصلت دفعة من الأحداث من فرع المخابرات العسكرية بإدلب، وبلغ عددهم 27 شخصاً كلهم من طلاب المدارس، وتعرضوا لحفلة استقبال بشعة، وبعدها صار الجلادون يخصونهم بالتعذيب، فهم يحضرون إلى الباحة الرابعة مساءً على غير عادتهم، ليفتحوا باب المهجع رقم 18 ويخرجوا أولئك الفتية، فيستمر المجرمون في تعذيبهم لمدة

طويلة ثم ينصرفون، وعلمت أن 18 أخاً منهم قد استشهدوا نتيجة لمحاكم التفتيش التي حكمت بإعدامهم، لتقرّ عيون القرامطة الجدد من بني صهيون. وفي نهاية عام 1980 قام جهاز السجن بفرز الأحداث، وجمعوهم في زنزانتين هما: رقم 31 و32 في الباحة السادسة ونقلوا فيما بعد في بداية عام 1982 إلى المهجعين رقم 36 و 37 في الباحة السابعة، وكان عددهم كبيراً، إذ ضمت كل زنزانة ما يقرب من مئتي شخص واستشهد عدد منهم نتيجة التعذيب، وأذكر أحد الإخوة الذي استشهد في رمضان عام 1982 وقبل عيد الفطر بيومين عندما أخرج المعتقلون للحمام مساء، وتعرضوا للتعذيب الشديد، وحينما عادوا إلى مهاجعهم، كانت إصابة أحدهم بليغة، فطرق رئيس المهجع السجن باب الزنزانة، إذ كانت العادة أن يطرق السجناء الباب في مثل هذه الحالات والظروف، فيحضر الحرس الواقف على سطح الزنازين، ويسأل عن السبب، وفي أغلب الأحيان يجيب المعتقلين بالشتائم ثم ينصرف، وما أكثر ما قال: (خلي يموت لأجري)(23) أو أجاب بعضهم (عندما يموت تطرقوا الباب) أو يروح مهدداً وشاتماً متوعداً في حالات أخرى، ونادراً ما يحضر الرقيب المناوب محضراً معه المساعد أبو رشيد (ممرض السجن) وأما الطبيب فمجيئه أندر من وجود الرحمة المفقودة في قلوب أولئك الوحوش، وهكذا لم يكترث الحارس للأمر قائلاً لهم (خليه يموت) وفي صباح اليوم التالي استيقظ الأخوة ليجدوا أخاهم قد انتقل لرحمة الله وفارق حياة الظلم والذل وبهذه الحالة النفسية استقبل الأخوة عيد الفطر في ذلك العام.

برنامج التعذيب الليلي: يقضي معتقلو سجن تدمر نهارهم في حالة انتظار وترقّب دائمين، وكلما انتهى فصل من فصول التعذيب ينتظرون الذي يليه ثم التالي فالتالي، منتظرين بفارغ الصبر حلول الظلام مسدلاً ستره لينالوا قسطاً من الراحة بعد ذلك العناء من التعذيب والإرهاب الطويلين.

لكن المجرمون أبو أن يتركونا نهدأ لحظة واحدة، وتفننوا باختراع أساليب جديدة لإيذائنا وتعذيبنا، ففي شهر تشرين الأول (أكتوبر) من عام 1980 راحوا يعذبوننا

بطريقة جديدة، عندما طلبوا منا الوقوف على قدم واحدة طوال الليل، رافعي الأيدي، لأن ذلك أشد إيلاماً. ولما كانت أغلب الزنازين تحوي فتحات كبيرة في السقف تمكن الحارس من مراقبة السجناء وفرض اللازم من العذاب والإيلام، فقد صار من المستحيل مع ذلك الموقف أن يخالف أحد أمر الوقوف طوال الليل، أما المهاجع الأخرى، فيمكن كشفها بواسطة النوافذ التي تساعد الحرس الموجود فوق سقف الزنزانة المقابلة أن يرى أكثر أجزائها الداخلية وما يعمله المعتقلون بالإضافة إلى الدوريات المتحركة بين الباحات لمراقبة جميع المهاجع، وهكذا كنا مجبرين أن نستمر بالوقوف حتى الصباح، عندما يبدأ الجلادون بتوزيع طعام الإفطار، فيجلس الجميع في حالة ترقّب من جديد، انتظاراً لفصول التعذيب النهاري. وبذلك نحرم من الراحة طوال الوقت، وليت الأمر اقتصر على هذا الحد، فقد اتبع الجلادون فيما بعد طرقاً أكثر لؤماً مما سبق من أصناف العذاب، إذ طلبوا من المعتقلين في الزنزانات التي تحتوي شراقات علوية، أن يجمعوا البطانيات والملابس مع جميع الأغراض تحت الشراقة مباشرة، ثم يقوم الجلادون بصب الماء عليها، وذلك أيام فصل الشتاء، ولأن جميع المهاجع لا تحتوي على أية وسائل للتدفئة، إضافة لوجود النوافذ الكبيرة والفتحات بالسقف مما يجعل الحرارة داخل عنابر السجن لا تختلف عما هي عليه خارجها يضاف إلى ذلك عدم وجود الملابس الكافية لدى المعتقلين، فكان هذا العمل الإجرامي يزيد من الكرب والشدة التي يعاني منها السجناء أيام الشتاء الزمهريرية البرودة، والأنكى من ذلك كله أن حرس العنابر كانوا بكل لؤم وحقد يصبون الماء بغزارة ومباشرة من الشراقة على المعتقلين الذين ينامون تحتها، فكانوا يغرقون النائمين في منتصف الليل بالماء البارد. وهكذا لم يترك المجرمون أية وسيلة من وسائل التعذيب التي تفتقت عنها أفكارهم الشيطانية العفنة إلا وأتبعوها.

أدوات التعذيب في سجن تدمر(24): وأهم التعذيب المستعملة هي:

1- السوط وهو عبارة عن قطعة من المطاط السميك الأسود والقاسي، طولها 80 سم وعرضها 5 سم وسمكها 3 سم وعلى الأغلب أنها سير دبابة (قشاط دبابة كما يقال بالعامية) فهي تجمع بين القساوة والمرونة والثقل مما يجعل لسعاتها مؤلمة جداً وحارقة مكهربة إذ تمزّق جلد الضحية، وكان المجرمون يضربون بلؤم وخسة الجبان التي تعبر عن حقد دفين، مما يؤدي لحدوث الكدمات والجروح والخدوش بالجلد وكما كنت ذكرت بأنهم كانوا يضربون الجدران والأعمدة والأبواب قبل فتحها، فتؤدي تلك الضربات لحدوث اهتزاز وصدى شديد داخل الزنزانة، فإذا كان تأثيرها على الجمادات بهذا الشكل، فكيف يكون تأثيرها على أجساد المعتقلين، وبالخصوص إذا كانت عارية كما يحدث عند الحمام والتنفس.

2- ومن الوسائل الجهنمية أيضاً السلك الكهربائي المضفور، والذي كان مختصاً به المجرم (فواز) دون سواه من الجلادين خنازير السلطة النجسة.

3- العصا الغليظة خاصة عصا الفلق، وهي عصا غليظة تكفي ضربة واحدة منها لتهشيم العظم، واستعملت للضرب على الظهر والفخذين، وأحياناً على الرأس، مما سبب عاهات دائمة لكثير من الإخوة كالشلل، وكسور عظام الأطراف والصدر وخلع المفاصل، والتي تلاها تشوهات دائمة نتيجة إهمال المعالجة، وأسفرت تلك الإصابات أيضاً عن استشهاد العديد من الإخوة واشتهر المجرم (فيصل) بهذه الطريقة من التعذيب، وقتل بيديه العديد من المعتقلين.

4- التعذيب بأدوات الحلاقة، فكان الجلادون يحرضّون الحلاقين على جدع الأنف وتشطيب وتجريح الوجه بموس الحلاقة.

اختلاف حدة التعذيب: إن الحياة في سجن تدمر مآس وآلام ومصائب، ومع ذلك اختلفت شدة التعذيب بين فترة وأخرى، ففي الأشهر الأولى التي أعقبت المجزرة الدموية كانت همجية التعذيب على أشدها، لذلك أطلق المعتقلون الذين دخلوا السجن بعد المجزرة مباشرة على تلك الفترة اسم (أيام التعذيب) وهي شهور: (تموز

- آب- أيلول- تشرين الأول- تشرين الثاني من عام 1980) لتمييزها عن سائر الأيام.
وقد يشتد التعذيب ويصاب الجلادون بالهستيريا لمناظر الدم وعمليات القتل. وفي فترات معينة أخرى عند وقوع بعض الأحداث الكبيرة والمؤثرة على النظام داخل البلاد، وهذا ينطبق على جميع السجون السياسية، حيث يستولي اللؤم والحقد على أزلام النظام، فلا يجدون أمامهم إلا الأسرى الذين لا حول لهم ولا طول، فيصبون عليهم جام لؤمهم، مع إفراغ سمومهم وأحقادهم الدفينة، وهذه أمثلة على ذلك.
فانتقاماً لهذه الأحداث، وانتصاراً لأسد يهوذا الإسخريوطي:
1- لجأ عبيد النظام للتنفيس عن حقدهم بإعدام الدفعة الأولى من الإخوان وكان عددهم 15 شهيداً في يوم 29/6/1979 بعد حادثة مدرسة المدفعية التي وقعت يوم 16/6/1979.
2- بعد تهريب الإخوان الــ 17 معتقلاً من سجن كفرسوسة ساءت المعاملة في جميع السجون، وصودرت المصاحف والأوراق المسموح بها في بعض السجون، كما منعت الزيارات عن المعتقلين، وتم نقلهم إلى سجن تدمر ليبدأ زخم رهيب من شدة التعذيب
3- إثر محاولة اغتيال الطاغية المجرم حافظ أسد يوم 26/6/1980 ارتكبت مجزرة تدمر الخسيسة مباشرة، واشتد العذاب والهوان على السجناء في كل كهف مظلم من دهاليز القرامطة الجدد، بالإضافة إلى إصدار القانون 49 وشكلت المحاكم الميدانية التي راحت تعدم بالجملة من المسلمين الشرفاء (راجع فصل محاكم التفتيش) كما يقضي ذلك الفرمان النصيري القاضي بذبح أبناء الإسلام، تجديداً لفرمان العهد البائد أيام الفرعون الهالك، وفي سجن تدمر حيث العزلة التامة عن العالم الخارجي، كنا نعرف أن حدثاً ما قد وقع داخل البلاد عندما يشتد العذاب، وتخيم غيوم الحقد علينا، وتشتد وتائر التعذيب، ويقوم الجزارون بتنفيذ عمليات الإعدام في ساحات السجن. وهذا ما كنا نعرفه فيما بعد من القادمين الجدد من العالم الخارجي.
ففي أيام عيد الفطر المبارك عام (1400هــ- 1980م) أصيب المجرمون بالهستيريا، وجاءوا لتعذيبنا عند

الصباح الباكر قبل توزيع طعام الإفطار على غير عادتهم، وعرفنا فيما بعد، أن سبب ذلك هو مجزرة حي المشارقة بحلب، ورغم ذلك، فقد مرت بعض الفترات التي هدأ فيها التعذيب نسبيا، وصدرت الأوامر من دوائر المخابرات بتخفيف التعذيب خلال شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من عام 1980 فخرجنا يوم 13 تشرين الثاني للتنفس، فلم يتعرض أحد منا للضرب، على غير عادة أو عرف، ويومها دخل المساعد أبو جهل للمهجع، وتكلم معنا بطريقة تختلف عما سبق، إذ أظهر حرصه علينا، وطالبنا بالمحافظة على النظافة والنظام، حتى لا نسبب لأنفسنا التعذيب والإهانة. وقال: إنه قد رفع العقوبة عنا!! وأضاف: (وأنتم تعلمون ماذا يعني أن تحيجوا أنفسكم للأذى)! نعم لقد كان ذلك التعذيب الذي تعرضنا له عقوبة لنا لعدم محافظتنا على نظام السجن!!! ياللسخرية، إذا لم تستح فاصنع ما شئت والكفر ما بعده ذنب!!

وفي تلك الأثناء التزمت إدارة السجن بتنفيذ هذا الأمر (وقف التعذيب) وعرفناه من الإخوة الجدد، لأن حفلة الاستقبال لم تكن بتلك الصورة البشعة التي عرفناها قبلهم، ورميت السياط على الأرض، فصرنا ندوس عليها، وبدأ الجلادون يحضرون للباحات بدونها، وضباط السجن (المدير ومساعده وكان برتبة نقيب) يتجولون فوق الأسطحة، وإذا شاهدوا أحد كلابهم يحمل سوطاً سلقوه بألسنة حِداد ومهدد ينه ومتوعدينه، فالأمر عندهم يجب أن يطاع وينفذ بحذافيره، وكما ورد في أسس النظام العسكري التي يتعلمها كل من يدخل الجيش وتوابعه.... وبدأت إدارة السجن بمعالجة داء الجرب الذي استفحل واستشرى بين السجناء، وصرنا نذهب للحلاقة دون التعرض للضرب وتم فرز الأحداث وتجميعهم في مهاجع مستقلة عن مهجع الكبار.

واختلف الإخوة في تفسير تلك الظاهرة العابرة التي لم تدم سوى عدة أسابيع فقط، فبعضهم عزا ذلك لوجود احتجاج شديدة داخل البلاد وخارجها، لتسرب أخبار التعذيب في سجن تدمر إلى الخارج، وهذا أمر وارد، فالمحيطون بالسجن من سكان المدينة يمكنهم سماع صراخ المعذبين، ولسع السياط طوال النهار، كما كنا نسمع أصوات الناس خارج أسوار السجن، وكذلك الآذان.

وآخرون أعادوا السبب لبدء انفراج (حلحلة المشكلة) حسب تعبير بعض الإخوة، نتيجة لوجود مفاوضات بين قيادة الإخوان والسلطة.
وآخرون أرجعوه لتوسط بعض أزلام السلطة ومطالبهم بذلك، حفاظاً على سمعة البلاد، مع النظر البعيد في المستقبل لمصير الطائفة النصيرية، وهم يعيشون في بحر من الناقمين على ظلمهم وفجورهم، كنا نعيش في عزلة تامة عن العالم الخارجي، فليس لدينا أية معلومات تساعدنا على تحليل ما يجري حولنا، إضافة إلى الجو الرهيب الذي نحن فيه، والذي يجعل الإنسان عاجزاً عن التفكير بصورة صحيحة، فالخوف يسلب من الإنسان لبه. وكذلك الطوباوية (المثالية والخيالية المفرطة) عند أكثرنا، فقلما نتعامل مع الأحداث والوقائع بتعقل ومنطقية، فالعفوية والارتجال هما السمة الغالبة على أكثرنا، وعلى أية حال فقد تكون تلك الأمور أسباباً وراء وقف التعذيب، أو حصل منها شيء أدى لذلك، ولكن الذين يعرفون طبيعة النظام الطائفي البغيض، يدركون أن ما ذكرناه من أسباب لن تؤثر بشكل من الأشكال ولا بحال من الأحوال على طبيعته وتصرفاته القمعية، فالطغاة جميعا، والنصيريون منهم بوجه خاص، فقدوا الحياء تماما، فهم يفعلون ما يشاءون، دون التفات لأي اعتبار، والاعتبارات الوحيدة التي تعيرها الطغمة الفاسدة اهتمامها، هي الأسباب الأمنية أي أن التعذيب قد أوقف لاعتبارات أمنية فقط، فما هي تلك الاعتبارات؟
إن المخابرات كانت وراء وقف التعذيب، وعرفنا ذلك من الإخوة الذين أعيدوا للتحقيق في تلك الفترة، فكان ضباط المخابرات يسألونهم عن المعاملة في سجن تدمر، ويؤكدون بأنهم طلبوا وقف التعذيب من الجلادين الصغار، وسبب ذلك (والله أعلم) هو استشهاد عدد من الأخوة نتيجة التعذيب، فقد استطعنا أن نحصي سبعة منهم، والعدد الحقيقي أكبر من ذلك، وربما يكون بعض الأخوة الذين استشهدوا في تلك الأثناء قد احتاجت إليهم المخابرات لتحقيق جديد، لاكتشاف أشياء جديدة أثناء التحقيق مع أشخاص اعتقلوا بعدهم، فأدلوا بمعلومات حول الأخ، وأنه قد قام بتنظيمه حزبيا، أو كانت بينهما علاقة تنظيمية، أو حول أمور أخرى تمس

الشهداء مباشرة، وإلا فالمخابرات على علم بكل ظروف التعذيب الموجودة في سجن تدمر، إذ توجد مفرزة تابعة للمخابرات العسكرية هناك بصورة دائمة، وعلمت المخابرات بالأخوة الذين استشهدوا، لأن إدارة السجن تعيد أولئك الأشخاص إلى الفروع التي اعتقلتهم، فالمخابرات مسؤولة أولا وأخيرا عن السجناء الموجودين في سجن تدمر الذي يعتبر مستودعاً لتجميع السجناء المضطهدين فحسب، ومع ذلك، فإن المخابرات لم تطلب وقف التعذيب إلا عندما شعروا بخطأ هذا التصرف وضرره من الناحية الأمنية، فاستشهاد أولئك الإخوة أدى لضياع بعض المعلومات التي يمكن أن تفيد النظام... لابد إذن أنهم يريدون تصفية المعتقلين في سجن تدمر..

وقد أطلقوا عليه اسم مركز التطهير الوطني لتصفية الإخوان المسلمين، سواء تمت هذه التصفية بالتعذيب أو بواسطة محاكم التفتيش الوحشية، فكلاهما سيان، لكن المهم أن يموت المعتقل بعد أن يفرغ كل ما في جعبته من معلومات يجب أن يعرفوها، لكن أن يموت قبل ذلك وعلى أيديهم، فهذا ما لا ينبغي أن يتم أبداً؟! وغالباً ما تكون الشهور الستة الأولى من الاعتقال كافية لكشف كل ما لدى المعتقل، وفي حالة عجز المخابرات عن اكتشاف جديد في تلك الفترة، فلن يكشفوا شيئاً بعدها على الأغلب، لانقطاع خيوط الارتباط بين الأشخاص والأحداث، لذلك كان الطغاة يتصرفون على ضوء القاعدة التالية: يتم اعتقال الشخص ويحقق معه ثم يودع السجن لأمد من زمان احترازياً، ويعرض بعد ذلك على المحكمة الميدانية ليؤخذ للمقصلة بعد أن اطمأنوا أنه قد أفضى بكل ما عنده، أو أصبح من المستحيل كشفها (ألا ساء ما يحكمون).

أما إذا كان المعتقل لا يعرف شيئاً، أو لم يستطع التحقيق والمحققون إدانته، فيجري الاحتفاظ به معتقلا لفترة طويلة لأسباب أمنية، لعلهم خلالها يكتشفون جديدا يدفع بالتحقيقات إلى الأمام، ويساعد على تثبيت أركان الظلم والكفر... نعم... هكذا كان تصرفهم وعقليتهم، أما حياة المعتقلين وإنسانيتهم فهي لا تساوي عندهم شيئاً، ومع ذلك، فقد عاد التعذيب ثانية

بعد أن توقف ليبلغ ذروته في نهاية ذلك العام وبداية عام 1982 وبالتحديد أثناء مجزرة حماة الوحشية.
استمر التعذيب بهذه الحالة حتى شهر آب من نفس العام، عندما أخلي سبيل 67 معتقلاً من معتقلي المخابرات العامة، وخففت حدة التعذيب، وفي شهر تشرين الثاني من العام المذكور، أطلق سراح مجوعة أخرى من معتقلي المخابرات العسكرية والعامة، وخف حجم التعذيب حينها، وتحسنت المعاملة قليلاً، وسمح لبعض أقارب المعتقلين بزيارة أبنائهم، وقام المجرم فيصل غانم (مدير السجن) بالتجول داخل زنزانات السجن، وتكلم داخل بعضها وقال: إن الدولة ستفرج عن كل الأبرياء، وأما الذين ارتكبوا جرائم وخانوا الوطن (حسب تعبيره) فسوف ينالون جزاؤهم العادل (يقصد بذلك الأخوة الذين تثبت عليهم تهمة التنظيم) وقتها أصبح التعذيب مقتصراً على حفلة الاستقبال، أو عند وجود شكاية، لكن الأوضاع العامة في السجن لم تتغير، فالزيارات ممنوعة إلا لعدد قليل ممن لهم وساطات والتماسات لدى أزلام السلطة، وممن دفع ذووهم رشاوي خيالية (راجع فصل الزيارات في سجن تدمر). والسجناء ما يزالون معزولين عن العالم الخارجي تماما، فالراديو والصحف والمجلات ممنوعة، والكتب والقرطاسية وحتى المصاحف (عدوهم الأول) ممنوعة، والصلاة (هدفهم الخطير) ممنوعة، أما الدروس والمحاضرات، فقد عرّضت بعض الأخوة للعقوبة والتعذيب لقيامهم بذلك، والطعام لم تتبدل كميته ونوعيته (وهذا ما نراه لاحقاً)، بالإضافة إلى مرض الجرب الذي مازال مستشريا بين السجناء وكذلك القمل، ولا أمل بمكافحته والقضاء عليه، فالازدحام شديد داخل الزنزانات، والسجناء ينامون متداخلي الأجساد، فالمساحة المخصصة للسجين الواحد لا تزيد عن نصف متر مربع تستعمل للنوم والطعام والجلوس، والعناية الصحية ما تزال دون الحد الأدنى المطلوب إذ كانت جميع الحالات تعالج داخل السجن ومن قبل طبيب السجن الجلاد.

عدد المعتقلين في سجن تدمر: بدأت الطغمة الغاشمة ترسل المعتقلين إلى سجن تدمر في نهاية النصف

الأول من عام 1980 أي قبل وقوع المجزرة الرهيبة بأسابيع قليلة، فالمجزرة وقعت يوم الجمعة 27/6/1980 وعندها تم تصفية جميع المعتقلين الموجودين في السجن في تلك الأثناء (راجع فصل مجزرة سجن تدمر) ثم قامت إدارة السجن بإزالة جميع آثار المجزرة، وتم دفن الشهداء في صحراء تدمر في أخدود جماعي، كما أزيلت بقع الدم عن الجدران بإعادة طلائها من جديد، وعندما وصلنا إلى السجن في شهر تموز من عام 1980 كانت ورشات العمل ما تزال تعمل لإزالة معالم الجريمة البشعة.

وبدأت فروع المخابرات تحويل المعتقلين إلى ذلك السجن اللعين مع بداية شهر رمضان عام 1400هـ-1980م وبعد أسبوعين فقط من المجزرة تحديداً في النصف الأول من شهرت تموز من عام 1980وإلى نهاية رمضان من ذلك العام وصلت الدفعات الآتية إلى السجن.

1- أربع دفعات من المخابرات العسكرية بدمشق، تضم حوالي مئتي معتقل، تم تحويلهم إلى سجن تدمر من سجن المزة وقسم التحقيق العسكري، وأكثرهم ممن اعتقلوا فيما بين عامي (1975- 1980).

2- دفعة من المخابرات العسكرية في حلب تضم 170 معتقلاً اعتقلوا عام 1980 وكانوا محتجزين في ثكنة هنانو العسكرية لامتلاء الثكنات بعد السجون والمعتقلات.

3- دفعتان من المخابرات العسكرية في حمص اعتقلوا عام 1980 بعد المجزرة التاريخية، والدفعات التي إعتقلت قبل المجزرة، كان المجرم غازي كنعان قد أرسلهم إلى تدمر، واستشهدوا حينها.

4- دفعة من المخابرات العسكرية في إدلب تضم 72 معتقلاً معظمهم من الأحداث، وقد تحدثنا عنهم وعن الأهوال التي لاقوها، واستشهاد بعضهم تحت التعذيب.

5- دفعة من المخابرات العامة في حلب تضم 67 معتقلاً جرى تحويلهم مباشرة من السجن المركزي في حلب إلى سجن تدمر، وقد اعتقلوا في عام 1979 و 1980.

6- دفعة من مركز كفر سوسة في دمشق يبلغ عددهم حوالي 50 معتقلاً اعتقلوا ما بين عامي 1979 و 1980

وكان بينهم الشيخ محمد خير زيتوني من حلب والأخ المهندس رياض جعمور من حماة رحمهم الله.
وكان هؤلاء المعتقلون يتوزعون في مختلف باحات السجن ماعدا الباحة السادسة التي كانت مهاجعها فارغة في تلك الفترة الرهيبة الحالكة الظلمات والظلم.
وهكذا استمرت عمليات إرسال المعتقلين إلى تدمر حتى ارتفع عددهم في نهاية عام 1980 إلى ثلاثة آلاف معتقل، رغم عمليات الإعدام المستمرة والدورية، وقد وصل عدد المعتقلين ذروته في نهاية عام 1982 ليصبح حوالي 5 آلاف معتقل، ولتخف بعد ذلك حدة الاعتقالات ولتبقي الطغمة الظالمة على الغالبية العظمى من ضحاياها في قاع السجن إلا ما ندر من عمليات إفراج فردية نادرة لا تذكر (راجع فصل الإفراج).

مساحة الزنزانات:
وهنا لابد من الحديث عن مساحة الزنازين التي كانت تضم هذا العدد الضخم من المؤمنين، فمساحة الزنزانات مختلفة من واحدة لأخرى، فهناك بعض المهاجع التي لا تزيد مساحتها عن 20 متراً مربعاً كالمهجع 21 في الباحة الرابعة، ومهاجع أخرى تصل مساحتها إلى 100 متر مربع أو أكثر كمهاجع الباحتين السادسة والسابعة، ورغم عمليات الإعدام المستمرة والتي شملت عدداً كبيراً من المعتقلين، فإن العدد الإجمالي للسجناء كان في ازدياد مستمر، نتيجة للاعتقالات الكثيرة ما بين عام 1980 و 1982 التي بلغت ذروتها في عامي 1980 و 1981 ولم يطلق سوى سراح القليل من المعتقلين بنفس الفترة. وكما علم القارئ الكريم، فإن المساحة المخصصة للسجين الواحد لا تزيد عن نصف متر مربع، تستخدم للنوم والجلوس والطعام وكل شيء من الحاجات الإنسانية والشخصية والطارئة.

الطعام في سجن تدمر: يستغل الجلادون مناسبة توزيع الطعام لتعذيب وإهانة المعتقلين، ويوزع الطعام مرتين إلى أربع يوميا حسب ظروف السجن، ففي شهر رمضان يوزع مرتين بأغلب الأحيان، وفي بقية أيام السنة يوزع أربع مرات وقد تختصر لمرتين عند انشغال

الجلادين بالمحاكمات وعمليات الإعدام (كما سنرى لاحقاً).
وكانت أمنية صعبة للسجناء ألا يحضر الطعام تجنباً لأذى الزبانية، والزيارات في سجن تدمر ممنوعة وإدخال الطعام ممنوع أيضاً، ولم يسمح للسجناء بشراء بعض المواد الغذائية (سكر- ملح- زعتر- زيت- طحينة) إلا في عام 1982 وما بعده، وبالتالي فإن السجناء مرغمون على تناول الطعام الذي يقدم إليهم على عجره وبجره وما فيه من أسواء...
أما الأصناف المقدمة للسجناء فهي:
1- طعام الإفطار: ويشتمل على الشاي مع أحد الأصناف الآتية (لبنة، جبنة، زيتون، حلاوة، مربى المشمش، البيض المسلوق).
2-طعام الغداء: ويتضمن الرز أو البرغل المطبوخ مع الحمص أو العدس أو الشعيرية ويقدم معهما المرق، والمرق عبارة عن أحد أنواع الخضار المطبوخة برب البندورة أو الفول الأخضر المطبوخ بالماء، وكذلك السبانخ، ويقدم أيضا اللبن المحلول بالماء أو المخلوط بأوراق الخس أو الخيار المفروم.
3- طعام العشاء: ويتضمن فاصولياء مطبوخة برب البندورة أو بطاطا مسلوقة أو باذنجان أو كوسا مسلوق، أو سلق مطبوخ أو شوربة عدس، وأحياناً مفركة كوسا أو حمص مسلوق.

كمية ونوعية الطعام: قد يخيل للمرء لأول وهلة أن سجناء تدمر يعيشون بنعمة كبيرة عند استعراض أصناف الطعام المقدم لهم.. والسؤال المطروح هو: ما كمية ونوعية تلك الأطعمة؟ وقبل الإجابة على هذا السؤال، يجب ألا ننسى أن سجن تدمر مخصص لتعذيب وتصفية نزلائه بكل شيء، وهذا ينطبق على الطعام أيضا.
فكمية الشاي المقدمة مع طعام الإفطار لا تزيد عن 50 سم مكعب للشخص الواحد، وتقدم باردة، وتحتوي على شوائب من مخلفات الأطعمة الأخرى كالبرغل والرز ورب البندورة، لأن الزبانية يستعملون الأواني ذاتها لتحضير جميع الوجبات دون أن تجلى من بقايا الطعام السابق، ويكتفون بغسلها بالماء البارد فقط، والأنكى من ذلك، أنهم يحضرون الشاي عند المساء ويتركونه

حتى صباح اليوم التالي في أوان مكشوفة عند التقاء الباحتين الثالثة مع السادسة فيتساقط فيها الغبار والشعر والحشرات (ذباب- صراصير) لتوزع في اليوم التالي بعد أن امتلأت بتلك الأوساخ.

وأما الأصناف المقدمة لوجبة الإفطار فهي فاسدة، فالزيتون فاسد والمربى كذلك لأنها من المعلبات التي انتهت مدة صلاحيتها فأصبح طعمها كريها نتيجة لصدأ العلب المعدنية التي حفظت بها.
وأما البيض، فهو فاسد في أغلب الأحيان، إضافة لاختلاط قشر البيض مع البيضة، نتيجة تهشم البيضات قبل وأثناء سلقها.
وبصرف النظر عن نوعية الطعام، فإن كميته قليلة جداً لا تسد غائلة الجوع، مثلاً خمس حبات زيتون أو ملعقة من المربى أو الحلاوة،. وبالنسبة للجبنة فإن حصة السجين أقل من قطعة مثلثة من الجبنة الصفراء.
وأما طعام الغداء فهو عبارة عن الرز أو البرغل المطبوخ مع الشعيرية، أو العدس أو الحمص، ويطبخ بغليه بالماء دون أية مواد دسمة، ويحتوي على جميع أنواع الشوائب، كالزيوان والحصى والقش، وهو غير ناضج في أغلب الأحيان، والمرقة عبارة عن الخضار المفرومة بقشورها، والمطبوخة برب البندورة، ماعدا الفول الأخضر الذي يطبخ بالماء فقط، والسبانخ تفرم بجذورها، والخيطان المستعملة برزمها هو من سعف النخيل.
وأما اللحم فكميته لا تستحق الذكر، ومع ذلك فإن الجلادين لا يبقون للسجناء غير العظم والدهن والجلد، وكنا نقدمه للمرضى والمسنين لاستحالة تقسيمه على جميع نزلاء الزنزانة، وكمية الفواكه والخضار الطازجة زهيدة جدا، مثلا بطيخة واحدة لمئة سجين، أو عشر حبات برتقال أو تفاح لمائة سجين لذلك كنا نخصصها للمرضى والمسنين.
وأما الخبز، فهو المخصص للجيش، وحصة السجين أقل من رغيفين من الخبز المعروف باسم العامية باسم (الصمون)، وطعام العشاء هو أسوأ الأصناف المقدمة رغم رداءة الأنواع الأخرى، فالحمص والعدس المسلوقان غير ناضجين، إضافة لخلوهما من المواد

الدسمة والملح، مع وجود الشوائب والأوساخ كالحصى والقش، وأما متبل الكوسا والباذنجان فهما عبارة عن حبات الكوسا والباذنجان المسلوقة والمفرومة لتقدم كطعام دون إضافات!؟ فكان السجناء يسخرون دائماً من السجانين فيقولون طعام صاغ خال من أي غش؟! والأنكى من كل ذلك، توزيع الطعام بأوعية مكشوفة أمام باب المهجع، ويترك لساعات طويلة، معرضاً للغبار والحشرات، ولا يدخل للزنزانات إلا بعد أن امتلأ بالشعر والغبار والحشرات وإلا بعد أن تأكل منه الجرذان التي تخرج من فتحات المجاري، وهذا يؤدي بدوره لإصابة السجناء بأمراض مختلفة كالإسهالات والكوليرا لتزيد من عذابهم ومحنتهم.

وأذكر ذات مرة عندما كنّا نوزع طعام الغداء، وكان الجو حاراً، والرياح شديدة تثير الغبار، وعملية الحلاقة تجري بباحتنا، تم توزيع أواني الطعام أمام أبواب الزنازين، فلاحظ أحد الحلاقين أن الطعام قد امتلأ بالشعر المتطاير مع الغبار، فقال لأحد الجلادين: إن الطعام قد امتلأ شعراً، فأجابه ذلك المجرم (لجهنم).. وأما أوقات توزيع الطعام فهي مختلفة، فأحياناً يوزع في وقته المحدد، وأحياناً يوزع بعد مضي عدة ساعات عن الوقت المحدد، وخاصة طعام الإفطار الذي يتأخر الجلادون في توزيعهم بسبب انشغالهم بعمليات الإعدام التي كانت تتم صباحاً، لإنشغال المجرمين بواجبهم الوطني الأكثر أهمية؟؟!!

وطعام الغداء يتأخر توزيعه عن الموعد المحدد عندما ينشغل المجرمون بالمحاكم.. وأما الأواني المستعملة لتوزيع وتناول الطعام فلم نكن نملك منها شيئاً في الشهور الأولى، فكنا نأكل مباشرة من الأواني التي يستعملها الجلادون واستطعنا الحصول على قطعة نايلون فصرنا نستعين بها بتناول الطعام حيث نخلط البرغل أو الرز مع المرق على تلك القطعة لنتناوله بأيدينا، وبعد ذلك احتفظنا بصحن بلاستيكي من التي يستعملها الجلادون لتوزيع الطعام، فصرنا نستعين بها عند تناول الطعام ولبيت الخلاء أيضاً!!

وفي بداية عام 1981 سمح لنا بشراء بعض الصحون البلاستيكية والملاعق الخشبية والأكواب البلاستيكية فصرنا نستعين بها.

لقد كانت كمية الطعام قليلة جداً لا ترد غائلة الجوع، لذلك كنا نأكل كل البقايا والفضلات كقشور الفواكه (قشر البرتقال -الموز) وأكل بعضنا قشر البيض والبطيخ مما أدى لإصابة الكثيرين منا بآفات بالفم نتيجة لذلك، وكذلك عندما نخرج لتوزيع الطعام، كنا نلتقط بقايا الطعام الملقاة على الأرض، فنأكلها كما تفعل المخلوقات الأخرى، وأذكر أن أحد الأخوة التقط ذات مرة قطعة من اللحم، وقد امتلأت بالأوساخ، حتى إنها سويت بالأرض من كثرة الأقدام التي داستها، ومع ذلك فقد أكلها!! وكنا نلتقط بقايا الطعام الذي يوزع للجلادين رغم احتوائه على نفايات وأكدار مختلفة، وكنا نأكل الطعام رغم أننا نرى الأوساخ والحشرات التي تساقطت فيه، خاصة المرق الذي يمتلئ بالذباب والصراصير في أكثر الأحيان، بل إننا كنا نبحث بين أكوام القمامة كلما سنحت لنا الفرصة لنلتقط بقايا الطعام الذي يأتي للسجناء القضائيين (عناصر السخرة والبلدية) من ذويهم أثناء زيارتهم، إلى هذا الحد وصل بنا الحال في باستيل سورية، بل إنني أكاد أكذّب نفسي حينما أتذكر تلك الأيام السوداء، لأن ما حصل لا يمكن تصوره، ويفوق كل وصف وخيال، لقد عرفت حينها معنى قوله تعالى: (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) وعرفت قيمة النعم التي منَّ الله علينا بها ولكننا لا نعرف قدرها، فيا ربّ، عرّفنا على نعمك بدوامها لا بزوالها يا كريم.

سجن تدمر أثناء المناسبات القومية والأعياد: في هذه المناسبات وخاصة مناسبة ما يسمى بالحركة التصحيحية وذكرى 8 آذار تزداد كمية الطعام وخاصة اللحم لكنها تكون فاسدة وقد فاحت رائحتها الكريهة ولا ندري ما هو سبب ذلك وعلى الأرجح (والله أعلم) أن السبب عدم حفظها صحياً، فلا ثلاجات لذلك، فهم يحفظون اللحم المخصص للقطعات العسكرية بالثلاجات، وأما حصة السجناء فتهمل خارج الثلاجات فتفسد، وتأكدنا من صحة ذلك عندما أكلنا فضلات الطعام المخصص للجلادين، لنجد أن اللحم ناضج صحيح، كيف لا وهم يرون أن المعتقلين يجب أن تستنفد في حقهم جميع فرص ووسائل التعذيب لتمكين أركان النظام من التنفيس عن

أحقادهم التاريخية، لذلك كانوا يرون وجوب تأديب المعتقلين بكل وسيلة، بل إنهم كانوا يعتبرونهم دون مستوى الآدميين، ولطالما استعملوا كلمات تدل على ذلك مثل: حشرات، أوباش، علف(25).. وكثيراً ما أصيب المعتقلون بالإسهال جراء تناول اللحم الفاسد، لذلك كان معظمهم يعف عن تناوله تجنباً لمخاطره، أما الآخرون، فكانوا يأكلونه، لأن الجوع والحرمان كانا شديدين، بل إن الأخوة الذين يأكلون تلك اللحوم، يفرحون بتلك المناسبات، لأنها كانت فرصتهم الوحيدة لتناول شيء من اللحم، وإن كان فاسداً!!

الحالة الصحية بسجن تدمر: وتختلف عن السجون الأخرى لكثرة العوامل المؤدية للأمراض والأوبئة. وأهم هذه العوامل: التعذيب والقهر اللذان يتعرض لهما المعتقلون، والازدحام الشديد، والجو غير الصحي الذي تتصف به أكثر الزنزانات. فالبرد الشديد شتاء مع قلة الملابس والأغطية وانعدام الدفء، بالإضافة إلى الفتحات في السقف في كثير من الزنزانات، علاوة على ذلك: النوافذ المفتوحة في جميع الزنزانات، وانتشار القاذورات والأوساخ والحشرات، كالصراصير والذباب، والجرذان والطعام الفاسد المتفسخ، وحرارة الجو الرهيبة في أيام الصيف التي تجعل الزنزانة خانقة، وفوق كل ذلك، عمليات الجلي والغسيل داخل الزنزانات التي تسبب الرطوبة فيها دوماً، ولأن دورات المياه كانت داخل الزنازين، فقد ملئت بالروائح الكريهة، مما جعل الجو داخل الزنزانة يشبه المراحيض أو الزرائب، يضاف إلى ذلك: نقص التغذية، وانعدام النظافة، مع الإجهاد الجسمي والنفسي الذي يتعرض له المعتقلون نتيجة التعذيب والإهانة. وفوق كل هذا وذاك، شح المياه في أكثر أيام الصيف. كل هذه العوامل مجتمعة جعلت من الذين دخلوا ذلك السجن الرهيب مرضى تحيط بهم الأمراض والأوجاع من كل جانب وأهمها:

1- إصابات التعذيب: ومنها ما كانت موجودة مع السجناء قبل دخولهم سجن تدمر نتيجة للتعذيب في فروع المخابرات (أثناء التحقيق) (27) مثل الجروح والحروق والكسور بل إن بعض الإخوة كانوا مصابين بعاهات دائمة كتيبس المفاصل، وعندما يدخل المعتقلون سجن تدمر

فتلك الإصابات تتفاقم وتزمن، ولا تشفى إلا بعد مدة طويلة جدا، إن لم تتحول إلى عاهات دائمة أو تتطور نحو الأسوأ نتيجة الإهمال وسوء المعاملة، أما الإصابات الناشئة عن التعذيب داخل السجن، فهي غالباً الجروح الناشئة عن الضرب بالسوط والكابلات، ونتيجة للإهمال المتعمد للمعالجة، فإن الجروح تصاب بالالتهاب والتقيح، وقد ينتشر الالتهاب لأعضاء أخرى كالعظم والمفاصل، مؤدياً لعاهات خطيرة، فأمراض مزمنة ومعقدة.

2-كسور العظام وخلع المفاصل: نتيجة الضرب بالعصا الغليظة أو بسبب القفز والرقص فوق أجساد المعتقلين، وهي كثيرة الحدوث، خاصة كسور الأطراف وعظام الظهر والصدر، وقد تؤدي لحدوث عاهات دائمة كالشلل وتيبس المفاصل وتشوه العظام.

3- انثقاب طبلة الأذن: نتيجة للصفع على الوجه، ليفقد السجين حاسة السمع جزئياً أو كلياً.

4- فقد حاسة البصر بدرجة متفاوتة: نتيجة الضرب بأدوات التعذيب على الوجه، مؤدياً إلى عاهات مستديمة في الرؤية والعيون.

5- الشلل: نتيجة الضرب على الرأس والعمود الفقري بالعصا الغليظة وقد أصيب أحد الإخوة عندنا بالشلل النصفي، وخرج من السجن متوكئاً على إخوانه.

حضر الطبيب لأول مرة بعد دخولنا السجن بمدة طويلة، يرافقه المساعد أول أبو رشيد (ممرض) وأمر بإخراج المصابين والمرضى وأعطيت لهم المعالجات الأولية كتضميد الجروح مع بعض المسكنات ولم يرسل أي سجين إلى المستشفى رغم أن أكثر الإصابات تستوجب ذلك، وكان للإخوة الأطباء المعتقلين معنا دور كبير في تخفيف الآلام عن كثير من المرضى، رغم قلة الإمكانيات.

انتقلنا في نهاية عام 1980 إلى مهجع آخر، كان يضم عدداً كبيراً من المعتقلين الأحداث الذين تعرضوا لتعذيب شديد حتى أصيب أكثرهم بجروح بليغة، ونتيجة لسوء الحالة وتدهورها، فإن تلك الجروح أصيبت بالالتهاب والتقيح، وكانت رائحة القيح الكريهة تنبعث في أرجاء الزنزانة فتزكم الأنوف. وكانت إصابة أحد الأخوة خطيرة، ولم تفلح المعالجة البدائية التي تلقاها بتخفيف الإصابة لأنها لم تكن كافية طبياً... وما يغني المطهر

في دفع الجراثيم الخطيرة التي دخلت الجسم؟ وساءت حالة الأخ أكثر وأكثر، وقال الإخوة وقتها: إنه مصاب تجرثم الدم، وطلبوا منا أن نجأر إلى الله في الدعاء لدفع خطر تلك الإصابة. وقام الإخوة بمساعدته في حدود الإمكانات المتاحة، فمن الله عليه بالشفاء، بعد أن وصل إلى حافة الموت، فكانت كرامة من الله، في الوقت الذي رفض المجرمون تقديم أي نجدة أو إسعاف..

ومثل هذه الحالات كثيرة في سجن تدمر، وهي تتناسب طرداً مع واقع واسم المكان ونفسية الطغمة الطاغية الغاشمة.

6-مرض الجرب: عرفنا هذا المرض بعد شهرين من نزولنا سجن تدمر، عندما نقلنا إلى زنزانة موبوءة فيه، وعلمنا من الإخوة فيها أنهم أصيبوا بهذا المرض قبل مجيئهم إلى تدمر. وعلمنا بعد ذلك أن معظم فروع المخابرات في مختلف المحافظات موبوءة بالجرب والقمل، حيث ينتقل سجناؤها إلى تدمر الأسد فينقلونها إلى المعتقلين الملازمين لزنزاناتهم، وهذا ما حدث في بقية السجون والمعتقلات ومراكز تجميع المعتقلين، فقد أصبحت جميع فروع المخابرات العامة المسمى بسجن كفر سوسة بدمشق وفرع التحقيق العسكري في دمشق أيضاً، وسجن أمن الدولة في حلب أيضاً، والسجن المدني في إدلب، وكل سورية معتقل وإرهاب ماعدا قصر القرد الأعظم، وقصور أزلامه وجلاوزته خونة الشعب والدين والأرض.

ولمرض الجرب في سجن تدمر قصة مؤلمة لم تخل من بعض الإيجابيات رغم مرارتها، فالجرب مرض جلدي يؤدي للحكة الشديدة، خاصة أثناء الليل، مما يحرم المصاب من النوم والراحة. وهو مرض معد ينتقل من شخص لآخر نتيجة الملامسة واستعمال الملابس والأغطية المشتركة، كما علل أحد الأطباء ذلك، وهذه أمور لا يمكن تجنبها بين سجناء تدمر، فوسائل الوقاية من المرض معدومة تماما. ونتيجة للحكة الشديدة المستمرة، يصاب الجلد بالتقرح الشديد، وبعد ذلك يصاب بالالتهاب والتقيح، مؤديا لاستفحال المرض أكثر فأكثر، مع صعوبة التشخيص والمعالجة. وعندما انتشر الجرب في جميع المهاجع بنسب متفاوتة بدأت المعالجة، ولا

نعرف سبب عدم بدء المعالجة قبل ذلك، أهو بسبب جهل الجهاز الصحي (الطبيب والممرض)، بالمرض أم بسبب عدم استجابة إدارة السجن لما يقترحه الطبيب في ذلك الوقت؟ (28) أم أنهم يريدون جعل الجرب وسيلة أخرى لتعذيب السجناء؟ وبعد أكثر من أربعة شهور على انتشار المرض بين المعتقلين، بدأت المعالجة، وكان ذلك في شهر كانون أول من عام 1980.

أعجب وكالة أنباء في التاريخ: أخرج الجلادون المصابين، وجمعوهم في زنزانة واحدة في الباحة السادسة
المرقومة 28 والعنبر الثامن في باحة الحمام، كان يترك المصابون هناك مدة أسبوع تقريباً، ويعادون إلى مهاجعهم بعد ذلك.
ولمهجع الجرب قصة أخرى طريفة يعرفها السجناء تدمر في ذلك الوقت، وهي وجود ظروف جديدة من جراء تجميع الإخوة المعتقلين من شتى المهاجع، مما أدى إلى معرفة مزيد من المعلومات والحقائق والإشاعات والأخبار الخارجية التي كانت غير معروفة بسبب العزلة المفروضة، كما عرف الكثير من المعلومات عن التحقيق والمحققين، وتعرف بعض الإخوة بإخوان لهم ممن يعرفونهم خارج السجن، بل عرف بعض الإخوة أسماء المعتقلين من أقاربهم ومعارفهم من خلال مهجع الجرب، وأكثر من ذلك، أن أحد الإخوة التقى بابنه هناك، وكان الأب قد اعتقل تاركا أبناءه، فاعتقل أحدهم بعده ليلتقيا معا في سجن تدمر، وفي مهجع الجرب(!!!) فياله من لقاء!! على عهد قرود القرامطة المعاصرين!!!.... وبات مهجع الجرب محطة نقل الأخبار ووكالة للأنباء عند سجناء تدمر المعزولين تماما عن العالم الخارجي، المصفدين بقيود المجهول.
وساعد على انتقال حفظ القرآن بين مختلف الزنازين، فيتبادل الإخوة السور التي يحفظونها شفهيا، ليعود الأخ إلى مهجعه حافظاً سورة جديدة لا يوجد بين إخوانه من يحفظها. وهكذا زاد عدد من يحفظ القرآن، وكمية القرآن المحفوظة، وأصبح في كل زنزانة عدد من الإخوة يبلغ مجموع ما يحفظونه مصحفاً كاملاً، مما ساعد الإخوة في العبادة، وشغل أوقاتهم بحفظ القرآن.

وعن طريق مهجع الجرب علمنا بعمليات الإعدام التي كانت تتم في الباحة السادسة، وعلمنا بالمحاكم الميدانية التي كانت تجري هناك (كما سنرى لاحقاً)، وعلمنا باستشهاد عدد من الإخوة تحت التعذيب، وبوفاة عدد آخر نتيجة تردي الأحوال الصحية والعامة على السواء.
كان الإخوة نزلاء المهجع يحيطون بإخوانهم العائدين من مهجع الجرب، يسألونهم عن الأخبار الجديدة، والإخوة متفاوتون في درجة وعيهم وفهمهم، وفي كل مهجع عدد من الإخوة من أصحاب الرأي وأهل الدراية الذين يقومون بتجميع تلك الأخبار وتحليلها وإلقائها على الإخوة نزلاء المهجع إذا سمحت الظروف بذلك، ويميلون فيها إلى الأسلوب الترغيبي لرفع معنويات المستمعين. وكانت تخيلاتهم غالباً تجنح إلى المبالغة والخيال، للحد من الظروف القاهرة التي يحياها السجناء.
ومهما يكن من أمر، فلمهجع الجرب تأثير إيجابي ساعدنا كثيراً في تلك الفترة للتغلب على الظروف النفسية القاسية التي نعاني منها، نتيجة عزلنا التامة عن العالم، والتي جعلتنا نعيش في غياهب المجهول، إضافة للظروف الأخرى التي تحدثنا عنها، وكان يقضي الإخوة أياماً في الحديث عن تلك الأخبار وتحليلها والاستنتاج منها، حتى تأتي أخبار جديدة وهكذا.. فربّ ضارة نافعة.
وللأسف ألغي مهجع الجرب بعد ذلك، فأصبحت المعالجة مقتصرة على إخراج المرضى للباحة، وإعطائهم الدواء لدهن أجسادهم، ورغم ذلك تعرضت مداواة المرضى لمد وجزر حسب الظروف العامة في السجن وأوضاع السلطة، فعندما تسوء المعاملة، توقف المعالجة، وإن وجدت فهي مترافقة بالسياط، مما يجعل أكثر المرضى يؤثرون المرض على السياط.
ولعل من أسوأ الفترات: تلك الممتدة بين نهايتي عام 1981 وعام 1982 عندما تولى المجرم فيصل إدارة السجن، بدل المساعد أبو جهل، وأعفي المساعد أبو رشيد (ممرض السجن) من عمله، فأصبح ذلك المجرم الجلاد يتولى جميع أمور السجناء بعد ترقيته إلى رقيب أول، فانعدمت المعالجة، مع غياب طبيب السجن معها، وإذا وجدت أحياناً فهي مترافقة بالسياط اللاذعات، كما حدث في عام 1982 عندما خرجنا للمعالجة (وكنت مع

المصابين) فتعرضنا للضرب الشديد على أجسادنا العارية، لأننا ندهنها بالدواء، وأصيب أحدنا إصابات بالغة، لتعرضه للضرب المبرح أكثر من غيره، ولولا رحمة الله ولطفه لتوفي ذلك الأخ بسبب التعذيب، وقضى بعدها فترة تزيد عن الشهرين يعاني من خروج الدم مع البول. وبقي الجرب متفشياً في ذلك القبو اللعين، ليزيد من معاناة المعذبين والمضطهدين أصحاب الرسالة والدعوة الإسلامية، ولم يتمكن جهاز السجن من القضاء عليه لأن طريقة المعالجة بدائية ومخالفة لأبسط قواعد العلم والطب، وحق الإنسان، وبالتالي فهي عاجزة عن استئصال ذلك الداء.

القمل: وأصيب سجناء سجن تدمر بنوعين من القمل، هما قمل الجسم والعانة، ومنذ اليوم الأول لوصولنا السجن، قال لنا بعض الإخوة: إن الزنزانات التي كانوا فيها بالمخابرات موبوءة بالقمل، وبعد أيام قليلة من استقرارنا في المعتقل، أصبنا جميعاً بذلك الداء، ليضاف فصل جديد من الكرب والمقاساة.
وللظروف العصيبة التي نحن فيها ما كان يمكننا الوقاية من المرض، فاضطررنا إلى أن نعالج أنفسنا قدر المستطاع، وذلك بخلع الملابس عندما يكون الوقت ملائماً (مساء) وتفتيش الداخلية منها جيداً للقضاء على الحشرات وبيوضها بسحقها بين اظفري الإبهامين، ولم تكن هذه الطريقة كافية لاستئصال الداء، فالدفعات الجديدة من المعتقلين تحمل معها وباءي الجرب والقمل المستشرين في جميع فروع المخابرات.
وفتح علينا باب من التعذيب عندما بدأ الجلادون برش المهاجع بالمبيدات الحشرية الممزوجة بسوائل الوقود (كالكيروسين والمازوت) باستخدام أدوات الرش الآلية التي تملأ المهاجع برذاذ السائل وبخاره ويدفعون بنا فيها ويحكمون إغلاقها علينا لنبقى نهب السموم، ولأن تهوية الزنزانات رديئة جداً، فإن كثيراً من السجناء كانوا يصابون بالإغماء نتيجة الاختناق الناشئ عن استنشاق المواد السامة، ونتيجة لنقص الأوكسجين وكان ذلك كارثة مفجعة على المسنين والمصابين بأمراض مزمنة كالربو وأمراض القلب والصدر، لأنها تؤدي لإثارة نوبات حادة من الربو وضيق النفس عندهم، ونلجأ لتلطيف

الجو بتحريك البطانيات داخل الزنزانة رجاء طرد المواد السامة من داخل المهجع، فكل شيء في سجن الموت يستغل في تعذيب المعتقلين وإهانتهم.
وانتشر أيضاً قمل العانة، الذي يصيب أشعار الجسم، وهو أكثر إيلاماً وإزعاجاً من قمل الجسم، لأن أعراضه تشبه أعراض الجرب، كالحكة الشديدة بالليل، وعالجناه بإزالة الشعر من الجسم بمختلف الطرق، حتى إننا أحرقنا الشعر بأعواد الثقاب، ونتيجة للجهود المضنية التي بذلناها لمكافحته، تمكنا من القضاء التام عليه، ولم نعد نرى له أثراً، وعند خروجي من السجن كان المهجع نظيفاً تماماً من القمل بعد أن عانينا منه سنوات طويلة..

الكوليرا: لقد أدت القذارة والأوساخ في السجن وترك الطعام نهب الحشرات والقاذورات مع سوء التغذية والتعذيب المستمر، أدى ذلك إلى ضعف مقاومة أبدان السجناء، وانهيار المناعة لديهم، مما سهّل إصابتهم بأمراض عديدة، منها مرض الكوليرا.
واجتاحت السجن عدة جائحات، بمعدل جائحة في كل عام. الأولى: كانت في نهاية عام 1980 والحمد لله الذي جعل عدد الإصابات محدوداً، وعدد الوفيات لم يزد عن ثلاثة أشخاص، وبقي الوباء محصوراً بعدد من الزنازين.
والجائحة الثانية كانت أكبرهن، أصيب فيها معظم السجناء خلال شهر نيسان من عام 1981 والتي دامت ما يقرب من شهرين، وارتعدت فرائص جهاز السجن منها، وتسارعوا لمكافحتها ولم يكن ذلك خوفاً على المعتقلين، وإنما خوفاً من انتشاره بين زبانية العصابة، أو انتقاله إلى خارج السجن، فمياه المجاري الخاصة بالسجن تصب بالمجاري العامة، لبلدة تدمر، وتستعمل بدورها لري المزروعات، وهذا بدوره سيؤدي لانتشار الوباء في البلدة، ومن ثم للمدن الأخرى، نتيجة تناول الخضراوات المروية بمياه المجاري.
ومما يدعو إلى الضحك المبكي أسلوب المجرمين في معالجة هذا الحدث الخطير، إذ جمعوا المصابين دون السجناء في المهجع رقم 13 في الباحة الثالثة والذي يعتبر من أسوأ مهاجع سجن تدمر، فهو مظلم ورطب

رديء التهوية، يضاف إلى ذلك أنه لا يحتوي إلا على دورة مياه واحدة.. وسط هذا الجو ثم تجميع مرضى الكوليرا، ويالها من معالجة، وأما طبيب السجن، فقد هرب وولى الأدبار (وكان يومها من النصيريين) وبقي الأمر منوطاً بالمساعد الأول أبو رشيد ليقوم بهذه المهمة الخطيرة، فعلقت أكياس المصل لبعض المرضى بمساعدة الإخوة الأطباء، وساءت حالة أكثرهم بشدة أفقدتهم القدرة على الاستواء أو القيام بسبب الإسهال الحاد والذي أدى أيضاً للازدحام الشديد أمام دورة المياه، مما جعل الكثيرين يتغوطون ضمن ملابسهم، وأصيب آخرون بالغثيان والإقياء على أنفسهم وإخوانهم، وأخرج المجرمون بعض المرضى من المهجع الذي ضاق بهم، ووضعوهم في الممرات الموازية له، والتي تقع بجانب المجاري المكشوفة التي تمر في باحة الحمام إلى الباحة الثالثة، وإذا تحسنت حالة أحدهم أعادوه إلى مهجعه، ونصح الأطباء جميع إخوانهم بعدم الذهاب إلى مهجع الكوليرا، إلا الذين ساءت حالتهم وأشرفوا على الموت، وكنا نخرجهم محمولين ببطانية كالموتى إلى مهجع الكوليرا، ووزع جهاز السجن الأدوية على بقية السجناء (كبسولات التتراسيكلين) ووزعوا أيضاً مساحيق السكر والملح لتذاب بالماء ويشربها المعتقلون.

أصاب هذا الوباء القسم الأكبر من المعتقلين (حوالي 70%) وبدرجات متفاوتة، وكان للإخوة الأطباء دور كبير بمكافحته رغم انعدام الوسائل الأولية للإسعاف والوقاية، واتخذت كافة الاحتياطات الوقائية ضمن حدود الإمكانيات المتاحة، وألقيت التعليمات حول ذلك المرض، فأصبح القسم الأعظم من المعتقلين مدركين تماماً طبيعة ذلك المرض، وطرق العدوى والوقاية المختلفة والعلاج.

واقتصرت التغذية في ذلك الحين على البطاطا المسلوقة مع الشاي، ولمدة تزيد عن الشهر. وتوقفت عمليات الحلاقة والحمام والتنفس أثناءها، وأصيب الجلادون الجبناء بالرعب والذعر، فكانوا يتجنبون المعتقلين عندما يحضرون للتفقد، فيهربون بسرعة دون التفكير بإيذائنا، وعشنا راحة حقيقية من العذاب الذي رده عنّا وباء الكوليرا، وغمرتنا الطمأنينة والهدوء

اللذان حرمنا منهما طوال الشهور الماضية، رغم معاناتنا من الكوليرا وعذاباتها.
لقد تجلت عناية الله سبحانه لمعتقلي تدمر خلال تلك الفترة، بل أجزم على أنها كرامة من الله لأولئك المعذبين الذين يعيشون تلك الظروف القاسية على هامش الحياة الآمنة، وصرّح أحد الأطباء قائلاً: إني لا أستطيع أن أصدّق ما حصل.. كيف تجتاح الكوليرا هؤلاء المساكين في ظروفهم وأحوال السجن الرديئة بكل شيء ويكون عدد الوفيات فقط ثلاثة عشر أخاً، مقارنة بآلاف المصابين؟!!
وتعرض سجناء تدمر لوباء الكوليرا مرة ثالثة عام 1982 لكن عدد الإصابات كان أقل من ذلك بكثير، وانحصر ببعض الزنزانات، وطبقت إجراءات وقائية صارمة في جميع مهاجع السجن، مما كان له أثر جيد لرد غائلة الأوبئة والجراثيم.

الإسهال الشديد:
نتيجة لتناول الأطعمة الملوثة والفاسدة، وخاصة اللحم الفاسد بالمناسبات، ونتيجة للانفعال الشديد الناتج عن التعذيب، إضافة للبرد الشديد بفصل الشتاء، فإن أكثر سجناء تدمر عانوا من الإسهال الشديد معظم أيام السنة، مما أدى للازدحام المستمر أمام دورات المياه ومع ذلك، فإن جهاز السجن لم يكترث بالأمر.
التيفوئيد والديزنطاريا والزحار:
وهذان المرضان موجودان بصورة دائمة في سجن تدمر، لانعدام أبسط متطلبات الصحة العامة واستحالة تطبيقها في ذلك المعتقل الرهيب.
الأمراض الفطرية:
انتشرت الأمراض الفطرية والجلدية بشدة بين المعتقلين خاصة في القدمين وما بين الفخذين، للرطوبة الشديدة والقذارة داخل الزنزانات، فقام جهاز السجن بتوزيع بعض المراهم لفترة والتي أعانت على تهدئة الآلام مع بقاء المرض بصورة دائمة مسبباً للمعتقلين الحكة والحرقة المزعجة مع الالتهابات الجلدية المرافقة.

السل الرئوي: وانتشر هذا المرض في بعض الزنزانات خاصة المزدوجة 5 -6 وكذلك الزنزانة رقم 23 في الباحة الرابعة ورقم 13 في الباحة الثالثة بسبب الظلمة والرطوبة والكثافة الشديدة وانهيار مناعة الأجسام للظروف الظالمة المفروضة على السجناء، وكان بعض المعتقلين مصابين بالمرض قبل دخولهم السجن مثل عبد الحميد ناصيف من حلب، وعلي عيد الخشل من دير الزور، والسؤال المطروح هو كيف أرسل هؤلاء السجناء إلى السجن رغم معرفة السلطة بأنهم مصابون بداء السل؟! أليس الواجب معالجتهم أولاً ثم إرسالهم للسجن إذا تعذر حجزهم في أماكن خاصة للمصابين بأمراض سارية؟! ويدل هذا على مدى استهتار تلك السلطات الباغية بحياة المعتقلين.
ورغم انتشار المرض بين السجناء، فإن المجرمين لم يتخذوا الإجراءات اللازمة لمكافحته، واكتفوا بتوزيع بعض الأدوية على المصابين، وتكتموا على ذلك المرض، ولم يتخذوا نفس الإجراءات التي اتخذت لمكافحة الجرب والكوليرا، ولعلهم عرفوا أن السل يمكنه أن يودي بحياة المرضى فتركوه يفترس السجناء بأنيابه ليقولوا بعدها: إن الوفاة طبيعية، يضاف إلى ذلك، أن المرض المذكور قد انتشر عام 1982 بعد قيام جهاز السجن بفرز المعتقلين ومنع أي اختلاط بينهم.

الالتهابات المختلفة: ومنها التهاب اللوزات واللثة والمجاري البولية نتيجة البرد ونقص التغذية والإهمال. ويضاف إلى ذلك فقر الدم والهزال الشديد، فقد أصبح أكثر السجناء أشباحاً بعدما تغيرت ملامحهم وضمرت أجسادهم، بعدما أصيبوا جميعاً بمختلف الأمراض.
وأذكر قصة هي أقرب إلى الخيال ملخصها: أن أم أحد المعتقلين قد تمكنت بعد عناء شديد من زيارته، فوقف مشدوهاً أمامها، لم يعرفها للوهلة الأولى، وهي بدورها لم تميزه، فكلاهما قد تغيرت ملامحه، فالأم قد تغيرت من شدة حزنها على ابنها المفقود، والابن قد تغيرت ملامحه من شدة ما يعانيه من قهر وتعذيب وتجويع، فانهمرت الدموع من عيونهما وأخبرنا بما حصل معه، وكأن ما حصل أسطورة حبكها خيال شاعر درامي.

إنني أكذب نفسي أو أكاد حينما أسترجع بذاكرتي تلك الأيام الحالكة السواد، وأتساءل: هل صحيح أنني واجهت ذلك التعذيب، وواجهت كل تلك الوقائع في باستيل سورية على عهد القرامطة الجدد؟ وهل صحيح أنني نجوت من تلك المحنة؟ نعم..!! لقد ولدت من جديد، ومنحني الله عمراً آخر، فالداخل لذلك المكان مفقود، والخارج منه مولود، والعاقبة للتقوى.

ولابد لي في نهاية حديثي عن الأمراض في سجن العذاب والموت، سجن تدمر من ذكر آفات أخرى أصابت بعض المعتقلين، وسببت لهم عاهات دائمة، كتيبّس المفاصل بسبب الضرب الشديد عليها وتركها دون علاج، والشلل الذي أصاب بعض المعتقلين نتيجة للضرب على الرأس أو العمود الفقري، وهناك أيضاً العمى الجزئي، أو الكلي نتيجة الضرب على الوجه وقد أصبت بعيني اليسرى فأصبحت حدة النظر فيها 1/10 بعد أن كانت سليمة تماماً، والصمم الجزئي نتيجة لانثقاب غشاء طبلة الأذن، أو نتيجة لالتهاب الأذن الوسطى دون وجود معالجة، ومن أخطرها الإصابات العقلية كالهستيريا والجنون وفصام الشخصية التي أصيب بها بعض السجناء نتيجة التعذيب والإرهاب.

واعتاد أحد الإخوة المصابين بالجنون أن يقف خطيباً بصوت عال، وكثيراً ما أدى ذلك لحضور المجرمين ليضربوه بشدة، وعندما عرفوا أمره صاروا يحضرون للاستهزاء والسخرية منه، وقبل ذلك أصيب أخ ثان بفصام الشخصية (كما ذكر الإخوة الأطباء) فكان ذلك الأخ يتسبب لنفسه ولإخوانه بالضرب والإيذاء، فكان الجلادون يتخذون كلامه مبرراً لذلك، وجعلوه مصدر ضحك لهم وتسلية، ومادة للتندر والسخرية، كلما سنحت الفرصة، إرضاءً لانحرافاتهم وحقدهم.

موقف الأطباء المعتقلين: كان الأطباء الذين اقتيدوا إلى سجن تدمر قد وزّعوا في جميع زنزانات السجن، سواء الذين أنهوا دراستهم أو ما زالوا في مرحلة الدراسة، إضافة لذوي التخصصات العالية، وكان بين المعتقلين عدد من أساتذة كلية الطب، أمثال الدكتور أبو الخير الخطيب رئيس قسم التشريح في جامعة دمشق والذي قضى أكثر من عام هناك بين عامي 1980 و

1981 والدكتور مأمون العظمة الأستاذ بقسم الجراحة والذي قضى حوالي ثلاث سنوات في المعتقل، والدكتور نزار الدقر الأخصائي بالأمراض الجلدية(29)، والدكتور عبد الرؤوف عبيد الأستاذ بقسم طب الأطفال في جامعة حلب.

إن معظم معتقلي سجن تدمر هم من خيرة أبناء سورية علماً وخلقاً جمعتهم تلك المحنة ووحدتهم الظروف القاهرة، لقد تكيّف الجميع مع تلك الأوضاع الشاذة، وتعاملوا معها على قاعدة الحاجة أم الاختراع، وراح الأطباء يساعدون إخوانهم بشتى الوسائل، فهم يصغون لدقات القلب دون استعمال السماعة بوضع الأذن على صدر المريض مباشرة، وقد اعترف بعضهم أنه اكتسب خبرات جديدة داخل السجن ما كان يعرفها ولن تتوفر له خارجه، وقاموا بتجميع حبات العنب الفاسدة في كيس نايلون وتركوها تتخمر لاستعمالها في تطهير الجروح، وأحياناً كانوا يضعون على الجروح رماد السجائر بهدف تشكيل طبقة عازلة فوقها لحمايتها من التعفن، وأجروا عمليات شق وتفجير الخراجات والدمامل الناشئة عن الجروح المتعفنة باستعمال بعض القطع المعدنية الحادة التي أمكن الحصول عليها بطرق الصدفة، كأجزاء الساعات المهشمة أثناء التعذيب، والتي نجح السجناء بصنع حادة منها يمكن استعمالها، وغسلوا الضمادات وأعادوا استعمالها ثانية لعدم وجود الضمادات المعقمة، واستعملوا المسحوق الموجود داخل كبسولات المضادات الحيوية، برشه على الجروح لندرة الأدوية، وخلطوه مع بعض المراهم لدهن الجروح المتقيحة. وأما دورهم الوقائي، فكان ذا أهمية كبيرة عن طريق التوعية والشرح لطرق العدوى والوقاية من الأمراض، كما كان لنصائحهم الدور الكبير في الوقاية ومنع تدهور الحالة الصحية.

الزيارات لسجن تدمر: يختلف سجن تدمر تماماً عن غيره من السجون والمعتقلات، وبطش السلطة الغاشمة بالإسلاميين اختلف عن المعاملة المتبعة مع غيرهم من الفئات السياسية المناوئة للنظام، ويتفرد سجن تدمر عن غيره من المعتقلات بطابع القمع، ولما كان الهدف الأساسي من عمليات الاعتقال وغيرها من

الإجراءات القمعية التي اتبعت منذ عام 1979 هو تصفية المعارضة الإسلامية جسدياً ومعنوياً، فقد تطلب ذلك إلقاء القبض على كل من له علاقة بتلك المعارضة، لشلها تماماً عن الحركة، وكان ذلك السجن مجسداً لذلك الهدف، إذ تم بواسطته عزل المعتقلين عن المجتمع، حتى لا تصل أخبارهم إلى خارج أسواره، وتم اختياره لهذه الغاية، فموقعه بعيد عن جميع التجمعات السكانية، لأنه يقع وسط الصحراء، محاطاً بمنطقة عسكرية، واختير العاملون فيه من النصيريين والمنافقين، وبالتالي فإن الزيارات غير واردة بالنسبة لسجناء تدمر، ليتحقق هذا الهدف الأمني، ومع ذلك، فلا يخلو الأمر من بعض الاستثناءات لوجود علاقات بين ذوي بعض المعتقلين وبين بعض رموز السلطة.
ولقد كانت قرارات إدخال وإخراج المعتقلين من وإلى سجن تدمر ترتبط مباشرة بالصنم الأكبر (حافظ أسد) والذين نجح ذووهم بزيارتهم، على ندرة هذه الحالات، فقد جاءت بموافقة شخصية وخاصة منه، وتبقى حالات استطاع فيها بعض ضباط المخابرات تأمين زيارات لذوي المعتقلين، إذ يتم استدعاء المعتقل لفرع المخابرات بدعوى التحقيق، وهناك داخل الفرع يلتقي بأهله ثم يعود ثانية لسجن تدمر، وكان هذا يتم بعد تقديم رشوة كبيرة. وقام المجرم غازي كنعان بهذه التجارة الرابحة، وعن طريق فروع المخابرات العسكرية في المحافظات الأخرى ويكون فرع حمص في هذه الحالة صلة والوصل بين سجن تدمر وفروع المخابرات الأخرى، لأنه المسؤول المباشر عن سجن تدمر، لموقع مدينة تدمر ضمن محافظة حمص، وفي هذه الحالة، تحضر دورية من حمص مع أمر خطي بإحضار معتقل ما، ويتم نقله إلى حمص ليبقى هناك فترة من الوقت، ربما تستمر أياماً، يلتقي خلالها بأهله، وغالباً ما يتم اللقاء داخل غرفة غازي كنعان نفسه الذي لا تفوته هذه المناسبة لإلقاء محاضرة في الإسلام والوطنية على المعتقل وأهله، مبرراً فيها تصرفات عصابته، ثم يعاد ذلك المسكين إلى مقبره الأول في زنزانته.
وفي حالات أخرى، توسط فيها أقارب المجرم فيصل غانم (مدير سجن تدمر) وخاصة أمه كسماسرة لتأمين زيارات مثمنة مادياً لبعض المعتقلين، وهنا يحضر أقارب

المعتقل لمقابلته في السجن. وحقق أزلام النظام أرباحاً طائلة من هذه التجارة، إذ كانت تكلف زيارة المعتقل مبالغ طائلة، قد تصل إلى 30.000 ليرة سورية(30)، وفي كثير من الحالات، كان ذوو المعتقلين يدفعون الرشاوى ويتكبدون عناء السفر إلى تدمر دون جدوى، نتيجة لتضليلهم من قبل أزلام النظام، وابتزازهم لهم، لأنهم يعرفون بأن هذا المعتقل غير موجود في تدمر بسبب استشهاده أو نقله لمكان آخر، أو قد يرفض القائمون على السجن تلك الوساطات. وهذا الأمر يكون معروفاً من قبل الذين قبضوا الرشاوى، وربما لا يعرف الجلادون مصير ذلك المعتقل ليرجع الأهل بعد ذلك مصدومين بعد فشلهم في البحث عن معتقلهم الغالي، ويظل أولئك المساكين يدفعون الرشاوي ويكابدون عناء السفر من مدينة لأخرى، ويسألون كل من يظنون أنه يعلم شيئاً عن أبنائهم، أو يستطيع مساعدتهم في الوصول إليهم، لكن الأيام تمر، وتتلوها السنون، وهم على تلك الحالة البائسة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

التقاء السجين بأهله: إذا كان المعتقل ممن قدّر الله له أن يظل على قيد الحياة حتى يقابل بعض أقاربه، وهذا يحصل مع 50% (31)، من الحالات، يحضر السجانون لأخذ المعتقل، قائلين له: اخرج عندك زيارة. وقد لا يصدق المعتقل وإخوانه ذلك، لأنه سبق للسجانين أن أخرجوا بعض المعتقلين بحجة الزيارة، وكانت الغاية غير ذلك، كالمحكمة أو النقل لسجن آخر، أو مهجع آخر، أو العودة لفرع المخابرات من أجل التحقيق أو لإجراء مقابلة تلفزيونية، لذلك يستولي الخوف على السجين، ويبادر إخوانه بالدعاء والتضرع إلى الله أن يحفظه من كيد الأشرار، ويستخدم الزبانية الإهانات كعادتهم عندما يلتقون بالمعتقلين وقد يتعرض المعتقل للضرب.
يؤخذ السجين إلى ساحة الإدارة، وهناك شبك حديدي مزدوج يفصل بينهما فراغ، يقف الأهالي خلف الشبك الأول من ناحية باب السجن، ويقف السجين خلف الشبك الثاني داخل السجن، ويقابل السجين أهله بوجود الزبانية بين الشبكين يستمعون لأحاديث المعتقل مع أهله، ويتدخلون مقاطعين الأحاديث، وتنهى الزيارة قبل

انتهاء مدتها إذا لم يعجبهم الكلام، وتكون مدتها عشر دقائق فقط، ويأمر الحرس المعتقل بالانصراف بعدها، وأحياناً يتم اللقاء بين المعتقل وذويه في غرفة مدير السجن وبحضوره شخصياً هو أو نائبه (وكان برتبة نقيب في ذلك الوقت) وللمحسوبية دور كبير في إنجاز ذلك، ويحصل مدير السجن على حصته من الرشاوى، وهنالك يجلس الجميع على المقاعد الموجودة في غرفته، ويستغل مدير السجن أو نائبه تلك المناسبة للكلام عن الوطنية وعن المجرمين الذين ورطوا البلاد والعباد، واضطروا الدولة لاعتقال الناس، وكان للعدالة أن تأخذ مجراها، فيعاقب المذنب على إساءته، ويخرج البريء من السجن، وكان المجرم فيصل غانم يتظاهر أمام أهالي المعتقلين بأنه شخص متواضع ومؤدب، لأنه رجل مسؤول في دولة محترمة، وهذا سلوك المجرم غازي كنعان أيضاً. ومن يستمع لقوله ويقارنه بتصرفاته السادية مع نزلاء السجن من تعذيب وإهانة، وهو المسؤول الأول عنها، يدرك تماماً حقيقة القوم وباطنيتهم، ومدى التناقض الرهيب بين أقوالهم وأفعالهم، وهو ديدن أكثر حكام المسلمين في زماننا النكد، ولكن باطني سورية يتفوقون على الجميع.

عندما تنتهي الزيارة يقوم الجنود باستلام الهدايا المقدمة للسجين من أهله، فيأخذون منها ما يريدون، ويتركون الباقي، أما عندما تكون الزيارة بأمر من السلطات العليا، مع توصية خاصة، فإن مدير السجن يأمر كلابه بإعطاء كل شيء للسجين وعدم إيذائه أثناء عودته لزنزانته، لأنهم لا يعرفون إلا الضرب والإهانة، وهذا ما يحدث أيضاً في فروع المخابرات، إذ يوصي رئيس الفرع زبانيته بعدم ضرب السجين الذي حصل على زيارة بالفرع، وقد يأخذ الجنود كل شيء منه، أو يرمون الأغراض على الأرض ويتلفونها إذا كانت قابلة للإتلاف، كالمواد الغذائية، ليحرموا السجين منها، حتى قاموا بتبديل الملابس التي قدمها الأهل بأخرى بالية لسجناء آخرين خرجوا من السجن إلى ساحة الإعدام، أو نقلوا لسجن آخر، أو بقايا ملابس السجناء القضائيين من العسكريين الذين انتهت مدة سجنهم.

وفي أغلب الأحيان يمنعون إدخال المواد الغذائية إلا إذا وجدت توصية خاصة، وأثناء عودة المعتقل لزنزانته،

يستقبل بالبطش وخاصة إذا كانت الزيارة في أحد فروع المخابرات، وبعد التفتيش يقومون بجلده، كالذي يحدث في استقبال النزلاء الجدد، فكنت أدعو الله ألا يزورني أحد من أقاربي تجنباً لذلك!! واعتاد الجلادون سرقة أموال السجناء جزئياً أو كلياً.
لم تزد نسبة المعتقلين الذين حصلوا على زيارات عن 10% من مجموع السجناء وغالباً ما تتكرر الزيارة لنفس السجناء، والتي شملت مصدراً حيوياً لنا للحصول على الأموال والملابس التي توزع على الجميع، وتستخدم لدفع أجرة الحمام والحلاقة والابتزاز الشهري، ولشراء بعض الحاجيات الضرورية كالملابس والأغذية والصابون والمنظفات.

فيصل غانم يزور المعتقلين أيضاً: جرت العادة في سجون العالم أن يقوم مدير السجن بزيارة السجناء داخل زنزاناتهم بين فينة وأخرى ليطمئن على أحوالهم، ويصغي لمشكلاتهم، خشية حدوث تجاوزات من قبل الموظفين الصغار داخل السجون، لأن إدارة السجن مسؤولة عن سلامة المعتقلين أمام السلطات العليا في الدولة، كما أن معاملة السجناء داخل السجون تؤثر سلباً أو إيجاباً على سمعة الدولة أمام دول العالم وأمام المنظمات العالمية المختصة بالدفاع عن حقوق الإنسان، وأمام الرأي العام العالمي، ولذلك نرى أن الدولة المحترمة تراعي هذه النواحي، وتحاسب المسؤولين عن السجون عن أي تقصير يمس سمعة البلاد، وتحرص إدارات السجون على تلافي أي خطأ يعرضها للمساءلة أمام السلطات العليا في البلاد.
وحتى في البلاد التي تحكمها أنظمة ديكتاتورية قمعية، ومنها سورية، كانت زيارات مديرو السجون للمعتقلين السياسيين داخل زنزاناتهم تتم بهدف الإطلاع على أوضاعهم، ورفع طلباتهم للسلطات العليا، لعل بعضهم يتقدم بطلبات استرحام، أو يعلن توبته وتراجعه أو تخليه عن أفكاره، أو انسحابه من المنظمة أو الحزب الذي ينتمي إليه.
أما بالنسبة لسجناء تدمر فالأمر مختلف تماماً، فلا توبة تقبل، ولا عفو عن أحد من قبل السلطة. لقد خلع القوم برقع الحياء عن وجوههم، وداسوا كل الأعراف والقيم،

وراحوا يتصرفون بما تمليه عليهم أحقادهم الدفينة، فكان مدير سجن تدمر يأتي للمعتقلين من حين لآخر، ليفتح باب الزنزانة، فينطلق كلابه لاقتحام المهجع وبسرعة غير معتادة، وغالباً ما تكون الزيارة خارج أوقات المناسبات التي تحدثنا عنها، فيأمرون السجناء بالوقوف مغمضي الأعين، مطأطئي الرؤوس، و قد اصطفوا أمام الجدران، ووجوههم متجهة للأمام، يتجول ذلك المجرم داخل الزنزانة بينهم، متأملاً وجوههم، ويقف عند بعضهم يفرغ شيئاً من حقده وشذوذه، سائلاً إياه: (أنت ولك ما هو دورك بالتنظيم؟ أو ما هي رتبتك بالتنظيم؟ لماذا جئت إلى هنا؟ ما اسمك؟ من أنت؟ ما عملك؟) ويسمعه السباب والشتائم، ويبصق في وجه بعض السجناء ثم ينصرف.

كان هدف الزيارة التعرف على السجناء، عله يرى أحداً من المعروفين والمشهورين، سواء من الذين عرضوا في مقابلات تلفزيونية، أو تحدثت ونشرت عنهم وسائل الإعلام من العناصر القيادية النشطة جهادياً، فيشفي حقده منهم، ويالها من شجاعة ورجولة:

أسد عليّ وفي الحروب نعامة فتخاء تهرب من صفير الصافر

وكان المجرم يقوم بزيارته تلك مع كل دفعة جديدة تدخل ذلك السجن الجهنمي، وتعرف مرة على شخصين من محافظة اللاذقية فأرسل جلاوزته لهما، وأخرجوهما ليذوقا من العذاب حظاً ومن الإرهاب نصيباً، وأصيب أحدهما بكسر في ظهره نتيجة التعذيب، واستدعى جميع أفراد تلك الدفعة للتحقيق، فقر في نفوسنا حقيقة إطلاعه على ملفات المعتقلين.

وكنا ننال حظاً من اللكم والرفس واللطم أثناء تلك الزيارات المشؤومة، لأن السياط غير موجودة مع الجلادين، لأن عليهم تأدية المراسم العسكرية من تحية وتقديم الصف أثناء حضور سيدهم، وكان برتبة رائد وتمت ترقيته فيما بعد لرتبة مقدم.

وبدءاً من نهاية عام 1982 قام مدير السجن بزيارات للمهاجع، وتكلم بلغة خطابية في بعضها، وفي عام 1983 جمع نزلاء الباحة السادسة، وتكلم إليهم أيضاً، فراح يكرر العبارات التي يرددها سيده، من أنه مسلم ويصلي ويقرأ القرآن. كما تحدث عن المجرمين وعن

العدالة وقال: نحن لم نحضر أحداً من بيته أو من الشارع ظلماً وعدواناً، إنما أعمالكم هي التي أوصلتكم إلى هنا، وكل منكم سينال حقه، وإن المجرمين الذين خانوا الوطن سينالون جزاءهم العادل. كما تكلم عن كامب ديفيد والهجمة الإمبريالية الشرسة على القطر العربي السوري.. إلخ.
والمتتبع لأحاديث أزلام النظام يجدها متطابقة، فالكل يعزف على وتر واحد، ولا أعلم: هل القوم مقتنعون فيما يقولون أم أنهم كذبوا وكذبوا حتى صدقوا أنفسهم؟!! وهل يعتقدون أن أحداً يصدق تلك الأحاديث الممجوجة؟ لقد قال أحد أزلام السلطة ذات مرة إن الناس لا يثقون بأي شيء حتى نشرة الأحوال الجوية التي تذاع بوسائل الإعلام لا يصدقها أحد.

مقابلة وسائل الإعلام للمعتقلين: كانت أجهزة المخابرات ترتب مقابلات إذاعية وتلفزيونية مع بعض المعتقلين الذين توجه إليهم أسئلة محددة، بهدف الحصول على إجابات معينة لإقناع عوام الناس بما تريده السلطة الغاشمة، أو لتبرير بعض التصرفات القمعية التي تسلكها تلك الأجهزة الجهنمية.
ففي عام 1979 و 1980 أظهرت السلطة عدداً من المعتقلين على شاشة التلفزيون، مثل الأخ الشهيد أمين أصفر رحمه الله رحمة واسعة، وكانوا يجبرون المعتقل على كلام يكون سبباً للانتقادات والشبه عند عوام الناس، والذين يعرفون الظروف التي تتم بها تلك المقابلات لا يسعهم إلا أن يعذروا أولئك المساكين فيما يقولون، فكيف تمت المقابلات؟
حضر الزبانية لمهجعنا أوائل عام 1981 وقرءوا اسمين لاثنين من الإخوة عندنا وقالوا لهما: عليكما أن تلبسا أحسن ما عندكما من الملابس (لكم زيارة) وفي اليوم التالي حضروا وأخرجوا الأخوين لساحة الإدارة، وحلقوا لهما ورتبوا هندامهما، ثم أخذوهما لغرفة المقابلة، ووقف المساعد أبو جهل وقال لهما: عليكما أن تقولا كل ما يطلب منكما، وإذا لم تفعلا فالدولاب جاهز بانتظاركما.
دخل الاخوة غرفة أعدت لهذه المهمة من حيث المقاعد والأنوار والديكور وكاميرات التصوير، وراح أحد

الأشخاص يسألهما مستمعاً لإجابتهما، وكلما أجاب أحد الاخوة بصورة غير مقبولة، قال له: عليك قول كذا وكذا، وطلبوا منهما أن يكونا طبيعيين أثناء الإجابة مع قليل من التبسّم؟!!
ثم أجريت مقابلة تجريبية (بروفا) حتى يطمئنوا إلى الإجابات الموافقة لأهوائهم، ثم قاموا بإعادة المسرحية مع تسجيلها بكاميرات الفيديو، هكذا كانت تتم المقابلة مع المعتقلين داخل السجون وفي أقبية المخابرات وسط أجواء الإرهاب، وبعد أن حطم المعتقل نفسياً وفكرياً وجسمياً ليجد نفسه مرغماً على قول ما يزيده الطغاة، ليبرروا لأنفسهم جرائمهم التي يرتكبونها بحق البلاد والعباد.

محاكم التفتيش: بعد محاولة اغتيال المجرم حافظ أسد والتي جرت يوم الخميس 26/6/1980 ارتكبت مجزرة سجن تدمر في اليوم التالي مباشرة، وصدر القانون 49 القاضي بإعدام كل منتسب لجماعة الإخوان المسلمين، بعد التصديق عليه من مجلس المهرجين (الشعب).
وحدد القانون المذكور فترة شهر لمن يريد الانسحاب من التنظيم (راجع نص القانون) وبناء عليه، فقد شكلت المحاكم الميدانية لمحاكمة المعتقلين بتهمة الانتماء إلى جماعة الإخوان المسلمين ولم تكن لتلك المحاكم صفة قضائية، إنما ضمت مجموعة من ضباط المخابرات والجيش الحاقدين والعملاء لإنجاز رغبة الطاغية.
باشرت تلك المحاكم أعمالها في شهر تموز من نفس العام، وكانت تنتقل بين فروع المخابرات والسجون في طول البلاد وعرضها، لتحاكم السجناء الذين تم التحقيق معهم. فمثلاً حاكمت بعض المعتقلين في سجن المزة بدمشق، وكذلك في فرع كفر سوسة، وحاكمت آخرين في فرع المخابرات العسكرية في حمص واللاذقية.
وبعد ذلك شُكلت لجنتان ميدانيتان، تختص الأولى بمحاكمة معتقلي سجن تدمر ومقرها فرع المخابرات العسكرية في حمص، والمجرم غازي كنعان أحد أعضائها. أما المحكمة الثانية فتختص بمحاكمة معتقلي سجن المزّة (الإسلاميين فقط) وكانت برئاسة العقيد حسن قعقع (من اللاذقية ولم يكن سوى دمية) باشرت المحكمتان أعمالهما بصورة مستقلة، إذ يتم نقل

المعتقلين من تدمر إلى حمص وحوكمتُ بهذه الطريقة. وفيما بعد نقلت المحكمة إلى سجن تدمر فكانت اللجنة تذهب إلى هناك مرة أو مرتين أسبوعياً من أجل المحاكمة وتنفيذ أحكام الإعدام.
والمحكمة الثانية كانت تحاكم معتقلي سجن المزة، والذين يحكم عليهم بالإعدام ينفذ فيهم هناك، أما الذين يحكمون بالسجن مدداً مختلفة، فينقلون لتدمر، وأما المبرؤون فيمكثون في سجن المزة حتى يمن عليهم الطاغية بالإفراج!!

مأساة المحاكمات الميدانية: وهي أكثر الفصول إثارة للسخرية المبكية وأشدها ظلماً. إن أكثر دول العالم اليوم تحكمها أنظمة مستبدة، ومع ذلك يستطيع المرء أن يلاحظ تمايز المؤسسات والسلطات، فالوزير مسؤول ضمن حدود وزارته، وقائد الجيش مسؤول ضمن مؤسسته، والسلطة القضائية كذلك. وهكذا.. أما في دولة القرامطة الجدد، فلا وجود لذلك، فالسلطة عبارة عن عصابة يتزعمها الصنم الأكبر، فهم يملكون ويقررون وينفذون كل شيء وما عداهم من رموز ومناصب فهم دمى لا يملكون من أمرهم شيئاً، وما عليهم إلا أن ينفذوا ما يؤمرون به بكل دقة وخنوع. فالعصابة هي التي تأمر بالاعتقال، فهي النيابة العامة، وتعتقل، فهي جهاز الأمن، وتحقق وتحاكم وتنفذ الأحكام، فهي السلطة القضائية. لذلك نستطيع القول: إن تلك المحاكم ليست إلا محاكم صورية، لا تملك أية صفة من صفات المحاكم. فالقائمون عليها ليسوا قضاة، ولا يفقهون شيئاً من أمور القضاء. المتهم لا يحق له الدفاع عن نفسه، ولا أن يوكل من يدافع عنه، لا وجود للشهود، ولا حاجة لأية أدلة(32) فالدليل الأول والأخير هو محضر التحقيق الذي وضعته المخابرات التي تنتزع الاعترافات بشتى طرق الإكراه، وربما لفق ضباط المخابرات التهم كما يشاءون، ودوّنوا المحضر النهائي للتحقيق كما يريدون، وعلى المتهم التوقيع على ذلك المحضر دون أن يعرف محتواه، وبه كانت العصابة هي السلطة القضائية المهيمنة على كل أقدار السجناء، ولعل بعض الدول تمر بظروف استثنائية تدعوها لتطبيق الأحكام العرفية، أو حالة الطوارئ، لكن القضاء يبقى

محافظاً على هيبته ونزاهته. لأنه رمز العدالة(33) بل هو جهاز العدالة الوحيد في البلاد.
وتقع التجاوزات من السلطة التنفيذية، وخصوصاً أجهزة الأمن التي تعتقل وتعذب بصورة تعسفية، أما القضاء فإنه يحق الحق وينصف الناس، ويحترم القانون، أما في دولة القرامطة الجدد، فالأحكام العرفية مطبقة على البلاد منذ عام 1963 وزادت الحالة سوءاً في عام 1980 عندما ارتكبت الكثير من التجاوزات التي جعلت بعض رموز السلطة يراجعون أنفسهم كرجال دولة(34)، لأن الدولة تحمل معنى حضارياً لا تليق به تلك الأساليب الوحشية، والتي تشابه إلى حد بعيد سلوك عصابات الإجرام الخارجة عن كل القوانين والأعراف والقيم.

كيفية المحاكمة: مع مطلع شهر أيلول من عام 1980 جاء الجلادون إلينا بقائمة أسماء، ليقولوا لهم: جهزوا أنفسكم، غداً عندكم محكمة. هناك اختلطت المشاعر والأفكار بين التشاؤم والتفاؤل، فقد كنا نسعى لتفسير كل شيء لصالحنا لكوننا محاطين بالمجهول من كل جانب، لا ندري ماذا يدور حولنا، بالإضافة للظروف التي كنا نعيشها، والتي تفرض علينا الشعور بالمرارة والإحباط، ورغم ذلك، كنا متفائلين، نفسر كل شيء بصورة إيجابية، بسبب إفراط بعضنا في الخيال والخرافة، ولأننا اعتقلنا في فترة مبكرة من عام 1980، ولم نسمع بمجزرة سجن تدمر، ولا بالقانون 49، لذلك لم نكن نعرف ماذا تعني المحكمة؟ وإلى ماذا تشير؟ قلنا: لعل هذه بداية الفرج ، فعسى أن تنهي المحكمة الوضع المأساوي الذي نحن فيه، فننقل إلى سجن آخر نعامل فيه كجميع السجناء في كل بلاد العالم، أو يخلى سبيلنا فنعود لبيوتنا، ولكن هيهات هيهات!!
رحنا نسأل بعض إخوتنا ممن سجنوا في فترات سابقة، والتقوا بإخوة ذهبوا للمحاكمة، عن إجراءاتها، فكان ما نسمعه يطمئننا بعض الشيء ولكن، سرعان ما اصطدمنا بالواقع، فتبخرت جميع الآمال وأصبنا بالإحباط.
نمنا تلك الليلة، ولكن عند منتصف الليل جاء السجانون وفتحوا باب الزنزانة، وتلوا الأسماء ثانية، طالبين أن يحضر كل سجين قميصه الداخلي، لاستعماله كغمامة

لعصب العينين، وعند خروج إخوتنا من الزنزانة، عصبت أعينهم، وأوثقت أيديهم بالحبال، وسيقوا لساحة القلم. نقص عددنا في ذلك اليوم، وافتقدنا إخوتنا، وظننا أن لن نلتقي بهم ثانية، وافترقنا إلى غير لقاء متوقع!! وسيطر علينا شعور غريب، هو شعور الخوف من المجهول، ورحنا نتساءل: ماذا سيحصل لإخواننا؟ وبيننا أحد الأخوة ممن اعتقلوا سابقاً، والتقى بأخوة أخذوا إلى محكمة أمن الدولة بدمشق، فشرح لنا إجراءات المحاكمة للسياسيين، إذ يعاد استجواب المتهم من قبل القاضي بطريقة تختلف عن التحقيق في فرع المخابرات، فلا ضرب ولا إهانة، وإنما الحجة والمنطق والدليل، وتعاد كتابة الإفادة حسب معطيات الاستجواب والأدلة الموجودة، وحسب قناعة القاضي. وتسمى هذه المرحلة: بتبييض الإفادة، أو تثبيت الأقوال. وكانت تستغرق عدة جلسات، ويستطيع المتهم أن يقول ما يشاء. وقال أيضاً: إن الأخ الشيخ محمد خير زيتوني قد انتقد النظام أمام لجنة المحكمة بكلمات لاذعة، فتحولت الجلسة من محاكمة له كمتهم، إلى محاكمة وإدانة النظام.

مر علينا ذلك النهار كبقية أيام السجن العادية، وعند المساء، بدأت عمليات التعذيب في الباحة الأولى، فظننا وصول دفعة جديدة من المعتقلين، وبعد انتهاء حفلة الاستقبال، أخذت الأصوات تقترب مع أصوات الزبانية، وفتح باب باحتنا، فدخل الزبانية مع أخوتنا، وفجأة فتح باب زنزانتنا، واندفع إخوتنا للداخل بحالة يرثى لها من الإعياء والتعب والجوع والعطش، كما بدت عليهم آثار التعذيب من جروح وقروح وكدمات، الجميع يصرخ ويستغيث مرتمياً على الأرض، لا يقوى على شيء.

أسرعنا لأخوتنا نساعدهم ونخفف عنهم، أما أنا فقد صدمت لهول المفاجأة، ووقفت مشدوهاً عاجزاً أن أحرك ساكناً، فصاح بي أحد الأخوة (رحمه الله): مالك؟ قم وساعد إخوانك. قلت في نفسي: ما هذا؟.. وعندها أدركت أننا نواجه فتنة كبرى، وليس أمامنا إلا التسلح بالصبر، حتى يأذن الله بالفرج.

بادرت أحد أخوتي بالسؤال: ماذا حصل معكم؟ تردد بالإجابة ثم قال: (اتركها على الله)، وتحت الإلحاح أجابني قائلاً: أخذونا إلى فرع المخابرات في حمص،

وأعادوا معنا التحقيق!! قلت يا الله ألم ننته من التحقيق والتعذيب؟ ألا يكفينا ما نحن فيه من البلاء؟! وهكذا رحت أدعو: اللهم الطف بنا فيما جرت فيه المقادير.
وكان هذا دعائي المفضل طول فترة اعتقالي، لأنني اعتقدت منذ البداية أن المحنة مهما كانت شديدة ومؤلمة، فإن هناك ما هو أسوأ، فالأمور نسبية.
وراح الأخ يسرد لي ما حصل معهم منذ خروجهم من المهجع الليلة الماضية، وحتى عودتهم إليه، وكيف تعرضوا للتعذيب أثناء خروجهم، وكيف استقبلهم زبانية فرع المخابرات، وزبانية السجن، عندما عادوا بحفلة استقبال جديدة، ويا لهول ما سمعت، فرحت أوطن نفسي استعداداً لفصل جديد من فصول المحنة، لأنني سأتعرض للشيء ذاته، وهذا ما حصل معي، وإن كان بصورة أقل مما تعرضوا له، فكيف كان ذلك؟

السفر لحمص: أصبحت كلمة (حمص) تحمل معها تأثيراً نفسياً خاصاً يشبه التأثير الذي تحدثه كلمة (تدمر) لما عانيناه في المدينتين من تعذيب، ولم ننتظر طويلاً، إذ بعد فترة قصيرة من وصول أخوتنا، حضر الجلادون، وفتحوا كوّة باب الزنزانة (الشراقة) وقرءوا أسماء مجموعة جديدة من الإخوة كان بينهم اسمي. وقالوا لنا: جهزوا أنفسكم، غداً عندكم محاكمة. سيّطر عليّ الرعب وأخذت أقرأ القرآن وألهج إلى الله بالدعاء، لقد انقطعت بنا أسباب الأرض، فلا حول لنا ولا طول، وليس أمامنا إلا التوجه إلى الله بالدعاء والإنابة، نستمد منه العون والتأييد، سائلين إياه أن يلهمنا الصبر.
استلقينا للنوم، وأنى لنا ذاك، وعند منتصف الليل، عاد الزبانية ثانية وقرءوا أسماءنا، وأخرجونا من الزنزانة، بعد أن هيأ كل منا قميصه الداخلي لاستعماله كعصابة للعينين.
أمسك كل منّا بثياب الذي أمامه، وقد حنى رأسه للأسفل، والسياط تلسعنا من كل جانب، مع الكلمات الفاجرة، وسرنا نحو ساحة القلم، وأجلسنا على الأرض تحت إحدى الأشجار، وكانت شجرة (كينا) وعرفتها من رائحتها.
تجمّع الإخوة من بقية الزنزانات، وعددنا بضعة وعشرون شخصاً، أجلسونا على الأرض، بعد أن قيدوا أيدينا للخلف

بالحبال التي شدّت بقسوة، مسببة لنا آلاماً مبرحة، وبعضنا أثر الحبل على رسغيه، تاركاً تقرحاً دام لعدة أسابيع، نتيجة إصابته بالالتهاب.

بقينا على هذه الحالة عدة ساعات (حتى بزوغ الفجر) تيبست مفاصلنا، وأصيبت أطرافنا السفلية بالخدر والنمل، وفقدنا الحس بأقدامنا، وأما أيدينا، فليست بأفضل حالاً منها، ولكن.. هل في استطاعة أيّ منّا أن ينبس ببنت شفة؟ فالجلادون من حولنا يضربوننا بين وقت وآخر بالسياط.

ساقونا بعدها إلى داخل سيارة زيل عسكرية مخصصة لنقل السجناء، وهي عبارة عن ناقلة عسكرية روسية الصنع، استبدلت خيمتها بصندوق حديدي له أبواب محكمة، وتحتوي على كوى مشبكة بالحديد.. وتشبه زنزانة السجن بهذا، والباب موجود بالخلف، وهو مخصص لدخول وخروج المعتقلين، وفي غرفة القيادة نافذة زجاجية تطل على صندوق السيارة الخلفي، ويستطيع الجالس في غرفة القيادة رؤية جميع السجناء خلفه، مقاعدها من الخشب (عدة قطع من الخشب تفصل بينها فراغات) وتحتوي السيارة على ثلاثة صفوف من المقاعد، صفين على الجانبين، وصف في الوسط، ولذلك، فالجلوس على تلك المقاعد متعب جداً، لأنها قاسية، ويضاف إلى ذلك مشكلة الازدحام، والأعين المعصوبة، والأيدي الموثقة للخلف.

وأما سرعتها، فشأنها في ذلك شأن أكثر السيارات الروسية المتهالكة، إذ لا تتجاوز الـ 60كم في الساعة، يضاف إلى ذلك أن المسافة بين مدينتي حمص وتدمر تبلغ حوالي 160 كم، والطريق مليئة بالحفر، بسبب الإهمال، فكانت السيارة تهتز كثيراً، لدرجة أنه ربما ارتفع أحدنا من مكانه من شدة الاهتزاز، نازلاً بقوة على الكرسي بكل ألم وعذاب، ويضاف إلى ذلك، صوت المحرك، وقرقعة صفائح الحديد التي تغطي صندوق السيارة، وصوت رياح الطريق، فكل شيء كان يتعبنا ويقلقنا، علاوة على ذلك القلق النفسي الذي نعاني منه، فنحن لا نعرف ماذا ينتظرنا هناك، في فرع المخابرات؟ وماذا ينتظرنا بعد عودتنا للسجن؟.

مرّت أربع ساعات ونحن على ذلك، شعرنا في البداية بالبرد لبرودة الجو النسبية ليلاً في الصحراء، وقلة

الملابس، وتيار الهواء الناشئ عن حركة السيارة، وسيطر علينا الخوف والرعب، فراح كلّ منّا يقرأ ما تيسر له من القرآن، ويدعو سراً، خشية أن يكون بيننا بعض الجنود، وجهر أحد الإخوة بقراءة القرآن والدعاء، فاطمأن الجميع لغياب المجرمين من بيننا، فراح كل منّا يحدّث من بجانبه عن اسمه وعمله وتاريخ اعتقاله، ويشكو له همومه، فقال لي أحد الإخوة ممن جلسوا إلى جانبي: لقد تلفنا من شدة التعذيب، كنّا بالسجن الفلاني الرهيب، فإذا هو كبيت المرء أو أعز مقارنة بهذا السجن، فاستغل أحد الإخوة ممن كانوا معي بالزنزانة الفرصة، فراح يستشيرني بالهرب. قلت له: ومن أين؟ أجابني من الفتحة العلوية الموجودة في السقف، حيث أشاهد الضوء، وأعتقد أنها فتحة كبيرة يمكن الهرب منها.
فقلت له: لا فائدة من ذلك، فدورية الجنود ترافق السيارة من الأمام والخلف، والسيارة تسير بسرعة وسط الصحراء، فلا يمكنك الاختفاء بأي مكان لو نجحت بتجاوز جميع العقبات. وأخيراً قلت له: إن العملية مغامرة انتحارية لا فائدة منها. فصرف النظر عن تلك الفكرة، وراح يتحدث في أمور أخرى.
وأخيراً وصلنا إلى فرع المخابرات العسكرية في حمص، ذلك الفرع الذي صار اسمه يرعب سكان المدينة، لما عرف عن رئيسه (غازي كنعان وكان برتبة مقدم في ذلك الوقت) من ظلم وتجبر في تلك الفترة. لقد لوّع سكان المدينة بكثرة الاعتقالات والمداهمات وأعمال التفتيش، وفي كل مرة تجري فيها عمليات المداهمة والتفتيش، كان كلابه مع جرذان الوحدات الخاصة، يمعنون في إيذاء الناس وإهانتهم، إضافة لأعمال السلب والنهب، ولم يترك بيتاً واحداً إلا واعتقل منه شخصاً أو أكثر. لقد أقسم مرة بأنه سيقطف ألفي زهرة من حمص، ليزرعها بصحراء تدمر (ويريد بذلك إعدام ألفي شاب من حمص ويدفنهم في صحراء تدمر) كان يعتقل الناس من الشوارع دون سبب أو جريرة أو تهمة ويقودهم إلى باستيل القرامطة، وحتى إنه تفقّد القبو يوماً فوجد أن زبانيته لم يعتقلوا أشخاصاً جدداً، فراح يشتمهم ويقول لهم: ألم تستطيعوا أن تعتقلوا عدة أشخاص من الشارع وتحققوا معهم (لعله يطلع منهم شيء)؟

وفعل أكثر من ذلك، إذ أعاد اعتقال طليقي فروع المخابرات الأخرى (شعبة الأمن السياسي وشعبة المخابرات العامة) ليعيد فتح ملف التحقيق من جديد، ويرسلهم إلى سجن تدمر، ووصل الأمر به أن يعتقل أشخاصاً من محافظات أخرى، كما فعل مع المرحوم الشهيد العقيد محمد فيصل سيرجيه من حلب، الذي أخلي سبيله عام 1980 فأعاد المجرم غازي كنعان اعتقاله من مدينة حلب، وبنفس التهمة السابقة، وأرسله إلى سجن تدمر، وحكم عليه بالإعدام، ونفذ فيه الحكم يوم 24/10/1981 مع 21 أخاً آخرين(35).

بدأ الجنود بسحبنا خارج السيارة، ودفعنا داخل الفرع، ليستقبلنا زبانيته بالكبلات الكهربائية، وقاموا بتجميعنا في بهو يقع بين الممرات.. جلسنا على الأرض في مكان ضيق فترة من الزمن تقارب الساعة، عندما بدءوا بإخراجنا إلى غرفة المحكمة، وكنت أول من دخل إليها، قرءوا اسمي فوقفت، فتقدم حارس ليخرجني من بين السجناء، وفك الغمامة عن عيني، والحبال من يدي، وسلمني لشخص آخر، طلب مني أن أتبعه. وفي الطريق سألني عن اسم مدينتي قائلاً: (من وين أنت ولك) فسميت له مدينتي، فقال لي: (واضراطه) فسكتّ حتى دخلت غرفة المحكمة بصحبة ذلك الشخص، وأجلسني على كرسي مقابل للمقعد الذي يجلس عليه من سمي قاضياً، بينما جلس هو على كرسي يقع إلى جانب طاولة القاضي، وهي طاولة مكتب، تقع بأحد جوانب الغرفة، وفي الزاوية المجاورة لها، وجدت كومة كبيرة من الكتب، وضعت بصورة اعتباطية. تأملتها فلمحت كتاب الإسلام للشيخ سعيد حوى، وكان القاضي يمسك بيده ديوان الإمام الشافعي عندما دخلت الغرفة، فعرفت أن الكتب هي من المواد التي تمت مصادرتها من بيوت المعتقلين والملاحقين، أثناء عمليات التفتيش والمداهمة والتمشيط البربري.. وضع القاضي الكتاب جانباً، وأمسك بإضبارتي، وراح يقلبها، وسألني: من هو فلان؟ (يعني اسم الشخص الذي اعتقلت لمعرفتي إياه) فقلت له: جاري في الحي.

قال لي: (أكيد أنت ليس لك علاقة بالإخوان المسلمين؟).

فأجبته: نعم. وإذا ثبت أن لي علاقة بهم، فأنا على استعداد لتحمّل أقسى العقوبات. وضع الإضبارة جانباً، والتفت لكاتبه قائلاً له: اكتب: لا علاقة له بتنظيم الإخوان المسلمين، ولم يشارك بأعمال الشغب (المظاهرات والاضطرابات التي حصلت ضد السلطة في بعض المحافظات) وأن علاقته بفلان علاقة شخصية فقط. ووضع الكاتب بصمة إبهامي الأيسر على محضر الاستجواب، لكنه عاد فسألني ثانية: إذا كان الأمر كذلك، فما الذي جاء بك إلى هنا؟

بالطبع الإجابة على هذا السؤال واضحة، وهو يعرفها أكثر مني، ولكنه يريد استدراجي. الإجابة أن المخابرات هي التي جاءت بي لذلك المكان، ولكن هل يمكنني قول ذلك؟ بالطبع: لا. إنما عليّ الإجابة بطريقة أظن أنها ترضيه، وإن كانت تخالف قناعتي. قلت له: إن البلاد تمر الآن بظروف استثنائية، ومن الطبيعي في مثل هذه الحالات أن يظلم بعض الناس بسبب ذلك، فليس شرطاً أن يكون كل من دخل السجن مذنباً. فلم تعجبه إجابتي، ونظر إليّ بشزر قائلاً لي: يبدو إن دماغكم لم يُغسل بعد.. إنكم ما تزالون تجرءون على الكلام. فأصابني الارتباك، قلت في نفسي: ماذا عساي أن أقول ما يرضي هؤلاء المجرمين وفيه السلامة والنجاة؟ قلت له: إن المجرمين هم الذين يتحملون المسؤولية عن كل ما حصل، فليس للدولة مصلحة في توقيف أي مواطن، وأنا على استعداد للتعاون معكم لمصلحة الوطن.

وهكذا انتهت المحاكمة وأخرجني الكاتب من الغرفة وسلمني لأحد عناصر المخابرات الذي بادر لتعصيب عيني، وإيثاق يدي، ودفعني أمامه، بعد أن أمسكني من النقرة (الناحية الخلفية من الرقبة) وأنزلني على درج حتى وصلت إلى القبو، وأجلست على البلاط في أحد الممرات الواقعة بين الزنزانات، فتلقفني أحدهم بالسؤال: ماذا حُكمت؟ قلت له: لا شيء فلم يصدقني، وراح يضربني. قلت له: اذهب واسأل القاضي.

كانت العادة أن يقدم الكاتب (توصية) بالمعتقل الذي حكم بقضية ما، كأن يكون المعتقل من التنظيم المسلح، أو ممن له دور ما، أو ممن شارك في المظاهرات أو غيرها، حيث يقول للزبانية: (توصوا بهذا الحقير.. إنه كيت وكيت) وغالباً ما يعطي المعتقل تهمة أكبر بكثير

من تهمته الحقيقية، كأن يقول لهم: هذا رئيس التنظيم بالمدينة الفلانية، ولا يكون المتهم كذلك، فقد يكون مسؤولاً عن أسرة (حلقة حزبية) واحدة، أو ممن يعطي درساً في أحد المساجد. وفي هذه الحالة، يستقبله الجلادون بالضرب والإهانة، لقد حاكموا شخصاً كتب قصيدة يهجو بها النظام، ويعدد خياناته وجرائمه، مادحاً المجاهدين، والذين شاركوا بالانتفاضة ضد النظام في تلك الأيام، فوقعت هذه القصيدة في أيدي المخابرات، واعتقلوه من أجلها، وتعرض لتعذيب شديد، وحاول المحققون عبثاً إلحاق تهمة تنظيم جماعة الإخوان المسلمين، إذ لم يكن له أية علاقة بهم، وبعدها أرسلوه إلى سجن تدمر، وسيق منه إلى المحكمة الميدانية، وعندما قرأ القاضي اضبارته، ووقع بصره على القصيدة، شتمه بألفاظ فاجرة حقيرة، وقال له: أتصفنا بأننا خونة؟ والله لو كان مسدسي بيدي لأفرغته برأسك يا... وحكم عليه بالإعدام، وعندما خرج من الغرفة قال الكاتب للجلادين: هذا يصفنا بالخيانة، وأننا بعنا القنيطرة. فانهال عليه الجلادون ينهشونه ضرباً بالأسلاك المعدنية (وكانت من الكبلات الكهربائية) حتى تسلخ جلده، وأصيب بجروح عميقة في جميع أنحاء جسمه. وهكذا كان يتصرف القاضي، إذا قرأ كلمة لا تعجبه غضب بشدة، وحكم على المتهم بالإعدام، والويل كل الويل لمن كان متعلماً، حتى لو كان بريئاً، ولطالما أوصانا إخواننا بتجنب ذكر المهنة والمؤهل العلمي (كما هو الحال في سجن تدمر) ومع ذلك، فالكاتب كان يذكر للجلادين ذلك، ليخصوا المعتقل بالضرب والإهانة(36). وكان بيننا وقتها أحد الأطباء، وقد برأته محكمتهم، فوعده القاضي بإخلاء سبيله بأسرع وقت، كما وعده بنقله إلى سجن آخر، وأوصى السجانين بأن لا يتعرضوا له بالضرب والإهانة، ومع كل هذا، نال حظه من العذاب، وإن كان دون حظ إخوانه.

من توفيق الله لنا في ذلك اليوم، أن المجرمين انشغلوا به، فراحوا يسألونه أسئلة مختلفة، بهدف التهكم والسخرية، إرضاء لانحرافهم وهمجيتهم، فهم جميعا دون مستوى الدراسة الإعدادية، فيتناول أسئلتهم بجدية، ويجيبهم. واستمروا معه على ذلك حتى انقضى ذلك النهار الأسود، وأخذنا حظنا من التعذيب والضرب

دون ما نال إخواننا في اليوم السابق. ثم سمحوا لنا بالخروج لدورات المياه لقضاء الحاجة وشرب الماء، ولكن بقينا بدون طعام طوال ذلك اليوم، حتى انتهت المحكمة وعدنا إلى سجن تدمر.

العودة لسجن تدمر: تبادلنا أطراف الحديث خلال رحلة العودة، والحبال تكاد تقطع أيدينا، حتى شعرنا بالألم الشديد، كما تورمت أيدينا نتيجة الضغط، وفكرنا بطريقة تخفف بها الألم، فقررنا فك الحبال، وهذا ممكن، فالأيدي موثقة للخلف، والأصابع حرة، فراح بعضنا يفك الحبال لمن جلس إلى جانبه، ممن يشتكي من الألم، ولم نكن نعرف أن الجنود الذين يجلسون في غرفة القيادة يراقبوننا، وفجأة توقفت السيارة، وصاح بنا الزبانية وهم يصعدون إليها قائلين: تفكون الحبال يا حقراء يا... تريدون أن تهربوا يا.. (والله نقوسكن هون) وضربونا بأعقاب البنادق كما ضربني أحدهم على رأسي بمخزن البندقية، وقال لرئيس الدورية: هذا ألـ (ع رص) هو الذي فك الحبال. وصرخوا بنا متوعدين عندما نصل إلى السجن (منورجيكن يا...) (37)، وأعادوا ربط الحبال. عند ذلك رحنا نتوجه إلى الله بالدعاء أن يكف أذاهم وشرهم عنا، فاستجاب الله دعاءنا.
وصلنا إلى السجن بعد المغرب، وأنزلونا من السيارة لنسير داخلين إليه. في تلك الأثناء ضاعت إحدى فردتي نعلي دون أن أشعر، لأنني فقدت الحس تماما فيهما، فلم أعد أشعر، وكنت أجرهما وكأنهما أرجل صناعية بسبب الجلوس المديد على المقاعد الخشبية القاسية خلال رحلة العذاب تلك.
دخلنا السجن، وبدأت عملية التفتيش، ليعرى كل سجين من ثيابه، وتفتش ملابسه بدقة. وهذه فرصة يستغلها الجلادون للضرب على الأجساد العارية، ولم نشعر كثيرا بألم السياط، لانتظارنا ما هو أدهى وأمر، ولكن الله سلم إذ أمر المساعد أول أبو جهل دورية الجلادين التي رافقتنا بأخذ إجازة يقضونها بعيدا، لتحل مكانهم دورية جديدة، ممن كانوا داخل السجن، لا يعلمون ما حصل معنا أثناء الرحلة، فلهذا لم نتعرض لحفلة استقبال كالتي تعرض لها إخواننا في اليوم السابق. وكان حظنا

من الضرب والإهانة أقل، وعدنا لمهجعنا، ليلاقينا إخوتنا بالعناق والفرح على نجاتنا من التعذيب.
وعندما دخلت المهجع نظرت لقدمي فوجدت أنني ألبس إحدى نعلي مع شحاطة بلاستيكية التقطتها من الباحة، ظناً مني أنها لي، دون الانتباه للشكل واللون، ودون أن أشعر أنها ليست نعلاً، للإرهاق الشديد، ولفقدان الإحساس بأقدامي.

المحاكمة في سجن تدمر: يتم تجميع المعتقلين المراد محاكمتهم من الزنازين في باحة القلم، أو في الباحة الأولى.. يجلس الجميع على الأرض مغمضي العيون، مطأطئي الرؤوس، يتعرضون للمطر والبرد في فصل الشتاء، ولحرارة الشمس المحرقة في فصل الصيف، مع الضرب والإهانة من الجنود. ويتم إدخالهم إلى غرفة المحكمة واحداً تلو الآخر حسب الأسماء. ولجنة المحكمة مؤلفة من عدة أشخاص، يقال: إن غازي كنعان كان رئيساً لها. وشوهد بعض ضباط الوحدات الخاصة أو سرايا الدفاع يشاركون في بعض المحاكمات(38) تتم بنفس الإجراءات التي في حمص، إذ يدخل المعتقل إلى غرفة المحكمة، فتوجه إليه بعض الأسئلة، فيملي القاضي على كاتبه خلاصة لإفادة المعتقل، كقوله (كرر إفادته بأنه كذا)... (أو أقر إفادته بأنه...) أو لا علاقة له بالتنظيم... أو غير منظم أو لاشيء يستحق الذكر حسب محضر التحقيق من فرع المخابرات، فتختصر الإفادة ببضع كلمات، أو عدة أسطر، وإذا حاول المعتقل إنكار شيء يعاد للدولاب (أي للتعذيب) وهذا الأمر لم يكن موجوداً في حمص، لأن القاضي يملي على كاتبه دون أي التفات لما يقوله المعتقل، سواء بالنفي أو الإيجاب، أما الآن في تدمر، فالأمر مختلف تماماً، فالمعتقل قد يواجه تحقيقاً جديداً، وخاصة إذا لم يثبت محضر التحقيق أية تهمة عليه، فالقاضي لا يأخذ بمضمون الإفادة، إنما عليه أن يحقق بنفسه، لينتزع اعترافات جديدة من المعتقل لتدوينها في الإفادة النهائية، لتصبح حيثيات للحكم الذي سيصدره. ويتناصح المعتقلون بأنه لا جدوى من الإنكار أو المناقشة، وما على المعتقل إلا أن يوافق ويبصم على كل ما يريده المجرمون، وإلا فالتعذيب، ثم الموافقة بعد ذلك.

ويقضي المعتقلون نهارهم بالصورة التي وصفت، أي جالسين على الأرض، رؤوسهم مطأطأة، وأعينهم مغمضة، يفترشون الأرض ويلتحفون السماء، مهما كان الطقس، فلا يسمح لهم بالخروج إلى دورات المياه، أو شرب الماء، وتناول الطعام، وربما مكثوا على هذه الحال طوال النهار، حتى تنتهي اللجنة من محاكمة الجميع، ليعادوا إلى زنزاناتهم. أما الحالة النفسية للمعتقلين فلا يمكن وصفها، فقد استولى الخوف والرعب على الجميع، بسبب إعادة التحقيق مع بعضهم، وهم يعذبون أمام إخوانهم.
الجميع ينتظرون دورهم، ظانين أن مصيرهم كمصير أخيهم الذي يعذب أمامهم. فالكل يلهج إلى الله بالدعاء، أن يخفف عن أخيهم المعذب، وأن يلطف بهم، أما بقية المعتقلين في الزنزانات، فأيام المحكمة قاسية عليهم، خاصة نزلاء الباحتين:الأولى والثانية، لسماعهم أصوات المعذبين، إضافة إلى شراسة التعذيب في تلك الأيام، وتوزيع الطعام يتأخر كثيراً عن وقته المحدد، وكذلك الأمر بالنسبة للتفقد، فيصطف السجناء ساعات طويلة بانتظاره دون أن يحضر المجرمون، ويبقى المعتقلون واقفين ينتظرون فصلاً جديداً من فصول التعذيب، فالجلادون مشغولون بواجبهم الوطني!! أما الحالة النفسية فسيئة جداً، فقد سيطر الخوف والرعب على الجميع، خاصة الذين لما تنته محاكمتهم بعد، فكل منهم ينتظر دوره، وهذا أشد على النفس من التعذيب.

انتقال المحكمة الميدانية لسجن تدمر: وفي الشهور الأخيرة من عام 1980 بلغت الاعتقالات ذروتها، فزاد عدد سجناء تدمر كثيراً (حوالي ثلاثة آلاف معتقل) لذلك أصبح من المستحيل نقلهم إلى حمص من أجل المحاكمة بنفس الطريقة، فتقرر أن تحضر المحكمة الميدانية مرة أو مرتين أسبوعياً لمحاكمة المعتقلين، ويصل العدد في كل مرة حوالي 60 معتقلاً أو أكثر لذا، فالذي يدخل السجن، عليه الانتظار مدة تتراوح بين ستة أشهر حتى السنة ليأتي دوره في المحاكمة. وأراح انتقال المحكمة الميدانية إلى تدمر السجناء من عذاب سفر، إنما أضيفت مآس جديدة لإعادة التحقيق مع بعض المعتقلين.

إعادة التحقيق مع بعض المعتقلين: سمي سجن تدمر بمركز التطهير الوطني لتصفية الإخوان المسلمين، لذلك كانت الغاية الأولى والأخيرة منه تصفية الإسلاميين جسدياً ومعنوياً، ولكي تتم هذه العملية كان لابد من بعض الإجراءات الصورية، لتعطي التمثيلية بعداً قانونياً، لذلك سن القانون 49 وأنشئت المحاكم الميدانية لهذه الغاية... وتحرص فروع المخابرات على تلفيق التهم للمعتقلين قبل إرسالهم إلى السجن، واشتهرت بعض الفروع بذلك، كالمخابرات العسكرية في إدلب وحمص وجميع فروع اللاذقية، وهناك فروع أخرى لم تتحرى الدقة نسبياً في تحقيقاتها كفروع دمشق وحلب، ولم يدفعهم حرصهم على تحري الحقيقة وإقامة العدالة ورفع المظالم لتوخي الدقة في عملهم، إنما كان حرصهم على تجنب التضليل، والانشغال بقضايا لا طائل منها. وبالتالي تبقى الانتفاضة مستمرة لعدم كشف العناصر الفاعلة فيها أي أنهم يراعون مصلحتهم أولاً وأخيراً.
ورغم ذلك، تقع في كثير من الأحيان الأخطاء، ومنها تعرض بعض المعتقلين للتعذيب الشديد ولفترة طويلة، مما يفقدهم القدرة على المحاكمة العقلية، فيصابون بالانهيار النفسي والعقلي، فيرمون التهم جزافاً، ويعترفون على أشخاص لا تربطهم بهم أية علاقة تنظيمية، سوى أنهم يحفظون أسماءهم بسبب الجوار أو ما شابهه، وتقوم المخابرات باعتقال الذين وردت أسماؤهم للتحقيق معهم، وبما أنهم أبرياء لا يعرفون شيئاً، فإنهم يتعرضون لتعذيب شديد، ربما أدى لانهيارهم واعترافهم بأمور لا علاقة لهم بها، ويعترفون على آخرين، وهكذا، ليدخل التحقيق حلقة مفرغة، مما يضطرهم لإغلاق ملفه، لاكتشاف وقوعهم في التضليل، تاركين الأمور معلقة للمحكمة الميدانية لتبت فيها، وقد يذكر المحققون رأيهم، كأن يدونوا في محضر التحقيق أن فلانا قد اعترف على هذا المعتقل كيت وكيت، وعند التحقيق معه لم تثبت التهمة، وقد نفى المعتقل ذلك. وربما أكدوا أن الشخص قد اعترف عاد ونفى التهمة التي نسبها إليه، وأقر أنه اضطر لذلك ليتخلص من التعذيب. ولا ننكر الحالات النادرة التي برأت المحكمة

الميدانية فيها بعض الذين اعتقلوا بهذه الصورة، ولكن في أكثر الحالات يقوم القاضي بإعادة التحقيق مع المعتقلين ليلصق بهم التهم التي يريدها، خاصة إذا كان السجين عسكرياً، أو له علاقة بأحد المجاهدين. وبالطبع فلا حاجة للأدلة هنا، لأن التحقيق لا يهدف إلى كشف المزيد من المعلومات، واعتقال المزيد من الناس، كما هو الحال في فروع المخابرات، إنما يكفي اعتراف الشخص أنه منظم، أو أنه فعل كيت وكيت، ويوقع على ذلك، وينتهي كل شيء. فهدف التحقيق إدانة الشخص، ليرسل إلى حبل المشنقة. وذكر لي الأخوة قول القاضي له: (أريد أن آخذ منك كلمتين لأعدمك بعد ذلك).
ومن الأشخاص الذين يتعرضون للتعذيب الشديد ولفترة طويلة: العسكريون (ضباط الجيش) والمجاهدون، والذين لهم دور قيادي كالمسؤول عن عدة أسر، أو المراسل الذي يعرف عدداً كبيراً من الناس. وبالعكس، فقد يكون الشخص ليس له أي دور، ولا يعرف شيئاً، ويصر على النفي بإجاباته، فيظن المحققون أنه يكذب، فيستمرون في تعذيبه، فيقع التضليل بالتحقيق (أي يعترف الضحية اعترافات كاذبة).
وتحتفظ أجهزة المخابرات بالأشخاص الذين وقعوا ضحية لاعترافات كاذبة في أغلب الأحيان، خاصة إذا كانوا عسكريين، وأذكر أحد الطيارين من بلدة القريتين في محافظة حمص، قد أورد اسمه عسكري آخر بنفس الطريقة، وعندما وصل إلى المحكمة الميدانية، أصر على النفي، فما كان من القاضي إلا أن أمر زبانيته بضربه حتى الموت، فضربوه بالعصا الغليظة حتى قضوا عليه تماماً، وذلك في أوائل عام 1981.

التهم الموجهة للمعتقلين: يعتبر سجن تدمر وقفاً على الإخوان المسلمين، فغالبية نزلائه منهم، إما لارتباطهم المباشر، أو غير المباشر بالجماعة، سواء كانوا أعضاء، أو ممن تعاونوا معهم، أو شاركوا بأعمال ضد السلطة في تلك الأثناء. وحتى الرهائن والشهود أرسلوا لذلك السجن، وبالتالي فالتهم الموجهة للمعتقلين هي:
1- الانتساب لجماعة الإخوان المسلمين (الفرع السياسي). وهنا يميز الشخص العادي عن الذي له دور ما، كالمسؤول عن أسرة واحدة أو أكثر، والمراسلين،

والذين قاموا بنشاطات دعوية، كإلقاء الدروس العامة بالمساجد.
2- التنظيم المسلح: (الطليعة المقاتلة) سواء أشارك السجين بأي نشاط أو لم يقم بأي عمل.
3-الأشخاص الذين يحضرون دروساً في حفظ القرآن وتفسيره في المساجد، خاصة إذا كان الذي يلقي الدروس من الإخوان المسلمين، كالشيخ محمد علي مشعل بحمص. واشتهر المجرم غازي كنعان باعتقال أعداد كبيرة من الأشخاص بهذه التهمة، حتى أنه اعتقل الذين حضروا في السنوات الماضية، ثم انقطعوا، وربما لم يحضر بعضهم سوى مرة واحدة، لأنه (غازي كنعان) يعتبر حضور الدروس العام في المسجد مرحلة أولى للتنظيم (مرحلة الأسرة المفتوحة) لذلك يكفي اعتراف الشخص بأنه حضر درساً أو عدة دروس بالمسجد، لتوجه إليه تهمة التنظيم وعدد هؤلاء المعتقلين كبيراً جداً، ويشكلون 80% من معتقلي مدينة حمص. أما في المدن الأخرى، وخاصة دمشق وحلب، ففروع المخابرات لم تعتقل هذه الفئة (بشكل عام) لاعتقادهم أن ذلك سيجرهم لاعتقال أعداد كبيرة من الناس دون طائل.
4- المتهمون بتقديم أي شكل من أشكال الدعم المادي أو المعنوي للتنظيم، كإيواء الملاحقين، أو جمع التبرعات لهم، أو مساعدة أسر المعتقلين والشهداء، أو توزيع أو طبع المنشورات... الخ.
5- الأشخاص المشتبه بعلاقتهم بالتنظيم، لعلاقتهم الشخصية بأفراد منه، كأن يكون الشخص بطريق الصدفة عند أحد أفراد التنظيم أثناء اعتقاله، أو يرد اسمه أثناء التحقيق بطريقة ما، دون أن توجه له أي تهمة، أو العثور على اسمه مع أحد أفراد التنظيم، أو ببيته، وكذلك الأشخاص المعتقلون بسبب تشابه الأسماء.
6- الأشخاص الذين قاموا بأعمال أدت لفائدة التنظيم، أو أحد أفراده، أو سهلت لهم مهمتهم دون أن يقصد هذا (مساعدة التنظيم) كأن يكون الشخص قد أجر مسكنه لأحد أفراد الجماعة، أو باع بيتاً أو أرضاً أو سيارة، وقامت أجهزة الأمن بإذاعة قرار حكومي، ينص على وجوب مراجعة دوائر الأمن عند بيع أو تأجير البيوت، وملء أوراق خاصة تسلم لمراكز الشرطة بنفس الحي. وقد يكون الشخص أصلح سيارة معطلة، أو قام بتوصيل

أحد الناس بسيارته دون أن يعرفه، أو عالج أحد المرضى أو المصابين، أو كتب عقد زواج لشخص ما، فهذه الفئة تضم عدداً لا حصر له من التهم.

7- المشاركون في أعمال الانتفاضة ضد السلطة التي عمت جميع أرجاء البلاد في عامي 1979- 1980 خاصة في مدينتي حلب وحماة، أو الذين حرضوا عليها بالخطب وطبع المنشورات والبيانات وتوزيعها. وكانت العبارة المستعملة لدى السلطة، هي المشاركة أو التحريض على أعمال الشغب.

8-الأشخاص الذين تكتموا على أية معلومات تتعلق بالتنظيم، كمفاتحة أحد أفراده بالانتساب للجماعة، أو حصل على منشور من شخص يعرفه، أو سمع كلاماً يتعلق بذلك وتكتم عليه، أو سمع أحد الأشخاص يشتم السلطة وتكتم عليه، حتى الذين قرؤوا المنشورات كالنذير والنصر والمجاهد وغيرها من المنشورات التي وزعت في تلك الفترة، يعتبرون من هذه الفئة، إذ على الشخص أن يعلم أجهزة الأمن بكل ما يقع تحت يديه وسمعه وبصره من أمور تتعلق بأمن النظام، حتى يعتبر مواطناً صالحاً. وبتعبير أصح على كل مواطن أن يكون عميلاً ومخبراً للسلطة، وإلا فهو عدو خائن للنظام البوليسي الفاشي الطائفي.

9- الرهائن والشهود: وهم أقارب الملاحقين، سواء أكانوا من المجاهدين أم لا، وتعتقل السلطة الرهائن من أجل الضغط على الملاحقين لتسليم أنفسهم، ليتجنبوا القيام بأية أعمال جهادية، حرصاً على سلامة أقاربهم. وكلما كانت التهمة الموجهة للملاحق كبيرة، يزداد طرداً عدد الرهائن، فمثلاً قامت المخابرات العسكرية في حلب باعتقال 13 شخصاً من أقارب الشهيد النقيب إبراهيم اليوسف، واعتقل المجرم غازي كنعان 5 أشخاص من عائلة علواني من أقارب المجاهد أكرم علواني. أما الشهود فهم الأشخاص الذين شهدوا حادثاً ما، أو يعتقد بأن لديهم معلومات يمكن الاستفادة منها، دون أن يكون لهم أي دور أو أية (نوايا) ضد السلطة، مثال ذلك، عند اعتقال أحد ضباط الجيش، تعتقل المخابرات حاجبه وسائقه ومرافقه لاستجوابهم والاستفادة مما لديهم من معلومات، كأسماء الأشخاص الذين يترددون على ذلك الضابط. والأمر كذلك بالنسبة

للأشخاص الذين شاهدوا عملية للمجاهدين بحكم وجودهم في مكان العملية، فيعتقلون للاستفادة مما لديهم من معلومات، ويودعون السجن لاعتبارات أمنية، حتى لا تخرج أخبار السجن للخارج (راجع فصل الاعتقال التعسفي).

10-قدماء منتسبي الحركة الإسلامية، ممن كانوا منتسبين للدعوة في الماضي، ولم تعد لهم أية صلة منذ زمن بعيد. فقد اعتقل المجرم غازي كنعان المنتسبين للجماعة بعقد الخمسينات، والذين انقطعت صلتهم منذ ثلاثين عاماً، وصار بعضهم أعضاء في حزب البعث، كما حصل مع أحد الأشخاص من عائلة صافي، والذي ترك الجماعة منذ عقد الستينيات، وانتسب لحزب البعث بعدها، ورغم ذلك، فلم يشفع له انتسابه لحزب السلطة، وولاؤه لها عند غازي كنعان، فلا مكان (للتوبة) و(التراجع عن الخطأ) عند الجلادين، كما تم اعتقال كل من سبق اعتقاله في السنوات الماضية، بتهمة حزب التحرير وبعض هؤلاء لم يواجه أي تحقيق، إنما أخذوا مباشرة إلى سجن تدمر.

الأحكام الصادرة عن المحاكم الميدانية: - الحكم بالإعدام:

نص القانون 49 بإعدام كل منتسب لجماعة الإخوان المسلمين، على أن يطبق القانون بصورة رجعية (أي على جميع المنتسبين قبل إصداره) واختلف تطبيقه بين فترة وأخرى، ففي النصف الأخير من عام 1980 وبعد المجزرة الكبرى في سجن تدمر، كان حكم الإعدام هو القاعدة العامة، وما عداه من أحكام هي استثناءات أو شواذ. وحكم بالإعدام على كل منتسب للجماعة حتى تاريخ اعتقاله، سواء كان في التنظيم السياسي أو المسلح، وسواء أكان شخصاً عادياً أم مسؤولاً. كما طبق القانون أيضاً على الأشخاص الذين اعتقلوا في السنوات السابقة للأحداث أي قبل عام 1979 وبالتحديد منذ عام 1975 إذ اعتقلت المخابرات العسكرية عدداً كبيراً من الأشخاص بعد اعتقال الشيخ مروان حديد وإخوانه في ذلك العام، ولم يتم الإفراج عنهم مع الذين أخلي سبيلهم عام 1980 ونقلوا إلى تدمر بعد المجزرة، ومنه إلى المحكمة الميدانية في حمص، ليحكم على

أكثرهم بالإعدام. وأما في عام 1982 وما بعده، فقد اقتصر حكم الإعدام على أعضاء التنظيم المسلح، وعلى كل من له علاقة به، كالذين قدموا مساعدات مادية، أو قاموا بتهريب الأسلحة، أو حيازتها، وإيواء الملاحقين، وعلى مسؤولي التنظيم السياسي فقط، كالمسؤول عن أسرة أو أكثر، أو المراسلين والعسكريين.. وطبق أيضاً على الأشخاص الذين نظموا أثناء الأحداث، لأن ذلك يدل على عدائهم للنظام، وسوء نيتهم، أي أن لديهم نوايا للقيام بأعمال مضادة للنظام (حسب تعبير الطغاة).

والفئة الثانية من المعتقلين الذين حكم عليهم بالإعدام، هم الأشخاص الذين شاركوا في المظاهرات وأعمال التمرد على السلطة التي عمّت البلاد عامي 1979 - 1980 والتي سمتها العصابة الحاكمة أعمال الشغب. وقد اشتهرت بعض فروع المخابرات بتلفيق تلك التهم، وذلك عندما يجد المحققون أنفسهم عاجزين عن إلصاق تهمة التنظيم بأحد المعتقلين، فإنهم كانوا يرمونهم بهذه التهمة، لأن تهمة التنظيم لها ما بعدها، أما هذه التهمة فلا تحتاج إلى دليل أو شهود أو تفاصيل أو أي تحليل للدوافع، فقط يكفي أن يكتب المحقق في المحضر جملة (شارك بأعمال الشغب بمدينة كذا..) ليلقى المعتقل حتفه، وهذه بعض الحقائق شاهدة على ذلك:

1- مالك الحكيم: سماه المعتقلون بمالك الحزين بعدما عرفوا قصته، ويلقب بمدينة اللاذقية بــ(شطي) يعمل بالبحر صياداً للأسماك، اعتقل أوائل عام 1980 وهو من أبعد الناس عن السياسة وفعالياتها، وأخلي سبيله بعد مدة، ومن سوء حظه أنه كان يحمل مبلغ 3000 ليرة سورية أثناء اعتقاله، وصودرت تلك الأموال مع بقية أغراضه قبل دخوله قسم التحقيق، وعندما أخلي سبيله لم يسترجع أمواله المصادرة، لأنه لم يفكر بها، لفرحته بالخلاص من السجن الذي غطى على ما سواه، فالحرية والخلاص من الأسر والإهانة أعز على الإنسان مما سواها، وبعد مدة تزوج فاحتاج للمال، فنصحه بعض أصدقائه بالعودة إلى فرع المخابرات يطالبهم بأمواله المؤمنة لديهم منذ اعتقاله، كيف لا وهو بريء وأخلي سبيله على هذا الأساس، ورد له اعتباره، فليس لهم

الحق بمصادرة أمواله، عاد مالك الحزين إلى فرع المخابرات يسأل عن أمواله، فأحيل للضابط المسؤول، وراح يناقشه في الأمر، والضابط يصر على أنهم لم يصادروا منه شيئاً، وأنهم أعادوا إليه جميع أغراضه، لم يكترث ذلك المسكين لأقواله، وظل يؤكد على حقه، فما كان من ذلك المجرم إلا أن قال له: (انتظر قليلاً.. هلق منجيب لك مصاريك) ونادى كلابه وقال لهم: خذوا هذا الحقير إلى التحقيق، وهناك وقعت الطامة الكبرى!! قام الزبانية بجره لغرفة التعذيب، وجردوه من ملابسه، ثم وضعوه في الدولاب وراحوا يجلدونه وهو يصرخ ويستغيث، وجاء الضابط ولفق له تهمة المشاركة بأعمال الشغب، وأنه شارك في إحدى المظاهرات، وكان يحمل مسدساً وقنابل يدوية.. وأطلق عدة طلقات في الهواء، دون أن يكون له أية علاقة بذلك، ودون أي دليل.. وكتب ذلك المجرم بمحضر التحقيق: أن مالك الحكيم قد رمى مسدسه والقنابل في البحر!؟؟ ثم أرسل ذلك المسكين بعد ذلك إلى كفر سوسة في دمشق، وأحيل منها إلى تدمر، ليحكم عليه بالإعدام بتهمة المشاركة بأعمال الشغب.

2- عبد الكريم النايف: كان يعمل إماماً بمسجد الأنصار في بلدة جسر الشغور بمحافظة إدلب. اعتقلته الوحدات الخاصة في شهر آذار من عام 1980 عند اقتحام البلدة بسبب الانتفاضة الشعبية العارمة، تعرض للتعذيب الشديد حتى أشرف على الموت، فنقل للمستشفى العسكري بإدلب للمعالجة، وعندما تماثل للشفاء أرسل إلى فرع المخابرات العسكرية للتحقيق معه، وأعيد تعذيبه ثانية، ولم يكن لدى المحققين أية أدلة ضده، سوى تقارير المخبرين، ولم يعترف بالتهم الموجهة إليه، لكنهم لفقوا له تهمة التحريض على أعمال الشغب، والمشاركة بها، ونقل إلى سجن تدمر في نهاية عام 1980 وحكمت عليه المحكمة الميدانية بالإعدام منتصف عام 1981.

3- عبد الكريم شخيص: من مدينة اللاذقية، وكان مجنداً بسرايا الدفاع أثناء اعتقاله في بداية عام 1981 إذ وردت ضده تقارير، مفادها أنه قتل أحد أعوان السلطة، وفجّر مؤسسة استهلاكية.. تولت مخابرات سرايا الدفاع التحقيق معه، فعُذّب بصورة وحشية، وتقطعت بعض

أصابع رجليه نتيجة ذلك، فاضطر للاعتراف بالتهم الموجهة إليه.. فنقل إلى فرع أمن الدولة في اللاذقية، وتبيّن للفرع أن اعترافاته كانت (مضللة) فقد تمكنوا من كشف الفاعلين الحقيقيين، ومع ذلك لفقوا له تهمة المشاركة بأعمال الشغب، وأحيل إلى كفر سوسة، لينقل بعدها إلى سجن تدمر، فيحكم عليه بالإعدام في عام 1982.

هكذا كانت تهمة المشاركة بأعمال الشغب أو التحريض عليها من التهم المطاطة التي يسهل إلصاقها بالمتهم عند العجز عن إدانته بتهمة محددة، وكانت نسبة المعتقلين الذين يحكمون بالإعدام في بعض المحافظات كإدلب تصل إلى 80% من المجموع الكلي، بسبب هذه التهمة اللعينة التي يسهل إلصاقها بأي إنسان. ورب كلمة في حالة الغضب فسّرت على أنها تحريض على الشغب.

وكان القاضي يفصح للمعتقل عن الحكم الذي أصدره بحقه، كأن يقول له: (إعدام) أو (والله لأعدمك يا ع.. ر..ص) أو (بدنا نعلقك أو بدنا نصفيك أو يشير على رقبته أي سنقطع رقبتك) وقد لا يتكلم شيئاً إنما يكتفي بأن يقول للمعتقل: (انقلع) عند انتهاء المحكمة.

وبالنسبة لكلمة إعدام، تستعمل بكثرة أثناء المحاكمات، حتى للأشخاص الذين لم يحكموا بالإعدام، واستعملت لأشخاص حكموا بالبراءة، وذلك حسب حدة مزاج القاضي، إما لإعادة التحقيق مع بعض المعتقلين، أو عندما يكون لآخرين تهم كبيرة، فيحتدّ مزاجه بعد قراءة الإضبارة، فيحكم عليهم بالإعدام، ثم يوصي كلابه ليوقعوا بهم أشد الأذى بعد المحكمة، كما يصبحون معروفين لدى زبانية السجن الذين يخصونهم بتعذيب إضافي في كل مناسبة، لذلك كان القاضي يصاب بالجنون ويفقد صوابه فلا يلفظ إلا كلمات فاجرة مع جميع المعتقلين أياً كانت تهمهم، والحكم الذي صدر ضدهم، لذا يظل أكثر المعتقلين لا يعرفون بالضبط الأحكام الصادرة بحقهم.

2- الحكم بالسجن 15 عاماً وحتى المؤبد:

ويحكم به كل من لهم علاقة سابقة بالتنظيم، أو يحضرون دروس حفظ وتفسير القرآن في المساجد،

وتعتبر هذه المرحلة (مرحلة الحلقة المفتوحة) أولى مراحل التنظيم، فالشخص لديه رغبة في الانتساب، وهو مؤهل له، وأيضاً بالنسبة لمن انسحبوا من التنظيم حسب القانون 49 ولكنهم قاموا بدور ما قبل انسحابهم، كالمراسلين أو المسؤولين عن أسرة أو عدة أسر.

3-الحكم بالسجن لمدة عامين فما فوق:
للأشخاص الذين تكتموا على أية معلومات تتعلق بالإخوان المسلمين، أو بأمن الدولة (حسب تعبير الطغمة) وحتى لو تكتم الشخص على آخر شتم السلطة أو أجهزتها القمعية، أو تكلم ضد النظام، ويعتبر المجرمون قراءة مجلة النذير وغيرها من النشرات المعادية للسلطة كتماً للمعلومات كما ذكرنا سابقاً.

- الحكم بالبراءة مع وقف التنفيذ: على الذين لم يثبت التحقيق إدانتهم بأي اتهام، كالرهائن والشهود، أو الذين اعتقلوا اعتباطياً، كمن أوقفوا بسبب تشابه الأسماء، ولم تثبت إدانتهم، أو الذين انسحبوا من التنظيم حسب القانون 49 ولم يكن لهم أي دور يذكر قبل انسحابهم، سوى حضور الدروس بالمساجد، أو الذين كانت لهم علاقات سابقة بالتنظيم (بعقد السبعينات) ثم انسحبوا حسب القانون 49، والأشخاص الذين تركوا التنظيم في عقد الخمسينيات، ومن قام بعملٍ معتاد فحصلت منه فائدة للتنظيم، كأن يكون باع بيتاً لأحد الناس، وهذا بدوره استعمله لإيواء الملاحقين، أو باع سيارة لشخص ما استعملها لأغراض التنظيم، أو باع أرضاً، أو قام بتوصيل أحد الناس بسيارته، أو صلح سيارة، وحتى أن بعضهم كتب عقد زواج لأحد أفراد الجماعة، فهذه الفئة لا يمكن حصرها، فالمخابرات كانت تعتقل كل من قام بعملٍ من ذلك، حتى أن المجرم غازي كنعان قال أكثر من مرة: إنه سيعتقل حتى الذين يلقون السلام على الإخوان المسلمين. وقد اعتقل فعلاً أشخاصاً بتهم مشابهة لذلك، فحصد بمناجل حقده الطائفي الذين سكنوا أثناء فترة دراستهم الجامعية مع زملاء لهم علاقة بالإخوان المسلمين، ولعل من أكثر الفصول ظلماً لهذه الفئة من الناس، والذين تبلغ نسبتهم حوالي ثلث المعتقلين، ويجب ألا يدخلوا السجن بتاتاً، وإذا دخلوا

بقصد التحقيق والاستفادة مما لديهم من معلومات، وثبتت براءتهم، فالمفروض إخلاء سبيلهم، وإن تعذر ذلك لاعتبارات أمنية، فيفترض حجزهم في سجون مدنيّة لا يتعرضون فيها لأية إهانة، ويسمح لذويهم بزيارتهم، ويعاملون كغيرهم من السجناء في جميع بلاد الدنيا، حتى تسمح الظروف الأمنية بإخلاء سبيلهم، ولكن الذي حصل، هو أن هؤلاء الأشخاص، ورغم براءتهم الواضحة في أكثر الأحيان، ومنذ اللحظات الأولى لاعتقالهم، فإنهم رحلوا إلى سجن الموت بتدمر، وتعرضوا لأسوأ أنواع المعاملات، واستشهد بعضهم تحت التعذيب، وهذه بعض نماذجهم:

1-حسن شغيل: ذهب لزيارة أخته في بيتها، فحضرت دورية المخابرات لاعتقال صهره، فخرج لاستقبالهم، فسألوه عن صهره، فقال لهم: غير موجود ودعاهم لداخل المنزل، فسأله رئيس الدورية بعض الأسئلة، ودقق في هويته، ثم قال له تفضل معنا للفرع ربع ساعة، تعود بعدها للبيت!! فذهب معهم. وهناك في فرع المخابرات (عند غازي كنعان) لم يتعرض لشيء، لأنه ينتمي لأحد أجنحة الناصريين الموالين للسلطة. وأرسل فرع الحزب في حمص توصية به، ثم تعرّض لتحقيق لين، فسئل عدة أسئلة فقط، ونقل بعدها إلى سجن البولوني في حمص، ومنه إلى تدمر أوائل عام 1981 فتعرض لحفلة استقبال رهيبة. وكان الرقيب فيصل رئيساً للدورية المناوبة، فضربه بالعصا الغليظة على صدره وبطنه وظهره، مما أدى لكسور عديدة بعظام القفص الصدري، مع نزيف داخلي، نتيجة لتمزق الأحشاء (الكبد والطحال كما ذكر الأخوة الأطباء يومها) وبعد فترة قصيرة من إدخاله محمولاً إلى المهجع الرابع في الباحة الثانية، قرع باب المهجع، ليعلن رئيسه وفاة ذلك السجين، وبعد فترة وجيزة أخرى قرع الباب ثانية بسبب وفاة شخص آخر من عائلة صافي بحمص، ومن نفس الدفعة، ولنفس السبب السابق، فحضر مدير السجن (الرائد فيصل غانم) واكتفى بتوجيه بضع كلمات قاسية للرقيب فيصل وانتهى كل شيء.

وكما ذكرت سابقاً، كانت أجهزة الأمن حريصة على أرواح المعتقلين لاعتبارات أمنية (بهدف الاستفادة مما لديهم من معلومات قد تكشفها الأيام) وهذا أمر يعرفه

مدير السجن، أما الجرذان الصغار أمثال الرقيب فيصل وغيره، فلا يفهمون هذه الأمور، ويتصرفون بدافع حقدهم فقط.
2- الحاج هاشم الحبال: وقد تعرضتُ لقصته سابقاً، وقد حكمته المحكمة الميدانية بالبراءة، ومع ذلك فقد مات نتيجة للتعذيب والإهمال.
3- عبد المهيمن شعار: من مدينة حمص، اعتقل عام 1980 وكان عمره آنذاك 18 عاماً. لم تكن له أية تهمة سوى حضور دروس القرآن بالمسجد، وهو مصاب بأمراض عديدة، منها تشوهات بالعمود الفقري، والقدمين، ومرض السكري، إذ لا يقوى على الوقوف مدة طويلة، ولا يقوى على الركض، فهو بحكم العاجز. ومع ذلك، فقد أرسله المجرم غازي كنعان إلى سجن تدمر، وتوفي في بداية عام 1986 نتيجة للإهمال وسوء المعاملة.
واعتاد القاضي تلخيص إفادة المعتقل في بضع كلمات، أو عدة جمل، يحدد بها التهمة التي تعتبر بمثابة حيثيات للحكم الذي سيصدره، ثم يكتب الحكم، وهو مقرر سلفا من قبل دوائر المخابرات، لأن ملفات المعتقلين ترفع إلى ما يسمى باللجنة الأمنية العليا (التي تضم رؤساء شعب المخابرات المختلفة) لوضع الأحكام، خاصة حكم الإعدام، ويعرض المعتقلون بعدها على المحكمة الصورية التي تحدثنا عنها لإصدار العقوبات المختلفة، وأما أحكام الإعدام فتجمع في قوائم مقرونة بأسماء المحكومين، وترسل للصنم الكبير، ليوقع عليها، فتصبح سارية المفعول، ثم تحضر لجنة من المحكمة الميدانية إلى السجن، للإشراف على تنفيذها، هذا وقبل التحدث عن عمليات الإعدام تلك، لابد لي من كلمة أخيرة حول أحكام تلك المحاكم.

الأحكام التعسفية المثيرة للسخرية: تحدثنا سابقاً عن تلفيق فروع المخابرات التهم للمعتقلين، كتهمة الشغب. والأمر لم ينته عند هذا الحد، فالمحاكم الميدانية تلفق التهم للسجناء، بغية إنزال أشد العقوبات بهم. وإذا لم يتمكنوا من تلفيق التهم بالصورة التي تحدثنا عنها سابقا، فإنهم ابتدعوا تهمة أسموها العداء للاشتراكية أي كره الاشتراكية؟؟!! يا للسخرية؟ هل

يوجد بلد في العالم يحاسب الإنسان على مشاعره؟ ومثال آخر على الأحكام المثيرة للسخرية، قضية الأخ المرحوم أحمد غنوم، كان عميداً بالجيش اعتقل عام 1980 لأن أحد إخوانه من المجاهدين ويدعى محمود جربان، وقد ادعت المخابرات العسكرية وقتها أنهم وجدوا اسمه مع المرحوم حسني عابو، والتهمة باطلة لأن المرحوم حسني عابو اعتقل من قبل المخابرات العامة، ومن المعروف أن كل شعبة مخابرات تعمل بصورة مستقلة عن غيرها وضمن جميع قطاعات الشعب (أي بين الجيش والمدنيين) وكل فرع يتولى التحقيق بالقضايا التي تتناهى إليه واعتقال المتهمين والمشبوهين أيا كانوا مع التنافس الشديد بين تلك الأجهزة الأخطبوطية لإثبات وجودها، عُرض الأخ المذكور على المحكمة الميدانية في سجن المزة فحكم بالسجن المؤبد أما حيثيات الحكم فكانت كما يلي: يشتبه بانتمائه لعصابة الإخوان المسلمين لأن شقيقه المجرم (محمود جربان) من عصابة الإجرام (من المجاهدين) عثر على اسمه مع المجرم حسني عابو، فسخر منهم المرحوم أحمد غنوم وسألهم هل يوجد بلد في العالم يصدر حكماً على أي متهم لمجرد الشك؟ افعلوا ما بدا لكم. والأمثلة على ذلك كثيرة. وهذا هو شأن الظالمين في كل زمان ومكان، ولكن القرامطة الجدد قد تفوقوا على غيرهم من الطغاة.

عمليات الإعدام بسجن تدمر: وتتم بعد حوالي شهر ونصف من صدور الحكم بحق المتهم، إذ يقوم الجلادون بعد منتصف الليل، أو في الصباح الباكر غالباً، وأحياناً بوضح النهار، يقوم الجلادون بقراءة أسماء معينة، قائلين لهم: جهزوا أنفسكم، واجمعوا جميع أغراضكم، وأنهوا كل شيء فإنكم ستخرجون من السجن إلى مكان آخر. فيخرج السجناء إلى الباحة، لتكبل أيديهم، وتوضع العصابات على أعينهم، ويؤخذون إلى حيث لا نعلم. في البداية كنا نجهل عمليات الإعدام، لأننا بعيدون عن ساحة الإعدام، نعيش المجهول فكل ما حولنا طلاسم ومعميات، كما اعتدنا تفسير كل شيء بصورة إيجابية لحسن نوايانا، وكمنعكس إضافي يضاف إلى ذلك، أننا اعتقلنا قبل إصدار القانون 49 ولم نعلم به إلا بعد أن

قضينا عدة شهور في تدمر. وقد وصلتنا أخبار عمليات الإعدام من خلال مهجع الجرب، وعلمنا بالتفاصيل بصورة أدق بعد عمليات الفرز التي تمت بين السجناء، فمكثنا مدة طويلة مع أخوة لنا كانوا في مهاجع الباحة السادسة (حيث تتم عمليات الإعدام) فرووا لنا المأساة بكل تفاصيلها المؤلمة.
يجمع المعتقلون في غرفة الورشة الواقعة بجانب المهجع 25 ببداية الباحة السادسة من الجهة الغربية، ويقوم رئيس الدورية المناوبة بتلاوة قرار المحكمة (المرفق بقائمة الأسماء) على الضحايا، واستطاع نزلاء المهجع 25 سماع ذلك في الشهور الأخيرة من عام 1980 ويقوم الجلادون بجر السجناء واحد تلو الآخر حسب القائمة، بعد التأكد من ذاتياتهم، ليتم تعليقهم على أعواد المشانق.
كانت التكبيرات تدوي في أرجاء الباحة السادسة، واتفق بعض الشهداء مع إخوانهم داخل الزنازين على ترديد جمل معينة عند وضع أنشوطه الشنق في أعناقهم، لإبلاغهم تنفيذ عمليات الإعدام، ويختفي صوت الضحية تدريجيا، ليسلم روحه إلى بارئها.
وتشكك السجناء من حقيقة الإعدام، وخاصة نزلاء الزنازين البعيدة نسبياً عن مكان المشانق (ضمن باحة الإعدام) ولم يعرفوا حقيقة ما يجري، لأنه يتم توزيع عناصر الحراسة أثناءها على جميع النوافذ الموجودة بأسطح مهاجع الباحة، ويؤمر السجناء بالتجمع في القسم الداخلي من الزنزانة، وقد أداروا أظهرهم للأبواب حتى لا ينظر أحدهم من طرف الباب فيرى أعواد المشانق، ولم يخل الأمر من بعض المصادفات التي أتاحت للسجناء رؤيتها، خاصة نزلاء المهجعين 25 و 31 وشاهد نزلاء الباحتين الأولى والثالثة لجنة المحكمة مع المساعد وزبانيته يحملون الحبال بأيديهم، وقائمة الأسماء، كما رأوا طبيب السجن معلقاً سماعته الطبية حول رقبته لفحص الشهداء بعد تنفيذ الحكم، للتأكد من وفاتهم، كما سمع نزلاء الباحتين المذكورتين المساعد يصرخ بزبانيته، طالباً إحضار الحبال.
بعد أن يتم إعدام الشهداء، يتقدم الطبيب ليؤكد وفاة الضحايا، وتنزل الجثث من أعواد المشانق، وتلقى على الأرض بوحشية، وتدخل سيارة نقل عسكرية من نوع

زيل (يعرفها السجناء من صوتها المميز) لنقل الشهداء، فتحفر لهم أخاديد بواسطة البلدوزرات ليدفنوا بها، وبعدها يقدم المساعد (أبو جهل) الصف لرئيس اللجنة الذي حضر إلى السجن للإشراف على تنفيذ تلك الجريمة قائلاً: (نفذ الأمر سيدي اللواء...)، وتنصرف لجنة المحكمة، فيشاهدهم في طريقهم نزلاء الباحتين الثالثة والأولى، كما شاهدوهم أول مرة عند دخولهم الباحة السادسة، ويأمر المساعد زبانيته بالانصراف، فتجمع أدوات الإعدام بغرفة الورشة، ويعود الشرطة لمزاولة برنامجهم اليومي.
وأحيطت عمليات الإعدام في البداية بسرية تامة، لكنها لم تبق كذلك، فالرقيب فيصل قالها للسجناء أكثر من مرة، بأنهم خارجون للإعدام، وسبب ذلك يعود لقناعة المجرمين بأن جميع نزلاء تدمر سيساقون لأرجوحة الموت أو لاعتقادهم بأن السجناء باتوا يعرفون حقيقة الأمر فلا داعي للكتمان.
وفي النصف الثاني من عام 1982 اتخذت احتياطات مشددة لتتم العملية بسرية تامة، وفرز السجناء، ووزعوا على الزنزانات حسب أقدميتهم في السجن، ليبقى المعتقلون الجدد معزولين عن القدامى، وبعد المحاكمات تعاد عملية الفرز. وهكذا يذهب الجلادون مباشرة إلى زنزانة الأسماء المطلوبة، فلا يعلم بقية السجناء بالذين سيقوا لحبل المشنقة، وقاموا أثناء عمليات الإعدام بتكميم أفواه الضحايا، أيضاً حتى لا يخرج منهم صوت، مع اتخاذ بقية الإجراءات. ورغم ذلك تمكن السجناء من إحصاء العديد من عمليات الإعدام في تلك الفترة، ففي النصف الأول من عام 1983 أحصيت 3 عمليات.
أما الحالة العامة في السجن أيام الإعدام، فقد سيطر هدوء واجم غير مألوف على السجن، لانشغال الجلادين (بواجبهم الوطني) بإزهاق أرواح الأبرياء!!! ونتيجة لوجود لجنة المحكمة داخل السجن(39) ينشغل الجلادون بالمراسم العسكرية، كتقديم الصف، والتحية العسكرية، إضافة لذلك، لا يسمح لأحد منهم برفع صوته أثناءها حتى تنصرف اللجنة.
ويتأخر توزيع طعام الإفطار عن موعده المحدد، فلا يصل إلا قرب الظهيرة، كما يزداد الجلادون وحشية

وشراسة أيضاً، لسماعهم ما يغيظهم من بعض الشهداء، حيث يردد الشهداء كثيراً التكبير مع عبارة (النصر للإسلام) ومرة وقف أحد الأخوة ويدعى عبد العزيز تجار (مهندس زراعي من بلدة دير عطية) مردداً دعاء الصحابي الشهيد خبيب بن عدي رضي الله عنه، قبل أن يقتله كفار قريش (اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بددا ولا تغادر منهم أحداً)، كما وقف أحد الفتيان أيضاً وهو من مدينة حمص يدعى: نصر البيك، مردداً التكبير، ثم قال لإخوانه: أخوكم نصر البيك يوحد الله (وفق اتفاق مسبق مع إخوانه لإعلامهم نبأ تنفيذ الإعدام).

ونشبت مشاجرات أكثر من مرة بين بعض الضحايا وبين الجلادين، كما حدث في يوم 24/10/1981 عندما تم إعدام دفعة مؤلفة من 22 شهيداً منهم العقيد محمد فيصل سيرجيه (من حلب) وحسان طرابيشي وعبد الوهاب حلموشي وهيثم القاضي (فلسطيني) من حمص، ومحمد حسين فخري وأمين الأصفر (من حماة) والإخوان الأخيران من نزلاء المهجع 16 بالباحة الثالثة وعند خروجهما من الزنزانة اشتبكا مع الجلادين، وكانت أرض الباحة مليئة بالأخشاب والقضبان الحديدية بسبب عملية البناء لزنزانة جديدة في تلك الباحة، وتمكنا من إصابة عدد من الشرطة بأذى، لأن الأخ محمد حسين فخري كان ضابط صف بالوحدات الخاصة، وكان الأخ أمين الأصفر شديداً قوياً، فازداد الجلادون شراسة بعدها، وبدءوا يحضرون لمامهم حاملين العصي الغليظة، تحسبا لأي طارئ. وقتل في تلك الأثناء نتيجة للتعذيب الأخ الدكتور محمد زاهد داخل (من مدينة حلب) وكان من نزلاء المهجع المزدوج (5- 6) في الباحة الأولى، يضاف إلى ذلك وحشية سحب وجر وتعليق الشهداء، ثم دناءة وإنزال ورمي ودفن الجثث، والتي تعطي صورة حقّة عن المستوى الوضيع الذي وصله أولئك الأوباش، وخاصة ساديتهم المتزايدة، مع رؤيتهم لعمليات القتل الجماعية، فتزداد شراستهم وبطشهم لانحراف جِبلتهم وإنسانيتهم.

تواتر عمليات الإعدام: كما هي حال جميع عمليات التنكيل التي يتعرض لها سجناء تدمر، فإن عمليات الإعدام أيضاً تخف حدتها أو تزداد تبعا للحالة العامة في

البلاد، فالسجناء ليسوا إلا رهائن بيد عدو لئيم، وصرح المجرم علي دوبا (رئيس المخابرات العسكرية) أمام بعض وجهاء اللاذقية بأن لديهم (أي المخابرات) 15 ألف رهينة (ويعني المعتقلين) لذلك كانت عمليات الإعدام على أشدها بعد مجزرة سجن تدمر وحتى نهاية عام 1981 لأن عمليات الاعتقال بلغت ذروتها في تلك الأثناء.
أما تواترها، فقد بلغ مرة أو مرتين أسبوعياً، وعدد الضحايا في كل مرة يتراوح بين 30-80 ضحية. ومما عرفه سجناء تدمر أنه بعد قيام المجاهدين بتنفيذ عملية جهادية، فالنظام يكثر من عمليات الإعدام، كعمل انتقامي، إضافة لسوء المعاملة مع بقية السجناء. وهكذا وجدنا شجاعة القوم ورجولتهم تظهر على السجناء الذين لا حول لهم ولا طول، وليتهم (أي زبانية نظام القرامطة) أرونا رجولتهم وشجاعتهم على العدو الإسرائيلي في جميع حروبهم التآمرية المخجلة معه، وهذا ما قاله أحد الإخوة بفرع المخابرات العسكرية في إدلب، ويدعى عبد المعين كامل للمحققين، بعدما انهالوا عليه ضرباً، علماً بأنه كان بريئاً من أية تهمة، فما كان من المحققين إلا أن لفقوا له تهمة المشاركة بأعمال الشغب، ودفعوه لسجن تدمر (لينال جزاءه العادل؟؟!!).
وبعدها خفّت وتيرة عمليات الإعدام في النصف الثاني من عام 1982 وما بعدها حتى أصبح بالإمكان عدها، لأنها صارت محدودة، عملية واحدة كل شهر أو شهرين.

عمليات الإعدام في سجن المزة: وتناهي لعلمي من إخوة كانوا في سجن المزة بدمشق، أن عمليات الإعدام كانت تنفذ هناك بنفس إجراءات سجن تدمر، وخلال نفس الفترة، إلا أن جهاز سجن المزة، معتاد على المحاكمات وأحكام الإعدام (بعكس سجن تدمر) لكنها لم تكن تتم في الماضي، إنما ينقل السجناء إلى سجن القلعة في دمشق لتنفيذ الحكم هناك.
وفي النصف الثاني من عام 1980 جهز الجلادون سجن المزة بالأدوات اللازمة للقتل، من أعواد ومنصات وحبال، وباشروا بتنفيذ أحكام الإعدام التي تترافق بمراسيم شكلية خاصة، فعندما تحضر اللجنة من أجل

ذلك، يصرخ رئيس الدورية المناوبة، أو مدير السجن، معطياً الإيعاز العسكري قائلاً: محـ... ـكـ..ـمـ...ـة، فيصطف الجنود، ويقدم رئيس الدورية الصف لرئيس اللجنة، وبعدئذ يجمع المحكومون مصفدي الأيدي، ومعصوبي الأعين، في غرفة خاصة تسمى قفص الإتهام(40) ويقرأ أحد الجلادين قرار المحكمة الذي يستفتح ببعض الديباجات الإنشائية مثل: باسم العدالة، وباسم الوطن، قررت المحكمة الميدانية.. مع إلصاق مختلف التهم بالضحايا، كخيانة الوطن، والتآمر على الثورة والتخريب، وبموجبها يساق المعتقلون إلى أعواد المشانق المنصوبة في إحدى الباحات، ليغتالوا ظلما، وينقلوا بهمجية بالسيارات للخارج، لدفنهم في أخاديد جماعية.

وترافقت عمليات التصفية بإجراءات وحشية ضد الضحايا، ففي يوم 29/6/1979 وبعد عملية مدرسة المدفعية نفذت السلطة جريمة اغتيال الكوكبة الأولى من الشباب المسلم، وكان عددهم 15 شهيداً (مهدي علواني وإخوانه) بعد تعذيب وحشي شديد طيلة الليلة السابقة لتنفيذ الحكم، إذ أجبروهم على الوقوف طوال الليل بالزنزانات المنفردة، وتركوهم دون طعام ولا ماء، مع الضرب المبرح المستمر، والإهانة حتى الصباح. عندها ساقوهم إلى سجن القلعة لتنفيذ الحكم الجائر. وفي منتصف عام 1976 هاجمت مجموعة مسلحة من جماعة أبي نضال (وكان يومها عميلاً للمخابرات العراقية) فندق سمير أميس في دمشق، وألقي القبض عليهم، وأودعوا سجن المزة، وبعد تحقيق قصير، حكموا عليهم بالإعدام من خلال محكمة صورية، وتعرض أولئك الأشخاص لتعذيب شديد طوال الليل، حتى ماتوا تحت التعذيب، وتساءل سجناء المزة يومها، وهم يسمعون صراخ المعذبين: لقد حكموا عليهم بالإعدام، فلماذا التعذيب إذن؟!!! هذا حال سجن المزة، ويقدر الإخوة عدد الشهداء الذين أعدموا في سجن المزة بحوالي ألف شهيد.

عدد شهداء عمليات الإعدام بسجن تدمر: ويقدر الإخوة نزلاء الباحة السادسة (حيث تجري عمليات الإعدام) عدد

الشهداء بحوالي 1000- 1500 شهيد حتى منتصف عام 1981 وبعد ذلك خفّت حدّة عمليات الإعدام نسبياً.
ويصعب على المرء أن يضع رقماً دقيقاً لعدد الشهداء، لأن نسبة الذين حكموا بالإعدام تختلف من دفعة لأخرى، ففي بعضها تصل نسبتهم إلى 95% وفي أخرى تصل إلى 30% وأخرى لم يحكم منها أحد بالإعدام مثل الدفعات التي حوكمت في سجن المزة، ونقلوا بعدها إلى سجن تدمر. وقدر بعض الإخوة عدد الشهداء بحوالي 7- 8 آلاف وآخرون قدروا عددهم بخمسة آلاف ولكن هذه الأرقام مبالغ فيها ويمكن تقدير عدد الشهداء بحوالي ألفي شهيد حتى منتصف عام 1983 حيث أعدم القسم الأكبر منهم بالسنتين الأوليتين (1980- 1981) وبعد ذلك خفت حدة عمليات الإعدام. ولدي أسماء لمائة شخص استشهدوا على أعواد المشانق، إضافة لحوالي خمسين شخصاً أشك بأنهم قد أعدموا أيضاً.
وأما عدد الشهداء نتيجة للتعذيب والإهمال فيبلغ حوالي 50 شهيداً أذكر منهم:
1-حسن شغيل: من حماة استشهد تحت التعذيب.
2- عبد الناصر عباسي من دمشق استشهد نتيجة التعذيب..
3- زاهد داخل طبيب من حلب استشهد نتيجة التعذيب.
4-هاشم حبال من حمص استشهد نتيجة التعذيب والإهمال.
5- عز الدين أبو خريش معلم مدرسة فلسطيني من دمشق توفي بمرض الكوليرا.
6- شدهان نعمو من مدينة دمشق توفي بمرض الكوليرا.
وهكذا يصبح العدد الإجمالي لشهداء سجن تدمر حوالي ثلاثة آلاف شهيد حسب تقديري واجتهادي.

الاستثناءات من أحكام الإعدام: استثنى الجلادون بعض الحالات من تنفيذ الإعدام وفق قانونهم الهمجي الجديد 49 ومن هذه الحالات:
1-الأحداث الذين اعتقلوا دون سن 18 عاماً وحكم عليهم بالسجن، وقيل إن بعضهم حكموا بالإعدام لبلوغهم سن الرشد عند محاكمتهم.
2- محافظة طرطوس: استثني معتقلوها من عقوبة الإعدام لأن العمليات الجهادية كانت قليلة، ولم يترتب

أية خسائر بالأرواح. وأما السبب باستثناء محافظة طرطوس من تلك العقوبة، فلا أملك تفسيراً دقيقاً لذلك، إلا ما سمعته من بعض الإخوة أبناء تلك المحافظة، معللين ذلك بأن بعض أزلام النظام من أبناء المحافظة ومنهم الخدام (عبد الحليم خدام) من بلدة المرقب قرب بانياس، تمكنوا من الحصول على استثناءات من الصنم الكبير لذلك. وهناك من يعلل ذلك بأن النصيريين جبناء، ويخافون كثيرا من جيرانهم أهل السنّة المقيمين هناك، عندما تدور عليهم الدوائر، فيكون بينهم وبين جيرانهم ثارات وأحقاد، لذلك توسط بعض وجهاء القوم من النصيريين بالتعاون مع بعض وجهاء المنطقة من أهل السنّة، وتمكنوا من الحصول على الاستثناء المذكور. ويبدو أن هذا السبب فيه وجاهة، لكنه أضعف من السبب السابق، لأن مدينة اللاذقية تنطبق عليها نفس المواصفات، ومع ذلك، فالسلطة نفذت أحكام الإعدام بالكثيرين من أبنائها، رغم الخسائر البشرية القليلة بجانب السلطة، وقد يكون السببان وراء هذا الاستثناء، وقد توجد أسباب أخرى لا أعرفها.

العقوبات الإضافية: لم تنته أحقاد باطني سورية عند محاكم التفتيش بحق المعتقلين، بل إنهم اقتدوا بأسيادهم قتلة الأنبياء، باقتراف جرائم أخرى، وتفوقوا عليهم عندما صادروا أملاك الملاحقين، والبيوت التي آووا إليها، بل أحضروا الأشخاص الذين باعوا تلك العقارات وسلبوهم الأموال التي قبضوها، رغم قانونية البيع (عن طريق السجل العقاري أو كاتب العدل ولأشخاص غير ملاحقين). والأنكى من ذلك أن الطغاة قد برعوا بحبك مسرحية ساخرة، وذلك بإحضار كاتب العدل لفرع المخابرات، ليبرم تلك الصفقة بين صاحب العقار الأصلي، وبين رئيس الفرع، بعد نهب الأموال منه. وهل يجرؤ ذلك المسكين على رفض ذلك العقد الذي أعطى صفة قانونية فوق العادة، ليرحل بعدها ذلك المغلوب على أمره إلى سجن تدمر لإتمام الصفقة!! (تعيش الثورة القرمطية ويحيا العدل النصيري) وهذا ما حصل في حمص. وبطل التمثيل في تلك المسرحية الهزلية هو المجرم غازي كنعان، أما في المدن الأخرى، فقد صودرت أملاك الملاحقين، وأملاك ذويهم. وأذكر

شخصاً من مدينة حمص اسمه محمد جميل زهران، اعتقل كرهينة عن أبنائه (الشهيد عبد الرزاق زهران وعبد القادر زهران الذي تمكن من النجاة والسفر لأحد البلدان العربية المجاورة)، وعندما خرج ذلك المسكين من السجن في نهاية عام 1982 بعد أن قضى فيه قرابة ثلاث سنوات، وجد أن جميع أملاكه قد صادرها المجرم غازي كنعان، فاضطر للفرار لأحد البلدان العربية المجاورة، ليلتحق بأفراد أسرته هناك.

وقامت السلطة أيضاً بتدمير منازل بعض المعتقلين، رغم كونهم من الناس العاديين (أي ليسوا ملاحقين ولا مجاهدين ولم يستخدموا بيوتهم لإيوائهم) وهذا ما فعلته الوحدات الخاصة عند مداهمة بلدة جسر الشغور عام 1980 عندما دمرت منازل الأشخاص الذين اعتقلوا، وكان منهم الأخ الشهيد عبد الكريم النايف (الذي ذكرناه سابقاً).

أما الأشخاص الذين لم يكن في استطاعة السلطة اعتقالهم لاعتبارات كثيرة، كشهرتهم خارج سورية، مع عجز الطغاة عن تلفيق مسرحية ناجحة، فعمدت السلطة إلى نفيهم خارج البلاد، كما حصل مع الشيخ محمد عوض والشيخ جمال السيروان وبقية إخوانهما مسؤولي جامع زيد بن ثابت بدمشق. وبذلك تمكنت السلطة من حل الجماعة، والتخلص منها بطريقة هادئة.

وأما الذين أخلي سبيلهم بعد أن براءتهم المحكمة الميدانية، فأكثرهم لم يعودوا إلى وظائفهم السابقة، ولم تدفع لهم رواتبهم عن الفترة التي قضوها في السجن، رغم براءتهم، إنما خرجوا من السجن هائمين على وجوههم، بعد أن فقدوا وظائفهم، وتراكمت عليهم الديون، نتيجة لاستدانة عائلاتهم الأموال لتدبير أمور معاشهم خلال تلك الفترة السوداء، بل الأنكى من هذا كله، أن معظمهم لم يتمكن من الحصول على جوازات سفر للخروج والبحث(41) عن عمل في بلدان أخرى، أليست هذه تصرفات العدو الصهيوني مع إخواننا في الأرض المحتلة؟ بل إن القرامطة الجدد قد تفوقوا عليهم في الكثير من المظالم، حتى صارت جرائمهم يستدل بها أنصار العدو الصهيوني لتبرير جرائمه بحق أهلنا في الأرض المحتلة، وليبرهنوا من

خلالها، على أن الكيان اليهودي دولة متحضرة وسط محيط من الأنظمة البربرية الفاشية.

المنامات: من نعم الله التي منَّ بها على سجناء تدمر، الروح المعنوية العالية التي يتمتع بها أكثر السجناء، رغم ما يقاسونه من شدائد تنوء بحملها الجبال الراسيات. والمنامات هي إحدى المكرمات التي منَّ الله بها علينا، لترفع من معنوياتنا، وتعيننا على تحمّل ما نحن فيه من البلاء. ورغم مخالفتي إخواني كثيراً في أمرها وتفسيرها، فإنني عندما أفكر الآن في الموضوع، أجد أن المنامات كان لها دور كبير لا يستهان به في تخفيف معاناتنا وكروبنا. فالسجن يفرض على الإنسان أن يعيش ظروفاً غير عادية، فأول ما يعانيه السجين العزلة عن العالم الخارجي، والتي كانت عزلة تامة في تدمر، وهذه تجعل الإنسان يعيش مع ذاته، مستغرقاً بالتأمل والتفكير، يسترجع الكثير من منسياته التي يستحيل على المرء تذكرها أثناء الحياة العادية، وفوق ذلك، فكلّ منّا يحمل في نفسه الكثير من الآمال والآلام، سواء العامة كانتصار المسلمين وقيام دولة الإسلام واندحار الكفر وأهله، والآمال الشخصية كالحرية والعودة للأهل والأصحاب والحياة العادية خارج أسوار السجن، يضاف إليه الخيال الخصب، وربما الطوباوية (الإفراط في المثالية والخيال) عند الكثيرين منّا، كل ذلك جعل من السجناء أسرى لكثير من الأحلام والخيالات التي لا تفارقهم لحظة واحدة، كلما هجع أحدهم للنوم، وربما كانت أحلام اليقظة جزءاً من تلك الخيالات.
كنّا نستيقظ صباحاً، وأكثرنا قد رأى أحلاماً شتى، وأكثرها يتعلق بحياتنا خارج السجن واللحظات الأولى بعد الاستيقاظ من أحرج الفترات وأكثرها ألماً، وهذا ما كنت أشعر به، إذ يصحو الإنسان من نومه بعد تلك الأحلام الجميلة، ليرى نفسه أسير واقعه المؤلم، إنه ما زال داخل السجن، حيث العذاب والقهر، وقد سيطر علينا التشاؤم والخوف. يا الله ماذا ينتظرنا في هذا اليوم؟ هل يوجد حلاقة؟ هل يوجد حمام؟.. تنفس؟.. إلخ.. وكل مهجع يضم عدداً من الأخوة ممن اختصّوا بتفسير المنامات، يتحلق حولهم الإخوة عند الصباح، كلّ يقصّ رؤياه، وهم يصغون إليه، حتى إذا انتهى منها

حاولوا تفسيرها، وربما دار جدل ونقاش حولها، وتعدى الأمر هذا الحد إلى درجة نقل الأخوة لأخبار المنامات بين المهاجع من خلال مهجع الجرب، وتضاف المنامات إلى الأخبار الأخرى، ليقوم الأخوة (أهل الرأي) بتحليلها جميعاً، وتقديم صورة وردية مع التعلق الشديد بتفسير المنامات والاستعانة بها لتحليل الأخبار مع المبالغة والخرافية بنقل الأخبار وتحليل الأخبار المختلفة، ويتعلق الأخوة كثيراً بالمنامات، ويبنون عليها مالا تحتمله، مثال على ذلك رؤية بعض الأخوة لمنامات ذات مدلول محدد، مثل أنّ الفرج لجميع المعتقلين سيكون بتاريخ كذا وكذا، أو أن النصر سيكون عند العيد الفلاني، وهكذا. وربما خيّل لبعض الأخوة أنهم رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال لهم كيت وكيت، وتمر الأيام المحددة، وتعقبها أيام وأسابيع دون أن يحصل شيء، فماذا يعني ذلك؟!

كنت أتصدى لإخواني في كثير من الأحيان، قائلاً لهم: عليكم أن تميزوا بين الرؤى الحقيقية وبين الرؤى الكاذبة التي وصفها القرآن بـ (أضغاث أحلام) وهذه الأخيرة هي أوهام وخيالات، فإن الإنسان إذا أكثر من ذكر شيء ما خيّل له ذلك الأمر، وهذا ما يسمى بالوسواس.

وأذكر أن أحد إخواننا، وكان رجلاً مسناً اعتقله الظالمون كرهينة، وكان ذا خيال خصب، فهو ينام فترة قصيرة، وربما لا تتجاوز عدة دقائق، يصحو بعد ذلك (لسبب ما كمجيء الشرطة) ليروي مناماً طويلاً تزيد مدة روايته عن أضعاف الوقت الذي نامه(42). ،حدث أثناء مجزرة حماة وما بعدها أن اشتد التعذيب على المساجين، بعد أن خفّ (نسبياً) فقام أحد الإخوة المختصين بتفسير المنامات ليقول لنا: لقد قلت لكم على من يرى منكم في منامه طعاماً أو مالاً أو ذهباً أو عرساً فلا يذكره، لأن ذلك شر، ولكنكم لم تسمعوا لكلامي.. انظروا نتيجة ذلك.. لقد اشتدّ علينا التعذيب، لأنكم ترون تلك المنامات!!

فصار ذلك الكلام مادة للتندر والسخرية عند الأخوة الذين لم يكونوا ممن يتعلق بالمنامات وتفسيرها، فراح بعضهم يسأل متفكهاً: هل عرفتم آخر الأخبار؟؟ فقيل له: ماذا؟ قال: (كل الحق على المنامات) أي أن

المنامات هي المسؤولة عما نحن فيه؟!!! وأنا لا أقصد من كلامي هذا أن أنتقص من شأن إخواني أو ألومهم على تلك المنامات وما كانت تجرّ إليه، فهذه ظاهرة عامة في العمل الإسلامي، وثغرة خطيرة ينبغي الالتفات إليها وتصحيحها، وهي أن إيماننا بالغيبيات (وهي جزء هام من عقيدتنا لا نقاش حولها) لا ينبغي أن يكون سبباً لتعطيل تفكيرنا الذي منحنا الله إياه، فنصبح خرافيين نتعلق بالأوهام، وهذا ما يريده لنا أعداؤنا، بل يجب أن تكون هناك حدود واضحة وفاصلة بين الأمور الغيبية الثابتة في الكتاب والسنة، وبين غيرها من الأمور التي تخضع للعقل والتفكير والأسباب والمسببات وسنن الله الثابتة في الكون.

السجانون والسجناء: ومعظم السجانين في تدمر وفروع المخابرات من النصيريين الحاقدين، وبعضهم من أبناء الأقليات الطائفية الأخرى (نصارى - رافضة - إسماعيليين -دروز) ويتصرف بعضهم بحقد ولؤم، وقسم منهم غرر بهم، فهم ينفذون الأوامر الصادرة إليهم، وأما الباقون فهم أعراب المنطقة الشرقية والبادية، ويسمون بالشوايا، وعددهم كبير نسبياً بين الجلادين في تدمر وسائر السجون والمعتقلات الأخرى.. واختارتهم السلطة لجهلهم وسهولة التغرير بهم، فلذلك كانوا يضربون بقسوة، إرضاءً لغرورهم وأسيادهم، أما أبناء المدن، فعددهم قليل، وهم مغلوبون على أمرهم، ينفذون الأوامر خشية أن يتعرضوا للعقوبة. وما أهون الاتهام والتلفيق.. وأسهل به سلوكاً نصيرياً..!!!
والحديث مع السجناء ممنوع، ورغم ذلك لم ينته الجنود عن الحديث معهم، فأحياناً يسأل الجلادون بعض السجناء: لماذا جئت إلى هنا؟ وسأل جلاد إعرابي سجينا مرة : ما جاء بك إلى هنا؟ فأجابه: دروس القرآن، فلم يفهم الإجابة فقال له: هل مزقت القرآن؟ فأجابه السجين: لا بل كنت أقرأ القرآن في المسجد. فسكت وبدا عليه التفكير في إجابة ذلك المعتقل.
وسوء المعاملة هي القاعدة العامة التي يعامل بها السجناء، وربما كان سببها ما يقال للجنود بأن هؤلاء السجناء قتلة مجرمون، يقتلون الأبرياء وغير ذلك مما

يذاع بوسائل إعلام النظام والتلقين اليومي للجنود. ومع الأيام غيّر بعض الجنود معاملتهم بعد تبرئة ساحة الكثير من السجناء من قبل المحاكم الميدانية، والذين كانت أعدادهم ملحوظة، وأذكر أن العريف علي شعبان وشعبان حسين صارا يكفان أذاهما عمن برأتهم محاكم النظام، والذين فرز بعضهم في مهجع مستقل هو رقم 8 في باحة الحمام. وبلغ عددهم مائة شخص، وكان المساعد الأول (أبو جهل) والعريفان المذكوران مع بعض الجلادين الآخرين يكفون أذاهم عن هؤلاء السجناء، أما الرقيب فيصل والعريف فواز فلم تتغيّر معاملتهما وظلا على لؤمهما وحقدهما المتأصل في نفوسهما الخبيثة.

السجناء والسجن: ليس سجن تدمر كغيره من المعتقلات، ذلك أنه أعد خصيصاً لتصفية المعتقلين جسدياً بالإعدام أو نتيجة التعذيب والإهمال، ونفسياً وفكرياً بالتعذيب الجسدي والقهر النفسي. ومن دخل ذلك المكان اللعين فكأنما دخل عالماً آخر..
وفي ذلك الجو الرهيب استطاع المعتقلون تكييف أنفسهم مع تلك الأوضاع المأساوية، وأوجدوا عالماً مليئاً بالجد والنشاط والفائدة والمرح أحياناً، والغريب أن كل زنزانة في السجن كانت صورة طبق الأصل عن غيرها، وهذا ما عرفته عندما التقيت إخوة من زنزانات مختلفة، ونقل السجناء من خلال مهجع الجرب تجاربهم لبعضهم البعض ليستفاد منها، فكل مهجع في سجن تدمر هو عبارة عن مجتمع صغير منظم، فهناك رئيس المهجع وهو المسؤول أمام الجلادين، وقد يكون هو نفسه أميراً أيضاً. وقد يختار الأخوة أخاً آخر ليكون أميراً للمهجع، يطيعه الجميع بمن فيهم رئيس المهجع. وهناك لجان مختلفة لتنظيم شؤون المهجع، كلجنة الطعام التي تشرف على توزيعه، ولجنة التنظيف، ومهمتها غسل الأواني بعد الطعام، ولجنة الإصلاح ومهمتها إصلاح ذات البين ومنع حصول الخلافات والمشاجرات، واللجنة العلمية وتقوم بإلقاء الدروس، وأعجب تلك اللجان تلك التي أطلق عليها أخوتنا في بعض المهاجع اسم الفرقة الانتحارية، وتضم الإخوة الشباب ذوي البنية القوية، والشجاعة النادرة، ومهمتها التقدم إلى

مواضع الخطر، ليفتدوا بقية إخوانهم، ويدفعوا عنهم الأذى.

كيف يقضي سجناء تدمر أوقاتهم؟ يستيقظ الجميع عند أذان الفجر، فيدخلون خلسة لدورات المياه بانتظام، لأجل الوضوء، بعد ذلك يؤدون صلاة الفجر فرادى أو جماعات، حسب وضع المهجع، وذلك باختيار الزوايا غير المكشوفة، حتى لا يراهم السجانون، ويعودون بعد ذلك للنوم، أو يقومون بترتيب أغراضهم، فتطوى البطانيات والعوازل، وترفع عن الأرض استعداداً للطعام، وبعدها تبدأ جلسة تفسير المنامات، وربما شغل آخرون بحفظ القرآن الكريم، وراح بعضهم يتبادلون أطراف الحديث، حتى وقت الإفطار، حيث يقوم في البداية عمال البلدية بتوزيع الأواني أمام أبواب المهاجع، ويفتح الشرطة بعد ذلك الأبواب لإدخالها، وهنا يتقدم الشباب (ونعم الشباب) أعضاء الفرقة الانتحارية لإدخال الطعام، فيتحملوا نصيبهم من الضرب والإهانة، وقد يدخل الشرطة لداخل المهجع، لضرب البعض، ثم ينصرفون، وتقوم اللجنة المخصصة بتوزيع الطعام بتقسيمه على المجموعات، فقد جرى تقسيم السجناء لمجموعات، كل واحدة تضم عشرة أشخاص، تزيد أو تنقص (حسب العدد الكلي لنزلاء المهجع) وتأخذ كل مجموعة حصتها لتوزع بعد ذاك على أعضائها، ويأتي بعد ذلك دور لجنة التنظيفات بعد انتهاء الجميع من طعام الإفطار بتنظيف الأواني، بينما يقوم السجناء بتنظيف أرض المهجع من آثار الطعام على الأرض التي ينامون عليها.
وهناك شخص أو أكثر متخصص بتنظيم الدخول لدورات المياه من أجل الاستحمام وقضاء الحاجة، ويحين أوان التنفس، فيخرج السجناء لينالوا حظهم من التعذيب والإهانة، ثم يدخلون المهجع. وإذا كان موعد الحلاقة والحمام طال، مكثنا مترقبين تالين لكتاب الله، ضارعين إليه بالدعاء أن يرد عنّا كيد المجرمين.
وبالنسبة لحفظ القرآن، فإن أكثر الإخوة قد نظموا لأنفسهم برنامجاً محدداً يحفظون السور بالتتابع شفهياً ممن يحفظون، ثم يوزع الجنود الخبز وربما بعض الفواكه والحلوى إن وجدت، فيتلوه التفقد، ويتهيأ السجناء له. وكم من مرة وقفوا منتظرين فترة طويلة،

متوجسين، وهنا أيضاً يتقدم الأخوة الشباب للاصطفاف بالأماكن المعرضة للخطر، تاركين الأماكن الأكثر أمناً لإخوانهم المرضى والمسنين، ثم يوزع طعام الغداء، وإذا لم ننته من الحلاقة أو الحمام، فإننا ننتظر دورنا، وبعضنا يقرأ القرآن، أو يحفظه، وآخرون يقرؤون الأوراد والأدعية، وإذا لم يكن الأمر كذلك (أي أن دورنا بالحلاقة والحمام قد انتهى) فإننا نشعر بانفراج نسبي فالجلادون لن يأتوا إلا عند توزيع طعام العشاء فقط، عند ذلك تبدأ النشاطات الجماعية التي تشمل دروساً يلقيها أصحاب الكفاءات، وقد تشمل أيضاً مسابقات بحفظ الأحاديث، أو بعض التمثيليات والفقرات الهادفة والمسلية.

ويحين وقت صلاة المغرب بعد غياب الشمس، وبمغيبها يستروح الناس نسيم الاطمئنان والراحة، إذا كان المهجع لا يحوي على فتحة بالسقف، تُمكّن المجرمين من رصد حركات السجناء وسكناتهم، فيقوم المعتقلون ببعض النشاطات الجماعية حتى وقت النوم.

وإذا كان المهجع يحوي فتحات علوية، فلا مجال للنشاطات الجماعية إلا على نطاق محدود جداً، مع الحيطة والحذر، حتى لا يسمع المجرمون أي صوت، فيكون ذلك مبرراً لتعذيبنا وإهانتنا. وهكذا يقضي السجناء أوقاتهم، وأهم شيء يملأ عليهم وقتهم، هو حفظ القرآن وتلاوته، وخرج بعض السجناء حافظاً لكتاب الله العزيز. وهكذا فلا مكان للشعور بالفراغ، يضاف إليه الأحاديث التي تدور بين الأخوة حول مختلف الأمور.

هذا هو البرنامج اليومي للسجناء في الأحوال العادية، وقد يطرأ عليه بعض التغييرات في بعض الحالات، فمثلاً عند وصول دفعة جديدة للمهجع، يطلب من بعض أفرادها أن يقف ويتكلم بشكل عام أمام إخوانه عما لديه من أخبار، ويقوم أحد الإخوة بالتحليل والتعليق على تلك الأخبار، وكذلك الأمر أثناء المحاكمات، أو إجراء المقابلات التلفزيونية والإذاعية مع بعض السجناء، أما بالنسبة لمهجع الجرب إذ يعود الإخوة بعد أسبوع أو أكثر يلتقون خلالها بنزلاء المهاجع الأخرى، بعد أن سمعوا منهم بعض الأخبار أو المنامات، فيتولى الإخوة أهل الدراية وذوو الخبرة والمراس تحليل الأخبار والمنامات، والتعليق عليها، وأحياناً تكون هذه التحليلات والتعليقات

واقعية متزنة، ولكنها في أغلب الأحيان تحوي الكثير من المبالغة والخيال، وربما الأوهام، وعلى كل حال، فإن سجناء تدمر معزولون تماماً عن العالم الخارجي، ومحاطون بالمجهول، والظروف الصعبة، كل ذلك يجعلنا كالغرقى الذين يتعلقون بقشة، كي ينجوا، لذلك كان أكثر الأخوة يتجهون لأهل الدراية، طالبين منهم إبداء رأيهم فيما سمعوه، ويتحفظ أصحاب الآراء المتزنة عن إبداء رأيهم، لأن المعلومات غير كافية، ولا بد ليستطيع الإنسان التحليل والتعليق من أن يرى الصورة من جميع جوانبها، ولكنهم أمام إلحاح إخوانهم، كانوا يضطرون لإبداء رأيهم، وربما تعمّد بعضهم إعطاء صورة مشجعة لرفع معنويات إخوانه.

هموم المعتقلين: يمكن تصنيف معتقلي سجن تدمر إلى نوعين:
1- النوع الأول: وهم الذين حشروا في المحنة حشراً، أي الذين دخلوا السجن دون أن يكون قد خطر ببال أحدهم يوماً أنه سيتعرض للاعتقال كسجين سياسي. وهؤلاء هم الغالبية العظمى من السجناء، كالرهائن، والشهود، والذين اعتقلوا بسبب حضورهم دروس القرآن بالمسجد، أو بطريق الخطأ، عندما طاش عقول أركان النظام الملعون، فصاروا كما وصفهم القرآن (يحسبون كل صيحة عليهم) يعتقلون الناس عشوائياً، وهكذا دخل السجن كم هائل من عباد الله المظلومين.
2- وأما النوع الثاني: فهم كل من نوى أو قام بنشاط ما، واضعين في حسابهم ما يمكن أن يتعرضوا له من سجن وتعذيب وإهانة، وحتى الشهادة فوطنوا أنفسهم لتلك المحنة، بخلاف من لم يكن بهذا المستوى من التصور والهمة العالية، فقد أصيب باللجاجة والاستياء فلا يفكر إلا بالنجاة والعودة للحياة العادية فكانت عيونهم ترنو إلى ما وراء الأسوار، حيث الحياة الدنيا ونعيمها الزائل.
وهذا لا ينفي وجود هموم مشتركة لجميع المعتقلين، والهمّ المشترك للجميع، هو التخلص من السجن وما يحويه من تعذيب وإهانة، إذ لا أحد من الناس يتمنى لنفسه المحنة، وحتى الأخوة الذين وطنوا أنفسهم لأسوأ الاحتمالات، لم يتصوروا السجن بهذا المستوى

الرهيب من الظلم والوحشية، وكثير من الأخوة قرأ وسمع عن السجون، ويعلمون أن السجين السياسي يتعرض للتعذيب والإهانة في الفترة الأولى من اعتقاله، وبالتحديد أثناء التحقيق، وأما بعده، فلا وجود للإهانة والتعذيب، مهما كانت تهمة المعتقل، إنما يبقى رهن الاعتقال، ويسمح لذويه بزيارته.

وفي السجون أجهزة راديو وكتب للمطالعة وغيرها، والكل يعرف أن بعض المعتقلين قد كتبوا بعض كتبهم داخل السجن، كما هو حال الشيخ سعيد حوى، والشهيد سيد قطب، أما سجن الموت في تدمر، فلا شيء من هذا، إنما الموجود فقط هو التعذيب والإهانة بشتى أنواعهما، مع الموت بشتى الوسائل (الموت تحت التعذيب أو علي أعواد المشانق أو الموت البطيء) لذلك كان الهم الوحيد الذي يفكر به الجميع، هو التخلص من التعذيب والإهانة، وهذا الهم غطى على ما سواه لدى أكثر المعتقلين. ومع ذلك، فقد كان غالبية المعتقلين يتمتعون بروح معنوية عالية، يرفعون بها من معنويات إخوانهم، ويخففون عنهم الكثير من همومهم.

والهم الثاني للجميع هو الخوف من المجهول الذي يحيط بنا، فنحن لا نعرف مصيرنا، متى سيخلى سبيلنا؟ كم سنمكث في السجن؟ ما هي الأحكام التي صدرت بحق أكثرنا؟ هل سنساق لحبل المشنقة؟ أم سنبقى بالسجن؟ أم سننقل لسجن آخر؟ فنحن أشبه ما نكون بأسرى الحرب الذين لا يعرفون مصيرهم، هل سيرفع عنا التعذيب؟ أم سنبقى على هذه الحالة؟ هل سنتعرض للتعذيب أثناء المحاكمة أم لا؟ فكل شيء حولنا مجهول ومرعب يدعو للخوف، حتى الزيارة، كنا نخاف منها، ماذا ينتظرنا في المستقبل من صنوف جديدة للتعذيب تتفتق عنها قرائح المجرمين وعبقريتهم؟!! ماذا يدور خارج أسوار السجن؟ وما تأثير ذلك علينا؟ فالكل يذكر مجزرة سجن تدمر، ويعرف أسبابها، وكلنا مقتنعون بأننا رهائن في يد عدو لئيم حاقد. وهكذا.. فكل شيء يثير علامات الاستفهام، دون أن يكون عندنا الإجابة، والخوف من إعادة التحقيق هو أكثر الأمور التي تقلق بال المعتقلين، سواء أكان ذلك في سجن تدمر أم في فرع من فروع المخابرات، إذا كشف أي جديد لم يعترف به المعتقل أثناء التحقيق سابقاً، وقد يكون هذا الأمر سخيفاً أو

افتراءً من بعض المعتقلين الجدد الذين ظنوا أخاهم قد توفي ولا ضير من إلصاق التهم به لأن ذلك هو أفضل الطرق التي لا تفيد العدو بشيء، أو يكون الافتراء من أحد المخبرين الذي كُلّف بمهمة معينة فراح يستقصي فتوصل لمعلومات تتعلق بأحد المعتقلين، وهذه أمثلة على أشخاص اعتقلوا بطريقة الخطأ وبرأتهم المحاكم الميدانية ثم أعيدوا للتحقيق نتيجة للافتراء.

1- كتب أحد المخبرين تقريراً كاذباً حول أحد الأشخاص، زاعماً أنه من الإخوان المسلمين، فقامت المخابرات باعتقال ذلك الشخص، وباشرت التحقيق معه. وكالعادة، راحوا يعذبونه حتى يعترف، فاعترف تحت التعذيب بتلك التهمة، وتابع المحققون التعذيب والتحقيق، ليعرفوا اسم الشخص الذي نظمه، وأعضاء أسرته التنظيمية، فاعترف على أحد أقاربه وكان معتقلاً، وعلى عدد آخر من أقاربه على أنهم أعضاء مجموعته بالتنظيم.

قامت المخابرات بإعلام مفرزة سجن تدمر بالأمر، فتولى جهاز السجن التحقيق مع ذلك المسكين الذي تعرّض لتعذيب شديد، حتى أشرف على الموت، فاعترف بتلك التهمة (أي أنه هو الذي نظم قريبه) فأرسل لفرع المخابرات ببلده، وعندما وصل للفرع، كان قسم التحقيقات هناك قد أجرى التحريات اللازمة حول تلك القضية، فتبيّن لهم أن القضية كلها ملفقة، ولا أساس لها من الصحة، فأسقطت جميع الاعترافات، وتم إغلاق ملف القضية، وقابل رئيس الفرع ذلك المسكين معتقل سجن تدمر، واطلع على آثار التعذيب، فجنّ جنونه، لأن جلاوزة السجن تجاوزوا صلاحياتهم، وقاموا بالتحقيق معه، وهذه حال جميع مراكز القوى بذلك النظام العفن، فكل منهم يسعى لإثبات وجوده، وأنه فعل وفعل، وله الحق أن يفعل ويفعل، وقال أيضاً: نحن الذين نحقق لا الشرطة العسكرية، ثم طلب من زبانيته إرساله إلى المستشفى للمعالجة، وعندما تماثل للشفاء أعيد إلى السجن، وبعد فصل من التعذيب أدخل الزنزانة، ليخرجوه منها بعد عدة أيام، ليتعرض لحفلة جديدة، حيث حصروه بالدولاب، وانهال عليه أربعة وحوش بالسياط، حتى سالت الدماء من قدميه دون جريرة أو ذنب.

2-وشخص ثان أعيد التحقيق بعد عامين من اعتقاله، بسبب تقرير كاذب من أحد المخبرين بتهمة تهريب

أسلحة، نقل ذلك المسكين إلى فرع المخابرات بمدينته، وبقي مدة أربعين يوماً تحت التعذيب، دون أن تثبت بحقه تلك التهمة الباطلة. وتأكد المحققون من كذب تلك التهمة من أدلة عثروا عليها، فأعيد المعتقل ثانية للسجن، وأصيب إخوانه بالغم عندما رأوه يدخل الزنزانة، وقد تغيرت ملامحه، نتيجة التعذيب البشع في فرع المخابرات، وحفلة الاستقبال، بعدما ظنوا أنه قد أخلي سبيله لبراءته من أية تهمة.

وأما الأخوة الذين كان لهم علاقة ما، أو دور ما، فقد تعرض الكثيرون منهم لإعادة التحقيق عدة مرات عديدة، فالأخ الشيخ محمد خير زيتوني من حلب أعيد للمخابرات العامة بدمشق قبيل مجزرة سجن تدمر، وتعرض لتعذيب شديد، وعاد للسجن في بداية شهر آب من عام 1980 وقد أصيب جسمه بجروح كثيرة منعته من وضع الملابس على صدره، فكان يخرج للتنفس عاري الصدر، ليتعرض للتعذيب من قبل جلاوزة السجن في تلك الحالة السيئة، وكذلك الأخ المهندس رياض جعمور (من حماة) أعيد للتحقيق برفقة الأخ الشيخ محمد خير زيتوني، وأعيد معه للسجن بنفس الدفعة، وأعدما في يوم واحد رحمهم الله، والأخ بسام سباعي من حمص (مهندس معماري) أعيد أيضاً مرات عديدة للتحقيق، والأخ حسان طرابيشي (طالب هندسة ميكانيك من حمص) فقد تعرض لتعذيب شديد، وكلما تماثل للشفاء أعيد للتحقيق والتعذيب ثانية، حتى جأر إخوانه إلى الله، طالبين منه أن يرزقه الشهادة، ليتخلص من التعذيب، وكذلك الأخ أمين أصفر ومحمد حسين فخري من حماة، والأمثلة كثيرة لا يمكن حصرها ولا يتسع المجال لذكرها(43).

لذلك كان هذا الهم من أكثر الهموم لدى المعتقلين، والذي يحسب له الجميع ألف حساب، ويسألون الله أن يعمي أبصار المحققين عنهم، وأن يُنسي إخوانهم أسماءهم، فلا يتعرضون لها أثناء التحقيق.

وأما الهموم الأخرى، فهي كثيرة، منها التفكير بالأهل والأولاد خارج السجن (بالنسبة للمتزوجين) والتفكير بالأمهات والآباء والأخوة والأصحاب (لغير المتزوجين) ومنها القلق النفسي الناشئ عن التفريط الذي أدى لإيقاعه الأخ في براثن السلطة، وكان سبباً لإيقاع غيره، والقلق الناشئ عن الخطأ الذي ارتكب أثناء التحقيق

والذي كان بالإمكان تلافيه، والحزن بسبب الوقوع في يد العدو قبل أن يتمكن الأخ من إنجاز أي عمل يستحق الذكر، فالبعض هيأ نفسه لمهمات جسيمة، ولكنه وقع واحترق قبل أن يؤدي المهمة التي نذر نفسه لها، وهذا ما عبر عنه أكثر الأخوة بأنه وقع رخيصاً بيد السلطة.

تعامل السجناء مع بعضهم: الشدائد تظهر معادن الرجال. يقول تعالى: (ولنبلونكم لنعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم). ومحنة سجن تدمر من أشد المحن التي تعرض لها الناس في بلدنا المنكوب، لأنها تعني الكثير من المكاره، فهناك التعذيب وآلامه، والإهانة، والخوف، والمرض والجوع والعطش، وفقدان الحرية، والبعد عن الأهل والأحباب، وفقدان الراحة.. إلخ.

هنا تظهر الحاجة ماسة لأصحاب الشجاعة والمروءة والصابرين من أهل الإيثار، فحيثما يسيطر الخوف والفزع على السجناء، يأتي دور أهل الشجاعة، ليرفعوا من معنويات إخوانهم، وليفتدوا إخوانهم عند الحاجة، وإذا سيطر الهم والحزن واليأس على بعض السجناء، تظهر الحاجة ماسة للصابرين المحتسبين المتوكلين على الله، ليذكّروا إخوانهم بهذه المعاني، فيزيلوا عنهم ما هم فيه، أو يخففوا عنهم كربتهم، وقد يبدوا هذا الكلام من الناحية النظرية سهلا، لأننا اعتدنا على تلك المعاني في حياتنا العادية، عندما يصاب أحد الناس بفاجعة، فيقوم الآخرون بمواساته، أما الوضع في سجن تدمر، فمختلف تماما، فالكرب عم الجميع، وهنا يظهر التفاوت بين الناس بتحملهم لتلك الشدائد، فمنهم من استسلم للمصيبة وراح يبكي، ويدعو الله، ويسأله الفرج، أما أصحاب العزائم الصابرون المحتسبون، فلهم موقف آخر... إنها رجولة من نوع فريد، وعندما تنعدم ضرورات الحياة من مأكل وملبس ومشرب ودواء وغطاء وحتى مكان النوم غير متوفر، هنالك تظهر الحاجة ماسة لأمثالهم من أهل الإيثار الذين قال فيهم القران الكريم: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) لقد عرفتُ معنى هذه الآية الكريمة بشكل عملي في سجن تدمر، عندما ألحت الحاجة لهم؛ فحصة السجين لا تزيد في أكثر الأحيان عن

خمس حبات زيتون، أو خمس حبات عنب، أو نصف بيضة مسلوقة، وكنا نتناول وجبة الطعام دون أن نشعر بزوال ألم الجوع، فكل شيء عزيز على النفس بسبب الحرمان، فقطعة الخبز حاجة عزيزة على كل سجين، وحتى حبة الزيتون وحبة العنب وهكذا. وهنا يظهر أهل الإيثار الذين مدحهم القرآن الكريم، وما يقال عن الطعام يقال عن الضروريات الأخرى من لباس وأغطية وغيرها، وحتى الماء يشح في بعض الفترات، خاصة في فصل الصيف، فلا تزيد حصة السجين عن (750سم 3) ثلاث أرباع زجاجة عادية أو أقل من ذلك في اليوم والليلة، ولعل تلك الفترة كانت من أشد الفترات على السجناء (صيف عام 1982)، وعندما تنعدم الراحة ووسائلها، فالكل قد أعياه التعب نتيجة التعذيب وظروف السجن القاسية... هنالك تبدو الحاجة الأكيدة لأصحاب الهمم العالية، والعزيمة الصادقة، الذين يرهقون أنفسهم، ويحملونها فوق طاقتها من أجل راحة إخوانهم... إنه نوع فريد من التضحية والإيثار التي كان يتعامل بها سجناء تدمر مع بعضهم.

الكرامات في سجن تدمر: تحدث الأخوة في السجن كثيرا عن الكرامات، ويعنون بها المنامات ورؤية الملائكة، ورؤية الرسول صلى الله عليه وسلم، وكنت أتحفظ على هذا الأمر، وخاصة عند الحديث عن المنامات، وكنت أقول لهم: إن الكرامات واضحة للعيان، فلا حاجة للخيال، ولا حاجة لنذهب بعيداً. إن العناية الإلهية تحيط بنا من كل جانب... لقد جمع سجن تدمر جميع أنواع المكاره والشدائد، مما جعل أكثر السجناء أشباحا وهياكل عظمية، لا تقوى أجسادهم على شيء. لقد انهارت المناعة الطبيعية ضد الأمراض، فكانت الجروح تصاب بالالتهاب والتقيح، ويحار المرء كيف اندملت تلك الجروح؟ وكيف استطاع سجناء تدمر تحمل ذلكم العذاب الرهيب؟ حتى إن الجلادين يتعجبون، ويسألوننا باستمرار: (بعدكن ما متوا يا كلاب) ويضربوننا بحقد، يريدون القضاء علينا، ولكن العناية الإلهية كانت تحيط بنا من كل جانب.
من يصدق أن أحدنا يضرب بالعصا الغليظة التي تكفي ضربة واحدة منها لتهشيم العظام، لأن الأوباش

يضربوننا بها على العمود الفقري بشكل خاص، أثناء جلوس السجناء للحلاقة أو في التنفس، وربما ضربوا الساقين والفخذين وأماكن أخرى، ومع ذلك، فالسجناء لا يصابون بأذيات كبيرة، سوى بعض الرضوض، وإذا أصيب أحدهم بكسر في أحد الأعضاء، فإنه يترك دون علاج إلا من بعض المعالجات البسيطة الأولية، كربط العضو المكسور. ومع ذلك، يتعرض هذا المصاب للتعذيب والضرب باستمرار، لكنه يشفى في أغلب الحالات. وهذا أمر يكاد يكون خيالاً.

ومن يصدق أن بعض السجناء ممن أصيبوا بجروح عميقة، ونتيجة للإهمال وظروف السجن السيئة، فإن تلك الجروح تقيحت حتى فاحت منها رائحة كريهة تزكم الأنوف، وساءت حالة بعضهم حتى أشرف على الموت، نتيجة لانتشار الجراثيم بالدم، ومع ذلك، شفاه الله دون علاج.

ومن يصدق أن تنتشر الأمراض المعدية والخطيرة بين السجناء، كالتيفوئيد والكوليرا والسل والتسمم نتيجة تناول الطعام الفاسد، ومع ذلك، كانت حالات الوفاة محدودة جدا.

لقد التقيت إخوة سجنوا سابقا في سجون أخرى (سجن المزة- سجن القلعة بدمشق- والسجن المركزي بحلب وغيرها) والتقوا سجناء سياسيين من الفئات الأخرى (غير الإسلاميين) ورغم الفارق الكبير بين سجن تدمر وتلك السجون، فإن أولئك السجناء العلمانيين كانت تسيطر عليهم الكآبة والحزن ولا ينفك البعض منهم عن البكاء ليل نهار كالأطفال، أو كالنساء، وربما شتموا قياداتهم، وتبرأوا من أحزابهم، عندما تسمح لهم الظروف، كأن يكتب أحدهم طلب استرحام لرئيس الفرع الذي اعتقله، ليرفعه للصنم الكبير، مقترحاً إخلاء سبيله، أو يقدم كتابا يعلن فيه ندمه وتوبته على انتسابه لذلك الحزب، ويعلن تخليه عن مبادئه، عسى أن يخلي سبيله.

أما هنا في سجن تدمر، فالصورة مختلفة تماماً... صحيح أن بعض السجناء كانوا على هذه الشاكلة من وهن العزيمة، ولكن القسم الأعظم يتمتعون بمعنويات عالية، رغم كل الشدائد التي تحدثنا عنها. وهذه كرامة عظيمة من الله لأولئك السجناء.

ظلمات بعضها فوق بعض: لقد اشتدت المحنة على سجناء تدمر عام 82 وبالتحديد أثناء مجزرة حماة (راجع فصل حمامات الدم) واشتد التعذيب مؤدياً لاستشهاد عدد من الإخوة، نتيجة ذلك، وانعدمت العناية الصحية، لانتهاء خدمة المساعد أبو رشيد (ممرض السجن) والمساعد أول أحمد كسيبي (أبو جهل) وتولى الرقيب أول فيصل جميع شؤون السجن، وكان من أشد المجرمين لؤماً وحقداً. وأما المعتقلون، فقد أنهكت أجسادهم، نتيجة معاناة سنوات السجن السابقة (عامين تقريبا) ولم تعد تقوى على شيء، وبلغت المحنة ذروتها صيف ذلك العام، إذ أضيفت محنة جديدة، هي انقطاع الماء خلال أيام الصيف، فكانت إدارة السجن تحضر صهريجاً ليوزع على جميع المعتقلين. وباع السجانون عدة غالونات بلاستيكية لكل مهجع، لتملأ بماء الشرب، ولا تزيد حصة السجين الواحد عن 3/4 لتر من الماء، أو أقل من ذلك في أغلب الأحيان. وبالطبع، توقفت الحمامات، وجميع عمليات التنظيف والغسيل. وليتصور المرء بعد ذلك: كيف أصبحت حالة المعتقلين؟.

وازداد الازدحام داخل المهاجع في تلك الفترة، فلا تزيد حصة السجين عن نصف متر مربع في أغلب المهاجع، وأصبح السجناء ينامون وقد تداخلت أجسامهم تحت الصدر، وإذا استيقظ أحدهم وخرج لقضاء الحاجة، أو لأي أمر آخر، ثم عاد لمكانه، لا يجد مكاناً ينام فيه، فيبادر لإيقاظ إخوانه، وإبعادهم، ليأخذوا وضعا يساعده على النوم ثانية؟!

وفي ذلك العام جرى فرز السجناء، فجمع القدامى منهم الذين حوكموا بمهاجع خاصة. وهكذا ضرب علينا دون العالم الخارجي سور غليظ من الظلم والعزلة، فنحن لا ندري ما يدور خلف أسوار السجن، نتيجة عدم احتكاكنا بالمعتقلين الجدد، وأذكر أننا سمعنا خطاب المجرم حافظ أسد بمناسبة 8 آذار من ذلك العام، ولم يكن الصوت واضحا بسبب بعد مكبرات الصوت عنا، واستطعنا أن نفهم من خطابه، ترديده لكلمة حماة مرات عديدة فاستقر في أذهاننا هاجس وقوع حادث رهيب هناك، دون أن نعرف التفاصيل، كما وصل إلينا خبر الاجتياح الإسرائيلي للبنان بمنتصف ذلك العام، من خلال أحد

الأخوة الذي حصل على زيارة من أهله . وكان لذلك الأخ التماسات ووساطات، وجلس مع أقاربه في غرفة مدير السجن، وقال له أقاربه: إن الوضع في لبنان سيء جداً. وفي نفس العام تم تبديل العديد من الكوادر السجن (الشرطة وضباط الصف) واشتد الكرب على السجناء من كل جانب، فكان ذلك إيذاناً ببدء الفرج، وكنت أتذكر دائماً قوله تعالى: (إن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا) وأتذكر تفسير تلك الآيات الكريمات كما أتذكر قوله تعالى: (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا، جاءهم نصرنا، فنجي من نشاء، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) وأتذكر قوله تعالى واصفاً حال المسلمين بغزوة الأحزاب: (وإذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنونا، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً)، وحفظت شيئاً من الشعر الذي ردده الإخوة:

اشتدي أزمة تنفرجي قد آذن صبحك بالبلج

وبيت آخر يقول:

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج

الانفراج: إن إرسال المعتقل لسجن تدمر يعني إرساله للمقصلة. هذه هي القاعدة العامة التي تنطبق على سجناء تدمر، لذلك سمي بمركز التطهير الوطني لتصفية الإخوان المسلمين، لقد قالها المجرم غازي كنعان ذات مرة لأحد معتقليه الذي احتج على إرساله لتدمر قائلاً: ماذا فعلت حتى ترسلوني لتدمر؟ ألست بريئاً؟ ألم تعدوني بأنكم ستخلون سبيلي؟ (وكان ذلك المسكين بريئاً وقد أخلي سبيله بعد أكثر من عامين)؟ فأجابه ذلك الزنيم:

(انقلع روح لتدمر لتموت هناك كالكلب عندك بيت حقه 5 ملايين ما بتستأهله)(44). وكما ذكرت سابقاً فقد أخذ ذلك الزنيم على نفسه عهداً بأن يقطف ألفي زهرة من مدينة حمص ليزرعها بصحراء تدمر.

والموت سواء كان على أيدي الجلادين، أو بواسطة محاكم التفتيش، أو نتيجة للإهمال وسوء الأحوال العامة، كله سواء، ومع ذلك، فلكل قاعدة شواذ، والقرآن يقول: (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً

مؤجلاً)، ويقول أيضاً: (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) فالحياة والموت بيد الله وحده.
إن عمليات الإفراج عن السجناء كانت نادرة ومحدودة في السنتين الأوليين (أي عام 1980 – 1981) وأول دفعة تم الإفراج عنها كانت بمناسبة عيد الفطر عام 1980 عندما أخلي سبيل عدد محدود من المعتقلين (ربما لا يتجاوز عددهم الـ 30 شخصاً من الذين دخلوا السجن لتوّهم.. وذلك بمناسبة صدور القانون 49 حيث تعمدت السلطة إظهار أولئك السجناء على شاشة التلفزيون معلنين براءتهم من جماعة الإخوان المسلمين، وتنديدهم بجرائمها، ليشجعوا غيرهم (ممن هم خارج السجون) على الانسحاب، فيقعوا في أيدي المجرمين، وهذا ما حصل فعلاً، علماً بأن أولئك الأشخاص لم يكن لهم أية علاقة بالإخوان المسلمين، بل إن بعضهم كان من الرهائن، وآخرين ممن تركوا الجماعة قبل سنوات طويلة من اعتقالهم، ومع ذلك، يمكننا اعتبار هذه العملية بأنها أول عملية إفراج جماعية من سجن الموت، وبعدها توقفت الإفراجات الجماعية، واقتصرت على حالات فردية، ممن لديهم حظوة أو وساطات والتماسات لدى أزلام السلطة، وبنفس الوقت لم يكن لهم أية أسباب تستوجب اعتقالهم أصلاً.
ففي تشرين الثاني من عام 1980 أخلي سبيل عدد محدود من المعتقلين، وفي منتصف عام 1981 أفرج عن عدد آخر، ثم توقفت الإفراجات حتى النصف الثاني من عام 1982 وبالتحديد في شهر آب من ذلك العام، عندما أفرجت المخابرات العامة عن 67 معتقلاً من نزلاء سجن تدمر.
وتأثرت معاملة السجناء بعملية الإفراج المذكورة، فتحسنت نسبياً فخفت شدة التعذيب، بعد أن بلغت ذروتها في الأشهر الماضية، وتحسنت نفسية أكثر المعتقلين الذين استبشروا خيراً، فقال بعضهم: (بدأت الأمور بالتحلحل) يعني بالانفراج.
كان أكثر المعتقلين القدامى من الأبرياء (حسب محاكم الظالمين) وقسم منهم قد حكم مدداً قصيرة (عامين فما دون) وحتى الذين حكموا أكثر من ذلك، فإن بعضهم قد قضى في السجن مدة الحكم وزيادة، وفي شهر تشرين الثاني سنة 1982 تم الإفراج عن دفعة جديدة

من معتقلي أمن الدولة والمخابرات العسكرية، ويبلغ عددهم حوالي 200 من سجن تدمر، وحوالي 100 من بقية السجون، وهي أكبر دفعة من المعتقلين تم الإفراج عنها منذ شهر آذار عام 1980 ويعتبر ذلك التاريخ نقطة تحوّل جذرية في تاريخ سجن تدمر، إذ توقف التعذيب تماماً، وبقي مقتصراً على حفلة الاستقبال (وبشكل أقل مما كان سابقاً) أو في حالة وجود شكوى ضد أحد السجناء من رئيس المهجع، أو من سجين آخر (وهذا الأمر لم يكن موجوداً سابقاً).
أما الأمور الأخرى، فبقيت على حالها، فالزيارات ما تزال ممنوعة عن أغلب السجناء (حوالي 90% من السجناء لم يحصلوا على زيارة) وإن كانت قد زادت نسبتها قليلاً عما مضى، والممنوعات الأخرى ما تزال قائمة، فلا وجود للكتب والقرطاسية والنشرات الدورية، وأجهزة الراديو وغيرها، والطعام ما زال على حالته، والعناية الصحية ما تزال رديئة، فمرض الجرب والقمل وغيرها من الأمراض ما تزال مستشرية في جميع المهاجع، والصلاة بقيت من الممنوعات أيضاً وغيرها...
وفي منتصف عام 1983 أخلي سبيل 34 سجيناً آخر من تدمر، وفي نهاية عام 1984 أخلي سبيل عدد آخر من السجناء، ومنذ ذلك الحين تقوم السلطة بإخلاء سبيل عدد محدد من المعتقلين بين الحين والآخر(45).
وقبل أن أشرح كيف أخلي سبيلنا سأتعرض لموضوع عابر، وهو المشاكل الجديدة التي بدأت تواجه المعتقلين بعد تشرين الثاني عام 1982.

مشاكل جديدة طارئة تواجه المعتقلين: إلى جانب الصورة المشرقة لسجناء تدمر، طرأت صورة معاكسة لها تماماً بعد عام 1982 وكانت لقليل من المعتقلين، فسجن تدمر كان مقتصراً على الإسلاميين، وهذا لا يعني بالضرورة أن جميع المعتقلين كانوا كذلك، لقد راحت أجهزة المخابرات تعتقل الناس عشوائياً، سواء أكان الشخص له صلة قرابة أو جوار أو علاقة صداقة عابرة بحكم العمل أو الدراسة أو الخدمة العسكرية، والأنكى من ذلك أن أجهزة الظلم لفقت تهماً مزيفة لكثير من الأشخاص كي تبرر اعتقالهم، فمثلاً قامت المخابرات باعتقال الكثير من المهربين بمنطقة

الساحل خشية أن يقوموا بتهريب الأسلحة للإخوان المسلمين، واعتقلت المخابرات بإدلب الناس بهذه الهمجية.

والعسكريون أيضاً قامت السلطة بتلفيق التهم لكل من يشكّون بولائه لهم. واجتمعنا بعدد من المعتقلين ممن كانوا مدمنين على المخدرات في منطقة الساحل إذ اعتقلت السلطة جميع أصحاب السوابق الجنائية (مخدرات.. سرقة.. تهريب.. إلخ) خشية انضمامهم لمجموعة (أبو علي الجندي) الذي كان على هذه الشاكلة (من أصحاب السوابق الجنائية) واستطاع أن يجمع حوله ممن يسمون بمنطقة الساحل (عقداً – زكرتية) ومنَّ الله عليهم بالهداية وراحوا يقاومون السلطة.

بل وجد بين سجناء تدمر بعض النصيريين، أذكر منهم شخصين: أحدهما متطوع بالوحدات الخاصة ويدعى سجيع الناصر، وهو متهم ببيع أسلحة للإخوان المسلمين، والآخر على علاقة بمجموعة من المهربين وأصحاب السوابق في منطقة الساحل، ويدعى عصام سلوم، وكان موجوداً بمهجع الأحداث، ووجد أيضاً بعض النصارى، منهم شخص من بيروت الشرقية متهم ببيع أسلحة للإخوان، وشخص آخر من لبنان وكان في المهجع 19 لم أعرف تهمته، بل وحتى سيدة نصرانية من مدينة حمص، متهمة بتأمين جواز سفر لأحد الأشخاص، مما ساعده على الفرار خارج البلاد، ومع الوقت كانت تتناقص نسبة الإسلاميين نتيجة عمليات الإعدام، وبالعكس تزداد نسبة من كانوا على هذه الشاكلة من السجناء. ولا ننكر أن الكثيرين منهم قد تابوا وأنابوا إلى الله خلال فترة سجنهم، وتغيرت أحوالهم، وصقلتهم وهذبت أخلاقهم المحنة، وظل بعضهم على حالته السابقة، وإن كان يصلي ويصوم ويحفظ القرآن، وأثناء فترة التعذيب الممتدة من منتصف عام 1980 وحتى نهاية عام 1982 كانت المحنة توحد جميع السجناء، لذلك لم يكن لحظوظ النفس أي اعتبار عند الجميع، أما الآن، وبعد زوال التعذيب، فقد تغيرت الأحوال، يضاف إلى ذلك الظروف القاسية التي تتطلب صبراً وخلقاً رفيعاً، فالازدحام الشديد داخل الزنزانات، وقلة لوازم الحياة الضرورية، وغيرها من الشدائد التي تتطلب التحلي بالصبر والتضحية والإيثار،

كل ذلك أدى لكشف عيوب البعض من ضعاف النفوس، وظهرت حظوظ النفس عند البعض، كالأنانية، وحب الزعامة، وحب الشهرة، وغيرها.. وهذه أمور قد تكون عادية، لكن المخيف نسيان بعضنا بين عشية وضحاها كل ما لحق بنا من ظلم وقهر على أيدي زبانية السلطة، وكأنهم تعرضوا لعملية غسل دماغ، والجلادون ربما يقصدون ذلك، كما قال لي القاضي أثناء المحاكمة، ولكن تصرفاتهم كانت تنم عن حقد ولؤم.
ودخل السجناء مرحلة جديدة لم تكن متوقعة، فراح البعض يشي بإخوانه لزبانية السجن دون تكليف أو دفع منهم، لأنهم أساساً لا يثقون بأي سجين مهما أظهر ولاءه لهم، كما ظهرت رعونة الآخرين الذين تسببوا بإيذاء إخوانهم، فمثلاً قال أحدهم ذات مرة للشرطة: إن فلاناً يلقي محاضرة دينية في المهجع، فكان ذلك سبباً لإيذائه، وآخر قال للجلادين: إن فلاناً قال لي عليك أن تعاملنا معاملة إخوانية، فنحن هنا إخوان.. وهكذا، وفي كل مرة كانت الوشايات تتسبب بجر الأذى لعدد من السجناء، وليت الأمر اقتصر على هذا الحد، بل هدد أحد الزبانية عندما سمع (معاملة إخوانية) بأنهم على استعداد لإعادتنا لفروع المخابرات للتحقيق معنا ثانية، وكم نصحنا إخواننا بالكف عن تلك التصرفات الرعناء، فأكثرنا دخل السجن بسبب كلمة قالها، أو قيلت أمامه، أو قيلت بحقه، فنحن سجناء سياسيون، والكلمة لها اعتبار كبير، ولكن دون جدوى، فصار لزاماً علينا أن نحترس من العدو الداخلي، ومن هو ذلك العدو؟ أنفسنا نحن، إنهم إخوة منّا، يشاركوننا آلامنا وأحزاننا منذ عدة سنوات، وكم قلت لإخواننا: إن كل واحد منّا قد قضى مع إخوانه ردحاً من الوقت، فنحن نقضي مع بعضنا 24 ساعة متواصلة، نأكل ونشرب وننام ونجلس ونتحدث ونذهب للحمام والحلاقة، ونتلقى التعذيب مع بعضنا، وهكذا، كل شيْ والله تعالى يسأل عن صحبة ساعة، كما ورد في الحديث الشريف: (والساعة مطلق من الوقت) فكيف بهذه الصحبة التي تساوي آلاف الساعات، وانقلبت الموازين فصار العدو صديقاً والأخ عدواً بين عشية وضحاها، كل ذلك جعلني أتساءل: هل نحن مزاجيون لهذا الحد؟ هل تهزمنا المظاهر فتنسينا حقائق الأمور؟ هل صحيح أن ذاكرتانا ضعيفة أو معدومة فلا

نعرف إلا يومنا، وننسى الماضي القريب؟ هل يستطيع أعداؤنا تحقيق أهدافهم بسهولة؟ بل أبعد من ذلك، يستطيعون الوصول لأهداف لم يفكروا بها أصلاً؟ ما سبب ذلك؟ هل هو نفسيتنا أم انعدام الوعي عند بعضنا أم الاثنان معاً أم عوامل أخرى؟
كنت أفكر بعمق، وأكاد أتمزق من الغيظ، وأتساءل: كيف يفكر إخواننا أصحاب تلك التصرفات؟ هل وصلت بهم الحماقة إلى هذا الحد؟ وكم كنت أصارح إخواني الموثوقين، وأقع في الغيبة، عندما أصف أولئك الناس بالحماقة والرعونة؟ وكم حذرني إخواني قائلين: اتق الله يا رجل ودعك من الغيبة. وأتذكر قوله تعالى: (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً).

الإفراج: أ – الخروج من سجن تدمر:
رغم ظلام المحنة وانعدام الأمل بالإفراج عنا خلال السنوات الأولى (1980 -1981 -1982) كان يتملكني شعور داخلي بأن الله سيفرج عني يوماً ما، واستقرت في نفسي ضرورة تأريخ تلك الفترة والمحنة، لتدخل تاريخ أمتنا الإسلامية المعاصر من أوسع الأبواب، ولكم قلت لإخواني معزياً عند اشتداد الكرب: لا تحزنوا، فإنكم تكتبون التاريخ، إن ما يجري معنا الآن سيدوّن يوماً ما في سجله، وستضيفه الأجيال من بعدنا إلى رصيدها الجهادي.
وما مرّت مناسبة إسلامية كعيد الفطر أو عيد الأضحى المبارك، أو أي مناسبة إجرامية أخرى كمناسبة 8 آذار أو 16 تشرين ثاني ذكرى ما يسمى بالحركة التصحيحية النصيرية إلا توقعنا الفرج، ولكن.. طال الانتظار، مما جعلني أوطّن نفسي على أن المحنة قاسية، وسنوات السجن ستطول، رغم شعوري الداخلي بأنني سأخرج يوماً ما.
ومع تباشير الانفراج، ذهبت بأخوتنا التعليقات والتلميحات كل مذهب، وتوقع أكثرنا إرهاصات فرج قريب، وتصرف أولئك الأحبة على هذا الأساس، لكنني لم أتجاوز حد التصرف المعقول، خشية أن أصاب بالإحباط، إذ تعلقت بآمال لا تتحقق بهذه المناسبة أو تلك.

ومع إخلاء سبيل بعض الأخوة، كانت أنظار البقية تتعلق بفرج قريب، ولربما كفّ بعضهم عن تناول الطعام في ذلك اليوم، أو بقي مستيقظاً طوال الليل، منتظراً قدوم الحراس ليقرءوا اسمه، أما أنا، فكنت أتصرف بصورة عادية، لأنني ما أزال رهن الاعتقال، وأسأل الله الفرج العاجل لي ولبقية إخواني.
وأخيراً، وبعد طول انتظار، جاء الجنود بقائمة أسماء، منها اسمي، ودّعت إخواني وخرجت من المهجع، لألتقي عدداً آخر من السجناء، جمعوا من المهاجع الأخرى، وأخذنا السجانون إلى ساحة القلم (ساحة الإدارة) وهنا فوجئنا بدورية المخابرات، مع دفعة جديدة من المعتقلين، في حفلة استقبال رهيبة في باحة التعذيب!! أوقفنا جانباً ننتظر، ونحن نسمع صراخ المعذبين، فتذكرنا يوم دخولنا هذا المكان اللعين، قبل عدة سنوات، وسألنا الله لإخواننا الفرج.
فتشنا زبانية السجن بدقة، وبنفس الطريقة عند دخولنا السجن، وأوقفونا جانباً في انتظار أن ينتهي المساعد المسؤول عن السجل من تخريجنا من السجلات، وقرأت أسماؤنا، وجاء رجال المخابرات يحملون القيود والعصابات (الطماشات) التي قتلت في نفوسنا أمل الخروج من السجن بشكل مشرف، وسيطر الغم على بعضنا، ولكنه أمراً اعتيادياً لي.
كانت القيود هذه المرة أخف من المرات السابقة، فقد ربطت يد أحد السجناء بيد سجين آخر، وبقيت الأخرى حرّة، ووضعت العصابات على وجوهنا بشكل ضاغط.
صعدنا السيارة العسكرية الخاصة بنقل السجناء، وجلسنا في داخلها، وجلس شخصان من عناصر المخابرات، (ويبدو أنهما من المجندين المغلوبين على أمرهم) خارج صندوق السيارة، على مقعدين متقابلين بمؤخرتها، وكانا في غاية اللطف، وبدا عليهما إشفاقهما علينا، لذلك بادلناهما مشاعر الشفقة، لما نالهما من البرد أثناء تلك الرحلة، لأنهما يجلسان في مكان مكشوف في مؤخرة السيارة.
كان الجو بارداً، لأن الحرارة تنخفض ليلاً في الصحراء، قال لنا أحدهم: يمكنكم فكّ الطماشات عن عيونكم، لأنها تضغط كثيراً، ففعلنا ذلك. وبجانبي جلس شيخ عجوز، أعلمني أنه مزارع، ومنظره يثير الشفقة

والتساؤل: لماذا أقدم المجرمون على اعتقال هؤلاء المساكين الذين لا يعرفون من أمور السياسية شيئاً.
أخذ ذلك المسكين يسألني: إلى أين نحن ذاهبون؟
قلت له: من أجل إخلاء سبيلنا إن شاء الله.
قال لي: إذا كان الأمر كذلك، فلماذا القيود والعصابات إذاً؟
أجبته: إننا ما نزال رهن الاعتقال، وهؤلاء (أفراد دورية المخابرات) لا يعرفون إلى أين نحن ذاهبون.
عاد فسألني بالتحديد: إلى أين ذاهبون؟
قلت له: إلى فرع المخابرات الذي اعتقلنا، وربما مكثنا هناك بعض الوقت، ثم يخلى سبيلنا.
كان ذلك المسكين خائفاً، لأنه ظن أننا ذاهبون إلى سجن آخر، أو لإعادة التحقيق معنا، أو للإعدام، وكرر عليّ نفس الأسئلة، وحول نفس الموضوع، فأعدت شرح الإجابات السابقة.
لقد فقد أكثر السجناء القدرة على التفكير الصحيح، والتوجّه السليم، كما فقد أكثرنا أي بارقة أمل، فلا يرى الأمور إلا منظار التشاؤم، نتيجة ما لاقيناه خلال سنوات السجن، وظن بعضنا أن الذين يخرجون لإخلاء سبيلهم، إنما يؤخذون للإعدام، وظن آخرون العكس.
رحنا نتحدث عن السجن، وأسباب اعتقالنا، والمدة التي قضيناها، حتى وصلنا إلى المدينة، بعد أن عانينا الكثير نتيجة البرد والآلام التي سببتها تلك المقاعد المزعجة.
أثناء الطريق، توقف الموكب عدة مرات، لينزل رئيس الدورية مع بعض عناصره لاحتساء الخمر، ثم كانوا يتابعون السير بعد أن يكونوا قد شربوا حتى الثمالة، وعندما وصلنا إلى مدينتنا، بدأنا نشاهد الأنوار والأبنية، فتدافعت عندها الأفكار إلى أذهاننا، واختلطت بالمشاعر المتناقضة، فنحن خائفون، لأنه عما قريب سندخل فرع المخابرات، ذلك المكان اللعين الذي لا نعلم ما ينتظرنا فيه، ونحن متفائلون، فلدينا أمل كبير بأننا سنكون أحراراً، نسير في هذه الشوارع طلقاء.
قلت لإخواني داخل السيارة: ها نحن وصلنا إلى مدينتنا.. عليكم أن تعيدوا العصابات كما كانت، وإلا تعرضنا لما لا تحمد عقباه من زبانية الفرع.

ب – الوصول لفرع المخابرات: أعدنا وضع العصابات قبل دخول السيارة إلى الفرع بفترة وجيزة، وسيطرت الرهبة على الجميع، هناك دعوت الله في نفسي: (اللهم إني أعوذ بك من شر هذا المكان وشر ما فيه). أوقفت السيارة، وراح زبانية الفرع ينزلوننا منها، ليستقبلونا باللكم واللطم والرفس، فرحنا نصرخ قائلين لهم: نحن أبرياء، جئنا إلى هنا كي يفرج عنّا. فيكون جوابهم مزيداً من الضرب، مع الشتم بأقذع الألفاظ وأفجرها، فهم لا يعرفون غير ذلك (قل كل يعمل على شاكلته، فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً). بعد ذلك، قام الزبانية بتفتيشنا، وأصيب بعضنا بالجروح والنزيف (من الأنف والفم) وهذه أمور اعتدنا عليها كثيراً خلال سنوات سجننا، فدعونا الله أن تكون هذه آخر مرة نضرب فيها ونهان، وبعدها نزلنا للقبو (السجن) فأدخلونا إحدى الزنزانات الفارغة، وتركونا وانصرفوا. الساعة تقارب الثالثة بعد منتصف الليل، المكان بارد، لا وجود للبطانيات أو أية مفروشات على الأرض، فرشنا بعض ملابسنا البالية التي نحملها معنا من السجن، وحاولنا أن نرقد قليلاً بعد أن أعيانا التعب والضرب، وأنّى لنا ذلك؟
في صباح اليوم التالي أحضر لنا الزبانية عدة بطانيات، ففرشناها على الأرض، ثم أحضروا لنا طعام الإفطار، فأكلنا وحمدنا الله، وسألناه أن يقطع نصيبنا من ذلك المكان.

ج – العودة إلى التحقيق: إن الذي يتعرض للاعتقال لأسباب سياسية، يبقى ضمن دائرة التحقيق ما دام معتقلاً، وكلما انتهى من فصل، واجه فصلاً جديداً. وهكذا حتى يخرج من السجن، ليبدأ نوع آخر من التحري والاستقصاء. أي أن الذي اعتقل ولم تثبت إدانته بأية تهمة، فالمجرمون لا يثقون بتلك النتيجة التي توصلوا إليها، فالأصل عندهم: أن كل متهم مدان حتى يثبت العكس، وهذا لا يتحقق إلا إذا أثبت الشخص ولاءه لهم (أي إذا أثبت أنه مواطن صالح حسب تعبيرهم) وهذا لا يكون إلا إذا أصبح مخبراً لهم، عندها ترفع عنه التهمة، وإلا فهو ضمن دائرة الاتهام، وعليهم أن يجتهدوا لإيجاد أية شبهة يتمسكون بها لإيقاعه، سواء من خلال

التحقيق، أو جمع المعلومات عنه من الآخرين المخبرين، أو المعتقلين الجدد.

وإذا لم يتوصلوا لأية نتيجة بجميع الطرق، فالشبهة قائمة مدى الحياة على من اعتقلوا، لتكون لهم سابقة تبرر إعادة اعتقالهم عند حدوث أية اضطرابات بالبلاد، وهم المعروفون بأصحاب السوابق، وبناء على تلك القاعدة، أقام الطغاة جميع تصرفاتهم مع الشعب.

نحن الآن ما نزال بين أيديهم، وما عليهم إلا أن يعيدوا التحقيق معنا وبأساليب أخرى، لعلهم يعثرون على جديد، وبالطبع لن يكون التحقيق هذه المرة بنفس أسلوب المرة الأولى، قد يكون أكثر معقولية ورحمة.

أحضر لنا الزبانية عدة أوراق، تتضمن عدداً من الأسئلة للإجابة عليها، وتتعلق بأسباب الاعتقال، مثل: ما هي الأسباب التي أدت لتوقيفك؟ (إذ الكلمة المستعملة بدل الاعتقال هي التوقيف) ومتى وأين وكيف أوقفت؟ من هم الأشخاص الذين كانوا معك بنفس القضية؟ متى ذهبت للسجن؟ وكيف قضيت هذه الفترة هناك؟ ماذا تنوي أن تعمل بعد إخلاء سبيلك؟

والمجموعة الثانية من الأسئلة تتضمن المعلومات الذاتية المتعلقة بالشخص، مثل: الاسم والعنوان والمهنة ومحل وتاريخ الولادة، مع استمارة بجميع أسماء الأقارب حتى الدرجة الثالثة، مع عناوينهم وأعمالهم وانتماءاتهم السياسية.. إلخ..

بدأت بالإجابة على الأسئلة، ولكني توقفت عند السؤال الأول، فأنا لا أعرف بالضبط لماذا تم اعتقالي؟ وأخيراً كتبت: إن فلاناً افترى عليّ (الشخص الذي اعتقلت بسبب معرفتي به) وكذلك كتبت اسم ذلك الشخص بأنه كان معي بنفس القضية، لأن المحققين قالوا لي: إنه معتقل، وإنه قد اعترف علي.

أما بقية الأسئلة، فقد أجبت عليها دون صعوبة، وقدمت الأوراق لهم، بعدها جاء دور التحقيق الشفهي، وراح الزبانية يتلون أسماءنا واحداً تلو الآخر، ويدخلوننا إلى غرفة التحقيق، ولم تكن علينا الأصفاد والعصابات ذلك الوقت، وكان يجلس السجين مقابل المحقق، أمام طاولة المكتب، فينظر المحقق إليه ويسأله حسب قضيته، وربما استرسل بالكلام مع بعضنا، واختصره مع الآخرين، وقد شجّع البعض بكلامه معهم أو ثبط الآخرين

مظهراً حقيقته القمعية كرجل مخابرات، وذلك حسب نوعية المعتقل، وفي كل الحالات يحاول التلاعب بأعصاب المعتقل، فالمسألة هي حرب نفسية بحتة، ومن الذي يدير الحرب النفسية؟ أليست هي أجهزة المخابرات؟

بالنسبة إليّ فقد وجهت لي الأسئلة التالية:

- متى أوقفت؟ أجبته منذ...

- لماذا أوقفت؟ قلت له: لا أعرف، ولكنكم قلتم لي: إن فلاناً قد اعترف عليّ، وأنا لا أعرف ماذا اعترف عليّ.

- من هم الأشخاص الذين أوقفوا معك؟ قلت له: فلان. فكّر ملياً وقلّب الأوراق الموجودة أمامه، ثم قال: نعم..

- وعاد وسألني: أين هو فلان الآن؟ قلت له: موجود عندكم.

- نظر إليّ بشزر قائلاً: وكيف عرفت ذلك؟

قلت: أنتم قلتم لي ذلك، وأنني قد أوقفت لاعترافه عليّ.

فعاد يقلّب الأوراق أمامه لإيهامي بمعرفتهم لكل شيء، وربما كان لا يعرف القضية أساساً، لعدم مشاركته بالتحقيق، فصوته لم يكن مألوفاً لديّ، أو أن القضية قد صارت من منسياته لتقادمها.

قال لي: طيب هل ذهبت إلى المحكمة؟

قلت: نعم.

قال: وماذا حكمت؟

قلت: لا أعرف.

قال: كيف ذلك؟ قلت: إن القاضي لم يقل شيئاً، بل طلب مني الانصراف فقط.

تأملني ملياً وقال: تفضل. أي اخرج إلى زنزانتك.

وهكذا انتهت المقابلة، وانتهى التحقيق، وكان آخر ما تعرضت له، ولم أعرف تقييمهم للموقف، فهم يريدون مقارنة اعترافاتنا أثناء التحقيق أول مرة، مع اعترافاتنا الآن، لعلهم يعثرون على أي جديد.

لقد بدا على المحقق الغبط والحنق والحيرة، لذلك اختصر الكلام معي كثيراً، وربما شعر أنه لن يستطيع خداعي، فيستفيد مني، بل على العكس فكل كلمة يقولها لي قد تفيدني، وهذه هي عادة ضباط المخابرات، فكل شيء عندهم له حسابه، فإذا احتاجوا لرمي الطعم كي يحصلوا على صيد ثمين، فعلوا، وإلا فإنهم لا يرمونه

إذا شعروا أن الضحية ستأكله دون الوقوع في الفخ، وهكذا كان تقييمي.. قلت في نفسي (موتوا بغيظكم). دامت المقابلة عدة دقائق، خرجت بعدها لإخواني أحدثهم بما حصل، وقد سيطرت علي الرهبة، لأن الجلادين ما زالوا عند قناعتهم، ولكنهم لم يستطيعوا استخراج ما عندي، فما الذي يمنعهم من إعادتي للسجن(46).

سألت الله السلامة، وطلبت من إخوتي الدعاء، فطمنني الإخوة قائلين: إن هذا أمر عادي، فأجواء المخابرات كلها إرهاب، هل تنسى أنك أمام أحد الجلادين؟ وهل يستطيع المجرمون تغيير طبيعتهم الإجرامية، هل يصبح الذئب حملاً أو الثعلب غزالاً؟ وهل تصبح الأفاعي والعقارب حمامات مسالمة؟ كلا!... ثم قال لي: ألا تسمع أصوات المعذبين التي لا تنقطع في ليل أو نهار؟ هذه هي طبيعة المجرمين، ولن يغيروا من طبيعتهم مهما حاولوا، فهم يريدون أن يمنّوا علينا بالإفراج، ويريدون إقناعنا بأنهم يفعلون ذلك تكرماً.

وبعد أيام من المقابلة، استدعيت ثانية، وطلب مني التوقيع على ورقة لم أعرف محتواها (وهذه هي عادتهم) وفي اليوم التالي استدعيت لتسلم أغراضي التي سرق بعضها في قسم الأمانات، وتلك هي أمانتهم!! قال لي أحدهم: ندفع لك ثمن الأغراض المفقودة؟ فشكرتهم على أريحيتهم!! فالحرية والخلاص منهم لا يعدلهما شيء.

جاء الحلاق يومها، وحلق لنا جميعاً، لأن حلاقة سجن تدمر تشبه حلاقة الماعز والغنم، وعندها صرنا جاهزين للخروج إلى العالم من جديد.

الخروج من السجن: وفي المساء، قرأ أحد الجنود أسماءنا، وأخبرنا بإخلاء سبيلنا، قائلاً: اجمعوا أغراضكم لتخرجوا من هنا، فخرجنا إلى غرفة كبيرة خارج السجن، لنجتمع هناك بأهلنا الذين كانوا في انتظارنا، وحضر رئيس الفرع (وهو من الدمى المعروفة ببلدنا، لأنه لا يملك سوى الإجراءات الشكلية) وألقى كلمة تثير السخرية والاشمئزاز والتي اعتدنا سماعها في طل مناسبة نلتقي فيه بأزلام السلطة، سواء أكانوا ضباط مخابرات أم ضباط شرطة أو غيرهم. الكلمات نفسها

يرددها الجميع دائماً، وبعدها خرجنا من الفرع، فكان في انتظارنا جمع كبير من الناس عند الباب، لأن المخابرات أعلموا ذوينا بذلك، فجاءوا لاستقبالنا، وانتشر الخبر بالبلد، فجاء ذوو المعتقلين ينتظرون عند الباب، وسمح لعدد محدد من ذوي المعتقلين المفرج عنهم بالدخول، أما الباقون فظلوا واقفين في الشوارع مدة طويلة، وربما منذ الصباح، ولكن الظالمين خيبوا آمالهم، فكان عددنا لا يستحق الذكر، مقارنة بعدد المعتقلين من أبناء مدينتنا.

ها أنذا أجد نفسي حراً طليقاً أسير في الشارع، لا يستطيع الإنسان وصف مشاعره في تلك اللحظات، فقد اختلطت مشاعر الفرح بالحزن، فأنا فرح بأن الله منَّ عليّ بالحرية بعد سنوات من الأسر، عانينا خلالها ما لا يعلمه إلا الله، ونحتسب ذلك عنده، وبنفس الوقت، أنا متألم على إخواني الذين ما زالوا أسرى بيد عدو لئيم حاقد.. وأما الذين استشهدوا، فقد تخلصوا من ظلم الأرض وجورها، ونحسبهم إن شاء الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ولكن، أليس لهم أهل وأولاد وإخوة وآباء وأمهات؟ ما حال أولئك المساكين وقد حرموا أبناءهم وهم يجهلون مصيرهم؟ ما ذنبهم أن يعيشوا سنوات عجافاً طويلة ينتظرون وينتظرون، يتجرعون مرارة الأسى، دون نهاية لتلك الأحزان؟ إنها مأساة حقاً.. وراودني شعور بالخوف، فالطغاة لا أمان لهم، وقد نعاد للسجن بين عشية وضحاها، فالعصابة الحاكمة لم تتغير، والظلم والجور ما زالا قائمين فوق رقاب العباد، ومن يمنعهم من اعتقالنا ثانية؟ (لا أحد إلا الله). وأعود فأسال نفسي: هل أسمح للظالمين باعتقالي ثانية؟ أما يكفينا ما شاهدناه؟ لقد تعلمت الدرس، وقرأت على جدران السجن مرات ومرات العبارة الآتية: (قد يدخل العاقل السجن مرة، ولكن لا يدخله مرتين).

من السجن الصغير إلى السجن الكبير:

عند باب الفرع ركبنا السيارة التي اتجهت بنا إلى البيت، وكان في انتظاري عدد كبير من أقاربي الذين جاءوا لمعانقتي، والسلام عليّ، فحذرتهم.. مهلاً.. مهلاً.. قالوا لماذا؟ قلت: لا تلمسوني حتى لا تصابوا بالجرب!!

ثم تداركت، فلعل بين الحاضرين أحد المخبرين.. تمهل تمهل (قلت في نفسي) لا تتكلم.. ألم تتعلم الدرس؟! فطلبت منهم إحضار الدواء من الصيدلية المناوبة، وعليّ أن أدخل الحمام لاستبدال ملابسي، ووضعه على الجسم بعد الاستحمام(47)، فاستحممت ثم وضعت الدواء، وخرجت فجلست جانباً وطلبت التعرّف على الحاضرين حتى أطمئن لخلو البيت من المخبرين، فعرفت أن الجميع أقاربي، وأدركت أيضاً أن الزمن قد سبقني كثيراً، وتغيرت الدنيا من خلال فترة غيابي في السجن، إذ مات من مات، وولد آخرون، وتزوج غيرهم وهكذا..

إذن لا وجود للغرباء، الجميع متلهفون ليسمعوا مني، وبادرني بعضهم بالأسئلة عن مجزرة سجن تدمر، وعن التعذيب، والأمراض المنتشرة بين السجناء وعمليات الإعدام وغيرها وغيرها.

وباتت جميع أخبار السجن معروفة للجميع، بسبب أخوتنا الذين أفرج عنهم قبلنا، فقلت لهم: إنكم تعرفون كل شيء، محاولاً التملّص من الإجابة، وأمام إلحاحهم الشديد، أخذت أقصّ عليهم ما حصل معنا، الجميع جلسوا مشدوهين، وكلما تعرضت لإحدى المنعطفات المؤلمة، وما أكثرها (حفلة استقبال، تعذيب، إعدام، موت بعض السجناء تحت التعذيب) رأيت الجميع يدعون إلى الله أن ينتقم من الظالمين، وبعضهم يحوقل ويسترجع، وربما راح بعضهم يبكي. حتى أنهيت كلامي، وجاء دور الأسئلة المحرجة: هل التقيت فلاناً من المعتقلين؟ هل صحيح أن فلاناً قد أعدم؟ ماذا أجيبهم؟ إذا كنت متأكداً أن ذلك المعتقل قد انتقل إلى الدار الآخرة؟ هل ألجأ للفّ والدوران (كما يقال) أم أكون صريحاً أم أتملّص من الإجابة؟ ومن يدري فقد تجر عليّ الإجابة كارثة جديدة؟ صحيح أن الجميع من أقاربي، وأنا مطمئن من هذه الناحية، ولكن من يدري أن الجميع يستطيع حفظ لسانه؟!! وأعود فأتذكر ما تعرضت له قائلاً في نفسي: ألم أتعلم من تجربتي؟ أم تراني أكون ممن قال فيهم الشاعر:

من لم تفده عبر الأيام كان العمى أولى به من الهدى

صحيح أنني مطمئن للحاضرين، ولكن ألا تقول القاعدة (يؤتى الحذر من مأمنه) إذاً لا ينبغي الاطمئنان، بل يجب الحذر في جميع الأحوال.

رحت أجيب على الأسئلة بحذر، مع شيء من التورية أحياناً، ومع ذلك، فلقد عزمت أن أقول الحقيقة كاملة، عندما تتهيأ لي الظروف المناسبة، كما حصل مع إخواني الذين أخلي سبيلهم قبلي..

طلبت من الحاضرين ألا يحرجونني بالأسئلة، فإن ما شاهدته وما عانيته يفوق الوصف، كما رجوتهم مراعاة ظروفي، وكأنما كانت كلماتي بمثابة ضوء أخضر لجدتي التي كان الجميع يهابون سطوة لسانها (شأن كل العجائز ببلادنا) فراحت تتكلم بقسوة مع الذين وجهوا إليّ الأسئلة، قائلة لهم: هل تريدون أن يعود ثانية للسجن؟ لماذا تسألونه عن زيد وعبيد؟ ما شأننا بهم؟ دعوه، فهذه أمور لا تعنينا.

وبالطبع أنا لا أؤيدها فيما ذهبت إليه، فكل شأن يعنيني، فأنا لست محايداً بالنسبة لتلك الأمور، ولكني كنت أود الاستفادة مما تعلمته، أي أن أقول ما أريد بقدر وحذر. لقد علمني السجن كيف أتصرف.

وهكذا مرت الأيام الأولى، فالزيارات الكثيرة من الأقارب والمعارف وذوي المعتقلين الذين يريدون معرفة مصير أبنائهم المغيبين في غياهب السجون منذ سنوات، وكم كنت محرجاً عندما أسأل عن أخ قد استشهد، فماذا أقول لأقاربه؟ خاصة إذا كان بين السائلين والدته أو زوجته؟ هل يمكنني قول الحقيقة فتكون الطامة الكبرى؟! طبعاً لا.. كنت أتلافى الإجابة المباشرة بالتورية، وكأن أقول لهم: لم ألتق به، أو لم يكن معي بالمهجع، ورغم ذلك، كنت أقول الحقيقة، عندما تسمح لي الظروف، كأن ألتقي بأحد أقاربه البعيدين، أو معارفه، أو إذا كان السائل رجلاً.

وهكذا قضيت أسبوعين تقريباً، كنت خلالهما مدللاً محمولاً على الأكف كما يقال، وأجريت خلالها العلاج الطبي لبعض الأذيات التي أصبت بها خلال السجن، وإن كان بعضها قد خلقت آفات دائمة، ولكني والحمد لله ما أزال أتمتع بكامل صحتي وقواي العقلية والآن جاء وقت الجد، وعليّ أن أعود لعلمي ثانية، حتى تسنح لي الفرصة بالخروج من السجن الكبير.

وعندما بدأت بالذهاب للعمل، وممارسة حياتي العادية، شعرت أنني في سجن كبير فعلاً، أكثر الأخوة الذين أعرفهم غابوا، إما داخل السجون، أو استشهدوا، أو فروا خارج البلاد، والذين ما زالوا داخلها قد سيطر على أكثرهم الخوف، فهم يحاولون تجنب الاتصال بي، ولو بطريق الصدفة، وكأنهم لا يعرفونني، فأحسست بالعزلة، فكأنني صرت منبوذاً.

المخبرون يحيطون بي من كل جانب، وهذا ما كشفته بنفسي، وعرفه الآخرون أيضاً، وأعلموني به، حيثما أذهب أعاني من هاجس المخابرات، كلما سمعت ضجيج الأبواب أتذكر ساعة اعتقالي، وهنا أذكر ثلاث حوادث جرت لي في تلك الفترة:

الحادثة الأولى: عندما كنت أسير في أحد الشوارع، توقفت عند بقال من معارفي، سلمت عليه، وسألني بضعة أسئلة، ثم طردني قائلاً: تفضل انصرف من هنا، كمن يطرد لصاً، فانصرفت دون معرفة السبب، هل خيل له أن أحد المخبرين يلاحقني؟ أم شاهد شخصاً يشكّ أنه من المخبرين؟ أم فكّر ملياً فعرف خطورة الاتصال بي؟ أم أسباب أخرى؟. ومع ذلك فقد تأثرت كثيراً دون أن أجرؤ على أن أنبس ببنت شفة!!

وحادثة ثانية مشتبهة، جلست عند أحد معارفي في داخل حانوته أحدثه عما حصل معنا، وكان متشوقاً ليسمع مني تلك الأخبار، وبينما هو يحضر لي كوباً من الشاي إذ شاهد فجأة أحد الأشخاص يقترب من محله، فطلب مني الخروج والانصراف بسرعة، فسألته عن السبب، قال لي: إن ذلك الشخص من المخابرات، أرجوك ألا تؤذيني، وأي أذية تلك!! فخرجت من محله وابتعدت.

الحادثة الثالثة: عدت مساءً إلى البيت ذات يوم قافلاً من السوق في حاجة لي، فإذا بي بسيارة السجن المخصصة لنقل السجناء تقف عند مدخل الشارع الذي أسكن فيه، وعلى بعد 30 متراً من بيتنا، قلت في نفسي: أنا المطلوب، لقد جاءت هذه السيارة إلى هنا لاعتقالي، فابتعدت عن البيت، ورحت أراقبها حتى غادر جميع أفراد الدورية المنطقة، وانصرفوا (صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) فدعوت الله أن يصرفهم عني، فلا أراهم بعد اليوم.

وأما عن المخبرين الذين كانوا يتعمدون مقابلتي، والحديث معي، وخاصة بمكان العمل، فحدّث عن ذلك ولا حرج، فلا يكاد يمر يوم واحد دون مقابلة أحدهم، وكل شخص منهم يأتي إلي يحدثني بقصة جديدة.. فهذا يدعي أنه كان بالسجن الفلاني بتهمة كذا وكذا، وأنه قضى هناك عدة أشهر.. وادعى بعضهم أنه قضى بالسجن خمس سنوات، وذاك كان نزيل سجن تدمر في الزنزانة رقم كذا، وآخر كذا وكذا، وبالطبع فقد أصبحت ألاعيب القوم وتمثيلياتهم مكشوفة لي، بل إنني صرت خبيراً بها، فكنت أستمع لأولئك الناس، وأشاركهم الحديث، حتى لا يفهموا أني كشفت أمرهم، وكنت أحترس في الكلام، فلا أتكلم أية كلمة يمكن أن تكون ممسكاً علي.

وصار عليّ أن أحترس بتعاملي مع الناس، وأن أجامل أولئك الأوباش، لئلا يستاء مني أحدهم، فيكتب ضدي تقريراً كاذباً يقودني إلى السجن ثانية، فهم ينتظرون أن يسمعوا مني كلمة، لأنهم حساسون جداً، إذ يكفي أن يذكر اسمي عندهم، ليأمروا باعتقالي، لذلك كنت أدعو الله أن أكون من المنسيين عندهم.

شعرت خلال الشهور الأولى من خروجي أنني أعيش سجناً كبيراً، فعلي أن أزن كل كلمة أو حركة أو سكنة، يضاف إلى ذلك، الهاجس الذي أعاني منه، لكن ذلك لم يمنعني من مزاولة أمور حياتي المعتادة، وزيارة أكثر أقاربي، وبعض معارفي، ناقلاً لهم ما رأيته وعانيته داخل السجن، كما أعلمتهم ما أعرفه عن مصير بعض المعتقلين، ورغم ذلك، فقد كنت مقتنعاً أن ذلك ليس كافياً، فقد أصبحتُ ورقة محترقة، لا أستطيع فعل شيء ذي بال، لخدمة الرسالة التي نذرت نفسي لها، فما الحل؟

لقد نصحني أكثر الذين التقي بهم بمغادرة البلاد، بل وأوضح لي بعضهم طريق الخروج منها، فلا أمان لي بعد اليوم.

لقد تعرفت خلال فترة اعتقالي على العديد ممن أخلي سبيلهم، ثم أعيد اعتقالهم، كما أن الخروج من البلاد قد يتيح للإنسان ظروفاً أفضل، والله تعالى يقول: (ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيرة وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم

يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً) وهكذا أعانني الله على الخروج من السجن الكبير، لأستنشق نسمات الحرية، ونجوت من القوم الكافرين، لقد قالها أحد الأخوة عندما قابلني بعد الإفراج عني، وعندها شعرت أن نجاتي ما زالت منقوصة، فما أزال بين أيديهم، وباستطاعتهم اعتقالي متى شاءوا، أما الآن، فلا سلطان لهم عليّ فالحمد لله الذي نجاني منهم، والحمد لله على نعمة الحرية. (ربِّ بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين).

انتهى.

الملاحق: الملحق الأول
الملحق الأول نص القانون 49 مع محضر اجتماع مجلس المهرجين لإقراره، من كتاب قانون العار 49- طبع دار النذير
أقر مجلس الشعب القانون التالي :
المادة 1- يعتبر مجرما ويعاقب بالإعدام كل منتسب لتنظيم الأخوان المسلمين.
المادة 2-
أ-يعفى من العقوبة الواردة في هذا القانون أو أي قانون آخر، كل منتسب إلى هذه الجماعة، إذا أعلن انسحابه منها خلال شهر واحد من تاريخ نفاذ هذا القانون.
ب- يتم إعلان الانسحاب بموجب تصريح خطي يقدم شخصيا إلى المحافظ أو السفير لمن هم خارج القطر بتاريخ صدور هذا القانون.
المادة 3- تخفض عقوبة الجرائم الجنائية التي ارتكبها المنتسب إلى تنظيم جماعة الأخوان المسلمين، قبل نفاذ هذا القانون تحقيقا لأهداف هذه الجماعة، إذا سلم نفسه خلال شهر واحد من تاريخ نفاذ هذا القانون لمن هم داخل القطر وخلال شهرين لمن هم خارجه وفقا لما يلي :
أ- إذا كان الفعل يوجب الإعدام أو الأشغال المؤبدة أو الاعتقال المؤبد، كانت العقوبة الأشغال الشاقة خمس سنوات على الأكثر.

ب- إذا كان الفعل يؤلف إحدى الجنايات الأخرى كانت العقوبة الحبس من سنة إلى ثلاث سنوات .
المادة 4- يعفى من عقوبة الجرائم الجنوحية المرتكبة قبل نفاذ هذا القانون، تحقيقا لأهداف تنظيم جماعة الأخوان المسلمين كل منتسب إلى هذه الجماعة إذا سلم نفسه خلال شهر واحد من تاريخ هذا القانون لمن هم داخل القطر وخلال شهرين لمن هم خارجه.
المادة 5- لا يستفيد من التخفيض والعفو الواردين في هذا القانون الذين هم قيد التوقيف أو المحاكمة .
المادة 6- ينشر هذا القانون في الجريدة الرسمية ويعمل به من تاريخ صدوره .

رئيس مجلس الشعب
محمود حديد
نص المناقشات التي تمت داخل مجلس الشعب حول القانون (العار)/49/
مجلس الشعب
الدورة العادية التاسعة
الجلسة العشرون
المنعقدة في الساعة السادسة والدقيقة العشرين من مساء يوم الاثنين السابع عشر من شعبان /1400/ والثلاثين من حزيران/1980/
مذكرات مجلس الشعب
أولا: افتتاح الجلسة :
في الساعة السادسة والدقيقة العشرين من مساء يوم الاثنين السابع عشر من شعبان /1400/ والثلاثين من حزيران 1980، اجتمع مجلس الشعب علنا برئاسة رئيسه السيد محمود حديد وعضوية أميني السر السيدين سعيد سليمان وتوفيق النقري وحضور أكثرية الأعضاء .
السلطة التنفيذية :
وقد حضر الجلسة السيد وليد حمدون نائب رئيس مجلس الوزراء لشؤون الخدمات، والسيد عبد القادر قدورة نائب رئيس مجلس الوزراء للشؤون الاقتصادية والسادة : أحمد اسكندر أحمد وزير الإعلام، اللواء ناصر الدين ناصر وزير الداخلية، الدكتور المهندس أحمد عمر يوسف وزير الكهرباء، محمد نجيب السيد أحمد وزير التربية، عبد الكريم عدي وزير شؤون رئاسة الجمهورية، الدكتور

أحمد درقاوي وزير التعليم العالي، محرم طيارة وزير النقل، الدكتور سليم ياسين وزير الدولة لشؤون التخطيط، الدكتور محمد الأطرش وزير الاقتصاد والتجارة الداخلية، نايف طعاني وزير دولة لشؤون مجلس الشعب، الدكتور عبد الجبار ضحاك وزير النفط والثروة المعدنية .

ثانيا: تلاوة أسماء الغائبين والمجازين :

الغائبون السادة :

أحمد عيد الأحمد، إسماعيل اليوسفي، جمعة عبدون، جميل الأسد، حامد حسن رجب، رشيد عيسى، رضا أصفهاني، سعيد السلمان، ضياء الحاج علي، محمد نور عبد المجيد التجار، عبود جدعان ، عصمت غباري، محمد حمدي عرب، محمد هشام، محمد عبد الله العلي، محمد العمادي، مصطفى العايد، نزيه السعيد، نور الدين خضور سيفو، مصطفى الحاج موسى .

المجازون السادة:

البير عبد الله، جمال عبد الله، محمود السعدي، محمود ملوك، موريس صليبي، عبد الرزاق هويدي، علي تلجبيني، فيصل سماق، محمود الجمعة، محمد خربوطلي، حسن ظافر خير الله، محمد فندي أبازيد، خليل محمود خليل، عبده هدلة وزير دولة، فاروق الشرع وزير دولة للشؤون الخارجية، خالد المالكي وزير العدل، المهندس رأفت الكردي وزير المواصلات، الدكتور غضوب الرفاعي وزير الصحة.

الرئيس:

لحضور الأكثرية أعلن افتتاح الجلسة ويتلو أمين السر أسماء الغائبين والمجازين .

مشروع قانون محال من السيد رئيس الجمهورية بتشديد عقوبة الانتساب إلى جماعة الأخوان المسلمين وتخفيض عقوبة من يسلم نفسه من هؤلاء.

السيد رئيس مجلس الشعب

نحيل إليكم مشروع القانون المتضمن تشديد عقوبة الانتساب إلى جماعة الأخوان المسلمين، وتخفيض عقوبة من يسلم نفسه من هؤلاء لعرضه على المجلس .

دمشق في 16/8/1400 هـ و 29/6/1980 م .

رئيس الجمهورية

حافظ الأسد

مشروع القانون
المادة 1- يعتبر مجرما ويعاقب بالإعدام كل منتسب لتنظيم الأخوان المسلمين.
المادة 2
أ-يعفى من العقوبة الواردة في هذا القانون أو أي قانون آخر، كل منتسب إلى هذه الجماعة، إذا أعلن انسحابه منها خلال شهر واحد من تاريخ نفاذ هذا القانون.
ب- يتم إعلان الانسحاب بموجب تصريح خطي يقدم شخصيا إلى المحافظ أو السفير لمن هم خارج القطر بتاريخ صدور هذا القانون.
المادة 3- تخفض عقوبة الجرائم الجنائية التي ارتكبها المنتسب إلى تنظيم جماعة الأخوان المسلمين، قبل نفاذ هذا القانون تحقيقا لأهداف هذه الجماعة، إذا سلم نفسه خلال شهر واحد من تاريخ نفاذ هذا القانون لمن هم داخل القطر وخلال شهرين لمن هم خارجه وفقا لما يلي :
أ-إذا كان الفعل يوجب الإعدام أو الأشغال المؤبدة أو الاعتقال المؤبد، كانت العقوبة الأشغال الشاقة خمس سنوات على الأكثر.
ب-إذا كان الفعل يؤلف إحدى الجنايات الأخرى كانت العقوبة الحبس من سنة إلى ثلاث سنوات .
المادة 4- يعفى من عقوبة الجرائم الجنوحية المرتكبة قبل نفاذ هذا القانون، تحقيقا لأهداف تنظيم جماعة الأخوان المسلمين كل منتسب إلى هذه الجماعة إذا سلم نفسه خلال شهر واحد من تاريخ هذا القانون لمن هم داخل القطر وخلال شهرين لمن هم خارجه.
المادة 5- لا يستفيد من التخفيض والعفو الواردين في هذا القانون الذين هم قيد التوقيف أو المحاكمة .
المادة 6- ينشر هذا القانون في الجريدة الرسمية ويعمل به من تاريخ صدوره .
الرئيس : يحال هذا المشروع بقانون إلى لجنة الشؤون الدستورية والتشريعية، ولدي اقتراح من السيد غازي خضرة يقول فيه : أرجو استعجال النظر في مشروع

القانون الخاص بعصابة الأخوان المسلمين. والكلمة للسيد عبد الله موصلي .

السيد عبد الله موصلي : إن طلب استعجال النظر لهذا المشروع هو في غير محله وذلك للأسباب التي سأبينها : لقد نص النظام الداخلي على أنه يجوز للسلطة التنفيذية أو لأي عضو كان أن يطلب استعجال النظر في أي موضوع يراه مستعجلا، فيحال إلى اللجان المختصة وعلى هذه اللجان أن تبت في هذا الموضوع خلال خمسة أيام، فكما تعلمون سيدي الرئيس فان دورتنا الحالية تنتهي في منتصف هذا الليل أي بعد خمس ساعات ونصف، فكيف يحق للجنة أن تتريث وتنظر في هذا الموضوع في خمسة أيام، هذا من جهة كما يجب أن تقوم اللجنة الدستورية أولا البحث في دستورية أو عدم دستورية هذا المشروع فيحال إلى المجلس وتجري المناقشة بشأنه فإما أن يقر دستوريا أو يرفض دستوريا على ضوء الملاحظات التي ستبديها اللجنة، ثم يحال إلى اللجان المختصة لدراسته موضوعيا، وعلى هذه اللجنة كما أسلفت أن تقدم تقريرها خلال مدة خمسة أيام .

سيدي الرئيس: إن جميع الندوات العالمية التي جرت ولاسيما الندوة الأخيرة العربية التي جرت في القاهرة عام 1976 والتي اشتركت فيها سورية قد طلبت جميعها إلغاء عقوبة الإعدام .

سيدي الرئيس: من هذا المنطلق وحيث أن الدستور قد نص على أن السيادة للقانون، فكيف يمكن أن نعطي سيادة لقانون يقر في ظرف خمس ساعات؟ إن الموضوع خطير جدا أطلب من الأخوة الأعضاء عدم الموافقة على الاستعجال فيه وأن يبحث عن ترو وبإمعان لمعرفة الأسباب الاجتماعية والسياسية والإنسانية والنفسية لإقرار مثل هذه العقوبة، وانسجاما مع المبادئ الأساسية التي حافظت عليها عشرين سنة وأنا في هذه المجالس التشريعية وذلك للحفاظ على النظام والدستور، وسوف أعلن أمام الجميع بأنني لن أحضر جلسة اللجنة الدستورية التي أنا عضو فيها كما أنني لا أناقش في هذا المشروع حال إقرار استعجال النظر فيه وشكرا.

الرئيس: هل من ملاحظة على استعجال جواز النظر؟ (سكوت) إذن الموافقون على استعجال النظر يشيرون

برفع الأيدي (رفعت الأيدي) أكثرية، وأدعو لجنة الشؤون الدستورية والتشريعية للاجتماع فوراً الآن .
الكلمة للسيد هشام الساطي:
السيد هشام الساطي:
أرجو أن يذكر عدد الحضور والعدد الذي صوت مع المشروع تمشيا مع ما قاله الزميل موصلي في الحفاظ على النظام الداخلي ولمعرفة الأكثرية وشكرا.
الرئيس: مرة ثانية، الموافقون على استعجال جواز النظر يشيرون برفع الأيدي(رفعت الأيدي) أرجو من العضو الأستاذ هشام أن يعد معنا وهل هناك أكثرية أم لا..
السيد هشام الساطي: أرجو إعلان العدد الذي افتتحت به الجلسة والعدد المطلوب للتصويت الآن وأن يعلن العدد الذي صوت لكي يكون سجلا في تاريخ هذا المجلس.
الرئيس: إن عدد الحضور هو /130/ عضوا وأرجو الآن من السادة المراقبين عد أصوات الموافقين على الاقتراح باستعجال جواز النظر بمشروع القانون كما أرجو من الأخوة رفع أيديهم لفترة قصيرة لأن المسألة دقيقة جدا (وهنا بدأ أمناء السر بعد أصوات الموافقين على استعجال النظر).
الرئيس: إن العدد المطلوب هو /66/ وعدد المصوتين الآن /68/عضوا، وأدعو لجنة الشؤون الدستورية والتشريعية إلى الاجتماع الآن فورا على أن نتابع نحن جدول أعمالنا، والكلمة للسيد وحيد مصطفى.
السيد وحيد مصطفى: قبل أن ننتقل لمتابعة جدول الأعمال وبعد أن صوت المجلس على استعجال النظر هذا أريد أن أسأل: هل هذا القانون سيحل المشكلة في بلدنا؟
الرئيس: عندما نبدأ بمناقشة المشروع يمكن أن تسأل هذا السؤال والكلمة للسيد هشام الساطي.
السيد هشام الساطي: أرى أن ترفع الجلسة حتى عودة اللجنة وحتى يكون لأعضائها نصيب في المساهمة بالتقارير الواردة ومناقشتها.
الرئيس: لا بأس عندنا أكثرية، ويتلو أمين السر التقرير الأول.

مجلس الشعب
الدورة الاستثنائية الخامسة
الجلسة الثانية
المنعقدة في الساعة السادسة والدقيقة العشرين من مساء يوم الأحد الثالث والعشرين من شعبان 1400هـ والسادس من تموز 1980 م .
أولا : افتتاح الجلسة:
في الساعة السادسة والدقيقة العشرين من مساء الأحد الثالث والعشرين من شعبان 1400 والسادس من تموز 1980 اجتمع مجلس الشعب علنا برئاسة رئيسه السيد محمود حديد وعضوية أميني السر السيدين توفيق النقري ووفيق عرنوس بالإنابة، وحضور أكثرية الأعضاء.
السلطة التنفيذية :
وقد حضر الجلسة الوزراء السادة : نايف طعاني وزير دولة لشؤون مجلس الشعب، المهندس رأفت الكردي وزير المواصلات.
الرئيس : لحضور الأكثرية أعلن افتتاح الجلسة ويتلو السيد أمين السر أسماء الغائبين والمجازين .
ثانيا: تلاوة أسماء الغائبين والمجازين:
الغائبون السادة:
أحمد دشو، حسان جمعة، رئيس فرحان الفياض، رشيد عيسى، شعبان شاهين، ضياء الحاج علي، طريف كيالي، عبد العزيز الملحم، عصمت غباري، علي تلجبيني، فيصل النجرس، ثابت المهايني، محمد حمدي عرب، محمد شيخ إسماعيل، محمد ظافر خير الله، محمد علي الحلبي، محمد العمادي، محمد هشام سيفو، مصطفى العايد.
المجازون السادة :
عبد المعين الفطراوي، محمد ميهوب، نصر اليوسف.
الرئيس: وردني تقرير لجنة الشؤون الدستورية والتشريعية في مشروع القانون المتضمن تشديد عقوبة الانتساب إلى جماعة الأخوان المسلمين، الموافقون على إدراجه في جدول أعمال هذه الجلسة يشيرون برفع اليد(رفعت الأيدي) أكثرية، ويتلو أمين السر هذا التقرير.
السيد رئيس مجلس الشعب
عقدت لجنة الشؤون الدستورية والتشريعية اجتماعا في الساعة العاشرة من صباح يوم الأحد 6/7/1980 برئاسة

رئيسها الدكتور فؤاد ديب وعضوية مقررها السيد علي ملحم وحضور الأعضاء السادة:
إسماعيل اليوسفي، إسماعيل عبد الغني، البير عبد الله، عبد الله الموصلي، بوغوص سراج، جمعة عبدون، سعيد سليمان، الدكتور عارف حمدان، نجم الدين الصالح ، هادي أقبيق، مقطع طويسان، شفيق وهدان، حمدي المحمود.وغياب بقية الأعضاء.
بحثت اللجنة بحضور السيدين وزير العدل والداخلية من الناحية الدستورية في مشروع القانون المتضمن تشديد عقوبة الانتساب إلى جماعة الأخوان المسلمين، وتخفيض عقوبة من يسلم نفسه من هؤلاء.
وبعد الاطلاع على مشروع القانون وأسبابه الموجبة وعلى قرار المجلس الكريم باستعجال النظر في جواز النظر فيه وعلى مضمون مواده مادة مادة. وبعد إجابة السادة الوزراء على كافة تساؤلات السادة الأعضاء قررت اللجنة بالأكثرية جواز النظر فيه لعدم مخالفته لأحكام الدستور.

في حين رأت الأقلية أن المادة (5) من المشروع تخالف المادة (30) من الدستور التي تقول بعدم رجعية القوانين في الأمور الجزائية.
واللجنة إذ ترفع تقريرها لمقامكم ترجو عرضه على المجلس الكريم للموافقة على رأيها، ودمتم باحترام.
مقرر اللجنة رئيس اللجنة
علي ملحم الدكتور فؤاد ديب

الرئيس: سمعتم التقرير وهو مطروح للمناقشة العامة(سكوت) الموافقون عليه يشيرون برفع اليد(رفعت الأيدي) أكثرية. قُبل ويحال إلى لجنتي الشؤون الدستورية والتشريعية والأمن القومي مجتمعين، وقبل أن ترفع الجلسة أدعو لجنتي الشؤون الدستورية والتشريعية والأمن القومي للاجتماع الآن كما أذكر الأخوة الأعضاء باجتماعات اللجان ليوم غد الاثنين حسب الجدول المعلن بانتهاء جدول أعمالنا أرفع الجلسة إلى السادسة من مساء غد الاثنين السابع من تموز 1980 وشكرا.

مجلس الشعب
الدورة الاستثنائية الخامسة
الجلسة الثالثة
المنعقدة في الساعة السادسة والدقيقة الخامسة عشرة من مساء يوم الاثنين الرابع والعشرين من شعبان 1400هـ والسابع من تموز 1980 م .

أولا : افتتاح الجلسة:
في الساعة السادسة والدقيقة الخامسة عشرة من مساء الاثنين الرابع والعشرين من شعبان 1400 والسابع من تموز 1980 اجتمع مجلس الشعب علنا برئاسة رئيسه السيد محمود حديد وعضوية أميني السر السيدين سعيد سليمان وتوفيق النقري وحضور أكثرية الأعضاء.

السلطة التنفيذية :
حضر الجلسة رئيس مجلس الوزراء الدكتور المهندس محمد عبد الرؤوف الكسم، والسيد عبد القادر قدورة نائب رئيس مجلس الوزراء للشؤون الاقتصادية.

والوزراء السادة :
أحمد اسكندر أحمد وزير الإعلام، اللواء ناصر الدين ناصر وزير الداخلية، محمد غباش وزير التموين والتجارة الداخلية، محمد نجيب السيد أحمد وزير التربية، الدكتور أسعد درقاوي وزير التعليم العالي، يوسف جعيداني وزير الشؤون الاجتماعية والعمل، نايف طعاني وزير دولة لشؤون مجلس الشعب، عبد الجبار الضحاك وزير النفط والثروة المعدنية، فاروق الشرع وزير دولة للشؤون الخارجية، الدكتور المهندس نورس الدقر وزير الإسكان والمرافق، ميخائيل نقول وزير دولة، المهندس رأفت الكردي وزير المواصلات، أحمد سليم درويش وزير دولة، نايف جربوع وزير الأشغال العامة والثروة المائية،الدكتور جورج رضوان وزير السياحة.

الرئيس : لحضور الأكثرية أعلن افتتاح الجلسة، ويتلو أمين السر أسماء الغائبين والمجازين.

ثانيا: تلاوة أسماء الغائبين والمجازين:
الغائبون السادة:
إبراهيم حيدر، أسعد حرب، حسان جمعة، رئيس فرحان الفياض، رشيد عيسى، شعبان شاهين، ضياء الحاج علي، طريف الكيالي، عبد العزيز الملحم، عبود حداد، عبد

المجيد الزعيم، عصمت غباري، علي تلجبيني، محمد أبو النور طيارة، محمد ثابت المهايني، محمد حمدي عرب، محمد ظافر خير الله، محمد العمادي، محمد مراد، محمد هشام سيفو، مصطفى شاكوش، مصطفى العايد.
المجازون السادة:
إبراهيم بكاري، عبد المعين فطراوي، محمد ميهوب، نصر اليوسف، مروان حموي.
الرئيس: والآن يتلو عليكم أمين السر خلاصة أعمال الجلسة السابقة.
5-تقرير لجنتي الأمن القومي والشؤون الدستورية والتشريعية حول مشروع القانون المتضمن تشديد عقوبة الانتساب إلى جماعة الأخوان المسلمين وتخفيض عقوبة من يسلم نفسه من هؤلاء.
السيد رئيس مجلس الشعب
عقدت لجنتا الأمن القومي والشؤون الدستورية والتشريعية اجتماعا مشتركا في الساعة السابعة والنصف من مساء يوم الأحد الواقع في 6/7/1980 برئاسة السيد عبد الرزاق أيوب رئيس لجنة الأمن القومي وعضوية المقرر المنتدب السيد جمعة عبدون وحضور الأعضاء السادة:
حسين أبو عمشة، محمد حسن لطوف، جمال عبد الدين، عبد الوهاب الحسن، محمود ناصيف، محمد زاهد استانبولي،محمد حاج أيوب، محمود ملوك، زويع الناصر، جميل الأسد، محمود عجيل، يحيى عرنوس، فؤاد ديب، بوغوص سراج، مقطع طويسان،اسماعيل عبد الغني، حمدي المحمود، شفيق وهدان، عارف حمدان، نجم الدين الصالح، إسماعيل اليوسفي. وغياب بقية الأعضاء بحثت اللجنة المشتركة بحضور السيد وزير العدل في مشروع القانون المتضمن عقوبة الانتساب إلى جماعة الأخوان المسلمين، وتخفيض عقوبة من يسلم نفسه من هؤلاء.
وبعد الاطلاع على مشروع القانون وقرار المجلس الكريم بالموافقة على جواز النظر فيه استمعت اللجنة المشتركة إلى الإيضاحات التي قدمها السيد الوزير موضحا أن هذا المشروع يهدف إلى الرغبة في ترك فرصة أخيرة أمام من تورط في تنظيم جماعة الأخوان

المسلمين إذا أعلن انسحابه منها خلال شهر من تاريخ نفاذ هذا القانون وتخفيض عقوبته أو الإعفاء منها.
وبنتيجة المناقشة المستفيضة بين السيد الوزير والسادة الأعضاء تبين لهم أن الهدف من هذا المشروع هو الميل إلى الرأفة بالمغرر بهم وبخاصة من الذين هم دون سن الرشد وكذلك الذين ندموا على القيام بالأعمال التي تهدد الوحدة الوطنية لقطرنا الذي واجه التحديات المصيرية والذي يقف بصلابة في وجه الهجمة الإمبريالية والصهيونية التي تهدف إلى النيل من مقدسات شعبنا وأمتنا قررت اللجنة الموافقة على مشروع القانون معدلا على الشكل المرفق:
واللجنة إذ ترفع تقريرها لمقامكم ترجو عرضه على المجلس الكريم للموافقة على رأيها مع وافر الاحترام.
المقرر المنتدب رئيس اللجنة المشتركة
جمعة عبدون عبد الرزاق أيوب
الرئيس : سمعتم التقرير وهو مطروح للمناقشة العامة.
والكلمة للسيد محمود كللو.
السيد محمود كللو: سيدي الرئيس. السادة الزملاء.
أرجو أن تسمحوا لي بأن أضع أمام مجلسكم الموقر بعض النقاط:
1-مما لاشك فيه أن القطر العربي السوري يحتل موقع خط المواجهة الأول ضد الإمبريالية والصهيونية والرجعية، وهذا الموقف مستوحى من ضمير الأمة العربية والتي حمل حزبنا حزب البعث العربي الاشتراكي بقيادة الرفيق القائد حافظ الأسد راضيا عبء النضال والتصدي لكل من يحاول مس القضايا العربية تصريحا أو تلميحا.
وفي الوقت الحاضر الذي نشهد فيه سقوط العديد من الأنظمة في المنطقة في مستنقع المخططات الإمبريالية نشهد تصعيد الهجمة الشرسة من جهات مختلفة ومتعددة الأطراف ضد قطرنا، وهذا لم يزد قطرنا العربي السوري إلا إيمانا بمصلحة جماهير الأمة العربية وقضاياها المصيرية.
2- لقد مارست الإمبريالية والصهيونية ومن يسير بفلكها في الوطن العربي وسائل مختلفة ومتعددة للنيل من صمود وشموخ هذا القطر، ولما شعرت باليأس ينتابها لعبت بورقتها الأخيرة فزجت باحتياطها وأدواتها

المأجورة المتمثلة بالرجعية وعصابة الأخوان المسلمين، وراحت الإمبريالية وعملاؤها يغدقون بالعطاء على عصابة الأخوان المسلمين التي أخذت على عاتقها تنفيذ مخططات أسيادها.
لهذا كان من العدل والإنصاف وانسجاما مع كل القيم الدينية والقومية والوطنية والأخلاقية وحفاظا على أمن المواطنين أن ينال عقوبة الموت كل من يقدم أو يصمم أو يخطط لقتل الأبرياء. ولما ثبت بما لا يدع مجالا للشك ضلوع تنظيم جماعة الأخوان المسلمين بالمؤامرة التي تستهدف كل القيم والمثل فقد بات من الضروري إصدار نص تشريعي من مجلسكم الموقر يقضي بإنزال عقوبة الإعدام على كل منتسب لهذه الجماعة لاقتلاع كل الأعشاب الطفيلية الضارة واجتثاث كل البذور الفاسدة من أرضنا الخيرة المعطاء.
إن القيادة التي تسعى لإزالة الخلل الاستراتيجي الذي أحدثه انتقال السادات من الخندق العربي إلى الخندق المعادي وهي بهذا تهيئ كل أسباب القوة ، لهي رحيمة حريصة على ألا يؤخذ مواطن قام بعمل مشوب بعيب من عيوب الإرادة كالتغرير ونقصان الأهلية، ففسحت له المجال ليراجع نفسه ويعود مواطنا شريفا يأخذ دوره في بناء الوطن فيتخلص من وخزات الضمير وينقذ نفسه من شرور وآثام ورطة وقع فيها نتيجة تغرير أو تزيين.
أيها السادة : من أجدر منا نحن ممثلي الشعب من أن نفسح المجال أمام أولئك الذين جنحوا إلى الجريمة ليعودوا إلى رشدهم وصوابهم فينظفوا أنفسهم ويبدلوا وجهتهم من طريق الأجرام إلى طريق الخير وحب الوطن، أرجو الزملاء أعضاء مجلس الشعب الموافقة على مشروع القانون كما ورد من اللجنة وشكرا لإصغائكم.
الرئيس : الكلمة الآن للسيد جمال عبد الدين.
السيد جمال عبد الدين : السيد الرئيس. السادة الزملاء، إنني مع تقرير اللجنة ومشروع القانون وانطلاقا من مسئوليتنا وحرصنا الأكيد على الوقوف في وجه الهجمة الاستعمارية الشرسة التي يتعرض لها قطرنا المناضل فإنني أعلن تأييدي المطلق لهذه الخطوة الجريئة المتمثلة بمشروع القانون الذي نحن بصدده.

سيدي الرئيس، السادة الزملاء:
إنني أعلن أنا وزملائي النواب ممثلي العمال في هذا المجلس تأييدي وتأييد زملائي النواب العمال لمشروع القانون هذا الهادف إلى بتر جذور الخيانة والتخريب من قطرنا وأهيب بكم جميعا إعلان تأييدكم على بقاء قطرنا صخرة صامدة تتكسر عليها حراب الاستعمار والصهيونية والرجعية، وحرصا على وحدتنا الوطنية المتماسكة التي يبذل الأعداء كل جهودهم من أجل تفتيتها والعبث بها ومن أجل متابعة مسيرة الكفاح والتحرير تحت قيادة الرفيق المناضل حافظ الأسد الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي رئيس الجمهورية وشكرا لإصغائكم.
الرئيس : الكلمة الآن للسيد وحيد مصطفى.
السيد وحيد مصطفى: سيدي الرئيس، السادة الزملاء.
بديهي أن شعبنا يجابه في هذه الفترة حالة خطيرة ودقيقة بسبب الهجمة الإمبريالية الأمريكية الصهيونية والرجعية التي تتعرض لها بلادنا لتمرير صفقة كامب ديفيد وإخضاعنا للهيمنة الاستعمارية الأمريكية.
ونحن واثقون بأن شعبنا سيحبط حتما هذه الهجمة العدوانية الشرسة. ومجلسنا الكريم يقف اليوم ليعطي رأيه في تدبير ملموس تقترحه الحكومة من أجل مجابهة النشاط المعادي الذي تقوم به الرجعية الداخلية وقوتها الصدامية حزب الأخوان المسلمين.
واضح لنا – نحن الشيوعيين- أن هذا الحزب الذي يسمي نفسه جماعة الأخوان المسلمين ، يقف تاريخيا في موقف العداء للمصالح الوطنية العليا وللتقدم الاجتماعي وللاشتراكية . ويذكر الجميع أننا خضنا جنبا إلى جنب مع سائر القوى الوطنية والتقدمية معارك سياسية معروفة ضد نشاط هذا الحزب. ومن هنا فمن المشروع جدا ومن الضروري أن يبحث شعبنا وقواه الوطنية والتقدمية والسلطة السياسية ومجلس الشعب التدابير اللازمة لوضع حد لجرائم هذا التنظيم والقوى الرجعية التي تقف وراءه.
إننا نقف إلى جانب تدبير جدي يحقق هذا الهدف ومن أجل ذلك نعطي رأينا في مشروع القانون المقترح منطلقين من شعور عال بالمسؤولية تجاه شعبنا ووطننا.

1- في نص المشروع والأسباب الموجبة نحن نرى بأن يميز القانون بين المنتسب غير المرتكب فيخفف عليه العقوبات وبين المرتكب للجريمة الذي يمكن تشديد العقوبات بحقه.
وأن تكون المحاكم المدنية هي الجهة التي تتولى ذلك وأن تجري للمرتكبين محاكمات علنية لأنها هي التي تقنع الجماهير وتثقفها وتعبئها ضد المجرمين، كما أنها تعطي قوة لبلادنا أمام الرأي العام العربي والعالمي.
ونتساءل : أليس الأفضل الاعتماد على القوانين العادية النافذة؟.
أما إذا كان المقصود بالمشروع فتح المجال للتراجع أمام المضللين والمغرر بهم ولمن يرغبون في التبرؤ والتحرر من النهج الإجرامي الذي يقوم به هذا التنظيم، في هذه الحالة، ليكون من الأفضل أن يأخذ المشروع منحى آخر يوضح ويؤكد الضمانات لهؤلاء ويشجعهم على التخلص من عار الجريمة.
لماذا يستثني المشروع الموقوفين ومن هم قيد المحاكمة من إمكانية العفو وتخفيض الحكم ويسد بذلك الباب أمام من يريد التراجع منهم، وبذلك يعطل كل المفعول الإيجابي الذي يمكن أن توحي به النصوص الأخرى للعفو عن المتراجعين.
ويثير التساؤل النص الوارد في الأسباب الموجبة الذي يشير إلى ضلوع الأخوان المسلمين في تنفيذ مخططات أعداء الأمة العربية دون أن يحدد النص الإمبريالية والصهيونية والرجعية الذين هم تحديدا أعداء الأمة العربية. فمثل هذا النص العام يمكن أن يطلق في أي بلد عربي آخر بما فيها تلك البلاد التي تسودها أنظمة رجعية معروفة.
أيها الزملاء، نحن أمام مشروع قانون لا يعالج جريمة عادية وإنما نهجا إجراميا تخريبيا واسع النطاق، يشكل جزءا أساسيا من مخطط سياسي إمبريالي صهيوني رجعي. ومكافحة مثل هذا المخطط يتطلب معالجة جذرية للعوامل والأسباب التي يستفيد منها العدو لتنفيذ جرائمه وخدمة مخططه.
ومن هنا ألا يجدر بنا أن نتوقف قليلا لمعرفة العوامل الأخرى التي ساعدت على توسيع النشاط الإجرامي التخريبي للجريمة التي دفعت عددا من الطلبة والشباب

والمثقفين للتورط في الأعمال الإجرامية والتخريبية التي تقوم بها الرجعية السوداء؟.
لقد توسعت في السنوات الماضية الأرضية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للرجعية في البلاد، وآن الأوان لضرب هذه الأرضية ولسحب البساط من تحت أقدامها، وشكل النمو الهائل للرأسمالية الطفيلية وانتشار نفوذها بما في ذلك داخل السلطة، واحتلال عدد من ممثليها مقاليد هامة اقتصادية وإدارية في حياة البلاد، شكل مناخا مواتيا للنشاط المعادي الذي تقوم به الرجعية، فمن المعروف أن نمو البرجوازية الطفيلية والبيروقراطية جرى ويجري على حساب قوت الشعب وميزانية الدولة والاقتصاد الوطني وتعمل البرجوازية الطفيلية والبيروقراطية لتحويل القطاع العام بل والاقتصاد الوطني إلى بقرة حلوب لمصالحها الطبقة الرجعية الجشعة.
وقد آن الأوان لوضع حد لجشع هذه الفئات الطبقية الرجعية كذلك وتحرير الاقتصاد الوطني والجماهير الشعبية من تسلطها واستغلالها.
وقد استفادت الرجعية كثيرا في نشر أضاليلها من التضييقات التي كانت تمارس ضد الشيوعيين والتقدميين في المؤسسات والمدارس وبعض الجوانب من الحياة العامة، بينما ظلت الرجعية طوال سنوات تسرح وتمرح وتنشر أضاليلها في أوساط من الطلبة والشباب والمثقفين.
وأصبح الآن من التدابير الضرورية إزالة هذه المؤسسات والأساليب ووقف كل شكل من أشكال التضييق على الوطنيين التقدميين وإشاعة الحريات الديمقراطية للجماهير الشعبية. ومنظماتها وأحزابها الوطنية والتقدمية.
وفي هذا المجال أيضا نرى من الضروري أن تميز مؤسسات السلطة شكل دقيق وحازم بين النشاط المعادي للنظام الذي تقوم به الرجعية وقوتها الصدامية. وبين الآراء الانتقادية والمطلبية التي تصدر من أوساط الجماهير الشعبية أو من القوى الوطنية المعادية للإمبريالية والصهيونية والرجعية. ومن المفيد أن يستمع المسؤولون بانتباه وبصدر رحب إلى هذه الآراء الانتقادية والمطلبية التي تصدر من أوساط

الجماهير الشعبية أومن القوى الوطنية المعادية للإمبريالية والصهيونية والرجعية . ومن المفيد أن يستمع المسؤولون بانتباه وبصدر رحب إلى هذه الآراء وأن يتوجهوا نحو القوى والشخصيات الوطنية بروح إيجابية أخوية بناءة ويتحاوروا معهم للوصول إلى مواقف مشتركة رغم اختلاف وجهات النظر في عدد من القضايا حاليا.

السيد الرئيس.. السادة الزملاء:

إن حصر المعالجة للوضع الخطير الذي نجابهه بالتدابير القمعية المشددة وحدها، دون اتخاذ تدابير اقتصادية واجتماعية وسياسية لمصلحة الجماهير الشعبية والتقدم الاجتماعي، هو توجه وحيد الجانب ولا يحقق الهدف المطلوب في نشر الأمن والاستقرار في البلاد، بل ويمكن أن يؤدي مثل هذا التوجه إلى نتائج سلبية تضر بمصالح الشعب والوطن.

وإذا كان المقصود من إصدار هذا القانون هو القيام بخطوة حاسمة لوضع حد لعمليات الإجرام والتخريب وجو الإرهاب الذي بدأ يتوسع ولإعادة الاطمئنان والاستقرار إلى المواطنين، فهذا أمر إيجابي وينبغي أن تعبر نصوص القانون عن هذه الروح، كما أن ذلك يتطلب أيضا حسب اعتقادنا أن يسبق القانون أو يترافق معه جملة من التدابير الضرورية المتكاملة التي تؤدي إلى وضع حد للغلاء وارتفاع الأسعار وأزمة السكن وغيرها من المشاكل التي تكوي بنارها الجماهير يوميا ونشر الحريات الديمقراطية للعمال والفلاحين والمثقفين ومنظماتهم النقابية وأحزابهم وقواهم الوطنية والتقدمية، وإشاعة الحوار الديمقراطي الأخوي بين كافة القوى والشخصيات الوطنية والتقدمية وإطلاق سراح الموقوفين السياسيين الوطنيين أو إحالتهم إلى محاكم عادلة، وتحقيق المساواة والعدالة للمواطنين، وإزالة مظاهر التمييز بينهم وكذلك مظاهر الفساد والرشوة في دوائر الدولة .

إن بلادنا وشعبنا لهما موقف تاريخي محدد إلى جانب الحرية والديمقراطية وضد أنظمة الإرهاب والديكتاتورية، وهو موقف معروف عربيا ودوليا، وطالما أعطى لسورية مكانة محترمة بين البلدان ولدى الشعوب، ومن المفيد والضروري أن نظهر جميعا أقصى

درجات الحرص على التقاليد والمفاهيم المرتبطة بهذا الموقف المشرف وأن تعزز مكانة بلادنا إلى جانب قوى الحرية والديمقراطية في العالم وشكرا.
الرئيس: الكلمة الآن للسيد تحسين الصفدي.
السيد تحسين الصفدي: سيادة الرئيس، السادة الزملاء: لا يوجد إنسان على وجه الأرض يقر بالجريمة أو يوافق عليها أو ينفذها، لأن مجرد حمله كلمة إنسان أصبح مكلفا شاء أم أبى أن يحافظ على أخيه الإنسان ويرعى ذمته وعهده . إذن نحن جميعا ضد كل الجرائم التي ترتكب في هذا الوطن خاصة وفي العالم أجمع.
نحن مع كل القوانين التي من شأنها الحفاظ على هذا الوطن والحفاظ على هذا الشعب الكريم وكرامته ودينه وجميع معتقداته.
من هذا المنطلق أتأمل هذا القانون الذي هو مطروح أمامنا وأتساءل : هل هذا سيكون الحد الفاصل لما يحصل، هل نستطيع أن نرضي ضميرنا ولا نظلم أحدا عند تطبيق هذا القانون أو نقضي على ما يحدث، هل السادة الذي سيطبقون هذا القانون معصومون عن الأخطاء ؟.
وأضرب مثلا:
أحد أفراد الشعب دعا صديقه لقضاء بعض السهرات لديه وهو يعلم أن ذاك الصديق له صلة بالإخوان ولا علم له بماذا يبحث فلبى الدعوة عدة مرات ولم يبحث شيء أمامه إلا استعراض ما يحدث أو ما يرى.
وفجأة قبض على بعض من كان يجتمع وله بعض المواقف المناوئة لهذا العهد وبعد التحقيق سئل عن الاجتماعات التي كان يحضرها ومن كان يحضر وبعد الضغط أفاد بأسماء جميع من كان يحضر الاجتماعات وأفاد بأنهم جميعا من الأخوان وطبعا يلقى القبض على جميع من كان يحضر الاجتماعات فكيف يستطيع هذا البريء والمغرر به أن يثبت بأنه ليس من الأخوان؟.
وهل ستطبق عليه مادة الإعدام؟.
" دخل جحا مرة بيته مسرعا وقال لزوجته أغلقي الباب دوني، ولما استفسرت عن السبب قال : انهم يمسكون بالحمير، فقالت زوجته: ولكنك لست حمارا فلماذا الخوف؟ فقال لها: حتى يتبين لهم أني لست حمارا سيسلخ جلدي".

سيدي الرئيس، السادة الأعضاء:
أنتم أمام قانون غير كل القوانين فأناشدكم الله وأناشد ضميركم بأن تناقشوا كل مادة مناقشة حكيمة مخلصة لوجه الله وأن تعطوها حقها من الدراسة الكاملة وليعلم كل منكم بأنه المسؤول أمام الله عن كل حرف وكل كلمة تقرونها وتوضع موقع التطبيق فلا يوافق أحدكم على شيء إلا بعد قناعته التامة بأنه أرضى الله وأرضى ضميره وهو راض عنها.
كما أناشد جميع العلماء والمفكرين والعاملين في حقل السياسة والوجهاء ورجال الفعاليات الفكرية والاقتصادية ورجال الأحياء ليعاهدوا الله على السعي للوصول للطريق السليم ومناقشة الوضع الحاضر وتشخيص المرض الذي نحن فيه وإيجاد الدواء بالحكمة المخلصة. إن شعبنا طيب مؤمن لذلك عندما نجد من يستطيع دراسة أوضاعه وإيجاد الحل لها والسير جميعا لخدمة هذا الوطن والحفاظ على ترابه الغالي والحفاظ على دم الأبرياء والحد من الفوضى والسعي لتطبيق سيادة القانون على الجميع. فأنا مقتنع كل القناعة عندما نتعاهد جميعا للوقوف صفا واحدا ضد عدو يريد بنا شرا وعندما يأخذ كل فرد ممن ذكرتهم دوره في المعالجة والإصلاح لا من الزاوية التي ينظر إليها حسب رأيه فقط، بل من كل الزوايا التي تخص هذا الوطن عند ذلك سنرى بأن الشعب كله مواطن واحد مخلص يضحي بكل غال ورخيص في سبيل وطنه وأمته.
إذن المسؤولية لحماية هذا الوطن والوقوف في وجه كل من يريد الأذى له هي أمانة بعنق كل من يستطيع المساهمة ولو بكلمة طيبة في سبيل تحقيق الوحدة الوطنية وصياغة الحقوق لكافة أفراد الشعب والوقوف صفا واحدا متراصا في وجه كل أعداء هذا الوطن وشكرا لإصغائكم.
الرئيس: الكلمة الآن للسيد محمد جمعة تفتنازي.
السيد محمد جمعة تفتنازي: إن عقوبة الإعدام في رأيي تكون لمجرم أقدم على قتل عالم أو طبيب أو عسكري ناجح أو أي مواطن وهي أقل بقليل مما يستحق هذا المجرم. في كل بلدان العالم يحافظون على علمائهم وعلى خبراتهم وعلى مواطنيهم، ونحن في بلدنا ومنذ أكثر من خمس سنوات ونحن نعاني من عمليات إرهابية

مجرمة تقوم بها عصابات ما يسمى بالإخوان المسلمين، لم يتعود هذا البلد على مثل هذه العمليات الجرمية إذ لهذه العمليات خلفيات تهدد وحدتنا الوطنية وتستهدف فئة محددة من مواطنينا وكان الاستعمار وراء التخطيط لها بغية تفتيت هذا الشعب، الشعب الذي أحب حافظ الأسد، الشعب الذي أحب الحركة التصحيحية الشعب الذي استقبل حافظ الأسد وحمله وصحبه على الراحات ليس لأنه رئيس الجمهورية، فقد توالى على هذا القطر عدد كبير من رؤساء الجمهوريات ولم يلاقوا ما لاقاه حافظ الأسد بل لأنه رئيس أحب الشعب فأحبه شعبه واحترم المواطن علنا وصان له كرامته وحريته كما جاء في الدستور، فبادله المواطن هذا الحب بحب وهذا التقدير بالتقدير،لقد أرادت الإمبريالية والصهيونية ومن وراءها تفتيت هذا الحب وإبعاد هذا القائد عن شعبه فلجئوا إلى المضللين من عملائهم وأوكلوا لهم مهمات غايتها تفتيت وحدتنا الوطنية وتفتيت هذا القطر، نحن كل ما نرجوه بأن لا يستغرب أحد ورود عقوبة الإعدام في هذا القانون لأنها وردت في مجال قوانين سبق وأن أقرت في هذا المجلس فالمجرمون يجب أن يعدموا، ولكن المجرمون فقط، ويجب أن نسلك طريق تحديد المجرمين ومن هم المجرمون فنقدم على إعدامهم ويجب أن نتثبت من صحة ما يقال عنهم، أي أنهم منتسبون إلى تنظيم الأخوان المسلمين، وحتى لا يدخل في عداد هذه الجماعة أبرياء بسبب وشاية من واش، وكل ما نرجوه أن تلجأ الحكومة عند التطبيق إلى أسلوب التدقيق في معرفة هوية المنتسبين إلى الأخوان المسلمين، لأنه كما نرى ومن خلال عمليات عصبية سقط بعض الأبرياء، لذلك نرجو أن نكون جميعا مع مشروع هذا القانون وأن نلفت نظر وزارة العدل وكل الحكومة والقيادة السياسية إلى ضرورة الحرص على التدقيق في معرفة هوية الأخوان المسلمين وشكرا.

الرئيس: هل من متكلم آخر(سكوت) الموافقون على الانتقال لمناقشة مواد المشروع مادة مادة يشيرون برفع اليد (رفعت الأيدي) أكثرية، ويتلو عليكم أمين السر المادة الأولى.

المادة 1- يعتبر مجرما ويعاقب بالإعدام كل منتسب لتنظيم جماعة الأخوان المسلمين.

الرئيس: سمعتم المادة هل لأحد من ملاحظات عليها (سكوت) الموافقون عليها يشيرون برفع اليد (رفعت الأيدي) أكثرية، قُبلت.

المادة 2

أ-يعفى من العقوبة الواردة في هذا القانون أو أي قانون آخر، كل منتسب إلى هذه الجماعة، إذا أعلن انسحابه منها خلال شهر واحد من تاريخ نفاذ هذا القانون.

ب- يتم إعلان الانسحاب بموجب تصريح خطي يقدم شخصيا إلى المحافظ أو السفير لمن هم خارج القطر بتاريخ صدور هذا القانون.

الرئيس: سمعتم المادة هل لأحد من رأي فيها (سكوت) الموافقون عليها يشيرون برفع اليد (رفعت الأيدي) أكثرية، قُبلت.

المادة 3- تخفض عقوبة الجرائم الجنائية التي ارتكبها المنتسب إلى تنظيم جماعة الأخوان المسلمين، قبل نفاذ هذا القانون تحقيقا لأهداف هذه الجماعة، إذا سلم نفسه خلال شهر واحد من تاريخ نفاذ هذا القانون لمن هم داخل القطر وخلال شهرين لمن هم خارجه وفقا لما يأتي :

أ- إذا كان الفعل يوجب الإعدام أو الأشغال المؤبدة أو الاعتقال المؤبد، كانت العقوبة الأشغال الشاقة خمس سنوات على الأكثر.

ب- إذا كان الفعل يؤلف إحدى الجنايات الأخرى كانت العقوبة الحبس من سنة إلى ثلاث سنوات .

الرئيس: سمعتم المادة فهل من ملاحظة بشأنها (سكوت) الموافقون عليها يشيرون برفع اليد (رفعت الأيدي) أكثرية، قُبلت.

المادة 4- يعفى من عقوبة الجرائم الجنوحية المرتكبة قبل نفاذ هذا القانون، تحقيقا لأهداف تنظيم جماعة الأخوان المسلمين، كل منتسب إلى هذه الجماعة إذا سلم نفسه خلال شهر واحد من تاريخ هذا القانون لمن هم داخل القطر وخلال شهرين لمن هم خارجه.

الرئيس: سمعتم المادة فهل من رأي حولها (سكوت) الموافقون عليها يشيرون برفع اليد (رفعت الأيدي) أكثرية، قُبلت.

المادة 5- لا يستفيد من التخفيض والعفو الواردين في هذا القانون الذين هم قيد التوقيف أو المحاكمة .
الرئيس سمعتم المادة؟ الكلمة للسيد نجم الدين الصالح.
السيد نجم الدين الصالح: أحب أن أسأل الحكومة عن هؤلاء الموقوفين، فهل تطبق عليهم أحكام هذا القانون أم أحكام القوانين السابقة لهذا القانون وشكرا.
الرئيس: الكلمة للسيد وزير الداخلية.
وزير الداخلية اللواء ناصر الدين ناصر: السيد الرئيس تطبق القوانين السابقة النافذة وشكرا.
الرئيس: هل من ملاحظة أخرى(سكوت) الموافقون على المادة الخامسة يشيرون برفع اليد(رفعت الأيدي) أكثرية. قُبلت . وننتقل إلى المادة السادسة يتلوها أمين السر.
المادة 6- ينشر هذا القانون في الجريدة الرسمية ويعمل به من تاريخ صدوره .
الرئيس: هل من ملاحظة على مادة النشر؟ (سكوت) الموافقون عليها يشيرون برفع اليد (رفعت الأيدي) أكثرية، قُبلت. والآن الموافقون على مجمل مواد مشروع القانون... وردني اقتراح من السيد جميل الأسد يقول بإضافة مادة إلى القانون تنص على مصادرة الأموال المنقولة وغير المنقولة لكل منتسب لحزب الأخوان المسلمين.
نحن نعاقب المجرمين ولا نعاقب أولادهم. والآن الموافقون على مجمل مواد مشروع القانون يشيرون برفع اليد(رفعت الأيدي) أكثرية. قُبل المشروع وأصبح قانونا.
الرئيس: الكلمة للسيد مقرر اللجنة.
مقرر اللجنة السيد جمعة عبدون: السيد الرئيس أخذت المادة الخامسة منا دراسة في اللجنة الدستورية، وكانت هناك تساؤلات حول شبهة هذه المادة، وكنت أحد الذين تحفظ على هذا النص، ومن مجمل ما تحدث به السيد وزير الداخلية والسيد وزير العدل أن القانون قد استهدف حوارا مفتوحا لكل الناس المضللين وأعطاهم فرصة للرجوع عن غيهم وذلك بمنحهم العفو أو التخفيض. وقد وجدت أن هذا العفو والتخفيض هو أشمل مما ورد في هذا القانون العام بنص المادة رقم / 243/ من قانون العقوبات العام، كما أنني أجد أيضا أن

نص القانون العام فيما يتعلق بالأسباب المخففة التقديرية والأعذار القانونية ينطبق أيضا على هذا القانون الخاص، لأن نص المادة/243/ تخفض عقوبة الإعدام حتى /12/سنة، أما فيما يتعلق بمن هو قيد التوقيف أو المحاكمة وكذلك التساؤل الذي أثاره نجم الدين الصالح أو غيره من الزملاء فقد وجد بنص المادة التاسعة من قانون العقوبات العام التي تفيد في فقرته الأولى بما يلي: كل قانون جديد يقضي بعقوبات أشد لا يطبق على الجرائم المقترفة قبل نفاذه. أي أن القانون الأرحم هو الذي يطبق وبالتالي فان هذا النص دستوري، والقوانين النافذة قبل ارتكاب الجريمة هي التي ستطبق. هذا ما أردت توضيحه وشكرا لإصغائكم.

إحداث المحاكم الميدانية

المرسوم التشريعي رقم /109/

تاريخ 17/8/1968

رئيس الدولة

بناء على أحكام القيادة القطرية المؤقتة لحزب البعث العربي الاشتراكي رقم 2 تاريخ 25/2/1966 وعلى قرار مجلس الوزراء رقم 109 تاريخ 14/8/1968

يرسم ما يلي

مادة 1- تحدث محكمة أو أكثر تسمى محكمة الميدان العسكرية.

تتولى هذه المحكمة النظر في الجرائم الداخلة في اختصاص المحاكم العسكرية، والمرتكبة زمن الحرب أو خلال العمليات الحربية التي يقرر وزير الدفاع إحالتها إليها.

يسري اختصاص هذه المحكمة اعتبارا من 5/6/1967.

مادة 2- يقصد في هذا المرسوم التشريعي ما يلي:

أ- زمن الحرب: هو المدة التي تقع فيها اشتباكات مسلحة بين الجمهورية العربية السورية وبين العدو ويحدد بدؤها وانتهائها بمرسوم.

ب- العمليات الحربية : الأعمال والحركات التي يقوم بها الجيش أو بعض وحداته في الحرب أو عند وقوع اصطدام مسلح مع العدو .

مادة 3- تؤلف المحكمة بقرار من وزير الدفاع من رئيس وعضوين. ولا تقل رتبة الرئيس عن رائد كما لا تقل رتبة كل من العضوين عن نقيب ، ولا يجوز محاكمة أحد ضباط

القوات المسلحة أمام محكمة يكون رئيسها أدنى منه رتبة.
مادة 4-
أ- يقوم بوظائف النيابة العامة لدى المحكمة قاض أو أكثر من النيابة العامة العسكرية تجري تسميتهم بقرار من وزير الدفاع.
ب- تتمتع النيابة العامة لدى المحكمة بجميع السلطات والصلاحيات الممنوحة للنائب العام وقاضي التحقيق العسكريين .
ت- تصدر قرارات النيابة العامة قطعية لا تقبل أي طريق من طرق الطعن.
مادة 5- يجوز للمحكمة أن تتقيد بالأصول والإجراءات المنصوص عليها في التشريعات النافذة .
مادة 6- تطبق المحكمة العقوبات المقررة قانونا ولا تقبل الأحكام التي تصدرها أي طريق من طرق الطعن.
مادة رقم 7- لا تنفذ أحكام محكمة الميدان العسكرية إلا بعد التصديق عليها من السلطة المختصة، وتنفذ وفقا للتشريعات المرعية.
مادة 8-
أ- تخضع أحكام الإعدام لتصديق رئيس الدولة، أما باقي الأحكام فيجري تصديقها من وزير الدفاع.
ب- لرئيس الدولة ووزير الدفاع كل بحسب اختصاصه أن يخفف العقوبة أو يستبدل بها عقوبة أخرى، أو يلغيها كلها مع حفظ الدعوى. ويكون لحفظ الدعوى مفعول العفو العام كما يجوز له أن يأمر بإعادة المحاكمة أمام محكمة ميدان عسكرية أخرى، ويجب أن يصدر القرار في هذه الحالة معللا، فإذا صدر الحكم في المحاكمة الثانية بالبراءة وجب التصديق عليه في جميع الأحوال، وينفذ فورا.
ت- لوزير الدفاع ضمن اختصاصه أن يوقف تنفيذ العقوبة المقضي بها، وفي هذه الحالة تطبق قواعد وقف تنفيذ الأحكام المنصوص عليها في قانون العقوبات العام.
ث- لرئيس الدولة أو وزير الدفاع كل بحسب اختصاصه بعد التصديق على الأحكام بالإدانة أن يمارس الصلاحيات المنصوص عليها في الفقرتين السابقتين.

مادة 9- ينشر هذا المرسوم التشريعي في الجريدة الرسمية .
دمشق في 23/5/1388و 17/8/1968
رئيس الدولة
الدكتور نور الدين الأتاسي

الملحق الثاني
الملحق الثاني بعض مجرمي مجزرة تدمرمع اعترافات بعضهم من كتاب تدمر المجزرة المستمرة - طبع دار النذير.
أ-بعض مجرمي مجزرة تدمر من المخططين والمنفذين وكلهم من طائفة واحدة هي الطائفة (العلوية).
1- المجرم حافظ أسد – رئيس الدولة .
2- المجرم رفعت أسد – قائد سرايا الدفاع .
3- المجرم المقدم فيصل غانم- مدير سجن تدمر.
4- المجرم المقدم علي ديب- قائد اللواء 138 من سرايا الدفاع – محافظة اللاذقية.
5- المجرم الرائد معين ناصيف- قائد اللواء 40 من سرايا الدفاع.
6- المجرم المقدم سليمان مصطفى- قائد أركان اللواء 138 من سرايا الدفاع- محافظة اللاذقية.
7- المجرم الملازم أول ياسر باكير – من اللواء 40 من سرايا الدفاع- محافظة حماة.
8- المجرم الملازم منير درويش- من اللواء 40 من سرايا الدفاع – محافظة اللاذقية .
9- المجرم الملازم رئيف عبد الله – من اللواء 40 من سرايا الدفاع- محافظة اللاذقية.
10- المجرم الرقيب محمد عمار- من حراسة منزل معين ناصيف- محافظة اللاذقية.
11- المجرم الرقيب علي موسى- من اللواء 40 من سرايا الدفاع- محافظة حمص.
12- المجرم الرقيب همام أحمد – من اللواء 40 من سرايا الدفاع- جبلة.
13- المجرم الرقيب نزيه بلول – من اللواء 40 من سرايا الدفاع- محافظة حمص.
14- المجرم الرقيب طلال محي الدين أحمد- من اللواء 40 من سرايا الدفاع - محافظة اللاذقية.

15- المجرم الرقيب عيسى ابراهيم الفياض- من حراسة منزل معين ناصيف- محافظة اللاذقية.
16- المجرم الرقيب بدر منصور- من اللواء 40 من سرايا الدفاع- منطقة جبلة.
17- المجرم العريف أكرم بيشاني- من حراسة منزل معين ناصيف- محافظة طرطوس.
18- المجرم العريف ابراهيم يونس- من اللواء 40 من سرايا الدفاع- محافظة حمص.
19- المجرم العريف ابراهيم مكنا- من اللواء 40 من سرايا الدفاع- منطقة جبلة.
20- المجرم العريف طاهر زباري- من اللواء 40 من سرايا الدفاع- محافظة اللاذقية.
21- المجرم العريف علي صالحة- من اللواء 40 من سرايا الدفاع- منطقة مصياف.
22- المجرم العريف عبد الرحمن هدلان- من اللواء 40 من سرايا الدفاع.
23- المجرم العريف ناصر عبد اللطيف- من اللواء 40 من سرايا الدفاع- محافظة طرطوس.
24- المجرم العريف غسان شحادة- من اللواء 40 من سرايا الدفاع- محافظة اللاذقية.
25- المجرم العريف حسين عيسى، من اللواء 40 من سرايا الدفاع – محافظة حمص.
26- المجرم العريف بشير قلو – من اللواء 40 من سرايا الدفاع- محافظة حمص.
المطلوب من المجتمع الدولي معاملة هؤلاء الأشخاص كمجرمين دوليين.
وفيما يلي النص الحرفي لاعتراف بعض المجرمين الذين اشتركوا في مجزرة تدمر الكبرى.

ب-اعترافات المشتركين في مجزرة تدمر
إفادة المجرم عيسى إبراهيم فياض:
س: ممكن تقدم نفسك؟
ج: عيسى إبراهيم حامد فياض، بلدتي قويقة تابعة لمحافظة اللاذقية، تاريخ الولادة 1960. أعزب، علوي، والدي إبراهيم حامد فياض، مزارع، والدتي جميلة صقر مربية بيت، ثقافتي الحادي عشر، درست بالقرية، بقرية

قويقة حتى الثالث الإعدادي، والتحقت بقرية عين العروس، مدرسة ثانوية، تابعة لمحافظة اللاذقية.
تركت المدرسة، اشتغلت مع أبي، مزارع عادي لمدة سنة، والتحقت بسرايا الدفاع في 10 /3 /1979 وأنا الآن رقيب بسرايا الدفاع رقمي 956982.
س: سيد عيسى وضّح لنا خدمتك العسكرية بشيء من التفصيل.
ج: التحقت بسرايا الدفاع بمعسكر اسمه القابون / كدورة أغرار ظلت دورة الأغرار شي 45 يوم والتحقت بدورة ثانية بنفس المعسكر دورة صاعقة استمرت حوالي ثلاثة أشهر وأكثر وانتقلنا من معسكر القابون لمعسكر يعقوب الواقع في دمشق، كدورة قتال عادي للكتيبة لدورة يعني كتيبة مشاة هنيك تدربنا على السلاح على بارودة كلاشن، رشاش، قاذف قنابل، رمي قنابل، وتدريبات عادية ككل التدريبات. أي كتيبة مشاة استمرت هالدورة حوالي ثلاثة أشهر رجعنا لمعسكر قابون وهنيك عملنا مظلات حوالي 25 يوم لثلاثين يوم بعدها التحقت باللواء أربعين اللي قائده الرائد معين ناصيف زوج بنت العقيد رفعت أسد، (تماضر الأسد) علوي من محافظة اللاذقية واستمريت على هالشي يعني تدريب عادي في الكتيبة 302 بنفس اللواء مشاة حتى تم التحاقي بحراسة منزل الرائد معين ناصيف اللي هو قائد اللواء، عدد مجموعة الحراسة كان 25 عنصر مسؤول عنا الرقيب أول صلاح إبراهيم - علوي وهو وجميع عناصر الحراسة علويين.
س: عيسى.. إيش المهمات اللي كلفت فيها أثناء خدمتك بسرايا الدفاع؟
ج: كلفت في مهمتين:
س: إيش المهمة الأولى؟
ج: المهمة الأولى مهمة سجن تدمر في 26 / 6 /1980 تعرض سيادة الرئيس حافظ الأسد لمحاولة اغتيال فجر اليوم الثاني 27 / 6 /1980 فيقونا الساعة الثالثة بالليل الصبح وقالوا لنا: اجتماع في لباس الميدان الكامل مع الأسلحة. واجتمعنا بالساحة وأخذونا إلى سينما في اللواء /40/ وهناك كان منتظرنا الرائد معين ناصيف قائد اللواء ألقى فينا كلمة.. قال هدول العرصات الإخوان المسلمين ما عم بفرقوا بين مسلم علوي ومسلم سني

ومسيحي عم بقتلوا في الشعب وامبارح حاولوا اغتيال الرئيس. لذلك اليوم راح تقوموا بهجوم على أكبر وكر لهم وهو سجن تدمر. قال مين ما بده يقاتل؟ ما حدا رفع إيده، الآمر العسكري قال لنا اطلعوا بالسيارات، طلعنا بالسيارات مجموعة قدرها 82 واحد تقريباً ووصلنا لمطار المزة القديم وكان في انتظارنا مجموعة من اللواء 138 أحد ألوية سرايا الدفاع اللي قائده المقدم علي ديب –علوي- من اللاذقية وكان موجود في انتظارنا عشر طائرات هليكوبتر. طلعنا بالطائرات بقيادة قائد أركان اللواء 138 المقدم سليمان مصطفى –علوي- وكان معنا ضباط الملازم أول ياسر باكير – علوي- من حماة والملازم منير درويش –علوي- والملازم رئيف عبد الله – علوي – يعني الثلاثة هذول من لواء أربعين. طلعنا بالطائرات اتجاه تدمر ووصلنا حوالي الساعة ستة ونصف الصبح بنفس اليوم وهناك نزلنا من الطائرات وفرقونا إلى مجموعتين مجموعة اقتحام ومجموعة ظلت بالمطار. المجموعة اللي راحت على السجن إجت سيارة دوج تراك يعني ونقلتنا للسجن. بالسجن توزعنا لمجموعات حوالي شي ست مجموعات وأكثر يعني كانت مجموعتي أنا حوالي أحد عشر واحد يعني المجموع الكلي اللي تحرك للسجن حوالي ستين واحد هيك شي مجموعتي كانت بقيادة الملازم منير درويش وفتحوا لنا باب المهجع يعني الباب بتاع المهجع اللي دخلنا حوالي ستة لحد السبعة قتلنا اللي فيه كان مجموع اللي فيه حوالي ستين واحد ..سبعين واحد سمعت أنا أنه فيه قتيل أخذ بارودة من زميلي من السرايا اسمه إسكندر أحمد رقيب رحت أنا لعنده وشفته وإلا واحد بناديلي قلت له شو بدك قال أعطيني مخزن قلت له ليش قال لي في واحد لسه ما مات بدنا نموته قلت له أعطيني بارودتك بما أنا أعطيت بارودتي لزميلي بارودته كانت خربانه. أخذت بارودته ورشيته يعني كان مجموع اللي رشيتهم حوالي 15 واحد. ومجموع اللي قتلوا في السجن من الإخوان المسلمين كان حوالي 550 واحد والمجموع اللي قتلوا منا السرايا كان واحد واثنين جرحى طلعنا عاد صار كل واحد منّا يغسل ايديه ورجليه ..في كانوا ملطخين بالدماء وكان معنا الملازم رئيف عبد الله. لمّا طلعنا سألوه للملازم

رئيف عبد الله ليش كنت تفرق المساجين هيك كل واحد لوحده. قال امبارح كانوا يقتلوا إخوانا في حلب بكلية المدفعية.
س: كيف كان يفرق بين المساجين؟
ج: يعني اللي ما مات يموته.
س: يتفقد فيهم؟
ج: أ آه، قلت في كمان ضابط أطلق نار على واحد ما قتل قال له تعال نكّفي عليه ما قتلت واحد من عصابة الإخوان المسلمين. فطلعنا بسيارة واحدة ونقلتنا للمطار وكان في انتظارنا المجموعة التي ظلت بالمطار وطيارات الهليكوبتر.
س: كم استغرقت المهمة هذه؟
ج: استغرقت حوالي نص ساعة. كان في دوي قنابل وصيحات الله أكبر وطلعنا بالطائرات واتجهنا باتجاه الشام لمطار المزة القديم ومن هنيك مجموعة اللواء 138 اللي تابعة لسرايا الدفاع طلعت على لوائها ومجموعتنا لواء 40 طلعت على لوائها كان بانتظارنا الرائد معين ناصيف قائد اللواء قال لنا شكرنا على جهودنا وعزانا بوفاة زميلنا وقال لنا كل واحد يلتحق بعمله فالتحقنا بعملنا.
س: أنت بينت لنا إيش كان دورك، ما بينت لنا أدوار زملائك اللي اشتركوا في العملية هذه؟
ج: مثلاً في محمد عمار قتل اللي قتل إسكندر أحمد هذا الرقيب اللي قتل معنا خلصوه البارودة قتلوه وقالوا لي أنه رش كمان في المهجع نفسه. محمد عمار بحراسة منزل الرائد معين ناصيف - علوي- إبراهيم مؤنس - علوي - عريف مجند من منطقة مصياف وكمان قال لي رشيت ما بعرف شو رش بس قال لي انه رشيت.
س: ما حدد عدد معين من اللي رشهم؟
ج: أبداً ما قال لي في إبراهيم مكنا كان مع الملازم رئيف عبد الله. إبراهيم مكنا علوي عريف مجند من منطقة جبلة محافظة اللاذقية كان يفرد مع الملازم رئيف عبد الله المساجين.
س: وين ذكروا لك هذا الشي عن أدوارهم؟
ج: إبراهيم مكنا أنا شفته، شفته مع الملازم رئيف عبد الله في السجن . إبراهيم يونس حكى لي بالسكن. كنت

نازل أنا وياه عالبلد حكى لي. محمد عمار قال إنه أنا قتلته.
س: طيب لما رجعتم من السجن جرى أي توجيه لكم أمر؟
ج: الرائد معين قال إنه ما لازم يعني تطلع هالعملية خارج منا يعني لازم تظل مكتومة وسرية.
س: بالنسبة لسجن تدمر كيف كان جو السجن قبل قيامكم بهذه العملية؟
ج- كان هادئ ما في أصوات ما في شيء بعدين طلعت الأمور مرتبة قبل دخولنا يعني ما حدا اعترضنا بالدخول الشرطة كانت حرس واقفة في جماعة حرس على الباب ورئيس حرس وفي شرطة بالساحة. أخذوا التفقد قبل العملية تفقد للمساجين.
س: تفقد للمساجين؟
ج: قبل بدء العملية.
س: طيب رقيب عيسى بالنسبة لزملائك في سرايا الدفاع في حد منهم كلف في مهمات أخرى؟
ج: والله بعرف بمفرزتي مفرزة الرائد معين ناصيف لحراسة منزله اللي رافقوا السيد عبد الحليم خدام وزير الخارجية. علي موسى رقيب.
س: وين رافقه؟
ج: رافقه على عمان على مؤتمر القمة العربي.. بعرف علي موسى رقيب من حمص علوي بعرف همام أحمد رقيب من منطقة جبلة، بدر منصور رقيب من منطقة جبلة علوي، وعلي صالحة عريف من منطقة مصياف علوي، عبد الرحمن هدلان علوي عريف، نزيه بلول عريف علوي، بشير قلو وعلي موسى شاركوا في عملية تدمر.
س: شاركوا في عملية تدمر ورافقوا السيد عبد الحليم خدام لعمان؟
ج: نعم.. وفي علي صالحة وطاهر زباري راحوا بمهمة سرية لروما وإسبانيا.
إفادة المجرم أكرم بيشاني
س: ممكن تقدم نفسك؟
ج: أنا أكرم علي جميل بيشاني من محافظة طرطوس قرية يحمور مواليد سنة 1962 أعزب شهادتي الصف السادس الابتدائي علوي. اسم والدي علي جميل

بيشاني علوي. اسم أمي حليمة يعقوب والاثنين حالياً بقيموا في قرية يحمور.
س: إيش عملك يا أكرم؟
ج: حالياً عريف في سرايا الدفاع.
س: شو خدمتك العسكرية؟
ج: في 23 / 3 / 1979 التحقت في صفوف سرايا الدفاع ونقلت إلى معسكر التدريب وهو معسكر القابون في دمشق. وهناك التحقنا في دورتين الأولى وهي دورة لغة والثانية دورة الصاعقة ومن بعدها نقلت إلى كتيبة مدفعية رقمها 149 من لواء 40 تابع للواء 40 سرايا الدفاع بالضبط هيك في شهر 5 سنة 1980 نقلت ضمن مجموعة الحراسة لمفرزة حراسة بيت الرائد معين ناصيف والمجموعة هاي حوالي 25 عنصر.
س : إيش مركزه الرائد معين ناصيف؟
ج: قائد، هوه معين ناصيف قائد لواء 40 من سرايا الدفاع علوي من قضاء اللاذقية وتزوج ابنة العقيد رفعت الأسد، تماضر الأسد، والعقيد رفعت الأسد شقيق الرئيس حافظ الأسد وقائد سرايا الدفاع.
س: إيش المهمات اللي كلفت للقيام بها أثناء خدمتك في سرايا الدفاع؟
ج: كلفت في مهمتين الأولى هي مهاجمة سجن تدمر والمهمة الثانية في داخل الأردن.
س: إيش المهمة الأولى؟
ج: المهمة الأولى هي مهاجمة سجن تدمر حيث إنه بعد محاولة اغتيال الرئيس حافظ الأسد بالشهر السادس السنة الماضية أيقظونا بعد بيوم يعني حثونا من المهجع حوالي الساعة الثالثة والنصف صباحاً وقالوا لنا اجتماع بالسينما في قاعة السينما الموجودة في اللواء مع فيه السلاح الميداني الكامل وطلعنا وصلنا على السينما بلشت المجموعات تتوافد اللي قادنا بالسينما كان عدد المجموعة حوالي المجموعة الموجودة في السينما من اللواء 40 حوالي 100 عنصر مع ثلاث ضباط وبعدين اجا قائد اللواء اجتمع فينا وألقى كلمة. بعد الكلمة قال هوه أنه الإخوان المسلمين قتلوا ضباط قتلوا المشايخ قتلوا الأطباء وبالنهاية حاولوا اغتيال الرئيس حافظ الأسد وهلأ بدنا نكلفكوا بأول مهمة قتالية وطلعنا بعدين من اللواء 40 بسيارات وصلتنا إلى مطار المزة. كان موجود

هناك بالمطار هناك مجموعة من اللواء 138 يقدر عددها بحوالي 100 عنصر واللواء 138 قائده المقدم على ديب علوي قضاء اللاذقية.
هناك كمان كان موجود (9) طائرات هليكوبتر، جمعونا هناك على شكل مجموعات وكل مجموعة سلمها ضابط وطلعونا على الطائرات الموجودة هناك وكانت كل طائرة تسع لحوالي 24 عنصر. وطلعنا من مطار المزة كان قائد العملية هناك يعني اللي هو قائد أركانه للمقدم على ذيب علوي من قضاء اللاذقية بس ما بعرف شو اسمه أقلعنا إلى مطار تدمر هناك يعني أقلعنا حوالي الساعة الخامسة وصلنا حوالي الساعة السادسة أو السادسة وعشر دقائق. جمعونا هناك وطلب قائد العملية المقدم اجتماع للضباط، جمع الضباط وقال لهم أعطوا العناصر استراحة حوالي ثلاثة أرباع الساعة وبعد الاستراحة ثلاثة أرباع الساعة قسمونا على شكل مجموعات فاللواء 40 كان على شكل ثلاث مجموعات وكل مجموعة استلمها ضابط وأخذوا ينتقوا العناصر اللي بدها تدخل إلى سجن تدمر بشكل عشوائي مثلاً الواحد بيعرف اسمه بيقول له فلان انته تعالى أو ما بيعرف اسمه يأشر له بإيده أنه تعال. انتقوا حوالي 80 عنصر كذلك حوالي كمان انتقوا 20 عنصر لحراسة الطائرات والباقي خلوهم على شكل احتياط في المطار. بعدين توجهت العناصر اللي انتقوهم يطلعوا حوالي 80 عنصر هذا اللي بدهم ينفذوا العملية داخل السجن توجهوا على شكل مجموعات بسيارة نقلتهم إلى داخل السجن بعد ثلاثة أرباع الساعة من دخولهم إلى باب السجن الخارجي بدأنا نسمع صوت إطلاق نار دوي انفجار صوت قنابل، يقدر عدد القنابل بحوالي 7 قنابل تفجرت هناك. ودام إطلاق النار حوالي ثلاثة أرباع الساعة كمان بعد طلع العناصر من السجن مثل ما دخلوا طلعوا على شكل مجموعات.
س: انته كنت مع أي مجموعة؟
ج: أنا كنت مع مجموعة الاحتياط ياللي ظلت هناك في المطار، بقى لما طلعوا العناصر من السجن كان فيه بعض الناس ملطخين بالدماء، ملطخين ثيابهم بالدماء، بعرف أسماء ياللي تلطخوا ثيابهم بالدماء هوه الملازم

رئيف عبد الله، الملازم منير درويش، الرقيب علي محمد موسى وطلعنا كل واحد على الطائرة.
س: من اللواء 40 وإلا؟
ج: لا.. من اللواء 40 هدول، طلعنا بعدين على الطائرات مثل ما اجينا ورجعنا إلى مطار المزة وصلنا إلى مطار المزة حوالي الساعة الثانية عشرة الظهر. كان منصاب معنا واحد والشي اللي خلاني أعرف أنه انصاب معنا واحد فيه الملازم ياسر باكير من اللواء 40 قال وجه كلامه لكافة العناصر أنه قائد اللواء بده يجتمع فينا هلأ في السينما إذا سأل عن الإنسان ياللي انصاب قولوا له أنه طلقة مرتدة ضربت في الحائط ورجعت عليه بعدين انصاب. قلنا له ماشي الحال. وطلعنا بالسيارات واتجهنا اتجاه اللواء 40 واجتمعنا في قاعة السينما.
س: جميعكو اتجهتوا مع بعض انتو وأفراد اللواء 138 وإلا 40 لوحده؟
ج: اللواء 40 لحاله وهذولاك راحوا على المعسكر تبعهم فاللواء 40 ناس يعني ياللي اشتركوا من اللواء 40 اجتمعوا في السينما واجا قائد اللواء ألقى فيهم كلمة شكر.
س: اللي هوه الرائد معين ناصيف؟
ج: الرائد معين ناصيف ألقى فيهم كلمة شكر بذكر منها أنه: انتو قمتوا هلأ بعمل بطولة بعمل رجولة مع العلم أنه لأول مرة بنكلفكوا بهيك مهمة.. بعدين طلعنا من قاعة السينما وأخذ يعني كل إنسان يتحدث مع زميله فالتقيت أنا مع أحد زملائي هناك وهو الرقيب علي محمد موسى من مفرزة حراسة الرائد معين ناصيف سألته لأنه هو من الجماعة ياللي دخلوا على السجن نفسه انه اشلون هناك تمت العملية.. قال لي إنه قسمونا على شكل مجموعات، وكانت كل مجموعة حوالي 8 عناصر وكل مجموعة تسلمها ضابط كانوا يفوتوا يعني -حسب ما قال لي- كانوا يفوتوا إلى الغرفة ياللي فيها السجناء يفتحوا الباب ويطخوهم مباشرة بدون سؤال بدون أي كلام. فقلت له طيب هذولاك ما كانوا يستنجدوا. قال كانوا يستنجدوا ويقولوا الله أكبر كانوا يقولوا لنا منشان الله.. منشان محمد.. مشان أمك.. مشان أختك ما تقتلنا. قال لي إنه ما كانوا يستمعوا لها لحكي هاي نهائياً.

وطخّوهم بعدين طلعوا قلت له طيب قديش تقدر عدد القتلى ياللي داخل السجن من السجناء. قال لي عدد القتلى يطلعوا 500 أو 600 قتيل من السجناء هذول ياللي في السجن وفي اليوم الثاني وزعوا لكل الناس هاللي اشتركوا لكل الزملاء ياللي اشتركوا بالمهمة كل واحد 200 ليرة سوري.

س: مين تعرف من اللي اشتركوا بهالعملية؟

ج: بعرف العريف ناصر عبد اللطيف من قضاء طرطوس أو اللاذقية ما بعرف بالضبط علوي بعرف العريف غسان شحادة من قضاء اللاذقية علوي بعرف الرقيب علي محمد موسى من قضاء حمص اللاذقية بعرف العريف طاهر زيادي من قضاء اللاذقية علوي والرقيب طلال محي الدين أحمد علوي من اللاذقية والرقيب نزيه بلول علوي من قضاء حمص والعريف حسين عيسى علوي من قضاء حمص والرقيب همام أحمد علوي من اللاذقية. هذول هنه الناس اللي بعرفهم من اللي اشتركوا.

س: من تعرف من الضباط اللي اشتركوا؟

ج: هم الملازم رئيف عبد الله من كتيبة المشاة التابعة للواء 40 سرايا الدفاع قضاء اللاذقية علوي، والملازم منير درويش كمان من كتيبة المشاة تابع للواء 40 سرايا الدفاع قضاء اللاذقية علوي، والملازم أول ياسر باكير من اللواء 40 كمان علوي من قضاء حماة.

س: انته يا أكرم كشاب في بداية شبابك شو اللي ورطك في هيك مهمات وليش اخترت سرايا الدفاع؟

ج: أولاً في أقول أنه الشي اللي خلاني أختار سرايا الدفاع هوه سوء حالتي المادية والرواتب اللي يتقاضاها جنود سرايا الدفاع أعلى من الرواتب في أي قطعة من قطعات الجيش الثانية، حيث إنه جندي في سرايا الدفاع يتقاضى حوالي 1200 ليرة سوري، أما أي جندي في بقية قطعات الجيش يتقاضى حوالي 500 ليرة أو 600 ليرة سوري أما بالنسبة لورطتي في هذه العملية إنه بستطيع أن أقول أنهم استغلوا ظروفي كإنسان حالتي المادية سيئة وأغروني بالفلوس واستغلوا صغر سني كما استغلوا كوني عسكري مأمور وما في أرفض هيك أوامر.

س: بالنسبة للضباط تعرف شي يعني من تميزهم عن الضباط الآخرين يعني ضباط السرايا سرايا الدفاع يتميزوا بشي عن ضباط آخرين في الجيش السوري؟
ج: والله ما بعرف عن الضباط ككل بس بعرف عن الضابط اللي أنا عنده موجود.
س: اللي هوه؟
ج: الرائد معين ناصيف موجود عنده حوالي 8 سيارات يعني.
س: خاصة فيه؟
ج: خاصة فيه، وحالته المادية كويسة يعني.
س: كيف عايش هذا الضابط اللي انته تقوم بحراسته؟
ج: عايش إنسان مرفه يعني بشكل.
من إفادة المجرم طه الخالدي
س: مجزرة تدمر
ج: بسيارة أبو شلحة وخلال رجعتنا للشام دار حديث بين الاثنين هذول اللي جبناهم من الفندق ماجد أبو شلحة ودار حديث بيننا عن الأوضاع الداخلية والمشاكل اللي بسوريا حول قال واحد منهم يمكن اذكر إنه اسمه عبد المنعم قال إنه اشتركت في إحدى المجازر وهي مجزرة تدمر فحدث علي فقال 8 طائرات ركبنا هليكوبتر حملونا فيهم ونزلنا بقرب سجن تدمر ودخلنا على المساجين وقتلناهم كلهم.. روّحناهم كلهم بعد ما قتلوا المساجين سولف عبد المنعم كان أخوه رفيقه هذا أو زميله يآزره في الحكي في الحديث فأسأله قديش كان العدد سأله ماجد أبو شلحة فقال له فوق الـ 700 قتيل بعد أن اجت تركّات جرافات بسيارات قلاب شالوا الجثث وشالوها إلى وادي شرق تدمر دفنوها هناك ووصلنا الشام.

الهوامش (1) الغمامة وتسمى بفروع المخابرات الطماشة وهي المستعلمة لتغطية العيون.
(2) كان المجرمون يخافون أن يعرف المعتقلون أسماءهم لذلك طلبوا من زبانيتهم عدم ذكر الأسماء والألقاب والرتب العسكرية للاحتياط.
(3) الآدمية: الإنسانية والعقل والمنطق.
(4) تصطفل: كلمة عامية تستعمل ببلاد الشام تعني افعل ما تريد. أنت وشأنك، وهذا شأنك.

(5) أي عندما كنت خارج السجن قبل الاعتقال.
(6) رئيس فرع المخابرات العسكرية بحمص حتى عام 1983 وأصبح رئيساً للمخابرات السورية في لبنان بعد ذلك.
(7) وليس بالضرورة أن يكون مواجهة مسلحة فكلمة الحق في وجوه الطغاة تعتبر من أعظم الجهاد كما ورد في الحديث الشريف.
(8) وهذه القاعدة غير صحيحة إذا كان المعتقل شخصية مرموقة بالعمل الإسلامي، عندها يجب الأخذ بالعزائم لأن الترخيص يترتب عليه ضرر معنوي كبير بالدعوة الإسلامية لا مكان لسلامة الفرد ونجاته أمامها، وقد ضرب بعد الدعاة المجاهدين أمثلة يقتدى بها من عصرنا الحاضر كالشهيدين سيد قطب ومروان حديد رحمهما الله، وكذلك الأمر بالنسبة للشيخ أحمد ياسين الذي أصر على الاعتراف بالتهم الموجهة له والتي تعني إصراره على الجهاد لإزالة الكيان اليهودي الدخيل من أرضنا المقدسة لإدراكه التام لما يترتب على الاعتراف بما يرضي قتلة الأنبياء من أضرار.
(9) وهكذا قدم القرامطة الجدد خدمة مجانية لأعداء الأمة بقتلهم علماء الأمة.
(10) وما لبنان ببعيد.
(11) هكذا فعل هولاكو ببغداد.
(12) وهكذا نرى أن الخلافات بين أزلام النظام حول أجدى الطرق وأنفعها لبقاء النظام.
(13) عقد مؤتمر المذكور في الفترة الواقعة بين 22/12/1979، وحتى 6/1/1980.
(14) الحمد لله لقد شاهد رفعت أسد مصير الشيوعية التي ثبت أركانها ستالين ولكن الطغاة لا يتعظون. وصدق الله العظيم حيث يقول واصفاً حالهم: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } (الأعراف: 179). وقال أيضاً: "أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور" (الحج: 46).

(15) تتعلق شدة الإشاعة بعاملين هما: الأهمية والغموض، وهذان العاملان متوفران فالخبر في غاية الأهمية بل انه يتعلق بقضية مصيرية إضافة للغموض الذي يحيط بالمعتقلين منذ اللحظة الأولى لاعتقالهم كما شرحنا سابقاً.
(16) وكنت من الذين اعتبرهم ذووهم في عداد الشهداء لأنني اعتقلت قبل المجزرة.
(17) الكتب والمصاحف والراديو موجودة في سجن المزة، لأن المعتقلين هناك من الإسلاميين وغيرهم محكومون في المحاكم الميدانية والاستثنائية، وقد أمضوا سنوات طويلة في هذا السجن، أما في السجون والمعتقلات المخصصة للإسلاميين، فليس فيها كتب ولا أجهزة راديو ولا أقلام ولا دفاتر.
(18) الكلمة مأخوذة من الفرنسية.
(19) إن معظم مهاجع السجن التي بناها الفرنسيون فيه من آثار الاستعمار الفرنسي البغيض في بلادنا وقد بني فيما بعد المهاجع 32- 33- 34 في الباحة السادسة أما أثناء فترة اعتقالنا فاستحدث الظالمون الباحة السابعة مع مهاجع أخرى، وهكذا ازدهرت عملية بناء السجن في عهد القرامطة الجدد.
(20) هكذا يسميها الجلادون وهي مخصصة لتجميع العناصر الذين سيقومون بأعمال الحراسة طوال النهار.
(21) وهو نصراني آشوري من منطقة القامشلي وبذلك تلاقى الحقد النصيري مع اللؤم الصليبي.
(22) وظاوظ تعني فراخ الطيور والعصافير الصغيرة.
(23) يعني لحذائي تحقيراً.
(24) قد يصاب القارئ بالدهشة عندما يقرأ عن أدوات التعذيب إذ لا وجود للكثير منها ولكن السجن المذكور ليس مركزاً للتحقيق وبالتالي يجب ألا توجد به أدوات التعذيب أصلاً.
(25) كل إناء بما فيه ينضح.
(26) العدد الحقيقي للجيش في تلك الأيام أكثر من أربعمائة ألف يضاف إليه توابع الجيش من مخابرات وشرطة وتدريب جامعي وجيش شعبي وميليشيات حزبية وسرايا دفاع ومعتقلين.. وغيرها.

(27) وبعض السجناء كان يحمل إصابات لطلقات نارية حيث التقط من الشوارع بعد المجازر التي ارتكبها المجرمون وأرسل إلى السجن دون معالجة شافية.
(28) لم يكن طبيب السجن وقتها من النصيريين.
(29) من مدينة دمشق وعائلته مشهورة بالعلم والتقوى، وله كتاب عن التداوي بالعسل كما كتب كتاباً آخر أثناء وجوده بفرع المخابرات العامة بدمشق لكن المجرمين صادروا المخطوط عند دخوله سجن تدمر، أخلي سبيله في نهاية عام 1991 بعد أن قضى قرابة الإثني عشر عاماً بالسجن.
(30) أي ما يعادل ثمانية آلاف دولار في ذلك الوقت (بداية عقد الثمانينات).
(31) مع 50% من ذوي المعتقلين الذين حصلوا على إذن بالزيارة لأن الباقين يفشلون بمقابلة أبنائهم للأسباب التي شرحناها.
(32) كالأدلة المادية الملموسة.
(33) الجهاز القضائي يسمى في كثير من دول العالم: جهاز العدالة ويتبع في وزارة العدل.
(34) لقد صرح بعضهم أكثر من مرة بأنه يخجل من نفسه كرجل دولة.
(35) حيث يستطيع أي فرع من فروع المخابرات اعتقال أي شخص من المدن الأخرى، وذلك بأن يرسل في طلبه من نفس شعب المخابرات في تلك المحافظة، ليقوموا باعتقاله وإرساله إلى الفرع الذي طلبه.
(36) إذ يكفي أن يقول الكاتب للجلادين هذا دكتور دون ذكر تهمته ليشبعوه ضرباً وإهانة.
(37) أي سترون العقوبة.
(38) وعرفهم المعتقلون من ملابسهم العسكرية المميزة (المموهة).
(39) وهي مجموعة من ضباط المخابرات والجيش وسرايا الدفاع.
(40) ويجمع المحكومون بالإعدام بزنزانات منفردة قبل تنفيذ الحكم بعدة أيام.
(41) ما عدا الذين تمكنوا من الحصول على جوازات بعد دفع رشاوى خيالية.

(42) لا مانع من ذلك فقد أثبت تخطيط الدماغ أن الأحلام تستمر فترة قصيرة جداً.
(43) وعلى كل أخ قدر الله له النجاة أن يكتب ما يعرفه حتى تكتمل الصورة ويؤرخ لهذه الفترة العصيبة.
(44) أي عندك بيت ثمنه خمسة ملايين ليرة وأنت لا تستحقه.
(45) في نهاية عام 1991 أخلي سبيل مجموعة كبيرة من المعتقلين بلغ عددهم 2864 شخصاً فكانت أكبر دفعة من المعتقلين يفرج عنها خلال هذه الفترة العصيبة من تاريخ بلدنا.
(46) وقد حصل مع بعض إخواننا الذين أعيدوا للسجن، بل أن أحدهم أعيد بعد أسبوع من إخلاء سبيله، وبعضهم أعيد اعتقاله في نفس اليوم الذي أفرجوا عنه.
(47) من عادة بلدنا أن يعالج الصيدلي بخبرته الكثير من الأمراض.

[الشهادة الحادية عشر]

بقلم السجين سابقاً : حسن الهويدي[1] – بعنوان " تدمر في الذاكرة "[2]

<u>الثمن الباهظ</u>

مرتان رأى فيهما العالم مشهداً مهيباً، مرة عندما عاد الخميني منتصراً إلى وطنه ومرة عندما رحل إلى جوار ربه، ولكن عندما ألقى بظلاله في سجن تدمر لم يشهده إلا السجناء ..

في السادس من حزيران 1989 شهد سجن تدمر مشهداً متميزاً من مشاهد التعذيب التي وصلت إلى ذروتها، ففي صباح اليوم التالي وعلى غير العادة سمعنا في الإذاعة الداخلية للسجن صوت قارئ القرآن يتلو من آيات الذكر الحكيم ما تيسر له!!، دهشنا بهذا ولكننا لا نعلم شيئا مما يحصل خارج تلك الأسوار ساد السجنَ السكونُ والهدوء وتأخر طعام الإفطار بالمجيء، ترقّب حذر وخوف من المجهول، بعض السجناء ترتعش أطرافهم، والبعض الآخر أصابته حالة من الهستيريا،

---

1 **حسن الهويدي - معتقل سياسي سوري سابق .**

2 **هذه الشهادة منقولة من موقع "أخبار الشرق" على شبكة الإنترنت .**

وآخرون يعقدون جلسات في داخل المهجع لتقيم الأوضاع: ماذا يجري في الخارج وما المصير الذي سنلقاه؟؟

ولكن وبعد برهة من الزمن متزامنةً مع صمتنا علمنا عندما كان احد الحراس يتكلم مع أحدهم في الجهة المقابلة له من الطرف الآخر، (الخميني في ذمة الله مترحما عليه)، باتت الصورة تتضح لنا داخل المهجع ومن عادة السجناء التقاط الكلمات التي تصدر أحياناً من بعض العناصر المحددين الذين يحاولون إيصال بعض الرسائل،

مرت دورية راجلة على سطح المهجع وأمرونا بالانبطاح .. بقينا على هذه الحالة حوالي ساعة وبعدها سمعنا رئيس المهجع ينادي على الجميع الخروج إلى الباحة وبدون استثناء (والاستثناء للذين لهم علاقات وشاية لإدارة السجن) خرجنا جميعا إلى أرض الباحة وكانت حرارة الشمس مرتفعة جداً، أمرونا بالانبطاح أرضاً وأيدينا خلف ظهورنا, القضبان المعدنية تصدر صوت رنين عندما اصطدمت بالأرض والدواليب المطاطية والعصي والكابلات الفولاذية، صاح أحدهم من أعلى السطح الجميع تابع الزحف، زحفنا وكل منا يحاول أن يضع رأسه تحت قدمي الذي أمامه خوفا من الضرب الذي أنهال علينا كالمطر والقضبان المعدنية تقع على ظهورنا كأنها الصواعق والشيء الذي فاجئنا هو رمي الصخور والقرميد (البلوك) علينا من أعلى سطح المهجع، لم نعد نعلم من أين نتلقى الضربات سقط العديد منا بحالة إغماء نتيجة الضرب العشوائي وسقوط البلوك والحجارة من الأعلى على رؤوسنا، والذين فقدوا الوعي جلدوهم حتى تفجّرت أقدامهم؛ اختلطت الدماء بالتراب وحاصرونا في زواية ضيقة وبقينا على هذا والضرب بنا من كل ناحية.

دخلنا إلى المهجع ولا ندري متى دخلنا وكيف أدخلنا الذين كانوا بحالة غيبوبة، المسؤول الصحي رأسه مشوه ويداه متورمتان لا يستطيع معالجة نفسه حتى، الجميع من حولي لا يستطيعون الحركة، الكل يئن ويتألم.

لم يكن من السهل التعرف إلى ملامح أي من السجناء نتيجة التشوهات؛ ضمدت جراح البعض منهم وبمساعدة الذين يستطيعون ان يقوموا بحركة بسيطة.

وفي الطرف الآخر سجين في أرض المهجع يئن ويتألم ثيابه ممزقة تماما، نظرت اليه رأيت على ظهره كتلة تشبه البالون كلما تنفس تعلو وتهبط، وعندما تحسن وضع المسؤول الصحي فحصه وتبين من خلال الفحص بأن رئتة ممزقه ويحتاج إلى عملية جراحية اسعافية وإلا فقد حياته.

طبعا هذا غير متاح في (سجن تدمر) ونقله إلى خارج السجن من المستحيلات أما إذا تكرمت إدارة السجن بإرسال أحد السجناء المرضى إلى المشفى وهذا لا يحدث الا مصادفة كل سنة أو سنتين واحد من الألف؛ فما علينا إلا أن نفكر بطريقة قد تنقذ حياته فقام المسؤول الصحي بربط قطعة قماش ولفها حول صدر وظهر المريض لعدة مرات.

وأما من كسرت يده أو ساقه فتبرع بعض السجناء بحصتهم من الخبز وإعادة عجنها مرة ثانيه مع قطع من الثياب المهترئه ومن ثم لفها حول الساق أو اليد المكسورة للمرضى.

في المساء وحوالي الساعة الواحدة ليلا قدمت دورية من على سطح المهجع وطلبوا من الحارس الليلي أن ينادي على رئيس المهجع وطلبوا منه أن يجمع جميع السجناء في دورات المياه عراة ويمنعوا من النوم حتى الصباح، وهكذا بقي حالنا ولمدة خمسة عشر يوماً التعذيب في الليل والنهار وقلة النوم وطعام أقل من القليل، وسجن تدمر يتأثر مباشرة بأي حدث أو حتى عَرَضٍ سياسي داخليا كان أم خارجيا وخاصة الحرب العراقية الإيرانية حيث دفع سجناء تدمر ثمناً باهظا خلالها فكلما اشتدت المعارك على تلك الجبهة أشتد التعذيب داخل السجن، التعذيب في سجن تدمر مبرمج وممنهج وكل حركة فيه مدروسة وحتى الضرب العشوائي مدروس بطرق فنية ومنها الضرب على الرئة والكلية والمعدة والرأس وذلك في أغلب الأحيان يؤدي إلى النزيف الداخلي ومن يشفى ويكتب له عمرا جديداً فما عليه الا إن يستعد ليوم جديد ومن يرحل فرحيله رحمة من رحلة العذاب.

هكذا تسير الأمور .. ما مرت علينا ولو لحظة واحدة من الأمان حتى نشعر بها أو نعيشها في الذاكرة، فالموت والحياة عدوان لنا وفاتورة السجن باهظة الثمن والكل

يدفعها حتى أولئك الذين يحاولون التقرب من إدارة السجن (الاستثناء) عندما تصل الأمور إلى هذا الحد يدفعون الثمن أيضاً
نحزن كثيراً على الذين يفارقوننا
نحسدهم أحيانا
لولا حبنا للحياة والحرية المفقودة.

العيد في سجن تدمر

لم أستغرب ما فعله الأمريكان في "أبو غريب"
كثيراً ما يخطر ببالي أن ما مضى من العمر يكاد أن يساوي ما بقي منه، إذا لم تنته الحياة انتهاء طبيعياً، وأن العمر الذي عشته خارج دائرة الزمن بدأ في صبيحة الثامن من آذار من عام 1988عندما قيدوا أرجلنا وأيدينا بسلاسل من حديد، وعصبوا أعيننا، ووضعونا في سراديب تحت الأرض بحالة استعداد للرحيل إلى المجهول. وفي ذات الوقت كنا نسمع صراخ الذين يُعذبون تحت التحقيق، حيث تزكم المكان رائحة الدماء والعفن. وصلت الأوامر للذين يحيطون بنا من رجالات الأمن بالتحرك، وساقونا كالقطيع لا ندري إلى أين، فكل ما استطعت أن أفسره أننا في باحة كبيرة وأصوات الهتافات بعيد الثورة تنطلق منها، إنها الأصوات نفسها التي كانت بالأمس تهين إنسانيتنا وكرامتنا بالسب والشتم علينا وعلى نسائنا وأمهاتنا وأخواتنا. وفي تلك الأثناء تابعنا المسير لخطوات تجاوزت أمتاراً قليلة، ثم جاءتنا الأوامر بالصعود إلى الحافلات، فهمت من ذلك أننا سنغادر المكان. صعدنا مقيدين مكبلين معصوبي الأعين، ولكن وقبل انطلاق الحافلات هددونا بإطلاق النار إن نحن أتينا بأية حركة في داخل الحافلة أثناء مسيرها. ومرت الساعات أياماً وسنين طوالاً، واللكم و"الرفس" والشتم والضرب بأخمص البنادق ينهالُ علينا طوال الطريق الذي لم ترتسم معالمه بعد؛ فإلى أي عالم سنذهب، وفي أي وادٍ ستكون قبورنا؟؟
- أماه سامحيني وادعِ الله لي بأن يحميني لقد حملتِ هماً كبيراً، هم الفراق الذي لا تعلمين ولا أعلم نهايته. وسمعت أحد العناصر المرافقين يسأل زميله عن ساعة الوصول، فردّ عليه قائلاً: بعد عشرة دقائق، ها نحن

نستعد للوصول هذه محطتنا الأخيرة، قلتها في سريرتي التي تناجي أمي، فإذا بأحدهم يزمجر بصوت عال: هذه تدمر، وما أدراك ما تدمر الداخل مفقود والخارج مولود وهذا اليوم مشهود.

وصلنا وأوقفت الحافلات محركاتها المزمجرة وتوقفت معها عجلة الزمن، كثرت الأصوات من حولنا، وفكّوا قيودنا، وفتحت عيني ونظرت من حولي إلى المكان، فإذا بشمس آذار الدافئة يفوح منها عبق الصحراء. وفي الطرف الآخر قريباً من بوابة صغيرة عدد لا بأس به من عناصر الشرطة العسكرية قد يتجاوز الأربعين شرطياً مقسمين إلى مجموعات، يحملون العصيّ والكابلات الفولاذية وقضبان معدنية يتراوح قطرها (2 انش).

صدرت إلينا الأوامر بالنزول من الحافلات والاصطفاف رتلاً خماسياً - هذا حالنا نفعل ذلك كلما انتقلنا من مركز اعتقال لآخر - لاحظت شخصاً في الأربعينات من عمره يرتدي بزة عسكريه يرتديها عادة الضباط وضباط الصف، تقدم نحونا برفقة عدد من الجنود وبيده سيجارة تبغ من النوع الفاخر، ضخم الجثة أسمر اللون صوته أبح أشار بإصبعه لأحد مرافقيه: "عدّهم"، وبدأ بالعد وانتهى: سِيْدِيْ عددهم (96)، فرد عليه قائلاً: هذا جيد باشروا بأخذ الإجراء اللازم - لكن لم ألاحظ أي رتبة عسكرية على كتف أحد منهم- واقترب إلينا شاب وبرفقته عدد من الجنود أيضاً وباشر بإعطاء الأوامر لنا بالتحرك خلفه دون أي فعل مخالف للأوامر الصادرة منه، وبدأنا بالمسير إلى أن وصلنا بوابة متوسطة الحجم ودخلنا إلى باحة ليست كبيرة والجنود الذين يحملون العصي وغيرها هم أيضاً برفقتنا، وضعونا في زاوية وطلبوا منا الجلوس على الأرض دون أي حركة أو التفاتة أو النظر إليهم حتى، أعطوا كل واحد منا رقماً دون ذكر اسمه، وبدأنا بالدخول كل فردٍ منا على حدة إلى غرفة صغيرة فيها بعض الرفوف المعدنية والأوراق والمصنفات ومدفئة، تسيل منها مادة المازوت على الأرض، وطاولة معدنية فوقها لوحة خشبية مكتوباً عليها قلم الموقع، وعسكري يجلس خلفها شعره أشيب يوجه بعض الأسئلة كنوع التهمة، وعندما ينتهي من الأسئلة ينادي على أحدهم "بلدية .. خذْ هَالكلب" - ويعرف "البلدية" بأنه شخص بلا أخلاق، كان يخدم في الجيش متطوعاً أو مجنداً، وفرّ منه

لعدة مرات أو قام بجريمة قتل أو اغتصاب وحُكم عليه حكماً قاسياً - وهذا يتم اختيار للخدمة في السجن السياسي، إذ يتمتع بصلاحيات واسعة فيما يخص التعذيب ومساعدة الشرطة في ذلك.
يمسك بنا من شعر الرأس، ثم يمضي مسرعاً باتجاه باب صغير مثبت على جدار عال وطويل ويدفعنا بقوة لداخله، وعندما ندخل من هذا الباب إلى باحة كبيرة مربعة الشكل تحيط بها غرف كبيرة ذات جدران عالية وأبواب ونوافذ صغيرة لا تتناسب مع حجم البناء، والعشرات من العناصر المدججين بالعصي والكابلات الفولاذية، صاح بنا أحدهم وهو من عناصر الشرطة يحمل بيده قضيباً معدنيا طوله حوالي 2 متر وقطره 2 إنش، أهلاً بكم في الباحة الأولى - مخاطباً إيانا- في هذه الباحة سوف نأتي ببناتكم وأخواتكم وزوجاتكم ونجعل البلدية يفعلون بهن العجب وأمام أعينكم يا أولاد (..) يا أولاد (..) يا أبناء (..) يا خونه سنعلق رقابكم على أعواد المشانق قريباً جداً إن شاء الله. وصاح بنا ثانية: الكل إلى الزواية رَمَلاً. لا ندري كيف وصلنا الزاوية، وهل هي الزاوية التي يعنيها، وصاح مرة ثالثة: منبطحاً على الأرض يا أولاد الـ (..)، انبطحنا أرضاً والعمر دائب في المسير لا يلوي على شي والثواني كأنها ساعات، غاضت الينابيع أمامنا، وتراجع اليم، وقد زلزلت الأرض تحتنا، وتداعت الجبال على رؤوسنا، نصرخ صراخاً تبكي له النائحات بكاء فوق بكاء، نصرخ طالبين السماء، فيذهب صوتنا بدداً، حيث تمطر علينا السماء العصي والكابلات الفولاذية والحديد والنار و"الأبواط" العسكرية ونحن عراة حفاة وكأنه يوم الحشر العظيم، أفواهنا مفتوحة لتفريغ قذارتهم، سرقوا منا كل شي الساعات والنقود ومحابس الخطبة والزواج وحتى الجوارب سرقوها، وبعدها قادونا مجموعات كل سبعة على حدة، حفاة عراة، وبطحونا أرضاً ووضعوا في أرجلنا حبلاً من النايلون السميك، وفي رأسه قضيب معدني وشدوه بقوة، وحمله اثنان من البلدية وشحطونا في الباحة لعدة مرات على أرضاً أسمنتية فيها كتل من حجر الصوان الحاد، مما أدى إلى نزف الدماء من ظهورنا وبعض الكسور، وبعدها وضعونا في الدولاب، وقال أحد عناصر الشرطة: الآن بدأ حفل الاستقبال. ولا ندري بعدها ما

الذي حصل؛ لأن معظمنا فقد الوعي، وعند المساء انتهت الحفلة وأخذونا إلى المهجع ودخلنا وأقفلوا علينا الباب.
وبعد عشر دقائق عادوا إلينا مجدداً، وقبل فتح الباب من جهتهم طلبوا منا الانبطاح على الأرض، ظننا أنهم جاؤوا لتصفيتنا، فتح الباب وتكلم معنا الصوت الذي سمعناه في المرة الأولى قائلاً: الكل يسمع، هذا المكان الذي أنتم فيه الآن .. أطهر من بيوتكم، ومساجدكم، بالنسبة لنا، فهو مكان مقدس وعليكم احترامه واحترام أصغر رتبة تخدم فيه، ومن يحاول أن يلعب بذيله سوف نقطعه له، هذا أولاً، أما ثانياً: من بينكم رتبة عسكرية؟ فرد أحد السجناء: أنا سيدي، قال له: ما هي رتبك العسكرية؟ فرد عليه قائلاً: مقدم سيدي، قال: هذا جيد، أنت الآن رئيس المهجع، وتعين نائباً لك وتعين أيضاً مديراً "للبخشة .. هي دورات المياه" وتعين أيضاً سخرة طعام إذا فُتح الباب أو صاح بك أحد العناصر تقدم له الصف كالتالي: المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب أول، وأثناء ذلك كل الموجودين في المهجع يستدير باتجاه الحائط دون النظر إلى باب المهجع، ومن يحاول أن ينظر سوف نقلع له عينه. أنهى وخرج، وخرجت معه الحرية التي لا يعرف معناها.
نظرت حولي، رأيت الناس يستولي عليهم حزن عميق وقد وهنت قواهم ولا يدرون ما هم فاعلون، بالرغم من كل ما حصل من تعذيب وضرب، حيث أصبحت أجسادنا مشوهة وأرجلنا منفوخة من الضرب عليها بالعصي والكرابيج ووجوهنا متورمة، حيث أصبحت عين أحدنا بحجم الليمونة، أما الآذان فطول إحداها يتجاوز ورقة التين بالحجم واللون، الأنف والفم والخد جفت جميعاً، فإذا نزلت بنا حارقة لم تجد منا إلا الرماد، لقد تعبنا وكل شي فينا تعب، وكانت أصداء الليل تدور من حولنا ومعها شبح العزلة والموت. نحن الآن داخل المهجع، همّ بعض السجناء الذين كابروا على جراحهم وبدأوا بترتيب المكان (من توزيع البطانيات المهترئة الموجودة سابقاً في أرض المهجع، مليئة بالقمل والصراصير والفئران والجرذان والدماء الجافة) وُزعت علينا بالتساوي، بحيث حصل كل فرد منا على بطانية واحدة فقط وعازل، بالنسبة لبرودة الطقس هذا لا يكفي، قسّمنا أنفسنا

إلى مجموعات، كل مجموعة ثمانية أفراد، فرشنا الأرض بالعوازل، ثم حددنا لكل مكانه الذي ينام فيه ويجلس عليه ويأكل، بحيث أصبحت الحصة الواحدة لكل فرد حوالي 25 سم. إنه مكان واسع قياساً بأماكن الاعتقال الأخرى التي مررنا بها.

وفي صبيحة اليوم التالي، استيقظ الجميع في الساعة السادسة صباحاً حسب التعليمات الصادرة من إدارة السجن، وبعد قليل سمعنا صوتاً ينادي بنا: الجميع منبطحا أرضاً، ونفذنا الأمر بسرعة بالرغم من أجسادنا المتورمة التي لا تستطيع الحراك. قال لنا أحد العناصر من الشرطة: أدخلوا طعام الفطور، خرجنا ثمانية من الذين يستطيعون، خرجنا إلى الباحة لإدخال الطعام، قال لنا أحدهم: ما زلتم أحياء يا أولاد الـ (..) يا خونة يا عملاء يا جواسيس، وبدأ الرفس والدفس على صدورنا وبطوننا وظهورنا بالأبواط العصي، ولا ندري كيف أدخلنا الطعام إلى داخل المهجع. نظرت إلى طعام الفطور، فإذا به (شاي بحدود 20 لتر موضوعة في أناء من البلاستيك والإناء الثاني فيه حبة زيتون واحدة والإناء الثالث فيه بيضة واحدة)، ضحكنا كثيراً عندما شاهدنا ذلك، إنه شيء مضحك حقاً، هل هذا معقول؟ إنه طعام لـ 96 سجيناً. سمع البقية من السجناء عن كمية الطعام، فأصروا على مشاهدتها، بالرغم من أنهم لا يستطيعون السير على أقدامهم، مما جعلهم مضطرين للتحقق من ذلك زحفاً على بطونهم للوصول. فقال أحد السجناء: هذا أهم إنجاز تحققه الثورة لنا، طعام أقل من القليل والعصي والكابلات والقضبان المعدنية والشتائم، والله لو كنت أسيرا عند العدو لن يفعلوا بنا كل هذا.

خيم الصمت .. رأيت رجالاً فقدوا كل شيء، فهل يقضي الزمان بأن يفترس منا كل شي، لقد ناجيت قلبي فلتنعم بهذا واجعله هدفاً للحياة، لا استسلام، فإذا بصراخ عالٍ صادر من دورات المياه يدعو ويطلب أن يفك عنه كربته، فذهب إليه البعض مسرعاً لتفقد أمره، فإذا به يحاول أن (يتبول) فلا يستطيع، نظرنا إليه متورماً، وهو يحاول جاهداً أن يفعلها، ماذا جرى؟ فنظر إلينا، وهز رأسه قائلاً: ما جرى لي لم يجر لإنسان على وجه البسيطة، لقد ضربوني عليه بالكابلات والعصي بدلاً من

قدمي، ولهذا السبب لا أستطيع. وكان إلى جوارنا سجين طاعن في السن، نظرت إليه والدموع تسيل على خديه، قال له: يا بني اقرأ سورة الفلق، وإن شاء الله تفرج عليك. ضحك السجين المريض ضحكاً من القلب، وقال له: ماذا تقول يا رجل، كل الذي أنا فيه من فعل "الفلق"؟! قالها عن طيب نية طبعاً، ولم يقصد الإساءة، ضحكنا جميعاً رغم الجراح وسوء الحال.

صمتنا .. وأثناء صمتنا سمعنا سجيناً أخر يئن ويزحر ويتأفف من داخل المرحاض يحاول أن يتغوط ولا يستطع، خرج منهكاً متعباً متعجباً لأمره، قال: هل يعقل يا رجل؟ دمدم بعض الشيء .. هل يعقل أن الإنسان دون فتحة شرج؟ تبين أنه أيضاً تعرض للضرب المبرح على مؤخرته، وعندما ضربوه كان عارياً تماماً، ولا شي يستر له عورته سوى الكابلات الفولاذية والعصي، إنه تعرض للخوزقة دون أن يعلم ذلك، وبقي نحو ثلاثة أيام لا يستطيع التغوط. وكثير هم على هذه الحال، وغيرهم من امتنعوا عن تناول الطعام؛ لأنهم لا يستطيعون الخروج إلى دورات المياه، الجميع تعطلت حركاتهم الجسدية، منا من يبكي على نفسه ومنا من يبكي على رفيقه، وما زال الطريق في أوله، والأعظم على الأبواب، الويل .. الويل فلقد ساءت الحال، "هل سقط العالم إلى مثل هذه الدركة قبل اليوم"؟ قالها أحد السجناء وهو يتكئ على ركبتيه.

وعند الظهيرة، تكرر السيناريو نفسه معنا عند إدخال طعام الغداء والعشاء. وفي العشاء الليل مظلم، والبطون خاوية، والجسد منهك، والعقل سيطر عليه الأخذ والعطاء .. بالأمس القريب كنا هناك، واليوم بين أرباب الهلاك، الجسد قطع رجاءه من (الروح) وذهب يلتمسها من وراء الحواجز القائمة على مسافات بعيدة. والقمر أطل في مدينتنا ليلة أمس؛ خُيّل إليّ أنه أنثى أثقلها الحمل، وكوكب النهار أحب الحياة .. لقد جلست وروحي الجائعة أعياها الجفاء وبكاء كبكاء النساء، لقد أتعبني هذا المكان.

في المساء، خرجنا عراة حفاة وجموعنا في دورات المياه بعضنا فوق بعض، وحرارة أجسادنا العارية المتلاصقة ورائحتها التي لم يمسسها الماء الساخن منذ شهور. هنالك فتحة في الأعلى قطرها 1.5 متر، تجمع

حولها عناصر الدورية، وبدأت حفلة التعذيب بصب الماء البارد، وأمرونا بضرب البعض بخرطوم المياه والشحاطات البلاستكية، وكل من لا ينفذ ذلك مصيره الموت المؤكد في الصباح عند الخروج الى الباحة. وهذا هو حالنا من المساء حتى أشرقت شمس الصباح دون أن تعرف أعيننا النوم، لقد سطا الهرم على قلوبنا الفتية التي تسلط عليها النعاس تنشد نفسها صامتة لا تزقزق .. لا تنسوا هذه الليلة وهذا العيد.

في صبيحة اليوم التالي أخرجونا إلى الباحة الساعة الحادية عشر صباحاً ونحن عاجزين عن المسير أو حتى الجلوس، خرجنا مغمضي الأعين مطأطئي الرؤوس ندور حول الباحة بنسق خماسي، وعند الانتهاء من عدة دورات أمرنا بالجلوس أرضاً ووجوهنا باتجاه الجدار المقابل.

قال لنا أحد العناصر هذا هو التنفس ومدته ساعة لشم الهواء النقي، وهو يسير خلفنا نسمع خطاه دون أن نراه ذاهباً وآيباً وهو يرفسنا بالبوط العسكري من الخلف على الظهر والرأس، مخلفاً وراءه ألماً لا يحتمل. وبعد لحظات أمرنا بالوقوف، ثم اختار أحدنا وأخرجه من الصف، ليكون هو من أهداه القدر لهم، هم الذين غادروا الزمان واحتفظوا بالمكان، وجعلوا من لغة التعذيب أداة تواصل وتفاهم؛ غادري يا صرخات المكان واجعلي تراب الأرض ندياً ليطهر وجعه ووجعنا، أبكي على تراث نمجده حين نعجز عن تجاوزه.

أبو محمود مولود في عمره الجديد يناشد صباه يتوسل من الألم والعذاب مخاطباً الزمان وفي صراخه كل التراتيل التي تمجد الأنبياء، قفي يا سطوة الجلاد فجسدي أتعبته السنون وحفيدي الصغير الذي ينتظرني في طرف الحي يعشق فوضى المكان، سلامي إلى كل الأنبياء والرسل عساهم أن يخففوا عني مسيرة الذلّ؛ قالها وفي نفسه أمنية لرؤية من هم أعزاء على قلبه، هذا الشيخ المسنْ ذو الجسد الصغير أبى على نفسه أن يسقط ذليلاً إلى أن ساقته قدماه لنلتقي في "باستيل" سورية.

نظراتنا حزينة، وأصابع الريح التي تغازل "الشيح" و"العوسج" حزينةٌ هي علينا، ابكي أيتها الجدران إن كنت قادرة على التحدي، واقتلعي من بقايانا الشظايا،

فالضحايا من قبلنا هم زوار هذا المكان صورهم معلقة على الجدران، أسماؤهم مكتوبة بدمائهم، طائر جراحه أثقلت جناحاه.
وأمه الحزينة تذرف الدموع بانتظار المولود الجديد وريثاً لاسم جده أبي محمود. غاب الزمان تماماً، وبقي المكان تماماً جاثماً ثقيلاً مثقّلاً بالسياط، وجلسنا نتأمل القادم إلينا من خارج الأسوار، قد يحمل أقبح الصور وأسوأ الأخبار التي لم يعد يسمعها البعض منا؛ لأنَ الكثيرين منا قد فقدوا السمع نتيجة الصفع على الآذان.
وعند الظهيرة أدخلنا طعام الغداء (حساء الجزر) الممزوج بدمائنا، وبرغلٌ مطبوخ بالرمل والحصى، وخبز (صمون) مطلي بمادة المازوت، كانت بالنسبة لنا وجبة جيدة. بدأنا نفكر بكيفية التأقلم مع المكان، حيث باشرنا بتوزيع الطعام على أكياس من النايلون محاصصةً بين الجميع، وطلبنا منهم منظفات وصابون فلم يوافقوا إلا على مادة الصابون، ولكل سجين قطعة من الصابون العسكري الحجم الصغير (التي توزع مجاناً) دفعنا ثمنها غالياً من دمنا، فرحنا كثيراً بمجيء الصابون، وباشرنا بتناول الطعام، حيث كنا مجموعات، نظرت إلى المجموعة التي بجوارنا، رأيت أبا محمود يلتهم الطعام بطريقة عجيبة، بحيث أنني كنت أسمع تحت أسنانه صوت كصوت الرحى يطحن الحصى، فهز رأسه نحوي وضحك وقال: لوز وصنوبر، يرحم أيامك يا أم محمود.
وعند الانتهاء من تناول الطعام وقف أحد السجناء قائلاً: تدمر هذا هو حالها، ولن تتغير، وأنا لي تجربة سابقة فيها، لذا على كل سجين أن يتعامل معها، والمهم والاهم أن نعتني بنظافة المكان. وخيم الصمت على الجميع، في أعينهم حزن شديد وألم، وفي دواخل نفوسهم أسئلة كثيرة هل يبقى حالنا هكذا: جوع، وخوف، ومرض، وقمل، وجرب، وتعذيب ..
صمتنا أعطى المكان هدوءاً، بحيث استطعنا أن نسمع جوقة من الأصوات البعيدة جوقة تلاميذ المدرسة التي لا نعلم أين موقعها بالنسبة لموقع السجن، والأهم أننا نسمع ذاك الصوت البعيد، صوت الأبرياء القادم إلينا من خارج الأسوار ليبعث فينا أمل الحياة من جديد.
أصوات فرحة تغرد في مسامعنا لحن الحرية، ليضفي على صمتنا لحظة تأمل وتذكرْ، نظرت من حولي فإذ

دموعٌ تذرفَ كأنها أنهار وسيول عبرت الحدود، وصدور مليئة بالشوق على أطفال تُركوا هناك لا يعلم أحدٌ عن أحوالهم شيئاً، تلاشى الصوت، وتبددت معه الأحلام الجميلة حتى العصافير التي كانت تدنوا من الشبابيك الصغيرة غادرت المكان وتركت أعشاشها مهاجرة، كل شيء غادر إلا الصوت القادم إلينا من داخل السجن، يحمل الصراخ والألم وأصوات الأقفال والمصاريع تفتح وتغلق تقترب منا، شيئاً فشيئا دب الرعب والخوف في قلوبنا، وجوهٌ أصفرت وأطراف ترتعش والقلوب تكاد أن تخرج من بين الأضلاع، أحسست إن رأسي يتمدد تحت ضغط داخلي وأن طبولاً تقرع وشياطين ترقص وتسخر منا. قرر أحد السجناء أن يخرج إلى الباحة إذا طلب منه ذلك، كان قراراً صائباً للشد من عزائم السجناء والخوف من الانهيار الذي إذا حصل يسبب لنا كارثة، جاءنا الصوت منادياً "مهجع" .. "يا عرصات منبطحاً جميعاً"، وبعد لحظات وصلت الدورية وفتح الباب، وطلب منا الخروج إلى الباحة مغمضي الأعين، وأفهمنا رئيس الدورية إخراج جميع محتويات المهجع إلى الباحة من أجل تفتيش المكان. خرجنا ودخلوا، وبقي البعض منهم في الباحة، سرقت النظر فإذا بهم يحملون قضبان معدنية كبيرة وفي مؤخرتها قرص معدني مثبت بشكل دائري، وبدأوا الدق في أرض المهجع خوفاً أن نكون فكرنا أن نحفر أنفاقاً للهروب. وبعد الانتهاء من التفتيش، خرجوا إلينا جميعاً إلى الباحة وأمرونا بالانبطاح أرضاً، وبدأوا بالدق على ظهورنا بالقضبان المعدنية والصعود عليها والدعس عليها بالأبواط والعصي، ونادى أحدهم رئيس المهجع وطلب منه إخراج "ختيار الزفت أبو محمود والحرس الليلي"، ودخل البقية إلى المهجع، وبدأوا بضرب أبا محمود وبقية السجناء الذين كانوا في حراسة المهجع ليلاً، واتهموهم بأنهم كانوا يمارسون اللواط، وصرخاتهم التي كانت تنشد نشيد الأطفال في عرس الحي ..

قد توقفت تماماً، ولم نعد نسمع شيئاً، وطلبوا منا ثمانية للخروج إلى الباحة، أدخلناهم والدماء تنزف وأجسادهم لا تتحرك، تجمعنا حولهم نضمّد لهم جراحهم، منا من خلع ثيابه الداخلية، والآخرون جاؤوا بقطع قماش وربطناها على الجروح النازفة لوقف النزيف الحاد، حزنا

كثيراً على هؤلاء العزل الذين خرجوا من الباب ودخلوا من الباب، وما خلفه جنة القلب أشياؤنا باب الحكاية باب النهاية. السلام للذين على حائط الصوت والموت أسماؤهم، ندخل ونخرج كأهل الكهوف في عالم النسيان، وآذار يخرج مودعاً ليأتي شهر نيسان ..

<u>حمامات الدم الساخن</u>

خرج شهر نيسان كل شيء فينا يعاني، الجرب أكل من أجسادنا وأصبحت كخلية نحل. سنابل القمح الخضراء يقترب موعد حملها ورائحة التراب تبشر بمواسم العطاء، والحرمل البري تهز أغصانه نسمات نيسان المودّعة، وصوت الخراف القادم ألينا يصحبه مزمار الراعي ينشد أغاني الحزن والفراق، وطفلاً حافي القدمين يركض وراء فراشات يحمل بيده منديلاً أبيض، وحمار ينهق يحمل على ظهره قربة ماء وكيس خبز وعباءة صفراء، والكلب باسط ذراعية يسعى للنوم بعد سهر ليل طويل ونباح أتعب صوته، وشجرة الكينا البعيدة القريبة التي تهز الرياح قمتها تترنح ذات اليمين وذات الشمال يحوم حولها الغراب الأسود (..). وبعد لحظات انتابني ألم شديد لا يطاق يصحبه شعور بالبرد والعرق الشديدين، هذا السجن المرض والقمل والجرب والتعذيب، هل يعقل أن نقضي حياتنا هكذا إذا كتبت لنا الحياة؟! نظرت من حولي، هناك من يغسل رسغه بالبول لكي يخفف عنه الألم، وهناك من يضع قطعة قماش على أذنيه التي أصبحت كالعنقود المتدلي، وهناك من تسيل من فروة شعر رأسه القصير ماء صفراء اللون تحمل معها بيض القمل، أخرجونا إلى الباحة لتفقدنا كما هو المعتاد، فإذا بأحد السجناء يطلب الإذن من حضرة الرقيب أن يتكلم، فلم يسمح له بذالك إلا أن السجين أصر على ذلك:

فقال له: إننا جميعاً مصابون بالجرب والقمل وأمراض جلدية متعددة ونحتاج إلى علاج وحمامات بالماء الساخن. فرد عليه حضرة الرقيب: حاضر، وماذا بعد؟ هل هذا كل ما عندكم؟ فأدخلونا إلى داخل المهجع دون أن يلمسوا أحداً منا أو يضربوه، وبعد نصف ساعة تقريباً فتح علينا باب المهجع دون أن نشعر أو نحس بقدومهم إلينا، وطلبوا أن نخرج جميعاً إلى الباحة عراة حفاة.

خرجنا وساد الباحة هدوء تام، لم نسمع سوى وقع الخطوات المنتظمة ورائحة التبغ الفاخر، نادى بصوت عالي: المسؤول الصحي إلي ..

- حاضر سيدي.
- كم عدد المصابين بالجرب يا أبن ..
- كامل المهجع سيدي.
- كامل المهجع يا ابن القوادة .. بلدية .. بلدية .. هات الدولاب.

وجاء الدولاب بسرعة.

قال: علقوا هذا الكلب الأجرب.

وعلقت آمالنا بالشفاء والعلاج، وبدأت أنشودة الموت تعزف ألحانها، والعباءة الحمراء والناي وفتاة الوشاح الأبيض من حوله ترقص ترسم دوائرها، والذي يجلس بجانبي إلى اليمين يرتل ما تيسر له، لعله أن يُسمع منه ويخفف عن أخيه الذي ما زالت قدماه معلقةً في الهواء والسياط تحرث بقايا اللحم السليم التي لم تطلها جرثومة الجرب، والذي يجلس بجانبي إلى اليسار يعد عدد الجلدات التي عرفتها من خلال عده حوالي "أربعمائة جلدة" وأفق الخلاص من بين أيديهم في تلك اللحظة بات وشيكاً، صاح صاحب الصوت قف .. توقف كل شيء وطلبوا منه أن يسير على قدميه إلى داخل المهجع، ودخلنا جميعاً، وكل واحد منا أكل ما تيسر من الرفس والضرب إلى أن دخلنا بداخل المهجع وأغلقوا الباب. ودائماً عندما ندخل نشعر بجزء من الآمان النسبي؛ لأن التدافع على الدخول إلى المهجع نتيجة الضرب الذي نتعرض له أثناء دخولنا، ما يسبب سقوط البعض على الأرض، وهؤلاء هم الذين يتعرضون للضرب المبرح، ناهيك الكسور التي تنتج، وخاصة كسور في عظام القفص الصدري بسبب التزاحم للدخول إلى المهجع، فالباب الذي ندخل منه لا يتجاوز عرضه (60 سم) وارتفاعه (150 سم) مما يضطرنا للدخول وظهورنا منحنية. وعلاوة على ذلك، عتبة الباب التي يزيد ارتفاعها عن (40 سم) .. كل شيء في هذا السجن أتقن عمله لأجل التعذيب. طاف ناظري بداخل المهجع، هناك من يحك رأسه الممتلئ بالقمل، وذاك يحك مؤخرته ومن يحك بطنه .. والكل يعمل والكل مشغول بالحك، وكأنها آلات تعمل دون توقف وقودها الجرب،

وقفت أتأمل وأنظر إلى الجميع بالأمس كان عددنا (96) واليوم أصبح العدد (136) المكان بدا مزدحماً جداً، هل يعقل أن يضاعفوا العدد مرة أخرى؟ لا ندري.
أوشكت الشمس على المغيب وبعد ساعة ونصف سوف نخلد إلى النوم والكل منشغل البال والجسد، وإذا بقيت هناك أجساد سوف يرهقها الليل القادم إلينا والذي يحمل معه أسراراً لا نعلم بها شيئاً، سوى أننا معرضون لأي شيء سيء يخطر أو لا يخطر ببالنا. هكذا قضينا الليلة ونحن ننتظر ونفزع من كل حركة من حولنا، إلى أن بان الشفق، فبدأت أجسادنا بحركة بطيئة تأخذ الاستعداد لليوم الجديد. وفي الساعة العشرة صباحاً فتح باب المهجع، وطلبوا منا الخروج إلى الباحة باللباس الداخلي، وكل واحد منا يجلب معه صابونة ومنشفة.
خرجنا فارغي الأيدي، لا صابون لدينا ولا هم يحزنون. وكان عددنا (136) فرداً، فقادونا إلى الباحة الثانية، حيث وصلنا إلى المكان الذين طلبوا منا التوقف فيه، وأمرونا بالجلوس على الأرض باتجاه الجدار المقابل ورؤوسنا منحنية نحو الأرض دون النظر إليهم، ومن يحاول النظر بالتأكيد قد يخسر إحدى عينيه.
ظهورنا عارية وكذلك صدورنا، وبدأت العصي والكابلات الفولاذية تمزق ظهورنا، والدعس والعفس بالأبواط العسكرية تقع على رقابنا وكأنها صواعق. قسمونا إلى قسمين للدخول إلى الحمام. صدرت ألينا الأوامر بالتوجه إلى الحمام رملاً، والسياط والضرب بالعصي على أجسادنا إلى أن وصلنا المدخل، دخل القسم الأكبر منا إلى الداخل، وبقي القسم الآخر بالخارج، إلا أن مساحة الحمام لا تستوعب العدد، وأدخلونا بقوة الضرب من الخارج والداخل، دخلنا ولم نشعر بوقع الماء البارد على أجسادنا، ومن كثرة الازدحام استطعت أن أسرق النظر، فإذا بعناصر الشرطة وبرفقتهم البلدية يحملون العصي والقضبان المعدنية معلقين على الجدران المحيطة بالمكان وبدأوا بإطلاق أصوات يرافقها الضرب على رؤوسنا ووجوهنا وهم يطلقون كلمات القهر والإذلال بنا، ومنهم من يطلق كلمات السب والشتم.
شعرت بأن المياه التي تنصب على أجسادنا هي مياه دافئة بعض الشيء؛ لأنها اختلطت بالدماء وهي تسيل على الأرض وبحكم موقعي عند المدخل شاهدت المياه

تسيل إلى الخارج ممزوجة بالدماء بكثافة. سقط منا الكثير على الأرض نتيجة الضرب، ومنا من كسر فكه، ومنا من كسرت يداه، وآخر كسرت ساقه. وقع الماء على أجسادنا ترافقه ضربات السياط ونزيف الدماء من أجسادنا يبشر بالموت، وما أكثر المنذرين بالموت في هذا المكان.

ما شهوة هؤلاء إلا التعذيب. إنهم لأشد الناس حقداً، وأخرجونا إلى الباحة وطلبوا منا الانبطاح في ساقية أسمنتية من الطرف الآخر للباحة تمر فيها مياه آسنة، وأدخلوا الدفعة التالية ونحن نسمع صراخهم ينطلق من داخل الحمام، ونحن نتابع الزحف إلى المهجع على بطوننا العارية التي مزقتها الأرض والمياه الآسنة والفئران الميتة ...

طبابة متميزة

يتعب الجسد أحياناً، وجسد السجين متعب ومتألم دائماً، وعندما يكبر الألم فما عليك سوى أن تستجيب له أو تتخلص من مسبباته. والعيادات الخارجية في تدمر تكلف السجين الكثير من الدماء، وغالباً ما تكلفه حياته التي هي رهينة للموت. وآلام الأسنان التي تصيب السجناء في سجن تدمر تتعبهم كثيراً، وخاصة الألم الناتج عن اللكم والرفس على الوجه والفكيين من قبل عناصر الشرطة وأعوانهم "البلدية"، وأغلبهم يرتدون أبواط عسكرية تحمل في مقدمتها "نضوة" وهي قطعة معدنية على شكل هلال ويحملون في أيديهم قضباناً معدنية، وعندما يتعرض السجين للضرب بها يحدث تهشم في الأسنان وكسور في الوجه والفكين، وأحياناً تحدث جروح عميقة ينتج عنها انسلاخ اللحم عن العظام.

مرة من كل عام تتكرم إدارة السجن بالخروج للسجناء لمراجعة العيادة السنية، صاح أحدهم بنا من الخارج بمراجعة العيادة السنية يكون مستعداً، وطلب من رئيس المهجع عددهم، وكنا خمسة سجناء نستعد للخروج بالرغم من نصائح البعض بعدم الخروج؛ لأننا لن نستفيد شيئاً سوى العذاب. خرجنا كما هي العادة المتبعة في تدمر أعيننا مطمشة وتقودنا البلدية برتل أحادي مروراً بمهاجع أخرى، إلى أن وصل عددنا إلى 25 سجيناً.

وطلب أحدهم من البلدية أخذنا إلى باحة الطعام،

جمعونا هناك إلى أن وصل عددنا إلى حدود 60 سجيناً، وطلبوا منا الركوع على الأرض باتجاه الحائط وعدم النظر إليهم. ركعنا وركع كل شيء من حولنا.
بدأ أحدهم برفسنا من الخلف، ويطلق بنا من الألفاظ كل ما حفظه في حياتة البذاءات والألفاظ الدنيئة، مرة ينعتنا بالخونة ومرة أخرى بالزناة والصراصير، وهذا كان من ألطف الألفاظ التي سمعتها في سجن تدمر، من سوء حظي الطميشة التي وضعوها على عيني كانت مثقوبة من العين اليمنى بقدر 4 ملم، بحيث استطعت أن أشاهد بعض الأشياء (الطميشة هي عبارة عن قطعة من البلاستك الأسود المطاطي مصنوعة من أطار عجلات السيارات يضعها السجين على عينيه طوال فترة وجوده في السجن وخاصة أثناء النوم ليلاً، وهذه تجعل السجين في حالة متوترة بشكل دائم، وهي من الأساسيات بالنسبة للسجين والسجان، وشيء مقدس لا يمكن الاستغناء عنه أبداً، حيث أصبحت جزءاً من حياة السجين، وعندما تضعها تنقلك إلى عالم الظلمات وتعزلك عن كل شيء صامت ومتحرك من حولك، ومحاولة إزالتها أو تحريكها تكلف السجين الكثيرمن الدماء ولأيام طويلة، وفقد العديدون أعينهم نتيجة تبلي عناصر الشرطة بتحريكها).
أمرنا أحدهم بالوقوف والاصطفاف رتلاً أحادياً. ومن المضحك المبكي أن يكون السجين معصوب العنين أن يصطف برتل أحادي، وكيف يستطيع أن يميزالجهات الأربعة أو يدرك ما يدور من حوله؟! البعض منا ذهب يساراً وآخرون يميناً وإلى الوراء والأمام. أشتد غضبهم علينا، وغضبت السياط والعصي معهم، ومن سوء حظي أيضاً بما أنني أرى بعض الأشياء التي تحدث انتابني خوفٌ مزدوج، إذ كيف لي ان أتصدى لأحدهم وهو قادم إليّ ويرفع سوطه إلى الأعلى.
طلبوا منا الجلوس أرضاً كلّ في مكانه دون حركة، طلب أحدهم من البلدية بأن يساعد على اصطفافنا في رتل الموت. نظرت من ذلك الثقب اللعين، فشاهدت أحدهم يرتدي ثياباً أنيقة يجلس على كرسي وأمامه طاولة خشبية يضع فوقها حقيبة سوداء، ونادى به أحدهم:
الكل جاهز يا دكتور. هذا هو الطبيب، وقف وهو يضع يديه حول خصره، وقال: كلكم يا أولاد "القحبة" مصابين

بألم الأسنان؟ صاح بالممرض، فذهب إليه وسلمه ملقطاً معدنياً. وقال له: ابدأ من أول الصف. بدأ والصراخ ملأ المكان، حاولت أن أسترق النظر قدر المستطاع، وأن أجس بعض الأشياء بالرغم من حالة التوتر التي أعيشها، فشاهدت السجين الأول من الصف مقيداً من قبل عناصر البلدية، والممرض يدس ملقطه المعدني داخل فم السجين بطريقة متوحشة، وعندما ينتهي من قلع ضرسه تجره البلدية الى الجدار المقابل وتأمره بالجلوس وعدم الحركة، ويأتي دور من بعده. وأنا أنتظر ولا أعرف كيف سأعيش تلك الحالة وكيفية التعامل معها، فوجدت الممرض قريباً مني. بقيت بالانتظار إلى أن وصل إليّ وطلب مني فتح فمي إلى أقصى حد، فعلت ذلك وأنا أرتجف من الخوف، وخوفي أن يدس ملقطه في عنقي، ونادى بالبلدية فبصق بفمي وقال: هذا هو المخدر، ومسك بذراعي بشدة من الخلف، وطلب أن أرفع رأسي إلى الأعلى، وهذه هي المرة الأولى التي أرفع فيها رأسي في سجن تدمر. ثم جاء آخر وأطفأ سيجارة على رقبتي، وقال لي هذا سحب العصب ولن تؤلمك أسنانك بعد اليوم يا ابن الزانية. أحسست بآلة معدنية تتحرك داخل فمي يصدر منها أصوات الطقطقة، أحسست بألم شديد جداً، بحيث أجبرت للقيام ببعض الحركات الممنوعة لأتخلص من الذي أنا فيه، ولكن شعرت بضربة قوية على رأسي من الخلف، ولم أعد أحس بأي ألم ولم أعد أسمع شيئاً من قوة الضربة التي تلقيتها، وبعد ذلك وجدت نفسي جالساً بين البعض من السجناء مقابل جدران أحد المهاجع. حركت لساني داخل فمي للتأكد من الضرس الذي آلمني، ولكن اكتشفت أن هناك مساحة كبيرة من الفك السفلي خالية من الأضراس تم قلعها. وبعدما استعدت جزءاً بسيطاً من وعيي، أدركت بأنه قد تم قلع أضراس الذين من قبلي بالملقط ذاته بدون تخدير للمنطقة المصابة، وهذه كارثة؛ لأن أغلب السجناء مصابين بداء السل الرئوي والتهاب الكبد المعدي!! همس أحد الذين يجلسون بجانبي يسألني من أي مهجع أنا، فلم أرد عليه، تصورت أنه من عناصر الشرطة أو البلدية يجلس معنا ليتجسس علينا، فرد قائلاً لطمأنتي: أنا من الباحة السادسة، البارحة كان عندنا في الباحة

تنفيذ أحكام، هل خرج أحد من مهجعكم؟ رددت عليه بهمس شديد: لا. وحوّل حديثة إلى الذي بجانبه، وبدأ يتجاذب معه أطراف الحديث وبصوت مسموع أحياناً، وبدا لي يسأله عن البعض هل يعرفهم، ومن ثم انتقل إلى الآخر. وتبين لي أنه قادم للتعارف والتقاط الأخبار، وليس كما ظننتة لمرة الأولى، وها هو يضحي بحياته من أجل خبرٍ أو معلومة قد تفيده، وفهمت أيضاً أنه سجين قديم منذ عام 1981. وفجأة وبشجاعة مني سألته: ماذا يعني تنفيذ الأحكام؟ فرد من أين انت؟ قلت له: من الباحة الثانية، فقال: هل مجيئك إلى السجن حديث؟ قلت له نعم، فقال: تنفيذ الأحكام .. لقد أعدم البارحة شنقاً حوالي خمسة سجناء كلهم من الإخوة، والحمد لله الجنة لهم خالدين فيها بإذن الله، وأن يطعمنا الشهادة جميعاً. وبدا لي مسروراً جداُ عندما يلفظ كلمة الشهادة. وانتقل بكلامه الى الذي أمامنا، وبدأ يطرح عليه بعض الأسئلة وقد ارتفع صوته بعض الشيء، مما جعل أحدهم يتنصت عليه وطلب منه الخروج من الصف وسلمه إلى الرقيب، وأعلمه أنه كان يتبادل الحديث مع الذي بجانبه. بطحوه أرضاً، وتجمعوا من حوله والعصي الغليظة والقضبان المعدنية بدأت تعزف له لحنها التدمري وهو صامت لم يصرخ أو يتوسل لهم، مما جعلهم يستشيطون غيظاً، إذ شعروا بأنه يتحداهم بصمته، ووضعوه ضمن دائرة هم يشكلون محيطها بحيث يتنابون على ضربه إلى أن فقد وعيه وهم ما يزالون ينهالون عليه ضرباً، وطلبوا من البلدية أن يأتوا ببطانية وحملوه لا ندري إلى أين!
لحظة صمت، الخوف أبعدني عن اللحظة التي كنت أناجي فيها الخلاص علّها تبعدني عن هذا المكان الذي لم يشهد له التاريخ مثيلاً، وقد لا نجد في تاريخنا الحديث مثالاً لتدمر، وقد لا نجد قصة أكثر وحشية وبربرية من قصصها.
ها قد انتهى الجميع من "المعالجة". واقفاً .. صاح أحدهم .. الباحة الأولى إلى هنا الثانية .. الثالثة .. إلخ. كنت في أول الرتل ماشياً، وصاحب البيجامة الزرقاء يقودني ماسكاً بي من عنقي الذي لف حوله السوط ليجرني كما يُجَّر الكلب المريض .. يرتدي بقدمه بوط عسكري مليء بالشحار الأسود وتفوح منه رائحة المازوت، ويطلق عليّ من الألفاظ ما ربّاه عليه "الجيش

العقائدي" إلى أن وصلنا إلى باحة المهجع، وصاح برئيس المهجع: يا ابن العرصة يا ابن "الشلكة" ألم تسمع كم عرصة خرج من عندك، فرد رئيس المهجع المسكين قائلاً: خمسة حضرة الرقيب أول. عدهم يا ابن .. ابن .. العدد كامل حضرة الرقيب. عدّنا رئيس المهجع وما زلنا خارج المهجع، وكأنه فخ نصب لرئيس المهجع على خروجنا .. كامل يا ابن القوادة تعال إليّ. هنا فتح الباب، دخلنا وخرج رئيس المهجع وبدأو بضربه على جسده المنهك، وكان ضربهم له رفساً بأرجلهم وثم رطمه بجدار المهجع، وهم يحذرونه من عدم تكرار ذلك أو إبلاغهم عن أي مريض كان. أدخلوه صريعاً بين الحياة والموت. الموت في تدمر أمنية في كثير من الأحيان كما أنه قريب منك جداً، ولكن عندما تشتهيه يبتعد، وعندما يغادر أحدهم نحزن ونفرح، وكلما سمعنا صوت أبو غضب وأبو كاسر في الباحة نحسب في حساباتنا أنه قد يرحل واحد منا، وهم يستخدمون أرجلهم للضرب، وضربه واحدة بقدم أحدهم كافية لتجعلك في عداد الأموات.

ويأتي يوم جديد تدمى فيه الجراح وتثقل الثواني ويصبح عدها مستحيلاً، حيث لا حساب للزمن عندما تتحرك السياط وصوت الجلاد يصطدم مع صوت الحريه،

وأجسادنا الفقيرة الدامية ستظل ملكهم المشاع وغبار القوافل ما يزال يمر بنا دون أن يذكرنا أحد سوى الأحبة، حيث الأبواب موصدة، وحريتنا الوحيدة أن نوسّع مكان نومنا وليس لنا أمل بالخروج من تلك الأبواب المتراكمة، وكلما حل بنا الدور لمواجهتهم تتشكل من حولنا دوائر ضيقة ننظر من خلالها الى بئر محفور لا ندري الى أي عمق ويهبط العالم على صدورنا والدموع تحاول ألا تذرف.

هنا نعيش جميعاً في ذعر وخوف وليس جبن، إلا من سولت له نفسه وسلمها رخيصة ليحقق مكاسب ضيقة على حساب دماء الآخرين، هم في أغلب الأحيان يعيشون كنعامة الصحراء ..

ليلة من 2000 يوم وليلة

شارفت الشمس على المغيب، والبرد القارس يقتحم الشبابيك التي تلفها القضبان المعدنية متقاطعة بشكلها العشوائي، حيث يأتي دون أن يستأذن الدفء،

ليجلس بين الجسد الهزيل، ليخبرنا عن يومٍ الحزن الشريك. والموت رفيق الأحياء يتربع بين جدران المهاجع يرعبنا بين الفينة والأخرى، وصوت الجلاد صارخاً ترتعد المهاجع بسجنائها مر تعبة تتراعش أطرافها وتهتز، وكأنه الزلزال المنذر بالدمار .. ليل قادم من ليالي تدمر التي بيننا وبينها المجهول، قف أيها النهار واجعل نورك سراجاً لنا في عتمة الدهاليز المجهولة يد البطش، والموت فوق رؤوسنا في اللحظة التي تليها لحظة أخرى، أما قلبي فقد انثالت عليه نفسي الذكر وأجهشت عينيّ بالبكاء، لا ترحلي ودعيني أنام على ذراعيك وأتوسد الأمان، فأنا مرتعب حتى الموت من ذلك الغول الذي يسكن الصحراء، يختبىء تحت الرمل ليفزعني في عتمة الليل، وجسدي هزيل لا يقاوم وقلبي يكاد أن يخرج من بين أضلعي، بينما كنا نودع أبا الحارث الذي عذبوه حتى عمده المرض وأضنته العلة .. وعيناه الشاردتان شاخصتان إلى السماء، وجبينه الشاحب من عرق الموت بين المد والجزر، وأنت واقف عاجز حيال ذلك، لا تستيطيع أن تفعل له شيئاً فتذهب نفسك حسرات.

ارحل أيها الملاك الكريم، فإنك جليل عظيم، نعم أنا شاكِ باكِ حزين .. اذهب أنت بسلام أيها النور الصامت الهادئ فمرقدك مضيء .. وداعاً يا أيها الرجل، فلنتذكر أغانيك وأناشيدك الصوفية .. أخرجوك يحملونك على بطانية عسكرية، ويتهمونك لأنك أنت السبب في موتك، بينما كنت تغتسل في الحمام، حيث قدمك زلت بالماء والصابون ووقعت صريع الموت على رأسك! لن ترى بعد اليوم الحارس الملثم الذي يراقبنا من على سطح المهجع يتربص بنا ليختار فريسته، لن يرعبك طعام العشاء .. بطاطا مسلوقة بماء عكر ومعجون بالوحل ليضف الكثرة على القلة، حصتك سنوزعها على المرضى، وقد تكون من نصيب أخيك العليل الحزين، وأما ثيابك المهترئه فستكون من نصيب العراقي الذي هو بحاجة إليها، والذي سيترحم عليك لسترة عورته.

صوت مؤذن نكاد نسمعه بلهجة مكية ينادي لصلاة المغرب، ويخبرنا بمغيب الشمس التي قد لا تشرق غداً.

انتهى الجميع مما بين أيدهم استعداداً للنوم، والكل يتضرع إلى الله كي يحميهم من المجهول، والحرس

الليلي بداخل المهجع تبدأ مناوبته عند الساعة الخامسة مساءً .. كان دور "اللبناني" أبو محمد الذي سلمه رئيس المهجع المسؤولية كاملة، وأمر الجميع أن يعصب عينيه ويمتنع عن أية حركة، ويمنع الخروج ليلاً لدورات المياه مهما كانت الأسباب. الجميع جمد في مكانه، حيث الأنفاس شبه مقطوعة، والأجساد ترتجف من البرد، ففصل الشتاء لن يرحم العراة، والشرطي الملثم المكلف بحراسة المهاجع يسب ويشتم كلما مّر بنا على سطح المهجع. وعند الساعة السابعة مساءً، جاءت الدورية وطلبوا الحارس الليلي، وأمروه بخلع ثيابه كاملة ثم الانبطاح على الأرض المبللة بمياه الصقيع، فدرجة حرارة طقس منخفضة جداً. ونادى أحدهم برئيس المهجع وأمره بصب الماء على جسد الحارس الليلي الممدد الذي اتهمه بالنوم، وكلف رئيس المهجع أن يبقى على وضعه حتى الصباح. وبعد أن تُسلّم حارس آخر مكانه في الساعة الثامنة، وابتعدت الدورية تسلل البعض منا إلى دورات المياه والتناوب على مكانه كي نخفف عنه البرد الذي نتقاسمه كما نتقاسم العذاب، قف .. قف .. صاح بصوته .. إنه "أبو كاسر" الشرطي الجلاد الذي لايمكن أن تكون بعد ضربته الحياة إلا من رحمه ربه. وقف عند "الشراقة"، وهو يزمجر غاضباً، ونادى بالحرس الليلي وهو يطلق عنان كلماته البذيئة عليه، ثم طلب فصيلة الحيوانات، وهي عبارة عن مجموعة من السجناء أوكل لكل واحد منهما دور حيوان يقلده السجناء .. "الجدي" هو العجوز أبو محمود .. "الحمار" هو العجوز أبو فيصل .. ثم القط .. الكلب .. الخروف .. والديك .. الفأرة والجردون .. وأبو الحصين .. تم تجميعهم في دورات المياه، وطلب من الجميع أن يقلدوا الأصوات مجتمعين، وأخذت الأصوات المقلدة تخترق الجدران في سكون الليل الوحشي، وأحد السجناء ممدد على الأرض، وجسده عارٍ يرتجف، والشرطي يسلط ضوء مصباحه على مؤخرة السجين الممدد، ثم يأمر الحمار العجوز أن يتقدم نحو السجين العاري، ويطلب منه خلع ثيابه، وأمر الآخر بتصحيح وضعيته، وأن يقف على رجليه ويديه كما يفعل الحمار، وطلب من العجوز الحمار أن يضاجع الحمارة، والاثنان معاً عراة. امتنع العجوز في بداية الأمر عن فعل ذلك،

ولكن أدرك في النهاية أنه إن لم يفعل فسيكون الموت المؤكد نصيبه، كونه يرفض الامرالمقدس الصادر من الشرطي الذي يتلذذ بما يفعل وضوء مصباحه مسلط نحو الأعضاء التناسلية للعراة!
كان منظراً تقشعر له الأبدان، ومن في داخل المهجع دموعهم الخفية تكاد تفجر الأعين التي لا تستطيع رؤية ذلك .. السماء تبكي غاضبة .. بدأت الرياح تعصف بشدة، ونأمل أن يغادر الحرس "الشراقة" ويختبىء بمحرسه، ولكنه أصر على البقاء مستمتعاً بالمشهد، وتحمل تساقط المطر والريح العاصفة شديدة البرودة على جسده، وطلب خمسة سجناء من داخل المهجع إلى دورات المياه لينضموا إلى مجموعة الحيوانات، وأعطاهم دور الصيصان، وأمر الدجاجة أن تجر صيصانها الخمسة نحو فتحة المرحاض وإخراج "البراز" من الفتحة وإطعامها لصغارها، والديك أمره أن يصعد على الحائط الذي يعزل الحمام عن مدخل المهجع، ثم يصيح بأعلى صوته، ثم ينقض بعد ذلك على الدجاجة ونقرها على رقبتها تمهيداً لمعاشرتها جنسياً، والصغار مازالوا يتناولون طعامهم من الأوساخ. وبقي حال الجميع هكذا حتى منتصف الليل. وقبل نهاية مناوبته، أمر الجميع بالدخول إلى المهجع والنوم شبه عراة، بما فيهم الحرس الليلي الذي أقدم حارس آخر على تعذيبه. وفي الساعة الواحدة ليلاً على وجه التقدير، قدم أحد الحراس إلى الشراقة المطلة على ساحة المهجع، وطلب من رئيس المهجع الذهاب إلى دورات المياه ومعه "الجدي العجوز أبو محمود" وعندما وصل إلى هناك بدأ يكلم الجدي بصوت هادئ. وبينما كان الشرطي مشغول بحديثه، اندفع البعض منا (الذين أماكنهم بالقرب من دورات المياه) للتنصت على الحديث الذي يدور بين "الجدي" والحارس الشرطي، وهو يأمره أن يقلد له كيف كان يمارس الجنس مع زوجته! ولكن أبا محمود استطاع أن يقنع الشرطي أنه أعزب، ثم طلب رئيس المهجع لتأكيد ذلك فأكد له. لكن الشرطي طلب من رئيس المهجع أن يقلد له كيف يمارس الجنس مع زوجته، بالرغم من أن حارس المهجع ليس متزوجاً، ولكن الخوف دفع به أن يقلد ذلك وبدأ .. يتأوه .. ويتنهد ويتأفف .. أوه .. أه .. وكأنه بحالة جماع جنسي حقيقي،

وهذا جعل الشرطي يطلب تكرار ذلك لعدة مرات منه. وتبين لنا أن الشرطي كان يمارس العادة السرية بالتوازي مع تأوهات رئيس المهجع الجنسية! وبعدها أمره بمغادرة المكان والاحتفاظ "بالجدي"، وطلب منه خلع ثيابه كاملة، ثم الاستلقاء على ظهره باتجاه الشراقة، وبدا لنا أن الشرطي يسلط ضوء مصباحه نحو "عضو أبي محمود الذكري" .. هكذا نتبادل الأدوار طوال الليل وهم يتبادلون الأماكن. وكان صوت المؤذن البدوي الذي ينقطع أحياناً كلما اشتدت سرعة الرياح؛ ليخبرنا بقرب طلوع النهار .. الدماء تجمدت في عروق العراة تستنجد بدفء خلايا النور لتستمر الروح في البقاء ليوم جديد يحدد قد مصيرنا.

وبقي الكلب من فصيلة الحيوانات ينبح، حتى أمر رئيس المهجع الجميع بالنهوض ورفع البطانيات، والجلوس ضمن نسق موازي لجدران المهجع، ورؤوس الجميع منحنية نحو الأرض، بناء على التعليمات الصادر من إدارة السجن وحراسه، والعجوز الذي أكلت من عمره السنين ها هو بين أعمدة التاريخ يصرخ للحرية، الأوامر دائماً نافذة .. الأبيض أسود والعكس تماماً .. صوت الحارس الذي يعذبنا قوي دائماً وأصواتنا بالكاد تسمع، وأيدينا مجتمعة رغم كل الجراح التي أصابت خوالج الكرامة، جسد بلون صحراء المنفى نتقاسم رغيف الذل والعذاب، يسحب العريف العملاق مصراع الباب الذي يرسم ويصدر صوتا راعداً والبرق فيه مجهول .. وإن الضربة الاولى على رأسك بسوطه القاسي تنتشر في جميع تضاريس جسدك نهشاً ورعباً، لتصبح بين الحاضر والماضي وتختلط الأزمنة.

وغداً يوم آخر ..

<u>محاكم استثنائية</u>

ليس إحساسي كمن يذوب في ثلج، إنما جمر النار يحرقني شوقا إلى الحرية، كل الأيام في تدمر ظلم وظلام، الليل والنهار متساويان، الساعات والثواني، بينك وبين الموت شعرة تبحث بين ثنايا جسدك عن لحظة أمان كي تستطيع أن تحلم بماض كنت فيه، حتى العصافير التي كنت تراها بالأمس تطير وتحط، هربت

من هذا المكان لكثرة الصراخ وأصوات الجلادين المرعبة كرائحةِ الدم، فكل شيء في عقيدة الجلاد مباح ..
في عام 1989 شهد سجن تدمر عملية تسريع المحاكمات وإعادة محاكمة من حوكموا قبل سنوات، ترافقت تلك المحاكمات أيضا بالإسراع في عميلة تنفيذ الأحكام القاسية كالإعدام ومضاعفة بعض الأحكام الأخرى ورفع سوية التعذيب إلى درجة لا يمكن ان يتصورها عقل انسان.
في العاشر من حزيران عام 1989 كنا نستعد لسخرة الطعام عددنا ثمانية مهمتنا إدخاله مخاطرين بحياتنا، كنت استرق النظر في الجزء المهترئ من الباب المعدني الذي تلفة قضبان معدنية قطر كل واحدة منهما 20 ملم متقاطعة بشكل عشوائي، لأحصي عدد الأواني البلاستكية التي سنضع فيها الأطعمة من (البلاو العسكري) والتي غالباً ما تكون ممزوجة بمادة المازوت والذباب والفئران الميتة، إناءان فيهما مادة "الشاي" وآخر شبه فارغ وآخر فيه "حلاوة" تلك المادة التي ان وجدت من بين مخصصات الطعام يصاب السجناء بحالة من التشاؤم، فهي بالنسبة لهم طعام النقمة وليس النعمة، حيث دفع الكثير منا فاتورة باهضة الثمن لملعقة حلاوة صغيرة، فقد تعرض جسد أكثر من سجين للعطب.
ما زال "البلدية" يجلب بقية الطعام ويضعه في الباحة، انحرف ناظري قليلاً رغم صعوبة التحرك في المكان للنظر في الاتجاه الآخر شاهدت احد عناصر البلدية يرتدي بنطالاً عسكرياً مموهاً حليق الرأس وهو يحاول فك رباط بنطاله المتسخ وأخرج "قضيبه" وتقدم إلى إناء الشاي وتبول فيه ومن ثم إلى الأواني الأخرى باستثاء الإناء شبه الفارغ، وكان الشرطي المكلف بحراسة الباحة يبادله الحديث والضحك، لم أفاجأ بما شاهدت من ذلك العمل، وكنت حريصاً على أن لا أخبر أحدا من داخل المهجع لتخوفي من أن البعض قد يمتنع عن تناول الطعام الذي نحن بأمسّ الحاجة إليه، ذهب وهو يسبنا ويشتم بأعلى صوته.
حلاوة .. يا أولاد الشرموطة .. حلاوة .. وخياله يرتسم على جدران المهجع ذهاباً وإياباً، وعاد بعد قليل يحمل على كتفه بطانية عسكرية يوجد فيها خبز عسكري (صمون) ونثره في الباحة حيث توزعت قطع الصمون

في كامل الباحة وهذا ليس في صالحنا كسخرة اذ يعرضنا للتعذيب والضرب المضاعف ويحتاج منا وقتاً إضافياً للبقاء في الباحة والتماس المباشر مع عناصر الشرطة والبلدية ..
تزامن مجيء الرقيب مع تواجد البلدية في الباحة وصاح بصوته المرعب رئيس المهجع يا ابن القحبة .. يا ابن القوادة .. الكل يسمع، تتوقف دورة الحياة وينعكس مسارها عندما نسمع ذلك الصوت، اسمعوا يا زنات كل كلب نقرأ اسمه يقول حاضر، وبدأ يتلوا الأسماء وكان نصف المهجع قُرئت أسماؤهم وطلب من رئيس المهجع أن يخبر كل من ورد اسمه أن يستعد للخروج ويغادر، حصلت فوضى عارمة في المهجع حيث بدأ البعض يوضب حاجاته ويجمعها في أكياس من النايلون والبعض الآخر في حالة إرباك والذين قرئت أسماؤهم يودعون الذين لم تُقرأ أسماؤهم بالبكاء والدعاء لهم بأن يحميهم الله ويفرّج عنهم ويلهمهم الصبر وكان البعض يوصي بزيارة أهله والآخر يبلغ سلامه لزوجته وابنه وذاك لوالده ووالدته كي يطمئنوا عليه وكان ذلك بأقل من دقائق من عودة الرقيب مرة ثانية لإخراجنا ..
فتح الباب وهو يحمل بيده قضيباً معدنياً وعند خروج أول السجناء إلى الباحة ضربه بين كتفيه وهو يسبنا قائلاً (من قال لكم يا أولاد الشرموطة طالعوا وسخكم معكم) وأمر الجميع أن يضعوا الأشياء والأغراض التي حملناها معنا في الباحة وأمرنا ان نصطف برتل أحادي وبدأ يعدنا، كنا 87 سجينا، وكان تواجد الشرطة والبلدية في المكان كثيفاً، وتم سوقنا إلى حيث لا ندري، ندخل في أبواب ونخرج من أخرى إلى أن وصلوا بنا وأمرونا بالجلوس أرضاً باتجاه الجدران دونما أية حركة ثم انحناء رؤوسنا باتجاه الأرض والامتناع عن التكلم مع الآخرين الذين بجانبنا، وهم ما زالوا يأتون بمزيد من السجناء من الباحات الأخرى ثم يصطفون من ورائنا على نفس النسق وهذا يشكل لنا بعض الحماية من الرفس والضرب، سمعت البعض من السجناء يتبادلون أطراف الحديث بهمس شديد يتعارفون على بعض وهم حريصون على ألا يسمعهم أحد من عناصر الشرطة أو البلدية، وهمس الذي بجانبي مع الذي من خلفه لماذا نحن هنا فقال له الآخر هذه محكمة، الآن سوف تمثل أمام

القاضي والبعض من ضباط المخابرات وسوف تراهم بعينك ولكن كل هذا شكلي فأنت محكوم منذ لحظة اعتقالك، وهذه المحكمة لتنفيذ الأحكام القاسية، فرد عليه كيف يعني ذلك فرد عليه ما هي تهمتك (يمين عراقي) لا تخف أقسى عقوبة لك هي الحكم المؤبد .. فرد عليه أنا لست منظماً لا أنتمي إلى أي تنظيم سياسي، رد قائلاً .. سواء كنت أو لم تكن اقل حكم سيصدر بحقك ليس أقل من خمسة سنوات ولن تخرج من تدمر إلى أن يأذن الله لك بذالك والأفضل لك أن تنام في السجن على جنب واحد وإذا تعبت نم على الجنب الآخر، ولا تفكر بالخروج، ومع انتهاء الحديث بدأ أحد العناصر يتلو البعض من الأسماء وطلب منهم الوقوف ووضع "الطميشة"[3] على أعينهم وقادهم لا ندري إلى أين وبعد أقل من نصف ساعة من الوقت تلا قائمة أخرى من الأسماء وكان اسمي من بينهم وطلب منا كما طلب من الذين من قبلنا ووضعنا الطميشة على أعيننا وجاء احدهم وأمسك بيدي وقادني حيث لا أرى شيئاً وبعدها أوقفني أمام جدران إحدى الغرف وجاء أحدهم ولكمني من الخلف بضربة قوية على ظهري ما اضطرني للركوع على الأرض من شدة الألم وانهال عليّ بالرفس واللكم وتوعدني بدولاب ونهضت من شدة الخوف وقد نسيت ألمي لحظات، استعدت فيها جزءاً من توازني وبدأت أميز بعض الأشياء، واستطعت ان اسمع ما يجري من أحاديث في تلك الغرفة .. نعم قوس المحكمة حيث سمعت أحدهم يكذّب احد السجناء ويشتمه وتوعده أن يعدمه ومن ثم طرده، وأمر بعد ذلك من الشرطة أن يتولوا أمره. أدركت ماذا يعني بكلامه من إنزال أقصى العقوبة بالسجين وطلبوا منه رفع رأسه بحيث حفظوا ملامح وجهه وسألوه من أي مهجع وطلبوا من البلدية أن يقوده إلى مكان بعيد عن السجناء ويراقبوه بينما كان احد عناصر الشرطة يسبه ويشتمه وهو يقول حتى تعرف يا ابن الشرموطة .. وتتعلم كيف يجب أن تقف أمام أسيادك باستعداد.

أمسك أحدهم بيدي فجأة تفوح منه رائحة التبغ ممزوجة بعطر فاخر وصوته متزن وتلك الأشياء تخص مساعد

---

[3] الطميشة: قناع مطاطي سميك أسود اللون يعصب به السجين عينيه بشكل دائم مصنوع من إطار السيارت.

انضباط السجن وهمس في أذني ما اسمك .. ثم جرني من يدي وأدخلني إلى غرفة، تتعالى فيها أصوات عديدة. هم يتداولون "مواد وقوانين" وطلب احدهم من آخر أن يكتب ويسجل استنادا إلى المادة .. من قانون رقم .. يحكم السجين لمدة خمسة عشر عاماً أشغال شاقة لانتمائه لتنظيم سياسي محظور ومناهضة لأهداف الثورة، ورد آخر وقال يا سيادة اللواء هذا قليل يجب تكون عقوبة أكثر من ذلك، فرد عليه أعتقد أن هذا الحكم مناسب حسب رأيي ..

ما اسمك؟ قال ها أنت .. ما اسمك؟ فلم يرد احد، وطلب من المساعد قائلاً يا "مساعد" ارفع الطميشة، أحسست بيد تنزع عن عيني الطميشة أدركت بأنني المقصود، ما زالت عيناي مغمضتان قال أحدهم:

افتح عينك يا ابني ..

أنا سيدي ..

قال نعم أنت ..

في حدا غيرك، ضحك البعض منهم وأنا لا زلت مغمضا عينيّ

فرد آخر نعم أنت ..

فتحت عيني أحسست بظلام الغرفة لفترة وجيزة بدأت الصورة تتضح أمام ناظري والأشخاص المتواجدون اتضحت لي ملامح وجوههم، نظرت نحو اليمين يجلس شخص يرتدي بزة عسكرية عمره يتجاوز الأربعين عاما يجلس خلف طاولة ممتلئة بالأوراق والمصنفات قال لي اسمك قلت "حسن" وبدأ يفتش من بين المصنفات وأخذ مصناً لونه أخضر وسلمه للذي يجلس بجواره ونظرت إلى الشخص الذي استلم المصنف، يجلس إلى يساره يرتدي سترة بيضاء وقميصاً ملوناً رغم سن عمره المتقدم وإلى اليسار منه شخص آخر يرتدي بذلة مدنية وآخر يرتدي بزة عسكرية وهيئته هيئة ضابط والذي بجانبه يرتدي أيضاً بزة عسكرية وآخر يرتدي زياً مدنياً والجميع أعمارهم بين متوسطة ومتقدمة في السن، واحد فقط منهم بين على كتفيه رتبة عكسرية برتبة عقيد ركن ..

كلمني الذي يرتدي السترة البيضاء قائلاً أنت امام محكمة يا بني، كذب لا تكذب .. وقل الحقيقة والكذب ليس في صالحك ونحن نعرف عنك كل شيء مفهوم ..

مفهوم سيدي ..
هذه محكمة، أنا رئيس المحكمة وأشار بيده إلى الآخرين مساعد رئيس المحكمة سيادة العميد. وأعضاء المحكمة (كلهم ضباط في الجيش والمخابرات على ما بدا لي كون احدهم يضع على كتفيه رتبة عسكرية وهذا يؤكد كلام السجين الذي كان يتبادل أطراف الحديث مع الذي من خلفه)، الصورة واضحة ..
واضحة سيدي ..؟؟؟
كما قلت لك لا اريد منك أن تكذب ..
حاضر سيدي ..
وقف الذي يرتدي بذلة مدنية ثم قال ..
اسمع يا ابني كما ذكر لك نحن نعرف عنك وعن كل مواطن في هذا البلد كل شيء وبشكل خاص لدينا معلومات عنك منذ أن ولدتك أمك حتى هذه اللحظة.
شعرت أنني أمام مجموعة من المحققين ولست امام محكمة، جلس وتناول فنجان القهوة التي تفوح منه رائحة الهيل، التي لم أشمها منذ سنوات والتي تذكرني بطفولتي عندما كنت اذهب إلى ديوان القرية لأسمع صوت المهباش الذي يطربني وأرتشف القهوة العربية أتدفأ على جمر الموقد المتوهج وأسمع حكايات من العجوز حج قادر رحمه الله بصوته المتحشرج دائما عن الاحتلال الفرنسي لسورية، وعن سفربرلك و(العصملية) (المجيدة) وأحصنة الدرك ورحلته إلى الحج مشياً على الأقدام التي استغرقت شهور مروراً بالقدس الشريف ومنتهياً ببيت الله الحرام وحروب القبائل العربية فيما بينها وغزو البدو والشوايا والغنائم التي كان يحصل عليها كي يطعم أبنائه.
حسن .. نعم والدتك خود .. نعم تولد 1964 ..
متى وأي عام التحقت بالتنظيم ومن الذي نظمك ..
انا سيدي .. لا انتمي لأي تنظيم سياسي ولم يعرض لي أحد التنظيم ..
تكذب أنا بين يدي ضبط منظم مدونٌ فيه اعترافك أثناء التحقيق ..
سيدي .. احلف لك بالله أنني لست منظما .. وأنا لم يكن اعترفي اثناء التحقيق انني انتمي لأي تنظيم سياسي ..
هل تعني بكلامك هذا أنهم اتهموك والقوا القبض عليك افتراء، هكذا لله ..

نعم سيدي ..
وقف من على الطاولة منزعجاً يسبني ويشتم ويتهمني بالكذب بالرغم أنني تكلمت الحقيقية
من أين لك السلاح ..
السلاح سيدي متوفر بكثرة وكل مواطن يحمله وهذا جزء من التقاليد الشائعة في المنطقة ورغبت في الحصول عليه للمشاركة في الأعراس ..
من أين حصلت عليه ..
من احد أقربائي سيدي ..
أقربائك كلهم موالون لهذا التنظيم ..
لا ادري سيدي ..
لا تدري .. الا تعلم أن القانون لا يحمي المغفلين ولماذا لم تخبر السلطات الأمنية عن ذلك ..
كما ذكرت لك سيدي كل الناس تحمل السلاح وتطلق العيارات النارية في الأعراس ..
هؤلاء أسلحتهم مرخصة حزبياً .. لو أبلغت السلطات لكان وضعك أفضل من ذلك وكان عندك رخصة سلاح والآن في بيت اهلك ..
سيدي لست لدي الرغبة بحمل السلاح مهما كانت صفتي وهذا يدل على أنني قد بعت قطعة السلاح التي كانت بين يدي لأحد أقربائي ..
أنت تكذب ..
حاضر سيدي ..
يلعن أبوك وأبو سيدك يا ابن العرصة والله إن لم تقل الحقيقة سوف اجعل عظامك تأكلها ضباع الصحراء ..
سيدي .. قسماً بالله العظيم الذي ذكرته هو الحقيقة ..
خونة كلاب عملاء ..
كم مرة ذهبت إلى العراق ..
ولا مرة سيدي ..
صمت سيادته بعض الشيء وأخذ يسند ظهره بقوة على مسند الكرسي وطقطقت فقرات ظهره مسموعة ويتفحصني بنظراته من أعلى رأسي حتى أخمص قدمي وأخذ كأس الماء التي بجانبه وشرب منها. وقال لي:
شوف ولاك أنا طولت بالي معاك أكثر من اللازم واعترافاتك مدونة على الورق وعليها بصمة ابهامك وكل ما قلت لا ينفعك بشيء وإذ لم تقل الحقيقة سوف اعرضك للتحقيق مرة أخرى ..

سيدي .. هذا كل ما لدي وأنا تعرضت للتعذيب اثناء التحقيق وليس لدي ما أضيفه وأنا ادفع ثمن جرم لم اقترفه ولا استحق ان أكون بهذا المكان ولا زلت اتعرض للتعذيب في هذا المكان وبشكل يومي ..
ردّ من احدهم ماذا تتوقع يا ابن الزانية نأخذك لفندق مرديان ..
لم استطع الالتفات نحوه ..
صمتُ ..
أحدهم: سيدي اصرفوه ..
صمت الجميع ..
الخوف يقطع أوصال جسدي، وجهلي لما يحدث جعل مني قوياً وخائفاً ولكن الموت قادم على كل الأحوال إذا لم أمت بقرار منه سوف أموت في هذا المكان وتحت سوط الجلاد أو رفساً ببوطه ..
سيدي لماذا ألقى هذا المصير أنت قاضٍ فأنصفني ..
أنت مجرم كاذب وخائن ..
سيدي أرجوك ..
شدني أحدهم بقوة من ذراعي الأيسر، وصاح مساعد أول (..) خذ هذا الكلب ..
أمسك رقبتي بكفه من الخلف وشدني وضغط عليها بقوة وشعرت انها قد انفصلت عن باقي الجسد وخرج بي من باب الغرفة إلى ممر ضيق وبعد أمتار قليلة وقف وضرب رأسي بالحائط بقوة وعلى أثرها شاهدت كل شيء يدور من حولي وأشياء تلمع أمام ناظري ورائحة الدم تفوح من انفي، وطنين مزعج في أذني وكأنني قد هويت من قمة جبل شاهق، رغم كل هذا وذاك الهلاك الذي أنا فيه حاولت جاهداً وأنا اضغط على نفسي كي استعيد جزءاً من وعيي الذي أنا بحاجة إليه في تلك اللحظة، سمعت صوتاً وكأنه قادم من بعيد يطلب مني النهوض لم استطع كلما حاولت الوقوف يفقد جسدي توازنه وترتسم أمام عيني صورة غيمة سوداء، ألمٌ تحسست به بعض الشيء في ظهري وبدا لي بأن احدهم يرفسني من الخلف، كم من الوقت استغرق ذلك لا أعرف. حين بدأت ذاكرتي تعود إلي بعض الشيء من الوعي تحت ضغط الخوف نهضت وشاهدت عددا من عناصر الشرطة يطوقون جسدي من كل الجهات ..
نادى أحدهم .. بلدية شرموط .. تعال بسرعة.

خذ الكلب .. أمسك البلدية بي من ظهري وجرني بقوة، ثم طلب منه الوقوف، وصاح هيه أنت .. هناك شرطي .. تعال شعرت بقدوم الشرطي وأنا منحني الرأس باتجاه الأرض شاهدت البوط العسكري ومقدمة السوط الأسود العريض الذي يحمل مؤخرته بيده ..
هذا (معلّم) طلب مني الشرطي أن أغمض عيني وأرفع رأسي عالياً وصفعني على وجهي وقال لقد حفظت ملامحه جيداً وقادني البلدية دون أضع الطميشة على عيني وهي ما زالت معلقة حول رقبتي إلى الباحة حيث شاهدت جمعاً كثيراً من السجناء ..
قف يا عرصة قال لي البلدية ..
من أي مهجع أنت ..
من المهجع 11 ..
ثم جرني ثانية حيث يتواجد سجناء المهجع وطلب مني أن أتوقف مرة أخرى وشعرت أنني قد تكومت على أجساد من البشر حيث تراجع إلى الخلف من ثم رفسني بقوة باتجاه الحشد البشري الذي يلتحف الأرض ينتظر كل واحد منهم الدور للمثول أمام القاضي ..
كلما يأتي احد من عناصر البلدية والشرطة يضربني ويهددنني، وحرارة الشمس المحرقة تلسع جسدي والدماء تنزف من أنفي وأمنيتي أن أعود إلى المهجع لأنني بحاجة للنوم تحت أي ظرف لأريح جسدي المتعب ..

<u>ضحايا تشابه الأسماء</u>

بينما كنت أتناول طعام الإفطار، وهو ملعقة صغيرة من مربى المشمش وربع بيضة مسلوقة تفوح منها رائحة العفن، دفعت سخرة الطعام الثمن الباهظ لإدخالها، حيث نزفت دماء الرفيق أبو صقر (الديري) نتيجة ضربه من قبل احد عناصر الشرطة العسكرية على رأسه بقضيب معدني، دخل باسماً رغم الألم الناتج عن قوة الضربه يتكلم بلهجته الديرية: "شكون .. بالريش ول أخوي لا عاش عمر الردي"، ضحكت منه وقلبي يعتصر ألماً على كل قطرة دم تنزف من جبينه الشامخ. هرع الشيخ أبو حذيفة إليه مسرعاً، ووضع كفه على رأسه حيث الدماء تنزف من بين أصابعه وهو يقرأ من ذكر الله

ما تيسر له، إيماناً منه بأن الله قد يخفف عنه الألم وينقطع النزيف.
إنه صباح تدمري آخر، دائماً هو ممزوج بالموت والتعذيب الذي لا يمكن أن يتحمله بشر على وجه هذه البسيطة، ضيق المكان كهوف مظلمة، سوط الجلاد وعصاه المعدنية، كلها في الذاكرة اليومية، ننام مجبرين مبكراً ونستيقظ كذلك، طبول كثيرة تقرع في رؤوسنا وأصوات المعذبين في الباحات الأخرى تنذر بقدومهم إلينا. ما يدهشني أننا نصمد من الصباح حتى المساء، والصمت لغتنا، ذلك الذي يسكنه الخوف والترقب، الكل حزين وبائس وصامت. بعضنا يقرأ القرآن في سريرته دون أي حركة من الشفاه خوفاً من أن يراه الحراس، آخرون يضعون رووسهم بين أرجلهم، حيث تذرف الدموع من أعينهم خجلاً من أن يراهم أحد من الداخل .. إنه الجحيم، وألسنة اللهب تطال الجميع شاباً وكهلاً، معافى ومريضاً، مجنوناً وصاحياً.
هرع الجميع فجأة إلى الزواية ووجههم باتجاه الحائط ورئيس المهجع إلى الباب .. حاضر سيدي، حاضر.
الرقيب كان حاضراً إلى الباب دون أن يشعر أحد بقدومه رغم الصمت الذي كان يخيم على المكان الرقيب ..
اسمع ولاك ليش كل هذا الصوت طالع من عندك يا رئيس المهجع يا ابن الشرموطة .. حاضر سيدي. تعال يا شرموط اخرج إلى الباحة حتى تتأدب ويتأدب كلابك.
خرج رئيس المهجع ولم نسمع صوته الذي اختفى تحت صوت الكرابيج الغليظة التي تطلق صوتاً قوياً. لقد عرّوا ظهره وجلدوه ما يقارب مائتي جلدة وأدخلوه بعدها إلى المهجع .. فقال له: اسمع .. اسم هذا الكلب موجود عندك في المهجع، شنهو[4] الاسم سيدي .. حسن .. نعم سيدي موجود. هرعت إلى الباب مسرعاً لا أدري ماذا أفعل، وعزائمي قد انهارت وتسارعت دقات قلبي الذي يكاد أن يخرج من بين أضلعي، وارتفعت حرارة جسدي، ولكن سأخرج على كل حال.
صاح بي .. اخرج يا ابن القحبة دوختني عليك، الآن تعرف شو راح نعمل فيك .. يا ابن الشرموطة .. خرجت ووضع السوط في رقبتي وأنا منحني الرأس والظهر، جرني كما يجر كلباً مصاب بالجرب، يهددني بالموت وأنه سوف

[4] شنهو: من اللهجة الفراتية (للاستفسار) .

يضع حبل المشنقة حول رقبتي، ويتهمني بأنني كنت مختبأ وهم يبحثون عني منذ الصباح، وأنا الذي حفرت قبري بيدي، وكأن لي يدين في هذا الظلام.
خوف اللحظة قد اختفى وحضر الخوف القادم الذي لا أعلم عنه شيئاً، إن قال الإعدام شنقاً أو ضرباً بالعصي فهو صادق .. إن جسدي ملعون بالنسبة لهم، وكل خلية فيه هي ملك لهم وفناءه ليس مستحيلاً. ونحن في الطريق أوقفه احدهم وسأله:
- هل وجدته.
فقال له: نعم.
- في أي مهجع .. المهجع 11.
- بسيطة .. يا ابن القوادة ..
قالها في نية مبيته لي وكأنه يريد الانتقام مني في تلك اللحظة، ولكن لا أعلم ما الذي منعه من ذلك.
أدخلني من باب حديدي سميك وضيق، طلب مني أن احني راسي الذي هو منحي اصلاً وقفت بمكان تفوح منه رائحة البيض المقلي، ورائحة الشاي والتبغ، وصوت المطرب فؤاد غازي الذي ينطلق على ما بدا لي من الراديو، وأحدهم يردد من ورائه، طلب مني الرقيب الجلوس أرضاً وأن أغمض عيني، ووجهي باتجاه الجدار، وقيد يدي خلف ظهري بسلاسل من حديد، رفسني أحدهم من الخلف وهو يسبني ويضربني على رأسي ويقول:
"بدي أذبحك يا ابن المهيفة يا ابن الديوسة، مجرمين خونة والله إلا أقطع رووسكم، بدي أجيب امك وأختك .. أكيد أختك حلوة .. بدي ألعب عليهن الطسة[5] ".
انتابني غضب شديد وألم يمزق أحشائي، وكنت أتمنى أت أموت في تلك الساعة دون أسمع ذلك.
شعرت بقدوم أحدهم، وطلب من الشرطي أن يأخذني إلى المكتب، وجرني وهرع بي مسرعاً. أحسست أنني في غرفة لا يوجد فيها أحد. طلبا مني الوقوف باتجاه الحائط، هددني كالعادة إن اتيت بأي حركة سوف تكون تلك الحركة نهايتي. خرج على ما بدا لي لم .. يعد في الغرفة أصوات، ساد المكان الصمت المخيف، يمرون بك

---

[5] الطسّة: هي لعبة مشينة، وكثيراً ما تضر بالجسد والكرامة الانسانية (وتلك من اللهجة الفراتية).

كالأشباح وأحياناً كثيرة يقفون من ورائك دون تشعر وتفاجأ بضربات قوية على رأسك.
إعدام .. نعم. قلتها في سريرتي .. من الذي يمنعهم من فعل ذلك؟ صمدت كثيراً وأنا متعب الآن، وآن الآوان كي أرتاح، ليستسلم قلبي لذلك، أنا لم أعد أستطع يا أسياد الموت أن أحييكم، لن أصفق لكم بعد اليوم قهراً، لن أضحي بقطرة دم بعد الآن كي يرسلوها ببرقية "عهد وولاء بالدم"، أنا مسافر بلا حقائب .. بلا كلمة سيدي .. بلا توسل، فمرحباً بالموت الذي لم أختره، والدموع تسيل لتنساب نحو فمي، لأتذوق طعمها الذي قد ينقذني من مّر العذاب.
لحظة أخرى وجاء أحدهم وبصحبته آخر، هذا ما تبين لي من تبادل الحديث فيما بينهما. طلب مني أن أرفع رأسي وأغمض عيني، وهمس بالذي بجانبه هذا مش هو؟؟ هو يا رجل .. ثم سألني ما اسمك .. اسمي .. انا سجين .. شو يا حيوان شو اسمك .. أنا سيدي .. إيه إنت .. اسمك والكنية تبعك .. حسن الهويدي، سيدي .. يلعن قوط أمك .. حاضر سيدي .. أنا سيدك غصب عن اللي خلفك يا ابن القحبة. ثم رفع رأسي بيده وصفعني بقوة على خدي عدة مرات حتى خدر تماماً ولم أعد اشعر من ضرباته بشيء .. لكن رسمت أصابعه أثراً على خديّ، فردّ عليه الذي بجواره قائلاً: "خلص يا زلمة المعلم يحكي على الهاتف، أجلها بعد ما يخلص المعلم من المكالمة، أشو هذا من العصابة المجرمة وعميل لأمريكا وإسرائيل وقتله حلال".
سرعان ما خطر في بالي أنني اعتقلت أثناء تأدية خدمة العلم، هل يعقل ان يتهموني بالتجسس لصالح إسرئيل؟ ممكن .. أكدت لنفسي ذلك وكل الاحتمالات مفتوحة.
شعرت بألم لا يحتمل في عنقي دون أن يمسني أحد، ولكن شممت رائحة التبغ المشتعل، وبعد لحظة زاد الألم وجس عنقي شيء لا أعلم ما هو، وبدأ عنقي يحترق وتفوح منه رائحة اللحم المشوي .. يا إلهي، هل صب احداً مادة "الأسيد" على عنقي، هل أصدق الرواية التي حكاها لي أحد السجناء عن وجود هذه المادة لدى فروع المخابرات، نعم شاهدت سجناء ماتوا نتيجة الضرب بالعصي والقبضان المعدنية والرفس، وشاهدت سجناء ماتوا نتيجة إسقاط القرميد (البلوك) على رؤسهم من

الأعلى. ومات البعض نتيجة المرض وعدم توفر الأدوية والخوف والبرد، ولكن أن تذوب بمادة الأسيد لم أشاهد، ولكن سمعت عدة روايات. هل أكون من الذين سوف يطالهم ذلك؟ من شدة الألم حاولت أن أمد يدي، ولكن كانتا مقيدتين خلف ظهري، لا أستطيع فعل أي شيء. في تلك اللحظة، والموت اقترب أكثر، شعرت بعدم الخوف، لأنني لا أعلم الطريقة التي سأموت بها، ولكن انصب تفكيري حول أسرع وأسهل طرق الموت التي يتبعونها. وبعد لحظات، شعرت بيد اقتربت إلى عنقي أكثر، وأدركت أن أحدهم كان يحرق عنقي بسيجارة وأطفأها فيه. وأنا في تلك الحال، جرني البلدية على ما يبدو، وأخذني إلى مكان مظلم، أحسست ذلك بالرغم من أنني معصب العينين؟ وسمعت باباً يُفتح، وقد تراكم عليه الصدأ وتآكلت البعض من أجزائه. إنها الزنزانة التي يتم تحضير بعض السجناء فيها لتنفيذ حكم الإعدام. أجل هي هكذا، جزمت على نفسي الأمر.

سمعت صوتاً يخاطبني:

- أنت حسن؟ ..
- نعم سيدي ..
- أين كنت تخدم بالجيش قبل اعتقالك؟
- "قوات خاصة" سيدي ..
- قلت قوات خاصة ..
- نعم .. هل حاولت قتل أحد من الضباط في وحدتك العسكرية ..
- أنا سيدي؟ ..
- إلا أنا! ..
- لا سيدي ..

فرد بصوت هادئ: هل انت متأكد .. متأكد سيدي .. يلعن بيك .. والله والله وحق الرب يا كلاب سوف تموتون موت الجرادين بالسم، كلب ولا .. حين توقفت كم بقي لديك من الخدمة .. شهران وأتسرح. صاح بي اقترب، لا أدري في أي اتجاه، ولكن اتجهت نحو مصدر الصوت، واصطدمت بشيء صلب ووقفت، قال لي:

- عمال تبصبص يا ابن القحبة .. هلق بقلعلك عيونك .. بلدية .. بلدية حمار ..
- نعم سيدي ارفع الطميشة عن هل العرصة ..

البلدية: ارخي رأسك يا ابن الشرموطة .. وفك الرباط عن عيني، ونظرت باتجاه الشخص الذي كان يكلمني .. اقترب يا عرصة. اقتربت .. هل هذا دفتر خدمة العلم لك؟ نعم سيدي. قلتها ولا أدري. فتحه على صفحة معينة ونظر في الصورة الملصوقة عليه والاسم والعنوان ثم وجهه نحوي، وقال لي تأكد. نظرت إلى الصورة التي لم أر صورة وجهي من خلالها منذ سنوات .. هل يعقل هذا أنا .. شعر طويل وشباب مرح ونظرة متفائلة بالحياة ..

- نعم سيدي إنه لي.

وضعه على الطاولة، وأخرج بعض الأوراق ودون البيانات الموجودة في الدفتر، وفتح ظرفاً آخر وأخرج منه أوراقاً وبدأ يقرأ البعض منها. نظر إليّ بطرف عينييه وقال لي:

- مين كان ضابط الأمن في وحدتك ..

- لا أعرف من هو سيدي.

- آ .. آ .. لا تعرف .. نعم .. وضع بعض الأوراق في مقدمة الطاولة وحولها باتجاهي وطلب مني أن أتقدم خطوة واحدة ..

- ابصم.

- حاضر سيدي ..

- ولكن إيدي ..

- شو .. شوبها إيدك؟ مربوطة .. مربوطة بدي أحطها في قوط أمك .. بلدية يا ابني يا حمار خذ الأوراق وضع عليها بصمة حافره.

- المفتاح سيدي ..

- ليش المفتاح؟

-عشان أفتح "الكلبشة" سيدي ..

- المفتاح يا ابن العرص بدي أخلي "بدري بيه أبو كلبشه يحط (..) بقوط أختك وأختو ويفتحن". وصاح به بصوت عال: "امسك إبهامه وبصموا وهي مكلبشة يا حمار" .. ما حلك تفهم يا ابن الحمار؟! حاضر سيدي. أمسك البلدية إصبع الإبهام بقوة باتجاه معاكس شعرت بألم فيه، ولكن لا أستطيع سحبه من يده القوية، ووضعه على ما يبدو في الحبر ومن ثم نحو الأوراق، وكرر ذلك عدة مرات والألم يشتد حتى شعرت بكسر العظم.

أنهى عمله وناوله الأوراق ثم نظر فيها. قال لي: لقد سرحوك من الجيش "لأنو ما بدنا كلاب من أمثالك يخدموا فيه".
رن جرس الهاتف، رفع السماعة بيده القوية، فرد قائلاً .. احترامي سيدي .. حاضر سيدي .. لا سيدي ليس هو .. فقط الأسماء تتشابه .. حاضر. ثم وضع راحة كفه على السماعة ونظر إليّ وسألني من أي مهجع؟ .. من مهجع 11 سيدي. ولادتك من نفس المدينة التي تقيم فيها؟ .. نعم سيدي ثم واصل حديثه على الهاتف .. لا سيدي أنا متأكد، ليس هو، ومتأكد من فارق السن أيضاً هذا ما زال في خدمة العلم ومن مواليد 1964، ومكان الولادة يختلف أيضاً .. حاضر سيدي متأكد مائة في المائة .. أمرك سيدي. ثم أغلق سماعة الهاتف وصاح بصوته النشاز: بلدية .. خذ الحمار .. حاضر .. وجرني البلدية كعادته، وأخرجني من الغرفة دون ان يعصب عيني. وحين وقف كان رأسي منحياً نحو الأسفل، وضربني بقوة عليه، وقال لي: "رافع الطميشة يا ابن الشرموطة". وصاح بالرقيب: حضرة الرقيب .. هذا الكلب كان رافعها .. "أخ علق، بدي ارفع رجلو ورجل خيتو"، قال هذا الكلام وهو قادم نحوي. وقبل أن يصل رفسني ببوطه العسكري بقوة على وجهي وسالت الدماء من أنفي .. "تبصبص يا ابن القحبه ما هيك، والله لقلع عيونك" .. سيدي أنا لم أرفع الطميشة، ولكن هم رفعوها وتأكد حضرتك من ذلك، كيف لي رفعها وأنا مقيد اليدين. ثم رفسني ثانية وقال لي: "اخرس يا ابن الشرموطة وتحكي كمان .. هذا أصدق من بيك وبي إللي خلفوك". بلدية جر هالكلب وقعدوا في الباحة الأولى لحين مجيئي .. حاضر حضرة الرقيب. وجرني بلدية مسرعاً، ودفعني من خلال عتبة الباب التي أوصلني إليها ووقعت على الأرض، ولم استطع النهوض كون يداي مقيدتين خلف ظهري، وهو يصيح بي: "قوم وقف يا عرصة". ثم سحلني إلى الباحة الأولى، ووقف وقلب ظهري إلى الأعلى، ومن ثم داس على ظهري بقوة وبدأ يدبك ويغني "لزرع لك بستان ورود وشجرة زغيرة تفييك، بدي أحط (..) فيك يا ابن الشرموطة".
ثم جاء الرقيب وطلب من البلدية أن يأتي بالكرباج. من أول ضربة تقع على ظهري صدر منه صوت وكأنه

الانفجار، وأمعائي تكاد تخرج من فمي، وكلما استدرت على جهة ما، كان الضرب ينهال على جسدي بشكل عشوائي من كل ناحية. ورأسي الذي تعرض للضرب لا أستطيع حمايته بيدي المكبلتين بسلاسل الحديد. هكذا حتى فقدت الوعي كلياً، صحوت وأنا بداخل المهجع.
نظر إلي الجميع بحزن وهم يحاولون أن يفهموا ماذا حصل لي في الإدارة، وماذا كانوا يريدون مني، ولمَ تعرضت لهذا الضرب الذي شوّه كل أعضاء جسدي.
اقترب مني الشيخ أبو حذيفة، ومد لي رجلي نحوه وهو يمسدهن برفق وشفتاه تتحرك ببطء شديد، كأنه يطلب من الله شيئاً من الرحمة لي وعيناه مغرورقتان بالدمع، إن رف طرفه سرعان ما تسيل، لكنه أصرّ على أن لا ترف حتى يمدني بالشجاعة التي هي جزء لا يتجزأ من شخصيته، ثم سألني وهو يضع يده على جبيني: ماذا كانوا يريدون منك؟ رددت عليه بصوتي الذي أحاول أن يكون قد تخطى مرحلة الألم: طلبوني من أجل التسريح من خدمة العلم .. الحمد لله .. قالها بعمق وصدق .. المهم ليس تحقيق من جديد .. قلت له: لا .. من أجل الجيش. طلب لي الماء من أحد السجناء، وبلّ قطعة قماش ومسح أثر الدماء الجافة حول أنفي ووجهي.
وبقي حالي هكذا لأيام، حتى استعدت نشاطي من جديد، وعليّ أن أخرج من فترة النقاهة التي نعطيها لبعض في الداخل، وأخرجوا من المهجع حوالي عشرة سجناء لا ندري إلى أين. وبعدها بساعات أحضروا إلينا حوالي خمسة عشر سجيناً من الباحة الثالثة والرابعة كانوا موزعين قبل أشهر في الفروع الأمنية التي قضوا فيها سنوات طويلة، وتم تجميعهم في سجن تدمر تمهيداً لمحاكمتهم. تم توزيعهم من قبل رئيس المهجع على المجموعات، وطلب منهم أن يعرفوا على أنفسهم على الملأ ومن أي مدينة وما هي التهمة الموجه لكل واحد منهم، فمعظمهم من تيار الإخوان المسلمين. وطلب منهم رئيس المهجع أن يقف من كل مهجع واحد، ويعلم الناس بأهم الأخبار، إن كانت هناك أخبار جديدة، وهذا عرف بين السجناء داخل تدمر. وقف أحدهم يحمل خبراً جديداً عن طريق أحد السجناء الذي ذهب إلى مشفى التل العسكري لإجراء عمل جراحي هناك، أبلغهم هناك بنية لصدور عفو رئاسي وهذا الخبر سمعه من أحد

الممرضين في المشفى، وهكذا أخبار من النوع الذي سرعان ما تلقى انتشاراً في السجن، وسرعان ما ظهر على وجوه الكثيرين بارقة أمل.
وقف سجين من مهجع آخر، فقال ليس لدي أخبار مطمئنة، الخبر الوحيد المزعج تم اعتقال القيادي في تنظيم الإخوان الدكتور "حسن الهويدي". ظهرت بادرة الاستنكار والحزن على تنظيم الإخوان، ووقف أحد السجناء وطلب منه ان يوضح من أين مصدر الخبر.
فقال: منذ فترة قرأوا اسمه عندنا في المهجع وبقية المهاجع الاخرى. وسأل متعجباً: ألم يقرأوا اسمه في مهجعكم؟ أدرك رئيس المهجع ذلك، ووقفق قائلاً: بلا، وموجود عندنا في المهجع. وقف جميع الذين جاؤوا مندهشين: أين هو؟ ارتفع الصوت في الداخل ويكاد يسمعه الحرس، تدخل المسؤول الصحي حتى يلتزم الناس الهدوء. ضحك الجميع وهم ما زالوا مندهشين ومتشوقين لرؤيته .. حسن الهويدي قوم وقف .. قال ذلك رئيس المهجع، وقفت وهم ينظرون إليّ بدهشة: هل يعقل أن هو، ولكن؟؟ جلسوا، وما زالوا ينظرون إليّ بتمعن. فقال لهم رئيس المهجع: هذا هو حسن الهويدي الذي قرأوا اسمه من فترة، وهو موجود في هذا المكان من أكثرمن سنة، وليس الذي تقصدونه، والحمد لله هذا ولا ذاك. ردّ أحدهم: كيف نعلم البقية في المهاجع الأخرى لأنهم مستنكرين ومتوترين جداً، وحدثت مصادمات بين السجناء وكل السجن متوتر؟ ردّ رئيس المجهع نحن هنا منعزلون عن العالم، وليس لدنيا أي وسيلة اتصال، ولكن الذين خرجوا من عندنا شيء مؤكد أخذوهم إلى مهاجع أخرى وسوف تتوضح الصورة عند البقية.
هكذا كدت أن أقع ضحية هذا التشابه بالأسماء، كما وقع الكثيرون وراحوا ضحايا لأسماء متشابه .

شهادات عن التعذيب

التعذيب في سجن تدمر مؤلم وموجع، ولكنه ليس اقل سوءا من التعذيب في أقبية المخابرات، فعندما ألقي القبض عليّ من قبل عناصر المخابرات، والتي كانت عبارة عن عملية اختطاف عالية الدقة والتصميم، فجأة وبلا أي إنذار أو إشارة وجدت نفسي محاطاً بمجموعة

من العناصر المدججين بالسلاح، وكأنما ينوون تحرير الجولان في عملية عسكرية خاطفة، ولكن تلك الأسلحة كانت موجهة نحوي، وأمروني بالصعود إلى السيارة بلا أية حركة قد تكلفني حياتي. لا أدري كيف صعدت إلى السيارة ومتى ومن دفعني بداخلها. حشروني في مكان ضيق بين المقعد الأمامي والخلفي، وانطلقت السيارة بسرعة جنونية وهي تشق عنانها في شوارع المدينة متجهة إلى مفرزة الأمن العسكري، والعناصر فرحين بإلقاء القبض عليّ دون أن أبدي أي مقاومة، وهم يتكلمون عن إنجازهم البطولي الذي حققوه إزاء ذلك وفي زمن قصير. توقفت السيارة، وأخرجوني منها، وضعوني في زنزانة ضيقة مليئة بالأوساخ نتيجة تغوط وتبول الذين دخلوها من قبلي. وبعد ربع ساعة شعرت بأنني أختنق رغم برودة الطقس؛ نتيجة تصاعد تلك الراوئح الكريهة التي لم أعتد عليها. تركوا كل أشيائي التي بحوزتي، لم يأخذوها مني (بعد)، مثل الساعة والهوية العسكرية وبعض النقود، وهي مبلغ بسيط لم يتجاوز المائة وخمسين ليرة سورية. لم أعد أحتمل تلك الرائحة، وأخذت أدق على باب الزنزانة، فتح لي أحدهم فتحة صغيرة متداخلة في الباب الرئيسي للزنزانة:
- شو ولا .. شو بدك؟
- شوو .. شو، بدي أشم الهوا .. إنني أكاد أن اختنق.
فرد بلهجة المستهزئ: إي طول بالك كلها عشر دقائق ويأخذونك إلى صلنفة مشان تشم الهواء النقي على راحتك. وأغلق الفتحة وغادر. نظرت إلى الساعة حوالي الثانية بعد الظهر، وها قد مرت عليّ كل تلك الفترة دون أن يأتي أحد من عناصر الأمن يسألني أو يستجوبني. دققت على باب الزنزانة مرة أخرى بقوة، وفتح أحدهم الفتحة الضيقة ذاتها، قلت إنني بحاجة لذهاب إلى دورات المياه، نظر إليّ بتمعن كأن عنيه تريد أن تقول أشياء قد لا أفهمها، قال ليختصر عليّ ذلك التساؤل: أنا شايفك بس وين لا اعرف ..
- أنت من المدنية؟ نعم ..
أنت من بيت فلان؟ نعم أنا منهم. فقلت له أريد أن اذهب إلى دورات المياه لأنني بحاجة لذلك .. فرد عليّ: طوّل بالك شوي .. بس ليش جابوك لهون؟ .. قلت: له لا أدري .. فقال: ماشي راح أطالعك، بس تطلع بسرعة

لأنو هذا ممنوع وإذ شافنا أحدهم يخربوا بيتي .. فتح باب الزنزانة وذهب إلى آخر الممر ونظر في عدة جهات، ومن ثم أشار إليّ بيده: أخرج بسرعة .. خرجت مسرعاً، ودخلت إلى المرحاض وقضيت حاجتي في أقل من دقيقة وعدت إلى الزنزانة وأغلق الباب، ونظر إليّ وفي قلبه حسرة كأنه يعلم أنني ذاهب بدون عودة ..
بضع لحظات، انفتح باب الزنزانة، وإذ به يُطلب مني الخروج وأن لا أنسى حاجياتي داخلها. أمسك بيدي وأخذني إلى غرفة واسعة وكبيرة وخرج وأقفل الباب وراءه. جال ناظري داخلها، آثار دماء ودولاب وكرسي بدون حشوة، وعصي وكابلات معلقة على الجدران وسطل ماء وطاولة خشبية، منظر الغرفة يحتوي بداخله منظر الموت، أطراف أصابع يدي ترتجف من البرد والخوف من المجهول وساقيّ لا يكادان يحملاني ليستند جسدي عليهما وهو ينتظر .. أيتها الجدران أنا مفارق وقلبي يعتصر الألم، والوجع في أعماقي يثقلني أكثر، تلك مفارقها، والهواء حسرة على الروح، الجروح نازفة آثارها على المكان .. أيها الإله ارحمني حياً أو ميتاً، فالذين تعرضوا للتعذيب - أثناء التحقيق - قد نزفوا ليتركوا آثار دمائهم على الجدران، حتى ليشعر الداخلُ أنه مجرد رقم بلا رصيد. فتح الباب رجل أسمر قصير القامة يرتدي زياً مدنياً و آخرون، أحدهم معه كلبشة وآخر بعض الأوراق. طلب مني أن أخلع ثيابي (وأبقى) عارياً والرب يشهد .. خلعتها كما ولدتني أمي، كفاي يستران عورتي وهم ضاحكون للجسد ضحكة البطش والطغيان. وأخذ ملابسي، وبدأ يفتش بها النطاق وبعض النقود التي بحوزتي وجواربي ووضعهن في سلة من البلاستيك. نظرت إلى تلك الجوارب التي اشتريتها حديثاً وهم يرمونها في تلك السلة، عيناي تطلبها ولساني عاجز عن الكلام. وعندما انتهى من التفتيش طلب مني ارتداء ملابسي باستثناء تلك الأشياء: الساعة والنقود والجوارب. قيدوا يديّ إلى الخلف، وجاء أحدهم بقطعة قماش وعصب لي عينيّ. أمسك بي من كتفي وأخرجني، وأحسست بأنني أصعد إلى سيارة. وكان بجانبي واحد لا أعرف من هو، معتقل أم أحد عناصر الدورية. وأمروني بالانبطاح داخل السيارة، وانطلقت مسرعة وهي تترنح من السرعة والضغط المفاجئ على

الفرامل. كنت أجهل وجهتها، مررنا بمدن وبلدات، لا أعرف كم استغرقت، أحسست أنني في مدينة كبيرة، شعرت بذلك لكثرة ضجيج الناس والباعة وصوت محركات السيارات التي نمر بجانبها، والتوقف المفاجئ للسيارة نتيجة الضغط على الفرامل، وسماع أحدهم يسب ويشتم أحد المارة الذي حاول من إعاقة سيرهم، قال للسائق: "كان صدمت هالكلب هدول نصهم أولاد المعلم". وبعد وقت قصير توقفت السيارة عن الحركة، ولم يتوقف محركها عن الدوران، صاح الذي يجلس في المقعد الأمامي افتح الباب، وكأنه يخاطب أحداً بالخارج، ويقصد باباً كبيراً وليس باب السيارة، عرف عن نفسه بأنه دورية وتقل المعتقلين. أدركت حينها أنني لست الوحيد، بل كان معي معتقلون آخرون. دخلت السيارة المكان الذي أجهله تماماً، أين أنا وفي أي فرع للمخابرات؟ .. (عسكري .. أم جوية .. أم سياسية، أم فرع افتتحوه خصيصاً لي، أم .. ؟). فتح باب السيارة .. قال .. استلم واحد .. اثنان .. وصل ..؛ وصل .. وصل والله يعطيكم العافية .. صاح أحدهم .. عريف علي يا عريف تعال لهون وخذ هالكلاب الاثنين هدول على السجن الشرقي، والكلب هذا على المنفردة، ويقصدني بكلامه؛ لأنني أحسست بيده تلمس كتفي. قادني كما يقاد المجرم الخائن لوطنه ينعتني بالمجرم الخائن العميل الذي باع وطنه من أجل حفنة دنانير. فهمت قصده ولم أفهم ما أنا فيه. الرعب والمجهول عطلا كل حواسي، دخلت إلى الزنزانة التي دخلتها رغماً عني وأقفل الباب من ورائي، القفل الذي هزه عدة مرات ليتأكد من إقفاله، زنزانة مظلمة لا أرى فيها شيئاً من شدة العتمة. جلست مقرفصاً منتظراً بصيص ضوء لا أعرف المكان الذي سأجلس فيه. وبعد فترة من الزمن بدأت تتضح أمام ناظري صور أشياء وخيالات، وقفت وتقدمت بخطوة نحو مؤخرة الزنزانة، شعرت أن قدميّ قد اصطدمتا بشيء، تابعت المسير سمعت أحداً يتألم .. آه لقد ذبحتني، دبّ الرعب في قلبي .. من معي في هذا المكان المظلم الضيق. سمعت همساً يقول بصوت موجع مبكي تهتز له الدنيا من ألمه .. يا أخي طلّع قدامك لقد وجعتني .. قدمي .. ما تشوف .. أنا أسف يا أخي لم أقصد ان إيذاءك، ولكن المكان مظلم. أحسست بألم لا

يطاق لأنني قد تسببت بأذى لأحدهم، أسمع أصواتاً ولا أرى وجوهاً، من هؤلاء؟ عليّ أن لا أتكلم، ربما يكون هؤلاء من عناصر الأمن، يجب أن آخذ الحيطة والحذر. كل عشرة ساعات يفتحون الباب لنخرج لقضاء الحاجة، وعندما يحصل ذلك يطلبون منا أن ندير وجوهنا باتجاه الحائط ولا نعلم من خرج منا ومن دخل إلى الزنزانة وبالرغم من فتح الباب لا تزال مظلمة، لا نستطيع رؤية احد وكل منا يخاف من الثاني فلذلك لا نستطيع التكلم مع بعضنا، مر عليّ يومين في الزنزانة ولم يطلبني احد وفي 17/2/1987/ في ساعة متأخرة من الليل (على ما أظن) فتح احدهم باب الزنزانة وهو يحمل بيده "قداحة" ونادى بصوته أنت الذي تلبس بذلة جينز تعال اخرج، خرجت وهمس في أذني ماهو اسمك .. أنا سيدي نعم .. حسن؛ أي حسن .. ؟ حسن الهويدي .. عصب عيني وشدني من يدي ولا اعلم إلى أين يذهب بي وبعد خطوات قليلة أوقفني وقيد يدي وامرني بالجلوس أرضا في فناء واسع وكأنني أما مكتب يطل مباشرة على باحة، كان البرد شديدا والأمطار تهطل والرياح الباردة تخترق ثيابي لتجس في بردها عظامي التي كانت متعبة من جلسة القرفصاء التي كنت أجلسها داخل الزنزانة المزدحمة، أصوات صراخ امرأة تخرج من الغرفة التي أجلسوني امامهاوهي تتوسل ان يبقوا ثيابها على جسدها وان تبوح لهم بكل ما تعرف، ومن خلال الصوت المرتفع كان احدهم ينعتها بالعاهرة ويهددها بالاغتصاب وان الرقيب أبو هارون مستعد لفعل ذلك .. اسمعها جيداً وكأني معها في الغرفة تقول .. يا سيدي والله سوف أقول لكم ما عندي ولكن لا تجرحوا كرامتي .. قال لها احدهم طيب من جاء لك برسالة من العراق .. قالت والله لا احد .. فرد عم تكذبي والله .. إذا لم تقولي الحقيقة سوف آمر عناصر الفرع ان (يغتصبوك كل العناصر) لا .. يا سيدي أنا حرمة وداخلة على عرضك .. بس يا قحبة لا تجيبي سيرة عرضي على لسانك .. أنا يا سيدي داخلة على محمد .. بدي اخلي محمد تبعك يا شرموطة .. أنا داخلة على .. بس .. بس، لامس السوط جسدها وهي تناجي ربها وتقول .. بالله يارب دخيكلم أنا ما إلي علاقة والله ما الي علاقة .. ولاك شرموطة من له علاقة مساعد يحى هات الكهرباء وحطها في

(قوطها) انا داخل على ولادك يا سيدي .. كل تريده انا مستعدة ان أجيب عليه، ها .. هيك الحكي منك حلو من جاء إليكم من العراق يوم 12/1/ من العراق جاء زوجي وكم بقي في البيت يومين .. شو جاب معه لادري ولكن ونام في البيت يومين الم يجلب معه رسائل من العراق وطلب منك ان توزيعها لا .. والله يا سيدي انا أمية لا اقرأ ولا اكتب وكيف ان اعرف إنها رسالة .. ولكن الم يكلفك بتوزيعهن .. لا وما جابلي "طاري". ولك يا قحبة شو بس بدو ينـ (..) ويرجع صممت تلك المرأة التي لا تعي ما تقول ولكن كي تحافظ عل أنوثتها تريد ان تقول أي شيء لعل ذلك قد يخلصها من قضيتهم، نعم سيدي كل شيء ذكرته هو صحيح، طيب السلاح الذي جاء به زوجك أين خبائه، سلاح (يا مصخمة ياني) سلاح! والله ما شفت لا سلاح ولا سخام .. والله. بكت وهي تنوح من الألم ومن شدة الظالم، وتقول: والله .. والله اللي هو أكبر مني ومنك إنو ما شفت حدا وما جاء لا زوجي ولا سخام البيت، بس ش سوي يا ربي، قلتم جا، قلناكم جا، قلتم جاب رسايل قلنا جاب سخام، بس والله ولا شفت حدا ولا مر بيا حدا، ومن راح مهدوم البيت وأنا لا شفت لا صديج ولا قرابة. بكيت عندما سمعت تلك العبارة، وهي تعبر عن أنها وحيدة وكل من حولها قد تخلى عنها نتيجة الخوف على أنفسهم.

الألم يعتصر قلبي الذي أدماه الكلام، امرأة بدون رجل، بدون معيل، أكلها الزمن ووضعها تحت رحمة الجلاد. ابكِ أيتها العصافير، امرأة من بلادي تستغيث، تدفع ثمن ما لم ترتكبه، تبكي على أطفالها الذين شردهم الزمن وأبعد عنهم حنان الأبوين. بكيت ولم أفكر في نفسي، لعلها رحمة من السماء، أن أسمع وأنسى ما أنا فيه من البرد الذي ترتجف أوصالي منه وانتظار المجهول لأستمد الشجاعة من ذلك الصوت الأنثوي الذي صمد ليصمد قلبي. مباركة أيتها الأنثى، ليكن في عونك كل حر شريف. فزعت من صوت السوط الذي هبط على جسدها، لا أدري هل هو عارٍ؟ ولكن وقْع الصوت يوحي بذلك. صرَخَت .. تقول: دخيلك يا وليدي (ولدي) أنا مثل أمك .. أنا حرمة .. والله ما أعرف شي .. والله يا قحبة إن ما حكيتي لتشوفين شي ما شفتيه بحياتك ..

والضرب ينهال عليها وصراخها يملأ المكان، وهم

يريدون منها أن تعترف عن ذنب لم ترتكبه. الوقت يمر ببطء، وصراخها الليلي يبعث برسائل لأهل تلك المدينة النائمة ليفزع جسدي من دقات الجرس، فسرعان ما فتح الباب وكأن أحدهم يقف أمامه .. احترامي سيدي .. خذ هل القحبة وإذا لم تعترف شوف شغلك معها. أنين وألم صوتها الذي خرج .. يطلب منها المسير وهي تقول: لا أقدر، قدماي متورمتان .. .امشي يا قحبة بتعرفي بس تاخذي مصاري من صدام .. يلعن أبوك على أبو صدام .. والله هلق لخلي الشباب ينبسطوا عليك .. امشي عاملة حالك ما تحسني، والله لو بتشوفي (..) كان انبسطتي. خرجت تسير ببطء من أثر السوط الذي حرث جسدها واستباحه، رائحة الخمر تفوح من المكان، وضحكات الجلادين تملؤه هم سكارى، وأرواح الناس بين أقداحهم مصائرها، فتلك المرأة كانت رقماً ونحن الأرقام الأخرى.

<u>شهادات عن التعذيب</u>

أبقوني جالساً بعدما أنهوا التحقيق مع تلك المرأة التي أخذوها .. وأبو هارون الذي هددها بالاغتصاب منتصب خلفي بصوته الذي يرعب الكثيرين .. ينتظر، رفسة من الخلف على جسدي كادت أن تودي بي حيث توزع الوجع على جميع أنحاء جسدي وبتُّ لا أستطيع التنفس، وتم سحلي إلى داخل مكان شعرت راحتا قدمي بدفئه إضافة إلى أجزاء جسدي المكشوفة؛ لأنهم سرقوا حذائي وجواربي وبت أمشي حافي القدمين .. الصمت يخيم على المكان ورائحة التبغ ممزوجة بعطر المكان الذي بدا لي أنه مكتب لأحد الضباط ..

أنتظر المجهول القادم وأنا مقيد اليدين، معصوب العينين، فزعت بمكاني حينما رن جرس الهاتف الذي طالت رنته، ألو .. ألو حاضر سيدي، ذهب إلى الحمام وسوف يعود بعد عشر دقائق وأقفل الخط من الطرف الآخر دون أن ينهي هذا كلامه. بدا لي أن المتحدث هو برتبة عسكرية كبيرة. لا أدري كم هو الوقت وكم سأبقى في هذا المكان الذي لا صوت فيه ولا حركة ..

وبعد برهة من الوقت شعرت بدخول أحدهم، وهذا من توجس جسدي بلفحة البرد القادمة من الخارج.

رن جرس معلق على مدخل المكتب على ما بدا لي بصوت بلبل .. احترامي سيدي احترمناك .. ابعث لي المساعد يحيى والملازم أول .. والرائد .. حاضر سيدي ..
وبعد مضي قليل من الوقت فتح باب المكتب ثانية احترامي سيدي .احترامي سيدي ووو .. هلا اقعدوا، فرد بصوته الذي بدا انه يبحث في أوراق على مكتبه ورن جرس المكتب ثانية: احترامي سيدي .. روح ابعث لي الرقيب الحيوان علي بسرعة .. حاضر سيدي.
بعد ذلك بقليل دخل ..
احترامي سيدي .. أهلاً، قالها بصوت عال .. وين إضبارة الحيوان هيدا .. قدامك على المكتب سيدي .. شو مانها موجودة. عفواً سيدي لحظة، ذهب إلى أمام الطاولة على ما أظن وفتش بين الأوراق ووجدها وقال تفضل سيدي .. انصرف .. احترامي سيدي.
ثم وجه سؤاله نحوي: اسمك يا ابن القحبة.
حسن .. حسن شو .. بيّك شو اسمو؟ عمر الهويدي.
أمك .. خود .. شو .. شو .. خود، سيدي اسمها خود.
سنك؟ 23 سنة.
لأي تنظيم تابع؟ لست منظماً.
ارفع رأسك .. ارفع رأسك يا حمار.
رفعت رأسي، وقال احدهم هذا شكل مجرم سيدي .. كم واحد قتلت ولاك ؟
لم اقتل أحدهم سيدي.
اسكت ياعرص .. حاضر سيدي.
فرد آخر لا هذا الشكل يدل على أنه كان يمول الإخوان بالسلاح ..
كم سيارة سلاح بعثت للإخوان؟ ..
أنا ليست لي علاقة لا مع الإخوان ولا غيرهم.
تكذب.
أنا احكي الصدق ولم أكذب.
ضربة قوية على رأسي من الخلف لا أدري كم من الوقت فقدت بها وعيي. وعندما صحوت وجدت ثيابي وشعر رأسي مبللين بالمياه، ولكن في رأسي ألم لا يطاق .. وجسدي ممدد على الأرض، والمكان شديد البرودة وكأنني في العراء ..

صحيت .. يا ابن القحبة، عامل حالك ميت والله بدي أموتك هلق بجد ..
ونادى على بعض العناصر وأمرهم بضربي رفساً وبالعصي، وصراخي يملأ المكان الذي تفوح منه رائحة الموت المؤكد .. وبعد تعذيب طال أكثر من نصف ساعة، أمسك بي اثنان من ذراعي وتم سحلي إلى المكان الذي كنت فيه.
أمرني أحدهم أن أنبطح أرضاً ففعلت دون أن أدري أين. جاء صوت من خلف ظهري وأنا منبطح .. اسمع يا حسن .. في حديث للرسول يقول ألف أم تبكي ولا أمي. قول الحقيقة أفضل إلك ومباشرة نطالعك عل البيت .. وعدا ذلك والدك موجود ينتظرك عند الباب الرئيسي وإذا تكلمت سوف نسمح له أن يأخذك معه ..
صعقت لكلامه هذا لأنه يكذب؛ لأن والدي مقعد ومصاب بالشلل ولا يستطيع الكلام أو المسير ..
ها حسن شو .. قلت والدك كان يحكي معي من شوي .. وحلفت له وحياة عشرة رسول الله أنني سوف أطلق سراحك بمجرد إنك تعترف ..
سيدي ليس عندي شيء أقوله ..
ما عندك .. وصب جام غضبه علي، وأخذ بضربي بكبل وآخر يضربني بعصى على ظهري وآخر يصب الماء كلما حاولت أن أكتم صراخي، وتقدم نحو رأسي ودهسه بحذائه ووضعه على رقبتي يهددني بقتلي إن لم أتكلم، وأمرني أن أستلقي على ظهري وهم لا زالوا يعذبونني بسياطهم والعصي وأصواتهم العالية بالسب والشتم علي. لم أستطع أن أحس بأن لي جسد وهم يحرثون به بسياطهم وعصيهم وأحذيتهم ..
هكذا حتى بدأت أصواتهم تختفي شيئاً فشيئاً عن أذنيّ اللتين بدأتا تنزفان الدماء، وأنفي الذي كسر عندما رفسني بحذائه .. ولم أدر بشيء إلى ان وجدت نفسي ثانية في مكان بارد والمياه تغطي كل أنحاء جسدي وبردوة الطقس التي لا تطاق.
وبدأت أحرك بعضاً من أجزاء جسدي للتأكد من سلامتها. فرد أحدهم: شو صحيت يا ابن القحبة؟ وأخذ يعذبني بكبل، وكلما ضربني ضربة تأتي التي تليها بقوة، ومن ثم أمر واحداً بجانبه أن يكشف عن ظهري وهو يقول له:

اكشفلي عن ظهره بدي أحرثه حرث لهل العرص حتى يعترف ..
اعترف عن شو سيدي ما عندي شيء اعترف عنه، أحلفلك بالله ومحمد رسوله انني لا أملك أي معلومة حتى أعترف لك .. كان ذاك قد انتهى من خلع قميصي الداخلي الذي مزقه، ثم أمرني أن أنبطح على بطني، وأطلق لسوطه العنان غاضباً على ظهري الذي انفصل عن روحي، وآخر يضربني على راحة قدمي الحافيتين المبللة بالمياه ..
شو ما بدك تعترف؟ اعترف أحسن ما تموت يا ابن الكلب. وكما في المرة السابقة أرجعوني إلى تلك الغرفة اللعينة ..
شو يا ابن القحبة ما بدك تعترف؟ ابو هارون تعال هون .. شوف تأخذ ها الكلب وتعلمو كيف يعترف وبطريقتك ..
أين انا؟ كم الوقت وكم أصبحت الساعة وهل حان وقت بزوق الفجر؟

<u>الطريق إلى تدمر .. مشاهد من التعذيب في سجون التحقيق</u>

لا أدري أين انا من بين الأصوات التي تهددني بالموت، أبو هارون امسك بيدي وجرني لا أدري إلى أين؛ لكنني خائف أن ينفذ ما طُلب منه بأن يغتصبني، أدخلني إلى غرفة وطلب مني أن اتجه نحو الحائط، وطلب من الذين يتواجدون في المكان أن يخرجوا .. وبسرعة. تلقيت رفسة قوية بين رجلي وشعرت بعدها بألم قوي بالخصيتين وأصابني تعرق شديد .. اضطرت بعده للركوع أرضاً لم استطع الكلام .. شو ولاه خايف .. ليش عم ترجف صراصير أنذال ..
- بأمرك سيدي.
- علي .. اخلع ملابس هالكلب النجس. أمسكني من كتفي وطلب مني الوقوف، انه فصل الشتاء البارد يزداد شدة وألماً بترافقه مع هذا العذاب على يد أبي هارون. فك رباط بنطالي ومن ثم سروالي الداخلي ومسك قضيبي بيده وربط به شيئاً لا أعلمه، وربط شيئاً آخر بسبابة إصبع يدي، وطلب مني الجلوس ركوعاً ..

إنها الصاعقة اجتاحت جميع أنحاء جسدي، وسرى في دمي شوك وألم لا يطاق، ولا ادري مدى قوة الصراخ الذي أصدرته إلا أنني شعرت بألم لا يطاق .. ها شو ما بدك تعترف يا كلب .. رددها احدهم .. دخيل الله يا سيدي والله مالي علاقة مع احد يستر على حريماتك .. اخرس ابن القحبة، دير بالك تجيب اسمهن على لسانك لأنهن أشرف من امك .. بأمرك حضرة الرقيب ..

هل أنت منظم لصالح النظام العراقي؟ لم أجاوب؛ لأن الألم أقوى من أن أرد على السؤال، و كرر المحاولة ثانية وكادت أن تزهق حياتي والألم يقوى شيئاً فشيئاً ولم اعد أحس بقضيبي، بل الوجع من رأسي حتى أخمص قدمي ..

وكلما حالوا تكرار ذلك توسلت إليهم وكررت أنني لا املك أي معلومة، ولا اعرف ما معنى تنظيم ولن أتكلم مهما حصل. ورد أحدهم قائلاً: شوف ولاك يا كلب، والله إن لم تعترف سوف احرق جسدك بالكهرباء .. حالياً الكهرباء وبعدين أحط الخازوق في مؤخرتك، هذا بشرف أمي إذا لم تعترف .. اعترف عن شو سيدي؟ عن أي شيء يا ابن القحبة، أي شيء المهم انك تعترف .. ضربة أخرى .. نعم إنها الكهرباء .. وكرر المحاولة مرة أخرى وأخرى أفقدتك الإحساس بأعضاء جسدي .. ألم .. ألم في دماغي يا إلهي رحماك إنني متألم .. دخيلك يا سيدي .. أخ .. يا الله .. الله يلعن بيك وبي اللي تحلف بيه، خلي ربك يجي ينقذك من إيدي، وما راح حدا ينقذك إلى أن تعترف ..

أعترف على ماذا سيدي؟ .. عن علاقتك بنظام صدام حسين .. بل بالشياطين المهم انك تعترف .. سيدي ليس لي علاقة لا مع صدام أو غيره لا من قريب ولا من بعيد.

- ماشي علي دور .. أخ انه الألم دخيل الله يا سيدي مشان الله .. دور آه .. أخ دخيلك .. يا الله .ألم لا يطاق يخترق جميع أنحاء جسدي .. شوف ولاك يا كلب هذا ما هو شيء، سوف أشوفك شيء لسه ما شفتو .انا يا سيدي ما عندي شيء أحكيه .. ضربة قوية بسوطه على رأسي رافقها طنين بأذني ونجوم من أمام عيني وألم لا يكاد أن يهدأ ..

والله يا كلب إن لم تعترف سوف أذبحك كما يذبح الخروف .. علي دور، ودارت معه رائحة الموت .. نعم انه الموت الحقيقي كلما ترافق الألم مع صعقة الكهرباء الذي يتعرض لها جسدي .. وهذا استمر إلى أن فقدت كامل ووعي ولا ادري كم استغرق ذلك من الوقت، وتبلل بنطالي الذي شعرت به بعد أن صحوت .. وجدت احدهم يخز إبرة في يدي المقيدة استعدت بعدها جزءاً من الوعي، وباشر المساعد يحيى باستجوابي ..

- شوف يا حسن أنت إنسان جيد ومهذب ما راح تروح ببلاش مشان صدام حسين .. صدام .. يا حسن قتل من الشعب العراقي الكثير وأجهزة المخابرات عنده تقتل الناس، وناهيك عن حربه المجنونة ضد إيران الدولة المسلمة التي تدافع عن فلسطين .. هذا شيء، والشيء الآخر انه خدعكم، انه عميل للمخابرات الأمريكي .. وإن اعترفت سوف نسامحك، والسيد رئيس الفرع أعطاني الصلاحية أن أخرجك من السجن الآن إذا اعترفت

.. ها شو قلت؟

قلت ما عندي شيء أقوله.

صرخ احدهم وضربني عدة ضربات قوية على كامل أنحاء جسدي، ويصرخ يا ابن القحبة بدي (..) أمك وأختك يا عديم الشرف يا خائن.

هيه خلاص وقف .. حسن كويس وراح يعترف .. مو هيك يا حسن

بأمرك سيدي ..

شو راح تعترف؟

لم أرد بحرف واحد، كنت أفضل الموت من الذل الذي انا فيه، ارحمني يا إلهي بضربة وأفارق الحياة من بعدها.

صوت السيد المساعد يزمجر من جديد: أبا هارون شوف شغلك .. معك ربع ساعة .. وخرج

علي .. بريق المتة جاهز ..

أبا هارون أعطي الصوبيا على الآخر أشعر بالبرد.

علي يقرقع متة.

شوف يا حسن .. سكت ولم أرد بحاضر .. غضب وصرخ: قول حاضر يا ابن الكلب.

حاضر سيدي.

بدي (..) لأمك وخيتك وخالتك وعمتك وعشيرتك كلون ولاك كلب بدي (..)ـهن على دفتر العيلة
وبدي هلق بعد ما اشرب المتة (..)ـك أنت بالأول وبعدين هنه.
امك أول وإلا اختك .. شو ولاك ما ترد ..
كيف أرد وأنا مهان من الذين هم دروع الوطن وحماة الديار؟
كيف وجرحي ينزف وعرضي يهتك؟
كيف والذين انا بين ايدهم طغاة لا يرحمون؟
لموت على أرض عدوي اشرف من أموت على ارض وطني.
ابا هارون يتوعد أن يغتصبني إن لم اعترف .. والتعذيب بكل الوسائل مباح .. ولا ادري ماذا بعد لحظة.
مد احدهم يده نحو مؤخرتي وبدأ ..

<u>في الطريق إلى تدمر: مشاهد من التعذيب في سجون التحقيق</u>

بعد ساعات من التعذيب والشتم والوعيد باغتصابي، شعرت بضربة قويه على الرأس وبعدها لا أدري ماذا حصل، فعندما استقيظت .. مددت يدي إلى مؤخرتي ظنا مني أن أبا هارون قد فعلها.
ولكن المكان الذي أنا فيه مظلم إلى درجة أني لا أرى أي شيئ، الصمت والهدوء يخيمان على المكان ..
سبقتني أصوات أبواب تفتح .. لتصبح قريبة مني، قبل أن يتاح لي مجرد التفكير: أين أنا؟ صوت احدهم يعلو صارخا طالع أواعي الأكل يا ابن الشـ .. ، وصوت الكبل مسموع يجلد به من يخرج وهكذا إلى أن فتح باب زنزانتي التي أدركت أنها خالية فلا احد سواي فيها ..
- طالع أواعي الأكل يا ابن الشـ ..
- حاضر سيدي
وصب لي في الإناء الأول شاياً والآخر بيضة واحدة مسلوقة .. ، وطلبت منه أن أخرج إلى دورات المياه، فقال لي أمرك يا ابن القـ .. اطلع ولكن قبل ذلك مد يدك، مددت يدي، وضربني بالكبل الذي يحمله إلى إن تورمت يدي، وقال:
- روح على قـ .. أمك، ثم أعد ألك للعشرة تكون خارج دورات المياه مفهوم ولاك يا عرصة.

- مفهوم سيدي.
- واحد .. اثنان .. ثلاثة .. لم أجب ودخلت إلى دورة المياه، وحاولت أن أفك أزرار بنطالي، لم استطع، حيث بدأت يداي تؤلماني وتنتفخان شيئا فشيئا، انتزعت الأزرار عنوة رغم الألم الذي يتنازعني، أخرجت قضيبي لأتبول ولكني لم استطع حيث شاهدته متورما نتيجة لصعقه بالكهرباء، حاولت ولم أستطع رغم الصراخ الذي كان يصدر مني نتيجة الألم المرافق لقطرات البول التي كانت تخرج ببطء شديد، شو يا ابن القـ .. ما خلصت .. ثم نادى عليٍ بصوت عال اخرج يا ابن القـ .. أحسن ما أطلّعك بالقوة .. خرجت وانهال علي ضربا بسوطه على كافة أنحاء جسدي ويداي تحاولان تصديا لتلك الضربات دون جدوى، دخلت إلى زنزاتي وادخل الذي برفقته لي الطعام إلى داخل الزنزانة وأغلق الباب، مددت يدي أتوجس المكان الذي وضع فيه الطعام إلى إن عثرت باللمس على الإناء الأول، وضعته على فمي وشممت منه رائحة كالبول القديم ولكن كنت بحاجة لأن اشرب وشربت الشاي الذي كنت أظنه يدفعني إلى التبول أو يساعدني على ذلك، وجدت الإناء الثاني التي توجد فيه البيضة وأكلتها بدون تقشير ولكنها كانت سيئة المذاق، أو أنها فاسدة. إنه طعام عسكري يجلبونه لنا من القطعات العسكرية العاملة في مدينة دير الزور، شربت وأكلت وجلست وبعد أن انتهيت جلست على الأرض التي لا يوجد فيها لا بطانية ولا "عازل" إنها خالية من كل شيء عدا جسدي الذي سوف يفترش الأرض، وبقيت على هذه الحال إلى إن أدركني النعاس ونمت رغم برودة الطقس، ولا ادري كم من الوقت استغرق ذلك عندما صحوت على صوت مؤذن ينادي الله اكبر .. اقتربت من باب الزنزانة، بصيص ضوء بدا لي، ونظرت بجهد لأتبين انه ضوء مصباح كهربائي.
فكّرت في أن أحدد موقعي، ولكن سرعان ما خطر ببالي أن أبا هارون الذي توعدني بالاغتصاب، قد يفعلها كما طلب منه أن يفعلها مع المرأة التي كانت في اليوم الأول، ولكنها امرأة وأنا رجل، هكذا خطر ببالي هل من المعقول؟! إنها مغرية أكثر مني للرجل، عودوه على الفعل المشين وانتهاك حرمات الناس، هؤلاء الناس ليست لديهم ضوابط أخلاقية ولا احترام للإنسان

ويمكنهم فعل أي شيء، ووصلت في النهاية إلى أنه إن فعلها بي فسوف انتحر ..
فتح الباب وفزعت حيث إنني لم اشعر بقدوم أحد إلى المكان، اخرج يا بن القـ .. ووجهك باتجاه الحائط، فعلت ذلك ثم قيد لي يدي وعصب عيني، وطلب مني المسير، جسدي يرتجف بردا وخوفا .. ، قال لي: ترتجف يا ابن العرص، بعد شوية ادفيك وأخليك ساخن مثل قـ .. أمك .. وسار بي إلى المكان الذي يقصده وطلب مني الركوع أرضا، ركعت وكل من يمر من حولي يرفسني بقوة على ظهري او على خاصرتي أو على ما تيسر لهم الا ان احدهم شاط رأسي بقوة وكأنه يضرب كرة قدم، ما سبب لي ألما شديدا، حاولت التماسك كي أعي ما يحصل لي من بعدها، وكل ذلك على حساب اعصابي المشدودة والمتوترة والافكار التي كانت تشدني إلى الانتحار فيما لو تعرضت لأكثر من ذلك ..
أمسكني احدهم من شعر رأسي وجرني بقوة: أوقف .. وقفت وسرت معه إلى مكانه الذي يقصده وارتطم رأسي بشيء قاس مما جعل النجوم التي تدور في برامج الاطفال حقيقة.
وقال لي اجلس يابن القـ .. إلى ان يأتي دورك بالإعدام.
شعرت كأن صوته كان بعيداً .. جلست ومثانتي تكاد تنفجر ..

<u>في الطريق إلى تدمر: مشاهد من التعذيب في سجون التحقيق</u>

استيقظت من نومي، لا ادري كم دامت ساعات الألم العميقة رغم النوم .. كانت ليلة صعبة في غرف التحقيق، منتقلا من محقق إلى آخر، بدا لي انه النهار حيث بدأت أذناي تسمع أصوات أجراس كنسية تقرع، وجوقة من أصوات أطفال صغار وكأنهم في باحة مدرسة، أذناي اللتان فقدتا السمع بهما من كثرة الصفع عليها بدأتا تستعيدان عافيتهما رويداً رويداً..
فتح احدهم الباب الرئيسي، وهو يدمم بصوت منخفض قائلاً:
- حط البلاو هون يا ابن القحـ(..).

وبدأ بفتح باب الزنزانات إلى أن وصل إلى الزنزانة التي أنا فيها، وطلب مني إخراج الأواني ليوضع لي الطعام المخصص فيها، ولأتمكن من الخروج إلى دورات المياه. طلب من كل سجين أن يذهب لقضاء حاجته في أقل من دقيقة واحدة، وهي الزمن الذي يتوجب عليك فيه أن تقضي فيها حاجتك من التبول أو لتغوط وغسل الأواني التي تضع فيها الطعام وتكون في أغلب الأحيان مليئة بالبول نتيجة لعدم السماح لنا بالخروج إلى دورات المياه الا مرة كل 24 ساعة، الامر الذي يضطرنا للتبول فيها أوالتغوط أحياناً نتيجة الإسهال المفاجئ الذي كان يصيبنا، ثم افراغها عند الصباح ووضع الطعام فيها بأوقاته.

ضرب بسوطه باب الزنزانة..

- اخرج يا ابن القحـ(..) معك دقيقة ونصف تذهب إلى دورة المياه وتأخذ الطعام مفهوم!

نظر إلى يده ومن ثم إلى الساعة وصاح: انطلق.

خرجت مسرعاً ودخلت إلى دورة المياه قضيت حاجتي وغسلت الأواني التي بيدي وخرجت. طلب مني أن أضع الأواني على الأرض كي يضع السخرة فيها طعام الفطور.

صاح بي قائلاً: يا ابن الشرمو(..) لقد تأخرت عشرة ثواني ولازم تتعاقب على التأخير، مد يدك. مددت يدي وطلب مني أن أعكسها ورد قائلاً: كل ثانية بكرباج .. عشر ثواني عشرة كرابيج .. رفع يده إلى الأعلى وبدأ يضربني بقوة إلى أن انتفخت يداي وازرق الجلد وخاصة أظافري، وبخششني بضربة أخيرة على الرأس وطلب مني حمل الطعام والدخول إلى الزنزانة، دخلت وأغلق الباب، وفتح نافذة صغيرة متداخلة ضمن الباب وهمس لي قائلاً:

"اليوم يا ابن العر(..) راح تكون نهاية حياتك، جاسوس وعميل، ولك حرام هاالأكل يدخل في بطنك والله اليوم أوريك شي ما شفتوا من يوم ولدتك أمك"..

وأغلق النافذة وتابع عمله. لكن شرد ذهني في الكلام الذي قاله عما كنت قد فعلت شيئاً في حياتي، والرعب والخوف من تهديده اجتاح كل جسدي ولم استطع أن أكل لقمة واحدة.

بقيت أفكر بكلامه..

الوقت يمر بطئياً، هو يوم الأحد وقد عرفته من خلال أجراس الكنسية التي كانت تقرع وجوقة الصغار والظهيرة. من خلال صوت المآذن في المسجد القريب من المكان استطعت أن احدد الوقت ما بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء.

طول النهار والساعات الماضية من الليل، وبعد أذان العشاء، فتح احدهم باب الزنزانة وقال:

- شو اسمك؟..

- حسن.

- دير وجهك باتجاه الحيط وأيديك ورا ظهرك.

قيد يدي وعصب عيني وأمسك بي من يدي وسرت معه وأنا متجه عكسه إلى إن وصل بي إلي المكان الذي يريد. طلب مني الجلوس على الأرض .. كان الجو بارداً بعض الشيء قياساً على الأيام الثلاثة الماضية، كنت اسمع أصوات أناس يعذبون في الداخل، والضرب والصراخ يملآن المكان، كانوا يحققون مع احد الأشخاص الذين اعرفهم، وكان السؤال عني وعلاقتي بتنظيم العراق .. انه صوت احد أقاربي، كان يقدم الاعترافات لهم وعلاقته بي، ولكن ما أراحني من الكلام الذي سمعته منه هو أنني لست على علاقة بتنظيم "اليمين المشبوه" حسب قوله. اخذ ذلك بعض الوقت، ثم جاء احدهم ومسك بيدي وجرّني إلي داخل الغرفة، وبدأ يسألني عن علاقتي بالتنظيم والجناح العسكري من التنظيم. أكّدت له أنني من المستحيل أن انتمي إلى تنظيم حزب البعث سواء كان في سورية أو العراق. طلب مني أن أوضح معنى ذلك، فقلت له دون أي سبب. فرد علي قائلاً: هذا الكلام لا ينفع، هنالك أشخاص اعترفوا عليك بعلاقتك بتنظيم العراق. طلبت منه أن يقابلني بهم وأنا مستعد أن أواجه أي شخص يعترف بهذا الكلام..

رد قائلاً: اسكت يا عر(..) نحن من يقدر ذلك.

رقيب محمد هات الدولاب وحط ها العر(..) فيه حتى يعترف. أمسك بي اثنان من كتفي وبطحوني أرضاً، وأدخلوا رأسي وقدمي بالعكس، وربطوا رجلي بحبل من النايلون مربوط على ما أظن بعصى، ولفّ الحبل حول قدمي بقوة حتى شعرت أن الحبل بدأ يغرز في اللحم، وبدؤوا بضربي بكابل رباعي مصنوع من البلاستيك والفولاذ والنحاس. وهذا الكبل عادة يستخدم في

القطاعات العسكرية لوصل التيار الكهربائي ويسمى الكبل الرباعي. وكان احدهم يطلب مني أن اعترف بأنني منظم لصالح العراق، وأنني نقلت أسلحة من العراق إلى سورية، ومن ثم نقلها إلى حماة عن طريق الصحراء. أدركت أن ذلك الكلام خطير رغم الوجع والعذاب الذي أنا فيه. وهذا فعلاً ليس لي به علاقة لا من بعيد ولا من قريب. وصممت أن لا أتكلم. رفسني أحدهم بحذائه على وجهي وهو يقول لي: والله يا ابن الشرمو(..) بدك تعترف غصباً عن ر(..).

- شوف ولاك أموتك اليوم إذا ما اعترفت..
- سيدي ما عندي شيء اعترف من أجله.
- شو يا ابن القحـ(..).

صاح أحدهم: إنه لي.

أحسست أن صاحب الصوت قد اقترب مني، تلقيت منه ضربة على وجهي ووضع حذائه داخل فمي وطلب مني الاعتراف، بينما كان آخر يجلدني بالكرباج على أسفل قدمي. كان الوقت يمر ولا أدري عنه شيئاً إلا أنني أرغب في الخلاص من هذا العذاب والألم الذي أنا فيه..

طلب أحدهم من الذين يعذبونني أن يخروجوني من الدولاب، وخلع ثيابي التي تغطي ظهري. فكوا لي القيود ونزعوا كل الثياب التي تغطي ظهري، وبدأو بجلدي على الظهر إلى أن فقدت جزءاً من الوعي الذي كنت أحاول أن أبقيه كي أدرك ماذا أفعل، إلا أن ذلك خرج عن أرادتي وفقدت كامل وعيي.

استيقظت وأنا ارتجف من البرد، أحسست أن شيئاً رطباً يسيل من تحت جسدي المفروش على الأرض. لا أدري هل هو بول أم انه الماء الذي ربما صبوه على جسدي لأستعيد وعيي، وكي أتأكد من ذلك ممدت يدي إلي شعر رأسي وجدت انه مبلل بالماء، ارتحت لأنني لم افعلها. بقيت ممداً على الأرض والأصوات من حولي. سمعت صوتاً يبدو أنه صوت المساعد يحيى .. قال لي: "شو يا حسن اعترف ما أحسن إلك من أن تموت وأنت ما زلت شاباً والحياة أمامك .. تعترف الآن أطلق سراحك .. وحياة رسول الله. حسن في مثل يقول "ألف أم تبكي ولا أمي"، اعترف على هؤلاء الكلاب وتخلص من التعذيب الذي أنت فيه".

رددت عليه: يا سيدي عن شو أعترف، أنا لستُ على علاقة مع أحد لا من بعيد ولا من قريب. ليش سيادتك مصرّ على أنني منظم أنا لست منظم.
رد قائلاً: "شوف إذا أنت مصدق أنك ما إلك علاقة هذه صعبة شوية عليَ، لأنو أنا مش مصدق إنك غير منظم.
يا حمار ربعك اللي هون كلهم اعترفوا ولا واحد منهم أكل كف وأسالهم إذا ردت .. عم نضيفهم شاي ودخان ليش ما تكون مثلهم؟".
- أحلفلك يا سيدي ويا حياة الله ومحمد والرسل إنني لست منظماً.
- "آها .. معناه أحدهم عرض عليك التنظيم أو طلب منك إيصال أموال أو سلاح.
- سيدي، لا أعرف أي شيء مما تتكلم عنه.
- "اسكت يا كلب يا ابن القحـ(..) عم تكذب علينا يا ابن الشرمو(..)".
- والله يا سيدي وحياة محمد لم أكذب.
وبدأ يسب ويشتم الله ومحمد بكلمات نابية وبذيئة أستحي الآن والله من تذكرها فكيف بكتابتها.
"عرصات خونة عملاء، ولاك انتم تبيعوا وطنكم مشان كم دينار من عميل الصهيونية صدام .. ولاك انتم عائلة خونة عملاء لصدام حسين ..
خالك وينوا هلأ؟
ابن عمك الدكتور محمد وينوا هلأ؟
عمك اللي مات الله لا يرحموا ما كان عميل لصدام، انتم كلكم عملاء لصدام وأسياده.
لسّاتك تقول ما لي علاقة؟..
أبو على اضبط أقواله وخلي عظامه تختخ بالسجن".
ثم ساد الصمت في تلك الغرفة اللعينة..

<u>الطريق إلى تدمر: مشاهد من التعذيب في سجون التحقيق</u>

بعدها وفي نفس جلسة التحقيق العينة تلك طلب مني احدهم قائلاً لي:
- خود البس ثيابك يا ابن العر(..). لبستها، وقيد لي يدي ولكن هذه المرة من الأمام وطلب مني الوقوف، وجرني من كتفي خارجاً بي من تلك الغرفة.

ولكن لم استطع السير عل قدمي بشكل جيد نتيجة الضرب على أسفلها، إلى أن وصلنا المكان، وطلب مني الجلوس، جلست، ولكن ليس على الأرض إنما على ما بدا لي أنه سرير عسكري، ورفع عن عيني الطميشة وأبقى يدي مقيدتين. إنه مكان دافئ، حيث كانت المدفأة مشتعلة. نظرت في الغرفة ومحتوياتها فيها خزانة معدنية وأربعة أسرة عسكرية وخزانة صغيرة من الخشب على ظهرها عدة كؤوس فيها بقايا من المتة ومصاصات وسكر، وعلبة من الورق فيها المتة وقطعة من الورق على شكل ملعقة موضوعة في علبة السكر. وفي الزاوية الأخرى عند الباب هيكل كرسي ودولاب وعصي وكابل اسود وعصا مربوط فيها حبل من النايلون الرفيع.

لم استطع النظر إلى وجه المحقق الذي جاء بي إلى الغرفة بشكل جيد، ولكن كنت أسترق النظر إليه بين الفينة والأخرى، كان يضع ورق الكربون بين صفحات من الورق ويخرزها، وعندما انتهى من ذلك طلب مني أن أجاوبه على كل سؤال يطرحه. ارتحت بعض الشيء لذلك المحقق الذي بدا لي أنه لطيف.

كما هي العادة سألني عن تاريخ حياتي منذ ولادتي حتى هذه اللحظة. باشرت بالجواب وهو يكتب ما أقول.

ونحن في هذه الحالة دخل احدهم وقال للمحقق: شو هذا؟ قال له: سجين.

اتجه نحوي وصاح وهو غاضب: ليش بارك عل السرير يابن الشل(..) أنزل أقعود على (..) يا حيوان.

فرد عليه المحقق: شو خلاص مالك علاقة فيه، اطلع برا وأنت خليك قاعد محلك. وطلب منه المحقق أن يغادر الغرفة ويترك له المجال يشوف شغله.

وقف عند الباب ونظر إلي وقال: بسيطة يا ابن الشرمو(..) راح تخلص وبعدين أشوف شغلي معك يا مجرم.

أنت اللي فجر خط النفط، والله لفجر رأسك ورأس بيك .. وين بدك تطير مصيرك عندي.

أحسست أنه يريد أن يثأر مني رغم أنني لا أعرفه. كرر المحقق طلبه منه أن يخرج ودفعه وأغلق الباب وأكمل معي الأسئلة. وطلب مني إن كنت أشعر بالبرد أن أقترب أكثر نحو المدفأة. نعم في تلك اللحظة كنت

أشعر بشيء من البرد، ولكن لم أجرؤ على الاقتراب منها رغم أنني أطمأنيت بعض الشيء له.
دخل اثنان ومعهم بعض الأوراق وجلسوا على السرير المقابل لي، ووضعوا الأوراق على الطاولة ثم نهض أحدهم وحمل الإبريق وصب فيه الماء من وعاء بلاستكي مهترئ بعض الشيء ووضعه على المدفأة، وبقي الآخر ينظر في الأوراق التي بين يديه. أمّا المحقق الذي كان معي فقد كان ينظر إلي متوقفاً عن السؤال مراقباً نظراتي التي تجوب الغرفة، ثم تابع معي التحقق. أما المحققان الآخران الجالسان في الغرفة فكان أحدهما يقرأ في ورقة مكتوبة والأخر يدون على ورقة بيضاء ما يقرؤه ذاك. انه خرج من سورية في عام كذا وذهب إلى بلجيكا لدراسة الطب ثم عاد بعد سنوات إلى سورية وعمل مدرساً لمادة اللغة الفرنسية ثم ذهب إلى السعودية للعمل ومن هنالك غادر إلى العراق لإكمال دراسة الطب، وبعدها غادر العراق إلى الأردن، وعندما أنهى دراسته فتح عيادة في مدينة المفرق ومارس عمله كطبيب، ويرجح أنه منظم لليمين المشبوه كونه درس على نفقة الحكومة العراقية.
أحسست أن بعض هذا الكلام الذي تقصد أحدهم أن يسمعني إياه هو ما يخص أحد أقاربي الذي لم أره طوال حياتي إلا بالصورة، وصدق ظني عندما قال أحدهم:
مزبوط هذا الكلام يا حسن؟
قلت له: لا ليس لي علاقة عما تتكلم عنه يا سيدي.
قال: الدكتور محمد مشا ابن عمك؟
قلت له: نعم انه ابن عمي، ولكن لم أره في حياتي.
قال: بسيطة مش مشكلة بس ابن عمك نحن نعرف عنه كل شيء وعامل حالو شيخ بالأردن.
رد عليهم المحقق: خلصتوا شيلوا بريق المتة واخرجوا من الغرفة، وخلونا ننهي شغلنا.
لملموا أوراقهم وحملوا إبريق المتة والكاسات وخرجوا، وتابع معي التحقيق بكل لطف. وعندما انتهي طلب مني الوقوف وخرج بي إلى أن وصلنا إلى أمام باب وطلب مني الانتظار ثم عاد مرة أخرى بعد مرور بعض الوقت، وعصب عيني وأدخلني إلى الغرفة التي كنت أنتظر أمامها وقدم التحية:
- احترامي سيدي، هذا هو حسن.

فرد: شو هالكلام هذا يا حسن.
- ما بعرف ما لي علاقة.
- هذا الكلام ما يفيد، بدي أبعثك على تدمر وهنيك قول ما بعرف ومالي علاقة.
وطلب منه ان يقربني إليه، فجرني المحقق إلى أمامه، وقال له: فك الكلبشة عن يديه، ففعل. وقال: تعال ابصم على أقوالك يا حسن.
بصمت وأنا معصوب العينين دون أن أعرف ماذا كتب في المحضر. وقال المحقق: إلى أين أخذه سيدي. قال له: شوف المساعد يحيى.
أمسك بي من يدي وجرني إلى مكان آخر، والمقصود مكتب المساعد يحيى. ودخلنا وقال له لقد أنهيت معه التحقيق وعرضته على سيادة العميد وبصم على أقواله.
قال لي المساعد: أين كنت من قبل، في أي سجن؟
قلت له: لا أعرف، ولكنني كنت في الزنزانة. قال: جيد خذه إلى سجنه الجديد.
قدم له التحية، وأخذني وسلمني إلى أحدهم في الطريق، وطلب منه أن يضعني في المكان الذي حدده المساعد.
وكنت في تلك الأثناء متعباً والألم بدأ يتسع في جميع أنحاء جسدي، وخاصة ظهري الذي جلدوني عليه. جرني كما يجر الخروف إلى النحر، وهو يسب بي ويشتم أمي وأختي ويطلق عليهن من الألفاظ التي لا يمكن أن تحتمل. وفتح الباب ودفعني من الخلف إلى الداخل ثم أغلق الباب، رفعت عن عيني الطميشة ونظرت داخل الغرفة فوجدت عدة أشخاص معصوبي الأعين.
نظرت في إحدى الزوايا وشعرت بأن هذا الشخص قد أعرفه رغم الوجع الذي أنا فيه. اقتربت منه ونزعت عن عينيه الطميشة، فإذا هو عبد الخلف الذي كنت اعرفه منذ سنوات الطفولة في القرية والمدرسة. دار بيني وبينه بعض الحديث، كان يحدثني هامساً خائفاً، ولكنه شعر بالاطمئنان بعض الشيء.
قلت: لماذا أنت هنا؟ ضحك وقال: مثل ما أنت هنا بالضبط. قلت: غريب أنت بعثي وعضو عامل في الحزب، ليش جابوك لهون، أنت معهم مش ضدهم؟
ضحك وهز رأسه وقال: هاذول ما بيعرفوا أحد .. لا

معهم .. ولا ضدهم. وضرب مثلا: "هاذول مثل القط أول ما يأكل أبناؤه إذا شعر بالجوع".
وقال: على كل حال هون في بالغرفة علي الفهد وشباب آخرون، ومحمد وفيصل في الزنزانة عند المدخل. البارحة طلب مني الرقيب أن أوزع الطعام وشفتهم موجودين، ونحن هون من الرقة حوالي أربعين سجيناً كلنا نفس التهمة. ومنذ يومين كانت في بنت من الرقة في الزنزانة الأولى اسمها شمسة، ولكن على ما أظن أطلقوا سراحها لأنوا ما عاد أسمع عنها شيئاً.
وفي تلك اللحظة شعرت بألم في أمعائي لا يحتمل، وجسدي كأن إبراً توخز فيه، مما اضطررني لخلع ملابسي.
وسمعت صوت بكاء عبد، وتجمع الآخرون من حولي وهم ينظرون إلى ظهري الذي حرثته السياط، فأجهشوا جميعهم بالبكاء.
بقيت على هذه الحال والمكان نفسه لعدة أيام، ثم نقلوني إلى مهجع آخر مليء بالسجناء عرفت أكثرهم، فمنهم من أقاربي ففهموا لماذا أنا هنا. المكان مزدحم ومليء بالقمل، والجميع يتبولون داخل المهجع وعلى البطانيات أو في أواني بلاستكية كما هو الحال في الزنزانات. الأواني للتبول والتغوط، وبنفس الوقت نضع فيها طعامنا.
ومن تلك الغرفة أصبحت الطريق سالكة إلى تدمر مروراً بأقبية التحقيق التي لا زالت تنتظرنا.

__في الطريق الى تدمر.. مشاهد من التعذيب في سجون التحقيق__

توقفت الحافلات التي تقلنا عن المسير وتوقف هدير محركاتها، وبدأت أصوات تهنئهم بالوصول بالسلامة. أما بالنسبة لي فقد بدأت الرحلة مع انتهاء مرحلة السجن الأولى التي مررت بها بفرع المخابرات العسكرية ولم اعد أتذكر الجحيم الذي مررت به، وأنا أتنقل من محقق إلى آخر، بل وإني نسيت معظم الألم والتعذيب، وأنا الآن اجلس في الحافلة انتظر أمر النزول، النزول الى عالم مجهول آخر قد يكون اصعب وأشد مما كنت فيه.
أبو هارون لم يعد يهددني بالاغتصاب وصعق الكهرباء الذي أذاب أطراف أصابع يدي وعضوي الذكري الذي بدأ

يتماثل للشفاء مع بقية أجزاء جسدي، فظهري الذي حرثتة الكرابيج اصبح كما قطعة من الخشب.
فجأة ارتعش جسدي وتعطلت كل حواسي على صوت مرعب مخيف فيه نبرة الموت والدم .. انزلوا يا اخوات الشرمو(..) .. هنا نهايتكم، نهاية كل خائن وعميل، عملاء .. الموت بانتظاركم، نزلت من الحافلة ومعي ثلاثة من السجناء معصوبي الأعين ومقيدي الأرجل واليدين مع بعضنا بعض، ضربات الكرابيج ترافقها صيحات الذين نزلوا من قبلنا، كنت انتظر الأوامر كي أتوجه إلى الصوت الذي اسمعه ولا أرى صاحبه، ما ان وطأت قدامي الارض حتى تلقيت ضربت قوية على الرأس تلتها ضربات أخرى أكثر واشد قوة مما جعلني لا اعلم ما أنا فاعل، يداي ورجلاي مقيدة ولا استطيع ان احمي رأسي الذي يصدع من شدة الألم ولا استطيع الهرب، اخذنا نجر بعضنا بعضاً لا ادري لأي جهة بينما ترافقنا الضربات المبرحة والأصوات التي تشتم أمهاتنا وأخواتنا وينعتوهن بأقذع ما يمكن أن يسمعه بشر، هكذا الى ان نزل الجميع، وساقونا الى امتار قليلة وأمرونا بالجلوس. طنين في أذني يتصاعد ورائحة الدم الذي يسيل من انفي على خدي يحسسها بحرارة العذاب، هذا كان مصير الجميع الكل تعرض للضرب والتعذيب وكثر هم من فقدوا وعيهم نتيجة الضرب المبرح على الرأس منهم من كان يستخدم العصي للضرب والبعض الآخر كابلات فولاذية والبعض الآخر سلاسل معدنية، بقينا هكذا لوقت طويل. بعدها طلب احدهم عدنا وكان عددنا حوالي 58 سجينا .. هؤلاء كلهم تهمة واحدة .. رد احدهم نعم سيدي (يمين مشبوه) فكوا عن أعينهم وأرجلهم وأدخلوهم إلى تحت .. حاضر سيدي .. واقفا يا عر(..). وقفنا وفكوا عنا الأشياء التي كانت تقيد أرجلنا وأعيننا وتركوا أيدينا مقيدة، توجه السجناء الذين هم في المقدمة نحو أحد العناصر يرتدي الزي المدني بينما الآخرون الذين يحيطون المكان مدججين بالعصي والكرابيج الغليضة، وبعض العناصر يحمل السلاح وجعبة من المخازن مصوبين فوهة بنادقهم نحونا ولكنهم يبعدون عنا عدة أمتار.
سرقت ناظري من حولي إلى من كان معي قبل الصعود إلى الحافلات وجدت منهم البعض، منهم من تورم رأسه

نتيجة الضرب ومنهم لا يزال يسيل الدم من انفه، والبعض الآخر وجهه متورم.
الموت أصبح اقرب لنا من العين وجفنها وكم أتمناه واشتهيه في تلك اللحظات، قدمي تسير ببطء نحو مدخل ضيق يحاط بعناصر على جنباته، وسرعان ما ثاروا علينا بصرخاتهم وضرباتهم مما جعلنا نتدافع نحو المدخل الذي يليه درج مباشرة نحو الأسفل، نتيجة التعذيب والضرب تدافعنا عند المدخل، سقط العديد تدعسه أقدام المرعوبين من الضربات المميته، فجأة وجدنا أنفسنا أمام باب معدني تلفه قضبان طولانية من المعدن على شكل شبك، وقفنا أمامه بينما كانت مجموعة كبيرة من العناصر بداخل الشبك يحملون بأيدهم العدة والعتاد، ارجعوا الى الوراء يا اخوات الشرمو(..). تدافعنا الى الوراء ولكن لضيق المكان لم نستطع واصحبنا بين نار الشبك الذي ننتظر ان يفتح لنا، وضربات العناصر الذي هم من خلفنا، كثُر صراخنا يرافقه صدى المكان .
من شدة الضرب تدافعنا من زاوية الى اخرى، حتى نتيح مجالا أمام الشبك لفتحه، رغم ضيق المكان اتسع بنا فتح الباب وأمرونا بالدخول وبدأنا ندخل وأرشدونا إلى زنزانة جماعية مجاورة لها باب من الشبك المعدني كبير وواسع
.. رد احدهم قائلا الكل يجلس ووجهه باتجاه (الحيط يا اولاد البعنوصة)؟؟؟ مصطلح جديد من الألفاظ لم اسمع به من قبل.
جلست بل كان حظي جيدا انني في الصف الاول وهذا يجعلني اسلم من الضرب والجلد قلتها في سريرتي ولكن سرعان ما تلاشت تلك الفرحة عندما تلقيت ضربة قوية على رأسي .
أنت يا ابن الشلك(..) تعا لهون. لم أتحرك متظاهرا بأني لم اسمعه .. وتلتها ضربة ثانية. وقال شو بتعرف انو ما أحكي معك، وقف يا صرصور. وقفت وأمرني بالخروج من الصف، خرجت، لا تكاد قدماي تحملانني، وصلت الى الجانب الاخر، جرني احدهم بسرعة الى خارج الزنزانة وامرني ان اغمض عيني وارفع رأسي، وسرعان ما تلقيت صفعة على وجهي وبعدها لكمة قوية ولم استطع ان أغمض عيني حتى ينتهي من التعذيب بل فتحتهما،

ومن شدة رهبة المنظر والخوف رجعت وأغمضتهما، ثم فتحتهما ثانية وشاهدت من حولي أكثر من خمسة عشر عنصرا من عناصر الأمن قادمين نحوي منهم من يركض ومنهم من يلوح بعصاه وآخرون بكرابيج.
أين المفر مما انا فيه، نزلت الصاعقة على جسدي، وانهالوا علي بضربات لا تحتمل قوية ومؤلمة لدرجة الجنون، وكنت اتطلع حولي وبقع الدم على ارض المكان بينما كنت انزف ولا ادري من أين مكان النزف. وانا في تلك الحالة مددت يداي المقيدتين الى رأسي، لم استطع ووقعت على الأرض بعدها .. لا أدري ربما فقدت كامل وعيي.
استيقظت بعدها وجدت نفسي ممداً على الأرض لا أقوى على الحركة، خدي ملتصق بها، وبركة من الدم المتجمد بعض الشيء، تحسست جسدي ومددت يدي على وجهي ووجدت الذي بدا أنه متورم، بينما أصوات من مكان آخر فالبعض ما زال تحت التعذيب..
أصوات القائمين على المكان مجهولة، اسمائهم مجهولة، وأشكالهم مجهولة. حقا انه مكان مجهول ومعزول عن العالم، انه لا يشبه فرع المخابرات الذي كنا فيه، رغم انه تم عزلنا هنالك ومنعنا من الاتصال مع احد وخاصة مع بعضنا بعض حتى نهاية التحقيق..

مملكة الرماد .. مجرد موت واحد

قبل أيام كان جسده يتحرك صامدا، بعد مجيئه من جلسة" المحكمة" سقط جسد ابو الحارث ممدا في الأرض، ينتظر الوداع، وجوه شاحبة ودموع من احبوه تسيل، والشيخ ابو حذيفة يجلس عند رأسه يمسح له جبينه، باكياً تارة وأخرى يمد ذراعيه إلى ربه متوسلا أن يرحم من سيرحل إليه.
كان يوما صعبا للغاية نزفت دماء كثيرة، تشوهت وجوه وكسرت أضلاع، كل جسَد ينتظر الرحيل، وإخوته صامتون عاجزون قد جفت أعينهم بانتظار لحظة الوداع. ساعات تمر بنا ببطء، الموت والخوف رفيقان في السجن يتربصان بنا، أما نحن فموعدنا إذا لم يكن اليوم فغدا، جسده تلفه قماشة بيضاء رائحته كالمسك طيبة كطيبة قلبه، كان يحلم بالحرية، ويبكي على رفقة العمر: زوجة أحبها وأطفال تركهم هناك ينتظرون،

يترقبون ظلا يفرحهم، نحيل الجسد قوي الإرادة مؤمن صادق يحب الله كثيرا ويخاف منه. كان لينا وقاسياً، مزّاحا وباكياً تشده الرجولة إلى الموت وترجعه الحياة لحبها، كان كورقة "الغرب": مزهراً ومخضراً ومتبسماً دائما، وعند الشدائد يشدنا متقدما كرجل، فلتبك أيتها السماء، واذرفي الدمع يا أيتها "الناطرة" عند مدخل الحي واصرخ أنت من هناك وناد لمحب أثقله طول انتظار، عيناه مكحلتان بأثر الكرابيج والعصي ..
شاخصتان إلى سقف المهجع يلوح يهما يبحث عن ثغرة في ذاك السقف المحصن راجيا أن ينعم برؤية السماء، متشفعاً ثم يسدلها، تستفيق ثم تغفو، العرق يتصبب من جبينه الشامخ المتورم، جلست بجانبه، نظر إلي وتبسم، وسالت قطرة الدمع من طرف عينه وتوقفت عند منتصف خده الذي تعرض لصفعات الجلاد حيث ارتسمت معالم أصابع كفه لترسم خطوطا ملونة ما بين زرقاء وحمراء وصفراء وعلى أطرافها لون بني داكن، إنها أجمل من ألوان قوس قزح، صديقي رفيقي، لا تودعني وابق عينيك مفتوحتين، سنخرج معا، نفرح بالحرية ونتسامر كما وعدتني، سنجلس على ضفاف الفرات، بين شجيرات الغرب والحور، وكأس الشاي التي سنشربها معاً، وعدتني أن نمر من أمام بيوتنا، اصبر أيها الجميل ابق معنا لليلة أخرى، فأنا محتاج إليك، كما تحتاج صحراء قاحلة إلى قطرة ماء، ابو الحارث يا وجعا، يا ألما، انتظر حتى بزوغ الفجر، لا تتركني مع صرخات الجلاد وبوطه العسكري وتهديدات الموت، بالأمس كنا نتبادل أطراف الحديث، كنت تناديني بالأحمر، وأناديك بالأخضر، كنت أغني لك من أغاني أحمد قبور، كنت تنشد لي في حب الرسول، لا استطع أن أقاوم لحظة الفراق، سالت الدمعة وأنا أمسك بأطراف أصابع يده المنتفخة، أزيل منها بقع الدم المتجمد، فسقطت قطرة الدمع وانحل القليل منه، ثم سالت بين حبيبات الشعر الذي تكسو أطراف معصمه النحيل، كنت أحس بحرارة جسده تتلاشى شيئا فشيئا، جلس بجانبي المسؤول الصحي واخذ مني معصمه، ثم وضع عليه أطراف أصابعه ليجس نضبه الذي يقاوم في لحظاته الأخيرة، سحب يده من يد المسؤول الصحي ووضعها في يديه هامساً كالقمر يعبر السهوب ويجتاز الأنهار، كان ينطق من عينيه بكلمات،

الرجاء، الحب، الحياة، كان ينطق بشفاه مرتعشة صوت الرقيب في الخارج ينادي بالمسؤول الصحي..
- افتح شراقة الباب يا عرصة .. فأسقط منها علبتين من الدواء، وهي عبارة عن ظرفين ملبس واحد مسكن للألم والآخر مضاد حيوي وفي كل ظرف عشرة حباتز
فرح المسئول الصحي جدا بعد خمس عشر يوما من المطالبة به، كم من الدماء سفحت من أجل علبتين من الدواء، فتح علبة الدواء وطلب كأس من الماء ثم جلس إلى جانب ابو حارث كي يعطيه جرعته وعندما اسند رأسه إلى قدميه، لوّح بعينيه وودع الجميع .. وبقيت حبة الدواء بيد المسؤول الصحي، وكأس الماء التي تتناثر منها القطرات مرتجفة، خائفة، وحزينة.
عند المساء جاؤوا إلينا .. فتحوا الباب دون أن نشعر بقدومهم بينما كان الصمت يخيم على المكان قبل قدومهم
طلبوا رئيس المهجع والمسؤول الصحي وسألوه عن سبب الوفاة فقال لهم لقد وقع في الحمام على رأسه ومات
وهذه هي العبارة التي حفظّونا اياها كلما رحل من بيننا سجين، دخل مساعد السجن إلى داخل المهجع تفوح من بين خطواتة رائحة الموت الممزوجة بعطره المميز ودخان سيجارتة التي لا تنطفئ .. صوته ردد في أسماعنا يا أبنائي ديروا بالكم على حالكم وخاصة في الحمام لا تضعوا قطع الصابون على الأرض تسبب لكم الموت حتماً، وخاصة من بينكم سجناء عاجزين وكبار في السن وعميان كمان..
وعلى كل حال غسلوه وكفنوه واربطوا الكفن جيدا وبعد عشر دقائق سيخرج .. مفهوم رئيس المهجع يا كلب .. مفهوم سيدي .. ثم خرج.
وبعد اقل من نصف ساعة كان جثتة جاهزة. للخروج ربطناه في شرشف ابيض تبرع به احد السجناء وهو الغطاء الوحيد لديه، ادخله معه عندما جاء من فرع التحقيق ولم يصادروه منه عند دخوله إلى السجن.
وضعناه على بطانية عسكرية ومددناه قرب الباب، وتركنا الغطاء من ناحية الوجه شبه مفتوح، حيث مر السجناء يلقون عليه نظرة الوداع الأخيرة وفي تلك

الأثناء صاح الرقيب .. رئيس المهجع ابن القح(..) .. الكلب جاهز ..
صاح نعم أنا جاهز سيدي .. بينما كانت خشخشة المفاتيح تحاول إيجاد ثقب القفل فتح المزلاج المعدني الذي يصدر صوتا مدويا يبعث في نفوسنا الخوف والرجفان.
يللا .. يا عرص طالعوه..
أمسكت بطرف البطانية من ناحية قدميه بينما امسك الآخرون الأجزاء الأخرى وخرجنا به إلى الباحة. طلب احدهم أن نضع جثته على الأرض، وطلب المسوؤل الصحي، وقال فك عن الرباط من ناحية الوجه، ففعل المسئول الصحي ذلك. ثم نادوا رئيس المهجع، وعندما كشف وجه ابو الحارث تماما وضع احدهم حذائه على وجهه، ورد قائلا: مسوؤل صحي هذا هو؟ اقترب المسئول الصحي من الجثة بينما هو لا زال يضع أسفل حذائه على وجهه .. قال تأكد يا عرص انه هو..
- نعم سيدي هو.
رفع حذاءه ثم استدار ورفس المسؤول الصحي على وجهه.
سالت قطرات الدم من انفه مباشرة على أطراف الكفن الأبيض، ثم حملوه وذهبوا ولا أحد منا يعلم أين سيكون مثواه الأخير.

[الشهادة الثانية عشر]

هل سيأتون الليلة[6] ؟ بقلم : د. جميل قدري[7]

هذه أحداث حقيقية حدثت معي في عام 1980 وقد تم تغيير الأسماء للضرورة فقط .

[6] هذه الشهادة منقولة من موقع "أخبار الشرق" على شبكة الإنترنت .
[7] كاتب سوري

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ليلاً؛ عندما بدأ قلبي بالانقباض كسائر أفراد العائلة، حيث أخذت أمي بالتساؤل برعب: هل سيأتون هذه الليلة؟ .. كعادتهم في منتصف الليل يدقون الباب كالوحوش ويدهم على جرس الباب، آه من صوت ذلك الجرس اللعين كم أكره صوته عندما يدق ولا يتوقف، حيث أعرف أن عناصر المخابرات ستتدفق إلى بيتنا كالبغال بمجرد أن نفتح الباب. قلت لأمي: إن شاء الله لن يأتوا، فقد كانوا هنا منذ يومين عندما جاؤوا يسألون عن أخي كمال، وقبلها بأيام ثلاثة كانوا للسؤال عن أخي جمال. ولتغيير مجرى الحديث، قام والدي بتشغيل التلفاز (وكان عرض آنذاك مسرحية "المتزوجون" المصرية لسمير غانم) وها هي الضحكات تنطلق من مشاهدي المسرحية، لكن بالتأكيد حتى ابتسامة لم تصدر عن أمي التي كانت تنظر إلى الساعة لحظة بعد أخرى، ويدها تمسك بحجابها الذي اعتادت أن تلبسه بسرعة الريح قبل أن دخول الوحوش إلى بيتنا. ومضت ساعتان .. وفجأة دق جرس الباب اللعين كالعادة في مثل هذا الوقت بلا توقف، يصاحبه طرق عنيف على الباب باليد وركل بالأقدام .. ارتعدت أمي وصاحت جاؤوا! واندفع أخي سعيد ليفتح الباب، وخلال ثانية واحدة كان بيتنا مليء بوحوش المخابرات السورية بكامل عتادهم، وكأنهم على خط الجبهة الأول. انطلقوا يفتشون البيت زاوية زاوية، في حين كنا أنا وأمي وأبي، وأخي سعيد وأختي الصغيرة ذات الخمسة أعوام؛ نقف بجانب الجدار ممنوعين من الحركة. وبعد دقيقة كأنها سنة؛ سألوا أبي: أين جميل؟ سقط قلبي بين قدمي من هول المفاجأة بالرغم أنني قد شهدت خلال الشهور الماضية أكثر من 20 مداهمة ليلية لبيتنا كان السؤال فيها عن أخوتي كمال وجمال، لكن الوضع هذه المرة مختلف فالسؤال عني أنا!

كنت أبلغ من العمر آنذاك 11 عاماً، نعم يا سادتي أحد عشر عاماً، وها أنا ذا أكتبها كتابة ورقماً حتى لا تظنوا أن في الأمر خطأ مطبعي. أعاد الوغد السؤال ثانية وهو يصرخ: "ولك قل لي أين جميل؟"، فأشار أبي إلي بإصبعه وقال لهم: هذا جميل ماذا تريدون منه، إنه طفل صغير. ونظر الضابط إليّ مصدوماً حائراً وابتعد عنا خطوات باتجاه المطبخ، وأخرج جهاز اللاسلكي واتصل

برئيسه قائلاً: سيدي جميل هذا ولد صغير!! وجاءه الجواب مباشرة: عندما قلت لك أحضر جميل لم أقل لك جميل ولد كبير أو ولد صغير، قلت لك أحضر جميل "يالله جيبو بسرعة".

كان الحوار مسموعاً واضحاً، فبدا أبي يتوسل إلى الضابط ويرجوه أن يأخذه بدلاً عني، إلا أن الضابط دفعه جانباً وتقدم باتجاهي قائلاً: "البس برجلك وامشِ معي، يالله بسرعة تحرك". عاد أبي يتوسل وأمي تبكي وتصيح، إلا أن الضابط قال لهم وهو يظن أنه يطمئنهم: "لا تخافوا رح يروح معنا 5 دقائق وبنرجعو لعندكم"، ناسياً هذا الوغد أن الصغير والكبير في بلدنا أصبح يعرف خمس دقائقهم تلك التي لا تنتهي أبداً.

لم يسمحوا لي بتغيير ملابس النوم بنطلون البيجاما وفوقه فانيلا صيفية، فقط سمحوا لي بلبس "شحاطة" بلاستيكية، انظروا إلى هذا الكرم. ونزلت معهم إلى السيارة بلها السيارت، والدهشة تعقد لساني وعيوني تلتفت في كل الاتجاهات. وبدأ عناصر المداهمة بالتجمع حول السيارات، وانطلقت إشارات مصابيح بطارياتهم ترسل إشارات خاصة إلى سطح عمارتنا تشير لمن فوقها بالنزول، فقد انتهت الحرب، عفواً المهمة. كان عددهم كبيراً جداً، كانوا منتشرين في كل مكان، فهم قد جاؤوا للقبض على "الزعيم الأوحد" (هذا ما قاله صديق ابن عمي، حيث قال له: كنت ماراً في منتصف الليل في حارتكم ووجدت المخابرات في كل مكان وعلى أسطح 3 عمارات، و 4 سيارات، والوضع غير طبيعي. فقلت في نفسي: إنهم سيقبضون على "الزعيم الأوحد"، فرد عليه ابن عمي: نعم .. نعم لقد قبضوا فعلاً على الزعيم الأوحد، وهو ابن عمي جميل ابن الأحد عشر عاماً).

اندست العناصر داخل سياراتهم ووضعوني في سيارة "بيجو ستيشن 504" والتي مجرد رؤيتها لأي سوري تزيد من دقات قلبه، جلس في المقعد الأمامي رئيسهم وبجواره السائق. وحشروني بين وغدين على اليمين واليسار في المقعد الأوسط، بينما جلس 3 عناصر في الستيشن وبابها مفتوح وهم يمسكون برشاشاتهم (هذا التوصيف لمن لا يعرف المخابرات السورية، أما من رآهم فهو يعرف كيف يجلسون ويتجولون في أرجاء المدينة). أما السيارات الثلاثة الأخرى فقد كانت عبارة

عن بيك آب (شاحنة صغيرة) جلس فيه اثنان بجانب السائق وواحد في الصندوق الخلفي والسيارة الثالثة من نوع "رنج روفر" إحدى أشهر سيارات المخابرات، وكانت مليئة، حيث تتسع لـ 10 عناصر، وخلفنا كانت تسير السيارة الرابعة، وهي سيارة "جيمس" لـ 12 عنصر أيضاً. وتحرك الموكب ومعه "الزعيم الأوحد" الذي دوخ البلاد والعباد، والذي احتاج لـ 4 سيارات مليئة بـ 33 عنصر للقبض عليه.

وانطلقت السيارات تهوي باتجاه مبنى المخابرات العسكرية في حلب، وفي الطريق انطلق صوت لاسلكي الضابط طالباً منه المرور بمنطقة شارع العزيزية لإحضار ضحية أخرى، وانعطف الموكب وتكررت العملية أمام ناظري، وتدافع الوحوش إلى الأسطح والعمارات، وعادوا برجل معصوب العينين وأدخلوه سيارة البيجو ليرموه بجانبي. ومضى الموكب إلى فرع المخابرات العسكرية في السريان، وحال وصولنا أخذني رئيس المداهمة إلى ضابط كبير، وبدأ يسألني عن أهلي وعن إخوتي جمال وكمال وأين هم الآن، وأنا أجيبه: لا أعرف .. ضاق بي ذرعاً، وبعد قليل رن هاتف بجانبه، ومن ثم ضغط جرساً بجانبه ليأتي عنصر طلب منه أن يأخذني لـ "المعلم"، وانطلق بي عبر سلالم حتى وصلنا إلى جناح فاخر، طرق على الباب وأدخلني، شعرت برجفة اجتاحت عظامي، فقد كان المكتب مكيفاً بارداً وأنا بملابس النوم. تمالكت نفسي، دارت عيناي في أرجاء المكتب، كان واسعاً جداً، طويلاً جداً يجلس في صدره رجل ضخم أصلع أمامه مكتب ضخم وبجانبه أكثر من 10 تلفونات، أما المفاجأة الكبرى فقد كانت لوحة ضخمة فوق رأسه مكتوب عليها آية قرآنية كريمة: "وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل" يا للمهزلة، صدقوا أو لا تصدقوا، فوق رأس هذا المعلم - الذي علمت فيما بعد أنه (..) مصطفى التاجر الذي يعرف جميع الحلبيين ظلمه، وفيما بعد كثير من السوريين والعرب بعد ترؤسه فرع فلسطين – فوق رأسه آية قرآنية كريمة عن الحكم بالعدل!

أعاد عليّ التاجر كل الأسئلة السابقة، وأجبته بأني لا أعرف شيئاً، فعلاً أنا لا أعرف شيئاً، وماذا يعرف طفل في الحادية عشر من عمره إلا اللعب والمدرسة؟ لم

يعجبه جوابي، فقال لرجل يجلس عنده في المكتب: يبدو أن هذا الولد يحب أن يجرب الدولاب. ونظر إليّ، ولمّا لم يبد عليّ التأثر، أدرك بذكائه الخارق أنني لا أعرف حتى ما هو الدولاب، فأردف قائلاً: "شوف ولك كلب يا بتحكي كل شي بتعرفوا يا بقول للعناصر يعلقوك بالفلق ساعتين". وهنا بدأت أبكي، فالآن عرفت ماذا يقصد، فالفلق وسيلة تعليمية رائجة في مدرستنا، وأغلب الطلاب يعرفون طعمها بمن فيهم أنا. بدأت أصيح: "يا عمو والله ما بعرف شي ولا بعرف وين إخوتي .. يا عمو الله يخليك، والله ما عملت شي". وبدا له أنني فعلاً لا أعرف شيئاً، فرن جرساً بجانبه، وقال للحرس: خذوه.

أخذوني وأدخلوني إلى الزنزانة الجماعية، كانت مزدحمة بعدد كبير جداً من الرجال، الجميع يجلس وقدميه تحته حتى يفسح المجال، وسط الغرفة مليء أيضاً. لا تزيد مساحتها عن 4×3 أمتار؛ تحوي أكثر من 50 رجلاً، كما عددتهم فيما بعد.

بقيت فيها 5 أيام، كانت كألف ليلة وليلة بالنسبة لي، من حيث الزمن كانت ألف ليلة، ومن حيث المشاهدات والغرائب كانت كقصة ألف ليلة وليلة الشهيرة. كان فيها طالب الطب الذي كان يدرس في تركيا وعاد متخرجاً ليستقبل من المطار إلى الزنزانة، المشكلة تشابه أسماء .. المدة التي قضاها حتى سماعي قصته شهرين! فيها المهندسون والطلاب وشباب سوريون دفعهم الحماس للتطوع في لبنان ووجدوا أنفسهم في قبضة المخابرات السورية. كان معنا شخص إيراني أذكر أنني صعقت لرؤية قدمه اليسرى وقد حفرت بتأثير الضرب عليها، حتى بانت عظام القدم والقيح يفيض منها، كان منظراً مؤلماً. كل واحد فيهم كان له قصة أكثر غرابة من أخيه.

أول ما رموني في الجماعية حاول السجناء أن يخففوا عني والسؤال عن سبب وجودي، ولكن سرعان ما فُتحت طاقة صغيرة من الباب الحديدي؛ ليزمجر سجان متوحش: "ممنوع حدا يحكي مع الولد، وإذا شفت حدا بيحكي معو رح أطالعو لعندي" .. وبدأ بذكر سباب لم أسمع له مثيلاً. كان هذا التهديد كافياً ليرعبهم

ويجلسهم صامتين، ويبدو أن الخروج إلى عند ذلك المتوحش يعني الكثير، وهذا ما عرفته فيما بعد.
أذكر قصة لواحد من هؤلاء المساكين، كان يقف على المخبز يتزاحم مع الناس عله يفوز بشراء كيلوغرام من الخبز، ذلك الخبز الذي جعل حافظ الأسد شراءه بعد الساعة 9 صباحاً حلماً .. كان يقف ذلك الرجل، وإذا بعنصر مخابرات يقف خلفه ويلمح في جيب هذا المسكين محفظته، فمد هذا العنصر يده سارقاً المحفظة، وانتبه صاحبها، وبدأ يصيح: حرامي حرامي، إلا أن ذاك العنصر كان حاضر الشيطان – عفواً البديهة – فأفصح عن هويته قائلاً: "ولك يا حرامي بدك تسرق رجل أمن"؟ وبلحظات انقلب الحق إلى باطل، وأصبح المسروق سارقاً، ولم يكتف ذاك العنصر بذلك، بل صاح بالمسروق: "قدامي عالفرع يا حرامي يا ابن ..". وساق المسكين إلى الفرع، وتناوب هو ورفاقه على ضرب ذاك المسكين حتى أنهم – وأذكر ذاك جيداً – قشروا جزءاً من جلد ظهره على آلتهم الجهنمية "بساط الريح"، والأسوأ من ذلك أنهم سجلوا اسم الرجل في دفتر التفقد اليومي بـ "الحرامي"، فكان الرجل يقول حاضر سيدي عندما ينادى على الحرامي.
وقصة أخرى لعجوز يبلغ من العمر 75 عاماً، وكان يشبه جدي، حين دخل السجان "مين منكم ما راح عالحمام؟"، فرفع العجوز إصبعه دون أن يقف على قدميه، فجن جنون السجان، وصاح: "بترفع إصبعك دون أن تقف يا ابن ال .."، وانهال عليه ضرباً، "ما بدك توقف على رجليك يا .. أنا بعرف شلون أخليك تقف على رجليك".
أما ما لا أنساه أبداً، فهو صراخ تلك المرأة في منتصف الليلة الثانية لقدومي وهي تستغيث من شدة التعذيب، وتقول لجلادها: "ما عندك أم، ما عندك أخت، منشان الله"، وما يزيد ذلك اللئيم إلا أن ينهال عليها ضرباً وشتماً وسباً. لا أنسى تلك الصرخات التي تدوي في رأسي مستغيثة، وما من أحد يملك أن يساعدها إلا الله.
في اليوم الثالث طلبوا مني، وبما أنني صغير السن ولا أقدّر الأمور ولا أعرف الأشخاص، طلبوا مني أن أقوم بالمساعدة بتوزيع الطعام على زنازين المهجع الذي كان يضم حوالي 20 زنزانة انفرادية وواحدة جماعية.

كنت أساعد سجيناً آخر يقوم بمهمة توزيع الطعام، ويبدو أن لهذا السجين واسطة قوية ليقوم بأعمال السخرة من تنظيف للحمامات وتوزيع للطعام، لكن بعد انتهاء مهامه يعود إلى زنزانته ليقفل الحرس عليه الباب، يطلق عليه في السجون السورية عادة لقب "الخزمجي". الطعام عبارة عن برغل منقوع ولا أظنه مطبوخاً من شكله وطعمه. بدأنا بالتوزيع، أنا أحمل الصحون والخزمجي يدق الباب ويفتح الشباك مناولاً الصحن للسجين، وعند الزنزانة رقم 8 فتحت نافذتها، فإذا بوجه امرأة يطل منها، فقالت للخزمجي: "أرجوك بنتي بدها تروح الحمام"، فهمس قائلاً: "منشان الله بسرعة وبدون صوت أحسن ما أتبهدل". وفتح لها الباب، فإذا بفتاة تبلغ من العمر حوالي 15 عاماً تقف خلف أمها، يا إلهي كان منظراً لا ينسى، أم وابنتها في زنزانة انفرادية! انطلقت الفتاة بسرعة، وبقينا نحن ننتظرها، وحين عادت أغلق الخزمجي عليهما الباب، وتابعنا توزيع الطعام إلى الزنزانة رقم 9، وكانت امرأة أيضاً، لكن هذه المرة كان وقع المفاجأة أكبر، فهذا الوجه وجه خالة أم وليد، جارتنا في العمارة المجاورة لنا، إلا أن وقع المفاجأة كان أكبر عليها لتراني في السجن، قالت لي: جميل ماذا تفعل هنا؟ ما لذي أتى بك إلى هنا؟ فسرت فيني موجة من البكاء والخزمجي يتوسل لي: "منشان الله اسكت أحسن ما يجي جاسم ويعذبنا"، قلت لها: "خالة أم وليد الله يخليك خلصيني من هون". طلبت من الخزمجي أن يفتح لها الباب لتراني وتتكلم معي للحظات، قالت لي: "والله يا ابني عذبوني عذاب شديد بنص الليل يا ابني هادول ما بخافوا الله، خلعوا كل ملابسي وتركوني عارية وهم يضربونني بالكابلات، ربطوا أسلاك الكهرباء بكاحلي انظر إلى أقدامي" (كانتا مليئتين بالبقع البنية بسبب حروق الكهرباء) تابعت قائلة والخزمجي يرجوها أن تسرع لزنزانتها .. قالت لي: "صحت بالسجان واستنجدت به وذكرته بأن له أختاً وأما، إلا أنه سب أمه وأخته وأمي ولم يستثنِ أحداً". قلت في نفسي: إذاً كانت تلك الأصوات في الليلة الماضية أصوات واستغاثات خالة أم وليد التي طلبت مني قبل أن يدخلها الخزمجي إلى زنزانتها أن اخبر

زوجها أبو وليد عن مكان وجودها، حيث أنهم أخذوها في منتصف الليل دون أن يدري أحد إلى أين.
اختنق صوتي وأنا أنظر إليها فأرى صورة أمي فيها، والتي كان إحساسها لا يخطئ في توقع قدوم المخابرات، والتي سقطت مغشياً عليها – كما علمت بعد خروجي – عندما بدأ أهلي يسألون عن مكان وجودي، ونجحت إحدى الوساطات في إخبارهم أنني موجود في فرع المخابرات العسكرية السريان، وعند وصول أهلي عند الحرس، قالت لهم أمي: أريد أن أرى ابني الصغير جميل، فرد عليها وغد منهم ببرودة أعصاب: "مين ابنك إن شاء الله هذا الولد الصغير اللي جابوه من 4 أيام؟"، فقالت أمي وقد تهلهل وجهها: نعم إنه هو، فتابع الخنزير كلامه: لقد أعدموه البارحة فقط. فسقطت أمي مغشياً عليها على درجات فرع المخابرات.
في اليوم الخامس وبعد اتصالات مضنية قام بها والدي، جاء الجلاد منادياً عليّ فقمت مسرعاً، فأخذني إلى غرفة الضابط المسؤول حيث قال لي: "الآن رح نطلعك، بس إذا بتحكي لحدا شو شفت أو سمعت ترى بجيبك لهون وما بتطلع مرة ثانية فهمت ولك ..".
قال لأحد العناصر: خذه وأوصله إلى بيته، وأخذني ذلك العنصر إلى غرفة ثانية وقال لي: "اجلس كمان شوي بتجي السيارة بوصلك"، وتأخرت السيارة، ونظرت إليه فقال لي: "بتعرف تروح لحالك؟ قلت له: نعم"، والحقيقة أنني لا أعرف أين أنا ولا كيف أصل لبيتنا، إلا أنني أريد أن أخرج من عندهم وبعدها "الله بيفرجها".
مد يده في جيبه وأخرج ليرة سورية أعطاني، إياها وقال لي "اركب بالباص وروح على بيتكم"، أخذني من يدي حتى أوصلني إلى آخر نقطة حراسة في الفرع، وبعدها انطلقت راكضاً أبحث عن شارع تزدحم فيه السيارات فيكون شارعاً رئيسياً يقودني إلى بيتنا، وسألت أول رجل قابلته في الشارع: كيف أصل إلى منطقة السبيل؟ فقال لي بعيدة من هنا وتحتاج ركوب باصين. ركبت الباص الأول فالثاني حتى وصلت حارتنا، كانت الساعة حوالي التاسعة مساء، ركضت إلى البيت حيث كان الجميع في بيتنا يواسي أمي المفجوعة بولدها، وكان لقاء، وكانت لحظات فرح سرعان ما تبددت عندما اقتربت عقارب الساعة من أن تتعانق عند الثانية عشرة

ليلاً حينها نظرت إليّ أمي، وقالت: هل سيأتون الليلة؟ ولم أستطع أن أنفي لها قدومهم، فقد أخطأت قبل 5 أيام عندما أكدت لها عدم زيارتهم!

[الشهادة الثالثة عشر]

بعض الذكريات من منزل الموتى[8]

بقلم : آرام كربيت[9]

من أين أبدأ. الذاكرة زاخرة بالمتاعب والليالي المثقلة بالمآسي، باللحظات المؤلمة التي يصعب الإلمام بها والتعبير عنها بالكتابة أو السرد الشفهي. كما لا أعرف بالتحديد من أين أبدأ، من التحقيق بالقامشلي أم من سجن الحسكة أو سجن عدرا في دمشق أو سجن تدمرالعسكري في البادية.

سأبدأ من سجن تدمر في البادية السورية..

السقف مفتوح، الشبابيك مفتوحة، شقوق في الحيطان، من حول ملابن الباب.

كل شيء قديم، الجدران، المرحاض الوحيد والمكسور، الحنفيات الصدئة وماؤها الاصفر الملوث.

البرد يتسلل من جميع الاطراف دون استئذان، دون رحمة أو شفقة. لا تدفئة أو ماء ساخن أو شاي أو ما شابه ذلك .. عزلة قاتلة عن كل شيء .. لا زيارات، لا قلم أو ورق، لا موسيقى أو صوت فيروز يبعد عنا المساحات المغلقة والحزن المزنر بالكآبة. الاستثناء الوحيد كان صوت زقزقة العصافيربين الفينة والاخرى، كانت تعيش معنا في الفترات الاولى من وجودنا في سجن تدمر، بعد الشتاء الاول لم يبق إلا الذكور منها، لأن المتزوجين منهم رحلوا إلى امكاكن أكثر أمنا لصغارهم من مهجعنا.

صوت عواء الشرطة كان يكسر الصمت في الليالي الطويلة.

---

[8] **هذه الشهادة نقلاً عن موقع "أخبار الشرق" على شبكة الإنترنت .**

[9] **سجين سياسي سابق .**

يبدأ النوم في الساعة السابعة مساء وينتهي في الساعة السادسة صباحا، على الطرف الأيمن أو الأيسر من الجسم، معصوبي الأعين.
النوم متقطع. الاسباب كثيرة، نتيجة الخدر أو التنميل من النوم على طرف واحد أو من كثرة الدق على السطح:
- ابن الشرمو .. أبن المنيو .. أمك قحب .. شتائم كثيرة لا تعد ولا تحصى.. هل لديك أحد في المرحاض، هل الجميع نيام. رتابة الدق على السطح بكعب البندقية، او بحجر كبيرة أو بالبوط العسكري بشكل رتيب كل عشر دقائق، يجعل الاعصاب مستفزة، مرهقة، متعبة لدرجة تخيلت أنني لن أصمد أكثر من بضعة أيام وبعدها ربما أجن أو أموت.
في الأيام الأولى كانت تقودني ذاكرتي إلى الذين كانوا هنا ورحلوا .. كنت أقول كيف صبروا، تحملوا واجتازوا هذه الأماكن السوداوية الصعبة.
في سجن عدرا بدمشق، في المهجع 12 كنت مع مجموعة من القادمون من سجن تدمر. اعتقلوا أطفال صغار، في الرابعة عشرة أو السابعة عشرة من العمر، أمضوا ستة سنوات أو أكثر فيه.
أتذكر .. الكثير .. الكثيرعنهم.
شعرهم أبيض .. سمعهم ثقيل .. ينفعلون بسرعة، بسبب أو دونه، يتقاتلون ثم يتصالحون لكن قلوبهم بيضاء كالحليب، طيبون للغاية ودمثوا الاخلاق .. كنت صديقهم وكانوا اصدقائي.
في السنة الثامنة لاعتقال مصطفى الشيخ حسن. وكان التاريخ صيف 1988 جاءته أول زيارة، كان مرتبكا، جسده كله يرتعش، اليدان والقدمان، الشفاه ورموش العين .. وكنا مرتبكين. كل واحد يقوم بدور، أحدنا يجهز ثيابه النظيفة والآخر يمشط شعره وغيره يهدأ خاطره ويخفف انفعاله من مفاجأة الزيارة الأولى ولقاء الأهل والأحبة بعد سنوات طوال من الفراق.
مصطفى الآن في الخامسة والعشرين من العمر. كان في السابعة عشرة من العمر أثناء الاعتقال.
مشى مصطفى برفقة الشرطة وراء الشبك المعدني ينتظر وفي الجهة الاخرى والدته تنتظر.

سألت أمه الشرطة: أين ابني مصطفى، لدي بطاقة زيارة لرؤيته، أين هو؟
- إنه أمامك، ألا تريه؟ رد أحد الشرطة.
- وقفت مترددة لحظات: لكني لا أرى إلا الشرطة ورجلاً عجوزاً معهم .. أين ابني.
كان مصطفى يبكي من وراء الشبك بحسرة وألم وهي تبكي. قال: أمي، يوُم، يا أمي، أنا مصطفى.
حدقت في وجهه .. ملياً. قالت: لا .. لا لا يمكن أن تكون ابني .. مصطفى. فمصطفى شاب صغير لا يتجاوز السابعة عشرة من العمر .. أنت عجوز .. لست ابني .. لا أقبل أن تكون ابني. كانت تصرخ وتولول بصوت عال: هاتوا ابني الحقيقي .. أين ولدي، لماذا تكذبون علي وتعطوني رجلاً عجوزاً .. شعره أشيب، أبيض كالحليب. كلاهما كان يبكي بحرقة ومرارة .. مصطفى يصرخ ويقول لها: أنا مصطفى ابنك، وهي ترد من الطرف الآخر .. لا .. لا لست الذي تركني ومضى إلى غير رجعة.
قال لي في إحدى جلساتنا:
في المرة الأولى عندما قرأ الشرطي اسمي، ودعت اخوتي ورميت لهم جميع ثيابي وخرجت والبشكير على كتفي. وضعوا الحبل حول رقبتي، كنت أقرأ الشهادة وأكررها مرات وأستعد لملاقاة ربي، خائفاً، حزيناً لعدم رؤيتي لأمي وأخوتي وشقيقاتي. في اللحظة الأخيرة، أنزلوا الحبل من حول رقبتي أعادوا قراءة اسمي، قالوا هناك خطأ في اسم الأم. ثم أعادوني إلى المهجع بين أخوتي من جديد.
كنت قد حفظت القرآن عن ظهر غيب، اتلوه يومياً وعلى مدار الساعة لأبعد عن نفسي مرارة الألم والخوف، الحرمان والفراق.
بعد سنة من الحادثة جاؤوا مرة اخرى وقرأوا اسمي، قلت حان وقت إعدامي، جهزت نفسي مرة اخرى وودعت الجميع. التف الحبل حول عنقي وأنا في كامل استعدادي لملاقاة ربي. انزلوا الحبل في اللحظات الأخيرة.
ثلاث مرات، يضعون الحبل حول رقبتي ويستعدون لشنقي ثم يعيدوني إلى المهجع ويقولون لي لم يحن دورك بعد.
- سألته، ما هي اسباب سجنك؟

- لقد رميت الحجارة على الشرطة في محافظة اللاذقية. واستطرد: لقد سجلوا في اضبارتي، أحداث شغب.
- اثنتا عشرة سنة قضاها الأطفال في السجن لأنهم رموا الشرطة بالحجارة.
عندما كان يغزوه الكابوس، عندما كان يصرخ في انصاف الليالي، كنا نجتمع خمسة أو ستة من المهجع من أجل ايقاظه، وعندما كان يفيق كان جسده كله يهتز ويرتعش، يتصبب عرقاً وصوت ضربات قلبه يمكن أن يسمع لمسافة متر.
كانت الكوابيس جزءاً من طقوس الليالي الطويلة في السجن، في هذا المهجع.
الرهينة نزار موسى ابن الأربعة عشر ربيعاً. اقتادوه مع والدته إلى سجن تدمر بعد أن قتلوا والده أمام عينيه. فاقد السمع إلى حد كبير، من الصفع على الرأس والوجه والأذن. مرات كثيرة .. كنت أقول: نزار .. يا نزار. كان يشتغل بالابرة والخرز ولا يرد، اربت على كتفه، ترتعد فرائصه من الرعب، يرفع رأسه بسرعة .. باستجابة سريعة .. يصيح: ماذا .. ماذا تريد.
- الشاي .. نسيت الشاي .. يا نزار، يهرع إلى كأسه ثم يعود إلى خرزه مرة ثانية.
كانوا حوالي ثمانية في المهجع رقم 12. وكنا خمسة شيوعيين، أنا ومحمد خير ومزيد سلوم، نبيل جولاق وإبراهيم ولي عيسى .. وتهم أخرى لا علاقة لها بالسياسة .. قضائيون.
عندما اعتقل عمار عرب، كان في الثالثة عشرة من العمر، يبكي في انصاف الليالي، يقول: أريد أمي، خذوني إلى أمي، لماذا اغلقتم الباب علي وتركتوني بين دفف الحيطان الرمادية العجوز.
عمار كان متهماً بالانتماء إلى حزب البعث العربي الديمقراطي" صلاح جديد".
لم يراعوا طفولته .. كانت سطوة السلطة اقسى من استغاثاته..
كان عمار في الثالثة والعشرين من العمر عندما خرج من السجن، لكن ملامحه بقيت طفولية .. وروحه أيضاً.

ناموس الخوف في تدمر كان جزءاً من طقوس الحياة اليومية، نشربها مع اندلاق الشمس إيذاناً بمجيء نهار مكرر .. زمن مكرر بإيقاع كريه ومقرف.
انظر إلى الجدران المصبوغة بلون دموع ودماء الذين تعرشوا بين دفاتها، أحسها تنطق، أرى مصطفى ونزار موسى وبسام حمزة ومحمد نحلوس وحمامة، صورهم مرسومة على التوريقة القديمة من الحيطان العتيقة .. بكاءهم، صراخهم.
نظام العجزة .. نظام (..) حافظ الأسد .. لم يسمع استغاثاتهم، تركهم في السجن دون محاكمة..
خاف من براءة الاطفال وبريق الضحك في عينيهم .. خاف من ظلال الوقت وتغيرات الزمن، أو كان مشغولاً في حروبه التحريرية الكاذبة.
السجن يقزم الروح ويعطب الجسد والعقل..
قزمنا وأبقانا عند زمن الاعتقال، بقي عقلنا يستجر الماضي ويدور في فلكه.
عندما كانوا يضربوني، على الوجه والظهر، اليدين والقدمين .. كنت اخاف من شيء آخر .. من الشلل التام ومن فقدان السمع والنظر .. في تدمر .. هذا الشيء جزء من طقوس المكان.
في عدرا .. السنوات الثلاث الأولى، الفطور .. يومياً لبنة مع زيت وفي المساء بطاطا مسلوقة، والغداء مرق دون دسم.
كنت أضحك من مزيد سلوم عندما يناديني للعشاء، يقول بلغة مفخمة: تعال تعشى. أرد عليه مبتسما: قل تعال كلّ بطاطا مسلوقة فهذا أجدى.
في تدمر..
عند فتح الباب الرئيسي، مع انزلاق المزلاج على الحديد الصدئ، تتحفز غرائز القلق، من خوف ورعب، تتوثب الذاكرة باستباط اشياء، متنوعة وكثيرة، تنطلق على جناح السرعة وتضع التوقعات القادمة، تتساءل، ماذا ينتظرنا هذا اليوم .. الآخر، ماذا يخبئ لنا القدرفي جعبته من امزجة عكرة ومواويل غامضة.
أنظر إلى العصفور القابع فوق رأسي، لا مباليا، مسترخيا، نافشا ريشه ويغط في نوم عميق، احسده على هذا الخلود لملكوت الحرية والفرح: لو استطيع أن

أكون مثله، اطير من النافذة المفتوحة إلى مكان أقل قسوة واكثر أمناً.
كان ينام فوق مسمار منبهق من الجدار، على قدم واحدة .. وعندما يباشر النهار في قرع بابه، يفتح عينيه ينظر إلينا من فوق، بزاوية حادة، يهز جسمه بدلع وغنج، ينفش ريشه، يودع اثار النوم، بعدها يرحل إلى المياه النائمة فوق اطراف البادية ويبقى إلى الهزيع الأخيرمن النهار.
عند حلول المساء يعود، يزقزق بايقاع سريع، يميل برأسه قليلا، ينظر إلينا ثم يلتفت نحو اليمين ثم اليسار، عندما يتأكد من أننا لا نؤذيه، وأننا سجناء لا حول لنا ولا قوة، يرفع رأسه إلى الأعلى ويغمض عينيه بسعادة بالغة وينام.
خمسة اعوام في هذا الكهف لم ارفع رأسي، نكسته تحت سطوة القوة واذلال السلطة، أرى احذية الجلاد الثقيلة، لامعة وقاسية، طويلة وزواياها حادة ومذببة .. مرات كثيرة يقولون لي: افتح يديك، ابسطهم يا منيك .. إلى الأمام ورأسك منكسا، لا ترفعه أبداً .. كيبلاتهم المطاطية المغلفة بالاسلاك المعدنية تلسع يدي وتمزق انسجتها، اصرخ وابكي من الوجع .. يكثر ضحكهم ونكاتهم البذيئة .. ثبت يديك يا ابن الزانية .. تنهال علي بمزيد من القوة والفرح، على هذا الجزء مني، كثيرة هي المرات التي لا استطيع رفعهم، تهتز يدي دون ارادة مني وتنزل إلى الاسفل. اقول للشرطة بصوت خافت ومستسلم بينما الكبل يلسع يدي: لم أعد اقوى على حملهم، يعودون للضحك .. زبط .. زبط يا قحب .. زبط يديك بلا دلال .. أنتم مدللون..
نعم كنا مدللون في تدمر .. هذه حقيقة لا لبس فيها.
في عام 1996 كانت معاملتنا مثل معاملة بقية القوى السياسية في سجن تدمر، الضرب اليومي والشتائم والتعليم (عندما يقول الشرطي لأحدنا أنت معّلم، عند مجيئهم في اليوم التالي يقولون ليخرج المعّلم، عند خروجه ينهالون عليه بالضرب سواء بالدولاب أو غيره) الإهانات والشتائم والبصق وبوس الأحذية، منعنا من النوم، والطعام قليل، بقي هذا الامر إلى منتصف العام 1997.
في 24 نيسان عام 1997. تغير كل شيء.

دخلت الشرطة إلى المهجع، قالوا ليخرج الجميع إلى الباحة، ابق معنا يا رئيس المهجع (رئيس المهجع في سجن تدمر هو اكثر من يتعرض للضرب) اسمع صوت الدولاب وهو يلسع اقدام رفاقي، جاثمين كالأسرى على ركبهم وايديكم فوق رؤوسكم بشكل منكس.
سألني الشرطي: هل تدخن؟ قلت: لا .. لا أدخن.
صفعني على وجهي. كان الشرطي طويلا، هكذا قدرت ذلك من خلال حذائه. كلما كان يصفعني كلما ركزت نظري على طول حذائه: ما اضخم هذا القدم وهذا البوط. يعود ثانية ويقول: هل لديكم تواصل مع أحد.
أرد: لا .. لا يا سيدي ليس لنا تواصل مع أحد، ليس لدينا زيارات أبداً. مشى داخل المهجع وكان يتولى الذين معه في صفعي كلما مشيت بمحاذاتهم مع الركل والرفس.

حدود ضربنا بالدولاب يمتد من عشرة كيبلات واقصاها مائة وعشرة كيبلات.
أما مهاجع الإخوان المسلمون وبعث العراق فكان شيئا مختلفا تماما. الحد الأدنى للضرب كان مائة وخمسين كبلاً ويصل في حدوده النهائية إلى ستمائة وخمسة وثلاثين كيبلاً.
هذه حقيقة ولا مبالغة فيها، يجري الأمر يوميا. يبدأ التعليم ليلا، أثناء هجوعنا إلى النوم، وفي الصباح يخرجون المعّلمون، اثنان أو ثلاثة من كل مهجع.
في إحدى المرات رفعني رفاقي فوق اكتافهم ورأيت: حلقة دائرية قطرها ثمانية امتارمن الشرطة والبلدية، في وسط هذه الحلقة سجين مربوط موضوع في الدولاب والقارس والمرسة تشد على قدمه ومرفوعة في الهواء. جلبوا الماء ورشوها على قدميه حتى تصدر صوتا أقوى. كان عدد الشرطة العسكرية بحدود العشرين وكلابهم المدربة من البلدية بحدود العشرة.
كان السجين يصرخ ويستغيث..
المكان: الباحة 2 القريب من حمام الشرطة، المهجع 3.
تناوب عليه اثنا عشر شرطي، كلما تعب أحدهم من الضرب يتولى الآخر المهمة. في البدء كان يصرخ من الألم والخوف ثم تقطع صوته إلى أن خمد تماما..
يرفعون أيديهم إلى الأعلى وينهالون عليه بالضرب بمنتهى القوة والحقد..

ضربوه ستمائة وخمسة ثلاثين كيبلاً، كان التاريخ في 3 أيار عام 1998.
عندما انتهوا منه اخذوا يركلونه بأقدامهم ويدفعونه إلى داخل المهجع وهو ينزف، يبدو أنه لم يعد يحس بشيء، ربما اغمي عليه .. لا أدري..
لكنني كنت عارياً .. ذليلا، أحس بالقهر يأكل ثيابي وجلدي، عندما كنت اشاهده واسمع صراخه واستغاثاته..
جميع الكيبلات التي تناوبت على ضربه كانت حمراء، ينقط الدم من اطرافها.
عندما عاد الشرطة من اكمال مهامهم، من ضرب وتعذيب واذلال، كانوا يضحكون ويكملون على الحيطان يضربونها بأكبالهم ليخيفوا السجناء ويعبروا عن نشوة انتصارهم.
هذ ه.. كانت معارك (..) حافظ الأسد .. لا بارك الله فيه وهو في قبره .. وإلى ذلك اليوم الذي نرى فيه شعبنا يخرجه من قبره ويحاكمه ويحاكم الذين على شاكلته.
لكل شيء ثمن .. هذه حقيقة لا مراء فيها.
هل كنا ضحايا..
لا..
وأنا أيضاً اخترت غاندي .. لا غيفارا مع اختلاف الوقت والزمن ونوعية الصراع وشكل العدو، ولكن من موقع الفاعل .. لا من موقع الوصي والمنفعل..
في زمن غاندي كانت الامبرطورية البريطانية في حالة أفول، وكان زمن الانفكاك عن الهيمنة القديمة، تحول غاندي إلى قديس وراهب ومناضل بامتياز. لنتساءل: لو كان غاندي في هذه الأيام من منا كان سيعرفه؟
الكثير من الحثالة .. تاجروا بأوجاعنا .. أوجاع وقهر الذين ضحوا من أجل خلاص بلادنا من الاستبداد والعهر السياسي .. وكثير منهم استفاد من دمائنا النازفة .. فرضوا انفسهم علينا، بالرغم منا، زاودوا في الدفاع عنا، كانت غاياتهم المال والمؤتمرات والتلفزيونات والاستعراضات الفارغة، هؤلاء من احط الناس سلوكاً وخلقاً وقيماً..
بالطبع لا أقصد أدونيس إطلاقاً .. فهو اكبر من هؤلاء بكثير.

[الشهادة الرابعة عشر]

الرياضي العراقي هلال عبد الرزاق علي يروي قصة معاناته في أشهر سجون دمشق

نشرت صحيفة القدس العربي التي تصدر في لندن، في عدد الجمعة 13 – 07 – 2001م، مقابلة مع الرياضي العراقي هلال عبد الرزاق علي (44 عاما)، والذي يحمل الجنسية البريطانية، وهو لاعب كرة سلة محترف، شارك بالعديد من البطولات العربية والآسيوية، تعاقد مع نادي الجماهير الرياضي في حماة للإشراف على فريق النادي لكرة السلة، اعتقل في سورية بتاريخ 23/7/2000، لوجود اسمه في دليل هاتف احد المتهمين، وبقي في السجن إلى أن أفرج عنه بتاريخ 20/6/2001، هلال عبد الرزاق رفض الاستجابة للتهديد بوجوب السكوت، وقرر أن يؤدي الأمانة التي حمله أياه المعتقلون هناك، ليوصل معاناتهم إلى العالم، ونحن بدورنا يسرنا أن نعيد نشر المقابلة (التي أجراها د. بشير زين العابدين).

الرياضي العراقي هلال عبد الرزاق علي يروي قصة معاناته
في أشهر سجون دمشق

- طوله 190 سم وطول الزنزانة 180سم ولم يكن قادرا علي التمدد لمدة ستة اشهر فانحني ظهره
- الكلام ممنوع.. وأي محاولة لقراءة القرآن أو الدعاء كانت تقمع بأسلوب وحشي
- أحد المساجين اعتقل لامتناعه عن التصويت لبشار الأسد في الانتخابات وآخر لإشادته بأهل حلب وحماه
- لا يسمح للمساجين بالزنزانة باستخدام المرحاض اكثر من نصف دقيقة... وإلا هدد بأكل الخـ ...
- السجانون يتنافسون علي تعذيب المساجين مستخدمين الكرسي الألماني والدولاب والتعليق والسحل
- اشد انواع التعذيب كانت من نصيب مجموعة حاولت تهريب الاسلحة لدعم الانتفاضة الفلسطيني
- آخر ما اوصاني به زملائي المساجين ان ابلغ العالم بمعاناتهم.. الا هل بلغت؟
- وآخر ما قاله لي السجان: اذا فتحت تمك منعرف شلون نجيبك

في سورية جريمة كبيرة ترتكب علانية وبشكل جماعي، ولكن لا يجرؤ أحد أن يتحدث عنها، لأن الخوض فيها ـ بعرف النظام ـ جريمة أخري، فخلف حاجز الإرهاب والخوف الجماعي الذي شيدته أجهزة المخابرات عبر أربعة عقود من الزمان؛ يقبع آلاف المواطنين داخل السجون السورية في عزلة كاملة عن العالم الخارجي يتجرعون مرارة الظلم والقهر ويعانون من التعذيب اليومي ويسامون الذل والاضطهاد والحرمان... أغلب هؤلاء لا يعرفون تهمتهم ولا يعلمون مصيرهم، بل إن كثيراً منهم قد فقد الأمل بلقاء أهله وأصبح ـ بالرغم من وجوده ـ في عداد المفقودين.

هذه قصة شاهد عيان علي الممارسات القمعية التي ترتكبها أجهزة الأمن في سورية ضد المواطنين، وقد وقعت أحداثها خلال الفترة 2001/6/22 ــ 2000/7/23، من عهد الرئيس الجديد بشار الأسد الذي

كان يتحدث قبل أيام قليلة من اعتقال صاحب هذه القصة عن الحريات العامة و الشفافية و كرامة المواطن السوري .إنها لا تختلف كثيراً عن قصص آلاف المعتقلين، ولكنها تتميز بأن صاحبها قد امتلك الجرأة ليخرج من الصمت ويتحدث عن معاناته التي استمرت 11 شهراً في أقبية فرع فلسطين .

· تعريف

السيد هلال عبد الرزاق علي عراقي الأصل من مواليد مدينة كركوك عام 1957 متزوج من سيدة سورية ولديه أربعة أطفال. يعرفه الكثير من الرياضيين؛ فهو لاعب كرة سلة محترف شارك في العديد من البطولات العربية والآسيوية... يتحدث باعتزاز عن مواهبه والشهادات التي حصل عليها كمدرب لكرة السلة من أمريكا وإيطاليا. يعيش هلال علي منذ فترة طويلة مع أسرته في بريطانيا، حيث كان يعمل مدير مبيعات في إحدى الشركات العقارية في مدينة لندن، وكلما حانت فترة الصيف كان يصطحب زوجته وأطفاله إلي مدينة حماة لقضاء الإجازة مع أقاربهم هناك. في هذه الأثناء توثقت علاقة هلال مع عدد من الرياضيين الذين تعرفوا عليه أثناء مشاركتهم في البطولات الدولية، وعندما علمت إدارة نادي النواعير في مدينة حماة (أصبح اسمه فيما بعد نادي الجماهير) بخبرته الطويلة في مجال التدريب تعاقدوا معه للإشراف علي فريق كرة السلة لديهم، وسرعان ما صعد النادي إلي الدرجة الأولي لأول مرة منذ 13 عاماً مما شد انتباه محرري صفحات الرياضة في جريدة الفداء بحماة، وظهرت صور المدرب هلال علي خلال شهر آذار (مارس) عام 2000 كذلك في جريدة الرياضة الأسبوعية، وفي جريدة الثورة التي أجرت معه مقابلة مطولة حول تاريخه الرياضي.

كان هذا النجاح سبباً في تفكير هلال بالإقامة في سورية لتطوير فريقه الذي أصبح ينافس علي المركز الأول في الدرجة الأولي علي مستوي القطر، ولذلك فقد تقدم بطلب الإقامة لمدة سنة وأرسل أوراقه إلي مديرية الأمن العام.

هنا يتوقف السيد هلال عن الحديث، وقد اغرورقت عيناه بالدموع فقد كان من الصعب أن يقتنع الناس بأن

ذلك الشبح الذي غارت عيناه في وجه شاحب قد كان رياضياً في يوم من الأيام. كان هناك تعارض كبير بين وضعه الصحي وتاريخه الرياضي؛ فقد اصفر وجهه وظهرت عليه التجاعيد، مع أنه لا يزال في ريعان الشباب، وفقد أكثر من 45 كيلو غراماً من وزنه وأصبح ظهره محنياً لأنه لم يكن قادراً علي التمدد طوال ستة شهور.

إنه يحتاج لسنوات طويلة حتى يسترجع صحته، أما الآلام النفسية فإنها تلازمه بشكل دائم ولا يعلم إن كان سيستطيع التخلص منها في يوم من الأيام، فهو يعاني من فقدان التركيز، ويعاني كذلك من النسيان المزمن الذي كان رحمة له كلما تذكر أبناءه وأقاربه في السجن الانفرادي.

ـ سألته: ماذا حصل بعد تقدمك بطلب الإقامة؟

تذكر بأنه كان يروي قصة اعتقاله، وعاد ليقول:

- المخابرات العسكرية بحماة

في يوم الأحد 2000/7/23 اتصل بي شخص من إدارة المخابرات العامة وطلب مقابلتي بخصوص أوراق الإقامة التي تقدمت بـها، فقابلته في النادي حيث طلب مني جواز سفري وهوية زوجتي، وفي هذه الأثناء وصل ستة عناصر مسلحين من الأمن العسكري وطلبوا مني مرافقتهم فامتثلت لأمرهم، وعندما هممت بصعود السيارة صرخ ابني عبد الله:

وين رايح بابا؟

لم أكن أملك إجابة واضحة ولكن أحد المسلحين تطوع بالإجابة عني:

ـ بابا بده يغيب شي ساعتين زمان وراجع .

صاحبت العناصر إلي مركز المخابرات العسكرية بحماة والذي يترأسه العميد أحمد حلوم وهو عبارة عن ثلاثة طوابق دونـها بوابة كبيرة لا تجاورها أي عمارات أخري في الطريق إلي دمشق، وعندما توقفت السيارة ترجلنا منها وأدخلني المسلحون إلي غرفة مقفرة لا توجد فيها غير طاولة واحدة، وبقيت أنتظر لفترة طويلة وأفكر في سبب وجودي هنا، فقبل أيام قليلة داهمت المخابرات

منزل أحد أقارب زوجتي لعلاقة كانت تربطه برجل كردي اسمه (ج) اعتقل بسبب نشاطه في صفوف الشباب في مدينة حماة، ولكنني لم أكن أعرف المدعو (ج) ولم أكن أعلم أي شيء عن نشاطه، بل كان اهتمامي محصوراً بالتدريب في نادي النواعير وكثير من تلاميذي أعضاء في حزب البعث وأجهزة الأمن، ولم يكن لدي كثير من المعارف في مدينة حماة. ثم أخذت أفكر لبرهة بأن احتجازي في هذه الغرفة قد يكون بسبب تشابه في الأسماء أو خطأ وقع فيه أحد المخبرين فلم أرتكب ـ في علمي ـ أي مخالفة للقانون، وترجح الظن لدي بأنهم يريدون أن يسألوني عن قريب زوجتي المدعو (أ). في هذه الأثناء كان الحراس يستفزونني بحمل أسلحتهم وينظرون إلي بأعين ملؤها التحدي والاستخفاف. ثم انقطع الصمت الطويل بدخول رجل متوسط الطول له شارب كبير، يلبس زياً مدنياً وقد علمت فيما بعد أنه العميد محمد الشعار.

نظر إلي العميد بازدراء ثم سأل الحراس:

- هادا هو هلال؟
- فقالوا: نعم سيدي
- عند ذلك سألني بفظاظة: بتعرف (ج)؟
- فأجبته: لا ما بعرف (ج) .

ثم خرج دون تعليق وبقيت أنتظر حتى طلبني العميد إلي مكتبه الواسع، فجلست قريباً منه، ولكنه انتهرني بعنف وأمرني بالجلوس بعيداً عنه في آخر الغرفة فامتثلت، وجلست حيث أراد. ثم أومأ إلي الحراس فأدخلوا قريب زوجتي وهو يرتجف من شدة الخوف، وقد قيدت يداه وغطيت عيناه بقماشة (يسمونها طماشة)، ودار بينهما الحوار التالي:

- ـ بتعرف هلال؟
- ـ نعم سيدي
- ـ شو علاقته بـ (ج)
- ـ ماله علاقة سيدي
- ـ طلعوه لبره

وهنا التفت إلي الضابط وقد نفد صبري، وقلت له ليس لي أي علاقة بالمدعو (ج) فما هو الداعي لاحتجازي هنا؟ فقال لي بأنني لست الشخص المطلوب، ولكنني سأبقي عندهم الليلة لاستكمال التحقيق، فذكرته بأن

لدي أطفالاً وأقارب وهم قلقون علي ولا يعرفون مكان وجودي الآن، فلم يزد أن قال: اتفضل وبكرة منشوف شو بيصير
وفي حركة سريعة اقتادني الحراس خارج الغرفة وقيدوا يدي وأخذوني إلي سجن الفرع حيث استقبلني سجان مرعب اسمه عمران، وكان صوته غاية في الخشونة فصرخ في وجهي بقصد التخويف: حقير... وقف منيح ولا ، ثم جرني إلي الزنزانة المنفردة رقم (4)، وأقفل من خلفي الباب.
تلفت حولي فإذا هي زنزانة ضيقة في غاية القذارة وفيها مرحاض تنبعث منه روائح كريهة، فجلست علي الأرض وقد أسقط في يدي وعدت أسترجع الساعات الأخيرة التي مرت علي كأنـها كابوس مزعج وكلي أمل أن تنتهي في الصباح.
كانت هذه هي المرة الأولي التي أسجن فيها، فقد أمضيت اغلب حياتي في الملاعب وفي طريق الاحتراف، بل إنني لم أذهب مرة واحدة إلي مركز شرطة ولم يكن لدي أي سبب لمخالفة القانون أو ارتكاب الجرائم، فقد كنت ميسور الحال وعندي أربعة أطفال أرغب في تربيتهم أحسن تربية، وأخذت الهواجس تنتابني حتى غلبني النوم فافترشت الأرض والتحفت بطانية قذرة ونـمت حتي الصباح. في صباح يوم الاثنين 2000/7/24، ابتدأ مسلسل الرعب الذي استمر دون توقف لمدة 11 شهراً فقد استيقظت علي أصوات مختلطة من الضرب والشتائم والأنين والاستغاثة، وعلمت بأنها أول نوبات التعذيب الوحشي الذي كان يتعرض له المعتقلون داخل الفرع. كان السجانون يأتون في الصباح الباكر ويفتحون أبواب الزنازين بعنف ويخرجون ضحاياهم مقيدين ومغمضي العيون ثم يسوقونهم كالخراف وأنا أنظر إليهم، وقد ارتعدت مفاصلي من شدة الرعب، ثم يبدأ الجلد بالأسلاك الكهربائية (الكيبلات) علي ظهورهم وسائر أنحاء الجسد دون تمييز، ويرتفع صوت الجلادين وهم يكررون نفس الأسئلة: مين بتعرف؟ ، شو علاقتك بفلان؟ ، إيـمتي شفته؟ . وأخذت أفكر كيف كان اعتقالي مثل اعتقال الكثير من هؤلاء؛ بناء علي دليل الهاتف الذي عثروا عليه عند قريب زوجتي فاتصلوا بي وأحضروني إلي الفرع، هذه الطريقة الجائرة نفسها

هي التي أودت بحياة كثير من الأبرياء وغيبتهم لسنوات طويلة في غياهب السجون لا لجرم إلا أنـهم وجدت أسماؤهم وأرقام هواتفهم مكتوبة في دليل أحد المشبوهين.

كنت أنتظر أن يأتي الجلادون ويأخذونني إلي التعذيب في أي لحظة، وبالفعل جاء أحدهم فأخرجني من الزنزانة و طمش عيني وقيدني وجرني إلي غرفة التحقيق حيث دخل أحد المحققين وأمر بفك القيد عني وأعطاني ورقة وقلماً لأكتب قصة حياتي كاملة! وعندما كتبت له قصة حياتي تناول الأوراق وأخذ يصحح ويشطب علي بعض السطور، ويضيف من عنده فاعترضت علي هذا الأسلوب، وعند ذلك قال لي:
بدك تعلمني شغلي؟
وخرج من الغرفة ثم عاد ليخبرني بأن العميد قد انزعج لإصراري علي عدم الاعتراف، فأخبرته بأنه ليس لدي ما أعترف به، وهذا ما عندي، فأمرني أن أبصم علي ما كتبت، ثم عاود السؤال علي (أ) مرة أخري عن علاقتي بالمدعو (ج) فأجابه بأنه ليس هناك أي علاقة، وعندما تأكدوا من ذلك أعادوني إلي الزنزانة المنفردة وجلست هناك لمدة ثمانية أيام لم يكلمني فيها أحد. كان التعذيب يبدأ يومياً من الساعة الثامنة صباحاً ويتوقف عند الثانية، ثم يبدأ مرة أخري في الثامنة مساء حتي الحادية عشرة، ومع أنني لم أتعرض للتعذيب فإن صرخات المعتقلين وأنينهم كانت أشد من لسع السياط التي تصدر صفيراً مرعباً قبل أن تحط علي ظهور المساجين وهم يئنون من شدتها، ومع أنني كنت متماسكاً فقد لازمتني حالة عجيبة من الهلع، خاصة عندما أصيبت إحدي السجينات في زنزانتها الانفرادية بانـهيار عصبي وأخذت تصرخ بأعلي صوتها قبل أن ينقلوها إلي المستشفي.
وفي يوم السبت 2000/7/29 جاء رئيس المحققين في الفرع الرائد غسان الجواد وأخذ يمر علي الزنازين وينظر إلي المساجين بداخلها حتى وصل إلي زنزانتي ففتح الباب وقال لي:
ابني نحنا عارفين أنك بريء ومنتظرين خبـر من الشام حتى نفرج عنك اليوم أو بكرة .

وعرض علي الانتقال إلي السجن الجماعي ففرحت لذلك وشكرته، ثم نقلوني إلي حيث أشار فوجدت نفسي مع خمسة من المساجين وأخذنا نتبادل أطراف الحديث فسألت كل واحد منهم عن تـهمته، وإليكم الجرائم التي ارتكبوها:

ـ كان الأول قد امتنع عن التصويت لبشار الأسد في انتخابات الرئاسة فجروه إلي السجن وأخذوا يضربونه ضرباً مبرحاً لتمرده!

ـ أما الثاني فقد ورد في إحدى تقارير المخابرات أنه قال: أهل حلب وحماة قبضايات، لأنهم قاوموا ، كان شاباً صغيراً ولم يكن سنه قد تـجاوز أربع سنوات عندما اندلعت أحداث حماة، ومع ذلك فكان يتعرض للصعقات الكهربائية حتى يعترف بالذي علمه هذا الكلام!

ـ وتـحدث الثالث بـحزن عن مكالمة هاتفية دارت بينه وبين أقاربه قال فيها بأنه سيذهب إلي القرداحة في وفد رسمي لزيارة قبر الرئيس الراحل، ولما سأله قريبه ماذا سيلبس، أجاب: كلسون أحمر ، ولم يكن يعلم بـمراقبة المخابرات لمكالمـته الـهاتفية فاعتقل في ذلك اليوم. وكان الجلادون ينفذون تعهدهم له بتحويل لون كلسونه إلي الأزرق من شدة التعذيب حتي يتوب!

ـ وكان الرابع مسجوناً بسبب العثور علي جهاز للتنقيب عن الآثار في أرض يملكها.

ـ واتهم الخامس ببيع السجائر المهربة.

كانوا قد تعرضوا جميعاً لشتي أصناف التعذيب من الجلد والصعق الكهربائي، أما أنا فقد نـجوت من التعذيب ربـما بسبب توسط إدارة النادي لصالحي.

بعد ثلاثة أيام في السجن الجماعي أخبرت بوصول البرقية من دمشق، وكنت أترقبها علي أحر من الجمر حتى أعود لأطفالي الذين افتقدوني ولم يعلموا أين ذهبت، وسرعان ما تلاشت آمالي عندما أخبرني المحقق بأنني قد طلبت في الشام وأن علي الذهاب إلي هناك لاستكمال التحقيق.

عند ذلك أخرجت مقيداً مع ثلاثة آخرين وأركبونا داخل سيارتين في كل واحدة منها أربعة عناصر مسلحين ببنادق كلاشنكوف، ولما وقع الرائد علي أوراق تسليمنا بعد طول انتظار تحركت السيارتان باتجاه دمشق، وكان علينا أن نخفض رؤوسنا طول الرحلة، وكلما رفع الواحد

منا رأسه كان الحارس يهوي علي رقبته بكل ما أوتي من قوة ويقول: نزّل راسك ولك كلب ، وبقينا علي هذه الحالة حتي وصلنا إلي فرع فلسطين.

- فرع فلسطين

توقفت السيارتان عند بوابة كبيرة وسط سور عال، وانطلقت لمسافة 70 متراً عندما استطعت أن ألـمح عمارتين كبيرتين، ثم اعترضتنا بوابة أخري استوقفنا عندها الحرس وجردوا رجال الأمن من أسلحتهم، ثم أنزلونا نحن الأربعة من السيارتين وأدخلونا إلي مكتب مدير السجن وهو رجل بذيء اللسان ممتلئ الجسم حنطي اللون برتبة مساعد أول، اسمه أحمد، ويـمتاز بصوت شديد الخشونة. تفرس فينا المدير بنظرات ملؤها الحقد وصرخ فجأة: وقف منيح ولا حمار ... ثم أمر بنقلنا إلي غرفة مجاورة، حيث جلسنا ننتظر ونحن نعاني من حرارة الشمس وكثرة الصراصير، فطرقت الباب وطلبت أن أذهب إلي الخلاء فأجابني أحد الحراس هازئاً: استنني شوي راح نحولك عالـميريديان !
بقينا ننتظر أربع ساعات بطولها ثم دخل علينا رجل لا يقل خشونة عن مدير السجن ليكتب بياناتنا الكاملة، ويأخذ أغراضنا إلي صندوق الأمانات، وعندما وصل إلي دار بيننا الحوار التالي:

- ـ شو اسمك ولا؟
- ـ هلال عبد الرزاق علي
- ـ شو جنسيتك؟
- ـ جنسيتي ولا أصلي؟
- ـ جنسيتك ولك كلب
- ـ بريطاني

فسكت لبـرهة ثم ذهب إلي مكتب المدير الذي استدعاني إلي مكتبه مرة أخري وسألني:

- ـ شو جنسيتك ولا؟
- ـ بريطاني
- ... م ..ك، أنت عراقي ، ثم خاطب الحراس: نزلوا هالكلب علي المنفردة (11) !
- عند ذلك فقدت صبري وقلت له: أي منفردة؟ وما هي تهمتي، ولماذا تعاملونني بهذا الأسلوب؟

ففوجئت به يصرخ بأعلى صوته: ولك خدو هالحمار علي المنفردة (11) ، ولم يكد ينتهي من عبارته حتي هجم علي عدد من الحراس وجروني بعنف خارج المكتب وهم يصرخون بي: نزل راسك ولا ، خليك ماشي عالحيط ، وأنزلوني بالسلالم إلي القبو حيث رأيت عدداً من الأبواب الحديدية علي جانبي الممر، وكانوا يركضون أمامي وخلفي حتى انتهينا إلي آخره ففتحوا أحد هذه الأبواب ورموني في المنفردة (11).

· المنفردة (11)

أطرق السيد هلال علي لفترة وحاول أن يفهمني بجمل مبعثرة بأن كل الذي حكاه لي كان مقدمة قصيرة لفصول المعاناة الطويلة التي أمضاها في الزنزانة المنفردة لستة أشهر متوالية. كان طول الزنزانة 180 سم وعرضها 80 سم تنبعث منها رائحة كريهة ولا تصل إليها سوي كمية ضئيلة من التهوية والنور، ولذلك فقد أصبحت مرتعاً للقمل والصراصير. ولأن طول هلال 190 سم فلم يكن قادراً علي التمدد لمدة ستة أشهر فانحني ظهره وأصبح يمشي مشية عجوز تجاوز الثمانين من العمر.

كان يتذكر الأحداث بصعوبة لأنه يريد أن ينسي هذه الحقبة السوداء من حياته، ولكن أنين المعذبين ومعاناة المعتقلين كانت تدفعه لأن يستحضر كل شاردة وواردة لأنه عاهدهم أن يخبر العالم بـما رآه ويستصرخ أصحاب الضمائر الحية للمساعدة في رفع المعاناة عن مئات المساجين الذين تم اعتقالهم ـ مثله ـ عن طريق دليل الهاتف دون سابق تهمة أو اشتباه.

ارتـمي هلال علي أرض الزنزانة وجلس علي بطانية رطبة نتنة، وأخذت الهواجس تتلاعب به، فتذكر رحلته البائسة من حماة إلي دمشق، وطول الانتظار في فرع فلسطين وخشونة التعامل التي لقيها من الحراس. لقد أصبح اسمه من الآن فصاعداً: منفردة (11) والويل له إذا ذكر اسمه الحقيقي، وصار بين عشية وضحاها سجيناً مسلوب الإرادة لا يملك من أمره شيئاً، بل إنه فقد اسمه وأصبح رقماً آخر في عداد المفقودين داخل فرع فلسطين. لقد لازمه الشك بأن هنالك خطأ ما وسيفرج عنه حال تبين هذا الخطأ، ولكن لم يكن لديه أي قرينة

تدعوه إلي التفاؤل ... وبقي علي هذه الحالة من التفكير العميق حتي غلبه الإعياء فتكوم في أرض الزنزانة ونام.

- أول يوم في الانفرادية:

استيقظت وقد قرصتني حشرة في وجهي فتورمت عيني اليسرى ولم أكن أعرف نظام السجن بعد، فطرقت الباب طرقاً متتالياً حتى جاءني سجان ضخم اسمه المعلم حسن، ففتح الباب وقال: شو بدك ولا؟ ، فقلت له: شوف عيني ، فنظر نظرة لم تكن تبعث علي الاطمئنان، وقال لي: قرب ولا، وعندما اقتربت منه سدد لكمة قاسية علي عيني اليمني فسقطت علي أرض الزنزانة من شدة الألم، وأقفل الباب ورائي وهو يتمتم بأقذع الشتائم. ولم ينقض اليوم الأول حتي عرفت نظام السجن كاملاً، فلم يكن لنا أي حق في طرق الأبواب، وكانت الفرصة الرئيسة للسجانين كي يشفوا نزعتهم السادية هي خروج المساجين من الزنازين الانفرادية إلي الخلاء... كان هناك 19 زنزانة منفردة و 4 مزدوجة وكان يتناوب 42 سجيناً علي حمامين ثلاث مرات في اليوم فيخرجنا الحراس واحداً واحداً بالركل والجلد ولم يكن يسمح للواحد منا أن يبقي أكثر من نصف دقيقة في بيت الخلاء. ولا بد من الاعتراف بأنني عندما خرجت للمرة الأولي أكلت نصيباً وافراً من الركل واللكم من قبل المعلم حسن، ولم أكن أجد أي مبرراً لذلك فاعترضت بصوت مرتفع وذكرته بأنني إنسان مثله، فصرخ في وجهي صرخة منكرة قائلاً:

ـ خراس ولك كلب، هلق بخليك تاكل الخ ــ تبعك !

وبسبب هذا التضييق وانعدام الماء والصابون فقد أصيب أكثرنا بالبواسير وكانت الدماء تغطي المرحاض، وإذا تأخر الواحد منا في الخلاء كان يخرج بالقوة ويجر إلي زنزانته بالركل والضرب. كانت كل زنزانة انفرادية قد زودت بوعاء (طاسة) للأكل والشرب، وبسبب الأذي الذي كان يصيبنا من السجانين في دخول الخلاء فقد اضطر الكثير منا لقضاء الحاجة في طاسته كلما اشتد المرض عليه، ثم يغسلها ويعاود استخدامها لطعامه من جديد.

ولأنني لم أكن متهماً بالدرجة الأولي فلم أكن أتعرض لوجبات التعذيب التي كانت من نصيب السجناء الآخرين، ولكن سماع أصوات المعذبين كان أشد إيلاماً علي النفس من وقع السياط في كثير من الأحيان. كانت نوبات التعذيب تبدأ في الساعات المبكرة من الصباح وتستمر حتي الواحدة والنصف وهناك نوبة ليلية تبدأ من السابعة مساء حتي العاشرة، وقد تستمر حتي الثالثة بعد منتصف الليل. كنا نسمع شتائم الجلادين واستغاثة المعذبين وتوسلاتهم، وكنا نـميز طريقة التعذيب من تتابع أنين المعتقلين الذين يخضعون للتعذيب بواسطة الكرسي الألماني الذي يهشم العمود الفقري، والتعليق من أيديهم وضربـهم علي سائر أنحاء الجسد وهم عراة، وكذلك الجلد بالأسلاك الكهربائية السميكة.

لازمتني حالة رعب شديد وكنت أخاف أن يأتي الجلادون في أي لحظة ويجرونني إلي غرفة التعذيب، وكلما سمعت وقع أقدام بالقرب من زنزانتي كانت ترتعد فرائصي، حتي أمضيت 11 يوماً علي هذه الحالة، ولم يفتح باب زنزانتي خلال هذه الفترة إلا لدخول الخلاء. كنت أنام وأجلس علي البطانية المتعفنة بفعل الرطوبة وانعدام التهوية حتي اسودت ملابسي وأصابتني الالتهابات الجلدية والأورام، حتي إن السجانين كانوا يتأففون من رائحتي كلما مروا بالقرب من زنزانتي، ولم تجد توسلاتي لهم بتغيير تلك البطانية القذرة. بعد انقضاء اليوم الحادي عشر في المنفردة جاء الجلادون وأصعدوني إلي غرفة التحقيق مطمشاً ، ثم دخل أحد المحققين فأمر بفك الطماشة، وأعطاني ورقة وقلماً لأكتب قصة حياتي من جديد! وعندما انتهيت من الكتابة ابتسم المحقق وبشرني بأنني لن أبقي في الفرع عندهم أكثر من أسبوعين، فرجوته أن يأمر بنقلي إلي المهاجع الجماعية لأنني لم أعد أحتمل السجن الانفرادي، فطلب مني الصبر، وقال لي: المنفردة أحسن لك. ثم أرجعت علي نفس الهيئة التي أتيت بها إلي زنزانتي المنفردة، ومكثت بها الشهور الستة التالية دون أن يكلمني أحد أو يحقق معي من جديد.

كنت مريضاً بالقولون وأعاني من مرض الربو المزمن، وانتشرت الحساسية في جسدي كله، ومع ذلك فقد كان العلاج ممنوعاً عنا طوال فترة السجن. ونتيجة للمرض

وفقدان الشهية فقد انخفض وزني 45 كيلو، وطال شاربي حتي غطي فمي، ولم يسمح لي بحلق شعري طوال هذه الفترة سوي مرة واحدة، أما اللحية فكانت تحلق أسبوعياً ولكن قص الشارب كان ممنوعاً، وكانت الحلاقة من أبرز المناسبات عند الجلادين لممارسة هواية التعذيب، فكانوا يضربون المساجين علي رؤوسهم ورقابهم والويل لمن يجرؤ علي فتح عينيه أثناء الحلاقة. وبالإضافة إلي هذه الحالة المزرية فلم يكن يسمح لنا بالاغتسال أكثر من مرة كل شهرين وكانت المياه حارة في الصيف شديدة البرودة في الشتاء، أما الملابس فلم يسمح لنا غسلها سوي مرتين طوال فترة السجن الانفرادي، ولذلك فقد تشققت بفعل تراكم العرق وكثرة الضرب.
كان الكلام ممنوعاً طوال الوقت، وأي محاولة لقراءة القرآن كانت تقمع بأسلوب وحشي، وذات مرة تشجع السجين في منفردة (17) بقراءة بعض السور، ولما سمعه السجان حسن اقتحم عليه زنزانته وتناوله بالضرب المبرح وهو يقول له: والله ما تعيدها مرة ثانية لشخ بتمك ، وكذلك كان نصيب السجين الذي أخذته العبرة وهو يلح في الدعاء فسمعه أحد السجانين وأخذ يضربه علي سائر أنحاء جسده ويقول له: إذا سمعتك عم تدعي مرة ثانية لح أكسر راسك يا عرص .
أما أنا فقد دفعت ثـمن نزعتي الإنسانية غالياً، عندما سمعت استغاثة مخنوقة من امرأة مصابة بالربو في مهجع النساء فطرقت باب زنزانتي حتي سمعت وقع أقدام السجان حسن وهو يصرخ: شو بدك ولا كلب ، فأعطيته بخاخ الربو الذي أحضرته معي من حماة وقلت له أعطه للمرأة المسكينة، ولم أكد أنتهي من قولي هذا حتي لكمني علي رأسي ثلاث لكمات أسقطتني علي الأرض وتتابعت بعدها الركلات والشتائم المقذعة، ولم أعد أعي شيئاً حولي إلا أنني سمعت المعلم حسن يقفل باب الزنزانة وهو يقول: ولك عامل حالك شريف يا عرص، نحنا ما عنا إنسانية هون !
أما صيغة الإعلان عن وصول الطعام فلم تكن تتغير أبداً... كان السجان رفيق يصرخ في أول الممر: يا كلاب ... الأكل اليوم (ويمد الواو) شوربة ورز ... كل واحد يدير وجهه علي الحيط ... واللي بشوفه مو داير وجهه

لح (فعل قوم لوط) . كان الطعام غاية في القذارة وسوء الطبخ، وكنا نأكل مرق الدجاج دون أن نري الدجاج لأن السجانين ومساعدي مدير السجن كانوا يأخذونه قبل أن يصل إلينا، وكثيراً ما كنت أرفع الصراصير والحشرات الأخري عن الشوربة والمرق وأشربـها، أما إذا كانت الوجبة بطاطس مسلوقة، أو إذا قدم لنا التفاح (في المناسبات) فكانوا يرمونه علي رؤوسنا الموجهة نحو الجدار، وكنا نحظي ببيضتين طوال الأسبوع. وكان السجانون يخبئون الفواكه والخبز الطري فوق سقف المنفردة (1) لإخفائها عن المدير ويأخذونها معهم بعد انتهاء الدوام.

كنا نعاني من البرد الشديد في الشتاء ومن الحرارة الخانقة في فصل الصيف ولم تتغير البطانيات القذرة التي ورثناها عن السجناء قبلنا طوال فترة الإقامة في السجن الانفرادي. وبالإضافة إلي انتشار القمل والصراصير، فقد كنا نعاني كثيراً من الجرذان التي كانت تقتحم عزلتنا هرباً من القطط الجائعة التي كانوا يرسلونها للقضاء علي هذه الجرذان، وكثيراً ما كانت القطط تظفر بصيدها في فتحات التهوية ونعلم بوفاة الجرذ حين يتقاطر دمه علي رؤوسنا ونحن نيام .

ـ ابتسم هلال عندما سألته كيف كان يقضي وقته في السجن الانفرادي لمدة 180 يوماً متواصلة، وقال لي بأن: الشهر في الزنزانة مثل الشهرين والثلاثة والأربعة... تمر الساعات الطويلة ويتعاقب الليل والنهار ونحن علي حالنا. كنت أقاوم وأبحث في خلجات نفسي عن بصيص أمل وأعد الأيام عن طريق الحفر علي حائط الزنزانة، ولا أنسي عندما دخلت علي فراشة فأنست لها كثيراً وأخذت أكلمها وهي لا تجيب، وقد أصبت عدة مرات بهياج عصبي وكنت أصرخ بأعلي صوتي: لماذا تفعلون بي هكذا؟ ما هي تـهمتي بالتحديد؟ أنا ضيف عندكم في هذه البلد أهذه هي الطريقة التي تعاملون بها الضيوف؟

وكنا نختلس الساعات التي ينام فيها السجانون في آخر الليل فنتكلم فيما بيننا همساً، وبـهذه الطريقة استطعت التعرف علي عدد من المساجين في الانفرادية، وكنت آنس للحديث إليهم كثيراً.

- من قصص الزنازين المنفردة

طلبت من هلال أن يحدثني عن بعض السجناء الانفراديين الذين جاورهم لمدة ستة أشهر، فكان يتذكر بحزن شديد معاناة السجين في الزنزانة رقم (19)، ومن سوء المعاملة التي لقيها من السجان (محمد) الذي كان يستمتع بضربه كلما جاء دوره للخروج إلي الخلاء، فقد كان يأمره أن يضع يديه خلف ظهره ويغمض عينيه ويرفع رأسه ... ثم تتردد أصداء صفعة قوية تنخلع لها قلوبنا، ولكن السجان الآخر في نوبته (رفيق) كان يضحك ويقول له: محمد ... ما سمعت !، فيتميز محمد غضباً ويشتم السجين قائلاً: يلعن أبوك يا ابن الكلب، ولك شلون هيك بتخجلني قدام صحابي؟ ، ويصفعه صفعة أخري لا تعجب صاحبه (رفيق) فيأتي هو ويقوم بنفس الطقوس السابقة، فيأمر السجين بوضع يديه خلف ظهره، وإغماض عينيه ورفع رأسه فيمتثل وهو يئن من شدة الألم، ثم يصفعه صفعة أشد من سابقتيها، ويضحك رفيق ضحكة المنتصر ويقول: هيك بدي ياك... روح شخ . وكانت هذه العملية تتكرر مع عدد من المساجين كلما جاء دورهم لدخول الخلاء.

ـ أما السجين في المنفردة (13) فكان مصاباً بـمرض السكري ولم يكن يستطيع النوم دون أن يأخذ إبرة في المساء، وكان المسكين يتوسل إليهم يومياً لعدة ساعات أن يأتوه بالإبرة ولكن السجانين كانوا يتعمدون التأخر عن ذلك، ثم يأتي أحدهم آخر المطاف مصراً علي أن يعطيه الإبرة بنفسه فنسمع صرخات شديدة من جراء الطعنة التي يلقاها من السجان وهو يقول له: خود... يلعن أبوك عرص ، وقد استمرت هذه المأساة بصفة يومية طول إقامتي في السجن الانفرادي.

ـ المنفردة (16) كانت هذه الزنزانة تتميز عن غيرها برائحة نتنة تزكم الأنوف، ولم يكن يسمح لنزيلها أن ينظف زنزانته أو حتي أن يغتسل أو يغسل ملابسه، وكان كلما خرج للخلاء يعيره السجانون برائحته الكريهة ويبصقون علي وجهه وهو صامت لا يتكلم.

ـ المنفردة (17) نزيلها المدعو (ج) نفسه، كان الجلادون يخرجونه للتحقيق يومياً ويتعرض لـمختلف أنواع

التعذيب الذي لم ينقطع عنه يوماً واحداً طوال الأشهر الستة التي قضيتها في الانفرادية.

في (يناير) عام 2001، ساقني الجلادون إلي غرفة التحقيق مرة أخري، ولما دخل المحقق سألته: ألـم ينته التحقيق بعد؟ ، فأجابني ببرود بأنني لست متهماً ولذلك فقد ابتدأوا بالأشخاص المهمين، وقد احتاجوا لوقت طويل حتي يأخذوا جميع أقوالهم، ولكنه طمأنني بأنني سأخرج عن قريب. كانت هذه هي المرة الأولي التي أخرج فيها من قبو فرع فلسطين، وكان شكلي مرعباً للغاية، فقد طال شاربي حتي غطي فمي بأكمله، ونقص وزني وتغيرت ملامح وجهي، وماتت كثير من خلايا جسمي فلم أعد قادراً علي المشي أو حتي الوقوف، فاستأذنت المحقق أن أجلس علي الأرض، وجلس هو علي الكرسي فسألني نفس الأسئلة التي وجهت لي قبل ستة أشهر: اسمي وعملي وعلاقتي بـ (ج)، ولما لم يجد عندي جديداً قال بهدوء: يالله روح ، فتوسلت إليه أن ينقلني علي المهاجع الجماعية لأنني لـم أعد أحتمل السجن الانفرادي، فأخذ رقم زنزانتي وأمر بإعادتي إلي المنفردة، وبعد تسعة أيام صدرت الأوامر بنقلي إلي المهجع رقم (4) فخرجت مع السجانين إلي المهجع المذكور، ولما فتح الباب خرجت رائحة كريهة ونظرت داخل الزنزانة فإذا هي مملوءة عن آخرها، وتضايق المساجين الستة والأربعون من رؤيتي لأنني كنت سأشاركهم هذا المكان الضيق (4 ـ 5م). ولم أتمالك نفسي من الصراخ: رجعوني علي المنفردة... رجعوني علي المنفردة ، فدفعني السجانون إلي الداخل وأغلقوا الباب. كان المنظر في الداخل كئيباً للغاية، فلم يكن المكان يتسع لجلوس الجميع فاضطر بعضهم للوقوف، ولكنني فرحت كثيراً عندما علمت بوجود حمام داخل الزنزانة، فاغتسلت ثم حشرت نفسي داخل هذه الـمجموعة، وكان أول سؤال يوجه إلي هو سبب سجني، فأجبتهم بأنني لـم توجه إلي تـهمة، وسأخرج خلال أسبوعين علي أبعد تقدير، ولم أكن أعلم بأنني سأقضي الأشهر الخمسة القادمة في هذا المهجع الكئيب.

تغير حالي كثيراً في المهجع فصرت آكل وأشرب وآنس إلي المساجين وأقضي الساعات الطويلة في التحدث والاستماع إلي المآسي التي يروونها

· من قصص المهجع

ـ طلبت من السيد هلال أن يحدثني عن التهم الموجهة إلي المساجين في فرع فلسطين، فأطرق لبرهة وأخذ يذكر قصصهم بالتفصيل، وقال لي:ـ أتذكر سليمان الذي قضي أحد عشر شهراً في المهجع، ولم يكن وحده فقد كانت معه والدته (عمرها سبعون عاماً) في مهجع النساء. كانت تـهمتهم أن أحد أقاربهم في الخارج اتصل بهم هاتفياً وسألهم عن حالهم بعد موت حافظ الأسد، أجابوا بديهة: مكيفين ، وكانت هذه الكلمة كفيلة بجرهم إلي السجن.

ـ أبو أيـمن من اللاذقية، رجل كبير في السن عمره 67 عاما، كانت تـهمته أنه قابل أحد الـمنتسبين إلي جماعة الإخوان المسلمين أثناء رحلته إلي الحج في أوائل الثمانينيات وأعطاه ذلك الرجل مبلغ 500 ريال لإحدى الأسر المحتاجة في سورية، وبعد مرور سنوات طويلة قرر ذلك الشخص أن يعود إلي سورية فذهب إلي السفارة في الدولة التي يقيم فيها وسجل جميع اعترافاته وذكر اسم أبو أيـمن في اللاذقية، وأنه طلب منه توصيل المبلغ المذكور. وعندما أبرقت السفارة إلي دمشق كان المسكين أبو أيـمن يعالج في المستشفي جراء جلطة أصابته، ولم يكن المرض ليشفع له، فقد تم جره من المستشفي إلي فرع فلسطين لاستكمال التحقيق!

ـ محمد شاهر شاب من مدينة حماة متزوج ولديه سبع بنات، وكانت تهمته الدعوة إلي الكتاب والسنة في صفوف الشباب. عندما رأيته كان قد قضي سنة ونصفاً، وكان أحد الجلادين قد دأب علي وضع رأسه في المرحاض وتـمريغ وجهه بحذائه العسكري ومسح شعره بالنجاسة، ونتيجة لتكرر هذا الأسلوب الوحشي فقد جرحت وجنته ولم يعد ينبت الشعر في أجزاء من لحيته وشاربه.

ـ وكانت هنالك مجموعة (حوالي 28) من الشباب السوريين والفلسطينيين الذين تجاوبوا مع الانتفاضة الفلسطينية فقاموا بمحاولة فاشلة لتهريب بعض الأسلحة إلي الأرض المحتلة عبر الحدود الأردنية، حيث ألقي القبض عليهم، وكنا نستغرب أن يتميز هؤلاء عن

غيرهم بأشد أنواع التعذيب في قلعة الصمود والتصدي، وتـحديداً في فرع فلسطين !

ـ وكانت هنالك أيضاً مـجموعة من العراقيين الذين حاولوا التسلل عبر الحدود السورية ليذهبوا إلي لبنان، ومنه إلي أوروبا، وقد فر هؤلاء المساكين من الحصار والضيق الاقتصادي في بلدهم ليعانوا من الويلات في بلدهم الشقيق.

ـ وأذكر من المساجين أيضاً رجلاً تم القبض عليه بتهمة بيع أشرطة إسلامية أمام أحد المساجد، وبالرغم من أن الأشرطة مصرح بها فقد تم اعتقاله، وكان يتعرض كذلك للتعذيب.

ـ ولا أستطيع أن أنسي رجلاً كان معنا اسمه نعيم، وكانت رجله مقطوعة، وتهمته أنه قد ساعد في محاولة تهريب الأسلحة عبر الحدود السورية إلي الأردن، ومنها إلي فلسطين. لقد كان الجلادون يضربونه علي رجله المتبقية، ولقد رأيت بأم عيني اللحم يتساقط منها عندما يعود من حفلة التعذيب، وكنا نحمله إلي الخلاء، وبالرغم من تورم رجله وانتفاخها فقد كان يستدعي الـمرة تلو الأخرى لسحب المزيد من الاعترافات منه، ولم يكن هناك شيء أشق علي نفوسنا من حمله كل يوم وتسليمه إلي الجلادين الذين كانوا يسحلونه إلي غرفة التعذيب، ثم نسمع صياحه وتوسلاته واستغاثته. وكان معنا عقيد سابق في الجيش السوري، وكان كبيراً في السن ومصاباً بضعف في القلب، وقد منع السجانون عنه الدواء فكان يتوسل إليهم بأن يحضروا له نوعاً من الحبوب التي يضعها تحت لسانه ولم يكونوا يستجيبون له، وذات مرة سقط علي أرض الزنزانة وخرج الزبد من فمه فطرقنا الباب وأخرجناه محمولاً إلي الممر، فكان السجانون يركلونه ويقولون له: قوم يا عرص ... لو عملت شو ما عملت ما في دوا ، ولما طال به الحال أحضروا الممرض الذي فحص ضغطه فوجده في حالة خطيرة فرفعوه، وجاءوا بعد فترة فطلبوا ملابسه وأغراضه، وقيل لنا بعد ذلك أنه قد انتقل إلي رحمة الله، وبالرغم من حزننا عليه فلم نجد أي شعور بالشفقة أو الذنب عند هؤلاء الجلادين الذين كانوا يقولون لنا بعد ذلك والله غير تموتوا كلكم هون متل هالكلب .

هذه هي الحالة التي كنا عليها طوال الأشهر الخمسة التي قضيتها في المهجع؛ كنا نزدحم مثل قطيع من الأغنام في زنزانة لا تتسع لنصفنا نتبادل الأدوار في النوم فيقف بعضنا وينام الآخرون، وفي فصل الصيف كان يتطوع بعضنا للقيام بعملية التهوية بملابسهم القذرة، وكان الجلادون يأتون بين الفينة والأخري وينادون باسم الضحية فيتقدم من بيننا خائفاً مرتعشاً، ولا نلبث أن نسمع صياحه وأنينه من غرفة التعذيب، ومن سوء حظنا أن فتحة تـهوية المهجع كانت تطل علي غرفة التعذيب فكنا من خلالها نتمكن من معرفة ما يقع علي إخواننا من البلاء.

- صور من التعذيب

ثم ينتقل هلال للحديث عن التعذيب في فرع فلسطين، وما يسببه ذلك له من كوابيس مفزعة، فقد كان الجلد بأسلاك الكهرباء الرباعية (الكيبلات) أمراً اعتيادياً، ولم ينج منه أحد قط، ولكن أصحاب التهم الخطيرة كانوا يتعرضون لنوع آخر من التعذيب أبرزها الكرسي الألماني الذي يثبت عليه السجين ثم يرجع به إلي الخلف حتي يصبح رأسه قريباً من رجليه فيفقد وعيه من شدة الألم، وكثيراً ما أصيب المساجين من جراء ذلك بآلام مزمنة في الظهر، وعندما يعود إلينا زملاؤنا في المهجع بعد جلوسهم علي هذا الكرسي كنا نمددهم علي الأرض وندلك ظهورهم، ويبقون متمددين علي حالهم أياماً طويلة بسبب عجزهم عن الوقوف أو المشي.

وكان الجلادون يستخدمون الدولاب فيخرجون رأس السجين مع يديه ورجليه ويبقي في الطرف الآخر ظهره ومؤخرته ويضرب بعد ذلك بالعصي حتي يعترف علي نفسه بكل ما يملي عليه.

وكثيراً ما كان يشتكي زملاؤنا في المهجع من تعليقهم مثل الخراف وتعريتهم وضربهم علي جميع أنـحاء الجسد، ولم يكن الضرب أشد إيلاماً من تحمل الرسغ لسائر ثقل الجسم، فيعود السجين إلي زنزانته وهو غير قادر علي تحريك يديه وقد يستمر علي هذه الحالة لبضعة أيام.

كنا نعرف طريقة التعذيب من تتابع صياح الضحية، ثم ينزل المسكين ويحكي لنا ما فعل به الجلادون، وكثيراً

ما كانوا يأخذون المعتقل ويبقونه واقفاً طول النهار وهو مقيد ومغمض العينين خارج غرفة التحقيق، ثم يخرج المحقق ويقول له: انزل ولك كلب، بكرة منشوف شغلنا معك فينـزل مرة أخري تحت ضرب الجلادين وركلهم حتي يدخل الزنزانة.

- مهجع النساء

يقدر هلال بأن عدد السجينات في مهجع النساء كان حوالي 14 امرأة، وكان بعض النساء يصطحبن أطفالـهن فكان في المهجع طفل عمره خمس سنوات وبنت عمرها أربع سنوات وأخري عمرها 11 سنة كانوا يرون أمهاتهم يشتمن بأقذع الألفاظ الفاحشة التي يندي لها الجبين ويسمعون أصوات التعذيب، وكنا نرق لبكاء الأطفال الذين يذكروننا بأبنائنا فلم يكن أحد منا يعرف حال أهله بعده لانعدام الصلة والانقطاع عن العالم الخارجي.
كانت هناك طفلة عمرها 16 سنة حافظة للقرآن الكريم وأخري عمرها 17 سنة جيء بـهما مع والدهما، وكانت هناك امرأة متزوجة منذ خمسين يوماً جيء بها وهي حامل، وأذكر أنني سمعت صوت ثلاث نساء يسقطن، وكانت النساء تصرخ بطلب الطبيب، فيجيبهن السجان: شو دخلني أنا... هاي شغلتكن أنتو النسوان... اتصرفوا ، ولم تكن تجدي فيه الاستغاثة والولولة والعويل الذي يستمر لفترة طويلة ثم ينقطع بالتدريج.
لقد ماتت الشفقة والرحمة في قلوب هؤلاء السجانين الذين لم يكونوا يميزون بين رجل وامرأة وطفل، فقد وضعت البنت ذات الستة عشر ربيعاً في إحدي الزنازين المنفردة، وكان أحد السجانين يفتح عليها الباب دون إذن فتصرخ لكرامتها، ولما تكررت هذه الحادثة هب المساجين من الزنازين المنفردة والمهاجع وأخذوا يطرقون بأيديهم العارية علي الأبواب الحديدية غضباً لهذا الاستهتار حتي نزل العميد وعدد من الضباط ونقلوا البنت إلي مكان آخر. وعندما استطعنا التواصل مع مهجع النساء عن طريق أنابيب التمديدات الصحية كانت هذه البنت المسكينة تطلب والدها وتبكي بكاء حاراً يقطع قلوبنا وتشتكي له من السجان (شادي) الذي كان يصفعها علي وجهها ويفحش في السب والشتم، ولا

يزال صوتها يرن بأذني وهي تقول بصوت طفولي بريء: بابا... بابا... هدا الحارس (شادي) عمبيضربني وكل المساجين يشاركون والدها البكاء من قلة الحيلة والهوان.

وقد حدثني بعض المساجين بأنـهم رأوا إحدي النساء في غرفة التحقيق وقد عراها الجلادون وهي تستر ما تستطيع بيديها وتولول وتستغيث. وكان مهجع النساء يستقبل بين الفينة والأخري بعض النساء المتهمات بالدعارة وتلقي النساء الأخريات من سوء خلقهن الكثير، وكان السجانون يفتحون باب المهجع النسائي ليتلذذوا بمشاهدة رقص هؤلاء النساء ونحن نسمع كل شيء، وإذا اشتكت أي امرأة محتشمة من ذلك كان الحارس يصرخ بـهن: اخرسوا يا كلبات، هي أشرف منكن كلكن . بل كانوا يتعمدون الإساءة إلي المرأة التي تحافظ علي سترها وينعتونـها بأقذع الشتائم، وكنا نسمع ولا نستطيع أن نحرك ساكناً.

· الفساد

يتكون قبو سجن الفرع من ممر طويل فيه 10 مهاجع جماعية (4 ـ 5م)، و 19 زنزانة انفرادية (80 ـ 180)، و 4 زنازين مزدوجة بحجم المنفردة مرتين، وكان توضع في بعضها 8 سجناء، ولا ندري كيف كانوا يجلسون أو ينامون فيها، بل إن أحد المساجين قد قضي في المزدوجة سنة ونصف يشاركه سبعة آخرون في كثير من الأحيان.

وكان هناك عدد من المهاجع في الطابق الأرضي.

كان مدير السجن برتبة مساعد أول واسمه أحمد، وله ثلاثة نواب: شادي وحاتم وأبو عصام، وكانوا غاية في السوء والفظاظة ولم تكن الألفاظ البذيئة والفاحشة تغادر ألسنتهم علي الإطلاق، أما الحراس فكانوا ثلاث مجموعات من خمسة سجانين، تسمي نوبات، مرتبة

علي النحو التالي:

ـ نوبة المعلم أبو سومر ومعه: رامز، وعلي، وخصيم (أبو غضب)، وسامر.

ـ نوبة المعلم حسن ومعه: إبراهيم، ورفيق، ومحمد، وأحمد.

ـ نوبة المعلم محسن ومعه: سامر، وعلي، وحسام، وجمال.
وقد كانت هذه المجموعات الثلاث تتناوب علي حراسة الزنازين. وقد تم اختيار هؤلاء السجانين بدقة متناهية فكانوا جميعاً من أبناء الطائفة الحاكمة ومن أصحاب السوابق الذين يمتهنون الأعمال الدنيئة، وكانوا علي درجة عالية من الغلاظة وسوء الخلق فيشتمون بعضهم البعض بألفاظ نابية ويتلذذون بتعذيب المساجين ويتسابقون في أذيتهم. لقد كان السجن هو مصدر رزقهم الوحيد، ونشأت عن هذه الحاجة سوق رائجة لا يعرفها إلا من دخل فيها والعياذ بالله:
ففي المرحلة الأولي يتعاون المدير مع عصابات أمنية في الخارج لمساومة أهالي السجين علي أغلي ثـمن لقاء زيارته، وكانوا يقتسمون هذه المبالغ فيما بينهم كل حسب النسبة المتفق عليها. وقد علمنا بأن المدير كان يحصّل 5000 ليرة سورية عن كل زيارة من خلال عصابة تتعاون معه خارج السجن.
ثم يسلم الأهالي مدير السجن الأموال والألبسة والمأكولات التي أحضروها لأبنائهم فيقتسم الغنيمة مع الحراس ولا يصل للسجين من ذلك إلا القليل؛ فإذا ترك الأهالي خمسة آلاف ليرة يقتطع المدير منها ثلاثة آلاف ويقول للسجين بابتسامة خبيثة: تركولك أهلك ألفين ليرة ، ولا يستطيع السجين أن ينبس ببنت شفة. وطالما كنا ننظر إلي السجانين وهم يتخاطفون الكباب والحلويات ويأكلونها بشره وهم يتضاحكون بينما لا يصل إلي السجناء منها شيء.
وكان يسمح لنا بشراء بعض المواد الغذائية مرة في الشهر فنشتري الجبن والشاي والسكر والسجائر والصابون، وكانوا يسمون هذه المناسبة: ندوة ، ثم نوقع تـخويلاً للمدير بصرف المبلغ المطلوب من أموالنا في عهدته، وتسمي: الأمانات ! وكانت هذه فرصة كبيرة للنهب والسرقة فهناك نـحو 500 سجين في فرع فلسطين، فيعمد مدير السجن الي تسجيل البضائع بأسعار مضاعفة ويأخذ الفرق علي حساب المعتقلين. أما السجانون فكانوا يرغموننا علي شراء ما يحـــــتاجونه هم، وعند تسليم البضائع كان السجانون يتجـــــمعون علي باب الزنزانة ويتـــخاطفون ما يريدونه

والويل لـمن يعترض عليهم من المساجين، وأذكر أنني اشتريت علبتين من جبنة البقرة الضاحكة ولم يصلني منها عند التسليم سوي ثلاث مثلثات من العلبة الثانية! بل إن السجانين كانوا يشربون الشاي ويستخدمون السكر والصابون الذي نشتريه ويقولون لنا: إزا جعتوا أنتو نحنا منجوع .

أما المحنة التي مرت بها أسرتي فهي خير مثال لما يتعرض له أهالي آلاف المعتقلين في سورية، فقد استطاع أحد السجانين أن يتعرف علي عنوان أهلي في حماة، فكان يذهب إليهم بنفسه ويدعي بأنني طلبت منه أن يحضر إلي بعض الأموال، واستطاع بهذه الطريقة أن يسرق منهم أكثر من مائة ألف ليرة سورية حتي اضطرت زوجتي لبيع حليها، وأخذ منهم كميات كبيرة من الأجبان والزيتون والمرتديلا والأدوية والملابس، وكان كلما تأخر عليه أقاربي في الدفع يلفق الأكاذيب عن حالتي في السجن ليستدر عطفهم ويحثهم علي بذل المزيد، ولم يكن يخجل من زيارتهم وهو يرتدي الملابس التي أرسلوها لي في زيارته السابقة لهم، ولما علموا بفساد نيته وسرقته انقطعوا عنه، فجاء إلي واعترف لي ببعض ما فعل فغضبت لذلك وصرخت، ولكن لم يكن لي حيلة وأنا خلف القضبان، أما ســـــبب اعترافه فهو رغبته في تـــــاوني معه لأخذ المزيد، فقد أعطاني ورقة وقلماً وطلب إلي أن أكتب رسالة لزوجتي حتي تتأكد أنه مرسل من قبلي، ولما امتنعت أخذ يخبرني أخباراً سيئة عن زوجتي وأولادي. وعندما فقد الأمل من الاستمرار في لعبته انتقم لكرامته المهدورة عن طريق إخبار زوجتي بأنني قد قتلت تحت التعذيب فخرت مغشياً عليها وقضت في المستشفي عدة أيام.

ولكن التجارة الحقيقية كان يمارسها رجال أكبر من السجان، فقد عرض بعضهم علي والد زوجتي الإفراج عني لقاء مبلغ مليوني ليرة سورية، فاجتهد في جمع المبلغ، ولكنه انتقل إلي رحمة الله بعد أن أصابته سكتة قلبية من شدة الحزن، وكان ضعيف الجسم لا يقوي علي مواجهة الضغوط التي كانت تـمارس عليه.

وللقارئ الكريم أن يتصور حالة أسرة واحدة من آلاف الأسر نكبتها أجهزة الأمن السورية؛ فالزوجة في

المستشفي ووالدها في القبر وزوجها في السجن وأولادها يبكون في الليل والنهار لا يعرفون سبب ما حل بـهم من بلاء، ومع ذلك فالعصابات الأمنية تبتزهم إلي آخر لحظة، وكل واحد منهم يطلب نصيبه من الغنيمة دون أن تعرف الشفقة والرحمة سبيلاً إلي قلوب هؤلاء.
أما في المهجع فقد كان علينا تحمل نفقات سفر المساجين الذين أفرج عنهم فكان المساعد أول أحمد يطلب منا أن نتبرع بثمن توصيل زميلنا إلي مـــــنزله، فيجمع المدير عشرة أضعاف ثمن التوصيل ويحتفظ بالباقي لنفسه. ولما اشتد علي مرض الربو جاء المعلم محسن وهو يوبخ المساجين علي قسوة قلوبهم وعدم تبرعهم لي بالدواء، وهب المساجين كل يدفع ما يستطيعه من صندوق الأمانات، ومع ذلك فلم يصلني أي دواء وعلمت فيما بعد بأن المعلم محسن كان يأخذ هذه الأدوية ويتاجر بـها في الخارج!
ويمكن سرد مجلدات من قصص المآسي المروعة التي كانت تحدث في وقت الزيارة، فبعد انقطاع أشهر طويلة بل وسنوات يسمح مدير السجن للأهالي برؤية ذويهم شريطة أن يدفعوا المبالغ اللازمة، وعندما يصل الأهالي لا يسمحون لهم برؤية أبنائهم أكثر من دقائق معدودة، وكانت النساء يتعرضن للإساءة والمهانة من قبل الحراس الذين لا يمكن اتقاء شرهم إلا بدفع المبالغ المجزية لهم، وقد أصيب أحد نزلاء المهجع واسمه خليل محسن بانهيار نفسي بعد زيارة أهله له، فقد كان والده المقعد يتوسل إلي الحراس أن يسمحوا له بتقبيل ابنه للمرة الأخيرة قبل أن يموت، ولم يسمحوا له بذلك بل جروا ولده الماثل أمامه من خلف الشبك إلي مهجعه.

- الإفراج

مرت خمسة أشهر في المهجع دون أن أقابل أحداً من المحققين، وفي أواسط شهر حزيران (يونيو) الماضي استدعيت إلي إدارة السجن وأخبرني المحقق بأن السفارة البريطانية قد تدخلت بقوة للإفراج عني وبأن السفير قد اتصل بهم عدة مرات وتحدث إلي مجلس الأمن القومي وضغط عليهم ليفرجوا عني ما دمت لم أرتكب أي مخالفة للقانون. غمرتني سعادة عارمة وهرعت إلي زملائي في المهجع وأخبرتهم الخبر

ففرحوا لي فرحاً شديداً وأخذ بعضهم في البكاء لقرب مغادرتي لـهم. وفي يوم الأربعاء 2001/6/20 استدعيت إلي الإدارة من جديد ولقيني محقق كبير في السن فتحدث معي بلطافة لم أعهدها، ودار بيننا الحوار التالي:

- ـ لا تكون زعلان علينا ؟
- ـ هلكتوني والله
- ـ وأنت لا تقول أنك مو غلطان !
- ـ وشو غلطي؟
- ـ ليش بتتعرف علي هيك أشكال؟ !!!
- ـ والله ما بعرفه
- ـ فقال بضجر: خلص ... خلص ... اليوم منطلعك، لا تخاف .
- ثم نزلت إلي المهجع، وقال لي الحرس: ضب غراضك ، وبعد ساعتين نادوا باسمي وأصعدوني مرة أخري، حيث بصمت علي مجموعة أوراق لا أدري ما هي، ورمي إلي مدير السجن جواز سفري وهوية زوجتي وحوالي 150 ليرة، وصرخ بالحراس بغيظ وكأنه قد انقطع رزقه بخروجي: ارموه بالتشميسة ، ثم وصلت السيارة التي ستقلني إلي الجوازات، وجاء السجان أحمد بوجه يختلف عن الذي عرفته به خلال الأشهر الماضية قائلاً بلطف:

شو هلال ... ما بدك تعطينا شي؟!

- فأجبته ما بقي عندي شيء
- فتفحصني إلي أخمص قدمي وقال بوقاحة منقطعة النظير: طيب هات هالساعة من إيدك لشوف ! فتمنعت عنه، ولم يغادرني حتى جاء أحد المحققين ليبلغني الرسالة الأخيرة، فأعلن لي بصوت مرتفع وبكل ثقة:
- إزا فتحت تـمك منعرف شلون نجيبك مرة تانية !!!

ثم غادرت السيارة إلي قسم الهجرة والجوازات، حيث أدخلت مقيداً إلي غرفة العميد وكان القنصل البريطاني وبعض أعضاء السفارة حاضرين، فسألتهم بحرقة: لماذا تأخرتم طوال هذا الوقت؟ فقال لي القنصل: كنا نبحث عنك ونسأل السلطات السورية، ولكنهم كانوا ينفون وجودك عندهم وأخرج لي ملفاً كبيراً فيه مراسلات تـثبت بأنهم كانوا مجتهدين في البحث عني، ثم طمأنني بأن زوجتي وأولادي قد غادروا إلي لندن.

لم أكن أعرف أن منظري كان مرعباً، ولم أدرك مقدار التغير الذي حل بي إلا عندما رأتني والدة زوجتي فسقطت مغشياً عليها في الشارع أمام الناس.
ولا بد أن أعترف بأنني لم أشعر بالأمان إلا عندما غادرت الطائرة مطار دمشق، وكان يتجاذبني حزن وفرح؛ أما الفرح فكان للقاء أطفالي الذين لم أرهم منذ حوالي سنة، وأما الحزن فكان للذين ذرفوا الدموع المحرقة عندما ودعوني في المهجع، فقد أمضينا أشهراً طويلة في السجن، ولم يكن أحد منا يعرف ما هي تـهمته وما هو مصيره. وكان آخر ما أوصوني به وأنا خارج من الزنزانة: أن أبلغ العالم بـمعاناتـهم وأستصرخ أصحاب الضمائر الحية ليعملوا علي رفع البلاء عن هؤلاء المظلومين.
ألا هل بلغت؟

[الشهادة الخامسة عشر]

واقعة أمنية سورية (المخابرات السورية تعتقل الشيخ حسين بن محفوظ (مواطن يمني) في عهد الطاغية بشار الأسد)

مجلة المجتمع العدد 1434 - 21شوال 1421هـ 16 / 1 / 2001م

واقعة أمنية سورية
بقلم: محمد الحسناوي (كاتب وأديب سوري)

منذ إلقاء الرئيس السوري بشار الأسد خطاب القسم، والناس - داخل سورية وخارجها - ينتظرون مرتسم هذه الوعود والأفكار التي أطلقها، هل تتحقق كلها أو بعضها، متى وكيف؟

يختلف المحللون في تقويم ما صدر عن الرئيس من مراسيم وإجرائات داخلية وخارجية، اقتصادية وسياسية. سبب الاختلاف يرجع في الحقيقة إلى عوامل غير الرغبة بالدعاية أو التهوين. منها قابلية الإجراء الواحد لأكثر من تفسير، مثل قرار إغلاق سجن المزة الشهير - وهو قرار متخذ منذ عهد الرئيس السابق، هذا التنفيذ للإغلاق هل يعد بداية نهج جديد في التعامل مع حقوق الإنسان، تصل إلى حد إلغاء حالة الطوارئ وإطلاق الحريات العامة، والتعددية السياسية، وتبييض السجون السياسية كلها، أم هو جزء من تسويق النظام لنفسه بإجرائات تحسينية انفتاحية محدودة محسوبة؟!

وإذا كانت هذه الإجراءات جزءاً من فتح صفحة جديدة في السياسة والاقتصاد والحريات والتعددية والتداول السلمي للسلطة ، فلماذا يغلب عليها البطء والتردد ونظام التقسيط أو (الجرعات)؟ وهل للحرس القديم، ومراكز القوى دور في (الفرملة) أو التقسيط أو حتى الإجهاض أو الإحباط؟

أيّاً كانت التفسيرات ، فلابد من تقويم الخطوات الإيجابية التي حصلت، والتشجيع على استكمالها، وطلب التأسيس عليها، وهذا لا يمنعنا من إبداء النقد للمظاهر السلبية أو لفت النظر إلى الأمور التي تستدعي المعالجة أو إعطاء الأولوية لمسائل محددة بعينها قبل غيرها حتى تتم معالجتها والسيطرة عليها، منها قضية ((حقوق الإنسان)) وهي قضية القضايا التي لا تتأخر ، ولا يمكن الانتظار طويلاً من أجل حلها وإزالة آثارها الكارثية .

وفي هذا السياق نعرض واقعة من الوقائع المذهلة ، تعين على الاستبصار ، وعلى تقدير حجم المشكلة، وعلى مدى خطورة آثارها المحلية والقومية والإنسانية والسياسية، وهي تذكرنا بأن كل ماقيل ويقال عن حقوق الإنسان عامة وفي سورية خاصة .. أقل من

حقيقة المعاناة الرهيبة التي يرزح تحت وطأتها المواطن أو الشقيق المعتقل سياسياً، وأقل من حقيقة الخروق والتجاوزات تتحدث عنها الأدبيات والجداول والقوائم التي تصدر عن أطراف المعارضة السورية أو المنظمات المختصة بالدفاع عن حقوق الإنسان لأن ((الحكي غير الشوف)) و ((الذي يأكل العصي ليس مثل الذي يعدها)).

اعتقال حسين بن محفوظ ((مواطن يمني))..

بتاريخ 26/6/2000م أي بعد وفاة الرئيس حافظ الأسد بستة عشر يوماً، وصل مواطن يمني من صنعاء على طائرة ((الخطوط الجوية السورية)) إلى ((دمشق)) اسمه الشيخ حسين بن محفوظ، وهذه هي زيارته الأولى للقطر السوري، ولعلها تكون الأخيرة، وفي مطار دمشق تقدم بجواز سفره للتأشير عليه بالدخول، فاستُدعي على حدة، ونُقل فوراً إلى حيث التحقيق معه في أحد أجهزة المخابرات .

سبب زيارة هذا المواطن اليمني هو العمل بنصيحة بعض الأصدقاء الذين أشاروا عليه بأن في سورية كتباً ومراجع علمية تفيده في تحضير رسالة الماجستير المُكلف بها .

لما طال غياب المواطن اليمني على أهله وعلى رواد مسجده - وهو خطيب ومدرس في أحد مساجد صنعاء - بدأ تململ ذويه وتساءلوا عن مصيره ، فتحرك نفر منهم، وقابلوا الشيخ عبد الله الأحمر ((رئيس مجلس الشورى اليمني)) بصفته وجهاً بارزاً من وجوه السياسة، وهو في الوقت نفسه ((شيخ مشايخ قبيلة حاشد)) التي ينتمي إليها المواطن اليمني المفقود .

طلب الوفد مساءلة القائم بالأعمال في السفارة السورية عن مصير قريبهم، فكان جواب الجهات السورية بعدم وجود حسين اليمني على الأراضي السورية! حينذاك طلب الشيخ عبد الله الأحمر من الوفد مراجعة سلطات مطار صنعاء للتأكد من الجهة التي ذهب إليها، فأكدت سلطات مطار صنعاء بأنه سافر إلى دمشق تحديداً وعلى الطائرة السورية منذ 35 يوماً، فما كان من أهل المواطن المفقود إلا أن حملوا الشيخ الأحمر تهديداً صريحاً إلى القائم بأعمال السفارة السورية ، مفاده: التهديد بإحراق السفارة السورية في

صنعاء أو قتل القائم بالأعمال السوري أو اعتراف المسؤولين السوريين بحقيقة مصير المواطن اليمني خلال مدة حددوها له.

رجع القائم بالأعمال السوري ثانية إلى السلطات المعنية في سورية وأبلغها حقيقة التهديدات وجديتها، فكان أن اعترفت الجهات الأمنية السورية بوجود المواطن اليمني ، ووعدت بالإفراج عنه بعد استكمال التحقيقات معه، وفعلاً تم إطلاق سراحه بعد 35 يوماً أخر قضاها في ضيافتها، وكان مجموع أيام الاعتقال 70 يوماً سعيداً .

ماذا جرى مع الأخ اليمني؟

من خلال اعتقال هذا المواطن اليمني الضيف وإطلاق سراحه.. رشحت بعض المعلومات الجديدة المفيدة عن سجون الرأي والسياسة في سورية .

1- سبب اعتقال الشيخ حسين بن محفوظ - وهو ليس من الإخوان المسلمين - هو أنه تناول في سلسلة خطب له في اليمن المذاهب الإسلامية الباطنية، وضرب مثلاً بإحدى الطوائف في سورية، فأدرج اسمه على الحاسوب في قائمة الأعداء المطلوبين، حتى جاء بنفسه إلى الفخ المنصوب، وليس يعفيه كونه مواطناً غير سوري، لكن بوسعه بعد اعتقاله أن يصحح مزاعمه، وأن يعطي صورة حسنة عن الجنة السورية.

كانت الأيام الأولى من اعتقال المواطن اليمني في زنزانة انفرادية يتعرض يومياً للتعذيب المبرح، أما النصف الثاني لمدة الاعتقال فقد قضاها في زنزانة جماعية طولها وعرضها 4 في 4 متراً تضم عشرين مواطناً سياسياً معتقلين في إحدى زنزانات سجن (فرع فلسطين).

2- هؤلاء السجناء السوريون الذين صادفهم المواطن اليمني، كلهم معتقلون حديثاً.

3- أحد المعتقلين في هذه الزنزانة كان صبياً عمره 12 سنة، ذنبه أنه متهم بتمزيق صورة المرشح لرئاسة الجمهورية الرئيس الحالي.

كان يطلب من الصبي المعتقل أن يعترف بأن والده هو الذي أمره بتمزيق صورة المرشح حتى يُطلَق سراحه، قال المواطن اليمني المعتقل للصبي: اعترف

لهم بأن أباك هو الذي حرّضك على ذلك، كي يُطلق سراحك، فما كان جواب الصبي إلا أن قال : إذا كنتُ أنا صبياً المتهم أتعرض لهذا العذاب، فكيف يكون حال أبي إذا اعترفت عليه؟!.

إذا كان الرئيس الجديد نفسه أمر - كما قيل - بإنزال الصور والتخلص من هذه المظاهر، فلماذا تعاقب الأجهزة الأمنية طفلاً حصل منه ما يوافق موقف الرئيس نفسه؟!.

[الشهادة السادسة عشر]

شهادة سجين جزائري حاول العبور للعراق للجهاد في سبيل الله
الفدائيون الجزائريون في بلاد الرافدين: يباعون في العراق، يُنكل بهم في سوريا ويُعتقلون في الجزائر؟!

نقلاً عن مجلة العصر
مراسلة خاصة من الجزائر

صورة أخرى من صور الخيانة تعلق نياشين المذلة والخضوع على صدور دعاة العروبة والقومية، ومشهد آخر من مشاهد الغدر. تجتمع في هذا الحوار المأساة مع "الدراما" لتخيط بيتا للعنكبوت (وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت) يروي تفاصيلها عائد من أرض "الميعاد"، ويتكلم بلغة الذي فقد كرامته وكبريائه بفقدانه إنسانيته....شاب كان يحلم في يوم من الأيام أن يكتب بدمه أروع مشاهد البطولة في بلد الخلافة. العصر ترجع بقرائها قليلا إلى الوراء لتجلي الحقائق وتميط اللثام عن سر حير عقول المتتبعين، وتستنطق لسان شاب جزائري كادت الأيادي الملوثة بالغدر والمخضبة بدماء المكر والخداع أن تسكته إلى الأبد، وهي إذ تنقل إليكم تفاصيل الأحداث المروعة التي تعرض لها هذا الشاب الجزائري، فهي تفتح نافذة أخرى للقراءة والتحليل. واعتذر المحاور عن ذكر اسمه.

العصر : كيف تخمرت في ذهنكم فكرة الذهاب إلى العراق للجهاد؟

** البدايات كانت وسط حالة الإحباط والشعور بالمذلة والهوان التي تسيطر على الأمة الإسلامية بسبب الهيمنة الأمريكية وحالة الخنوع التي ضربت أطنابها عمق المواقف العربية، وقد أخذ القرار في غمرة العدوان خاصة بعد اتفاق جمهور العلماء المسلمين على ضرورة الجهاد والمشاركة في دحر الغزاة.

العصر : هل اتخذت القرار فرديا أو في إطار مجموعة منظمة؟

** قرار الذهاب إلى العراق للجهاد أخذته فرديا دون مشاركة أحد ودون علم العائلة، وهذا لتجنب أي معوق يحول دون الوصول إلى الهدف الذي وضعته وهو تحقيق أمنية الجهاد.

العصر: الأكيد أن الوصول إلى العراق يمر بداية عبر إجراءات قانونية تتم من مكان الانطلاق، كيف كانت البداية مع السفارة العراقية بالجزائر؟

** تم الإتصال بسفارة العراق في الجزائر التي منحتني بدورها تأشيرة الدخول، مع كبير من الجزائريين الذين يقدر عددهم بـ 900 جزائري دون أن يعرف أحد منا الآخر، وكان أغلبيتهم حسبما رأيت لا يتعدى متوسط أعمارهم 30سنة، أما الذين غادروا معي أرض الوطن فعددهم 70 فرد.

العصر: هل كانت هناك إجراءات خاصة بالجزائريين الذين عقدوا العزم على الجهاد؟

** الذين يذهبون لغرض الجهاد لا تمنح لهم تأشيرة بل وثيقة خاصة عليها معلومات المتطوع والغرض من الذهاب.

العصر: كيف كان الاستقبال في مطار دمشق الدولي؟

** غادرنا باتجاه العراق، وحين نزولنا بمطار دمشق الدولي وجدنا في استقبالنا عراقيا وجزائريا، أوهمانا بأنهما متواجدين في مهمة إيصالنا إلى العراق دون أن تكون لنا معلومات عن هويتهما أو طبيعة عملهما، وقد تبين لنا فيما بعد بأنهما يظهران مالا يبطنان وهي بداية الخيانة في نظري، فقد قاما بابتزازنا، حيث أخذا منا كتكلفة للحافلة ما قيمته 2000 ليرة في الوقت الذي تقدر تكلفة الذهاب إلى الحدود العراقية 250 ليرة، وهذا باشتراط مسبق على أن توضع كل الوثائق في حوزتهما. لم نكن نحن الجزائريين فقط الذين تعرضنا للابتزاز بل كان برفقتنا تونسيين وليبيين ويمنيين، وفقط اليمنيون هم الذين تفطنوا لعملية الابتزاز، وقرروا تأجيل رحلتهم إلى العراق، أما نحن فسافرنا في الصباح الباكر في الحافلة التي اكتراها لنا الجزائري والعراقي، وبعد حوالي 20 كلم من دمشق غادرنا العراقي، ولم نفهم سبب مغادرته لنا، وواصلنا السير وبرفقتنا الجزائري إلى الحدود السورية في مكان يسمى "نقطة حدود"، بعد توقفنا توجه الجزائري الناطق باسمنا إلى حراس الحدود، ليرجع بعد دقيقتين ويخبرنا بأن الحدود مغلقة ولا يمكننا مواصلة الرحلة، عندها فقط تأكدنا من أن الجزائري لا يود في النهاية إلا الابتزاز.

العصر: هل يمكن أن تصف لنا أول لقاء مع الشرطة السورية، وماذا قررتم بعد إبلاغكم أن الحدود مغلوقة؟

** كانت رغبتنا كبيرة في الدخول إلى الأراضي العراقية والمشاركة في الجهاد، ولهذا قررنا البقاء في المركز الحدودي، فلجأنا إلى مسجد كان قريبا منا ومكثنا بداخله، وفي حدود منتصف الليل بدأنا نسمع أصوات الصواريخ والقنابل، وبدأت الأخبار تصلنا عن سقوط بغداد وتفاصيل الخيانة مع مجموعات المقاومين التي كانت تتوافد على المسجد من حين لآخر، فقد روى سوريان كانا في أرض المعركة عن المهازل التي حصلت وتفاصيل الخيانة التي جرت، حيث أكدا لنا تسليم الجيش

العراقي أسلحة مغشوشة للمتطوعين، ومساهمة مجموعات من الكويتيين والعراقيين في إيقاف المجموعات المتوجهة إلى بغداد.

العصر: هل تعتقدون حقيقة أن العراقيين ساهموا بشكل فعال في إسقاط بغداد وأن الخيانة كانت من عندهم؟

** ليس كل العراقيين بالطبع، بل أنا أؤكد أن "السنة" كانوا يبكون وهم يسمعون نبأ سقوط بغداد

العصر : بعدما علمتم أن الخيانة أصبحت مؤكدة، كيف كان موقفكم وماذا قررتم بعد ذلك؟

** قررنا الدخول رغم كل الصعاب، واتجهت مع جزائري آخر و سوريين وفلسطيني إلى مركز شرطة الحدود التي رفضت بدروها السماح لنا بالدخول إلى أراضي العراق، ومع ذلك فقد تغاضوا عن دخولنا بشكل غير رسمي ودلونا على طريق جانبي يسهل علينا عملية الدخول دون جلب الانظار، وهو ما حدث فعلا، فقد دخلنا عبر هذا الطريق الذي يأخذنا مباشرة إلى منطقة الحصيبة التي وجدناها خالية من السكان، وكأنها غير مأهولة، وفي حدود الساعة 11 صباحا، عادت إليها الحياة وكأن سكانها خرجوا من تحت الأرض، وعلى عكس ما كنا نتصور، فقد استقبلنا الأهالي بنظرات الحقد والكره وعدم الرضا حتى ظننا بأننا سنقتل على أيديهم، وأننا نحن الغزاة بدل الأمريكان، ذهبنا بعد ذلك إلى مسجد البلدة لنستريح قليلا، فوجدنا أفواجا أخرى من المقاتلين العرب داخل المسجد، وتأكدنا من أننا لسنا الوحيدين في هذا المكان، مكثنا داخله مدة ليدلنا بعد ذلك إمام المسجد على مسجد آخر يبعد حوالي 15 كلم والذي وجدناه كذلك آهلا بأعداد كبيرة من المقاتلين.. تعرفت داخل هذا المسجد بطالب عراقي، ومن خلال حديثي معه أكد لي بحسرة ممزوجة بالأسف والأسى أن الخيانة وقعت من طرف العراقيين وأن الجهاد أصبح في خبر كان، وطلب مني أن أرجع إلى وطني وأن لا أخوض مغامرة الدخول إلى بغداد.

العصر: هل بدأ التفكير في الرجوع أم أن الإصرار كان اكبر ؟

** لا أخفيك أنني شعرت بنوع من المقت على الذين خانوا وطنهم وباعوا القضية، لكن هذا لم يزدني إلا إصرارا على دخول بغداد خاصة وأن القصف بدأ يتوقف وسمعنا أن حرب العصابات بدأت في الشوارع، وأسررت إلى صديقي الطالب العراقي بذلك، وأكدت له أني سأذهب رغم كل الظروف، ونصحني للمرة الثانية أن أتراجع عن موقفي هذا، وليقنعني بوجهة نظره أخذني مع الجزائري الآخر إلى موقف السيارات التي كانت تعج بسائقي الأجرة، وحينما تقدمنا إلى أحد الناقلين وسألناه عن مبلغ أجرة الذهاب إلى بغداد طلب منا قيمة 250 دولار، على الرغم من أن المتكلم كان صاحبي العراقي، فقررنا بعد ذلك استعمال الحافلة التي كانت أجرتها أقل بكثير، وبعد اجتيازنا الـ 20كلم توقفت الحافلة، عندما رأى السائق قوات أمريكية على بعد أمتار، لينزل صديقي العراقي وطلب مني أن أمكث مكاننا ونراقب المشهد.

بعد دقيقتين من نزولنا شاهدنا عسكري عراقي يرتدي بدلة عسكرية ويسوق سيارة مدنية يتجه إلينا بسرعة البرق، ومن ورائه مجموعة من الكويتيين، فتكلم مع صديقي باللهجة العراقية وطلب منه معلومات حولنا، فأكد له أننا عراقيون نريد فقط الدخول إلى أحد البلدات المجاورة، هذا الحادث أكد لنا أن هناك تواطؤ بين بعض العسكريين العراقيين والكويتيين مع القوات الامريكية، وهو المشهد الذي جعلنا نصاب بحالة الذهول، وعلى الفور قررنا العودة أدراجنا، فرجعنا مباشرة إلى مسجد "الحصيبة"، أين لم نجد أحدا من الذين تركناهم، وأخذا بنصيحة إمام المسجد بضرورة المغادرة والعودة من حيث جئنا، فقررنا العودة إلى الحدود السورية، وأثناء السير وجدنا أنفسنا في قبضة قوات سورية، تقدّم إلينا قائد الفرقة طالبا منا وثائق إثبات الهوية، وبعد تأكده من هويتنا طلب منا أموالا مقابل ترك سبيلنا وكان المبلغ الذي طلبه منا 500 دولار، وهو الأمر الذي لم نقبل به ليس لكونه "رشوة" لكن لعدم توفره لدينا، فلم

يتوانى في أخذنا إلى مركز للاستخبارات وبه سجن عقابي وجدنا من بين نزلائه عدد كبير من الجزائريين، وفي تمييز ظاهر، يطلق المسجون بمجرد إظهاره الوثائق السورية دون مساءلة، أما المساجين من جنسيات أخرى فيعاملون وكأنهم أعداء لا أشقاء، أما أنا فلم أكن أعرف أنني بداخل سجن بمستوى هذه الخطورة، لولا أن أحد الأصدقاء السعوديين طلب من أحد الأعوان سجادة للصلاة، فانهال عليه السجان ضربا وأسمعه من أنواع السباب الممزوج بكلمات التطاول على الذات الإلهية، هنا انتبهت إلى حقيقة ما يدور حولي، بعدها تم تكبيلنا، وزجوا بنا داخل ناقلات ضيقة مغلقة النوافذ في حدود الساعة العاشرة ليلا، حيث سرنا ونحن مكدسين كالبهائم بداخل الناقلات المعززة بحراسة شديدة، وقد جردنا من كل وثائق تثبت هويتنا وكذا من أموالنا وممتلكاتنا، وتحت جنح الليل الدامس سرنا حوالي 100كم حتى استلمتنا قوات أخرى استخبارية، وكأني بها أرسلت خصيصا لاستقبالنا، يتقدمهم شخص في زي مدني طلب منا مباشرة أن لا نظهر " الكلبشات " التي تقيد أيدينا متى مررنا بأي حاجز من حواجز شرطة الحدود، وعلى هذا الحال سرنا حتى وجدنا أنفسنا داخل أسوار سجن آخر، وجردنا من كل ممتلكاتنا بما في ذلك هذه المرة الساعات والألبسة الخارجية والخواتم، وأذكر هنا حال ذلك الشخص الذي يستعين بنظارة طبية جرد منها وترك كالأعمى لا يقدر على الحراك، ووجدنا عددا من "النزلاء" كانوا كثيرين ولا أحد منا يعرف مصير الآخر.

قضينا الليل داخل هذا السجن نفترش الإسمنت الخشن، ونلتحف السقف، ولما أقض مضاجعنا الجوع طلبنا من حراس السجن بعض الأكل لكي نقتات به، فما أجابتنا إلا جدران الزنزانات، وهكذا بقينا على هذه الحال إلى وقت الظهر من يوم الجمعة ولم نكن ندري بالوقت لولا سماعنا آذان وخطبة صلاة الجمعة تنبعث من أحد المساجد المجاورة. في هذه الأثناء بدأت عملية تحقيق دقيقة كل واحد على حدة، وأخيرا جاء دوري وبدأت المساءلة، سألوني عن انتمائي الحزبي والسياسي وعن حزب البعث، فنفيت أي انتماء وأكدت لهم عدم انخراطي في السياسة، وأثبت لهم بالوثائق الرسمية بأني رياضي

ولا أهتم بالسياسة، سألني بإلحاح: لو خلينا سبيلك ماذا ستفعل؟.

فأجبت لن أتأخر في العودة إلى بلدي، وأعاد سؤالي بتبجح ممزوج بكثير من المكر، كيف أنتم الجزائريون تقتلون بعضكم البعض وتتدعون الدفاع عن العراق؟. في هذه الأثناء كانت الساعة الرابعة مساء، جيء لنا بطعام تعافه "الكلاب" قدّم لنا بطريقة ذكرتني بالأيام الخوالي التي كنت أقدم فيها العلف لأبقاري، كانوا يقسمون 1كغ من الخبز بين أربعة أشخاص أي أقل من 50غ خبز للفرد الواحد، هذا في جو يسوده الابتزاز والمزايدة في سعر شراء الخبز، ناهيك عن سرقة الممتلكات والأمتعة وحتى الأحذية لم تسلم، بعدها تقدم أحد أعوان الأمن، ليفك قيدنا ويترك سبيلنا، لم أصدق ما رأيت، وغادرت سريعا.

خرجت من السجن وتوجهت إلى أحد المواطنين يقطن البلدة، سألته عن اسم المكان فأجابني بأن المكان يدعى "دير الزور"، وأما مكان السجن، فهو "حي الجبل" وهما تابعان لمحافظة حلب، توجهت مسرعا إلى محطة نقل المسافرين، هنا أيضا طُلب مني جواز السفر ودون تفكير وجهني العون إلى مصلحة استخبارات وسئلت هناك عن سبب وجودي أنا ومن معي في هذا المكان ؟ كل منا نفى أن يكون قد قدم من العراق، وأكدنا أن قدومنا إلى سوريا كان بغرض السياحة، الشيء الذي شفع في إطلاق سراحنا، وقضينا الليلة في براري دمشق.

في اليوم الموالي توجهت إلى المطار لغرض الحجز في الطائرة والعودة إلى الجزائر أين وجدت جزائريين آخرين كنت قد رأيتهم بالسجن السابق، ومحجوزين بالمطار تذكرت صورة رجل كهل، هو الوحيد ممن عرفت، كان قد شارك في الحرب، حدثني عن فضاعة ما جرى لهم بالسجن المذكور من شرور الجوع والسرقة والشتائم. صديقي الذي كان برفقتي في رحلة الذهاب وجدته هو الآخر محجوزا بأرضية المطار وطلب مني أن أعمل شيئا حال وصولي إلى الجزائر والإبلاغ بما جرى له وللجزائريين الآخرين. وعدت وكلي ألم وحسرة ولن يهدأ لي بال، حتى أسعى في قضية الجزائريين ممن تركتهم رهن الحجز وفي السجونن،

ولعلمكم أيضا أنه في هذا اليوم تم توقيف ما يقارب 15عشر شخصا بالمطار أثناء عودتهم من سوريا إلى الجزائر.

العصر: لو منحت لكم فرصة أخرى للذود والدفاع عن الشعوب والبلدان الإسلامية، فهل ستلبي؟

**** ما رأيت في العراق دفعني إلى إعادة النظر في الكثير من قضايا التحرر التي يتحدث عنها العرب ودعاة القومية والوحدة العربية، وأقول هنا أنا على علم وواثق مما أقول، بأن الجزائريين الذين ذهبوا لنصرة الشعب العراقي هم من طينة الوطنيين المخلصين ولا أحد منهم ذهب لمساندة نظام أو الانتصار لحزب أو سياسة معينة، إنما هو الانتصار للشعب والبلد، واتهام هؤلاء بالإرهاب يعني غرس ثقافة الخيانة في ذهنية الشعوب وتهيئتها نفسيا لخيانة دولها وأنظمة حكمها!.**

مصارد الكتاب :

- موقع "أخبار الشرق" على شبكة الإنرنترنت .
- موقع "اللجنةالسورية لحقوق الإنسان" على شبكة الإنترنت .
- موقع "تدمر" على شبكة الإنترنت .
- موقع "النصيرية" على شبكة الإنترنت .

تم بحمد الله وتوفيقه